تاريخ
الأدب
العربى
٦

دكتور شوقى ضيف

عصر
الدول والإمارات

مصر - الشام



دار المعارف

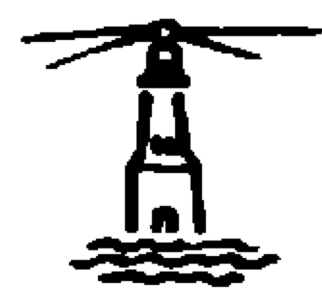
عصر
الدوَل والإمَارات
مصـــر - الشـــام

تاريخ
الأدب العربى
٦

عصر
الدول والإمارات

مصر - الشام

تأليف
الدكتور شوقى ضيف



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الجزء السادس من تاريخ الأدب العربى ، وهو خاص بمصر والشام فى عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث . ومعروف أن المؤرخين للأدب العربى كانوا يدخلون منه نحو ثلاثة قرون فى العصر العباسى الثانى تنتهى بسنة ٦٥٦ حين أغار المغول من الشرق على بغداد حاملين إليها معهم الجهل والوحشية مدمرين ما كان فيها من حضارة ومدنية . وسَمَّى هؤلاء المؤرخون القرون الثلاثة التالية باسم العصر المغولى ، وسموا فترة حكم العثمانيين لمصر والشام والبلدان العربية باسم العصر العثمانى .

وكل ذلك – كما ذكرنا فى الجزء الخامس السابق من تاريخ الأدب العربى – خطأ محض لأن سلطان الخلافة العباسية تداعت أركانه كما هو معروف منذ دخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤ إذ لم يعد لها سلطان حقيقى إلا على بغداد وأعمالها ، بل إن سلطانها فى بغداد نفسها كان سلطانا منقوصًا ، إذ كان السلطان الحقيقى فيها بيد حكامها من البويهيين ومَنْ خلفوهم من السلاجقة . وبذلك يكون خطأ بينًا الإبقاء على إدماج تلك القرون الثلاثة فى العصر العباسى ، ويكون واجبًا أن نبحث لها عن اسم لعصر جديد يظلُّها جميعًا ، ولا أدقَّ – فى رأينا – من الاسم الذى اقترحناه وهو عصر الدول والإمارات ، إذ كانت العراق وإيران فى مطلعه بيد البويهيين ، وخراسان فى يد السامانيين ، وطبرستان وجُرْجان فى يد الزياريين ، والبحرين والأحساء واليمامة فى يد القرامطة ، وأكثر عُمان بيد الخوارج ، وصنعاء وحضرموت بيد بنى يَعْفر وزَبيد بيد بنى زياد وصَعْدة بيد الزيدية وعدن بيد بنى معن بن زائدة ، والموصل وحلب بيد الحمدانيين ، ومصر والشام بيد الإخشيد ، والمغرب وإفريقيا بيد الفاطميين ، والأندلس بيد عبد الرحمن الناصر ، فقد تفككت الدولة العربية وأصبحت فى عصر جديد ، تقطعت فيه دولا وإمارات شتى .

وأضفت إلى هذا العصر : عصر الدول والإمارات القرون الثلاثة التالية بعد غزْو المغول

لبغداد ، إذ ظل العالم العربي حينذاك موزعا بين دول وإمارات متعددة . وكان المؤرخون للأدب العربي يسمون تلك القرون – كما أسلفنا – باسم العصر المغولى ، بينما سلطان المغول فيها لم يكن يتجاوز العراق وإيران ، ومن الخطأ الواضح أن نقول حينئذ إن مصر والشام والمغرب والأندلس كانت تعيش فى العصر المغولى ، بينما لم يكن لهم فى تلك الديار جميعا أى ظل . والصحيح أنها كانت تعيش فى عصر الدول والإمارات الذى بدأ سنة ٣٣٤ للهجرة وظل جناحاه مبسوطين على العالم العربي جميعه فى آسيا وإفريقيا والأندلس وامتد الجناحان حتى شملا العصر العثمانى ، ولم يكن عصرًا بالمعنى الصحيح إنما كان فترة مظلمة أطبقت دياجيرها على العالم العربي .

وينبغى أن لايتبادر إلى الأذهان – كما قلنا فى مقدمة الجزء الخامس السابق – أن طول هذا العصر وكثرة الدول والإمارات فيه دفعا إلى تقاطع روحى أو وجدانى أو ذهنى بين إماراته ودوله ، فقد كان بين شعوبها تواصل لاينقطع أشبه بتواصل ذوى الأرحام ، تواصل فى العادات والتقاليد والمعيشة والدين ، بل اتحاد فيها جميعا ، اتحاد فى الشعور واتحاد فى الفكر . واقرأ فى شعر أى دولة أو إمارة واقرنْه إلى شعر أى إمارة أو دولة أخرى فإنك ستشعر أنك لم تنتقل من بلد إلى بلد ولا من دار إلى دار ، وإن وجدت بعض الفروق فهى فروق طفيفة لاتحدث فواصل بين شعر الدارين أو البلدين . واستشعرَ أسلافنا ذلك فى عمق ، فكانوا إذا ألَّفوا كتابا فى الشعر ساقوا فيه شعراء العالم العربي جميعًا ، فقطعة شعرية عراقية بجانب قطعة إيرانية أو موصلية أو شامية أو مصرية أو مغربية ، وظلوا يصنعون ذلك حتى أواخر هذا العصر على نحو ماتجد عند الحموى فى « خزانة الأدب » وبهاء الدين العاملى فى « الكشكول » والخفاجى فى « ريحانة الألبّا » وكأنه جميعا شعر بلد واحد لم تختلف عليه أوطان ولاأزمان . وحتى إن سبق وطن إلى ضرب من التجديد سرعان ما تحاكيه فيه الأوطان الأخرى ، ونضرب مثلا بالأندلس فى سبقها إلى ابتكار الموشحات فإن الأوطان العربية الأخرى حاكتها فيها سريعا ، ولم تعد فنا خاصا بها . وأكثر من ذلك نجد الأندلس تبتكرها ولاتضع عروضها .. إنما تضعه مصر ، إذ يتجرد ابن سناء الملك لدراستها واستنباط قوانينها العروضية فى كتابه « دار الطراز » على نحو ما استنبط الخليل بن أحمد للشعر العربي قوانينه العروضية .

وهذا نفسه نلاحظه فى كل مايتصل بالدراسات الدينية واللغوية ، فليس هناك كتاب من الأمهات فى تلك الدراسات إلا تعاور عليه علماء البلدان العربية من هرَاة فى أفغانستان إلى قرطبة فى الأندلس يشرحون ويستنبطون ويعلقون عليه مرارًا وتكرارا ، واستشعر العلماء ذلك فى كل

دولة وإمارة أو قل فى كل بلد إلى أقصى حد ، فالعالم فى أىِّ فرع من فروع العلم لايؤلِّف فيه إلا بعد أن يقرأ كل ماسبقه علماء البلدان العربية فيه على اختلاف أمصارهم وأزمانهم ، وحتى إن هو عمد إلى التلخيص وكتابة متن موجز ، فإنه لايزال يومئ إلى آراء سابقيه ، ويتبعه الشارح لمتنه فيفسر ذلك تفسيرًا كافيًا ، ويتبعه بدوره شارح الشرح ، فيناقش المسائل فى أضواء غامرة لسابقيه . وبالمثل أفردوا كتبا لتراجم كل علم ، ورتبوهم على حروف المعجم لافرق بين علماء وطن وعلماء وطن آخر ، إذ استقر فى أذهانهم أنهم علماء وطن واحد لافرق بين إيرانى ومغربى ولا بين شامى وأندلسى . وعمدوا فى القرون المتأخرة لهذا العصر إلى جمع علماء العالم العربى وأدبائه فى كتب خاصة بكل قرن مرتبة ترتيبا أبجديا ، بحيث نستطيع أن نعرف فى كل قرن الحركتين الأدبية والعلمية فى كل بلد عربى . وكل ذلك معناه أن هذا العصر الطويل رغم أنه توزَّع بين دول وإمارات منفصلة سياسيا كانت تربط بين بلدانه وحدة فكرية وشعورية وروحية ، وحدة عريضة وعميقة إلى أبعد الحدود ، بحيث يصبح الشاعر فى قطر شاعرًا لجميع الأقطار ، والعالم فى قطر عالما لكل الأقطار مهما تباعدت الأقطار وتفاوتت الأزمان .

وقد بدأنا فى هذا الجزء بمصر وعرضنا حياتها السياسية على مر الحقب فى العصر وكيف تطورت من ولاية أموية وعباسية إلى دولة ذات كيان قوى إلى عاصمة للخلافة الفاطمية إلى حاضرة للأيوبيين والمماليك وما حققت فى زمنيهما من مجد حربى بدقِّها لأعناق الصليبيين والتتار . وظلت مصر تنعم بالرخاء والثراء إلى أن دهمتها كارثة الغزو العثمانى . وقد أوضحنا ماحمل إليها الفاطميون من المذهب الإسماعيلى الشيعى المتطرف وعزوفها عنه وإقبالها منذ القرن السابع الهجرى على التصوف .. وكانت الروح العلمية متقدة فيها من قديم ، وأخذت تزداد اتقادا واشتعالا منذ دخولها فى دين الله ، ومضت تنهض بدور علمى خصب ، مما جعل المغرب منذ القرن الثانى الهجرى يحمل عنها قراءة ورش للذكر الحكيم إلى اليوم ، وبالمثل يحمل عنها مذهب مالك فى الفقه ، ويحمل أبناؤها عن الشافعى مذهبه الفقهى وينشرونه فى الحجاز والشام والمشرق جميعه ، وتكتب السيرة النبوية الزكية وتُشيعها فى العالم العربى ، وتُنْجب ذا النون مؤسس التصوف الإسلامى . وتنشط بها — منذ زمن الدولة الطولونية — حركة أدبية وعلمية واسعة ، حتى ليؤلف الصولى كتابا عن شعرائها ، ويؤلف ابن الداية كتابا عن أطبائها ، ويؤلف ابن يونس الصدفى كتابا عن علمائها . وعنهم يحمل الأندلسيون فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى معجم العين للخليل بن أحمد فى اللغة وكتاب سيبويه فى النحو ، وأعدَّ ذلك الأندلسيين مبكرين لنهضة كبرى فى الدراسات

النحوية واللغوية . وينزل الفاطميون مصر ، ويبنون الجامع الأزهر بها ويؤسسون بها جامعة كبرى سميت دار العلم . ويؤسس بها صلاح الدين وأسرته الأيوبية والمماليك كثيرًا من المدارس ، وقد أصبحت مصر منذ أواخر أيام الفاطميين وفى عهد الأيوبيين والمماليك موئلا لعلماء صقلية حين غزاها النورمان وعلماء الأندلس حين أخذ الأسبان يغزونها وعلماء بغداد وغيرها من بلدان العراق وإيران حين غزاها التتار . ويظل لمصر بقية من هذه المنزلة بين البلاد العربية فى أيام العثمانيين بحيث لانغلو إذا قلنا إنها كانت طوال تلك الحقب ملاذا للحضارة العربية وحامية لكل ما اتصل بها من فكر وعلوم وآداب .

ومنذ أوائل هذا العصر – كما أسلفنا – يتكاثر علماؤها ، ويبرز من بينهم أعلام فى علوم الأوائل والجغرافيا وفى علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وعلوم القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقه والكلام والتاريخ . وينهض بها الشعر منذ الدولة الطولونية – كما أسلفنا – ويتكاثر أعلامه فى الشعر الدورى والرباعيات والموشحات ، وفى المديح ، وفى المراثى والشكوى ، وفى الدعوة الإسماعيلية ، وفى الغزل ، وفى الفخر ، والهجاء ، وفى وصف الطبيعة ومجالس اللهو فى المتنزهات والأندية ، وفى الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وفى الفكاهة ومايتصل بها من شعر شعبى .. وينهض النثر ويزدهر منذ العصر الفاطمى وتتكاثر أعلامه فى الرسائل الديوانية والشخصية ، وفى المقامات ، وفى المواعظ والابتهالات ، وفى كتب النوادر ، وفى كتب السير والقصص الشعبية . وكل ذلك عرضناه ، فى القسم الأول من هذا الجزء .

وفى القسم الثانى تحدثنا عن فتح العرب للشام ، واستعرضنا حياتها السياسية زمن الأمويين واتخاذهم دمشق عاصمة لهم ، وتحولها بعدهم إلى ولاية عباسية ، وانضواءها تحت لواء الدولتين الطولونية والإخشيدية ، وتبعيتها للدولة الفاطمية ماعدا حلب أيام الحمدانيين والمرداسيين ، وماحدث من استيلاء السلاجقة على دمشق وتراجع الفاطميين إلى فلسطين . ثم ما كان من نزول حملة الصليب بالشام وتأسيسهم لممالك بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية ، وكانوا قد أسسوا مملكة فى الرُّها فاستنقذها منهم عماد الدين زنكى وخلفه ابنه نور الدين على حلب وأخذ يسحق جموعهم سحقا فى غير معركة ، وضم إليه دمشق . وسرعان ما استولى صلاح الدين على الشام بعد وفاته وأخذ يوجه إلى الصليبيين ضربات قاصمة ، واستخلص منهم بيت المقدس وبلدانا شامية كثيرة . وأتمت أسرته والمماليك بعدها دفعهم عن ديار الشام إلى البحر المتوسط وماوراءه . وقهر المماليك التتار وملئوا الأرض عليهم هولا ورعبا ، وتظل الشام ومصر فى أيامهم دولة واحدة ، وتنتعش

حياة الشام الاقتصادية حتى إذا غزاها العثمانيون انتكست تلك الحياة . وكانت الفرق الشيعية تكثر بها من قديم ، وكان يكثر بها الزهاد والمتصوفة .

وكان بالشام تراث يونانى علمى وفلسفى ، وأخذت تنشط فيها بعد الفتح الإسلامى حركة علمية خصبة وكانت المدارس تكثر بها منذ أيام السلاجقة . وكان لها من قديم مشاركة فى حركة الترجمة وفى علوم الأوائل والجغرافيا ، وأخذ أعلامها يتكاثرون فى علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة وفى القراءات والتفسير والفقه والكلام والتاريخ والتراجم . وقد تعربت سريعا وأخذ الشعر ينشط فيها لزمن بنى أمية وبعدهم . وأخذ شعراؤها النابهون يتكاثرون فى الشعر الدورى والموشحات ، وفى المديح وفى الحكمة والفلسفة ، وفى التشيع ، وفى الغزل ، وفى الفخر والهجاء ، وفى الرثاء والشكوى ، وفى وصف الطبيعة ومجالس اللهو ، وفى الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وعُنى غير شاعر بالزجل والشعر الشعبى . وتنشط الكتابة الديوانية بالشام أيام الأيوبيين والمماليك ، ويشتهر بها غير كاتب ، وبالمثل الرسائل الشخصية والمقامات ، والمواعظ والابتهالات . وتتكاثر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل من مثل رسالة الغفران وكتاب الاعتبار لابن منقذ .

وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربى فى مصر والشام أثناء حقب طويلة تمتد من العصر العباسى الثانى إلى العصر الحديث جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت من المصادر والمراجع المتصلة بكتب التاريخ والتراجم وعلوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية فى مصر والشام ، وكذلك رجعت إلى كل ما استطعت من الشعر ودواوينه ومن الكتابات الأدبية فى القطرين . ورجعت إلى طائفة من كتب المُحْدَثين والمستشرقين . وأعترف بأن كتب الأسلاف غنية غنى وافرا بالنصوص التى تصور حياة الأدب فى مصر والشام ، ولا أزعم أنى صورت تلك الحياة تصويرا كاملا ، إنما حاولت ذلك جهدى وأرجو أن لا أكون قصرتُ . والله أسأل أن يلهمنى السَّداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل وهو حسبى ونعم الوكيل .

القاهرة فى أول أغسطس سنة ١٩٨٤ م .

شوقى ضيف

القسم الأول

مصر

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

فتح العرب لمصر والحقب الأولى(١)

(أ) فتح العرب لمصر

معروف أن مصر نهضت بأقدم دور فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، فعنها تلقت الأمم القديمة هندسة البناء كما تشهد بذلك أهراماتها الشامخة . كما تلقت عنها فكرة الكتابة ونقش الحروف ، وبذلك كان لها فضل كبير فى بث المعرفة ، وأعدَّها النِّيل لتكون أستاذة الأمم فى العناية بالزراعة وتنظيم الترع والجسور . وهى أول من حاول تأليف أمم الشرق الأوسط فى وحدة امتدت من الفرات إلى النيل ومن آسيا الصغرى إلى بلاد البُنْت والنُّوبة . ودار بها الزمن دورات ، فدخلها الرُّعاة الهكسوس والأشوريون ، وسرعان مازايلوها ، وغزاها الفرس فى عهد قمبيز عام ٥٢٥ ق . م ونزلها الإسكندر المقدونى عام ٣٣٣ ق . م وأسس بها مدينة الإسكندرية ، وأقام بها قائده بطليموس هو وأبناؤه دولة البطالمة الإغريقية متخذين الإسكندرية عاصمة لهم . وفى عام ٣١ للميلاد استولى عليها الرومان ، وثارت عليهم مصر مرارًا ، ودخلها الفرس وقاومتهم مصر والرومان ، ففارقوها سريعا ، وتسوء أحوالها سوءًا شديدًا ، فإن هرقل إمبراطور بيزنطة كان يضطهد مَنْ لايعتنقون مذهبه الملكانى المسيحى ، وكان المصريون يعاقبة ، يقولون بأن الله والمسيح

---

(١) انظر فى فتح مصر فتوح مصر لابن عبد الحكم وفتوح البلدان للبلاذرى وتاريخ الطبرى وابن الأثير والمغرب لابن سعيد قسم الفسطاط (طبع جامعة القاهرة) وخطط المقريزى (طبعة دار التحرير) ١ /٥٥١ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى : فواتح الجزء الأول ومروج الذهب للمسعودى وحسن المحاضرة السيوطى (طبعة عيسى البابى الحلبى) ١/ ١٠٦ وفتح العرب لمصر لبتلر (الترجمة العربية) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) طبع بيروت ١/ ٩٩ .

اتحدا فى طبيعة واحدة بينما كان الملكانية يرون أن للمسيح طبيعتين طبيعة لاهوتية روحية وطبيعة ناسوتية جسدية ، وعارض المصريون المذهب الملكانى البيزنطى معارضة شديدة ، ويعين هرقل قيرس (المقوقس) بطريقا للإسكندرية جامعا إلى سلطته الدينية السلطة الزمنية ، ويأخذ فى حمل المصريين على مذهبه الملكانى فيقاومونه مقاومة حادة ، ويعنف بهم وبرهبانهم ويثقل عليهم فى الضرائب . وبذلك يضيف إلى الغُلّ الدينى غلاً اقتصاديا .

وتقاوم مصر بكل ما استطاعت ، إذ كانت تعدُّ الدين مظهر استقلالها وحريتها وشخصيتها ولذلك اشتد سخطها على بيزنطة ، وبينما هى فى هذا السخط الحاد إذا العرب بقيادة عمرو بن العاص يقبلون من الشرق عام ١٩هـ / ٦٤٠ م ويستمرون فى زحفهم حتى حصن بابليون (بالقرب من ممفيس القديمة) ويطول حصارهم له ، فيغزو عمرو إقْليم الفيوم ويشدد الحصار على حصن بابليون ، ويضطر قيرس (المقوقس) إلى التسليم . ويتجه عمرو إلى الشمال الغربى ويستولى على الإسكندرية . ولم يكن يقاومه فى حصن بابليون والإسكندرية جميعا سوى الروم . وكأن المصريين وجدوا فيه وفى العرب مخلصا لهم ، إذ سرعان ماعرفوا أن الإسلام يكفل لهم حريتهم الدينية ولايمس كنائسهم ومعابدهم ، ولذلك لم يقاوموا هؤلاء الفاتحين إذ وجدوهم يردون لهم استقلالهم الدينى .

ودائما الدين فى مصر يوضع فوق السياسة والحكم وفوق كل شىء . وما كان ليعقل أن يحمل المصريون السلاح ويدافعوا عن الروم الذين يعتدون على مذهبهم الدينى وحريتهم الدينية ، حتى لقد فرَّ البطريق القبطى بنيامين وظل مختبئا حتى دخل العرب مصر وكفلوا للقبط معتقداتهم الدينية ، ورفعوا عن كواهلهم ما أبهظها من ضرائب الروم الفادحة . فكان طبيعيا أن يتعاون قبط مصر مع العرب وأن ينفضوا أيديهم من الروم ، ولذلك حين عاد أسطولهم إلى الإسكندرية واستولوا عليها لم يلقوا تأييدًا منهم ، وهزمهم العرب بقيادة عمرو بن العاص هزيمة ساحقة عام ٦٤٦ م /٢٥ هـ ومن بقى منهم ولىَّ فى البحر المتوسط إلى غير مآب . وبدأت من حينئذ مصر دورتها العربية الجديدة .

(ب) زمن الولاة[١]

أصبحت مصر ولاية تتبع الخلافة ، وكان أول ولاتها عمر وبن العاص الفاتح لها ، ولايزال باقيا من آثاره فى القاهرة مسجده الذى يحمل اسمه والذى بناه فى الفسطاط : موضع معسكره فى حصاره لحصن بابليون وتسمى منطقته الآن باسم مصر القديمة . وحين تم له طرد الروم من الإسكندرية بنى بها مسجد الرحمة . وكان ذلك إيذانا باستيلاء الإسلام عليها كما استولى على مصر من جميع أطرافها . وولى مصر فى عهد عثمان عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وكان عمرو بن العاص قد تغلغل فى إفريقيا الشمالية فتبعه يتغلغل فيها ، وفى سنة ٣٤ حاول الروم غزو الإسكندرية ، فغزاهم فى البحر ودمر سفنهم ، وتسمى الغزوة « ذات الصوارى » لكثرة مااجتمع فيها من السفن . ثم كانت الفتنة أيام عثمان رضوان الله عليه ، واختلف عليها ولاة لعلى رضى الله عنه ، ووليها عمرو بن العاص لمعاوية حتى توفى سنة ٤٣ وفى أيامه أرسل عقبة بن نافع فتغلغل فى إفريقية ، وكانت له فيها أيام ولاية عمرو بن العاص الأولى جولات بعيدة ، وستصبح له فيما بعد حين يولِّيه معاوية قيادة الفتوح فى المغرب جولات أكثر عمقا ، يختط فيها مدينة القيروان بالقرب من تونس الحالية .

وتولَّى مصر بعد عمر وبن العاص ابنه عبد الله أشهرا ، ثم عزله معاوية وولى عليها عقبة بن عامر الجهنى ، وأخذ الولاة فى أيام بنى أمية يتعاقبون عليها حتى بلغوا فى نحو تسعين عاما ثمانية وعشرين واليا ، إذ اتَّبع الأمويون فى ولاية مصر سنة تغيير الولاة ، وهى سنة سيئة ، إذكان الوالى يَقْدم وهو يعلم أنه معزولٌ عما قليل ، فكانت لاتهمه شئون مصر بمقدار ماتهمه شئون نفسه والعمل على اكتناز الثروة الضخمة قبل أن يتسلم كتاب العزل . وربما كان خير وال أموى تولى مصر حينئذ عبد العزيز بن مروان ، وقد امتدت ولايته من سنة ٦٥ حتى سنة ٨٦ واشتهر بما بَنَى فى حلوان من قصور وغرس من جنات وزروع وكان جوادا ممدَّحا ، وإليه شَدَّ الشعراء الرحال من الحجاز ونجد والعراق ، ويقال إنه كان له ألف جَفْنة (قِدْر) تُنْصَبُ كل يوم حول داره لإطعام

---

(١) انظر فى ولاة مصر زمن الأمويين والعباسيين كتاب الولاة والقضاة للكندى (طبعة جيست) والجزء الأول والثانى من النجوم الزاهرة وتاريخ الطبرى وابن الأثير وابن خلدون وخطط المقريزى ١ /٥٦١ وما بعدها وحسن المحاضرة ١ / ٥٧٨ ما بعدها .

الناس ، وكان له بجانبها مائة جفنة يطاف بها على القبائل . ولا ريب فى أن هذا الجود الفياض إنما كان على حساب الشعب ، ومايؤدى من ضرائب باهظة . وكان للولاة الأمويين فى فرض الضرائب الاستثنائية أفانين كثيرة ، وكانت الرعية تضجّ منها فى كل أقاليم الدولة .

ويظل هذا الظلم يزداد عسفا إلى أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩ فيأمر برفع الظلم عن رعيته وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية . وقد وجد الولاة يلزمون كل من أسلم من القبط وغيرهم من الموالى بالجزية ، كأنهم لايزالون على دينهم القديم ولم يدخلوا فى الإسلام ، معطلين بذلك أحكام الدين الحنيف ، فوقف كلَّ هذا الظلم ومايجرُّ إليه من فساد ومن تعطيل أوامر الدين ، من ذلك ماكتب به إلى حَيَّان بن شُرَيْح صاحب ديوان الجند والخراج فى مصر : « ضَعِ الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى يقول : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ويقول (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرِّمون ماحرَّم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) . ويبدو أن حيان بن شريح تلكأ فى تنفيذ أمر عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه غاضبا : « قد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبَّح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا »[1] .

واضطر حيان بن شريح أن يصدع لأمر عمر ، غير أن مدة خلافته كانت قصيرة ، إذ سرعان ماتوفى لأول سنة فى المائة الثانية ، فعاد ولاة بنى أمية إلى سيرتهم الأولى فى مصر وغير مصر ، ومضوا يعصرون القبط ، سواء منهم من أسلم ومن ظل على دينه . وبذلك نفهم انتقاض القبط على الوالى سنة ١٠٧ وكذلك بأخرة من أيام الأمويين ، فإن الولاة لم يكونوا يرعون فيهم مافرضه الإسلام من العدل وحرَّمه من الظلم والعسف . وظلت الفسطاط حاضرة الوالى الأموى منذ اختط عمرو بن العاص للناس منازلهم فيها ، ولاتزال آثارها باقية إلى اليوم . ويقول المؤرخون إن الدور فيها كانت تتألف أحيانا من ست طبقات أوسبع . ولما قدم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر منهزما وتبعه الجيش العباسى إلى الصحراء أمام مدينة الفسطاط أذن القواد للعسكر بالبناء حيث نزلوا ، فقامت ضاحية أو مدينة العسكر بجوار الفسطاط ، وكان ينزلها ولاة بنى العباس ، وتلقانا بعض انتقاضات للقبط حتى سنة ١٥٠ ثم لانعود نسمع عنها ، إنما تلقانا انتقاضات

---

(١) انظر فى هذه الرسالة وسابقتها خطط المقريزى ١/ ١٤٢ وما بعدها .

للعرب . وفى رأينا أن فى ذلك إشارة واضحة إلى ماتمّ فعلا من امتزاج بين الأقباط والعرب ، فإن كثيرين من القبط دخلوا فى الإسلام وكثيرين من العرب سكنوا القرى وزرعوا الأرض وامتزجوا بالقبط وأصبحوا يؤلفون أمة واحدة . وأول انتقاض يلقانا – للعرب – انتقاض دِحْية حفيد عبد العزيز بن مروان بالصعيد لسنة ١٦٥ وكان قد تولى موسى بن مصعب الموصلى فشدد فى استخراج أموال الخراج وضاعف مايُطْلَبُ من كل فدان وجعل خراجا على الأسواق والدواب وارتشى فى الأحكام فثارت عليه قيس واليمانية ، وانتهى أمره بقتله . وقُضى سريعا على ثورة دحية سنة ١٦٩ . ونظل نسمع عن انتقاضات فى الحوف الشرقى ، ويستغل الفرصة الجَرَوى فى تِنِّيس وبنو السَّرِىّ الذين استولوا حينا على مقاليد الأمور ، مما اضطر المأمون أن يسند إليهم الولاية على مصر من حين إلى حين . وتحدث فى هذه الأثناء ثورة الفقهاء فى قرطبة على الحكم الربضى الأمير الأموى ويأمرهم بمغادرة البلاد ، فينزلون الإسكندرية ويستولون عليها . ويرسل المأمون قائده عبد الله بن طاهر ، فيعيد الأمن إلى مصر لسنة ٢١٠ ويُخْرج منها الأندلسيين إلى جزيرة كريت ويستولون عليها . ويعود ابن طاهر فى سنة ٢١٢ وينتقض أهل الحوف مرارًا ، ويثور القبط ، ويضطر المأمون إلى القدوم بعسكره إلى مصر سنة ٢١٧ فيقضى على مابها من فتن . ويأمر واليه على مصر فى سنة ٢١٨ أن يأخذ الناس بمحنة خلق القرآن المشهورة . ويتولى بعد المأمون أخوه المعتصم فى نفس السنة المذكورة ويأمر بإسقاط العرب من الدواوين بمصر وغير مصر ، ومنذ هذا التاريخ يندمجون نهائيا فى أهل مصر من القبط ومن أسلم منهم . ويغزو الروم دمياط سنة ٢٣٨ وسرعان مايرحلون عنها إلى غير رجعة .

وربما كان أهم ماخلفه زمنُ الولاة أيام الدولة العباسية كثرةَ العناصر الفارسية التى دخلت مصر ، فقد كان الجيش الذى تعقب مروان بن محمد ، وبُنى له « العسكر » ، أكثره إن لم يكن كله من الفرس ، وظلت الجنود التى ترسل مع بعض الولاة أو للقضاء على بعض الانتقاضات والفتن فارسية فى جملتها ، وكان كثير ممن يسند إليهم الولاية بمصر فُرْسًا ، وبالمثل من كان يُسْنَدُ إليهم القضاء . وكل ذلك معناه أن العناصر الفارسية تكاثرت بمصر فى زمن العباسيين ، وكان لهم أسلاف قدماء جاءوا مع اليمنيين فى فتح مصر ، إذ كانت اليمن فى الجاهلية تابعة حينا للفرس فكان بها عناصر فارسية ، وقد دخلت فى الإسلام وشاركت اليمنيين فى رحلاتهم للفتوح . وبذلك كله نستطيع أن نفسر وجود نفر غير قليل يرجعون إلى أصول فارسية بين علماء مصر وفقهائها مثل الليث ابن سعد الفقيه المشهور وكذلك بين كتابها فى الدواوين .

(جـ) الطولونيون[١]

هم أول أسرة حكمت مصر حكما مستقلا ، وحقًّا كانت تتبع الخلافة العباسية ، غير أن تبعيتها لها كانتْ اسمية ، وزعيم هذه الأسرة ومؤسس دولتها أحمد بن طولون ، وهو تركى الأصل ، كان أبوه طولون من موالى المأمون والمقربين منه ، ورزق بابنه أحمد سنة ٢٢٠ فعنى بتربيته ، وبدأ بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه ، وأكب على حلقات العلماء وخاصة فقهاء الأحناف يتزود منها .
ومازال أبوه يخدم الخلفاء حتى توفى فى عهد المتوكل ، ففوَّض لأحمد ما كان لأبيه من الأعمال ، وولى بعض الثغور ، وكان شديد الإزراء على الترك فى معاملتهم السيئة للخلفاء ، ونال الحُظوة عند الخليفة المستعين ، وحاول الأتراك أن يدفعوه إلى المشاركة معهم فى مقتله فأبى ذلك . ولم تلبث مصر أن أُقْطعت لزوج أمه بايكباك ، فأنابه عنه فى حكمها سنة ٢٥٤ وسرعان ماأخذ يعمل على الاستقلال بها . وبدأ ذلك بأن جمع فى يده شئونها المالية بجانب شئونها الإدارية ، واتخذ جيشا ضخما بلغ عداده مائة ألف ، وفى أثناء ذلك ضُمَّتْ إلى حكمه الإسكندرية وبرقة ، ولانصل إلى سنة ٢٦٤ حتى تضم إليه الشام . وبلغ خراج مصر فى زمنه أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار ، مما جعله يتسع فى إقامة المبانى والمؤسسات . وكان قد سكن العسكر فى أول أمره شأن الولاة من قبله ، ثم أخذ فى بناء مدينته القطائع ، بادئا بقصره الكبير ثم بقطائع لجنده من الترك والنوبة والروم ولحواشيه من القواد وكبار الموظفين . وعُنى ببناء مسجده الكبير ، وبُنيت مساجد كثيرة وطواحين وحمامات وأفران وحوانيت . وجعل أمام قصره ميدانا كبيرًا يُلْعَبُ فيه بالكرة ، ولما عظم أمره كان يطعم الفقراء والمساكين كل يوم ، ويقال إن صدقاته كانت تبلغ فى السنة أكثر من مليونى دينار ، وبنى مارستانا ضخما ، واتخذ لنفسه ديوانا كبيرًا على شاكلة دواوين الخلافة . وحدثت خصومة بينه وبين الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد وقائده ، مما أدى إلى اشتباك جيوشهما . وعُنى فى دولته بأن ينقل إليها الأنظمة الفارسية التى كانت متبعة فى بغداد وسامراء . وأخذ البيعة من بعده لابنه خمارويه . ولم يلبث ابن طولون أن توفى سنة ٢٧٠ .

---

(١) انظر فى الطولونيين تاريخ الطبرى واليعقوبى وابن الأثير وابن خلدون والجزء الثالث من النجوم الزاهرة والمغرب لابن سعيد (طبع جامعة القاهرة) ص ٧٣ ومابعدها والولاة للكندى (طبعة صادر) ص ٢٣٩ ومابعدها وخطط المقريزى ١ / ٣٨٩ وسيرة أحمد بن طولون للبلوى (طبعة محمد كرد على) وراجع أحمد بن طولون وخمارويه والطولونيين فى دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠ .

وتبلغ دولة الطولونيين فى عهد خمارويه كل ما كان يؤمِّل لها من ازدهار . وتحدث فى أوائل حكمه مناوشات بين جيشه وعسكر الموفق ، وسرعان ماينعقد بينهما صلح وثيق . ويقال إن رواتب الجيش المصرى بلغت فى أيامه تسعمائة ألف دينار ، مما يدل على ضخم الجيش ومدى عنايته به . وفرغ بعد صلحه مع الموفق للعناية بشئون دولته ، وزاد فى قصر أبيه وحوَّل الميدان الذى كان أمامه بجوار مسجد أبيه إلى بستان رائع حمل إليه كل صنف من الشجر وأنواع الورود والرياحين والزعفران ، غير مااتخذ فيه من الفساقى والنافورات ، وسنعرض لذلك فى غير هذا الموضع ، ووسع إصطبلاته لكثرة دوابه وحيواناته الأليفة والوحشية . ويقول المؤرخون : كان من عجائب الدنيا فى زمنه عرض الخيل بمصر . وبلغ من مجده وعظم شأنه أن طلب الخليفة المعتضد منه فى سنة ٢٧٩ أن يزوِّجه ابنته قطر الندى ، وينوه المؤرخون بجهازها وما كان فيه من تحف وهدايا نفيسة ، ويقولون إن خمارويه بنى لها على رأس كل منزلة بين القطائع وبغداد قصرًا فُرش أروع فَرْش . ومع كل ما انتهى إليه من ملك مصر والشام ومع ما اشتهر به من الشجاعة والبأس قُدِّر له أن يقتل بأيدى غلمانه فى دمشق سنة ٢٨٢ . وأقام قواده بعده ابنين صغيرين له بادئين بأكبرهما « أبى الجيش » ولايدور العام حتى يخلعوه ، ويولوا أخاه هرون وكان ضعيفًا ، فلم يستطع لاهو ولا جيشه الصمود أمام القرامطة وشَغَبِ جيوشهم فى الشام ، مما جعل الدمشقيين يلتمسون من الخليفة المكتفى أن يغيثهم بجنده ويلبِّى استغاثتهم . ويُغْتال هرون سنة ٢٩٢ ويتولى بعده عمه شيبان الحكم اثنى عشر يوما إذ سرعان ما يَقْدمُ إلى مصر جيش الخلافة بقيادة محمد بن سليمان ، فيزيل حكم الطولونيين ، ويبكيهم الشعراء طويلا . وتعود مصر ثانية ولاية عباسية ، ويتعاقب عليها ولاة مختلفون من بغداد ، وتكثر فى عهدهم غارات الفاطميين من عاصمتهم المهدية بجوار القيروان على حدود مصر السفلى والعليا ، ويُدْحَرون مرارًا ، ويحجزهم إلى حين الإخشيدُ وأبناؤه .

(د) الإخشيديون[1]

الإخشيد هو محمد بن طُغْج بن جُفّ الفَرْغانى التركى خدم أبوه وجده الخلفاء العباسيين ، كما خدمهم بدوره ، ويقال إنه وُلد سنة ٢٦٨ ومازال يعمل فى خدمة الخلفاء وقوادهم حتى ولَّوْه

---

(١) انظر فى الإخشيديين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون والولاة للكندى ص ٣٠٤ ومابعدها والجزءين الثالث والرابع من النجوم الزاهرة والمغرب (قسم الفسطاط) ص١٤٨ ومابعدها وابن خلكان (طبعة دار صادر) فى تراجم الإخشيد وكافور وخطط المقريزى ١/ ٦١٧ ومروج الذهب للمسعودى ومصر فى عصر الإخشيديين للدكتورة سيدة كاشف ، وراجع مادة إخشيد فى دائرة المعارف الإسلامية .

الثغور ، ويلمع اسمه حين تولى مدينة الرملة بفلسطين سنة ٣١٦ ولم يلبث أن تولى دمشق سنة ٣١٨ وجاءته الكتب فى سنة ٣٢١ بولاية مصر غير أنه لم يدخلها ، وظل على دمشق حتى ولاه الخليفة الراضى مصر سنة ٣٢٣ وضم إليه البلاد الشامية والجزرية والحرمين . وفى سنة ٣٢٧ خلع عليه الراضى لقب الإخشيد ، وهو لقب ملوك فرغانة موطن أجداده ، وغلب اللقب على اسمه . وولى ابن رائق أمر دمشق ، فجمع جنده لحرب الإخشيد ، وتنشب الحرب ، وينعقد بينهما الصلح على أن يترك ابنُ رائق مدينة الرملة للإخشيد وتظل معه بقية الشام ، وسرعان مايتوفى وتعود ديار الشام جميعها إلى الاخشيد . وتقع وحشة بينه وبين سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب ويصطلحان على أن تكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص ، أما باقى بلاد الشام فتكون للإخشيد . ويأخذ البيعة من بعده لابنه أنوجور ويتوفى لآخر سنة ٣٣٤ . وكان حازما يقظا فى حروبه وتدبير شئون دولته مكرما لجنوده . ويقال إن جيشه كان يبلغ أربعمائة ألف ، وكان له ثمانية آلاف مملوك وكان يحرسه منهم فى كل ليلة ألفان . وكان أنوجور ابنه فى الرابعة عشرة من عمره حين ولى مصر وكانت ولايته اسمية ، أما الولاية الحقيقية فكانت لكافور كبير حاشية أبيه الذى اختاره وصيا عليه ، وكان عبدًا أسود خصيًّا ، واختلف – فيما يبدو – إلى حلقات العلماء ، واشتراه الإخشيد وأُعجب به فأعتقه ومازال يرقى به فى المناصب حتى أصبح من قواده . ولما توفى سيده نهض بشئون ابنه أنوجور على خير وجه ، وساس مملكته خير سياسة ، وكان الحاكم الحقيقى صاحب الأمر والنهى فى إقليمى الدولة الكبيرين : مصر والشام . وكان يدنى الشعراء ويكثر من عطائهم ، وزار مصر حينئذ المتنبى ، وله فيه مدائح وأهاج مشهورة .

ومازال كافور يدبر أمور الدولة لأنوجور حتى توفى سنة ٣٤٩ وأخذ البيعة من بعده لأخيه على وقام على دولته خير قيام حتى توفى سنة ٣٥٥ فاستقل بالأمر من هذا التاريخ واتخذ جعفر بن الفضل ابن الفرات وزيرًا له . وكان يُدْعَى له على المنابر فى مصر والشام ومكة والحجاز . وكانت تُقْرأ عنده ليلا السِّيَرُ وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وكان سيوسا ماهرًا ، من ذلك أنه كان يذعن بالطاعة للعباسيين وفى الوقت نفسه يهادى المعز الفاطمى صاحب المهدية والمغرب ويظهر ميله إليه خداعا . وكان على علم بالعربية ، وكان كريما معطاء . وكانت أيامه أيام هناءة ورخاء ، ولم يلبث أن توفى سنة ٣٥٧ فعقد أولياء الدولة الولاية لأحمد بن على بن الإخشيد ، وكان صبيا فى الحادية عشرة من عمره ، واضطربت الأحوال فى الشام اضطرابا شديدًا لغارات القرامطة هناك ، وعيَّنهم

فى الأرض فسادًا ، ولم تلبث جيوش المعز الفاطمى أن زحفت من الغرب بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٨ واستولت على البلاد وانقرضت الدولة الإخشيدية .

٢

الفاطميون – الأيوبيون

(١) الفاطميون[١]

تنتسب هذه الأسرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وقد تكونت حوله فرقة الإسماعيلية بينما تكونت حول أخيه موسى الكاظم الفرقة الاثنا عشرية ، وكانت الفرقتان تعيشان على التقية والدعوة سرًّا لأئمتهما العلويين من سلالة موسى وإسماعيل . وأتيح للإسماعيلية داع خطير هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسى من الأهواز ، وكان ملما بالفلسفة والملل والأديان ، فنظَّم الدعوة الإسماعيلية ووضع مبادئها الشيعية الغالية . وبارح موطنه إلى البصرة ثم إلى سَلَمْية بالقرب من اللاذقية فى الشام ، ومن هناك اتخذ دعاة للنحلة الإسماعيلية فى العراق وغير العراق ، مما هيأ لظهور القرامطة فى البحرين وجنوبى العراق ، كما هيأ لظهور داع إسماعيلى من جنوبى الجزيرة يسمى أبا عبد الله ، وتصادف أن التقى فى أثناء الحج بنفر من قبيلة كتامة المغربية ، فارتضوا دعوته الإسماعيلية وأمَّروه عليهم وسار معهم إلى موطنهم ، فجمع حوله منهم جيشا قضى به على الأغالبة حكام تونس سنة ٢٩٦ ويمضى إليه من سَلَمْية عبيد الله الفاطمى ويسلمه مقاليد الأمر ، وتدين له البلاد ، فيتلقب بالمهدى ويعلن نفسه خليفة شرعيا ، ويبنى عاصمة جديدة له بجوار القيروان يسميها المهدية نسبة إليه .

وكان القداح قد جعل أئمة الدعوة الإسماعيلية قسمين : أئمة حقيقيين مستورين أو مستقِرِّين ، وأئمة بجانبهم مستودَعين هم رءوس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك كان هو نفسه إماما

---

(١) انظر فى الفاطميين المنتظم لابن الجوزى وتاريخ مصر لابن ميسر وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) طبع دارالكتب واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزى وكتابه الخطط ٢ /٢١ ومابعدها وكتاب حسن المحاضرة والأجزاء:الثالث والرابع والخامس من النجوم الزاهرة لابن تَغْرى بَرْدى وابن خلكان فى تراجم الخلفاء وجوهر الصقلى والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى والنكت العصرية لعمارة اليمنى وصبح الأعشى فى مواضع متفرقة والفاطميون فى مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز .

مستودَعا ، ومن هنا جاء الشك فى نسب عبيد الله وأبنائه الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء ، فقيل إنه فاطمى حقيقة وأنه ابن أئمة مستورين هم على الترتيب التقى والوفى والرضى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وإنما استتروا خوفا على أنفسهم من العباسيين ، وأسماء الأولين على الترتيب الحسين وأحمد وعبيد الله ، وقيل بل هو غير فاطمى من أبناء القداح الإمام المستودَع أو أحفاده . ومما شكَّك فى هذا النسب المحضر الذى كتبه الخليفة القادر العباسى سنة ٤٠٢ بشهادة القضاة والأشراف العلويين بالطعن فى نسب الفاطميين . وقد رفض ابن خلدون فى تاريخه هذا الطعن ومايطوى فيه من شك فى نسب عبيد الله وأسرته الفاطمية وجزم بصحة نسبه إلى على رضوان الله عليه والسيدة فاطمة الزهراء .

ويتسع سلطان عبيد الله فى المغرب ، ويضم إلى سلطانه ليبيا والجزائر ، وتَشُنُّ عساكره غارات على مصر ، ويتوفَّى سنة ٣٢٢ فيخلفه ابنه القائم وتستولى جنوده على المغرب ، ويثور عليه الخوارج فى جبل أوراس ثورة عنيفة ، ويتوفى سنة ٣٣٤ ويخلفه ابنه المنصور فيقضى نهائيا على ثورة الخوارج ، ويتوفى سنة ٣٤١ فيعتلى ابنه المعز عرش الخلافة الفاطمية ، وتدين له المغرب بالولاء ماعدا سجِلْماسة وفاس ويفتتحهما قائده جوهر الصقلى ويمهد له البلدان المغربية حتى المحيط الأطلسى ماعدا مدينة سَبْتة ، فإنها ظلت لبنى أمية أصحاب الأندلس .

وكانت عين المعز على مصر ، فلما وصله الخبر بموت كافور وشعر كأنما انهار السد الذى كان يحول بينه وبين الاستيلاء عليها أمر قائده جوهرا بالاستعداد لفتحها ، وجهَّزه بأكثر من مائة ألف فارس وبكل مايلزمه من المال والسلاح . ولم يكد يشرف على الإسكندرية حتى لقيته جماعة من المصريين برسالة من الوزير جعفر بن الفرات بطلب الصلح والأمان . وتقدم جوهر حتى وصل بعسكره إلى الجيزة ودخل الفسطاط والبر الشرقى بجيشه دون مقاومة تذكر من الإخشيدية والكافورية . ونزل بالقرب من الجامع الأزهر ، وأخذ تَوًّا يختط مدينة القاهرة . وكتب جوهر إلى المعز يبشره بالفتح ، وقطع الخطبة لبنى العباس ولُبس السواد شعارهم ، وأمر أن يلْبس الخطباء البياض وأن يقال فى الخطبة : « اللهم صَلِّ على محمد المصطفى وعلى علىٍّ المرتضى وعلى فاطمةَ البَتُول وعلى الحسن والحسين سِبْطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرِّجْسَ وطهَّرهم تطهيرا وصَلِّ على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » . وأخذ جوهر فى بناء الجامع الأزهر واستغرق ذلك ثلاث سنين . واختط قصر الخلافة ، وحفر أساسه فى أول ليلة نزل فيها بالقاهرة ، واختطَّت

كل قبيلة – خِطة عُرِفت بها وبنيت حاراتها من يومئذ ، من مثل حارة الروم والحسينية والخرشتف . ولم يلبث أن ضم الشام إلى مصر سنة ٣٥٩ وخطب للمعز فيها وفى الحرمين . وفى نفس السنة = ٣٥٩ أُمر المؤذنون أن يؤذنوا بحَيَّ على خير العمل . وظل جوهر مستقلا بتدبير مصر والشام أربع سنين وعشرين يوما إلى أن وصل المعز سنة ٣٦٢ وكان عاقلا حازما أديبا ، وتروى له بعض أشعار ، وهو يُعدّ المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية ، ولم تبق بلد من الشام إلى فاس والمحيط الأطلسى إلا أُقيمت فيه دعوته وخُطب له فى جمعته وجماعته إلا «سَبْتة» فإنها كانت مع الأمويين أصحاب قرطبة كما ذكرنا . ولما استقرت له الأمور بمصر استخلف على إفريقية يوسف بُلُكِّين بن زيرى الصِّنهاجى . واستمر جوهر فى علو منزلته إلى سنة ٣٦٤ إذ رأى المعز أن يعزله عن دواوين مصر وجباية أموالها ، ورد إليه العزيز مكانته حتى وفاته سنة ٣٨١ .

وتوفِّى المعز سنة ٣٦٥ بعد أن وطَّد الملك العظيم لأبنائه وأحفاده يتوارثونه نحو مائتى عام ، وخلفه ابنه العزيز نزار ، وكان كريما شجاعا ، يعفو عند المقدرة محبا للصيد وخاصة صيد السباع ، وكان ينظم الشعر لكن لايبلغ فيه مبلغ أخيه تميم . واتسعت مملكته بالقياس إلى مملكة أبيه ففتحت له بقية بلاد الشام : حمص وحماة وشَيْزر وحلب ، وخُطب له بالموصل وباليمن . وعهد إلى غير وزير بتدبير مملكته ، منهم يعقوب بن كِلِّس وكان يهوديا وأسلم . وبنى قصر البحر ، ولم يكن له مثيل شرقا ولا غربا ، وقصر الذهب . وقال ابن الجوزى إنه ولَّى عيسى بن نسطوروس النصرانى ومنشا اليهودى فكتبت إليه سيدة مصرية بالذى أعزَّ اليهود بمنشا والنصارى بابن نسطوروس وأذلَّ المسلمين بك إلا نظرت فى أمرى ، فقبض عليهما وأخذ من ابن نسطوروس ثلاثمائة ألف دينار . ويُرْوَى أنه كان يقول : «أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى» .

ومازال العزيز رفيقا برعيته حتى توفى سنة ٣٨٦ وخلفه ابنه الحاكم ، وكان فى الحادية عشرة من عمره ولم يكن سَوِىَّ العقل ولا النفس ، فاضطرب سلوكه واضطرب حكمه بين جبن وشجاعة وبخل وسخاء ، وتارة يجلس فى الشمع ليلا ونهارا ، وتارة يجلس فى الظلام الدامس ، وحينا يحبّ العلماء والصلحاء ، وحينا يفتك بهم فى غير رحمة ، وقتل كثيرين من قادة دولته وأصحاب مناصبها الرفيعة . وتارة يأمر بأن يُكتَب على المساجد والجوامع سبَّ أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وتارة ينهى عن ذلك . وتارة يمنع من صلاة التراويح

وتارة يبيحها ، وكان ينهى عن بعض المأكولات مثل الملوخيا والترمس والجرجير والسمك لا قشر له والزبيب . وحرَّم الخمر وشدَّد فى تحريمها ، ورأى لذلك منع بيع العنب وقطع كرومها ، وأراق فى النيل خمسة آلاف جرَّة عسل خشية أن تصير نبيذا . وفى سنة ٤٠٤ منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع لذلك الأساكفة من صنع الأحذية والخفاف لهن وظل ذلك حتى نهاية حكمه . وحرَّم – فيما حرَّم – الغناء ولعب الشطرنج والنزهة على ضفاف النيل ، إلى غير ذلك مما يصور خبله وشذوذه وفساد عقله . وكان دعاة عقيدته الإسماعيلية لايزالون يُشيعون – مستضيئين بنظرية الفيض الأفلاطونية – أن للإمام الفاطمى نسبتين نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة ، مما أدى بالحاكم إلى أن يظن أنه تجسد للذات الإلهية وأغراه بذلك دعاته ، وفى مقدمتهم داع دُرْزى من جبال لبنان ، ويقال بل هو أعجمى دَعَا فى تلك الجبال بربوبيته وتبعه الناس هناك . وانسابت من هذه العقيدة عقيدة التجسد للذات الإلهية شعبة إلىالنُّصَيْرية فى سوريا ، إذ يؤمنون بربوبية على بن أبى طالب . ولما لم يعد فى قوس الصبر منزع حيكت مؤامرة لقتله وتخليص البلاد من شره وخَبله ، فقتل فى شوال من سنة ٤١١ ويقال إن أخته ست الملك هى التى دبَّرت قتله .

وولى الخلافة الفاطمية بعد الحاكم ابنه الظاهر ، وله ست عشرة سنة ، وقامت عمته ست الملك بتدبير دولته أحسن قيام وبذلت الأموال الكثيرة فى الجند وساست الناس سياسة حسنة ، واستقام الأمر للظاهر ، وعدل فى الرعية ، وأعلن البراءة من عقيدة النُّصَيْرية والدُّرْزِيَّة جميعا . وحوالى سنة ٤٢٠ خرج عليه صالح بن مرداس الكلابى واستولى على حلب ، كما خرج حسان بن المفرج البدوى والى مدينة الرَّمْلة وتغلب على أكثر الشام ، وجمع هو وصالح بن مرداس الجموع لحرب الظاهر ولقيتها جيوشه عند غزة ، فانهزم حسان وقتل صالح ، وعادت الشام إلى الطاعة . وبنى الظاهر قصر اللؤلؤة وكان جوادًا سمحا حليما محبًّا للرعية .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ وخلفه ابنه المستنصر وهو فى السابعة من عمره ، وظل فى الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر ، واستوزر كثيرين كان من بينهم صدقة بن يوسف الفلاحى استوزره سنة ٤٣٦ ، وكان يدبِّر له الدولة أبو سعد التسترى اليهودى ، وقُتلا فى سنة ٤٣٩ . ويؤسس محمد بن على الصليحى دولته الصليحية فى اليمن ويعلن ولاءه للمستنصر ، ويدعو له على المنابر هناك ، ونتقدم حتى سنة ٤٤٣ وإذا المعز بن باديس يعلن العصيان فى المغرب ، ويقطع الخطبة للمستنصر ويخطب لبنى العباس ، وبذلك تخرج المغرب من طاعة الفاطميين . وما توافى سنة ٤٥٠ حتى يعظم شأن

أرسلان البساسيرى فى بغداد فيقطع خطبة الخليفة العباسى فى عاصمته ويخطب للمستنصر ويدعو له على المنابر نحو عام إلى أن قَضَى عليه وعلى فتنته أو دعوته السلطان طُغْرُلْبَك السلجوقى . ويحدث فى أيام المستنصر غلاء عظيم تظل مصر تعانيه سبع سنوات كسنى يوسف المهلكة ، بدأت فى سنة ٤٥٧ وظلت حتى سنة ٤٦٤ وفيها اشتد القحط بالبلاد واستولى عليها الخراب والوباء وكان الناس إذا مشوا تساقطوا فى الطرقات من الجوع ، ويقال إن الرغيف بيع بخمسين دينارا وإن البيضة بيعت بدينار وتوجهت أم المستنصر وبناتها فى سنة ٤٦٢ إلى بغداد من فرط الجوع . وزاد طين هذا الغلاء بِلّةً نشوب حرب فى الجيش بين الترك والسودان ، وكادت لاتبقى فى قصر الخليفة تحفة نفيسة إلا بيعت بأرخص الأثمان . وبدا من الصعب إنقاذ مصر من كل هذا البلاء لولا أن استنجد المستنصر فى سنة ٤٦٨ ببدر الجمالى ، وكان قد تولى الشام والسواحل للمستنصر ، فاستدعاه وفوَّض الأمور إليه ، فاستقامت بحسن تدبيره وهدأت الفتن وأصبح الحكم والأمر كله له وليس للمستنصر إلا الاسم ومات قبله بأشهر ، فعهد إلى ابنه الأفضل بالقيام مكانه ، ويتلقب شاهنشاه أو ملك الملوك ولايلبث المستنصر أن يتوفى سنة ٤٨٧.ويقال إنه قد عهد من بعده إلى ابنه الأكبر نزار ، غير أن الأفضل الجمالى كان يكرهه ، فلما اجتمع الأمراء والخواص بعد وفاة المستنصر حبَّبهم فى أن يخلفه ابنه أحمد ، فبايعوه بالخلافة وجعلوا أو جعل الأفضل لقبه المستعلى . وأحدث ذلك انقساما بين إسماعيلية مصر وإسماعيلية إيران فبينما كان الأولون يعترفون بإمامة المستعلى كان الأخيرون لايعترفون بإمامته إنما يعترفون بإمامة نزار ويرون أن سلالته هم الأئمة الحقيقيون ، وحاول نزار أن يسترد الخلافة فثار بالإسكندرية وقضى الأفضل على ثورته . ولايزال هذا الخلاف قائما بين الإسماعيلية فى الهند إلى اليوم ، فالبُهْرة مستعلية وشيعة أغاخان نزارية . ولم يكن للمستعلى مع الأفضل حكم ، كما كان حال أبيه المستنصر مع بدر الجمالى ، وظل ذلك حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطمية ، فقد أصبح الخلفاء الفاطميون وراء الحجاب ولا أمر لهم ولانهى إلا أن يخرجوا فى مواكب أول العام الهجرى ولصلاة الجمعة فى رمضان وصلاة العيدين .

ولعل الحكم الوراثى لم يتضح شره ولاعواقبه الوخيمة كما اتضح فى عهد الفاطميين بمصر ، فقد كان الخليفة الثالث وهو الحاكم – مجنونًا أو مخبولا ، وتولى المستنصر وهو فى السابعة من عمره كما مرَّ بنا ، وكأنما جِيء بالخلافة أرجوحة للصبى ، وتوفى المستعلى سريعا سنة ٤٩٥ فأقام الأفضل ابنه الآمر مقامه وهو فى الخامسة من عمره ، والبلاد فى أشد الحاجة إلى حاكم حازم ، فالسلاجقة

يستولون على كثير من مدن الشام وماتلبث طامَّة الصليبيين أن تجثم على ديار الشام والموصل ، وتتعاقب الكوارث والخطوب منذ سنة ٤٩٠ إذ تقدم جموعهم من آسيا الصغرى ، ويتسلل بلدوين إلى الرُّها بالموصل ويستولى عليها ويكون بها أولى إماراتهم واستولت جموع أخرى على أنطاكية وكوَّنوا بها إمارتهم الصليبية الثانية . ويأخذون المعرَّة فى سنة ٤٩٢ ويستولى جودفرى فى نفس السنة على بيت المقدس وتكون بها إمارتهم الصليبية الثالثة ويستولى ريموند على طرابلس سنة ٥٠٢ وتكون بها إمارتهم الصليبية الرابعة ، ويستولون على مدن لبنان وكثير من مدن فلسطين مثل الرملة وعكا ، ولايبقى لمصر فى الشام سوى عسقلان . وكل ذلك يحدث والأفضل سادر فى غفلته والجيش المصرى غائب عن حِماه إلا بعض تجريدات برية وبحرية لاتغنى شيئا . ويُقْتَلُ الأفضل سنة ٥١٥ ويُقْتَل الخليفة الآمر سنة ٥٢٤ ويتولى عرش الخلافة الحافظ ، ويستوزر أحمد بن الأفضل الجمالى وكان هو وأبوه وجده سنيين ، فيأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا فى خطبهم للحافظ كما يأمر المؤذنين أن يسقطوا من أذانهم « حَيَّ على خير العمل » أحد شعارات الفاطميين ، وكأنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، غير أن أنصارها من حواشيها وشيعتها أسرعوا فقتلوه . ويتولى الخلافة بعد الحافظ ابنه الظافر سنة ٥٤٤ ولايلبث أن يتوفَّى فيخلفه ابنه الفائز وهو فى الخامسة من عمره سنة ٥٤٩ ويتوفى سنة ٥٥٥ فيخلفه العاضد آخر خلفائهم وهو فى الحادية عشرة من عمره . وكأن الخلافة أصبحت أرجوحة حقيقية للصبية والغلمان ، ونظل نرى مع كل خليفة وزراء ، وغالبا يسقطون مقتولين . ولم يكن لكل منهم من شاغل سوى أن يجمع أكثر مايمكن من الأموال لنفسه ، مُثْقِلا فى أثناء ذلك على المصريين بالضرائب الفادحة ، بينما يعيش هو ومن وراءه من الخلفاء للهو والقصف .

وتَفْسد فى أثناء ذلك التدهور والانحلال أداة الحكم فى مصر فسادا شديدا . ومع ذلك لاتزال ترسل إلى الشام بعض تجريدات ذرًّا للرماد فى العيون ، وحتى عسقلان يحتلها الصليبيون ويطمحون إلى احتلال وادى النيل . وبأخرة من أيام هذه الدولة يَقتتل ضرغام وشاوَر على الوزارة ويفزع شاور إلى البطل المغوار نور الدين صاحب حلب مستنجدًا به ويهجم حينئذ أملريك الصليبى صاحب بيت المقدس على مصر ويتقدم حتى بلبيس ، ويقطع المصريون عليه الجسور والسدود فيضطر إلى العودة . ويقدم سنة ٥٥٩ شاور ومعه عساكر نور الدين بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويمكِّنان لشاور فى الوزارة ، وسرعان مايقلب ظهر المجن لشيركوه وجنوده .

ويدفعه شيطانه إلى الاستعانة ضده بأملريك والصليبيين ، ويحاصرون شيركوه فى بلبيس يضطرون إلى رفع الحصار عائدين إلى بيت المقدس . ويخرج شيركوه من مصر ، فيعظم بغى شاور وطغيانه ، فيستنجد العاضد بنور الدين سنة ٥٦٢ ، ويرسل ثانية شيركوه وصلاح الدين ، فيستنجد شاور بأملريك ، ويلبِّيه ، وتدور عليه الدوائر ، ويخرج على وجهه هو وجنوده من القاهرة ، ويخرج أيضا شيركوه وصلاح الدين إلى الشام . ولا يلبث الصليبيون أن يعودوا لامتلاك مصر ويقدم أسطول صليبى إلى تنِّيس ويعظم الخطب . ويستصرخ العاضد وشاور نور الدين ، فيرسل إليهما عسكرًا بقيادة شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٤ ويستنقذان مصر من الصليبيين وشاور جميعا . ويتولى شيركوه الوزارة للعاضد شهورا ، ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، ويكتب إليه نور الدين مرارًا يأمره بتحويل الخلافة فى مصر من الفاطميين إلى العباسيين . وتصادف أن مرض العاضد مرض الوفاة ، وفى أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين ، فأقام الخطبة لبنى العباس فى أول المحرم سنة ٥٦٧ ولم تمض إلا أيام حتى توفى العاضد فى يوم عاشوراء . وبذلك انتهى أمر الفاطميين وحكمهم للديار المصرية .

(ب)الأيوبيون[١] (صلاح الدين)

اتفق المؤرخون على أن الأيوبيين أسرة كردية أصلها من بلدة دُوِين فى آخر إقليم أذربيجان وبها ولد شاذى جد صلاح الدين وأبوه أيوب وعمه شيركوه ، وقد هاجروا منها إلى بغداد ، ولم يلبث أيوب أن أصبح حافظا لقلعة تكريت ، والتحق شيركوه بعماد الدين زنكى ، وتحول أيوب إلى العمل مع حاكم دمشق ، بينما ظل شيركوه عند زنكى ولما توفى عمل مع ابنه نور الدين وحدث أن حاصر عسكر نور الدين دمشق بقيادة شيركوه بينما كان أخوه أيوب على رأس حاميتها ، واتفق الأخوان على تسليمها لنور الدين ، فعين أيوب حاكما عليها ، وأقطع شيركوه حمصا ، وقربه منه . فلما استنجد شاور والعاضد بنور الدين أرسل إليهما عسكرًا بقيادة شيركوه

---

(١) انظر فى الأيوبيين وصلاح الدين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبى شامة وخطط المقريزى والسلوك الجزء الأول ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى والجزءين السادس والسابع من النجوم الزاهرة وبدائع الزهور لابن إياس وسيرة صلاح الدين لابن شداد والفيح القسى فى الفتح القدسى والبرق الشامى للعماد الأصبهانى وابن خلكان فى تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ماكتب عن صلاح الدين والحروب الصليبية حديثا فى العربية واللغات الأجنبية .

وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب ، وتطورت الظروف كما مرَّ بنا ، فقضى صلاح الدين نهائيا على الدولة الفاطمية ، وردَّ مصر إلى الخلافة العباسية ، واستولى على قصر الفاطميين وما كان به من أموال وكنوز . وجَدَّ فى إصلاح أحوال مصر ، فحطَّ عن كواهل المصريين أثقال الضرائب الباهظة التى كان يتنافس وزراء الفاطميين فى فرضها ، وبذَل الأموال ، وملك قلوب الرجال ، وطمحت نفسه إلى أن يصبح واليًا للخلافة العباسية بمصر ، إذ نراه يلمِّح فى الرسالة التى كتب بها إلى وزير بغداد ، ينبئه فيها بإزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية ، إلى ما يدور بخلده قائلا عن نفسه : « إنه مفتقر إلى أن . . يقلَّد ما فتح ، ويبلغ ما اقترح ، ويقدّم حقه ولا يُطَّرَح ، ويقرب مكانه وإن نزح ، وتأتيه التشريفات الشريفة » . ويأخذ فى إعداد جيش قوى للقاء الصليبيين وينحِّى منه العناصر الزنجية والأرمنية التى كانت تعمل فى جيش الفاطميين .

ويطمح إلى الاستيلاء على فلسطين باب مصر الشرق ، ويحاصر الشوبك فى سنة ٥٦٧ ويرفع الحصار عنها حين علم أن نور الدين يجهِّز الجيوش لحرب الصليبيين وكأنه خشى لقاءه ، ومع ذلك كان يَعُدُّ نفسه تابعا له ، وكان الخطباء فى مصر يدعون فى آخر خطبهم لنور الدين . وعاد صلاح الدين فى السنة التالية إلى حصار الشوبك والكرَك ، ثم رفع الحصار ، وإن كان قد استولى على أيلة (العقبة) . وفى سنة ٥٦٩ يستأذن نور الدين فى إنفاذ أخيه توران شاه على رأس جيش إلى اليمن للقضاء على خارجى هناك استفحل شأنه وكذلك على بقية الدعاة للفاطميين ، ويذهب إليها ويستولى عليها . وفى هذه السنة قبض على جماعة من شيعة الفاطميين كانوا يدبرون مؤامرة لقتله وكان من بينهم داعى دعاة الفاطميين وعمارة اليمنى الشاعر ، وقُتل داعى الدعاة وصُلب عمارة .

وفى هذه السنة توفى نور الدين ، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل ، وكان فى الحادية عشرة من عمره ، وبدا فى وضوح أنه لا يصلح للنهوض بأعباء الحكم وجهاد الصليبيين . واعترف صلاح الدين بسلطانه ، وأمر بالدعاء له فى خطبة الجمعة وسكّ النقود باسمه . ولم يبادر بالتجهيز إلى الشام لانشغاله بأسطول لنورماندبى صقلية هاجم الإسكندرية وحاقت بالأسطول الهزيمة ، وأيضا لانشغاله بثورة فى جنوبى بلاد الصعيد أشعلها مُوالٍ للفاطميين يسمى الكنز ودارت عليه الدوائر . ومرَّ بنا آنفًا أنه أرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على اليمن ومفاتيح البحر الأحمر ، ونراه يسيِّر عسكرًا بعد عسكر إلى بلاد المغرب الأفريقى ودانت له بالطاعة برقة وقسطيلية وقفصة وتوزر مما يدل على أنه فكر مبكرًا فى وحدة البلاد العربية التى أرادها نور الدين . وها هو مبكرًا قد أصبح

يضم سلطانه جزءًا من الشمال الإفريقى المغربى والحجاز واليمن . وجاءته الأخبار بأن نواب الملك الصالح إسماعيل يستقلون بالحكم ويتنازعون تنازعا مريرًا مستعينين بالصليبيين ، فاستقر فى نفسه أنه لابد أن يفرض سلطانه على ديار الشام والموصل قبل أن يسدد للصليبيين ضرباته . وخرج من مصر فى سنة ٥٧٠ بجيش كثيف ، وقصد دمشق واستولى عليها ، كما استولى على كثير من المدن الشامية . وتقاومه جنود الملك الصالح إسماعيل وابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل ويُكْتَبُ له النصر ، ويعقد صلحا مع الملك الصالح يُبْقِى له فيها حلب وحدها ، بينما تدخل الديار الشامية جميعها فى سلطانه . ويعود إلى مصر سنة ٥٧٢ ويأمر قراقوش ببناء سور ضخم حول القاهرة والفسطاط حماية لهما ، ويُبْطِل المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج بجدَّة ويعوِّض صاحب مكة عنها آلاف الأرادب قمحا تفرَّق فى أهل الحرمين ، ويأخذ فى إنشاء المدارس والرباطات بالقاهرة منذ هذا التاريخ . ويعود إلى الشام فى سنة ٥٧٣ ويواقع الصليبيين فى غير معركة وترجح كفته رجحانا واضحا ، ويمضى إلى الشمال وديار الموصل ويستولى على كثير منها : ويعود إلى مصر ويضبط الأمور فيها ويأمر ببناء قلعة الجبل . ويأتيه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل ، فيخرج فى أول سنة ٥٧٨ ويتم له الاستيلاء على حلب وبعض بلدان الجزيرة والموصل . وتسوِّل لرايجنالد نفسه أن يهاجم مكة والمدينة من حصنه الكَرَك واستولى على أيلة وشحن سفنا بالرجال وآلات الحرب ، وعاثوا فى البحر الأحمر وموانيه الحجازية والمصرية ، وتعقَّبه العادل نائب أخيه صلاح الدين فى مصر بأسطول مصرى فتك بسفنه ورجاله .

ونصل إلى سنة ٥٨٣ فيُعِدّ صلاح الدين جيشا ضخما لمنازلة الصليبيين الجنوبيين وينفخ فى نفير الحرب فيأتيه المجاهدون من كل حَدَب ، ويتجه نحو طبرية ، وتلتقى إحدى سراياه فى شرقى حيفا بجماعة من الداويَّة والإسْبتارية الطائفتين اللتين نذرتا أنفسهما لحرب المسلمين ، وتسحقهما السرية ويُقْتَلُ قائد الطائفة الثانية . ويتجمع الصليبيون من كل مكان بقيادة جاى لوزيجنان صاحب بيت المقدس ، وتنشب بينهم وبين صلاح الدين موقعة حِطِّين المشهورة فى غربى طبرية ، ويُمْحَقُ جيشهم محقا ، ويولى هاربًا ريموند صاحب طرابلس ورينالد صاحب صيداء ، ويأخذ المسلمون الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويقع فى الأسر قادتهم وزعماؤهم جاى لوزيجنان صاحب بيت المقدس وهيو صاحب جبيل شمالى بيروت وهمفرى صاحب تِبْنِين إلى الجنوب الشرقى من صور وجيرار مقدم الداوية ورايجنالد صاحب الكَرَك ، وبلغ من كثرة القَتلى والأسرى أن قال

أبو شامة فى كتابه الروضتين : « من شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل » . واستعرض صلاح الدين كبار الأسرى ، ولم يكن همه إلا رايجنالد صاحب الكرك لما مر من محاولته غزو مكة والمدينة ، ولما مثل بين يديه قال له : ها أنا أنتصر منك لمحمد ﷺ ، وعرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ، فسلَّ خنجره وضربه ضربة قاتلة ورُميت جثته على باب الخيمة . وطمأن بقية زعمائهم ، غير أنه أمر بقتل من أسروا من الداويَّة والإسْبتارِيَّة لحبسهم أنفسهم على قتال المسلمين . وغصَّت حينئذ أسواق دمشق بأسرى الصليبيين المسترقين ، وبلغ من كثرتهم أنْ كان يباع الأسير منهم بثلاثة دنانير .

وعلى أثر هذه الموقعة العظيمة فتحت القلاع والمدن فى فلسطين وجنوبى لبنان أبوابها لصلاح الدين الأيوبى ، فاستولى على عكا وحيفا ونابلس وبيت جبريل (بئر سبع) وغزة والرملة وبيروت وصيداء . ولم يبق فى الجنوب سوى الكرَك والشوبك ، وبقيت صور التى لجأت إليها فلول الصليبيين . وعزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس ، فحاصرها وضايقها بالزحف والقتال والمنجنيقات ، حتى أسلمها من كان بها من الصليبيين راغمين خاسئين فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ونُكِّس الصليب الضخم الذى كانوا قد أقاموه على قبة الصخرة ، وأُزيلت كل آثار الصليبيين من المسجد الأقصى وأقيمت به صلاة الجمعة بين التهليل والتكبير والضجيج بالدعاء ، وأمر صلاح الدين أن يزيَّن المسجد بالفُسَيْفِساء والرخام ، ونقل إليه منبرا فخما من حلب لا يزال به إلى اليوم . وظن أنه لم يعد فى حاجة إلى جيوش ضخمة بعد انزواء الصليبيين فى صور وطرابلس وأنطاكية ، فتخفف من جيوشه وعاد كثير من عساكره إلى بلادهم ، وظلت البلاد المتبقية من فلسطين تدخل فى حوزته ، مثل صَفد والكرَك والشُّوبك وحصن كوكب . واستولت عساكره على بعض الحصون فى لبنان وشمالى أنطاكية ، كما استولت على اللاذقية .

وأشعل سقوط القدس الحرب الصليبية من جديد ، إذ أخذ البابا يصرخ فى الملوك ، وحمل الصليبَ لحرب المسلمين فى فلسطين سنة ٥٨٧ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنْسا وريتشارد « قلب الأسد » ملك إنجلترا ، ومُنيت حملة فردريك فى أثناء اجتيازها آسيا الصغرى بخسائر لا تكاد تحصى فى الأرواح ، ولم يبق منها إلا فلول ، أما حملتا فيليب وريتشارد فقدمتا من البحر ، وحاصرتا عكا وسقطت فى أيدى الصليبيين بعد دفاع مستميت من حاميتها ، وعاد فيليب إلى فرنسا ، وظل ريتشارد حتى سنة ٥٨٨ يقود الجيوش الصليبية وينازل صلاح الدين . واستولى على

بعض البلاد الساحلية ، واضطُرَّ إلى الصلح مع صلاح الدين على أن تظل للصليبيين المدن الساحلية من صور إلى يافا ، وسمح صلاح الدين للنصارى أن يزوروا القدس حُجَّاجا عُزَّلا من السلاح . وسار صلاح الدين إلى دمشق ولم يلبث أن لبَّى بها نداء ربه فى صفر سنة ٥٨٩ فبكاه الناس وذرفوا عليه الدموع الغزار . وسنقف فى غير هذا الموضع عند عنايته بالعمارة والبيمارستانات والمدارس ، وقد أشاع الرخاء فى مصر بما أسقط عن كواهل الناس من المكوس والضرائب الباهظة . وكان محبا للعدل ، وكانت سماحته فى معاملة الصليبيين مضرب الأمثال بينهم ، ولايزال مؤلفو الغرب ينوِّهون بها إلى اليوم ، وكان رفيقا برعيته عطوفا على أهل العبادة والصلاح .

وكان قد قسم فى سنة ٥٨٢ البلاد بين أبنائه وأهله ، فأعطى ابنه العزيز عثمان مصر وجعل أخاه العادل أتابكًا له (مدبِّرًا لدولته) وأعطى ابنه الأفضل دمشق وأعطى ابنه الظاهر حلب ، وأعطى ابن أخيه تقى الدين عمر بلدانا فى شمالى الشام وميافارقين بديار بكر ، وعاد صلاح الدين قبل وفاته فجعل للعادل الموصل وديار بكر والكَرَك والشوبك . وتوفى فخلفه على مصر العزيز عثمان سنة ٥٨٩ وكان بارًّا بالرعية عادلا منصفا ، بينما كان أخوه الأفضل فى دمشق يسير فى الناس هو ووزيره ضياء الدين بن الأثير سيرة سيئة ، فرأى أن يأخذها منه ، وجهز لذلك جيشا ساربه إلى دمشق ، غير أن أخاه الأفضل استنجد بعمه العادل فأصلح بين الأخوين ، وانصرف العزيز عثمان إلى مصر ، وظل الأفضل ووزيره سادرين فى غيِّهما ، مما جعل العادل يكتب إلى العزيز بوجوب أخذ دمشق ، والتقيا بها سنة ٥٩٢ وأرغما الأفضل على تركها إلى صَرْخد سنة ٥٩٤ واستخلف العزيز عثمان على دمشق المعظم عيسى ابن عمه العادل . وعاد إلى مصر يحكمها حكما رشيدًا حتى توفى سنة ٥٩٥ . وخلفه ابنه المنصور وكان صبيًّا فى العاشرة من عمره ، فاستقدم الجند الأفضل ليدبر له الحكم ، وما إن وضع قدمه فى مصر حتى كاتب أخاه الظاهر فى حلب ، مزينا له الهجوم معه على دمشق وأخذها من ابن عمهما المعظم عيسى ، والتقى جيشاهما هناك ، ولكن العادل عرف كيف يوقع بينهما ، وعاد الأفضل بجنوده إلى مصر ، فتبعه عمه العادل ، وعرض عليه أن يترك القاهرة ويأخذ ميافارقين وديار بكر ، ولم يجد بدًّا من القبول . وسرعان ما أخذ العادل فتوى من الفقهاء بأنه لا تجوز ولاية الصغير على الكبير ، وعند ذلك قطع فى سنة ٥٩٦ الدعاء فى خطبة الجمعة للمنصور ، وأمر بالدعاء له ولابنه الكامل من بعده .

وأصبح العادل منذ هذا التاريخ حتى سنة ٦١٥ سلطانا لمصر ، مع ماكان بيده من فلسطين ودمشق والجزيرة وديار بكر والموصل . ولما استقامت له الأمور فى كل تلك الدولة قسمها بين

أولاده ، فأعطى ابنه الكامل محمدًا الديار المصرية . وأعطى ابنه موسى البلاد الشرقية وراء الشام وشركه فيها إلى وفاته أخوه الأوحد . وأعطى ابنه المعظم عيسى دمشق . وسيَّر السلطان الكامل من مصر ابنه المسعود إلى اليمن سنة ٦١٢ فملكها . وبذلك دخلت فى حوزة العادل الحجاز واليمن وكل البلاد التى أظلها لواء صلاح الدين ، وكان محنكا محسنا لتدبير الحكم وسياسة الملك ، وكان فارسا مجاهدًا أبلى بلاء حسنا مع أخيه صلاح الدين فى الحروب الصليبية ، وكان تقيا وقد طهَّر ولاياته من الخمور وكل ما يجر إلى الفسق والإثم . وسار سيرة أخيه فى رفع المكوس والمظالم ، وله صنف فخر الدين الرازى كتابه « تأسيس التقديس » وسيَّره إليه من خراسان . وتضاءلت فى أيامه الحروب الصليبية . وفى سنة ٦٠٩ يغزو الصليبيون دمياط وُيرَدُّون على أعقابهم . ويعيدون الكرَّة فى سنة ٦١٥ ويتفق أن يتوفى العادل ويخلفه الكامل فى مصر نهائيا ويشغل من بعض الوجوه بتدبير الحكم ، ويظل الصليبيون بدمياط نحو ثلاث سنوات يعيثون فسادًا ، وتسوِّل لهم شياطينهم أن يتقدموا فى البلاد مع فرع دمياط نحو المنصورة ، وكان النيل فى قمة فيضانه ، فسلَّط المصريون مياهه عليهم ، وأيقنوا الهلاك فراسلوا السلطان الكامل طالبين منه الأمان حتى يرحلوا عن دمياط مدحورين ، وتسلم منهم دمياط فى رجب سنة ٦١٨ وكان يوما مشهودًا ، تَغَنَّى به الشعراء طويلا . ودانت للكامل دمشق سنة ٦٢٦ وكذلك البلاد الشامية والشرقية وكان ابنه المسعود قد استولى على الحجاز واليمن . ويروى بعض من حضروا الحج بمكة سنة ٦٢٠ أن الخطيب هناك دعا للملك الكامل ، فقال : « صاحب مكة وعبيدها واليمن وزَبيدها ومصر وصعيدها والجزيرة ووليدها » . ومازال نجمه متألقا حتى توفى سنة ٦٣٥ .

وكان الكامل قد جعل ابنه الأكبر نجم الدين أيوب على الشرق وإقليم ديار بكر ، وجعل ابنه الأصغر العادل على مصر والديار الشامية . وكان فى الثامنة عشرة من عمره ، فلم ير الأمراء بدًّا من توليته حسب رغبة أبيه ، وعظم ذلك على نجم الدين أيوب ، فزحف بجيشه إلى دمشق واستولى عليها ، ثم سار متجها إلى الديار المصرية ، وحفلت رحلته بأحداث كثيرة ، حتى إذا وصل إلى مصر قبض على أخيه العادل وأعلن نفسه سلطانا على مصر سنة ٦٣٧.وكان قد أكثر من شراء المماليك . وبنى لهم قلعة الروضة فى سنة ٦٣٨ وأنشأ فيها دورًا وقصورًا كثيرة وعمل لها ستين برجا وبنى بها مسجدًا واتخذها دار ملكه وسكنها بأهله وأسكن معه فيها مماليكه البحرية . وكان أبناء عمومته وإخوته قد خرجوا عليه فى الشام واستولى عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستعان بالصليبيين وسلم إليهم القدس وطبريَّة وعسقلان . فزحف السلطان نجم الدين أيوب بجيش كثيف

إلى الشام فى سنة ٦٤٢ واستولى على بيت المقدس من الصليبيين وأفناهم قتلاً وأسرًا ، واسترد دمشق ، وعادت له مملكة جده العادل بكاملها حتى حلب والموصل والجزيرة . وبينما كان فى دمشق سنة ٦٤٧ مرض فى أولها ، وبينما هو مريض علم بغزو الصليبيين لدمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقديس ، وأنهم أحاطوا بدمياط من جميع جوانبها وسقطت فى أيديهم وأنهم خرجوا منها فى اتجاه مدينة المنصورة ، فصمم على لقائهم والمرض يثقل عليه وحُمل إلى مصر فى محفَّة ، وزحف بجيشه مسرعا إلى تلك المدينة ولم يمهله المرض بها . فمات ميتة الشهداء مجاهدًا فى سبيل الله . وأخفت زوجته شجرة الدر وفاته حتى يحضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة شرقى الشام ، وأخذت له البيعة بالسلطنة وهو غائب ، وقدم إلى المنصورة وأدار بمجرد قدومه فى أول المحرم لسنة ٦٤٨ معركة حاسمة مع الصليبيين مزَّقهم فيها شر ممزق ، وكانوا بوسط الطريق بين دمياط والمنصورة ، فقتل منهم بضعة آلاف وأسر أكثر من عشرين ألفا بينهم لويس التاسع ، وحملته إلى المنصورة مركب فى النيل تضرب فيها الصنوج والطبول بينما الأسرى يُجرُّون بالحبال على ضفتى النهر والمصريون يهللون ويكبرون من حولهم . ويسجن لويس فى المنصورة بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء . ومن عجب أن يكافأ توران شاه على هذه الموقعة الباسلة التى قضى فيها قضاء مبرما على أكبر حملة صليبية وُجِّهت إلى مصر باغتيال مماليك أبيه له ، وكان لويس لايزال فى الاعتقال فافتدى نفسه وفلول حملته بأموال وفيرة ، وعاد إلى بلاده خاسئا ذليلا .

واجتمع رأى المماليك على تولية شجرة الدر المُلْكَ بعد توران شاه ، وكانت جارية تركية اشتراها السلطان نجم الدين أيوب وأعتقها وتزوجها ، وكانت راجحة العقل حسنة السيرة جيدة التدبير ، فاتفق المماليك على أن تلى شئون السلطنة ، وتم أمرها ، غير أن الأيوبيين فى الشام سرعان ماخرجوا عليها . فانتفضت الوحدة التى انعقدت بين الشام ومصر منذ انقرض الحكم الفاطمى ولم يمض على سلطنتها نحو ثمانين يوما ، وأحسَّت بحرج الموقف ، فرأت التزوج من عز الدين أيبك أتابك العسكر وأن تتحول مقاليد السلطنة إليه . وحاول – خداعا للأيوبيين فى الشام – أن يشرك معه فى الحكم صبيًّا أيوبيًّا هو الملك الأشرف موسى ، وكان فى السادسة من عمره ، ولكنه عاد فتخلص منه . وعلى هذا النحو تحول ملك الديار المصرية فى سنة ٦٤٨ من الأيوبيين إلى المماليك وقائدهم أيبك ، ولا ريب فى أن عهد الأيوبيين كان من أعظم العهود بمصر ، فقد نهضوا بها نهضة عظيمة واستطاعوا بجنودها أن يقهروا الصليبيين ويزحوهم عن صدر الشام ، ويردوهم عن ثَرَاها وحِماها إلى البحر المتوسط وما وراءه .

٣

المماليك – العثمانيون

(ا) المماليك[1]

أخذ خلفاء صلاح الدين يستكثرون من شراء المماليك الترك وجلبهم من أواسط آسيا وتكوين فرق عسكرية منهم فى جيوشهم ، وأكثر منهم خاصة السلطان نجم الدين أيوب ، وكأن الأيوبيين لم يتعظوا بما كان من هؤلاء الترك فى العصر العباسى الثانى واستيلائهم على مقاليد الحكم فى بعض الولايات الكبرى كما حدث فى مصر نفسها لعهد أحمد بن طولون والإخشيد التركيين . وما إن توفى السلطان نجم الدين أيوب وخلفه ابنه توران شاه حتى استولى المماليك على صولجان السلطان باسم شجرة الدر التركية ، وسرعان ما أسلمت الحكم والسلطان – كما مرَّ بنا آنفا – إلى عز الدين أيبك قائدهم . وظل المماليك من هذا التاريخ وهو سنة ٦٤٨ يحكمون مصر إلى الفتح العثمانى سنة ٩٢٢ فى مجموعتين كبيرتين تسمى أولاهما المماليك البحرية نسبة إلى نهر النيل الذى كان يحيط بجزيرة الروضة مسكنهم الذى أنزلهم فيه السلطان نجم الدين أيوب . وكانوا يستكثرون من شراء المماليك وينزلونهم فى أبراج القلعة حيث يربّون تربية عسكرية جيدة ، ويسمون نسبة إلى مسكنهم المماليك البرجية ، وهم المجموعة الثانية التى خلفت المماليك البحرية فى حكم مصر منذ سنة ٧٨٤ .

تولى عز الدين أيبك شئون مصر سنة ٦٤٨ ورأى كما أسلفنا أن يشرك معه فى الحكم الملك الأشرف موسى محاولة لكسب رضا الأيوبيين فى الشام ولكنهم ظلوا مغاضبين له ، وأخذوا فى حربه ، حينئذ رأى أن يتخلص من الأشرف موسى. وحدثت حروب ومناوشات بينه وبين الأيوبيين ، وارتضوا أخيرًا أن تكون له مصر وفلسطين حتى نهر الأردن ، غير أن شجرة الدر زوجته

---

(١) انظر فى المماليك السلوك والخطط للمقريزى والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ ابن خلدون والنجوم الزاهرة الجزء السابع ومابعده من أجزاء وبدائع الزهور لابن إياس والتبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى ومجالس السلطان الغورى وآخرة المماليك لابن زنبل وتشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور (طبع القاهرة) وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات (طبع بيروت) وغزوات قبرص ورودس للسيوطى (طبع فينا) والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوى ودولة الظاهر ودولة بنى قلاوون لجمال الدين سرور والعصر المماليكى لسعيد عبدالفتاح عاشور وبروكلمان ص ٣٦٥ ومابعدها .

شكَّت فى إخلاصه لها ، فدبرت مؤامرة ضده سنة ٦٥٥ فمات مقتولا ولم تلبث أن لقيت نفس المصير ، وتولى زمام الحكم السلطان المنصور على بن أيبك حتى سنة ٦٥٧ وكان قُطز أتابكًا لَهُ فقبض عليه واستولى على مقاليد الحكم . وكان التتار قد استولوا فى العام السابق على بغداد ونكلوا بها تنكيلا فظيعا ومضت زحوفهم بل سيولهم تتقدم إلى الشام وأخذت تهبط إلى الجنوب فعَهِدَ قُطز إلى مملوك عَظيم من مماليك السلطان نجم الدين أيوب هو بيبرس فى قيادة طليعة الجيش حتى إذا انتهى إلى عين جالوت بين بَيْسان ونابلس سنة ٦٥٨ أصدر أمره إلى بيبرس أن يتابع سيره تجاه التتار وأخفى بقية الجيش بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت . والتحم بيبرس بالتتار وأظهر بسالة نادرة فى حربهم ، وتبعه الجيش يستبسل بقيادة قُطز ، منزلا بالتتار ضربات قاصمة حتى اضطروا إلى الفرار مولِّين وجوههم إلى الشمال لا يلوون ، تاركين وراءهم ما لا يكاد يحصى من الغنائم والأسرى . وتُعَدُّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، إذ صَدَّت التتار نهائيا عن مصر والشام ، وقد ثبَّتت أقدام المماليك لا فى حكم مصر وحدها ، بل لقد انضوت الشام جميعها تحت لوائهم ، ويقتسم شرفها بحقٍّ قُطُز وبيبرس . ولبيبرس فيها الشرف الأكبر ، إذ كان على طليعة الجيش ، واستطاع أن يقتحم بطليعته صفوف التتار ، ويزلزل أقدامهم ويحدث الفوضى فى عساكرهم . حتى إذا تمّ هذا النصر المبين ظن أن قطز سيكافئه عليه مكافأة كبيرة ولم يلبث أن طلب منه نيابة حلب ، ولكن قطز لقصر نظره بخل عليه بها ، فكان طبيعيا أن يدبر مؤامرة ضده فى أثناء قفوله إلى مصر ، وواتته الفرصة فقتله ، وانتخبه أمراء المماليك وقوادهم سلطانا على الديار المصرية والشامية ، وتلقب باسم الملك الظاهر .

وكان بيبرس سلطانا حازما عالى الهمة شديد البأس بعيد النظر يحسن تدبير الملك وسياسته ، فرأى أن انتصار عين جالوت وحده لا يكفى فى تثبيت سلطانه ، وانتهز ظهور أمير عباسى بدمشق فرَّ من التتار فاستدعاه إلى القاهرة ، حتى إذا تأكد نسبه إلى بنى العباس بايعه هو والناس بالخلافة فى حفاوة بالغة ، ولم يلبث هذا الخليفة العباسى أن قلَّده سلطنة مصر والبلاد الشامية وغيرها مما يظلُّه سلطانه . وبذلك ثبَّت عرشه ووطَّد سلطانه ضد أى محاولة قد يحاولها أحد الأيوبيين لاستعادة ملك آبائه . وظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر طوال حكم المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم الأول العثمانى آخرَ خلفائها معه إلى القسطنطينية ، وأخذ سلاطين آل عثمان يتقلدون الخلافة على المسلمين إلى أن أزالها مصطفى كمال أتاتورك كما هو معروف . وأتاح وجود هذه الخلافة العباسية الاسمية بالقاهرة للظاهر بيبرس ومن خلفه من المماليك أن يعدُّوا أنفسهم حماة الخلافة والإسلام ، وأفادوا

من ذلك سيطرتهم على الحجاز والحرمين ، ووضع بيبرس تقليدًا أن يسافر محملٌ إلى مكة سنويا يحمل الكسوة الشريفة ، وهو تقليد لايزال قائماً إلى اليوم . وعُنى بوضع نظام دقيق للإدارة فى مصر والشام كما عنى بالبريد ، فكان الخبر يصل من دمشق إلى القاهرة فى ثلاثة أيام .

وظل طوال حكمه يُعِدُّ جيوشه ويزحف بها لحرب الصليبيين والتتار وغزو أرمينية والسلاجقة بآسيا الصغرى وغزو النوبة فى الجنوب . أما الصليبيون فاستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم ومدنهم مثل قيسارية وأرسوف وصَفد وتِبْنين والرملة ويافا وحصن الأكراد والقرين القريبة من عكا وصافيتا وصفا والشقيف . ولم يلبث أن استولى على أنطاكية سنة ٦٦٧ فانهارت المملكة الشمالية التى كان قد أقامها الصليبيون ، ومعروف أن زنكى استولى من قديم على مملكتهم القديمة الرُّها واستولى بعده صلاح الدين على مملكتهم فى بيت المقدس . ومازال الظاهر بيبرس ذاهبا آيبا من الفرات لحرب التتار وسحقهم ، وغزا السلاجقة فى آسية الصغرى ، وفتح أرمينية الصغرى مرتين واستقصى فتح حصون الإسماعيلية بالقرب من اللاذقية ، وفتح دنقلة كرسى بلاد النوبة ، ودانت له بالطاعة . ومن أهم أعماله أنه أقام فى سنة ٦٦٣ لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة : المذهب الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى قاضيا ، وظل العمل بذلك جاريا فى عصر المماليك ، وفى أيامه سنة ٦٧٥ طافوا بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوما مشهودًا ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية . وشيد مسجدًا كبيرًا بالقاهرة لاتزال أطلاله قائمة إلى اليوم . وهو يُعَدّ من أبطال مصر والعرب العظام أمثال صلاح الدين ، ويعد عصره من العصور الإسلامية الذهبية . وظلت بطولته فى حروب التتار والصليبيين عالقة بالأذهان أزمنة طويلة ، وأُلفت حولها قصة مشهورة ، ومازالت الأجيال تزيد فيها إيمانا بفروسيته الخارقة . وقد توفى سنة ٦٧٦ بدمشق ودُفن بها ، وتولى بعده ابنه الملك السعيد ، ولم يكد يدور به فى الحكم عامان حتى ثار عليه أمراء المماليك وخلعوه وولوا أخاه بدر الدين سلامش وكانت سنه لا تتجاوز السابعة ، وجعلوا قلاوون أتابكًا له .

وسرعان ما استغل قلاوون الفرصة ، فاستخلص الملك لنفسه ، وتلقب باسم السلطان المنصور، وهو من أعظم سلاطين المماليك حزما وعزما وتدبيرًا وبأسا ، وقد اتبع سياسة الظاهر بيبرس فى الإيقاع بالتتار والصليبيين أما التتار فنازلهم مرارًا وأنزل بهم خسائر فادحة حتى رضخوا وطلبوا منه الصلح مدحورين ، وأما الصليبيون فقد صمم على إزالة مملكتهم الرابعة والأخيرة فى طرابلس ، ونازلها سنة ٦٨٨ وفتحها قهرًا بالسيف ، وملك ما جاورها من القلاع والبلدان مثل

جبيل وبيروت . وكان قد حدث شغب فى بلاد النوبة ، فذهب إليها بعض قواده ورمَّ ما بها من شغب . وتوفى سنة ٦٨٩ وظل الملك فى أبنائه وأحفاده نحو مائة عام ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، وكان شجاعا وبطلا مغوارًا ، فصمم على طرد الصليبيين من الشام ، فجمع عساكره وتوجه إلى عكا فوصلها فى يوم واحد ويسَّر الله له فتحها فى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ وكان الصليبيون استولوا عليها بأخرة من أيام صلاح الدين فى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وقتلوا المسلمين بها ، فثأر لهم السلطان خليل وقتل من كان بها من الصليبيين حين فتحها . وانحلت عزائم الفرنج بعد عكا وأخذ السلطان خليل صور وصيداء وحيفا واستسلمت قلاع الصليبيين الأخرى . وتطهرت البلاد من رجسهم وإثمهم ، فلم تبق لهم فى الشام بلد ولا قلعة ولا قرية ولا جزيرة .

والعجب أن يكافئ المماليك السلطان خليلا على هذا العمل الباسل العظيم جزاء السلطان المعظم توران شاه بعد واقعة المنصورة ، فيتآمروا على قتله ، وتنجح مؤامرتهم سنة ٦٩٣ ويخلفه أخوه الناصر محمد ، وهو لا يجاوز التاسعة من عمره ، ويعيَّن كَتْبغا نائبا له ، وما يكاد يدور العام حتى يستولى على السلطنة ، ويغتصبها منه بعد عامين لاجين ، وتعود بعد عامين آخرين إلى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ . وتنشب حروب بينه وبين تتار العراق ، وترجح كفتهم ويستولون على دمشق وغيرها من مدن الشام ويعيثون فيها فسادًا . ولا يلبث الناصر محمد أن يجمع لهم جيشا كثيفا سنة ٧٠١ وينازلهم فى مرج الصُّفْر بالقرب من دمشق ويسحق جموعهم سحقا ، وتولِّى فلولهم الأدبار نحو العراق وبغداد لا تلوى على شيء . ويأخذ كبار المماليك فى التنافس حول السلطة ويخشى الناصر محمد أن يفتكوا به فيذهب إلى الحج ويعتزلهم فى الكرَك جنوبى الأردن ، ويرسل إليهم بكتاب يعلن فيه تنازله عن الحكم ، ويتفق المماليك على تولية ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٨ ولا يدور العام حتى يعود الناصر محمد إلى سلطنته ويتولى الحكم فى مصر والشام للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ . وكان المصريون يحبونه حبًّا شديدًا ، وكان عهده عهد رخاء عظيم ويتضح فى كثرة المنشآت التى أسسها من مدارس ومساجد وخانقاهات . وبلغت الدولة فى عهده أوج مجدها ، فقد قضى أبوه وأخوه ، كما قدمنا ، على الصليبيين نهائيا ، ولم تبق منهم باقية ، وانتصر هو على التتار فى ولايته الثانية على مصر انتصارًا حاسما . وعقدوامعه صلحا سنة ٧١٩ ولم يعودوا يفكرون فى الغارة على الشام .

ويظل الناصر فى الحكم حتى سنة ٧٤١ ويخلفه أبناؤه وأحفاده حتى سنة ٧٨٤ وتعود مصر

أو يعود الحكم فى مصر ثانية إلى ما حدث فى الدولة الفاطمية من عواقب وخيمة لأن يصبح الحكم وراثيا . ويكفى أن نعرف أن ثمانية من أبناء الناصر تولوا الحكم إحدى وعشرين سنة مما يعنى عدم الاستقرار ، وكان منهم من يعيش للهو وسماع المغنيات مثل السلطان الصالح إسماعيل والسلطان شعبان ، ومثل السلطان زين الدين ، وكان فى الحادية عشرة من عمره ، وفى نفس السن تولى أخوه السلطان حسن وفى عهده انتشر وباء الطاعون بالقاهرة . وتخلفه فترة يحكم فيها أحفاد الناصر لمدة عشرين عاما ، وكثير منهم كان صبيًّا ، كما ذكرنا ، فكان طبيعيًّا أن يفسد الحكم فى عهدهم فسادًا شديدًا . وفى سنة ٧٦٦ سوَّلت لحاكم قبرص بطرس لوزيجنان شياطينه أن يغير على الإسكندرية ، فأغار عليها لمدة ثلاثة أيام ، ثم ولَّى بمن معه هاربًا حين علم باقتراب الجيش المملوكى .

وطبيعى وقد فسد حكم آل قلاوون فسادًا لاصلاح له بعده ، أن يحاول المماليك التخلص من هذا الحكم ، وكانت مجموعة المماليك البرجية قد أخذت تظهر على مسرح الحوادث ، وأخذوا يسيطرون على أداة الحكم منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون ، وأخذ نجم برقوق من بينهم يعلو فى سماء مصر ، ومازال يدبر للأمر هو وأعوانه حتى أطاحوا بأحفاد قلاوون وتسلم مقاليد الحكم سنة ٧٨٤ وظل فى أيدى المماليك البرجية إلى نهاية الدولة المملوكية ، وكان أديبًا يهتم بمجالس الأدب والعلم ، وخلفته طائفة من المماليك البرجية مثل شيخ وبرسباى وجقمق وقايتباى والغورى . وظل برقوق على رأس الدولة حتى توفى سنة ٨٠١ إلا ما كان من سنة واحدة أبعد فيها عن الحكم وهى سنة ٧٩١ وسرعان ما عاد إليه . وتكثر فى زمن هذه الدولة البرجية المنافسات بين الأمراء ، كما يكثر فرض الضرائب على الشعب . ويهبُّ بأخرة من حكم برقوق إعصار تتارى جديد ، يقوده تيمورلنك ، وينزل الإعصار بالعراق والموصل ويستصرخ الحكام هناك برقوق ، ويشغل تيمورلنك بغزو الهند حينًا ، فيعلن أحمد بن أويس حاكم بغداد تبعيته لبرقوق رجاء أن يحميه من الطاغية المغولى ، ويكتب له برقوق تقليدًا أومرسوما بنيابته عنه فى بغداد ويزوده بالمال والعتاد والرجال ، ويعود تيمور سريعا ويستولى على بغداد . وفى هذه الأثناء يتوفى برقوق بينما يتجه تيمور بجيشه إلى الشمال يريد الاستيلاء على الشام ، ويستولى على حماة وحمص وبعلبك ، وكان مماليك برقوق قد ولوا عليهم ابنه فرجا ، فخرج على رأس جيش للقائه ولكنه هزم بالقرب من دمشق سنة ٨٠٢ ودخل تيمور دمشق وظل جنوده فيها مدة ينهبون ويسلبون ويأتون من الفظائع ما صوره ابن عربشاه فى كتابه عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، مما اضطر السلطان فرجا إلى قبول الصلح

معه ، وبارح تيمور الشام سريعًا إلى آسيا الصغرى وأنزل بالسلطان بايزيد العثمانى ضربة قاصمة ، وعاد إلى بلاده . وسرعان ماتوفى وتمزقت دولته بين ورثته ، وكفى الله المماليك وديار مصر والشام شره وخطره .

ويحتدم التنافس بين أمراء المماليك البرجية ويستخلص الحكم لنفسه المؤيد شيخ سنة ٨١٥ وله عمائر كثيرة أشهرها جامعه المؤيدىّ ، ويقال إنه لم يُبْنَ فى الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموى بدمشق ، وتوفى سنة ٨٢٤ . وبويع ابنه المظفر أحمد وله سنة واحدة وثمانية أشهر ، فكان طبيعيا أن يستولى على الحكم بعض الأمراء ، ويتولى سلطانان ، ويخلفهما السلطان بَرْسباى سنة ٨٢٥ ومرَّ بنا غزو حاكم قبرص بطرس لوزيجنان للإسكندرية سنة ٧٦٦ وكان القبارصة كثيرًا ما يتعرضون فى البحر المتوسط للسفن المصرية والشامية ، فصمم برسباى على أخذ قبرص وأرسل لها ثلاث حملات ، استطاعت ثالثتها أن تستولى عليها من جميع أنحائها ، وعادت الحملة بغنائم وأسرى كثيرين وبحاكم قبرص مقيدًا فى الأغلال ، وقبَّل الأرض بين يدى بَرْسباى ، وتَعهَّد أن تظل جزيرته موالية لمصر وأن يكون نائبا فيها للسلطان ، وعاد إلى جزيرته عقب ذلك سنة ٨٣٠ بعد أن دفع دية كبيرة وبعد أن التزم بأن يؤدى لمصر سنويا عشرين ألف دينار جزية . وخلف برسباى ابنه العزيز سنة ٨٤١ لمدة عام ، ولم يلبث الأمير جقمق أن عزله ، وتولى الحكم سنة ٨٤١ وحاول أن يكتسب مجدًا حربيًّا كمجد برسباى ، فوجه ثلاث حملات إلى جزيرة رودس ، ولكنها لم توفق جميعًا إلى الاستيلاء عليها ، ويتوفى سنة ٨٥٧ .وتكثر المنافسات والمنازعات بين أمراء المماليك البرجية . ويستخلص الحكم لنفسه قايتباى سنة ٨٧٢ وكان سديد الرأى شجاعا ساهرًا على دولته المترامية الأطراف ، متنقلا فيها من القاهرة إلى مدن الفرات إلى مكة والمدينة ، ويبدو أنه كان يعنف فى جمع الأموال والضرائب ، وكان يهتم ببناء المدارس والمساجد وترميم المنشآت . وظل حاكما للدولة تسعة وعشرين عاما إذ توفى سنة ٩٠١ . وخلفه أربعة سلاطين حكموا مددًا قصيرة ، واختار أمراء المماليك بعدهم قانصوه الغورى سنة ٩٠٦ ، وهو من خيرة سلاطين المماليك البرجية ، وكان شاعرًا واشتهر بمجالسه الأدبية . وكان طاعنا فى السن ، بينما كان يتراءى فى الأفق شبح عدوين كبيرين يهددان مصر والمماليك بالخطر الجسيم ، أولهما خطر البرتغال واكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند منذ سنة ٩٠٣ مما آذن بتحول زمام تجارة توابل الهند من أيدى المصريين إلى أيدى البرتغاليين ، وضياع ما كانت تأخذه مصر من ضرائب ورسوم على هذه التجارة فى طريقها إلى أوربا وثغور البحر المتوسط . وأخذ البرتغاليون يناوشون

العرب فى جنوبى الجزيرة العربية ، أو قل إن العرب هم الذين بدءوا بهذه المناوشات ، ووقف الغورى معهم وانتصروا فى موقعة بحرية عليهم . غير أن البرتغاليين مضوا يعيدون الكرة ، وهاجموا مدينة عدن ونزلوا فى بعض الجزر الواقعة بالقرب من باب المندب وأصبحوا يهددون مدينة عدن واليمن جميعها ، فأرسل إليهم سريعا قانصوه الغورى نجدة طردت البرتغاليين من هذه الأنحاء ، واستدارت تحتل اليمن حتى تظل مصر حارسة لها .

وتهدَّد مصر خطرٌ أكثر جسامة ، فإن العثمانيين كانوا قد استولوا على القسطنطينية وأخذ نجمهم فى الصعود ، وسمعوا بما أنزله إسماعيل الصفوى بأهل السنة فى بغداد من سفك لدمائهم وقسوة متناهية فأعلنه سليم الأول بالحرب وانتصر عليه فى سنة ٩١٤ واستولى منه على الجزيرة والموصل وديار بكر وأعاد سليم الكرة فهزم إسماعيل الصفوى سنة ٩٢٠ . وعرف أن قانصوه الغورى كان قد عقد معه حلفا ، فصمم على منازلته ولم يكن ذلك غائبا عن قانصوه فجند جيشا كثيفا ومضى به إلى شمالى سوريا لرد العدوان ، إن حدث ، فى حينه ، وأرسل إلى سليم يطلب إليه عقد معاهدة صلح بينهما فرد رسله ردا سيئا ، ولم تلبث أن نشبت بينهما معركة مرج دابق شمالى حلب سنة ٩٢٢ ودارت الدوائر على قانصوه وجيشه ، وقُتل وهو يلوذ بالفرار . ولم تكن تنقص جيش المماليك الشجاعة ، إنما كان ينقصه سلاح مهم استخدمه العثمانيون فى المعركة هو سلاح المدفعية ، فكان طبيعيًّا أن تكون لهم الغلبة ، وفتحت مدن الشام أبوابها لسليم ، ودخل دمشق . ويبدو أنه كان يريد أن يدع للمماليك مصر ويكتفى بممتلكاتهم فى آسيا ، فكاتب خليفة قانصوه فى مصر طومان باى يعرض عليه أن يترك مصر له وللمماليك على أن يعترفوا له بالسيادة ، فيخطب له ، وتضرب السكة باسمه . ولكن طومان باى أبى ذلك وأخذ يستعد لحربه ، وأحسَّ بتخاذل المماليك من حوله ، بينما كان سليم يتقدم نحو مصر ودخل حدودها واتجه إلى القاهرة ، والتقى بجيش طومان باى بالقرب من العباسية على أبواب القاهرة وأنزلت مدفعيته به هزيمة ساحقة ، وفرَّ طومان باى . ودخل سليم القاهرة فى اليوم التالى وكان أول يوم جمعة فى شهر المحرم لسنة ٩٢٣ فُدعى له فى الخطبة ، وسَلَّم قصر طومان باى بعد قتال عنيف أما هو ففرَّ إلى الصعيد ثم إلى الدلتا واشتبك مع العثمانيين فى بعض مناوشات خاسرة ، ولم يلبث أن سُلِّم غدرا إليهم ، فأمر السلطان بشنقه على باب زويلة . وبذلك انتهى حكم المماليك لمصر وتقوضت دولتهم .

(ب) العثمانيون [١]

مكث السلطان سليم فى مصر بعد فتحه لها نحو ثمانية أشهر ، ذاق فيها المصريون ألوانا كثيرة من الظلم والمحن ومصادرة الأموال وأيضًا مصادرة العلماء ورجال المهن والفنون والصناعات ونقلهم فى السفن إلى القسطنطينية ، وقد نُقل كثير من التحف والآثار الرائعة من المساجد ومن قصور المماليك حتى الرخام كانوا ينزعونه . وكأنما وضع سليم خطة أن يَحْرِم مصر من كل ما كان بها من تراث فنى غير ما حمله من كتب لاتزال تزخر بها مكتبات القسطنطينية إلى اليوم . وهكذا جُرِّدت مصر من علمائها وفنّانيها وتراثها الفكرى والفنى ، وعاشت حقبًا سوداء امتدت إلى نحو مائتين وتسعين عاما ، وحتى الخلافة الإسلامية التى كانت تتيح لها زعامة أو شيئا من الزعامة فى العالم الإسلامى سلبها منها سليم ، إذ دفع المتوكل على الله آخر خلفاء بنى العباس فى مصر إلى أن يتنازل له عن الخلافة ، ويقال إنه تقلدها فى مصر ، ويقال بل بعد ذهابه معه إلى القسطنطينية .

وجعل سليم على مصر نائبا له أو واليا ، كان يلقب بالباشا ، ويتخذ القلعة مقرًّا له طوال حكم العثمانيين لمصر ، ولم ينفرد بالحكم ، فقد أشرك معه سليم – وظل ذلك ساريا بعده – قادة الجند العثمانيين الذين تركهم بعده فى مصر ، وأيضًا أشرك معه حكام مديريات القطر أو أقاليمه . وقد اختارهم سليم جميعًا من المماليك ، وكأنه رأى أن يشركهم فى الحكم ، للإشراف على شئون الأقاليم . ولم يلبث أن توفى سليم ، وخلفه أخوه سليمان سنة ٩٢٦ وفى أيامه استقر نظام حكم العثمانيين السياسى لمصر بحيث كان بها وال له الإشراف العام على شئونها المختلفة ، ومعه ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار ورئيس الفرق العسكرية والدفتردار (مدير الخزانة) والروزنامجى (حافظ السجلات) وأمير الحج وقاضى القضاة أو رئيسهم ونقيب الأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة وبعض رؤساء المماليك أوكبيرهم . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير كان يتألف من الكتخدا (نائب الوالى) والدفتردار والروزنامجى ومندوب عن كل فرقة من الفرق العسكرية .

---

(١) انظر فى العثمانيين آخرة المماليك لابن زنبل وبدائع الزهور لابن إياس وأخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من الدول للإسحاقى والجزء الأول من الخطط التوفيقية لعلى مبارك وتاريخ الجبرتى والبلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصرى والحملة الفرنسية وظهور محمد على لمحمد فؤاد شكرى والجزء الأول من تاريخ الحركة القومية فى مصر وظهور محمد على لعبد الرحمن الرافعى ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبد الكريم غرايبة والخطط التوفيقية لعلى مبارك (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٤٦/١ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٤٨ .

وكان الديوان الصغير ينعقد كل يوم ويبلغ قراراته إلى الوالى ، وبالمثل كانت قرارات الديوان الكبير تبلَّغ إلى الوالى ويعمل على تنفيذها جميعًا .

وظل المماليك – منذ سليم – يمثلون فى البلاد سلطة ثالثة بجانب سلطتى الجند والوالى ، إذ جُعلوا حكاما للأقاليم ، وكان كل منهم يسمى سنجقا : اسما تركيا . كان فى الأصل يعنى البيرق ، إذ كان السنجق عادة يتسلم بيرقا فسمِّى باسمه وسميت مديريته باسم السنجقية ، وأُعْطوا أيضا لقب بك ، فكان هناك الوالى الباشا والسناجقة المماليك البكوات ، وكانوا يشرفون على مديرياتهم من الناحيتين الإدارية والمالية ، وكان لهم نواب يسمون الكُشَّاف جمع كاشف . وكان يتبع الكشافَ الملتزمون وهم من التزموا بدفع ضرائب معينة عن قرية أو قرى ، وكانت للملتزمين سلطة واسعة على الفلاحين فهم يعتصرونهم اعتصارًا دون شفقة أو رحمة ، والفلاحون يتصبَّبون عرقا لكى ينعم الملتزم والكاشف والسنجق ، وما يزالون يثقلون عليهم بالضرائب والإتاوات ويرهقونهم من أمرهم عسرا ، حتى أصبحوا يعانون ما لا يطاق من البؤس والفاقة . وبذلك كسدت الزراعة ، كما كسدت التجارة منذ استولى العثمانيون على مصر وكشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت تجارة أوربا والهند إليه . وزاد الأمور سوءا أن العثمانيين اتبعوا سياسة مستمرة أن لا يظل الوالى فى مصر إلا مدة قليلة قد تكون عاما وقد تكون أقل من عام ، فلم يشعر الولاة بشىء من الاستقرار ، وكأنهم كانوا يجيئون ليدخروا لأنفسهم شيئا من مال،وكانوا يذهبون دون أن يفكروا فى أى إصلاح ، ويكفى أن نعرف أنه حكم مصر حتى مجىء نابليون مائة وخمسون واليا عثمانيا .

وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تضعف منذ القرن الثانى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ضعفًا شديدًا فأخذ سلطان السناجق المماليك يَقْوَى ، وخاصة أنه كانت بيدهم أزمَّة الشئون الإدارية والمالية فى البلاد ، وأيضًا فإن العثمانيين كانوا يتخذون منهم فى القاهرة زعيما لهم يسمونه شيخ البلد ، فأخذت مشيخته أو سلطته تَقْوَى ، حتى غدا مناظرًا أو مماثلا للوالى العثمانى .

وبلغ من سلطان شيخ البلد ومماليكه أن كانوا أحيانا يعزلون الولاة ، وربما جاءهم وال لا يرضونه ، فكانوا يمتنعون عن تهنئته ، ولا يحضرون قراءة المرسوم بتوليته ، حينئذ لا يجد بدًّا من حمل حقائبه والعودة إلى القسطنطينية فكان طبيعيًّا أن يفكر بعض شيوخ البلد من زعماء المماليك فى الاستقلال بمصر ، وتولى على بك الكبير مشيخة البلد ، وصمم على الاستقلال ، ولم يلبث أن خلع الوالى التركى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وضرب السكة

باسمه ، وفتحت جيوشه معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة : سلطان مصر وخاقان البحرين . وأرسل قائدًا من قواده وهو محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا ، وفتحت له دمشق وغيرها من مدن الشام أبوابها . غير أن الباب العالى العثمانى لم يلبث أن استغواه بما وعده به من الولاية على مصر فانقلب على سلطانه على بك الكبير ، ونشبت بينهما الحرب وسقط فى ميدانها على بك سنة ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م . وبذلك أضاع محمد بك أبو الذهب على مصر فرصة ذهبية : أن يُرَدَّ لها استقلالها وحريتها ، وظل شيخا للبلد ، يولِّى عليها من العثمانيين من يختاره إلى أن توفى بعد سنتين فى عام ١١٨٩هـ. وخلفه على مشيخة البلد إبراهيم بك ومراد بك شريكين فيها ، وخرجت المشيخة من أيديهما فترة إلى إسماعيل بك ، وتوفى فعادت إليهما ولإبراهيم الرياسة ، وأصبح شيخا للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٨ م . وتنزل الحملة مصر وتظل تجاهدها جهادًا عنيفًا مريرًا ثلاث سنوات ، ولم ينفع نابليون قائدها ما أنشأه من مجالس شورى ألفها من بعض شيوخ الأزهر ومن كبار التجار والأعيان ، وجعل لها النظر فى الضرائب وشئون الحكم .

لم يَغُرّ هذا الخداع المصريين فقد عرفوا أنها مجالس صورية لتنفيذ مطامعه الاستعمارية ، ومازالوا يقاومون الحملة مقاومة باسلة ، حتى اضطروها إلى مبارحة البلاد سريعا . وأولى أن تدرس هذه الحملة وآثارها بمصر مع عصرها الحديث ، إذ أذكت فى المصريين الشعور القومى . فلما خرجت إلى البحر المتوسط وما وراءه وعاد المصريون إلى الحكم العثمانى رأوا أن من واجبهم التخلص من نيره الظالم البغيض وأن يختاروا حاكمهم واختاروا محمد على سنة ١٢١٩ هـ/١٨٠٥م وبدءوا بقوةٍ نهضتهم الحديثة .

٤

المجتمع [١]

مصر - كما وصفها الذكر الحكيم - جنات وعيون وزروع ومقام كريم. وفى جنات هذه الزروع وجنباتها عاش سكانها من القبط ومن نزل بها من العرب ، ومع الزمن يزداد اختلاط العرب بسكانها وخاصة منذ أسقطهم الخليفة العباسى المعتصم من دواوين الجيش فى نهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجرى ، فقد مضوا يخالطون سكانها لا فى مدنهم فحسب ، بل أيضا فى قراهم وزروعهم مؤلفين جميعا شعبها المصرى . وكانت تتوزعه - كغيره من الشعوب العربية - ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . وتشمل الطبقة الأولى الوالى وصاحب الخراج والقاضى وكبار أصحاب المناصب وقواد الجند ومعهم الأشراف من بيتى العباسيين والعلويين وكبار التجار والإقطاعيين من المماليك . والطبقة الوسطى تشمل العلماء والجند وأوساط الزراع أصحاب الملكيات الصغيرة والقائمين على الصناعات . أما الطبقة الدنيا فتشمل الفلاحين والصناع وصغار التجار . وبجوار هذه الطبقات كان هناك رقيق يجلب من أواسط إفريقيا ومن بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط ، وكان كثير منه يحرَّر ويصل إلى أرفع المناصب على نحو ما هو معروف عن فاتك الرومى وكافور الحبشىّ القائدين فى زمن الإخشيد . وكان هناك أهل الذمة من الأقباط .

ويمد النيل مصر من قديم برخاء لا مقطوع ولا ممنوع ، ومعروف أن أرضها قبيل الفتح العربى كانت موزعة بين الدولة والكنيسة وكبار الإقطاعيين ، وقد ترك العرب الفاتحون للكنيسة وللإقطاعيين ما لهم من الأراضى على أن يؤدوا عنها الخراج أو كما نقول الآن الضرائب ، وبالمثل كان يؤدِّيها أصحاب الملكيات الصغيرة من الأرض وكل فالح لها أو زارع . وتُرك للقبط الإشراف

---

(١) انظر فى المجتمع الولاة والقضاة للكندى والمغرب لابن سعيد بقسميه عن الفسطاط والقاهرة ومروج الذهب للمسعودى ومصر عند المقدسى وابن حوقل وناصر خسرو والإشارة إلى من نال الوزارة لابن ميسر وترجمة يعقوب ابن كلس والأفضل بن بدر الجمالى فى ابن خلكان والخطط للمقريزى والجزءين الثالث والرابع من صبح الأعشى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وبدائع الزهور لابن إياس وكتاب قوانين الدواوين لابن مماتى وسيرة صلاح الدين لابن شداد ورحلة ابن جبير ومعيد النعم ومبيد النقم للسبكى والمدخل لابن الحاج ونظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين لعطية مصطفى مشرفة والمجتمع المصرى فى عصر السلاطين المماليك لسعيد عبد الفتاح عاشور والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز وقصة القاهرة وتاريخ مصر فى العصور الوسطى لستانلى لين بول وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان .

المالى على شئون الخراج أو ضرائب الأرض ، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القرن الحاضر . وكان أهل الذمة من القبط وغيرهم يؤدون الجزية ، وهى تتراوح بين دينار ودينارين سنويا ، يؤديها القادر بمقدار قدرته ، ولم يكن يؤديها راهب ولا شيخ ولا امرأة ولا صبى ، وهى فى واقعها ضريبة دفاع لأنهم لم يكونوا يشتركون فى الحرب .

وكانت تؤخذ بجانب ذلك مكوس على الصناعات ، ومن أهمها صناعة القراطيس من ورق البردى ، وكانت هذه الصناعة رائجة جدًّا حتى أواخر القرن الثانى الهجرى حين نقلت فى عهد الرشيد من الصين صناعة الورق وأنشئ لها مصنع ببغداد . وأهم من هذه الصناعة صناعة النسيج والثياب ، وقد ظلت مزدهرة طوال الحقب ، وكان النساء والغلمان فى الوجه البحرى يشتركون فيها ، واشتهرت بها المدن الشمالية : دمياط وشطا وتنيس ودبيق والإسكندرية ، وكان من نسيج الأخيرة ما يباع بما يعادل وزنه من الدراهم ، وكان ثمن الثوب الدبيقى مائة دينار وقد يبلغ مائتين ، واشتهرت تنيس بثوب كانت تصنعه للخليفة منسوجا بالذهب وليس فيه من الغزل سوى أوقيتين ، وكان يقدر بألف دينار . وكانت السجاجيد والأبسطة والستور تصنع بالفيوم والصعيد ، وكانت تصنع الحصر فى أمكنة كثيرة ، كما كانت تصنع بعض أنواع الجلود . وعلى كل هذه الصناعات كانت تؤخذ المكوس كما كانت تؤخذ على استخراج بعض المعادن وخاصة الشبِّ والنطرون ، وأيضًا على بناء السفن . وكانت التجارة رائجة ، وكان يتجر فيها كثير من الفرس والروم واليهود .

ومما يدل بوضوح على رخاء مصر فى عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقريزى وقع فى أثناء زيارة المأمون لمصر سنة ٢١٧ إذ مر بقرية يقال لها « طاء النمل » وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية ، فتعرضت له تسأله أن ينزل فى ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمة ، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصرى ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إباء شديدا ، وتأمَّل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل على أنه ربحها من عام ، فقال : هذا والله أعجب . وتوسلت إليه أن يقبلها ، فتمنع وقال لها : رُدِّى مالك بارك الله لك فيه ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا الذهب شىء كثير . فأخذه المأمون لبيت المال وأقطعها عدة ضياع وأعطاها من قريتها مائتى فدان بغير خراج . ومارية إنما هى

إقطاعية واحدة وكان وراءها إقطاعيون كثيرون من القبط والعرب ، فإن الدولة كانت قد دأبت على أن تمنح بعض الموظفين الكبار بمصر وبعض الشخصيات العربية إقطاعيات مختلفة فى القرى المصرية . ومما يدل على الرخاء حينئذ ارتفاع رواتب الولاة وأصحاب الخراج وكبار الموظفين وحتى القاضى موضع الزهد والتقشف إذ يذكر الكندى فى كتابه «الولاة والقضاة» أن عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون فى سنة ٢١١ رسم لقاضى الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وحقًّا كان يحدث أحيانا قحط أو أوبئة أو تذمُّرات من كثرة الضرائب الاستثنائية التى يفرضها بعض عمال الخراج ، حتى ليأخذ ذلك فى الحين الطويل بعد الحين شكل ثورة ، ولكن هذا كله سرعان ما يزول ، كأنه سحابة صيف سرعان ما تَتقشع ، ويعود إلى مصر الأمن والرخاء ، فبينما مصر – كما يقول عمرو بن العاص فى رسالته المشهورة إلى عمر بن الخطاب – لؤلوة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء . فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء .

وكانت أسواق الفسطاط تعكس صور الرخاء فى مصر ، فهى تموج بالأطعمة والحلوى والفواكه وبالطيب والمسك والعنبر وماء الورد ومختلف الأفاويه . ويبدو أن المساكن بها والغرف والحوانيت كانت تؤجَّر ، ويؤجَّر معها الأثاث . وعرفت مصر حينئذ ضروب الملاهى من الصيد وأدواته ومن سباق الحمام وسباق الخيل ، ويروى الكندى أن الوالى عليها يزيد بن عبد الله منع من حلبات السباق سنة ٢٤٢ وسرعان ما عادت سنة ٢٤٩ . وكان الناس يحارشون أحيانًا بين الكِباش والكلاب . ويبدو أنه كانت هناك بعض دور للخمر ، ولابد أنها كانت قليلة ، ويذكر ابن سعيد – إن صحَّ ما يذكره – أن محمد بن أبى الليث الخوارزمى قاضى المعتصم بمصر كان يشرب النبيذ وله عليه ندماء . وكان الناس يهتمون بالغناء وما يصحبه من آلات الموسيقى والطرب ، ويذكر ابن سعيد أيضًا أنه لم يكن بمصر مغنية إلا ركب إليها القاضى لعهد الرشيد المسمى بالعمرى كى يسمع غناءها ، وربما قوَّم لها ما انكسر من غنائها وما دخل عليه من تحريف فى لحنه . وكان الناس يخرجون للنزهة فى جزيرة الروضة أمام الفسطاط وعلى شاطئْ النيل . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بفتح الخليج (وفاء النيل) وبالأعياد الإسلامية وأيضا بالأعياد القبطية وبعيد النيروز الفارسى لأول الربيع .

ويتولى مصر – كما مر بنا – أحمد بن طولون مكوِّنا بها الدولة الطولونية ، وتُلْقى مصر فى حجره وحجر ابنه خمارويه بكنوزها ، وكان حازما بعيد النظر رءوفا بالرعية ، فألقى عن كواهلها كثيرا من الضرائب التى كان قد فرضها عليها ابن المدبر عامل الخراج ، وكان قد زاد عليها الضرائب ،

وفرض ضريبة على النطرون وعلى المراعى وعلى المصايد فأسقط ابن طولون ذلك كله . واستقلَّ بمصر ، وفتحت له كنوزها ، وأغدقت عليه من طيباتها ، فكوّن جيشه الضخم ، وأخذ فى بناء قصره خارج الفسطاط وقطائع لعساكره من الترك والسودان والروم وغيرهم وأيضا لقواده ، وعمرت مدينته القطائع وتفرقت فيها الحارات والشوارع والأزقة والحوانيت والسِّكك وبُنيت المساجد والطواحين والحمامات والأفران . وبنى جامعه الكبير وأنفق عليه مائة وعشرين ألفا من الدنانير ، وبنى بيمارستانا وأنفق عليه ستين ألف دينار ، وجعل أمام قصره ميدانا كبيرًا للعب كرة الصولجان ، أنفق عليه خمسين ألف دينار . وكان ينفق على مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، وكان يُعْمَلُ سماط عظيم ، وينادَى : من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر ، وكان الناس يأكلون ويحملون ما يشاءون . وكان ما يدخل إلى خزائنه فى كل سنة بعد نفقاته مليون دينار ، وخلَّف فى خزائنه من الذهب حين موته عشرة ملايين من الدنانير.

واستقر السلطان بعده لابنه خمارويه وعظم دخل الدولة ، وأخذ خمارويه يغرق إلى أذنيه فى النعيم ، فزاد فى عمارة قصر أبيه ، وجعل الميدان الذى أمامه بستانا وزرع فيه أنواع الرياحين والورود وأصناف الشجر وكسا النخل نحاسا تخرج من عيونه المياه وتنحدر إلى فساقىّ يفيض الماء منها إلى مجار تَسْقِى سائر البستان ، وسرَّح فيه طيورا حسنة الصوت وطواويس مختلفة . وجعل لنفسه مجلسا سماه دار الذهب طَلَا حيطانه بالذهب واللازورد وجعل فيه تماثيل أو صورًا بارزة لحظاياه ومغنياته وعلى رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة . وجُعلت فى هذا البستان بين يدى القصر فسقية من الزئبق طولها خمسون ذراعا وكذلك عرضها ، كان يُرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب حين يتألف نور القمر بنور الزئبق . واتخذ خمارويه بيوتا للسباع وغيرها من الوحوش سوى الإصطبلات الواسعة للخيل. وكانت حلبات السباق فى أيامه تقوم مقام الأعياد ، ويقال إن عرض الخيل حينئذ كان من عجائب دار الإسلام . ومما يدل على ما وصلت إليه الدولة من ثراء جهاز ابنته قَطْر النَّدَى حين زوَّجها الخليفة العباسى المعتضد ، وكان من جملته دكة تتألف من أربع قطع من الذهب عليها قبة من الذهب مشبكة بها أقراط فى كل قرط حبة من جواهر لايعرف لها قيمة ، وكان فى الجهاز مائة هاون من الذهب ، وبنى خمارويه - كما مرَّ بنا - قصرا فى كل منزل تنزل به ابنته من مصر إلى بغداد.

ومما يدل على ثراء مصر لعهد الطولونيين ثراء واسعا أن أبا بكر محمد بن الماذرائى عامل الخراج ووزير خمارويه تملك من الضياع ما بلغ دخله أربعمائة ألف دينار فى كل سنة سوى ما كان يؤدِّيه من

الضرائب ، ويقال إنه حج إحدى وعشرين حجة وكان ينفق فى كل حجة مائة ألف دينار . وكانت مصر تحتفل بالأعياد احتفالات كبيرة : الإسلامية منها والقبطية ، بل لكأنما كانت أيامها كلها فى عهد الطولونيين أعيادا . ولذلك بكتْ دولتهم بدموع غزار . وتخلفهم فترة تعود فيها مصر إلى عهد الولاة ، وسرعان ما يتولاها الإخشيد ، فيعيد إليها بهجتها ورخاءها ، وبفضل ثرائها استطاع أن يعدَّ لنفسه جيشا ضخما مكونا من ٤٠٠ ألف مقاتل سوى ثمانية آلاف من مماليكه الأرقاء ، ومازال سعده بحكم مصر يعلو إلى أن صار له حكم الشام والثغور وخُطب له بالحجاز واليمن . وأصبحت مصر بعده لأبنائه ووصيِّهم كافور الإخشيدى . وكانت مصر تنعم بثرائها ، ويبدو أنه تكونت فيها طبقة من كبار الإقطاعيين من العمال والصناع والتجار والزراع لفتت بقوة الإخشيد ، فإذا هو يكثر من مصادرة عماله وكتابه ، ويقول ابن سعيد فى قسم الفسطاط من كتاب المغرب إنه « كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب تعرَّض لورثته وأخذ منهم وصادرهم وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير » ويقول ابن سعيد أيضا إنه لما توفى التاجر عفان بن سليمان أخذ من ميراثه مائة ألف دينار . وكان سباق الخيل فى أيامه - كما كان فى أيام خمارويه - يقوم مقام الأعياد . وكانت لوزيره ومدبر الدولة زمن أولاده جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حِنْزابة دار للأفاعى والحيات والعقارب لها قَيِّم وحاوٍ من الحواة ومعه مستخدمون .

وظلت مصر طوال زمن الإخشيديين تعنى ببعض اللهو والغناء ، وفى ترجمة الإخشيد بكتاب المغرب أن أبا بكر الماذرائى دعاه إلى طعام وجمع له المغنين من الرجال والنساء . وكان يحاكى ابنَ طولون فى احتفاله بعرض الجيش ليلة عيد الفطر وفيما كان يتخذ عقب العرض من نَصْب السماط للناس . وكان المصريون يحتفلون بعيد الفطر وغيره من الأعياد الإسلامية احتفالات كبيرة ، وبالمثل كانوا يحتفلون بالأعياد القبطية . وشهد المسعودى لعهد الإخشيد سنة ٣٣٠ أحد هذه الأعياد وهو عيد الغطاس المسيحى ، ويكون عادة ليلا ، ويقول إن الإخشيد كان بقصره فى جزيرة الروضة ، وأمر فأُسرج من شاطئ الفسطاط وشاطئ الجزيرة ألف مشعل غير ما أسرجه أهل مصر من المشاعل والشمع . ومئاتُ الآلاف من الناس على الشواطئ وفى الزوارق وقد أحضروا المآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف . ونجد بعض الشعراء يذكرون الأديرة وما فيها من خمر ، كما نجدهم يذكرون الطرد والصيد ويقول ابن سعيد إنه كانت بالفسطاط بعض دور للقمار .

وتُلْقِى مصر بكنوزها للفاطميين ، ويؤسِّسون بها أو يقيمون الدولة الفاطمية ويمتد سلطانها من

شواطئ إفريقيا الشمالية إلى بلاد الموصل ، وتدخل فى حوزتهم اليمن والحجاز فى أغلب أيامهم . وينعم الفاطميون بالخراج الذى أخذ يتزايد من نحو مليون ومائتى ألف دينار حين نزل جوهر الصقلى القاهرة إلى خمسة ملايين ونصف من الدنانير لعهد الخليفة المستعلى . وكانت المكوس تُفْرَضُ على كل شيء حتى قال المقريزى إنه لم يسلم منها حينئذ إلا الهواء . ويذكر المقدسى أنه كان يُجْبَى من تنيس يوميا ألف دينار على ما تنسج من الثياب ، ويقول المقريزى إنه بلغ المتأخر على تنيس فى ثلاث سنوات مليون دينار ومليونى درهم ، وبالمثل كانت تجبى مكوس كثيرة على ما ينسج من الثياب فى شطا ودمياط ودبيق والإسكندرية ، ويقال إنه جُبِى من تنيس ودمياط والأشمونين فى يوم واحد ٢٢٠ ألف دينار . ومما كانت تجبى عليه المكوس الشَّبُّ والنَّطْرون . وكانت تُفْرَضُ مكوس على الحمامات ، وكانت تُعَدُّ بالمئات فى الفسطاط والقاهرة ، وعلى الحوانيت ، ويذكر ناصر خسرو أنها كانت تبلغ فيهما نحو عشرين ألفا ، وكان إيجار الحانوت يتراوح بين دينارين وعشرة دنانير شهريا . وبجانب هذه المكوس كانت هناك الجوالى التى يدفعها أهل الذمة . وكانت – كما يقول ابن مماتى فى كتابه قوانين الدواوين – تُفْرَضُ مكوس على المتاجر الصادرة والواردة تبلغ نحو عشرين فى المائة من العُروض أو البضائع . وكانت هناك حبوس كثيرة أو بعبارة أخرى أوقاف محبوسة على وجوه البر ، أخذت تتزايد منذ نهض الليث بن سعد فقيه الفسطاط فى القرن الثانى – لأول مرة – بهذا الصنيع . وكل ذلك كان يصبُّ فى خزائن الدولة الفاطمية ، حتى لتصبح مصر وكأنها فردوس العالم العربى ، وفيها يقول المقدسى : « هى الإقليم الذى افتخر به فرعون على الورى .. أحد جناحى الدنيا ، ومفاخره لا تحصى ، مصره (يريد الفسطاط) قبة الإسلام ونهره أجل الأنهار ، وبخيراته تُعْمَرُ الحجاز ، وبأهله يبهج موسم الحاجّ ، وبِرّه يعمّ الشرق والغرب ، قد وضعه الله بين البحرين (الأحمر والمتوسط) وأعلى ذكره فى الخافقين ، حسبك أن الشام – على جلالتها – رُسْتاقه (قُراه) والحجاز – مع أهلها – عياله » .

وطبيعى أن تتضخم – مع هذا الثراء الهائل فى مصر – الطبقة العليا : طبقة الأسرة الفاطمية ووزرائها وقوادها وكبار موظفيها وأشراف العلويين وكبار إقطاعييها وتجارها . وقد أكثر الفاطميون من الإقطاع للوزراء والقواد ، وكان عندهم نظامان للإقطاع : إقطاع تمليك يورَث وإقطاع استغلال يَمْنح حق الانتفاع لشخص بعينه ولا يورث . ويُرْوَى أن يعقوب بن كِلِّس أول وزرائهم بمصر كان راتبه فى العام مائة ألف دينار ، وقالوا إنه لما توفى ترك من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف دينار ومن المصوغات ما قيمته نصف مليون دينار . وذكر ابن خلكان أن وزيرهم فى أوائل القرن

السادس الهجرى الأفضل بن بدر الجمالى ترك ستمائة مليون دينار ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج وثلاثين راحلة حقاق ذهب ، ودواة ذهب محلاة بجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة محابس فى كل محبس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بِلَوْنٍ من الألوان وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من نسج تنيس ودمياط ، وخلَّف من الرقيق والخيل والبغال والجواميس والبقر ما لا يعلم قدره إلا الله . وكأنما حوَّل كل أموال مصر فى عهده إلى خزائنه ، وأى خزائن إن أكبر مليونير أمريكى فى عصرنا لا يبلغ من الثراء مبلغه . وحتما كانت تحدث بمصر أحيانا مجاعات بسبب نقص النِّيل والقحط ، كما مر بنا فى عهد المستنصر ، وقد تحدث أوبئة ، ولكن مصر كانت تنفض عنها ذلك دائما وتعود سريعا إلى رخائها الذى أتاح للوزيرين السالفين كل هذا الثراء .

وإذا كان هذا حال وزيرين فما بالنا بأحوال الخلفاء وما كانوا يغرقون فيه من ثراء وترف ، ويكفى لبيان ذلك أن نعرف أنه بعد أَنْ تَقَوَّضت الدولة واستولى صلاح الدين على مقاليد الحكم كُشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر الفاطمى ، فإذا به من الكنوز ما لا يكاد يخطر ببال ، حتى ليقول المقريزى : « خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يفى به ملك الأكاسرة ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حسابات الخلق فى الآخرة » .

ولعل فى كل ذلك ما يدل على الثراء والترف والبذخ فى أيام الدولة الفاطمية ، ويزخر حديث المقريزى وغيره بملابس الخلفاء وعمائمهم المرصعة بالجواهر وما كانوا يتخذون من زينة فى أثاثهم وأوانى طعامهم وفى قصورهم وبساتينها وأروقتها وأفنيتها وأعمدتها وأرضها المفروشة بالرخام المتعدد الألوان ، مما بهر ناصر خسرو فى القرن الخامس ، كما بهر غليوم رئيس أساقفة صور فى نهاية أيام الفاطميين سنة ٥٦٢ على نحو ما يلقانا فى كتاب كنوز الفاطميين . ويقول ناصر خسرو إن أهل القاهرة كانوا يعنون بزراعة الأزهار فى سطوح منازلهم حتى لتُرى كأنها حدائق ، ومما يدل على سعة الرخاء لعهده ما ذكره عن سيدة بمصر كانت تملك خمسة آلاف قِدْرٍ ، تؤجِّر كل قدر منها بدرهم . ولعل فيما ذكرنا من هذا الرخاء والترف ما يدل على أن الصناعة كانت مزدهرة بمصر ، وكان العائد منها على الصناع عظيما وبالمثل كانت التجارة وأيضًا الزراعة . وكل شيء يؤكد أن الفلاحين كانوا يتعاملون مع الملاك بنظام المزارعة الموجود حتى الآن ، فللمالك نصف المحصول وللزارع أو الفلاح النصف الآخر ، وتلقانا فى النصوص كلمات الخولى والسائس والحرَّاث والجنايني

والأجير والأعوان وعاصر النبيذ .

ويبدو أن مصر أخذت تعنى عناية واسعة بالغناء منذ هذا العصر ، حتى لنجد ابن الطحان يؤلف فى الغناء والمغنين كتابا . وشاع النبيذ والشراب بأكثر مما كانا يشيعان فى الأزمنة السابقة لكثرة الوافدين على مصر من الشرق للدعوة الفاطمية ، وكأنما حملوا إلى مصر شغف بيئاتهم – وخاصة إيران – به .

واتسع الفاطميون بالأعياد الإسلامية ، وهى – كما يقول المقريزى – موسم رأس السنة ، ويوم عاشوراء ، ومولد الرسول ﷺ ، ومولد على ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان أو غُرَّة رمضان ، وسماط رمضان من اليوم الرابع حتى اليوم السادس والعشرين ، وليلة الختم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد الأضحى ، وعيد الغدير (الذى يؤمن الشيعة بأن الرسول عهد فيه بالخلافة إلى على بن أبى طالب) وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج (وفاء النيل) وعيد النيروز (أول الربيع) وهو عيد فارسى كان الناس يوقدون فيه النار ويرشون الماء . ومن أعياد النصارى عيد الغِطاس وعيد ميلاد المسيح وخميس العدس قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وفيه يأكل القبط العدس ، وعيد الزيتونة وهو يوم أحد الشعانين ، وكانت الكنائس تزيَّن فيه بأغصان الزيتون وقلوب النخْل . وبعض هذه الأعياد كانت تتحول كرنفالات كبيرة ، إذ يقول المقريزى : « كان الناس بمصر يخرجون فى بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات » والخيال هو لعبة خيال الظل المضحكة التى تحولت مع الزمن إلى لعبة الأراجوز المعروفة ، ولعل التماثيل هى نفس أشباح الأراجوز ، أما السماجات فأشخاص يتراءون فى صور منكرة مضحكة ، وقد يحاكى نفر منهم شعوبا أجنبية وكأن ظاهرة ضحك المصريين من أصحاب الرطانات فى العربية وغيرها قديمة . وكانوا يتسلَّون بنطاح الكِباش ومهارشة الكلاب والديكة . وبينما كان الفاطميون وأهل القاهرة مقبلين على هذه الملاهى كان الصليبيون – كما مر بنا – قد نزلوا بالشام واحتلوا بيت المقدس وأنطاكية وأكثر ثغورها ، وكان لابد من منقذ ينقذ مصر والبلاد الشامية مما أصابهما من فساد شديد فى أداة الحكم .

وانتقل الحكم والسلطان إلى صلاح الدين وأسرته الأيوبية ، وفى عهده وعهد الأسرة جميعا تحولت مصر إلى ثُكْنة عسكرية ضخمة ، وسرعان ما أخذت تباشير النصر على الصليبيين تلوح ، بل سرعان ما تهاوت قلاعهم تحت أقدام المصريين ، وتهاوى معها بيت المقدس ، ورُدَّت الديار

إلى أصحابها إلا قليلا . وكان المفروض أن يثقل صلاح الدين كواهل المصريين بالضرائب الباهظة من أجل السلاح والإنفاق على جيوشه ، غير أن الذى حدث كان عكس ذلك تمامًا ، فقد خفَّف الضرائب عن المصريين ورفع عنهم أكثر المكوس إن لم يكن كلها ، حتى ليقول المقريزى إنه أسقط منها ما يزيد عن مليونى دينار ومليونى أردب وبالمثل أسقط عن أهل الذمة ضرائب كثيرة حتى قالوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار . ولعل مما يدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن يمتص شيئا من أموال الناس وأن كل ما كان يؤول إليه من الجوالى والضرائب يُنْفَقُ فى الحرب دون أن يختزن منه أى شىء لنفسه ما ذكره ابن تَغْرِى بَرْدى وغيره من المؤرخين مثل ابن شداد فى سيرته من أنه حين لَبَّى نداء ربه لم يوجد فى خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصريا ودينارًا واحدا ذهبا صُوريًّا ، ولم يخلِّف مِلْكا ولا دارا ولا عقارًا ولا بستانا ولا ضَيْعة ولا مزرعة . ويروى ابن تغرى بردى أن ابنه العزيز كان يسير سيرته فى الرعية ، ويقول إنه وهب لصياد دينارين ، وتعذَّر عليه أن يدفع له هذا المبلغ اليسير . وبالمثل كانت سيرة خلفائه سيرة عادلة ، وكانوا دائما كأنهم مرابطون لحرب الصليبيين ، وقد مات السلطان نجم الدين أيوب وهو يجاهد لويس التاسع وخلفه ابنه توران شاه — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — فأنزل به هزيمة ساحقة ، وهو آخر سلاطين هذه الدولة بمصر الذين ظلوا يجاهدون الصليبيين حتى الأنفاس الأخيرة من حياتهم .

وعُنِى صلاح الدين ببناء القلعة وبناء كثير من المدارس والرِّباطات ، وظل خلفاؤه يُعْنَوْنَ بالعمران ، مما أَنْعَشَ الصناعات فى القاهرة ، وكانت صناعة الثياب مزدهرة بتِنِّيس وغيرها . وقد عُنِى الأيوبيون بالتجارة ، وعقدوا — كما يقول بروكلمان — سلسلة من الاتفاقات التجارية مع الدول الأوربية مما عاد بفوائد كثيرة على التجار المصريين ، وكانوا يعنون بالزراعة ونظم الرى عناية فائقة . ويصف ابن جبير فى رحلته لعهد صلاح الدين ريف مصر وقراه التى لا تحصى كثرة ، ويقول إن العمارة فيها متصلة ، وفيها الأسواق وجميع المرافق . ولحقته صلاة الجمعة بإحدى هذه القرى فصلَّى بها الإمام فى مجمع حفيل وخطب خطبة بليغة جامعة . ويشيد بالمارستان الذى بناه صلاح الدين بالقاهرة وما فيه من عناية بالمرضى ، ويذكر موضعا فيه مقتطعا للنساء ومقاصيرَ عليها نوافذ من حديد اتُّخذت محابس للمجانين ، كما يذكر مارستانا آخر بالفسطاط على ذلك الرسم بعينه . ويذكر جزيرة الروضة ومبانيها المشرفة الحسان ويقول إنها مجتمع اللهو والزينة ، فأهل الفسطاط والقاهرة لم ينسوا حتَّى فى عهد صلاح الدين وحروبه وجهاده لهوهم ومرحهم ، وحقا لم يُعْنَ

الأيوبيون بالأعياد الكثيرة التى كان يعنى بها الفاطميون والتى بلغت فى تقدير المقريزى نحو ثلاثين عيدًا ، ولكن على كل حال بقيت منها بقية إسلامية كانت تُمَدّ فيها الأسمطة للشعب وكذلك بقيت بقية من الأعياد النصرانية . وطبيعى أن يُشْغَلَ الأيوبيون عن الأعياد المصرية بحروبهم مع الصليبيين وما كانت تَسْتَنْفِدُ منهم من أموال ضخمة . ويبدو أن فنون اللهو وما يتبعها من القمار والخمر مما عُرف فى عهد الفاطميين ظلت فى أيام الأيوبيين وإن خفت حدتها ، ويقول ابن تغرى بردى عن السلطان العادل الأيوبى إنه طهَّر جميع ولاياته – فى مصر وغير مصر – من الخمور والخواطئ والقمار . وطبيعى أن لا تفارق البسمة شفاه المصريين فى أيام انتصارات سلاطينهم الأيوبيين على الصليبيين وأن لا يفارق المرح نفوسهم ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش لابن مماتى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين ، وكان قد عيَّن قراقوش محافظا للقاهرة وأمره ببناء القلعة ، والكتاب مجموعة من النوادر المضحكة على قراقوش وأحكامه الحمقاء . وسرعان ما أصبح قراقوش شخصية خيالية لكل حاكم مخبول فيه بله وغفلة وحمق ، وسُمِّى فى تركيا قراقوز ، وعاد إلينا باسم أراجوز وبعروضه المضحكة .

ويتحول صَوْلجان الحكم وأزمَّته إلى أيدى سلاطين المماليك ، ويكسبون لمصر مجد الانتصار على التتار ، وتنحسر موجتهم إلى العراق وماوراءه ، ويَطْردون نهائيا الصليبيين من ديار الشام. ويعود التتار مع تيمورلنك إلى الشام وتنسحب جموعه إلى آسيا الصغرى ، ويتوفى فتتمزق دولته . وتُعَدّ أيام المماليك من أزهى أيام مصر الإسلامية إن لم تكن أزهاها ، فقد ورثت عن بغداد الخلافة العباسية ، كما مر بنا ، وتوافد عليها العلماء والأدباء من العراق وما وراءه فارِّين من وجوه التتار ، وكانت الأندلس تمر بأيامها الأخيرة فوفد عليها أدباؤها وعلماؤها ، كما وفد من قبلُ علماء صقلية وأدباؤها حين احتلها النورمان . وبذلك كله كانت مصر منذ عصر الأيوبيين موئلَ العروبة والإسلام . وظلت بها ثلاث طبقات متقابلة طوال زمن المماليك : طبقة الحكام ، وطبقة وسطى من كبار التجار ، وطبقة دنيا من الفلاحين والعامة . وكانت الطبقة العليا الأولى تعيش منفصلة عن الشعب : فى جزيرة الروضة أولا ثم فى الجبل ، على نحو ما هو معروف عن المماليك البحرية والبُرْجية ، وقد ظلوا محافظين على طبقتهم فهم لا يختلطون بالشعب ، ودائما كانوا يعملون على تنمية أنفسهم بعناصر جديدة منهم ، كان يستوردها لهم النخَّاسون من أحداث الرقيق المجلوب غالبا من القوقاز وجنوبى روسيا وبيزنطة ، وكانوا يدرِّبونهم فى القلعة على الفروسية ، ويُعِدُّون لهم أساتذة يعلمونهم الكتابة والحساب وشيئا من القرآن الكريم والحديث النبوى ، حتى إذا شبُّوا

توزعهم أمراء المماليك ، مكوّنين منهم فرقا عسكرية . وما يلبث جنود هذه الفرق أن يقتنوا الإقطاعات ، وكانت أحيانا إقطاعات تمليك كما مر بنا فى العصر الفاطمى فهى تورث ، وأحيانا كانت إقطاعات استغلال . وبمرور الزمن تكاثرت هذه الإقطاعات فى أيام المماليك تكاثرا شديدا ، حتى اضطر بعض السلاطين إلى فكها ولكن سرعان ما كانت تعود .

وبذلك كان من أهم ما يميز عصر المماليك أنه عصر إقطاع ، وكان الفلاح لا يزايل إقطاعه وكأنه – حياته – قِنٌّ كما يقول المقريزى . ويعجب السبكى فى كتابه معيد النعم من هذا الرق للفلاح ، ويقول : من حق الفلاح أن يكون حرا لايد لآدمى عليه . وكأنما حُرم أصحاب الأرض الحقيقيون من تملك الأرض ، وتملَّكها المماليك الأرقاء ، وكانوا كثيرا ما يفرضون عليهم – كما يقول ابن إياس – ضرائب استثنائية غير الضرائب العادية . ومع ذلك ففى النصوص أن نظام المزارعة المعروف كان – كما أسلفنا – مستمرا فى هذه الحقب ، وهو النظام الذى يجعل للفلاح نصف المحصول وللمالك نصفه الآخر ، ويبدو أن أصحاب الإقطاعيات كثيرا ما كانوا يظلمون الفلاحين . على أن تسلط المماليك على الأرض والزراعة جعلهم يعنون بالجسور وبنظام الرى وبالثروة الزراعية عامة وكذلك بالثروة الحيوانية . وكانت الدولة تشترى كثيرا من المحاصيل وتُعيد توزيعها على تجار التجزئة ، حتى تمنع المضاربات التجارية .

وكانت الصناعة مزدهرة ، فقد كانت أيام المماليك أيام ترف فى بناء القصور الباذخة وفى كل شئون الزينة ، وكانت للدولة مصانع خاصة للخِلع السنية التى يخلعها السلاطين على الأمراء وكبار رجال الدولة . وكانت تزدهر صناعة الملابس والفرش والأثاث والجلود والحلى والمعادن والزجاج الملون . وكانت الدولة تهتم بصناعة الأسلحة وسفن الأساطيل . وكل ذلك عمل على ازدهار الصناعات ، ومما يدل على هذا الازدهار بوضوح أن نجد لكل فئة من الصناع نقابة خاصة تنظر فى شئونهم فيما بينهم وبين أنفسهم كذلك فيما بينهم وبين الشعب من جهة والحكومة من جهة ثانية .
وكانت التجارة بالمثل مزدهرة ، بل كانت أكثر ازدهارا ونشاطا ، فإن مصر حينئذ كانت تمسك بالشطر الأكبر من أزمة التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبعبارة أخرى بين الهند وشرق آسيا وبين أوربا ، مما جعلها تعقد شبكة من المعاهدات بينها وبين جمهوريات إيطاليا التجارية مثل جنوا والبندقية فضلا عن بقية ثغور البحر المتوسط وجزره . وكانت الدولة تحصل على دخل ضخم من مكوس التجارة ، حتى إذا سقطت أهمية طريق مصر إلى الشرق باكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ كان ذلك إيذانا بانتهاء دولة المماليك فى مصر واستيلاء العثمانيين عليها .

ولعل فى هذا كله ما يدل على مبلغ الثراء ، الذى كانت تحياه هذه الدولة ، عن طرق مختلفة من التجارة والصناعة وخراج الأرض والجوالى ، وأيضا فإن الحبوس أو أراضى الأوقاف التى أشرنا إليها فى غير هذا الموضع مضت تتزايد زيادات كبيرة ، بحيث كانت مصدرا أساسيا من مصادر دخل الدولة ، وكانت تُضَمُّ إليها ضميمة أخرى من مصادرة أموال التجار أحيانا وفاء بما قد تتطلبه الحروب ، وكانت مصادرة الإقطاعات مستمرة بمجرد أن يموت أصحابها . وكل هذا معناه أن دولة المماليك كانت ثرية ثراء طائلا ، وهو ثراء أعدها لتنهض نهضة كبيرة بالحركة العلمية وبفن العمارة ، وتكتظ القاهرة بمساجد سلاطينها وقبابها الشامخة الرائعة .

وعادت إلى مصر فى أيام هذه الدولة أعيادها الكثيرة فى العصر الفاطمى : الإسلامية والقبطية عدا الأعياد الشيعية . وأضاف المماليك عيد محمل الحج . وعادت الكرنفالات والاحتفالات الكبيرة فى هذه الأعياد ومن يتنكرون بها من أصحاب المساخر والسماجات . واتسعت فنون اللهو والتسلية ، وكان الناس يخرجون للتنزهة فى أمكنة كثيرة على شاطئ النيل مثل الأزبكية وكان يمر بها قديما ، ومثل بولاق وجزيرة الروضة . وكانوا يستأجرون القوارب والسفن الشراعية للتنزه بها فى النيل ومعهم بعض المغنين والمغنيات ، واشتهر بينهم كثيرون ، ويذكر ابن حجر منهم فى كتابه « الدرر الكامنة » عبد العزيز الحفنى أعجوبة زمانه فى فن الغناء و« خولى » أعجوبة أيامها فى الضرب على العود ومحمد بن على الدهان وكان يتقن الغناء على القانون . ويذكر السخاوى منهم فى كتابه « الضوء اللامع » خديجة الرحابية . وكان هناك من يتعاطون الخمر أحيانا وكذلك الحشيش ، وقد يكثر من يتورطون فى تعاطيهما فيضطر السلطان إلى الأمر بإحراق الحشيش وإراقة دنان الخمر فى كل مكان كما صنع الظاهر بيبرس . ومن ملاهيهم حينئذ النرد والشطرنج وتطيير الحمام وتهارش الديكة والصيد ورمى الطير بالبندق . وارتقى حينذاك خيال الظل وأصبح مسرحا شعبيا تاما ، ويؤلف له ابن دانيال ثلاث مسرحيات ألفها فى عهد الظاهر بيبرس ، وجميعها تصور مواقف ومشاهد فكاهية تثير الضحك فى المتفرجين . ويقول السخاوى إنه كان من ملاهيهم سماع سيرة عنترة وذات الهمة وأبى زيد الهلالى والظاهر بيبرس . وكأنما كُتب على الشعب المصرى أن يؤدى ثمنًا باهظا لمرحه ولهوه فى زمن المماليك ، فإذا العثمانيون يجتاحون دياره . وتُغْتم سماء مصر فقد كستها سحبهم المظلمة نحو ثلاثة قرون إلا قليلا ، إذ تحولت من إمبراطورية ذات سلطان وصولجان إلى ولاية عثمانية ، وليس ذلك فحسب ، فقد جرَّدها فاتحها سليم من علمائها ورجال الفنون بها ومهرة صناعها . وتراثها الفنى وكل ما كان بها من تحف نفيسة ، ويقال إنه أبطل بمصر خمسين

صناعة . وبذلك كان فتح العثمانيين لمصر كارثة من كل وجه ، لم تكن كارثة سياسية فحسب ، بل كانت أيضا كارثة علمية وفنية وصناعية ، وحتى مسرح خيال الظل شاهده سليم فأنعم على صاحبه بطائفة من الدنانير ، كما يقول ابن إياس ، وخلع عليه قفطانا مذهبا ، واصطحبه معه إلى القسطنطينية . وعلى هذا النحو انتكست مصر انتكاسة لم تستطع أن تفيق منها إلا بعد فترة طويلة . وقد ضاعت منها حينئذ مواردها التجارية وما كان لها من مكانة فى التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وضاعت مواردها الصناعية ، فقد غادرها مهرة الصناع إلى القسطنطينية ، ولم يبق لها إلا الزراعة ، والعثمانيون والمماليك يعتصرون خيراتها وطيباتها من الرزق ، حتى لا يبقى للفلاح سوى البؤس والضنك وشظف الحياة . وربما كان خير ما يصور تعاسة الفلاحين المصريين فى هذه الفترة كتاب « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » ليوسف الشربينى وهى قصيدة عامية هزلية ومثلها شرحها ، وهما يحملان سخرية لاذعة بالحكم العثمانى للمصريين وما أرهق به العثمانيون والمماليك الفلاح المصرى من عسف وظلم لا يدانيه ظلم ، ظلم جَرَّ أفظع ما يمكن من الجهل والبؤس ، حتى ليصبح أفخر طعام الفلاح خبز الشعير والجبن القَريش (الخالى من الدهن) والبصل والعدس والبيسار ومن ورائه سياط السخرة . وهو يسوق ذلك فى أسلوب فكه يحمل كثيرا من السموم .

٥

التشيع : الدعوة[١] الفاطمية الإسماعيلية

مرَّ بنا – فى غير هذا الموضع – أن مصر دخلت فى بيعة على بن أبى طالب بالخلافة وأنه اختلف عليها ولاة من قبله . غير أن ذلك لا يعنى أنها اتخذت التشيع عقيدة ، وحقا كان يحدث فيها أحيانا تحركات لبعض العلويين وبعض شيعتهم وأنصارهم ، غير أنها لم تكن تحركات مذهبية ،

(١) انظر فى هذه الدعوة رسالة افتتاح الدعوة للقاضى النعمان بن محمد (طبع بيروت) وكذلك دعائم الإسلام له (طبع دار المعارف) وراحة العقل للكرمانى (طبع القاهرة) والمجالس المستنصرية (طبع دار الفكر العربى) وكذلك الهمة فى آداب اتباع الأئمة . وانظر كتاب العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر (الطبعة العربية) ص ٢١١ وما به من مراجع وكتاب أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (من منشورات مكتبة المثنى) وكتاب فى أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين وما به من مراجع وخاصة للمستشرق إيفانوف .

إذ لم تكن تعدو أن تكون نصرة لعلوى بعينه . وتمضى مصر بعيدة عن العقيدة الشيعية ، حتى ينزلها دعاة الدولة الفاطمية حين تأسست بالمغرب ، ولم يفلح أحد منهم فى حملها على الثورة ضد العباسيين ، وكأن دعوتهم لم تكن تلبث أن ترتد معهم إلى المغرب .

وما نصل إلى سنة ٣٥٨ حتى يفتحها جوهر الصقلى وينشئ بها القاهرة ويتخذها الفاطميون حاضرة لهم ، ويقيمون بها دولة شيعية إسماعيلية ، ومرَّ بنا أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت فى زمن مبكر إلى اثنى عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة إلى ابنه موسى الكاظم وتوالت بعده فى خمسة من الأئمة آخرهم محمد المهدى المنتظر المختفى منذ سنة ٢٦٠ للهجرة ، وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى فى حياته لأن الإمامة عندهم تنتقل إلى الابن الأكبر حتى لو مات فى عهد أبيه ، ومرَّ بنا كيف أن عبد الله بن ميمون القدّاح نظم الدعوة الإسماعيلية ، وأن أحد دعاتها هيأ لعبيد الله الفاطمى حكم تونس فنزلها وأعلن دعوته بها سنة ٢٩٨ ، وخلفه القائم فالمنصور فالمعز الذى اتسع بالدولة ومدَّ حدودها شرقا إلى الشام .

ويؤمن شيعة الفاطميين الإسماعيلية بمجموعة من المبادئ أولها فكرة أن إمامة المسلمين الشرعية إنما هى لعلى وأبنائه من أئمتهم المنحدرين من السيدة فاطمة الزهراء ، وكل إمام منهم وصىٌّ لسلفه طبقا للترتيب الإلهى فى خلافته أو ولايته الربانية على أمور الأمة . وقد بدأ الرسول ﷺ — فى اعتقادهم — فأوصى بخلافة على وإمامته من بعده ، ورووا فى ذلك أحاديث حمَّلوها هذا المعنى مثل : « على منى بمنزلة هرون من موسى » كما رووا أحاديث خاصة بهم تشير إلى تتابع الإمامة فى آل البيت ، ووجهوا بعض الآيات القرآنية نفس الوجهة مثل قوله تعالى : (ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادنا) .

ومبدأ ثان قرروه هو طاعة الإمام سواء دعا لنفسه سرًّا أو علانية وجهرًا ، فطاعته جزء لا يتجزأ من إيمان الإسماعيلية ، فهم كما يؤمنون بالله ورسوله يؤمنون بإمام العصر ويفوضون أمورهم إليه ويبذلون أنفسهم من دونه . فريضة مقدسة ، ينضوون تحت لوائه ويبرءون من أعدائه ويوالونه أصدق الولاء .

ومبدأ ثالث هو عصمة أئمتهم ، إذ يرفعونهم فوق المستوى الإنسانى بفضائل فطرية فيهم تجعلهم مبرَّئين من الذنوب مطهَّرين من الآثام ، لا يتورطون فى معصية ، ولا يقعون فى أى خطيئة مهما كانت صغيرة ، لما ينتقل فى أصلابهم — حسب اعتقادهم — من نور إلهى ينقِّى أرواحهم

ويُخْليها من دواعى الشر وآثامه ، وهو نور ظل ينحدر من آدم وأبنائه الطاهرين حتى انتهى إلى عبد المطلب وحفيده الرسول عليه السلام ، وكأنما أصاب عليا حفيده الآخر منه شعاع مايزال ينتقل فى الأئمة جيلا بعد جيل .

ومبدأ رابع هو الاتساع بالتأويل فى القرآن الكريم وآياته ، مستدلين بمثل قوله تعالى : (وكذلك يَجْتبيك ربك ويعلِّمك من تأويل الأحاديث) زاعمين أن للقرآن ظاهرا ووراء ظاهره باطنا لا يعلمه إلا أئمتهم ، خُصُّوا به دون غيرهم من البشر . واشتق الدكتور محمد كامل حسين من هذا المبدأ عندهم نظرية المثل والممثول ، فظاهر القرآن مثل وباطنه فى رأيهم ممثول ، وجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول . وعلى الإسماعيلى أن ينحى عن بصره الظاهر المتبادر الذى يحول بينه وبين رؤية الشريعة على حقيقتها وفى باطنها . وهم بذلك يقتربون من نظرية الأفلاطونية الحديثة التى تدعو إلى نبذ الأستار والحجب المادية حتى يفضى الإنسان إلى وطنه السماوى . وقد أوغلوا فى التأويلات الباطنة ، لآى الذكر الحكيم ناسبين ذلك إلى أئمتهم ، مما لا يحتمله ظاهر القرآن أى احتمال ، ولذلك يسميهم أهل السنة الباطنية .

ونصل إلى المبدأ الخامس الذى يفصل العقيدة الإسماعيلية عن النظرية العامة لأهل السنة والشريعة الإسلامية فصلا تاما . وهو مبدأ تتداخل فيه نظرية الفيض الأفلاطونية ، إذ يزعمون أن الأئمة منذ آدم يتوالون فى أدوار كل دور يتكون من سبعة ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى الفعال الذى انتقلت إليه قدرة الله ، وعنه تصدر النفوس الكلية التى يمثلها الأئمة الستة فى الدور كما تصدر جميع المخلوقات . ويأخذ تاريخ البشرية منذ آدم هذا النظام الدورى السبعى الكونى ، وكل دور يَدْعَمُ عمل الناطق السابق له ويمهد لناطق الدور الجديد . ويتجلى النور الإلهى فى كل دور من هذه الأدوار ويبلغ كماله فى الإمام الناطق الحامل لرسالة نورانية باهرة . وهم يزعمون أن الرسول كان عقلا فعالا وأن عليا وصيَّه – فى اعتقادهم – كان نفسا كلية ، فلما رفع الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبح علىٌّ عقلا فعالا . ومما زعموه أن نفوس الأئمة الستة قبل العقل الناطق تعود بعد الوفاة إلى عالم العقول وتصبح مِثْلَه عقولا كلية مدبرة للكون .

ومبدأ سادس هو إطلاقهم كل صفات الذات العلية على أئمتهم ، وهم يبدءون فيقولون ان لكل إمام نسبتين : نسبة إلى عالم الطبيعة ونسبة إلى عالم القدس ، بالضبط كما يعتقد النصارى فى المسيح . وزعموا أن الله – جَلَّ جلاله – ينبغى أن يتنزَّه عن كل الصفات والأسماء ، وقالوا – بزعمهم – إن أسماءه الحسنى إنما هى أسماء العقل الأول الفعال أو العقل الكلى وأن الله أعلى من أن

يسمَّى باسم أو يوصف بصفة . ومضوا فأضفوا صفاته وأسماءه على أئمتهم ، وبذلك رفعوهم إلى مرتبة التأليه ، بل لقد حسبوهم تجسدًا للذات العلية ، حتى ليقول الداعى شهاب الدين أبو فراس فى كتابه « مطالع الشموس فى معرفة النفوس » : « اعلم أن الإمام الموجود للأنام لا يخلو منه زمان ولا يحوزه مكان ، لأنه إلهى الذات ، سرمدى الحياة ، ولو لم يُتأنَّس إلى معرفته بالحدود والصفات لما كان للخلق إلى معرفته وصول » وكأن أبا فراس لا يصف الإمام الفاطمى وإنما يصف الله سرمدى الوجود الذى لا يحدُّه الزمان ولا يحصره المكان والذى لا يُعْرَفُ إلا بأسمائه وصفاته . ولا ريب فى أن الدعاة من أمثاله هم الذين سوّلوا للحاكم بأمر الله أن يظن أو يتوهم أنه التجسد الإلهى للذات العلية ، فدعا له بعض دعاته إلى عبادته . ولما طفح الكيل قُتل فى ضواحى القاهرة ، وأشاع أنصاره أنه اختفى وسيرجع يوما إلى الدنيا وعالمها المحسوس .

ومبدأ سابع وهو مبدأ سلبى ، إذ كانوا يُلْغون الاجتهاد والأخذ بالقياس فى الشريعة على نحو ما هو معروف عند أهل السنة ، إذ جعلوا المرجع إلى الإمام ، وهو معصوم من الخطأ ، والحكمُ إذن حكمهُ والفتوى فتواه دون منازع . وبذلك ألغوا حرية الفكر والرأى وما يتبعها من الاجتهاد العقلى فى أمور الأمة والجماعة . وثبت عندهم ذلك واستقرت بسببه طاعتهم للإمام ووجوب الخضوع لأحكامه ، إذ هو الوارث لعلوم أهل البيت .

وهذه هى أهم المبادئ فى العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ولهم فى الفقه بعض آراء خالفوا فيها الجماعة مثل المناداة فى الأذان بحىَّ على خير العمل ومثل ميراث البنت لكل مال أبيها إذا لم يكن لها أخ ، ومثل مَسْح القدمين فى الوضوء بالماء لا غسلها . ولعل دولة عربية لم تُعْنَ بالدعاية كما عُنى الفاطميون ، فقد كان لهم فى كل بلد دعاة ، وكانوا يقسمون العالم العربى والإسلامى إلى أقسام سموها جزائر وعينوا لكل جزيرة دعاتها ، وللدعاة جميعا رئيس أعلى يسمى داعى الدعاة وباب الأبواب ، ويليه الحجة وهو كبير الدعاة فى الإقليم ، وصاحب التأويل الذى يعقد مجالس الحكمة ويتلو على الناس علوم أهل البيت ويأتى وراء ذلك الدعاة والنقباء من كل صنف .

ومن يحاول التعرف على دعاة هذه الدولة سيلاحظ توا أنهم كانوا غير مصريين وأنه كان بينهم المغربى والشامى والإيرانى ، وكأن مصر لم تقبل على الدعوة الفاطمية ، بل ظلت مبتعدة عنها ، وكأنها دخلتها من باب وخرجت من باب آخر ، كريح مرت ولم تترك وراءها أثرا. ومعنى ذلك أن مصر لم تعتنق المذهب الإسماعيلى الفاطمى ، ربما اعتنقه بعض أفراد ، أما مصر الأمة والشعب فقد ظلت منصرفة عنه فى إصرار لسبب طبيعى وهو أن مصر بلد معتدل المزاج لا يتطرف يمينا

ولا يسارًا ، بل إن التطرف يخالف طبيعته ويباينها أشد المباينة . وحاول بعض الباحثين أن يجد شيئا من أثر التشيع الفاطمى ، فعثر على أسماء أفراد كانوا يتشيعون أو ينسب لهم التشيع هنا وهناك ، ونجزم بأنهم لم يكونوا إسماعيليين يؤمنون بالمبادئ السابقة ، إنما كانوا محبين لأهل البيت ، وكانت مصر قبل الفاطميين وإلى اليوم تحبهم ، ولكن دون أن تعتنق مذهبا من مذاهب الشيعة ، فضلا عن المذهب الإسماعيلى وما فى مبادئه من غلو مفرط .

٦

الزهد[1] والتصوف

مصر – من قديم – بلد دين ، تعيش به وتعيش له ، وما أهراماتها إلا رموز ضخمة لدينها الوثنى فى عصر الفراعنة ، حتى إذا اعتنقت المسيحية توغلت فيها وفيما تحمله من زهد فى حطام الدنيا ومتاعها الفانى ، نافذة خلال ذلك إلى الرهبنة التى أشاعتها فى هذا الدين ، حتى غدت من خصائصه ، فإذا أناس من معتنقيه يعتزلون العالم وكل ما فيه من شهوات ومآرب إلى الأديرة ينفقون فيها حياتهم ناسكين متعبدين . وتدخل مصر فى الإسلام وسرعان ما تقبل على تعاليمه الزاهدة التى تحض على التقوى والنسك ، ترفدها فى ذلك نوازعها الدينية الموروثة ، وهى نوازع ظلت تنبض بقوة فى المجتمع المصرى الإسلامى . وحقا قد نجد أحيانا أفرادا من الشعب أو من الأمراء الحكام يمجنون ، وقد نجد أسرابًا من المجون فى بعض الأزمنة المتأخرة ، ولكن ذلك لم يكن يعدو زَبَدًا أو قشورا تبدو أحيانا فوق السطح ، أما الأعماق فترفض المتاع الدنيوى المادى وتتعلق بما عند الله من المتاع الأخروى الروحى .

---

(١) انظر فى الزهد والتصوف الولاة والقضاة للكندى ، والمغرب ، وحسن المحاضرة للسيوطى ، وطبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ، والطبقات الكبرى للشعرانى . وكذلك كتاب لواقح الأنوار ، والخطط للمقريزى فى الخانقاهات والرباطات والزوايا ، والرسالة القشيرية ، وكشف المحجوب للهجويرى ترجمة الدكتورة إسعاد عبد الهادى قنديل وأخبار الحكماء للقفطى وتهذيب ابن عساكر وابن خلكان وابن شاكر فى تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغرى بردى وبدائع الزهور لابن إياس وتاريخ الجبرتى وكتاب فى التصوف الإسلامى لنيكلسون والحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى للدكتور عبد اللطيف حمزة وإبراهيم الدسوقى وأحمد البدوى فى دائرة المعارف الإسلامية والتصوف فى مصر إبان العصر العثمانى والشعرانى للدكتور توفيق الطويل .

ومنذ الفتح الإسلامى تنشأ فى مصر وتنمو جماعات من النساك العباد تتجرد عن متاع الدنيا وتنبذ طيباتها ، واقرأ فى تراجم القصاص الوعاظ والفقهاء والمحدثين والقراء والقضاة ، فستجد عشرات من هذه الفئات يزهدون فى متاع الدنيا ، بل يفرطون فى الزهد متحملين فى ذلك مشقات عنيفة من الجوع وغير الجوع . نذكر منهم سليمان التجيبى ، وهو أول من قَصَّ ووعظ الناس بمصر فى زمن معاوية فإن السيوطى يذكر عنه فى كتابه حسن المحاضرة أنه كان يسمى الناسك لشدة عبادته ، وكان يختم القرآن فى كل ليلة زلفى وتعبدًا لربه . ومنهم المُزَنى صاحب الشافعى وأكثر تلاميذه تصنيفا فى مذهبه ، وفيه يقول ابن خلكان فى ترجمته : «كان فى غاية الورع ، وبلغ من احتياطه أنه كان يشرب فى جميع فصول السنة من كوز نحاس ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : بلغنى أنهم يستعملون السِّرْجين (روث البهائم) فى الكيزان والنار لا تطهرها . وذكر أنه كان إذا فاتته الصلاة فى جماعة صلى منفردا خمسا وعشرين مرة أو صلاة استدراكا لفضيلة الجماعة ، مستندا فى ذلك إلى قوله ﷺ : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة » . وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة » . ومنهم بكار بن قتيبة القاضى فى عصر ابن طولون ، وفيه يقول ابن سعيد فى كتابه المغرب : قسم الفسطاط : «كان أحد البكّائين والتالين لكتاب الله ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قضايا جميع من تقدموا إليه وما حكم به وبكى خشية خطئه ،وكان يكثر الوعظ للخصوم » . ويورد السيوطى ثَبَتاً طويلا بمن كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصوفية فى كتابه حسن المحاضرة ، ويذكر بينهم سيدات عابدات ناسكات فى مقدمتهن السيدة نفيسة حفيدة الحسن بن على بن أبى طالب المتوفاة سنة ٢٠٨ ، وكانت مقيمة فى موضع مسجدها اليوم بالقاهرة ، وكان الناس يجتمعون إليها لسماع الحديث ، ولما دخل الإمام الشافعى القاهرة حضر إليها وسمع الحديث عنها . ومن هؤلاء المتعبدات الناسكات فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبى صالح المتوفاة سنة ٣١٢ وقد عاشت طويلا ، ويقال إنها ظلت ستين سنة لا تنام إلا وهى فى مُصلاَّها بغير فراش .

وطبيعى ومصر دار كبيرة من دور الزهد والعبادة والنسك أن ينشأ فيها سريعا التصوف ، ويذكر الكندى أنه ظهرت فى ولاية السَّرِىّ بن الحكم سنة ٢٠٠ للهجرة بالإسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرون بالمعروف ويعارضون السلطان فى أمره ترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى . ويمكن أن نتخذ هذه السنة تاريخا تقريبيا لظهور التصوف فى مصر . ويروى الكندى أنه كان فى القاهرة جماعة مماثلة لعهد المأمون كانت تحيط بقاضيه عيسى بن المنكدر

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكأن التصوف عُرف فى مصر بقوة منذ أوائل القرن الثالث الهجرى . وقد أورد القشيرى فى رسالته آراء مختلفة فى اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصفاء أو من الصوف لأن الصوفية كانوا يلبسونه ويتخذونه شعارًا لتقشفهم ، أو هى من الصُّفَّة وأهلها الذين كانوا ينقطعون للعبادة فى المسجد زمن الرسول ﷺ ، ولا يرجح القشيرى رأيا على آخر ، وذهب البيرونى إلى أن كلمة التصوف مشتقة أو مأخوذة من كلمة صوفيا بمعنى الحكمة عند اليونان ، ونظن ظنًّا أنها مشتقة من الصوف لأن لبسه شاع مبكرًا بين المتصوفة .

وما نمضى طويلا فى القرن الثالث الهجرى حتى نسمع بأبى حاتم العطار المصرى أستاذ أبى تراب النخشبى المتوفى سنة ٢٤٥ وأهم منه ذو النون المصرى المتوفى مع أبى تراب فى نفس السنة ، واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن أحمد الإخميمى . كان أوحد وقته زهدًا وورعا وعبادة ونسكا ، طلب الفقه فى أول حياته فتتلمذ لليث بن سعد فقيه الفسطاط ، ثم رحل إلى الإمام مالك فى المدينة المتوفى سنة ١٧٩ فروى عنه الموطأ ، ثم نزع إلى التصوف والنسك فتتلمذ لشُقْران العابد . ويذهب نيكلسون إلى أنه المؤسس الحقيقى للتصوف الإسلامى مستندًا فى ذلك إلى قول ابن تغرى بردى « إنه أول من تكلم ببلده فى ترتيب الأحوال والمقامات » وبذلك يجعله نيكلسون أستاذ المتصوفة جميعا – غيرَ منازَع – فى العالم الإسلامى . وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وأنه ذكر كأس المحبة الذى يسقى به الله المحبين وأنه كان يقسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسما عاما للمسلمين جميعا وقسما خاصا بالفلاسفة والعلماء وقسما خاصا بالصوفية الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك ميَّز المعرفة الصوفية من المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية تعتمد على البصيرة والحدس ، والثانية عقلية تعتمد على التفكر والمنطق ، ومعنى ذلك أن التصوف ليس فلسفة ولا علما ولا فكرا وإنما هو أحوال ومقامات وهو – بذلك – إن صح أن يسمى علما ، علم باطن مقصور على الخواص . ودائما كان يفرِّق بين الخواص وهم المتصوفة وبين العوام أو عامة المسلمين بمثل قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » وكان يقول : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عن الله بالغفلة » . وكان يقول أيضا : « الصوفى من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق » . وكان يكثر من الحديث عن مبدأ التوكل الصوفى على الله قائلا : علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات المحب لله متابعة حبيب الله (أى رسوله) فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه » . وفى هذا القول ما يدل

بوضوح على أن التصوف عنده لم يحدث بينه وبين الشريعة أيُّ انفصام وأن ما ذكره الهجويرى فى كشف المحجوب من أنه كان من الملامتية الذين يتظاهرون بالاستخفاف بأمور الشريعة عار عن الصحة ، فالتصوف عنده لا يقوم بدون الشريعة ، والحياة الصوفية لا تتحقق بدون الفرائض والسنن الشرعية . واستحضره الخليفة المتوكل من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل وردَّه مكرَّما ، وكان المتوكل إذا ذُكر أهل الورع يبكى ويقول : حَىَّ هَلا بذى النون . ويقال إنه كان على معرفة بعلم الكيمياء .

ويذكر القشيرى فى رسالته والهجويرى فى كتابه كشف المحجوب وغيرهما طائفة من تلاميذه الصوفية من أعلام القرن الثالث ، منهم ابن الجلاَّء شيخ مشايخ الشام ويوسف بن الحسين الرازى شيخ مشايخ إيران والجنيد شيخ مشايخ بغداد وزميله الخرَّاز وهو أول صوفى تكلم فى الفناء وسهل بن عبد الله التُّسْترى شيخ الحلاج الصوفى المشهور . وفى ذلك ما يشهد بأن أثر ذى النون ومصر فى التصوف وتاريخه كان أثرًا بعيدًا وعميقًا إلى أقصى حد . ويشتهر بعده غير صوفى بمصر ، ويفد عليهم كثيرون من متصوفة البلدان الأخرى طوال القرن الثالث ، ونذكر من متصوفتها حينئذ أبا بكر الدقاق المتوفى سنة ٢٩٠ واشتهر أحد صوفيَّتها وهو بنان الحمَّال المتوفى سنة ٣١٦ بكثرة كراماته ، ومن صوفيَّتها أبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ . ويقول ابن سعيد فى المغرب قسم الفسطاط : كان الإخشيد يحب الصالحين ويركب إليهم ويطلب دعاءهم ، وأنه ركب إلى رجل صالح بالقرافة يسمى ابن المسيِّب وسأله الدعاء ، وأنه كثيرا ما كان يلم بأبى سهل بن يونس ويطلب منه الدعاء فى خشوع متبرِّكًا به .

وتدخل مصر فى أيام الفاطميين ، ويبدو أنهم لم يكونوا يهتمون بالصوفية لسبب مهم وهو أن كلا منهم كان يزعم لنفسه علم الباطن ، وكان الصوفية يقولون بحق إن علمهم ينبع من القلب ومن التأمل الباطنى ، وزعم الفاطميون لأئمتهم أنهم أصحاب علم لا يشركهم أحد فيه ، فأدى ذلك إلى شىء من التعارض بين الطرفين ، وبذلك انصرف الفاطميون عن الاهتمام بالتصوف وأهله . وفى هذه الأثناء حدث صَدْع كبير بين الفقهاء والمتصوفة وخاصة فى المشرق : فى العراق وإيران إذ رفع المتصوفة أنفسهم فوق الفقهاء درجات ، وقالوا إن الأهم فى الحياة الدينية عمل القلب لا عمل الجوارح والنهوض بالفرائض الدينية ، بل إن منهم من أهمل هذه الفرائض ، مما جعل الفقهاء يحملون عليهم حملات عنيفة . وتنبه القشيرى والغزالى إلى خطورة هذا الصَّدْع فى بنيان الحياة الدينية وحياة الأمة ، فعملا بقوة على رَأْبه ، بحيث لا يكون المتصوف متصوفا حقا إلا إذا

أدَّى الفرائض والسنن الدينية ، ولابد للفقيه فى هذه السنن والفرائض من الإخلاص وصفاء القلب وصدق الشعور الباطنى .

وبذلك عادت إلى صفوف المتصوفة والفقهاء – بل إلى صفوف الأمة – الوحدة ، ودعمها ووثقها حدث خطير هو اجتياح حملة الصليب لديار الإسلام فى الشام والموصل منذ أواخر القرن الخامس الهجرى ، فوقفت الأمة جميعها بنيانا مرصوصا ضد أعداء الإسلام ، حتى يذيقوهم وبال عدوانهم ويسحقوا جموعهم سحقا . وحمل المتصوفة والفقهاء السلاح وتقدموا صفوف المجاهدين . وبذلك نفهم عناية صلاح الدين بهم جميعا ، فقد أخذ يقيم المدارس للفقهاء ، كما أخذ يُعْنَى بإقامة الزوايا للمتصوفة ، واتخذ لهم فى القاهرة دارا كبيرة من دور الفاطميين كانت تسمى دار سعيد السعداء ، جعلها لهم «خانقاه» ومعناها بالفارسية دار عبادة ، يعبدون فيها الله وينسكون . وفتح أبوابها للصوفية الواردين على القاهرة من العالم الإسلامى منذ أنشأها فى سنة ٥٦٩ وهى أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر ، ووقف عليها بستانا وعقارات تكفل نفقاتها عن سعة ، وجعل لها شيخا سُمِّى شيخ الشيوخ ، ورتَّبَ للصوفية فيها كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبنى لهم حماما وأجرى عليهم الجرايات ، ورسم لهم رسما : أن من ترك منهم عشرين دينارا فما دونها كانت لمتصوفتها وأن من أراد منهم السفر يُعْطَى ما يكفل له سفره . وكانوا يخرجون منها كل يوم جمعة للصلاة فى الجامع الحاكمى فى مشهد مهيب ، فشيخهم يتقدمهم وبين يديه خدام المصحف الشريف ، وقد حُمل المصحف على رأس أكبرهم والصوفية وراءه ماشون بسكون وخفر ، حتى إذا صلوا الجمعة عادوا إلى الخانقاه بنفس المشهد الرائع .

وأخذ التصوف من حينئذ يزدهر فى مصر ، واتضح فيه اتجاهان : اتجاه فردى فلسفى ، واتجاه جماعى سُنِّى ، ويمثل الاتجاه الأول ابن الفارض سلطان العاشقين للذات الإلهية ، وهو يصور فى شعره وَجْده وهيامه بربِّه وأحواله فيه ومقاماته ومدى مانعم به فى شهوده ، مع مدحه للرسول الكريم . وقد رفعَ حقيقته المحمدية لواء يتجمع حوله المسلمون ليسددوا للصليبيين الضربة القاضية . وكان يقابل هذا المنزع الصوفى الفلسفى الفردى المنزع الصوفى الجمعى ، وقد هيأت له خانقاه صلاح الدين السالفة الذكر ، وكان كثيرون منهم قد أقبلوا من العراق والشرق يحملون مبادئ طريقتين من طرق التصوف السنى ، هما الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلانى البغدادى المتوفى سنة ٥٦١ والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ ، وأخذت الطريقتان تشيعان بين المتصوفة المصريين ، وما نمضى فى القرن السابع طويلا حتى ينزل

بالإسكندرية من شاذلة فى الجزائر الشيخ أبو الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ ويؤسس بها الطريقة الشاذلية ، ويتبعه خلق كثير فى الإسكندرية والقاهرة ، ونراه هو وأتباعه ومريديه فى مقدمة الصفوف التى دَمَّرتْ فى موقعة المنصورة سنة ٦٤٧ حملة لويس التاسع ، بفضل ما أذكوه فى المجاهدين لأعداء الله من حماسة ملتهبة .

وتدول دولة الأيوبيين بمصر وتخلفهم دولة المماليك ، وتعظم رعايتها للمتصوفة ، فتبنى لهم كثيرًا من الخوانق والرباطات والزوايا ، ويَعُدُّ المقريزى من الخوانق اثنتين وعشرين كان من أهمها الخانقاه البيبرسية ، ويقول المقريزى : بناها ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٧ وهى أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا ، وكان بها أربعمائة صوفى ، وكانت فيها دروس منظمة للحديث النبوى وقراءة الذكر الحكيم . ثم خانقاه سرياقوس بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ وكان بها مائة خلوة لمائة صوفى وبنى لها مسجدا وحماما ومطبخا ، وأيضا كان ملحقًا بها حمام للنساء مما يدل على أنه كان لبعض المتصوفات فيها خلوات خاصة . وخانقاه شيخون بناها سنة ٧٥٧ ورتب فيها دروسا لفقهاء المذاهب الأربعة ودرسا للقراءات ودرسا للحديث ومشيخة لسماع صحيح البخارى وصحيح مسلم . وبجانب الخانقاهات بنى أمراء المماليك للمتصوفة اثنى عشر رباطا ، وكانت ترتَّب لها الجرايات ومجالس الوعظ . وأصل الرباط الثغر فى دار الحرب ، ولعل فى إطلاقه على زوايا المتصوفة حينئذ ما يدل على صلتهم المستمرة بالجهاد . ومن الطريف أن أحد الرباطات كان مخصصًا للمتصوفات والأرامل ممن لا يجدن من يعولهن ، وكانت شيختهن صوفية وعادة تكون واعظة . وبنى المماليك ستا وعشرين زاوية للعبَّاد والنساك وكانت تُرتَّب لكل هذه الزوايا والرباطات والخانقاهات الأطعمة والحلوى والكسوة والزيت والصابون ، ومن أجل ذلك حُبست عليها أوقاف كثيرة .

وكان طبيعيًّا أن تكثر الطرق الصوفية فى زمن هذه الدولة التى اتسعت فى رعاية المتصوفة ونلتقى فى أوائلها بأبى الحسن الشاذلى مؤسس الطريقة الشاذلية – كما قدمنا – وقد تعددت فروعها حتى بلغت أحد عشر فرعا أهما الطريقة الخلوتية . وقد تفرعت بدورها إلى أربعة فروع ، كما نلتقى بإبراهيم الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٢ مؤسس الطريقة البرهامية ، وبأحمد البدوى المتوفى بطنطا سنة ٦٩٥ مؤسس الطريقة الأحمدية وقد تعددت فروعها حتى بلغت ستة عشر فرعا .

ودخلت مصر فى أوائل أيام الأيوبيين – كما قدمنا – الطريقتان القادرية الجيلانية والرفاعية ، ودخلتها فروع من المولوية أتباع جلال الدين الرومى المتوفى سنة ٦٧٣ ، ومن القَلَنْدرِيَّة وهم أتباع

قلندر يوسف ، وكانوا يحلقون لحاهم وحواجبهم وقلّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض وكانوا لا يتقشفون ولا يتنسكون ، وكان لهم زاوية خارج باب النصر بالقاهرة بالقرب من القرافة ، ويقول المقريزى إن أول ظهورهم كان بدمشق سنة ٦١٩ للهجرة ، وعُرفت بمصر بأخرة من أيام المماليك الطريقة النقشبندية أتباع محمد النقشبندى المتوفى سنة ٧٩١ وكذلك الطريقة البكتاشية . وشاعت أيام العثمانيين الطريقة الخلوتية المتفرعة – كما أسلفنا – من الطريقة الشاذلية ، وفى مقدمة أعلامها بمصر مصطفى كمال الدين البكرى المتوفى سنة ١١٦٢ للهجرة ، والشيخ الحفنى ، وعنه أخذ الطريقة الشيخ أحمد الدردير ، وسنعرض له فى غير هذا الموضع .

وتتميز هذه الطرق بعضها عن بعض بالأوراد ، فلكل منها ورد خاص وهو مجموعة من المناجيات لله والأدعية والابتهالات ، وتتميز أيضا بالأزياء ، فعمائم الدسوقية وبيارقهم وأعلامهم خضراء ، وعمائم القادرية بيضاء ، وهى عند الأحمدية حمراء ، وعند الرفاعية سوداء . وكانت لهذه الطرق تنظيمات دقيقة منتهى الدقة ، فتابع الشيخ يلزمه مدة تقصر أو تطول حتى يتلقن عنه طريقته ، وحتى يُثْبت إخلاصه الشديد له ، فليحقه بمريديه أو تلاميذه ويلبسه خرقة التصوف : شعار الطريقة ، ويصبح ظلاً له ، إذ تتلاشى إرادته فى شيخه تلاشيا تاما وفى ذلك يقول الشعرانى فى كتابه : « لواقح الأنوار » نقلا عن الشيخ إبراهيم الدسوقى : « المريد مع شيخه على صورة الميت ، لا حركة ولا كلام ، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ، ولا يعمل شيئا إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك » . وتمضى الأيام ويصبح المريد شيخا ، وكانوا يرسلون بالمريدين إلى البلدان والقرى ، وبذلك يصبح للشيخ صاحب الطريقة أتباع كثيرون فى وطنه وفى الوطن الإسلامى الكبير ، وإذا هو صاحب طريقة كبرى ، ولكل طريقة شيوخها الكبار .

وكان مما أتاح لهذه الطرق مكانة كبيرة فى نفوس العامة أنهم كانوا يعتمدون على أوقاف محبوسة على زواياهم ورباطاتهم وخانقاهاتهم ، فلم يكونوا يأخذون من الدولة رواتب مثل الفقهاء المدرسين والقضاة والمحدثين والقراء ، ممن كانوا يعتمدون فى معاشاتهم على الهيئات الحاكمة ، أما هم فلم يكونوا يعتمدون عليها . وبذلك كان لهم استقلال روحى واضح ، جعلهم يقفون أحيانا فى وجوه الحكام ، ويقاومونهم حين يتطلب الشعب هذه المقاومة بسبب ظلم أو طغيان أو زيادة فى الضرائب أو غير ذلك . وهو ما جعل العامة فى كافة البلاد الإسلامية تتعلق بهم تعلقا

شديدًا ، كما جعل الحكام من المماليك وغيرهم يخشونهم ويحسبون حسابهم . ولعلنا لم ننس ما مر بنا فى نشأة جماعة من المتصوفة بالإسكندرية والفسطاط وأنهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الحكام أحيانا . ونرى المتصوفة يستظهرون هذا كله فى أيام المماليك ، فإذا ثارت العامة لفساد أو طغيان أو انحلال فى الأخلاق كان المتصوفة من وراء ثورتها ، وكان سلاطين المماليك يرهبونهم وينفِّذون لهم ما يريدون . ومما يدل على مكانتهم لزمانهم أن نجد طومان باى بأخرة من سلاطين المماليك لا يقبل السلطنة إلا بعد أن يأخذ له الشيخ أبو السعود الجارحى العهد على الأمراء جميعا ، فقد لجأ إلى صوفى ولم يلجأ إلى شيخ الإسلام والفقهاء والقضاة فى عصره .

وقد أفضنا فى الحديث عن التصوف السنى وطرقه فى أيام المماليك ، ولم نعرض للتصوف الفلسفى إلا عند ابن الفارض ، وكأن مصر انصرفت عنه إلا ما قد يفد عليها مع بعض أصحابه مثل الششترى الأندلسى ، وعفيف الدين التلمسانى نزيل دمشق وساكنها المتوفى سنة ٦٩٠ . وربما كان المصرى الوحيد الذى اعتنق التصوف الفلسفى ومذهب ابن عربى فيه عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى من الأسرة الحسنية بينبع ، نزل أبوه مصر ، وسكن هو الصعيد وشغف بالتصوف . وينقل ابن حجر فى ترجمة له بكتابه الدرر الكامنة أنه من أتباع ابن عربى ، وربما لقيه حين زار مصر ، أو لعله رحل إليه فى دمشق ، إذ عاش نحو مائة سنة وتوفى سنة ٧٠٣ وكأن مذهب ابن عربى فى الحلول والاتحاد بالذات الإلهية وجد له عن طريقه مَسْرَبًا إلى مصر .

على أنه ينبغى أن نذكر أن التصوف بأخرة من أيام المماليك وفى أيام العثمانيين أخذ ينحرف عن طريقه السوى القديم ، بسبب تحول خانقاهاته ورباطاته وزواياه الى تكايا وَسِعَتْ كثيرين من الدجالين والمشعوذين ومن سمُّوا بالمجاذيب والدراويش . وكان منهم من يحلق رأسه ولحيته وشعر حاجبيه ورموش عينيه ، ومن يدعى الكرامات وأنه من أولياء الله ، والله براء منه ، لانحرافه عن جادَّة الدين . على أنه ينبغى ان لا يبالغ الباحثون فى الحملة على المتصوفة فى الأزمنة المتأخرة ، إذ مما لا شك فيه أنهم هم وأسلافهم السابقين استطاعوا دراويش وغير دراويش أن يحافظوا للإسلام طوال الأزمنة الماضية على وحدته السنية حتى فى زمن العثمانيين : أكثر الأزمنة تدهورا وتأخرا . ولعل أكبر صوفى مصرى ظهر فى زمنهم هو الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ وكان واسع المعرفة عميقها بالعلوم الإسلامية وكذلك بالتصوف واتجاهيه الفلسفى والسنى ، إذ قرأ ابن العربى وابن الفارض كما قرأ الغزالى والقشيرى وغيرهما من أصحاب الطرق الصوفية ، وآثر التصوف السنى وانتظم فى سلك الطريقة الشاذلية ، وحاول أن يكوِّن لنفسه طريقة متفرعة منها سماها الطريقة

الشعرانية . وله مصنفات كثيرة تُعَدُّ بالعشرات ، أكثرها فى التصوف ، أشاع فيها إيمانه بالكرامات والخوارق لا لغيره من المتصوفة فحسب ، بل أيضا لنفسه وما حدث له مع الجن والملائكة . وكان مثل كبار المتصوفة قبل زمنه يعتز بكرامته إزاء الحكام إلى أقصى حد ، فهو لا يقبل منهم مالاً ولا هدية . وسأله أحد الحكام العثمانيين وهو راحل إلى الآستانة ألك حاجة عند السلطان ، فأجابه توًّا : ألك أنت حاجة عند الله ؟ فوجم الحاكم ولم ينبس ببنت شفة . ويقول الجبرتى فى الجزء الأول من تاريخه : «كان الإمام العلامة الحفنى قطب رحى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وبإذنه» . ومعنى ذلك أن الصوفية ظلوا فى أيام العثمانيين الحالكة – كما كانوا فى الأيام السالفة – يستشعرون استقلالهم الروحى والمادى إزاء الحكام ، كما ظلوا يستشعرون إرادة الشعب وماله من قوة وسلطان .

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

تميزت مصر بتأثيرها الواسع فى الحضارة الإنسانية من قديم ، وهو تأثير لا يتوقف عند الرقى بفن الزراعة وشقّ التُّرع وتدبير القنوات ، إذ يمتد إلى فن المعمار وبناء الأهرامات وفن الملاحة وبناء السفن وصناعات المعادن والخزف والنسيج وورق البَرْدى . وليس هذا فحسب فإنها نسجت لأول مرة حلل الحروف الهيروغليفية التى اشْتُقَّت منْها الحروف الفينيقية ، وأيضا ليس هذا فحسب ، فإنها أسهمت بقوة فى نشأة العلم بمعناه العالمى ، سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى . وعلى الرغم من اقتحام الجيوش المغيرة لأسوارها وحصونها فى الحين بعد الحين ظلت فيها الروح العلمية كالجذوة المتقدة لا تخمد مهما تراكم عليها من التراب . ونستطيع أن نتبين شررا كثيرا من هذه الجذوة فى عهد البطالمة الذين اتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم ، فقد بنوا فيها متحفا ضخما ضم بين جناحيه جامعة كبرى كان بها مدرسة للطب ، وثانية للرياضيات والفلك ، وثالثة للقانون والفلسفة ، وضم أيضا مكتبة كبيرة يقال إنه كان بها أربعمائة ألف كتاب أو أكثر . وطبيعى أن تكون اليونانية لغة الدولة هى نفسها لغة العلم فى تلك الدورة من تاريخ مصر ، ويغزو الإسكندرية يوليوس قيصر وتُحْرَقُ المكتبة فى أثناء غزوه . وتتطور الظروف سريعا وتصبح مصر ولاية رومانية ، وينشئ المصريون مكتبة صغرى بمعبد السرابيوم على قلعة الأكروبوليس . ولا نصل إلى سنة ٣٩١ للميلاد حتى يثور القبط بالإسكندرية على ورثة الوثنية الإغريقية ومعبدهم السرابيوم ويهدموه ويُدَمّروا معه المكتبة . ولا يُعْنَى الرومان بالحركة العلمية فى مصر أى عناية ، فقد عَدُّوها مَخْزَناً يمدهم بالقمح ، ومع ذلك ظلت فيها بقايا كثيرة من حركتها العلمية لعهد البطالمة . وظلت الإغريقية سائدة فى لغة

العلم ، وشاركتها القبطية وخاصة فى الطقوس الدينية والكتابات التاريخية ، وأخذت تشاركها قبيل الفتح العربى اللغة السريانية التى كانت منتشرة فى الأديرة وخاصة فى مجال الطب ، وفى ذلك يقول بتلر : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب فى القرنين السادس والسابع (للميلاد) كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائما تدرس فى الإسكندرية »[١] .

ومر بنا فى الفصل الماضى أن الحكم الرومانى فى مصر قبيل الفتح العربى كان لا يطاق لاضطهاد القبط دينيا ولإرهاقهم بالضرائب الباهظة ، ولذلك عدَّ القبط العرب مخلِّصين لهم من نير هذا الحكم الجائر الظالم . وكل شيء يؤكد أن مصر استبقت حينئذ كل ما كانت قد حصلت عليه من علوم ومعارف ، ولا سيما فى الطب . وليس بصحيح ما قيل من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية حين افتتحها ، فقد دحضَ هذا القول بَتْلر وأثبت بالدليل القاطع بطلانه لما مر من أن مكتبة الإسكندرية الكبرى إنما أُحْرِقت تاريخيا فى عهد يوليوس قيصر قبل دخول العرب مصر بنحو ستة قرون ، بينما أُحْرِقت مكتبتها الصغرى قبل أن تخفق رايات العرب فى ربوع مصر بنحو قرنين ونصف[٢] ، وإذن فالقول بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية افتراء ليس له أى أساس تاريخى .

ومعروف أن الإسلام دفع أمته فى كل مكان إلى العلم والتعلم ، وليس بين أيدينا ما يكشف كشفا تاما الحركة العلمية بمصر فى عصر الولاة ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أنه انبعثت فيها حركة علمية إسلامية عربية قوية ، فبمجرد أن فُتحت مصر أخذ بعض الصحابة يتجرَّدون لإقراء المسلمين القرآن وَعْرض بعض الأحاديث النبوية عليهم ليقفوا على تعاليم دينهم ، وكانوا يفتونهم فى بعض المسائل حتى يميزوا الحلال من الحرام ، ويعظونهم مذكرين لهم باليوم الآخر وما عند الله من الثواب الآجل . ونهض بهذا الجهد العلمى طبقات من الصحابة الفاتحين لمصر ومن التابعين ومَنْ جاءوا فى إثرهم . وفى كتاب حسن المحاضرة للسيوطى أثبات طويلة بأسماء القراء والمحدِّثين والفقهاء

---

(١) انظر فى هذا النص وما تقدمه من حديث كتاب فتح العرب لمصر تأليف بتلر (الترجمة العربية) ص ٨٣ وما بعدها وراجع مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد فى كتاب التراث اليونانى لعبد الرحمن بدوى ، وقد فصل القول فى نشاط هذه المدرسة العلمى حتى الفتح العربى .

(٢) بتلر ص ٣٤٨ وما بعدها وقارن بصفحة ٨٣ وما كتبه فى الفصل الثامن وبمقال ماكس ما يرهوف فى التراث اليونانى .

والوعاظ ممن اضطلعوا فى الحقب الإسلامية الأولى بمختلف الدراسات الدينية .

وكانت هذه الحركة العلمية تحظى – منذ أول الأمر – برعاية الدولة وولاتها ، فقد كانت ترسل إلى مصر من يفقِّه الناس فى أمور دينهم ، وبدأ ذلك منذ زمن عمر[١] بن الخطاب . وكان هناك دائما القضاة للحكم بين الناس فى خصوماتهم وللفتوى فيما يجدّ لهم من الشئون ، وكانوا عادة من الفقهاء وكثيرون منهم كانوا محدِّثين ، وكان يُسْنَدُ إليهم الوعظ . ودائما تلقانا نصوص هنا وهناك تدل على أن الدولة كانت تعنى بإرسال بعض المحدثين والفقهاء إلى مصر لتعليم الناس ، من ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩–١٠١) أرسل إلى مصر نافعا[٢] مولى ابن عمر يعلم الناس السنن ، كما أرسل ثلاثة من الفقهاء للفُتيا كان من بينهم يزيد[٣] بن أبى حبيب وقد أقام بها حتى توفى وكوَّن بها مدرسة فقهية كان لها أثرها البعيد بعده . ولم تكن مصر تكتفى بمن يرسلهم إليها الخلفاء الأمويون ، فقد أخذت تتكون فيها أجيال من القراء والفقهاء المحدِّثين نجد أسماءهم مرتبة حسب وفياتهم فى حسن المحاضرة . وكلما خطونا خطوة فى العصر العباسى الأول أحسسنا بازدياد هذا النشاط ، ومن المؤكد أنه كان مما يُذْكيه الأعطيات والرواتب التى كانت تفرضها الدولة وولاتها للعلماء ، كما كان الشأن فى بغداد والبصرة والكوفة .

وظاهرة مهمة تلاحظ على القضاة والعلماء فى مصر ، فإن منهم من كان ذا سعة فى الثراء ويبدو أن القضاة كانوا يتقاضون أعلى الرواتب ، فقد كان عبد العزيز بن مروان والى أخيه عبد الملك على مصر يفرض لعبد الرحمن بن حجيرة الخَوْلانى القاضى ألف[٤] دينار كل عام ، ومرَّ بنا فى الفصل الماضى أن عبد الله بن طاهر حين ولى مصر لعهد المأمون فرض لقاضى الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وكان الليث بن سعد الفقيه ثريا ثراء طائلا ، ويقال إن هرون الرشيد أقطعه إقطاعات كثيرة كانت تدرّ عليه آلاف الدنانير ، وكان يرسل إلى مالك إمام أهل المدينة سنويا مائة دينار . وكان ينثر أمواله نثرا على تلاميذه ومن يهاجر إلى مصر من المحدِّثين والفقهاء[٥] . وكان عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكى المتوفى سنة ٢١٤ من ذوى الأموال والرباع ويقال إنه أهدى إلى الشافعى حين نزل مصر ألف دينار وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألفا ثانية ومن رجلين آخرين ألفا ثالثة[٦] . وفى ذلك مايدل على أن كبار التجار والأثرياء فى مصر كانوا يرفلون العلماء

(١) حسن المحاضرة ١/ ١٩٠
(٢) حسن المحاضرة ١/ ٢٩٧
(٣) حسن المحاضرة ١/٢٩٩
(٤) حسن المحاضرة ١/ ١٣٧ .
(٥) ابن خلكان ٤/ ١٣٠
(٦) ابن خلكان ٣/ ٣٤

بأموالهم . ويقال إنه كان ليونس بن عبد الأعلى أحباس[١] (أوقاف) . وكأن طيبات مصر وخيراتها صبَّت فى حجور العلماء . فكان منهم كثيرون فى يسار ونعمة ، وكانوا يصلون زملاءهم وتصلهم الدولة وكبار التجار والموسرين ، مما هيأ للعلماء أن يخلصوا للعلم وينبغوا فيه .

وظاهرة ثانية تلاحظ بجانب الظاهرة السابقة وهى أننا لا نكاد نتقدم إلى أواسط القرن الثانى للهجرة حتى يصبح لعلماء مصر حظ واضح من المساهمة فى الفكر الإسلامى العربى ، وقد ظلت أكثر من قرن تتلقى آثار هذا الفكر وتحاول أن ترعاها وأن تضيف إليها من شخصيتها ما ينميِّها ، وغلب عليها حينئذ التلقى والتلمذة ، فهى تتلقى قراءات الذكر الحكيم والحديث النبوىّ والفقه واللغة والأخبار والتاريخ العربى الإسلامى ، وتُسيغ ذلك كله وتتمثله حتى إذا توسطت القرن الثانى للهجرة أخذت تسهم بحظ قوى فيما تتلقاه . ولعل من الطريف حقا أنها أخذت تتزعم بقوة المغرب والأندلس جميعا ، فإذا هى تعدّهما لقراءة وَرْش ولاستقبال مذهب مالك إمام المدينة والحجاز . وليس ذلك فحسب ، فإنها هى التى كتبت لأول مرة تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس ، وأذاعت رواية للسيرة النبوية ، ستحدث عنها فيما بعد ، كانت إماما لكتب السيرة العطرة ، ونفذ أحد أبنائها وهو ذو النون المصرى إلى وضع أسس التصوف ، كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى . ومعروف أنها استقبلت على رأس المائتين الإمام الشافعى وحملت عنه مذهبه ونشرته فى بلدان العالم الإسلامى ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة ذيوعا وانتشارا .

وعلى هذ النحو أصبحت مصر فى زمن الولاة مركزا مهما من مراكز العلم وقصدها الطلاب من أطراف المغرب والأندلس لحمل العلم عن علمائها المختلفين . ونمضى إلى زمن الدولة الطولونية فنرى الحركة العلمية نامية ناشطة على نحو ما تصور ذلك أسماء العلماء المصريين والوافدين المدَّونة حسب تاريخ الوفيات والتخصصات العلمية فى كتاب حسن المحاضرة . ويَبْنى أحمد بن طولون جامعه المشهور ويرتِّب لإملاء الحديث النبوى فيه الربيع بن سليمان المرادى ويحمل إليه صناديق المصاحف وينقل إليه القرَّاء والفقهاء[٢] . وليس بين أيدينا نصوص توضح أعطياته للعلماء ، ويبدو أنها كانت كثيرة إذ يُرْوَى أنه كان يعطى القاضى بكّار بن قتيبة كل سنة ألف دينار خارجا عن المقرر له وأنه ظل على ذلك أعواما كثيرة[٣] . ولابد أن عطايا مقاربة كانت تُعْطَى للقراء والفقهاء والمحدِّثين والقائمين على دراسة التاريخ واللغة والأدب .وأخذت مصر منذ زمن ابن طولون (٢٥٤ –

---

(١) ابن خلكان ٣/ ٢٥٠

(٢) خطط المقريزى ٣/ ١٤٦ وما بعدها

(٣) ابن خلكان ١/ ٢٧٩

٢٧٠ هـ) بل قبل زمنه بعشرات السنين تصبح مقصدا للعلماء وطلاب العلم لا من المغرب والأندلس فحسب ، بل أيضا من الشام والعراق وإيران وخراسان . وقد نزلها خمسة من أصحاب الصحاح يكتبون الحديث النبوى عن علمائها ، وهم البخارى وأبوداود ومسلم وابن ماجة والنسائى [١] وأقام فيها الأخير واتخذها مسكنا ودارًا له ، وكان ينزل فى زقاق القناديل ، وأملى بها سُنَنَه ، وأخذها عنه الناس من المصريين وغيرهم .

وكان ابن طولون وغيره من ولاة مصر وحكّامها يَبَرّون من ينزل بها من العلماء وطلاب العلم ، يدلُّ على ذلك من بعض الوجوه ما يُرْوَى من أن ابن جرير الطبرى المؤرخ والمفسر المشهور المتوفى سنة ٣١٠ نزلها وهو فى نحو الثلاثين من عمره سنة ٢٥٣ وتركها قليلا إلى الشام ثم عاد إليها سنة ٢٥٦ ليتزود مما لدى علمائها من الحديث والفقه . وكان شافعيا ، وجمعت الرحلة بينه وبين أبى بكر محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابورى المتوفى سنة ٣١١ حامل قراءة ورش عن يونس بن عبد الأعلى وفقه الشافعى عن تلميذيه : المزنى والربيع بن سليمان المرادى إلى موطنه : نيسابور بخراسان ، وأيضا محمد بن نصر المروزى المتوفى سنة ٢٩٤ حامل فقه الشافعى إلى سمرقند عن المزنى وغيره من تلاميذه ، وكذلك محمد بن هرون الروياني المحدِّث وله مسند . جاءوا جميعا إلى الفسطاط يدرسون على شيوخه ، ويقال إنهم اجتمعوا يوما ولم يبق عندهم ما يمونهم ، وكان والى مصر قد علم بأمرهم — وأكبر الظن أنه ابن طولون — فأرسل إلى كل منهم مائة دينار ، ويقال إنه أرسل إليهم ألف دينار [٢] . وإذا كان طلاب العلم تُغْدَقُ عليهم الأموال بمصر فما بالنا بما كان يُغْدَق على علمائها .

وما نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى تكون مصر قد نشرت مذهب الشافعى فى خراسان عن طريق أبى بكر بن إسحق النيسابورى ومحمد بن نصر وأيضًا عن طريق عبدان المروزى الذى تفقه على المزنى والربيع بن سليمان ، ويقول السيوطى إنه هو الذى أظهر مذهب الشافعى فى خراسان [٣] ، وظلت مصر منذ هذا التاريخ من أهم بيئاته . ومن أهم تلاميذ أصحاب الشافعى المصريين أبو القاسم الأنماطى عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٢٨٨ وفيه يقول السبكى : هو الذى اشتهرت به كتب الشافعى ببغداد ، وعليه تفقّه شيخ المذهب هناك وحامل لوائه فى بغداد والعراق

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٠٦ ، ٣٠٩ وطبقات الشافعية للسبكى (طبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة) ٢/ ٧ ، ١٧١ ، ٣/١٥ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٤٦ وحسن المحاضرة ١ / ٣١٠ .

(٣) حسن المحاضرة ١ / ٣٤٩ .

أبو العباس بن سُرَيج[١] . أما الشام فحمل إليها المذهب عن تلاميذ الشافعي أبو زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ إذ أدخله إلى دمشق وولى قضاءها ، ولم يتوله بعده لا فى الشام ولا مصر إلا شافعي المذهب حتى عصر الظاهر بيبرس[٢] . وأما الحجاز فيقول السبكى عنها إنها لم تبرح منذ ظهور مذهب الشافعي وإلى يومنا هذا فى أيدى الشافعية : القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة[٣] . ويمضى السبكى قائلا إن أهل اليمن شافعية إلا أن يكونوا زيديين ، ويذكر أن مذهب الشافعي شاع فى فارس ، وأما أذربيجان فلا تعرف سواه . وكل ذلك بفضل تلاميذ الشافعي المصريين الذين قاموا على مذهبه خير قيام واستطاعوا نشره فى القرن الثالث عن طريق تلاميذهم حتى أقصى المشرق .

وتمضى مصر فى العناية بالدراسات الدينية لعهد الإخشيديين فى القرن الرابع ويصور ذلك من بعض الوجوه ما رواه ابن سعيد من أنه كان فى جامع عمرو للمالكيين خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات[٤] . ومعروف أن مصر كانت مالكية حتى قدوم الشافعي ، فاقتسم مصرَ مذهبُه والمذهب المالكى ، ولم يكن للمذهب الحنفى أتباع إلا بعض من كان يتولى القضاء بها لعهد بنى العباس ، ولا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة . أما جمهور القضاة فكان من المالكية ، حتى إذا كنا فى أواخر القرن الثالث الهجرى انتقل القضاء من أيديهم نهائيا إلى الشافعية كما مر بنا آنفا فى حديث السبكى . وأتيح للمذهب الحنفى إمام مصرى كبير من أئمته هو أبو جعفر الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١ فهيأ له بمصر حياة لم تكن له من قبل ، وهى التى أتاحت لقيام الحلقات الثلاث التى يُدْرَس فيها الفقه الحنفى كما ذكر ابن سعيد . وتأخذ الدراسات اللغوية والنحوية فى النمو بمصر منذ عهد الدولة الطولونية ويؤمها الأخفش الصغير تلميذ المبرد ، ويظل هذا النمو مطردا فى زمن الدولة الإخشيدية ، ويقصدها الطلاب المغاربة والأندلسيون ويحملون عنها المعاجم وكتاب سيبويه وغير ذلك من كتب اللغة والنحو .

وعملت الدولة الإخشيدية على إنماء الحركة العلمية وساعدها على ذلك أنه كان يضطلع بالوزارة لها مدة متطاولة جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف باسم ابن حِنْزابة وكان يُغْدق على العلماء ويجزل صلاتهم ، فقصده الأفاضل – كما يقول ابن خلكان – من البلدان الشاسعة ، وكان من حفاظ الحديث النبوى وكان له مجلس فى المسجد يمليه فيه على الناس ، وعُنى بتأليف مسند

(١) السبكى ٢ / ٣٠١ وانظر ٣ / ٢١ .
(٢) السبكى ٣ / ١٩٧ وحسن المحاضرة ١ / ٣٩٩ .
(٣) السبكى ١ / ٣٢٧ .
(٤) المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ١٧٣ .

خاص به ، وإليه رحل الدَّارَقُطْنِىّ على بن عمر أكبر محدثى العراق فى عصره ، وأعانه فى تأليف مسنده مع من كان يُعينه فيه من المصريين وأقام لديه مدة ، وبالغ ابن حنزابة فى إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئا كثيرا وحصل له بسببه مال وفير[١] .

وظل ابن حِنْزابة يقود الحركة العلمية بمصر طوال وزارته وقد امتدت نحو عشرين عاما من أيام كافور إلى قرب انتهاء الدولة الإخشيدية ، وطبيعى ومثله يقوم على ذلك أن تمضى فى النمو والنشاط . وممن نزل مصر حينئذ المسعودى على بن الحسين المؤرخ المشهور . ومنها ذاعت كتبه التاريخية وفى مقدمتها كتابه مروج الذهب ، وظل مقيما بها حتى لَبَّى نداء ربه سنة ٣٤٥ وقيل بل سنة ٣٤٦ .

وتزداد الحركة العلمية نموا ونشاطا فى زمن الدولة الفاطمية ، إذ عمل الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم على دَفْع هذه الحركة دفعا قويا ، وما تكاد تمضى سنوات فى عهد هذه الدولة حتى نجد الخليفة العزيز (٣٦٦ – ٣٨٦ هـ) يرسم راتبا لسبعة وثلاثين من الفقهاء ويبنى لهم دارا بجوار الجامع الأزهر[٢] الذى كانوا يتخذونه مقرًّا لدعوتهم الإسماعيلية . ولا نعرف هل كان الفقهاء جميعا إسماعيلية أوكان بينهم نفر من أهل السنة ، على أننا نجد ابنه الحاكم يسند إلى فقيهين مالكيين التدريس فى هذا الجامع[٣] ، مما يدل على أنه تحول سريعا إلى جامعة كبرى للدراسات الدينية واللغوية . وفى أخبار وزير العزيز ابن كلِّس أنه كان يُجْرَى بأمره ألف دينار شهريا على جماعة من أهل العلم والورَّاقين والمجلِّدين[٤] ، مما يدل على أنه نشأت حينئذ حركة علمية كبرى لا للدراسات العلمية فحسب ، بل أيضا لنسخ المخطوطات فى مختلف العلوم والآداب . وأكثر دلالة على ذلك ما يُرْوَى من أن العزيز عُنى بإنشاء مكتبة فى القصر ، كان بها ما يزيد على مائة ألف مجلد ، وفى رواية على مائتى ألف[٥] ، وكان أمينه القائم عليها الشابشتى[٦] على بن محمد صاحب كتاب الديارات ، ويقال إنه كان بها أكثر من ثلاثين نسخة من معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وأكثر من عشرين نسخة من تاريخ الطبرى ، ومائة نسخة من معجم الجمهرة لابن دريد . ومازال العزيز يُعْنَى بهذه المكتبة هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، حتى قيل

---

(١) ابن خلكان ١ / ٣٤٧ ، ٣ / ٢٩٨ .

(٢) صبح الأعشى ٣ / ٣٦٣ والخطط ٣ / ١٥٧ ، ٢٧٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤ / ١٧٨ .

(٤) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز ١ / ٢٥٠ نقلا عن يحيى بن سعيد الأنطاكى .

(٥) النجوم الزاهرة ٤ / ١٠١ والخطط ٢ / ١٢٨ .

(٦) ابن خلكان ٣ / ٣١٩ .

إنها أصبحت أربعين خزانة مَلأى بنفائس المجلدات فى الحديث النبوى والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والتاريخ وعلوم الأوائل ، ويقال إنه لم يكن فى العالم دار كتب تماثلها وأنها كانت من عجائب الدنيا . وعلى الرغم من بيع بعض مصاحفها وكتبها فى أيام المجاعة الهائلة لزمن المستنصر فإنها ظلت زاخرة بالكتب ، حتى يقال إن صلاح الدين أهدى وزيره القاضى الفاضل منها مائة ألف مجلد أودعها مدرسته الفاضلية ، وظل ابن صورة دلأَّل الكتب يبيع منها للناس مدة من السنين[١] . وكانت هذه المكتبة الضخمة تعد أما لمكتبات القاهرة والفسطاط جميعا ، فقد كانت تُلْحَقُ بكل جامع خزانة للكتب ، وكان الفاطميون يمدونها من حين إلى حين بما يلزمها من المصنفات ، يدل على ذلك – من بعض الوجوه – ما يروى عن الحاكم من أنه أنزل من القصر إلى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ١٢٩٨ مصحفا وإلى جامع ابن طولون ٨٠٠ مصحف كان منها ما هو مكتوب بالذهب[٢] . وإنما نَصُّوا على إنزال المصاحف لجلالها ، ولابد أنهم أنزلوا معها كثيرا من الكتب . ونفس مكتبة القصر كان يختلف إلى خزائنها الخارجية العلماء والطلاب للقراءة والنسخ منها والاطلاع .

وتُؤسَّس فى سنة ٣٩٥ جامعة كبرى تسمى دار العلم ، حُمل إليها من خزائن القصر كتب كثيرة تحتوى على سائر العلوم الإسلامية والآداب والفلسفات وعلوم الأوائل ، يقول المقريزى « حضرها الناس على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجُعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والورق والأقلام والمحابر » . وكانت بها دروس للمحدِّثين والقرَّاء والفقهاء وأصحاب النحو واللغة والمنجمين والأطباء والمتفلسفة ، وكل هؤلاء كانت تجرى عليهم وعلى الطلاب الرواتب . وما تدخل سنة ٤٠٠ حتى يكتب الحاكم وَقْفِيَّة كبيرة للإنفاق منها على دار العلم وعلى الجوامع الكبرى ، وخصَّ الفراشين والحُصْر والحبر والورق والأقلام فى دار العلم بمائتين وسبعين دينارا سنويا . ومن المؤكد أن الحاكم كان يبتغى بهذه الجامعة أن تكون مركزًا للدعوة للعقيدة الإسماعيلية بدليل أنه جعل رئيسا لها أحد دعاتها من بيت النعمان وهو عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ويبدو أنه وجد فى ذلك ما يهدد بثورة أهل السنة المصريين ، فأضاف إلى علمائها الإسماعيليين من أصحاب نحلته طائفة من فقهاء أهل السنة ومحدثيها وعلى رأسهم عبد الغنى بن سعيد الفقيه الشافعى المشهور وأكبر حُفَّاظ

---

(١) انظر فى هذه المكتبة وكل ما ذكرت عنها الخطط ٢ / ١٢٧ وما بعدها .

(٢) الخطط ٣ / ١٤٦ ، ١٦٣ .

الحديث المصريين فى زمنه . ومازالت هذه الجامعة ناهضة بالحركة العلمية فى القاهرة حتى عهد الأفضل بن بدر الجمالى إذ رأى إغلاقها ، لنشوب جدل عنيف بها فيما صنع من جَعْل المستعلى بالله الخليفة الفاطمى بعد أبيه المستنصر دون أخيه نزار الذى كان يكبره ، وخشى من ذلك حدوث ثورة ، غير أن النزارية لم يلبثوا أن قتلوه ، وقيل بل قتله الآمر بن المستعلى . غير أن الجامعة أو دار العلم لم تلبث أن أعيدت سنة ٥١٧ بعد نقلها إلى دار جديدة ظلت فيها حتى نهاية الدولة الفاطمية[١] .

وإذا كان فقهاء الدعوة الاسماعيلية استغلّوا الجامع الأزهر ودار العلم فى أول تأسيسها لنشر الدعوة الإسماعيلية فإن الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط ظل مركزًا لدراسات أهل السنة . ولابد أن نلاحظ أن القاهرة حين أُسِّست إنما كانت مسكنا للخلفاء الفاطميين وحواشيهما من رجال الدولة وجنود الجيش القادم معها من المغرب ، بينما كانت الفسطاط حينئذ مسكن المصريين ، كما كان شأنها قبل دخول الفاطميين ، وكان مسجدها جامعة كبرى للدراسات السنية . ويذكر المقدسى الذى زارها سنة ٣٧٥ أنه رأى فى جامع عمرو بها بين العشاءين مائة مجلس وعشرة[٢] للقراء والدراسات السنية . ومع ذلك كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية يتراءون فيه ويفتون الناس أحيانا[٣] ، كما أخذ أهل السنة بدورهم يحاولون الإملاء وإلقاء المحاضرات فى الجامع الأزهر ، ولم يجد الحاكم بُدًّا — كما مر بنا — من أن يعين فى الأزهر وفى دار العلم بعض أهل السنة من المحدثين والفقهاء .

ولعل فى ذلك ما يخفف حدة القول بأن الفاطميين كانوا يضطهدون فقهاء أهل السنة ويحاربونهم ، ويذكرون فى هذا الصدد الاعتداء فى سنة ٣٨١ أى لعهد العزيز على رجل وُجد عنده موطَّأ الإمام مالك[٤] ، وقد يكون السبب أن الرجل تعرض للدعوة الإسماعيلية بالسب والثلب . ويذكرون أن الحاكم أراق دماء نفر من فقهاء أهل السنة ، وكان فيه سفه وخبل ، فلم يرق دماءهم وحدهم ، بل أراق أيضا دماء كثيرين من الدعاة الإسماعيليين ورجال الدولة . وكان بيت النعمان أهم البيوت المغربية فى نصرتهم والتأليف فى عقيدتهم الفاسدة ، ومع ذلك قتل الحسين بن على بن النعمان كبير قضاته ، وولّى بعده ابن عمه عبد العزيز الذى أقامه رئيسا لدار العلم ،

---

(١) انظر فى دار العلم القديمة والجديدة الخطط ٢ / ١٩٤ ، ٢١٨ .
(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (طبع ليدن) ص ٢٠٥
(٣) ابن خلكان ٧ / ٣٠ وانظر الخطط ٣ / ٣١ .
(٤) الخطط ٣ / ٢٧٥ .

كما مر بنا ، ولم يلبث أن قتله سنة ٤٠١ وولّى بعده مالك بن سعيد الفارق ، ولم يلبث أن سفك دمه[١] . وإذن فقتل الحاكم لجماعة من أهل السنة ليس دليلا كافيا على اضطهاد الفاطميين لهم إذ كان لا يُبْقِى ولا يذر من كبار دعاته وقضاته ورجال دولته الإسماعيليين .

ومما يذكر من اضطهاد الفاطميين لفقهاء أهل السنة أن الخليفة الظاهر (٤١١–٤٢٧هـ) أمر بطرد[٢] الفقهاء المالكية من مصر أى الفسطاط سنة ٤١٦ . وينقض هذا الخبر كتاب رواه عنه صاحب النجوم الزاهرة حمل فيه حملة شعواء على من يؤلّهون عليا وأباه الحاكم ، وفيه يقول : «قالوا فى آبائنا وأجدادنا منكرا من القول وزورا ، ونسبونا بغلوهم الأشنع ، وجهلهم المستفظع إلى ما لا يليق بنا ذكره ، وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضُّلَّال»[٣] . ومثله لا يضطهد المالكية ولا ينفيهم من البلاد . وكان لا يزال بمصر فى عهده عبد الوهاب بن على البغدادى المالكى أحد الأئمة المالكية المجتهدين فى المذهب ، نزل مصر لضيق حاله ببغداد وتوفى بها سنة ٤٢٢ يقول السيوطى : «أُكرم بمصر وتموّل وسَعِد جدًّا ، ومرض فكان يقول فى مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متنا[٤]» . فمصر فى عهد الخليفة الظاهر وقبله وبعده كانت لا تزال مركزا كبيرا للإشعاع العلمى والدراسات الدينية ، ينزلها العلماء ليشاركوا فى نهضتها العلمية ، وينزلها طلاب العلم ليتزودوا منها خير زاد . ونضرب مثلا بمكى بن أبى طالب القيسى القيروانى المتبحر فى القراءات المتوفى سنة ٤٣٧ والمولود سنة ٣٥٤ فقد جاءها يطلب العلم فيها سنة ٣٦٧ ثم عاد إليها سنة ٣٧٤ ورجع إلى بلده ثم عاد سنة ٣٧٧ لأخذ القراءات عن شيوخها ورجع إلى القيروان سنة ٣٨٠ ثم عاد سنة ٣٨٢ لاستكمال القراءات ، ومضى بعد سنوات إلى جامع قرطبة بالأندلس يقرئ فيه الناس[٥] . ومثله أبو عمر والدانى الأندلسى نزل مصر سنة ٣٩٧ وحمل القراءات عن أساتذتها وهو فى الخامسة والعشرين من عمره[٦] . فهذان عالمان سُنِّيان جليلان نزلا مصر لعهد العزيز والحاكم على الترتيب ووجدا فيها ما يكفل لهما الإقامة بها والعيش فيها .

وممن نزل مصر من كبار المحدثين النقاش الحافظ المتوفى سنة ٣٦٩ وأبو سعيد المالينى المتوفى سنة ٤١٢ وأبو نصر السجزى المتوفى سنة ٤٤٤ ونزلها فى العقد الثانى من القرن السادس أكبر حفاظ

---

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٦ .
(٢) الخطط ٣ / ٣١ .
(٣) النجوم الزاهرة ٤ / ٢٤٩ .
(٤) حسن المحاضرة ١ / ٣١٤ .
(٥) ابن خلكان ٥ / ٢٧٤ .
(٦) معجم الأدباء ١٢ / ١٢٦ وكان أستاذ الدانى فى القراءات هو نفسه أستاذ مكى : عبد المنعم بن غلبون الحلبى نزيل مصر .

الحديث فى عصره الإمام السِّلَفى . ونزلها من كبار فقهاء الشافعية أبو العباس الدَّيبلى المتوفى سنة ٣٧٣ وأبو الحسن الحلبى المتوفى سنة ٣٩٦ وأبو الفضل البغدادى المتوفى سنة ٤٤١ وأبو القاسم العراقى المتوفى سنة ٤٧٧ وأبو الفتح المقدسى المتوفى سنة ٥١٨ ، ونزلها من فقهاء المالكية الأبهرى الصغير وعبد الله بن الوليد الأندلسى المتوفى سنة ٤٤٨ وعبد الجليل بن مخلوف الصقلى المتوفى سنة ٤٥٩ وأبو بكر الطرطوشى الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٥ وأبو العباس الفاسى[1] المتوفى سنة ٥٦٠ .

وإذا كان هؤلاء العلماء والطلاب الوافدون وجدوا فى مصر مستقرا لهم ومقاما فأولى أن يجد ذلك أبناؤها ، وأيضاً فإن وراءهم كثيرين من محدثى مصر وفقهائها الشافعيين والمالكيين والقراء يُعَدُّون بالعشرات على طول السنوات فى عهد الدولة الفاطمية ، مما يؤكد أن الفاطميين لم يعلنوا معارضة هذه الدراسات ، بل لعلهم كانوا يشجعون كثيرين من أهلها ومن الوافدين عليهم ، حتى ليقول نزيلها الإمام عبد الوهاب المالكى قولته السالفة : « عندما عشنا متنا » . ولعلنا لسنا فى حاجة إلى كل هذه الأدلة لنبرهن على أن الفاطميين لم يقفوا حجر عثرة ضد نشاط أهل السنة ومذهبى الفقه الشائعين حينئذ فى مصر : المذهب الشافعى والمذهب المالكى فإن القلقشندى يشهد لهم بذلك شهادة بَيِّنة إذ يقول عنهم : «كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح فى الجوامع والمساجد على خلاف معتقدهم .. ومذاهب مالك والشافعى وأحمد (بن حنبل) ظاهرة الشِّعار فى مملكتهم بخلاف مذهب أبى حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه[2] » . وهو محق فى مذهب أبى حنيفة إذ لم يكن له نشاط بمصر فى عهد الفاطميين ، أما مذهب ابن حنبل فغير محق فى إثبات نشاط له حينئذ إذ كان نشاطه مثل نشاط مذهب أبى حنيفة يكاد يكون معدوما .

على كل حال هذه شهادة صريحة للفاطميين بأنهم كانوا يترضَّوْن أهل السنة ، وحقا حين دخلوا مصر أسندوا وظيفة قاضى القضاة إلى النعمان فقيههم وتوارثها بعده بعض أبنائه وأحفاده ، ثم ولوها بعض شيعتهم . ويبدو أنهم أخذوا فى عصر المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) يتركون هذه السياسة ، إذ عيَّنوا على رأس القضاة فقيها شافعيا هو أبو عبد الله محمد[3] بن سلامة القضاعى أحد أئمة زمنه المتوفى سنة ٤٥٤ . ويبدو أن كثيرين من القضاة الفرعيين فى الإسكندرية وغيرها كانوا

---

(١) راجع فى هؤلاء الفقهاء والمحدثين حسن المحاضرة للسيوطى وما به من أثبات خاصة بهم فى جزئه الأول .

(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ٣ / ٥٢٠ .

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٧ وانظر حديث السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة عن فقهاء الشافعية فى زمن الفاطميين ١ / ٤٠٤ وما بعدها .

شافعيين أو مالكيين. ويتولى الوزارة بدر الجمالى (٤٦٨ - ٤٨٧ هـ) ثم ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥) ويصبحان ولِيى الأمر ويحجران على الخلفاء وكانا لا يعارضان أهل[1] السنة ولا يتعصبان ضدهم. وحين يتولى أحمد الأفضل حفيد بدر الوزارة يعين أربعة قضاة: شيعيا إسماعيليا وشيعيا إماميا ومالكيا وشافعيا[2]. ويظهر أن هذا أصبح تقليدا منذ صنع أحمد الأفضل هذا الصنيع سنة ٥٢٥.

وينزل فى الإسكندرية السِّلَفى أكبر حفاظ الحديث فى العصر ويأخذ فى إملائه، ويتوافد عليه الطلاب من مصر وغير مصر، ويتولى الإسكندرية العادل بن السلار فى عهد الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) وكان شافعى المذهب مثل السلفى فاحتفل به وزاد فى إكرامه وبنى له مدرسة فوَّض تدريسها إليه، يقول ابن خلكان: وهى معروفة باسمه إلى الآن أى فى زمنه[3]. وفى صبح الأعشى سجلٌّ بإسناد هذه المدرسة إلى الفقيه السلفى والقيام على نفقة من فيها من القراء والفقهاء والمرابطين والصلحاء وطلبة العلم من أهل الإسكندرية ومن الواردين إليها والطارئين عليها سواء كانت النفقة نقدا أو غلة، مع بيان أنه أُعدّ لهم جميعا فيها المثوى والمسكن. وبذلك يكون ما ذكره المقريزى وغيره من أن المدارس لم تعرف فى مصر إلا فى عهد صلاح الدين غير صحيح[4]، فقد كانت بها مدرسة السلفى المذكورة، وكانت مدرسة سنية شافعية. ونفس دار العلم يمكن أن نعدها مدرسة بالمعنى الكبير الذى كان لنظامية بغداد، إذ كانت مؤسسة علمية كبرى.

وكانت الدولة الفاطمية قد انتهت إلى انحلال وفساد شديد وأخذ الظلام يعم ديارها فى مصر والشام. وفى غفلة من الزمن يستولى حملة الصليب على بيت المقدس وساحل الشام على نحو ما مر بنا فى الفصل الماضى، ويستغيث الفاطميون بنور الدين صاحب حلب، ويرسل إليهم بجنود على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وتتطور الظروف سريعا، وينهى صلاح الدين حكم الفاطميين ويقبض على صولجان الحكم، ويكاد يقضى على الصليبيين فى الشام إلا قليلا ويستولى على بيت المقدس وتتكاثر فتوحاته، ويحقق للعرب والمصريين الزعيم المنتظر لتخليص البلاد من حملة الصليب. وعلى نحو ما قاد هذه الفتوح قاد نهضة علمية رائعة، إذ كان محبا للدراسات الإسلامية شغوفا بها وخاصة بالحديث النبوى مما جعله ينزل الإسكندرية ليتلقاه على

---

(١) المغرب ص ٢١٦.

(٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥.

(٣) ابن خلكان ١ / ١٠٥.

(٤) الخطط ٣ / ٣١٥ وانظر حسن المحاضرة ٢ / ٢٥٦.

السلفى أكبر حفاظه فى عصره . وكان يستمع إلى الفقهاء ويُرْوَى أنه تلقى على بعض الشيوخ موطأ مالك برواية فقيه الإسكندرية الطرطوشى المالكى[1] ، بينما كان السلفى شافعيا ، وكان صلاح الدين نفسه شافعى المذهب . ولعل فى ذلك ما يفسر اهتمامه بفقهاء المذهبين ، بل لقد ضم إليهم أيضا فقهاء المذهب الحنفى ، فإذا هو ينشئ خمس مدارس بالقاهرة والفسطاط ، أنشأ اثنتين منها فى أثناء وزارته للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٦ : مدرسة لفقهاء الشافعية بجوار جامع عمرو سميت مدرسة ابن زين التجار باسم الشيخ الذى فُوِّض إليه تدريس الفقه الشافعى بها ثم عُرفت باسم المدرسة الشريفية ، ومدرسة لفقهاء المالكية بالقرب منها سميت المدرسة القمحية للقمح الذى كان يأتيها من ضيعة بالفيوم وقفها عليها صلاح الدين ، حتى إذا استولى على مقاليد الحكم بمصر أنشأ ثلاث مدارس اثنتين للشافعية إحداهما بجوار مسجد الشافعى والثانية بجوار مشهد الحسين ، أما الثالثة فجعلها للحنفية وسميت السيوفية[2] . والمهم أنه رتَّب لكل هذه المدارس الأساتذة والمدرسين والمعيدين ، فقد كان نظام الإعادة معروفًا حينئذ ، ورتَّب لها أيضا الأئمة والمؤذنين والقَوَمَة والطلاب ، وجعل لكل مدرسة أوقافها الخاصة للإنفاق المستمر عليها فى حياته وبعد وفاته ، وألحق بكل مدرسة مساكن للمعلمين والطلبة . وكأن كل مدرسة كانت تشبه كلية من كليات الجامعات فى عصرنا ، فمع كل مدرسة مساكنها وميزانيتها للإنفاق اليومى والشهرى عليها .

وبذلك تبدأ مصر دورة علمية كبيرة فى عهد الدولة الأيوبية لا فى عهد صلاح الدين وحده ، بل أيضا فى عهد من خلفوه من الأيوبيين ، إذ كانوا فى جملتهم علماء ، وكذلك كان وزراؤهم وأمراؤهم منذ عهد صلاح الدين نفسه ، ولكثيرين منهم مدارس أنشأوها فى الفسطاط والقاهرة عدَّدها المقريزى — والطريف أنه اشترك معهم فى إنشائها بعض التجار — وقد بلغ بها خمسا وعشرين مدرسة[3] . . . [illegible]و أن إحصائيته غير كاملة ، فإنه لم يقف عند مشهد الحسين وقفةً توضح أنه كان مدرسة [illegible] المدارس . ونستطيع أن نميز بين هذه المدارس ثلاث مدارس للفقه الشافعى وراء المدارس التى أنشأها صلاح الدين ، إحداها أنشأها ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه وسميت مدرسة منازل العز وهو اسم المنازل التى أقيمت فيها ، وكان مما وقفه عليها

(١) انظر فى ذلك ابن واصل فى كتاب مفرج الكروب فى تاريخ بنى أيوب ١ / ١٩٥ وما بعدها وكان يرحل بولديه : العزيز والأفضل سلطانى مصر ودمشق بعده للسماع من السلفى وفقهاء الإسكندرية . انظر حسن المحاضرة ٢ / ١٩ .

(٢) ابن خلكان ٧ / ٢٠٦ وقارن بحديث المقريزى عن المدارس فى الجزء الثالث من الخطط .

(٣) انظر حديث المقريزى فى ذلك بالخطط ٣ / ٣١٣ وما بعدها .

جزيرة الروضة المعروفة الآن بالقاهرة والثانية المدرسة الشريفية بناها أحد أمراء الدولة الأيوبية سنة ٦١٢ . والثالثة المدرسة الفائزية بناها الوزير الفائزى سنة ٦٣٦ . وبالمثل نستطيع أن نميز للفقه المالكى بجانب المدرسة القمحية التى أنشأها له صلاح الدين المدرسة الصاحبية التى بناها له الصاحب ابن شكر وزير السلطان العادل . وأيضا نستطيع أن نميز للفقه الحنفى بجانب المدرسة السيوفية التى أنشأها صلاح الدين مدرستين إحداهما سميت الأزكشية بناها أحد الأمراء ، والثانية سميت العاشورية أنشأتها إحدى كريمات الأمراء . وهناك مدارس بنيت لأصحاب الفقه الشافعى والمالكى مثل مدرسة القاضى الفاضل ، وأخرى بنيت للفقه الشافعى والحنفى مثل المدرسة القطبية التى أنشأتها السيدة مؤنسة ابنة السلطان العادل . ويبنى السلطان نجم الدين أيوب بأخرة من زمن هذه الدولة سنة ٦٤١ مدرسة كبرى للمذاهب الأربعة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، وهى أول مرة أو أول مدرسة تُعْنَى فيها مصر بدراسة الفقه الحنبلى . وينشئ السلطان الكامل سنة ٦٢٢ أول مدرسة تُعْنَى بالحديث النبوى تسمىً دار الحديث الكاملية نسبة إليه . ويلاحظ ابن خلكان ومن بعده ابن تغرى بردى أن جميع المدارس التى أنشأها صلاح الدين لم تُسَمَّ منها مدرسة باسمه ، مع ما رتَّب لها من الأوقاف العظيمة ، ومع ما كان له من الفتوحات الكبيرة[1] .

وهذه المدارس جميعا كانت تُعْنَى بالدراسات الإسلامية من الحديث والتفسير والقراءات ، وبالدراسات اللغوية من النحو وغير النحو وكذلك الدراسات البلاغية ، لأن الفقيه فى أى مذهب لا يتم تكونه إلا مع إتقانه هذه الدراسات . وأهمل صلاح الدين وخلفاؤه الجامع الأزهر لأنه كان مركز الدعوة الإسماعيلية ، غير أن الجوامع الأخرى والمساجد الكبرى ظل بها بعض النشاط العلمى ، وكان صلاح الدين ينفق عليها وعلى علمائها وطلابها كما كان ينفق على مدارسه السالفة ، وفى ذلك يقول ابن جبير الذى زار القاهرة والفسطاط لعهده سنة ٥٧٨ : « ما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان (صلاح الدين) يعمُّ جميع من يأوى إليها ويلزم السُّكنى فيها ، تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال[2] » .

وكانت الإسكندرية فى عهد الفاطميين مثل الفسطاط مركزًا لدراسات أهل السنة ، وقد بنى فيها ابن السلار — كما أسلفنا — مدرسة فوض الإشراف عليها للحافظ السِّلَفى الشافعى ، ويبدو أن

(١) ابن خلكان ٧ / ٢٠٧ والنجوم الزاهرة ٦ / ٥٥ .
(٢) رحلة ابن جبير (طبع ليدن) ص ٥٢ .

صلاح الدين أنشأ فى الإسكندرية مدارس جديدة كما يفهم من كلام ابن جبير إذ يقول : « ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخرة العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ومدرِّسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه وإجراء يقوم به فى جميع أحواله[1] . وأخذت المدارس تعمُّ مدن مصر الكبرى يبنيها ولاة صلاح الدين عليها ومن جاءوا بعده ، وأيضا أمراء بيته ، من ذلك أن تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخيه بنى فى الفيوم مدرستين إحداهما للشافعية والثانية للمالكية[2] ، وتأسست بأسوان مدرسة مبكرة[3] ، وأنشأ ابن هبة الله حاكم قوص سنة ٦٠٧ المدرسة النجيبية[4] بها . ويبدو أنه لم تكد تخلو بلدة كبيرة فى مصر لعهد الأيوبيين من مدرسة . وكانت بها جميعا الجوامع والمساجد ، واشتهرت الإسكندرية منذ العصر الفاطمى بجامع العطارين الذى بناه بدر الجمالى ، وظل به نشاط علمى وافر زمن الأيوبيين ، وبالمثل كانت الجوامع الكبرى فى دمياط والمحلة وطنطا والمنيا وأسيوط وقوص وإسنا ، إذ نقرأ فى كتب التراجم من حين لآخر عن علماء كانوا يعنون فى هذه البلدان بدراسات الفقه والحديث والقراءات .

وتنشأ — بجانب المدارس السالفة — مدارس كثيرة فى عهد المماليك ، ويعدِّدها المقريزى ويذكر تاريخ إنشائها والأوقاف التى رُصدت لها ، وتبلغ عنده نحو خمس وأربعين مدرسة ، بناها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأحيانا بعض نسائهم وأمهاتهم ، وقد عدَّ للشافعية منها أربعة : المدرسة[5] الطيبرسية والحسامية والسابقية والمجدية الخليلية ، وللحنفية ثلاثا : الغزنوية والجمالية والمهمندارية . ومدارس مختلفة بنيت لمذهبين مثل المدرسة الأقبغاوية والجاى ومدرسة أم السلطان وكذلك المدرسة الظاهرية وجميعها للشافعية والحنفية ومثل المدرسة الحجازية والمسلمية وهما للشافعية والمالكية ، ومثل المنكوتمرية للمالكية والحنفية . وبنيت للمذاهب الأربعة مدارس مختلفة مثل المدرسة المنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه محمد الناصر .

ويقول ابن بطوطة الذى زار القاهرة والفسطاط سنة ٧٢٦ لعهد محمد الناصر بن قلاوون :

---

(١) ابن جبير ص ٤١ وما بعدها .

(٢) ابن خلكان ٣ / ٤٥٦ .

(٣) الطالع السعيد للادفوى (طبع مطبعة الجمالية) ص ٨٥ .

(٤) الطالع السعيد ص ٢٢٠ .

(٥) انظر فيما يلى من حديث عن هذه المدارس خطط المقريزى ٣ / ٣٤٠ وما بعدها .

« أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها » . وظلت المدارس تتكاثر بعد زيارته لمدة نحو قرنين من الزمان طوال عصر المماليك . ولن نستطيع الوقوف عند جميع هذه المدارس لمعرفة نشاطها العلمي ونكتفي منها بثلاث هي المدرسة الظاهرية للظاهر بيبرس والمنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه الناصر . أما الظاهرية[١] فتم إنشاؤها لأوائل عهد المماليك سنة ٦٦٢ وقد جعلها الظاهر لتدريس الفقه الشافعي والحنفي وتدريس القراءات والحديث النبوى ، وأجرى الرواتب على أساتذتها وطلابها وألحق بها مساكن لهم كما ألحق بها مكتبة تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم وبنى بجانبها مكتبا لتحفيظ أيتام المسلمين كتابَ الله وأجرى لمن به من الأطفال الجِرايات والكُسْوة ، وأوقف عليها الرَّبْع أو الحى المعروف اليوم باسم تحت الربع ، وكان ربعا كبيرا مملوءًا بالدور والحوانيت . أما المدرسة المنصورية[٢] فأنشأها السلطان المنصور قلاوون لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة سنة ٦٨٤ وجعل لكل مذهب مدرِّسا وثلاثة من المعيدين ومقرئا للذكر الحكيم وخمسين طالبا ، وأجرى عليهم جميعا وعلى قَومتها وفراشيها الرواتب ، وبنى بجوارها مكتبا لتحفيظ ستين من أيتام المسلمين القرآن الكريم ، وأسند لفقيهين القيام على ذلك مع إجراء الجرايات على الأيتام والكسوة فى الشتاء والصيف . وبنى تجاه المدرسة قبة عظيمة جعل فيها خمسين مقرئا ودرسا للحديث ودرسا للتفسير ومع المدرسين الطلاب وكذلك مع المقرئين . وجعل فيها مكتبة كبيرة تشتمل على شتى أنواع العلوم والآداب ، وجعل لها أمينًا ومساعدين له وفراشين وبوابين . وحاكى الناصر أباه قلاوون فبنى مدرسة للمذاهب[٣] الأربعة سنة ٧٠٣ وجعل بها مكتبة جليلة ورصد لها أوقافا كثيرة . وبالمثل كان كل من يبنى مدرسة يقف عليها ما يحفظ لعلمائها وطلابها نفقاتهم وكثيرا ما كانوا يلحقون بها مساكن لهم .

ولم تكن المدارس وحدها ساحات العلم لعهد المماليك ، فقد كان يَشْرَكها الجوامع والمساجد . وفى مقدمتها الجامع الأزهر ، وكانت قد تعطلت فيه الدراسة طوال عهد الأيوبيين كما تعطلت فيه أحيانا صلاة الجمعة إلى أن أعادهما عز الدين الحلى نائب الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ فصلى فيه الجمعة ورتب فيه مدرسا للفقه الشافعي ومحدِّثا لإملاء الحديث النبوى وسبعة لقراءة الذكر الحكيم ورصد لذلك أوقافا وافرة[٤] . وسرعان ما أخذ الأزهر دوره التاريخى العظيم ، فغدا أكبر جامعة

---

(١) انظر فى هذه المدرسة الخطط ٣ / ٣٤٠ .

(٢) انظر فى هذه المدرسة الخطط ٣ / ٣٤٢ والسلوك للمقريزى (طبعة القاهرة) ١ / ٧١٦ وما بعدها و ١٠٠٠ وما بعدها .

(٣) الخطط ٣ / ٣٤٦ .

(٤) الخطط ٣ / ١٦٠ والسلوك ١ / ٥٥٦ وما بعدها .

للدراسات الإسلامية واللغوية . ويشيد المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ بالدراسات فى هذا الجامع أو الجامعة قائلا : « لايزال جامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم : الفقه (على المذاهب الأربعة) والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحَلَق الذكر ، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجد فى غيره[1] » . واهتم به السلاطين والأمراء وأرباب الأموال ، فرُصدت له أوقاف كثيرة على مر السنين . وزخر جامع ابن طولون بنشاط علمى جم منذ عهد السلطان المنصور لاجين[2] سنة ٦٩٤ فقد رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للتفسير ودرسا للحديث النبوى ، وألحق به مكتبًا لتحفيظ القرآن الكريم . وبالمثل عُنى بيبرس الجاشنكير بعمارة جامع الحاكم سنة ٧٠٣ ورتب[3] فيه دروسا لإقراء الفقه على المذاهب الأربعة والحديث النبوى والقراءات ، وألحق به خزانة كتب نفيسة .

وهذا النشاط العلمى فى مساجد القاهرة والفسطاط ومدارسها كان يلتقى به نشاط مماثل فى الإسكندرية ومدن مصر الكبرى . وهو نشاط كان يَشْرُك علماء مصر فيه كثير من علماء البلاد العربية الأخرى التى أخذت تفسح لهم فى مدارسها ، بل أخذت تضمهم إلى صدرها ، إذ شعرت بقوة أنها حاملة لواء العلم والفكر العربيين وأنه ينبغى أن تعمل بقوة لتحميهما إزاء غارات أعداء الإسلام على صقلية والأندلس وغارات حملة الصليب على الشام وأخيرا غارات التتار على إيران والعراق وديار الشام ، بحيث أصبحت مصر منذ عهد صلاح الدين ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها ، وكأنما انتدبت نفسها لهذه المهمة الخطيرة ، فهى تعنى عناية واسعة بإنشاء المدارس ، وهى تستقبل علماء الأقطار العربية المذكورة وتسند إليهم كثيرا من المناصب العلمية ، وأحيانا المناصب الوزارية ، فقد كان على سبيل المثال لصلاح الدين وزيران : القاضى الفاضل والعماد الأصبهانى ، والأول شامى والثانى عراقى الثقافة أصبهانى المولد . وأيضا فقد نزلها كثيرون من علماء المغرب بسبب اختلال الحكم وضعف الحكومات . ومن يرجع إلى كتاب مثل حسن المحاضرة للسيوطى وما يذكر فيه – على الترتيب الزمنى – من أسماء الأئمة المجتهدين وحفاظ الحديث النبوى وفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة وأئمة القراء وعلماء النحو واللغة والتاريخ والصوفية والوعاظ وأصحاب علوم الأوائل من الطب وغيره يخيَّل إليه أنه لم تبق بلدة فى العالم

---

(١) الخطط ٣ / ١٦٣ .

(٢) الخطط ٣ / ١٤٨ وحسن المحاضرة ٢ / ٢٤٩ .

(٣) الخطط ٣ / ١٦٥ ويقول المقريزى إنه رصد له أوقافا كثيرة فى الجيزة والصعيد والإسكندرية .

الإسلامى العربى إلا بعثت إلى القاهرة والإسكندرية بشيوخها وبطلاب العلم فى هذه الحقب التى امتدت من الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ إلى نهاية عصر المماليك سنة ٩٢٢ ، بل ظلت من ذلك بقية فى أيام العثمانيين .

ونهضت مصر بدور مهم فى حماية العلوم ، فقد رأت من واجبها أن تعنى بتدوين كل ما خلَّفه السلف خوفا من ضياعه ، وخاصة أمهات التراث العربى وأصوله ، وانتهجت لذلك نهجا سديدا فى توثيق روايتها وأخذها عمن حَرَّروا صياغتها وضبطوها أدق ضبط ، فهى لا تؤخذ من الصحف المكتوبة مباشرة بل تؤخذ سماعا عن الشيوخ الثقات ويرويها جيل عن جيل بمنتهى الدقة ولا يرويها إلا من شهد له شيخ بأنه جديرٌ بروايتها ، على نحو ما هو معروف فى نظام الإجازات . ووضعتْ مصر لطلاب كل علم متونا ، ووضعت عليها شروحا ، وشرحت الشروح أحيانا ، ونحن لا نقرؤها الآن حتى يروعنا أن علماءها كانوا فى هذه الشروح لا يتركون لعالم سالف منذ القرن الثانى للهجرة حتى زمنهم رأيا إلا دوَّنوه ، وبذلك تستحيل بعض الشروح وحواشيها إلى ما يشبه دوائر معارف فى العلم الذى تتناوله ، إذ تُعْرَض فيها آراء العلماء على اختلاف الأزمنة واختلاف البلدان العربية . وامتازت الحركة العلمية لعهد المماليك بكتابة دوائر معارف كبرى تجمع مواد فنون كثيرة ، من ذلك كتاب نهاية الأرب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٣ وهو يتناول علوم الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعى والحيوانات والزواحف والطيور والصيد والنباتات والثمار والأزهار والإنسان وعاداته وطرق الحكم ووظائف الدولة وشئون السياسة وتاريخ الدولة العربية من أقدم الأزمنة حتى زمن النويرى . ويُشبه هذه الدائرة كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ وهو فى جغرافية العالم العربى والعلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وتاريخ الدولة العربية وأعلامها فى الشعر والنثر على مر السنين . ومن كتب دوائر المعارف الأدبية كتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » لمحمد بن أحمد الأبشيهى[١] المتوفى سنة ٨٩٨ والكتاب موزع على ٤٨ بابا فى القرآن وفضله والعقل والعلم والأدب والحكم والأمثال والبيان والبلاغة وسياسة الملك والعدل والشرف والجود والبخل والشجاعة والعمل والكسب والحيوانات والحشرات والبحار والأنهار والجبال وعجائب المخلوقات وغير ذلك .

ولعل فى ذلك ما يصور خطأ الأحكام الجائرة التى صُبَّت على مصر وخاصة أيام المماليك . إذ نعت المؤرخون للأدب العربى هذه الحقب المتطاولة بأنها كانت زمن انحطاط وركود فى جميع

(١) انظر فى الأبشيهى الضوء اللامع ٧ / ١٠٩ .

جوانب الحياة العقلية ، وهو ما تنقضه الحقائق السابقة نقضا ، وسيتضح هذا النقض بصورة أدق حين نعرض فى الفصول التالية لوجوه النشاط العلمى ، فسنرى أن مصر لم تشهد حقبا علمية مزدهرة بمقدار ما شهدت فى زمن المماليك ، وكان كثير منهم مثقفين مثل الأيوبيين ، وعملوا على إذكاء النهضة العلمية بما أنشأوا من المدارس وما ألحقوا بها وبالمساجد من المكتبات وما رصدوا لها من أوقاف كثيرة تكفل للعلماء والطلاب حياة علمية خصبة .

ويكتب لهذه الحركة العلمية العظيمة أن تتوقف ويصيبها غير قليل من الخمود إذ احتلت جحافل العثمانيين مصر ، وجرَّدها السلطان العثمانى الفاتح سليم من كثير من علمائها وقضاتها وحَشَدهم فى السفن إلى عاصمته إستانبول . وجرد بعض المدارس من أعمدتها ورخامها الملون وكتبها النفيسة ، وما توافى سنة ٩٢٨ حتى تلغى وظائف قضاة المذاهب الأربعة التى كانت قائمة بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس ويحل محلهم قاضى العسكر . وكل ذلك عمل على انتكاس الحركة العلمية بمصر ، ومع ذلك ظلت جذوات منها تتقد فى الجامع الأزهر وفى بعض المدارس ، إذ نسمع فى ترجمة هذا العالم أو ذاك أنه كان يدرس فى المدرسة السيوفية الحنفية التى أنشأها صلاح الدين أو فى المدرسة الصالحية التى أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب أو فى المدرسة الأقبغاوية التى أنشئت فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ويذكر الجبرتى مدارس لم يذكرها المقريزى فى خططه مثل المدرسة الغورية التى أنشأها السلطان الغورى ، ومثل المدرسة السنانية[1] ، ويردد ذكر القطبانية والجنبلاطية والأشرفية[2] ، وأكبر الظن أنها كانت مدارس ناشطة هى الأخرى .

ومع ما أصاب مصر وحركتها العلمية من الفتح العثمانى الذى جثم على صدر البلاد وكان عاملا مهما فى خمود الدراسات العلمية بها ، فإن مصر ظلت ملاذاً للعلماء من جميع الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط ، وظلت القاهرة موئلهم جميعا يفدون عليها للتعلم فى الجامع الأزهر والاختلاف أحيانا إلى بعض المدارس ، حتى إذا نضج أحدهم علميا أصبح شيخا يتحلق حوله التلاميذ فى الجامع الأزهر أو فى أحد جوامع القاهرة ومدارسها ، وقد يرجع إلى بلده يعلم فيها ما تلقن على شيوخه فى الأزهر ، وكان قد أصبح منذ عصر المماليك أكبر جامعة إسلامية . ونذكر من مشهوريهم ابن طولون الدمشقى المؤرخ وعبد القادر البغدادى صاحب الموسوعة الأدبية المعروفة

(١) تاريخ الجبرتى (طبعة بولاق) ١ / ١٦٢ و ٢٢٠ . (٢) الجبرتى ١ / ٧٥ ، ٨٦ ، ٢٢٠ .

باسم خزانة الأدب والمقرى التلمسانى أكبر مؤرخى الأندلس ، وبهاء الدين العاملى صاحب الكشكول . وعَرَّبَتْ مصر بعض الولاة العثمانيين وأحالته مؤلفا أديبًا مثل راغب باشا واليها سنة ١١٦٠ وموسوعة « سفينة الراغب » مشهورة . وقد ألف بالقاهرة الزبيدى اليمنى تاج العروس : شرحه على القاموس المحيط للفيروزابادى . وبذلك ظلت مصر فى العهد العثمانى المظلم حامية للتراث العربى المتبقى بها وراعية لعلماء العالم العربى ، بفضل مصابيح العلم التى كانت تضىء بها خاصة فى الجامع الأزهر . ومازالت شهرته تدوى فى العالم الإسلامى إلى اليوم ، وجعل العثمانيون له رئيسا من كبار علمائه كانوا يسمونه شيخ الأزهر ، ويعدِّد الجبرتى شيوخه منذ سنة ١١٠٠ للهجرة إلى أن ينتهى إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى معاصر الحملة الفرنسية .

٢

علوم الأوائل – علم الجغرافيا

(ا) علوم الأوائل

مر بنا فى أول هذا الفصل أن مصر أسهمت فى نشأة العلم بمعناه العالمى سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى ، وتشهد لها الأهرامات بما كان فيها من علم هندسى ، وتشهد لعلمها الرياضى[١] برديات رياضية فرعونية مختلفة ، وبالمثل تشهد للعلم الطبى برديات فرعونية تدل على أن الطب والتشريح بمعناهما العلمى العالمى نشآ فى ديارها ورقيا رقيا بعيدا[٢] .

وكان من الممكن أن تستمر مصر فى حركتها العلمية لولا ما دهمها من الغزو الأجنبى ، واستطاعت أن تمصر البطالمة وأن تستعيد – كما أسلفنا – حركتها العلمية وإن اتخذت اليونانية لسانًا لها ، فنهضت بالإسكندرية عاصمتها حينئذ دراسات الهندسة والرياضة والفلك والطب ، أما الهندسة فشاد صرحها إقليدس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، مكونا بالإسكندرية مدرسة هندسية كان لها شأن عظيم ، وقد ظلت تُدْرَسُ كتبه فى العربية وفى أوربا حتى القرن الماضى[٣] ، وأما الطب فشهدت الإسكندرية فيه نهضة كبيرة على يد هيروفيلوس وأضرابه ، وقد اشتهر بتشريحه

---

(١) انظر العلم عند العرب لألدوميلى (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار – نشر الجامعة العربية – دار القلم) ص ٣٣ وما بعدها .

(٢) ألدوميلى ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) ألدوميلى ص ٤٣ وقصة الحضارة لول ديورانت (نشر جامعة الدول العربية) ٨ / ١٣٧ .

العين ووصفه للشبكية وأعصاب النظر وتشريح المخ وتحديد وظيفة الشرايين وغير ذلك من مباحث طبية[1] . وغزا مصر الرومان ، كما أسلفنا ، وظلت حركتها العلمية والفلسفية فى النمو ، كما ظلت الإسكندرية زعيمة العالم الهيلينى فى العلوم . ومن أكبر علمائها حينئذ بطليموس المولود بالصعيد ، غير أنه بارح مسقط رأسه مبكرًا إلى الإسكندرية ، حيث ظل يرصد الأجرام السماوية حتى منتصف القرن الثانى الميلادى ، ولم يلبث أن سجل معلوماته الفلكية والرياضية والجغرافية فى كتابه « النظام الرياضى للنجوم » وقد سماه العرب « المجَسْطى » أى الأعظم بنفس اللقب الذى وضعه له اليونان . وله كتب أخرى منها موجز جغرافى ، وكان لبحوث المجسطى وغيره تأثير عظيم فى علم الهيئة والفلك والرياضيات عند العرب[2] . ويلقانا هيرون ، وهو أرشميدس صغير كما يقال ، وله رسائل فى الرياضة والطبيعة والميكانيكا ترجمت إلى العربية ، وتاريخه غير معروف فمن العلماء المعاصرين من يرجع به إلى القرن الثانى قبل الميلاد ، ومنهم من يجعله فى القرن الثالث بعد الميلاد[3] . ونفذت مصر فى هذا القرن عند أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد إلى مذهب فلسفى كان تجديدًا لفلسفة أفلاطون ، ولذلك يسمى الأفلاطونية الجديدة . وظل نشاط مصر فى الطب عظيما ، وقد نزلها جالينوس (١٣١ - ٢٠١ م) ولم يكتف بمقامه فيها بالإسكندرية . فقد جاس خلال ديارها حتى وصل جنوبيها والنوبة وبواديها[4] . ومما لاريب فيه أنه انتفع أكبر انتفاع بنهضة علم الطب والتشريح فى مصر . وترك فى الإسكندرية بعده مدرسة عنيت بدراسة كتبه وتلخيصها ، وقد عقد ابن أبى أصيبعة لأعلامها فصلا مستقلا[5] . وظلت الإسكندرية كما كانت طوال عهد البطالمة نحو ستة قرون يُهْرَعُ إليها جميع طلاب الطب من ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وكان حَسْبُ الطبيب للدلالة على براعته أن يقال إنه تعلم الطب فى الإسكندرية[6] .

وممن تعلم الطب بها فى القرن السادس سرجيوس من « رأس عين » بالموصل وإيتيوس من آمد بالموصل أيضا ، ومن أطبائها فى أوائل القرن السابع أهرن القس السريانى الذى أمر

---

(١) قصة الحضارة ٨ / ١٥٦ وماكس مايرهوف فى كتاب التراث اليونانى للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٤٥

(٢) قصة الحضارة ١١ / ١٠٦ وألدوميلى ص ٤٥ وما بعدها .

(٣) ألدوميلى ص ٤٥ ، ٤٧ وقصة الحضارة ١١ / ١٠٨ .

(٤) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) للقفطى (طبع ليدن) ص ١٣٢ .

(٥) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ١٥١ و القفطى ص ٧١ .

(٦) ماكس مايرهوف ص ٤٥ وما بعدها وقصة الحضارة ١١ / ١١٠ .

عمر بن عبدالعزيز بنقل كتابه من السريانية إلى العربية . وظل بالإسكندرية نشاط فلسفى بعد أفلوطين يمثله فى القرن السادس للميلاد يحيى النحوى شارح أرسطو والفيلسوف المسيحى يوحنا الأبامى [١] . ومما لا شك فيه أن القبطية شَرِكت اليونانية لزمن الرومان فى الدراسات العلمية والفلسفية ، وانفردت بمباحث فقهية فى الدراسات الدينية . ومرَّ بنا أن السريانية – وكانت منتشرة قبل الفتح العربى بأديرة مصر – دخلتها مع بعض القساوسة والرهبان فى القرنين السادس والسابع للميلاد .

ويُظِلُّ مصر وكل ما كان بها من تراث علمى وفلسفى لواء الإسلام ، ومعروف أن الإسلام لم يحارب فى أى بلد فتحه ما به من علم وفلسفة ، ومرَّ بنا كذب الأسطورة القائلة بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية ، فقد أحرقها الرومان قبل نزوله مصر بنحو ستة قرون ، وإنما أطلنا فى بيان هذا التراث لندل على أنه ظل طويلا ، أما ما يقال من أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) نقل نشاط علماء الإسكندرية إلى أنطاكية وحران [٢] فلعله من باب المبالغة ، وكل ما يمكن أن نتصوره أنه ربما انتقل بعض أطبائها وعلمائها من الإسكندرية إلى أنطاكية ليقتربوا من بيزنطة كما يقول ما يرهوف . أما ما ذكره ابن أبى أصيبعة من انتقال التراث اليونانى ومعلميه إلى أنطاكية وحران فيعتوره الشك لسبب بسيط وهو أن المفروض أن ينقل عمر بن عبد العزيز أصحاب التراث اليونانى من الإسكندرية إلى عاصمته دمشق لا إلى أنطاكية . ولعل ابن أبى أصيبعة بالغ فى هذا الرأى . ويشهد لما نقوله ما يذكره ابن النديم من أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٩٢ هـ اهتم بعلم الكيمياء ، أو كما يسميه الصنعة فأحضر إلى دمشق جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا ينزلون بمصر وتفصحوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليونانى والقبطى إلى اللسان العربى [٣] . فكان الطبيعى أن يصنع عمر بن عبد العزيز صنيعه فينقل علماء الإسكندرية إلى عاصمته لا إلى أنطاكية وخاصة أنه اهتم فعلا بنقل كتاب أهرون القس الإسكندرى فى الطب وكلف بذلك ما سرجويه البصرى كما هو معروف ، ولو أنه نقل حقا علماء الإسكندرية إلى أنطاكية كما يقول ابن أبى أصيبعة لكلف أحدهم بنقله . وربما كان أكثر من هذا التصور منطقا أن يقال إن كثيرين من علماء

---

(١) انظر مقالة مايرهوف فى كتاب التراث اليونانى ص ٣٧ وما بعدها .

(٢) راجع مقالة مايرهوف السالفة وابن أبى أصيبعة ص ١٧١ .

(٣) الفهرست ص ٣٥٢ .

الإسكندرية اليونانيين بارحوها مع اقتحام عمرو بن العاص لها ، ويغلب أن يكونوا قد حملوا معهم كتبا كثيرة من التراث اليونانى خاصة . ومع ذلك فقد بقى منه ومن علمائه ما أتاح لحركة الإسكندرية العلمية أن تظل مستمرة ، وإن فقدت كثيرا من نشاطها . يدل على ذلك العلماء الإسكندريون المستعربون المذكورون آنفا والذين استدعاهم خالد بن يزيد بن معاوية لترجمة كتب الصنعة ، كما يدل على ذلك ابن أبجر طبيب عمر بن عبد العزيز الذى كان يتولى التدريس بالإسكندرية واستدعاه ولزمه فى خلافته ، ويبدو أنه تعرف عليه حين كان أبوه واليا على مصر (٦٥ – ٨٦ هـ) ويقال إنه أسلم على يده[١] .

ومن المؤكد أن أديرة مصر ظلت منذ العهد الرومانى تحتفظ بكثير من التراث اليونانى وخاصة فى الطب والكيمياء ، كما ظلت الإسكندرية تحتفظ بشهرتها بالطب أجيالا .. يدل على ذلك أن نجد هرون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ) يستدعى منها طبيبا مشهورا لعلاج إحدى جواريه هو بليطيان[٢] بطريرك الإسكندرية . وبالمثل ظلت مصر تحتفظ بشهرتها فى علم الكيمياء ، ويذكر ألدومييلى كتابين فى الكيمياء ألفهما بمصر فى أوائل القرن الثالث الهجرى عالم أو علماء – كما يقول – من القبط[٣] . وممن اشتهر بمعرفة الكيمياء من المصريين ذو النون المتوفَّى سنة ٢٤٥ واضع أسس التصوف كما مر بنا فى الفصل الماضى .

وتبدأ مصر فى زمن الخليفة المتوكل (١٣٢ – ١٤٧ هـ) باتخاذ المارَسْتانات[٤] ، ومعروف أنها كانت مستشفيات من جهة ومدارس لتعليم الطب من جهة ثانية . وسرعان ما يتولى مصر أحمد بن طولون ، وينشئ مارَستانا جديدا أنفق عليه ستين ألف دينار ، وكان به قسم للمجانين وحمامان : حمام للرجال وحمام للنساء ، وكان يركب لزيارته فى كل يوم جمعة وتفقُّد أطبائه وخزائن الدواء فيه[٥] . ويذكر ابن أبى أصيبعة من الأطباء لزمنه إبراهيم بن عيسى والحسن بن زيرك وسعيد بن توفيل النصرانى وطبيب العيون خلف[٦] الطولونى ، وله كتاب النهاية والكفاية فى تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتهما ظل يؤلفه فى نحو أربعين عاما من سنة

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ١٧١ وقد خلط بين أبن أبجر الإسكندرى وابن أبجر آخر . انظر مقالة مايرهوف ص ٦٤ وما بعدها .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٠ .

(٣) ألدومييلى ص ٢٦٩ .

(٤) خطط المقريزى : مارستان المغافر ٣ / ٣٨٦ .

(٥) الخطط ٣ / ٣٨٦ .

(٦) انظر فى خلف ومن قبله ابن أبى أصيبعة ص ٥٤١ وما بعدها .

٢٦٤ إلى سنة ٣٠٢ . وتظل مصر تعنى بالطب بعد الطولونيين ، وترعاه الدولة الإخشيدية ويلمع اسم الطبيب سعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية المتوفى سنة ٣٢٨ وله فيه مؤلفات[١] مختلفة . ومن الأطباء لعهد الإخشيد نسطاس[٢] بن جريج ، وينشئ كافور الإخشيدى مارستانا يرعاه غير طبيب ، ومن الأطباء لعهده عيسى بن البطريق أخو سعيد ، والبالسى وكان طبيبا متميزا فى معرفة الأدوية المفردة ، وله فيها كتاب ألفه لكافور[٣] .

وفى ذلك كله ما يدل على أن دراسة الطب ظلت ناشطة فى مصر ، وبالمثل ظلت الكيمياء كما أسلفنا ، وأيضا ظلت الرياضيات ، ولعل خير من يصور ذلك أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، عالم زمنه الرياضى ، والمظنون أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، واشتهر بأنه نقَّح علم الجبر الذى اكتشفه الخوارزمى . ويذكر ألدوميلى أن له رسالة فى المضلع ذوى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية وكتاب الطرائف فى الحساب وقد ترجم بدوره إلى الألمانية ، ويذكر أيضا أن لكاربينسكى كتابا عن علم الجبر باسم الجبر عند أبى كامل[٤] . ويقول القفطى إنه صاحب مدرسة وإن له تلاميذ تخرجوا فى علمه ، لعل منهم على بن أحمد العمرانى الموصلى العالم بالحساب والهندسة الذى توفى سنة ٣٤٤ إذ يقول القفطى عنه إنه شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، وله عدة كتب فى التنجيم . على كل حال تدل تصانيف أبى كامل شجاع أنه كان عالما حاذقا فى الرياضيات والهندسة . وكأن مصر ظلت طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة تهتم بهذا الجانب من تراثها العلمى حتى أنتجت فيه أبا كامل شجاعا .

وحقا نهضت بغداد كما مر بنا فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى بترجمة التراث اليونانى فى العلوم والفلسفة وأضافت إليه التراث الفارسى والهندى فنقلتهما إلى العربية ، وكل ذلك تحوَّل سريعا إلى تراث عربى عام للأمة فى بغداد والقاهرة وغيرهما من بلدان العالم العربى الكبيرة ، وقد بلغ من تمثل بغداد للرياضيات أن ابتكر الخوارزمى علم الجبر ، وبلغ من تمثل القاهرة لما كان بها من مصنفات تتصل بالرياضيات أن تجرد أبو كامل شجاع بن أسلم الرياضى المصرى لتنقيح جبر الخوارزمى . واهتمت البيئات العربية بتنقيحه ، فإذا على بن أحمد العمرانى الموصلى يعنى بشرحه

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٤ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

(٤) انظر فى شجاع بن أسلم ألدوميلى ٢١١ ، ٢١٦ وبروكلمان ٤ / ١٩٣ والقفطى ٢١١ ، ٢٣٣ .

وتفسيره لهذا التنقيح فى كتاب مستقل نوَّه به وبأصله القدماء .

وظل النشاط محتدما فى الرياضيات وعلوم الفلك والتنجيم طوال زمن الفاطميين ، ومن المنجمين لعهد المعز وابنه العزيز محمد[١] بن عبد الله العتقى وأبى[٢] عبد الله بن القلانسى ، ومن أعظم الفلكيين بمصر وعند العرب قاطبة أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفى المصرى ، وقد بدأ بعمل زيج كبير أو بعبارة أخرى بعمل لوحات فلكية مفصلة لعهد العزيز وأخذ فى تنقيح زيجه لعهد الحاكم ابنه وقد أقام له مرصداً ضخماً كان قسما من دار العلم ويقال إنه أتم زيجه سنة ٣٩٧ وإنه كان يشغل أربع مجلدات ضخام ، ويقول ابن خلكان إنه لم ير فى الأزياج على كثرتها أطول[٣] منه ، وقد سماه الزيج الحاكمى الكبير ولم يلبث أن توفى سنة ٣٩٩ .

ونزل مصر لعهد الحاكم أكبر علماء الرياضة والطبيعة العراقيين لزمنه أبو على الحسن بن الهيثم البصرى[٤] ، وفرح الحاكم بقدومه وخرج للقائه على باب القاهرة . ولما وقف على خبل الحاكم سكن قبَّة على باب الجامع الأزهر ، ويقال إنه كان يكتب المجسطى فى الفلك والهيئة لبطليموس ومصنفات إقليدس فى الهندسة ويبيعها جميعا بمائة وخمسين دينارا . ويبدو أن نبوغه الفلسفى والرياضى والفيزيقى إنما تحقق فى مصر التى اتخذها سكنا له ومقاما لأكثر من ثلاثين عاما ، وبها ألف كتابه « المناظر » فى العدسات وانعكاسات الضوء ، وقد تُرجم قديما إلى اللاتينية ، وله تأثير علمى عالمى بعيد . وعليه تتلمذ كثير من المصريين وأخذوا منه كل ما عنده فى الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة . والمظنون أن دار العلم كانت تعنى فيما تعنى بدروس الرياضيات والطبيعيات والفلك والفلسفة ، إذ كان الخلفاء الفاطميون يعنون بالعلماء فى كل هذه الجوانب . وظلت هذه العناية متصلة فى عهد الظاهر بن الحاكم وعهد ابنه المستنصر . ومما يدل على النشاط فى الدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية مايرويه ابن السَّنْبَدِى من أنه رأى[٥] فى خزانة القصر الفاطمى سنة ٤٣٥ لعهد المستنصر من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة

(١) القفطى ص ٢٨٥ .

(٢) القفطى ص ٤١٠ .

(٣) انظر فى على بن عبد الرحمن الصدفى ألدوميلى ٢١٣ ، ٢١٩ وبروكلمان ٤ / ٢٢٤ وابن خلكان ٣ / ٤٢٩ والقفطى ٢٣٠ وتاريخ الفلك عند العرب لنلينو ١٨٦ ، ٢٨١ .

(٤) تقدمت مصادر ابن الهيثم فى الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى ، وراجع ابن أبى أصيبعة ص ٥٥٠ وألدوميلى ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٥) القفطى ص ٤٤٠ .

آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس الجغرافى وكرة أخرى من فضة من عمل أبى الحسين الصوفى لعضد الدولة البويهى .

ويشتهر من تلاميذ ابن الهيثم رياضى متفلسف هو مبشر[١] بن فاتك ، ويقول القفطى قرأ عليه فضلاء زمانه . ويتكاثر الفلكيون والمنجمون والرياضيون بأخرة من القرن الخامس الهجرى لعهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧ – ٥١٥ هـ) يقول المقريزى : « وكان منجمو الحضرة سنة ٥٠٠ سهلون وابن الحلبى وابن الهيثمى وغيرهم يُطْلَقُ لهم الجارى فى كل شهر والرسوم والكسوة لعمل التقويم فى كل سنة[٢] » ثم يذكر أنه فكر فى عمل مرصد ضخم فنشط فى إقامته ، ويذكر المقريزى أنه كان يعمل به من المهندسين أبو جعفر بن حسداى والقاضى ابن أبى العيش والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتى الإسكندرانى المهندس وأبو محمد عبد الكريم الصقلى المهندس إلى غيرهم من الحسَّاب الرياضيين والمنجمين ويعدِّد من ذكرناهم أولا ويضيف إليهم ابن دياب والقلعى وأبا نصر تلميذ سهلون . وينزل مصر لعهد الأفضل أمية بن أبى الصلت المتفلسف والأديب الأندلسى ، ويكتب عن مصر وأدبائها وعلمائها رسالة مشهورة باسم الرسالة المصرية ، وممن يذكرهم من الفلكيين المصريين رزق الله النحاس المصرى وعلى بن النضر ، وقد ترجم لهما القفطى[٣] ، وذكر من المهندسين المصريين أبا على المهندس ، وله أيضا ترجمة فى القفطى[٤] .

وتموج القاهرة بالأطباء منذ عصر المعز أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن أطبائه موسى[٥] بن العازار الجراح اليهودى ، ومن أطبائه وأطباء ابنه العزيز أبو عبد الله التميمى المقدسى[٦] وأحمد[٧] بن محمد البلدى وأبو سهل كيسان[٨] بن عثمان وأعين[٩] بن أعين ومنصور[١٠] بن مقشِّر . ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء فى عهده من مثل إسحق[١١] بن إبراهيم بن نسطاس وما سويه[١٢] وكان طبيبا وصيدلانيا وطبيب العيون أبى القاسم

---

(١) القفطى ص ٢٦٩ وابن أبى أصيبعة ص ٥٦٠ .
(٢) خطط المقريزى فى ذكر الرصد ١ / ٢٣٣ وما بعدها .
(٣) القفطى ص ١٨٦ و ٢٣٧ على الترتيب .
(٤) القفطى ص ٤١٠ .
(٥) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .
(٦) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٦ والقفطى ص ١٠٥ وبروكلمان ٤ / ٢٩٠ .
(٧) ابن أبى أصيبعة ص ٣٣٢ وبروكلمان ٤ / ٢٩١ .
(٨) القفطى ص ٢٦٧ وانظر ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٨ .
(٩) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٦ .
(١٠) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٩ .
(١١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٤
(١٢) الدوميلى ص ٢٤٠ .

عمار[١] بن على وله المنتخب فى علاج أمراض العين . ومن أهم الأطباء حينئذ ابن[٢] رضوان المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وجعله الحاكم رئيسا على جميع الأطباء ، وظل فى هذه الوظيفة نحو خمسين عاما ، ودوَّت شهرته فى العالم العربى مما جعل علماءه يكاتبونه ويرحل بعضهم إليه لمناظرته فى مسائل الطب ، وممن رحل إليه من بغداد طبيبها ابن بُطْلان كما مر بنا فى حديثنا عنه فى الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ويقول ابن أبى أصيبعه موازنا بينهما : «كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز فى الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطبَّ وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها» . وقد تُرْجم شرحه لكتاب جالينوس فى الطب إلى اللاتينية ، ونُشر مرارا شرحُه للمقالات الأربع لبطليموس فى علم الهيئة والفلك .

وتنشط صناعة الطب فى مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه ، وأيضا بفضل دار العلم ، فقد كان الطب يدرس فيها ، إذْ يذكر المقريزى فى حديثه عنها أن الحاكم أحضر منها فى سنة ٤٠٣ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه[٣] . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن المنطق كان يدرس بها هو وما يتصل به من الفلسفة . ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان على[٤] بن سليمان ، وكان فى أيام العزيز والحاكم والظاهر ، وكان متقنا للطب والفلسفة والعلوم الرياضية ، وله فى الفلسفة والطب كتب مختلفة . وممن خلفوا ابن رضوان تلميذه إفرائيم[٥] بن الحسن اليهودى ، وقد حصل من المستنصر وأبنائه على أموال كثيرة ، وكان شغوفا بالكتب الطبية والفلسفية وغيرها ، وكانت لديه منها خزانة كبيرة ، واشتهر بأنه كان عنده دائما نُسَّاخ يكتبون له ما يريد من الكتب ، ويذكر ابن أبى أصيبعة أن تاجرا عراقيا من تجار الكتب اشترى منه عشرة آلاف مجلد ، وهمَّ بحملها إلى العراق ، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالى فى أيام وزارته ، فبعث إليه بالمال الذى اتفق مع العراقى عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر . ويقولون إنه حوَّلها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد . ومن تلاميذ إفرائيم سلامة[٦] بن رحمون الطبيب ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه نصب نفسه لتدريس كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة . ونظل نسمع عن أطباء فى العهد الفاطمى لا فى القاهرة

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٩ وألدوميلى ص ٥٤٨ وبروكلمان ٤ / ٣٠٣ .

(٢) القفطى ٤٤٣ وابن أبى أصيبعة ٥٦١ وألدوميلى ص ٢٤١ و ٢٥١ وما بعدها .

(٣) خطط المقريزى ٢ / ٢١٨ .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٥٥٠ .

(٥) ابن أبى أصيبعة ص ٥٦٧ .

(٦) ابن أبى أصيبعة ص ٥٦٨ والقفطى ص ٢٠٩ .

فحسب ، بل أيضا فى المدن مثل الحسين[١] بن منصور طبيب إسنا بالصعيد المتوفى فى أوائل المائة السادسة . ومن أهم الأطباء بالقاهرة ابن[٢] العين زربى وله كتاب الكافى فى الطب بدأ فى تأليفه سنة ٥١٠ وانتهى منه سنة ٥٤٧ قبل وفاته بعام واحد ، ويقول ابن أبى أصيبعة : «كان له تلاميذ عدة يشتغلون عليه» وترجم منهم لطبيب يسمى بلمظفر[٣] بن المعرَّف . ولحقت طائفة من تلاميذه العصر الأيوبى .

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نشاط الأطباء وأصحاب الرياضيات والطبيعيات والفلك بمصر طوال زمن الفاطميين ، ولم نحاول أن نحيل فى بيان صلة المصريين حينئذ بالفلسفة على الدعوة الإسماعيلية ، كما يصنع بعض الباحثين المعاصرين ، لأن المصريين لم يعتنقوا هذه الدعوة ، وكان دعاتها يلقِّنون تلاميذهم الفلسفة فى مراحل الدعوة حتى إذا وصلوا بهم إلى المرحلة التاسعة أحالوهم - كما يقول المقريزى - على ما يقرَّر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهى وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية . ومن المؤكد أن المصريين لم يقبلوا على هذه الدعوة بدليل أن دعاتها كانوا دائما من المغرب أو من الشام أو من أيران . ويبدو أنه كان للمصريين نشاطهم المستقل فى دراستهم للفلسفة عن طريق دراساتهم للطب وللرياضيات والطبيعيات ، ومن يرجع إلى تراجم من عرضنا لهم فى ابن أبى أصيبعة والقفطى سيجد لهم مصنفات فلسفية متنوعة كثيرة .

وإذا تقدمنا إلى العصر الأيوبى وجدنا مصر تحمل بقوة مسئوليتها فى طرد الصليبيين من ديار الشام ، ومع ذلك تظل الحركة العلمية نامية بها بفضل ما أنشأ فيها صلاح الدين وخلفاؤه الأيوبيون من المدارس . وتظل العناية متصلة بعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أنه يلقانا بعض البارعين فى الدراسات الفلسفية مثل السيف الآمدى المتوفى سنة ٦٣١ وأفضل[٤] الدين الخونجى المتفلسف المتوفى سنة ٦٤٢ وكان يتقن العلوم الفلسفية والدراسات الإسلامية وله تصانيف فى المنطق والطبيعيات ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه قرأ عليه بعض الكليات من كتاب القانون فى الطب لابن سينا ، وقد ولاه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قضاء مصر سنة ٦٣٨ بعد عزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقا وغربا - كما يقول السيوطى - عز الدين بن عبد السلام . ولعل

---

(١) حسن المحاضرة ١ / ٥٤٠ والطالع السعيد للإدفوى ١٢٠ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٧٠ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٧١ .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٥٨٦ وحسن المحاضرة ١ / ٥٤١ وطبقات الشافعية للسبكى ٨ / ١٠٥ .

فى ذلك ما ينقض كل ما قيل عن الأيوبيين من أنهم وقفوا الدراسات فى علوم الأوائل ولم يشجعوا عليها . فقد قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أحد علمائها المتعمقين فى مباحثها على جميع فقهاء زمنه الشافعية . ويبرع فى عهد الأيوبيين مهندس رياضى كبير هو قيصر[1] بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ وهو من أصفون بالصعيد . كان فقيها حنفيًّا عالما بالقراءات وتعلق بالرياضيات والموسيقى وأنواع الحكمة ، وهو الذى أقام لأمير حماة نواعير نهر العاصى البديعة التى لاتزال تنحدر المياه فيها من علو شاهق إلى اليوم ، مؤلفة بذلك منظرًا بالغ الروعة . وكان فلكيا مبدعا . فأنشأ كرة سماوية عظيمة لاتزال محفوظة إلى الآن فى المتحف الوطنى لمدينة نابولى بإيطاليا .

وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين . وقد بدأ هذا الاهتمام باتخاذه مارَسْتانا ضخما فى القاهرة وفيه يقول ابن جبير : « مما شاهدناه بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارَسْتان وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا[2] » ويذكر أنه عين له قيِّماً وضع لديه خزائن العقاقير . ويقول إنه وُضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرَّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة . وبين يدى القيم خدَمة يتكفَّلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشيا ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية ، ويذكر أن بالمارستان قسما خاصا بالمرضى من النساء ومعهنّ من الخدم من يتكفل بحاجاتهن . وقسما خاصا بالمجانين على مقاصيره شبابيك الحديد . ويقول ابن جبير إن بالفسطاط مارَسْتانا آخر على مثال ذلك الرسم بعينه . وطبيعى أن يحتاج المارستانان إلى كثير من الأطباء . ولابد أن نلاحظ أن المارستان فى القاهرة وبغداد جميعا كان دائما مدرسة للطب . كما كان مستشفى . بالضبط شأن القصر العينى بالقاهرة حديثا كما أسلفنا . وأول من يلقانا منهم الشيخ السديد[3] أبو المنصور عبد الله الذى خدم الخلفاء الفاطميين ثم صلاح الدين وطالت حياته حتى سنة ٥٩٢ وكان رئيسا على سائر المتطببين بمصر حتى وفاته . وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل ابن[4] جميع وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب ، ومثل الموفق بن شوعة المتوفى سنة ٥٧٩ وأبى البيان بن المدور المتوفى سنة ٥٨٠ وأبى الناقد الكحّال طبيب العيون المتوفى سنة ٥٨٤ وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١ . وتكاثر الأطباء المصريون فى عهد صلاح الدين وبعده

---

(١) انظر فى قيصر حسن المحاضرة ١ / ٥٤٢ والطالع السعيد ص ٢٥٩ وألدوميلى ص ٣٠٥ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٥١ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٧٢ وحسن المحاضرة ١ / ٥٤٠ .

(٤) انظر فى ابن جميع ومن تلاه من أطباء اليهود ابن أبى أصيبعة ص ٥٧٦ وما بعدها وألدوميلى ص ٣٢٠ ومابعدها وص ٥٦٦ .

مثل أبي[١] البركات بن القضاعي المتوفى سنة ٥٩٨ وجمال[٢] الدين ابن أبي الحوافر القيسي وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رياسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل فى هذه الوظيفة حتى عهد الكامل . وكان ابنه فتح[٣] الدين أحمد ماهرا فى الرمد وطب العيون . ويقول ألدوميلى إنه ألف كتابا يحتوى على ١٥ فصلا فى علم الرمد . وتكلم فى أحد الفصول عن عملية الكتاراكت . وعاش إلى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وولى أحيانا رياسة الأطباء . ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل نفيس[٤] الدين بن الزبير المتوفى سنة ٦٣٦ ويقول ابن أبي أصيبعة إن أولاده مقيمون فى القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل ومتميزون فى علمها وعملها .

ويستمر ابن أبي أصيبعة فى ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين . ويختم تراجمهم بترجمة لابن[٥] البيطار المالقى الأندلسى المولد المتوفى سنة ٦٤٦ وقد بارح موطنه فى العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارسا لما فيها من نباتات ، وألقى عصاه بمصر فجعله السلطان الكامل رئيسا على جميع العشَّابين ، وهو بحق إمام النباتيين لزمنه ، وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارسا لأنواع النبات ، وقرأ ما كتبه ديسقوريدس وغيره من النباتيين . وهو بحق يعد أعظم الصيدلانيين قاطبة قبل العصر الحديث ، وله كتابان : كتاب الجامع فى الأدوية المفردة وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء منها ثلاثمائة لم يتناولها صيدلى قبله . وله فى نفس الموضوع كتاب ثان هو المغنى فى الأدوية المفردة ، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب . وإذا كانت مصر أتاحت لابن البيطار المالقى الأندلسى بجوِّها العلمى الخصب أن يؤلف فيها كتابيه السالفين فى الأدوية فإنها أتاحت لأحمد بن يوسف التيفاشى المغربى المتوفى سنة ٦٥١ أن ينزل بها فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وهو لايزال يافعا صغير السن ويتكوّن فيها علميا . ويعود إلى بلده . ولا يلبث أن يعود إلى مصر ويتولى بها القضاء ، وقد بدأ مبكرًا بدراسة التاريخ الطبيعى واختار علم المعادن مع عنايته بالصيدلة والطب ، ويؤلف كتابه « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » وفيه يتناول خمسة وعشرين حجرا فى خمسة وعشرين فصلا[٦] ، ويسوق فى كل حجر كالماس والياقوت

---

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٤ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ وألدوميلى ص ٣٢٢ ، ٣٢٦ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ .

(٥) انظر فيه ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وحسن المحاضرة ١ / ٥٤٢ وألدوميلى ص ٤١٤ وما بعدها .

(٦) نشر كتابه « أزهار الأفكار » فى القاهرة الدكتوران محمد يوسف ومحمود بسيونى خفاجى بالهيئة المصرية العامة للكتاب ، وراجع فيه مقدمتها ومابها من مراجع .

مثلا ما ذكره جالينوس أو غيره من فلاسفة الإغريق ، ويتحدث عن معدنه وتكونه وخواصه ومنافعه ، مما قد يدخل فى المعارف الطبية ، ويتصل بهذه المعارف كتابه « المنقذ من التهلكة فى دفع مضار السمائم المهلكة » . ويلقانا فى عهد السلطان الكامل المنصور[١] بن بعرة الذهبى الكاملى وكتابه « كشف الأسرار العملية لضرب النقود المصرية » وفيه يتحدث عن إعداد المعادن وتصفيتها وطرق استعمالها فى سك النقود ، ويتناول دار سَكّ النقود وواجبات مَنْ بها من الموظفين .

وتظل لمصر قيادتها العلمية فى زمن المماليك ، ويظل ينزلها العلماء من الشرق والغرب ، وتظل تعنى بالفلسفة[٢] ، ويذكر السيوطى حشدا[٣] من متفلسفتها وعلماء المعقولات بها مثل شمس الدين محمد بن حمود الأصبهانى المتوفى سنة ٦٨٨ وتلميذه تاج الدين البارنبارى المتوفى سنة ٧١١ وشمس الدين أبى الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصبهانى المتوفى سنة ٧٤٩ وعلاء الدين على بن أحمد المدرس بمدرسة برقوق المتوفى سنة ٧٩٠ وابن جماعة عز الدين محمد بن شرف المتوفى سنة ٨١٩ والكافِيَجِى محيى الدين محمد بن سليمان المتوفى سنة ٨٧٩ .

وظل كثير من المصريين يشتغلون بالطبيعيات والرياضيات ، وممن اهتم بالتاريخ الطبيعى بيلك القبجقى الذى صنف حوالى سنة ٦٨٠ كتابه « كنز التجار فى معرفة الأحجار » ويقول ألدوميلى : « لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ نجد فيه توضيحا لاستعمال البوصلة عند الملاحين وطرق استعمالها[٤] » . ويظن أن معرفة المصريين والعرب بها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك ، ربما إلى القرن السادس الهجرى المقابل للثانى عشر الميلادى ، بل ربما إلى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى المقابل للقرن الخامس الهجرى . والمهم أن مصر هى التى سجلت اكتشافها عند عالمها بيلك . وأكبر الظن أنها هى التى أعدّت لصنعها ، وصَنَعْتها بفضل اشتغالها بالملاحة فى البحرين المتوسط والأحمر من قديم . وكان ملاحوها فى عصر المماليك يغدون ويروحون فى البحرين للتجارة والغزو أحيانا على نحو ما هو معروف عن تجارتهم مع موانى إيطاليا وغزوهم لقبرص وطردهم للبرتغاليين من شواطئ اليمن بأخرة من أيام المماليك . على كل حال يرمز اكتشاف

---

(١) انظر فيه ألدوميلى ص ٣٠٨ ، ٣١٠ .

(٢) راجع البحر المحيط لأبى حيان ٥ / ١٤٨ - ١٥٠ فى تفسير سورة يونس آية ٢٧ .

(٣) انظر حسن المحاضرة للسيوطى ١ / ٥٣٩ ومابعدها .

(٤) ألدوميلى ص ٣١٤ ومابعدها .

مصر للبوصلة إلى نشاط المعارف العلمية فيها طبيعية ورياضية . ويلقانا بها محمد[1] بن موسى الدميرى المتوفى سنة ٨٠٨ وموسوعته فى علم الحيوان التى سماها « حياة الحيوان الكبرى » معجم للحيوان مرتب أبجديا حسب أسمائه وأنواعه ، ومع كل حيوان خصائصه العلمية والطبية وطُرَفٌ من الحديث النبوى والأمثال والأشعار وتراجم لبعض العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ، وهو مطبوع فى مجلدين ومترجم إلى الإنجليزية .

وارتقى حينئذ فنّ المعمار وما يتبعه من الهندسة رقيا بعيدا ، لكثرة الأبنية التى شادها سلاطين المماليك منذ الظاهر بيبرس ، وفى مبانيه يقول ابن تَغْرى بردى : « بُنى فى أيامه بالديار المصرية ما لم يُبْنَ فى أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين) ولا ملوك بنى أيوب من الأبنية والرِّباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات[2] » . وتوالى السلاطين بعده وخاصة قلاوون يكثرون من الأبنية الرائعة ، وكل ذلك كان يقوم عليه مهندسون مصريون بارعون مما لانزال نرى آثاره فى مساجدهم الباقية . وينوِّه السخاوى بمهندس مصرى بارع لعهد السلطان برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) هو شمس الدين الطولونى ، ويقول : «كان المعوّل عليه وعلى أبيه فى العمائر السلطانية »[3] . وظل العلماء المصريون يعنون بالرياضيات والفلك ، ويشهر منهم رياضى كبير هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن الهائم[4] الفرضى من علماء القرن التاسع الهجرى . وله كتب كثيرة فى الحساب والجبر ذكر مخطوطاتها بروكلمان ، منها فى الحساب مرشد الطالب إلى أسنى المطالب ، كان واسع الانتشار . وفى دار الكتب المصرية بعض شروح له وبعض مخطوطات مختلفة من كتب ابن الهائم الرياضية .

وظل لمصر نشاطها زمن المماليك فى دراسة الطب والتأليف فيه ، وكان مارستان القاهرة الذى أنشأه صلاح الدين يُعَدّ أكبر معهد لتدريس الطب . وقد تَخرَّج فيه كثيرون مثل ابن أبى أصيبعة[5] المتوفى سنة ٦٦٨ صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وهو كتاب نفيس إذ يشتمل

---

(١) راجع فى الدميرى حسن المحاضرة ١ / ٤٣٩ والضوء اللامع .. رقم ٢٠٤ وشذرات الذهب ٧ / ٧٩ والبدر الطالع ٢ / ٢٧٢ وألدوميلى ص ٥٠٧ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) النجوم الزاهرة ٧ / ١٩٦

(٣) الضوء اللامع ١ / ٢٢١ .

(٤) انظر ابن الهائم فى الشذرات ٧ / ١٠٩ والضوء اللامع ٢ رقم ٤٤٩ وألدوميلى ٥٠٦ ، ٥١٣ وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ٢ / ١٢٥ .

(٥) راجع ابن أبى أصيبعة فى النجوم الزاهرة ٧ / ٢٢٩ والشذرات ٥ / ٣٢٧ وأيضا ألدوميلى (انظر الفهرس) ودائرة المعارف الإسلامية .

على ترجمة نحو أربعمائة طبيب عربى ، ويمكن أن نضم إليه الأطباء الذين كانوا مُلْتَفِّين بالظاهر بيبرس مثل شهاب[١] الدين بن فتح الدين القيسى ورشيد[٢] الدين أبى حليقة النصرانى .
وما يلبث أن يلى السلطنة بعد بيبرس المنصور قلاوون (٦٧٨ – ٦٨٩ هـ) فينشئ بيمارستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى : « وهذا البيمارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا[٣] » وقد جعله أقساما كبيرة : قسما للمرضى بالحميات ، وقسما للرمد ومرضاه ، وقسما للجرحى ، وقسما لمن به إسهال ، وجعل فيه قسما للنساء ، وأمكنة للأدوية وتركيبها ، وأمكنة لإعداد الطعام وأخرى للمحاصيل ، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال وفراشات لخدمة النساء ونصب فيه الأسرَّة للمرضى وأمدَّها بكل ما تحتاج إليه من فُرش . وأهم من ذلك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه ، كى يلقى فيها دروسه على طلاب الطب[٤] . وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معا ، وقد شاهده ابن بطوطة بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاما سنة ٧٢٧ للهجرة فقال : « أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أُعِدَّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر » . ويُذْكَرُ أن مَجْباه (نفقاته) كان ألف دينار كل يوم[٥] » .

وتلقانا فى عهد قلاوون بجانب كلية الطب التى كانت ملحقة بمارستانه كما ذكرنا مدرسة للطب سميت المدرسة[٦] المهذَّبية نسبة إلى منشئها الطبيب مهذب الدين محمد بن أبى حليقة المار ذكره فى عهد بيبرس ، وكان قد خدمه مع أبيه وأسلم فى أيامه وسمى محمدا ، ويقول ابن أبى أصيبعة : مولده سنة ٦٢٠ وإنه قرأ على أبيه الصناعة الطبية وصور أقسامها الكلية والجزئية وحصل معانيها العلمية والعملية[٧] » .. وبلغ من ازدهار دراسة الطب حينئذ أنه كان يدرس فى المساجد الجامعة ، إذ نجد السلطان لاجين (٦٩٦ – ٦٩٧ هـ) يعمر جامع ابن طولون ، ويرتب فيه دروسا – كما مر بنا – للفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوى ، وبجانب ذلك يرتِّب فيه درسا للطب[٨] ، وممن درَّسوا فيه بعد زمنه فى القرن الثامن الطبيب شمس[٩] الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى سنة ٧٧٦ .

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٨٥ .
(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٠ .
(٣) النجوم الزاهرة ٧ / ٣٢٧ .
(٤) راجع فى هذا المارستان خطط المقريزى ٣ / ٣٨٦ وما بعدها .
(٥) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية) ١ / ٢٠ .
(٦) خطط المقريزى ٣ / ٣٧١ .
(٧) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٨ .
(٨) خطط المقريزى ٣ /١٤٨ .
(٩) حسن المحاضرة ١/٥٤٦ .

ويكفى لبيان ازدهار دراسة الطب حينئذ أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمنه علاء الدين على بن أبى الحزم المعروف باسم ابن النفيس[١] العلامة فى فنه الذى لم يكن فى زمنه من يضاهيه فى الطب والعلاج والعلم ، كما يقول ابن تغرى بردى ، ويكفيه فخرًا ما ذكره ألدوميلى وغيره من الغربيين من أنه اكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية ، مسجلا بذلك كشفا طبيا خطيرا لم يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمنه اكتشافه . ومن كتبه « الشامل فى الطب » و« المهذب فى الكحل » وشرح القانون فى الطب لابن سينا . وقد توفى سنة ٦٨٧ بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذى كان يعمل به رئيسا لأطبائه . وولى رياسة الأطباء بعده مهذب الدين بن أبى حليقة المار ذكره ، ويسرد السيوطى فى حسن[٢] المحاضرة أسماء طائفة من الأطباء فى القرن الثامن الهجرى . ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد[٣] بن الأكفانى المتوفى سنة ٧٤٨ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان فى طب العيون ، ومن مصنفاته فى الرمد «كشف الغين فى أحوال العين » وله كتاب فى الطب المنزلى سماه « غنية اللبيب » وكتاب فى الفصد سماه « نهاية القصد » وكتاب فى الأحجار النفيسة سماه « نخب الذخائر » ومن كتبه : « إرشاد القاصد إلى أقصى المقاصد » وهو مختصر جامع لفنون شتى تبلغ ستين فنا نشره شبرنجر فى المكتبة الهندية . واشتهر بعده فى طب العيون صدقة[٤] بن إبراهيم الشاذلى ، ويغلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى المقابل للقرن الرابع عشر الميلادى . ومما يدل على شهرة مصر لأيام المماليك فى الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس فى كتابه بدائع الزهور من أن السلطان بايزيد العثمانى أرسل فى سنة ٧٩٥ رسولا إلى السلطان برقوق يسأله أن يبعث إليه بطبيب مختص بأمراض المفاصل فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاجه[٥] . ويظل هذا النشاط الطبى فى مصر حتى نهاية زمن المماليك إذ نلتقى فى زمن قانصوه الغورى (٩٠٦ – ٩٢١ هـ) بالطبيب محمد القوصى ، وإليه قدّم كتابه «كمال الفرحة فى دفع السموم وحفظ الصحة » ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

---

(١) انظر فى ابن النفيس النجوم الزاهرة ٧ / ٣٧٧ والسبكى ٨ / ٣٠٥ وحسن المحاضرة ١ /٥٤٢ والشذرات ٥ / ٤٠١ وتاريخ ابن الوردى ٢ / ٢٣٤ وروضات الجنات ٤٩٤ والدارس فى أخبار المدارس ٢ /١٣١ وألدوميلى ص ٣٢٣ ، ٣٢٦ وكتاب بول غليونجى عنه .

(٢) حسن المحاضرة ١ / ٥٤٣ وما بعدها .

(٣) البدر الطالع للشوكانى ٢ / ٧٩ وانظر ألدوميلى ص ٥٠٥ ، ٥١٠ .

(٤) ألدوميلى ص ٥١٠ .

(٥) راجع بدائع الزهور فى السنة المذكورة .

ومعروف أن عناية العرب بالبيطرة ومداواة الخيل قديمة ، وكان طبيعيا والطب ينشط فى مصر النشاط السالف فى أيام المماليك أن يُعْنَى بعض أطبائها بالطب البيطرى ، ومن خير ما أُلّف فيه كتاب لطبيب بيطرى كان المشرف على خَيْل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، هو أبو بكر[١] بن المنذر بن بدر المتوفى سنة ٧٤١ واسم الكتاب «كامل الصناعتين : الزردقة والبيطرة» والزردقة دراسة الخيل والبيطرة : علم أمراض الخيل وأدويتها وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية الدكتور بيرّون ، وترجمه إلى الألمانية حديثًا فرونر . ولأيدمر[٢] الجلدكى المتوفى سنة ٧٤٣ (وقيل بل سنة ٧٦٣) كتبٌ فى المعادن منها ـ المصباح فى علم المفتاح وهو مطبوع فى بومباى ـ وكتاب نتائج الفِكَر فى أحوال الحجر وهو مطبوع فى القاهرة .

وتكاد تتوقف هذه الحركة العلمية الدائبة فى زمن العثمانيين ـ ولكن تظل منها بقايا غير قليلة فى الجامع الأزهر وفى بعض المدارس . وتظل مصر ترعى العلوم الإسلامية واللغوية وبعض ما تبقى فيها من علوم الأوائل ، ومَنْ يرجع إلى كتاب الكواكب السائرة فى علماء المائة العاشرة لنجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ وكتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى المتوفى سنة ١١١١ سيجد فيهما كثيرين يعنون بالرياضيات والفلك مثل عبد القادر المنوفى الفلكى بالمدرسة الغورية المتوفى سنة ٩٨٠ ومصطفى بن شمس الدين الدمياطى المتوفى سنة ١٠٣٨ وعبد الله المقدسى الأزهرى المتوفى سنة ١٠٧٠ . ويسوق الجبرتى فى تاريخه تفاصيل كثيرة عن الرياضيين والفلكيين فى القرن الثانى عشر الهجرى ويذكر فى طليعتهم رضوان[٣] الفلكى المتوفى سنة ١١٢٢ صاحب الزيج الرضوانى ، ويقول الجبرتى إنه حرره على أصول الرصد السمرقندى وزيجه المشهور الذى صنعه أوليغ بك سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧م . وينوِّه الجبرتى بأن أباه كان يملك نسخة من هذا الزيج النفيس ، وكذلك كان يملك نسخة منه حسن[٤] أفندى قطة . فكان بالقاهرة منه نسختان غير النسخة التى كان يملكها — فيما نظن — رضوان الفلكى . ويشيد الجبرتى بأبيه فى الرياضيات والفلك ، وبتلميذ من تلاميذ رضوان هو جمال الدين يوسف[٥] الكلارجى المتوفى سنة ١١٥٣ ويقول إنه اخترع ما لم يسبق به ، ويذكر أنه ألف كتابا فى الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاول والأسطحة ، وأن له فى منازل القمر كتابا أسماه «كنز الدرر فى أحوال منازل القمر» .

---

(١) ألدوميلى ص ٥٠٥ .

(٢) ألدوميلى ص ٥٠٦ ، ٥١٣ .

(٣) تاريخ الجبرتى (طبعة بولاق) ٧٤/١ .

(٤) الجبرتى ٢ / ٧٠ .

(٥) الجبرتى ١ / ١٦٤ .

وينوه طويلا بحسين[١] المحلى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ ومعارفه فى الجبر والمقابلة والحساب ومصنفاته ، كما ينوه بتلميذه محمد[٢] بن موسى الجناجى المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ/١٧٨٦ م ومؤلفاته فى الرياضيات . ويذكر الجبرتى فى القرن المذكور أسماء رياضيين آخرين مما يدل على أن مصر ظلت تعنى بالرياضيات والهيئة والفلك طوال أيام العثمانيين . ويبدو أن الجبرتى وغيره ممن ترجموا لعلماء القرنين السابقين لتاريخه العاشر والحادى عشر لم يعنوا بالترجمة للأطباء . إلا ما قد يذكرونه عفوا مثل شهاب الدين بن سلامة[٣] القليوبى المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ وله عدة كتب طبية كانت رائجة فى زمنه ، وأهم من هذه الكتب وكان أكثرها رواجا كتاب التذكرة الطبية للأنطاكى[٤] داود بن عمر المتوفى سنة ١٠٠٨ . ومن يقرأ الجبرتى وتراجمه فى القرن الثانى عشر الهجرى يراه يذكر طبيبا يسمى قاسم[٥] بن محمد المتوفى سنة ١١٩٣ وكأن عناية مصر بالطب ظلت إلى أواخر العهد العثمانى ، وليس ذلك فحسب ، فإن الجبرتى يذكر أنه عُهد إليه تدريس الطب بالمارستان المنصورى ، ومعنى ذلك أن مارستان المنصور قلاوون الذى مر بنا ذكره وإشادة ابن بطوطة وغيره به ظل قائما طوال أيام العثمانيين ، وظل قائما معه تدريس الطب لطلابه فيه ، بالضبط كما كان الشأن أيام المنصور قلاوون ومن تلاه من المماليك .

(ب) علم الجغرافيا

ولم نتحدث حتى الآن عن علم الجغرافيا ونشاط مصر فيه والمصريين . ولعل أول ما يلقانا من ذلك ما نقرؤه فى القسم الثالث من كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ للهجرة وفيه يتحدث عن خطط الفسطاط والجيزة والإسكندرية . ولمعاصره محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٢٥٠ كتاب بعنوان الخطط[٦] سقط من يد الزمن . ونزل مصر واستقرّ بها فى سنة ٣٣٤ المسعودى على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ ويشتهر بكتاباته التاريخية وحشده فيها كثيرا من المعارف الجغرافية عن الأرض وجبالها وأغوارها وبحارها وأنهارها وسكانها وأحوالهم

---

(١) الجبرتى ١/٢١٩ .
(٢) الجبرتى ٢/١٢٥ .
(٣) خلاصة الأثر ١/١٧٥ .
(٤) انظر مصادر ترجمة داود الأنطاكى فى قسم الشام ص ٥٦٠ .
(٥) الجبرتى ٢/٥٤ .
(٦) تاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم (نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/١٦٨ .

الاجتماعية . وفى مصر أو بعبارة أدق فى الفسطاط نقّح كتابه « مروج الذهب » سنة ٣٣٦ وهو فى التاريخ العام للأمم والدول وبه معلومات جغرافية كثيرة . وفى الفسطاط ألف كتابه « التنبيه والإشراف » وهو مليء بالمعارف الجغرافية الفلكية والطبيعية والوصفية ، وبه معلومات قيمة عن مصر وما بها من محصولات وتجارات وصناعات . وتدخل مصر فى العهد الفاطمى وسرعان ما ترسل الدولة الفاطمية بابن سليم[١] الأسوانى فى سنة ٣٦٥ إلى النوبة فى مهمة دبلوماسية ويتغلغل فى السودان ويؤلف كتابه « أخبار النوبة والمُقُرَّة وعَلْوة والبَجَّة والنيل » يصف فيه تلك البلاد وسكانها ، وينقل عنه المقريزى وابن إياس مرارا ، وهو أول كتاب يصور المجرى الأعلى للنيل . ويكتب عن السودان بعده بفترة قليلة رحالة مصرى هو الحسن المهلبى فى كتابه « المسالك والممالك » الذى أهداه إلى العزيز الفاطمى سنة ٣٧٥ ولذلك قد يسمى بالعزيزى وهو — كما يقول آدم ميتز — يصف بلاد السودان وصفا دقيقا . وهو أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت فى كلامه عن السودان[٢] .

وتعود مصر فى القرن التالى إلى الكتابة عن الخطط أو تخطيط المدن ويؤلف القضاعى[٣] كتابه خطط مصر . ويخلفه فى القرن السادس الهجرى جغرافى مصرى كبير هو أبو الفتح نصر[٤] بن عبد الرحمن الإسكندرانى المتوفى سنة ٥٦١ ويشيد ياقوت فى مقدمته لمعجم البلدان بكتاب جغرافىٍّ له سماه « ما ائتلف واختلف من أسماء البقاع » وله كتاب ثان أهم منه ألفه توضيحا له سماه « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار المذكورة فى الأخبار والأشعار » ومنه نسخة محفوظة فى مكتبة المتحف البريطانى تضم ٢٩٣٨ اسما ولاحظ وستنفلد ناشر معجم البلدان أن ياقوت ضمن معجمه مادة هذا الكتاب[٥] . وينزل مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى عبد[٦] اللطيف البغدادى ويُعْنى بتأليف كتيِّب عنها يسميه : « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . والكتيب موزع على مقالتين تحدث مؤلفه فى أولاهما عن طبيعة مصر وسكانها ونباتها وحيوانها وآثارها وعمرانها ، وفى الثانية تحدث عن النيل وعما أصاب مصر فى مقامه بها من قحط ووباء مروِّعين .

---

(١) كراتشكوفسكى ١ / ١٩٢ وبروكلمان ٤ / ٢٥٣ .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز ترجمة د . أبى ريدة ٢ / ٧ — ٨ .

(٣) كراتشكوفسكى ١ / ١٦٩ وابن خلكان ٤ / ٢١٢ .

(٤) انظر مقدمة كتاب معجم البلدان وخريدة القصر للعماد الأصبهانى (قسم مصر) ٢ / ٢٢٥ وبغية الوعاة للسيوطى ص ٤٠٣ وكراتشكوفسكى ١ / ٣٢٢ .

(٥) انظر كراتشكوفسكى ١ / ٣٢٣ ومقدمة وستنفلد للجزء الخامس من معجم البلدان .

(٦) ابن أبى أصيبعة ٦٨٣ وكراتشكوفسكى ١ / ٣٤٥

ولا يلقانا بمصر جغرافيون مهمون فى القرن السابع الهجرى ويتكاثرون فى القرن الثامن ، وفيه نلتقى بابن[1] المتوج محمد بن عبد الوهاب الزبيرى المتوفى سنة ٧٣٠ وكتاب له عن خطط مصر إلى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة . وكان فى زمنه النويرى[2] شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٣ صاحب الموسوعة الكبرى : « نهاية الأرب » التى مرَّ ذكرها فى الحركة العلمية والتى أهداها إلى السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، وهى مقسمة إلى خمسة فنون ، والفن الأول عن السماء والأرض ، وهو مكتظ بالمعلومات الجغرافية عن الأرض وتكوينها الطبيعى وبلدانها وسكانها . وكان يعاصره ابن فضل[3] الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس ديوان الإنشاء للسلطان الناصر وله أيضا موسوعة كبرى مر ذكرها فى الحركة العلمية سماها « مسالك الأبصار » وفيها عرض جغرافى عام للبلدان والأمم الإسلامية والأجنبية فى الغرب والشرق . وتهتم الدولة فى هذا القرن الثامن بعمل روكات أو بعبارة أخرى بعمل سجلات لمسح الأراضى المصرية ، ومن أهمها الروك[4] الناصرى سنة ٧١٥ فى عهد السلطان الناصر بن قلاوون . ويظل النشاط الجغرافى بمصر فى القرن التاسع الهجرى ، ونلتقى فى أوائله بابن دقماق[5] والى دمياط وبعض بلدان الشام المتوفى سنة ٨٠٩ وهو يعنى بخطط مصر فى كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وتحتفظ دار الكتب المصرية منه بالجزءين الرابع والخامس وفيهما يصور خطط القاهرة والإسكندرية . ويعنى معاصره القلقشندى[6] شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على الكاتب بديوان الإنشاء المتوفى عام ٨٢١ بوصف جغرافى متفرق لمصر والبلاد العربية وبلاد التتار والهند والسودان والحبشة وبعض البلدان الأوربية الغربية والشرقية .

ولا نلبث أن نلتقى بالمقريزى[7] تقى الدين بن علاء الدين المتوفى سنة ٨٤٥ وكتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المشهور باسم الخطط موسوعة كبرى لمصر وجغرافيتها وخططها

---

(١) الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب الحديثة) ٤ / ١٥٥ وحسن المحاضرة للسيوطى ١ / ٥٥٥ وكراتشكوفسكى ١ / ٣٨٥ .

(٢) ابن حجر ١ / ٢٠٩ والسيوطى ١ / ٥٥٦ والخطط الجديدة لعلى مبارك ١٧ / ١٥ وكراتشكوفسكى ١ / ٤٠٨ .

(٣) انظر مراجع ابن فضل الله فى ترجمته بالفصل الخامس .

(٤) كراتشكوفسكى ١ / ٣٨٥ .

(٥) الشذرات ٧ / ٨٠ وكراتشكوفسكى ٢ / ٤٧١ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٦) انظر مراجع القلقشندى فى ترجمته بالفصل الخامس .

(٧) الضوء اللامع للسخاوى جـ ٢ رقم ٦٦ والمنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ١ / ٣٩٤ والسيوطى ١ / ٥٥٧ والشوكانى ١ / ٧٩ والمؤرخون فى مصر لزيادة ص ٣ .

وتاريخها وحضارتها وآثارها ومساجدها وكنائسها وأديرتها ومنشآتها وأعيادها وأحوالها الاجتماعية . ويعنى خليل[١] بن شاهين الظاهرى المتوفَّى سنة ٨٧٢ فى كتابه « زبدة الممالك فى كشف الطرق والمسالك » برسم الجغرافية الإدارية لأراضى دولة المماليك فى مصر والشام . ويختم القرن التاسع الهجرى بابن الجيعان[٢] المتوفى سنة ٩٠٢ وله « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ووصف لرحلة السلطان قايتباى فى سنة ٨٨٣ إلى بلاد الشام سماه « القول المستطرف فى سفر مولانا الأشرف » . وينتهى الجغرافيون فى العهد المملوكى بابن[٣] إياس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٣٠ وله كتاب « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » ولايزال غير مطبوع ، وفيه يتحدث عن الجغرافية الفلكية والطبيعية لمصر والعالم ، ومن أهم ما يشتمل عليه ثبت بمقاييس النيل وفيضانه على مر السنين .

ويكاد يتوقف هذا النشاط الجغرافى بمصر فى عهد العثمانيين ، إذ تحولت ولاية تابعة لهم ، ولم يعد أبناؤها يشعرون بمكانتهم التى كانت لهم زمن المماليك ، إذ كان يدين جزء كبير لهم من البلاد العربية بالطاعة وفى مقدمته الشام والحجاز . ومع ذلك لا ينعدم هذا النشاط ، بل تظل منه بقايا إذ نجد ابن[٤] زنبل المتوفى ستة ٩٦٠ يصنف فى الجغرافيا كتابا أسماه « تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب » ولا يزال مخطوطا لم ينشر . ونلتقى فى القرن الحادى عشر بالسنهورى[٥] محمد بن أحمد وله كتاب فى منازل البريد بين القاهرة ومكة . وكان يعاصره شهاب الدين القليوبى المار ذكره بين أطباء الحقبة العثمانية وله كتاب جغرافى فى مناسك الحج ومنازله ورسالة فى معرفة أسماء البلاد : أطوالها وانحرافاتها ، وتبدو الرسالة كأنها زيج صغير ، وهى بذلك تدخل فى الجغرافية الفلكية ، كما يدخل النشاط فى الفلك والهيئة الذى عرضنا له مع الرياضيات عند الفلكى والرياضى الكبير رضوان وأمثاله من الفلكيين. وبذلك ظلت الجغرافية الفلكية ناشطة وخاصة فيما يتصل بالزيجات ، ونشطت معها كتب الرحلات ، ومن أهمها رحلة لمصطفى[٦] أسعد اللقيمى الدمياطى المتوفى سنة ١١٧٣ جعل عنوانها : « موانح الأنس برحلتى لوادى القدس » وقد استغرقت الرحلة

---

(١) الضوء اللامع جـ٣ رقم ٧٤٨ وزيادة ص٢٣ . وكراتشكوفسكى ٢ / ٤٧٢ .

(٢) الكواكب السائرة ١ / ١٢٠ وكراتشكوفسكى ٢ / ٤٧٥ .

(٣) زيادة ص٤٦ وكراتشكوفسكى ٢ /٤٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٤) زيادة ص٧٥ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى ٢ / ٦٨٣ .

(٥) كراتشكوفسكى ٢ / ٦٩٢ .

(٦) انظر فيه تاريخ الجبرتى ١ / ٢٢١ – ٢٤٢ وراجع كراتشكوفسكى ٢ / ٧٥٥ .

ستة أشـهر فى سنة ١١٤٩ بدأها من مـوطنه دمياط إلى القـدس ، وعُنى باختصار كتاب الأنس الجليل فى زيارة بيت المقدس والخليل لأبى اليمن مجير الدين الحنبلى ، وسمى مختصره « لطائف أنس الخليل فى تحايف القدس والخليل » . وواضح أن الجغرافيين المصريين أخذوا يعنون فى العصر العثمانى بجغرافية الأراضى المقدسة فى فلسطين والحجاز .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

أخذت مصر تُعْنَى بدراسات اللغة والنحو مع عناية مدرستى البصرة والكوفة بهما . مما دفع فيها إلى نشوء طبقة من المؤدبين . وأخذت هذه الطبقة تتكاثر منذ القرن الثانى للهجرة . فكانت تلقن الشباب فى الفسطاط والإسكندرية مبادئ العربية . وانضم إليهم فى هذا التلقين بعض العلماء الذين هاجروا إلى الديار المصرية مثل عبد[1] الرحمن بن هُرْمز الأعرج تلميذ أبى الأسود الدؤلى . نزيل الإسكندرية المتوفى بها سنة ١١٧ للهجرة . وطبيعى أن يظل نشاط هؤلاء المؤدبين مطردًا طوال القرن الثانى للهجرة . لسبب واضح هو عناية المصريين بقراءات القرآن الكريم وضبط ألفاظه لغويا ونحويا . ولمدارستهم لتفسير القرآن الكريم وللفقه ، وسنرى فيما بعد نشاطهم الجم فى هذه الميادين . ولم تُعْنَ كتب التراجم بأسماء هؤلاء المؤدبين وإحصائهم ، ولكن لا شك فى أنهم كانوا كثيرين . وقد ترجم السيوطى فى كتابه البغية لواحد منهم هو سرج الغول الذى لحق زمن الإمام الشافعى حين نزل الفسطاط سنة ١٩٩ وكان عالما باللغة ولم يكن أحد بالفسطاط يظهر شعره إلا بعد عرضه عليه ورضاه عنه ، ويقال إنه كان يذاكر الشافعى فى اللغة والشعر ، وإنه كان يعجب بمعارفه ، وروى أنه كان يقول عنه حين يقوم من مجلسه : نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم ، وحسبه تلك الشهادة الرفيعة من الإمام الشافعى . وممن كان يجتمع به الشافعى فى الفسطاط من اللغويين عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة ، ويقول السيوطى عنه إنه كان إماما فى اللغة والنحو والعربية ويذكر أنه كان يتناشد هو والشافعى كثيرا من أشعار العرب[2] .

(١) راجع ابن هرمز فى أخبار النحويين البصريين للسيراف ص ٢١ وتذكرة الحفاظ ٩١/١ وطبقات القراء لابن الجزرى ٣٨١/٤ وإنباه الرواة ٢ / ١٧٢ وما به من مراجع .

(٢) له كتاب سماه « ما وقع فى أشعار السير من الغريب » وانظر مصادر ترجمته فى ص ١٥١ .

ويزور محمد بن يحيى اليزيدى مصر فى العقد الثانى من القرن الثالث فى صحبة المعتصم سنة ٢١٤ ويتخذها دار مقام له حتى وفاته[١] ويُحدث بها ضربًا من الثراء فى حياتها اللغوية إذ كان لغويا كبيرا مثل أبيه وأخيه إبراهيم ، وله كتاب المقصور والممدود ، وأغلب الظن أنه روى للمصريين كتاب أبيه : « النوادر فى اللغة » وأيضا كتاب أخيه إبراهيم فى اللغة الذى سماه « ما اتفق لفظه وافترق معناه » جمع فيه كل الألفاظ المشتركة فى الاسم – كما يقول ابن خلكان – المفترقة أو المختلفة فى المعنى ، وهو من الكتب اللغوية الجيدة . ويزور مصر ابن جرير الطبرى فى العقد السادس من القرن الثالث ، وكان يحفظ ديوان الطرماح فطلب إليه المصريون أن يأخذوه عنه ، فرواه لهم مفسّرًا غريبه[٢] .

ونلتقى فى الفسطاط لأواسط القرن الثالث بعالم مصرى لغوى ونحوى كبير هو ولاد[٣] التميمى المتوفى سنة ٢٦٣ لعهد الدولة الطولونية . وكان قد رحل إلى العراق وسمع بها العلماء وأخذ ما عندهم . ويقال إنه لم يكن بمصر شيء كبير من كتب اللغة والنحو قبله ، ويذكر حفيده أحمد أنه توارث هو وأبوه عنه ديوان رؤبة . مما يدل على عنايته برواية دواوين الشعر القديم ، وخاصة الدواوين التى تكتظ بالغريب مثل ديوان رُؤبة . ونلتقى بعده بلغوى مصرى معجمى أو من أصحاب المعاجم هو أبو الحسن على[٤] بن الحسن الهُنائى الأزدى المعروف باسم كُراع النمل لقصره ودمامته ، وهو وإن كان دميما قصيرا فقد كان عالما لغويا لا يُشَقّ غباره . ألف أربعة معاجم . ويقول القفطى فى ترجمته بإنباه الرواة إنه يملكها جميعا ، وهى المنضَّد فى اللغة ، وهو معجم كبير رتبه على الحروف الهجائية ، ومعجم مختصر له سماه المجرَّد ، جرده من الشواهد . ومعجم ثالث لأمثلة الغريب على أوزان الأفعال سماه الأوزان . والمعاجم الثلاثة مفقودة . أما المعجم الرابع فسماه المنجَّد، قصره على ما اتّفق لفظه واختلف معناه أو بعبارة أخرى على المشترك اللفظى . وهو معجم نفيس ، وقد نشر فى القاهرة . والألفاظ المشتركة فيه مرتبة حسب الحروف الهجائية لا حسب مخارج الحروف كما فى معجم العين للخليل . ولم تُرَدّ فى ترتيبها إلى أصولها الثلاثية والرباعية كما هو معروف فى المعاجم العربية ، بل ترتب حسب صورها اللفظية . وكأنه أراد بذلك اليسر والسهولة ، وتابعه أصحاب المعاجم – باستثناء الأزهرى فى معجمه تهذيب اللغة – فى

(١) انظر إنباه الرواة ٣ / ٢٣٦ وتاريخ بغداد ٣ / ٤١٢ .
(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٨ / ٥٣ .
(٣) انظر ترجمة ولاد فى إنباه الرواة ٣ / ٣٥٤ .
(٤) راجع ترجمة الهُنائى فى إنباه الرواة ٢ / ٢٤٠ ومعجم الأدباء ١٣ / ١٢ .

ترتيب الألفاظ حسب الحروف الهجائية مثل الجوهرى فى الصحاح والزمخشرى فى أساس البلاغة ، غير أن الجوهرى رأى أن يكون الترتيب الهجائى للألفاظ بحسب أواخرها ورأى الزمخشرى أن يكون الترتيب بحسب أوائلها مثل كُراع النمل .

وتلتحم مباحث اللغة بمباحث النحو أو بعبارة أدق تظل ملتحمة فى القرن الرابع على نحو ما يتضح عند أبى العباس أحمد[1] بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وأبى جعفر أحمد[2] بن محمد النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . أما ابن ولاد فقد خرَّجه أبوه محمد نحويا ولغويا ماهرا ، ولم يكتف بما أخذه عن أبيه وبعض العراقيين النازلين بمصر فرحل إلى بغداد ودرس على كبار اللغويين والنحاة بها ، وتسامع به وبزميله أبى جعفر النحاس أهل المغرب والأندلس فرحلوا إليهما يأخذون عنهما ويدرسون . وكان ابن ولاد يضيف إلى دراسته لكتاب سيبويه عرضه دواوين الشعراء القدماء وكان يقول لطلابه : ديوان رؤبة رواية لى عن أبى عن جدى . ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان ذى الرمة ، وسنرى عما قليل أن ابن ولاد كان الطريق إلى إحدى روايتيه ، وبذلك كان يدرس لطلابه فى الفسطاط أصعب ديوانين عربيين لغويا . واشتهر فى زمنه بروايته لمعجم العين المنسوب إلى الخليل ، وعنه حمله منذر بن سعيد قاضى الجماعة بالأندلس المشهور . ومن مصنفاته اللغوية كتاب المقصور والممدود ، وهو معجم لهما مرتب على الحروف الهجائية مثل كتاب المنجَّد لكُراع النمل ، وكأنه تابعه فى ترتيب معجمه تيسيرًا للانتفاع به . أما أبو جعفر النحاس فكان واسع العلم فى اللغة والنحو والدراسات القرآنية ، وقد رحل إلى العراق مثل ابن ولاد وحمل عن علمائها علما كثيرا ، وكان يعنى فى دروسه بشرح الشعر القديم . إذ فسَّر عشرة دواوين منه كان يمليها على طلابه . ومن أهم مصنفاته اللغوية « شرح القصائد التسع المشهورات وتشتمل على المعلقات السبع ، وهى منشورة ببغداد ، ونُشر له كتاب « شرح أبيات سيبويه » وهى أبيات كتابه المشهور .

وعلى هذا النحو أخذت مصر تنشط فى الدراسات اللغوية ، ونشعر بهذا النشاط واضحا حين نزلها المتنبى . فقد انعقدت له حلقة كبيرة لسماع شعره ، وسرعان ما تكوَّنت له بطانة من علماء مصر اللغويين وأدبائها تروى شعره . مثل عبيد الله بن محمد بن أبى الجوع وفيه يقول الثعالبى : « أحد رواة المتنبى الأدباء وأصحابه العلماء وممن تمهر فى لغات العرب[3] » ومثل صالح بن

---

(١) انظر فى ترجمة ابن ولاد معجم الأدباء ٤ / ٢٠١ وإنباه الرواة ١ / ٩٩ وما به من مراجع .

(٢) راجع فى ترجمة أبى جعفر النحاس إنباه الرواة ١ / ١٠١ ومعجم الأدباء ٤ / ٢٢٤ وابن خلكان ١ / ٩٩ .

(٣) اليتيمة ١ / ٣٩٥ .

رُشدين ، وفيه يقول الثعالبى أيضا : « أحد أئمة الكتاب المهرة فى سائر الآداب ، صحب المتنبى وروى شعره[١] » . وكانت تدور المناقشات أحيانا بين المتنبى وبعض اللغويين ، ولعل ذلك ما جعله يعقد حلقة علمية لقراءة كتاب المقصور والممدود لابن ولاد سنة ٣٤٧ وقد مضى يعلّق عليه موضحا ما فيه من الغلط ، وكتب ذلك عنه أبو الحسين على[٢] بن أحمد المهلبى اللغوى المتوفى سنة ٣٨٥ وأضاف إلى ذلك زيادات ونَسب الجميع إليه ، على نحو ما يصور ذلك على بن حمزة البصرى فى كتابه « الرد على ما فى المقصور والممدود لابن ولاد » .

ويقول ياقوت فى ترجمة المهلبى إنه كان إماما فى النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار كما يقول إنه تلميذ إبراهيم النَّجِيرَمى كاتب كافور المتوفى سنة ٣٥٥ وكان راوية كبيرا للدواوين والأشعار ، وحملها عنه أبو الحسن المهلبى المذكور آنفًا ، وتلميذ ثان له يسمى جُنادة[٣] اللغوى ، وسنرى عما قليل أنه كان الطريق إلى إحدى روايات ديوان ذى الرمة ، ولعل فى ذلك ما يدل على أنه شارك بقوة فى رواية الدواوين القديمة ، وبالمثل تلميذه أبو الحسين المهلبى ، وفى المهلبى يقول القفطى : أحد علماء الأدب واللغة والشعر ، روى عنه المصريون وأكثروا .. والرواية عنه إلى زماننا هذا (أى فى القرن السابع الهجرى) ووصل للمصريين روايةَ كتب كثيرة من كتب الأدب . وحوالى منتصف القرن الخامس الهجرى نزل بمصر التبريزى[٤] تلميذ أبى العلاء وأقام بها مدة ولعله روى فيها أشعار المعرى كما روى كثيرا من معارفه اللغوية وشروحه على الدواوين والأشعار ، مثل شرحه على المعلقات والمفضليات وديوان الحماسة وديوان أبى تمام ، وقد مرّ بنا فى الجزء الخامس من هذه السلسلة نشاطه اللغوى الجمّ . ومن نزلاء القاهرة المغاربة اللغويين القزاز القيروانى المتوفى سنة ٤١٢ خدم المعز الفاطمى وابنه العزيز وصنف لهما كتبا ، وعاد بعد خلافتهما إلى بلده ، ومن تصانيفه كتاب الجامع فى اللغة رتبه على حروف المعجم وهو – كما يقول ياقوت – كان يقارب معجم التهذيب للأزهرى ، وله كتاب الضاد والظاء وكتاب معان فى شعر المتنبى وكتاب فى المآخذ عليه .

---

(١) اليتيمة ١ / ٣٩٩ وأخبار مصر فى سنتى ٤١٤ ، ٤١٥ للمسبحى (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٩٦ .

(٢) انظر فى أبى الحسين المهلبى معجم الأدباء ١٢ / ٢٢٤ وإنباه الرواة ٢ / ٢٣٢ .

(٣) انظر ترجمة جُنادة فى معجم الأدباء ٧ / ٢٠٩ وكان تلميذا للأزهرى صاحب معجم التهذيب وروى عن أبى أحمد العسكرى كتبه ، ونزل مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٣٩٩ .

(٤) انظر فى نزول التبريزى مصر ابن خلكان ٦ / ١٩٣ .

وأكبر لغوى بالقاهرة فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس يوسف[١] النجيرمى المتوفى سنة ٤٢٣ وهو تلميذ أبى الحسين المهلبى وقد حمل عنه كل ما كان يرويه من كتب الأدب واللغة ودواوين الشعر ، وروى عنه المصريون عامة ما كان يرويه محتفين به لما كان يمتاز به من الدقة فى الضبط اللغوى غاية الضبط إلى أقصى حد ممكن ، وفى ذلك يقول ابن خلكان : « أكثر ما تُرْوَى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار العربية وأيام العرب فى الديار المصرية من طريقه » . وكان مايزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرجه فى أوثق صورة ممكنة . ومن خير ما يصور هذا العمل المعقد الشاق ديوان ذى الرمة الذى نشره الدكتور عبدالقدوس أبو صالح فى مجمع اللغة العربية بدمشق نشرة علمية محققة اعتمد فيها على صنعته فيه . إذ أخرجه فى صورة محكمة على أساس روايتين علميتين ، ولكل رواية طريقان . اما الرواية الأولى فعن ثعلب عالم الكوفة المشهور وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى أستاذه عن ابن ولاد ، وطريقها الثانى جعفر[٢] بن شاذان اللغوى البصرى نزيل القاهرة عن أبى عمر الزاهد غلام ثعلب . والرواية الثانية عن إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ عن أسود بن ضَبْعان عن ذى الرمة . وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى عن إبراهيم النجيرمى . وطريقها الثانى أبو عمران بن رباح أستاذ أبى يعقوب النجيرمى عن إبراهيم النجيرمى . ولعل فى ذلك مايوضح مدى عناية أبى يعقوب يوسف النجيرمى بإخراج الدواوين للمصريين وإحكام صنعتها إحكاما لايكاد يفوقه إحكام ، وكان يعمم هذا الإحكام فى كل مارواه من الدواوين وكتب اللغة .

ويحمل أصحاب يوسف النجيرمى عنه كتب اللغة ودواوين الشعراء . ويخلفهم عليها تلاميذهم فى القرن الخامس ومن تعهدوهم من علماء القرن السادس . ويطرد هذا النشاط اللغوى بمصر . ويزورها غير عالم لغوى من البلاد العربية ويستقرون بها . وفى مقدمتهم على[٣] بن جعفر السعدى الصقلى المعروف باسم ابن القطاع . نشأ بصقلية وقرأ الأدب واللغة على علمائها وخاصة ابن البِرِّ اللغوى . ورحل عن صقلية لما أشرف النورمان على تملكها فى حدود سنة ٥٠٠ ونزل القاهرة

---

(١) راجع فى ترجمة يوسف النجيرمى ابن خلكان ٧ / ٧٥ وبغية الوعاة والأنساب للسمعانى فى النجيرمى والشذرات ٣ / ٧٥ وعبر الذهبى ٢ / ٣٥٨ .

(٢) انظر فى ترجمة جعفر بن شاذان إنباه الرواة ١ / ٢٦٥ .

(٣) انظر فى ابن القطاع معجم الأدباء ١٢ / ٢٧٩ وابن خلكان ٣ / ٣٢٢ وإنباه الرواة ٢ / ٢٣٦ وما به من مراجع .

واتخذها دار مقام له وتصدَّر فيها للإفادة حتى توفى سنة ٥١٥ وأكرمه المصريون غاية الإكرام واتخذه الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الآمر الفاطمى معلما لولده ، ومن طريقه اشتهرت فى الآفاق رواية معجم الصحاح للجوهرى ، كان قد أخذها عن أستاذه ابن البرّ فى صقلية ، وله عدة تصانيف لغوية ، منها كتاب الأسماء فى اللغة ، وكتاب الأفعال عُنى بنشره مجمع اللغة العربية فى القاهرة .

ويتكاثر اللغويون بمصر من علمائها والعلماء النازلين بها بعد ابن القطاع ، وأشهرهم غير مدافَع ابن بَرِّى[1] عبد الله المصرى المولد والمنشأ المولود سنة ٤٩٩ وفيه يقول ابن خلكان : « الإمام المشهور فى علم النحو واللغة والرواية والدراية كان علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » . ويذكر ابن خلكان أنه رأى له « حواشى على درة الغواص فى أوهام الخواص » للحريرى ، وأن له كتابا لطيفا فى أغاليط الفقهاء . وقد كتب ردًّا على أبى محمد بن الخشاب ، ردَّ فيه على كتابه الذى عدَّد فيه غلط الحريرى فى المقامات ، وطُبع هذا الرد ملحقا بمقامات الحريرى مع نقد ابن الخشاب بالمطبعة الحسينية بالقاهرة . ومن أهم مصنفاته حواشٍ على معجم الصحاح للجوهرى سماها « التنبيه والإفصاح عما وقع فى كتاب الصحاح » يقول ابن خلكان : « وهى حواشٍ فائقة أتى فيها بالغرائب ، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة ، وهى دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه » وهى من الكتب الخمسة التى ذكر ابن منظور فى مقدمة لسان العرب أنه اعتمد عليها فى تأليف معجمه اللسان . وتوجد منه مخطوطات تعين على نشره حتى مادة وقش ، وقد نُشر هذا القسم منه فى جزءين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ويمكن استخراج بقيته من لسان العرب . ولابن برى أيضا حواش على كتاب المعرب من الكلام الأعجمى للجواليقى ، ومن آرائه الطريفة أنه ينبغى المحافظة على نطق الكلمات الأعجمية حين تعريبها وإدخالها فى العربية بجميع حروفها وحركاتها الخاصة . وقد عاش حقبة طويلة فى زمن الدولة الأيوبية إذ توفى سنة ٥٨٢ . ومن أهم تلاميذه اللغويين سليمان[2] بن بنين الدقيقى المتوفى سنة ٦١٤ وله مصنفات لغوية مختلفة ، منها كتاب الوضاح فى شرح أبيات الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب إغراب العمل فى شرح أبيات كتاب الجمل للزجاجى ، وأهم من هذين الكتابين كتابه : « اتفاق المبانى وافتراق المعانى فى اللغة »

(١) راجع فى ابن برى معجم الأدباء ٥٦/١٢ وابن خلكان ١٠٨/٣ وإنباه الرواة ١١٠/٢ وشذرات الذهب ٢٧٣/٤ وبغية الوعاة ص ٢٧٨ .

(٢) انظر ابن بنين فى معجم الأدباء ١١ / ٢٤٤ وفى بغية الوعاة ٢٦١ .

ومنه مخطوطتان بدار الكتب المصرية . وله كتب عدة فى العروض ، منها كتاب الروض الأريض فى أوزان القريض ، والكتاب الوافى فى علم القوافى .

وظل هذا النشاط اللغوى ينمو بمصر ويتسع نموه طوال القرن السابع الهجرى وزمن الأيوبيين والمماليك إلى أن تُوِّج بكتاب لسان العرب لابن[١] منظور المتوفى سنة ٧١١ وهو مطبوع فى عشرين مجلدا ، وهو أكبر معجم لغوى عربى ظهر فى الأزمنة الماضية ، وقد أتم مؤلفه تصنيفه سنة ٦٨٩ للهجرة ، وذكر فى مقدمته انه جمع فيه بين معجم التهذيب للأزهرى ومعجم الصحاح للجوهرى والمعجم المعروف باسم المحكم لابن سيده وحواشى الصحاح لابن برى والنهاية فى غريب الحديث النبوى لابن الأثير ، وهو معجم تنوء به الجماعة أولو القوة ، ولابن منظور بجانبه مصنفات كثيرة من أهمها مختصر الأغانى .

ويظل لمصر نشاط لغوى غزير بعد ابن منظور ، وتظل لها مشاركة فى وضع المعاجم لا المعاجم اللغوية فقد كفاها ابن منظور المئونة فى ذلك فحسبها معجمه ، بل فى وضع المعاجم المتخصصة مثل المصباح المنير فى غريب الشرح الفقهى الكبير للرافعى صنفه أحمد[٢] بن محمد الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ وهو ليس فى ألفاظ الإمام الرافعى الشافعى فحسب ، بل هو يتضمنها ويتضمن بصفة مختصرة ألفاظ العربية فى عرض حسن ، وألحق به خاتمة كثيرة الفوائد اللغوية .

ومايزال النشاط اللغوى الخالص فى مصر يزداد حتى يبلغ ذروة رفيعة عند جلال الدين عبد الرحمن[٣] السيوطى المتوفى سنة ٩١١ للهجرة وهو أغزر العلماء المصريين زمن المماليك بعامة تأليفا وتصنيفا فى جميع الميادين الإسلامية واللغوية ، ومن خير مصنفاته اللغوية بل من خير المصنفات اللغوية فى جميع الحقب بمصر وغير مصر كتابه « المزهر فى علوم اللغة وأنواعها » وهو مطبوع مرارًا بالقاهرة ، وفيه يعرض كل ما اتصل باللغة من علوم وضعت لمعرفة الصحيح وغير الصحيح والمعرب والمولد والاشتقاق والمشترك والأضداد والمترادف والقلب والنحت والإتباع والإبدال وغير ذلك من علوم اللغة ومسائلها الدقيقة . وأهم من ذلك كله أنه حاول محاولة خصبة

---

(١) راجع ابن منظور فى نكت الهميان ص ٢٧٥ والدرر الكامنة ٥ / ٣١ وحسن المحاضرة ١ / ٥٣٤ والبغية ص ١٠٦ وفوات الوفيات ٥٢٤/٢ والوافى ٥٤/٥ والشذرات ٢٦/٦ .

(٢) انظر الفيومى فى الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب الحديثة) ١ / ٣٣٤ .

(٣) انظر مصادر ترجمة السيوطى مع الحديث عنه ص ٤٥٥ .

أن يطبق علم مصطلح الحديث وما وضع فيه لروايته من أصول على اللغة وروايتها ، ويفيض فى ذلك إفاضة واسعة ، فنى ألفاظ اللغة – كالحديث النبوى – متواتر وآحاد ومرسل ومنقطع وضعيف ومنكر ومتروك ومطرد وشاذ . ويتحدث عمن تُقْبل روايته ومن تُرَدُّ ، وعن معرفة طرق أخذ اللغة وتحملها وعن المنتحل المصنوع فى اللغة وأشهر من نحل الشعر وأفسده . والكتاب فريد فى بابه ومباحثه . وتمضى بعد السيوطى فى زمن العثمانيين ، ويظل لعلماء اللغة فى مصر نشاطهم ، ومن خير من يمثلهم شهاب[1] الدين الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ ومن مؤلفاته الرائعة كتابه « شفاء الغليل بما فى كلام العرب من الدخيل » وقد صدره بمقدمة تحدث فيها عن التعريب وشروطه ، وله شرح على درة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى . وتظل مصر مع ما أصابها زمن الاحتلال العثمانى حاملة مشاعل الثقافة العربية فى اللغة وغير اللغة ، وينزلها كثيرون من علماء الديار العربية ، وممن نزلها – كما مر بنا فى الجزء الخامس من هذه السلسلة – السيد مرتضى الزبيدى اليمنى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ م إذ اتخذها دار مقام له سنة ١١٦٧ حتى لبى نداء ربه ، وأكرمه المصريون وعلماؤها ، وعكف منذ نزوله على شرح القاموس المحيط للفيروزابادى . ومازال عاكفا على عمله حتى أتمه سنة ١١٨١ وهو مطبوع فى عشر مجلدات ، وقد سماه باسم « تاج العروس » . وهو يتلو لسان العرب فى كبر حجمه ، وفى الجبرتى تقاريظ كثيرة للمصريين فيه . وكأنه أتيح لمصر أن تضع أكبر معجمين للعربية : اللسان فى زمن المماليك وتاج العروس فى زمن العثمانيين ، كما أتيح لها أن تضع أكبر دائرة معارف فى المباحث اللغوية ونقصد كتاب المزهر للسيوطى .

ومرَّ بنا فى صدر هذا الحديث أنه كانت بمصر طبقة من المؤدبين أخذت تتكاثر فى القرنين الثانى والثالث ، وكانت تعلم الناشئة اللغة والنحو ، ومنذ أواسط القرن الثالث يصبح لمصر نحاتها من أبنائها ونزلائها فى مقدمتهم ولاد التميمى الذى مرَّ ذكره فى اللغويين ، وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وكان يعاصره أحمد[2] بن جعفر الدينورى نزيل الفسطاط المتوفى سنة ٢٨٩ وقد درس على المازنى بالبصرة كتاب سيبويه ولما استوطن مصر واستقرَّ بها صنف لطلابه كتابا فى النحو سماه المهذب ، وعنه حمله المصريون . ويلقانا فى زمنه محمد[3] بن ولاد آنف الذكر المتوفى سنة ٢٩٨

---

(١) انظر مصادر ترجمة الخفاجى ص ٤٥٩ .

(٢) انظر الدينورى فى معجم الأدباء ٢ / ٢٣٩ وإنباه الرواة ١ / ٣٣ وما به من مراجع .

(٣) راجع محمد بن ولاد فى تاريخ بغداد ٣ / ٣٣٢ ومعجم الأدباء ١٩ / ١٠٥ وإنباه الرواة ٣ / ٢٢٤ وما به من مراجع .

وقد أخذ كل ما عند أبيه وعند أبي جعفر الدينوري ، ورحل إلى بغداد وقرأ على المبرد كتاب سيبويه وعاد إلى الفسطاط يدرس النحو ، وصنف لطلابه كتابا سماه المنمق . ونزل الفسطاط فى سنة ٢٨٧ الأخفش[١] الصغير على بن سليمان ، وظل بها حتى سنة ٣٠٠ للهجرة ، يعلم الطلاب النحو واللغة ، وله شرح على كتاب سيبويه ، لعله أملاه بمصر . ونمضى فى القرن الرابع الهجرى فيلقانا أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد المار ذكره ، وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا وإليه صارت نسخة أبيه من كتاب سيبويه التى قرأها على المبرد . وله كتاب « الانتصار لسيبويه من المبرد » وفيه يرد على المبرد ما نقد به سيبويه فى كتابه الذى سماه « مسائل الغلط » . وله آراء[٢] نحوية طريفة . وكان يعاصره كما مر بنا أبو جعفر النحاس اللغوى والنحوى الكبير . وكان يمزج فى كتبه النحوية بين آراء البصريين والكوفيين وأحيانا ينفذ إلى آراء اجتهادية جديدة مما يجعله بحق طليعة[٣] المدرسة البغدادية فى مصر كما يتضح من كتابه الصغير « التفاحة فى النحو » وكتابه الكبير الرائع النفيس : « إعراب القرآن » . ويبدو أن اسمه واسم معاصره ابن ولاد طار إلى المغرب والأندلس فرحل إليهما كثيرون من الطلاب يأخذون عنهما ، ومر بنا أن منذر بن سعيد قاضى الجماعة بالأندلس حمل عن ابن ولاد كتاب العين للخليل بن أحمد ، فمصر هى التى أذاعته فى الأندلس والمغرب . وحمل محمد بن يحيى الرَّباحى عن أبى جعفر النحاس كتاب سيبويه رواية ودراية ودرَّسه[٤] لطلابه بقرطبة ، وشاعت رواية هذه النسخة بحيث أصبحت أم الدراسات النحوية فى الأندلس وما رافقها هناك من نهضة فى النحو ومباحثه .

وأول نحوى كبير يلقانا فى زمن الفاطميين الحَوْفى[٥] على بن إبراهيم المتوفى سنة ٤٣٠ تصدَّر لإقراء النحو وصنف فيه كتابا كبيرا استوفى فيه — كما قال من ترجموا له — العلل والأصول . وله مصنفات أصغر منه فى النحو اشتغل بها المصريون ، وله فى إعراب القرآن كتاب فى عشرة مجلدات ، ويبدو مما نقله عنه ابن هشام من آراء نحوية أنه كان بغدادى[٦] النزعة يختار بعض آراء البصريين والكوفيين ويحاول النفوذ إلى بعض آراء جديدة . وكان يعاصره الذاكر[٧] النحوى

---

(١) انظر الأخفش الصغير فى تاريخ بغداد ١٢/٤٣٣ وابن خلكان ٣ / ٣٠١ ومعجم الأدباء ١٣ / ٢٤٦ وإنباه الرواة ٢ / ٢٧٦ .

(٢) انظر كتابنا المدارس النحوية ص ٣٣٠ .

(٣) المدارس النحوية ص ٣٣٢ .

(٤) إنباه الرواة ٣/٢٣٠ .

(٥) انظر الحوفى فى الأنساب للسمعانى الورقة ١٨١ ومعجم الأدباء ١٢ / ٢٢١ وابن خلكان ٣ / ٣٠٠ وإنباه الرواة ٢ / ٢١٩ والشذرات ٣ / ٢٤٧ .

(٦) المدارس النحوية ص ٣٣٤ .

(٧) إنباه الرواة ٢ / ٨ .

المصرى تلميذ ابن جنى المتوفى سنة ٤٤٠ وكان يتصدَّر لإقراء العربية ، وأغلب الظن أنه حمل إلى المصريين كتب أستاذه ابن جنى فأخذوا يدرسونها مبكرين . وأنجبت مصر حينئذ نحويا كبيرا هو ابن بابشاذ[1] طاهر بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٩ وكان قد رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها ونحاتها وعاد فتصدر للإقراء بجامع عمرو بن العاص فى الفسطاط .وكان يُسْند إليه الإشراف على تحرير الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمى إلى الأطراف ، وله فى النحو كتب سارت – كما يقول القفطى – مسيرَ الشمس ، منها المقدمة فى النحو وشرحها ، وهو منشور بالكويت نشرة جيدة . ومن مصنفات ابن بابشاذ شرح كتاب الجمل للزجاجى أحد أئمة النحو البغدادى ، وله كتاب سماه المحتسب فى النحو وشرح على كتاب الأصول لابن السراج ، وكانت له تعليقة كبيرة فى النحو فى خمسة عشر مجلدا . وكان ينزع منزع البغداديين[2] فى الانتخاب من آراء الكوفيين والبصريين ومحاولة الإدلاء بآراء جديدة . وخلفه على التصدُّر لإقراء النحو تلميذه محمد[3] بن بركات المتوفى سنة ٥٢٠ وكانت له فى النحو تصانيف مختلفة كما كان إليه التصفح فى ديوان الإنشاء الفاطمى .

وأكبر نحاة مصر فى أواخر زمن الفاطميين وأوائل زمن الأيوبيين ابن بَرِّىَ الذى أسلفنا الحديث عنه بين اللغويين ، وكان يتصدر لإقراء النحو واللغة بجامع عمرو ، وطارت شهرته فى الآفاق . فقصده الطلاب من كل بلد وفى مقدمتهم عيسى الجزولى نحوىّ المغرب والأندلس ، وقد دوَّن عنه فى أثناء شرحه لكتاب الجمل للزجاجى مقدمته المعروفة بالجزولية ، وكان يقول إنها من نتائج خواطر ابن برى وتلاميذه ، واهتم بها النحاة وشرحوها مرارا ، وهو بغدادى[4] النزعة فى النحو مثل أستاذه ابن برى وغيره من نحاة المصريين لزمنه . وخلف ابن برى فى إقراء النحو تلميذه سليمان بن بنين . ومرَّ بنا بين اللغويين ، وله فى النحو شرح على سيبويه سماه « لباب الألباب فى شرح الكتاب » . ونزل مصر يحيى[5] بن مُعْطى المغربى الدمشقى المتوفى سنة ٦٢٨ واستقر بها وتصدر بجامع عمرو لإقراء الطلاب النحو ، وله مصنفات مختلفة فى النحو منها ألفية كألفية ابن مالك وكتاب العقود والقوانين فى النحو ، وكتاب الفصول ، وحواش على أصول ابن السراج ، وشرح

---

(١) انظر ابن بابشاذ فى معجم الأدباء ١٢ / ١٧ وإنباه الرواة ٢ / ٩٥ وابن خلكان ٢ / ٥١٥ والشذرات ٣ / ٣٣٣ ومرآة الجنان ٣ / ٩٨ والبغية ص ٢٤ .

(٢) المدارس النحوية ص ٣٣٦ .

(٣) راجع محمد بن بركات فى معجم الأدباء ١٨ / ٣٩ وإنباه الرواة ٣ / ٧٨ والشذرات ٤ / ٦٢ ومرآة الجنان ٣ / ٢٢٥ والبغية ص ٢٤ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٠١ ، ٣٣٨ .

(٥) انظر ابن معطى فى معجم الأدباء ٢٠/٣٥ والبغية ٤١٦ والشذرات ٥/١٢٩ وتاج التراجم ٨٣ .

على الجمل . وكان يعاصره ابن الرماح على[1] بن عبد الصمد المتوفى سنة ٦٣٣ تصدَّر لإقراء النحو وله فيه مجموع يتردد ذكره فى كتاب الأشباه والنظائر للسيوطى . ونلتقى بعلى[2] بن محمد السخاوى المتوفى سنة ٦٤٣ وله شرحان على كتاب المفصل للزمخشرى ، واسمه يتكرر فى كتاب الأشباه والنظائر . وأهم النحاة المصريين حينئذ بلا منازع ابن الحاجب[3] عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ كان أبوه حاجبا لبعض الأمراء فغلبت عليه النسبة إلى وظيفته . وله كتب كثيرة فى الفقه المالكى والأصول والعروض ، وله فى النحو كتاب الأمالى ، وكتاباه الكافية فى النحو والشافية فى الصرف طارت شهرتهما فى العالم الإسلامى ، وتعلق العلماء بدرسهما للطلاب فى كل مكان ، وكثرت عليهما الحواشى والشروح كثرة مفرطة ، ومن أهم شروحهما شرح الرضى الإستراباذى . وينزع ابن الحاجب فى كتاباته النحوية منزع المدرسة البغدادية[4] ، فهو ينتخب من آراء المدرستين البصرية والكوفية ويضيف إليهما آراء اجتهادية تدل على حسن بصره وبالغ دقته وحدة ذكائه .

وتزدهر الدراسات النحوية فى زمن المماليك ، ونلتقى فى أوائله بأمين الدين المحلى[5] محمد بن على المتوفى سنة ٦٧٣ تصدر لإقراء النحو وانتفع به الناس ، وله تصانيف مختلفة فى النحو والعروض . وكان يعاصره بهاء الدين[6] بن النحاس الحلبى الأصل المتوفى سنة ٦٩٨ ، نزل مصر وأخذ عن شيوخها ولم يلبث أن تصدر لإقراء العربية ، وعليه تتلمذ أبو حيان الأندلسى المتوفى سنة ٧٤٥ حين نزوله مصر سنة ٦٧٩ وله مصنفات مختلفة ، من أهمها شرح على المقرب لابن عصفور . وأبو حيان[7] هو أهم تلاميذه ، فقد لزمه وأخذ عنه كتبه ، وتصدر لتدريس النحو فى جامع الحاكم بالقاهرة وله شروح كثيرة على أمهات الكتب النحوية مثل الكتاب لسيبويه والمقرب والممتع لابن عصفور والتسهيل لابن مالك وأيضا له شرح على ألفيته ، وبجانب ذلك له مصنفات نحوية مستقلة أهمها ارتشاف الضَّرَب أى عسل النحو ، ويغلب عليه متابعة البصريين[8] ويتصدى

---

(١) راجع ابن الرماح فى البغية ص ٣٤١ .

(٢) انظر العلم السخاوى فى معجم الأدباء ٦٥/١٥ وابن خلكان ٣٤٠/٣ وإنباه الرواة ٣١١/٢ والبغية ص ٣٤٩ وطبقات القراء ٥٦٨/١ والسبكى ٢٩٧/٨ وحسن المحاضرة ٤١٢/١ .

(٣) راجع ترجمة ابن الحاجب فى ابن خلكان ٢٤٨/٣ وطبقات القراءة ٥٠٨/١ وطبقات الذهبى ٢٠١/٢ والديباج لابن فرحون ص ٣٧٢ والشذرات ٢٣٤/٥ والبغية ص ٣٢٣ وبر وكلمان ٥ /٣٠٨ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٤٣ ومابعدها .

(٥) حسن المحاضرة ٥٣٣/١ .

(٦) بغية الوعاة ص ٦ .

(٧) انظر أباحيان فى الدرر الكامنة لابن حجر ٣٠٢/٤ والبغية ص ١٢٦ ونكت الهميان ص ٢٨٠ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٧٦/٩ وطبقات القراء ٢ /٢٨٥ وفوات الوفيات ٥٥٥/٢ والشذرات ١٤٥/٦ ونفح الطيب (طبعة دوزى) ٨٢٣/١ .

(٨) المدارس النحوية ص ٣٢١ وما بعدها .

كثيرا فى مؤلفاته لابن مالك وآرائه ، وقد تخرج به جيل من النحاة المصريين لزمنه . ومن أهم تلاميذه ابن أم قاسم[١] الحسن بن قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ وأم قاسم جدته لأبيه نُسب إليها . وله شروح على مفصل الزمخشرى وتسهيل ابن مالك وألفيته . وخرجت مصر حينئذ أكبر نحاتها ابن هشام[٢] جمال الدين عبدالله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١ وقد طارت شهرته فى العربية وقصده الطلاب من كل فَجّ ، وبلغ من إعجاب معاصريه به أن قالوا إنه أنحى من سيبويه ، وله مصنفات نحوية كثيرة من أهمها « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » وهو فى جزءين : جزء خاص بالحروف والأدوات وجزء خاص بالجمل ، بثَّ فيه كثيرا من القواعد الكلية والملاحظات الدقيقة . وله كتاب « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » وكتاب « شذور الذهب » وكتاب « قطر النَّدَى » وكل هذه الكتب مطبوعة مرارًا وتكرارًا . وهو ينهج فى النحو منهج المدرسة البغدادية . وكان يعاصره ابن[٣] عقيل عبد الله بن عبدالرحمن المتوفى سنة ٧٦٩ ومن أهم مصنفاته شرحه على الألفية . وهو مشهور . ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بالدمامينى[٤] الإسكندرى المتوفى بالهند سنة ٨٣٧ تصدَّر لإقراء النحو بالإسكندرية ثم بالجامع الأزهر ، وله حاشية على المغنى لابن هشام . وفيها يتحامل عليه تحاملا شديدا مما جعل الشُّمُنِّى الإسكندرى المتوفى سنة ٨٧٢ يتعقبه فى حاشية له على المغنى ، والحاشيتان مطبوعتان معا . ونلتقى بعدهما[٥] بالكافِيَجِىّ محمد بن سليمان الرومى المتوفى سنة ٨٧٩ وله مختصرات نحوية مختلفة . ومن أهم النحاة حينئذ الشيخ خالد[٦] الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ تصدر لإقراء الطلاب فى الأزهر فنُسب إليه ، وله مصنفات نحوية مختلفة منها « المقدمة الأزهرية فى علم العربية » وشرح عليها ، وهما مطبوعان ، وله شروح على مصنفات نحوية متعددة أهمها شرحه : « التصريح على التوضيح » لابن هشام . وكان يعاصره السيوطى وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وله فى كليات النحو كتاب « الأشباه والنظائر » فى أربعة مجلدات . وفيه طبق

---

(١) البغيه ص ٢٢٦ .

(٢) انظر ابن هشام فى الدرر الكامنة ٣٠٨/٧ والشذرات ١٩١/٦ والبغية ص ٢٩٣ والبدر الطالع ٤٠١/١ وكتابنا « المدارس النحوية » ص ٣٤٦ .

(٣) راجع ابن عقيل فى الدرر الكامنة ٣٧٢/٢ والبغية ص ٢٨٤ والشذرات ٢٠٤/٦ والبدر الطالع ٣٨٦/١ وكتابنا « المدارس النحوية » ص ٣٥٥ .

(٤) انظر الدمامينى فى الضوء اللامع جـ٧ رقم ٤٤٥ والشذرات ١٨١/٧ والبغية ص ٢٧ والبدر الطالع ١٥٠/٢ .

(٥) انظر الكافيجى فى الضوء اللامع جـ٧ رقم ٦٥٥ والبغية ص ٤٨ وشذرات الذهب ٣٢٦/٧.

(٦) راجع الشيخ خالد فى الضوء اللامع جـ٣ رقم ٦٦١ وشذرات الذهب ٨ / ٢٦ والكواكب السائرة ١ / ١٨٨ والخطط الجديدة لعلى مبارك ١٠ / ٥٣ .

على قواعد النحو الكلية منهج الفقهاء فى كتاباتهم عن الأشباه والنظائر فى الفقه ، وهو كتاب نفيس . وقد طبع بحيدر آباد . وله كتاب الاقتراح وهو مختصر لطيف فى أصول النحو ألفه على هدى كتاب الخصائص لابن جنى كما يقول فى مقدمته . وله فى النحو والتصريف كتاب همع الهوامع فى مجلدين ضخمين ضَمَّ فيه خلافات النحاة وآراءهم . وهو دائرة معارف نحوية وصرفية بديعة .

ويلقانا فى أوائل زمن العثمانيين الأشمونى[1] على بن محمد المتوفى سنة ٩٢٩ للهجرة ومن أهم مصنفاته النحوية شرحه على ألفية ابن مالك . وهو يعرض فيه بدقة آراء النحاة المختلفين ، وهو مثل شرح ابن عقيل على الألفية من أشهر كتب النحو المتداولة . ويستمر نشاط علماء النحو طوال أيام العثمانيين . ومن أشهرهم فى القرن الحادى عشر الشنوانى المتوفَّى سنة ١٠١٩ والدنوشرى المتوفى سنة ١٠٢٥ ، ونزيل القاهرة عبد القادر[2] البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ ومن مؤلفاته : « خزانة الأدب » وهى شرح لشواهد شرح الكافية فى أربعة مجلدات ، وعادة يذكر مع الشواهد شعراءها ويترجم لهم ، وبذلك أحال خزانته إلى دائرة معارف لشعراء العربية فى الجاهلية وصدر الإسلام ، ونمضى إلى القرن الثانى عشر فيلقانا الحفنى المتوفى سنة ١١٨١ ومحمد الأمير المتوفى سنة ١١٨٨ وله حاشية على المغنى . وهى مطبوعة . ولا نلبث أن نلتقى بالشيخ حسن الكفراوى[3] المتوفى سنة ١٢٠٢ صاحب شرح الأجرومية المشهور . ونلتقى بالصبان[4] محمد بن على المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ/١٧٩١ م صاحب حاشيته المشهورة على شرح الأشمونى ، وهى أشبه بدائرة معارف نحوية ، وترمز بقوة إلى استمرار النشاط النحوى بمصر حتى نهاية أيام العثمانيين .

وإذا تركنا علمى النحو واللغة إلى علوم البلاغة والنقد . رأينا مصر تتأخر فى إفراد العلوم البلاغية بمصنفات خاصة بها . وأول كتاب نجده يعنى بمباحث البلاغة كتاب لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣ سماه المنصف[5] فى بيان سرقات المتنبى . وهو بذلك أدخل فى مباحث النقد .

---

(١) انظر الأشمونى فى الضوء اللامع ٦/٥ وشذرات الذهب ٨ / ١٦٥ والبدر الطالع ١ / ٤٩١ وفيه أنه توفى سنة ٩١٨ .

(٢) انظر فى عبد القادر البغدادى خلاصة الأثر ٢ / ٤٥١ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٣) تاريخ الجبرتى ٢ / ١٦٥ .

(٤) تاريخ الجبرتى ٢ / ٢٢٧ والخطط التوفيقية ٣/٣٠٦

(٥) انظر فى هذا الكتاب تاريخ النقد الأدبى عند العرب لإحسان عباس ص ٢٩٤ . وقد نشره بدمشق الدكتور محمد رضوان الداية .

غير أنه جعل بين يديه مبحثين : مبحثا فى السرقات الشعرية عامة ، ومبحثا فى فنون البديع ، وهو فيه يذكر أولا مصطلحاته التى دونها ابن المعتز فى كتاب البديع ثم يذكر ما أضافه قدامة فى نقد الشعر ، ويستمد من كتاب ثالث لا يسمى صاحبه ، وربما كان كتاب حلية المحاضرة للحاتمى . والكتب الثلاثة فعلا أهم كتب ألفت فى البديع قبله . وكأن مصر إن كانت قد تأخرت فى وضع المباحث البلاغية فإنها لم تقصر فى الاطلاع على ما وضعت العراق منها حتى زمن ابن وكيع ، وظلت تُعْنَى بعده بالاطلاع على مباحث العراقيين وغير العراقيين حتى نهاية زمن الفاطميين . تدل على ذلك كتابات على بن منجب الصيرفى المتوفى سنة ٥٤٢ وإذ نراه فى كتابه : قانون ديوان الرسائل يتحدث عن البلاغة حديثًا سريعًا وعرض فى بعض رسائله لفنى الجناس والتورية من فنون البديع .

ولعل أول كتاب بلاغى أُلِّف فى مصر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كتاب غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعلى[١] بن ظافر الأزدى المصرى المتوفى سنة ٦٢٣ . وسبقتْه فى نفس الموضوع كتب أخرى من أهمها كتاب التشبيهات لا بن أبى عون وقد عرضنا له فى الجزء السابق من هذه السلسلة ، وقد توفى سنة ٣٢٣ . ويذكر ابن ظافر فى مقدمة كتابه أنه قدمه للملك الأفضل على بن صلاح الدين سنة ٥٨٧ فى حياة أبيه ، وهو منشور بالقاهرة . وجعله ابن ظافر فى ستة أبواب : أولها فى تشبيه الأجرام العلوية والثانى فى تشبيه المياه والأنهار والثالث فى تشبيه الأنوار والأثمار والنبات والرابع فى التشبيه الواقع فى الخمريات والخامس فى التشبيه الواقع فى الغزل والسادس فى تشبيهات مختلفة . والكتاب يجمع طرف التشبيه فى هذه الموضوعات المتنوعة ، وخاصة تلك التى دارت على ألسنة المحدثين من شعراء مصر والشام والعراق والمغرب والأندلس . واستعان فى ذلك بكتب الأدب العامة مثل اليتيمة للثعالبى والخريدة للعماد الأصبهانى . ونعجب إذ نرى شعراء العالم العربى معروضين فى الكتاب مع فرائدهم فى التشبيه ، غير أن العجب يزول إذا عرفنا ما أكَّدناه مرارا من أن العالم العربى كانت تسوده وحدة جعلت آثاره الأدبية والعلمية وكأنها آثار كل بلد من بلدانه ، مما جعل دواوين الشعراء تُتداول فى أوسع نطاق ، بحيث لم يكن يظهر شاعر فى بلدة وينال شيئا من الشهرة حتى تتناقل ديوانه وأشعاره البلدانُ العربية المختلفة . ويلقانا

---

(١) انظر على بن ظافر فى معجم الأدباء ١٣ / ٢٦٤ . وفوات الوفيات ٢ / ١٠٦ .

بعد ابن ظافر عبد الرحيم[1] بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ ونراه فى كتابه « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » يعقد فصلا للبلاغة يعرض فيه للإيجاز والمساواة واختيار الألفاظ والسجع وبعض فنون البديع . ويتلوه العز بن عبد السلام الإمام الشافعى المشهور نزيل القاهرة سنة ٦٤٠ وقد ظل فيها علما كبيرًا فى الفقه الشافعى وغيره ، وله كتاب منشور سماه الإشارة إلى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ، وهو بذلك كتاب فى علم البيان ، وقد قصره على إحصاء دقيق لأمثلة المجاز فى الذكر الحكيم . عُنى فيه بالأمثلة أكثر مما عنى بالقواعد وتفاريعها الكثيرة المعروفة فى علم البيان .

وأهم من العز بن عبد السلام فى ميدان التأليف بمصر فى البلاغة وفنون البديع معاصران له هما أحمد بن يوسف التيفاشى المغربى الجزائرى نزيل مصر المتوفى سنة ٦٥١ وابن أبى الإصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ . أما التيفاشى فذكرنا عنه فى غير هذا الموضع أنه نزل مصر فى باكورة شبابه وأنها تعهدته حتى أصبح عالمًا لا يُشَقُّ غباره فى التاريخ الطبيعى والجيولوجيا وكان أديبا وعُنى بالتأليف فى البديع وألف فيه كتابا أحصى فيه سبعين محسنا من المحسنات البديعية ، وسقط الكتاب من أيدى الزمن . أما ابن أبى الإصبع فيُعَدّ أكبر بلاغى ظفرت به مصر فى القرن السابع الهجرى ، وله كتابان : تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، وكتاب بديع القرآن . والكتابان جميعا فى دراسة البديع وألوانه فى الشعر والنثر وآى القرآن الكريم ، وواضح من عنوان ثانيهما أنه خاص ببديع الذكر الحكيم ، والكتابان منشوران بالقاهرة . ويذكر ابن أبى الإصبع فى تقديمه للكتابين مصادره ومنها نتبيَّن أنه لم يكد يترك كتابا ألف فى البلاغة وفنون البديع وإعجاز القرآن الكريم إلا رجع إليه ، من ذلك نظم القرآن للجاحظ وبديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدامة وحلية المحاضرة للحاتمى والمنصف لابن وكيع المصرى والصناعتين لأبى هلال العسكرى والنكت فى إعجاز القرآن للرمانى وإعجاز القرآن للباقلانى والمجاز للشريف الرضى والموازنة للآمدى والوساطة لعلى بن عبد العزيز الجرجانى والعمدة لابن رشيق وسرُّ الفصاحة لابن سنان الخفاجى ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى والكشاف للزمخشرى ونهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للفخر الرازى والمثل السائر لابن الأثير وبديع شرف الدين التيفاشى إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . وإنما ذكرنا الأمهات لنحل على أن كتب البلاغة والبديع كانت تدرس فى مصر ، وكان المصريون يعكفون على قراءتها فهما وفقها ودراسة واستنباطا . ويعرض ابن أبى الإصبع فى كتابه

---

(١) انظر ترجمة ابن شيث فى فوات الوفيات ١ / ٥٦٠ وشذرات الذهب ٥ / ١١٧ والطالع السعيد للإدفوى ١٦٠ وكتابه : « معالم الكتابة » طبع بيروت سنة ١٩١٣ .

تحرير التحبير الألوان البديعية التى اختص بها ابن المعتز ، ثم يعرض الألوان العشرة التى انفرد بها قدامة وقد بلغت جميعا ثلاثين لونا ، ويسمى هذه الألوان الأصول ، حتى إذا انتهى من عرضها أتبعها بالفروع التى ذكرها المؤلفون حتى زمنه وقد بلغت ستين محسنا ، ويتلوها بثلاثة محسنات نقلها عن بديع الإجدابى ، وبذلك تبلغ الألوان البديعية ثلاثة وتسعين لونا ، ويتلوها بثلاثين لونا من عمله واكتشافه ، سلَّم له البلاغيون منها نحو عشرين محسنا ، وقالوا إن الباقى إما مسبوق إليه أو مدخول عليه[1] . وصنف بعد هذا الكتاب كتابه الثانى « بديع القرآن » ذكر فيه أولا – كما قلنا آنفا – أصول المحسنات البديعية عند ابن المعتز وقدامة ، ثم مضى فى ذكر المحسنات الفرعية حتى بلغ بها مائة محسن وتسعة . ويلاحظ أنه أدخل فى تلك المحسنات الصور البيانية وطائفة من أبواب علم المعانى كالتكرار والتفصيل والإيضاح والبسط أو الإطناب والإيجاز وبذلك وسع مدلول المحسنات البديعية وظل ذلك عند أصحاب البديع من بعده .

وتُشْغَلُ مصر طويلا بكتابى ابن أبى الإصبع ، حتى إذا كنا فى منتصف القرن الثامن الهجرى وجدناها تُسهم فى العناية بمباحث المشارقة فى البلاغة وعلومها الثلاثة : المعانى والبيان والبديع . وكان الخطيب القزوينى قد لخص القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكى . وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة ، وأحسن فى هذا التلخيص إلى حد بعيد . مما جعل الشراح يعنون بتفسيره والتعليق عليه ، ويُعْنَى بذلك شارح مصرى هو أحمد[2] بن على بن عبد الكافى السبكى المتوفى سنة ٧٧٣ ويسمى شرحه « عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح » ونراه فى فواتحه يشيد بالمصريين وما طُبعوا عليه من الذوق السليم الذى أغناهم عن التعمق فى مباحث السكاكى البلاغية وشراحه الإيرانيين لاهتمامهم جميعا بالعلوم العقلية والفلسفية ، ويصور عمله فى شرحه قائلا : « اعلم أنى مزجت قواعد هذا العلم (علم البلاغة) بقواعد الأصول والعربية .. وضمنته شيئا من القواعد المنطقية والمعاقد الكلامية والحكمة الرياضية أو الطبيعية » . وكأنما أَعْدَتْهُ فى شرحه طريقة المشرقيين أو المشارقة ، فعاد يصل فى شرحه بين البلاغة وعلوم المنطق والكلام والفلسفة الطبيعية والرياضية ، مما أصاب البلاغة ومباحثها بالجفاف فى مصر كغيرها من بلدان المشرق . وكانت قد أخذت تظهر بديعيات مختلفة وهى مدائح نبوية تشتمل المدحة منها على محسنات البديع ، بحيث

---

(١) نفحات الأزهار على نسمات الأسحار (طبع دمشق) ص ٣ .

(٢) انظر فى ترجمة السبكى ترجمة أبيه فى طبقات الشافعية ١٠ / ١٣٩ وراجعه فى الدرر الكامنة ١ / ٢١٠ وشذرات الذهب ٦ / ٢٢٦ والنجوم الزاهرة ١١ / ١٢١ وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر ١ / ٢١ .

يضم كل بيت محسنا من تلك المحسنات . وصُنعت لتلك البديعيات شروح تفسرها وتعرض أمثلتها . ولم تسارع مصر إلى المشاركة فى هذه البديعيات التى أخذت تظهر منذ القرن السابع الهجرى ، حتى إذا كنا بأخرة من زمن المماليك وجدنا السيوطى ينظم بديعية يسميها « نظم البديع فى مدح خير شفيع » وله عليها شرح . وتليها بديعية لعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٣٠ . وتعتنى مصر زمن العثمانيين بتلخيص الخطيب القزوينى وشروحه وخاصة شرح السبكى والسعد التفتازانى .

وإذا كانت المباحث البلاغية تأخرت فى مصر لهذا العصر فإن المباحث النقدية شاركتها فى هذا التأخر ، ويلقانا فى أوائل العصر - كما مرَّبنا آنفا - كتاب المنصف لابن وكيع فى بيان سرقات المتنبى ومشكل شعره ، وقد ذكرنا أنه احتوى على مقدمة فى فنون البديع ، وذهب بلاشير إلى أنه ألفه انتصارًا لابن حنزابة وزير كافور إذ ترفع المتنبى عن مدحه فأغرى ابن وكيع بنقده[١] . وهو يذكر فى تقديمه لكتابه أن جماعة بالغوا فى مديح المتنبى حتى فضلوه على جميع الشعراء بنتائج فكره وبدائع معانيه ، فأراد أن يكشف عن مدى تقليده ومحاكاته لمن تقدموه ، ويقدم لكلامه بمبحث عن السرقات يصنفها فيه عشرين صنفا . وتحدث حديثا مجملا - عرضنا له - عن فنون البديع ، ثم أخذ يفيض فى سرقات المتنبى متعقبا لها فى قصائده مع ترتيبها ترتيبا تاريخيا . وهو بحث قيم بالقياس إلى غيره من بحوث معاصريه ومن جاء بعدهم ممن عنوا ببيان سرقات المتنبى ، إذ يدل على كثرة محفوظه وفطنته ودقته فى الفهم . وقديما قلنا إن نقادنا القدماء كان ينبغى ألاَّ يتوسعوا فى بحث سرقات الشعر هذا التوسع كما كان ينبغى أن ينحوّا عنه كلمة السرقة ويسموه التحوير الفنى ، ويحاولوا أن يتبينوا مدى قدرة الشاعر على هذا التحوير . ونعجب أن يحاول ابن وكيع بيان الإسفاف عند المتنبى وضعفه اللغوى لبيت وقع عليه عفوا هنا أو هناك ، والشاعر لا يقاس ببعض عثرات له نَدَّتْ عنه ، وإنما يقاس بروائع أبياته وفرائدها البديعة . وهذا وأشباهه عند ابن وكيع جعل ابن جنى يؤلف كتابا فى النقض على ابن وكيع فى شعر المتنبى وتخطئته[٢] كما جعل ابن رشيق يقول عنه : « ما أبعد الإنصاف منه »[٣] . وربما جرَّ ابن وكيع إلى ذلك كله أنه كان شاعرا من ذوق غير ذوق المتنبى فأسرف فى التحامل عليه . ولم يؤدِّ كتاب المنصف غايته من الهبوط فى مصر بمنزلة المتنبى فقد مضى كثيرون يبالغون فى تشيعهم له ، مما جعل العميدى[٤] محمد بن أحمد كاتب

---

(١) انظر أبو الطيب المتنبى لبلاشير ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلانى (طبع دمشق) ص ٤٨٧ .

(٢) معجم الأدباء ١٢ / ١٨٣

(٣) العمدة لابن رشيق ٢/٢١٦ .

(٤) انظر العميدى فى معجم الأدباء ١٧ / ٢١٢ وإنباه الرواة ٣ / ٢٤٦ وبغية الوعاة للسيوطى ١٩ .

الإنشاء فى دواوين الفاطميين المتوفى سنة ٤٣٣ يكتب بحثا ثانيا فى سرقاته باسم « الإبانة عن سرقات المتنبى » وهو يطيل فى عرض هذه السرقات — كما تتراءى له — مع كثير من الغمز واللمز والتجريح للشاعر الكبير ، ويعرض — كما عرض ابن وكيع — لبعض عيوبه اللغوية .

وماتزال مصر معنية بالبحث فى السرقات ويقف عندها مرارا ابن منجب الصيرفى فى رسائله ، وماتزال معنية بالمتنبى ، بل إنها لتمد عنايتها إلى جميع شعراء العالم العربى . ونرى أضواء من ذلك كثيرة فى كتاب فصوص الفصول[1] لابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ، إذ نراه يجمع فيه بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين القاضى الفاضل ، وفيها يعرضان كثيرا لشعراء العالم العربى . ومن طريف ما ذكره ابن سناء الملك فيها أنه سأل القاضى الفاضل لماذا يدور شعر المتنبى على كل لسان ، فقال لأنه يشتمل على ما يدور بخواطر الناس من أفكار ، يقصد حكمه البديعة . وسأله القاضى الفاضل أن ينتخب مختارات من شعر ابن الرومى فاعتذر عن ذلك بأنه « ليس من أهل اختياره ، ولا من الغواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره ، لأن بحاره زخَّارة ، وأسوده زآرة ، ومعدن تِبْره مردوم بالحجارة ، وعلى كل عقيلة ألف نقاب بل ألف ستارة ، يطمع ويوئس ، ويوحش ويؤنس ، وينير ويظلم ، ويصبح ويعتم ، شذرة وبدرة ، ودرة وآجرّه ، وقبلة بجانبها لسعة » ، وابن سناء الملك بذلك عبر فى وضوح عن مدى التفاوت بين أشعار ابن الرومى ، وهو نقد دقيق ، وسأله القاضى الفاضل مرة أخرى صُنْع منتخب لشعر ابن رشيق ، فصنعه ، وذكر له فى إحدى رسائله ذلك كما ذكر له أن شعره مسروق من شعر ابن المعتز والمتنبى ، يقول : « ولو لم يخلق الله ابن المعتز والمتنبى لما كان ابن رشيق يعرف الشعر فضلا عن أن ينظمه أو يعلمه ، وهو ينهب أشعار هذين الرجلين نهبا قبيحا ولا سيما ابن المعتز » . وينوِّه ابن سناء الملك مرارا فى الرسائل بابن المعتز والبحترى . وقد حملت فيما حملت نظرات نقدية للقاضى الفاضل أحيانا فى بعض أبيات لابن سناء الملك ، وأورد القلقشندى فى صبحه نموذجا[2] من هذه الرسائل المتبادلة بين الأديبين الكبيرين ، إذ أورد رسالة نقد فيها القاضى الفاضل بيت ابن سناء الملك :

صِلِينى وهذا الحسنُ باقٍ فربما يُعزَّل بَيْتُ الحسن منه ويُكْنَسُ

لذكره فيه كلمة « يكنس » المبتذلة ، وردَّ عليه ابن سناء الملك بأنه إنما تابع فى ذلك ابن المعتز فى قوله :

---

(١) منه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) انظر صبح الأعشى ٢ / ٢٤٩ — ٢٥٢ .

وقَوامى مثلُ القَناة من الخَـــــطِّ وخدِّى من لِحْيَتِى مكنوسُ

وكأنه يريد أن يقول للفاضل إن الكلمة استعملها ابن المعتز من قبله وأصبحت بذلك كلمة شعرية ولا بأس على شاعر من استعمالها .

وابن سناء الملك أكبر رمز مصرى فى العصر لاتصال شعراء مصر ونقادها بالأدب الأندلسى ، فقد درس موشحات الأندلسيين ، ولم يكونوا قد وضعوا عروضها فوضعه لها ، وكأنه يحلّ من عروض الموشحات الأندلسية محل الخليل بن أحمد من عروض الشعر العربى ، وستحدث بشىء من التفصيل عن ذلك فى الفصل التالى .

وقد شغل ابن سناء الملك النقاد فى زمنه وبعد زمنه . لا بما وضعه من عروض الموشحات فحسب ، بل أيضا بشعره ، فقد كان أنبه شاعر أنجبته مصر حتى أيامه ، فشغل النقاد طويلا بأشعاره ، وفيه وضع ابن جُبارة[1] على بن إسماعيل مواطنه المتوفى سنة ٦٣٢ كتابه « نظم الدر فى نقد الشعر » وهو فى نقد أشعار ابن سناء الملك ، والكتاب مفقود ، غير أن الصفدى فى كتابه « الغيث المسجَّم » الذى وضعه فى شرح لامية العجم نقل عنه أطرافا من نقده لبعض أبيات ابن سناء الملك ، ونراه فيها متحاملا عليه تحاملا شديدا أوكما قال الصفدى فى نكت الهميان « متعنتا تعنتا زائدا » . من ذلك قول ابن سناء الملك :

بِشَوْكِ القَنا يَحْمُون شَهْدَ رُضابِها ولابُدَّ دون الشَّهْد من إِبَرِ النَّحْلِ

يصف فى البيت منعة صاحبته وأن أحدًا لايستطيع أن يقترب من حماها لبأس قومها وخشيةً من رماحهم أن تسفك دمه . وتوقَّف ابن جبارة بإزاء البيت[2] وقال إنه أراد أن يمدح قوم صاحبته فهجاهم بالمثل المضمن آخر بيته الذى جعله كفن ميِّته لأنه جعل طعن رماحهم كإبر النحل ، يقول ابن جبارة : وإبرة النحل لا أثر لها ولا ألم يحصل منها . ويرد عليه الصفدى قائلا : أما كونه يدعى أنه لا ألم فى إبر النحل ولا ضرر فى الزنابير فهذا مما لم يسمع ، وهو تحامل أليس فى إبر النحل والزنابير سُمٌّ يمنع القرب منه والدنو إليه ، وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه ، وربما لسع الزنبور بعض الناس فتورَّم منه ومات . ورد عليه أيضا ما قاله من أنه شبَّه طعن رماح القوم بإبر النحل فهو لم يعقد فى البيت تشبيها ، وإنما جاء بمثل ليدل على أن حلاوة ريق صاحبته

---

(١) انظر فى ابن جبارة نكت الهميان ص ٢٠٨ وبغية الوعاة ص ٣٢٩ .

(٢) الغيث المسجم شرح لامية العجم (طبع مطبعة بولاق) ١ / ٢٢٤ .

لا تُنال إلا بعد مشقة . وأنكر ابن جبارة فى البيت أيضا كلمة « بشوك القنا » وقال الصفدى ردا عليه إنها استعارة حسنة ، وأنشد بيتين للأرجانى وابن خفاجة شبها فيهما القنا بالشوك . وتوقف ابن جبارة بإزاء[1] بيتٍ نظم ابن سناء الملك قصيدته فى مديح القاضى الفاضل ، إذ يقول :

يَقرى الضيوفَ شعاعَ تِبْرٍ أحمرٍ فشعاعُ ذاك التِّبْر نيرانُ القِرَى

وحاول فى أول نقده أن يثبت سرقة ابن سناء الملك للبيت من بيت لابن عمار وآخر للمتنبى . وقال الصفدى : إن هذا تعنت زائد إذ ليس للبيت علاقة بما قاله الشاعران . ويسترسل ابن جبارة فى نقده للبيت فيقول : قوله : « يقرى الضيوف شعاع تبر أحمر » . التبر لا يكون إلا كذاك (أى أحمر) وإنما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التى توقد على اليفاع ليهتدى بها الحيران . وتهتدى إلى مواضعها الضيفان ، وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الإنعام ويمنعهم من الطعام . يقول الصفدى : وهذا تعنت لأن التبر منه ما يكون أصفر أو أخضر ومنه ما يكون أحمر وهو المضروب وإنما سماه ابن سناء الملك تبرا مجازا ، ولولا ان هذا لازم لما قيل فى بعض المواطن الذهب الأحمر كما يقال الثلج الأبيض . وعلى هذا النحو لايزال الصفدى يرد على ابن جبارة بعض تعنته وتحامله على ابن سناء الملك . ويفهم من كلام الصفدى أن ابن جبارة كان يستعرض بعض قصائد الشاعر . ومايزال يعلق على طائفة من أبياتها بتحامل شديد .

ولا شك فى أن النقد الأدبى المصرى فى هذا العصر خسر كثيرا بسقوط هذا الكتاب النقدى من يد الزمن . ومن المؤكد أننا لا نستطيع الحكم عليه بدقة من خلال ما نقله عنه الصفدى . وهو فعلا لم يتوسع فى نقله . ولعلنا لانبعد إذا قلنا إن أهم كتاب ظهر بعد كتاب ابن جبارة هو كتاب خبز الشعير لابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ وهو أهم شعراء مصر فى زمن المماليك ، وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين تلميذه الصفدى بسبب بحث كتبه عن سرقاته من الشعراء السابقين فألف هذا الكتاب موضحا فيه سرقات الصفدى لأشعاره ومعارضته لبعض قصائده .وفى مقدمته[2] يقول : إنه ليس للصفدى من جيد الأشعار لمعة إلا ومن لفظه مِشْكاتها . ومضى يذكر الأصل[3] من أبياته أو الأصول ، ثم الفرع أو الفروع من أبيات الصفدى . وفى صبح الأعشى دراسة[4] نقدية

(١) الغيث المسجم ١ / ٢٦٤ وانظر ١ / ١٢٨ ، ٢٤٣ .

(٢) الكتاب مفقود غير أن ابن حجة الحموى احتفظ فى خزانته (طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة) بمقدمة الكتاب ص ١٥ .

(٣) فى الخزانة جملة كبيرة من هذا الكتاب انظر الصفحات ٢٨٥ – ٢٨٩ .

(٤) انظر صبح الأعشى ٢ / ١٩٢ – ٣٣٨ .

طريقة للمعانى والألفاظ وقبحها وما بداخلها من الغرابة والابتذال والإيجاز والإطناب ، وقد امتدت عنده إلى نحو مائة وأربعين صحيفة . ونلتقى فى أيام العثمانيين بشهاب الدين الخفاجى وكتابه « ريحانة الألبا » الذى ترجم فيه لشعراء زمنه فى الشام والمغرب والحجاز واليمن ومصر ، وقد بثّ فيه ملاحظات نقدية كثيرة .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المصريون يعنون بقراءات الذكر الحكيم منذ أخذ الصحابة الذين نزلوها يعلمونه لهم . وأسهم معهم فى هذا الصنيع التابعون من مثل عبد[١] الرحمن بن هرمز تلميذ أبى الأسود الدؤلى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ١١٧ للهجرة . ورحل كثير من المصريين إلى المدينة فى القرن الثانى لحمل قراءة إمامها نافع الذى طبقت شهرته فى القراءات العالم الإسلامى حتى وفاته سنة ١٦٩ . وأشهر تلاميذه بمصر من حملة قراءته ورش[٢] عثمان بن سعيد المتوفى سنة ١٩٧ وكان ماهرا فى العربية . وإليه انتهت رياسة الإقراء بالديار المصرية ، وحمل عنه قراءته أهل المغرب كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، ولايزالون يقرءون بها إلى اليوم . ومن أهم تلاميذه المصريين عبد[٣] الصمد بن عبدالرحمن بن القاسم أبو الأزهر المتوفى سنة ٢٣١ ويقول السيوطى : وعنه انتشرت قراءة ورش فى الأندلس فقد حملها إليه تلاميذه . ويبدو أن مصر مضت طوال القرن الثالث الهجرى تعنى بالقراءات وحَمْلها عن كبار القراء . كما تعنى بما يؤلَّف فيها من مصنفات ، يدل على ذلك أقوى الدلالة أنه بمجرد أن صنف أبو بكر بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ كتابه السبعة فى القراءات الذى جمع فيه قراءات نافع إمام أهل المدينة وابن كثير إمام أهل مكة وأبى عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة وعاصم وحمزة والكسائى أئمة أهل الكوفة وابن عامر إمام أهل الشام نجد عالما مصريا معاصرا له من علماء القراءات هو أبو غانم المتوفى سنة ٣٣٣ يؤلف كتابا فى اختلاف السبعة[٤]

---

(١) سبقت مصادر ترجمته ص ١٠٨ .

(٢) انظر فى ورش حسن المحاضرة ١ / ٤٨٥ وطبقات القراء ١ / ٥٠٢ .

(٣) انظر فى عبد الصمد حسن المحاضرة ١ / ٤٨٦ وطبقات القراء ١ / ٣٨٩ .

(٤) حسن المحاضرة ١ /٤٨٨ وانظر طبقات القراء ٣٠١/٢ حيث يذكر تلمذته لأحد تلاميذ ابن مجاهد .

المذكورين ، وقد أحصى السيوطى ١٣٥ قارئا ممن تصدروا للقراءات بمصر حتى زمنه . ولا ريب فى أنه كان وراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم فى الشهرة ، ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعا إنما نكتفى منهم بمن تركوا فى القراءات مصنفات طارت شهرتها فى العالم الإسلامى . وأول من نقف عنده عبد[١] المنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد ثم ابنه طاهر[٢] المتوفى سنة ٣٩٩ صاحب كتاب التذكرة فى القراءات الثمان ، وعليه تخرج أبو عمرو الدانى أكبر قراء الأندلس فى زمنه صاحب كتاب التيسير وغيره كما تخرج عليه وعلى أبيه مكى بن أبى طالب القيروانى نزيل قرطبة صاحب كتاب التبصرة وغيره . ونمضى فى القرن الخامس فنلتقى بعبد[٣] الجبار الطرسوسى المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب كتاب المجتبى ، كما نلتقى بالحسن[٤] بن محمد البغدادى المالكى نزيل مصر المتوفى سنة ٤٣٨ صاحب كتاب الروضة ، ونلتقى بإسماعيل[٥] بن خلف المتوفى سنة ٤٥٥ وكتابه « العنوان » . ونلتقى بعده بموسى بن الحسين المعروف باسم المعدل المصرى وكتابه الروضة فى اختلاف الأئمة القراء الخمسة عشر[٦] ، ونلتقى فى القرن السادس بابن الفحام[٧] شيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٠ وكتابه التجريد ، كما نلتقى بابن[٨] بليمة القيروانى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٤ وكتابه تلخيص العبارات .

ويلقانا أيام الأيوبيين علم كبير من أعلام القراءات هو الإمام الشاطبى[٩] الضرير المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٩٠ وقصيدته « حِرْز الأمانى » المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، وقد عنى بشرحها كثيرون من أئمة القراء وفى مقدمتهم تلميذه العلم[١٠] السخاوى المتوفى – كما مر بنا – سنة

---

(١) راجع فى عبد المنعم بن غلبون حسن المحاضرة ١ / ٤٩٠ وطبقات القراء ١ / ٤٧٠ والنشر فى القراءات العشر ١ / ٧٩ .

(٢) انظر فى طاهر حسن المحاضرة ١ / ٤٩١ وطبقات القراء ١ / ٣٥٦ والنشر فى القراءات العشر ١ / ٧٣ .

(٣) انظر فى الطرسوسى حسن المحاضرة ١ / ٤٩٢ وطبقات القراء ١ / ٣٥٧ والنشر ١ / ٧١ .

(٤) راجع فى الحسن بن محمد حسن المحاضرة ١ / ٤٩٣ وطبقات القراء ١ / ١٣٠ والنشر ١ / ٧٤ .

(٥) انظر فى ابن خلف حسن المحاضرة ١ / ٤٩٤ وطبقات القراء ١ / ١٦٤ والنشر ١ / ٦٤ .

(٦) انظر فى المعدل المصرى طبقات القراء ٢ / ٣١٨ والنشر فى القراءات العشر ١/٦٦ .

(٧) راجع فى ابن الفحام حسن المحاضرة ١ / ٤٩٥ وطبقات القراء ١ / ٣٧٤ والنشر ١ / ٧٥ .

(٨) انظر فى ابن بليمة حسن المحاضرة ١ / ٤٩٤ وطبقات القراء ١ / ٢١١ والنشر ١/٧٢ .

(٩) راجع فى الشاطبى حسن المحاضرة ١ /٤٩٦ وطبقات القراء ٢ /٢٠ وطبقات الشافعية ٧ / ٢٧٠ ونكت الهميان ص ٢٢٨ ومعجم الأدباء ١٦/٢٩٤ والنشر ١/٦١ .

(١٠) راجع مصادر ترجمته فى ص ١١٨

٦٤٣ وله فى القراءات كتاب جمال القراء وكمال الإقراء . وكان يعاصره عبد الرحمن[1] بن إسماعيل الصفراوى الإسكندرى المتوفى سنة ٦٣٦ صاحب كتاب الإعلان . ويتوالى التأليف فى القراءات ونلتقى بابن الجندى المتوفى سنة ٧٦٠ وكتابه البستان ، وبشرح للسيوطى على الشاطبية . ويختم الإمام شهاب[2] الدين القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ زمن المماليك بكتابه الرائع : «لطائف الإشارات لفنون القراءات» وفيه يجمع طرق القراءات الأربع عشرة ، بإضافة قراءات أبى جعفر يزيد بن القعقاع المدنى ويعقوب بن إسحق البصرى وخلف بن هشام الكوفى المكملين للعشرة ، وإضافة قراءات ابن محيصن المكى واليزيدى البصرى والحسن البصرى والأعمش الكوفى إلى ما ذكرناه آنفا من قراءات السبعة الذين صنف فيهم ابن مجاهد كتابه . ويظل التأليف فى القراءات لزمن العثمانيين ناشطا ومن أهم ما ألف فى زمنهم كتاب إتحاف البشر وهو يُعْنَى بعرض القراءات الأربع عشرة ألفه البناء أحمد بن محمد الدمياطى المتوفى سنة ١١١٧ .

ومعروف أنه تكوَّنت علوم كثيرة حول القرآن الكريم . ونجد مصر تشاطر فيها مشاطرة واضحة منذ القرن الثالث الهجرى ، ولا يلبث أبو جعفر النحاس الذى مر ذكره أن يؤلف فى جوانب منها . فقد ألف كتابا فى الناسخ والمنسوخ وكتابا فى الوقف والابتداء وألف كتابا — كما مر بنا — فى إعراب القرآن وهو أحد الأصول المهمة فى هذا الموضوع . وظلت مصر تُعْنَى بعلوم القرآن من بعده وتصنِّف فيها مصنفات مختلفة تتصل بتجويده وبناسخه ومنسوخه ولغاته وغريبه وأسباب نزوله وما فيه من الوقف والابتداء والصور البلاغية إلى غير ذلك من علومه المتنوعة . ويطول الحديث لو أنا تتبعنا ما كتبته مصر بهذا العصر من تلك العلوم ، ولكن نكتفى بالإشارة إلى كتابين هما البرهان فى علوم القرآن لبدر[3] الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، وهما يعرضان مادة هذه العلوم وما أُلِّف فيها حتى نهاية القرن التاسع إذ توفى السيوطى كما مر بنا سنة ٩١١ .

ومن أهم هذه العلوم علم التفسير . وطبيعى أن تُعْنَى به مصر منذ دخلت فى الإسلام حتى تفهم

---

(١) انظر فى الصفراوى حسن المحاضرة ١/٤٥٦ وشذرات الذهب ٥/١٨ .

(٢) راجع فى القسطلانى الضوء اللامع جـ٢ رقم ٣١٣ والشذرات ٨/١٢١ والبدر الطالع ١/١٠٢ . .

(٣) انظر فى الزركشى الدرر الكامنة ٤/١٧ وشذرات الذهب ٦/٣٣٥ وحسن المحاضرة ١/٤٣٧ وإنباء الغمر بأبناء العمر ١/٤٤٦ .

آى الذكر الحكيم ، وكان حُفَّاظها يروون خلفاً عن سلف ما قيل فى معانى آى الذكر الحكيم ، واشتهر بها فى القرن الثانى طريق وثيق عن ابن عباس المشهور بتفسير القرآن الكريم ، هو طريق على بن أبى طلحة الهاشمى وفيه يقول أحمد بن حنبل : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة الهاشمى لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا » . ويذكر السيوطى أن البخارى اعتمد على هذه الرواية كثيرا فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس[1] . وكأنها بعض ما حمله البخارى عن مصر فى رحلته إليها لتدوين الحديث عن جلَّة رواته فيها . وتظل مصر معنيَّةً بالقرآن وتفسيره وأحكامه ، ويؤلف أبو جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى المتوفى سنة ٣٢١ كتابا فى أحكام القرآن . ويعنى أبو جعفر النحاس بعلوم القرآن ، ولا يلبث أحد تلاميذه ، وهو أبو بكر الإدفوى[2] محمد بن على المصرى المقرئ المتوفى سنة ٣٨٨ أن يؤلف فى التفسير كتابا ضخما يقول المترجمون له إنه كان فى مائة وعشرين مجلدا ، وسماه كتاب الاستغناء فى علوم القرآن ، وأهم تلاميذه الحوفى المار ذكره بين النحاة ، وله كتاب البرهان فى تفسير القرآن فى ثلاثين مجلدا ويقول القفطى : صنَّف كتابا كبيرا فى إعراب القرآن فى عشرة مجلدات . وهو وأستاذه أهم المفسرين فى زمن الفاطميين ، وممن نلتقى به فى زمن الأيوبيين المرسى[3] السلمى محمد بن عبد الله نزل مصر واستقر بها سنة ٦٢٤ وتوفى سنة ٦٥٥ وله تفسير كبير فى أكثر من عشرين جزءا سماه « رى الظمآن فى تفسير القران » . وكان يعاصره العز بن عبد السلام الفقيه الشافعى المشهور وله تفسير ، منه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، بناه على الوجوه البيانية والبلاغية فى آى الذكر الحكيم .

ونمضى فى زمن المماليك ونلتقى بالقرطبى[4] محمد بن أحمد نزيل مصر والمستقر بمدينة المنيا (منية الخصيب فى الصعيد) المتوفى سنة ٦٧١ وله التفسير المشهور المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » . ويلقانا بعده ابن[5] المنير أحمد بن محمد الإسكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ وله تفسير سماه « البحر الكبير فى نُخَب التفسير » وكتاب ثان تتبع فيه

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢ / ٢٢٣ .

(٢) انظر الإدفوى فى طبقات المفسرين للسيوطى وحسن المحاضرة ١ / ٤٩٠ وطبقات القراء ٢ / ١٩٨ .

(٣) راجع فى المرسى السلمى طبقات المفسرين ص ٣٥ ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٠٩ وشذرات الذهب ٥ / ٢٦٩ .

(٤) انظر القرطبى فى الديباج المذهب لابن فرحون (طبع فاس) ص ٢٧٩ وطبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨ وشذرات الذهب ٥ / ٣٣٥ .

(٥) راجع ابن المنير فى الديباج المذهب ص ٧٨ وشذرات الذهب ٥ / ٣٨١ والنجوم الزاهرة ٧ / ٣٦١ وفوات الوفيات ١ / ١٣٢ .

آراء الزمخشرى الاعتزالية التى بثَّها فى تفسيره وحاول نقضها بما يتفق وآراء أهل السنة ، سماه الانتصاف من الكشاف وهو مطبوع على هوامشه . ويتلوه ابن[١] النقيب محمد بن سليمان المتوفى سنة ٦٩٨ وله تفسير كبير الحجم سماه « التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير » وجعل له مقدمة كبيرة تحدث فيها عن الوجوه البلاغية فيه . وقد سقط الكتاب من يد الزمن ، ربما لضخامة حجمه . وكان يعاصره عبد[٢] العزيز الديرينىّ المتصوف المتوفى سنة ٦٩٤ وله المصباح المنير فى علم التفسير . وأيضا كان يعاصره العلم[٣] العراقى المصرى المتوفى سنة ٧٠٤ وسمى العراقى نسبة إلى جده لأمه ، وكان هذا الجد مصريا غير أنه دخل العراق فلقب بهذا الاسم الذى انتقل إلى حفيده ، وله كتاب فى الانتصار للزمخشرى من ابن المنير وله مختصر فى التفسير .

وأكبر المفسرين فى القرن الثامن أبو حيان الأندلسى وتفسيره البحر المحيط مشهور ، وكان قد اتخذ القاهرة دار مقام له غير أن عداده فى الأندلسيين . وأهم المفسرين بعده جلال الدين السيوطى وله تفسير كبير يسمى « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » مطبوع فى ستة مجلدات . وكان جلال الدين المحلى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٤ فسَّر نحو نصف القرآن من أول سورة الكهف إلى آخره فأكمل تفسيره جلال الدين السيوطى من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء ، وتفسيرهما مطبوع فى جزءين باسم تفسير الجلالين . ويدخل زمن العثمانيين ، وأهم المفسرين فيه شمس الدين الخطيب[٤] الشربينى المتوفى سنة ٩٧٧ وله تفسير مطبوع يسمى السراج المنير .

وتموج مصر بحفاظ الحديث النبوى منذ نزلها الصحابة وفى مقدمتهم أبو ذر الذى سكنها مدة وعقبة بن عامر الجُهَنى وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وظل ينزلها كثير من حفاظ التابعين وفى مقدمتهم نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب والأعرج عبد الرحمن بن هرمز صاحب أبى هريرة ويزيد بن أبى حبيب . وكثر حفاظ الحديث ورواته فى القرن الثانى الهجرى ، ومن أهمهم أبو زرعة

---

(١) انظر ابن النقيب فى طبقات المفسرين ص ٣٢ وشذرات الذهب ٥/٤٤٢ وفوات الوفيات ٢/٤٣٠ .

(٢) راجع الديرينى فى حسن المحاضرة ١/٤٢١

(٣) انظر فى العلم العراقى حسن المحاضرة ١ /٤٢١ ونكت الهميان ص ١٩٥ والدرر الكامنة ٣ / ١٣ .

(٤) راجع فى الخطيب الشربينى شذرات الذهب ٨ / ٣٨٤ .

المتوفى سنة ١٥٨ وابن لهيعة المتوفى سنة ١٧٤ والليث بن سعد الفقيه المشهور ، وعبد الله[1] بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم تلميذا مالك والإمام الشافعى وتلاميذه : البُوَيطىّ وحَرْملة والمُزَنىّ والربيع . ومن كبار الحفاظ حينئذ أسد السنة المتوفى سنة ٢١٢ وأحمد بن صالح المتوفى سنة ٢٤٨ والحارث بن مسكين المتوفى سنة ٢٥٠ ويونس بن عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٤ ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ . ولاشتهار مصر بحفاظ الحديث نزلها فى طلبه من أصحاب الصحاح الستة البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائى وقد اتخذها دار مقام له حتى توفى سنة ٣٠٣ ومن مصنفاته : السنن الكبرى والصغرى وهى إحدى الصحاح الستة ، وله مسند على ومسند مالك . ويلقانا الطحاوى الفقيه الحنفى وله فى الحديث كتاب السنن ومعانى الآثار ومشكل الآثار ، وابن حِنْزابة وزير كافور المتوفى سنة ٣٩١ وكان له مجلس لإملاء الحديث فى وزارته ، وسمع الدارقطنى حافظ العراق فى زمنه وصاحب كتاب السنن الكبرى وغيره المتوفى سنة ٣٨٥ أنه يؤلف مسندا فجاء مصر ليعينه ، تموَّل ، وكان فيها يروى الحديث ويمليه ، ويأخذه عن حفَّاظه المصريين ويأخذه المصريون عنه . ومن أهم تلاميذه بمصر عبد[2] الغنى بن سعيد الحافظ المتقن المتوفى سنة ٤٠٩ وله فى الحديث المختلف والمؤتلف فى أسماء الرجال وكتاب مشتبه النسبة . وأشهر المحدثين بمصر فى القرن الخامس تلميذه الحبال[3] الإمام الحافظ المتوفى سنة ٤٨٢ وله مصنفات مختلفة ، وجمع عوالى سفيان بن عُيَيْنة .

وينزل الإسكندرية سنة ٥٢١ السِّلْفى[4] أكبر الحفاظ فى القرن السادس الهجرى ، وقد قصده طلاب الحديث النبوى من كل فج ، على نحو ما يصور ذلك معجمه ، وهو مطبوع ، وبنى له العادل بن السلار وزير الظافر الفاطمى مدرسة سنة ٥٤٦ ، كما مر بنا ، وفوَّض أمرها إليه ، وسمع عليه الحديث صلاح الدين الأيوبى حين صارت مصر إليه وبعض أبنائه وأهل بيته ، وظلت إليه

---

(١) هو من أوائل من جمعوا الحديث بمصر ، وقد عثر على كتابه أخيرًا فى ورق بردى بمدينة إدفو فى جنوبى مصر واسمه الجامع فى الحديث ، وهو مكتوب فى القرن الثالث الهجرى ، وقد نشر هذا الكتاب فى المعهد الفرنسى بالقاهرة . وانظر فى ابن وهب حسن المحاضرة ١ / ٣٠٢ ، ٣٤٦ والديباج المذهب ١٨٧ وتهذيب التهذيب ١٠ / ٣٧٢ وميزان الاعتدال للذهبى ٢ / ٨٦ وبروكلمان ٣ / ١٥٥ .

(٢) انظر فى عبد الغنى المنتظم ٧ / ٢٩٠ وابن خلكان ٣ / ٢٢٣ وتذكرة الحفاظ ٣ / ٢٥٠ وشذرات الذهب ٣ / ١٨٨ .

(٣) راجع فى الحبال حسن المحاضرة ١ / ٣٥٣ .

(٤) انظر فى السلفى طبقات المفسرين للسيوطى ص ٥٦ وطبقات الحفاظ له ٢ / ٣٩ وابن خلكان ١ / ١٠٥ وتذكرة الحفاظ وأزهار الرياض ٣ / ١٦٧ - ٢٨٣ وتهذيب ابن عساكر ١ / ٤٤٩ والسبكى ٦ / ٣٢ والأنساب ٣٠٢ وشذرات الذهب ٤ / ٢٥٥ وطبقات القراء ١ / ١٠٢ وميزان الاعتدال ١ / ١٥٥ .

الرحلة فى الحديث حتى توفى سنة ٥٧٦ . ومن أهم تلاميذه أبو الحسن على[1] بن المفضل المالكى المقدسى ثم السكندرى المتوفى سنة ٦١١ تولى القضاء بالإسكندرية ودرَّس بمدرسة ابن شكر فى القاهرة ، وله كتاب الأربعين ، وهو أربعون حديثا عن أربعين شيخا .

ونزل مصر الحافظ ابن دِحْيَة الأندلسى واستوطنها وتولى بها دار الحديث[2] الكاملية حتى توفى فى سنة ٦٣٣ . وولى مشيخة هذه الدار بعده زكى الدين المنذرى الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام عبد[3] العظيم بن عبد القوى المصرى الشافعى المتوفى سنة ٦٥٦ يقول السيوطى إنه انقطع لمشيخة المدرسة الكاملية عشرين سنة ، وكان عديم النظير فى معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه متبحرا فى معرفة أحكامه ومعانيه ومشكله قيِّما بمعرفة غريبه ، إماما حجة بارعا فى الفقه والعربية والقراءات . وله كتاب الترغيب والترهيب وهو أحاديث مرتبة حسب الموضوعات للترغيب فى الخير والحق والترهيب من الشر والباطل ، طُبع مرارا . وله فى الفقه شرح على كتاب التنبيه . وأهم تلاميذه الدمياطى[4] شرف الدين عبد المؤمن بن خلف المتوفى سنة ٧٠٥ لازم الحافظ المنذرى واتخذه معيدا له ، وقد ولى مشيخة الظاهرية ودرَّس الحديث فى المدرسة المنصورية : مدرسة المنصور قلاوون ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بكثير من مصنفاته فى الحديث .

ومن كبار المحدثين فى القرن الثامن عز الدين بن[5] جماعة الشافعى المتوفى سنة ٧٦٧ ولى القضاء ، واشتهر بإكثاره من سماع الحديث ودرس فى المدرسة الخشابية ، صنَّف تخريج أحاديث الإمام الرافعى الشافعى وغير ذلك . ويعنى بشرح البخارى غير حافظ فى هذا القرن ويكثر التأليف فى الحديث ومصطلحه على نحو ما يلقانا عند مُغْلطاى[6] المتوفى سنة ٧٦٢ يقول السيوطى له أكثر

---

(١) راجع فى ابن المفضل حسن المحاضرة ١ / ٣٥٤ وشذرات الذهب ٥ / ٤٧ .

(٢) ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة ٢ / ٢٦٢ ثبتا بمن تولوا هذه الدار من كبار المحدثين .

(٣) انظر فى عبد العظيم طبقات الحفاظ للسيوطى ٢ / ٥٩ والسبكى ٨ / ٣٥٩ وحسن المحاضرة ١ / ٣٥٥ وشذرات الذهب ٥ / ٢٧٧ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٤ / ٢٢٨ وفوات الوفيات ١ / ٦١٠ .

(٤) راجع فى الحافظ الدمياطى حسن المحاضرة ١ / ٣٥٧ وطبقات الحفاظ ٢ / ٦٥ والسبكى ١٠ / ١٠٢ وطبقات القراء ١ / ٤٧٢ وتذكرة الحفاظ ٤ / ٢٦٨ والدرر الكامنة ٣٠/٣ وفوات الوفيات ٣٧/٢ والبداية والنهاية ١٤ / ٤٠ والبدر الطالع ١ / ٤٠٣ .

(٥) انظر فى ابن جماعة حسن المحاضرة ١ / ٣٥٩ وشذرات الذهب ٢٠٨/٦ والسبكى ٧٩/١٠ والدرر الكامنة ٤٨٩/٢ .

(٦) راجع فى مغلطاى حسن المحاضرة ١ / ٣٥٩ والدرر الكامنة ٥ / ١٢٢ .

من مائة تصنيف كشرح البخارى وشرح ابن ماجة ، وولى مشيخة الظاهرية للمحدِّثين . ويلقانا بعده الحافظ[١] العراقى المولود بالقاهرة والمتوفى بها سنة ٨٠٦ وله فى الحديث مصنفات مختلفة ، منها منظومة فى ألف بيت اشتهرت مع شرحها فى الآفاق ، ومنها تخريج أحاديث كتاب الإحياء للغزالى . وأهم تلاميذه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ يقول السيوطى عنه : « انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها ، فلم يكن فى عصره حافظ سواه ، وألَّف كتبا كثيرة » مثل فتح البارى فى شرح صحيح البخارى » وهو مطبوع ، وله غير كتاب فى تراجم المحدثين . وأهم الحفاظ بعده السيوطى ، وله شروح على الموطأ لمالك وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وابن ماجة إلى شروح أخرى كثيرة وإلى كتب فى الحديث ومصطلحه وتخريجاته تعد بالعشرات[٢] . من أهمها جمع الجوامع وهو دائرة معارف كبرى فى الحديث مع رواياته وأسانيده . ومر بنا فى القراء ذكر معاصره شهاب الدين القسطلانى وله إرشاد السارى إلى صحيح البخارى ، وهو مطبوع . ونلتقى فى أيام العثمانيين بعبد الرءوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله « كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق » وهو معجم يشتمل على عشرة آلاف حديث اختارها من أربعة وأربعين كتابا ، وهو مطبوع مراراً . ويموج كتاب تاريخ الجبرتى بأسماء حفاظ الحديث وتلاميذهم وما كانوا يحملون من كتبه ، ونكتفى بذكر أحد أعلامهم ، وهو الحفنى محمد بن سالم المتوفى سنة ١١٨١ فقد ذكر الجبرتى أنه كان من جلة شيوخه الشيخ محمد البديرى الدمياطى ، يقول : « أخذ عنه التفسير والحديث والمسندات والمسلسلات والإحياء للإمام الغزالى وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجة وكتاب الموطأ لمالك ومسند الشافعى والمعجم الكبير للطبرانى والمعجم الأوسط والصغير له أيضا وصحيح ابن حبان والمستدرك للنيسابورى وحلية الأولياء للحافظ أبى نعيم وغير ذلك[٣] » . ولعل فى هذا ما يدل بوضوح على نشاط مصر فى دراسة الحديث النبوى وروايته حتى نهاية هذا العصر ، فقد ظلَّ حفاظه التابهون يُعَدّون بالعشرات .

وكان لمصر نشاط خصب فى الفقه ، ومعروف أن أقدم المذاهب فى النشأة المذهب الحنفى ، وتبعه المذهب المالكى فالمذهب الشافعى فالمذهب الحنبلى ، وتأخرت مصر فى التعرف على مذهب

---

(١) انظر فى العراقى الضوء اللامع للسخاوى ٤ رقم ٤٥٢ وحسن المحاضرة ١ / ٣٦٠ والشذرات ٧ / ٥٥ .

(٢) انظر فى مؤلفات السيوطى فى الحديث كتابه حسن المحاضرة ١ / ٣٤٠ .

(٣) تاريخ الجبرتى ١ / ٢٨٩ .

أبى حنيفة ، إلى أن نزلها بعض قضاة بغداد الأحناف عملا بقرار أبى يوسف تلميذ أبى حنيفة ، وكان مقرَّبًا لهارون الرشيد : أن يكون القضاة فى الدولة العباسية أحنافا . وأهم هؤلاء القضاة الأحناف بكار[١] بن قتيبة الذى تولى قضاء مصر لعهد المتوكل سنة ٢٤٦ وظل بها حتى وفاته سنة ٢٧٠ وله تصانيف فقهية مختلفة . ولم تلبث مصر أن أنجبت إماما حنفيا كبيرا هو الطحاوى[٢] أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المتوفى سنة ٣٢١ وإليه انتهت رياسة الحنفية بمصر . وكتبه تُعَدّ مراجع أساسية فى المذهب الحنفى . ومن أهمها الجامع الكبير فى الشروط وكتاب اختلاف الفقهاء والمختصر فى الفقه وله شروح كثيرة ورسالة فى أصول الدين أو عقيدة أهل السنة والجماعة . وذكرنا آنفا أن له فى الحديث كتاب السنن ومعانى الآثار ومشكل الآثار . ومن أهم تلاميذه إسحق[٣] بن إبراهيم الشاشى السمرقندى المتوفى سنة ٣٢٥ وقد استوطن مصر . وتولى القضاء بها . ويذكر السيوطى من فقهاء المذهب زمن الفاطميين عبد المعطى[٤] بن مسافر الذى فقه المذهب بموطنه فى الإسكندرية على يد أبى بكر محمد بن إبراهيم الرازى ، وكان ابن مسافر من حملة الحديث النبوى ، ومنه سمع السلفى حين نزل الإسكندرية .

ويأخذ المذهب فى النشاط بمصر منذ أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة السيوفية لتدريسه . وقد عين بها عبد[٥] الله الجريرى وظل بها حتى توفى سنة ٥٨٤ . وخلفه فيها – على ما يبدو – عبد[٦] الوهاب بن النحاس الحنفى المعروف بالبدر بن المجن . وقد ظل يدرس بالسيوفية حتى توفى سنة ٥٩٩ . وممن درسوا المذهب الحنفى بها أبو الحسن[٧] الغزنوى المتوفى سنة ٦٣٢ . ومن كبار فقهاء الأحناف فى العهد الأيوبى يحيى بن معطى المغربى المتوفى سنة ٦٢٨ وأبو[٨] القاسم القوصى المتوفى سنة ٦٤٣ . وينشط المذهب الحنفى بمصر منذ زمن المماليك إذ جعل الظاهر بيبرس القضاء شركة بين أصحاب المذاهب الأربعة : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية . فكان لكل مذهب

---

(١) انظر فى بكار حسن المحاضرة ١ / ٤٦٣ وابن خلكان ١ / ٢٧٩ والجواهر المضيَّة فى طبقات الحنفية ١ / ١٦٨ وتاج التراجم فى طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ١٩ .

(٢) راجع فى الطحاوى تهذيب ابن عساكر ٢ / ٥٤ والمنتظم ٦ / ٢٥٠ وحسن المحاضرة ١ / ٣٥٠ وابن خلكان ١ / ٧١ وطبقات القراء ١ / ١١٦ والجواهر المضيئة ١ / ١٠٢ وتاج التراجم ص ٨ والشذرات ٢ / ٢٨٨ .

(٣) انظر فى إسحق الجواهر المضيَّة ١ / ١٣٦ والفوائد البهية ٢٢ .

(٤) راجع فى ابن مسافر حسن المحاضرة ١ / ٤٦٤ والجواهر المضيَّة ١ / ٣٣٠ .

(٥) انظر فى الجريرى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٤ .

(٦) راجع فى ابن النحاس حسن المحاضرة ١ / ٤٦٤ وشذرات الذهب ٤ / ٣٤١ .

(٧) انظر فى الغزنوى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٥ والجواهر المضيَّة ١ / ٣٥٢ .

(٨) انظر القوصى فى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٥ والجواهر المضيَّة ١ / ٣٠٤ .

قاضيه ، وأيضا فإنه جعل للحنفية نصيبا فى مدرسته الظاهرية وأول حنفى درَّس المذهب بها لأيامه عبد الرحمن بن عمر بن العديم المتوفى سنة ٦٧٧ . وممن درس المذهب بالسيوفية لؤلؤ[١] بن أحمد وأبو بكر[٢] بن محمد الإسنوى . ومن قضاتهم النعمان[٣] بن الحسن المتوفى سنة ٦٩٢ وعلى بن نصر المتوفى سنة ٦٩٥ وله كتاب زوائد الهداية على القدورى . ويُخْتَمُ القرن السابع بابن النقيب الذى مر ذكره بين المفسرين . ومن فقهاء القرن الثامن النابهين احمد[٤] بن إبراهيم السروجى المدرس بالسيوفية المتوفى سنة ٧١٠ وقد ولى القضاء ، وله شرح فى كتاب الهداية للمرغينانى . وابن[٥] بلبان المتوفى سنة ٧٣١ وله شرح على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى ورتب صحيح ابن حبان على الأبواب وكذلك معجم الطبرانى . وكان يعاصره ابن[٦] التركمانى المتوفى سنة ٧٣١ وكان يدرس المذهب بمدرسة المنصور قلاوون ، وألقى بها شرحا له على الجامع الكبير أملاه دروسا على الطلاب . وأنجب فقيهين : أحمد[٧] المتوفى سنة ٧٤٤ ومن تصانيفه شرح الهداية وشرح الجامع الكبير . وعلى[٨] المتوفى سنة ٧٤٥ وله مختصر الهداية ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وتولى قضاء الديار المصرية . وكان يعاصرهما فخر الدين الزيلعى[٩] المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح على كتاب كنز الدقائق فى الفروع للحافظ النسفى سماه تبيين الحقائق على كنز الدقائق طبع بمصر فى ستة أجزاء . ويلقانا السراج[١٠] الهندى قاضى القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٧٣ وله شرح الهداية والشامل فى الفروع وشرح البديع ، وكان يعاصره ابن[١١] أبى الوفا عبد القادر بن محمد المتوفى سنة ٧٧٥ وهو صاحب كتاب الجواهر المضيَّة فى طبقات الحنفية

---

(١) انظر فى لؤلؤ حسن المحاضرة ١ / ٤٦٦ والجواهر المضيَّة ١ / ٤١٦ .

(٢) انظر فى أبى بكر حسن المحاضرة ١ /٤٦٧ .

(٣) راجع فى النعمان حسن المحاضرة ١ / ٤٦٧ والجواهر المضيَّة ٢ / ٢٠١ .

(٤) انظر فى السروجى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٨ والجواهر المضيَّة ١ / ٥٣ وتاج التراجم ص ١١ .

(٥) راجع فى ابن بلبان حسن المحاضرة ١ / ٤٦٨ والجواهر المضيَّة ١ / ٣٥٤ وتاج التراجم ص ٤٣ ،

(٦) انظر فى ابن التركمانى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٩ والجواهر المضيَّة ١ / ٣٤٥ وتاج التراجم ص ٤٠ والدرر الكامنة ٣ / ٤٩ .

(٧) راجع أحمد فى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٩ والجواهر المضيَّة ١ / ٧٧ .

(٨) انظر فى على حسن المحاضرة ١ /٤٦٩ والجواهر المضيَّة ١ /٣٦٦ .

(٩) راجع فى الزيلعى حسن المحاضرة ١ / ٤٧٠ والجواهر المضيَّة ١ / ٣٤٥ والدرر الكامنة ٣ / ٦١ .

(١٠) انظر فى السراج حسن المحاضرة ١ / ٤٧٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٣ / ٢٣٠ والفوائد البهية ١٤٩ وإنباء الغمر ١ / ٢٧ .

(١١) راجع فى ابن أبى الوفا حسن المحاضرة ١ / ٤٧١ والدرر الكامنة ٣ / ٦ والفوائد البهية ٩٩ وإنباء الغمر ١ / ٦٦ .

المثبوت فى الهوامش . ونلتقى بأكمل[1] الدين البابرتى المتوفى سنة ٧٨٦ وله شروح كثيرة على أمهات كتب الفقه الحنفى منها شرح الهداية وشرح البزدوى .

وما يزال السيوطى فى حسن المحاضرة يعدد فقهاء الحنفية وقضاتهم بالديار المصرية ، حتى نصل ، إلى[2] ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٨٦١ وله مصنفات مختلفة فى مذهبه أهمها فتح القدير ، وهو شرح على كتاب الهداية للمرغينانى . طبع بمصر فى ثمانية أجزاء . ونلتقى بالقاسم[3] بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ وهو صاحب كتاب تاج التراجم فى طبقات الحنفية المذكور فى الهوامش وله مصنفات فقهية مختلفة . ونمضى إلى زمن العثمانيين . وينشط منذ هذا التاريخ بمصر الفقه الحنفى وأصحابه ، إذ كان القضاء فى الدولة العثمانية للأحناف وحدهم . ومن كبار فقهاء الأحناف فى أيامهم زين العابدين[4] بن نجيم المصرى المتوفى سنة ٩٧٠ وله كتاب الأشباه والنظائر فى الفقه الحنفى . وهو مطبوع ، وكتاب البحر الرائق على كنز الدقائق وهو مطبوع أيضا فى عدة أجزاء . ومنهم شمس الدين التمر تاشى الغزى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٤ وله فى الفقه الحنفى تنوير الأبصار وجامع البحار . ومنهم أبو الإخلاص الشرنبلاوى المتوفى سنة ١٠٦٩ وهو من علماء الأزهر ، وله مصنفات مختلفة فى فقه الأحناف لاتزال مخطوطة ومحفوظة بدار الكتب المصرية . ومنهم السيد أحمد الحموى وله تصانيف عدة ، منها شرح الكنز وحاشية الدرر والغرر ، توفى سنة ١١٤٢ . ويحصى الجبرتى فى تاريخه أسماء كثيرين منهم إلى نهاية الأيام العثمانية .

وكان انتشار المذهب المالكى فى مصر مبكرًا ، وكان يعاصر مالكا فقيه مصرى كبير هو الليث[5] بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ وفيه يقول الشافعى : « الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » يريد أن أصحابه وتلاميذه المصريين لم يحملوا عنه مذهبه . ولو أنهم حملوه

---

(١) انظر فى البابرتى حسن المحاضرة ١ / ٤٧١ والفوائد البهية ١٩٥ وإنباء الغمر ١ / ٢٩٨ .

(٢) انظر فى ابن الهمام الضوء اللامع ٨ رقم ٣٠١ والشذرات ٧ / ٢٩٨ والبدر الطالع ٢ / ٢٠١ وحسن المحاضرة ١ / ٤٧٤ .

(٣) راجع فى ابن قطلوبغا الضوء اللامع ٦ / ٦٣٥ والشذرات ٨ / ٣٢٦ والبدر الطالع ٢ / ٤٥ .

(٤) انظر فى ابن نجيم خلاصة الأثر للمحبى ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) راجع فى الليث تاريخ بغداد ١٣ / ٣ وابن خلكان ٤ / ١٢٧ والنجوم الزاهرة ٢ / ٨٢ وصفة الصفوة ٤ / ٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٢٢٥ وميزان الاعتدال ٣ / ٤٢٣ وتهذيب التهذيب ٨ / ٤٥٩ وعبر الذهبى ١ / ٢٦٦ .

لأصبح مذهبا مستقلاً بجانب المذاهب الأربعة ، غير أنهم آثروا عليه مذهب مالك إمام المدينة (دار الهجرة) . وكان من أهم تلاميذ مالك الذين حملوا مذهبه عنه عبد الله بن وهب ، جامع أول كتاب بمصر فى الحديث كما مر بنا آنفا ، وعبد[1] الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وقد فرَّع على أصول مذهبه فروعا كثيرة سجلها فى مؤلفه المشهور باسم المدونة ، وعنه حملها سحنون القيروانى إلى تونس موطنه ، ونشر المذهب المالكى هناك ولا يزال غالبا على بلاد المغرب إلى اليوم . وممن تتلمذ عليه وعلى عبد الله بن وهب يحيى بن يحيى الليثى ناشر مذهب مالك فى الأندلس ، وكان قد حضر دروس مالك فى كتابه الموطأ وتفقّه بهذين المصريين[2] ثم عاد إلى موطنه ينشر المذهب حتى غلب على أهل الأندلس كما غلب على أهل المغرب . ومن كبار تلاميذ مالك المصريين أيضا عبد[3] الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ وإليه أفضت رياسة المالكية فى مصر بعد ابن القاسم وابن وهب ، وخلفه على رياسته ابنه محمد[4] المتوفى سنة ٢٦٨ . وكان يعاصره الحارث[5] بن مسكين ، وقد حمله المأمون إلى بغداد فى أيام محنة خلق القرآن ، وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلقه ، ورد إليه حريته المتوكل وولاه قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وظل يتولى قضاءها ثمانى سنوات ، وتوفى سنة ٢٥٠ . ويعدّ السيوطى فى حسن المحاضرة من تلامذة ابن وهب وابن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم خمسة عشر فقيها مالكيا اشتهروا بمصر . وممن نلتقى به فى أوائل القرن الرابع أحمد[6] بن الحارث بن مسكين ، جلس مجلس أبيه بعده بجامع عمرو يدرس للناس الفقه المالكى حتى توفى سنة ٣١١ . وكثير من الفقهاء حينئذ يُنْسَبُون إلى الإسكندرية والصعيد ، إذ كان المذهب منتشرًا بهما . ومن فقهاء الإسكندرية أبو الحسن[7] المعافرى قاضيها

---

(١) انظر فى ابن القاسم الديباج المذهب ١٤٦ وابن خلكان ٣ / ١٢٩ وتذكرة الحفاظ ٣٥٦ والتهذيب لابن حجر ٦ / ٢٥٢ والشذرات ١ / ٣٢٩ وحسن المحاضرة ١ / ٣٠٣ .

(٢) المغرب لابن سعيد (نشر دار المعارف) ١ / ١٦٣ .

(٣) انظر فى عبد الله بن عبد الحكم حسن المحاضرة ١ / ٣٠٥ والديباج المذهب ٩٨ وعبر الذهبى ١ / ٣٦٦ وابن خلكان ٣ / ٣٤ وتهذيب التهذيب ٥ / ٢٨٩ والشذرات ٢ / ٣٤ .

(٤) راجع فى محمد حسن المحاضرة ١ / ٣٠٩ والديباج المذهب ٢٣١ والسبكى ٢ / ٦٧ والوافى بالوفيات ٣ / ٣٣٨ والشذرات ٢ / ١٥٤ وميزان الاعتدال ٣ / ٦١١ .

(٥) انظر فى الحارث رفع الإصر عن قضاة مصر ١ / ١٦٧ والسبكى ٢ / ١١٣ وتذكرة الحفاظ ٥١٤ وتاريخ بغداد ٨ / ٢١٦ وابن خلكان ٢ / ٥٦ .

(٦) راجع أحمد فى حسن المحاضرة ١ / ٤٤٩ والديباج المذهب ٣٧ .

(٧) انظر فى المعافرى حسن المحاضرة ١ / ٤٤٩ والعبر ٢ / ٢٥٠ .

المتوفى سنة ٣٣٩ وكان يعاصره أبو الذكر[١] الأسوانى قاضى مصر المتوفى سنة ٣٤٠ . ونمضى إلى زمن الفاطميين ، وقد عدَّ السيوطى من الفقهاء المالكيين لعهدهم ستة عشر فقيها ، منهم أبو[٢] بكر النعالى إمام المالكية بمصر فى وقته . وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر ، وكانت حلقته فى الجامع تدور على سبعة عشر عمودًا لكثرة من يحضرها . توفى سنة ٣٨٠ . ومنهم أبو القاسم[٣] الجوهرى المتوفى سنة ٣٨١ مصنف مسند الموطأ لإمام المذهب مالك . ونزل بالقاهرة القاضى عبد[٤] الوهاب فقيه بغداد المالكى وكان شاعرًا بارعًا ، ويقال إنه يوم فَصل عن بلده شيَّعه من أكابرها وأصحاب محابرها جملة وافرة وأنه قال لهم : لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية ، واجتاز بمعرَّة النعمان بلدة أبى العلاء فأضافه ، وله فى الإشادة بفقهه وبشعره :

إذا تفقَّه أحيا مالكا جدلا ... ويَنْشُر الملك الضِّلِّيل إن شعرا

والملك الضليل : امرؤ القيس . وتوجه إلى مصر فحمل لواء المالكية بها وانثالت فى يديه الرغائب . ولم يلبث أن ألم به مرض الموت سنة ٤٢٢ فكان يقول - كما ربنا - لا إله إلا الله عندما عشنا متنا . ومن كبار فقهاء المالكية حينئذ أبو[٥] بكر الطرطوشى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ واشتهر بكتابين له فى السياسة ألفهما أو ألف أحدهما لوزير الفاطميين المأمون البطائحى هما سراج الملوك وسراج الهدى . ومن تلاميذه سند[٦] بن عنان الأزدى المتوفى سنة ٥٤١ خلفه فى حلقته وانتفع به الناس وله شرح المدونة . وكان يعاصره أبو القاسم[٧] بن مخلوف الإسكندرى أحد الأئمة الكبار من المالكية ، تفقه به أهل الثغر زمانا .

ونمضى إلى زمن الدولة الأيوبية ، ويلقانا صدر الإسلام أبو الطاهر[٨] إسماعيل بن مكى تلميذ الطرطوشى المتوفى سنة ٥٨١ وقد طارت شهرته فى المذهب ، وقصده صلاح الدين الأيوبى وسمع

(١) راجع فى أبى الذكر حسن المحاضرة ١ / ٤٤٩ والطالع السعيد للإدفوى ٣٦٤ .

(٢) انظر فى النعالى حسن المحاضرة ١ / ٤٥٠ والديباج المذهب ٢٥٨ .

(٣) راجع فى الجوهرى حسن المحاضرة ١ / ٤٥١ والعبر ٣ / ١٧ .

(٤) انظر فى عبد الوهاب حسن المحاضرة ١ / ٣١٤ والعبر ٣ / ١٤٩ وابن خلكان ٣ / ٢١٩ والديباج المذهب وفوات الوفيات ٢ / ٤٤ والشذرات ٣ / ٢٢٣ .

(٥) راجع فى الطرطوشى حسن المحاضرة ١ / ٤٥٢ والصلة لابن بشكوال : ٥٤٥ والمغرب ٢ / ٢٤٢ وابن خلكان ٤ / ٢٦٢ والعبر ٤ / ٤٨ وأزهار الرياض ٣ / ١٦٢ .

(٦) انظر فى سند حسن المحاضرة ١ / ٤٥٢ والديباج المذهب ١٢٦ .

(٧) راجع فى ابن مخلوف حسن المحاضرة ١ / ٤٥٣ .

(٨) انظر فى أبى الطاهر حسن المحاضرة ١ / ٤٥٢ والديباج المذهب ٩٥ .

منه الموطأ ، وله مصنفات ، قال فيه ابن فرحون : كان إمام عصره فى المذهب وعليه مدار الفتوى .ومرَّ بنا أن صلاح الدين أنشأ مدرسة للمالكية هى المدرسة القمحية ، وتبعه ابن شكر وزير أخيه العادل ، فأنشأ لهم مدرسة ثانية هى المدرسة الصاحبية ، وأنشأ لهم وللشافعية القاضى الفاضل مدرسة مشتركة هى المدرسة الفاضلية ، وجعل الصالح أيوب مدرسته للمذاهب الأربعة . وأتاح ذلك كله للفقه المالكى بمصر نشاطا واسعا منذ زمن الأيوبيين ، ومن كبار فقهائه حينئذ ابن شاس[١] عبد الله بن محمد شيخ المالكية وصاحب كتاب الجواهر الثمينة فى المذهب ، درس بالمدرسة القمحية ، استشهد مجاهدًا الفرنج بدمياط حين حاصروها سنة ٦١٦ — ٦١٨ . ومن مدرسى هذه المدرسة الحسين[٢] بن عتيق ابن رشيق شيخ المالكية وصاحب الفُتْيا فى وقته ، توفى سنة ٦٣٢ . واشتهر بالإسكندرية من فقهاء المالكية ابن الصفراوى الذى مر ذكره بين القراء . ومن كبار فقهاء المذهب ابن الحاجب الذى مر ذكره بين النحاة ، وله مختصر الفروع فى الفقه المالكى اعتمد فيه على جواهر الفقيه ابن شاس وأضاف إليه زيادات من كتب مختلفة ، وله شروح لا تزال مخطوطة ومحفوظة بدور الكتب . وكان يعاصره رفيقه عبد الكريم[٣] بن عطاء الله الإسكندرانى ، كان إماما فى الفقه والأصول والعربية ، ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل . ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل .

ونمضى فى زمن المماليك ، ونلتقى بابى حفص عمر[٤] بن عبدالله السبكى المتوفى سنة ٦٦٩ وهو أول من ولى قضاء المالكية حين جعل الظاهر بيبرس من كل مذهب قاضيا . وولى قضاء المالكية بعده نفيس[٥] الدين محمد بن هبة الله بن شكر المتوفى سنة ٦٨٠ . وكان يعاصره القرافى[٦] شهاب الدين أحمد بن إدريس المتوفى سنة ٦٨٢ ولى التدريس فى مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المعروفة بالصالحية وقد صنف فى الفقه المالكى وفى الأصول الكتب المفيدة مثل الذخيرة فى مذهب مالك وكتاب الفروق فى الفقه المالكى وهو مطبوع . وكان يعاصره هو ونفيس الدين ابن

---

(١) انظر فى ابن شاس البداية والنهاية ١٣ / ٨٦ وحسن المحاضرة ١ / ٤٥٤ .

(٢) راجع فى ابن عتيق حسن المحاضرة ١ /٤٥٥ والديباج المذهب ١٠٥ .

(٣) انظر فى عبد الكريم حسن المحاضرة ١ / ٤٥٦والديباج المذهب ١٦٧ .

(٤) راجع فى عمر السبكى حسن المحاضرة ١ /٤٥٧ والديباج المذهب ١٥٩ .

(٥) انظر فى نفيس الدين حسن المحاضرة ١ /٤٥٨ .

(٦) راجع فى القرافى حسن المحاضرة ١ / ٣١٦ والديباج المذهب ٦٢ والمنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب) ١ / ٢١٥ .

المنير أحمد بن محمد قاضى الإسكندرية الذى مر ذكره بين المفسرين ، وكان إمامًا فاضلا متبحرًا ، وله فى الفقه مختصر التهذيب .

ويلقانا فى القرن الثامن تاج[١] الدين بن عطاء الله الإسكندرى المتصوف المشهور المتوفى سنة ٧٠٩ وله فى الفقه تهذيب المدونة غير كتب كثيرة فى التصوف . وكان يعاصره قاضى القضاة على[٢] بن مخلوف النويرى المتوفى سنة ٧١٣ ولى قضاء الديار المصرية ثلاثا وثلاثين سنة . ومن كبار فقهاء المالكية ابن[٣] الحاج محمد بن محمد العبدرى المتوفى سنة ٧٣٧ وله كتاب المدخل وهو كتاب نفيس فى أربعة أجزاء يصف فيه أحوال البلاد الخلقية والاجتماعية وما يتصل بذلك من العادات عند العامة وغيرها ، مع نقد نزيه ومع بيان للعلاج الشرعى الملائم . وكان يعاصره الزواوى[٤] عيسى بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٣ وإليه انتهت رياسة المالكية ، وله مصنفات مختلفة ، منها شرح صحيح مسلم وشرح مختصر ابن الحاجب فى الفقه وشرح المدونة ، وتاريخ ومناقب مالك . وأكثر فقهاء المالكية فى القرن الثامن شهرة خليل[٥] بن إسحق المتوفى سنة ٧٦٧ وله كتاب المختصر فى الفقه المالكى ، ويعنى بتدريسه المالكية منذ ظهوره وخاصة فى المغرب ويعرف هناك باسم مختصر سيدى خليل . وأهم تلاميذه[٦] بهرام بن عبد الله المتوفى سنة ٨٠٥ وله الشامل فى الفقه وشرح مختصر أستاذه خليل . ونزل مصر فى زمنه عبد الرحمن بن خلدون وعداده فى فقهاء المغرب . ونلتقى بالبساطى[٧] محمد بن أحمد شيخ الإسلام المتوفى سنة ٨٤٢ ولى القضاء ، وكانت إليه الفتيا .

ويظل لفقهاء المالكية نشاطهم فى بقية زمن المماليك وفى أيام العثمانيين . ومن أعلامهم فى القرن الحادى عشر أبو الإمداد برهان الدين اللقانى المتوفى سنة ١٠٤١ وله مصنفات فى علمى الكلام والفقه ، وكان يعاصره نور الدين الأجهورى ، وهو من شيوخ الأزهر المالكية

(١) انظر فى ابن عطاء الله حسن المحاضرة ١ / ٤٢٤ وطبقات الشعرانى ٢ / ١٩ والسبكى ٩ / ٢٣ والخطط الجديدة لعلى مبارك ٧ / ٧٠ والبدر الطالع ١ / ١٠٧ والديباج المذهب ٧٠ وشذرات الذهب ٦ / ١٩ والدرر الكامنة .

(٢) راجع فى ابن مخلوف النويرى حسن المحاضرة ١ / ٤٥٨ والدرر الكامنة .

(٣) انظر فى ابن الحاج حسن المحاضرة ١ / ٤٥٩ والديباج المذهب ٣٢٧ والدرر الكامنة ٤/٣٥٥ .

(٤) راجع فى الزواوى حسن المحاضرة ١ / ٤٥٩ والدرر الكامنة .

(٥) انظر فى خليل حسن المحاضرة ١ / ٤٦٠ والديباج المذهب ١١٧ ونيل الابتهاج ص٩٥ والدرر الكامنة ٢ / ١٧٥ ونفح الطيب (طبع بولاق) ٢ / ١٢٠ .

(٦) راجع فى بهرام حسن المحاضرة ١ /٤٦١ والضوء اللامع ٣ /٢٠ .

(٧) انظر فى البساطى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٢ والضوء اللامع ٧ / ٥ .

وله مصنفات مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية . ونلتقى بكثيرين من فقهاء المالكية فى تاريخ الجبرتى ومن أهمهم الزرقانى[1] أبو عبد الله محمد بن عبد الباقى المتوفى سنة ١١٢٢ خاتمة المحدثين . وشرحه على موطأ مالك مشهور ، وأيضا من أهمهم على[2] بن أحمد بن مكرم العدوى الصعيدى إمام المحققين وعمدة المدققين المتوفى سنة ١١٨٩ يقول الجبرتى عنه : « قبل ظهوره لم تكن المالكية تعرف الحواشى على شروح كتبهم الفقهية ، فهو أول من خدم تلك الكتب بها » ويعدِّد حواشيه ومن أهمها حاشية له على شرح الزرقانى على موطأ مالك .

وعلى شاكلة ازدهار مذهب مالك الفقهى بمصر كذلك كان مذهب الشافعى[3] مزدهرًا ، بل ربما كان أكثر ازدهارًا ، إذ نزل الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ مصر . واكتمل له فيها مذهبه الفقهى . وحمله عنه تلاميذه من أبنائها ونشروه فى العالم الإسلامى ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة أتباعا . ويتميز مذهبه بإحكامه التوفيق بين المذهب الحنفى مذهب أهل الرأى ، والمذهب المالكى مذهب أهل الحديث ، وهو الذى أسس علم أصول الفقه بمبحثه الرائع الذى سماه الرسالة وفيها يبحث أدلة الأحكام الدينية وما يتصل بها من طرق الاستنباط والاجتهاد . وله فى الفقه مصنفه المشهور : الأم ، وهو مطبوع فى القاهرة مثل الرسالة ، وعُنى به فقهاء الشافعية طوال هذا العصر فاختصروه وشرحوه مرارا ، ومثلها كتاب السنن المأثورة والمسند . وطبع له على هامش الأم كتاب اختلاف الحديث . وأهم تلاميذه بمصر البُوَيْطى والمُزَنى ، أما البويطى فهو يوسف[4] بن يحيى القرشى الإمام الجليل المتوفى سنة ٢٣١ يقول السيوطى عنه : أحد أئمة الإسلام وأركانه ، كان خليفة الشافعى فى حلقته بعده ، وله فى الفقه المختصر المشهور الذى اختصره من كلام الشافعى ، وحُمل إلى بغداد فى محنة القول بخلق القرآن ، فأصرَّ على رأيه هناك وظل سجينا حتى توفى . والمزنى[5] هو إسماعيل بن يحيى المتوفَّى سنة ٢٦٤ وقد

---

(١) راجع الزرقانى فى تاريخ الجبرتى ١ / ٦٩ .

(٢) انظر ابن مكرم فى تاريخ الجبرتى ١ / ٤١٤ .

(٣) انظر الإمام الشافعى فى الجزء الأول من طبقات الشافعية للسبكى وتاريخ بغداد ٢ / ٥٦ ومعجم الأدباء ١٧ / ٢٨١ وابن خلكان ٤ / ١٦٣ وتذكرة الحفاظ ٣٦١ تهذيب التهذيب ٩ / ٢٥ وصفة الصفوة ٢ / ١٤٠ وحلية الأولياء ٩ / ٦٣ وألف كثيرون فى سيرته ومذهبه قديما وحديثا .

(٤) راجع فى البويطى السبكى ٢ / ١٦٢ وتاريخ بغداد ١٤ / ٢٩٩ وعبر الذهبى ١ / ٤١١ وتهذيب التهذيب ١١ / ٤٢٣ وابن خلكان ٧ / ٦١ وحسن المحاضرة للسيوطى ١ / ٣٠٦ .

(٥) انظر فى المزنى السبكى ٢ / ٩٣ والعبر ٢ / ٢٨ واللباب ٣ / ١٣٣ وابن خلكان ١ / ٢١٧ والنجوم الزاهرة ٣ / ٣٩ والسيوطى ١ / ٣٠٧ وشذرات الذهب ٢ / ١٤٨ .

أخذ عنه خلائق من علماء خراسان والعراق والشام ، ومضوا فنشروا المذهب فى بلدانهم ، وله فى الفقه الشافعى : الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر والمنثور والمسائل المعتبرة وكتاب الوثائق وكتاب العقارب ، سمى بذلك لصعوبته وفى كتاب طبقات الشافعية للسبكى غرائب منه . ومن كبار فقهاء الشافعية بمصر فى القرن الثالث أبو زرعة[١] محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ ولى قضاء مصر سنة ٢٨٤ ثمانى سنين ، ثم ولى قضاء دمشق ، فأدخل فيها مذهب الشافعى وحكم به القضاة هناك ، ولم يزل القضاء بعده للشافعية بمصر والشام إلى أن ضم الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ القضاة الثلاثة من مذاهب أبى حنيفة ومالك وابن حنبل إلى الشافعية . وكان يعاصره النسائى وقد مر ذكره بين أهل الحديث ومنصور[٢] بن إسماعيل الفقيه المتوفى سنة ٣٠٦ وله مصنفات عدة فى المذهب من أهمها كتاب الهداية والواجب والمستعمل والمسافر.

ويلقانا فى القرن الرابع أبو إسحق[٣] المروزى إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٠ نزيل الفسطاط وكانت قد انتهت إليه رياسة المذهب فى بغداد وانتشر عنه فى البلاد ، وشرح مختصر المزنى ، وانتقل إلى الفسطاط وجلس فى مجلس الشافعى واجتمع الناس عليه وضربوا إليه أكباد الإبل . وكان يعاصره أبو بكر[٤] بن الحداد محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٤ قاضى الفسطاط ، وله كتاب الباهر فى الفقه يقال إنه كان فى مائة جزء ، وله أيضا كتاب جامع الفقه وكتاب الفروع المولدات الذى شرحه كثيرون . ونمضى إلى زمن الفاطميين ، وقد أحصى السيوطى عشرة من الفقهاء فى المائة سنة الأولى من أيامهم ، أهمهم القضاعى[٥] أبو عبد الله محمد بن سلامة المتوفى سنة ٤٥٤ مصنف كتاب الشهاب ، ولى قضاء الديار المصرية وأرسل به الخليفة المستنصر إلى الروم رسولا . وأحصى السيوطى فى المائة الثانية من أيام الفاطميين تسعة من فقهاء الشافعية أهمهم الخلعى[٦] على بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ وله فى الفقه كتاب المغنى بين البسط والاختصار .

---

(١) راجع فى أبى زرعة السبكى ٣ / ١٩٦ والسيوطى ١ / ٣٩٩ والعبر ٢ / ١٢٣ والشذرات ٢ / ٢٣٩ .

(٢) انظر فى منصور السبكى ٣ / ٤٧٨ والسيوطى ١ / ٤٠٠ والمغرب فى حلى المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٦٢ وابن خلكان ٥ / ٢٨٩ ونكت الهميان ٢٩٧ ومعجم الأدباء ١٩ / ١٨٥ والمنتظم ٦ / ١٥٢ .

(٣) راجع فى المروزى تاريخ بغداد ٦/١١ وابن خلكان ١/٢٦ والسيوطى ١ / ٣١٢ .

(٤) انظر فى ابن الحداد السبكى ٣ / ٧٩ والسيوطى ١ / ٣١٣ وتذكرة الحفاظ ٣ / ١٠٨ والعبر ٢ / ٢٦٤ وابن خلكان ٤ / ١٩٧ والوافى ٢ / ٦٩ والشذرات ٢ / ٣١٧ .

(٥) راجع فى القضاعى السبكى ٤ / ١٥٠ وابن خلكان ٤ / ٢١٢ والوافى ٣ / ١١٦ والسيوطى ١/٤٠٣ والشذرات ٣ / ٢٩٣ .

(٦) انظر فى الخلعى السبكى ٥ / ٢٥٣ والعبر ٣ / ٣٣٤ والسيوطى ١ / ٤٠٤ والشذرات ٣ / ٣٩٨ وابن خلكان ٣ / ٣١٧ .

وربما كان أهم منه مجلى[١] بن جميع قاضى القضاة المتوفى سنة ٥٥٠ كان من أئمة الفقهاء وكبارهم وله فى الفقه مصنفات أهمها كتابه الذخائر . وكان يعاصره الفقيه الشافعى ابن رفاعة المتوفى سنة ٥٦١ . وبمجرد أن يظل مصر لواء صلاح الدين الأيوبى يؤسس مدرسة للشافعية وثانية للمالكية وثالثة للحنفية كما أسلفنا . وفوَّض القضاء بمصر للشافعية ، فاتسع نشاطهم ، وقد أسند صلاح الدين مدرستهم للخُبُوشانى[٢] محمد بن الموفق المتوفى سنة ٥٨٧ وله فى الفقه كتاب تحقيق المحيط .

ومن كبار فقهاء الشافعية فى عهد الأيوبيين إبراهيم بن منصور العراق المصرى المتوفى سنة ٥٩٦ رحل إلى العراق وأقام به مدة ثم عاد إلى موطنه فعرف باسم العراق ، وله شرح على كتاب المهذب لأبى إسحق الشيرازى أول مدرس للمدرسة النظامية ببغداد وكان شرحا كبيرا فى عشرة مجلدات . وكان يعاصره عبد[٣] الملك بن عيسى بن درباس المتوفى سنة ٦٠٥ قاضى قضاة الشافعية فى عهد صلاح الدين ، وأناب عنه أخاه عثمان[٤] فى قضاء القاهرة وله شرح على المهذب سماه الاستقصاء ، وشرح ثان على كتاب اللمع لأبى إسحق الشيرازى ، توفى سنة ٦٢٢ . ويلقانا محمد[٥] بن عين الدولة المتوفى سنة ٦٣٩ قاضى القضاة بالقاهرة والوجه البحرى ، واشتهر لزمنه بأنه رد شهادة السلطان الكامل ، وقال له : أنت تحكم ولا تشهد . وأهم الفقهاء بعده فى زمن الأيوبيين العز[٦] بن عبد السلام وقد مرَّ لنا فى الفصل السابق حديث عنه مع المماليك ، ولى خطابة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط والقضاء بها وبالوجه القبلى . ولما بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية فوَّض تدريس الشافعية بها إليه ، وطالت أيامه إلى زمن المماليك إذ توفى سنة ٦٦٠ وله فى الفقه كتاب القواعد الكبرى ومصنفات مختلفة ومر بنا أن له تفسيرا وكتابا فى مجاز القرآن .

وقد أحصى السيوطى من فقهاء الشافعية زمن المماليك أكثر من مائة فقيه ، لأكثرهم مصنفات

---

(١) راجع فى مجلى السبكى ٧/٢٧٧ والسيوطى ١/٤٠٥ والعبر ٤/١٤١ والشذرات ٤/١٥٧ وابن خلكان ٤/١٥٤ .

(٢) انظر فى الخبوشانى السبكى ٧/١٤ والسيوطى ١/٤٠٦ وابن خلكان ٤/٢٣٩ والعبر ٤/٢٦٢ والشذرات ٤/٢٨٨ والنجوم الزاهرة ٦/١١٥ .

(٣) راجع فى ابن درباس السيوطى ١/٤٠٨ ورفع الإصر : ٣٦٧ .

(٤) انظر فى عثمان السبكى ٨/٣٣٧ والسيوطى ١/٤٠٨ والشذرات ٥/٧ وابن خلكان ٢/٢٤٢ .

(٥) راجع فى ابن عين الدولة السبكى ٨/٦٣ والسيوطى ١/٤١٢ والعبر ٥/١٦٢ والشذرات ٥/٢٠٥ .

(٦) انظر فى العز السبكى ٨/٢٠٩ والسيوطى ١/٣١٤ والشذرات ٥/٣٠١ والعبر ٥/٢٦٠ ومرآة الجنان ٤/١٥٣ وفوات الوفيات ١/٥٩٤ والنجوم الزاهرة ٧/٢٠٨ .

وشروح على أمهات كتب الفقه الشافعى ، ومن أهمهم ابن[١] دقيق العيد المتوفَّى سنة ٧٠٢ وهو تلميذ العزبن عبد السلام وله مصنفات كثيرة فى الفقه والحديث ومصطلحه . وكان يعاصره ابن الرفعة أحمد[٢] بن محمد المتوفى سنة ٧١٠ وهو ثالث الشيخين : الرافعى القزوينى والنووى الدمشقى فى الاعتماد عليه فى ترجيح الآراء الفقهية فى مذهب الشافعى ، درَّس بالمدرسة المعزية وتولى الحسبة ، وصنف تصنيفين عظيمين هما الكفاية فى عشرين مجلدا والمطلب فى ستين مجلدا . ومن كبار الفقهاء الشافعية القَمُولى[٣] أحمد بن محمد المتوفى سنة ٧٢٧ صاحب البحر المحيط فى شرح الوسيط للغزالى وكتاب جوامع البحر جمع فيه فأوعى . وكان يعاصره بدر[٤] الدين بن جماعة قاضى القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٣٣ وله تصنيفات فى فنون كثيرة . ونلتقى بالزنكلونى[٥] أبى بكر بن إسماعيل المتوفى سنة ٧٤٠ وله شرح على التنبيه لأبى إسحق الشيرازى عم النفع به وشرح ثان على المنهاج للنووى . وكان يعاصره سليمان[٦] بن جعفر الإسنوى المتوفى سنة ٧٥٦ صنف طبقات الشافعية وهو مطبوع . ونلتقى بتقى[٧] الدين السبكى على بن عبد الكافى المتوفى فى نفس السنة المذكورة تلميذ ابن الرفعة وله مصنفات كثيرة فى الفقه وشروح كتبه الكبرى . ومن تلاميذه ابنه بهاء الدين السبكى الذى مرَّ ذكره بين البلاغيين ، وله فى الفقه شرح على كتاب الحاوى للشيخ نجم الدين القزوينى المتوفى سنة ٦٦٥ . وكان يعاصره عبد[٨] الرحيم بن الحسن الإسنوى المتوفى سنة ٧٧٧ صاحب التصانيف السائرة ، منها المهمات والجواهر وشرح المنهاج والفروع وإليه انتهت رياسة الشافعية فى زمانه .

---

(١) راجع فى ابن دقيق العيد السبكى ٩ / ٢٠٧ والسيوطى ١ / ٣١٧ والشذرات ٦ / ٥ والبدر الطالع ٢/٢٢٩ ومرآة الجنان ٤/٢٣٦ والوافى ٤/١٩٣ والطالع السعيد للإدفوى ٣١٧ وفوات الوفيات ٢/٤٨٤ والدرر الكامنة ٤/٣١٠ وتذكرة الحفاظ ١٤٨١ .

(٢) انظر فى ابن الرفعة السبكى ٩ / ٢٤ والسيوطى ١ / ٣٢٠ والشذرات ٦ / ٢٢ ومرآة الجنان ٤ / ٢٤٩ والبدر الطالع ١ / ١١٥ والدرر الكامنة ١ / ٣٠٣ .

(٣) راجع فى القمولى السبكى ٩ / ٣٠ والسيوطى ١ / ٤٢٤ والدرر الكامنة ١ / ٣٢٤ والشذرات ٦ / ٧٥ والطالع السعيد ١٢٥ والنجوم الزاهرة ٨ / ٢٧٩ .

(٤) راجع فى ابن جماعة السبكى ٩ / ١٣٩ والسيوطى ١ / ٤٢٥ والدرر الكامنة ٣ / ٣٦٧ وفوات الوفيات ٢ / ٣٥٣ ونكت الهميان ٢٣٥ ومرآة الجنان ٤ / ٢٨٧ والنجوم الزاهرة ٩ / ٢٩٨ .

(٥) انظر فى الزنكلونى السيوطى ١ / ٤٢٦ والشذرات ٦ / ١٢٥ .

(٦) راجع فى سليمان السيوطى ١ / ٤٢٩ .

(٧) السبكى ترجم له ابنه بهاء الدين فى طبقات الشافعية ١٠ / ١٣٩ وانظر فى ترجمته السيوطى ١ / ٣٢١ والدرر الكامنة ٣ / ١٣٤ .

(٨) انظر فى الإسنوى السيوطى ١ / ٤٢٩ والدرر الكامنة ٢ / ٤٦٣ .

ويلقانا ابن[١] الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ وهو أكثر أهل زمنه تصنيفا ، ومن تصانيفه شرح التنبيه وشرح الحاوى وشرح المنهاج وشرح كتاب العمدة وما به من أحاديث موزعة على أبواب الفقه . وتوفى بعده بعام شيخ الإسلام البلقينى[٢] عمر بن رسلان وله فى الفقه والحديث والتفسير تصانيف مختلفة ، وحمل عنه فقهه وعلمه ابنه علم الدين صالح المتوفى سنة ٨٦٨ وهو شيخ السيوطى . وكان يعاصره فقيهان هما المحلى والمناوى وبهما ختم السيوطى حديثه عن فقهاء الشافعية . ويعد السيوطى نفسه خاتَمهم الحقيقى إذ توفى سنة ٩١١ كما مر بنا فى الحديث عن اللغويين وله فى الفقه مصنفات كثيرة منها مختصر الروضة للنووى وحاشية عليها ومختصر لكتاب التنبيه وشرح عليه وكتاب الأشباه والنظائر ، واللوامع والبوارق فى الجوامع والفوارق ، غير رسائل كثيرة أحصاها فى ترجمته لنفسه بحسن المحاضرة . ونلتقى بالشيخ زكريا[٣] الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ وله فى الفقه مختصر مشهور هو المنهج وله شروح مختلفة .

ونمضى إلى زمن العثمانيين ويظل التصنيف فى الفقه الشافعى ناشطا . ومن كبار الفقهاء فى القرن العاشر ابن حجر[٤] الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٣ وله الفتاوى الهيثمية طبعت بمصر فى أربعة مجلدات . وكان يعاصره شمس الدين الشربينى الخطيب الذى مرّ ذكره بين المفسرين ، وله فى الفقه شرح منهاج النووى ، وهو مطبوع ، وله شرح على متن أبى شجاع ، ولسليمان البجيرمى حاشية عليه . ويكتظ كتاب تاريخ الجبرتى بأسماء فقهاء الشافعية وأشهر أئمتهم حينئذ الرملى[٥] المتوفى سنة ٩٥٧ وفتاويه تكتظ بها كتب الفقه الشافعى بعده .

وظلت مصر لا تعرف المذهب الحنبلى طويلا ، ويعلل السيوطى ذلك بأن المذهب لم يبرز خارج العراق إلا فى القرن الرابع ، وكان الفاطميون بمصر وكانوا لا يهتمون بغير عقيدتهم الشيعية الغالية ، ويقال إنهم اضطهدوا فى أول أمرهم المذاهب الثلاثة التى كانت قائمة بمصر ، وهى مذاهب الشافعية والملكية والحنفية ، فتأخر ظهور المذهب الحنبلى ، وأول إمام لهم نزل مصر الحافظ عبد الغنى[٦] الجمَّاعيلى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ صاحب كتاب عمدة الأحكام فى معالم

(١) راجع فى ابن الملقن السيوطى ١ / ٤٣٨ والضوء اللامع ٦ / ١٠٠ وشذرات الذهب ٧ / ٤٤ .

(٢) انظر فى البلقينى السيوطى ١ / ٣٢٩ والضوء اللامع ٦ رقم ٢٨٦ والشذرات ٧ / ٥١ .

(٣) انظر فى الشيخ زكريا الضوء اللامع جـ٣ رقم ٨٩٢ والكواكب السائرة ١ / ١٩٦ والبدر الطالع ١ / ٢٥٢ والنور السافر ص ١٢٥ .

(٤) راجع فى ابن حجر الهيثمى مقدمة فتاويه والشذرات ٨ / ٣٧٠ والنور السافر ص ٢٨٧ والبدر الطالع ١ / ١٠٩ .

(٥) انظر فى الرملى الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزى ٢/١١٩ والخطط التوفيقية (طبعة بولاق) ٤/١١٩ .

(٦) انظر مصادر ترجمة عبد الغنى المقدسى فى قسم الشام ص ٥٨٤ .

الحلال والحرام عن خير الأنام ، وله شروح كثيرة . ولمؤلف العمدة كتاب الكمال فى معرفة أسماء الرجال ، وصنع له تهذيبا المزى جمال الدين يوسف بن الزكى وأكمل التهذيب مُغْلطاى الذى مرَّ ذكره . وأخذ المذهب الحنبلى يشيع فى مصر منذ أنشأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية سنة ٦٤١ إذ جعل للمذهب الحنبلى ودراسته فيها إيوانا بجانب أواوين المذاهب الثلاثة السابقة ، ودعم ذلك الظاهر بيبرس بضم قضاة للحنابلة والمالكية والحنفية بجانب قاضى الشافعية . وتوالى اهتمام المماليك ، فى تأسيس مدارسهم ، بالفقه الحنبلى وفقهائه بجانب فقهاء المذاهب الثلاثة الأخرى على نحو ما مر بنا فى صدر هذا الفصل . ويترجم السيوطى فى حسن المحاضرة لعشرين من فقهاء المذهب وقضاته فى مصر مثل نجم[1] الدين أحمد بن حمدان الحرانى المتوفى سنة ٦٩٥ مؤلف الرعاية الكبيرة وعمر[2] بن عبد الله المقدسى قاضى الديار المصرية المتوفى سنة ٦٩٦ وموفق[3] الدين عبد الله بن عبد الملك المقدسى قاضى الديار المصرية لنحو ثلاثين سنة توفى سنة ٧٦٩ ، وناصر[4] الدين نصر الله بن أحمد الكنانى المتوفى سنة ٧٩٥ ناب عن موفق الدين فى قضاء الحنابلة ثم استقل به ستًّا وعشرين سنة ، وعماد[5] الدين الحنبلى أبو بكر بن أبى المجد المتوفى سنة ٨٥٤ صنَّف تجريد الأوامر والنواهى من كتب الصحاح الستة ، واختصر تهذيب الكمال للمزِّى .

ويختم السيوطى فقهاء الحنابلة زمن المماليك بأستاذه أحمد[6] بن إبراهيم الكنانى العسقلانى الأصل المصرى المولد ، وفيه يقول : ولى قضاء الحنابلة بالديار المصرية ، ودرَّس للحنابلة بغالب مدارس القاهرة ، وله تعاليق وتصانيف ومسودات كثيرة فى الفقه وأصوله والحديث والعربية ، ومنها مختصر كتاب المحرر للرافعى توفى سنة ٨٧٦ . ويظل الفقه الحنبلى ناشطا بمصر زمن العثمانيين ، وفى كتاب تاريخ الجبرتى أسماء كثيرين من فقهاء الحنابلة ومن أكبر أئمتهم مرعى[7] بن يوسف المتوفى سنة ١٠٣٣ وله مؤلفات كثيرة فى المذهب ، منها غاية المنتهى . ويبدو أن المذهب الظاهرى ظل معروفا بمصر وظل علماء يعنون به ويتدارسونه ، ونلتقى فى كتب التراجم من حين إلى آخر

---

(١) انظر فى نجم الدين السيوطى ١ / ٤٨٠ والشذرات ٥ / ٤٢٨ والمنهل الصافى ١ / ٢٧٢ .

(٢) انظر فى عمر المقدسى السيوطى ١ / ٤٨٠ والشذرات ٥ / ٤٣٦ والنجوم الزاهرة ٨ / ١١١ .

(٣) راجع فى موفق الدين السيوطى ١ / ٤٨١ والشذرات ٦ / ٢١٥ .

(٤) انظر فى ناصر الدين السيوطى ١ / ٤٨١ والشذرات ٦ / ٣٤٣ والدرر الكامنة ٥ / ١٦٣ وإنباء الغمر ١ / ٤٦٦ .

(٥) راجع فى عماد الدين السيوطى ١ / ٤٨٢ والضوء اللامع ١١ / ٦٦ والشذرات ٧ / ٤٢ .

(٦) انظر فى الكنانى السيوطى ١/٤٨٤ والضوء اللامع ١/٢٠٥ والشذرات ٧/٣٢١ .

(٧) خلاصة الأثر ٤/٣٥٨ .

بأسماء من كانوا يعتقنون هذا المذهب مثل بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبَشْتكى المتوفى سنة ٨٣١ .

ومعروف أنه حين حكم الفاطميون مصر كانوا يولون على القضاء فقهاء من عقيدتهم ، ومرَّ بنا فى الفصل الأول بيان لمبادئ عقيدتهم الأساسية وإشارة إلى بعض آرائهم الفقهية التى خالفوا فيها الجماعة ، وأول قضاتهم بمصر النعمان[1] بن منصور التميمى الملقب بأبى حنيفة الشيعة ، كان فى أول أمره مالكيا ، ثم تحول إلى مذهب الإمامية الشيعى ، ثم انتقل إلى عقيدة الإسماعيلية فى خدمة المعز لدين الله بإفريقية ، وقدم معه إلى مصر فأسند إليه القضاء ، ولم يلبث أن توفى سنة ٣٦٣ . وله مصنفات فقهية شيعية مختلفة أهمها كتابه « دعائم الإسلام فى الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله » وهو المصدر الأساسى فى الفقه وعلم الكلام عند الشيعة الإسماعيلية . ونشر له المرحوم الدكتور محمد كامل حسين كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة ، وذكر فى مقدمته له كثيرا من الكتب الفقهية الإسماعيلية .

وظل القضاء الفاطمى بعده فى بيته إلى نهاية القرن الرابع الهجرى . وينزل مصر سنة ٤٠٧ كبير دعاة الفاطميين وفقهائهم فى الشرق حميد[2] الدين الكرمانى ولا يلبث أن يتوفى سنة ٤٠٨ ومن أهم مصنفاته كتاب «راحة العقل» الذى حققه ونشره المرحومان : الدكتور محمد مصطفى حلمى والدكتور محمد كامل حسين ، وهو يزخر بمسائل فلسفية وعقيدية متشابكة . وينزل مصر بعده المؤيد[3] فى الدين هبة الله الشيرازى أكبر دعاة الفاطميين وفقهائهم فى القرن الخامس ، وقد ظل بها نحو ٣٠ عاما حتى توفى سنة ٤٧٠ وأهم مصنفاته المجالس المؤيدية ، وهى ثمانمائة مجلس فى العقيدة الفاطمية وتشتمل على كثير من المسائل العقيدية والفقهية ، ونشر الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر فى القاهرة ملخصا لهذه المجالس من صنعة حاتم بن إبراهيم . ونعيد هنا ما قلناه فى الفصل الأول من أن هذه العقيدة وكل ما اتصل بها من فقه وغير فقه ، ظلت غريبة فى مصر ، وظل المصريون مبتعدين عنها حتى انتهت تلك الدولة الشيعية المتطرفة .

---

(١) راجع فى النعمان ابن خلكان ٥ / ٤١٥ ولسان الميزان ٦ / ١٦٧ والشذرات ٣ / ٤٧ ومرآة الجنان ٢ / ٣٧٩ والنجوم الزاهرة ٤ / ١٠٦ ومقدمة كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة وكتاب دعائم الإسلام .

(٢) انظر فى حميد الدين بروكلمان ٣ / ٣٥٥ ومقدمة كتابه راحة العقل .

(٣) راجع فى المؤيد فى الدين السيرة المؤيدية بتحقيق د. محمد كامل حسين وكتابه فى آداب مصر الفاطمية ص ٥٩ ، ١١٦ .

ومرَّ بنا أن الشافعى هو الذى أسس علم أصول الفقه ورفع أركانه وشاد بنيانه ، فكان طبيعيا أن تظل مصر بعده عاكفة على هذا العلم وأن يلقانا كثيرون من فقهاء الشافعية منكبِّين عليه ، وسرى ذلك منهم إلى فقهاء الحنفية ، بل أيضا إلى فقهاء المالكية والحنابلة . ولن نستطيع أن نلم بما كتب فى هذا الميدان لكثرته ، ولذلك سنكتفى بذكر بعض كتبه المهمة ، من ذلك كتاب الإحكام فى أصول الأحكام لسيف[١] الدين الآمدى نزيل مصر سنة ٥٩٢ المتوفى سنة ٦٣١ وهو من أجمع وأروع ما وضع فى هذا العلم . ولابن الحاجب الذى مر ذكره بين النحاة مختصر له شُرح مرارا وتكرارا ، ولشمس[٢] الدين الأصفهانى بعده المتوفى سة ٦٨٨ شرح كبير لكتاب المحصول فى علم الأصول لفخر الدين الرازى . ولبهاء الدين السبكى المذكور فى فقهاء الشافعية كتاب بديع فى الأصول سماه جمع الجوامع .

ولم ينشأ فى مصر مذهب مستقل فى علم الكلام ، فقد كانت تعتمد دائما على ما يأتيها من الخارج ، غير أنه يلاحظ أنه منذ عهد صلاح الدين غلب مذهب الأشعرى الذى يقف بين المعتزلة وأهل السنة . يقول المقريزى فى الحديث عن مذاهب أهل مصر : « وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى .. وشرط ذلك فى أوقافه التى بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعى من القرافة والمدرسة التى عُرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص والمدرسة المعروفة بالقمحية وخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعرى بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضا لإدخال ابن تومرت رأى الأشعرى إليها »[٣] . ولعل أكبر كتاب أشعرى ألف فى مصر كتاب أبكار الأفكار لسيف الدين الآمدى المذكور آنفا وفيه مباحث كبرى عن العلم والنظر وأقسام المعلوم والنبوات والمعاد . ويظل التأليف فى علم الكلام على مذهب الأشعرى ناشطًا حتى نهاية زمن العثمانيين .

---

(١) أنظر فى الآمدى ابن خلكان ٣ / ٢٩٣ والسبكى ٨ / ٣٠٦ والسيوطى ١ / ٥٤١ والعبر ٥ / ١٢٤ والشذرات ٥ / ١٤٤ ولسان الميزان ٣ / ١٣٤ وميزان الاعتدال ٢ / ٢٥٩ والنجوم الزاهرة ٦ / ٢٨٥ .

(٢) راجع فى شمس الدين الأصفهانى السبكى ٨ / ١٠٠ والسيوطى ١ / ٥٤٢ والعبر ٥ / ٣٥٩ والشذرات ٥ / ٤٠٦ وفوات الوفيات ٢ / ٥٢٣ ومرآة الجنان ٤ / ٢٠٨ .

(٣) خطط المقريزى ٣ / ٢٧٩ .

٥

التاريخ

نشطت مصر فى كتابة التاريخ منذ مطالع القرن الثالث للهجرة ، وقد كتبتْ فى جميع ألوانه : فى التاريخ العام أو تاريخ الدول العربية ، وفى التاريخ الخاص تاريخ دولها وحكامها المختلفين ، وفى تاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية ، وتاريخ الرجال وتاريخ العلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء . وبجانب ذلك عُنيت بكتابة السيرة . ولها فى كل ذلك نشاط واسع ، ولعل من الخير أن نتعقبه على مر القرون .

وأول ما يلقانا من ذلك فى القرن الثالث للهجرة ، السيرة النبوية لعبد[١] الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ وقد طبَّقت شهرتها العالم الإسلامى ، ولمصر فضل إهدائها إلى هذا العالم وتداولها فيه إلى اليوم ، وإنها لتعد أوثق مصدر يرجع إليه مؤرخو السيرة المحمدية . ويلقانا بعدها كتاب فتوح مصر والمغرب لعبد[٢] الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ . ويكتب محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ سيرة لعمر بن عبد العزيز ، وهى مطبوعة بالقاهرة .

ويلقانا من المؤرخين المصريين فى القرن الرابع الهجرى مؤرخ قبطى هو سعيد[٣] بن البطريق الذى تقلد منصب بطريرك الإسكندرية سنة ٣٢١ وظل يشغله حتى توفى سنة ٣٢٨ وله تاريخ سماه نظم الجوهر ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه ثلاث مقالات أو ثلاثة أبواب : باب عن النصارى وصومهم وإفطارهم وتاريخهم وأعيادهم ، وباب أو مقالة عن تواريخ الخلفاء والملوك المتقدمين ، ومقالة أو باب عن تاريخ البطاركة وأحوالهم وما جرى فى ولاياتهم . وكتاب سعيد

---

(١) انظر عبد الملك بن هشام فى ابن خلكان ٣ / ١٧٧ وشرح سيرته للسهيلى المسمى الروض الأنف : مقدمته ، وعبر الذهبى ١ / ٣٧٤ والسيوطى ١ / ٥٣١ وإنباه الرواة ٢ / ٢١١ .

(٢) راجع عبد الرحمن فى ابن خلكان ٣ / ٣٥ والسيوطى ١ / ٤٤٦ ، ٥٥٣ والديباج لابن فرحون والميزان للذهبى ٣ / ٨٦ .

(٣) انظر ابن البطريق فى ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة العربية) ٣ / ٧٧ وما بهما من مراجع وقد طبع كتاب ابن البطريق فى أكسفورد ونشره اليسوعيون فى بيروت ونشر ذيله روزن فى لينتجراد فى القرن الماضى .

إشارة قوية إلى تعرب القبط حينئذ واستيعابهم العربية . وذيَّل على هذا الكتاب يحيى بن سعيد الأنطاكي بتكملة أرخ فيها من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٤٢٥ وكان قد نزل أنطاكية سنة ٤٠٣ ووجد بها من الوثائق عن الدولة البيزنطية وبطاركة أنطاكية والقسطنطينية فى تلك الحقبة ما ضمه إلى أخبار بطاركة الإسكندرية وأخبار الدولتين العباسية والفاطمية . وكان يعاصر سعيد بن البطريق أحمد[١] بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب سيرة أحمد بن طولون ، وضمن ابن سعيد فى كتابه المغرب — القسم الخاص بالفسطاط — أكثر هذه السيرة ، وعليه اعتمد البلوى فيما كتبه عن ابن طولون وآله . ولابن الداية أيضا كتاب فى أخبار الأطباء مفقود ، وكتاب فى السياسة نشر فى بيروت ، وسنعرض فى حديثنا عن النثر لكتابه « المكافأة » . وكان يعاصره عبد الرحمن[٢] بن أحمد بن يونس الصدفى المتوفى سنة ٣٤٧ وقد وضع فى التراجم كتابين : كتابا عن علماء مصر وكتابًا عن الغرباء الواردين على مصر ، وهما مفقودان مثل كتاب ثالث له ذكره صاحب كشف الظنون ، وهو فى تاريخ الصعيد . ونلتقى بمحمد[٣] بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ وله كتابان : ولاة مصر أو أمراؤها حتى سنة ٣٣٥ وكذلك قضاتها ، نشرهما جيست ، وهما كتابان نفيسان . ونلتقى فى أوائل زمن الفاطميين بابن[٤] زولاق الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب سيرة محمد بن طغج الإخشيد ، احتفظ بأكثره ابن سعيد فى كتاب المغرب : قسم الفسطاط ، وكانت له أيضا — وفُقدت — سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وتاريخ السنين ، وتكملة لكتاب الولاة وكتاب القضاة للكندى وطبع له كتاب أخبار سيبويه المصرى . ويلقانا بعده الطحان أبو القاسم يحيى[٥] بن على الحضرمى المتوفى سنة ٤١٦ وله ذيل على تاريخ ابن يونس الصدفى ، كما يلقانا الروذبارى أحمد[٦] بن الحسين معاصره وله كتاب فى تاريخ خلفاء مصر حتى زمن الحاكم سماه « بلشكر الأدباء » وينقل ابن سعيد عنه فى قسم القاهرة من كتابه المغرب مرارا ،

---

(١) انظر مصادر ابن الداية فى كتابه المكافأة فى الفصل الخامس من هذا الكتاب .

(٢) راجع ابن يونس فى السيوطى ١ / ٣٥١ ، ٥٥٣ وابن خلكان ٣ / ١٣٧ وفوات الوفيات ١ / ٥٢٦ والشذرات ٢ / ٣٧٥ وعبر الذهبى ٢ / ٢٧٦ .

(٣) انظر فى الكندى السيوطى ١ / ٥٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية . وبروكلمان ٣ / ٨٢ .

(٤) انظر ابن زولاق فى السيوطى ١ / ٥٥٣ وابن خلكان ٢ / ٩١ ولسان الميزان ٢ / ١٩١ .

(٥) انظر الطحان فى ابن خلكان ٣ / ٢٢٣ وانظر بروكلمان ٦ / ٨٤ .

(٦) راجع الروذبارى فى المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٣ .

وعليه اعتمد فيما ذكره من أخبار الحاكم . وكان يعاصره هو والطحان المسبحى[1] الأمير المختارعز الملك محمد بن عبيد الله المتوفى سنة ٤٢٠ ، وقد ترجم له ابن سعيد فى المغرب ترجمة ضافية ذكر فيها مصنفاته الكثيرة . وأهمها تاريخه الكبير عن مصر وولاتها وخلفائها الفاطميين ، سماه «كتاب أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطرائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار وسير من حلَّها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين» وقد نشرت منه هيئة الكتاب قطعة صغيرة تؤرخ سنتى ٤١٤ و٤١٥ للهجرة . وتلقانا سيرتان إيام الفاطميين : سيرة جوذر الصقلى أحد رجال الدولة الفاطمية قبل استيلائها على مصر ، وهى منشورة ، وأهم منها السيرة المؤيدية للمؤيد الشيرازى داعى دعاة الفاطميين المار ذكره ، وفيها يتحدث عن حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ ويذكر بعض رسائله ومناظراته العلمية .

ومن أهم المؤرخين فى زمن الفاطميين على[2] بن منجب الصيرفى المتوفى سنة ٥٥٠ وله كتاب فى وزراء الفاطميين سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ألَّفه للوزير الفاطمى البطائحى . وللرشيد[3] بن الزبير أحمد بن على المتوفى سنة ٥٦٣ كتاب فى شعراء مصر سماه «جِنان الجَنان ورياض الأذهان» ألفه سنة ٥٥٨ وهو أهم كتاب ألف عن الشعر الفاطمى وعليه اعتمد ابن سعيد فى جزأى الفسطاط والقاهرة من مصنفه «المغرب» فى كثير من تراجمه . وبجانب ذلك نجد فى أواخر زمن الفاطميين مصنفات فرعية مثل «الرسالة المصرية» لأمية بن عبد العزيز الأندلسى المعروف باسم أبى الصلت ، وعداده فى الأندلسيين . ومن ذلك مصنَّف للقاضى الجليس فى شعراء طلائع ابن رزيك ، ورسالة لابن جبر يحيى بن حسن ألفها فى مدائح بنى أسامة سنة ٥٢٥ . ونلتقى بالقرطى محمد[4] بن سعد الذى ألف لشاوَر وزير الخليفة العاضد (٥٥٥-٥٦٧هـ) كتابا فى تاريخ مصر ، وتاريخ وفاته غير معروف . وعنه نقل ابن سعيد مقتطفات كثيرة فى قسمى الفسطاط والقاهرة من كتابه المغرب . وكان يعاصره على بن أبى السرور الرَّوْحى وله تحفة الظرفاء فى أخبار الأنبياء والخلفاء إلى الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى المتوفى سنة ٤٢٧ ويُظَنُّ أنه ألفه بالإسكندرية

---

(١) انظر فى المسبحى المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٦٤ وابن خلكان ٤ / ٣٧٧ والسيوطى ١ / ٥٤٤ والوافى للصفدى ٤ / ٧ والعبر ٣ / ١٣٩ والشذرات ٣ / ٢١٥ والنجوم الزاهرة ٤ / ٢٧١ .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن منجب فى ص ٤٠٥ .

(٣) انظر فى الرشيد ابن خلكان ١ / ١٦٠ ومعجم الأدباء ٤ / ٥١ والطالع السعيد ٥٢ والخريدة قسم مصر ١ / ٢٠٠ والشذرات ٤ / ١٩٧- والسيوطى ١ / ٥٤٠ .

(٤) انظر فى القرطى المغرب قسم الفسطاط ص ٢٦٧ .

سنة ٥٦٧ وطُبع فى القاهرة مع تكملة إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وتكملة ثانية إلى المستعصم سنة ٦٤٠ .

وفى أواخر زمن الفاطميين وأوائل عهد الأيوبيين نلتقى بأبى صالح الأرمنى ، وله كتاب عن الكنائس والأديرة بمصر وما يجاورهما من البلاد ابتدأ تأليفه سنة ٥٦٤ نُشر الجزء الأول منه فى أكسفورد سنة ١٨٩٥ . ويلقانا فى زمن الأيوبيين أبو طاهر السِّلَفى المار ذكره وله معجم السفر لشيوخه ومن لقيهم . وتتكاثر هذه المعاجم فيما بعد ، إذْ تكثر ترجمة العلماء لشيوخهم ، مما يُلقى أضواء كثيرة على الحركة الثقافية لعهودهم . وكان يعاصره الشريف النسابة محمد[1] بن أسعد الجَوَّانىّ الحسينى ، المتوفى سنة ٥٨٨ وله كتاب طبقات الطالبيين وتاج الأنساب .

وكتب إبراهيم بن وصيف شاه قبل سنة ٦٠٦ كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية . ولعلى بن ظافر الأزدى المتوفى سنة ٦٢٣ كتاب الدول المنقطعة فى أربعة مجلدات وفيه يذكر تاريخ الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والعباسيين حتى سنة ٦٢٢ . ومرَّ بنا ذكر الحافظ عبد الغنى بين الحنابلة وأن له كتاب الإكمال فى معرفة أسماء الرجال . وأكبر مؤرخ للرجال زمن الأيوبيين القفطى[2] على بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٦ وله كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة وكتاب المحمدين من الشعراء . وهما مطبوعان وله أيضا كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء . اختصره الزوزنى محمد بن على المعاصر له وسمى مختصره « تاريخ الحكماء » طبع فى ليبزج والقاهرة ، وهو مبثوث فى هوامش هذا الجزء .

ونمضى إلى زمن المماليك وفى عهدهم تزدهر كتابة التاريخ العام والخاص وتاريخ التراجم والسير، ويلقانا المكين[3] بن العميد، وهو جرجيس (أوعبدالله) بن أبى اليسيربن أبى المكارم المولود بالقاهرة سنة ٦٠٢ والمتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وله كتاب المجموع المبارك وهو تاريخ عام للعالم فى قسمين : القسم الأول من بداية الخلق إلى الرسول ﷺ والقسم الثانى من الرسول إلى سنة ٦٥٨ وقد نُقل إلى اللاتينية وطبع مع الأصل العربى فى ليدن سنة ١٦٢٥ للميلاد وتُرجم إلى الإنجليزية وطبع فى لندن ثم إلى الفرنسية وطُبع فى باريس . وكان يعاصره ابن ميسر[4] تاج الدين محمد بن على بن يوسف المتوفى سنة ٦٧٧ مصنف تاريخ مصر وهو ذيل أو تكملة لكتاب المسبِّحى

(١) انظر فى الجوانى الخريدة (قسم مصر) ١ / ١١٧ ولسان الميزان ٥ / ٧٤ .

(٢) انظر القفطى فى معجم الأدباء ١٥ / ١٧٥ والطالع السعيد ص ٢٣٧ والشذرات ٥ / ٢٣٧ وفوات الوفيات ٢ / ١٩١ والسيوطى ١ / ٥٥٤ .

(٣) انظر المكين فى بروكلمان ٦ / ١٤٤ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٤) انظر ابن ميسر فى بروكلمان ٦ / ٩٠ .

آنف الذكر . وللشاعر المعروف باسم الجزار المتوفى سنة ٦٧٩ قصيدة تاريخية سماها العقود الدرية فى الأمراء المصرية حتى الملك الظاهر بيبرس احتفظ بها السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة . ولابن[١] الراهب القبطى أبى شكر بطرس المتوفى سنة ٦٨١ كتاب فى التاريخ العام يشتمل على تاريخ ملوك الروم والبطاركة والخلفاء والأمراء إلى سنة ٦٥٧ تُرجم إلى اللاتينية سنة ١٦٥١ وعُنى به اليسوعيون ببيروت ونشروه سنة ١٩٠٣ . وحرى بنا أن نذكر هنا ابن[٢] خلكان أكبر كتاب التراجم وأوثقهم المتوفى سنة ٦٨١ وحقا نشأ بالموصل ، ولكنه أقام فترات طويلة بالقاهرة وفيها بدأ تأليف كتابه النفيس : وفيات الأعيان سنة ٦٥٤ وأتمَّه بها سنة ٦٧٢ . ويلقانا محيى[٣] الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وله سيرة نفيسة فى السلطان قلاوون » باسم : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور قلاوون وهى منشورة ، وله أيضا سيرة فى السلطان الظاهر بيبرس وسيرة ثالثة فى الأشرف خليل بن قلاوون ، وأيضا له خطط القاهرة .

ونلتقى فى القرن الثامن بالدوادار[٤] ركن الدين بيبرس المنصورى المتوفى سنة ٧٢٥ وله زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة ، وهو تاريخ عام للدولة الإسلامية حتى سنة ٧٢٤ مرتب على السنين فى أحد عشر مجلدا . وفى مكتبة جامعة القاهرة مصورات لبعض أجزائه . وكان يعاصره النويرى الذى تحدثنا عنه بين الجغرافيين مشيرين إلى موسوعته الكبرى نهاية الأرب . وبها سيرة نبوية مطولة وتاريخ عام للدولة الإسلامية . وأشرنا هناك أيضا إلى ابن فضل الله العمرى وموسوعته مسالك الأبصار . وبها مجلدات ضخمة لتراجم الأطباء والفقهاء والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب لا فى مصر وحدها بل فى العالم العربى جميعه . ونلتقى بالحافظ ابن[٥] سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ وسيرته النبوية : « عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير » . وبها إضافة مهمة إذ لا تكتفى بما فى كتب السيرة كسيرة ابن هشام . بل تضيف إلى ذلك المراجعة على كتب الحديث مثل صحيح البخارى . ويلقانا الإدفوى[٦] جعفر بن ثعلب المتوفى سنة ٧٤٨ مصنف الطالع

---

(١) انظر ابن الراهب فى بروكلمان ٦ / ١٤٦ .

(٢) انظر مصادر ترجمة ابن خلكان وأخباره فى الجزء الخامس من هذه السلسلة بقسم العراق .

(٣) راجع مصادر ترجمة محيى الدين بن عبد الظاهر فى ص ٤١٥ .

(٤) انظر فى الدوادار الدرر الكامنة ٢ / ٤٣ والشذرات ٦ / ٦٦ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) راجع فى ابن سيد الناس السيوطى ١ / ٣٥٨ ، ٤٢٥ والبدر الطالع ٢ / ٢٤٩ والنجوم ٧ / ٣٥٦ وطبقات القراء ١ / ٣٨٦ والدرر الكامنة ٤ / ٣٣٠ والسبكى ٩ / ٢٦٨ .

(٦) راجع فى الإدفوى السيوطى ١ / ٥٥٦ والشذرات ٦ / ١٥٣ والدرر الكامنة ٢ / ٧٢ والبدر الطالع ١ / ١٨٢

السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد . وكان يعاصره المفضل بن أبى الفضائل القبطى وله ذيل على تاريخ المكين بن العميد باسم « النهج السديد والدر الفريد فيما يعد تاريخ ابن العميد » ويشمل تاريخ سلاطين المماليك من الظاهر بيبرس إلى الناصر بن قلاوون وتاريخ بطاركة الإسكندرية والمسلمين فى اليمن والهند وتاريخ التتار ، نُشر منه القسم الخاص بسلاطين[1] المماليك . ونلتقى بالحافظ مُغْلطاى المار ذكره بين المحدثين ، وله سيرة نبوية باسم « الزهر الباسم فى سيرة أبى القاسم » ومنها مخطوطة فى دار الكتب المصرية .

ويلقانا بهاء الدين السبكى الذى ذكرناه بين فقهاء الشافعية ، وله كتابه النفيس « طبقات الشافعية » . ونراه يصل التاريخ بالمجتمع فى كتابه « معيدالنعم » وهو يلتقى بكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ، والكتابان إنما يعرضان للحياة السياسية والاجتماعية فى المدينة عرضا مثاليا ، والسبكى يتجه فى « معيد النعم » نفس الوجهة فى المجتمع المصرى ، فيصور المثالية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يعمد إلى تصوير الواقع مقابلا بينه وبين المثال ، ولكى يصل إلى ذلك استعرض عناصر المجتمع ، وهى تبلغ عنده مائة واثنى عشر عنصرا : من السلطان ونوابه وموظفى الدولة وقواد الجيش والقائمين على الضرائب والأسواق والقضاة والعلماء والوعاظ والصوفية وخزنة الكتب ومعلمى الكتاتيب والوراقين وأصحاب الصيد والزراعة والصناعة والتجارة وأصحاب الحرف المختلفة ، وحتى البوابين والقائمين على إصطبلات الخيول والشحاذين . كل هؤلاء يستعرض حياتهم بواقعها وما ينبغى أن تكون عليه من صورة مثالية . وبذلك رسم المجتمع المصرى بكل معايبه وما ينبغى أن يكون عليه من هيئة فاضلة .

ويلقانا فى مطالع القرن التاسع ابن[2] الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٨٠٧ وله كتاب « تاريخ الدول والملوك » بلغ فيه نهاية سنة ٨٠٣ وكان فى عشرين مجلدا . وكان يعاصره ابن دقماق[3] صارم الدين إبراهيم بن محمد المذكور بين الجغرافيين والمتوفى سنة ٨٠٩ وله كتاب الانتصار لواسطات عقد الأمصار ، خص كل جزء منه بمدينة ، وقد نشر فولرز منه الجزءين الخاصين بالقاهرة والإسكندرية ، وله كتاب فى تراجم الصوفية ، وله فى تاريخ مصر كتاب نزهة الأنام فى اثنى عشر مجلدا وتاريخ لحكام مصر حتى سنة ٨٠٥ صنفه للسلطان برقوق وله فيه سيرة

---

(١) بروكلمان ٦ / ١٤٦ .

(٢) انظر ابن الفرات فى السيوطى ١ / ٥٥٦ والضوء اللامع ٨ / ٥١ .

(٣) انظر ابن دقماق فى السيوطى ١ / ٥٥٦ والشذرات ٧ / ٨٠ والضوء اللامع ١٤٥/١ .

سماها « عقد الجواهر فى سيرة الملك الظاهر برقوق » وتكثر فى هذا العصر كتابة سير السلاطين . وقد ذكرنا بين الجغرافيين القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ وكتابه صبح الأعشى ، وهو سجل تاريخى حافل بمعلومات نفيسة عن مكاتبات الحكام فى العالم العربى على مر العصور بجانب أنه معلمة جغرافية رائعة . وله مصنفات مختلفة .

ونلتقى بالمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ وقد مر ذكره بين الجغرافيين مع الإشارة إلى كتابه « الخطط » وفيه يتحدث عن البيئة الطبيعية – كما أسلفنا – لمصر ، ويفيض فى الحديث عن القاهرة وآثارها وأحيائها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ومارستاناتها ومصانعها وخزائن كتبها وما كان بها من حركة علمية ، ويتحدث عن الدول التى أظلتها ، وبذلك يلتقى فى الكتاب تاريخ مصر الفكرى بتاريخها السياسى والاجتماعى والروحى والحضارى ، إذ حوَّل المقريزى التاريخ إلى دراسة اجتماعية وعقلية وسياسية مع تصوير عادات السكان وتقاليدهم ومستوى معيشتهم ونزعتهم الصوفية وكل ما اختلف على أهل مصر والقاهرة من صور الحياة . وله سيرة نبوية فى ستة مجلدات باسم « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع » وله اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا فى تاريخ الدولة الفاطمية وهو مطبوع وكتاب المقفى فى تراجم أمراء مصر وأعيانها رتبه على الحروف الأبجدية ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك فى تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ – ٨٤٤ وكتاب درر العصور الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، وكتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب إلى غير ذلك من كتب تاريخية نفيسة . وكان يعاصره ابن حجر[١] الذى مر ذكره بين المحدثين ، وعنى بالتأليف فى التراجم ، وله كتاب الإصابة فى تراجم الصحابة وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر وكتاب تهذيب التهذيب فى اثنى عشر مجلدا وكتاب لسان الميزان وكتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، وكل هذه الكتب مطبوعة . وله أنباء الغمر بأبناء العمر ، وعنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بطبعه .

ويلقانا أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تَغْرى[٢] بَرْدِى المتوفى سنة ٨٧٤ ، وله كتابه النفيس « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » يؤرخ فيه لمصر منذ دخلها عمرو بن العاص وأضاءت فيها

(١) انظر ابن حجر فى السيوطى ١ / ٣٦٣ والشذرات ٧ / ٢٧٠ والضوء اللامع جـ ٢ رقم ١٠٤ والفوائد البهية للكنوى ص ١٠٠ والبدر الطالع ١ / ٨٧ والمؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى لمحمد مصطفى زيادة ص ١٧ .

(٢) انظر ابن تغرى بردى فى الضوء اللامع جـ ١٠ رقم ١٧٨ والشذرات ٧ / ٣١٧ والبدر الطالع ٢ / ٣٥١ ومقدمة كتابه النجوم الزاهرة طبع دار الكتب المصرية ودائرة المعارف الإسلامية فى أبى المحاسن ، وزيادة ص ٢٦ .

أنوار الدين الحنيف حتى سنة ٨٧٢ وهو تاريخ على السنوات . وعادة يقدم لسنوات كل وال أو خليفة أو حاكم أو سلطان بكلمة عامة عن حكمه وما وقع فيه من أحداث مهمة وما يداخل زمنه من بعض الشئون الاجتماعية مع الاهتمام بالنواحى العلمية . وهو فيه لا يؤرخ لمصر وحدها ، بل يذكر مع سنواتها دائما تاريخ الدول العربية ، ومع كل سنة وفيات الأمراء والعلماء والأدباء فى العالم العربى ، وأيضا مع تصوير الحياة العربية فى جميع مناحيها . وكانت له عقلية فذة استطاع بها أن يبرز الأحداث السياسية فى وطنه والأوطان العربية مع سوق كثير من الطرائف الأدبية والاجتماعية . والكتاب مطبوع فى ستة عشر مجلدا . وله مصنفات تاريخية مختلفة بجانبه أهمها كتابه المنهل الصافى وهو معجم نفيس لمشاهير الرجال الذين توفوا من سنة ٦٤٨ حتى أيامه ، ويشمل نحو ثلاثة آلاف ترجمة لمن عاشوا فى مصر والشام فى تلك المدة ومن عاصروهم من أهل العراق والحجاز واليمن والتتار وبلاد المغرب والأندلس من الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء والقواد والعلماء والكتاب والشعراء والمؤرخين والأطباء والمهندسين والتجار وأرباب المهن وغيرهم ، وصنع له مختصرا باسم الدليل الشافى على المنهل الصافى وهو منشور فى مجلدين .

وكان يعاصره ابن قطلوبغا الذى مرّ ذكره بين الأحناف ، وقد أشرنا هناك إلى أن له كتابا فى تراجم الحنفية سماه « تاج التراجم » وهو مبثوث فى هوامش هذا الجزء . ونلتقى بشمس[1] الدين السخاوى محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢ وله كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع وهو معجم بديع لتراجم هذا القرن ، وقد عدنا إليه مرارا فيما أسلفنا من حديث ، وله ذيل على كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقريزى ، وذيل آخر لكتاب أستاذه الثانى ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، وقد خصه بترجمة لحياته .

ويتوج السخاوى هذا النشاط التاريخى العظيم بكتابه : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » وهو محاولة رائعة لوضع علم التاريخ الإسلامى العربى . واسم الكتاب يوحى بأنه دفاع عن التاريخ ، وقد بدأ ببيان معنى كلمة التاريخ لغة واصطلاحا وبيان موضوعه وأنه الزمان والإنسان ، وأخذ يصور فوائده فى التربية الدينية والخلقية والشئون الاقتصادية وأيضا الشئون السياسية بما يدفع إليه الحكام من العدل فى الرعية والقواد من تدبير شئون الجيش ، وبالمثل الشئون الاجتماعية وما يتصل بها من الكمالات والنواقص فى المجتمعات . ويعرض بالتفصيل لما ينبغى أن يتوفر فى

---

(١) أنظر فى السخاوى مقدمة كتابه الضوء اللامع وكذلك جـ٨ رقم ١ والكواكب السائرة للغزى ١ / ٥٣ والشذرات ٨ / ١٥ والبدر الطالع ٢ / ١٨٤ والنور السافر للعيدروسى ص ١٦ والمؤرخون فى مصر لزيادة ص ٣٩ .

المؤرخ من شروط العدالة والتحرى والتدقيق فى الأخبار مما ينبغى معه رفض الإسرائيليات والأساطير . ويطيل فى بيان أنه ينبغى على المؤرخ أن لا يستشعر عداوة من يعاديهم لأسباب عقيدية أو مذهبية أو شخصية ، ويصور الاختلاف العنيف بين المتصوفة وأهل السنة وكذلك بين الشيعة وخصومهم . ويُنْحِى باللائمة على الذهبى فى تراجمه لاستطالته على المتصوفة وكثيرين من أئمة الشافعية والحنفية والأشاعرة لمخالفتهم له فى العقيدة الحنبلية . وينقل عن السبكى أنه ينبغى أن لا يؤخذ بكلامه فى ذم أشعرى والثناء على حنبلى . ويفيض فى بيان التحرى فى الروايات والرواة ويبسط الحديث فى نقد المؤرخين وكتاباتهم التاريخية . والكتاب بالغ الروعة والنفاسة .

وكان يعاصره السيوطى الذى مر ذكره بين اللغويين والنحاة والمحدثين وفقهاء الشافعية ، وله طبقات الحفاظ وهو مختصر من طبقات الحفاظ للذهبى ، وطبقات المفسرين وبغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، وحسن المحاضرة وهو مبثوث فى الهوامش ، وتاريخ الخلفاء والسلاطين من عهد أبى بكر الصديق إلى زمن السلطان قايتباى ، ومسالك الحنفا فى والدى المصطفى ، ولب اللباب هذب فيه اللباب لابن الأثير ويشتمل على نحو تسعة آلاف اسم وكل هذه الكتب منشورة . وله وراءها مصنفات أخرى منها سيرة للإمام مالك وسيرة للنووى . ويُخْتَمُ زمن المماليك بابن إياس محمد بن أحمد الذى عرضنا له بين الجغرافيين ، وله تاريخ مفصل عن مصر سماه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، وهو يتناول فيه باختصار تاريخ مصر ، حتى إذا وصل إلى زمن قايتباى (٨٧٤ – ٩٠٣ هـ) أفاض فى التاريخ إفاضة واسعة ، حتى ليذكر وفيات كل شهر ، ومن أهم ما كتبه وصفه لاحتلال العثمانيين مصر مبينا ما ألحقوه بها من دمار ونهب لكنوزها وصناعاتها وعلمائها وصناعها المهرة ، حتى ليقول إنهم أبطلوا من مصر خمسين صنعة .

وتظل للتاريخ بقية من النشاط فى زمن العثمانيين ، وأول مؤرخ نلتقى به فى عهدهم ابن زنبل الرمال أحمد بن على المتوفى سنة ٩٦٠ وقد مر ذكره بين الجغرافيين وكان موظفا فى ديوان الجيش العثمانى ، وله كتاب فتح مصر أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم . ويصف معاركه مع الجراكسة فى شمالى الشام وفى القاهرة وعودته إلى عاصمته إستانبول . ويلقانا عبد الوهاب الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألممنا به فى حديثنا عن المتصوفة فى الفصل الماضى ، وله طبقاته الكبرى فى تراجم الصوفية على مر السنين حتى زمنه ، وهى مطبوعة مرارا . ويلقانا فى القرن الحادى عشر الهجرى زين الدين بن أبى السرور البكرى محمد الصديقى وابنه شمس الدين محمد ولهما كتب

مختلفة فى العثمانيين ، وأهم منها عبد[١] الرءوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية ، وصنف كتابا فى الأحكام السلطانية وكتابا فى معجم الحديث سماه كنوز الحقائق. وكان يعاصره الإسحاقى محمد بن عبد المعطى المتوفى سنة ١٠٣٢ وله لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » وهو مطبوع . ونلتقى بنور[٢] الدين الحلبى على بن إبراهيم المولود بمصر المتوفى سنة ١٠٤٤ وله السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، وهى مطبوعة مراراً . ويلقانا شهاب[٣] الدين الخفاجى أحمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٦٩ وله ريحانة الألبّا تَرْجَم فيها لشعراء الشام والمغرب والحجاز ومصر أيام العثمانيين وهو مطبوع مرارا . وألفت كتب كثيرة فى السيرة النبوية ، منها سيرة خير البرية للصبان المذكور بين النحاة والمتوفى بأخرة من زمن العثمانيين سنة ١٢٠٦ . وظلت مصر موئلا للعلماء – مؤرخين وغير مؤرخين – فى زمنهم كما كانت فى الأزمنة السابقة . ومن كبار المؤرخين الذين نزلوها حينئذ المقرى المتوفى سنة ١٠٤١ مؤلف كتابى نفح الطيب وأزهار الرياض الموسوعتين الأندلسيتين المشهورتين .

---

(١) راجع المناوى فى خلاصة الأثر ٢ / ٤١٢ والبدر الطالع ١ / ٣٥٧ .

(٢) راجع نور الدين الحلبى فى خلاصة الأثر ٣ / ١٢٢ .

(٣) انظر مصادر ترجمة الخفاجى فى ص ٤٥٩

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب مصر

كان بمصر قبل الفتح العربي الإسلامي لغات وعناصر جنسية مختلفة . فقد كان بها إغريق منذ عهد البطالمة . وكانت اللغة الإغريقية — منذ زمانهم وفى عهد الرومان — اللغة الرسمية للدولة . وكان بها بعض السريان فى الإسكندرية وبعض الأديرة . وكانوا يهتمون بالطب . ونُقل من لغتهم السريانية فيما بعد لعمر بن عبد العزيز كتاب فى الطب لأهرون القس . وكان بها رومان . وكثرتهم كانت من جنود الاحتلال الرومانى . وطبيعى أن يتكلموا لغتهم اللاتينية . وكان بها بعض اليهود وخاصة فى الإسكندرية وكانوا يتكلمون العبرية . وأهم من تلك العناصر جميعا جماهير مصر من القبط . وهم عامة الشعب وسواده . وكانوا يتكلمون القبطية . وكانت لها لهجات تتفاوت بتفاوت الأقاليم والبلدان المصرية البحرية والقبلية .

وبمجرد أن نزل العرب مصر لم يعد للاتينية أى شأن . فقد طُردت بقايا الرومان مع الجيش البيزنطى الذى غادر البلاد مدحورا مهزوما . وانحازت السريانية إلى الأديرة وأخذت فى الزوال . واضمحلت العبرية . أما اللغة الإغريقية فظلت حية فى الدواوين على ألسنة الموظفين بها وفى كتاباتهم حتى سنة ٨٧ للهجرة إذ أمر الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله والى مصر بنقل الدواوين من اليونانية إلى العربية[١] . وسرعان ماهُجرت ونُبذت إلا كلمات قليلة سقطت فى العربية إما من الإغريقية مباشرة وإما منها عن طريق القبطية .

أما اللغة القبطية فظلت بعد اللغة الإغريقية منتشرة على كل لسان فى البلاد . إذ كانت لغة

(١) خطط المقريزى ١ / ١٨١ وفيه أن نقل الدواوين بمصر كان من القبطية إلى العربية وهو خطأ فقد كان من الإغريقية إلى العربية ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التى نشرها جروهمان فى مواضع متفرقة وهى صادرة عن الوالى باللغتين اليونانية والعربية ، وانظر أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة — نشر دار الفكر العربى) للدكتور محمد كامل حسين ص ٣٠ .

التخاطب اليومى ، غير أنها كانت متخلفة ، إذ لم تحتفظ لنفسها بشيء من التراث الأدبى الفرعونى عند أمثال حوتب الكاتب وبِنْتاءور الشاعر ، واستحالت لغة فقيرة مجدبة فى معجمها اللغوى وفى أساليبها البيانية ، وكل ماكانت تحمله حين الفتح كتابات دينية جافة[١] ، ليس فيها شيء من روعة البيان ، كُتبت فى العهد الرومانى أو قبيل الفتح وبعده . وحتى من كان لديه حينئذ ملكة شعرية خصبة من القبط آثر أن ينظم شعره باليونانية محاكيًا لهوميروس أو لغيره من شعراء اليونان[٢] . ومعنى ذلك أنه لم يكن للقبطية تراث أدبى تستطيع أن تثبت به أمام العربية وتراثها الأدبى البديع . فأخذت تكتسحها وتظفر بألسنة القبط عاما بعد عام .

وعاملان قويان أخذا يعملان بسرعة على تعرب مصر . أما أولهما فدخول كثيرين من القبط فى الإسلام لما رأوا من تعاليمه السامية ، ولما استقر فى نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق العربى الفاتح فله ماللمسلمين وعليه ماعليهم . يقول بتلر : «كان فى ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول فى الإسلام لاسيما وقد طحن المقوقس الحاكم الرومانى أو البيزنطى عقيدتهم (الأرثوذكسية) طحنا»[٣] . ومعروف أن الرومان أوقل البيزنطيين ساموا القبط خسفا لايطاق ، وكانوا ينهبون طيبات مصر نهبا . ويعتصرون خيراتها اعتصارا ، فكان الإسلام للقبط ملاذا وملجئا . وعَدُّوا العرب مخلصين لهم من ظلم لايطاق ، وأخذوا يدخلون فى دين الله الحنيف ، ويمضى بتلر قائلا : «وكذلك دخل فى الإسلام كثير من الروم بعضهم من الجنود وبعضهم ممن حَلَّ منهم فى مصر» . وكلما قطعنا شوطا زمنيا بعد الفتح تزايد عدد الداخلين من القبط فى الإسلام ، يدل على ذلك تناقص ضريبة الدفاع المسماة بالجزية التى كانت تؤخذ من القبط ، وكانت لاتؤخذ إلا من القادرين على حمل السلاح ، فلا تؤخذ من شيخ ولاصبى ولاامرأة ولاراهب ، وقلما كانت تزيد على دينار ، وربما أصبحت نصف دينار ، وكان مقدارها زمن عمر بن الخطاب اثنى عشر ألف ألف دينار ، فنقصت فى عهد معاوية إلى خمسة آلاف ألف[٤] ، مما يدل بوضوح على دخول كثيرين من القبط فى الإسلام فى الفترة الأولى من الفتح العربى ، بحيث لو قلنا إنه دخل نحو نصف السكان فى الإسلام لم نكن مغالين . وظل عدد مَنْ

---

(١) انظر فتح العرب لمصر لبتلر ترجمة محمد فريد أبى حديد ص ٨٥ وموجز تاريخ القبط الملحق برسالة مارمينا الرابعة (مراجعة مراد كامل) ص ١٥٥ وأدب مصر الإسلامية ص ٦ .

(٢) راجع أدب مصر الإسلامية ص ٤

(٣) بتلرص ٢٤٣ .

(٤) بتلر ص ٤٠٣ وانظر البلدان لليعقوبى ص ٣٣٩ .

يسلمون فى ازدياد مع السنين حتى إذا ولى حيَّان بن شريح لعمر بن عبد العزيز بعد نحو ثمانين عاما من الفتح رأيناه يكتب إلى عمر : إن الإسلام قد أضرَّ بالجزية ، حتى اضطررت إلى اقتراض عشرين ألف دينار أتممتُ بها عطاء أهل الديوان ، وكأنه كان يريد أن يبقى الجزية على من يسلمون من القبط ، فكتب إليه عمر كتابا شديد اللهجة قائلا : « أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وقد ولَّيتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولى بضربك عشرين سوطا على رأسك . فضع الجزية عمن أسلم قبَّح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا يجمع الأموال[1] » . وكان كل هؤلاء المسلمين من القبط منذ عهد عمر بن الخطاب يُقْبلون على حفظ بعض آيات القرآن الكريم واستظهار بعض الحديث النبوى وتعلم العربية مما عمل بوضوح على تعرب مصر .

وعامل ثان لايقل عن هذا العامل خطرا فى تعريب مصر . هو هجرات القبائل العربية إليها بعد الفتح حين سمعت بخصبها وزروعها وثمارها . وعادة يقف المؤرخون عند هجرات كبيرة لتلك القبائل مثل هجرة القبائل القيسية فى عهد هشام بن عبد الملك ومثل هجرة بنى سليم والقبائل الهلالية فى عهد الدولة الفاطمية . غير أنه كان وراء هذه الهجرات سيل متدفق من هجرة القبائل وعشائرها إلى مصر . وكان كل وال فى العهد الأموى يصحبه كثير من الجند . وكانت مصر قريبة من الجزيرة العربية فنزلها كثيرون من قبائل الشمال وقبائل الجنوب والغرب والشرق . وتُعْنى كتبٌ ببيان هذه القبائل المهاجرة ومنازلها بمصر مثل كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزى . وطبيعى أن تختلط هذه القبائل بسكان مصر لافى مدنهم فحسب . بل أيضا فى ريفهم . فقد سنَّ لهم عمرو بن العاص أو قل سن لجنده أن يرتبعوا أو يقضوا الربيع فى ريف مصر ثم يعودوا إلى الفسطاط . ونشأ عن هذا الاختلاط سريعا ضروب من المصاهرة بين بعض العرب والقبط عقب الفتح إذ يسمى ابن عبد الحكم طائفة من أبناء السلطيسيات القبطيات[2] . من بينهم عون بن خارجة القرشى وعبد الرحمن بن معاوية بن حُدَيج . وخارجة ومعاوية جميعا ممن حضروا الفتح . ولابد أن اتسع ذلك فيما بعد . مع كثرة هجرة العرب . ومع اختلاطهم بالقبط . مما جعلهم يتعلمون لسانهم لكى يحسنوا التفاهم معهم . وكانت حاجتهم من وجهات كثيرة تدعو إلى ذلك . فقد كان منهم من يقوم على جمع خراج الأرض للعرب وجمع الجزية . وكانت

---

(١) خطط المقريزى ١ / ١٤٣ .

(٢) فتوح مصر لابن عبدالحكم (طبعة ماسيه) ص ٧٦ .

تصلهم رسائل من الدواوين ويُضْطرون للرد عليها ، فاضطروا لتعلم العربية ، واضطرهم إلى ذلك أيضا النظام القضائى ، فكان القبطى المدعى فى قضية أو المتهم فى حاجة إلى معرفة شىء من العربية . وكل ذلك عمل على ذبول القبطية ، ولكن غير صحيح أنها أخذت فى الزوال من لسان القبط بعد نحو قرن من الفتح العربى كما زعم رونودوبعض الباحثين فقد ظلت حية ، يدل على ذلك أكبر الدلالة مارواه المؤرخون من أن المأمون حين زار مصر لسنة ٢١٧ بعد الفتح بنحو قرنين كان ينزل فى قرى مصر وضياعها ويستمع إلى القبط وماقد يكون لديهم من شكوى ، والتراجمة بين يديه يترجمون له مايقولونه بالقبطية[١] . ويدور العام ويتولى الخلافة أخوه المعتصم ، فيأمر كَيْدر واليه على مصر أن يقطع عطاء العرب من الديوان[٢] . وكان ذلك بدءًا حقيقيًّا لتعرب مصر ، فإن كل من كان بها من العرب حتى جند الدولة اضطروا إلى أن يزاولوا مع القبط حياتهم ابتغاء الكسب ، فأخذوا يشاركونهم فى الزراعة ، وهى مشاركة أقدم من ذلك منذ هجرة القبائل العربية الكبيرة إلى الحوف الشرقى فى أواخر العصر الأموى ، غير أنهم جميعا الآن لم يعد لهم بُدٌّ من هذه المشاركة لا فى الزراعة وحدها بل أيضا فى التجارة والصناعة . وبذلك أصبح العرب فى مصر جميعا مصريين ، يشاركون القبط فى حياتهم المصرية وألوان الكسب فيها مشاركة تامة ، وكان ذلك إيذانا بأن يتم تعرب مصر نهائيا ، وأن تأخذ القبطية فى الزوال والامّحاء من ألسنة القبط فى الريف والقُرَى وتحل محلها العربية فى جميع الألسنة .

والحق أن موجة التعرب كانت حادة وقوية منذ زمن الفتح بسبب كثرة من اعتنقوا الإسلام من القبط حتى ليقول بتلر : « إن التاريخ لم يذكر فى حوادثه أمر أعجب من أن القبط انقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام ، والقسم الآخر بقى على دينه »[٣] . وهو يريد بامتزاج القسم الأول بالإسلام اعتناقه له ويعجب من ذلك ، ولا عجب ، لأنه يعرف السبب ، كما مرَّ بنا ، وهو سماحة الإسلام والمساواة فى الحقوق بين من يسلم وبين الفاتحين وما يفرضه الدين الحنيف بين الطرفين من أخوة وثيقة . والمهم أن هذه الآلاف ممن أسلموا بل ربما الملايين ، كما يدل على ذلك نقص ضريبة الجزية مما أشرنا إليه ، أقبلوا على تعلم العربية ، حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون تُتَرْجِمُ لهم كتبُ التاريخ فى الفقه والشريعة من مثل

---

(١) خطط المقريزى ١ / ١٤١ . والمقريزى ١ / ١٧٣ .
(٢) الولاة والقضاة الكندى (طبعة جيست) ص ١٩٣ (٣) بتلر ص ٤٢٥ .

يزيد بن أبي حبيب الذى أقامه عمر بن عبد العزيز بأخرة من القرن الأول الهجرى للفُتيا بين الناس . وقد ذكرناه فى الفصل الماضى . كما ذكرنا من كبار القراء بمصر وَرْشا . وهو أيضا من سلالة القبط . وتقرأ البلاد المغربية إلى اليوم بقراءته . ولا نلبث أن نلتقى بعد ورش بذى النون المصرى الإخميمى وله فضل تأسيس التصوف فى العالم الإسلامى . وهذه الأسماء المنحدرة من سلالة من أسلم من القبط إنما هى رموز فقط . ووراءهم من لا يكاد يحصى من أفذاذ العلماء فى كل فن .

وهذه الموجة الحادة من التعرب لم تقف عند من دخلوا فى الإسلام من القبط . فقد أخذت العربية تشيع على ألسنة كثيرين من القبط أنفسهم . ويبدو أن كثيرين من الرهبان عنوا بتعلمها إذ نجد شماسا يسمى بنيامين كان يلزم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان فى أثناء ولاية أبيه على مصر يترجم له فصولا من الإنجيل ويشرحها[1] . وحتى علماء الإسكندرية نراهم يقبلون على تعلم العربية . حتى ليرسل خالد بن يزيد بن معاوية – كما مر بنا فى الفصل الماضى – بطلب جماعة منهم لينقلوا له بعض كتب الكيمياء والطب . وذكرنا هناك أن عمر بن عبد العزيز استقدم من الإسكندرية الطبيب ابن أبجر . وأسلم على يده . وربما ألف أو نقل له بعض رسائل طبية . ومر بنا أيضا أن ألدوميلى ذكر كتابين فى الكيمياء ألفهما عالم مصرى أو علماء لأوائل القرن الثالث الهجرى . وكان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون يتقن العربية . كما تدل على ذلك ترجمته[2] فى طبقات ابن أبى أصيبعة . ونلتقى بعده بسعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية (٣٢١ – ٣٢٨هـ) وقد ذكرنا فى الفصل الماضى له كتابا بالعربية فى تاريخ البطاركة والخلفاء . وذكر له ابن أبى أصيبعة كتابا فى الطب بالعربية . وكل تلك شواهد تؤكد أن مصر بقبطها ورهبانها وبطاركتها تعربت أو كادت فى القرن الثالث الهجرى . يدل على ذلك أننا نجد ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين المتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى يشكو شكوى مرة من ندرة اللسانين القبطى واليونانى فى مصر . وليس معنى ذلك أن القبطية طُردت نهائيا من مصر ومن كنائسها وأنه لم يعد بين القبط ورهبانهم من يعرفها . بل معناه أنها أخذت فى الزوال وحلت محلها فى ألسنة القبط العربية وخاصة فى لغة التخاطب اليومى . أما هى فانحازت إلى الأديرة والصوامع البعيدة فى الصحراء والصعيد . من ذلك ما يذكره المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ للهجرة عن نصارى

---

(١) انظر سير الآباء البطاركة لأسقف الأشمونين ساويرس ابن المقفع (بعض أجزاء منه طبع باريس) ص ٢٤ .

(٢) راجع عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٤١ .

أديرة درنكة[١] بالقرب من أسيوط من أنهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية . وأن لهم معرفة تامة بالرومية يريد اليونانية . على كل حال هذه أسراب قليلة حافظ عليها نصارى بعض الأديرة النائية . أما الكتلة القبطية فإنها تعربت – كما قدمنا – مبكرة منذ القرن الثالث الهجرى .

٢

كثرة الشعراء

كان نشاط الشعر بمصر محدودا زمن الأمويين . وقد يرجع ذلك إلى أن أكثر الفاتحين لمصر كانوا يمنية ، والشعر لا ينشط على ألسنة اليمنيين نشاطه على ألسنة المضريين والقيسيين . على أن القبائل القيسية والمضرية أخذت جموعها تنزل فى مصر طوال الحقب الأموية . ولذلك ربما كان أولى من هذا التعليل لضعف الشعر بمصر حينئذ أن ما نْظم منه لم يسجله الرواة ولا اهتم أصحابه بتسجيله . ولولا ما سجله منه الكندى فى كتاب الولاة والقضاة وابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر والمقريزى فى الخطط لظل مجهولا لنا تماما . على أن ما سجلوه قليل ، وأكثره يتصل ببعض الأحداث التاريخية . وهو شعر فى جملته متوسط ، وربما كان خير شعرائه أيام الأمويين ابن أبى زمزمة . والشعر المنسوب إليه قليل ولا يوضح شخصيته . وحقا نشط الشعر بمصر زمن ولاية عبد العزيز بن مروان عليها (٦٥ – ٨٦ هـ) فقد كان جوادا مُمدَّحا فانتجعه وقدم إليه مدائحه شعراء كثيرون حجازيون ونجديون وعراقيون ، منهم جميل صاحب بثينة وكثيرٌ صاحب عَزَّة وعبد الله بن الحجاج التغلبى وأيمن بن خُرَيم . وممن جذبه جوده ابن قيس الرقيات وله فيه مدائح بديعة[٢] ويصف فى إحدى مدائحه لعبد العزيز رحلة نيلية من الفسطاط إلى حلوان وأهم شاعر حجازى امتدحه ولزمه نُصَيْب وكان مُسْتَرَقًّا لكنانى ، وحين وفد عليه واستمع إلى مديحه أُعجب به إعجابا شديدا . وردَّ إليه حريته مما أثر فى نفسه آثارا عميقة ، وأخذ يوالى نائله الغَمْر عليه . وهو يوالى مديحه مديحا رائعا . وله ترجمة فى كتابنا العصر[٣] الإسلامى . وفى كتاب الأغانى تفاصيل كثيرة بتراجم هؤلاء الشعراء الوافدين على عبد العزيز ، وما أضفى عليهم من النوال وأضفوا عليه من المديح .

---

(١) الخطط ٣ / ٥٦١ .

(٢) انظر ترجمته فى كتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ وكذلك فى كتابنا العصر الإسلامى (الطبعة التاسعة) ص ٢٩٩ .

(٣) العصر الإسلامى ص ٢٢٣ .

ونمضى إلى زمن العباسيين وولاتهم وقضاتهم المتعاقبين على مصر . وتلقانا فى كتاب الولاة والقضاة أشعار كثيرة تتصل بالأحداث أو بهجاء بعض القضاة أو بمدحهم ، ويصور ذلك إسحاق بن معاذ فى مديحه للمفضل بن فضالة الذى ولى قضاء مصر سنة ١٦٨ للهجرة ، وعاد فهجاه[١] . كما يصوره يحيى الخولانى فى هجائه لعبد الرحمن العمرى الذى ولى قضاء مصر فى أيام هرون الرشيد سنة ١٨٥ لكثرة ما اتخذ من الشهود ورضاه بانتساب بعض المصريين من سلالة الأقباط فى العرب ، وهجاه أيضا بشغفه بالغناء وقبوله – فيما زعم – للرشوة[٢] . وفى هذه الأثناء نزل مصر أبو نواس الشاعر البغدادى المعروف قاصدًا الخصيب بن عبد الحميد متولى الخراج[٣] بها حوالى سنة ١٨٠ وأخذ ينثر عليه مدائح رائعة ، ومدحته الرائية له : (أجارة بيتنا أبوك غَيُور) مشهورة . وأهم شعراء مصر حين زارها أبو نواس سعيد بن عُفَير والمعلَّى الطائى ، ولسعيد أشعار فى الولاة والقضاء للكندى تتصل بالأحداث والأشخاص بين سنتى ١٦٨و٢٠٩ . والمعلى الطائى – بدون ريب – أشعر منه ، وأشعاره عند الكندى تتردد بين سنتى ١٩٠ و ٢١٤ وروى له ابن سعيد فى قسم الفسطاط من كتاب المغرب أبياتا فى هجاء القاضى العمرى يصفه فيها بالظلم وأنه يتردد إلى المغنيات لسماع الغناء ، وله مرثية رائعة لجارية له اختطفها منه القدر كانت تسمى « وَصْفًا » وفيها يقول[٤] :

ياموت كيف سلبتنى وَصْفا قدَّمتَها وتركتنى خَلْفا
وأخذت شِقَّ النفس من بدنى فقَبَرْتَهُ وتركت لى النَّصْفا

ونراه يتصل بالولاة ويمدحهم واحدا تلو الآخر ، وممن اتصل بهم ومدحهم عبدُ الله بن طاهر حين ولى مصر سنة ٢١١ وله يقول من مدحة طويلة[٥]

يا أعظم الناس عفوًا عند مقدرةٍ وأظلمَ الناس عند الجود للمالِ
لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهبا لما أشرتَ إلى خَزْنٍ بمثالِ

ونزل مصر أبو تمام فى بواكير حياته ، ويبدو أنه نزلها مرتين : مرة قاصدا عباس بن لهيعة الحضرمى القائم على الشرطة والخراج لواليها المطلب الخزاعى بأخرة من القرن الثانى ، ومرة ثانية

---

(١) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٧٩ ، ٣٨٦ .
(٢) الكندى ص ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ – ٤٠٣ ، ٤١٣ ، ٤١٤ .
(٣) خطط المقريزى ١ / ٣٨٥ وانظر ترجمته فى كتابنا العصر العباسى الأول (الطبعة الثامنة) ص ٢٢٤ ، ٢٢٨
(٤) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٣/٢٧٩ .
(٥) الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢/١٠٢ .

حين وليها عبد الله بن طاهر قاصدًا له بالمدح ، وظل بها حتى سنة ٢١٤ كما تدل على ذلك أشعاره التى أنشدها الكندى فى مديح عبد الله بن طاهر وكذلك أشعاره فى رثاء عمير بن الوليد الوالى بعده . ويبدو أن صداقة انعقدت بينه وبين المعلى الطائى وابنه حِطّان . إذ نجده ينشد فى ديوان الحماسة قطعة بديعة لحِطّان يصور فيها عاطفة الأبوة الرحيمة الشفيقة إزاء البنات والأولاد بمثل قوله [(١)] :

وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشى على الأرْضِ

وهو جانب من التعاطف الحميم فى الأسرة المصرية سنلتقى به مرارا عند الشعراء المصريين . وأهم شاعرين مصريين فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ذو النون المصرى الإخميمى مؤسس التصوف الإسلامى المتوفى سنة ٢٤٥ وهو ينحدر من سلالة مصرية خالصة ، والشاعر الثانى الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام المتوفى سنة ٢٥٨ للهجرة ، وفيه يقول ياقوت : « كان شاعرًا مفلقًا مدح الخلفاء والأمراء » ولحق أحمد بن طولون ولكن القدر لم يمهله .

ومرَّ بنا أن أحمد بن طولون ولى إمارة مصر سنة ٢٥٤ وأسس بها الدولة الطولونية ، وقد أخذ ينهض بعمرانها فأنشأ قصرا ضخما . كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وألحق به ميدانا فسيحا للعب الكرة . وأنشأ خمارويه ابنه بعده بستانا كان من عجائب الدنيا لما فيه من الزهر من كل لون وشكل . ومرَّ بنا حديث مفصل عن كل هذه المنشآت . وعُنى أحمد بن طولون ومثله ابنه خمارويه بالشعر والشعراء فأسْبَغا عليهم العطايا وأسبغ عليهما الشعراء مدائح كثيرة . ولعل ذلك ما جعل كثيرين من الشعراء يندبون دولتهم حين أزالها العباسيون سنة ٢٩٢ للهجرة . ويذكر ابن تغرى بردى منهم إسماعيل بن أبى هاشم وسعيد القاضى الملقب بقاضى البقر ومحمد بن طَشُويْه وأحمد بن إسحق [(٢)] . ويقول المقريزى : رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمنة فهرستًا بأسماء الشعراء الذين بكوا الدولة الطولونية » ويعلق على ذلك بقوله : « فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فكم يكون شعرهم ؟ مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد » [(٣)] . وفى هذا ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء بمصر حينئذ ، ومما يدل على ذلك أيضًا أن نرى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ يؤلف كتابا فى أخبار شعراء مصر [(٤)] . فالشعراء تكاثروا بمصر منذ زمن الدولة الطولونية ، ومنذ

(١) الحماسة لأبى تمام بشرح المرزوقى (طبع لجنة التأليف) ١/٢٨٥ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣/١٤٠ ومابعدها
(٣) الخطط ١/٦١٢
(٤) معجم الأدباء ٢/٤١٥

أخذ تعريب مصر يتكامل كما أسلفنا . ومن أهم شعراء هذه الدولة القاسم بن يحيى المَرْيمى شاعر خمارويه ، وله مدائح فيه وأشعار فى وصف السفن والخيل والصيد . وللبحترى مدائح مختلفة فى خمارويه وأبيه أحمد بن طولون ، ويذكر ابن تغرى بردى أنه زار مصر لمديح خمارويه [١] وأغلب الظن أن مديحه له ولأبيه إنما كان حين لقيهما فى الشام ، فقد كانت تتبعها ، وكانا ينزلان بها كثيرا ، ومر بنا فى الفصل الماضى أن خمارويه قُتل بدمشق على يد غلمانه . ونزل مصر لعهد تلك الدولة الناشئ الأكبر أبو العباس المعروف بابن شرشير المتوفى بها سنة ٢٩٣ وكان من الشعراء المجيدين ، ويقول ابن خلكان إنه يُعَدُّ فى طبقة ابن الرومى والبحترى ونظرائهما [٢] ، وقد ترجمنا له فى كتابنا العصر العباسى الثانى ، وأنشدنا له بعض أشعاره فى جوارح الصيد وآلاته ، وله فيها أشعار بديعة كثيرة ، وأنشدنا أيضًا أشعارًا له رائعة فى الغزل تملأ النفس إعجابا . وكانت له قصيدة من الشعر التعليمى تتناول فنونا من العلم فى نحو أربعة آلاف بيت ، وقصيدة تاريخية فى نسب الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ نحو ألف بيت وكان له كتاب نقدى فى الشعر وفضله . وبدون شك التفَّ حوله كثير من المصريين وأفادوا من شعره وعلمه ونقده بدليل أنه آثر المقام بينهم إلى مماته . ونزل مصر مثله منصور [٣] بن إسماعيل الفقية المشهور بمقطعاته فى الزهد . ويدور بنا الزمن دورة وتُظِلّ مصر الدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ويَظَلُّ الشعر ناشطا فى أيامها ، ويترجم الثعالبى فى كتابه اليتيمة لطائفة كبيرة من شعرائها مثل صالح بن مؤنس ومحمد بن هرون الأكتمى وعبيد الله بن أبى الجوع والحسن بن محمد الشهواجى وصالح بن رشدين وابن أبى العصام وابن طباطبا الحسنى الرَّسِّى [٤] . ونزل مصر فى عهد كافور المتنبى ، كما مرّ بنا فى الفصل الماضى ، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة ، وكان ابن رشدين وابن أبى الجوع من كبار المعجبين به فعُنيا برواية شعره ، وظلا يدرسانه للطلاب بعد مبارحته مصر . وممن نزلها زمن كافور كشاجم شاعر الشام المتوفى سنة ٣٦٠ وله فى أديرتها شعر كثير . ونزلها أيضا فى زمنه الناشئ الأصغر وامتدحه وامتدح وزيره ابن حِنْزابة [٥] .

ويؤسس الفاطميون دولتهم بمصر وتظل نحو قرنين من الزمان ، تتحول فيهما مصر إلى ما يشبه إمبراطورية ضخمة ، إذ يمتد سلطانها من شواطئ إفريقيا الشمالية إلى الفرات شرقا واليمن جنوبا .

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/٩٧

(٢) انظر فيه ابن خلكان ٣/٩١ وراجع ترجمته فى العصر العباسى الثانى (الطبعة الرابعة) ص ٤٩٣

(٣) انظر منصور الفقيه فى المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٦٢

(٤) اليتيمة ١ / ٣٨٧ وما بعدها

(٥) معجم الأدباء ١ / ٣٢٢

وقد جاءها المعز أول خلفائها الفاطميين وبرفقته شاعره المؤمن بعقيدته الإسماعيلية ابن هانئ الأندلسى ، ومعه ابنه تميم الشاعر الشاب الفذ ، وكان المعز نفسه شاعرًا ، روى ابن تغرى بردى بعض شعره[١] ، وكان ابنه العزيز نزار الذى ولى الخلافة الفاطمية بعده أيضًا شاعرًا[٢] وكذلك كان الحاكم[٣] والمستنصر[٤] ، فطبيعى أن يبعثوا نهضة شعرية فى البلاد ، خاصة أنهم كانوا يعنون بالدعاية لعقيدتهم الإسماعيلية ، وقصَدهم الشعراء فأغدقوا عليهم الأموال والعطايا . وكان يصنع صنيعهم وزير المعز والعزيز : يعقوب بن كِلِّس ، وكان يهوديا وأسلم ، ودبَّر دولتهما تدبيرًا جيدًا ومهد لها قواعد الدولة ، وكان الشعراء يترددون عليه ينشدونه المدائح . ولعل مما يدل على كثرتهم حينئذ أننا نجد الذهبى وغيره من المؤرخين يقولون إنه لما توفى سنة ٣٨٠ رثاه مائة شاعر[٥] . ولابد أن من رثوا المعز وابنه العزيز كانوا أيضًا كثيرين ، فضلا عمن كانوا ينثرون عليهما أشعار المديح . غير أنه ينبغى أن نعود فنقيد هذا الكلام بعض التقييد لأن أهل مصر لم يكونوا راضين عن الفاطميين لعقيدتهم الإسماعيلية المفرطة فى التشيع المنحرف ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع . فلا يصح أن نتخذ من مديح الخلفاء الفاطميين مقياسا لمدى نشاط الشعر فى مصر ، فقد كان أوسع من ذلك وأكبر .

وإذا مضينا بعد المستنصر إلى عهد الخليفة الفاطمى الآمر (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) وجدنا خبرا مهما يسوقه المقريزى عنه إذ يذكر أنه بنى ببركة الحبش منظرة بها طاقات صوَّر فيها جميع الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى جانب كل طاقة قطعة قماش كُتب عليها عند رأس كل شاعر قطعة من مدحه ، وبجانب صورة كل شاعر رفّ مذهب . فلما دخل المنظرة وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رفٍّ صُرَّة مختومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صُرَّته بيده[٦] وكان وزيره الأفضل بن بدر الجمالى شاعرًا ، وروى ابن ميسَّر فى أخبار مصر بعض شعره ، وكان يجزل العطاء للشعراء . فمدحه كثيرون منهم . ويعرض أمية بن أبى الصلت فى رسالته المصرية أسماء طائفة من مدَّاحه وبعض مدائحهم ويلم ببعض من هجوه وهجائهم . ويسمى العماد الأصبهانى فى القسم المصرى من كتابه الخريدة أسماء طائفة من شعرائه . وكان الوزير طلائع بن رُزِّيك بأخرة من العصر الفاطمى شاعرًا ، والتف حوله كثير من الشعراء ، وخصَّهم شاعره الجليس بن الحَبَاب بمصنف

---

(١) النجوم الزاهرة ٤ / ٧٩
(٢) النجوم الزاهرة ٤ / ١١٣
(٣) النجوم الزاهرة ٤ / ١٩٦
(٤) المصدر نفسه ٥ / ٨١
(٥) النجوم الزاهرة ٤ / ١٥٨
(٦) الخطط ٢ / ٢٦٨

نقل منه العماد الأصبهانى تراجم طائفة منهم ، ومن أهم شعرائه الرشيد بن الزبير وله كتاب فى شعراء مصر فى العهد الفاطمى سماه « جِنَان الجَنان ورياض الأذهان » وهو مفقود ، غير أن العماد الأصبهانى انتفع بتراجمه ، وبالمثل ابن سعيد فى كتاب المغرب . ووفد على مصر زمان الفاطميين كثيرون من الشعراء النابهين فى البلاد العربية أمثال أبى الرقعمق الأنطاكى وصريع الدلاء البغدادى والتهامى المكى وابن حَيّوس الدمشقى وأمية بن أبى الصلت الأندلسى المار ذكره آنفا .

ويظل نشاط الشعر المصرى فى زمن الأيوبيين بل يزداد نشاطا على نحو ما يصور ذلك كتاب بدائع البدائه لعلى بن ظافر الأزدى ، وهو يسجِّل الأشعار التى كان ينظمها الشعراء فى مجالسهم على البديهة . ونَلْقى هذه المجالس فى كل مكان إذ يجتمع الشعراء ويتخذون موضوعا طريفا لنظم أشعار على البديهة دون بُطْء ودون أناة كأن ينظموا فى بعض الأزهار إذا كان مجلسهم فى حديقة أو ينظموا فى فانوس السحور برمضان إذا كان مجلسهم فى ليلة من لياليه ، ونحس فى هذا الكتاب كأن الشعر كان على لسان . ومن الأدلة على ازدهار الشعر فى أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد العماد فى خريدته يخصُّ مصر بمجلدين ترجم فيهما لمائة وأربعين شاعرًا . وكان القاضى الفاضل فى الدولة الأيوبية مثل طلائع بن رُزِّيك والأفضل بن بدر الجمالى فى الدولة الفاطمية ممدَّحا . والتف حوله عشرات من الشعراء . وكان بدوره شاعرًا كبيرًا . وأطلقت فتوح صلاح الدين وانتصاراته المدوية على الصليبيين ألسنة الشعراء فى مصر وجميع البلدان العربية حتى لم يكد يبقى شاعر نابه إلا قصده مادحا كما يقول ابن خلكان[1] . ونرى فاضل بن راجى الله العطار المصرى يقدم لابنه سلطان مصر بعده العزيز (٥٨٩ — ٥٩٥ هـ) كتابا فى شعراء مصر لزمنه سماه «الشعراء العصرية بالديار المصرية»[2] . ويفد على مصر بأخرة من زمن الأيوبيين على بن سعيد الأندلسى كما يفد عليها ابن العديم علم حلب لزمنه ويصحبه معه إلى بلدته ، وفيها يكتب له بين سنة ٦٤٤ و ٦٤٧ نسخة من كتابه المغرب ، وفيه قسم كبير خاص بمصر وبلدانها فى الوجهين البحرى والقبلى . وقد اشتركتُ فى نشر القسم الخاص منه بالفسطاط وبه طائفة كبيرة من شعرائها ، ونُشر القسم الخاص بالقاهرة وبه أيضا شعراء أيوبيون كثيرون .

وتُعنى كتب التاريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، وفى مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى والوافى بالوفيات للصفدى وكتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر وكتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع

(١) ابن خلكان (نشر دار الثقافة ببيروت) ٧/٢١١ (٢) المغرب : قسم القاهرة (طبع دار الكتب) ص٣٢٤

للسخاوى وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتابى السلوك والخطط للمقريزى وكتاب بدائع الزهور لابن إياس . ولا يكاد يوجد شاعر نابه زمن الأيوبيين والمماليك إلا وله ديوان مطبوع فقد طبعت دواوين القاضى الفاضل وابن سناء الملك وابن النبيه والبهاء زهير وابن مطروح وابن الفارض والبوصيرى والقيراطى وابن نباتة وغيرهم ، بل طبعت دواوين لبعض الشعراء الفاطميين مثل تميم بن المعز وابن وكيع والشريف العقيلى والمؤيد الشيرازى وظافر الحداد وطلائع بن رزيك وابن قلاقس .

ويظل لمصر نشاطها الشعرى زمن العثمانيين . ويؤلف شهاب الدين الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ كتابا فى شعراء زمنه سماه « ريحانة الألبا » ، خص مصر بالقسم الثالث منه ويذيل على الريحانة المحبى المتوفى سنة ١١١١ بكتاب سماه « نفحة الريحانة » جعل لشعراء مصر قسما كبيرًا منه ، وبالمثل يذيل على نفحة الريحانة ابن معصوم المدنى المتوفى سنة ١١١٧ بكتاب سماه « سلافة العصر » ترجم فيه لطائفة من شعراء مصر لزمنه . وتلقانا تراجم مختلفة للشعراء المصريين فى شذرات الذهب للعماد وهو لا يتجاوز بتراجمه القرن العاشر . ونلتقى بطائفة منهم عند المحبى فى كتابه خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وكذلك عند المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ فى كتابه « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » وأهم منه ومن العماد تاريخ الجبرتى . وهو يعنى فى الجزءين الأولين بتراجم شعراء مصر حتى نهاية القرن الثانى عشر أى حتى نهاية أيام العثمانيين .

٣

شعر دورى ورباعيات وموشحات وبديعيات

(١) الشعر الدورى

ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نفذ إليه الشعراء العباسيون من تجديد فى الأوزان ، وأهم من ذلك ما نفذوا إليه من تجديد فى القوافى أتاح لهم أن يستحدثوا اللون الشعرى المعروف باسم المزدوج . وقد خصّوا به منظومات الشعر التعليمى ، وفيه تتحد القافية فى كل شطرين متقابلين وتتغير من بيت إلى بيت ، وكأن الوحدة فيه لم تعد البيت ، وإنما أصبحت الشطر . ويكثر بمصر كما يكثر بغيرها من الأقاليم العربية نظم المزدوجات التعليمية ، وكادوا لا يتركون عِلْمًا دون أن ينظموا فيه الأراجيز المزدوجة ، وأكثروا من ذلك فى النحو واللغة والقراءات ، حتى الطب تلقانا فيه مزدوجات كثيرة . ومن أوائل ما يلقانا بمصر مزدوجة لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣

للهجرة فى وصف فصول السنة ، وأهم من ذلك أن له مزدوجة مربعة بناها من أدوار . كل دور بيتان تتحد شطورهما فى القافية افتتحها بهذا الدور[١] :

رسالةً من كَلِفٍ عميدِ حياتُهُ فى قبضة الصدودِ
بلَّغه الشوقُ مدى المجهودِ ما فوقَ ما يلقاه من مزيدِ

وتلاه بأربعة وأربعين دورًا . وقد كثر هذا النظام الدورى المكون من بيتين بيتين . وشاع خاصه فى العصر الحديث إلى اليوم .

ونظام دورى ثان هو المسمَّطات شاع مبكرًا وعرضنا له فى كتاب العصر العباسى الاول واستشهدنا له بمسَّمطين لأبى نواس ، أحدهما من أربعة شطور والثانى من خمسة . والمسمَّط مشتق من السِّمْط وهو قلادة تلتقى فيها عدة سلوك عند جوهرة كبيرة ، وكل دور فى المسمط كأنه سلك يلتقى مع الأدوار أو الأسلاك الأخرى فى قافية الشطر الأخير من الدور ، وكأنها الجوهرة التى تتجمَّع عندها الأسلاك . وتتحد الشطور السابقة للشطر الأخير فى قافيتها وتتغير من دور إلى دور . وممن كان يشغف من المصريين بصنع المسمطات تميم ابن الخليفة المعز الفاطمى وكان شاعرًا مجيدًا . ومن مسمطاته مخمَّس مدح به أخاه العزيز استهلّه على هذا النمط[٢] :

دَمُ العُشَّاقِ مطلولُ ودَيْنُ الصَّبِّ ممطولُ[٣]
وسَيْفُ اللحظ مسلولُ ومُبْدِى الحبِّ معذولُ
وإن لم يُصْغِ للائمْ

ويتوالى بعد هذا الدور ثلاثون دورًا على هذه الشاكلة . فالشطور الأربعة الأولى تتَّحد قافيتها . وقافية الشطر الخامس دائما ميمية . وهى عمود المسمط وقطبه الذى يدور عليه . وقد تدور المسمطات على شطر رابع أو على شطر سادس أو سابع ، وتسمى مربعات وسداسيات وسباعيات . وأنشد العماد الأصبهانى مسمطا سباعيًا[٤] لشاعر إسكندرى يسمى موسى بن على . وأخذ الشعراء المصريون فى العصور المتأخرة يكثرون من هذه المسمطات وأولعوا بتسميط بعض القصائد المشهورة مثل بردة البوصيرى وهمزيته فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم . ويحصى بروكلمان من تخميسات البردة وتسبيعاتها وتتسيعاتها عشرات أكثرها لمصريين[٥] .

---

(١) اليتيمة ٣٥٦/١

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى (طبع ونشر دار الكتب المصرية) ص ٣٦٨

(٣) مطلول : مهدر ولادية له .

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ١١٣/٢

(٥) بروكلمان (طبع دار المعارف) ٩١/٥

وتظل المسمطات وخاصة المخمسات تلقانا أيام العثمانيين فى كتب التراجم من مثل ريحانة الألبا ونفحة الريحانة وتاريخ الجبرتى . ولأبى السعود الشعرانى المتوفى سنة ١٠٨٨ من مخمَّس نبوى[١] :

يا حادىَ العيس إن حَفَّتْ بك الكُرَبُ الْحَقْ – هُدِيتَ – بركبٍ ساقه الطَّرَبُ
وقُلْ لصبٍّ غدا بالشوق يَنْتَحِبُ لمهبطِ الوَحْىِ حقًّا تَرْحَلُ النُّجُبُ
وعند هذا المرجَّى ينتهى الطلبُ

وتستمر فى المخمس قافية الشطر الخامس فى الشطور الخامسة من الأدوار التالية بائية على نحو ما قدمنا فى قاعدة نظمه .

(ب) الرباعيات

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول كثرة الرباعيات عند أبى نواس وأبى العتاهية . والرباعية أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين . تتحد شطورهما الأولى والثانية والرابعة فى القافية . أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور فى قافيته وقد لا يتحد . ولم يكن شعراء العصرين : العباسى الأول والثانى يقصرون الرباعية على وزن معين . حتى إذا مضينا فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يكثرون من استخدامها مع تسميتها باسم « دوبيت » أى بيتين . ويشركهم شعراء العرب فى ذلك ، واستحدثوا جميعا لها وزنين هما : « فَعْلن فعلن مُسْتَفْعلن مستفعلن » و « فَعْلُن مُتَفاعلن فَعُولُنْ فَعْلُنْ » على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عن الرباعيات فى قسم العراق بالجزء الخامس من هذه السلسلة ، وما نمضى فى زمن الدولة الأيوبية حتى نجد الشعراء يكثرون من الرباعيات ، من مثل قول ابن مَمَّاتى[٢] :

يا غُصْنُ أراك حاملا عود أراكْ حاشاك إلى السِّواك يحتاج سِوَاكْ
قُلْ لى أنهاك عنْ مجيئك نُهاك لو تمَّ وَفاك بُسْتُ خَدَّيك وفاكْ

وممن نظموا فيها ابن النبيه وابن مطروح وابن قَزَل وغيرهم ، ويقول ابن سعيد الأندلسى الذى زار القاهرة بأخرة من تلك الدولة كما مر بنا : « كثير من أهل القاهرة من يقول الدُّوبَيْت »

(١) نفحة الريحانة للمحبى (طبعة الحلبى – تحقيق عبدالفتاح الحلو) ٥٣٨/٤

(٢) معجم الأدباء ١٢٤/٦ والأراك شجر يتخذ منه السواك ، وفاك أى فمك ، وسمى صاحبته غصنا لاستواء قامتها . والنهى : العقل .

أو الرباعيات . . ولم أسمع بها من شعرائها أحسن مما أنشدنيه لنفسه ابن أبي الإصبع :

قبَّلت ثنايا كُجمان العقْدِ منهُ وعدلتُ عن نُضار الخدّ
نادى ماذا ؟ فقلتُ : طَبعٌ عربى يشتاق أقاحَ الروض دون الورْدِ »(١)

ويُسْهم فى نظم الرباعيات أصحاب الشعر الصوفى وفى مقدمتهم ابن الفارض ، وله رباعيات تفوح بوجد مبرِّح من مثل قوله :

روحى لك يازائرُ فى الليل فِدَا يامُؤْنسَ وَحْشَتى إذا الليل هَدَا
إن كان فراقُنا معَ الصبح بَدَا لا أسْفَرَ بعد ذاك صُبْحٌ أبدا

فهو يبذل روحه لمحبوبه الربَّانى مخلصًا صادقًا ، ويتمنى أن يظل نوره يضىء دُجاه وأن لا يسفر عليه صباح ولا تتفلت أضواؤه من الأفق إن كانت لحظات التجلى تنقطع مع النهار وأنواره .

وتظل الرُّباعيات حية فى أيام العثمانيين ، وكانت تستخدم أحيانا فى المديح النبوى كقول الشهاب الخفاجى صاحب ريحانة الألبَّا(٢) :

ما جرَّ لظلٍّ أحمدٍ أذيالُ فى الأرض كرامةً كما قد قالوا
هذا عجبٌ ويا لَهُ من عجبٍ والناس بظلِّه جميعا قالوا

وهو يشير فى الرباعية إلى ما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يقع ظله على الأرض لأنه نور روحانى ، والنور لا ظل له . وفى البيتين تورية واضحة فى كلمة قالوا ، فالأولى فى البيتين من القول والثانية من القيلولة بمعنى استظلوا ونعموا .

(جـ) الموشحات

فى أثناء ظهور الرباعيات والمسمطات أخذ يظهر شكل جديد من أشكال المنظومات الشعرية الدورية هو الموشحات ، ويذهب بعض الباحثين وخاصة من المستشرقين الإسبان إلى أنها فن أندلسى خالص نشأ من أغان إسبانية أعجمية . ويذهب باحثون آخرون من المستشرقين غير

---

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٧١ وفيه : نادانى .

(٢) ريحانة الألبا (نشر مكتبة الحلبى – تحقيق عبد الفتاح الحلو) ١/٥١

الإسبان إلى أنها فن تطور عن الشعر العربى المشرق[1] وفى رأيى أنها فعلا تطورت عن شعرنا المشرقى وبالذات عن المسمطات والمخمسات ، أليست تتكون من أدوار مثلها وغاية ما فى الأمر أن الشطرالأخير فى دور المسمط يتعدد مع اتحاده فى جميع الأدوار ، فقد يصبح شطرين متقابلين أو عدة شطور ، ويسمى قفلا . ويشهد لذلك نفوذ ديك الجن المتوفى سنة ٢٣٥ إلى صنع منظومة موشحة[2] ، وكأنما اطلع عليها بعده بعض شعراء الأندلس ، وأخذوا فى محاكاتها واتسعوا فى هذه المحاكاة ، بحيث أخذت الموشحة عندهم صورًا كثيرة ، حتى لقد ينظمونها من أوزان مهملة ، بل حتى أصبحت كأنها محتكرة لهم ، وكأنهم هم الذين صاغوها وأهدوها إلى الشعر العربى وشعرائه فى أقاليمه المختلفة . ومعروف أن الموشحة تتكون من أدوار أو أغصان كما أشرنا إلى ذلك . ومن شطور تسمى قُفْلاً ، ومن خَرْجة وتطلق على القفل الأخير . وتتحد شطور الأقفال دائما فى قوافيها المتقابلة فى الموشح كله ، بينما تختلف قوافى الشطور فى الأغصان من غصن إلى غصن مثلها فى ذلك مثل أدوار المسمطات .

وقد أخذ شعراء المشرق العربى فى محاكاة نماذجها الأندلسية منذ القرن السادس الهجرى على الأقل ، ومن أقدم صور هذه المحاكاة بمصر موشحة تقف بين النمط الأندلسى وبين المسمط المشرقى ، وهى لعلى بن عيَّاد الإسكندرى المتوفى سنة ٥٢٦ ، فقد روى له العماد موشحة على هذا النمط[3] :

يا مَنْ ألوذ بظِلِّهِ فى كل خَطْبٍ معضلِ
لازلتُ من أصحابِهِ متمسِّكا بيد السلامه
آمنا من كل باسٍ فى الحوادث والصّروفِ

وتتردد قافية الشطرين الأخيرين مع كل شطرين يعقبان الأدوار التالية ، وبذلك اتخذ منهما ابن عياد قفلا لموشحة على شاكلة الأندلسيين إذ يوحِّدون قوافى الشطور فى الأقفال ، بينما ينوعون فى قوافى الأدوار كما ينوع أصحاب المسمَّطات . وعادة يبتدئ الوشَّاح الأندلسى بالقفل ويتلوه بالدور ، وقد يبتدئ بالدور ويتلوه بالقفل كما فى هذه الموشحة . ولظافر الحداد مواطن ابن عياد

---

(١) فن التوشيح للدكتور مصطفى عوض الكريم (طبع ونشر دار الثقافة – بيروت) ص ١٠٨ ومابعدها .

(٢) انظر فى هذه الموشحة المبكرة كتابنا العصر العباسى الأول ص ١٩٩ وقسم الشام من هذا الكتاب ص ٦١٤ .

(٣) الخريدة للعماد (قسم شعراء مصر– طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/٤٤

المتوفى سنة ٥٢٩ موشحة طريفة يحتفظ بها ديوانه[١] .

وكان طبيعيًّا أن يتعرف المشارقة على الموشحات الأندلسية لكثرة الوافدين عليهم فى الإسكندرية والقاهرة من الأندلس ، إما للحج وإما لطلب العلم فكانوا ينشدونهم موشحات مختلفة ، وممن لا نشك فى أنه كان يكثر من إنشادها للمصريين : إسكندريين وقاهريين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ، وفيه يقول ابن سعيد : «كان منشئا للمنثور والمنظوم» وأقام بمصر عشرين سنة ، وصنّف فى الألحان وعنه أخذها أهل إفريقية[٢] ، ولابد أنها كانت مصحوبة بموشحات أنشدها لهم ، وقد توفى سنة ٥٢٩ . ونزل مصر اليسع بن عيسى بن اليسع بعده فى عهد صلاح الدين وألف باسمه كتابه المغرب فى أخبار محاسن المغرب[٣] ، ولابد أن يكون قد ضمنه بعض الموشحات . ونزلها أيضا حكيم الزمان عبد المنعم الجليانى الأندلسى[٤] ، ومدح صلاح الدين الأيوبى مدائح كثيرة ، وكان له عشرة دواوين ثامنها يشتمل على موشحاته . ومرَّ بنا ذكر معجم السلفى محدث الإسكندرية وقد سجَّل فيه لبعض من تتلمذوا عليه من الأندلسيين بعض ما أنشدوه من الموشحات الأندلسية .

وهذه كلها إنما هى إشارات قاصرة إلى ما حدث فى القرن السادس الهجرى بمصر من انتشار الموشحات بها انتشارا هيأ لظهور وشاح كبير فيها هو ابن سناء الملك المولود سنة ٥٥٠ ويحدثنا العماد الأصبهانى عن لقائه به سنة ٥٧١ ويشيد بشاعريته وينشد موشحة مبكرة له[٥] . وكأنما اختارت المقادير ابن سناء الملك لا ليكون وشاحا مصريا ممتازا ، بل لما هو أبعد من ذلك : ليضع عروض الموشحات ونظامها كما وضع الخليل بن أحمد عروض الشعر العربى ونظامه ، على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس : «دار الطراز» وقد استهله بمبحث واسع فى الموشحات وأقفالها وعدد شطورها وأنها قلما تجاوزت خمسة[٦] وعدد أدوارها أو غصونها أو سموطها وأنها قد تصل إلى أحد عشر غصنا[٧] .

ويقول عن الخرجة ، وهى القفل الأخير فى الموشحة ، هى «أبزار الموشح وملحه وسكّره

---

(١) ديوان ظافر الحداد ابن الإسكندرية (طبع مكتبة مصر) ص ٣٣٧

(٢) المغرب (القسم الأندلسى — طبع دار المعارف) ٢٦١/١ ومابعدها .

(٣) نفس المصدر ٨٨/٢

(٤) فوات الوفيات ٣٥/٢ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٦٣٠

(٥) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٧/١ وما بعدها

(٦) دار الطراز فى عمل الموشحات لابن سناء الملك تحقيق الدكتور جودة الركابى (طبع دمشق) ص ٢٦

(٧) انظر دار الطراز ص ٩٧

ومسكه وعنبره » ويقول إنه ينبغى أن يسبق إليها خاطر الوشاح قبل أن يتقيد بوزن وقافية معينة[١] ،ويقول أيضا إن اللحن يستحسن فيها كما يستحسن أن تكون ماجنة . ويلاحظ أن الموشحات من حيث الوزن قسمان : قسم يجرى على أوزان العرب وأشعارهم ، وقسم لا وزن له [٢] ، إنما يزنه الإيقاع . والقسم الأول هو الأكثر وهو الذى دار على ألسنة العلماء والشعراء واختار ابن سناء الملك فى كتابه للأندلسيين أربعة وثلاثين موشحا ، واختار لنفسه خمسةوثلاثين ، وقد استظهرنا فى مقال[٣] لنا عن الكتاب حين صدوره أن ابن سناء الملك ألفه فى عهد السلطان الأفضل بن صلاح الدين (٥٩٥ – ٥٩٦ هـ) .

ومعروف مدى ما وفره الوشاحون الأندلسيون لموشحاتهم من جمال الجرس والإيقاع متخذين لذلك وسيلتين مهمتين هما صفاء الألفاظ وعذوبتها ورشاقتها ، وقصر الشطور ، حتى تصبح نغما خالصا يلذّ الأسماع والقلوب ، وعرف ابن سناء الملك كيف يمتلك هاتين الوسيلتين ، فإذا موشحاته لا تقل روعة موسيقية عن موشحات الأندلسيين من مثل قوله فى مطلع موشحة رواها ابن سعيد[٤]

البَدْرُ يَحْكِيكْ لولا تَثَنِّيكْ
وأنت جُنَّة[٥] الصديقْ لولا تَجنِّيك

لم يلق نُعْمَى ونعيمْ مَنْ لَم يلاقِكْ
حمَّلتنى كلَّ عظيمْ يوم فراقِكَ
وإن لى ذنبا قديمْ على عِناقكْ

بالضَّمِّ أجنيكْ للصَّدْر أدْنيكْ
لأن لى قلبًا رقيقْ[٦] عساه يُعْديك

والكلمات تطير بخفة عن الفم لحلاوة جرسها وعذوبتها فى النطق والسمع وجمال وقعها فى النفوس والأفئدة ، وموشحاته فى دار الطراز أنغام حلوة وصور بديعة ، على نمط هذا الدور أو الغصن فى إحدى موشحاته :

وجهك يا أحسن البَرِيَّه قد جمع المِلْحَ والملاحَهْ

---

(١) دار الطراز ص ٣٢

(٢) دار الطراز ص ٣٣

(٣) راجع مجلة الثقافة ، العدد ٦٢٨ سنة ١٩٥١

(٤) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٩

(٥) جُنَّة : وقاية .

(٦) فى الأصل رقيقا .

نرجسةٌ فيه مستحيَّه ووردةٌ تحتها أقاحَهْ
والخالُ فى الوَجْنَةِ المُضِيَّه فى الماء لا يُحْسن السِّباحه

وقد جمع فى الدور أروع صورة للملاحة ، فالعين ملأى بالخفر والحياء ، والوجنة ورد ناضر ، تحتها أقحوان الثغر المتلألئ والخال فى الوجنة غارق فى ماء النضارة والحسن لا يريم . وبذلك أعدَّ ابن سناء الملك المصريين بعده لكى يبرعوا براعة فائقة فى نظم الموشحات ، ويتوفى سنة ٦٠٨ وكان يعاصره مظفر [١] الأعمى العَيْلانى المتوفى سنة ٦٢٣ صاحب الموشحة المشهورة :

كَلِّلى ياسُحْبُ تيجان الرُّبَى بالحُلِى
واجْعَلِى سِوَارَها مُنْعَطَفَ الجَدْوَلِ

والموشحة تفيض بكئوس الفرحة بالخمر والحديث عن ليلة الوصل والبهجة بالمحبوب ، بهجة ما بعدها بهجة . وكان يعاصره ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ وفى ديوانه موشحة بديعة يقول فيها [٢] :

قل لمن يلومُ فى مُهَفْهَفٍ أَسْمَرْ
ثغره النَّظِيمُ مُسْكِرٌ وسُكَّرْ

آهِ لو سقانى اطفأتْ نيرانى ذُرَّةٌ ثمينَهْ فى الياقوت مكنونة

وواضح تعبيره عن رضاب الثغر بأنه يطفئ نيران قلبه وأن ياقوت الشفتين يحمل درة بل دررًا ثمينة وهى كناية بديعة . ونمضى إلى زمن المماليك فنلتقى بكثير من الوشاحين ، وفى مقدمتهم العزازى وابن الوكيل وظلت الموشحات مزدهرة فى أيام المماليك على لسان ابن نباتة وغيره [٣] ونخص كلاًّ من العزازى وابن الوكيل بكلمة .

العَزازِىّ [٤]

هو شهاب الدين العَزازى أحمد بن عبد الملك وكان تاجرا بقيسارية جهاركس فى القاهرة

---

(١) انظر فى مظفر وموشحه المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٤٨ ، ٣٧٠ وراجع فيه معجم الادباء١٤٨/١٩ وفوات الوفيات ١١١/٢ ونكت الهميان ٢٩٠ والشذرات ١١٠/٥

(٢) ديوان ابن النبيه (طبعة عبدالله فكرى) ص ٥٤ .

(٣) انظر فهرس كتاب عقود اللآل فى الموشحات والأزجال للنواجى بتحقيق عبد اللطيف الشهابى ولابن نباتة فيه تسع موشحات .

(٤) انظر فى العزازى المنهل الصافى ٣٤٠/١ وما بعدها والنجوم الزاهرة ٢١٤/٩ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٨٨/١ والوافى ١٥٢/٧ والدرر لابن حجر ٢٠٥/١ .

قرب حى الغوريَّة الحالى ويقول ابن تغرى بردى : كان أديبًا مطبوعًا ظريفًا له النظم الرائق الفائق ولا سيما نظمه للموشحات فإنه غاية فى ذلك . ويقول ابن حجر : له فى الموشحات يد طولى توفى سنة ٧١٠ وله ثلاث وثمانون سنة . وفى دار الكتب المصرية نسختان من ديوانه غير تامتين ، والديوان فى خمسة أقسام : فى مدائح الرسول وأهل بيته وفى مدائح الأمراء والوزراء والكتاب والقضاة ، وفى النكت والملح والألغاز والأحاجى ، وفى الغزل والتهانى والتعازى ، وفيما وقع بين أدباء عصره وشعراء زمانه ، وفى غرائب الأوزان من المخمسات والموشحات . وفى مكتبة جامعة القاهرة مصوَّرة منتخبة من ديوانه بخط الصفدى . ويذكر ابن تغرى بردى بعض موشحاته ، وبالمثل يذكر طائفة منها ابن شاكر فى فوات الوفيات والنواجى فى عقود اللآل فى الموشحات والأزجال ، ومن أطرفها موشحة موزعة بين النشوة بالخمر وبالحب وبجمال الطبيعة استهلَّها بقوله :

يالَيلةَ الوصلِ وكأسَ العُقارْ دون استتارْ علَّمتانى كيف خَلْعُ العِذارْ[1]

اغْتنم اللذاتِ قبلَ الذهابْ
وجُرَّ أَذْيالَ الصِّبا والشبابْ
واشربْ فقد طابت كئوسُ الشَّرابْ

واختتمها بقوله :

ياليلة أنعمَ فيها وزارْ شمسُ النَّهارْ حُيِّيتِ من بين الليالى القِصارْ

وله فى مطلع موشحة بديعة :

ما سلَّتِ الأعينُ الفواترْ من غِمْد أجْفانها الصِّفاحْ[2]
إلا أسالتْ دِما المحاجرْ من غير حربٍ ولا كِفاحْ[3]

ومن طريف موشحاته موشحة بناها من رباعيات ، كما يقول ابن شاكر ، وهى فى الحقيقة مخمس رباعى . وهو يدل كما تدل موشحاته على غزارة ينبوع الشعر عنده ، وأنه كان يتدفق على لسانه تدفقًا ، مع الحلاوة وحسن الألفاظ وجمال النغم والإيقاع .

---

(١) خلع العذار : كناية عن الانهماك فى المجون
(٢) الصفاح : السيوف
(٣) المحاجر : ما استدار حول العيون وأراد بها العيون نفسها .

ابن الوكيل[1]

هو محمد بن عمر بن المرحل المعروف بابن الوكيل الدمياطى ، ولد بدمياط سنة ٦٦٥ وانتقل مع أبيه إلى دمشق ، ونشأ بها ، وتولى التدريس فى غير مدرسة هناك ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وأسند إليه التدريس بها فى زاوية الشافعى والمشهد الحسينى والمدرسة الناصرية إلى أن توفى سنة ٧١٦ . ويقول السبكى : كان إماما كبيرا بارعا فى مشهد الشافعى يضرب به المثل فى البحث نظارًا مفرط الذكاء عجيب الحافظة . وبجانب ماكان يحفظ من كتب الفقه والحديث النبوى كان يحفظ مقامات الحريرى وديوان المتنبى ، ويشيد مترجموه بما كان له من شعر ورباعيات وموشحات . وكانت له مشاركة فى الشعر الشعبى : الزجل والبلاليق التى تدور فى الهزل . ومن قوله فى إحدى موشحاته :

ما أخجلَ قَدُّه غصونَ البانِ   بين الورقِ
إلا وسَبَا المهَا مع الغِزْلانِ   حُسْنُ الحَدقِ
الصحة والسقام فى مقلتِهِ
والجنَّة والجحيمُ فى وَجْنتِه
ما أبدع معنىً لاحَ فى صورتِه
كالورد حواه ناعم الرَّيْحانِ   بالطَّلِّ سُقِى
والقدُّ يميل مِيلةَ الأغصانِ   لـلـمعتـنقِ
أحيا وأموت فى هواه كمدَا
من مات جَوًى فى حبِّه قد سَعِدا
ياعاذلُ لا أترك وَجْدى أبدا

وقد استخدم ابن الوكيل فى هذه الموشحة وزن الرباعيات ، ليدل على قدرته فى ضبط النغم واللحن ، وأنه لا يقل عن المحّار الحلبى معاصره الذى حاكاه فيها وفى وزنها إبداعًا وافتنانًا .

---

(١) راجع ترجمة ابن الوكيل فى الفوات ٢/٥٠٠ والوافى بالوفيات ٤/٢٦٤ والنجوم الزاهرة ٩/٢٣٣ وشذرات الذهب ٦/٤٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٤/٢٣٤ وحسن المحاضرة ١/٤١٩ والبداية والنهاية ١٤/٨٠ وطبقات الشافعية للسبكى ٩/٢٥٣ والبدر الطالع ٢/٢٣٣ وعقود اللآل فى الموشحات والأزجال للنواجى (انظر الفهرس) .

وله موشحة جعل الشطور الثانية من نونية ابن زيدون المشهورة مضمنة فى مطلعها وأقفالها كقوله فى المطلع :

غدا مُنَادينا محكَّما فينا يَقْضى علينا الأسى لولا تأسِّينا

ويسرى التكلف إلى الموشحات بعد ابن الوكيل والعزازى ، غير أنها تظل حية وناشطة حتى أيام العثمانيين على نحو ما يلاحظ فى كتب التراجم عند الشهاب الخفاجى وغيره ، وتلقانا عند المحبى موشحة بديعة لزين العابدين البكرى المتوفى سنة ١١٠٧ للهجرة عارض بها موشحة لابن سناء الملك ، ومن قوله فيها[١] :

اعجبوا من حُسْن تلوين العيونِ تلكمُ حانَهْ وهاتيكم كِنانه
بأبى مُرُّ الجفَا بالدَّرِّ حالى
قَدُّهُ قد حطَّ من قدرِ العَوالى
مطلبى من ثَغْره كنزُ اللآلى

والموشح يسيل عذوبة ، وأنشد الجبرتى لقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ موشحًا[٢] عارض به موشحًا مشهورًا للسان الدين بن الخطيب .

البديعيات

إذا تركنا الموشحات إلى البديعيات وجدناها قديمة فى الشعر المصرى ، على الأقل منذ زار مصر أبو نواس وأبو تمام ، واستمع شعراؤها إلى ما فى أشعارهما من طرائف البديع ومحسناته ، ولم يكن الشعراء المصريون يكثرون من استخدام تلك المحسنات والطرائف ، إذ كانوا يستخدمونها من حين إلى حين دون إفراط ، وظل ذلك دأبهم فى الحقب الأولى من زمن الدولة الفاطمية على نحو ما يلاحظ فى شعر ابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٢ . وإذا مضينا إلى القرن الخامس لقينا أهم شعرائه الشريف العَقيلى شاعر الخمر والطبيعة ، وشعره زاخر بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق والمشاكلة ، ويتصنع فى قلة لاستظهار بعض المصطلحات العلمية ، ولكن

---

(١) نفحة الريحانة ٥١٩/٤ والكنانة : جعبة السهام أشار بها إلى سهام العيون . والعوالى : الرماح وتشبه بها قدود النساء فى الاستواء والاعتدال .

(٢) تاريخ الجبرتى ١٩٨/١

ذلك كله لا يثقل عنده ولا نحس فيه بتكلف ، ونجد عنده التورية التى اشتهر بها المصريون فى مثل قوله[١] :

وشاعرٍ شعره فنونُ لكل بيتٍ له طَنينُ
تُسْخِن عينَ العدوِّ منه قصائدٌ كلُّها عيونُ

فقد ورَّى فى كلمة عيون المقابلة لعين العدو وهو إنما يقصد بها أبيات الشاعر النفيسة .

وللتورية أمثلة أخرى فى شعره ذكرناها فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ، ونجدها كثيرة عند الشعراء بعده ، مما يدل على أن ظهورها بمصر لم يتأخر حتى زمن القاضى الفاضل وأيام الدولة الأيوبية كما ظن ذلك صاحب الخزانة[٢] . ومَنْ يرجع إلى القسم المصرى من كتاب الخريدة للعماد الأصبهانى وما ترجم فيه من شعراء مصر فى القرن السادس الهجرى يلاحظ شيوع محسنات البديع على ألسنة شعراء القاهرة والإسكندرية ، كقول ابن قلاقس فى وصف مغن[٣] :

لا أشربُ الرَّاحَ إلا ما بين شادٍ وشادنْ
قُمْ يانديمى فأنصتْ والليلَ داجٍ لداجِنْ
طاوعْ على القصْفِ والعَزْ فِ كلَّ حاسٍ مُحَاسِنْ

والقطعة جميعها على هذا النمط من الجناس بين القافية والكلمة السابقة لها ، فشادٍ أى مغن تسبق كلمة شادن أى غزال ، وكلمة داج أى مظلم تسبق كلمة داجن أى مغن ، وكلمة حاسٍ أى للشراب تسبق كلمة محاسن . وهو بذلك يصعب المرور إلى جناسه . وكانوا يكثرون فى أشعارهم من الطباق ولهم فيه صور كثيرة طريفة كقول ابن هانئ الصغير فى وصف سيف[٤] :

ومهنَّدٍ سَبَح الفرِنْدُ بِصَفْحِه وطَفا فيُحْسَبُ مُغْمَدًا مَسْلولا

والفرند ما يرى فى صفحة السيف مما يشبه دبيب النمل أو الغبار . ومن حين إلى حين نرى عندهم الاقتباس من الذكر الحكيم وتضمين بعض الشطور للجاهليين والإسلاميين والعباسيين كما

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٤٤ ١٦١/١
(٢) الخزانة للحموى (طبعة بولاق) ص ٢٣٧ ومابعدها
(٣) الخريدة للعماد الأصبهانى (قسم شعراء مصر)
(٤) الخريدة ٢٧٨/١

نرى التورية معانقة لجناس تام فى قول ابن قادوس[١] :

لامَ العواذلُ مغرمًا فى حبِّ مُلْهِيَةٍ وقَيْنَهْ
ولو أنهنَّ رأينَ تــأ ثيرَ الغرام به وَقَيْنَهْ

والتورية والجناس واضحان فى كلمة « وقينه » المكررة فى نهاية البيتين ، والواو فى الأولى عاطفة وفى الثانية من أصل الفعل : « وقى » وهى موضع التورية . وبجانب ذلك نجد عند الشعراء لعهد الفاطميين عناية بمراعاة النظير فى الصور والكلمات . واستخدموا فى قلة شديدة مصطلحات العلوم وتسمَّى باسم التوجيه . وحتى الألغاز نجدها مبثوثة فى أشعارهم . ويذكر العماد شاعرا من بينهم تسمى ابن مجبر كان يعنى بصنع الألغاز فيما يبدو عناية شديدة[٢] .

ويحمل لواء هذه البديعيات فى زمن الدولة الأيوبية القاضى الفاضل وزير صلاح الدين الذى نشأ وتربَّى فى الدواوين الفاطمية على أمثال ابن قادوس وغيره من الشعراء والكتاب الفاطميين . ويجعله ابن حِجَّة الحموى والصفدى إمام الشعراء فى زمنه وبعد زمنه[٣] فى استخدام المحسنات البديعية من تورية وغير تورية . ويقولان إنه سار فى دربه على منواله ونهجه ابن سناء الملك ومن خلفوه من شعراء الدولتين الايوبية والمملوكية أمثال الجزار المتوفى سنة ٦٧٢ وناصر الدين ابن النقيب المتوفى سنة ٦٨٧ ومحيى الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ والوراق المتوفى سنة ٦٩٥ وابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ ونصير الدين الحمامى المتوفى سنة ٧١٢ . ونستطيع أن نضم إلى من سميناهم من شعراء القرن السابع من جاءوا بعدهم طوال هدا العصر من أمثال ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ والقيراطى المتوفى سنة ٧٨١ وابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ . وحتى شعراء الصوفية من أمثال ابن الفارض نجدهم يستخدمون هذه المحسنات بكثرة . وجعلها النقاد القطبَ الذى تدور عليه كتاباتهم فى فن الشعر . يتقدمهم فى ذلك ابن أبى الإصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ على نحو ما هو معروف عنه فى كتابه « تحرير التحبير » .

وتصبح البديعيات المقياس أو المقاييس الدقيقة لإبداع الشعراء . وتتضمنها قصائد فى مديح الرسول ﷺ تسمى البديعيات وتشرح شروحا مطولة . ومن أهم هذه القصائد قصيدة للسيوطى أو بديعية سماها « نظم البديع فى مدح خير شفيع » وله عليها شرح . وكانت تعاصره عائشة

(١) الخريدة ٢٣١/١
(٢) الخريدة ٢٣٠/٢
(٣) انظر خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص ٦٧و٢٩٨

الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ وقد جعلت بديعيتها فى مائة وثلاثين بيتا . ويلاحظ أن استخدام الشعراء المصريين طوال هذا العصر للمحسنات لم يسمج ولم يثقل ولم يتحول إلى صور من التكلف المقيت حتى أيام العثمانيين ، وكأنما حالت العذوبة التى تنطوى عليها نفوسهم وأمزجتهم والتى تجرى بها مياه النيل فى أرضهم ، بين كل ذلك وبين ما استخدموه من محسنات البديع وتلاوينه . وقديما لاحظ ذلك ابن سعيد صاحب كتاب المغرب حين نزل الفسطاط والقاهرة واختلط بشعرائهما ، إذ لم يلبث أن أنشد(١) :

أيا ساكنى مصرٍ غَدَا النِّيلُ جارَكم   فأكسبكم تلك الحلاوةَ فى الشِّعْرِ
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى   سوى أثرٍ يبدو على النظم والنَّثْرِ

وسنذكر نفثات من آثار هذا السحر وما طوى فيه من حلاوة وعذوبة فى تراجم الشعراء لتلك الأزمنة

٤

شعراء المديح

يكتظ الشعر العربى فى مصر بالمديح منذ زمن الولاة المبكر أيام الدولة الأموية ، وخاصة فى ولاية عبد العزيز بن مروان إذكان جوادا ممدَّحا ، فانتجعه شعراء الحجاز ونجد والعراق ، ويظل شعر المديح يجرى على ألسنة الشعراء أيام الدولة العباسية ، ويزور أبو نواس مصر لمدح والى الخراج بها : الخصيب ، ويضفى عليه مدائح رائعة ، ولا يلبث أن يزورها أبو تمام ، ويمدح عياش بن لهيعة الحضرمى القائم على الشرطة والخراج كما مربنا ، كما يمدح واليها عبد الله بن طاهر . ومن أهم شعراء مصر حينئذ المعلَّى الطائى ، وأنشدنا فى غير هذا الموضع بعض مديحه فى عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون . ويُظلّها عهد الدولة الطولونية ويتبارى شعراؤها فى مديح أحمد بن طولون . وأهمهم فى بواكير حكمه لمصر الحسن(٢) بن عبد السلام المشهور بلقبه الجمل الأكبر المتوفى سنة ٢٥٨ ، وله من قصيدة فى مديحه :

---

(١) فوات الوفيات ١/٢٣٦

(٢) انظر فى ترجمة الجمل الأكبر معجم الأدباء لياقوت ١٠/١٢١ والمغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠ والنجوم الزاهرة ٣/٣٠ وله فى كتاب الولاة والقضاة للكندى أشعار متفرقة .

له يَدٌ كم خَلَّدَتْ من يَدٍ سحابةٌ عَمَّتْ بأنْوائها
انظرْ إلى مصرٍ بسلطانهِ تَرَ الهُدَى فاضَ بأرجائها

ومن شعراء الطولونيين المريمى (١) القاسم بن يحيى المنسوب إلى جده أبى مريم السلولى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو شاعر أبى الجيش خمارويه اختصَّ به وأسبغ عليه كثيرًا من نواله ، وفيه يقول :

يقولون لى ما بالُ رَحْلك دائما بمصرٍ وإنِّى لستُ عن غيرها أرْضَى
وكيف رحيلى عن بلادٍ غدا بها أبو الجَيْشِ والنِّيلُ الذى ملأ الأرضا

وتوفى المريمى سنة ٣١٦ .

وكان الشعراء قد أخذوا يتكاثرون بالفسطاط منذ الدولة الطولونية كما مرَّ بنا . واطَّرد تكاثرهم فى عهد الدولة الإخشيدية . وفى أيامها بدأ عصر الدول والإمارات الذى نؤرخ له فى هذا الجزء وكان الإخشيد قد ملك مصر والشام وثغور الروم وخُطب له بالحجاز واليمن . ولذلك يقول شاعره سعيد (٢) بن فاخر من قصيدة يمدحه بها :

ياملكَ الشامِ ومصرَ إلى أقصى ثغور الروم والشامِ
واليمنِ الأبعد لازال [مُلْـ ـكُكُمْ] رفيعًا قادرًا حامى

ويتوفى الإخشيد سنة ٣٣٤ بعد أن أوصى لمولاه أبى المسك كافور الحبشى بتدبير الدولة لابنيه : أو نوجور وعلى . ويتوفى أولهما سنة ٣٤٩ ويخلفه أخوه على ويتوفى سنة ٣٥٤ وقيل سنة ٣٥٥ . ويستقلّ كافور بالملك حتى وفاته سنة ٣٥٧ وكان ساعده الأيمن فى حكمه وزيره جعفر بن الفرات المعروف باسم ابن حِنْزابة . وكان كافور ممدَّحا . فقصده الشعراء من كل فَجٍّ وفى مقدمتهم كُشاجم شاعر الشام . والمتنبى إمام الشعراء لزمنه وبعد زمنه وكان أول ما أنشده بائيته . وفيها يقول :

(١) راجع فى المريمى المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٣٦، ٢٧١ وانظر أشعارًا متفرقة له فى الولاة والقضاة للكندى فى أخبار خمارويه وفى مقالات عنه بمجلة المجلة : العدد ١٤٢ وبمجلة الكتاب العراقية سنة ١٩٧٤ فى عددى آب وتشرين الثانى

(٢) انظر سعيدا (قاضى البقر) فى المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٩٧ و٢٧٢ ولعله هو نفسه سعيد القاص المذكور فى النجوم الزاهرة ٣ / ١٤١ بين من رثوا الدولة الطولونية

قواصدُ كافورٍ توارِكُ غيرِه ومَنْ قصَد البحرَ استقلَّ السَّواقيا
وغَيْرٌ كثيرٍ أنْ يزورَك راجلٌ فيرجعَ مَلْكا للعِراقين واليا

وظل المتنبي نحو أربع سنوات ينتظر أن يولِّيه كافور على بعض بلدان الشام التابعة لمصر . حتى إذا نفد صبره ارتحل إلى العراق بليلٍ وهجاه هجاء مرا .

وتستقبل مصر سريعا عهد الدولة الفاطمية ، إذ ينزلها جوهر الصقلى ويؤسس بها القاهرة ومسجدها العظيم الأزهر ويتبعه المعز الخليفة الفاطمى ،وتصبح القاهرة حاضرة لدولته الضخمة ودولة أبنائه وأحفاده من بعده ولا يلبث المعز أن يتوفى سنة ٣٦٥ ويخلفه ابنه العزيز (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) ويتخذ يعقوب بن كلِّس وزيرا له ، وكانا يجزلان العطاء للشعراء . مما جعل ألسنتهم تلهج بمديحهما ، على شاكلة قول عبيد الله بن أبى الجوع فى إحدى مدائحه[١] :

لولا العزيزُ وآراءُ الوزير معا تحيَّفتْنا خطوبٌ تَشْعَبُ الأمما

ولتميم بن المعز فى أبيه وأخيه العزيز مدائح طنانة ، ونزل القاهرة فى عهد المعز أبو الرَّقعمق الأنطاكى : أحمد بن محمد ، وأقام بها زمانا طويلا حتى توفى سنة ٣٩٩ ويقول ابن خلكان : « معظم شعره فى ملوك مصر ورؤسائها : مدح بها المعز وولده العزيز والحاكم بن العزيز والقائد جوهرا والوزير يعقوب بن كلِّس وغيرهم من أعيانها »[٢] وينشد له قصيدة فى مديح ابن كلس . وكان محمد بن القاسم بن عاصم الملقب بصنَّاجة الدوح شاعر الحاكم ، وأنشده فى زلزلة حدثت بمصر من قصيدة فى مديحه[٣] :

بالحاكم العدلِ أضحى الدينُ معتليًا نَجْلِ العُلا وسليل السادةِ الصُّلَحا
مازُلزلتْ مصرُ من كيدٍ يُراد بها لكنها رقصتْ من عَدْله فَرَحا

ويلى الحاكم ابنه الظاهر ، وينزل مصر فى أول عهده صريع[٤] الدلاء البغدادى . ويمدحه

(١) راجع خطط المقريزى ٢٩٦/٢ وانظر فى ابن أبى الجوع اليتيمة ٣٩٥/١ ومر بنا حديث عنه . تشعب : تفرِّق وتفسد .

(٢) ابن خلكان ١٣١/١ وما بعدها وانظر فى أبى الرقعمق اليتيمة ٣٢٦/١ والعبر ٧٠/٣ والشذرات ١٥٥/٣ .

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٢٨ وانظر فى صناجة الدوح حسن المحاضرة ٥٦٢/١

(٤) انظر صريع الدلاء فى تتمة اليتيمة ١٤/١ وفى ابن خلكان ٣٨٣/٣ والعبر ١١٠/٣ والشذرات ١٩٧/٣

ويخلفه المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧) ويعتلى الوزارة بدر الجمالى سنة ٤٦٨ ويصبح الأمر والسلطان منذ هذا التاريخ بيد الوزراء . ويخلفه على الوزارة ابنه الأفضل (٤٨٧ – ٥١٥ هـ) . وكان شاعرا كما كان ممدحا . فبعث نهضة قوية فى الشعر ، وصفها – كما مر بنا – أمية بن أبى الصلت فى رسالته المصرية ، معددا فيها أسماء الشعراء فى زمنه ممن مدحوه وهجوه جميعا . ومن كبار مُدَّاحه ظافر الحداد وسنترجم له بين شعراء التشيع . وحسن بن زيد الأنصارى وسنترجم له بين الكتاب ، وله فيه مدائح رائعة من مثل قوله[1] :

أيامُكَ الغُرُّ مصقولٌ عوارضُها ... كأن آصالها من رِقَّةٍ بُكَرُ

أخملتَ ذكرَ ملوكٍ كنت خاتمهم ... وأنجمُ الليل فى الإصباح تَسْتَتِرُ

بعضُ الوَرَى أنتَ لكن فُقْتَهم شرفًا ... إن الحجارة منها الدرُّ والمدَرُ

تخال راحــتَــه والمشرفىَّ بها ... سحابةً ظلَّ فيها البَرْقُ يستعرُ

ولفظه جزل متين وصوره بديعة ، مما يدل على شاعرية خصبة . ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية الوزير طلائع بن رُزِّيك ، وكان مثل الأفضل الجمالى راعيا لكثير من الشعراء مثل ابن قادوس والقاضى الجليس والمهذب بن الزبير وأخيه الرشيد . وتزخر الخريدة وكتب الأدب بمدائحهم لطلائع . .

وكانت هناك مواسم كثيرة فى زمن الدولة الفاطمية يقدم فيها الشعراء مدائحهم للخلفاء . فى مقدمتها الأعياد وموالد الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين والخليفة الذى بيده صولجان الحكم وعيد الغدير ويوم عاشوراء وليالى رمضان وأول رجب وأول شعبان وأول السنة وأعياد النصارى وليلة الغطاس وليلة النَّيْروز ووفاء النيل وما يقترن به من فتح الخليج . وفى كل هذه الأعياد وما يماثلها كانت تقام احتفالات ضخمة . وكان الشعراء يهنئون بها الخلفاء ، وكل يحاول أن يكون له قصب السبق على أقرانه . ويصور لنا ذلك المقريزى من بعض الوجوه فى احتفال بوفاء النيل سنة ٥١٧ لعهد الآمر (٤٩٥ – ٥٢٤ هـ) . إذ يذكر بعض الأشعار التى أنشِدَتْ وما كان يصحبها من نقد يبديه بعض المستمعين ، من ذلك[2] أن ابن جبر أنشد فى هذا الاحتفال مدحة استهلَّها بقوله :

---

(١) الخريدة للعماد الأصبهانى (قسم شعراء مصر) ٧١/٢ .

(٢) خطط المقريزى ٢٥٣/٢ .

فُتِحَ الخليجُ فسالَ منه الماءُ ... وعلتْ عليه الرايةُ البيضاءُ
فَصَفَتْ مَوارِدُه لنا فكأنه ... كفُّ الإمامِ فَعرْفُها الإعطاء

فانتقد عليه الناس قوله : « فسال منه الماء » قالوا أى شيء يخرج من النهر غير الماء . وبذلك ضيَّعوا عليه ما قاله بعد هذا المطلع . وأنشد شاعر مدحة افتتحها بقوله :

لمن اجتماعُ الخلقِ فى ذا المَشْهَدِ ... للنِّيلِ أم لك يابنَ بنتِ محمَّدِ

فهلَّل الناس لمطلعه . فأمر له الخليفة الآمر على الفور بخمسين دينارا وخُلع عليه وزِيدَ فى جاريه . ومرَّ بنا حديث المنظرة التى بناها الآمر للشعراء ببركة الحبش ورفوفها وما كان عليها من صُرَرٍ للشعراء وفى كل صُرَّة خمسون دينارا جزاء وفاقا لمديحهم . وكأن ذلك كان مكافأة معلومة لهم . ويخلفه الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) ويبدو أن الشعراء كانوا يتمادون أيامه فى تطويل مدائحهم . فأمرهم أن يختصروها مما جعل أبا العباس أحمد بن مفرِّج ينشده فى إحدى مدائحه [١] :

أمرتنا أن نصوغَ المدحَ مختصرًا ... لِمْ لا أمرتَ نَدَى كَفَّيْك يُخْتَصَرُ
والله لابُدَّ أن نُجْرِى سوابِقَنا ... حتى يبينَ لها فى مَدْحِك الأثَرُ

فأمر الآمر بالعود إلى ما كانوا عليه .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس منذ أواخر القرن الخامس ، وأسسوا به مملكة وأضافوا إليها مملكة فى طرابلس وثالثة فى أنطاكية ورابعة فى الرُّها ، وبلغت مصر حينئذ من الضعف مبلغا بعيدًا لم تستطع خلاله أن تقاومهم إلا بعض تجريدات عسكرية وخاصة فى عهد وزيرها طلائع بن رزِّيك ، تجريدات لم تُغْن عنها شيئا . وبينما اليأس يخيم على الناس إذا بعماد الدين زنكى يخلِّص الرُّها من أيديهم ، ويقضى على مملكتهم فيها قضاء مبرما ، ويتابع جهاده ابنُه نور الدين ، ويستغيث به شاور فى مصر ضد ضرغام فيرسل إليه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعا ، فيُنهى صلاح الدين حكم الفاطميين لمصر ، ويقبض على صولجان الحكم . ويتوفَّى نور الدين ، فيضم الشام تحت لوائه ، ويأخذ فى الانقضاض على الصليبيين ، وكلما التقى بهم دمَّر جموعهم تدميرا ، حتى كانت الموقعة الفاصلة : موقعة حِطِّين التى

---

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/٦٤ .

استولى فيها المسلمون على الصليب الأعظم : صليب الصَّلبوت ، وأسروا قواد الصليبيين وزعماءهم ومزقوا جموعهم شر ممزق . ويقول المؤرخون إنهم أكثروا منهم فى القتل والأسر حتى كان من يشاهد القتلى يظن أنه ليس وراءهم أسرى وكان من يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءهم قتلى ، ويقولون إنه بلغ من كثرة الأسرى أن كان الأسير منهم يباع فى أسواق الرقيق بثلاثة دنانير ، وفى هذا النصر العظيم أنشد العماد الأصبهانى صلاح الدين مدحة رائعة يقول فيها[1] :

حططتَ على حِطِّينَ قدرَ ملوكهم ولم تُبْقِ من أجناسِ كفرهمُ جِنْسَا
بطونُ ذئاب الأرضِ صارتْ قبورَهم ولم تَرْضَ أرضٌ أن تكون لهم رَمْسا[2]
سبايا بلادُ الله مملوءةٌ بها وقد شُرِيَتْ بَخْسًا وقد عُرِضتْ نَحْسًا[3]
يُطَافُ بها الأسواقُ لا راغبٌ لها لكثرتها كم كثرةٍ توجب الوَكْسا[4]

وفُتحت لصلاح الدين بعد هذه المعركة أبواب مدن كثيرة فى فلسطين ولبنان مثل نابلس وبيت جبريل (بير سبع) وقيسارية وحيفا وصَيْداء وبيروت . وتغنى الشعراء فى مصر والشام والعراق بهذا النصر المبين . وسرعان ما تلاه صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، وعمَّ الفرح بهذا الفتح جميع البقاع الإسلامية . وتغنَّى به الشعراء طويلا من مثل قول محمد بن أسعد نقيب الأشراف بمصر[5] :

أتُرَى منامًا ما بعَيْنِي أبْصِرُ القُدْسُ يُفْتَحُ والفَرَنْجَةُ تُكْسَرُ
قد جاء نصرُ الله والفَتْحُ الذى وعدَ الرسولَ فسبِّحوا واستغفروا
فُتح الشَّآمُ وطُهِّر القُدْسُ الذى هو فى القيامة للأنام المحشَرُ

وكان هذا تحولا واسعا فى قصيدة المديح المصرية ، فإنها لم تعد – كما كانت أيام الفاطميين – قصيدة تُنْشَدُ فى الأعياد والاحتفالات الرسمية : قصيدة مناسبات ، بل أصبحت قصيدة أمجاد حربية مظفرة . وتنبَّه لذلك أبو شامة فى الروضتين فأتبع المواقع الحربية بما نُظم فيها من مدائح تصور البطولة العربية تصويرًا يملأ نفس كل عربى بالفتوة والقوة والمَضَاء ويدفعه دفعًا إلى أن يَكيل لأعداء العروبة والإسلام ضربات قاصمة .

---

(١) الروضتين لأبى شامة ٨٣/٢ .
(٢) رمسا : قبرا .
(٣) نحسا : من النخاسة وهى بيع الرقيق .
(٤) الوكس : البيع بالخسارة .
(٥) الروضتين ١٠٥/٢ .

ولا يكثر المديح الحماسى لصلاح الدين فحسب ، بل يكثر أيضا لقواده من إخوته ، وخاصة أخاه العادل ، وفيه يقول القاضى الفاضل من قصيدة بديعة[1] :

أهَذى كفُّه أم غَيْثُ غَوْثٍ ولا بلغَ السحابُ ولا كرامَهْ
وهذا بِشْرُهُ أم لَمْعُ بَرْقٍ ومَنْ للبرق فينا بالإقامَهْ
وهذا الجيشُ أم صَرْفُ الليالى ولا سبقتْ حوادثُها زحامَهْ
وهذا الدهرُ أم عَبْدٌ لديهِ يصرِّف عن عزيمته زِمامه
وهذا التُّربُ أم خَدٌّ لَثَمْنا فآثارُ الشفاه عليه شامَه

ويعرف هذا الأسلوب فى البديع باسم تجاهل العارف مبالغة فى المديح ، فالقاضى الفاضل لا يدرى أكرم ما يصيبه هو وأمثاله من العادل أم غيث سحاب منهمر ، بل إن السحاب دون كرمه الفياض . ولا يدرى أبشر وجهه الذى يتلألأ أم البرق ؟ غير أن البرق يعرض ويزول أما هو فمقيم لا يَرِيم . وأيضا لا يدرى ما يقوده إلى النصر جيش أم هو صرف الليالى ، بل إن الدهر عبد لديه يصدع بأمره ومشيئته ، ويعجب لما يسير عليه وكأنه يسير على خدود يرى عليها آثار الشفاه التى تقبل الأرض من دونه ، لكثرة الحشود المزدحمة على تقبيلها ، وكأنها نفس الشامة التى نراها على الخدود .

ويظل جهاد الصليبيين الموضوع الأهم فى مدائح السلاطين الأيوبيين حتى إذا كانت سنة ٦١٥ غزا حَمَلَةُ الصليب دمياط لعهد السلطان الكامل ، وظلوا بها نحو ثلاث سنوات ، وحدَّثتهم أنفسهم أن يتقدَّموا إلى الجنوب نحو المنصورة واستنفر السلطان الكامل أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والشام والأشرف موسى صاحب الولايات الشرقية حتى الفرات . وتجمعت جيوشهم وأنزلت بحملة الصليب هزائم ساحقة ولَّوا على إثرها فارين إلى البحر المتوسط وما وراءه . وتغنَّى البهاء زهير بهذا النصر المجيد فى مدحة أنشدها السلطان الكامل وفيها يقول[2] :

بِكَ اهتزَّ عِطْفُ الدِّينِ فى حُلَلِ النَّصْرِ وَرُدَّتْ على أعقابها مِلَّةُ الكُفْرِ
وما فرِحَتْ مصرٌ بذلك وحدها لقد فرحتْ بغدادُ أكثرَ من مِصْرِ
فمن مبلغٌ هذا الهناءَ لمكَّةٍ وَيثْربَ يُنهيه إلى صاحب القَبْرِ

---

(١) خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص ١٥٥ .

(٢) البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق (طبعة سنة ١٣٥٤ هـ) ص ٦٥

والبهاء زهير يصوِّر تهلل الدين الحنيف باندحار الصليبيين وأن الفرحة بالنصر الباهر لم تعم مصر وحدها بل عمت أيضا بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وإنه لحرىٌّ أن تهنَّأ به منازل الوحى فى مكة والمدينة وأن يهنَّأ به الرسول فى جدثه الطاهر . وكأنما كان هذا النصر درسا ظل حملة الصليب يذكرونه نحو ثلاثين عاما ، حتى كانت سنة ٦٤٧ إذ تجمَّعوا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، ونزلوا دمياط واتجهوا نحو المنصورة ، غير أن المصريين بقيادة توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين عصفوا بهم سنة ٦٤٨ وسحقوهم سحقا ذريعا ، وأُخذ لويس التاسع أسيرا وسُجن بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء وكان يحرسه الطواشى صبيح . وأذعن لشروط الصلح التى فرضها توران شاه وخرج من مصر مع فلول حملته خاسئا مدحورًا . وتتطور الظروف سريعا ، فيُقتَلُ توران شاه وتخلفه شجرة الدر فالسلطان أيبك . ولعل التتابع السريع لهذه الأحداث هو الذى عقد ألسنة الشعراء فلم يتغنّوا ببطولة توران شاه وجيشه الباسل وما أذاق حَمَلَة الصليب من نكال شديد .

وتظلُّ مصرَ وشعراءها دولةُ المماليك ، وما تُوافى سنة ٦٥٧ حتى تكتسح سيول التتار الشام وتهبط إلى الجنوب فى فلسطين ويلتقى بها جيش المماليك فيكبح جماحها فى عين جالوت ، ويردها قُطز والظاهر بيبرس إلى غير مآب . ويُصبح بيبرس سريعا سلطان مصر سنة ٦٥٨ وكان عالى الهمة بعيد النظر ، فأعاد الخلافة العباسية فى القاهرة ، وبذلك أصبحت مصر حامية الخلافة والإسلام . وعصره يُعد العصر الذهبى فى زمن المماليك ، وقد صورناه من بعض الوجوه وصورنا فتوحاته وحروبه المستمرة مع الصليبيين والتتار ، وكيف قوَّض للأولين مملكتهم فى أنطاكية ، وما كان من تعقُّبه الدائم للتتار فى الموصل . وسمع يوما بجموع لهم على الشاطئ الشرقى للفرات ، فخاضه إليهم وخاضه الجيش معه فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم ينْج منهم إلا القليل ، وفى ذلك يقول ناصر الدين حسن بن النقيب الكنانى — وكان حاضر الواقعة — من قصيدة طويلة[(١)] :

ولما ترامينا الفراتَ بِخَيْلنا ... سَكَرْناهُ منا بالقوى والقوائمِ[(٢)]
فأوقفتِ التيَّارَ عن جَرَيانِه ... إلى حيثُ عُدْنا بالغِنى والغنائم

وكان الشعراء ينثرون على بيبرس قصائدهم فى كل معركة وكل نصر مظفر على التتار والصليبيين وفى أرمينيه وآسية الصغرى ، وبالمثل حين كان ينشئ المدارس والمساجد ، وفى مدرسة الظاهرية

---

(١) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧

(٢) سكرناه : سددناه

يقول السِّراج الورَّاق من مدحة بديعة(١) :

وشيَّدها للعلم مدرسةً غدَا عراقٌ إليها شيِّقٌ وشآمُ
ولا تذكرنْ يوما نظاميَّةً لها فليس يُضاهى ذا النظامَ نظامُ

فهى فى رأى الوراق تفوق المدرسة النظامية التى أنشأها نظام الملك فى بغداد .

ولا يلبث أن يتولى مقاليد الحكم بعد بيبرس السلطان قلاوون (٦٧٨ — ٦٨٩ هـ) . ومرَّ بنا بناؤه لمارستان ضخم وإلحاقه به مدرسته المنصورية ، وفى ذلك يقول معين الدين عثمان بن سعيد بن تولو التنيسى المصرى مستهلا قصيدة فى مديحه بقوله(٢) :

أنشأتَ مدرسةً ومارَسْتانا لتصحِّح الأديان والأبدانا

ونازل قلاوون الصليبيين مرارا ، واستولى منهم على بعض الحصون . وخلفه ابنه السلطان خليل (٦٨٩ — ٦٩٣) وكان بطلا مغوارا فافتتح أيامه بجهاد حملة الصليب واستطاع فى أقل من ثلاث سنوات أن يستخلص منهم عكا وصور وصَيْدا وبيروت وجميع سواحل الشام ، فلم تبق لهم بلد ولا قلعة ، ومن بقى منهم ولَّى على وجهه إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان الشعراء ما ينون يهنئون السلطان خليل بفتوحه ، ولبدر الدين المنبجى التاجر بالقاهرة قصيدة طويلة فى تهنئته بانتصاراته المجيدة أولها :

بلغتَ فى الملك أقصى غايةِ الأملِ وفُتَّ شأْوَ ملوكِ الأعصرِ الأُوَلِ

ونظم كثيرون من معاصريه قصائد وأشعارا مماثلة من ذلك قول البوصيرى شاعر المدائح النبوية المشهور(٣) :

قد أخذ المسلمون عكًّا وأشبعوا الكافرين صَكًّا
وساق سلطانُنا إليهم خيْلاً تدكُّ الجبال دَكًّا

وحقا أشبعوهم صكا وقتلا ودفعا إلى البحر المتوسط فى غير رجعة ولا مآب ، فقد سقطت عكا آخر حصونهم ، بل لقد دمرتها مجانيق المصريين وحرقتها نيرانهم ، وفى ذلك يقول أحمد

---

(١) الخطط للمقريزى ٣٤١/٣
(٢) النجوم الزاهرة ٣٢٧/٧ .
(٣) ديوان البوصيرى (طبع مطبعة مصطفى الحلبى) ص ٢٣١ .

بن عبد الدائم الشَّارِمْسَاحى[١] :

لا تعجبوا للمجانيقِ التى رشَقَتْ عكًّا بنارٍ وهدَّتْها بأحْجارِ
بل اعجبوا للسانِ النارِ قائلةً هذى منازلُ أهل النارِ فى النارِ

وتتوقف حركة الفتوح ، فلم يعد فى الشام صليبيون ، ويتحول شعر المديح إلى شعر مناسبات فى الأعياد ، وحين يستولى سلطان على مقاليد الحكم ، وخاصة إذا قرب من نفوس الشعب مثل السلطان الأشرف شعبان (٧٦٥ – ٧٧٨ هـ .) . وكان قد استولى على صولجان السلطنة فى ربيع الثانى فقال ابن نباتة :

طَلْعةُ سلطاننا تبدَّتْ بكامل السَّعْد فى الطلوعِ
فاَعجبْ لهاتيك كيف أبدتْ هلالَ شعبانَ فى ربيع

وكانت أيام حكمه أيام أمن ورخاء وازدهار للآداب والفنون ، وفيه يقول شهاب الدين أحمد بن العطار[٢] :

للملك الأشرفِ المنصور سيِّدنا مناقبٌ بعضها يبدو به العجبُ
له خلائقُ بيضٌ لا يغيِّرها صَرْفُ الزمان كما لا يَصْدأ الذهب

وللعطار أشعار كثيرة فى أحداث زمنه أنشد منها ابن تغرى بردى طائفة فى الجزء الحادى عشر من كتابه النجوم الزاهرة . ولما تولى مقاليد السلطنة الظاهر برقوق يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ مدحه بقوله من قصيدة :

ظهورُ يومِ الأربعاء ابتدا بالظاهر المعتزِّ بالقاهرِ
والبِشْرُ قد تَمَّ وكل امرئٍ منشرحُ الباطن بالظاهرِ

وربما كان أهم حدث يلقانا بعد ذلك فتح السلطان الأشرف برسباى لجزيرة قبرص إذ كانت موئلا لكثير من القراصنة الذين كانوا يعيثون فسادا فى البحر المتوسط وما يحمل من سفن تجارة للمصريين ، كما كانوا يعيثون فسادًا فى شواطئ مصر والشام ، وأرسل إليها برسباى حملات ثلاثا انتهت بالاستيلاء عليها سنة ٨٢٩ وتغنى الشعراء بهذا النصر المجيد فى عدة قصائد ، من ذلك

(١) فوات الوفيات ١/٨٦ .
(٢) النجوم الزاهرة ١١/٨٣ .

قصيدة زين الدين عبد الرحمن بن الخرَّاط أحد كتاب الدَّسْت ، وفيها يقول[١] :

بُشْرَاكَ يامُلْكَ المليكِ الأشرفِ بفتوحِ قبرسَ بالحسامِ المَشرفى[٢]
فَتْحٌ تفتَّحت السموات العُلا من أجله بالنَّصْر واللُّطْف الحَفِى

ولا نعود نسمع عن انتصارات حربية مجيدة أيام المماليك ، ويصبح المديح مديح مناسبات للسلاطين فى توليهم مقاليد الأمور وفى الأعياد .

ويُظِلُّ مصر عهد العثمانيين وفيه يقدم الشعراء مدائحهم للولاة ونوابهم وكبار الموظفين فى زمنهم ويكتظ تاريخ الجبرتى وغيره بأشعارهم على نحو ما يلقانا فى مديح الوالى العثمانى رضوان كتخدا المتوفى سنة ١١٦٨ وكان قد بنى لنفسه عدة قصور وعاش للهو ، وقصدته الشعراء ومدحوه بالقصائد والأراجيز والموشحات والمقامات وأعطاهم الجوائز السنية . واتخذ له جلساء وندماء منهم عبد الله الإدكاوى ، وقد صنف فى مدائحه كتابا سماه « الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية » ومن كبار مداحه مصطفى اللقيمى الدمياطى ، وله مقامة طويلة ضمنها أشعارا كثيرة فى مديحه ، وله فيه مزدوجة فريدة ، يقول فيها[٣] :

مليكُ سعدٍ قد سما فى عصرهِ مؤيَّدٌ معظَّمٌ فى مِصْرهِ
معزَّزٌ كيوسفٍ فى قَصْرِهِ عليه منشورٌ لواءُ نصرهِ

ومن مداح رضوان قاسم[٤] بن عطاء الله ، وله فيه مزدوجة بديعة ومدائح كثيرة ، وله أيضا فيه توشيح عارض به الموشح المشهور للسان الدين الخطيب ، وفيه يقول :

كفُّه الغيثُ على الناس هَمَا فأعاد الخِصْبَ بعد اليَبَسِ
أصبح الدهرُ به مبتسما وهْو فى فيهِ محلُّ اللَّعَسِ

ويَكْثر مدح الشعراء لعلماء الأزهر الأجلاء ، ويلقانا ابن الصلاحى[٥] السيوطى كلفا بأستاذه الشمس الحفنى ، وله فيه مدائح كثيرة على شاكلة قوله :

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٩٦/١٤ .
(٢) المشرق : نسبة إلى مشارف الشام أو اليمن ، والسيوف المشرفية : سيوف حادة قاطعة .
(٣) الجبرتى ٢٣٢/١ .
(٤) الجبرتى ١٩٣/١ ومابعدها وانظر ترجمة قاسم فى ١٨٤/٢ .
(٥) الجبرتى ٢٦٥/١ وما بعدها

إمامُ الهدى الراقى إلى ذروة العُلا إلى رتبةٍ عنها الثوابتُ تقعدُ
وما شئتَ قل فيه فأنت مصدَّقٌ مزاياه تقضى والمحاسنُ تَشْهَدُ

وأكثروا حينئذ من التأريخ بالشعر يؤرخون به قدوم والٍ أو مناسبة من المناسبات فى آخر شطر بالقصيدة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجمَّل فتكون سنة الولاية أو سنة المناسبة ، ويحسن أن نستعرض شعراء المديح النابهين على مر الحقب .

المهذب[1] بن الزبير

هو الحسن بن على الغسانى ، ولد بأسوان فى أوائل القرن السادس الهجرى ، وبها ثقف علوم العربية ، وأوتى ملكة شعرية خصبة ، فلم يلبث أن لهج بالشعر ، وما نصل معه إلى سنة ٥٢٦ حتى نراه يتصل ببنى الكنز سَراة بلدته ، ويمدح كبيرهم بقصيدة بديعة يقول فيها :

لئن جهل المدَّاحُ طُرْقَ مديحكم فإنى بها من سائر الناس أعلمُ
وهل لىَ حمدٌ فى الذى قلت فيكُمُ ونُعْماكمُ عندى التى تتكلَّمُ

ونال على قصيدته جائزة كبيرة : ألف دينار . ودفعه طموحه الأدبى إلى النزوح عن بلده إلى القاهرة : حاضرة الفاطميين وموطن الشعراء الكبار . ونراه يمدح رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ (٥٢٤ – ٥٤٤ هـ) ولعله هو الذى أنفذه فى مهمة إلى اليمن ، فأكبَّ على كتب النسب ، وألف فيه دائرة معارف ضخمة قال ياقوت إنها تقع فى أكثر من عشرين مجلدا . ولم تصرفه عنايته بهذه الدائرة عن الشعر والمديح . وأهم وزير اتصل به بعد ابن ولخشى طلائع بن رُزِّيك (٥٤٩– ٥٥٦هـ). وكان يعد أكبر شاعر فى زمنه، وقد ترجم له العماد الأصبهانى ترجمة ضافية استهلها بقوله : « المهذب بن الزبير محكم الشعر كالبناء المشيد ، لم يكن فى زمانه أحد أشعر منه ، وله شعر كثير ومحل فى الفضل أثير » . والغالب على شعر المهذب المديح .

ومن يدرس الشعر العربى يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ، فهى تقوى

---

(١) انظر فى ترجمة المهذب وأشعاره خريدة القصر (قسم شعراء مصر – طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٠٤/١ ومعجم الأدباء ٤٧/٩ والنكت العصرية لعمارة اليمنى ص ٣٥ والطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ص ١٣ ، ١٠٠ وابن خلكان ١٦١/١ فى ترجمة أخيه الرشيد وفوات الوفيات ٢٤٣/١ والنجوم الزاهرة ٣١٣/٥ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٦٣/١ .

حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديرة بأن يسجِّلها الشعراء ويتغنَّوها ، وهى تضعف حين تعبر عن زُلْفى وما يتصل بالزلفى من رياء . ومعنى ذلك أنه توجد للمديح فى الشعر العربى قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع واضح ، وقصيدة ليس لها موضوع واضح ، ومن الضرب الأول مدائح أبى تمام فى قواد الدولة العباسية وحروبهم فى خراسان وفى آسية الصغرى ، ومنه أيضا مدائح المتنبى فى سيف الدولة وانتصاراته المجيدة ضد البيزنطيين . ومن الضرب الثانى مدائح مهيار وغيره من الشعراء للخلفاء والوزراء والحكام فى المناسبات والأعياد المختلفة . وفرق بعيد بين الضربين ، فنى الضرب الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم فى صورة رائعة من الغناء والشعر ، أما فى الضرب الثانى فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم حربيا أو غير حربى ، إنما يقرءون ملقا وتزلفا ورياء .

ويمكن أن ندخل مدائح المهذب بن الزبير للوزير طلائع بن رُزِّيك فى الضرب الأول ، لأنه ملأ أيامه ببطولة محققة فى حرب الصليبيين وردِّهم عن بعض حصون فلسطين ، وفى كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين للمقدسى ما يصور ذلك . فقد كانت الجيوش المصرية فى أيام وزارته ماتنى تنازل الصليبيين فى العريش وغزَّة وعَسْقلان ، وكان الأسطول المصرى يقوم بدور مهم فهو يُفْزعهم فى « صور » و « عكا » وهو يقطع على بعض سفنهم فى البحر المتوسط طريقها إلى الموانى الشامية والفلسطينية . وكان طلائع يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، وينتصر على الصليبيين فى عسقلان وغير عسقلان ، والمهذب شاعره يتغنى بانتصاراته مبتهجا بمثل قوله :

لما أبَوْا ما فى الجِفان قَرَيْتهم ... بصوارمٍ سُلَّتْ من الأجفانِ[1]
وثَلَلْتَ فى يوم العَريش عُروشهم ... بِشَبا ضِرابٍ صادقٍ وطِعانِ[2]
ألجأتَهُمْ للبحر لما أن جَرَى ... منه ومن دمهم معًا بَحرَانِ
ولأنت تَخْضِبُ كلَّ بَحْرٍ زاخرٍ ... مِمَّنْ تحاربُ بالنَّجيع القانى[3]
حتى ترى دَمهم وخضرةَ مائهِ ... كشقائقٍ نُثرتْ على الرَّيحانِ
وكأنَّ بحر الروم خُلِّق وَجْهُه ... وطفَتْ عليه منابتُ المَرْجَانِ[4]

---

(١) الجفان : جمع جفنة وهى قصعة الطعام : والأجفان : جمع جفن وهو غمد السيف.
(٢) شبا : جمع شباة ، وهى حد السيف.
(٣) النجيع : الدم . القانى : شديد الحمرة.
(٤) خُلِّق وجهه : طُيِّبَ بالخَلوق وهو الزعفران.

والمهذب بن الزبير فرح مبتهج بما أفاء الله من نصر على ابن رُزِّيك فى العريش ، فقد دقَّ أعناق الصليبيين هناك ، ونكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منهزمة . ولا ريب فى أن تصوير المهذب لِدم الأعداء على صفحة البحر المتوسط بأنه خضاب أو هو شقائق أو ورد أحمر نثر على الريحان ، وكأن المتوسط قد خُلِّق وجهه وطُيِّب بالزعفران وطفت عليه منابت المرجان ، لا ريب فى أن ذلك كله تصوير بديع . ويذكر المهذب أن الأسطول المصرى لقى فلول الصليبيين المنهزمين إلى البحر يقتل فيهم ويأسر ، يقول فى سفنه وصنيعها بهم :

شُبِّهْنَ بالغِرْبان فى ألوانها ... وفعلنَ فعلَ كواسِرِ العِقْبانِ
وأتتكْ مُوقَرَةً بسبىٍ بينه ... أسراهُمُ مغلولةَ الأذقان (١)

وهو يصف الأسرى وقد غُلَّت أعناقهم إلى أذقانهم فلا يستطيعون لرءوسهم عطفا ولا حركة ، وينوِّه بقتل أحد أمرائهم ،قائلا :

قَتلَ البرنْسَ ومَنْ عساه أعانَهُ ... لَمَّا عَتَا فى البَغْىِ والعدوانِ
وأرى البريَّة حين عاد برأسِه ... مُرَّ الجَنَا يبدو على المُرَّانِ (٢)

وتصادف فى أثناء ذلك أن وقعت زلازل شديدة فى الشام دكَّت بعض حصون الصليبيين فذكر ذلك ابن الزبير ملتمسا له تعليلا طريفا إذ يقول لابن رزِّيك :

مازُلْزلتْ أرضُ العِدا بل ذاك ما ... بقلوبِ أهليها من الخفقانِ

وله فى ابن رزِّيك مدائح كثيرة وراء هذه النونية . وكان يتقن فنون الشعر المختلفة من استعطاف وغير استعطاف ، وله فى استعطاف أحد دعاة الفاطميين باليمن ميمية مشهورة ، كان أخوه الرشيد قد ذهب إليه فى مهمة للدولة ، فهمَّ بقتله ، وسَجَنه ، فأرسل إليه بتلك القصيدة يستعطفه لأخيه ، فعفا عنه وردَّ إليه حريته . واشتهرت القصيدة بغزلها وما يرمز فيه من لهفة على أخيه ، إذ يقول :

يارَبْعُ أين ترى الأحبَّة يَمَّموا ... هل أَنْجدوا من بعدنا أو أتْهَمُوا (٣)
نزلوا من العينِ السوادَ وإن نَأوْا ... ومن الفؤاد مكانَ ما أنا أكتمُ

---

(١) موقرة : محمَّلة .
(٢) الجنا : الثمر . المران : الرماح .
(٣) أنجدوا : دخلوا نجدا . أتهموا : دخلوا تهامة .

رحلوا وفى القلب المعنَّى بعدهم وَجْدٌ على مَرِّ الزمان مخيِّمُ
وتعوَّضَتْ بالأُنْسِ روحى وَحْشَةً لا أوحش اللهُ المنازلَ منهمُ
إنى لأذكركم إذا ما أشرقتْ شمسُ الضحى من نَحْوِكم فأسلِّمُ
لا تبعثوا لى فى النسيم تحيَّةً إنى أغارُ من النسيمِ عليكمُ

والأبيات تعبر عن عاطفة الحب الملتاعة وأنه لن ينسى أحباءه أبدا نزلوا نجدا أو نزلوا تهامة ، فهم فى سويداء فؤاده والوجد يبرِّح به ، والوحشة منهم تلذع روحه ، وهو يستقبل شمس الضحى المشرقة من ديارهم بالسلام الحار . وما يلبث أن يعبر فى البيت الأخير عن رقة ورهافة حسّ بالغة ، وله من جملة قصيدة بيته المشهور :

وما لى إلى ماءٍ سوى النيِّلِ غُلَّةٌ ولو أنه — أستغفر اللهَ — زمزمُ

وهو يصور أدق تصوير محبته لوطنه ، وهى محبة تملك دائما على المصريين شغاف قلوبهم . وكان المهذب وأخوه الرشيد — وكان شاعرًا مثله — وثَّقا صلتهما بشيركوه وصلاح الدين حين قدما مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصمه وضد الصليبيين ، ولم يلبث شاور أن قلب ظهر المجن لصلاح الدين وعمه شيركوه ، واضطرا إلى مبارحة مصر فترة . وحينئذ يقتل شاوَر الرشيد ويسجن المهذب فينظم شعرًا كثيرًا فى استعطافه ، ويرد إليه حريته ، وسرعان ما يتوفى سنة ٥٦١ للهجرة .

ابن قلاقس[١]

هو نصر الله بن عبد الله بن قلاقس الإسكندرى ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ونشأ بها وسمع من شيوخها ، ولزم حلقة أبى طاهر السِّلْفى أكبر المحدثين فى عصره ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فمدح بعض أولى الأمر المشرفين على الإسكندرية . وكان فى أثناء ذلك يلزم صحبة شيخه السلفى وله فيه مدائح بديعة مثبتة فى ديوانه من مثل قوله :

تَفيضُ بحارُ العلم من كلماتِه فإن كنت ظمآنا فردْ خَيْرَ مَنْهَلِ
فياأيها المحمودُ من كلِّ ناطقٍ على كل معنى فى فِنَا كلِّ منزل

(١) انظر فى ترجمة ابن قلاقس الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/١٤٥ ومعجم الأدباء ١٩/٢٣٦ وابن خلكان ٥/٣٨٥ وحسن المحاضرة ١/٢٤٢ والشذرات ٤/٢٢٤ ومرآة الجنان ٣/٣٨٣ . وديوانه طبع قديما بمطبعة الجوائب وراجعه وضبطه خليل مطران .

تحاسدَتِ الأيامُ فيك فلم تزل مُنَى القادم الجذلانِ والمترحِّلِ

وهو يشير إلى علْم أستاذه وأنه كان مقصدًا للراحلين فى طلب الحديث من كل بقاع العالم الإسلامى . وليس فى ديوانه مديح لوزير مصرى قبل شاوَر وزير العاضد (٥٥٧ – ٥٦٤ هـ) . واتصل بكتّاب الديوان لعهده ومدحهم ، وفى مقدمتهم القاضى الفاضل ، وله فيه غرر المدائح ، ومن قوله فى إحداها متخلصًا من الغزل إلى مديحه :

يارُبَّ خَمْرٍ فَمُهُ كأسُها لم أقتنع من شربها بالشَّميمْ
أَتْبَعْتُ رَشْفًا قُبَلاً عندها وقلتُ : هذا زمزمٌ والحَطِيمْ
فافترَّ إما عن أقاحى الرُّبَى تضحك أو دُرِّ العقود النَّظِيمْ
أو كان قد قَبَّل مُسْتحسنًا ما حَبَّر الفاضلُ عبدُ الرَّحيمْ
مَنْ لفظُه راحٌ وأخلاقُه رَوْحٌ وتلك الدارُ دارُ النعيمْ

والأبيات تصور قدرة رائعة على تكوين الصور الشعرية البديعة ، ففم صاحبته كأس خمر ، وهو يرشفها وكأنه يرشف من ماء زمزم ويقبلها وكأنه يقبل الحَطِيم المقدس . وضحكت فخال أقاحى الربى تضحك ، بل عقد در نظيم ، بل درر القاضى الفاضل عبد الرحيم ، مَنْ لفظه خمر وأخلاقه فَرَح وداره جنة الخلد ، ولعله يريد قصر الخلافة الذى كان يعمل به الفاضل كاتبا .

وليس فى شعره أى شائبة تدل أو تشير إلى أنه اعتنق التشيع ، وكان عهد وزارة شاوَر عهدًا مضطربًا أشد الاضطراب ، فسدت فيه أداة الحكم فسادًا شديدًا ، مما جعل شاور يصطرع مع ضرغام على الوزارة ، ويستعين بنور الدين أمير حلب ويرسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين ، فيعيدانه إلى كرسى الوزارة ، وما يلبث أن يستعين ضدهما بالصليبيين . ولعل هذا الاضطراب الشديد الذى عانته البلاد حينئذ هو الذى جعل ابن قلاقس يفكر فى مبارحة مصر إلى صقلية ، ويبدو أنه كان يسمع فى أثناء مقامه بالإسكندرية من مسلميها الذاهبين إلى الحج تنويها كثيرا بها وبرجالاتها ، وكانت قد سقطت فى أيدى النورمانديين ولكن أمراءهم منذ روجّار كانوا لايزالون يعاملون المسلمين بها معاملة حسنة ، وأعانوهم على استمرار نشاطهم العلمى والأدبى . على كل حال نفاجأ برحيل ابن قلاقس إلى صقلية فى شعبان سنة ٥٦٣ ولم يكد ينزل بها حتى أرسل بقصيدة يصف فيها رحلته البحرية إلى الجزيرة وصفًا بديعًا ، وكانت قد أعجبته مشاهدها الطبيعية فأنشد :

بلدٌ أعارتْه الحمامةُ طَوْقَها ... وكساه حُلَّةَ ريشِهِ الطاووسُ
فكأنما الأزهارُ منه سُلافةٌ ... وكأنَّ ساحاتِ الديار كئوسُ

وتنقَّل فى بلدانها ، وكانت لاتزال عامرة بالمسلمين ، ونزل حاضرتها بَلِرْم ، وتعرَّف على أكبر شخصية عربية بها : أبى القاسم بن الحجر ، ويبدو أنه كان رئيس ديوان المسلمين وصاحب الأمر والنهى فيهم ، وفيه دبَّج مدائح كثيرة ، مشيدًا ببيانه وبلاغته ، وبحسن تدبيره ، بمثل قوله :

وبيمناك طَيْرُ يُمْنٍ وسَعْدٍ ... أَصْفَرُ الظهر أسودُ المنقارِ
قلمٌ دبَّر الأقاليم فالكتْـ ... ـبُ به من كتائب الأقدارِ

والبيت الثانى يشير بوضوح إلى أن أبا القاسم كان يصرف أمور المسلمين فى صقلية ، ولعله لذلك تسميه بعض المصادر العربية صاحب صقلية ، وفيه كتب ابن قلاقس كتابا سماه « الزهر الباسم من أوصاف أبى القاسم » وصف فيه رحلته إلى صقلية ومقامه بها نحو عامين ومدائحه فيه ، واحتفظ العماد الأصبهانى فى ترجمته بقطعة كبيرة من هذا الكتاب . وفى ديوانه مدائح كثيرة لشخصية ثانية بصقلية ، هى شخصية القاضى على بن أبى الفتح بن خلف الأموى ، ويقول العماد إنه نوَّه به فى كتابه الزهر الباسم وقال عنه « حَدَقة العلم الناظرة وحديقة الأدب الناضرة » وفيه يقول :

وكم لك فى الفصاحة من أيادٍ ... ملكتَ بها الفَخار على الإيادى[1]
تَخِذتُك من صقلِّيةٍ خليلا ... فكنت الوردَ يُقْطَفُ من قَتادِ
وشِمتُك بين أهليها صَفِيًّا ... فكنت الجمرَ يُقْبَسُ من زنادِ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو أهل صقلية بأنهم قتاد وشوك وابن خلف وحده هو الورد ، ولا أنهم زناد صَلْد وهو وحده الجَمْر ، وكل ما فى الأمر أنه يريد أن يمدحه ، وبالغ فى مديحه ، أما بعد ذلك فكان هناك أبو القاسم بن الحجر ممدوحه وراعيه فيها . وقد مدح بها آخرين ، منهم جُرْدُنّا وزير صاحب صقلية ، وفيه يقول :

وجرَّدْنا المدائح فاستقرَّتْ ... على أوصاف جُرْدُنَّا الوزيرِ

وهو يشير مرارًا إلى مجالس الشراب فى صقلية ، وأنه قضى بها أياما وليالى هنيئة ، كان يستمتع

(١) هو قس بن ساعدة الإيادى الخطيب المشهور.

فيها بالاستماع إلى الغناء والموسيقى ورؤية الراقصات وهن يتثنَّين فى نسق بديع من الحركات يقول :

ومُغَنٍّ تناولتْ يدهُ العو ... دَ فعادتْ بنا إلى الأفراحِ

بين ريحٍ من المزامير أَسْرَى ... بين أجسامنا من الأرواح

وصِباحٍ قد عقدوا طُرَرَ اللَّيْـ ... ـلِ جمالا على الوجوه الصِّباح

يبعث الروضُ منهمُ حركاتٍ ... سرقتْ بعضَها طِوالُ الرِّماح

وعاد ابن قلاقس إلى مصر ، فوجدها لاتزال مضطربة قبل تحول مقاليد السلطان إلى صلاح الدين ، ففكر فى الارتحال عنها ، وولى وجهه نحو عدن سنة ٥٦٥ استقبله استقبالا حسنا ياسر بن بلال وزير محمد وأبى السعود ابنى عمران حفيد الداعى سبأ صاحبها ، فأغدق عليه نائلا غمرًا ، وركب البحر الأحمر عائدا إلى مصر ، فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه بالقرب من جزيرة دَهْلك ، فعاد إلى ياسر ، وأنشده قصيدة دالية استهلها بقوله :

صَدَرْنا وقد نادى السماحُ بنا رِدُوا ... فعُدْنا إلى مَغْناك والعَوْدُ أحمدُ

وجاذَبَنا للأهل شوقٌ يقيمنا ... وشوقٌ لمُغْنينا عن الأهل يقعد

وما فاحَ فينا غيرَ ذكراك روضةٌ ... ولا ساح فينا غيرَ نُعماك موردُ

فياياسرًا نِلْنا به الفضلَ ياسرًا ... ويامن وجدنا منه ما ليس يُوجَدُ

دعوتَ بصوت الجود حَيَّ على النَّدَى ... لأنك تَرْوِى عن بِلالٍ وتُسْنِدُ

والقصيدة كلها من هذا النمط البديع ، وما أروع بيتها الأخير ، وقد تصور ياسرا يؤذِّن بصوت الجود داعيا الناس إليه ، ويعلل ذلك تعليلا طريفا ، إذ يقرن اسم أبيه بلال إلى بلال مؤذن الرسول وهو يروى عنه ويقتدى به قدوة حسنة . وكان يحسن التعليل كما يحسن التصوير ، ومن طريف صوره وتعليلاته قوله فى جارية سوداء :

رُبَّ سوداء وَهْىَ بيضاءُ معنًى ... نافسَ المسكَ عندها الكافورُ

مثلَ حَبِّ العيون يحسبه النا ... سُ سوادًا وإنما هَوَ نورُ

وهى صورة بديعة غريبة . ويكثر مثلها عنده ، كقوله يصف الشِّعْر وأن منه ما يذبل سريعًا ومنه ما يخلد على الدهر ، ومنه القبيح ومنه الجميل ، يقول :

الشِّعْرُ منه قصيرٌ عمرُه زَهَرٌ ... يَذْوِى ومنه طويلٌ عمرهُ زُهُرٌ[1]

---

(١) زهر : نجوم ، كناية عن الخلود .

أو كالعيون فهذى حظُّها حَوَلٌ　　يُغَضُّ منها وهذى حَظُّها حَوَرُ

وكان قد ظل عند ياسر نحو سنتين وعاد فى شوال سنة سبع وستين ، وركب البحر إلى عَيْذاب ثغر قوص على بحر القُلْزُم ، وكأن الموت كان فى انتظاره ، فلم يكد ينزلها حتى لبَّى نداء ربه وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره .

ابن سناء[1] الملك

هو القاضى السعيد هبة الله بن القاضى الرشيد أبى الفضل جعفر بن القاضى المعتمد سناء الملك السعدى ولد سنة ٥٥٠ بالقاهرة فى بيت يسار ونعمة ، إذ كان أبوه وجده من كتَّاب الإنشاء فى الدولة الفاطمية ، كما يدل على ذلك تلقيبهما بلقب القاضى الذى كان يمنح لكبار الكتاب ، وكانت قد انعقدت صلة وثيقة بين جده وأبيه وبين القاضى الفاضل حين كان يعمل معهما فى الدواوين الفاطمية . ولما تطورت الظروف وأصبحت مقاليد الحكم فى مصر بيد صلاح الدين واتخذ القاضى الفاضل وزيرًا له ومستشارًا قرَّب الفاضل منه جعفر بن سناء الملك وتوثقت الصلة بينهما حتى كان ينيبه عنه فى غيبته مع صلاح الدين بالشام . وعُنى جعفر بتربية ابنه هبة الله منذ نعومة أظفاره ، فعهد إلى بعض القرَّاء بتحفيظه القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه اختلف إلى حلقات العلماء وخاصة حلقة ابن بَرِّى أكبر أئمة اللغة والنحو المصريين حينئذ . وأكبَّ يقرأ كتب الفقه وعلم الكلام والمنطق على نحو ما يشهد بذلك استظهاره فى أشعاره لبعض مصطلحات هذه العلوم فى الحين بعد الحين . ودفعه طموحه العلمى إلى الارتحال إلى الإسكندرية لسماع الحديث على السُّنِّى الكبير الحافظ السِّلَفِىِّ أحمد بن محمد ، وفيه يقول :

وجئتُ إلى الإسكندريَّة قاصدًا　　إلى كعبة الإسلامِ أو عَلَم العِلْمِ
إلى أحمدَ المحيى شريعةَ أحمدٍ　　فلا عدمتْ منه أبًا أُمَّةُ الأُمِّى

---

(١) انظر فى ترجمة ابن سناء الملك وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٤/١ ومعجم الأدباء ٢٦٥/١٩ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٢٧٣ وابن خلكان ٦١/٦ وعبر الذهبى ٢٩/٥ والشذرات ٣٥/٥ وحسن المحاضرة ٢٤٣/١ وبدائع البداثه لعلى بن ظافر وخزانة الأدب للحموى فى مواضع متفرقة ومقالنا : «الروح المصرية فى شعر ابن سناء الملك» بكتابنا : «فصول فى الشعر ونقده وابن سناء الملك : حياته وشعره لمحمد إبراهيم نصر» ومقدمة محمد عبدالحق لنشرته للديوان فى الهند ، ونشره وحققه فى القاهرة محمد إبراهيم نصر .

وقد أكبَّ على دواوين الشعراء يلتهمها كما أكبَّ على الموشحات الأندلسية فى طليعة عمره كما يقول فى مقدمة كتابه النفيس « دار الطراز » الذى سبق أن تحدثنا عنه وقلنا إنه وضع فيه عروض الموشحات ، وإنه يقوم فى ذلك مقام الخليل بن أحمد فى وضعه عروض الشعر العربى ، ونراه يختم بعض موشحاته بأقفال أعجمية مما يدل على معرفته بالفارسية . ويشهد وضعه لعروض الموشحات وضعًا نهائيا بذكاء خارق .

وقد تفتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكرًا تفتحًا راع القاضى الفاضل كبير أدباء زمنه ، فاستاذن أباه فى أن يتخذه كاتبا بين يديه ، وأذن له ، وأضفى عليه من إعجابه بشعره وودِّه ما أصبح به أبًا روحيًا له ولفنِّه . ومن خير ما يصور هذه الأبوة الروحية كتابُ ابن سناء الملك المسمى « فصُوص الفصول » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، والكتاب فى جمهوره مراسلات بين ابن سناء الملك وأبيه جعفر من جهة وبين القاضى الفاضل من جهة ثانية حين كان يذهب إلى الشام فى رفقة صلاح الدين ، فيكاتب الشاعر وأباه ، وخاصة حين يرسل إليه ببعض مدائحه فيه أو فى صلاح الدين . وهى ليست مكاتبات إخوانية فحسب ، بل هى أيضا ملاحظات نقدية على الشعراء السالفين والمعاصرين وخاصة ابن سناء الملك نفسه وأشعاره . وتموج رسائل الفاضل فيها بثناء غَدِقٍ عليه من مثل قوله عن بعض قصائده : « مايرينا من آية إلا هى أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروسًا إلا وقد جمع بين حسنها وبَخْتها ، وقلما يُجْمَعُ بين الحسن والبَخْت » ويفضِّلها على المعلقات . ويمدحه مرة ثانية فيقول : لله دَرُّ تلك الأنفاس التى تستخف عقول الرجال ، بل عقود الجبال . . ولقد أبقى للآباء ذكرا ، وللأبناء فخرا ، وأرسلها مقلَّدات ، فأرهفها مجرَّدات ، وأثارها أوابد ، فنظمها قلائد » . ويشيد الفاضل بموشحاته كما يشيد بأشعاره رافعا منزلته فيها على منزلة الأندلسيين درجات . ويهمنا ما يسجله كتاب فصوص الفصول من أنه كان ناقدا كما كان شاعرا .

واختصر ابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ ، باسم روح الحيوان ، ويقول ابن خلكان إنها تسمية لطيفة ، ويذكر له كتابا ثانيا باسم مصايد الشوارد . وكان ناثرا بارعا كما كان شاعرا مبدعًا ، يقول ابن خلكان : « ومن نثره فى وصف النيل فى سنة كان ناقصا ، ولم يوف الزيادة ، التى جرت بها العادة : « وأما أمر الماء فإنه نضبت مشارعه ، وتقطعت أصابعه ، وتيمم العمود (عمود المقياس) لصلاة الاستسقاء ، وهمَّ المقياس من الضعف بالاستلقاء » . يقول ابن خلكان : « وهذا من أحسن ما يوصف به نقصان النيل » . وزعم ابن سعيد فى كتابه المغرب أنه

كان غاليا فى التشيع ، وربما دفعه إلى ذلك أنه وجده يمدح القاضى الفاضل فى يوم عاشوراء ذاكرًا مقتل الحسين الشهيد فيه يقول :

يومٌ يساءُ به وفيه كلُّ شيعىٍّ وسُنِّى

ولم يكن القاضى الفاضل شيعيا ، بل كان سُنِّيًّا ومثله ابن سناء الملك ، وهو لذلك يقول إن ذكرى هذا اليوم تحزن السنيين والشيعة معًا . وقد أشار فى رثائه لبعض العلويين من أصهاره إلى نوم الخلق عن ثأر الحسين . وفى رأينا أنه ليس فى ذلك ما يعارض سنيته ، فإن مصرع الحسين يأسى له الطرفان المتعارضان من أهل السنة والشيعة جميعا ، وقد صرح فى مدحه للقاضى بأنه سنى رغم حبه وتشيعه له يقول :

وغدوتُ فى حبى له متشيِّعا من ذا رأى متشيِّعا متسنِّنا

وليس من المعقول أن ينال حُظْوة القاضى الفاضل وصلاح الدين شاعرٌ شيعى غالٍ فى تشيعه . ويبدو أن الصفدى قرأ هذه التهمة عند ابن سعيد ، وأكدها عنده أنه قرأ فى ديوان ابن الساعاتى هجاء له فى ابن سناء الملك حين سقط عن جواد له كان يسمى الجمل ، فزعم أنه إنما سقط عنه لبغضه أم المؤمنين السيدة عائشة وأباها الصدِّيق أبا بكر ، يقول :

أبغضتَ بالطبع أمَّ المؤمنين ولم تُحْبِبْ أباها فجاءتْ وقْعَةُ الجَملِ

وهو هجاء لابن الساعاتى جرَّه إليه أن اسم الجواد الجمل ، ولَه فيه أهاج مختلفة كما يشهد ديوانه ، وكأنه ذكر ذلك كيدًا له . وقد أشاد فى مقدمته لفصوص الفصول بالصحابة جميعا ، ولم يخص على بن أبى طالب بتنويه . ومر بنا أنه تتلمذ على الحافظ السلفى أكبر سنىٍّ فى عصره .

وكان ابن سناء الملك يعيش فى رغد من العيش ، لثراء أبيه ، وفى الديوان أنه أهداه مرة بستانا ومرة فندقًا . وظل موظفا فى ديوان الإنشاء منذ بواكير حياته ، وبعد وفاة صلاح الدين واستعفاء القاضى الفاضل من عمله ظل يعمل فى الديوان مع السلطان العزيز ثم أخيه السلطان الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل ، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الكامل بتدبير ديوان الجيش ، غير أنه استعفاه فأعفاه . ولم يلبث أن توفى سنة ٦٠٨ . ولم يكن يعمل مع كل أولئك السلاطين فحسب ، بل كان يقدم إليهم مدائحه وكانوا يجزلون له فى العطاء ، وبالمثل كان يجزل له فى العطاء أمراء البيت الأيوبى حين كان يمدحهم ، وفى ديوانه مدائح كثيرة لهم ولصفى الدين بن شكر وزير السلطان العادل . فالأموال كانت تُغْدَقُ عليه بالإضافة إلى راتبه

وما ورثه عن أبيه مما يؤكد أنه عاش مترفا منعما . وفى ديوانه أشعار كثيرة يصف فيها داره التى كانت تطلُّ على النيل وحديقتها وما كان بها من نافورات ، وكانت منتدى للشعراء من أصدقائه وكانت تجرى بينهم فيها محاورات ومفاكهات طريفة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن سناء الملك ، أكبر شاعر ظهر بمصر قبل العصر الحديث ، وقد أوضحنا فى مقال عنه بكتابنا فصول فى الشعر ونقده تمثيله فى أشعاره للروح المصرية ، من ذلك ما يجرى فى أساليبه من السهولة التى تعد انعكاسًا لما يشعّ منها فى روح المصريين أبناء النيل وأوديته وسهوله وما أسبغ على ساكنى ضفافه من حياة سهلة ، مما دفعه إلى استخدام بعض الكلمات العامية المألوفة فى ألسنة المصريين مثل « ياما بمعنى كثير جدا » ، ومثل « وديني هو علىّ أكثر » ومثل « على عينى » . ومن ذلك الرقة فى ألفاظه ومعانيه وما يتصل بها من اللين والدماثة ، مما جعله يكثر من التغزل بمن فقدن أبصارهن من الفتيات والنساء كقوله فى إحداهن :

شمسٌ بغير الليل لم تُحْجَبِ ... وفى سوى العَيْنين لم تُكْسَفِ
مُغْمَدَةُ المُرْهَفِ لكنها ... تَفْتِكُ بالغِمْدِ بلا مُرْهَفِ[1]

فهى شمس منيرة تحجبها غلالة من الليل ، شمس أصابها فى عينيها كسوف ، ونورها يغمر كل ما حولها وإن جفونها لتطبق على عينيها إطباق الغمد على سيفه ، ومع ذلك تفتكان بمن يبصرهما كما يفتك السيف القاطع . ويتجسَّد تمثل ابن سناء الملك للروح المصرية فى تعلقه الشديد – مثل المصريين جميعا – بوطنه ونفوره من الغربة حين يذهب إلى القاضى الفاضل بالشام فى إحدى القضايا المهمة ، حتى ليقول :

ووالله ما أَشْرِى الشآمَ ومُلْكَهُ ... وغُوطتَه الخَضْرا بِشبْرين من شُبْرَا

فغوطة دمشق بمشاهدها الساحرة بل الشام وملكه وصولجانه ، كل ذلك لا يشتريه بشبرين من شبرا : إحدى ضواحى القاهرة . وصِفة مصرية رابعة ماثلة بالقوة فى شعره هى حبه لأبويه وأسرته حبًّا يملك عليه كل شىء من أمره ، مما نراه ماثلا فى مراثيه لأمه وأبيه وجده وزوجه وأخته وإخوته . وله فى أبيه مدائح بديعة من مثل قوله وكأنه يمدح بعض السلاطين :

يا سائلا عن مَعاليهِ ليشهَرَها ... البدرُ فى الأفقْ يستغنى بشهرتهِ

---

(١) المرهف : السيف القاتك

ذاك الذى يَبْسم الدهرُ العبوسُ بهِ ... تِيهًا وتبتهج الدنيا ببهجتهِ

ونحسٌ فى مديحه لأبيه بسعادته سعادة غامرة وهو يتحدث عن منزلته وأدبه وعلمه وشِيَمه فى إجلال وإكبار يفوقان الوصف . وأيضا ما تمتاز به مصر من تعلق بالدين نجده مصورا فى أشعاره .

وأهم من استنفد مدائحه صلاح الدين والقاضى الفاضل ، ومعروف أن صلاح الدين قضى على أسطورة الصليبيين وما كان يقال عن بأسهم وما أسَّسوه فى الشام من ممالكهم فقد مزق جموعهم تمزيقا ، وردَّ فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . وقد مضى ابن سناء الملك يمدحه مدائح رائعة منذ إعداده لحرب الصليبيين ومدٍّ سلطانه على حلب وغيرها من ديار الشام ، وجمعه للعرب تحت لوائه ، حتى ينقضَّ بهم على حمَلة الصليب ، وله يقول :

بدولةِ التُّركْ عزَّت ملَّةُ العربِ ... وبابن أيوبَ ذلَّتْ شِيعةُ الصُّلُبِ
وفى زمان ابن أيوبٍ غَدتْ حلبٌ ... من أرض مصرٍ وعادتْ مصرُ من حَلبِ

وكأنه كان يستشعر فى عمق أمنية توحيد العالم العربى . وله فى صلاح الدين مدائح كثيرة يصور فيها بطولته وبطولة جيوشه وسحقهم للصليبيين . ومازال صلاح الدين ينزل بهم الدمار ويأخذ منهم الحصون والبلاد حتى كانت هزيمتهم الكبرى فى موقعة حِطِّين ، وفيها جرت دماؤهم أنهارا وتعمّ الفرحة الديار العربية ، ويهنئ ابن سناء الملك صلاح الدين بهذا النصر المبين قائلا :

لستُ أدرى بأىِّ فَتْحٍ تُهنَّا ... يا مُنيلَ الإسلامِ ما قد تمنَّى
أنهنِّيك إذ تملَّكتَ شامًا ... أم نُهَنِّيك إذ تملَّكت عَدْنا
قد ملكت الجِنان قَصْرًا فقصرا ... إذ فتحتَ الشآم حِصْنًا فحِصْنا
لك مدحٌ فوق السموات يُنْشا ... ومحلٌّ فوق الأسنَّة يُبْنَى
حَمَلوا كالجبال عُظْمًا ولكن ... جَعَلتْها حَملاتُ خَيْلك عِهْنا[1]
لم تلاق الجيوش منهم ولكنْـ ... ـك لاقيتهم بلادا ومُدْنا
وتصيَّدْتَهم بحلقة صَيْدٍ ... تجمع اللَّيْثَ والغزال الأغنَّا[2]

(١) يشير إلى الآية الكريمة : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) . والعهن : الصوف .

(٢) الغزال الأغن : الذى يخرج صوته من خياشيمه .

٤١

والقصيدة مديح رائع وتحمل كثيرا من الصور المبتكرة ، وقد مضى فيها يصور أخذ صلاح الدين لصليب الصلبوت الذى يزعم المسيحيون أن المسيح صُلب عليه ، ويغريه بإحراقه ، كما يصور أخذه لطبرية وعكا ونابلس وبيت جبريل وتبنين وغيرها من مدن الشام وحصونه ، وذكر فتكه بأرناط صاحب الكَرك بيده جزاء وفاقا لسوء فعله وقوله لتعرضه القبيح للحجاج المصريين ولإعداده أسطولا — كما مر بنا — لغزو مكة والمدينة ، ولما نُقل إليه عنه من استخفافه بالرسول عليه السلام .

ومدائحه فى القاضى الفاضل كثيرة حتى لتُعَدّ بالعشرات ، إذ كاد لا يترك مناسبة دون أن يهديه من أشعاره ، فهو يهديها له فى الأعياد وفى القدوم من الشام ومن الحج وفى انتصارات صلاح الدين ، إذ كثيرا ما ينوِّه بها فى مدائحه له ، وهو فيها يبالغ مبالغات كثيرة من مثل قوله :

صوَّر الله ذلك الشخصَ نورًا وجميعُ الأنام ماءٌ وطينُ

وقوله :

وما الدهرُ إلا خادمٌ أنت ربُّهُ وما الخلقُ إلا عالَمٌ أنت فاضلُهْ

وقوله :

الدهر مدَّ إليه كفَّ مفتقرٍ فمدَّ للدهر منه لحظَ محتقرِ
فى كفِّه قلمٌ إن شئتَ أو قَدرٌ يصرِّف الخلق بين النفع والضررِ

وهو يكرر معنى البيت الثانى ويطيل فيه ، وله يقول :

بميمونِ رأيك كان الفتوحُ ومنصورِ عَزْمك كان الغَلبْ

وكثيرا ما يردد هذا المعنى وكأنه يشير إلى قولة صلاح الدين المشهورة : لم أنتصر على الأعداء بسيفى وإنما انتصرت بقلم القاضى الفاضل ، وفيه يقول واصفا كرمه الفياض :

لا يستقرُّ المال فوق بنانِه حتى كأن بنانه مَخْروقُ
ياطالبين ذُرَى عُلاه توقَّفوا ومؤمِّلين نَدَى يديهِ أفيقوا

وهما بيتان رائعان فى وصف الجود ، وبحق كان القاضى الفاضل يستحق منه كل ثناء وكل تكريم فقد رعاه أعظم رعاية ، ونوه بأشعاره تنويها ليس وراءه غاية وبحقٍّ، يقول له :

شكرى لنُعْماك شكرُ الأرض للمطرِ أولا فشكرُ سوادِ العَيْنِ للنظرِ

فهو يشكره شكر الأرض الجدبة للغيث المدرار الذى يحيى مواتها ، بل شكر سواد العين لنور البصر الذى يصلها بالوجود ومشاهده . وله فيه صور كثيرة مبتكرة مثل قوله فى جوده المنهمر على الناس :

وقصَّر البحرُ عنه فهْو مكتئبٌ   أما تراه بكفَّىْ مَوْجِهِ التَطما
وولَّتِ السحبُ - إذ جارتْه - باكيةً   أما ترى الدمع من أجفانها انْسَجَا

فالبحر يشعر إزاء كرمه بقصوره حتى لينذب حظه ويلطم وجهه بكفى موجه ، وإن الغيث ليبكى بدموع غزار لاتزال تنهمل . ونحسُّ بفرحة تسرى فى كثير من مدائحه للفاضل كما نحس تخفة الظل التى يشتهر بها المصريون وخاصة فى تخلصاته من الغزل إلى المديح كقوله:

ضَنَّتْ بطرفٍ ظلَّ يُعْدِى سُقْمُهُ   أرأيتمُ مَنْ ضَنَّ حتى بالضَّنا
إنى رأيتُ الشمس ثم رَأيتها   ماذا علىَّ إذا هَوِيتُ الأحسنا
وسألتُ من أىِّ المعادن ثغْرُها   فوجدتُ من عبد الرحيم المعدنا
أبصرتُ جوهرَ ثَغْرِها وكلامَه   فعلمتُ حقًّا أن هذا من هنا

وضَنَّ صاحبته بالطرف وعدواه وضنَّها حتى بالسقم أو بالضَّنا غريب ، وتلطَّف فى التخلص من الغزل إلى مديح القاضى الفاضل عبد الرحيم ما شاء له التلطف والرشاقة وخفة الروح وعذوبة الكلم . وله فى غزله كثير من هذه التصاوير المبتكرة ، كقوله :

أقمتِ على عاشقيك القيامَهْ   بوردِ الخدِّ وغُصْنٍ لِقَامَهْ
فمِنْ وَرْدِ خدِّك كيف النَّجاةُ ؟ !   ومن غُصْنِ قدِّك كيف السلامَهْ

وقوله :

وأشكو إلى ليلِ الغَدائِرِ غَدْرَها   وأُملى عليه وهْو فى الأرض يكتب

وقوله :

ألقىَ حَبائلَ صَيْدٍ منْ ذَوائبِهِ   فصادَ قلبى بأشْرَاكٍ من الشَّعَرِ

وقوله :

لا تَخْشَ منى فإنى كالنسيم ضَنًا   وما النَّسيمُ بمخشىٍّ على الغُصُنِ

وقوله :

يُعانقها من دونيَ العِقْدُ وَحدَهُ فيا عجبًا ياقومُ هل يَقْلَقُ العِقْدُ

وقوله :

سألتْنى ما حالُ قلبك بعدى ربَّةَ البيت أنتِ بالبيت أَخْبَرْ

وهو باب واسع عند ابن سناء الملك ويدل على شاعرية خصبة وأنه كان مايزال يغوص وراء التصاوير حتى يأتى منها بفرائد عجيبة ، مع حلاوة الأسلوب وعذوبته ، مما يدل على أنه كان شاعرا مبدعا إلى أبعد حدود الإبداع . وسنعود إليه مرارا فى عرض موضوعات الشعر الأخرى سوى المديح .

ابن نُباتة[(١)]

هو جمال الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد ، من سلالة عبد الرحيم ابن نباتة خطيب سيف الدولة المشهور ، وقد غلبت عليه نسبته إليه . كان أبوه وجده من شيوخ الحديث ، وقد ولد لأبيه بزقاق القناديل فى القاهرة ، واختلف من ترجموا له فى سنة ولادته هل كانت سنة ٦٧٦ أو سنة ٦٨٦ وجمهورهم يؤكد أنه ولد فى السنة الأخيرة ، غير أن هناك نصًّا عنه يذكر فيه أساتذته أو شيوخه فى الأدب ، ويذكر من بينهم محيى الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وليس من المعقول أن يتتلمذ له ويأخذ عنه الأدب وهو فى الخامسة أو السادسة من عمره ولذلك كنا نرجح أنه ولد فى سنة ٦٧٦ على الأقل إن لم يكن قبيل ذلك . ويذكر مترجموه كثرة من شيوخه فى الحديث من بينهم أبوه وجدّه . وتنقل فى حلقات شيوخ الأدب وتفتحت موهبته الأدبية فى الشعر والنثر مبكرة . وكان كثير من العلماء فى مصر يبرحونها إلى دمشق والشام فى تلك الحقب . وبالمثل كان كثير من علماء الشام يبرحونها إلى مصر والقاهرة ، ويبرح أبوه مصر إلى الشام

---

(١) انظر فى ابن نباتة وشعره الدرر الكامنة ٣٣٩/٤ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٧٣/٩ والوافى بالوفيات للصفدى ٣١١/١ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٢٢/١٤ والنجوم الزاهرة ٩٥/١١ وشذرات الذهب ٢١٢/٦ والبدر الطالع ١٥٢/٢ وخزانة الأدب للحموى فى مواضع متفرقة وكتاب ابن نباتة المصرى لعمر موسى (طبع دار المعارف) والأدب فى العصر المملوكى لمحمد زغلول سلام (طبع دار المعارف) ٢٢١/٢ وطبع ديوانه قديما فى مصر وهو فى حاجة إلى طبعة محققة ، ومنه مخطوطات كثيرة فى مكتبات العالم العربى والغربى

حوالى سنة ٧١٠ وينزل دمشق ، ويأخذ الطلاب عنه الحديث[1] ، ويستقر بها ويتولَّى فيما بعد مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية هناك . ولعل ارتحال أبيه عن مصر هو الذى حبَّب إليه الرحلة وراءه إلى دمشق واتخاذها منذ سنة ٧١٦ دار مقام له ، وظل بها مدة تقارب نصف قرن أو بعبارة أدق نحو خمسة وأربعين عاما ، وقد ظل يحن إلى مصر حنينا متصلا بمثل قوله :

آهٍ لمصرَ وأرض مصرَ وكيف لى … بديار مصرَ مراتعا وملاعبا
حيث الشبيبةُ والحبيبةُ والوفا … فى الأقربين مشاربًا وأصاحبا
والدهرُ سلمٌ كيفما حاولتُه … لا مثلُ دهرى فى دمشق محاربا

وفؤاده يهفو إلى مصروتراب مصر ونيل مصر ورياض مصر ومراتع صباه بها وملاعبه ، ويقول إنها ديار شبابه وحبه وديار الوفاء فى الأقرباء وغير الأقرباء وديار الأمن والسلام ونعيمه . وفى أثناء مقامه بدمشق كان يتردد على حلب ، وبالأخص على حماة وصاحبها المؤيد أبى الفداء الذى استقبله أروع استقبال ، وقرر له راتبا سنويا : ستمائة درهم غير ما كان يسبغه عليه من العطاء كلما قدم عليه بمدحة من مدائحه ، وظل يفد عليه حتى توفى سنة ٧٣٢ فوفد على ابنه الأفضل من بعده .

وفى دمشق والشام تفجر ينبوع الأشعار عند ابن نباتة حتى أصبح – كما يقول ابن كثير والسبكى – حامل لواء الشعر فى زمانه ، غير منازع ولا مدافع . وأروع أيامه حينئذ أيام اتصاله بالسلطان المؤيد ، ونراه لا يكتفى بما يقدم إليه من مدائح ، بل يؤلف الكتب باسمه ويهديها له مثل كتابه « سَرْح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » وهى الرسالة الهزلية ، ومثل كتابه « مجمع الفوائد » . وكان قد قرظه كثيرون من فضلاء دمشق وعلمائها وأدبائها ، مما جعله يؤلف فيهم كتابه « سجع المطوق » مترجما لهم ، وهو كتاب نفيس لايزال مخطوطا . ونراه فى هذه الفترة : فترة اتصاله بالسلطان المؤيد وثيق الصلة بشيوخ دمشق وأعلامها ، من مثل ابن الزَّمْلكانى وابن صَصْرى القاضى والشهاب محمود شاعر الشام وتقى الدين السبكى وابنه تاج الدين وابن فضل الله العمرى ، وله فيهم جميعا مدائح بديعة . وكان ابن فضل الله يتولى كتابة السر فى دمشق ، فكان

---

(١) انظر ترجمته فى الوافى بالوفيات ١/٢٧٠ والدرر الكامنة ٤/٢٩١

طبيعيا أن يقرب ابن نباتة ويعهد إليه بكتابة التوقيع . وكان أحياناً يُعْزل عنها وأحيانا يعود إليها حتى سنة ٧٦١ . وفى هذه السنة استدعاه الناصر حسن سلطان مصر والشام إلى القاهرة فى ربيع الأول وأمر أن يُصْرَفَ له ما يتجهَّز به وأن يرد عليه ما انقطع عنه من الراتب ، وعينه موقِّعا للدَّسْت وكانت قد تقدمت سنه ، فلم يستطع القيام بتوقيع الدَّسْت ، فأعفاه السلطان حسن من الحضور وأمر بإجراء راتبه عليه ، كما أمر بنسخ ديوانه وحفظ نُسَخٍ منه فى المكاتب السلطانية . وبذلك أمَّره على الشعراء ، مما جعله يلهج بمدحه والثناء عليه . ولم يلبث السلطان حسن أن توفى ، وكان راتبه ربما صُرف له وربما لم يصرف حتى توفى بمارستان قلاوون سنة ٧٦٨ للهجرة .

وكان نَبْعُ الشعر عند ابن نباته فياضا ، فله بجانب ديوانه الكبير ديوان سماه « القطر النباتى » وهو خاص بمقطوعاته الشعرية ، والقطر السكر والتورية فى اسم الديوان واضحة ، يريد السكر النبات . وله ديوان خاص بغزلياته سماه « سوق الرقيق » . وديوانه الكبير يكتظ بالمدائح ، وعُنى كثيرون من معاصريه بمعارضته فى بعض قصائده ، واشتهر الصفدى بكثرة إغارته على معانيه ، وخاصة على توررياته البديعة وكان مغرما بصنعها ، وألف فى سرقات الصفدى منه كتابا سماه « خبز الشعير » يريد أن سرقاته كخبز الشعير المأكول المذموم ، واستهلَّ خطبة هذا الكتاب بالآية الكريمة : (ربِّ اغفرْ لى ولوالدىَّ ولمن دخل بيتىَ مؤمنا) ويورد دائما أبياته موضع السرقة ، ثم يورد سرقة الصفدى مثل قوله فى الغزل موريا .

ومولـع بـفـخـاخٍ يمدُّهـا وشِـبـاكِ
قالت لىَ العين ماذَا يصيدُ قلت كَرَاكى

ويقول الصفدى :

أغار على سَرْحِ الكرَى عند ما رمى الـ ـكراكى غزالٌ للبدور يحاكى
فقلت ارجعى ياعينُ عن وِرْد حسنهِ ألم تنظريه كيف صادَ كراكى

والكرى : النوم ، والكراكىُّ طير مفرده كركىّ . والتورية واضحة عند ابن نباته وخفيفة رشيقة وقد أحالها الصفدى ثقيلة بما أضاف إليها من شرح وتطويل ، ومن ذلك قول ابن نباتة متغزلا :

فديتُك أيها الرَّامى بقوسٍ ولَحْظٍ ياضَنَا قلبى عليهِ
لقوسك نحو حاجبك انجذابٌ وشِبْهُ الشىءِ منجذبٌ إليه

ويقول الصفدى :

تشرَّط مَنْ أُحبُّ فذُبْتُ وَجْدًا فقال وقد رأى جَزَعى عليهِ
عقيقُ دمى جَرَى فأصاب خَدِّى وشِبْهُ الشىء منجذب إليه

وتشبيه الحاجب بالقوس وانجذابه إليه طبيعى ، أما انجذاب الدم إلى الخّد وتشبيهه به فنافر منه بعيد .

وابن نباتة فى شعره يمثل بحق ما تمتاز به الروح المصرية من الخفة والإشاقة . ويذكر السبكى فى كتابه طبقات الشافعية أنه مدح ابن الزَّمْلكانى بتائية رائعة بدأها بالغزل ووصف الخمر ، وأنشدها ثم قال : « حاول أدباء عصره معارضته فيها فلم يحسنوا إحسانه ، بل قصَّروا وتأخروا ولم يلحقوا شأوه »[1] . وأروع مدائحه ما نظمه فى المؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ثم بعد ذلك فى السلطان حسن ، وقد دبَّج فى المؤيد نحو أربعين قصيدة ومقطوعة من مثل قوله :

لو أنَّ للبحر جَدْواه لفاض على وَجْه الثَّرى بنفيس الدرِّ منضودِ
ولو أمرَّ على صَلْد الصَّفا يدَه لأنْبت العُشْبَ منها كلُّ جُلْمودِ
ياحبَّذا الملكُ السارى على شِيَمٍ تُرْوَى وتُنْقَلُ عن آبائه الصِّيد
أغنى العُفاة فلولا ناهياتُ تقًى — أستغفر الله — سمّوه بمعبودِ

وهو دائم الإشادة بجوده الفياض على العفاة والسائلين ، ويكثر من مديح أسرته الأيوبية وآبائه الصيد الشجعان وماشادوا لأنفسهم من بيت فخار ملوه فى أعلى السموات ولايزال يتألق ويضىء بين الكواكب . وكان المؤيد مؤرخا كبيرا ، وعالما فى العربية والفقه والأصول والطب والفلك والمنطق والفلسفة ، وينوه ابن نباتة مرارا بعلمه من مثل قوله مشيرا إلى تصانيفه الكثيرة :

العـالـمُ الملكُ السيارُ سؤْدُدُه فى الأرض سَيْرَ الدَّرارِى بين أفلاكِ

وقوله :

وللعلوم تصانيفٌ بدَتْ فغَدَتْ نعم السِّوَارُ على الإسلام والسُّورُ

وكان مولعا بالتورية كما أسلفنا ، وكان يدخلها فى مدائحه للمؤيد ، وورّى كثيرا باسم مدينته حماة عن الحماة الحقيقية ، ومن توررياته الطريفة فى مديحه قوله :

---

(١) طبقات الشافعية ٩/٢٠٠

أقسمتُ ما الملك المؤيَّدُ فى الوَرَى إلا الحقيقةُ والكرامُ مجازُ
هو كعبةٌ للفضل ، ما بين النَّدَى منها وبين الطالبين حِجازُ

وواضح أنه ورَّى فى كلمة « مجاز » فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للحقيقة ، وإنما أراد بها المعنى البعيد وهو المَعْبَرُ ، وورَّى فى كلمة « حجاز » فلم يرد بها المعنى القريب الذى تشير إليه كلمة الكعبة وهو الحجاز إقليم الكعبة المعروف ، وإنما أراد المعنى البعيد وهو الحاجز ، ومن ذلك قوله فى مديح المؤيد :

يذكّرنا أخبارَ مَعْنٍ بجودهِ ونُنْشِى له لفظًا فيُنْشِى لنا مَعْنَا

ومعن بن أوس المزنى مشهور بجوده فى مفتتح العصر العباسى شهرة حاتم فى الجاهلية ، وقد ورَّى آخر البيت فى مدلول كلمة معنى ، فلم يرد بهاالمعنى القريب المقابل للفظ وإنما أراد بها مَعْنًا المزنى .

وممدوحه الثانى فى الديوان بعد المؤيد ابنه السلطان الأفضل ، وقد أنشده حين تولى إمارة حماة بعد أبيه تهنئة بسلطنته وتعزية له عن أبيه ، تُعَدُّ من فرائد الشعر العربى ، وفيها يقول :

هناءٌ محا ذاك العزاءَ المقدَّما فما عبسَ المحزونُ حتى تبسَّما
ثغورُ ابتسامٍ فى ثغورِ مدامعٍ شبيهان لا يمتاز ذو السَّبْق منهما
مليكان هذا قد هوَى لضريحِهِ برغمى وهذا للأسرَّة قد سَمَا
كأنَّ ديار الملك غابٌ إذا انقضَى به ضَيْغَمٌ أنشا به الدهرُ ضَيْغَمَا
فإن يَكُ من أيوبَ نجمٌ قد انقضى فقد أطلعتْ أوصافُك الغُرُّ أنجما
وإن تلك أيامُ المؤيد قد مضَتْ فقد جدَّدتْ عُلْياك وقتًا وموْسما
هو الغيثُ ولّى بالثّناء مشيَّعًا وأبقاك بحرًا بالمواهب مُنْعما

وعلى هذا النحو تمضى تهنئة الأفضل جامعة بين النقيضين فى كل بيت : بين المدح والرثاء ، وفى ذلك ما يصور براعة ابن نباتة وحدة ذهنه وذكائه وخصب شاعريته وسهولة أسلوبه ، وهى سهولة تتمم سهولة أشعار ابن سناء الملك ، بل سهولة أشعار المصريين عامة ، سهولة تقترن بعذوبة ، وكأنها نفس عذوبة مياه النيل ، وكان يحس ذلك معاصروه إزاء أشعاره وما تقترن به من حلاوة ، فقالوا إن أشعاره سكر نبات أو قَطْر نبات . وله فى مديح الأفضل وآبائه الأيوبيين :

قومٌ لَذِكراهم على صُحُف العُلا ... أَصْلُ الفَخارِ وكلُّ ذكْرٍ مُلْحَقُ
الملكُ بعضُ ديارهم فليتزلوا ... والنجمُ بعضُ جدودهم فليرتقوا
إن يَبْقَ ماضيهم على سُنَنِ الوَفا ... فلأنهم ببقاء أفضلهم بَقُوا
ملأتْ مواهبُه القلوبَ مهابةً ... فالقلبُ قبل الطَّرْف فيها مُطْرَقُ
وكــأنما أقلامُــه بسوادهــا ... غربانُ بَيْنٍ فى الخزائن تنعَقُ
لاعيبَ فيه سوى العزائم قصَّرتْ ... عنها الكواكبُ وهْى بعدُ تحلِّق

وواضح أنه مع سهولة الأسلوب فى القصيدة نحس كأن الألفاظ يستدعى بعضها بعضا مع جمال التصاوير فالقلب مطرق قبل العين هيبة ، والأقلام كأنها غربان فراق لخزائن الأمير ماتزال تنعق فى أموالها بالبين والبعد إلى غير مآب ، وعزائم الأفضل ماتنى محلقة فى السموات البعيدة ، حتى لتعلو الكواكب فى تحليقها المتغلغل فى الفضاء ، وإن قومه لأصل الفخار وكل فخر لغيرهم إنما هو ملحق بفخرهم . وكان قد خرج مع الأفضل فى رحلة صيد ، فوصفها فى أرجوزة طويلة نيفت على مائة وستين بيتا ، وصف فيها رياض حماة ثم أطنب فى وصف القَنْص بالشواهين والصقور والكلاب والبندق بمثل قوله :

وكلُّ شاهينٍ شهىٍّ المُرْتَمَى ... كبارقٍ طار وصَوْبٍ قد هَمَا[1]
بينا تراه ذاهبا لصيدهِ ... مـعتصما بأَيْدهِ وكـيدهِ[2]
حتى تراه عائدا من أفْقهِ ... مـلـتزما طائرَه فى عُنْقهِ
وكلّ صقرٍ مُسْبلِ الجناحِ ... مواصلُ الغدوِّ والرَّواح[3]
ذو مقلةٍ لها ضرامٌ واقِدُ ... يكاد يَشْوِى مايصيد الصائد
كأنما المخلبُ منه مِنْجَلُ ... لحصْد أعمـار الطيور مرسل
وكل منسوبٍ إلى سَلوقِ ... أهْرتَ وثاب الخُطا ممشوقِ[4]
طاوى الفؤاد ناشر الأظافرِ ... ياعجبًا منه لطاوٍ ناشرِ
يعضّ بالبيض ويخطو بالقنا ... ويسبق الوهم لإدراك المنى

---

(١) الصوب : المطر . هما : سال
(٢) الأيد : القوة
(٣) مسبل : مرسل
(٤) سلوق تنسب إليها كلاب الصيد السلوقية . أهرت : واسع الشدق .

وإنما تمثلنا بهذه الأبيات جميعها من الأرجوزة لندل على أن أرجوزة الطرد والصيد المليئة بالألفاظ الغريبة عند أبى نواس ومن جاءوا بعده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة بفضل مهارته الأسلوبية ، والأبيات محملَّه بصور بديعة ، فمقلة الصقر كأنها شعلة نار ومخلبه كمنجل يحصد من الطير الأعمار ، وكل كلب سلوقى يعض بأسنانه الحادَّة ويخطو بسيقان كأنها القنا أو الرماح القاتلة . وختم الأرجوزة بمديح الأفضل وبحق سماها : « نظم السلوك فى مصايد الملوك » .

وممدوحه الثالث السلطان الناصر حسن ، مدحه بأخرة من حياته حين ألقى عصاه بالقاهرة ، وليس فى مديحه له الحرارة التى ألفناها فى مديح الأفضل وأبيه المؤيد ، وقد يكون ذلك لتقدم سنه ، وله يقول :

يا ناصرَ الدين والدنيا لقد نفذتْ   أقلامُ مدحك فى الدنيا بسلطانِ
دانتْ لك الخلقُ من بدوٍ ومن حضَرٍ   وفاض جودُك فى قاصٍ وفى دانى
هذى المدائنُ من أقصى مشارقها   لمنتهى الغرب فى طوعٍ وإذعان

وله وراء مديح السلاطين والأمراء والعلماء والكتَّاب مديح نبوى رائع . وبينه وبين صلاح الدين الصفدى محاورات ومراسلات ومعاتبات ، وأرسل إليه الصفدى قصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجاز معلقة امرئ القيس ، مفتتحاها بقوله :

أفى كل يومٍ منك عتبٌ يسوءنى   كجلمود صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ من عَلِ

ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقاته منه فى كتابه « خبز الشعير » السالف . وصنع ابن نباتة صنيعه فرد عليه بقصيدة من نفس الطراز شطورها الثانية مقتبسة من نفس الشطور فى معلقة امرئ القيس استهلَّها بقوله :

فطمتَ ولائى ثم أقبلتَ عاتبا   أفاطمُ مهلا بعضَ هذا التدلُّلِ

وابن نباتة كثير الشكوى فى شعره من بؤسه ورقة حاله ، وربما صدق ذلك على أيامه قبل لقاء السلطان المؤيد الذى غمره بنواله ، وربما كان لكثرة عياله أثر فى ذلك ، بل إنه يعلن هذه الكثرة فى مثل قوله :

لقد أصبحتُ ذا عُمْرٍ عجيبٍ   أُقَضِّى فيه بالأنكاد وقتى
من الأولاد خمسٌ حول أمٍّ   فوا حَرباه من خَمْسٍ وستٍّ

وكلمة ست لا يريد بها العدد كما يتبادر ، وإنما يريد أم عياله ، ويسميها ستَّه أو سيدته . وكان مرزَّأً ، حتى ليقول ابن تغرى بردى فى ترجمته بالمنهل الصافى إن كثيرين من أولاده توفُّوا فى سن الخامسة والسادسة والسابعة ، فكان يألم لهم ويرثيهم مراثى كثيرة ، وله رثاء حار فى السلطان المؤيد وابنه الأفضل . ويقول الشوكانى : هو أشعر المتأخرين ولاسيما فى الغزليات .

عبد الله[1] الشبراوى

من بيت علم وجلالة ، كما يقول الجبرتى ، ولد فى سنة ١٠٩٢ ومضى فى نعومة أظفاره يحفظ القرآن الكريم ، ثم اختلف إلى الشيوخ بالأزهر يأخذ عنهم الفقه الشافعى ، وسرعان ما ظهرت براعته ، فأملى وحاضر الطلاب . واعترف له الجميع بالفضل والتعمق فى الشريعة والعلوم الدينية ، مما أتاح له أن يتولى مشيخة الأزهر فى سنة ١١٣٧ . وكان له جاه رفيع ومنزلة عظمى عند الأمراء ورجال الدولة ، وكانت كلمته لديهم نافذة وشفاعته مقبولة . وصار لأهل العلم فى مدة مشيخته للأزهر مقام علىٌّ وهيبة وتجلّة عند الخاص والعام ، ومن مؤلفاته عنوان البيان وبستان الأذهان فى الأدب والسلوك والأخلاق وشرح الصدور بغزوة بدر والإتحاف بحب الأشراف وديوان منائح الألطاف فى مدائح الأشراف ، وكلها مطبوعة بالقاهرة من قديم . يقول الجبرتى : « وله ديوان يحتوى على غزليات وأشعار ومقاطيع مشهور بأيدى الناس » . ومازال يتولى مشيخة الأزهر حتى وفاته سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة .

وللشبراوى مدائح فى ولاة مصر العثمانيين ، وأهم وال دبَّج فيه مدائحه عبد الله الكبورلى أو الكبورى لأوائل العقد الخامس من القرن ، وكان جديرًا حقًّا بمديحه له ، إذ يقول الجبرتى عنه : « كان خيِّرا صالحا منقادًا إلى الشريعة أبطل الخمارات والمنكرات » ويقول « إنه كان من أرباب الفضائل وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب » ويذكر أن للشبراوى فيه مدائح طنانة ، وفيه يقول :

سليلُ المكرمات ابنُ الكبورى ... كريمُ الطبع والأصلِ الشَّهيرِ
أقام العدلَ فى مصرٍ وأحيا ... معالمه بها بعدَ الدُّثورِ

---

(١) انظر فى ترجمة الشبراوى سلك الدرر ١٠٧/٢ وتاريخ الجبرتى ٢٠٨/١ وراجع فى أشعاره الجبرتى ٧١/١ ، ١٤٤ ، ١٧٦ ، ٢١١ .

وإن لمعتْ صَوارمُه بأرضٍ تسارعت العصاةُ إلى القبورِ
وإن حادثتَه فى العلم تَلْقَى بحورًا مَوْجُها درُّ النُّحورِ
وإن ساومتَه شعرًا فحدِّثْ عن ابن أبى ربيعةَ أو جَريرِ
وإن تسمعْ تلاوتَه تجِدْهُ حكى داودَ يلهج بالزَّبورِ
أدام اللهُ دولتـه بمصرٍ ومتَّعنا به دهرَ الدهورِ
وأنقذنا به من كلِّ كَرْبٍ وكفَّ بعزمه أهلَ الفجورِ

ونسيج القصيدة جيد ، والشبراوى يمدح الكبورى بقضائه على أهل الفجور وإشاعته للعدل الذى لا تصلح حياة الأمة بدونه ، وينوِّه بعلمه وحسن تلاوته للذكر الحكيم كما ينوه بشعره ونثره . وقد مضى فى القصيدة يمدحه ببلاغته وتفوقه على نوابغ الشعراء من أمثال ابن هانئ الأندلسى ونوابغ الكتَّاب من أمثال الحريرى . وكثرت منذ زمن المماليك تقاريظ الكتب والمصنفات الأدبية والبلاغية ، وللشبراوى من تقريظ لبديعية وشرحها لعلى بن تاج الدين :

أذاك ثَـغْـرُ تـبسَّـمْ أم ذاك لُطْفُ تجسَّمْ
أم روضـةُ قـد تَـغَنَّى شُـحْـرورُهـا وتـرنَّـم
أم الصَّبا حين هبَّت أزالت الهـمَّ والـغَـمّْ
قد كنت أعتب دهرى وأحسب الـدهـر أَعْـقـم
حتى رأيتُ عـجـيـبًـا من فضلك الباهر الجَمّْ
فـكـلُّ لـفـظك لُـطْفُ وكـلُّ مـعـنـاك محكـم

والتقريظ طويل إذ تحوَّل به الشبراوى إلى مدحة يشيد فيها بعلم على بن تاج الدين وحفظه وفهمه كما يشيد بنثره وشعره وذكائه وبراعته . وكان من عادة الشعراء حين يتولى أمير أو يتوفَّى هو أو بعض العلماء أوالأدباء أن ينظموا أبياتا فى تلك المناسبة ، إذا حُسبت حروف الكلمات فى شطرها الأخير بحساب الجمَّل أرَّخت لسنة الوفاة أو الولاية ونحو ذلك . وكان الشبراوى يشارك فى هذا الصنيع ، من ذلك تأريخه لوفاة الشيخ أحمد الدلنجاوى شاعر وقته المتوفى سنة ١١٢٣ للهجرة :

سألتُ الشعر هل لك من صديقٍ وقد سكن الدِّلنجاوىُّ لَحْدَهْ
فصاحَ وخَرَّ مغشيًّا عليه وأصبحَ ساكنا فى القبر عنده
فقلتُ لمن أراد الشِّعْرَ أقْصِرْ فقد أرخْتُ : ماتَ الشِّعْرُ بعده

وللشيخ الشبراوى بعض غزليات رقيقة ، كان يفرد لها أحيانا مقطوعات قصيرة ، وأحيانا يجعلها فى مقدمات مدائحه على عادة الشعراء السابقين ، ومن قوله فى مقدمة إحدى مدائحه لعبد الله الكبورى :

أعِدْ خبَر العُذَيبِ وساكنيهِ ... وكَرِّرْ طيبَ ذكرِهمُ عليَّا
فإنهمُ — وإن هجروا وصَدُّوا ... أحبُّ الناس كلِّهمِ إليَّا

وواضح أن صياغة الشبراوى جيدة ، وفى شعره وشعر أمثاله من معاصريه مايدل على أن الشعر كانت لاتزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياة .

٥

شعراء المراثى والشكوى

نشط الرثاء فى مصر من قديم ، ونلتقى به زمن الولاة فى العهد الأموى ، ولعل أهم وال رثاه الشعراء حين موته عبد العزيز بن مروان ، وكان — كما مرَّ بنا — ممدَّحا ، وتصادف أن توفى بعد وفاة ابنه الأصبغ بنحو شهر ، فبكاهما الشعراء ، وسجل الكندى بكاءهم لهما فى كتاب الولاة والقضاة كما سجل بكاءهم لدارهما المذهبة حين أمر مروان بن محمدآخر الخلفاء الأمويين بحرقها وهو فارٌّ بمصر وجيش العباسيين يطارده ، وكان عبد العزيز قد تأنق فيها ، وكأنما عزَّ على مروان أن تصير للعباسيين .

ونمضى فى زمن الولاة وتلقانا فى كتاب الولاة والقضاة مراثٍ مختلفة لنفر منهم ولبعض الشخصيات العربية ، وفى رأينا أن أهم مرثية خلفتها تلك الحقبة مرثية المعلَّى الطائى لجاريته ، وقد أشرنا إليها فيما أسلفنا من حديث . وتُظلّ الدولة الطولونية مصر ، ومرَّ بنا ماكفلته لمصر من استقلال عن بغداد ومن نهضة عمرانية وعلمية وأدبية وما أقامته من آثار عظيمة فى مقدمتها قصر ابن طولون وميدانه الذى حوله خمارويه إلى بستان رائع واتخذ فيه بركة من الزئبق ، واتخذ لنفسه فى قصره مجلسا سماه مجلس الذهب نُقش على جدرانه صور بارزة له ولحظاياه وعلى رءوسهن أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر . وأغدقت الدولة على الشعراء إغداقا واسعًا ، فلما قضى عليها جيشُ الخلافة العباسية بقيادة محمد بن سليمان — كما أسلفنا — وهُدمت آثارها بكاها الشعراء وبكوا آثارها

بلموع غزار من مثل قول إسماعيل بن أبى هاشم[1] :

قِفْ وَقْفَةً بِفناء باب السَّاجِ والقَصْرِ ذى الشُّرفاتِ والأَبْراجِ[2]
وربوعِ قومٍ أُزْعجوا عن دارهم بعد الإقامة أَيَّما إزعاج
فانظرْ إلى آثارهم تلقى لهم علما بكل ثَنِيَّةٍ وفِجاج[3]

ولسعيد القاصّ مرثية طويلة للدولة وآثارها احتفظ بها الكندى [4] فى كتابه الولاة والقضاة ، واقتطف بعض أبياتها ابن تغرى بردى وأنشدها مع ما أنشد من مراثى الشعراء للدولة وما كانت أقامت من قصور ومبان وآثار فخمة ضخمة ، ومن قول ابن أبى هاشم مخاطبا القصر وقد خلا من سكانه :

بالله عندك عِلمٌ من أحبَّتنا أم هل سمعتَ لهم من بعدنا خبرا

وتكاثر الشعراء – كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع – لعهد الدولة الإخشيدية ، غير أنهم لم يبكوها حين دخل جوهر الصقلى مصر واستولى عليها باسم إمامه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ وقد يرجع ذلك إلى أن مدة الإخشيد لم تَطُلْ ، وخلفه ابنه أُنوجور حتى سنة ٣٤٩ فأخوه على حتى سنة ٣٥٥ وكان كافور مدبر مملكتهما ، ولم يكن لهما من السلطان شيء . وخلف عليا كافور حتى سنة ٣٥٧ وتوفى فخلفه أحمد بن على بن الإخشيد وعمره إحدى عشرة سنة ، واضطربت أمور مصر اضطرابا شديدًا ، ولم يتداركها الخليفةالعباسى ببغداد ، وسرعان ما دخلت رايات المعز الفاطمى بقيادة جوهر ، واستولى على البلاد دون مقاومة تذكر ، وكأنما تنفست مصر الصعداء بزوال هذه الدولة فلم يبكها أحد من شعرائها على نحو ما بكوا الدولة الطولونية .

وتلقانا فى أوائل الدولة الفاطمية مراثٍ مختلفة لتميم بن المعز أوَّل خلفائها بمصر ، وكان أكبر أولاده ، وكان المظنون أن يتخذه ولى عهده ، غير أن سيرته السيئة جعلت أباه يَصْرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله ، حتى إذا توفى مبكرًا سنة ٣٦٤ حولها إلى أخيه نزار الذى تلقب بلقب العزيز ، ولتميم مرثية فى أخيه عبد الله مطلعها[5] :

كل حَىٍّ إلى الفناء يصيرُ والـليـالى تَـعِـلَّـةٌ وغـرورُ

---

(١) النجوم الزاهرة ١٤٠/٣ وانظر الولاة والقضاة ص ٢٥٢ وكان ابن طولون قد بنى مدينة القطائع فوق قلعة الجبل .

(٢) باب الساج : أحد أبواب القصر.

(٣) الثنية : الطريق فى الجبل ، والفجاج . الطرق.

(٤) الولاة والقضاة ص ٢٥٣ .

(٥) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى (طبع دار الكتب المصرية) ص ١٤٧ .

ويبكى شبابه بدموع غزار ، وما يلبث القدر أن يلمَّ بأبيه المعز سنة ٣٦٥ ويرثيه بمقطوعة قصيرة تخلو من اللوعة على فقده ، وهو شىء طبيعى لتنحيته له عن العهد . ويتوفَّى أخوه عقيل عن ثلاثين عاما ، ويبكى فيه الحسينَ الشهيدَ وآباءه الفاطميين . ويبكى جارية له بكاء فيه غير قليل من اللهفة والحسرة على ما ضاع منه فيها من الجمال وحسن الصوت والغناء وطيب المدام كما يقول ، ويبكى بالمثل قينة امغنية . وله فى الحسين مرثية رائعة ، وهو يبكيه بكاءً مؤثرًا قائلا[1] .

نحَروه غير مذمَّمٍ نَحْرَ الهَدايا للضَّحِيَّةْ

ويصوِّر موقعة كربلاء وما سُفك فيها من دماء البيت العلوى ، ويصف موكب النساء اللائى كُنَّ مع الحسين وهنّ مشهَّرات على ظهور الإبل إلى يزيد بالشام ولا من يرحمهن أو يشفق عليهن ، ويتوعد الأمويين بالويل والثبور والدمار ، والمرثية تكتظ بالأنَّات واللوعات الممضة . ونلتقى بالمسبِّحى مؤرخ دولتهم المتوفى سنة ٤٢٠ ويذكر له ابن خلكان فى ترجمته مرثية لأبيه ومرثية أخرى لأم ولده ، وفيها يقول[2] .

وياليتنى للموت قُدِّمتُ قبلها وإلا فليتَ الموت أذْهَبنا معا

وتكثر مراثى الشعراء لخلفاء تلك الدولة ، ومن ذلك مرثية أبى المناقب عبد الباقى بن على التنوخى للمستنصر ، إذ يقول[3] :

وليس رَدَى المستنصر اليوم كالرَّدَى ولا أمرُه أمرٌ يقاسُ به أمرُ
وقد بكت الخنساءُ صخرًا وإنه ليبكيه من فَرْط المصاب به الصَّخْرُ

وقلما مات وزير فى العصر إلا بكاه الشعراء وبالمثل القضاة وكبار الكتاب وأصحاب الوظائف العليا فى الدولة ، وتلقانا من ذلك طرائف كقول ابن قادوس الدمياطى فى مرثية[4] :

يافجعةً هى فى الجنان مسرَّةٌ لقدومهِ تختال فى غُرُفاتها
إن كان فى الدنيا عليه مأتمٌ فأراه عُرْسَ الحُورِ فى جنَّاتها

وحين قضى صلاح الدين الأيوبى على هذه الدولة لم يبكها المصريون ولا ودَّعوها ، لأنهم لم يكونوا راضين عن عقيدتها الإسماعيلية المفرطة فى الغلو ، وكان حكمها قد فسد فسادا شديدا على

(١) الديوان ص ٤٥٥ وما بعدها .
(٢) ابن خلكان ٣٧٨/٤
(٣) النجوم الزاهرة ٢٣/٥
(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٣١/١ .

نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وتكفل بذلك شاعر من شيعتها هو عُمارة اليمنى الذى ترجمنا له فى الجزء السابق من هذا التاريخ للأدب العربى . ولعل بطلا لم يبكه الشعراء كما بكوا صلاح الدين محطم الصليبيين حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وقد أقيمت عليه المآتم فى غير بلد من البلدان العربية ، ورثاه كثير من الشعراء ، من ذلك قول العماد الأصبهانى فى رثائه[1] :

لا تحسبوهُ مات شخصًا واحدًا قد عمَّ كلَّ العالمين مَماتُهُ
لو كان فى عصر النبىِّ لأُنْزِلَتْ فى ذِكْرِهِ من ذكرهِ آياتُهُ
ياراعيا للدين حين تمكنتْ من كل قلبٍ مؤمنٍ روعاتُه
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائما رضوانُ رَبِّ العَرْش بل صلواتُه

وهى مرثية طويلة فى مائتين وثلاثين بيتًا ، صوَّر فيها جهاده فى الدين واستبساله فى حروب الصليبيين حتى استخلص منهم بيت المقدس وأكثر بلدانهم وحصونهم فى الشام ما حقًّا لهم محقًّا ذريعا . ويتوفَّى صلاح الدين ويخلفه ابنه العزيز سنة ٥٨٩ كما مر بنا فى غير هذا الموضع ويتوفى سنة ٥٩٥ ويخلفه أخوه الأفضل وما يلبث عمّه العادل أن يستولى منه على عرش مصر ، ويعمل على تعفية آثار العزيز ويبكى القاضى الفاضل قصره وقصر أبيه بمثل قوله مخاطبا القصر[2] .

وكم قد حَجَجْنا فيك للمجدِ كعبةً وكم قد أقمنا فيك للحجِّ مَوْسمًا
وكم قد وجدنا فيك رأفةَ راحةٍ تقبَّلُ إذ تُعطى حَطيمًا وزَمْزما

ولابن سناء الملك مراث مختلفة فى أصدقائه وأقربائه وأهله ، وله ندب رائع فى أبيه ، تنهمر فيه دموعه ، وتنسكب ، وهو يذكر تقواه ونسكه ذكرى ممضة ، وما يزال يندبه ويبكيه قائلا[3] :

ويا أرضَه إن ينكسفْ بكِ بَدْرُهُ فما برحتْ فى الأرض تُكْسَفُ أقمارُ

وبنفس اللوعة والحرقة لموت الأب يلتاع لموت الأم وتظلم الدنيا فى عينه ، ويحس كأنما كان فى فردوس معها من فراديس الجنان وأُخْرِج منه إلى غير أوبة يقول[4] :

لهفَ نفسى عليك ياما بقلبى منك ياطول حسرتى وعَنائى
كنتُ فى جنَّةٍ فأُخرجتُ منها واستعادَ العطاءَ ربُّ العطاءِ

(١) النجوم الزاهرة ٦/٦٠ وانظر خاتمة كتابة البرق الشامى .

(٢) ديوان القاضى الفاضل (نشر بدوى) ص ٣٤ .

(٣) ديوان ابن سناء الملك (طبعة حيدر آباد) ص ٣٢٣ .

(٤) الديوان ص ٣ وما بعدها .

وكلمة « ياما » فى الشطر الأول من كلمات العاميَّة المصرية ومعناها كثير . ويلقانا بنفس اللهفة والحسرة والإحساس الحاد بالألم والحزن والضيق والوحشة فى رثائه لجارية شابة ، اختطفها منه الموت دون شفقة أو رحمة ، ويظل يئنّ ويسكب دموعه إلى أن يقول[١] :

وآنسنى من بعدها طولُ وحشتى   وضاجعنى فى مضجعى بعدها كرْبى
أيا تُرْبُ ما أنصفتَ نَضْرَةَ غُصْنِها   أهذا صَنِيعُ التُّرْبِ بالغُصُن الرَّطْب

ويشتهر ابن النبيه بمرثية دالية رائعة رثى بها ابنا للخليفة الناصر سنة ٦١٣ وهى من بدائع المراثى ، إذ يعزِّى الناصر عن ابنه فى أسى ولوعة ودعوة حارة إلى الصبر على المصاب بمثل قوله[٢] :

الموتُ نقَّادٌ على كفِّهِ   جواهرٌ يختار منها الجيادْ
والمرءُ كالظلِّ ولابُدَّ أن   يزول ذاك الظِّلُّ بعد امتداد

ولا يموت سلطان أيوبى بمصر حتى يندبه الشعراء ، وممن ندبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ وهو يستعد لمنازلة لويس التاسع ، وخلفه ابنه توران شاه ففتك بالصليبيين فتكا ذريعًا ، وأخذ لويس التاسع قائد الحملة الصليبية أسيرا ، غير أن مماليكه لم يلبثوا أن فتكوا بالبطل : بطل موقعة المنصورة وبكاه غير شاعر مصرى من مثل قول ابن مطروح[٣] :

يابعيدَ الليلِ من سَحَرِهْ   دائما يبكى على قَمرِهْ
خَلِّ ذا واندب معى ملكا   ولَّتِ الدنيا على أثره

وحقًّا ولَّت دنيا الدولة الأيوبية على أثره وغربت شمسها المضيئة ، إذ استولى المماليك على صولجان الحكم بمصر . وأول سلاطينهم العظام الظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التى سحق فيها التتار ، ودفع سيولهم إلى الوراء حتى حلب فالعراق . وله بعد ذلك بلاء رائع فى حرب بقايا الصليبيين والاستيلاء على كثير من حصونهم بالشام ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٨ بكاه شعراء مصر بمثل قول محيى الدين[٤] بن عبد الظاهر :

---

(١) الديوان ص ٦٢ .

(٢) ديوان ابن النبيه (تحقيق عمر الأسعد) ص ١٠٤ ومابعدها .

(٣) فوات الوفيات ١/١٨٥ .

(٤) انظر تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور قلاوون لمحيى الدين بن عبدالظاهر (نشر وزارة الثقافة والإرشاد بمصر) ص ٢٥ .

هذا الذى هزمَ التتارَ فأصبحوا تغتالهم عند الكرَى الأحلامُ
هذا الذى قهر الفرنج فكلّهم تُرْديهُم من رُعْبِهِ الأوهام

وقلما يتوفى سلطان بعد الظاهر فى زمن المماليك إلا ويبكيه الشعراء .

ومرَّ بنا الحديث عن ابن نباتة وممدوحه السلطان المؤيد الذى دبَّج فيه غرر المدائح ، حتى إذا مات رثاه بمراث طنانة وفيهايبكيه بكاء حارا من مثل قوله فى إحدى مراثيه :

نَعَى المؤيَّدَ ناعيهِ فوا أسفا للغيث كيف غدتْ عنا غوَاديهِ
وارَوْعتا لصباحٍ من رزِيَّتهِ أظنّ أن صباح الحَشْرِ ثانيه
ليت الحِمَامَ حَبَا الأيامَ موهبةً فكان يُفْنِي بنى الدنيا ويبقيه
ليت الأصاغر يُفْدَى الأكبرون بها فكانت الشُّهْبُ فى الآفاق تَفْدِيه

وهو تأبين ممزوج بندب وأنين ، وحسرة ما بعدها حسرة ، حتى ليتمنى لومات الناس جميعا فداء للمؤيد بل يتمنى لوكانت الشهب تستطيع أن تفديه .

ويستولى العثمانيون على مصر ويتعاقب عليها ولاتهم ولشعرائها فيهم وفى كبار الموظفين حيث يتوفون مراث كثيرة ، من ذلك قول الشيخ محمد الغمرى فى رثاء الأمير إسماعيل بن إيواظ المتوفى سنة ١١٣٦ للهجرة[١] :

أفى أمانٍ وسيفُ الأمن قد غُمدا وبدرُ أفْق سماء العدلِ قد فُقدا
وشمسُ نصرِ عباد الله قد كُسفَتْ ودولة العزِّ ماتتْ بالذى لُحِدَا
كم قد أغاث فقيرًا من ظُلامته وأبدل الجور عدلا والفسوقَ هُدَى

وتكثر مراثى العلماء الأعلام وتكتظ بمراثيهم كتب التراجم ، وخاصة منذ عصر المماليك ، من ذلك قول[٢] عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فى رثاء جلال الدين عبد الرحمن السيوطى حين توفى سنة ٩١١ :

مات جلالُ الدين غوثُ الوَرَى مجتهدُ العصر إمامُ الوجودْ
فيا عيونُ انهملى بعده ويا قلوبُ انفَطِرى بالوَقود

ويروى الجبرتى أنه لما مات الشيخ محمد العشماوى سنة ١١٦٧ قال بعض شعراء الوقت وهو

(١) الجبرتى ١/١٢١ .
(٢) بدائع الزهور لابن إياس ٣/٦٣ .

السيد حسين الإدكاوى قصيدة أُنشدت وقت الصلاة عليه مطلعُها[١] :

ما بين حرقة أدمعى وتولُّهى   نارٌ يؤجِّجها لهيبُ تولُّهِى
يا أرضُ ميدِى ياسماء تشقَّقى   ياشمسُ نوحى يانجومُ تأوَّهى

والمبالغة واضحة فى البيت الثانى

وكان وتر الشكوى من الزمن وأحواله وتقلباته ونوائبه ورزاياه ومن نكد الحظوظ وبؤس الحياة مشدودًا دائمًا إلى قيثارات الشعراء يتغنون عليه آلامهم وأحزانهم وما يصيبهم من شر الحياة ونكرها ومن ضعة الحظوط التى كتبت عليهم فيها ، ومِن نزول المصائب التى تعصف بهم ، من مثل قول تميم بن المعز[٢] :

أما والذى لا يملك الأمرَ غيرهُ   ومَنْ هو بالسرِّ المكتَّم أعلمُ
لئن كان كتمانُ المصائب مؤلمًا   لَإعلانُها عندى أشدُّ وآلم
صبرتُ عن الشكوى حياءً وعفّةً   وهل يشتكى لَدْغَ الأراقم أرقمُ[٣]
وبى كلُّ ما يُبْكى العيونَ أقلُّه   وإن كنت منه دائما أتبَّسمُ

وكان تميم يعيش فى نعيم لأنه ابن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، غير أنه كان أكبر أبنائه وصرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله حتى إذا توفى صرفها إلى أخيه نزار الملقب بالعزيز الفاطمى . وعاش تميم يتجرع مرارة هذه الغُصَّة دون أن يستطيع التفوه بكلمة ، إلا مثل هذه الأبيات التى كان ينفس بها عما يجثم فى دخائله من ألم مرير . ويردد شعراء الدولة الفاطمية بعده شكواهم من الحياة وكوارثها والحظ وبؤسه وقصوره عن أمانيهم كقول ظافر الحداد[٤] :

ولى همَّةٌ تَبْغى النجومَ وحالةٌ   تصحِّف ماتبغيه فَهْوَ لنا ضِدُّ
إذا رفعتْنى تلك تخفضُ هذه   فكلٌّ تناءٍ فى إرادته الحَدُّ[٥]
فما حالُ شَخْصٍ بين هاوٍ وصاعدٍ   وليس له عن واحد منهما بُدُّ
تولتنىَ الأرْزاءُ حتى كأنما   فؤادى لكفَّىْ كلِّ لاطمةٍ خَدُّ

فهمته ماتزال تصعد به حتى يصافح النجوم وحظه مايزال يهبط به حتى يهوى إلى الدَّرْك

(١) تاريخ الجبرتى ١٨٩/١ .
(٢) الديوان ص ٣٩٨ .
(٣) الأرقم : الأفعوان .
(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٣/٢ .
(٥) الحد : المنع .

الأسفل من البؤس والشقاء وكأنه فى أرجوحة مايزال صاعدا هابطا وماتزال الأرزاء والكوارث تنزل به بل تلطم فؤاده لطما عنيفا .

ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية داود بن مقدام من أهل المحلة شمالى طنطا ويقول العماد : كان منحوس الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت ، وينشد له[1] :

لقد بكرتْ تلومُ على خمولى … كأن الرزقَ يجلبُه احتيالى
وكم أدليتُ من دَلْوٍ ولكنْ … بلا بَلَلٍ يُرَدُّ على قَذالى[2]
وكم علَّقتُ أطماعى رجاءً … بخُلَّبِ بارقٍ ووميضِ آلِ
ولا أنا بالكفافِ النَّزْرِ راضٍ … ولا أنا عن طِلابِ الكُثْرِ سالِ

فصاحبته تلومه على خموله وأنه يقعد عن طلب الرزق ، ومفتاحه ليس فى يده ، وطالما أدلى بدلوه مع طلابه فعادت دلاؤهم ملاء ، وارتد عليه دلوه فارغا ، وكأنما يتعلق ببرق كاذب وسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وهو مع ذلك لايزال يطمع فى الكثير وكان حريًّا به أن يرضى بالنزر القليل .

وتخفُّ الشكوى على ألسنة الشعراء فى زمن الدولة الأيوبية وانتصاراتها المدوية ، إلا فى بعض لحظات تعسة قد تمر بالشاعر فيشكو شكوى عارضة كقول ابن سناء الملك[3] .

ياخَيْبَةَ الحرِّ الذى … لم يلق فوق الأرض حرًّا
وإذا اشتكَى فقرًا أسا … ل الدمعَ من عينيه تِبْرا
والخَلْقُ تُذرِى الدمعَ ما … ءً وهوْ يُذْرى الدمعَ جَمْرَا
وإذا تملَّكتِ اللئا … مُ فإن موتَ الحرِّ أَحْرَى

ولا أظن أن ابن سناء الملك اشتكى الفقر والبؤس يوما ، فقد كان يعيش فى بحبوحة من الترف والنعيم ، ولذلك نظن أنه قال قصيدةَ هذه الأبيات فى لحظة من لحظات غضبه ، وهى فعلا أبيات عارضة فى ديوانه الضخم .

ويعود الشعراء إلى الشكوى فى أيام المماليك والحديث عن بؤسهم ، وكانوا يمزجون هذا الحديث بخفة الظل التى عُرف بها المصريون ، حتى لتصبح الشكوى ضربا من الفكاهة أحيانا على

---

(١) الخريدة ٤٦/٢ .
(٢) القذال : القفا .
(٣) الديوان ص ٣٢٨

نحو ما هو معروف عن الجزار والوراق وابن دانيال ، وسنترجم لهم فى حديثنا عن شعراء الفكاهة . ويأخذ هذا الحديث صورة عابسة جادة عند نفر من الشعراء ، وفى مقدمتهم ابن نباتة الذى أكثر – كما أسلفنا – عن الحديث عن كثرة عياله كقوله لأحد ممدوحيه :

ياسيِّدى دعوةُ ذى حالةٍ أحالها الدهرُ وعدوانُهْ
تفليسُه فى الشام بعد الغنى يقضى بأن القلب حَرَّانُهْ
فارقَ أولادًا وأهلا وما تحمَّلتْ للبَيْن أظعانُهْ

فهو يستعطف ممدوحه لما أصابه الدهر به من البؤس والضنك وضيق العيش ، وقد فارق أولاده وأهله يبتغى أن يجد لهم ما يقوتهم وأن يعود لهم غنيا ثريا أوتى بسطة من الرزق . ويردد ابن نباتة ذلك كثيرا فى أشعاره . ووراءه كثيرون فى زمن المماليك كانوا يشكون مما يتجرعون من مرارة الحياة وعيشها البائس المضنى . وساعد على ذلك أن المماليك لم يرعوا الشعراء فى زمنهم رعاية الحكام من قبلهم ، وأنهم قلما كانوا يسبغون عليها عطاياهم ، وحتى ما كانوا يعطونه لهم أحيانا كان نزرا قليلا ، فكان طبيعيا أن يستشعروا الحرمان والبؤس وأن يندبوا حظهم العاثر ، وأن يصبُّوا نقمتهم على الدهر والزمان . ثم حلت الحقبة العثمانية ، فزادتهم إيغالا فى البؤس واليأس والشكوى المريرة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند بعض شعراء الرثاء والشكوى فى المراحل المختلفة لهذا العصر .

على بن النَّضْر[1]

من أهل الصعيد كان نحويا أديبا روى عنه ابن بَرِّى وغيره ويقال إنه كان يحفظ كتاب سيبويه ، وكان متصرفا فى علوم كثيرة ، وهو أحد قضاة الصعيد النابهين ، تولى قضاء الصعيد وإخميم فى زمن الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧ – ٥١٥ هـ .) ويبدو أن موهبته الشعرية استيقظت مبكرة ، مما جعله يقبل على شعر المديح محاكيا شعراء عصره . فمدح كثيرين من أعيان الصعيد وفى مقدمتهم بنو الكنز أعيان أسوان . ثم قصد بمديحه الأفضل فرفع منزلته وعينه قاضيا للصعيد ، وفيه يقول أبو الصلت فى رسالته المصرية التى كتبها عن شعراء مصر وأدبائها ، وقد

(١) انظر فى ترجمة ابن النضر وأشعاره رسالة أبى الصلت أمية فى نوادر المخطوطات لعبدالسلام هرون (المجموعة الأولى) ص ٤٠ وما بعدها وخريدة القصر (قسم شعراء مصر) للعماد الأصبهانى ٢/٩٠ والطالع السعيد ص ٢٢٠ والبغية للسيوطى ص ٣٥٣ .

افتتحها بذكره قائلا : « من الأفاضل الأعيان ، المعدودين من حسنات الزمان ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ، والفضل الباهر والنثر الرائع ، والنظم البارع ، وله فى سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى » ويبدو أنه كان واسع الثقافة . ويقول الأُدْفُوِىّ صاحب الطالع السعيد : « أكثر شعره فى تشكى الزمان والإخوان » . وكان قد قصد الأفضل فى أول الأمر راجيا خدمة عنده أو ولاية فخاب أمله فيه وضاع رجاؤه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ويشكو الخيبة والحرمان :

بين التعزُّزِ والتذلل مسلكٌ ... بادى المَنارِ لِعَيْنِ كل موفَّقِ
فاسلكْه فى كل المواطن واجتنبْ ... كِبْرَ الأبىِّ وذلَّةَ المتملِّق
ولقد جلبتُ من البضائع خيرَها ... لأجلِّ مختارٍ وأكرم مُتَّقِ
ورجوتُ خَفْضَ العَيْش تحت رِوَاقه ... لابدَّ إن نفقتْ وإن لم تَنْفقِ
ظنًّا شبيها باليقين ولم أخَل ... أن الزمان بما سقانى مُشْرِقى[1]
لأقارعنَّ الدهرَ دون مروءتى ... وحُرِمتُ عزَّ النَّصْر إن لم أَصدُقِ

وهو ينصح غيره من الشعراء أن لا يصعِّروا خدهم كبرا ، وأهم من ذلك أن لا يُسيموا أنفسهم ذل الملق والهوان ، وليتخذوا منه ومما صنع به الأفضل عبرة وعظة ، إذ قدم له بين يدى ما أمَّله منه قصيدة بديعة من قصائده ، فكان جزاؤه خيبة ما بعدها خيبة ، ومع ذلك فهو يمسك نفسه ، إذ هى أكبر من أن تنكسر ، بل إنه ليهدد بمقارعة الدهر ونزاله دون مروءته وعزة نفسه . وفزع إلى غير قليل من الزهد والقناعة يحض عليهما ويذم الضراعة ، متأسفا على امتهان نفسه وإراقة ماء وجهه للأفضل دون طائل بمثل قوله :

لَهْفِى لملكِ قناعةٍ لو أننى ... مُتِّعْتُ فيه بعِزَّةِ المتملِّكِ
ولكَنْزِ يأسٍ كنت قد أحرزتُه ... لو لم تَعِثْ فيه الخطُوبُ وتَفْتكِ
آلَيْتُ أجعلُ ماءَ وجهى بعده ... كدمٍ يُهِلُّ به الحجيج بِمَنْسِكِ
لا أنشأتْنى الحادثاتُ لمثِلها ... ورُميتُ قبل وقوعها بالمهلكِ

لقد أضاع ملك قناعة كان هنيئا به متمتعا فيه بعز سلطانه ، وأضاع معه كنز يأس من الوزراء والحكام أمثال الأفضل كان مغتبطا به سعيدا ، ويقسم أن لا يريق ماء وجهه لأحد بعد الأفضل

(١) مشرق : جاعلى أغصّ بما سقانى .

وما صنعه ، ويدعو على نفسه بالموت إن هو فكر أن يعود إلى المديح وهوان الاستجداء وذله ، ويتجه إلى ربه داعيا ضارعا بمثل قوله :

يامستجيبَ دعاءِ المستجيرِ بهِ ... ويامفرِّجَ لَيْلِ الكُرْبَةِ الدَّاجي
قد أُرْتجتْ دوننا الأبوابُ وامتنعتْ ... وجَلَّ بابُك عن مَنْعٍ وإرْتاجِ
نخافُ عَدْلَك أن يجرى القضاءُ بهِ ... ونرتجيك فكُنْ للخائفِ الراجي

فقد أُغلقت أبواب الرجاء من دونه ، وأظلمت الدنيا من حوله ، وغرق فى كرب وغمّ ، وأخذه اليأس من كل جانب ، فلا أمل ، بل قنوط مقيم ، حتى ليخشى على نفسه من أن يغلق الله عنه بابه ، وإنه ليمتلئ خوفا ورجاء . ويعزى نفسه ويدعوها إلى الصبر الجميل :

يانفسُ صبرًا واحتسابا إنها ... غمراتُ أيامٍ تمرُّ وتَنْجَلى
لا تيأسى من رَوْحِ ربِّكِ واحْذَرِى ... أَنْ تستقِرِّى بالقنوط فَتَخْذُلى

إنه يتمنى لنفسه أن تخلص من محنة اليأس الذى يملؤها شقاء وعناء ومسرة ولوعة ، فيخفف عنها ذلك كله أو يحاول أن يخففه بما يدعوها إليه من الصبر على البلاء وأن لا تيأس من روح ربها فإنه لا ييأس من روحه إلا الظالمون لأنفسهم المستسلمون للقنوط وأهواله .

وكان على بن النضر يجيد الرثاء كما يجيد الشكوى من الزمان وأهله ، وله مرثية بديعة فى إبراهيم ابن الزبير حاكم قوص لسنة ٤٧٢ للهجرة وهو جد المهذب بن الزبير الشاعر المار ذكره ، استهلها بقوله :

يامُزْنُ ذا جَدَثُ الرَّشيدِ فقِفْ معى ... نَسْفَحْ بساحتِه مزادَ الأَدْمُعِ (١)
وامْسَحْ بأَردانِ الصَّبا أركانَهُ ... كى لا يُلِمَّ به شحوبُ البَلْقَعِ
وبودِّ نفسى لو سَقَيْتُ ترابَهُ ... دَمَ مُهْجَتِى ووقيتُه بالأَضْلُعِ

وهو يتجه إلى المزن أو السحاب الممطر محاولا أن يستوقفه ليسفح أمطاره معه على قبر صاحبه ، بل ليسفحا معا عليه قربانًا من الدموع ، ويتوسل إليه أن يمسح بأكمام الصَّبا أركانه ، حتى يظل ناضرا لا يلم به شىء من شحوب البلقع أو القفر من حول جدثه ، وكان بود نفسه لو فَدَاه بروحه وسقى ترابه دم مهجته ووقاه بأضلعه ، ويخاطب قبره مُلْتاعا بقوله :

---

(١) مزاد : جمع مزادة وهى القربة .

لتنفَّسَتْ فيكَ الصَّبا مفتوقةً بنسيمِ مِسْكِ رياضِها المتضوِّعِ
أوماعجبتَ لِطودِ عزٍّ باذخٍ مُستَوْدَعٍ فى ذى الثلاثِ الأذْرُعِ
ولخدِّ مَنْ وَطِئَ الكواكبَ راقيًا كيف ارتضَى من بعدها باليَرْمَعَ
ولقد وقفتُ على ربوعك شاكيًا وبها الذى بى من أسًى وتوجُّعِ

وهو يدعو للقبر أن تهب عليه ريح الصَّبا العطرة بمسك الرياض ذكى الرائحة وأن يظل ذلك دائما أبدا ، ويعجب لهذا الجبل الشامخ عزا أن تطويه ثلاث أذرع ومن وطئ الكواكب بقدمه راقيا أن يرتضى النزول تحت اليرمع أو الحجارة الرخوة ، وإنه — مثل كل ما حوله من الربوع — يمتلىء حسرة وأسى وتوجعا ما بعده توجع . ولعل فى ذلك كله ما يصور ملكة ابن النضر الشعرية الخصبة .

على بن عَزَّام[1]

شاعر أسوان مسقط رأسه وموطنه ، بل شاعر الصعيد قاطبة ، دفعه طموحه فى شبابه إلى أن ينزل الفسطاط ويأخذ عن علمائها اللغويين من أمثال ابن بركات وغير اللغويين . وكان فيه ذكاء وحب للعلم وفنونه ، فبرع فى غير فن ، وصنف تصانيف كثيرة . ويبدو أنه آثر المقام ببلدته أسوان ، وله فى أعيانها غير مدحة ، وكان كثير الوفود على حكام الصعيد من الأيوبيين فى قوص وغير قوص ، من مثل مبارك بن منقذ وتوران شاه . ويقول العماد الأصبهانى إنه سأل عنه سنة ٥٧٣ فقالوا له إنه حَىٌّ فى أسوان ، وكان لايزال يذكرها حين يبرحها فترة فى حنين بالغ ، حتى ليقول فى إحدى رحلاته وقد ذكرها ، فكأنما نكأ جرحا فى فؤاده إذ يقول متلهفا فى العودة إليها حين نفاه بنو الكنز أعيانها إلى إسنا :

ولا باركَ الرحمنُ فيمن أزاحنى عن الظلِّ والماء الزُّلال الذى يَجْرى
مَقِيلُ ولكنْ أين منِّىَ ظِلُّهُ وسُقْيا ولكنى بعيدٌ عن القَطْرِ

فهو يتمنى وقت قيلولة بأسوان وشربة من مائها السلسبيل ، إنها نعيمه وفردوسه الذى لا يماثله فردوس ، وسرعان ما عاد إليها وظل بها حتى توفى سنة ٥٨٠ . ويقول صاحب الطالع السعيد :

---

(١) انظر فى ابن عرام وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ١٦٥/٢ والطالع السعيد ص ١٩٨ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ .

« لم يكن فى أرض مصر من يدانيه فى فضله ويضاهيه فى نبله » . ويشيد به وبشعره العماد الأصبهانى إشادة رائعة ، ويذكر أن بعض أصدقائه أحضر له ديوانه فوجده من طبقة عالية ، مما جعله يعرض منه ألوانا ، ويقول : « قد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائق ، ولفظه الرائع الشائق ، ما إذا حُسِرَ(١) اسَحر . . ولابن عَرّام فى ميدان النظم عُرام(٢) ، وبابتكار المعانى الحسان غرام ، ولرويَّته فى إذكاء(٣) نار الذكاء ضِرام . . وكل سحر وخمر سوى منسوج فِدامِه(٤) وممزوج مدامه حرام ، اعجَبْ : بحرٌ فى الصَّعيد(٥) يُقْصَدُ بالتيمم لمائه ، ونجم فى صعود السعود لا يُرْتَقى إلى سمائه » . ويتلو العماد ذلك بطائفة من أشعاره مرتبة على حروف الهجاء ، ويذكر له من قصيدة فى رثاء بعض العلويين ، وربما كانت من أشعاره فى زمن الفاطميين ، وفيها يقول :

إنما هـذه الحيـاةُ غـرورٌ كَسَرَابٍ بدا لنا فى فِجاجِ
تَتْبع الحُلْوَ من جَنَى عَيْشها الحُلْـ ـوِ بِمُرٍّ من الرزَّايا أُجاجِ(٦)
نحن فيها كمثل ركبٍ أناخوا ساعةً ثم أُرْهِقوا بانزعاجِ

وتلك سنة الحياة : غرور كلها وسراب سرعان ما يزول ، وحُلْو سرعان ما يحول مرا وملحا أجاجا ، وما أشبه الناس فيها بركب أناخوا قليلا وجميعهم وقوف ، كل منهم ينتظر دوره فى الرحيل ، فالكل راحلون إلى أجداثهم وقبورهم فهى قرارهم ومنزلهم ولا مآب لهم منه ولا خلاص . وله مرثية فى ابن عمه هبة الله بن عَرَّام ، وكان شاعرا محسنا وفيه يقول :

مَنْ لسود الخطوب غَيْرَك يُجْلِيـ ـها وقد غاب منك بدرٌ منيرُ
مَنْ يَحُوكُ القَرِيضَ مثلَك يُسْديـ ـه على خِبْرَةٍ به ويُنِيرُ(٧)
ليس فى العَيْش بعد فقدك خَيْرٌ حَبَّذا وافدُ الرَّدَى لو يزورُ
كان ظنى إذا المنايا انتحتْنا أننى أَوَّلٌ وأنت أخيرُ(٨)

---

(١) حسر : انكشف .
(٢) عرام : قوة وشدة
(٣) إذكاء : إيقاد .
(٤) الفدام : مايوضع على فم الدن لتصفية مافيه .
(٥) الصعيد : الوجه القبلى وهى أيضا وجه الأرض والتراب
(٦) أجاج : شديد الملوحة .
(٧) يسدى : من السدى وهو مايمد طولا فى النسيج . ينير : يلحم أو يجعل له لحمة وهى مايمد عرضا فى النسيج يريد أنه يحكم الشعر إحكاما دقيقا
(٨) انتحتنا : قصدتنا .

كيف لى بالسلوِّ عنه وطىُّ الـ ـقلب من فقده جوًى منشورُ
فسَقَى قبرَه نداهُ ففيهِ لِثَراه غِنًى ورِىٌّ غزيرُ

وهو شديد اللوعة على ابن عمه وصديقه ، ولذلك يخلط ندبه بتأبينه ، إذ فقد البدر الذى كان ينير فى دجى خطوب الدهر وكوارثه ، وإنه ليندب للشعر شاعره المبدع الذى كان ينسج خيوطه نسجا محكما ، وكأنما فقد كل نعيم فى دنياه وكل خير ، حتى ليتمنى الموت ، إذ لم يعد له بقاء بعده ، ولا عاد يعرف كيف السلوان عنه ،وقلبه منطو على نار من الجوى لا تخبو ولا تهدأ ، وإنه ليذكر نداه وكرمه الذى طالما أغدقه على من حوله ، ويدعو الله أن ينزله على جدثه شآبيب رحمة .

ويَرْوِى العماد لابن عرام قصيدة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر نادبين موتاهم باكين ، استهلها بقوله :

الـرَّدَى للأنـام بالمرصادِ كل حَىٍّ منه على ميعادِ
كيف يُرْجَى ثباتُ أمرِ زمانٍ هو جارٍ طبعا على الأضدادِ
فإذا سَرَّ ساء حَتْمًا وَيقْضِى بوجودٍ إلى بِلًى ونفادِ

فالموت غاية كل حى ، والناس جميعا يسقطون فى قراره العميق ، لكل منهم موعده لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، ويالها من سخرية للزمان ، فإنه لا يبقى للإنسان على شىء ، وحتى لو سَرَّه يومًا لساءه يوما أو أياما ، وإنه ليسلبه كل ما أعطاه حتى وجوده وحياته . ويمضى فى نفس القصيدة أو المرثية قائلا :

نحنُ فى هذه الحياة كسَفْرٍ ربما أُعْجلوا عن الإِرْوادِ(١)
عَرَّسوا ساعةً بها ثم نادى بالرحيل المجدِّ فيهم مُنادِ(٢)
كم أبٍ والهٍ بثُكْلِ بَنِيهِ كم يتيمٍ فينا من الأولادِ
يدَّعِى المرءُ إرْثَ أرضٍ ودارٍ سَفَهًا غيرَ لائقٍ بالسَّدَادِ
وهْو موروثُها إذا كان يَبْقَى وَهْىَ تَبْقَى على مَدَى الآبادِ
وقُصَارَاهُ أنْ يشيَّع مَحْمو لاً بأكفانه على الأعوادِ

(١) الإرواد : الإمهال .
(٢) عرسوا : نزلوا آخر الليل للراحة .

وما أبأس الحياة من رحلة ، وما أبأس ركب هذه الرحلة ، فليس لهم فيها حق فى الريث والأناة ، ولا فى التمهل والوقوف ، إنها لا تزيد عن ساعة تنزلها قافلة ، وسرعان ما يصيح فى ركْبها مناد بالرحيل السريع ، وكل من فى الركب يبكى وينوح ويئن أنينًا لا ينقطع ، أب يئن ويذرف الدموع مدرارًا على أبنائه ، وأبناء أيتام يئنون ودموعهم لا تجفُّ ولا ترْقأ على آبائهم وأمهاتهم ، وكأنما يقطعون جميعا واديا كله غُصص وآلام ، إنه وادى الموت يجوسون خلاله ، وهم لا يدرون . وأعجب العجب أن يحرص الإنسان على إرث الأرض وملكها ، وهو موروثها ومملوكها الذى سرعان ما يزول ويفنى ، بينما هى باقية على كرِّ الدهور ، وما أعظمها عبرة ، فكل إنسان مهما بلغ من الثراء أو المجد يخرج من دنياه كغيره محمولا على أعواد ، وسرعان ما يُلْقَى عليه رداء التراب الثقيل . ويقولُ ابن عزَّام

وإذا الأهلُ والأقارب والأحْـ ـبابُ رَاحُوا فأنت فى الإثْر غادِ
فالقبورُ البيوتُ مضْجَعُنا فيـ ـها وما إنْ سِوَى الثَّرى من وِسادِ
كم أحال البِلَى إليه قديمًا جَسَدًا ناعما من الأجسادِ
شاهدُ الموتِ لائحٌ فى جَبِين الـ ـحَىِّ منا فى ساعة الميلادِ

فالكل ميت ، وكل ما هناك سابق ومسبوق ورائح وغادٍ إلى القبور : البيوت الدائمة التى نضطجع فيها على وسائد الثرى ، لا فرق بين إنسان وإنسان ، فنحن جميعا بنو الموت ، ونحن جميعا سكان القبور ومنذ يولد الإنسان يلوح على جبينه ساعة ميلاده شاهد موته وأنه ملق به — طال أجله أو قصر — وراء تراب وأحجار .

ابن النقيب[1] : الحسن بن شاوَر الكنانى

ولد بالفسطاط سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٨٧ وهو بذلك من شعراء الدولتين : الأيوبية والمملوكية ، وكانت له عناية بالحديث النبوى . روى عنه الحافظ الدمياطى وغيره ، واتصل بالأيوبيين ، فعينوه فى دواوينهم ، وقد لقيه ابن سعيد الأندلسى مؤلف كتاب المغرب حين زار

---

(١) انظر فى ابن النقيب : الحسن بن شاور المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٥٨ وفوات الوفيات لابن شاكر ٢٣٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٧ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٦٩/١ وشذرات الذهب لابن العماد ٤٠٠/٥ .

مصر فى أوائل العقد الرابع من القرن السابع ، يقول : « اجتمعت به وهو يتولى لسلطان مصر معدن الزمرد ، فأبصرت شخصًا مجسدًا من الفضائل معنونا عن بيته – إذ يُنْسَبُ إلى شاور وزير العاضد الخليفة الفاطمى – بما يبدو عليه من كرم الشمائل » وصنف كتابا سماه « منازل الأحباب ومنازه الألباب » . وفى شعره ومنزلته الشعرية يقول ابن سعيد : « هو عندى من أفراد شعراء العصر المتغلغلين فى الغوص على المعانى الحائزين من غايات الإحسان ما يقصر فى إطرابه عنه المثالث والمثانى » ويقول ابن شاكر : « شعره جيد عذب منسجم فيه التورية الرائعة اللائقة المتمكنة . وهو أحد فرسان تلك الحلبة الذين كانوا من شعراء مصر فى ذلك العصر ، ومقاطيعه جيدة إلى الغاية » . وابن شاكر يقصد بالحلبة السراج الوراق والجزار والحمامى الذين كانت أسماؤهم على كل لسان لخفة روحهم وكثرة ما كانوا ينظمونه من التوريات ، وكان ابن النقيب على شاكلتهم يكثر منها ومن طريف توورياته :

أنا العُذْرِىُّ فاعذُرْنى وسامحْ   وجُرَّ علىَّ بالإحسان ذَيْلا
ولما صِرْتُ كالمجنون عِشْقًا   كتمتُ زيارتى وأتيت ليلا

وكلمة « ليلا » فى نهاية البيت الثانى لا يريد بها الليل الحقيق إذ جاء بها تورية عن صاحبته « ليلى » . وهى تورية تدل على ما وراءها من سرعة بديهته ، ورقة حسِّه ، وله غزل بديع سننشد منه قطعة فى حديثنا عن شعراء الغزل . وله محاورات كثيرة مع من سميناهم من الشعراء ، وكتب إليه ابن سعيد ببيتيه اللذين أنشدناهما فى غير هذا الموضع ، وهما :

أياساكنى مصرٍ غدا النيلُ جاركم   فأكسبكم تلك الحلاوةَ فى الشِّعْرِ
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى   سوى أثرٍ يبدو على النظم والنَّثْرِ

وأجابه ابن النقيب من قطعة كتب بها إليه متواضعا :

ولا تَطْلُبَنْ سحرَ البيان بأرضنا   فكم فيه موسى مبطلٌ آيةَ السِّحْرِ
ولا رِقَّةَ الشعر الذى كان أولا   وكيف رقيق الشِّعْر مَعْ قسوة الدهر

وإنما ذكرنا هذه الإجابة لما فيها من شكوى الدهر وقسوته ، منذ الثلاثينيات من عمره ، ولا ندرى هل ظل موظفا بالدواوين فى عهد المماليك أو أنه آثر العزلة مكتفيا بما ورثه عن آبائه ؟ . وأكبر الظن أنه ظل متصلا بالمماليك ودواوين الدولة ، يدل على ذلك ما رواه ابن تغرى بردى ،

مما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع من أنه كان حاضرا وقعة الظاهر بيبرس مع التتار على شَطِّ الفرات سنة ٦٧١ وكيف أنه صوَّر انتصاره تصويرا رائعا .

وحانت منه التفاتة فيما يبدو إلى جندى قبل المعركة كان فى الساقة وعرف أن له نظراء لا يوضعون فى مقدمة الجيش وإنما يوضعون فى مؤخرته ، أو لعله إنما التفت قبل كل شىء إلى نفسه ، فتأثر وبلغ به التأثر حدا بعيدا من الإحساس بالظلم ، وإذا هو ينشد فى ألم بالغ :

نحن إلا قطاعةُ الأجنادِ ... وبُرَاياتُ غُرِّ هذا النادى[1]
نحن إلا حكايةٌ وخيالٌ ... وحـديثٌ لحاضـرٍ ولبـادى
نحن إلا غُسالةٌ لمرَاقٍ ... لـقـدور تـفـرَّغت وزبادي
نحن إلا زُبالة ضَمَّها الزِّبـ ... ـالُ فوق الأكوام للوقَّادِ
جرَّدونا فما قطعنا فردُّو ... نا — وقد أحسنوا — إلى الأغمادِ
وعُرِضْنا على بَراذينِ جيشٍ ... ما استعدَّتْ لحملةٍ وطِرادِ[2]
ورماحٍ لم تعتقل لطعانٍ ... وسيوفٍ ما جُرِّدتْ لجلادِ
فَهْىَ لا فرق فى يد الفارس الكَشْـ ... ـحانِ منَّا أو فى يد الحداد

ويبدو أنها شكوى بلسان فريق من الفرسان ، ممن وضعوا فى مؤخرة الجيش الذى يقوده الظاهر بيبرس لحرب التتار يريدون أن يكونوا فى أول الصفوف لمنازلة العدو التتارى ودحره دحرًا لاتقوم له قائمة بعده ، ويسوق ابن النقيب الشكوى فى مرارة ، إذ يقول على لسان هؤلاء الفرسان متهكما : ما نحن إلا نُحاتَة الأجناد بل نحن حكاية وخيال وحديث مردد ، بل غُسالة لمراق بل زبالة ، ولعله يبالغ فى تصوير ما أصاب هؤلاء الفرسان من ظلم ويبدو أنهم كانوا مثله بلغوا من العمر عتيا فوُضعوا فى المؤخرة . على أن فى شكوى ابن النقيب ما يدل على أن فرسان المقدمة إنما كانوا يختارون من أصلب الجنود وأعتاهم ، إذ كانوا هم وغيرهم يعرضون ، ويختارون فى أثناء العرض وبعد الاختبار ، وهو لذلك يقول إنهم جردوهم لينظروا إلى أى حد هم سيوف قاطعة فلما لم يقطعوا ردوهم إلى الأغماد أو إلى المؤخرة ، ويلقى التبعة على البغال التى ركبوها ، فإنها

(١) القطاعة : النحاتة كالبراية .
(٢) براذن جمع برذون : بغل ضخم .

لم تكن ممرنة على العدو الشديد والغارة السريعة ، وأيضا فإن السيوف والرماح كانت قد علاها الصدأ ولم تعد صالحة للنزال ، فسيان هي فى يد الفارس البطل منا أو فى يد الحداد كى يشحذها ويزيل عنها الصدأ . وتلقانا عند ابن النقيب شكوى مرددة من البؤس والفقر ، فى مثل قوله :

يا قُفْلَ بابِ الرِّزق ياذا الذى   مازال عند الفتح قُفْلاً عَسِرْ
أفرطتَ فى العُسْرِ ولابُدَّ أَنْ   تنفشَّ أو تندقَّ أو تنكسِرْ

وهو يشعر كأن باب الرزق أُغلق من دونه ، وهو يعالج فتحه ، ولا ينفتح ، ويشكو ما يلقاه من عسر وضيق وضنك ، وييأس من فتح هذا القفل بأى مفتاح من مفاتيح طلب الرزق فيأمل فى أن ينفشَّ وتفتح أغلاقه أو يندق أو ينكسر . وتجتمع عليه الشيخوخة والعوز والإملاق ، فينشد :

وجُرِّدْتُ مَعْ فَقْرِى وشيخوختى التى   تراها فَنومى عن جُفونى مشرَّدُ
فلا يدَّعى غيرى ثيابى فإننى   أنا ذلك الشيخُ الفقيرُ المجرَّد

وحتى ثيابه نزعها البؤس عنه ، فهو شيخ فقير عريان مسهَّد لا ينام . ولعل فى ذلك كله مبالغة ، وهى على كل حال تدل على مدى إحساسه بلوعة البؤس واستطالته عليه فى شيخوخته . ويبدو أن محنته بالحياة لم تقف عند ضيق ذات اليد ، فقد اتسعت لتشمل الأصدقاء والأصفياء ، حتى ليقول :

لا تَثِقْ من آدَمِىٍّ فى ودادٍ بصفاءِ
كيف ترجو منه صفوا وهْو من طينٍ وماءِ

فطبيعى – فى رأيه – أن لا يُصْفِى إنسان لصديقه إخاء . لأنه لا يعرف الصفاء ، بل هو دائما كدر وكذلك كل ما يتصل به إذ هو مركب من طين وماء .

عبد الله[1] الإدكاوى

ولد بإدكو بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ وألحقه أبوه بكتَّاب بها حفظ فيه القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه ذهب فى طلب العلم إلى القاهرة ، فحضر دروس العلماء بها فى زمنه ، واشتهر بأدبه

(١) انظر فى ترجمة الإدكاوى وأشعاره تاريخ الجبرتى ٣٥٢/١ وراجع ٢١٠/١ ، ٢١٦ ، ٢٦٣ ، ٣٤١ .

وشعره ، ولزم السيد على برهان زاده نقيب الأشراف ، وظل يسبغ عليه من عطاياه ، وحَجَّ معه بيت الله الحرام سنة ١١٤٧ وزار قبر الرسول ﷺ وعاد إلى القاهرة ، وأقبل — كما يقول الجبرتى — على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر ، ومهر وبهر ، وهو فى أثناء ذلك يكثر من رحلاته إلى رشيد والإسكندرية ويطارح أدباءهما . وتزوج حينئذ وأصبح صاحب عيال ، وتوفى النقيب المذكور ، فلزم الشيخ عبد الله الشبراوى المترجم له بين شعراء المديح ومدحه بقصائد كثيرة ، حتى إذا توفى سنة ١١٧١ لزم الشيخ الشمس الحفنى ، وأنشد الجبرتى بعض مديحه فيه ، وله يخاطبه من قصيدة :

يابهجةَ العصر يامنهاجَ كلِّ عُلاً ... يامُحيِيَ الدين بالآثار والسُّنَنِ

وظل يلازمه إلى أن توفى سنة ١١٧٨ وصوَّح روض عزِّه بعده إلى أن توفى سنة ١١٨٤ . وله تصانيف كثيرة منها الدرة الفريدة فى شرح مدحة نبوية ، وهداية المتوهمين فى كذب المنجمين ، ومختصر شرح بانت سعاد للسيوطى ومنظومة فى علم العروض والمقامة التصحيفية ضمنها ألفاظا تتغير معانيها بالتصحيف ومقامة أخرى مجونية ، وبضاعة الأريب فى شعر الغريب ، وهى مجموعة من أشعاره . وله أيضًا تخميس بانت سعاد والدر المنتظم فى الشعر الملتزم والفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية جمع فيها أشعار المادحين للأمير رضوان كتخدا ، ثم أورد فى خاتمتها ماله من الأمداح فيه نظما ونثرا ، وفيه يقول :

رضوانُ أوحدُ من تفرَّد بالعطا ... فمنائحُ الأجواد بعضُ هباتِهِ
الفارسُ المقدامُ فى يوم الوَغىَ ... والمرهبُ الآسادِ فى وثباتِه

ومن تصانيفه « الدر الثمين فى محاسن التضمين » . وبجانب ذلك كله ديوانه وهو مرتب على الحروف الهجائية .

ويورد الجبرتى قطعة من شعر الإدكاوى تدل على براعته وقدرته على استخدام فنون البديع من تضمين وغير تضمين ، ونراه يستعيد قدرة الحريرى فى بناء الأبيات من كلمات منقوطة وأخرى عاطلة أو كلها منقوطة أو كلها عاطلة أو الكلمات تتكون من حرف عاطل فحرف منقوط ، وكذلك فى صنع أبيات تُقرأ شطورها طردا وعكسا ، فهى تقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين ، وهو ماكانوا يسمونه « ما لا يستحيل بالانعكاس » مثل قوله :

ارْعَ لخِلٍّ إن أَسا ... وانْسَ لخِلٍّ إنْ عَرَا

وكان يكثر من تشطير بعض القصائد المشهورة ، وكذلك من تخميس بعض الأبيات ، وتصنَّع لاستظهار مصطلحات بعض العلوم ، ولكن فى خفة ودون أن نصطدم عنده بتكلف شديد ، كقوله مستظهرا لمصطلحات المنطق ، إذ يذكر المناطقة كثيرا المقدمات والبراهين والنتائج :

وشقائقٍ قالتْ لنا بين الرُّبا بمقدِّماتٍ ما بها إبهامُ[1]
برهانُ سعدى الآن أنتج قائلا دَعْ وَجْنَةَ المحبوب فهْىَ ضِرَام

وله مراث مختلفة فيمن سميناهم من الشيوخ رعاته وفى غيرهم من علماء عصره ، وممن رثاهم وتفجع عليهم طويلا الشيخ حسن المدابغى المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة ، وله فيه مرثيتان مطلع أولاهما :

مَضَى عالمُ العصرِ الإمامُ لربِّهِ حميدَ المساعى فانْدُبَنْهُ وبالغِ

وفى خاتمتها ينشد :

ولما قضَى ذاك المهذبُ نَحْبَه وآبَ برضوانٍ من الله سابغٍ
دعوتُ أحبَّائى وقلت لهم قفوا معى عند ذا التاريخ نبكى المدابغى

ومطلع الثانية :

صبرا فذا الدهر من عاداته المحنُ وفى تلوُّنه قد حارتِ الفِطَنُ

ويختمها بقوله :

والحورُ جاءتك بالبشرى مؤرِّخةً حُلِّيت من حُلَلِ الأبرارِ ياحَسَنُ

ولم ينشد له الجبرتى شيئا من مراثيه الأخرى ، وكأنه اكتفى بالإشارة إلى مرثيتيه فى المدابغى ، ومع ذلك فقد أنشد له مقطوعة فى رثاء نفسه وبكائها قبل موته ، وفيها يقول :

ليت شعرى إذا دَنَا يارِفاقى أجلى ثم هيَّئوا لى تُرابى
واغتَدوا بى إلى مَحَلٍّ بهِ صَحْـ ـبى جفَوْنى وليس يُرْجَى إيابى
هل إذا غَرْبَلوا التراب أَيلْقَوا ذرَّةً من عَظْمى فيالَمصابى
وَيْحَ هذى الدنيا التى تحرق الأكْـ ـبادَ قد مزَّقتْ بِلَحْدِى إهابى
وبذاك القفْرِ اغتديتُ رَهينًا ليس لى من زادٍ ولا من رِكابِ

---

(١) الشقائق : زهر أحمر.

وهو يذكر ساعة الموت وقد حُفر لحده والمشيعون يحملون نعشه إلى مثواه ، وما يلبثون أن ينصرفوا عنه إلى غير رجعة أو مآب ، وقد بلى جسده فى التراب ولم تبق من عظامه باقية . ويتساءل هل إذا فتشوا عن ذرة من عظامه أيجدونها أم لا يجدون إلا عدما ، فقد مزقت الدنيا إهابه وعظامه فى لحده . وكأنما لا يكفيها ما تصنعه بالإنسان فى حياته من إحراق كبده . وإنه ليندب نفسه ويبكيها وقد غدا وحيدا غريبا فى قفر موحش ، بل غدا حبيسا لازاد ولا ركاب إلى يوم الحشر ، وفى الحق أنه كان شاعرا مجيدا وهو يعد أنبه الشعراء المصريين فى زمنه .

٦

شعراء الدعوة الإسماعيلية

مرَّ بنا – فى غير هذا الموضع – أن الدولة الفاطمية قامت على أساس العقيدة الإسماعيلية الشيعية وأنه كان لهذه العقيدة طائفة من المبادئ جعلتها متطرفة غاية التطرف ، بل جعلتها تنفصل عن نظرية أهل السنة انفصالا تاما . وقد عملتْ بقوة على نشر هذه المبادئ منذ أول الأمر متخذة دعاة لها فى أقطار العالم الإسلامى ، ودفعت معهم الشعراء إلى تقريرها والعمل على إذاعتها وفى مقدمتهم ابن هانئ وسنخصه بكلمة . وتميم بن المعز أول خلفائها بمصر يرددها فى أشعاره لأخيه الخليفة العزيز ، ولا نكاد نتقدم فى ديوانه حتى نجده يخاطبه بقوله فى إحدى مدائحه[١] :

إنما أنت حُجَّةُ الله لاحتْ ... فى البَرايا ووارثُ الأنبياء

والحجَّة عند الإسماعيلية مصدر الحكم ولا يراجع فى حكمه لأن حكمه الحق ، ويقول عنه وارث الأنبياء مشيرا بذلك إلى نظرية الدور التى تزعم أن الأئمة منذ آدم يتوالون فى أدوار حتى إذا ختم الأئمة من الأنبياء بالرسول ﷺ بدأت أئمة آل البيت ، وبذلك يصبح العزيز وغيره من الأئمة الفاطميين ورثة للأنبياء ، على نحو ما يزعم تميم . ونمضى فى الديوان وفى قراءة مدائحه للعزيز ، وسرعان ما نلتقى بقوله فيه[٢] :

وهْو لسان التُّقَى ومقلتُه ... وهو يمينُ العُلا ويُسْراها
صُوِّرَ من جوهر النبوَّة إذ ... كان الوَرَى طينةً وأمواها
فمن يُطِعْه يَفُزْ بطاعتهِ ... ومَنْ عصاه فقد عصى الله

(١) الديوان ص ٢٦ .

(٢) الديوان ص ٣٨ .

وواضح فى البيت الثانى ما كان يردده شعراء الفاطميين من أن الأئمة منهم ومن الأنبياء خُلقوا من جوهر لطيف مصفًّى وأن أجسادهم ليست كأجساد البشر المادية الغليظة ، بل هى أجساد نورانية شفافة . والبيت الثالث يصور بوضوح مبدأ طاعة الإمام فى مذهب الإسماعيلية وأنها واجبة بحيث يفوِّض إليه أتباعه أمورهم دون أى مناقشة أو سؤال ، إذ هى فريضة توجب طاعة الإمام ، وجزء لا يتجزأ من إيمانهم بالدعوة الإسماعيلية . وكانوا يزعمون أن كل إمام من الفاطميين له مرتبة قائم القيامة أو كما يسمونه المهدى المنتظر ، وبذلك يخاطب تميم أخاه قائلا[1] :

أنت المسمَّى المرجَّى قبل مولِدِهِ والخامسُ القائم المذكورُ فى الكتبِ

وهو يشير فى أول البيت إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون فى الإمامة من فكرة الوصية الشرعية وأن كل إمام تالٍ وصى لسلفه كما قدَّر الله وقضى ولا راد لقضائه ، ويقول إنه القائم أو المهدى المنتظر وأنه خامس الخلفاء الفاطميين منذ جهرهم بالدعوة فى المغرب ، وهم المهدى والقائم والمنصور والمعز ثم العزيز الخامس ، أما من كانوا قبلهم فلم يجهروا بالدعوة بل كانوا مستترين يدعون لها سرًّا . ويقول تميم أيضا فى العزيز[2] :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى روحٍ من القُدْس فى جسمٍ من البَشرِ
نورٌ لطيفٌ تناهى فيك جوهرُه تناهيًا جاز حدَّ الشمسِ والقمر
معنًى من العِلَّة الأولى التى سبقتْ خَلْق الهيولَى وبَسْطَ الأرض والمدرِ

والبيت الأول يشير فيه تميم بصراحة إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون من أن للإمام نسبتين : نسبة بروحه إلى عالم القدس ، ونسبة بجسده إلى عالم الطبيعة ، أما نسبته إلى عالم القدس فهى الجانب النورانى فيه ، وهو جانب صاف لطيف ، يجعل عقله فوق عقول البشر ، عقلا ممثلا للعقل الكلى الفعَّال المتصل بالله ، وقد سماه بالعلة الأولى ، وجعله معنى من معانيه . وأوغل الإسماعيليون فى هذا التصور حين قالوا إن الإمام مدبِّر الكون ، وما يقولون إلا زورا وبهتانا . وتميم يقول إن هذا العقل الأول أو العلة الأولى أول ما خلق الله ، فهو سابق لخلق الهيولى أو المادة وخلق الأرض وما عليها . ونمضى فى قراءة ديوان تميم فنجده يقول فى إحدى مدائحه للعزيز[3] :

وإنَّ جميع الغيب لله وحدَهُ تبارك من رَبٍّ ومن صَمَدٍ وَتْرِ
وما علمتْ منه الأئمة إنما رَوَوْهُ عن المختار جَدِّهم الطُّهْرِ

(١) الديوان ص ٦٩ .
(٢) الديوان ص ٢٢٤ .
(٣) الديوان ص ٢٠٧ . والوتر : الفرد .

وتميم يجعل الغيب فى البيت الأول لله وحده ، وأشرك الرسول ﷺ معه فى علمه ، وكأنه يصدر فى ذلك عن قوله جَلَّ شأنه : (عالمُ الغيب فلا يُظْهِر على غَيْبِه أحدا إلا من ارتضى من رسول) ولو أنه سكت عند بيان ذلك لما كان فى كلامه غلو ، ولكنه لم يسكت بل أضاف أن الأئمة يعلمونه عن طريق الرسول مشيرًا إلى ما يزعمه الإسماعيلية من توارث أئمتهم لعلم الغيب عن الرسول وهو تماد فى الغلو والبهتان .

وسنرى ابن هانئ يتمادى مثل تميم فى الغلو ، بل لعله يزيد عنه درجة أو درجات ، ونرجع إلى كتب التاريخ والشعر والشعراء فلا نجد أصداء واضحة لها فضلا عن أن تكون قوية فى أشعار من خلفوهما فى القرنين الرابع والخامس للهجرة إلا ما كان من المؤيد داعى الدعاة لعهد المستنصر ولم يكن مصريا ، بل كان إيرانيا ، وسنخصه بكلمة بعد ابن هانئ ، والشاعر المصرى الوحيد الذى ردَّد هذا النغم الإسماعيلى الغالى هو ظافر الحداد المتوفى سنة ٥٢٩ وسنترجم له بعدهما ، وكان يعاصره على بن محمد الأخفش وهو مغربى وليس مصريا ، ونرى العماد الأصبهانى ينشد له فى الخريدة بيتا فى الخليفة الآمر قائلا[1] :

إلى ذِرْوَةِ النُّورِ العَلائِيِّ إنه ... إلى ذروة النُّور الإلهىِّ يُنْسَبُ

وهو ينسب الآمر إلى نور الأنوار ، إلى النور الإلهى الذى يعم الأكوان . ويذكر له العماد قصيدة فى الخليفة الحافظ ملاحظا أن الغلو أفضى به إلى الكفر الصريح ، إذ يقول فيه مستطردا من وصف الخمر إلى مديحه [2] :

صِرْفُ جِرْيالٍ يرى تحريمها ... من يرى الحافظَ فَرْدًا صَمَدَا
بَشَرٌ فى العين إلا أَنَّه ... من طريق العقل نورٌ وهُدَى
جَلَّ أن تُدْرِكه أعْيُنُنا ... وتعالى أن تراه جَسَدا
فهْوَ فى التسبيح زُلْفَى راكع ... سمع اللهُ به مَنْ حَمِدا
تُدْرِكُ الأفكارُ فيه نَبَأً ... كاد من إجلالِه أَنْ يُعْبَدَا

وهو يسبغ على الحافظ صفات الله من الفردية والصمدية ، وكان دعاتهم يزعمون أن الله

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٣٩/١

(٢) الخريدة ٢٤١/١ والجريال : الخمر

ينبغي أن ينزَّه عن الصفات والأسماء ، وأن ما فى القرآن الكريم من أسمائه وصفاته إنما هى صفات العقل الكلى الأول وأسماؤه . ومرَّ بنا آنفا أنهم كانوا يزعمون أنه ممثول الأئمة ، ومن هنا أضفوا عليهم أسماءه وصفاته ، وبالغوا فجعلوهم تجسدا للذات العلية ، بل إن ابن الأخفش يخلى الحافظ من كل تجسد ومادة ، فهو نور خالص لا تدركه الأعين . ويتمادى فى هذا الغلو والبهتان الآثم ، حتى ليكاد يجعله معبود الإسماعيلى فى ركوعه وقيامه . ويلقانا نفس الغلو المقيت عند الشريف ابن أنس الدولة داعى دعاتها ، إذ يُرْوَى أن الخليفة الحافظ صعد المنبر يوم عيد ، فوقف بإزائه ، وقال يخاطب المصلين[1] :

خشوعًا فإن الله هذا مقامُهُ   وهَمْسًا فهذا وَجْهُه وكلامُهُ
وهذا الذى فى كلِّ وقتٍ بروزهُ   تحيَّاتُه من ربِّنا وسلامُه

وهو غلو ما بعده غلو ، بل هو انحراف عن جادَّة الدين ما بعده انحراف ، وكأنما الحافظ تجسيد للذات الإلهية على نحو ما جسَّد المسيحيون الرب فى المسيح .

ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية يحيى بن حسن بن جبر ، وله مجموع[2] فى مدائح بنى أبى أسامة كتَّاب الإنشاء فى عهد الحافظ والآمر من قبله ، ألفه سنة ٥٢٥ وجعله الشيخ الأمينى فى الغدير من شعراء المستنصر فى سنة ٤٨٧ وهو متأخر عنه بشهادة ترجمة العماد الأصبهانى فى الخريدة إذ أنشد له شعرا فى ابن[3] رُزِّيك الوزير الفاطمى من سنة٥٤٩ حتى سنة ٥٥٦ وله قصيدة فى فضائل على بن أبى طالب وبكاء الحسين أنشدها صاحب «الغدير» وفيها يقول[4] :

يا آل أحمد كم يكابد فيكُمُ   كبدى خطوبًا للقلوب بواكى
كبِدى بكم مقروحةٌ ومدامعى   مسفوحةٌ وجَوَى فؤادىَ ذاكى
وإذا ذكرتُ مصابكم قال الأسى   لجفونىَ اجْتَنِى لذيذَ كراكِ[5]
وابْكِى قتيلا بالطفوف لأجله   بكتِ السماءُ دمًا فحقَّ بُكاكِ

وهو يغلو فى مديح على بن أبى طالب ، وينسب له كثيرا من معجزات غير ثابتة ، كرد الشمس إليه ببابل لقضاء فرض كان سيفوته وقته ، ويزعم أن الريح سُخِّرت له رُخاء ، ويقول إنه

---

(١) خطط المقريزى ٢/٢١٤ .
(٢) الخريدة ٢/١٠٥
(٣) الخريدة ٢/٢٣١ وما بعدها
(٤) شعراء الغدير ٤/٣١٣ وانظر أدب الطف ٢/٣٢٨ .
(٥) كراك : نومك .

أحيا الموتى إلى غير ذلك من مزاعم غير صحيحة . ونقف عند ثلاثة من أعلام الدعوة الإسماعيلية هم ابن هانىء والمؤيد فى الدين وظافر الحداد .

ابن[1] هانئ

هو محمد بن هانئ المهلبي الأندلسي ، ينتمى إلى المهلب بن أبي صفرة الأزدى القائد المشهور فى زمن بنى أمية وواليهم فترة على خراسان ، ويقال إنه من سلالة حفيده يزيد والى المنصور العباسى على إفريقية ، وقيل : بل من سلالة أخيه رَوْح واليها بعده . ويبدو أن أبناءهما ظلوا بعد وفاتهما بإفريقية ، وكان من سلالتهما أبو الشاعر هانئ ، إذ يقال أنه كان من قرية من قرى المهدية بتونس وكان شاعرا أديبا نزح إلى الأندلس داعيا – فيما يبدو – للمذهب الإسماعيلى هناك ونزل إشبيلية وفيها وُلد له الشاعر سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١ على اختلاف الروايات ، وبها نشأ وعكف على الأدب ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فاتصل بصاحب إشبيليه وحظى عنده ، غير أنه كان كثير الانهماك فى اللذات ، واتهم بأنه يعتنق مذهب الفلاسفة ، أو لعله اتهم باعتناقه المذهب الإسماعيلى متابعا فى ذلك أباه ، وكانتا تعدان تهمتين خطيرتين هناك فنصحه ممدوحه بالغيبة عن البلدة مدة فبارحها إلى إفريقية فى السابعة والعشرين من عمره ونزل بجعفر بن على الأندلسى أمير الزاب وأخيه يحيى فأكرماه ومدحهما الشاعر مدائح بديعة بمثل قوله فى جعفر :

المشرقـات النـيِّراتُ ثلاثَةٌ الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجَعْفَرُ

وسمع به المعز فطلبه من جعفر وأخيه فلما وصل إليه بالغ فى الإنعام عليه وخاصة حين رآه يعتنق المذهب الإسماعيلى ويلجِّج فى مديحه بمبادئ المذهب التى أسلفنا الكلام عنها ، بل لكأنما اتخذ أشعاره أداة لتسجيلها فى صور مغالية غلوا شديدا . وكان شاعرا مبدعا فأبدع فى مدائحه ، كما أبدع فى مديح قواده وخاصة فى جوهر الصقلى فاتح مصر ، وله فيه حين يمَّم بجيشه مصر من القيروان عينية رائعة استهلَّها بقوله :

---

(١) انظر فى ابن هانئ وترجمته وشعره كتاب التكملة لابن الأبار ص ١٠٣ والمطمح للفتح بن خاقان ص٧٤ والمطرب لابن دحية (الفهرس) والجذوة للحميدى : ٨٩ وبغية الملتمس رقم ٣٠١ ونفح الطيب (الفهرس) والإحاطة للسان الدين ٢١٢/٢ والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ٩٧/٢ ومعجم الأدباء ٩٢/١٩ وابن خلكان ٤٢١/٤ وعبر الذهبى ٣٢٨/٢ والشذرات ٤١/٣ وديوانه طبع قديما بالهند .

رأيت بعينى فوق ماكنتُ أسمَعُ   وقد راعنى يومٌ من الحشر أروَعُ
غداةَ كأن الأفقَ سُدَّ بمثْلِهِ   فعاد غروبُ الشمس من حيث تطلعُ

ونَوَّه بالجيش وعِظمه ورحلةِ جوهر المظفرة إلى الديار المصرية ، ولم يلبث جوهر أن أرسل إلى المعز يهنئه بفتح مصر سنة ٣٥٨ فهتف ابن هانىء فرحًا مستبشرًا :

يقول بنو العباس هل فُتِحَتْ مِصْرُ   فقل لبنى العباس قد قُضِىَ الأمْرُ
ومُذْ جاوز الإسكندريَّةَ جَوْهَرٌ   تصاحبه البُشْرَى ويَقْدُمُه النَّصْرُ

وجمع المعز أسبابه وتوجه إلى مصر سنة ٣٦٢ وشيعه ابن هانئ ورجع إلى أسرته بالمغرب لأخذها معه واللحاق به ، وتجهز وتبعه ، غير أنه اغتيل فى برقة لشهر رجب سنة ٣٦٢ ويقال إنه لم يشيِّع المعز بل كان فى صحبته إلى أن دخل مصر ثم عاد إلى المغرب لأخذ عياله ، واغتيل ببرقة كما ذكرنا . ولما بلغت المعز وفاته حزن عليه وتأسف قائلا : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدَّر لنا ذلك . ولعله لم يكن يريد أن يفاخر به من حيث روعة شعره فحسب ، بل كان أيضا يريد أن يفاخر به من حيث استظهاره للعقيدة الإسماعيلية ومبادئها المفرطة فى الغلوإفراطا بعيدًا حتى لتنحرف عن الإسلام وجادَّته .

وبمجرد أن نقرأ فى ديوان ابن هانىء نراه يردد أن إمامة الفاطميين ربانية وأنها فريضة مكتوبة على كل مسلم وأنهم يتوالون بترتيب إلهى وأنهم معصومون من كل زلل وأن طاعتهم من طاعة الله من أطاعهم استحق رضوان الله ومن عصاهم كان مآله الخسران المبين ، يقول فى المعز :

إمامٌ رأيتُ الدين مرتبطا بهِ   فطاعتُه فوزٌ وعصيانُه خُسْرٌ

وهم دائما مبرأون من الذنوب مطهرون من الآثام ، بل هم نور الله ومشكاته فى العباد ، يضيئون للناس حياتهم ، ويكشفون عنهم ظلمات الضلال ، وكأنهم يُتِمُّون نور الله أوكأنهم يشاركون فيه ، يقول فى المعز :

وما كُنْهُ هذا النورِ نورُ جَبينهِ   ولكنَّ نورَ الله فيه مشاركُ

ويكرر هذه الفكرة كثيرا فى مثل قوله مادحا للمعز :

تَسْعى بنورِ الله بين عبادهِ   لتضىء برهانًا لهم وتَلُوحا
وجَد العيانُ سَناك تحقيقا ولم   تُحِطِ الظنونُ بكنههِ تصريحا

وقد انتقل ابن هانئ نقلة واسعة فقد جعل المعز نورًا خالصا ، وكأنما ليس فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية ، ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحسَّ إنما يشهدان سناه وضياءه فحسب ، أما هو فكأنه الذات العلية لا تحيط الظنون بكنهه وحقيقته ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ويعود إلى مثل هذا الغلو الشائن فى مدحه للمعز قائلا :

أتبعتُه فِكَرِى حتى إذا بلغتْ غاياتها بين تصويبٍ وتصعيدِ
رأيتُ موضوع برهانٍ يلوح وما رأيت موضوع تكييفٍ وتحديد

وقد خطا ابن هانئ فى الغلو هنا خطوة أبعد من سابقتها إذ جعل المعز يخلو من كل صورة للمادة ، بل كأنما جعله الخالق نفسه ، إذ نفى عنه ما ينفيه المعتزلة عن الله من كل تشبيه وتجسيد ، فلا حد له ولا كيف ولا هيئة بأى شكل من الأشكال . وقد بدأوا كما بدأ المسيحيون فى مسيحهم بأن فى الإنسان لا هوتا وناسوتا أو روحا وجسما . وبالغوا فخلَّصوا — مثل ابن هانئ — أئمتهم من كل أثر للمادة ، وجعلوهم روحا أو نورا خالصا ، بل جعلوهم نفس الله بأسمائه وصفاته ، حتى لنرى ابن هانئ يقول فى المعز :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ فاحكمْ فأنت الواحدُ القهَّارُ

ويقول فيه أيضا :

ندعوه منتقماً عزيزا قادرا غَفَّارَ مُوبقةِ الذنوبِ صَفُوحا

فالمعز الواحد القهّار المنتقم العزيز القادر الغفار . وعلى هذا النحو زين لهم دعاتهم وشياطينهم أن ينتزعوا الله عن أسمائه وصفاته فى القرآن الكريم ويسبغوها على أئمتهم ، ضلال ما بعده ضلال ومروق لايدانيه مروق . ومن هذا الباب ما يزعمه ابن هانئ فى المعز من أنه مقسِّم الأرزاق بين العباد :

رأيتك مَنْ تَرْزُقْهُ يُرْزَقْ من الوَرَى دِراكًا ومَنْ تَحْرِمْ من الناس يُحْرَمِ

فمن شاء رَزَقه ووسَّع رزقه ومن شاء حرمه وضيَّق عليه وجعل حياته ضنكا ، وكل شيء فى الأرض بل فى الكون بمشيئته حتى ليقول ابن هانئ فيه :

أدارَ — كما شاء — الوَرَى وتحيَّزتْ على السبعة الأفلاكِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ

فهو لا يهيمن على شئون الناس وأحوالهم فحسب ، بل هو أيضا يهيمن ويسيطر على الأفلاك التى تصدر عنها الحركة فى الكون . وكل ذلك لما لجئوا فيه من أن الإمام ممثول العقل الفعال المسيطر على الوجود ، فجعلوه نفس هذا العقل الذى آمن به الفلاسفة ، وجعلوه لذلك العلة الأولى أو علة العلل التى ينبثق عنها الكون ، مما جعل ابن هانئ يقول عن المعز :

هو عِلَّةُ الدنيا ومَنْ خُلِقَتْ له ولعلةٍ ما كانتِ الأشياءُ

وماذا بقى لخالق الكون ؟ وحتى الحياة والموت ملَّكهما ابن هانئ للمعز يوزعهما على الناس كيف يشاء إذ يقول مخاطبا للمعز :

لك الدهرُ والأيامُ تَجْرى صُرُوفها بما شئتَ من حَتْفٍ ورزقٍ مقسَّمِ

فهو الذى يحيى ويميت وهو الذى يدبِّر الدنيا ويصرِّفها ، وهو الذى يهيمن على الكون وينسِّقه ، وهو الرازق ومانع الرزق وهو المنتقم العزيز الغفار وهو الواحد القادر القهار . ولا نعجب بعد ذلك كله لابن هانئ إذ يقول :

أرى مَدْحَهُ كالمدحِ لله إنَّه قُنوتٌ وتسبيحٌ يُحَطُّ به الوِزْرُ

ويستضىء ابن هانئ بفكرة الدور عند الإسماعيلية مرارا وما يذهبون إليه من أن الأئمة الفاطميين خلفاء الأنبياء وأنهم ينتظمون معهم منذ آدم فى أدوار سبعية ، كل دور يُخْتَمُ بإمام سابع نبى أو من الخلفاء الفاطميين ويسمونه الناطق وهو يمثل عندهم العقل الأول الفعال الذى تحولت إليه قدرة الله وأسماؤه وصفاته ، ومن هنا كانت تطلق على ممثوله من الأئمة ، وهو الإمام السابع الحامل للنور الربانى الذى يتمثل فى كل إمام سابع منذ آدم . ولما كان المعز نهاية السبعة الثانية من الأئمة الفاطميين فإنه كما يَمْثُلُ فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء يَمْثُل فيه نور نوح :

لوكنت نوحاً منذرا فى قومِهِ مازادهم بدعائِهِ تضليلا

ويَمْثُل فيه قبس موسى وشعلته وهداه :

من شُعلة القَبَسِ التى عُرِضَتْ على موسى وقد حارتْ به الظلماءُ

ويَمثل فيه نور المسيح الذى كان يبرئ الأكْمَه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله :

أقسمتُ لولا أن دُعيتَ خليفةً لدُعيتَ من بعد المسيحِ مَسيحَا

ويمثل فيه نور الرسول ﷺ المشاهَد فى كل نور بملكوت السموات : فى الشمس والقمر والكواكب والنجوم :

وكأنما أنت النبىُّ محمَّدٌ وكـأنما أنصـارُك الأنصـارُ

ويبلغ به الإلحاد فى الدين أن لا يكتفى بحلول أرواح الأنبياء فى المعز ، بل يجعل الله يحلّ فيه ، بل لكأنه الله ، جَلَّ جَلاله عن أن يتعلق بذاته العلية شىء من ترهاته إذ يقول فى غير استحياء للمعز حين حلَّ بقرية رَقَّادة بجوار القيروان :

حَـلَّ بِـرَقَّـادةَ المسيـحُ حَـلَّ بها آدمُ ونـوحُ
حَلَّ بها اللهُ ذو المعالى وكـلُّ شىءٍ سواه ريحُ

وكان ابن هانئ شاعرا فذا بارعا ، وإنا لنأسى له حين سخر ملكاته الشعرية الخصبة التى منحها له ربه فى الدعوة للعقيدة الإسماعيلية الضالة . وهو فى رأينا يُعَدُّ مسئولا إلى حد كبير عن اندفاع الشعراء بعده فى هذه الدعوة الخاطئة المنحرفة ، وهو أيضا إلى حد ما يعد مسئولا عن ضلال الخليفة الحاكم الفاطمى حين قال بعد جده المعز : أنا ربُّكم الأعلى ، وتبعه فى ضلاله ومروقه من تبعه . وكان ابن هانىء يكثر من التشبيهات والاستعارات أحيانا فى أشعاره ، ونفذ إلى صور كثيرة مبتكرة كقوله فى مطلع قصيدة مدح بها جعفر بن على الأندلسى :

فتقَتْ لكم رِيحُ الجِلاد بِعَنْبَرٍ وأمدَّكم فَلَقُ الصباح المُسْفِرِ
وجنـيتُـمُ ثَـمَرَ الـوقائع يانعًا بالنَّصْر من وَرق الحديدِ الأخضَرِ

وهو يتصور الجلاد أو القتال ريحا عاصفا يفوح منه شذى العنبر والطيب وهو يهبُّ فى الصباح المشرق الجميل . ونفذ إلى صورة بديعة إذ تخيل السيوف شجرا مورقا مثمرا وهم يجنون منه النصر المأمول ، والقصيده تكتظ بأبيات رائعة .

المؤيَّد[1] فى الدين الشيرازى

هو هبة الله بن أبى عمران موسى بن داود ، ولد بشيراز فى العقْد الأخير من القرن الرابع

(١) انظر فى المؤيد ديوانه ومقدمته بتحقيق الدكتور محمد كامل حسين وكتابه : فى أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ ونشره للسيرة المؤيدية .وراجع مختصر المجالس المؤيدية لحاتم بن إبراهيم نشر د . محمد عبد القادر عبد الناصر ، وانظر معجم الأدباء ١٧٥/٣ وما بعدها فى ترجمة أبى العلاء .

الهجرى لأبيه موسى ، وكان من دعاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وتقدم فى الدعوة ، حتى استحق لقب حُجَّة إقليم فارس ، ونشأ ابنه على مثاله فى الإخلاص لتلك الدعوة ومازال يسعى له عند الحاكم الخليفة الفاطمى (٣٨٦ - ٤١١ هـ) حتى جعله خليفة له فى فارس ، ومنحه نفس اللقب الفاطمى : الحجة ، وهو لقب رفيع من ألقابهم . وكان سيوسا ، فتقرب من نفوس أتباعه وأخلصوا له ، وحاول أن يدخل أباكاليجار الحاكم البويهى فى عقيدته ، ويقال إنه عقد له مجلسا كان يلقى فيه كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن محمد الكتامى داعى الدعاة لعهد المعز ، وأيضا فإنه بنى مسجدا بالأهواز ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين ، وطلب من أتباعه أن يؤذِّنوا فيه بأذان الإسماعيليين : «حَيَّ على خير العمل» . ومن أهم أتباعه حينئذ ناصر خسرو . وتنبه له الخليفة العباسى ببغداد ، فأرسل إليه من يتعقبه ، وخشى على نفسه ، ففرَّ موليا وجهه نحو مصر والقاهرة : مركز دعوته ، ووصل إليها سنة ٤٣٧ لعهد الخليفة الفاطمى المستنصر ، واستقر بها ، وحضر مجالس الدعوة فيها ، وعيَّنه الوزير اليازورى رئيسا لديوان الإنشاء ، وظل فى هذا العمل حتى سنة ٤٥٠ وهو يتصل سرا بدعاة الدولة فى إيران والعراق ، وأحسَّ خطر طغرلبك السلجوقى حين تستقيم له العراق ، فربما فكر فى الاستيلاء على الشام ومصر ، وكانت العلاقة ساءت بين طُغْرُلْبَك وأخيه إبراهيم ، وكان قد ولاه على الموصل ، فأعلن العصيان لأخيه ورحل إلى بلاد الجبل فتبعه بجيشه ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، ورأى المؤيد فى الدين الفرصة سانحة فكاتب البساسيرى مقدم الأتراك ببغداد . وذهب إليه بنفسه محمَّلا بالأموال من المستنصر ، ويحدثنا فى سيرته كيف أخذ يستميل أمراء العرب فى طريقه إلى بغداد وكيف نفروا معه ، يؤازرهم أهل الكوفة وواسط وحلب ، وكيف وصل إلى بغداد ، حيث وجد البساسيرى قد أبعد الخليفة العباسى القائم بأمر الله إلى « عانة » سنة ٤٥٠ ودعا على المنابر باسم المستنصر بالله ، وظل ذلك نحو عام ، حتى إذا قضى طغرلبك على عصيان أخيه وثورته قدم إلى بغداد وقضى على البساسيرى ودعوته وأعاد الخليفة العباسى إلى عرشه . وفرَّ فى هذه الأثناء المؤيد إلى القاهرة ، وتولى بها مرتبة داعى الدعاة جزاءً لجهوده وإن كانت قد أخفقت إخفاقاً ذريعا ، غير أنه حقق للفاطميين حلما طالما رجوا تحقيقه وهو أن يُدْعَى على منابر بغداد باسمهم ولو إلى حين قصير . وكتابه «السيرة المؤيدية» يصور فيه حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ وما اضطرب فيه من أحداث ، وهو لذلك يعد وثيقة تاريخية مهمة .

وأخذ المؤيد فى أثناء اضطلاعه بمرتبة داعى الدعاة يلقى دروسه بالجامع الأزهر ، وقد جمعها

فى كتابه « المجالس المؤيدية » وهى تضم ثمانمائة مجلس له ، وقد اختصرها حاتم بن إبراهيم الداعى اليمنى ، وعُنى بنشر مختصره وتحقيقه الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر وهو موسوعة كبيرة فى العقيدة الفاطمية والتأويل الباطنىّ وما يتصل به من الحكمة التأويلية ، ويشتمل على مناظرات مع مخالفيه وردود عليهم ، لعل من أهمها ردوده على ابن الراوندى ودحض آرائه الإلحادية[1] . وله رسائل متبادلة مع أبى العلاء المعرى ناظره فيها طويلا فى تحريمه على نفسه أكل الحيوان وكل ما ينتجه من اللبن والبيض وعسل النحل ، وقد احتفظ بها ياقوت فى معجمه . وكان شاعرا كما كان كاتبا ناثرًا ، وحقق الدكتور محمد كامل حسين ديوانه ونشره بالقاهرة ، وهو فى مديح المستنصر الفاطمى وآبائه والدعوة إلى العقيدة الفاطمية وكل ما يتصل بها من التأويل الباطنى الموقوف على الأئمة الفاطميين وآبائهم من البيت العلوى ، فهم وحدهم الذين يعرفون أسرار التأويل فى القرآن على نحو ما خَصَّ الله « الخضر » الرجل الصالح بأسرار لم يعرفها موسى عليه السلام ، وبالمثل الأئمة يعرفون من الأسرار فى تأويل الذكر الحكيم ما لا تعرفه العامَّة ، وفى ذلك يقول فى أولى قصائده بديوانه محتجا بقصة الخضر على جهل العامة بسر الملكوت أو أسراره ووَقْفها على الأئمة :

يـاقومُ سِـرُّ الملكوت هذا يجعـلُ أصـنـامـكـمُ جُـذاذا
سرٌّ له صاحبَ موسى الخِضْرا قال معى لن تستطيعَ صَبْرا
تـدبَّـروا الـقصَّـة مـاذا يَـمَّا من قَصَّها إن لم تكونوا نُوَّما

وكأن كل إمام خِضْرُ زمنه ، وهو وحده الذى يعرف أسرار الكون وبواطن الآيات القرآنية ، وهى معرفة اختص الله بها الوصى الأول على بن أبى طالب وأبناءه الأئمة . والمؤيد فى الدين بذلك يرفع الأئمة درجات على سائر الخلق ، بل هى العقيدة الفاطمية التى تجعلهم نورا خالصا . لا تعلق بهم مادة ولا ما يشبه المادة على نحو ما رأينا عند ابن هانئ ، وقد مضى المؤيد وراءه يردِّد تقديسه للأئمة وأنهم فوق الطبيعة البشرية ، ومضى يسبغ عليهم كثيرا من الصفات الربانية ، حتى ليجعلهم القائمين على الجنة والنار فيدخلون الجنة بأتباعهم ويزجُّون بأعداءهم فى الجحيم ، يقول :

يقسِمون الجِنانَ والنارَ فيهم فـلـكـلٍّ نَصـيـبُـه الموجـوبُ

كَبُرَتْ كلمة بل كلماتٍ تخرج من فمه ، ويتمادى فى هذا الضلال فيجعل زيارة الإمام أداء

(١) انظر فى ذلك كتاب تاريخ الإلحاد فى الإسلام لعبد الرحمن بدوى (نشر مكتبة النهضة) ص ٧٥-٨٨ .

لفريضة الحج يقطع إليها أصحابه الفلوات للتبرك به ، فهو القبلة والغاية التى ليس بعدها غاية ، يقول :

هلمّ إلى الأرضِ المقدَّسة التى بساحتها سكّانُها أَمِنوا الموتا
إلى عَلَمِ الإيمان والقِبلة التى عليها بلامِسْكِ دُلِلْتَ ووُجِّهْتَا
وميزانِ ربٍّ العالمين الذى بهِ تُوفَّى الثوابَ الجَزْلَ إن أنت وَفَّيْتَا

فالمستنصر وأمثاله ميزان الله فى الأرض ، بطاعتهم ومقدارها يكون الثواب وبعصيانهم ومقداره يكون العذاب ، ومايزال المؤيَّد يردد مثل هذا الضلال والبهتان فى ديوانه .

ومما ردده المؤيد طويلا نظرية الدور التى تصور إيمان الإسماعيلية فى أئمتهم وأنهم مثل العقل الفعال الأول فى عالم الطبيعة ، وهم لذلك يعدون مدبرين للكون ، وأيضا فإن أسماء الله الحسنى تُسْبَغُ عليهم ، وقد رُتِّبوا فى أدوار تشترك معهم فيها الأنبياء والرسل منذ آدم ، وكل منهم يمثِّل من سبقوه فى هذه الأدوار من الأئمة والرسل ، وفى ذلك يقول فى المستنصر وآله :

سلامٌ على العتْرة الطاهره وأهلا بأنوارها الزَّاهِرَهْ
سلامٌ بدىٌّ على آدمٍ أبى الخَلْقْ باديه والحاضره
سلامٌ على من بطوفانِه أُديرتْ على مَنْ بَغَى الدائره
سلامٌ على من أتاه السَّلامُ غداة أحفَّتْ به النائره[1]
سلامٌ على قاهرٍ بالعَصا عُصاةً فراعنةً جائِرهْ
سلامٌ على الروح عيسى الذى بمبعثه شَرُفَتْ ناصِرَه[2]
سلامٌ على المصطفى أحمدٍ ولىِّ الشفاعة فى الآخره
سلامٌ على المرتضى حَيْدرٍ وأبنائهِ الأنجمِ الزاهره
سلام عليك فحصولهم لديك أيا صاحبَ القاهره
بنفسىَ مُسْتَنصرًا بالإله جنودُ السماء له ناصرهْ
شهدتُ بأنك وَجْهُ الإلٰهِ وجوهُ الموالى به ناضِرَه

وواضح أن المؤيد بدأ سلامه بآل البيت ، ثم تلاهم بآدم ونوح صاحب الطوفان وإبراهيم الذى ألقاه النمرود فى النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما وموسى صاحب العصا التى استحالت

(١) النائرة : نائرة الحرب : شرها
(٢) ناصرة : بلدة المسيح .

ثعبانا فى مجلس فرعون فإذا هى تلقف كل ما جاء به سحرته من سحر رهيب ، وعيسى الروح الأمين الذى شرفت به مدينته الناصرة ، ومحمدٍ المصطفى الشفيع المشفع فى الآخرة ، وعلى أو حَيْدر المرتضى وأبنائه الأئمة الأنجم الزاهرة . ويقول إن المستنصر لديه محصول كل هؤلاء الرسل وكل الأئمة فهو الرسول وهو عيسى وهو موسى وهو إبراهيم الخليل وهو نوح وهو آدم وهو على والأئمة جميعا قبله إماما إماما . وهو بذلك وارث الأئمة والرسل ، وارث علومهم ومعجزاتهم وخوارقهم . ولا يكتفى المؤيد بكل ذلك ، إذ يقول إن الملائكة جنده الذى ينصره فى معاركه ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يتقدم خطوة بل خطوات إذ لا يُسْبِغ عليه صفات الله وحدها ، بل يجعل ذاته نفس ذات الله إذ يقول إنه وجه الإله ، وكأنه اتحد معه فى ذاته تعالى الله عن هذا البهتان الآثم علوا كبيرا ، وهو ليس بهتانا فحسب ، بل هو ضلال مبين .

ظافر[1] الحداد

هو ظافر بن القاسم الإسكندرى ، من سلالة قبيلة جُذام اليمنية ، كان أبوه حدادا بالإسكندرية ، ولد له فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، ويبدو أنه أرسله فى صباه إلى الكُتَّاب ، ورأى من ذكائه ماجعله يدفعه إلى حلقات العلماء ، وهو مع ذلك يعاونه فى حرفته . وأكبَّ الصبى على حفظ الشعر وكانت له ملكة خصبة ، سوَّتْ منه شاعرا كان يلفتُ أقرانه ، كما لفت كثيرين من شعراء الإسكندرية ، وكانت بها آنذاك نهضة شعرية واسعة ، جعلت شعراءها يتكاثرون ، كما جعلت العماد الأصبهانى فى الخريدة يترجم لكثيرين منهم . ولعل شيئا من العجب يداخلنا إذ نجد بين الشعراء هناك شاعرا حدادا ، ولكن إذا عرفنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت طوال الحقب السالفة ثقافة شعبية عامة إذ كانت تُلْقى بالمساجد ، ولكل شخص الحق فى أن يجلس إلى حلقة الشيخ الذى يريد الاستماع إليه ، وكانت للشعراء فى المساجد حلقات ، مما أتاح لشباب العامة المشاركة فى الشعر وفى العلوم العربية والإسلامية ، وتكثر هذه الظاهرة بين شعراء الدولة المملوكية ، إذ نجد بينهم جزارا وحَمَّاميًّا ووراقًا وخيَّاطا وكحالا . وقد

---

(١) انظر فى ترجمة ظافر وشعره الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/٢ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٧/١٢ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٥٤٠/٢ والرسالة المصرية لأبى الصلت أمية فى الجزء الأول من نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ و «فى أدب مصر الفاطمية» للدكتور محمد كامل حسين ص ١٩٠ وظافر الحداد لحسين نصار وديوانه بتحقيقه (نشر مكتبة مصر) .

تفتحت موهبة الشعر عند ظافر مبكرة وتهيأت له فرصة أن يتألق اسمه بين شعراء مدينته ، فإن ابن ظَفر واليها من قبل الخليفة الفاطمى تصادف أن ورم خنصره وبه خاتم ، فخشى عاقبة الأمر وطلب حدادًا كى يكسر حلقته ، فجاءوه بظافر ، فلما كسر الحلقة أنشده بديها :

قَصَّرَ فى أوصافك العالَمُ واعترف الناثرُ والناظمُ
من يكنِ البَحْرُ له راحةً يضيق عن خِنْصَرِه الخاتَمُ

فاستحسن ذلك منه ابن ظفر ووهبه الحلقة وكانت من ذهب . وكان بين يديه غزال مستأنس قد ربض أو طوى قوائمه ، وجعل رأسه فى حجره ، فقال له أحد الحاضرين : إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح البصر فى هذا الغزال المستأنس ، فقال تَوًّا :

عجبتُ لجرأة هذا الغزالِ وأمرٍ تخطَّى له واعْتَمَدْ
وأعجبْ به إذ بَدَا جاثما فكيف اطمأنَّ وأنت الأسَدْ

فزاد ابن ظفر وجلساؤه فى الاستحسان . وكانت هناك شبكة مسدولة على باب المجلس تمنع الذباب من دخوله ، فتأملها ظافر وقال بديها :

رأيتُ ببابك هذا المنيفِ شِباكًا فأدركنى بعضُ شَكّْ
وفكَّرْتُ فيما رأى خاطرى فقلتُ البِحارُ مكانُ الشَّبَكْ

وكانت هذه الحادثة سببا فى اشتهار ظافر بمدينته ، وتهاداه أعيانها وقضاتها مثل ابن أبى حديد قاضيها وله فيه مدائح طريفة .

وطمح ظافر إلى لقاء الأفضل بن بدر الجمالى وزير الفاطميين ، وكان قد حجر على الخليفة الآمر وأصبح له الملك والسلطان كله ، فاتخذ الأسباب إلى لقائه ، ولم يكد يستمع منه إلى مديحه حتى أكبره وقدَّمه على أقرانه ، وسكن ظافر بجواره فى الفسطاط ، وأخذ يدبِّج فيه مدائح طنانة ، وهو يغدق عليه من نواله مع راتب قدَّره له ، وإلى ذلك يشير قائلا :

وهذا الجنابُ الأفضلىُّ يُكِنُّنى ذُرى ظِلِّه إنى إذنْ لسعيدُ

وقُدِّر لهذه السعادة أن ينحسر ظلها عن ظافر إذ دبَّر الخليفة الآمر للأفضل من قتله غيلة سنة ٥١٥ للهجرة ، وولى الوزارة بعد الأفضل المأمونُ البطائحى ، ولظافر فيه مدحتان يشكو فيهما من عوزه وضيق ذات يده ، ومع ذلك يشكره على ما أولاه من نعم . ويبدو أن ما نعم به فى زمن الأفضل

من أموال انقطع بعده إلا قليلا ، وكأن أبواب المأمون لم تكن مفتوحة له إلا من حين بعيد إلى حين ، ولا يلبث الخليفة الآمر فى سنة ٥١٩ أن يصادر المأمون ثم يقتله . حينئذ نجد ظافرا يفكر فى تقديم مدائحه للخليفة ، ولم يكن شيعيا فضلا عن أن يكون إسماعيليا طوال أيامه الماضية ، فقد رأيناه حين نزل الفسطاط يقصر مدائحه على الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، وكان سنِّيًّا ، وكأن المأمون البطائحى من رجاله ، ولعله لذلك لم يكن شيعيا أو بعبارة أدق لم يكن غاليا فى تشيعه . على كل حال ليس فى مديح ظافر له وللأفضل ما يدل على صلته بالتشيع الإسماعيلى حتى هذا التاريخ . ولكن المأمون قُتل ، وكأنما دُفع دفعا لكى يمدح الخليفة الآمر ، فأكبَّ على ديوان ابن هانئ الأندلسى يدرسه ليتمثل معانى العقيدة الإسماعيلية ، ويرى نهجه فى عرضها بمديحه ليحتذيه ، يقول فى إحدى مدائحه للآمر مصرحا بذلك دون أى مواربة :

أجادَ ابْنُ هانى فى المعزِّ مدائحًا ... هداه إليها ذلك الفضلُ والمَجْدُ
وقد جادَ مَدْحِى فيك لما رأيتُ ما ... رأى فاستَوى المدحان والإبْنُ والجَدُّ

ونراه فى نفس هذه القصيدة يردد ما ردده ابن هانئ من أن طاعة الخليفة أو الإمام الفاطمى فريضة واجبة ، على كل إسماعيلى أن يعتنقها وأن يؤدى واجباتها ، يقول :

فمن عاشَ أَحْياه نَدَاهُ ومن يَمُتْ ... على حُبِّهِ طوعًا فمسكنُه الخُلْدُ
أطاعتْه أسرارُ القلوبِ ديانةً ... فما لامرئٍ لم يعتقد حُبَّه رُشْدُ
فطاعتُهُ فرضٌ وخدمتُه تُقًى ... ونُصْرَتُهُ دينٌ ومَرْضاتُه جَدُّ

فطاعة الآمر وأمثاله من الأئمة فرض مكتوب ، فمن أطاعه فاز بالرضوان ومن عصاه كانت عاقبته الخسران ، وإن مرضاته لجَدٌّ أو حظ أكبر ، ولا إسلام إلا بطاعته وموالاته ومحبته . والآمر مثله مثل الأئمة قبله ، يرتفع فوق حدود الطبيعة البشرية ، إذ هو مثل العقل الفعال الأول الرابط بين الله والوجود ، وهو بذلك النورُ الإلهى ، نورُ السموات والأرض . ولن يفهم ظافر كل هذه الفلسفة الإسماعيلية المنحرفة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع ، وهو لذلك سيلتقط دون تعمق من ابن هانئ فكرة النور التى يرددها فى مديحه للمعز قائلا فى الآمر :

إمامٌ تبدَّى للوَرَى من جَبينهِ ... ضياءٌ به تُشْفَى بصائرُها الرُّمْدُ
ونورُك ما يُهْدِى الصباحُ لناظرٍ ... ولولاه ضَلَّ الناسُ وامتنع القَصْدُ

وكأن ظافرا ينقل ذلك عن ابن هانئ دون أن يدرك مقصده تماما وأن ممدوحه نور السموات والأرض ، وبالمثل نقل عنه نظرية الأدوار التى تزعم أن الأنبياء والأئمة الفاطميين إنما هم مظاهر دورية للعقل الفعال وحلقاته البادئة بآدم والتى ينتظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم على وأبناؤه وأحفاده من الأئمة الطاهرين ، ويلم ظافر بظاهر من ذلك كله قائلا فى مدحة أخرى للآمر :

أنت الذى بعثَ الإلٰهُ لنا بهِ ... آباءَهُ فتمثَّلوا بِمُثولهِ
هذا ضياءُ اللهِ والمعنى الذى ... تتفاضلُ العلماءُ فى تَعْليلهِ
مازال يَنْقُلُه الإلهُ مُطَهَّرًا ... عن ظَهْر مثلِ ذَبيحه وخليلهِ
وتوارثْته الأنبياءُ وسادةُ الـ ... ـخلفاء حتى حان وقتُ حُلولهِ

فآباء الآمر من الأئمة والأنبياء قد تمثلوا فيه بميراثهم الربانى من النور الذى يعمُّ أطباق السموات والأرض ، ومازال الله ينقل هذا النور من نبى إلى نبى ومن إمام إلى إمام من مثل إبراهيم وإسماعيل ذبيحه ومثل على وجعفر الصادق إلى أن حلَّ فى الآمر المطهر المحفوف بالعناية الإلهية والنَّفْحة النورانية ، ومن ثَمَّ كان ابن هانئ يقول فى المعز إنه جوهر الملكوت وإنه العقل المدبر للكون .

ولم يكن ظافر يتغلغل فى العقيدة الإسماعيلية هذا التغلغل ، بل كان يقف كما رأينا عند ظاهر من أقوال ابن هانئ فى المعز ويرددها فى الآمر . وهو معنى ما قلناه فى غير هذا الموضع من أن المصريين انصرفوا عن العقيدة الإسماعيلية ولم يحاول أحد منهم أن يكون داعية لهم على شاكلة المؤيد وابن هانئ . ولعل مما يؤكد ذلك عند ظافر أننا نجده يضيف إلى قيثارة مديحه للآمر وترين لا نجدهما عند ابن هانئ ، وهما ميراث الآمر وآبائه للرسول ﷺ ، مما جعله يتغنى بمعجزاته الخارقة من المعراج وغير المعراج ، ثم الاتساع بخياله فى بيان سحق جيوش الآمر للصليبيين ، وكانوا قد استولوا فى عهده على بيت المقدس وكثيرٍ من ثغور الشام وبلدانه ، والخليفة ووزيره الأفضل والمأمون يغطُّون فى غفلة لا تدانيها غفلة ، وكأن ظافرا يحاول إيقاظ الآمر ودفعه للذبِّ عن حُرمات الإسلام ودياره أمام حملة الصليب ، وهو فى ذلك إنما كان لسانا للمصريين يعبر عن فزعهم للغزو الصليبى وما يأملون من القضاء على حَملة الصليب قضاءً مبرما . وهذا الوتر فى مدائح ظافر للآمر ووتر الميراث النبوى أتاحا لمدحته له أن لا تقف عند المبادئ الإسماعيلية فى مدح الأئمة الفاطميين إلا لماما وإلا عند هذا الظاهر السطحى منها الذى صوَّرْناه .

ودليل ثان على أن هذه المبادئ لم تتعمق نفس ظافر أنه حين قُتل الآمر سنة ٥٢٤ وتولى ابن عمه الخليفة الحافظ واتخذ أبا على بن الأفضل الجمالى السنى وزيرا له ، حينئذ نجد ظافرا يمدحه مدحا يخلو خلوا تاما من هذا الغلو الإسماعيلى الذى رأيناه فى مدائح الآمر. وكان من المبادئ الإسماعيلية أن يتولى الخلافة ابن الخليفة وتصادف أن الآمر لم يترك ابنا ، وقيل بل ترك طفلا رضيعا اسمه الطيب ، وتعصبت له جماعة سميت الطيبية وتعصبت جماعة أخرى سريعا للحافظ عبد المجيد ابن عم الآمر ، وأُخذت له البيعة واستولى على مقاليد الخلافة . وظل من ذلك جَمْر مختف وراء الرماد ، مما جعل ظافرا يدافع فى بعض مديحه للحافظ عنه وعن حقه فى الخلافة قائلا :

ورثَ ابنُ عمٍّ محمدٍ من بعده حقَّ الخلافةِ مُنْصفا فى نَقْلها
وورثْتَ أنت عن ابن عَمِّك حقَّها فجرى قياسُ خلافةٍ فى شكلها

فالحافظ ورث الخلافة عن الآمر كما ورثها عن الرسول ﷺ ابن عمه على بن أبى طالب رأس الأئمة . ولا يلحّ ظافر فيما كان يعتقده الإسماعيليون فى أئمتهم من معان قدسية ومن رفعهم عن حدود الطبيعة البشرية المادية ، فهو إنما يمدح الحافظ بميراثه للرسول مما يجعله يطيل فى بيان معجزاته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن كل ما استبقاه من العقيدة الفاطمية فى مديحها قوله .

ياحُجَّةَ الله التى أبدتْ لنا بِكمالها الآياتِ والبُرهانا

وكأنما حدث انقلاب فى مديح ظافر للحافظ بالقياس إلى مديحه للآمر ، وليس له فى الحافظ إلا قصيدتان مع أنه عاش فى مدة خلافته خمس سنوات ، إذ توفى سنة ٥٢٩ . وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يدل على أن ظافرا لم يكن إسماعيليا بالمعنى الدقيق ، وإنما هى فترة محدودة نحو أربع سنوات اضطر فيها لمديح الآمر على طريقة القوم ، مما جعله يعود إلى ديوان ابن هانئ يستظهر ما فيه أو بعضا مما فيه ، ولم يَعْدُ استظهاره قشورا ، ردَّدها حينا فى مديح الآمر ثم كفَّ عنها فى مديح الحافظ إلا ما سقط عفوا .

وبدون ريب كان ظافر شاعرا بارعا وفيه يقول العماد الأصبهانى فى ترجمته له بكتابه الخريدة : « ظافر ، بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر.. حدَّاد لو أنصِفُ لسمِّى جوهريًّا ، وكان باعتزائه إلى نظم اللآلئ حريًّا ، أَهْدَى بِرَوِىٍّ شعره

الرَّوِىّ للقلوب الصَّادية[١] رِيًّا ، فياله ناظما فصيحا مفلقا جَرِيًّا[٢] » . وحقا شعره غاية فى السلاسة والعذوبة ، وهى ظاهرة عامة تلاحظ دائما فى شعر المصريين ، كما يلاحظ عندهم على الأقل حتى زمن ظافر أنهم لا يتصنعون للبديع ومحسناته المعقدة ، قد تأتى عندهم وقد يستخدمونها أحيانا ولكن فى خفة ورشاقة . ودائما تلقانا عند ظافر العذوبة والرقة على نحو مانرى فى مثل قوله متغزلا :

ياساكنى مصرٍ أما مِنْ رَحْمَةٍ فيكم لمن ذهب الغرامُ بِلُبِّهِ
أمن المروءةِ أن يزورَ بلادكم مثلى ويرجعَ مُعْدمًا من قلبهِ

وهما بيتان فى منتهى السهولة ، وكان ينفذ كثيرا إلى صور طريفة مبتكرة ، وقد يبعد فيها حتى لتصبح كأنها رؤى حالمة على شاكلة قوله :

لئن أنكرتْ مقلتاها دَمَهْ فمنهُ على وَجْنَتَيْها سِمَهْ
وها فى أنامـلها بَعْضُه دَعَتْهُ خِضاباً لكى تُوهِمَهْ

وواضح أنه كان عند ظافر حظ من الخيال المغرق فى الوهم إغراقا يروع قارئه ، وسننشد له قطعة من غزله فى الفصل التالى ، ونكتفى بصورة واحدة من صوره الحالمة العجيبة لتدل على هذه المقدرة البارعة ، وهى صورة وصف فيها الهرمين وأبا الهول وصفا لم يقع لشاعر من قبله ولا من بعده ، يقول :

تأمَّلْ بنْيَةَ الهرمين وانْظُرْ وبينهما أبو الهولِ العجيبُ
كعَمَّاريَّتَيْنِ على رحيلٍ لمحبوبين بينهما رقيبُ
وماءُ النِّيل تحتهما دموعٌ وصوتُ الريح عندهما نحيبُ

وهى صورة مركزة لمشهد واسع كبير استحال إلى هذه الرؤيا الحالمة ، فالهرمان كأنهما عماريَّتان أو هودجان هرميا الشكل لمحبوبين بينهما أبو الهول وكأنه رقيب ، يشهدهما ساعة الوداع ، وهما يذرفان الدمع مدرارا ، ويهمى تحت أقدامهما نهرا فياضا كبيرا هو نهر النيل ، والريح من حولهما تنتحب وتئن أنينًا لا ينقطع . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ظافرا كان أبرع شاعر عرفته مصر زمن الدولة الفاطمية .

---

(١) الصادية : الظامئة . (٢) جريا : جريئا .

الفصل الرابع
طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعل موضوعا لم يشغل شعراء مصر طوال هذا العصر كما شغلهم الغزل ، الذى يصور عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، والذى طالما تغنَّى به الشعراء مصورين حبهم للمرأة وهيامهم بها ، وما شعروا به من سعادة حين أقبلت عليهم ولو بعض الإقبال وما شعروا به من شقاء حين كانت تعرض عنهم ولو بعض الإعراض . أما حين كانت تقبل فكأنها تناولهم شرابا هنيئا بل رحيقا صافيا لا يدانيه رحيق ، وأما حين كانت تعرض فكأنها تلقى عليهم شواظا من نار يلذع قلوبهم وأفئدتهم ، ويصور الشاعر كيف يتصل ذلك كله بقلبه وبنفسه وبأحاسيسه ومشاعره ، يصور ما يجد فى حبه من لذة أو ألم ومن نعيم أو جحيم . ولا يكاد يوجد محب إلا وهو يخشى القطيعة والفراق إلى غير مآب ، فإن حدث الفراق فإنه يشكو ويضرع ويستعطف . لقد حُرم حتى من الإشارة واللمحة من بعيد ، ولكن الأمل فى اللقاء يظل يراوده مهما تجرَّع من الآلام واحتمل من ألوان العذاب ، ويبدىء ويعيد فى تصوير عذابه وآلامه لعل صاحبته تعطف عليه وتعيد ما كان بينها وبينه من وصال . وحقا قد تلقانا فى تضاعيف ذلك صور من الحب الجسدى الذى تمليه الغرائز ، وهو خليق بالازدراء ، إنما الذى يملؤنا إعجابا هو الحب العذرى العفيف الطاهر الذى يشغف قلوب أصحابه ويملؤهم بوجد ليس بعده وجد ، وجد لا يخجلون منه ولا يستخزون ، لأنه لا يتعلق بمأرب مادى ، فحسبهم الوصال واللقاء ، وهنيء لهم عذابهم بهذا الحب الذى ليس بعده عذاب ، إنه حب قوى حار ، حب نقى صاف ، حب يمتلئ احنانا . وسواء استحال هذا الحب نارا من اليأس أو نورا من الأمل فإن تعقبه عند الشعراء المصريين وعَرْضَه فيه كثير مما يلذّ النفس ويمتعها ، وخاصة ما نفذوا إليه من غزل وجدانى صادق فى وصف حبهم وما انطوت عليه قلوبهم من مشاعر الصبابة ، مما سنراه واضحا عند ابن النبيه والبهاء زهير .

ويخيل إلى الإنسان كأنما أوقد الحب جذوة من النار لا تنطفئ أبدا فى قلوب الشعراء ، فهم دائما يَصْلَوْنَها ويَصْلَوْنَ معها البعد والفراق ، وحتى مع القرب يَصْلَوْنَ عذاب الحب ، دون إشفاق أو عطف أو رحمة ، على نحو ما يقول ابن هانئ[١] .

فَتَكاتُ طَرْفِكِ أم سيوفُ أبيكِ ... وكئوسُ خمرٍ أم مَراشفُ فيكِ
أجِلادُ مُرْهَفةٍ وفَتْكُ محاجرٍ ... ما أنتِ راحمةٌ ولا أهلوكِ
يا بِنْتَ ذى السَّيْفِ الطويلِ نِجادُهُ ... أكذا يجوز الحكمُ فى ناديك
عَيْنَاكِ أم مَغْناكِ موعِدُنا وفى ... وادى الكرَى ألقاكِ أم وادِيك
قد كان يدعونى خيالُكِ طارقًا ... حتى دعانى بالقَنا داعِيكِ
منعوكِ من سِنَةِ الكرَى وسَرَوْا فلو ... عَثَروا بِطيفٍ طارقٍ ظَنُّوكِ

وهو لا يدرى كيف يتقى فتكات طرف صاحبته التى تشبه أتم الشبه فتكات سيف أبيها ، وإنها جميعا لتصيبه فى الصميم دون أى رأفة ، وإنه ليائس يأسا شديدا من رأفة أبيها وأهلها ، فلا يأمل فى رؤية لها أو لقاء ، ويتعلل بلقائها ورؤيتها فى الكرى والأحلام ، ويألم ألمًا شديدًا ، فقد منعوا طيفها من الإلمام بعينيه فى الحلم ، وإنه ليبيت خائفا منهم حذرا ، أن تسفر له عن وجهها الباسم حتى فى النوم ، فما أشقاه وما أشد عذابه ، إذ لا يجنى من حبه لها سوى الألم والحرمان واللوعة .

ولم يكن تميم بن المعز الفاطمى أقل منه لوعة وأسى حين صور وداعه لصاحبته ، وهى لا تقل عنه أسى والتياعا ، يقول[٢] :

مازال فى الحبِّ شوقٌ موجعٌ وأسًى ... مبرِّحٌ يَقْطَعُ الأحْشاءَ والكَبِدا
حتى رمى البَيْنُ بالتفريقِ أُلْفَتَنا ... وحَلَّ من وَصْلِها ماكان قد عُقِدَا
فآهِ من لوعةٍ مشبوبةٍ وجَوًى ... فى الصدر لم يُبْقِ لى صَبْرًا ولا جَلَدَا
قالتْ وعَبْرَتُها مخلوطةٌ بِدَمٍ ... تَجْرِى وأنفاسُها مرفوعةٌ صُعُدَا
لا تطلبِ النطقَ منى بالسَّلام فما ... أَبْقَى فراقُكَ لى روحًا ولا جَسَدا

وهو يصور أساه فى حبه وكيف يفتت منه الأحشاء والكبد ، وإذا البين ينعب بالفراق ، فيلتاع لوعة تستعر بين جوانحه ، ويتهالك ويفقد الصبر والجلد ، بينما هى تذرف الدمع مدرارا مرسلة

---

(١) ديوان ابن هانئ (طبعة زاهد على) ص ٥٣١ .
(٢) ديوان تميم ص ١٣١ .

أنفاسا حارة ملتهبة ، وتتلطف له قائلة لا تطلب منى النطق بالسلام ، فلم أعد أستطيع الكلام ، وتشعر كأن الفراق يكلفها من الجهد فوق ما يطيق جسدها وروحها ، بل لكأنما لم يعد لها جسد ولا روح . ويعود إلى تصوير لوعة هذا الفراق لمحبوباته فى الديوان مرارا بمثل قوله[١] :

قالتْ وقد نالها للبين أوجعُه والبينُ صعبٌ على الأحباب موقِعُهُ
اجعلْ يديك على قلبى فقد ضَعُفَتْ قُواه عن حَمْل مافيه وأضلعُه
كأننى يوم ولّت – حسرةً وأسًى – غريقُ بَحْرٍ يرى الشاطى ويُمْنَعُهُ

فقد ارتفع نبضها وعلت ضرباته ، وتحس كأنما لم يعد فى قلبها فضلٌ من قوة تستطيع به أن تحتمل صدمة الفراق المروعة ، وتميم يبادلها نفس المشاعر ونفس الآلام والأوجاع ، وإنه ليذوب حسرة وأسى لفراقها ، ولا يستطيع أن ينقذها وينقذ نفسه من هذه المحنة ، وكأنه غريق تلعب به الأمواج وهو يرى الشاطئ ولا يستطيع وصولا إليه . وعلى الرغم من أنه كان أميرا وكان ابن الخليفة المعز تلقانا عنده مشاعر الحب الحقيقية التى ترتفع عن أدران الحسّ ، ومن طريف قوله فى بعض غزله[٢] :

قلتُ اسْمَحِى لى بتقبيلٍ أعيش به قالت : وأىٌّ محبٍّ قبَّل القمَرا

ومرَّ بنا فى ترجمة ظافر الحداد أن له غزلا رقيقا يطير عن الفم بخفة وأنشدنا له قطعتين ، واشتهر بقصيدة له ذالية أو اختار أن تكون ذالية ليدل على قدرته فى النظم على هذه القافية التى يظن أنها تستصعب على الشعراء ، وهى قصيدة غزلية ، تجرى على هذا النمط[٣] :

لو كان بالصبر الجميل مَلاذُهُ ما سَحَّ وابلُ دمعه ورَذَاذُهُ
من كان يرغبُ فى السلامة فليكن أبدًا من الحدَقِ المِراض عِياذُه
لا تخدعنَّك بالفتور فإنَّه نَظَرٌ يضرُّ بِقَلْبِك اسْتِلذاذُهُ
يا أيها الرَّشأ الذى مِنْ طَرْفِهِ سهمٌ إلى حَبِّ القلوب نفاذُه
دُرٌّ يلوح بفيك مَنْ نظَّامُهُ خمرٌ يجولُ عليه مَنْ نَبَّاذُه[٤]
وقناةُ ذاك القَدِّ كيف تقوَّمتْ وسِنانُ ذاك اللَّحْظِ ما فولاذُهُ
رِفقًا بجسمك لا يذوبُ وإننى أخشى بأن يَجْفُو عليه لاذُهُ[٥]

---

(١) الديوان ص ٢٦٠ .
(٢) الديوان ص ١٥٢ .
(٣) ابن خلكان ٢/٥٤٠ والنجوم الزاهرة ٥/٣٧٦ .
(٤) النباذ : صانع النبيذ
(٥) اللاذ : ثوب من حرير

والقصيدة على هذه الشاكلة تسيل رقة وعذوبة ، حتى مع قوافيها الذالية ، وتملأ صوره النفس بهجة ، فهذا الرشأ أو الظبى الجميل الغرير يرسل سهامه وهى سهام حقيقية تنفذ إلى حَبِّ القلوب وسويدائها ، ويخال دُرًّا ملء فمها ويتساءل من نظمه فى هيئته البديعة ، أما ما حوله من رُضاب أو ريق فخمر حقيقية ويتساءل من النباذ الذى صنع هذه الخمر العجيبة ، ويشتد به العجب وهو ينظر إلى قامة صاحبته واستوائها الرائع ، ويتساءل أى فولاذ صلب اتُّخذ منه سنان لحظها المرهف القاطع النافذ إلى الأفئدة . وإن جسد صاحبته ليذوب رقة ما بعدها رقة ونعومة ما تماثلها نعومة ، حتى ليظن كأن اللاذ أو الحرير الذى تلبسه ينبو عليه لشدة لطفه وراهافته . وله يتغزل موجهًا الخطاب إلى معاتبه فى حبه وتهالكه فيه[١] :

عتبتَ ولكننى لم أعِ وأين ملامُكَ من مَسْمَعى
وما قدرُ عَتْبِكَ حتى يزيل غراما تمكّن من أضْلعى
ومــا دام لومُك إلا وأنْـ ـت تَقْدِرُ أنَّ جَنانى معى
مضى كى يودِّع سُكَّانَهُ غداةَ الفِراق فلم يرجعِ
فؤادىَ فى غير ما أنت فيهِ فخُذْ فى ملامته أودَعِ

والقطعة تموج برقة الحسِّ ولطفه إلى أبعد حدود الرقة واللطف اللذين يشتهر بهما أهل القاهرة من قديم ، وليس فيها لفظة غريبة بل كأنه تعمد أن يختار ألفاظها أقرب ما تكون إلى لغة الحياة القاهرية اليومية . ولا نبعد إذا قلنا إنها تعد هى ونظيراتها عند ظافر مقدمة للغزل الوجدانى الصافى الذى سنعرضه عند ابن النَّبيه ومعاصريه . وهو يقول لصاحبه فى القطعة بمنتهى الرقة والتلطف كفى عتابا فقد سلبت محبوبتى عقلى وسمعى ، وملك حبها جَنانى ، بل لقد مضى وراءها منذ الفراق ولم يعد . فأنا لا أعقل ولا أسمع شيئا مما تقول ، ويتلطف إليه غاية اللطف حين يترك له الخيرة فى أن يستمر فى لومه أو يكف عنه ، وعادة المحبين أن يَعنُفوا بلائميهم فى الحب ، وظافر لا يعنف بل يتلطف فى ود رقيق .

وربما كان من تتمة الرقة فى غزل الشعراء المعاصرين لظافر أن نجد ابن قادوس الدمياطى يتغزل بجارية سوداء ، محاولا بكل ما استطاع أن يرد عنها ما يُظَنُّ من قبح السواد ، يقول[٢] :

---

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦/٢

(٢) الخريدة ٢٣٢/١.

وعـــاذلٍ مُـحْـتَـفـلٍ مجتهدٍ فى عَـــــذَلى
يـلومنى فى ظَـبْـيـةٍ مخلوقـةٍ من كُـحُـلِ
إن السَّوادَ عـلَّـةٌ من نورِ هذى المُقَلِ
والـحَـجَـرُ الأسودُ لم يُـخْـلَقْ لـغير الـقُـبَـلِ
والقارُ — مذ كان — وعا ءُ السَّلْسَبيلِ السَّلْسَلِ

فقد دافع عن تلك الجارية دفاعا بديعا . إذ جعلها مخلوقة من الكحل الذى تزدان به الحسان فى عيونها ، بل جعلها مخلوقة من سواد العيون الذى تبصر به من حولها النور المنبثق فى الكون ، وإنه ليذكر الحجر الأسود وإكباب الحجاج على تقبيله ، كما يذكر القار أو القطران واتخاذه فى دعم الجدر لآنية الماء العذب . وهو ظرف بالغ من ابن قادوس ، ظرف نعرفه دائما للشعراء المصريين . وكانوا يسندون هذا الظرف بكثير من الصور الخيالية المبتكرة ، وقد يبالغون فى وصف هيامهم مبالغة بعيدة على نحو ما نقرأ للمهذب بن الزبير[١] :

إذا أحرقتْ فى القلب موضعَ سُكناها فمن ذا الذى من بعدُ يُكرم مَثْواها
وما الدمعُ يوم البَيْن إلا لآلئٌ على الرَّسْم فى رسم الديارِ نثرناها[٢]
وما أطلعَ الزَّهْرَ الربيعُ وإنما رأى الدَّمْعُ أجيادَ الغُصونِ فحلاَّها
ولما وقفنا للوداع وترجمتْ لعينىَ عما فى الضمائر عَيْناها
بدتْ صورةً فى هيكلٍ فلو اننّا ندينُ بأديان النَّصارى عبدناها

وهو يشكو من النار التى دلعتها صاحبته فى فؤاده ، ويقول لها إنه مسكنك فإذا لم تبق عليه فأين يكون مثواك ، استعطاف واسترحام ، فقلبه مُلئ بها فتونا بل نارا موقدة ، وقد أزمعت البين والفراق وهو ينثر دموعه نثرا . ويمتد به الخيال فيظن أن الندى العالق بغصون الأشجار دموعه ، ويعلن سحرها له وشغفه بها ، وكيف يعبث جمالها بفؤاده ، حتى لتبدو له وكأنها صورة فى هيكل تقدَّم لها القرابين والتراتيل ، ويوشك أن يعبدها كما يعبد النصارى المسيح . ونحس عند المهذب نقلة لشعر الغزل المصرى ، إذ يستحيل وجدًا وصبابة ورقة وخفة من مثل قوله[٣] :

---

(١) معجم الأدباء ٩/٦١ .
(٢) على الرسم : على العادة .
(٣) الخريدة ١/٢١٦ .

هُمْ نُصْبَ عينى أَنْجَدُوا أو غاروا ومُنَى فؤادى أنصفوا أو جاروا[1]
فارقتهم وكأنهم فى ناظرى مما تمثِّلهم لىَ الأفكار
تركوا المنازلَ والديار فمالهم إلا القلوبَ منازلٌ وديارُ
واستوطنوا البِيدَ القِفارَ فأصبحتْ منهم ديارُ الإنسِ وهْىَ قِفار
فلئن غَدتْ مصرٌ فلاةً بعدهم فلهم بأجواز الفَلا أمصار[2]
أو جاوروا نجدًا فلى من بعدهم جاران : فيض الدمع والتَّذكار
والدهر ليلٌ مذ تناءت دارهم عنى وهل بعد النهار نهارُ

إنه لن ينساهم أبدا مهما أنجدوا أو غاروا ومهما شرقوا أو غربوا ، ومهما أنصفوه أو ظلموه ، لقد فارقوه وصورهم ماثلة فى خياله لا تبرحه ، وحقا تركوا المنازل والديار ، ولكنهم تركوا وراءهم منزلا عظيما ، لا تزايله صورهم ، إنه قلبه الملتاع المطوى على حبهم . وينظر إلى الديار والمنازل حوله بمصر فيظنها فلوات ومفازات ، فقد غادروها قفرا يبابا خرابا إلى ديار كانت خالية موحشة فأصبحت بهم أمصارا ، وليس من جار له فى قفره الخرِب إلا جاران : تذكارهم ودموعه المنهلة التى لا ترقأ أبدا ، وقد أظلمت الدنيا فى عينيه . حتى غدا النهار مظلما داجيا ، فقد أخذوا معهم كل شىء حتى النهار وضياءه . وله أبيات غزلية خفيفة من مثل قوله[3] :

لم يَهُنْ قَطُّ علينا بُعْدُكم مثلما هانَ عليكم بُعْدُنَا
لم تبالوا إذ رحلتم غُدْوَةً أىَّ شىءٍ صَنَعَ الدهرُ بنا

وقوله[4] :

أحبابَنا مابالُكم فينا من الأَعْداء أَعْدَى
وحياةِ وُدِّكمُ وتُرْ بة وصلكم ماخنتُ عَهْدَا

والرقة واضحة فى الأبيات ، وواضح فى البيت الأخير الظرف المصرى ، فالوصل مات وقُبر والمهذب يحلف – كما يحلف المصريون حتى اليوم بأعزائهم وتُربهم أو قبورهم – بتربة الوصل العزيز وما سكب عليه من الدموع الحارة .

(١) أنجدوا : دخلوا نجدا . غاروا : دخلوا الغور أى تهامة .
(٢) أجواز : جمع جوز : وسط .
(٣) الخريدة ٢١٩/١ .
(٤) الخريدة ٢١٤/١ .

ويلقانا فى أوائل أيام صلاح الدين الأيوبى على بن الدباغ الإسكندرى ، ومن بديع ماله فى الغزل أبياته المشهورة[١] :

يـاربٌ إن قـدَّرتَـهُ لِمُقَبِّلٍ غيرى فـلِلْـمسواك أوللأكْؤُسِ
ولئن قضيتَ لنا بصحبة ثالثٍ يارَبِّ فلْيَكُ شمعةً فى المجلسِ
وإذا قضيت لنا بعين مراقبٍ فى السرِّ فَلْتَكُ من عيون النَّرْجِسِ

وابن الدباغ يصور فى أبياته أنانية المحب وكأنه يحب نفسه كما يحب محبوبته ، بل هو يرى فيها ظلال نفسه ، ولذلك يتمنى لها ما يتمنى لنفسه من أن لايقَبِّل شَفَتيها سوى المسواك للوضوء والأكؤس أو الأكواب للشراب ، وأن لايصحبها ثالث إلا أن يكون شمعة تضىء المجلس ، وإذا كان لابد من عين لرقيب فلتكن من عيون النرجس .

وكان القاضى الفاضل وزير صلاح الدين يجنح إلى استخدام المحسنات البديعية وإلى صور مختلفة من التكلف ، وكان قد نشأ بمصر وتنفس فى حياتها الأدبية ولعله لذلك يؤثر من حين إلى حين السهولة فى غزله وأن يَمْتح من المعين المصرى العذب كقوله[٢] :

ياطَرْفُ مالك ساهدًا فى راقدٍ ياقلبُ مالك راغبًا فى زاهِدِ
من يشترى عمرِى الرخيصَ جميعَهُ من وَصْلك الغالى بيومٍ واحدِ
عـاتـبـتُـه فـتـورَّدت وَجَـنـاتُـهُ والقلبُ صخرٌ لايلينُ لقاصِدِ

والقطعة مكتظة بالطباق ولكن لا نكاد نحسه ، لأن الألفاظ متداخلة متواصلة ، وهو يصور فيها انصراف المحبوبة عنه ، بينما هو واله بها واجد ، وعاتبها فتضرجت وجناتها بالخجل ، غير أنها ظلت منصرفة عنه لا تلين له ولا تعطف عليه ، ومن غزله البديع قوله[٣] :

تُرَى لحنينى أو حَنينِ الحمائمِ جرتْ – فحكتْ دَمْعى – دموعُ الغمائمِ
وهل من ضلوعٍ أو ربوعٍ ترحَّلوا فكلٌّ أراها دارساتِ المعالمِ
لقد ضعفتْ ريح الصَّبا فوصلتُها فمِنِّىَ لامنها هبوبُ السَّمائمِ

وهو ترداد طريف ، فهو لا يدرى أيحاكى السحاب فى قطره المنهل حنينه الملتاع أو هو يلبى

---

(١) الخريدة ٢/١٣٣ وخزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص ٢٤٦.

(٢) الخزانة ص ٢٤٧.

(٣) الخزانة ص ٢٤٦.

الحمائم وما ترسل من حنين شجى ، وهو لا يدرى أيضا أى منازل رحل عنها أحبابه أهى الربوع أو الضلوع . فكلاهما أطلال دارسة ، ويبلغ به الخيال أن يظن أنفاسه الحارَّة امتزجت بنسيم الصبا ، فأحالته سمائم لافحة .

ونلتقى بخِدْن القاضى الفاضل ورفيقه : ابن سناء الملك أكبر شعراء مصر فى العصر ، وشعره يموج بوجد لا حدود له ولا ضفاف ، وجد يشقى به تارة وينعم به تارة ، إذ يذوق لذة الحب المؤلمة والحلوة ، حتى إذا اختلس قبلة أو ضمَّة كاد يطير من الفرح طيرانا ، مهما تأبَّت عليه محبوبته ومهما صدت عنه ونفرت منه ، بل إنه ليلقى ذلك كله بحنان لا يماثله حنان ، يقول[1] :

لا أجازى حبيبَ قلبى بجُرْمِهْ ... أنا أَحْنَى عليه من قَلْب أمِّهْ
ضَنَّ عنى بريقه فتحيَّلْـ ... ـتُ إلى أن سَرَقْته عند لثْمِه
وإلى اليوم من ثلاثين يوما ... لم تَزُلْ من فَمِى حلاوةُ طَعْمه
إن قلبى لصدره ورقادى ... ملكُ أجفانه وروحى لجسمه
يَكْسِرُ الجَفْنَ بالفتورِ ومالى ... عملٌ عند كَسْرِهِ غيرُ ضَمِّه

والأبيات تموج بالعذوبة والظرف ، فكله حنان لصاحبته ، حتى ليفوق حنوّه عليها حنوَّ الأم . ومازال بها حتى اقتطف منها خلسة قبلة ، ومرت الأيام ولاتزال حلاوتها فى فمه ، ويشعر كأن كل شىء فيه لها : قلبه وروحه ، وملك أجفانها رقاده وسهده . وتصنَّع فى البيت الأخير لاستخدام مصطلحى الكسر والضم عند النحاة ، ومع ذلك أوقعها فى موضعها ، فلا نحس فيهما تصنعا ولا ما يشبه التصنع ، ومن قوله[2] :

نَعِمَ المشوقُ وأنعم المعشوقُ ... فالعيشُ كالخَصْرِ الرقيقِ رقيقُ
خَصْرٌ أديرُ عليه مِعْصمَ قُبْلَةٍ ... فكأن تقبيلى له تَعْنِيقُ
ونعم لقد طرق الحبيب وماله ... إلا خدودُ العاشقين طريقُ
فرشوا الخدودَ طريقه فكأنما ... زفراتهم لقدومه تطريقُ[3]
وافَى وصُبْحُ جَبينه متنفسٌ ... وأتى وجِيدُ رقيبهِ مخنوقُ

---

(١) الديوان ص ٦٦٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠٢ .

(٣) التطريق : تسهيل الطريق للمارة .

وهى لحظة من لحظات الحب الحلوة صورها ابن سناء الملك تصويرا بديعا ، فقد سعد العاشق الولهان بما أنعم عليه المعشوق من لقاء ، وأحس بابتهاج ما بعده ابتهاج ، فقد زارته المحبوبة الفاتنة التى شغفت قلوب كثيرين ، وإنهم ليفرشون طريقها بخدودهم لتطأ عليها ، مرسلين زفراتهم ، وكأنما يمهدون بها الطريق لها ، وقد وافت بجبينها المشرق إشراق الصباح ، وغَصَّ الرقيب بريقه حتى كأنه مخنوق . ومن طرائف غزله قوله[1] :

سَعِدْتُ ببدرٍ خَدُّهُ بُرْجُ عَقْرَبٍ فكذَّب عندى قولَ كلِّ منجِّمِ
وأقسمُ ما وجهُ الصباحِ إذا بدا بأوضح منى حُجَّةً عند لُوَّمِى
ولا سـيَّما لما مــررتُ بمنــزلٍ كفضلةِ صَبْرٍ فى فؤادِ متيَّمِ
وما بانَ لى إلا بعودِ أراكةٍ تعلّق فى أطرافه ضوءُ مَبْسِمِ[2]
وقفتُ به أعتاضُ عن لَثْم مبسمٍ شهىٌّ لقلبى لَثْمَ آثارِ مَنْسِمِ[3]
بكيتُ بكلتَىْ مُقْلتىَّ كأننى متمِّمُ ما قد فات عَيْنَىْ مُتَمِّمِ

وهو يقول إنه سعد برؤية هذا البدر وما سال على خده من عقرب الشَّعْر ، مما جعله يكذِّب قول المنجمين أن برج العقرب فى السماء إذ رآه على خد صاحبته الفاتنة . وإن فتنتها وما تدلع فى قلبه لأنصع برهان له عند لائميه ، أنصع من الصباح فى وضوحه وضيائه . وقد مرَّ بمنزلها الذى لا يكاد يبين ، كما لا يكاد يبين الصبر فى فؤاد العاشق الولهان ، وبان له بفضل عود أراك كانت تستاك به صاحبته قبل الوضوء ، إذ تعلَّق بأطرافه ضوء من مبسمها ، واهتدى إليها وإلى منزلها على لألائه فوقف مبهوتا مشدوها ولا أمل له فى قبلة يقتطفها أو ما يشبه القبلة ، وأقبل يلثم آثار منسمها أو طريقها باكيا بدموع غزار ، باكيا بمقلتيه وكأنه يتمم بكاء متمِّم بن نويرة على أخيه مالك وقد اشتهر بكثرة بكائه عليه ، وكان أعور فمازال يبكيه حتى دمعت عينه العوراء . وعلى هذا النحو لا يزال ابن سناء الملك يتقلب بين لحظات حب مؤلمة مبكية وأخرى مفرحة مبهجة . وكان يذوب لطفا ورقة مما جعله يتغزل - كما أشرنا فى ترجمته ، ببعض من فقدن بصرهن ، وهو يحتال فى غزله بهن على إيراد ألوان من حسن التعليل ترفع عنهن هذا الضيم الذى نزل بهن ، من مثل قوله[4] :

فَتَنَتْنى مكفوفةٌ ناظراها كتبا لى من الجراحِ أمانا

(١) الديوان ص ٦٩٨ .
(٢) مبسم : ثغر
(٣) المنسم : طرف خف البعير ويريد راحلة الحبيبة .
(٤) الديوان ص ٨٤٦ .

فَهْى لم تَسْلُل الفُتورَ حُسامًا لا ولم تحمل اللِّحاظَ سِنانا(١)
وَهْىَ بِكْرُ العيْنَيْن مُحْصَنَةُ الأجْـ ـفان ما افتضَّ مِيلُها(٢) الأجفانا
قَصَرتْ عشقَها علىَّ فلم تعـ ـشَقْ فلانًا إذ لم تُعايِن فلانا
لا ولم تبصر الرجال فتختا ر على مُلْتحيهم المُرْدانا
عميتْ من هَوايَ وارتحلَ الإنـ ـسانُ من عَيْنها وأخلى المكانا
علمتْ غَيْرتى عليها فخافتْ أن تسمِّى غيرى لها إنسانا

وهو يعلن إليها فتنته بحسنها ، وهى فتنة ممزوجة بغير قليل من الرضا والغبطة ، إذ أمن عندها أن تصمى سهام عينيها قلبه ، أو يصحبه حسام الفتور وسنان اللحاظ ، ويصفها ببكارة العينين وطهارة الأجفان ، إنها عذراء البصر ، لم يمس مِيل الكحل عينيها ، وإنها لتفرده بالحب إذ لم تر ولم تبصر سواه ، فهو دنياها غير مفكرة فى شيب وشبان ، إذ لا تعرف الفرق بين أصحاب اللحى والمردان . وتبلغ به الرحمة والإشفاق والعطف عليها أن يقول إنها فقدت بصرها بسبب حبه ، وبذلك خلا مكان إنسان العين منها ، وكأنما عرفت غيرته عليها حتى من إنسان عينها ، فنحَّته عنها ، حتى لا يكون لها إنسان سواه . وكل ذلك لطف من ابن سناء الملك ورقة ورحمة وعطف وحنان ما بعده حنان . وهو بحق يعد فى الذروة من شعراء العرب النابهين الذين يمتازون بدقة الحس ورهافة الشعور وروعة المعانى والتصاوير .

ويتفجر هذا الغزل الوجدانى البديع على كل لسان بعد ابن سناء الملك ، وكان من أهم الأسباب فى ازدهاره الشعر الصوفى الذى ذاع وشاع منذ زمن الدولة الأيوبية ، فإن الصوفية من أمثال ابن الكيزانى وابن الفارض أذاعوا فيه وجدا ملتاعا وكان لذلك أصداؤه الواسعة فى غزل الشعراء ، فانفكوا من أصداف البديع ومن الأخيلة الجامدة المتحجرة ، وأخذوا يصورون حبهم وما يذوقون فيه من الوجد والصبابة وما يثير فى قلوبهم من المشاعر والعواطف وما يصطلون فيه من العذاب والآلام : آلام الفراق وعذاب الإعراض ، من ذلك قول الحسن بن شاوَر فى بعض غزله(٣) :

قلَّدتُ يوم البين جِيد مودِّعى دُرَرًا نظمتُ عقودَها من أدمعى

---

(١) اللحاظ : مؤخر العين مما يلى الصدغ .

(٢) الميل : المكحل أو المرود وهو مايوضع به الكحل فى العين .

(٣) فوات الوفيات ٢٣٦/١ .

وحدا بهم حادى المطىِّ فلم أجد قلبى ولا جَلَدِى ولا صبرى معى
يانفسُ قد فارقتِ يوم فراقهم طيبَ الحياةِ ففى البَقا لا تطمعى
هيهات يرجعُ شَمْلُنا بالأجْرَعِ ويعود أحبابى الألَى كانوا معى[1]
بحياتكم جودوا علىّ تكرُّمًا فعسى خَيالكمُ يلمُّ بِمَضْجَعِى
فلقد عدمتُ الصبرَ يوم فراقكم وتضرَّمتْ نارُ الأسى فى أضْلُعِى
يانازحين فهل لكم من عودةٍ نزحَ التفرُّق ما بقىْ من مَدْمعى
لو لم تعودوا للديار وترجعوا لهلكت من شوقى وفَرْط توجُّعى

وابن شاوَر فى أول الأبيات يبكى يوم البين والفراق شاعرا بأنه يعجز عن احتمال هذه المحنة التى خانه فيها صبره وتجلده ، بل التى توشك أن تقضى عليه ، لقد تفرق شملهم ، ولم يعد هناك أمل فى لقاء بالأجرع : لقاء أحبابه ومهوى فؤاده . ويستحلفهم وقد حرموه طلعة وجوههم فى اليقظة أن لا يحرموه طيفهم فى المنام ، لعله يخفف من نار الحب المضطرمة فى صدره . ويتمنى عودة لهم أو رجعة تردُّ إليه روحه وتردّ عنه أوجاعه من الحب الملتهب وأوصابه .

ونلتقى بتقى الدين[2] السروجىّ المولود سنة ٦٢٧ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٣ ويقول عنه أبو حيان : كان مع زهده وعفته مغرما بحب الجمال وكان يغنِّى بشعره الغرامى المغنون لرقة انسجامه وعذوبة ألفاظه ، ومن غزله :

أنْعِمْ بوصلك لى فهذا وَقْتُهُ يكفى من الهجرانِ ما قد ذُقْتُهُ
يا من شُغلتُ بحبِّه عن غيره وسلوتُ كلَّ الناس حين عشقته
بالله إن سألوك عنى قل لهم عَبْدِى ومِلْكُ يدى وما أعتقتُه
أو قيل مشتاقٌ إليك فقل لهم أدرى بذا وأنا الذى شوَّقتُه
ياحُسْنَ طيفٍ من خيالك زارنى من عُظْم وَجْدِى فيه ما حَقَّقْتُهُ
فمضى وفى قلبى عليهِ حسرةٌ لو كان يمكننى الرُّقادُ لحقته

وهو يتضرع لمحبوبه أن ينعم عليه بالوصل بعد طول الهجران والعذاب فى حبه وانشغاله الدائب بعشقه ، ويقول متذللاً له إنه عبده وملك يده ولن تُردَّ إليه حريته ، ويشكو لواعج الشوق ،

---

(١) الأجرع : الأرض ذات الحزونة المشاكلة للرمل .
(٢) انظر فى ترجمة السروجى وشعره فوات الوفيات ٤٦٦/١ وخزانة الأدب للحموى (طبع بولاق) ص ٢٤٥ .

ويأسى لنفسه إذ رأى طيفه فى المنام ولم يكد يحققه أو يتحقق منه حتى فرَّ النوم من عينه ، وهو لا يتمنى لقاء كعادة المحبين ، ليأسه منه ، وإنما يتمنى لو عادت له رؤيته فى منامه ، أو لو طال حلمه وطال رقاده قليلا حتى يشفى منه غُلّة حبه . ويعلق ابن حجة الحموى فى خزانته على هذه الأبيات بقوله : « ما نفثات السحر إذا صدقت عزائمها بأوصل إلى القلوب من هذه النفثات ولا لسلاف ثغر الحبائب مع حلاوة التقبيل عذوبة هذه الرشفات » . ومن غزله :

قصَد الحِمَى وأتاه يَجْهد فى السُّرى حتى بدتْ أعلامُه وقِبابُهُ
ورأى لليلى العامريَّةِ منزلا بالجود يُعرَف والنَّدَى أصحابُهُ
قد أشْرعتْ بِيضُ الصَّوارِم والقَنا من حوله فهو المنيعُ حجابُهُ
وعلى حِماه جلالةٌ من أهلِهِ فلذاك طارقةُ العيون تهابُهُ
كم قُلِّبتْ فيه القلوبُ على الثَّرى شوقا إليه وقُبِّلتْ أعتابُه

وهو يرمز لصاحبته بليلى العامرية وكأنه مجنونها وعاشقها قيس الذى ملأ البيد بأغانى حبه ، ويقول إنه ما زال يدأب فى السرى أو السير الليالى المتصلة حتى بدت أعلام حيِّها وقبابه أو خيامه ، وياللهول لقد وجد من دون رؤيتها السيوف والرماح مشرعة وشعر بجلال وهيبة لا يماثلها هيبة وجلال ، وهناك رأى كثرة من العشاق يضمون الثرى إلى صدورهم مقبلين الأعتاب آملين أملا يائسا فى أن يرفع الحجاب . وكان يعاصر السروجى فخر الدين بن لقمان كاتب بيبرس وقلاوون ، وله غزليات رقيقة مثل قوله[1] :

كُنْ كيف شئتَ فإننى بك مغرمُ راضٍ بما فعل الهوى المتحكِّمُ
ولئن كتمتُ عن الوشاة صَبابتى بك فالجوانحُ بالهوى تتكلَّم
أشتاقُ من أهْوَى وأعلم أننى أشتاق مَنْ هو فى الفؤاد مخيِّم
يامَنْ يصدُّ عن المحب تدلُّلاً وإذا بكى وجدًا غدا يتبسَّمُ
أسكنْتُك القلبَ الذى أحرقته فحذارِ من نارٍ به تتضرَّم

وهو راض من صاحبته بكل ما تصنع من إقبال وإعراض ، وإنه ليخفى حبه عن الوشاة بل

(١) المنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ١١٩/١ .

يكتمه بينما جوانحه تنطق به وتعلنه ، ويعجب أن يشتاق صاحبته ويود لقاءها ، بينما هي مخيمة فى فؤاده لا تبرحه . وإنها لتمعن فى التدلل ، وحتى إن بكى وجدا سرعان ما تبتسم . ويحذرها من هذا الدلال وما يطوى فيه من اللعب . فقد أسكنها قلبه الذى أحرقته ، ولاتزال نار الحب فيه مضطرمة متدلعة . ولابن نباتة غزل وجدانى كثير من مثل قوله[1] :

أهلاً بطيفٍ على الجَرْعاء مُخْتَلَسِ ... والفجرُ فى سَحَرٍ كالثغر فى لَعَسِ[2]
والنجمُ فى الأفق الغربى مُنحدِرٌ ... كشُعْلةٍ سقطتْ من كَفِّ مُقْتَبِسِ
ياحبَّذا زمنُ الجَرْعاءِ من زمنٍ ... كلُّ الليالى فيه ليلةُ العُرُسِ
وحبَّذَا العيشُ مَعْ هيفاءَ لو برزتْ ... للبدر لم يَزْهُ أو للغُصْنِ لم يَمِسِ
محروسةٍ بشعاع البِيض ملتمعًا ... ونورُ ذاك المحيَّا آيةُ الحرَسِ
يَسْعَى وَرَا لَحْظها قلبى ومن عجبٍ ... سَعْىُ الطَّريدةِ فى آثار مفترسِ
ليت العذولَ على مَرْأًى محاسِنها ... لو كان ثَنَّى عمى عَيْنيه بالخَرَسِ

وهو يصور فرحته بالطيف الذى رآه فى حلمه اختلاسا لأواخر الليل والفجر يتلج فى الآفاق المظلمة تبلج الثغر فى لعس الشفاه ، والنجم يسقط فى الأفق الغربى منحدرا سقوط شعلة من كف مقتبس . وتعاوده ذكرى ليالى الجرعاء المفرحة فرح ليالى العرس ، وهو يعيش رانيا إلى حبيبته التى لو رآها البدر لغضَّ من زهوه ولو رآها الغصن لغضَّ من ميسانه وخيلائه . ويقول إنها ممنَّعة محروسة بسيوف باترة ، وآية حراستها هذا النور الذى يُشِعُّه وجهها فى الآفاق ، ويعجب أن يسعى قلبه وراء لحظها سعى طريدة الصيد وراء مفترسها ، ويقول إن ضياءها أحال عينى العذول عشواءين ، فهو لا يبصرها ، ويتمنى لو ثنَّى ذلك بخرسه وانعقاد لسانه ، فلا يتحدث عنها أى حديث من قريب أو من بعيد .

وممن كانوا يكثرون من الغزل النوّاجى[3] شمس الدين محمد بن حسن صاحب كتاب حلبة الكميت فى الخمر والندماء وآدابهم ، ويعد أكبر شعراء القرن التاسع الهجرى ، توفى سنة ٨٥٩

---

(١) النجوم الزاهرة ٩٦/١١ .

(٢) الجرعاء : الأجرع أو الحزن . اللعس : سواد الشفة .

(٣) انظر فى النواجى وشعره الضوء اللامع للسخاوى ٢٢٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٧٧/١٦ والبدر الطالع للشوكانى ١٥٦/١ وصفحات لم تنشر من بدائع الزهور (طبع دار المعارف) ص ٢٧ . وبدار الكتب المصرية مخطوطة من ديوانه . ومن كتبه « عقود اللآل فى الموشحات والأزجال » .

للهجرة ، ومن غزله قوله :

خليليَّ هذا رَبْعُ عزَّة فاسْعَيا إليه وإن سالتْ به أدمُعى طوفانْ
فجفْنى جفا طيبَ المنامِ وجَفْنُها جفانى ، فيالله من شَرَكِ الأجْفانْ

ويمضى فى قراءة مثل هذا الغزل الوجدانى الملتاع حتى إذا أظل لواء العثمانيين البلاد أخذ يفيض معينه فى القلوب والنفوس وخاصة عند نور الدين على العسيلى ، وسنخصه بكلمة ، ومثله خرِّيجه وتلميذه يحيى[1] الأصيلى ، الذى يقول فى بعض غزله :

بدا بوجهٍ جميلِ الوَصْف والشَّانِ يقول : سبحان من بالحسن وَشَّانى[2]
كـأنـه روضـةٌ غَـنَّـاءُ مـزهـرةٌ من دمع عاشقها تُسْقَى بغُدْرانِ
أشبهتُ فى حبِّه وُرْقَ الحِمَى فغدا كلٌّ يبثُّ الجوى شَجْوًا على البانِ

فالله جل شأنه زين وجهها بالجمال حتى كأنها روضة ، أليس يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ، والخد بالورد والشقيق والعين بالنرجس ، لذلك جعل وجهها كأنه روضة تسق من دموع العشاق بغدران ، ومضى يستكمل خياله فورق الحمَى وحمامه يبث جواه شجوا على أغصان البان وهو يبثه على مَنْ قامتها تحاكى قامة البان . وتخرَّج على يد الأصيلى يوسف[3] المغربى ، وغزله كغزل أستاذه يسيل عذوبة من مثل قوله :

جعلوا الصباحَ مباسمًا ثم الظلا مَ ضَفائرًا ثم الرماحَ قُدودا
والوردَ خَدًّا والغصونَ معاطفًا والبَـدْر فَرْقًا والـغـزالـةَ جِيدا
ورأتْ غصونُ البانِ أن قُدودهم فاقتْ فأضحتْ رُكَّعا وسجودا

وتشبيه قدود الحسان بالرماح وغصون البان لضمورهم واستقامتها مشهور . وكأن المغربى والأصيلى والعسيلى يكوِّنون فى الغزل زمن العثمانيين مدرسة متماثلة فى رشاقة الموسيقى وجمال الصياغة ، وإن كان التكلف قد أخذ يعم فى الغزل بعدهم وفى أيامهم . ولعبد الله الإدكاوى :

---

(١) راجع فى يحيى الأصيلى ريحانة الألبا ٣٨/٢ وسلافة العصر لابن معصوم ص ٤١٥ وخلاصة الأثر ٤٨٠/٤ .

(٢) وشانى : زينى .

(٣) راجع فى يوسف المغربى ريحانة الألبا ٣٢/٢ وما بعدها وخلاصة الأثر ٥٠١/٤ .

عقيقُ دمعى غدَا فى الجِزْع كالدِّيَمِ ... مُذْ بانَ سكانُ بانِ الحىِّ والعَلَمِ
وانهلَّ مُنْسجما من نار مضطرمٍ ... ملآنَ وجدًا إلى خِشْفٍ بذى سَلَمِ
ظَبْىٍ نفورٍ أنيسٍ ناعسٍ يقظٍ ... بالليل متَّشحٍ بالصبح مُلْتَثِمِ
إنْ أرضَ يَغْضب وإنْ أقربْ نأى صَلفًا ... وإن أذلَّ يَتِهْ بالعزِّ والشَّمم
مُهَفْهَفٍ مابدتْ للغصنِ قامتُه ... إلا انْثَنى ذابلَ الأوراق ذا ضَرَمِ
وإنْ تبسَّم ما برقٌ بكاظمةٍ ... له وَميضٌ يجلِّى داجىَ الظُّلَمِ
ما فيه عَيْبٌ سوى تفتير مُقْلتِهِ ... وفَتْكها فى فؤاد المُدْنَف السَّقِم

والعقيق : خرز أحمر ، يقول الإدكاوى إنه مازال يبكى حتى اختلط دمعه بالدم القانى وتناثر فى الجزع أو جانب الوادى وكأنه ديم مسكوبة مذ بَعُدَ سكان الوادى والعلم أو الجبل وما بهما من شجر البان ، وإنه ليبكى وأحشاؤه تضطرم بوجد مبرح إلى خشف أو ظبى من ظباء ذى سَلَمٍ بنجد ، وإنه لظبى نفور أنيس ناعس يتشح بوشاح أسود من شعره ، ويلتثم بلثام منير من وجهه . وإن لقيه راضيا غضب وازورَّ عنه وإن قرب منه نأى بجانبه ، وحتى إن ذل له تاه عليه صلفا وشمما أو تكبرا . وهو مهفهف ضامر دقيق الخصر ، وما يرى الغصن قامته حتى تذبل أوراقه خجلا ويلتاع لوعة ملتهبة . وإن ابتسامته لتضىء الكون من حوله ضياء لعله أكثر من ضياء البرق التماعا فى الليالى الداجية . ويجعل عيبه الوحيد فتور عينيه الذى طالما تغنَّى الشعراء به وبما يرسل من سهامه التى تصمى أفئدة المرضى بالحب ، وتفتك بهم فتكا . وواضح ما يداخل هذا التصوير من مبالغة وتكلف شديد . وحرى بنا أن نقف عند نفر من شعراء الغزل الوجدانى الذين صوروا ما اختلج فى خبايا قلوبهم وصدورهم من وجد مبرِّح ولوعات ممضة .

ابن[1] النبيه

هو الكمال أبو الحسن على بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النبيه ، ولد بمصر حوالى سنة ٥٦٠ واختلف إلى كتَّابٍ حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الأشعار على عادة لداته ، ثم أخذ يختلف

(١) انظر فى ابن النبيه وترجمته وشعره ابن خلكان ٣٣٦/٥ وفوات الوفيات ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٦ وحسن المحاضرة ٥٦٦/١ وشذرات الذهب ٨٥/٥ ومقدمة عبد الله فكرى للديوان إذ جمعه ورتبه وحقَّقه تحقيقا بديعا وطُبع طبع حجر فى القرن الماضى . وطبع الديوان حديثا بتحقيق عمر محمد الأسعد (نشر دار الفكر) ببيروت .

إلى حلقات العلماء والأدباء ، وتفتحت ملكته الشعرية ، ورنا إلى الالتحاق بدواوين صلاح الدين ووزيره الكاتب البليغ القاضى الفاضل راعى الأدباء فى عصره ، وفى ديوانه مدائح مختلفة له ، وليضع أمامه الدليل الواضح على قدرته البيانية ضَمَّن جميع أبيات إحدى مدائحه له كلمات من سورة المزمل مقتبسا لها فى قوافيه بقوله فى مطلعها :

قمتُ ليلَ الصُّدودِ إلا قليلا ثم رتَّلتُ ذكرَكم ترتيلا
ووصلتُ السُّهادَ أقبحَ وَصْلٍ وهجرتُ الرقادَ هجرًا جميلا

ويبدو أن القاضى الفاضل لم يُعْجَبْ بالقصيدة ، فلم يعيَّن فى دواوين صلاح الدين وأيضا لم يعيَّن فى دواوين ابنه العزيز ، حتى إذا ولى شئون مصر السلطان العادل سنة ٥٩٦ رأيناه يقدِّم مدائحه إليه وإلى وزيره الصفىِّ بن شُكْر . ويبدو أن صداقة انعقدت حينئذ بينه وبين الأشرف موسى بن السلطان العادل ، حتى إذا ولاه أبوه على الرُّها سنة ٥٩٨ اصطحبه معه واتخذه كاتبه . وأخذت إمارته أو مملكته تتسع ، فشملت خِلاط وميَّافارقين وَنصيبين ومعظم بلاد الجزيرة . وكان يتنقل الأشرف موسى فى بلدان إمارته وكانت أكثر إقامته بالرَّقة لموقعها على الفُرات وابن النبيه معه يلازمه ، ولا يترك مناسبة من انتصار فى حرب أو عيد إلا ويقدِّم له مدائحه . ومن أهم هذه المناسبات – كما مر بنا فى غير هذا الموضع – قدومه إلى مصر بجيش جرار ساعد به سلطانها أخاه الكامل فى سحق الصليبيين بموقعة دمياط ورد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد تغنى ابن النبيه بذلك طويلا بمثل قوله :

دمياطُ طُورٌ ونارُ الحرب موقَدةٌ وأنت موسى وهذا اليومُ ميقاتُ
أثلجتَ صدرَ رسول اللهِ وانكشَفَتْ عن سَرْحةِ الدِّينِ والدنيا غماماتُ
اللهُ أكرمُ أن تُمْسِى مزامرهم تُتْلَى وتُنْسى من القرآن آياتُ

وهو يستغلُّ اسمه فى مديحه ، فيقرنه إلى موسى الرسول ومعجزته فى الطور ، ويذكر فى القصيدة أن عصاه تلقفت كل ما أفكوا ، ويصور كيف اندحر الصليبيون وتوزعهم المسلمون قتلا وأسرًا وسَبْيًا ، ومن بقى منهم عاد إلى البحر المتوسط وما وراءه بخزى لا يماثله خزى .

ويدل ديوان ابن النبيه على أنه كان يعيش لدى الأشرف موسى معيشة مبتهجة يتمتع فيها بالرياض ومجالس الأنس والطرب حتى وفاته بنَصِيبين سنة ٦١٩ . ومع ما كان فيه من هناءة لم

ينس وطنه ، بل ظل يحنُّ له ، وظل حنينه يترقرق فى تضاعيف أشعاره كأقوى ما يكون الشعور الصادق لدى المحبين الوالهين ، كقوله مكنِّيًا عن مصر بالعقيق أحد وديان الأراضى المقدسة فى المدينة المنورة الذى طالما تغنى به شعراء الصبابة والحب الملتاع :

يابَارِقًا أَذْكَرَ الحَشَا شَجَنَهْ ... منزِلُنا بالعقيقِ مَنْ سَكَنَهْ
ومَرْبعُ اللهوِ يانعٌ خَضِلٌ ... أم غيَّر الدهرُ بعدنا دِمَنَهْ(1)
يا بَرْقُ هذا جسمى يذوب ضَنًى ... ومهجتى بالعقيق مُرْتَهَنَهْ
بَلِّغْ حَدِيثَ الحِمَى وساكنهِ ... لمغرمٍ أنْحَلَ الهَوَى بَدَنَهْ
أشقى المحبين عادمٌ وطَرًا ... فكيف إن كان عادمًا وطَنَهْ
سَقْيًا لأيامنا التى سلفتْ ... كانتْ بطيبِ الوصال مقترنه
لو بِيعَ يومٌ منها وكيف بهِ ... كنتُ بِعُمْرِى مُسْتَرخصًا ثمنَهْ

وابن النبيه فى أول الأبيات يخاطب برقا أذكره ما يعتلج فى أحشائه من الشجن أو الأشجان على بعده عن موطنه بوادى النيل ، ويتساءل عن السكان والأحباب وهل لايزال مربع اللهو والشباب كعهده به يوم فارقه من النضرة والجمال أم غيَّر الدهر بعده الديار وتبدَّل الحال . ويشكو للبرق ارتهان مهجته وراءه وتخلفها بمصر وكيف أنه يذوب ضَنًّا وسقما ونحولاً متمنيا لو يسمع شيئا يطمئنه عن الحمى وساكنه . ويقول إن أشقى المحبين من عدم الوصال بمحبوبه فكيف بالمحب المفتون الذى عدم الوصال بوطنه ، ويدعو بالسقيا لأيام وصاله الهنيئة الماضية له ، ويتمنى لو حج إلى هذا الوطن المقدس تقديس العقيق أو عاد إليه ، ويقول إنه يقدِّم حياته كلها راضيا بيوم واحد يقضيه بين ربوعه . وابن النبيه بذلك يصور تصويرا رائعا تعلق المصريين فى غربتهم بوطنهم وشغفهم به ومدى حنينهم إليه وظمئهم إلى جرعة من نيله فى ظلاله وبين رياضه .

وإذا أخذنا نقرأ فى ديوان ابن النبيه أحسسنا بوضوح أنه يمثل فى غزله الروح القاهرية المصرية بكل ما عُرف عنها من الدماثة والرقة وخفة الظل لا فى موسيقاه وجمال أنغامه فحسب ، بل أيضا فى تصوير مشاعره ووجداناته وعواطفه ، دون أى حجاب من أصداف المحسنات البديعية ، فهو قلما يستخدمها بل يترك نفسه على طبيعتها ، مما جعل غزله يرتفع إلى مستوى وجدانى سام ، دون

---

(1) خضل : مبتل ندىّ . الدمن : جمع دمنة : آثار الديار .

ترداد الأوصاف المادية الحسية للمرأة ، فحسبه أن يصور عاطفته إزاءها فى رقة متناهية . وهيأ ذلك قديما لغزله أن يكثر التغنّى به فى ديار الجزيرة والموصل وفى الشام ومصر واليمن[1] لرقته ورشاقته وصفاء موسيقاه ، ومازال المغنون والمغنيات يتغنون بأشعاره ، وتتغنّى بها السيدة أم كلثوم وغيرها ، ومن ذلك قوله :

أَفْدِيهِ إن حَفِظَ الهوى أو ضيَّعا ملكَ الفؤادَ فما عسى أن أَصْنَعا
من لم يذقْ ظُلْمَ الحبيب كظَلْمِه حُلْوًا فقد جهل المحبَّة وادَّعى[2]
يا أيها الوجهُ الجميل تدارك الصَّـبَّ النَّحيلَ فقد وَهَى وتَضَعْضَعا
هل فى فؤادك رحمةٌ لمتيَّمٍ ضَمَّتْ جوانحُه فؤادًا موجَعا
هل من سبيلٍ أن أبثَّ صَبَابَتى أو أشتكى بَلْوَاىَ أو أتضرَّعا

وهو يفدى محبوبه بروحه سواء حفظ العهد أو ضيَّعه فهو لا يملك إزاءه فى الحالين إلا أن يزداد تعلقا بحبه وشغفا ، بل إنه ليتقبل ظلمه ويجده شرابا سائغا ، وإلا حق عليه أنه دعىٌّ حب . ويتضرع إليه أن يتداركه ، فإن كل شىء فيه حتى بدنه وهن ولم يعد يستطيع احتمالا ، ويسترحمه لوهن جسده وأوجاع روحه ، لعله يستطيع أن يبثه شيئا من حبه أو من محنته فيه . ولا تقلُّ جمالا وروعة عن هذه الأغنية فى أيامنا الأغنية التالية :

أمانًا أيُّها القمرُ المُطلُّ فمن جَفْنَيْكَ أسيافٌ تُسَلُّ
يزيد جمالُ وَجْهِك كلَّ يومٍ ولى جَسَدٌ يذوبُ ويضمحلُّ
وما عرف السقامُ طريقَ جسمى ولكنْ دَلَّ من أهْوَى يَدُلُّ
إذا نُشِرَتْ ذَوائبُه عليهِ ترى ماءً يرفُّ عليه ظِلٌّ[3]
وقدٍ يَهْدِى صباحُ الخدِّ قومًا بليلِ الشَّعْر قد تاهوا وضَلُّوا

وابن النبيه يتوسل إلى صاحبته أن لا تسل عليه أسياف جفنيها وأن تُبْقِى عليه فلا تفتك به ، حتى يتمتع بجمال وجهها الذى يزداد ويتضاعف كل يوم ، بينما يذوب بدنه اضمحلالا وتضاؤلا ونحولا . وما عرف السقم يوما طريقا إليه إلا عن طريق حبه لها وهيامه بها ، بينما هى تدل عليه

---

(١) انظر كتاب شعر الغناء الصنعانى للدكتور محمد عبده غانم (طبع دار الكاتب العربى ببيروت) ص ١٧٧ .

(٢) الظلم بفتح الظاء : ريق الثغر وبريقه .

(٣) الذوائب : ضفائر الشعر .

وتزداد كل يوم دلالا وإعراضا . وماذا يبصر ؟ إنه لا يبصر إلا جمالا فاتنا وجسدا ساحرا رقيقا رقة الماء يهتز عليه من الشَّعْر ظل ناضر باهر . ويقول :

ياساكنى السَّفْحِ كم عَيْنٍ بكم سَفَحتْ نَزَحْتُمُ فَهْيَ بعد البُعْد قد نَزَحَتْ
لَهْفِى لظبيةِ إنْسٍ منكمُ نفرَتْ لا بل هى الشمسُ زالتْ بعد ما جَنَحَتْ
بَيْضاءُ حجَّبها الواشون حِينَ وَشَوْا عنى ولو لمحَتْ صِبْغَ الدُّجَى لمحَتْ
يَقْتَصُّ من وَجْنَتَيْها لحظُ عاشِقِها إن ضَرَّجتْ قلبه باللَّحْظ أو جَرَحَتْ
مَنْ لى بسَلْمى وفى أجفانِ مُقْلتها للحرب بِيضٌ حدادٌ قَطُّ ما صفحت
وأسْوَدُ الخالِ فى محمرِّ وَجْنَتِها كمِسْكَةٍ نَفَحَتْ فى جَمْرةٍ لفَحَتْ

وفى القطعة جناس بين « السفح وسفحت » بمعنى صبَّت العين الدمع ، وكذلك بين « نزحتم » بمعنى بعدتم و « نزحت » العين بمعنى نفد دمعها ، وأيضا بين « الواشون » و « وشوا » فى البيت الثالث وبين « لمحت » من لمح البصر واختلاسه و « محت » فى آخر البيت من المحو والإزالة ، والبيت الأخير به جناس ناقص بين « نفحت ولفحت » . والجناسات جميعها جناسات خفيفة على اللسان والآذان ، لأن صانعها موسيقى ماهر فى قياس الأنغام ، وهو فى أول القطعة يشكو لساكنى السفح من كثرة ما سفحت دموعه وسكبت حتى لقد جفَّت عيناه ، ويقول كأن محبوبته سلمى ظبية نافرة بل لكأنها الشمس مالت إلى الغروب ولو أنها أطلت بطلعتها المضيئة على الليل لمحت ظلمته محوا ، ويتخيل كأنما يقتصُّ بالنظر إلى وجنتيها من جرحها لقلبه جرحا لا يندمل أبدا . وهى مبالغة مسرفة . ويتمنى لقاء سلمى مع ما قد يصيبه من فتك عينيها الساحرتين ، ويتصور الخال فى خدها الوردى كجنَّة من المسك تعلقت بجمرة لافحة ، فانتشر منها أريج عطر . ومن غزله الذى يقطر حسنا ورقة قوله :

تعالى اللهُ ما أَحْسَنْ شقيقًا حُفَّ بالسَّوْسَنْ
خدودٌ لَثْمُها يُبْرِى من الأسقام لو أمكن
فما تُجْنَى وحارسُها بِقُفْلِ الصُّدْغ قد زَرْفَنْ[1]

---

(١) زرفن الصدغ : جعل الشعر المسدل على الخدود كالحلقة .

أبثُّ هواه من حُرَقٍ لنجم الليل لمَّا جَنْ
وكم أسكنْتُهُ قلبي فسار وأحرق المسكن

وهو يعلن افتتانه بجمال صاحبته واحمرار خدودها المشبهة لورد الشقيق المحفوفة بخصل السوسن من شعرها الذهبي ، ويقول إن لثم خدودها يبرئ السقم ، ولكن من يستطيع أن يصل إليها ؟ إن أحدا لا يمكنه أن يقتطف من خدودها شيئا من زهرات الحب ، فإن وراءها حارس أمين من شَعْرها لوى على خدودها قفلا كالحلقة ، فلا يستطيع أحد إليها وصولا . وإنه ليبث هواه وما يلدغه من حرارته اللافحة للنجم حين جَنَّ الليل ودجت ظلماته ، معلنا إليه هذا الهوى الذى لم يعد يستطيع اكتمانه . ويأسى لنفسه ومصيره ، فكم أسكن محبوبته قلبه فعبثت به بل أحرقته وأتت عليه . ومن غزله الرائع :

أما وبياضِ مَبْسِمِكِ النَّقِيِّ وسُمْرَةِ مِسْكة اللَّعَسِ الشَّهِيِّ[1]
لقد أسْقمتِ بالهجران جِسْمى وأعطشنى وِصالُكِ بعد رِيِّ
إلى كم أكتمُ البلوى ودمعى يبوحُ بمُضْمَرِ السِّرِّ الخَفِيِّ
وكم أشكو للاهيةٍ غرامى فويلٌ للشَّجِيِّ من الخَلِيِّ
تغازلنى وتَزْوِى حاجبيها كما انبرتِ السِّهامُ عن القِسِيِّ
وتخترق الصفوفَ بريقِ فيها وهل يَخْفَى شذى المسك الشَّذِيِّ
يذود شَبَا القَنَا عن وَجْنَتَيْها كمنع الشَّوْكِ للوَرْدِ الجَنِيِّ[2]
إذا ما رُمْتُ أَقْطِفُهُ بعينى تقول حذارِ من مَرْعًى وَبِيِّ[3]

وابن النبيه يُقْسم لمحبوبته بمبسمها الفاتن وسمرة شفاهها اللعس أنها أسقمت جسمه بهجرانها بعد الوصال وبما أصابته به من ظمأ بعد ريٍّ ، ويقول إلى كم أكتم محنتى فى الحب ودمعى يبوح بسرِّى وإلى كم أشكو للاهية عنى ، وصدق المثل القديم : ويل للشجى من الخلى . ويَعْجب أنها تغازله أو تمد له أسباب الغزل ، بينما تقطِّب حاجبيها وتزوى ما بينهما ، ويلتمس لها عذرا ، فكأن حاجبيها قوسان يرسلان السهام ، ولابد لهما كالقوس ووترها من الشد والجذب فى أثناء الرمى

---

(١) اللعس : سواد الشفة .
(٢) شبا القنا : حد الرماح .
(٣) وبى : وخيم .

بالسهام والنبال ، ويقول إن شذاريقها كشذا المسك وأريجه يعلن عنها من بعيد . ويتحدث الشعراء كثيرا عن السيوف والرماح المسلولة من العيون على الناظرين للجمال المصون ، ويرسم ابن النبيه من ذلك صورة رائعة ، فعيون صاحبته بما يحميها من الرماح تذود عن وجنتيها الفاتنتين كما يذود الشوك عن الورد حين تمتد يد لاجتنائه أو اقتطافه ، ويقول إنه حتى حين يريد أن يقتطف بعينيه لا بشفتيه شيئا من ورد وجنتيها تقول له حذار من مرعى وخيم العواقب .

وكل هذا غزل وجدانى يموج باللهفة والظمأ واللوعة الملتهبة التى لا سبيل إلى إطفائها فى قلب المحب الولهان ، وهو دائما يستعطف ويتوسل ويتضرع ، ولا مجيب حتى بنظرة أو كما يقول باقتطاف نظرة إلى الوجه الفاتن . وقد تراءت لنا صور من هذا الغزل الوجدانى الصافى الملتاع عند ظافر الحداد والمهذب بن الزبير وابن سناء الملك غير أنه تكامل عند ابن النبيه فى هذه الصورة الرائعة التى تخلو من المتاع الحسى والتى يسيل فيها الشعر رقة وعذوبة وسلاسة . وما أشك فى أن الحاجرى شاعر الموصل استلهم فى غزله الوجدانى الذى تحدثت عنه فى الجزء الخامس من هذه السلسلة لتاريخ الأدب العربى هذا الغزل الوجدانى لابن النبيه نزيل دياره حين كان الحاجرى لا يزال شابا فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، وتلاه التلعفرى الموصلى الذى تحدثنا عن غزله الوجدانى الملتاع يستضىء فيه بابن النبيه أيضا ، ولاحظ ذلك صاحب فوات الوفيات ، فقال فى ترجمته إن قصيدة التلعفرى التى أنشد منها قطعة فى ترجمته بالكتاب المشار إليه والتى يستهلها بقوله :

أىّ دمعٍ من الجفون أسالَهْ إذ أتتْه معَ النسيمِ رسالهْ

إنما نظمها معارضة ومحاكاة لقصيدة ابن النبيه :

بَدْرُ تِمٍّ له من الشعر هالَهْ من رآهُ من المحبين هالَهْ(١)

فهى من نفس الوزن والروى ، بل المحاكاة عند التلعفرى لابن النبيه أوسع من هذا ، إذ هى محاكاة لغزله الوجدانى الرائع لا فى أساليبه السلسة السائغة فحسب ، بل أيضا فى مضمونه الملىء بالأسى المبرِّح والوجد الملتهب ، مع الرقة والدماثة واللطف وخفة الروح . وسقطت القيثارة من يد ابن النبيه بوفاته وكانت مصر قد أنجبت البهاء زهير ، وإذا هو يستخرج من قيثارته نغما رائعا لهذا الغزل الوجدانى على نحو ما سنرى عما قليل ، وهو نغم يبلغ به الذروة التى كانت مأمولة لهذه الصبابة

---

(١) هالة الأولى : دارة القمر . وهاله الثانية : من هاله الشىء إذا أعجبه وروعه .

الوجدانية ، وإذا كان شرر هذا النغم قد تطاير عن طريق ابن النبيه إلى الموصل فإنه تطاير عن طريقه وطريق البهاء زهير إلى الشام وإلى بيئات عربية مختلفة .

البهاء[١] زهير

هو بهاء الدين زهير بن محمد ، ينتهي نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة القائد المشهور في العراق وإيران زمن بني أمية ، ولد لأبويه المصريين في وادي نخلة بالقرب من مكة في أثناء حَجِّها خامس ذي الحجة سنة ٥٨١ . وكان أبوه رجلا صالحا يشهد بذلك وصفه على نسخة خطيةً من الديوان بدار الكتب المصرية بأنه : « العارف محمد قدس الله روحه »[٢] وقد تؤذن كلمة العارف بأنه كان صوفيا أو على صلة بالصوفية والتصوف ، ويبدو أنه أقام مع ابنه وزوجه في مكة ناسكا بضع سنوات ، إذ يشير البهاء في بعض أشعاره إلى ذكريات له فيها أيام طفولته ، بمثل قوله :

تذكرتُ عهدًا بالمحصَّبِ من مِنًى ومادونه من أَبْطَحٍ وحَجُونِ[٣]
منازلُ كانتْ لى بهن منازلٌ وكان الصِّبَا إلفى بها وقَرِينى

وعاد العارف محمد بزوجه وابنه إلى بلدته بالصعيد : قوص ، وكانت حينئذ عاصمة الصعيد وباب المسافرين من مصر والمغرب والأندلس في البحر الأحمر من سواكن وعيذاب إلى الحجاز ، وكانت بها حركة تجارية واسعة ونهضة علمية وأدبية ناشطة ، وهي منشأ البهاء ومرباه ، فيها تلقن العلم والأدب والشعر . وتعرف في أثناء ذلك على خِدْنه ورفيقه ابن مطروح ، وانعقدت بينهما صداقة حتى الممات . وفي ديوانه قصيدة قصيرة مدح بها الملك المنصور حفيد صلاح الدين وكان قد ولى شئون مصر بعد أبيه العزيز فترة قصيرة سنة ٥٩٥ وأغلب الظن أنه أرسل بها إليه من قوص وهو لايزال في الرابعة عشرة مما يدل على أن ملكته الشعرية تفتحت في سن مبكرة .

وينشد ابن خلكان له أبياتا من قصيدة مدح بها جَلْدك التقوى والى دمياط سنة ٦٠٥ وأكبر الظن أنه أرسل أيضا بها إليه من قوص . ونراه في سنة ٦٠٧ يقدم مدحه لوالى بلدته قوص : مجد

---

(١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان ٣٣٢/٢ والنجوم الزاهرة ٦٢/٧ وحسن المحاضرة ٥٦٧/١ ، ٢٣٣/٢ وشذرات الذهب ٢٧٦/٥ . و« البهاء زهير» : بحث بقلم الشيخ مصطفى عبدالرازق . وقد طبع ديوانه بكمبردج سنة ١٨٧٦ بتحقيق بلمر مع مقدمة وتعليقات ، وطبع في القاهرة مرارا وفي بيروت .

(٢) انظر في ذلك البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٥ .

(٣) المحصب : موضع رمى الجمار بمنى . والأبطح : أبطح مكة وهو واديها . والحجون : جبل بها .

الدين إسماعيل اللمطى يهنئه فيها بولايته على أعمالها ، وأُعْجب به اللمطى فاتخذه كاتبا له ، وظل يعمل معه نحو عشر سنوات ، ثم أخذت العلاقة تفتر بينهما ، ويبدو من استعطافاته له فى بعض أشعاره أنه عزله من منصبه فهاجر من بلدته إلى القاهرة . ويظن بعض الباحثين أن هذه الهجرة حدثت فى سنة ٦١٩ وفى رأينا أنها تسبق هذا التاريخ بسنة أو أكثر إذ نراه يهنئ السلطان الكامل الأيوبى فى انتصاره العظيم سنة ٦١٨ على الصليبيين وطردهم من دمياط أو طرد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . ويأخذ فى دعم صلته بأبناء السلطان الكامل منذ هذا التاريخ ، ويحاول الاتصال بابنه الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم إلى القاهرة سنة ٦٢١ ويقدم له مدحتين ، ويخف على قلب أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ويلحقه بخدمته ، ويلبِّيه منشدا فيه قصيدة بديعة يقول فيها :

لبَّيْكَ يامَنْ لا مردَّ لأمرِهِ ... وإذا دعا العَيُّوق لا يتعوَّقُ[1]
الصالحُ الملكُ الذى لزمانِهِ ... حُسْنٌ يَتِيهُ به الزمانُ ورَوْنَقُ
سجدتْ له حتى العيُونُ مهابةً ... أوما تراها حين يُقبلُ تطْرِقُ

ويصحبه معه حين أصبح فى سنة ٦٢٩ نائبا عن أبيه فى حكم بعض البلدان الشرقية فى نواحى الفرات . وعاش البهاء مع الملك الصالح فى رغد ، ينعم بالحياة ويهنأ بها . ويتنقل معه فى بلدان إمارته ، غير أنه لم ينس موطنه ، فقد ظل يذكره وظل لا ينسى أيامه فيه وأصدقاءه ، ولا ينسى نيله الغدق ورياضه ومراكبه المصعدات المنحدرات ، ويتلهف على العودة إلى واديه والتملى بجماله واكتحال عينيه بحسنه وبساكنيه وكل ما فيه ، بمثل قوله :

سقى واديًا بين العَرِيش وبَرْقَةٍ ... من الغَيْث هطّالُ الشآبيب هَتَّانُ[2]
بلادٌ إذا ما جئتَها جئتَ جَنَّةً ... لعينك منها كلما شئتَ رضوانُ
تمثِّل لى الأشواقُ أنَّ تُرابَها ... وحَصْباءها مِسْكٌ يفوحُ وعِقْيان[3]
فيا ساكنى مصرٍ تُراكم علمتُمُ ... بأنىَ مالى عنكمُ الدهرَ سُلْوانُ
عسى اللهُ يَطْوِى شُقَّةَ البعدِ بيننا ... فتهدأَ أحشاءٌ وتَرْقَأَ أجْفانُ

---

(١) العيوق : نجم فى طرف المجرة يتلو الثريا .

(٢) الشآبيب : جمع شؤبوب وهو دفعة المطر ، وهتان : كثير المطر .

(٣) حصباءها : حصاها . العقيان : الذهب الخالص .

فهو يدعو للوادى من شرقيه إلى غربيه أن يظل يسقيه من الغيث هطال مدرار ، ويتصور الوادى جميعه فردوسا لا يشبهه فردوس وترابه وحصباءه مسكا وذهبا خالصا . وهو لا يسلو أهله ولا ينساهم أبدا ويتمنى لو قصرت المسافة وعاد إلى موطنه ينظر ما شاهده ، حتى تجف دموعه المنهلة ، وتهدأ أحشاؤه الموجعة .

ويستولى الملك الصالح فى سنة ٦٣٦ على دمشق فيتحول معه إليها ويتملى بغوطتها ورياضها ، ولا يلبث الملك الصالح أن يفكر فى الاستيلاء على أملاك داود ابن عمه صاحب الكَرَك فى جنوبى الأردن وينزل نابلس ، غير أن مؤامرت تحاك له ، ويُعْتَقَلُ بسببها عند ابن عمه داود فى الكرك ، ويظل البهاء زهير بنابلس حافظا لعهده . وتُرَدّ إليه حريته ، ويتجه إلى مصر فيستولى من أخيه الصغير العادل على مقاليد الحكم بها سنة ٦٣٧ ويولى البهاء زهير ديوان الإنشاء ، والبهاء يكاد يطير فرحا برجوعه إلى موطنه وتعظم منزلته عند الملك الصالح ويصبح مستشاره الأعلى وأمين سره ، وكان خَيِّرا نبيلا فنفع -كما يقول ابن خلكان- خلقا كثيرًا بحسن وساطته عنده وجميل سفارته . ومن حين إلى حين كان يرحل مع الملك الصالح إلى دمشق ، وفى آخر رحلة لهما هناك جاءهما خبر الحملة الصليبية على دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وتصادف أن كان الملك الصالح مريضا ، فصمَّم على منازلة لويس وجيشه فى أقرب فرصَة ، وحُمل من هناك فى محفَّة حتى نزل بطَناح بالقرب من المنصورة فى شهر المحرم سنة ٦٤٧ ومضى يستعدُّ للقاء الصليبيين وهو يجاهد المرض جهادا عنيفا حتى شهر شعبان إذ لبَّى نداء ربه . وقبيل وفاته بقليل عُزل البهاء زهير من منصبه ، ويذكر المؤرخون أن ذلك كان بسبب تقصيره فى الالتفات إلى إشارة كان قد كتبها الملك الصالح على كتاب كان مرسلا لابن عمه داود صاحب الكرك ، مما أغضب الملك الصالح . ونظن أنه رجع ذلك السهوَ إلى تقدمه فى السِّنِّ ، فأعفاه من منصبه وأسنده إلى نائبه فخر الدين ابن لقمان . ويقال إنه حاول بعد وفاة الملك الصالح إعادته إلى منصبه ، وكأنما عزَّ ذلك على البهاء فلم يقبل تقلُّده ، وقيل : قَبِلَهُ فترة ثم استعفى منه . وفى ديوانه مدائح مختلفة أرسل بها إلى الناصر الأيوبى حين استولى على دمشق ، وأكبر الظن أنه أرسل بها إليه انتظارًا لبعض رِفْده ، ولزم بيته نحو ثمانى سنوات عرف فيها شظف العيش بعد رَغَدِه ومرَّه بعد حُلْوه إلى أن فارق دنياه سنة ٦٥٦ فى وباء حدث بالفسطاط والقاهرة .

ويدلُّ شعر البهاء على أنه كان صاحب نفس كريمة كبيرة ، ويقول ابن خلكان فى ترجمته : «كنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمعه عنه فلما اجتمعت به رأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم

الأخلاق ودماثة السجايا » . وما مرَّ من حديثنا عنه يدل على أن حياته ظلت ، حتى أعفاه الملك الصالح من منصبه وهو فى نحو السابعة والستين من عمره ، حياةً سهلة ليس فيها حرمان ولا شىء من بؤس ، بل فيها غير قليل من النعيم ، وفى شعره وصف كثير لمجالس أنس مع الرفاق والأصدقاء ، وفيه ما يدل أيضا على شغفه بالطبيعة ومجاليها الفاتنة . وله مراسلات شعرية رقيقة مع ابن مطروح خِدْن صباه وشبابه فى قوص . وشعره يكتظ بالمرح والتفاؤل والدعوة إلى الفرحةِ بِمُتَع الحياة وطَرْح الهموم عن عاتق الإنسان ، يقول :

أيها الحامــــلُ هَمًّا إن هــــذا لا يــــدومُ
مثل ما تَفْنَى المسرَّا تُ كذا تَفْنَى الهمومُ

والغزل هو الموضوع الأساسى فى ديوانه ، وهو غزل وجدانى من نفس المعين الذى كان يستمدُّ منه ابن النبيه ، بل ربما كان يتقدم خطوة أو خطوات نحو السهولة ، مما جعل ابن خلكان يقول : « شعره كله لطيف ، وهو - كما يقال - السهل الممتنع » . وليس كل ما يلاحظ عليه السهولة فحسب ، فهو يتميز فيه حتى من ابن النبيه بالأوزان القصيرة والمجزوءة . وهو مثله يتغنَّى بالحب وتباريحه فى تدفق وانطلاق ، وقلما نجد عندهما معا رواسب تصويرية من تقليد القدماء ، وما يجىء من ذلك يُعَرِّض عرضا جديدا ، وأيضا ما يجىء أحيانا من جناس وغير جناس من المحسنات البديعية يجىء فى خفة ورشاقة . فالشعر - وخاصة الغزل - ليس محسنات ولا تصاوير محفوظة مما يتردد على الألسنة ، وإنما هو مشاعر وانفعالات وعواطف . وقد يكون ذلك غريبا على أذواق الباحثين الذين طالما رددوا أنه لم يبق عند الشعراء منذ أيام الدولة الايوبية سوى الأخيلة والتصاوير المتجمدة ، وسوى المحسنات البديعية التى استحالت إلى أصداف ينقصها البريق واللمعان .

وينبغى أن لا نجعل ذلك خاصة فريدة من خصائص البهاء زهير وحده ، فهذا الغزل الوجدانى لم يكن خاصا بالبهاء زهير ، فقد كان يَشْرَكه فيه -كما أسلفنا- ابن النبيه وأيضا ابن سناء الملك ، وله مقدمات قديمة نجدها عند المهذب بن الزبير وظافر الحداد . ولا ريب فى أنه لطبيعة مصر السهلة وطبيعة نيلها العذب السَّلس أثر كبير فى ذلك ، فعلى نحو ما يمتد الوادى فى مصر سهلا لا نتوء فيه ، كذلك شعره وشعر أصحابه تمتد لغته سهلة دون أى صعوبات ، وعلى نحو ما يجرى النيل مترقرقا متدفقا كذلك شعره وشعر أصحابه يسيل عذبا سائغا شرابه . وكما أن الوادى ينطوى على السهولة كذلك النفس المصرية نفس سهلة لطيفة لا خشونة فيها ، نفسٌ

طُبعت على اللين والرقة والدماثة ، مما انعكست آثاره عند ابن سناء الملك وابن النبيه . ومن الحق أن البهاء زهير كأنما خُلق ليبلغ بتصوير هذه النفس كل ما يسمها من عذوبة وخفة ظل ورشاقة .

وربما كان من أسباب اندلاع هذا الغزل الوجدانى على لسان البهاء زهير ما أشرنا إليه فى صدر حديثنا عنه من أن أباه كان صوفيا أو على صلة بالتصوف والصوفية مما جعله يحفظ مبكرا – وتدور على لسانه – أشعارهم المليئة بالوجد الإلٰهى وتباريحه ، وانطبع هذا الوجد فى نفسه وبثّه فى حبه . وجعل اختلاطه بهذه البيئة يُعمِّق هذا الوجد وأشواقه بأكثر مما عمقه فى نفوس الشعراء من حوله ، وإن كنا نستبق بصفة عامة أثر هذا الوجد الصوفى فى غزلهم جميعا ، مما دفع بقوة لظهور هذا الغزل الوجدانى الصادق . ومعروف أن صوفية مصر من أمثال ابن الكيزانى وابن الفارض ممن ستتحدث عنهم فى غير هذا الموضع بثّوا فى أشعارهم وجدًا لا ضفاف له ، وكأن البهاء زهير استمد جذوة من هذا الوجد المبرِّح نشر شَررها فى غزله . وكثيرا ما نعثر عنده على أبيات تصور تأثره بالصوفية كقوله فى بعض غزله :

أنا فى الحقيقة أنتمُ هـذا اعتقادى فيكمُ

ولو أننا لم نعرف أن البيت له وسُئلنا لمن هذا البيت لقلنا إنه لأحد الصوفية يعبر فيه عن مبدأ الاتحاد المعروف عندهم : اتحاد المحب بالمحبوب . ومن ذلك قوله :

يا مَنْ إليك المشتكى أنت العليمُ بحاليَه

وكأنه متصوف يخاطب الذات العلية ضارعا مستعطفا ، وهو إنما يخاطب صاحبته التى دلعت نار الحب فى فؤاده . وهذا الجانب من غزل البهاء زهير جعل بعض قصائده تلتبس عند الأسلاف بقصائد ابن الفارض ، من ذلك رائيته المشهورة التى يقول فيها :

غيرى على السلوان قادِرْ وسوايَ فى العشاق غادِرْ
أشكو وأشكر فعلَهُ فاعجبْ لشاكٍ منه شاكر
لا تنكروا خَفَقان قَلْـ ـبى والحبيبُ لدىَّ حاضرْ
ما القلبُ إلا دارُهُ ضُرِبَتْ له فيها البشائرْ
ياليلُ طُلْ ياشوق دُمْ إنى على الحالين صابِرْ
لى فيك أجرُ مجاهدٍ إن صحَّ أنَّ الليلَ كافر

والقصيدة فى ديوان البهاء زهير ، وهى أيضا فى ديوان معاصره ابن الفارض المتصوف المشهور ، وفى رأيى أن الالتباس الذى جعل الرواة يظنون أن القصيدة لابن الفارض جاءهم من أنها تحمل فكرة الغيبة والحضور التى يرددها كثيرا ابن الفارض فى غزله الربانى ، على نحو ما يلاحظ فى البيت الثالث ، وإن اختلف المنزعان فى الفكرة ، وبالمثل البيت الرابع فقد يشير من طرف خفى كسابقه إلى فكرة الاتحاد بالمحبوب . وفى البيتين : الأول والثانى جناسات ناقصة وفى البيت الأخير تورية بالكفر بمعنى الشرك بالله والمراد الستر . على كل حال يلفتنا الالتباس بين شعر البهاء زهير وابن الفارض إلى ما قلناه من أن أصداء من الوجد الصوفى انعكست فى شعر البهاء زهير . ويبدو أن انعكاسها بدأ مبكرا ، إذ نراها واضحة فى غزل قصيدة يمدح بها مجد الدين اللمطى إذ يقول :

لها خَفَرٌ يومَ اللقاء خَفيرُها ... فما بالُها ضَنَّتْ بما لا يَضِيرها[1]
أعادتُها أن لا يُعادَ مريضُها ... وسيرتُها أن لا يُفَكَّ أسيرُها
وها أنذا كالطَّيْف فيها صبابةً ... لعلى إذا نامتْ بليلٍ أزورُها
من الغيدِ لم توقَدْ مع الليل نارُها ... ولكنها بين الضلوع تُشيرُها
يقاضى غريمُ الشَّوْقِ منى حُشَاشَةً ... مروَّعةً لم يَبْقَ إلا يَسيرها

والصور فى القطعة دقيقة فَخَفَر صاحبته أو خجلها وحياؤها يحرسها يوم لقائه ، فلماذا تبخل عليه بما لا يضيرها ؟ وهل من عادتها أن لا تعود مريضها ومن سيرتها أن لا تفك قيود أسيرها ؟ . وهو تضرع وتوسل لطيف . ويقول إنه أصبح كالطيف شبحا متضائلا نحيلا . ويتسع به الخيال فيتمنى لو أصبح طيفا حقا وزارها فى المنام وتضاعيف الأحلام . وهى صورة طريفة من مبتكرات خياله . ويقول إنها لم توقد نارها ليلا كعادة الناس اكتفاء بإيقادها بين ضلوعه وجوانحه . ويقول إنه لم يبق منه إلا بقية روح مروَّعة من حبها مفزَّعة . وفى القطعة جناسات وتصاوير لا نحس فيها بتكلف ، بل نحس كأنها جوهر الأبيات ومعانيها . ووراء هذه القطعة قطع وقصائد كثيرة تسيل رقة وخفة وعذوبة ، مع مسِّها للقلب بما يودعها من كلمات تشيع حتى أيامنا فى اللغة اليومية الدارجة من مثل قوله :

---

(١) ضنت : بخلت .

تـعـيشْ أنت وتَـبْـقَى أنا الذى متُّ عِشْقا
حـاشـاك يـانورَ عـينى تَلْقَى الذى أنا أَلْقَى
ولم أجـد بين مَوْتِى وبين هَـجْـرك فَـرْقَـا
يا أنعم الناس بالأ إلى متى فيك أشقى
لم يـبق مـنىَ إلأ بـقـيـةٌ ليس تَبْـقَى
قد كـان ماكان منى (واللهُ خـيـرٌ وأَبْـقَى)

والقطعة تفيض بالسهولة والبساطة والرقة واللطف مع جمال الجرس واتساق الكلمات ، ومع ما يداخلها من ألفاظ اللغة اليومية مثل : « مت عشقا » و « يانور عينى » و « قد كان ماكان منى » وأيضا مع ما يداخلها من الاقتباس القرآنى فى الشطر الأخير.

وكان الشعراء المصريون فى زمنه وقبل زمنه يستظهرون بعض كلمات الحياة العاملة أو اليومية ، ولكنه توسع فيها وأكثر منها كثرة مفرطة ، وهى كثرة تجعل غزله يمس أوتار القلوب والأفئدة ، ومن طريف غزله :

من الـيوم تـعـارفـنـا ونَـطْوِى مـا جرَى منَّا
ولا كـانَ ولا صـارَ ولا قـلتُـم ولا قُـلنا
وإن كـــان ولا بُـدَّ من الـعَـتْبِ فـبالحسنى
فـقـد قـيل لنا عنكم كما قـيـل لـكـم عنَّا
وما أحسنَ أن نَرْجِـ ـعَ لـلـوَصْـلِ كما كنَّا

والقطعة كلها من اللغة الدارجة ، وقد عرف كيف يلتقط منها هذه الكلمات والعبارات الفصيحة ، وكأنها لا تفصل من لغتنا اليومية ، بل تفصل من القلوب والأفئدة . والقطعة عتاب ولكنه عتاب مملوء لطفا وظرفا وتسامحًا ورقَّة ودماثة ، ودائما تجرى فى غزله هذه الرقَّة الحلوة التى تشبه ماء النيل النمير الصافى والتى تجعل القلوب تتعلق بغزله من مثل قوله :

قَصِّـــروا مـدةَ الـجَـفَـا طوَّل اللهُ عُــمْــرَكُـمْ
شَــــرِّفونى بـــــزورةٍ شـرِّف الله قَـدْرَكـم
قـــد صَـبَـرْتم ولـيـتنى كنتُ أُعْـطِيتُ صَبْـرَكم

لو رأيتم محلَّكم من فؤادى لسرَّكم
لو وصلتم محبَّكم ما الذى كان ضرَّكم

والقطعة خفيفة خفة شديدة ، والدعاءان فى البيتين : الأول والثانى من الأدعية المتداولة على ألسنة المصريين فى لغتهم اليومية ، وإنه ليتضرع لصاحبته مظهرًا لها ما يحتمله من الصبر وجهده . لعلها تشفق عليه وتخلصه من عذاب الهجر والحرمان . وهو لا يتحرج من إعلان تذلله فى الحب . بل من إعلان عبادته لمحبوبته ، يقول :

سأشكر حُبًّا زان فيكِ عبادتى وإن كان فيه ذِلَّةٌ وخضوعُ
أصلِّى وعندى للصَّبابة رِقَّةٌ فكلُّ صلاتى فى هواكِ خشوعُ

فغزله فيها ليس شعرا فحسب ، بل هو أيضا صلاة وتراتيل يقدمها لمن شغفت قلبه حبا ، بل عبادة وخشوع ودين ، يتعبَّد لها كما يتعبد الوثنيون للوثن ، ويأسى لنفسه ولهذا الحب الذى فُتن به ، بل الذى عبث به حتى جعله يعبد محبوبته ، يقول :

لى حَبيبٌ عبدتُهُ وَيْحَ مَنْ يعبدُ الوَثَنْ

وكأنه يريد أن يسترجع نفسه من محراب هذا الحب ، ولكنه لم يسترجعها أبدا ، فقد ظل يُنْشد تراتيل غزله الوجدانى البديع .

وكان البهاء زهير يعرف فى وضوح ما ينشئ من هذا الغزل الرائع ، يدل على ذلك ما رواه الحموى فى خزانته من حوار[1] له مع ابن سعيد الأندلسى حين أطلعه على كتاب المغرب ورأى الأندلسيين يكثرون فى الغزل من أصداف التشبيهات والاستعارات فإنه قال له إن لنا فى الغزل طريقا آخر سماه الطريق الغرامى يقصد هذا الغزل الوجدانى . ثم لقيه مرة أخرى وأنشده : « يابانَ وادى الأجْرَعِ » وقال له : أشتهى أن تكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلا وأنشد : « سُقيتَ غَيْثَ الأدمع » فقال البهاء : والله حسن لكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول : « هل مِلْتَ من طربٍ معى » . وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على إحكام البهاء للغة الغزل الوجدانى ومعانيه فى عصره ، وهو ما جعل معاصريه فى الديار الشرقية على شواطئ الفرات وفى دمشق والشام وفى القاهرة ومصر يشغفون بديوانه ويروونه ، ويشهد بذلك ابن خلكان إذ يقول عنه :

(١) خزانة الأدب ص ١٠ .

« أجازنى رواية ديوانه وهو كثير الوجود بأيدى الناس » . ومما يدل على ذلك من بعض الوجوه ما جاء فى طبعة المستشرق بلمر لديوان البهاء من أنه اعتمد فى تحقيقه للديوان على مخطوطة بمكتبة أكسفورد كتبها شرف الدين بن الحلاوى الشاعر الموصلى الأصل الدمشقى الدار والمولد . ونَصَّ ابن خلكان فى ترجمة البهاء زهير على أن هذا الشاعر لقيه ومدحه بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان ، وطبعا طلب إليه أن يجيزه رواية الديوان فأجازه له . وأنشد ابن تغرى بردى لابن الحلاوى قصيدة[1] فى نهاية الرقة ، يتضح فيها تأثره بالبهاء وفيها يقول :

هلالٌ ولكنْ أفْقُ قلبى مَحَلُّهُ   غزالٌ ولكن سَفْحُ عينى عَقِيقُهُ[2]
على خَدِّه جَمْرٌ من الحسن مُضْرَمٌ   يُشَبُّ ولكن فى فؤادى حَرِيقُه

وشاع هذا الغزل الوجدانى فى الشام وغير الشام ، وبدون ريب لمصر وشعرائها ابن سناء الملك وابن النبيه والبهاء زهير فضل شيوعه وذيوعه بعدهم فى مصر والبلدان العربية .

ابن[3] مطروح

هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح ، ولد بأسيوط سنة ٥٩٢ ونشأ وأقام بقوص دار العلم والأدب والشعر حينذاك ، واختلف إلى ما بها من حلقات العلماء والأدباء ، وفيها تعرَّف على البهاء زهير وكان يكبره بنحو عشر سنوات . وأعجب به البهاء ، فاتخذه رفيقا وصديقا ، واستمع إلى أشعاره وملكته الشعرية تتفتح فكان يشجعه . ويبدو أنه حين عيَّن حاكم قوص مجد الدين اللمطى البهاء كاتباله ، كما مرَّ بنا فى ترجمته ، سعى لديه ليسند عملا إلى صديقه ابن مطروح ، يدل على ذلك ما فى ديوانه من مدائح موجهة لمجد الدين ، وأكبر الظن أنه حين سخط مجد الدين على البهاء وأعفاه من منصبه سخط بالمثل على ابن مطروح وأعفاه من اعمله . وحاول أن يستلَّ من نفسه سخطه عليه ، كما تشهد بذلك قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله :

لك اللهُ إنَّ العفوَ أقربُ للتقوى   ومثلُك أَوْلَى مثلىَ الصَّفْحَ والعَفْوَا

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/٦٠ .

(٢) العقيق : اسم وديان ومواضع متعددة فى المدينة ونجد .

(٣) انظر فى ترجمة ابن مطروح وأشعاره ابن خلكان ٦/٢٨٥ ومرآة الجنان ٤/١١٩ وشذرات الذهب ٥/٢٤٧ والنجوم الزاهرة ٦/٣٧٠ ، ٧/٢٧ وحسن المحاضرة ١/٥٦٧ . وديوانه طبع قديما فى القسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ وهو فى حاجة إلى نشرة محققة .

ولم يجد الصديقان بدًّا من ترك قوص والاتجاه إلى القاهرة ، ومرَّت بنا مدحة رائعة للبهاء مدح بها السلطان الكامل عقب انتصاره الحاسم على الصليبيين سنة ٦١٨ وبالمثل نجد ابن مطروح يمدح الكامل منوها بهذا الانتصار بمثل قوله :

ياناصرَ الدينِ الحنيفِ بسيفهِ ومذلَّ أهلِ الشِّرْك والطغيانِ

وقد يدل ذلك على هجرة الصديقين معا إلى القاهرة فى تلك السنة إن لم يكن قبلها ، وكما اتجه البهاء إلى أبناء الملك الكامل يمدحهم وفى مقدمتهم الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم منها إلى القاهرة سنة ٦٢١ كذلك مدحه ابن مطروح ، ومدح أيضا عمه الأشرف موسى ممدوح ابن النبيه ، وله مدائح مختلفة فى أمراء بنى أيوب . ويقول ابن خلكان فى ترجمته إنه تنقلت به الأحوال فى الخدم والولايات ، ولا نعرف بالضبط ما هى هذه الخدم والولايات التى عمل بها .

ومرَّ بنا أن البهاء زهير وثّق صلته بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، ونرى ابن مطروح يلتحق بخدمته ، ولا ندرى أى الصديقين قدم صاحبه إليه ، ويذكر ابن خلكان أن ابن مطروح كان فى خدمة الملك الصالح حين أصبح نائبا لأبيه الملك الكامل على البلاد الشرقية : الرُّها والرَّقة وغيرهما فى سنة ٦٢٩ وظل معه هناك حتى إذا استولى الملك الصالح على مقاليد الأمور بالقاهرة سنة ٦٣٧ استبقاه فى دمشق فترة ثم استقدمه إليه سنة ٦٣٩ وعيَّنه ناظرا فى الخزانة ، ولم يزل ينعم بقربه وحظوته منه حتى سنة ٦٤٣ إذ عيَّنه وزيرا له فى دمشق يدير شئونها ، فارتفعت منزلته . وقدم عليه الملك الصالح فى سنة ٦٤٦ ولم تعجبه بعض تصرفاته فعزله من منصبه وسيَّره مع جيش للاستيلاء على حمص . وسمع بحملة لويس التاسع ومن انضموا إليه من حَملة الصليب وأنهم اجتمعوا بجزيرة قبرس لقصد مصر ، فسحب جيشه المحاصر لحمص وعاد به إلى مصر فى شهر المحرم سنة ٦٤٧ وخيَّم به على المنصورة وابن مطروح فى خدمته وهو متغير عليه متنكر له إلى أن توفى فى شعبان سنة ٦٤٧ وقاد ابنه توران شاه المعركة ، ودمر الحملة الصليبية ، وأسر لويس التاسع وسُجن بدار ابن لقمان بالمنصورة والطواشى صبيح يحرسه إلى أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار وعاد مهزوما مدحورا مع فلول جيشه الصليبى إلى البحر المتوسط وما وراءه . وأغلب الظن أن ابن مطروح لم يحضر المعركة فقد عاد بعد وفاة الملك الصالح إلى داره بالفسطاط وانقطع إليها ، وشاع أن لويس التاسع يعدُّ حملة ثانية لمصر فكتب إليه قصيدته البديعة :

قُـلْ للفَرَنْسِيسِ إذا جِئتَهُ مقالَ صِدْقٍ من قَوولٍ نَصِيحْ

آجرَكَ اللهُ على ما جَرى من قَتْلِ عُبَّادِ يسوعَ المسيحْ
أتيتَ مصرًا تبتغى مُلْكَها تحسِبُ أن الزَّمر - ياطَبْلُ - ريحْ
فساقَكَ الحَيْنُ إلى أَدْهَمٍ ضاق به عن ناظريكَ الفَسيحْ[1]
وكلُّ أصحابك أودعتَهم بحسن تدبيرك بَطْنَ الضَّريح
خمسون ألفا لا ترى منهمُ إلا قتيلا أو أسيرًا جَريحْ
وفَّقَكَ الله لأمثالها لعلَّ عيسى منكمُ يستريح
وقل لهم إن أضمروا عَوْدَةً لأخذ ثأرٍ أو لقصدٍ صحيح
دارُ ابنِ لُقْمان على حالها والقَيْدُ باقٍ والطَّواشى صَبيحْ

ويعلِّق ابن تغرى بردى على القصيدة بقوله : « لله دَرُّه ! فيما أجاب عن المسلمين مع اللطف والبلاغة وحسن التركيب ». والقصيدة تمتلئ بالسخرية والتهكم ، فقد ظن لويس ظنا كاذبا أن مصر قريبة المنال فإذا من دونها حَزُّ رقاب الكثرة من جيشه وأسْرُ البقية فى الأغلال . ويسخر منه سخرية قاتلة حين يطلب إليه أن يعيد أمثال تلك الغزوة المشئومة حتى يستريح منهم عيسى وتُحَزَّ رقابهم جميعا . ويسخر من البابا ودعوته لهم أن يتجهوا بحملاتهم الصليبية الخاسرة إلى الشرق ، ويقول له ساخرا متهكما : لاتزال دار ابن لقمان التى سُجنتَ فيها على حالها ، ولايزال القيد أو الغلّ باقيا ولا يزال حارسك صبيح فى انتظارك . كلمات مسمومة وكأنها سَفُّود يَشْويه عليه ، مع لطف التعبير ودقته ورهافته ومع الوخز الأليم .

وظل ابن مطروح ملازما داره إلى أن لَبَّى نداء ربه فى مستهل شعبان سنة ٦٥٠ ونراه فى السنتين الأخيرتين من حياته طوال مقامه بمنزله يكثر من الابتهال لربه أن يغفر له ، حتى إذا توفى وُجد البيتان التاليان فى رقعة تحت رأسه :

أَتَجْزَعُ للموت هذا الجَزَعْ ورَحْمةُ ربِّك فيها الطَّمَعْ
ولو بذنوبِ الورَى جِئْتَهُ فرَحْمَتُه كلَّ شيءٍ تَسَعْ

ويقول ابن خلكان : « كانت خلاله حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية ، وكانت بينى وبينه مودَّة أكيدة . وله ديوان أنشدنى أكثره » . ويبدو أن ديوانه المطبوع لا يحتفظ

---

(١) الحين : الهلاك . أدهم : قيد .

بجميع أشعاره ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أننا لا نجد فيه شيئا من مدائحه فى الملك الصالح إلا مقطوعة ذُكر فيها عرضا مع أنه ظل فى خدمته نحو عشرين سنة ، بينما نجد فى الديوان غير ملك أو أمير أيوبى ، وربما كان حذف مدائحه من الديوان من صنيع الشاعر نفسه ، وكأنما عزّ عليه أن يُعْزل من منصبه ، فانتقم لنفسه بحذف تلك المدائح .

ومرَّ بنا آنفا أنه نشأت بينه وبين البهاء زهير مودة صافية منذ أيام صباه وشبابه فى قوص ، حتى كانا كالأخوين ، وامتدت بينهما هذه المودة الحلوة طوال حياتهما ، وجَنَيا منها واقتطفا أزهارا أوثمارا هنيئة ، كما يوضح ذلك ديواناهما وما فيهما من مراسلات شعرية بينهما . وهو مثل صديقه يكثر من شعر الغزل الوجدانى غير أنه كان يميل أكثر منه إلى الرمز عن وجده باتخاذه غالبا البدويات رمزا لمحبوباته ، وكأنه يريد أن يقرن وجده بوجد مجنون ليلى وأضرابه من شعراء نجد ، حيث يبثُّ فى وجده وحبه شذا الحنان والشوق الذى يكتظ به من قديم الغزل العذرى وما يُطْوَى فيه من حرارة ولوعة ، على شاكلة قوله :

هى رامةٌ فخذوا يمينَ الوادى ... وذَروا السيوف تقرُّ فى الأغمادِ (١)
وحذارِ من لحظاتِ أعينِ عِينِها ... فلكم صَرَعْن بها من الآسادِ (٢)
مَنْ كان منكم واثقًا بفؤادِهِ ... فهناك ما أنا واثقٌ بفؤادى
ياصاحبىَّ ولى بِجَرْعاء الحِمَى ... قلبٌ أسيرٌ ماله من فادى (٣)
سلبتْه منى يوم بانوا مُقْلَةٌ ... مكحولةٌ أجفانُها بِسَواد
وبِحَىِّ من أنا فى هواه مَيِّتٌ ... عَيْنٌ على العُشَّاق بالمرصادِ
كيف السبيلُ إلى وصالِ محجَّبٍ ... ما بين بِيض ظُبًا وسُمْر صِعاد (٤)
حرسوا مُهفْهَفَ قَدِّهِ بمثقَّفٍ ... فتشابَهه المَيَّاس بالمَيَّادِ (٥)

وواضح أنه رمز لحبه والتياعه فيه برامة فى نجد وظبائها ساحرات الأعين اللائى يصرعن بهن الأسد ، وقد خلف قلبه أسيرا هناك ولا من يفديه سلبته منه عين فاتنة مكحولة أجفانها بسواد

---

(١) رامة : موضع بالبادية .
(٢) العين : بقر الوحش .
(٣) جرعاء الحمى : أرضه ذات الحزونة
(٤) الظبى : جمع ظبة : حدالسيف . الصعاد : جمع صعدة : القناة أو الرمح .
(٥) المياس : المتبختر . المياد : المتمايل ، والمثقف : الرمح .

آسر ، وأحد لا يستطيع أن يصل أو يلمّ بتلك الديار : ديار رامة والحبيبة ، فمن دونها سيوف ورماح مسلولة مشرعة ، ويعجب أن يُحرّسَ قدُّها الرشيق المتبختر المختال برمح مشبه لها مياد أواميَّال . ويقول :

سَفَرَتْ وجاءتْ فى الغلائل تَنْثَنى فــأرتْك حــظَّ المجتلى والمجتنى
ورنَتْ فما تُغْنى التمائمُ والرُّقىَ وأبيك عن لحظاتِ تلك الأعين
بدويَّةٌ كم دونها من ضاربٍ بالسيف مرهوبِ السُّطَا لم يؤمَنِ
لا يخدعنَّك لحظ طَرْفٍ فاترٍ أبدًا ولا تأمنْ لعطفةِ ليِّنِ
أَلْبَسْتنى ياهاجرى ثوبَ الضَّنا وأخذتَنى يا تاركى من مأْمَنى

لقد رفعت عن وجهها نقابها فشغفت قلبه حبا وافتتانا ، ومدَّت بصرها إليه فوقع فى حبائل أعينها مسحورا ولم تعد تغنيه التمائم والرقى ، وإنها لبدوية أعرابية تحميها السيوف المرهفة . وينصح صاحبه أن لا تخدعه العيون الناعسة ولا القدود اللينة عما يسببان له من آلام وأوصاب دون أن يذوق شيئا من وصال ، ويشكو لصاحته البدوية ضناه وتباريحا حبه ، يقول :

خذوا حِذْركم من طَرْفها فَهْوَ ساهِرُ وليس بناجٍ من دَهَتْهُ المحاجِرُ
فإن العيون السودَ وهْى فواترٌ تقدُّ السيوف البِيضَ وهْى بَوَاتِرُ
ولا تُخْدَعوا من رقَّةٍ فى كلامها فإن الحميَّا للعقول تُخامِرُ
من القاصراتِ الطَّرْف غارتْ لحسنها ضَـرائـرُهـا والـنيِّراتُ الضَّـرائـرُ
إذا ما اشتهى الخَلْخَالُ أخبارَ قُرْطها فياطيبَ ما تُمْلى عليه الضَّفائرُ

وهو يحذِّر من طَرْف صاحبته ، فالسهام دائمة مصوبة منه ، ومن تصبه محاجرها تصمى قلبه ، وياللعجب فإن العيون الفاترة الناعسة تقد السيوف الباترة القاطعة ، ويحذِّر من رقة كلامها المعسول فهو كالخمر يذهب بالعقول . ويقول إنها عفيفة مصونة ، تغار من حسنها الفاتن قريناتها الحسناوات والكواكب النيرات . والصورة فى البيت الأخير رائعة ، فضفائر شعرها تطول حتى تلمس خلخالها وكأنما تحدثه بأخبار قرطها ، ومن غزله فى بواكير حياته :

خَدٌّ توقَّد إذ ترقرقَ ماؤهُ لَهْفِى على المتوقِّدِ المترقرقِ
حتى الحلىُّ لحُسْنها متوسوسٌ فاعجبْ لحسنٍ للجماد منطِّقِ

ياشمسُ قلبى فى هواكِ عُطاردٌ لولا تعرُّضه لها لم يُحْرَقِ
لم انس ما قالتْ وقد لمستْ يدى ماذا لقينا منه أو ماذا لقى
وأقول يا أختَ الغزالِ ملاحةً فتقول لا عاش الغزالُ ولا بقى

يقول إن خد صاحبته المتوهج حمرة كأنه نار موقدة ، وماء جماله ونضرته يتلألأ فيه ويترقرق ، مما يملؤه فتنة به ولهفة عليه . ويقول إن حسنها يُنْطق حتى الجماد ،وما وسوسة حليها إلا إعجاب منه بها ، وها هو قلبه قد احترق من تعرضه لشمس حسنها كما احترق عطارد أقرب الكواكب السيارة للشمس من تعرضه لنورها الحار المشتعل ، ويذكر رقة قلب صاحبته وأنها حين لقيته وسلمتْ أظهرت له عطفا وشفقة ، حتى إذا شبَّهها بالغزال حسنا وملاحة قالت له مدلة : لا عاش الغزال ولابقى ، فهى أكثر منه فتنة وسحرًا وجمالا . ويقول :

هزُّوا القُدودَ وأرهفوا سُمْرَ القَنا واستبدلوا بدلَ السيوفِ الأعْيُنَا
وتقدَّموا للعاشقين فكلُّهم أخذ الأمانَ لنفسه إلا أنا
لا خيرَ فى جَفْنٍ إذا لم يكتحِلْ أرَقاً ولا جسمٍ تجافاهُ الضَّنا
لما انثنى فى حُلَّةٍ من سُنْدُسٍ قالتْ غصونُ البانِ ما أبقى لنا
شبَّهتُه بالبدر قال : ظلمتَنى – يا عاشق والله – ظلما بيِّنا

وهو يتصور هؤلاء الفاتنات كأنهن يقدن معركة رماحها قدودهنّ وسيوفها عيونهنَّ وكل من حوله يطلب منهن الأمان إلا هو ، فقد تعلق بإحداهن ، وهو لا يرى للحياة قيمة بدون الحب والسهاد فيه وضنا الجسم والنحول . ويرى صاحبته فى حلة سندسية خضراء ، فيتصور كأن غصون شجر البان الذى طالما تغنى به المحبون تقول : ما أبقت لنا من الحسن والنضرة والجمال ، ويشبهها بالبدر فتقول له مدلة كصاحبته السابقة : ظلمتنى ظلما بينًا فهى أكثر منه جمالا وحسنا وروعة . ومن أبياته البديعة التى تتداولها كتب الأدب قوله فى بعض غزله .

لبسنا ثيابَ العناقِ مزرَّرةً بالقُبَلْ

ولعل فى كل ما قدمت ما يصور غزل ابن مطروح الوجدانى وما أشاع فيه من الرقة واللطف والدماثة والظرف وعذوبة الروح وخفة الظل .

برهان[1] الدين القيراطي

هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر ، ولد لأبيه سنة ٧٢٦ . والقيراطى نسبة إلى قيراط بلدة بمحافظة الشرقية سميت فيما بعد باسم كفر النحال وضُمَّت إلى مساكن مدينة الزقازيق ، كان أبوه شيخا جليلا ولى القضاء بالمنوفية ودمياط وأسيوط ، ودرس فى مدرسة كانت تجاور الإمام الشافعى وبمشهد السيدة نفيسة والجامع الأزهر توفى سنة ٧٤٠ . ونشأ برهان الدين بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات العلماء إلى أن برع فى الفقه وعلمى الأصول والعربية وأكبَّ على كتب الحديث وأخذها عن أئمتها ، ودرَّس وحدَّث بالقاهرة . واستيقظت فيه مبكرة موهبته الشعرية ، فكان ينظم المدائح ويدبجها فى السلطان حسن وغيره ، وسلك فى شعره طريقة ابن نباتة ، وتلمذ له وراسله . وله فى وصف شعره ونثره تقريظ بديع احتفظ بفقرات منه الحموى فى باب الاقتباس بخزانته . ويقول ابن تغرى بردى فى ترجمته بالمنهل الصافى : « هو شاعر عصره بعد الشيخ جمال الدين بن نباتة وأقرب الناس إليه من دون تلامذته ومعاصريه من شعراء عصره ، مع علمى بمن عاصره من الشعراء ولا حاجة لنا إلى ذكرهم فإنه أرق وأحلى وأرشق » . ويقول ابن حجر : «كان له اختصاص بالشيخ السبكى وأولاده وله فيهم مدائح ومراثى وبينهم مراسلات » ويقول ابن العماد فى الشذرات : « له فى تاج الدين السبكى غرر المدائح » واحتفظ تاج الدين فى كتابه « طبقات الشافعية » بمراسلات بينه وبين القيراطى استغرقت نحو ثمانين صحيفة ، وأنشد مرثية له فى أبيه مطلعها :

أمسى ضريحُكَ موطنَ الغفرانِ وَمحلَّ وَفْدِ ملائكِ الرحمن

ورأى أن يجاور بمكة مثل كثيرين من علماء عصره وقبل عصره ، فرحل إليها ، وأخذ عنه جماعة من علمائها والقادمين عليها ورووا عنه ديوانه . ويذكر ابن حجر بعض تلاميذه من جلّة المحدِّثين فى القاهرة أمثال شيخ الحفاظ أبى الفضل العراقى والشيخ بدر الدين البَشْتكى ، وفى مكة أمثال جمال الدين بن ظَهيرة وتقى الدين الفاسى المذكور فى مصادره ، وقد كتب عنه بعض شعره

(١) انظر فى ترجمة برهان الدين وأشعاره المنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ١/٧٠والنجوم الزاهرة ١١/١٩٦ وطبقات الشافعية للسبكى ٩/٣١٤-٣٩٨ و١٠/٣٣١ والدرر الكامنة لابن حجر ٢/٣٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٦/٢٧٠ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين لتقى الدين الفاسى (طبع القاهرة) ٣/٢١٧ . وله ديوان أسماه مطلع النيرين طبع بمصر سنة ١٢٩٦هـ ومنه عدة مخطوطات بدار الكتب المصرية .

وأجاز له روايته ، ومازال طلاب علمه وشعره يعكفون على حلقته بمكة حتى توفى بها سنة ٧٨١ .

ولبرهان الدين غزل وجدانى كثير ، أوكما يسميه البهاء زهير غزل على الطريقة الغرامية ، غزل يقدمه صاحبه لمحبوبته مؤملا فى الوصال ، ودائما لا وصال بل دموع وأشواق ووصف للصبابة والغرام والوجد الذى لا تنطفئ ناره فى قلوب أصحاب هذا الغزل ، مع مشاعر غامرة من اللطف والرقة ، ومع الألفاظ والأساليب الرشيقة من مثل قوله :

بأبى لحظُ غزالٍ قائلٍ فى الفلواتِ[1]
أخذتْ بابلُ عنه بعضَ تلك النَّفثاتِ
حسناتُ الخدِّ منه قد أطالتْ حَسراتى
أعشقُ الشاماتِ منه وَهْىَ أسبابُ مماتى
إنَّ للموت بأقدا ح جفونى سكراتِ
قلت قد مِتُّ غراما قال لى مُتْ بحياتى

والأبيات تتطاير عن الفم بخفة ، وهو يشكو من لحظ غزال بدوى يقضى أوقات قيلولته فى الفلوات ، غزال ينفث فى كل ما حوله السحر ، بفتنته وجمال وخدوده التى ملأت قلب الشيخ حسرات ، لأنه يتمنى الدنو منها ليتملَّى بحسنها وما فيها من شامات تزيدها حسنا وجمالا ، وإنه ليذوب — أوكما يقول — ليموت وجدا والتياعا ، وتلك سكرات الموت تملأ أقداح جفونها ، ويتضرع إليها قائلا إنه مات غراما ، فتضحك فى خبث مدلَّة عليه قائلة له : « مت بحياتى » ومن نفس هذا المعين المتدفق السلس يقول :

غرامى فيكِ ياقمرى غريمى ... وذكْرُكِ فى دُجَى ليلى نديمى
وملَّنىَ الحميمُ وصدَّ عنى ... ومالى غير دمعى من حَميمِ
وكم سأل العواذل عن حديثى ... فقلت لهم على العهد القديمِ
وعمَّ يسائلون ولى دموعٌ ... تحدِّثُهم عنِ النَّبأ العظيمِ
بدتْ فى خدِّها شاماتُ مسْكٍ ... كحظى أوكلَيْلى أو همومى
إذا نيرانُ خَدَّيْهَا تبدَّتْ ... رأيتُ بهنَّ جَنَّاتِ النَّعيم
ومن شغفى بِغُصْن القدِّ منها ... أغارُ على الغُصون من النسيم

---

(١) قائل : من القيلولة وهى وسط النهار ، وفعله قال يقيل .

وكأنى بصاحبته فى الأبيات هى نفس صاحبته الأولى، ويقول إن غرامها غريمه وذكرها نديمه طوال الليل. والتورية فى البيت الثانى بديعة فقد ملّه الحميم والصديق فى حب صاحبته، ولم يبق له إلا دمعه الحميم الحار يرافقه. ويسيل البيت الثالث صفاء وعذوبة مع ما فيه من الجناس وكذلك البيت الرابع وما به من اقتباس عن سورة « النبأ » وتعجب أن يتساءلوا ودموعه تجرى على خدودها ، ويقول إن شامات خدودها الضاربات إلى السواد كأنها نقط مسك أو كأنها مقتطعة من حظه معها أو من ليله أو من هموم حبها المشتعل فى حنايا صدره . ويعجب أن يجمع خداها بجمرتها المتوهجة بين نيران الجحيم حرارةً وجنَّات النعيم وورودها الفاتنة . ويعلن غيرته عليها حتى ليغار من النسيم إن هبَّ على ما يشبه غصنها من غصون الرياض النَّاضرة . ويقول :

يا مَنْ هجرتُ على هواهم عاذلى ... أيَحِلُّ فى شَرْع الهوى أن أُهْجَرَا
طلعتْ بدورُ التِّمِّ من أَزْراركم ... فغدا اصطبارُ الصَّبِّ مُنْفَصِمَ العُرَا
من كل هَيْفَاءِ القَوام كأنها ... غُصْنٌ يحرِّكُه النسيمُ إذا سَرَى
ذُكرتْ فصغَّرها العَذولُ جهالةً ... حتى بدتْ للناظرين فكبَّرا
وجهلتُ معنى الحسن حتى أقبلتْ ... فرأيته فيها يلوحُ مصوَّرا
لما درتْ أنى الكليم من الهوى ... جعلتْ جوابى فى المحبة لن ترى[1]
يامَنْ إذا ما مرَّ حُلْوُ حديثها ... أغناك عن مُرِّ العتيق وأسكرا[2]
أرْخَصْتِ يوم البَيْن سِعْرَ مدامعى ... وتركتِ قلبى بالغرام مسعَّرا[3]

وهو يتضرع إلى صاحبته أن لا تذيقه ألم الهجران وأن تنقذه منه ، فقد نفد صبره إذ رآها مع صواحبها الفاتنات وهن يمسْنَ مَيْس الغصون حين يداعبها النسيم ، ويقول إن العذول كان يحاول الغض من جمالها تسرية عن نفسه فلما رآها بهت وصاح . الله أكبر : أما هو فيرى فيها كل معانى الفتنة مصوّرة مغرية . ولما علمت مقدار وجده المبرح بها لم يأخذها عليه إشفاق أو رحمة ، بل مضت تُدِلّ عليه ، وتقول له : لن ترانى . ويعود إلى ندائها والتضرع إليها مصورا روعة حديثها وحلاوته المسكرة ، ويقول لها : لقد أرخصت مدامعى وأسعرت قلبى أو أشعلته نارا موقدة . وفى البيتين الأخيرين طباق وجناس مندمجان فى هذا الأسلوب السهل السائغ ، ويقول :

---

(١) الكليم : الجريح . لن ترى : لن ترانى .
(٢) يريد بالعتيق الخمر المعتقة .
(٣) فى مسعر تورية لأنها إما من السعر وهو المعنى المتبادر غير المراد ، وإما من السعير أى الجحيم وهو المعنى المراد .

علموا بأنّى لا أحولُ فعذَّبوا ... وَدَرَوْا بأنى عاشقٌ فتغضَّبوا[1]
قتلوا المتيَّم فى الهوى وتظلَّموا ... وجَنَوْا عليه بصدِّهم وتعتَّبوا
ومهفهفٍ لولا حلاوةُ وجهِهِ ... ما كان مُرُّ عذابِهِ يُسْتَعْذَبُ
إن كان يرضى أن أموت صبابةً ... فجميعُ ما يرضاه عندى طيِّبُ
يا باخلاً وله أجُودُ بمهجتى ... رِفْقًا على صَبٍّ عليك يعذَّب
إنْ مِلْتَ فالأغصانُ يُعْهَدُ مَيْلُها ... أو غِبْتَ فالأقمار قد تتغيَّب

وهو يقول إن صاحبته عرفت أنه لا يستطيع حِوَلاً عنها فتمادت فى تعذيبه ، ولم ينفعه عندها عشقه . فقد أظهرت له سخطا وغضبا ، ومع أنها فتكت بمحبها تشتكى منه ظلما وجورا . ومازال تتجنى عليه ، ويقول إن جمال وجهها هو الذى جلب له هذا العذاب المرير ، وإنه ليستعذبه إرضاء لها . حتى ليطيب له الموت فى سبيلها . ويقارن بينه وبينها ، فهو يجود لها بروحه ، وهى شحيحة شحا شديدا ، لا تجود له حتى بنظرة ، ويعلل نفسه قائلا : إن مالت عنه فذلك طبيعى ، لأنها غصن رشيق ، وطبيعة الأغصان أن تميل مع الرياح ، وكذلك إن وعدته وغابت فطبيعة الأقمار أن تغيب عن الآفاق .

وكان القيراطى يكثر من التوريات ، واختار له ابن حجة الحموى منها فصلا [2] طريفا أودعه خزانته ، من مثل قوله :

تنفَّس الصبحُ فجاءتْ لنا ... من نحوه الأنفاسُ مِسْكيَّه
وأطربتْ فى العود قُمْريةٌ ... وكيف لا تُطْرِبُ عُودِيَّهْ

وعوديَّة لها معنيان : القمرية التى تطرب على عود الشجر ، والمغنية الضاربة على العود . والتورية واضحة . ولعل فيما سبق ما يوضح الغزل الوجدانى أو الغرامى عند القيراطى ، وكان – كما أسلفنا – شيخا من شيوخ الحديث النبوى فى عصره ، وكان طلابه يختلفون إليه فى أخذه عنه بالقاهرة ومكة . ولا ريب فى أن إسهام مثله فى هذا الغزل يدل دلالة قاطعة على أن موجته بمصر فى هذا العصر كانت حادة وأنها عمت حتى شيوخ الحديث وحفاظه من أمثال القيراطى . ووراءه كثيرون من الشيوخ الفقهاء والمحدثين المصريين خلفوا دواوين تحمل سيولا من هذا الغزل الوجدانى الرقيق أمثال ابن دقيق العيد وابن الصائغ الحنفى وابن حجر

---

(١) أحول : أتحول .

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٨١ .

نور الدين[١] على العُسَيْلى

من علماء مصر وفضلائها وشعرائها فى القرن العاشر الهجرى توفى سنة ٩٩٤ للهجرة وكان فقيها شافعيا تتلمذ لشيوخ الأزهر ، وأظهر براعة فى فنه ، وعكف على التأليف والتدريس ، وفيه يقول الشهاب الخفاجى : « نور حدقة الزمان ونَوْر (زهر) حديقة الحسن والإحسان وكحل عيون الفضلاء والأعيان » وعاش طويلا ، وتعلق بأخرة بالسادة البكرية ، فقابله الدهر – كما يقول الشهاب الخفاجى – بوجه طليق . ويبدو أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فقد غطّى اشتهاره بشعره على شهرته بالعلم والفقه والفضل ، وغلب عليه الغزل من مثل قوله :

سَقَى الحِمَى ولياليه التى سَلَفتْ ... من أدمعى ومن الوَسْمِىّ هَتَّانُ[٢]
لى فى الديار سقاها المزن صَيِّبُهُ ... غزالُ حُسْنٍ بديع الخلق فَتَّانُ[٣]
يارَبْرَبَ الحسن قد بالغتَ فى تلفى ... أما لهجركِ يالَمياءُ هجرانُ[٤]
هلا نظرتِ إلى مُضْناكِ راحمةً ... فكان يشفع منك الحسنَ إحْسَانُ

وهو لا يمل الدعاء بأن يُسْقَى الحمى وليالى حبه فيه أمطار الربيع ودموعه الهاطلة أبدا فى الديار غزال سحره وخلب لبه . ويهتف بسرب الحسن أن يلتفت إليه وبصاحبته لمياء أن تصله بعد طول الهجر والعذاب ، حتى ولو بنظرة عطف وإشفاق على مضناها الذى طال عناؤه وشقاؤه وحرمانه . ويقول :

كأنَّ الذى أهوَى على نفسه جَنَى ... فمال على تلك المحاسن بالفَتْكِ
فأغرق خَدَّيه بماءِ جمالِهِ ... وأوقع فى الظَّلْماء ناظرَه التُّركى
وهاجَفْنُه يبكى عليه من الضَّنَا ... وها خَصْرُهُ من ثِقْل أردافه يُشْكى

وهو يجعل المحبوب التركى جانيًا على نفسه ، فقد أغرق خديه فى ماء جماله أو بعبارة أخرى فى رونق حسنه ، وكأنما كحل ناظره الأسود بالظلام الداجى فلمع بريقه ، ويتخيل كأنما جفنه يبكى

---

(١) انظر فى نور الدين العسيلى وترجمته ريحانة الألبا (تحقيق عبدالفتاح الحلو) ١٩٧/٢ وما بعدها وشذرات الذهب ٤٣٤/٨

(٢) الوسمى : مطر الربيع . هتان : هطال .

(٣) المزن : السحاب . صيِّبه : مطره .

(٤) الربرب : القطيع من الظباء أو البقر الوحشى. والاستعارة واضحة .

على ضناه وكأنما خصرهُ يشكو من ثقل أردافه ، وقد استعمل يشكى مثل العامية بدلا من يشكو الفصيحة ، ويقول فى إحدى الجوارى .

دَبَّتْ لــــه ذُؤابــــةٌ كـحيَّةٍ من خَلْفهِ
تحمى ضعيفَ خَصْرِه من خـارجىٍّ رِدْفهِ

وهو يشبه الضفيرة بحية وكأنها تحمى خصرَه من ثقل ردفه ، وقد عبر عنه بأنه من الخوارج مبالغَة ، ويقول :

كلٌّ فِعال الحِبِّ محمودةٌ وإن تجافى وتجَنَّى وتـــاه
فوَصْلُه قَطْعٌ لداء الأسى وَهْجُره قطعٌ لقول الوشاه

فهو يرتضى من محبوبته حتى هجرها ليقطع ألسنة الوشاة ، وهو جانب فيه من التظرف والرقة ورهافة الشعور ما يمتاز به أهل القاهرة ، وله قصيدة بديعة فى دولابٍ (ساقية) روض صوَّره فيها ينوح ويئن دائما لفراقه روضَه إذ كان شجرة ضخمة فى إحدى الرياض قطَّع أوصالها غبى ودقَّ عظمها فى ضلوعها ، فهى ماتنى تبكى على عهدها بالرياض ، وماتنى عيونها جارية بالدموع . وفى الحق أنه كان شاعرا بارعا ، ومرَّ بنا أنه يكوِّن مع تلميذه يحيى الأصيلى وتلميذ يحيى الشاعر يوسف المغربى مدرسة فى الغزل زمن العثمانيين كانت تمتاز بدقة الحس ورهافة الشعور .

٢

شعراء الفخر والهجاء

الفخر والهجاء غرضان قديمان من أغراض الشعر العربى ، فمنذ الجاهلية يتغنى الشعراء بمفاخرهم الذاتية ومفاخر قبائلهم وأقوامهم ، وبالمثل يتغنون بأهاج فردية تتصل بفرد بعينه ، وأخرى جماعية تتصل بالقبائل والأقوام ومثالبهم . ولا ريب فى أن وتر الفخر الذى شدَّه الشعراء إلى قيثاراتهم كان وترا خصبا ، إذ وقَّع الشعراء عليه كثيرا من الألحان الخلقية الرفيعة ، مما يتصل بالمروءة والكرم والوفاء والكرامة وغير ذلك من الفضائل الحميدة ، كما وقعوا عليه كثيرا من الألحان الحماسية التى تصور بسالتهم الحربية وما أذاقوه أعداءهم من الهزائم الساحقة . وظلت هاتان المجموعتان من الألحان طوال الحقب التالية ، وظل العرب فى كل مكان يردِّدونها صحائف تربية

مثالية وأناشيد حربية حماسية . وشعراء مصر منذ نشط فيها الشعر يشاركون فى المجموعتين ، يشارك فيهما الأمراء وأبناء الشعب ، من ذلك قول العباس بن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية[١] :

لله دَرِّىَ إذْ أَعْدُو على فَرَسِى   إلى الهياج ونارُ الحربِ تَسْتَعِرُ
وفى يدى صارمٌ أَفْرِى الرءوسَ بهِ   فى حَدِّه الموتُ لا يُبْقِى ولا يَذَرُ

والبيتان من قصيدة حماسية ملتهبة ، ومعروف أنه أخطأ فى هذه الحماسة وما اقترن بها من شجاعة ، إذ وجَّهها إلى أبيه ثائرا عليه . وأخفقت ثورته . وينزل مصر فى أيام كافور الإخشيدى المتنبى ، وتستدير حوله ندوة كبيرة تروى شعره وتتدارسه وكلَّ ما فيه من فخر مضطرم وحماسة ملتهبة . وتستقبل مصر الدولة الفاطمية ويدخلها المعز الفاطمى ، ومعه ابنه الشاعر النابه تميم ، وله فخر كثير ، وسنفرد له ترجمة عما قليل ، ونلتقى بعده بولى الدولة بن خيران صاحب ديوان الإنشاء بمصر فى عهد الظاهر والمستنصر المتوفى سنة ٤٣١ ونراه يبدئ ويعيد فى الفخر بشعره وكتاباته من مثل قوله[٢] :

ولقد سموتُ على الأنامِ بخاطرٍ   اللهُ أَجْرَى منه بَحْرًا زاخرا
فإذا نظمتُ نظمت رَوْضًا حاليًا   وإذا نثرتُ نثرت دُرًّا فاخرا

فهو يفتخر بخواطره الغزيرة التى تنسكب من ذهنٍ كأنه بحر زاخر ، وهو يهدى منها إلى الناس والآفاق أشعارا رائعة ورسائل بديعة . ونلتقى بغير شاعر فاطمى يفخر بنفسه فخرا حماسيا ملتهبا على شاكلة قول الحسن بن زيد الأنصارى[٣] :

منالُ الثُّرَيَّا دون ما أنا طالبُ   فلا لومَ إن عاصَتْ علىَّ المطالبُ
وإنى وإن لم يسمح الدهرُ بالمُنَى   فلى فى كَفالات الرماحِ مآربُ
تُقرِّبُ لى مُسْتَبْعداتِ مطالبى   جيادى وعَزْمى والقَنا والقواضِبُ

فما يطلبه ويتمناه فوق الثريا فى أعلى عليين من السموات ، وطبيعى أن لا تناله يده أحيانا ، ومع ذلك هو لا ييأس أن ينال من الدهر مطالبه ومآربه بفضل رماحه وجياده وسيوفه القواضب

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/٢١ .
(٢) معجم الأدباء ٤/٨ .
(٣) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/٦٩ .

القاطعة وعزمه الذى لا يُفَلّ ، إنه مملوء فتوة وقوة صلبة ينيلانه كل ما يتمنى . وكان يعاصره الرشيد بن الزبير أخو المهذب الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى وقلنا هناك إنه وقعت لأخيه الرشيد محنة باليمن إذ ذهب رسولا عن الدولة الفاطمية إلى أحد دعاتها فسجنه وهمَّ بقتله مما جعل المهذب يستعطفه لأخيه بقصيدة رائعة ، ردَّ عليها بمجرد سماعها حريته ، إذ عفا عنه وأطلقه ، ونرى الرشيد يعلن فى قوة أن نفسه لم تنكسر ولم يصبها أى وهن بسبب هذا الحادث ، يقول[1] :

جَلَّتْ لدىَّ الرَّزايا بل جَلَتْ هِمَمِى ... وهل يضرُّ جلاءُ الصارم الذَّكرِ
لو كانت النارُ للياقوت محرقةً ... لكان يَشْتبه الياقوتُ بالحجرِ
لا تُغْرَرَنَّ بأطمارى وقيمتها ... فإنما هى أصدافٌ على دُرَرِ
ولا تظنَّ خفاءَ النجمِ من صِغَرٍ ... فالذَّنْبُ فى ذاك محمولٌ على البصرِ

وهو يقول إنه تحمَّل الرزايا والمصائب التى نزلت به جَلْدًا شجاعا ، بل لقد جَلَتْ همته جلاء السيف الباتر ، ويضرب مثلا بالياقوت فالنار مهما اضطرمت لا تحرقه ، وإلا كان حجرا لا غناء فيه . وينظر إلى أطماره وثيابه البالية فيقول لصاحبه : لا تغرنك هذه الأطمار الخلقة فإنها أصداف وقشور وأغطية للآلئ ثاقبة ، ويضرب مثلا بالنجم فى السماء تستصغر الأبصار رؤيته ، والذنب فى الصغر للبصر لا للنجم .

ونمضى إلى زمن صلاح الدين وما حققت مصر فى أيامه من مجد حربى عظيم بسحقها الصليبيين فى ديار الشام واستخلاص بيت المقدس وغيره من أيديهم ومحقهم محقا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر . وكان لابد لمصر من شاعر يتغنى لها بهذا المجد البطولى الذى توَّجها به صلاح الدين ، وتغنَّى ابن سناء الملك أكبر شعرائها حينئذ ببطولة صلاح الدين وجنده المصريين فى قصائد حماسية مضطرمة ، كما مر بنا فى ترجمته ، وليس ذلك فقط ، فقد مضى يفخر فى أشعاره فخرا عارما ، وكأن كل ما تجمَّع فى صدر صلاح الدين وأبطال جيشه من أحاسيس تجمَّع فى صدر ابن سناء الملك وقلبه ، فإذا هو يتغنى بمثل هذا النشيد الرائع[2] :

سوایَ يخاف الدهرَ أو يرهبُ الرَّدَى ... وغيرىَ يَهْوَى أن يكون مخلَّدا
ولكننى لا أرهبُ الدهرَ إن سَطا ... ولا أحذرُ الموت الزُّؤامَ إذا عَدا[3]

(١) ابن خلكان ١٦٢/١ .
(٢) الديوان ص ١٦٥ .
(٣) الزؤام : السريع .

ولو مدَّ نحوى حادثُ الدَّهْرِ طَرْفَهُ   لحدَّثتُ نفسى أن أمدَّ له يَدَا
توقُّدُ عَزْمِى يترك الماءَ جمرةً   وحِلْيَةُ حِلْمِى تترك السيفَ مِبْرَدا
وأَظْمأُ إنْ أبدى لىَ الماءُ مِنَّةً   ولو كان لى نَهْرُ المَجَرَّة موردا
ولو كان إدراكُ الهدى بتذَلُّلٍ   رأيتُ الهُدَى أن لا أميلَ إلى الهُدَى
وإنك عَبْدى يازمانُ وإننى   على الكُرْهِ منى أن أُرَى لك سيِّدا
ولو علمتْ زُهْرُ النجومِ مكانتى   لخَرَّتْ جميعا نحو وجهىَ سُجَّدا

وكأنه لم يعبِّر فى هذه الأنشودة الفريدة عن شعور كل مصرى لزمنه حَمل السلاح وسفك به دماء الصليبيين المعتدين الآثمين فحسب ، بل لقد عبَّر بها عن شعور كل مصرى على مر الزمن بأمجاد أمته الحربية والحضارية . وإنه ليشمخ بنفسه فى أعلى الأفلاك والسموات ، فإذا هولا يرهب الدهر ولا يرهب الموت الزؤام ، ولو مد الدهر طرفه إليه لتازله بعزم صادق يُشْعل الماء جمرا ملتهبا ويردّ السيف كليلا صَلْدًا لا يقطع . ويمتلئ صدره بإحساس الكرامة ، حتى إنه ليظمأ إن أبدى له الماء مِنَّةً ، بل إنه ليموت ظمأ حتى لوكان نهر المجرة مورده وحقق له وروده كل ما أمَّله ، وحتى الهدى لوكان إدراكه بشيء من الهوان لرفضه . ويبلغ من استصغاره للدهر وأحداثه أن يشعر فى قوة بسيطرته عليه حتى كأنما ذلَّ له ودان ، بل حتى كأنما أصبح له عبدا مسترَقًّا ، وهو مع ذلك يشعر فى كبرياء بتعاظم شديد عليه ، حتى ليقول إن النجوم الساطعة لو رأت وجهه لخرت ساجدة تقدم له التراتيل ، وكأنما تجسدت فى روحه مصر الخالدة الجديرة بكل تقديس .

ومن طريف ما يلقانا من الفخر بعده فخر ابن نباتة الكثير بشعره وكان حاملَ لواء الشعر فى زمنه ، ومن قوله :

من مبلغُ العُرْب عن شعرى ودولتِه   أنَّ ابن عبَّادَ باقٍ وابنَ زيدونا
إذا رأيت قوافيها وطَلْعَتَها   فقد رأتْ مقلتاك البحرَ والنُّونا
كأنَّ ألفاظها فى سمع حُسَّدها   كواكبُ الرَّجم يَحْرقن الشياطينا

وهو يقول إن من سمع شعره عرف أن الأندلس لم تُنْسَ ، فلا تزال حية نضرة ولايزال شعراؤها العظام من أمثال المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وشاعره الوجدانى ابن زيدون . وقد ورَّى فى البحر والنون يريد بهما بحر الشعر ونون القافية فى القصيدة لا الحوت ، ويسمِّى حساده باسم

الشياطين تسقط عليهم أبيات قَصِيده كشهب الرَّجْم فيحترقون ويستحيلون رمادا تذروه الرياح . وقلما نلتقى فى الحقبة العثمانية بفخر إلا ما يتصل بالشمائل والأخلاق الكريمة .

ومنذ سال الشعر على ألسنة المصريين سال معه هجاء كثير ، وكان الشعراء يقذفون بسهامه – كما مر بنا فى غير هذا الموضع – الولاة والقضاة كلما انحرفوا عن الصراط السوىّ على نحو ما يصور ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى . ومعروف أن أحمد بن طولون استقل بمصر وأسس بها الدولة الطولونية ، وضم إلى لوائه الشام ، وله أعمال مجيدة كثيرة ، ولم يكن يخلو منه ظلم وعسف وسفك للدماء كما يقول ابن تغرى بردى وفى كتاب الولاة والقضاة شاعر يسمى محمد بن أبى داود كان كثيرا ما يهجوه مزريا على ماشاده من المارَسْتان وغير المارستان ، وفيه يقول من أشعار مقذعة كثيرة حتى بعد وفاته :

وكم ضَجَّةٍ للناس من خَلْفِ سِتْرِهِ ... تضجُّ إلى قلبٍ عن الله مُغْفَلِ

فقلبه غافل عن ذكر ربه وعن حوائج الناس وهم يضجون خلف حجابه وحرسه . ولا نشك فى أن ابن أبى داود ظلم ابن طولون ، فقد كان يعنى بالرعية وبنى جامعه المشهور وعهد إلى بعض العلماء بالتدريس فيه . وأهاجى المتنبى فى كافور الإخشيدى مشهورة ، وقد ظلمه بدوره ظلما بيِّنا . وكان المصريون قد احتفوا به حين نزوله فى الفسطاط وعقدوا له ندوة كبيرة ظلت طوال مقامه بين ظهرانيهم ، وممن لزمه فيها وروى عنه شعره صالح بن رشدين ، وعبيد الله بن أبى الجوع وله نقائض وأهاج مع صالح بن مؤنس ، وله يقول صالح[1] :

هاجيك فيما قاله مادحٌ ... فأنت فى صَفْقتك الرابحُ
ياأيها الصَّعْوُ الذى لم يزل ... يرقص حتى دقَّه الجارِح[2]

وهو يسمى هجاءه له مدحا لأن فيه ذكرا له ، ومثله ليس شيئا حتى يذكر ، ويقول له إنك عصفور صغير لا يزال يرقص على الأغصان من غصن إلى غصن حتى يدق عنقه صقر أو نسر جارح . ونمضى إلى زمن الدولة الفاطمية وما أخذت تنشره من عقيدتها الشيعية الغالية الرافضة . وما زعمته للأئمة من نسبةٍ إلى عالم القدس وأنهم من جوهر روحى مصفى وأنهم يعلمون الغيب

---

(١) اليتيمة ٣٨٩/١ .

(٢) الصعو : العصفور الصغير .

مما عرضنا له فى غير هذا الموضع . ويُرْوَى أن الخليفة العزيز بن المعز صعد المنبر فى يوم جمعة ، فرأى ورقة كتب فيها شاعر مصرى هذين البيتين[١] :

بالظلم والجَوْر قد رَضينا وليس بالكُفْر والحماقَهْ
إن كنتَ أُعطيت عِلْمَ غَيْبٍ فقُلْ لنا كاتب البطاقه

فتناولها العزيز وقرأها ولم ينبس ببنت شفة .

وظل شعراء مصر طويلا مغاضبين لهذه الدولة معرضين عنها ، كما أسلفنا ، وكان مما أثار حفيظتهم بالإضافة إلى نحلتها المنحرفة اتخاذها وزراء لها من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم ، وكان كثير من المصريين يشك فى صحة إسلامهم وأنهم يتخذون ذلك ذريعة للاستيلاء على الوزارة والمناصب الكبرى فى الدولة ، وكان منهم صدقة بن يوسف الفلاحى وزير الخليفة المستنصر واتخذ أبا سعد التَّسْتُرِىّ اليهودى مدبرا للدولة معه فصاح أحد الشعراء المصريين بالخليفة ساخرا غاضبا[٢] :

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزُّ فيهم والمال عندهمُ ومنهمُ المستشارُ والملك

وهى سخرية من المستنصر قاتلة ، مما اضطره إلى النزول على إرادة الشاعر والشعب ، فاعتقل الوزير الفلاحى ولقى حتفه على يده . وعلى نحو ما كان المصريون يتعرضون للفاطميين بالهجاء كانوا كذلك يتعرضون لوزرائهم هاجين هجاء مرًّا على نحو ما هجا الشاعر جاسوس الفلك الجرجرائىَّ وزيرَ المستنصر وكان أقطع اليدين لخيانة ظهرت عليه فى أيام الحاكم ، فلما ولى الوزارة استعمل الأمانة الزائدة والاحتراز الشديد فخاطبه جاسوس الفلك قائلا[٣] :

يا أحمقًا إسمعْ وقُلْ ودَع الرقاعةَ والتحامقْ
أمن الأمانة والتُّقى قُطِعَت يداك من المرافق

ولم يكن الوزير مصرى الأصل بل كان من جَرْجرايا من أرض العراق . واشتهر الناجى المصرى بمقطعاته الهجائية الكثيرة فى الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الآمر ، وفيه يقول[٤] :

(١) النجوم الزاهرة ١١٦/٤
(٢) حسن المحاضرة ٢٠١/٢
(٣) ابن خلكان ٤٠٨/٣
(٤) الخريدة ١٠٣/٢ .

قُلْ لابن بَدْرٍ مقالَ من صَدَقَهْ   لا تَفْرَحَنْ بالوزارة الخَلَقَهْ
إن كنتَ قد نلتَها مُراغمةً   فَهْيَ على الكلب بعدكم صَدَقه

وهو هجاء مقذع إقذاعا شديدا . ونرى داود بن مقدام المحلى الملقب برضى الدولة المار ذكره يهجو بعض أصحاب الدواوين وماكانوا عليه من فساد فى جمعهم للضرائب ، يقول[1] :

وكتَّابٍ لهم أبدا حُمَاتٌ   تُعَدُّ لها الرُّقَى مثل الصِّلالِ[2]
بأيدٍ تَبْتَدِرْنَ إلى الرَّشاوِى   كأيدى الخَيْل أبصرت المخالى

فكأنهم يشبهون الزنابير والعقارب والأفاعى ، إن لم يقدم لهم الرشاوى لسعوا من يجمعون منهم الضرائب كما يلسع الزنبور والعقرب بحمتها أو إبرتها وكما يلسع الصِّل أو الأفعى بسمه القاتل . ونلتقى فى أثناء ذلك بدعابات ساخرة كقول ابن قادوس يتهكم على الرشيد بن الزبير وكان شديد السواد[3] :

إن قلتَ من نارٍ خُلِقْـ   ـتَ وفُقْتَ كلَّ الناس فَهْمَا
قلنا صدقتَ فما الذى   أطْفاك حتى صِرْتَ فَحْمَا

وهى دعابة قد يقبلها الرشيد لما فيها من فكاهة خفيفة ، ولابن قادوس أحيانا هجاء ملىء بالسموم وخاصة ممن يضيق بهم كقوله فى منافق مايزال يتلوَّن لكل شخص باللون الذى يعجبه ، يقول[4] :

حوله اليومَ أناسٌ   كلُّهم يُزْهَى برائِهْ
وهْو مثلُ الماء فيهم   لونُه لونُ إنائه

ونمضى إلى زمن الأيوبيين ، ويلقانا ابن سناء الملك ساخطا على بعض معاصريه ، يكويهم بسياط هجائه وخاصة من يسمى ابن عثمان ، حتى ليود أن يُصْفَعَ بالنعال على حد قوله[5] :

وكم له من وقعةٍ   لم تُبْق منه باقيهْ
وما عليه قطُّ من   صَفْعِ النِّعال واقيهْ

---

(١) الخريدة ٤٧/٢ .
(٢) حمات : جمع حمة وهى إبرة الزنبور والعقرب . والصلال : الأفاعى .
(٣) الخريدة ٢٢٩/١ .
(٤) الخريدة ٢٣٣/١
(٥) الديوان ص ٨٧٦ .

فهو يتصوَّره يُصْفَعُ بالنِّعال ولا مغيث له ولا مجير ، وللبهاء زهير بعض مقطوعات فى الهجاء ، وهو لا يقذع فيه ، بل يفسح للدعابة والوخز الخفيف الذى لا يدمى ، وقد لا يتعدى وصفه بالثقل كقوله[1] :

ربَّ ثقيلٍ لبُغْض طَلْعَتِهِ أخشاه حتى كأنَّه أجَلى
وكلما قلتُ لا أشاهده ألقاه حتى كأنه عملى

وكان الشعراء يتعرضون أحيانا للوزراء يهجونهم كقول ابن مطروح يهجو هبة الله بن صاعد الفائزى مستغلا اسم أبيه فى هجائه[2] :

لعن الله صاعدًا وأباهُ فصاعدا
وبَنِيهِ فنازلاً واحدًا ثم واحدا

وهو كصاحبه البهاء زهير لا يتسع فى هجائه ولا يقذع فيه ولا يفحش .

ويظل الشعراء طوال عصر المماليك يَرِيشون سهام الهجاء ، ويلقانا فى أوائله الجزار والوراق ولهما أهاج فكهة كثيرة سنعرض لها فى غير هذا الموضع ، وكان يعاصرهما البوصيرى شاعر المديح النبوى الرائع ، وكان يعمل موظفا فى دواوين الأقاليم ، وله هجاء عنيف فى طوائف الموظفين جميعا أوكما يسميهم المستخدمين من كتّابِ خراجٍ وقضاةٍ وغير قضاة ، ومن قوله فيهم[3] :

ثكلْتُ طوائف المُسْتَخْدمينا فلم أر فيهمُ رجلاً أمينا
أقاموا فى البلاد لهم جُباةً لقَبْض مُغَلِّها كالمُقْطَعينا
تحيَّلتِ القضاةُ فخان كلٌّ أمانته وسمَّوه الأمينا
وكم جعل الفقيهُ العدلَ ظُلْماً وصيَّر باطلا حَقًّا مُبينا

فهو يشكو من فساد جميع الموظفين ، فعمال الخراج كأنهم من أصحاب الإقطاع وهم يجمعون ما تغله إقطاعاتهم ، والقضاة يخونون الأمانة والفقهاء يجعلون بفتاواهم المضللة الظلم عدلا والباطل حقا ، ويردد ذلك فى أشعار كثيرة تصور فسادهم جميعا وكيف كانوا يجمعون ثروات طائلة بطرق غير مشروعة . وسنرى لابن دانيال أهاجى فكهة كثيرة فى حديثنا عن شعراء الفكاهة . ومما يلاحظ

(١) البهاء زهير للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ٢٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ٥٨/٧ .
(٣) الديوان ص ٢١٨ .

أن المصريين قلما يفحشون فى هجائهم ، وكثيرا ما يتحول إلى ما يشبه عتابا رقيقا كقول ابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ هاجيا[1] :

نَعَمْ نَعَمْ مَحَضْتُهُمْ صِدْقَ الوَلا تطوُّلا[2]
وما رَعَوْا عهدا ولا مودَّةً ولا ولاَ

وفى كلمة « ولا » الأخيرة تورية واضحة إذ يريد بها مقصور ولاء . ونراه حين يصادر أمواله وبغاله وخيله السلطان الظاهر برقوق لا يشتم ولا يهجو بل يكتفى بقوله[3] :

رَبِّ خُذْ بالعدل قومًا أهل ظُلْمٍ متوالى
كلَّفونى بيع خَيْلِى برخيصٍ وبِغالى

والتورية فى كلمة بغالى مع كلمة برخيص – وهو يريد بغاله الحقيقية – واضحة ، وهو يعمد إليها فى هذا الظرف الحرج من محنته .

ونظل نلتقى بالهجاء فى أيام العثمانيين ، من ذلك قول الشهاب الخفاجى من قصيدة جميعها على النمط التالى[4] :

يا ضَيْعَةَ الهِمْيان من عائلٍ قُبَيْل عيدٍ أعوزَ الفُطْرَهْ[5]
ويا قَفا المهزوم من فارسٍ أدركه فى ساحةٍ قَفْرَهْ
وبَهْتَةَ السَّكْران من هاجمٍ فى ليلةٍ مظلمةٍ قَرَّهْ[6]
ويا نَعِيًّا جَاءَ عَنْ واحدٍ إلى عجوزٍ مالها أُسْرَهْ

وتمضى القصيدة على هذا النحو الساخر اللاذع المُصْمِى تكيل الذم لمهجوه كيلا وتهزأ به وتسخر منه سخرية قاتلة .

وتلقانا مطارحة[7] طريفة بين الشاعر المعروف باسم شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ للهجرة والشاعر قاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ ، فقد نظم شبانة – يداعب قاسما – قصيدة هجائية طويلة يقول فيها :

---

(١) ريحانة الألبا للخفاجى (طبعة الحلبى) ص ٤١ .
(٢) تطولا : تفضلا .
(٣) النجوم الزاهرة ١٢/١٢٩ .
(٤) نفحة الريحانة للمحبى ٤/٦١٢ .
(٥) الفطرة : التقل فى لغة المصريين العامية . الهميان : كيس النقود .
(٦) قرة : باردة .
(٧) تاريخ الجبرتى ٢/١٢٨ .

سبحانَ من قسمَ النُّحو سَ لقاسمٍ وأذلَّ هامَهْ
وكساه ثوبَ جنايةٍ يَخْزَى بها يومَ القيامَهْ

ومضى يتهمه بأنه يعين لصوص البيوت ويسرق الحرير ويسلّ الكحل من العيون ، وردّ عليه قاسم هاجيا مداعبا ، من نفس الوزن والقافية ، وكأنهما يعيدان لنا نقائض جرير والفرزدق يقول قاسم :

جَلَّ الذى قسم الشَّقا لشبانةٍ وله أدامَهْ
بعمامةٍ لو خالها الـ قَلاَّ توهَّمها بِرَامَهْ
موروثةٍ عن جَدِّهِ من قبل أن تُبْنَى القِمَامَهْ
لو كان يصلحُ للصلا ة لحَقَّ للقِرْدِ الإمَامَهْ

والقَلاَّ مقصور القَلاَّء وهو من يَقلى اللحوم والأطعمة ، والبرام : القدر الذى يُقْلَى فيه . يشير بذلك إلى ضخم رأسه وقذارة عمامته . ولعله يريد بالقمامة كنيسة القيامة بالقدس ، وقد بنيت حوالى سنة ٣٢١ للميلاد . والدعابة واضحة فى الأبيات . ونقف قليلا عند بعض شعراء الفخر والهجاء :

تميم [١] بن المعز

هو تميم بن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، ولد لأبيه سنة ٣٣٧ بمدينة المهدية التى بناها جده عبيد الله المهدى بتونس ، وقد تحول عنها ابنه الخليفة المنصور فى نفس السنة التى ولد فيها تميم حفيده إلى مدينة أسسها هناك سماها المنصورية ، وولد لأبيه بعده على التوالى عبد الله ونزار وعقيل ، وكان المعز قد بويع بولاية العهد فى حياة أبيه المنصور ، وجُدِّدت له البيعة حين توفى سنة ٣٤١ . وكان فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان حصيفا سَيوسا ، دانت له إفريقية من تونس إلى المحيط ماعدا سبتة فإنها ظلت – كما مر بنا فى غير هذا الموضع – مع عبد الرحمن الناصر الأموى صاحب الأندلس ، وسيَّر جوهرا قائده إلى مصر فافتتحها سنة ٣٥٨ – كما مر بنا فى غير هذا الموضع – ودخلها المعز فى سنة ٣٦٢ وكان عالى الهمة يحكم تدبير الأمور حازما منتهى الحزم ،

(١) انظر فى تميم وترجمته وأشعاره اليتيمة ٤٣٦/١ وابن خلكان ٣٠١/١ والحلة السيراء (طبعة د. حسين مؤنس) ٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٥٦٠/١ وكتاب فى أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٧٠ ومقدمة ديوانه (طبعة دار الكتب المصرية) .

واتضح حزمه إلى أقصى حد فى صرفه ولاية العهد عن ابنه الأكبر تميم ، وكان لايزال فى المنصورية بتونس ، حين تأكد أنه يسير سيرة معوجَّة منحرفة ، مما جعل واليه على صقلية أحمد بن الحسن الكلابى يستأذنه فى قتل أحد أبنائه لمشاركته تميما فى مجونه[١] .

ويبدو أن المعز حاول – دون جدوى – أن يرد ابنه إلى الطريق السَّوِىّ حتى إذا فشلت محاولته صرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله[٢] ، ولم يلبث عبد الله أن توفى حين نزل مع أبيه فى مصر فجعل المعز ولاية العهد لأخيه نزار الذى خلف أباه حين وفاته بالقاهرة سنة ٣٦٥ متسميا باسم العزيز .

وليس من ريب فى أن المعز عُنِى بتربية ابنه تميم الذى كان يعدّه لولاية العهد منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له المعلمين الدينيين واللغويين وعهد إلى بعض دعاة النحلة الفاطمية بتلقينها له ، وكانت للغلام موهبة شعر فذة ، فأكبَّ على الشعر العربى فى أزمنته المختلفة يتزود منه ، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته ، فعكف على اللهو والمجون لا يردعه رادع . وانتقل مع أبيه إلى مصر ، فمضى فى سيرته ، يَحْيا للهو والمجون . ويموت أخوه وأبوه فيرثيهما رثاء فاترا ، وهو رثاء يدل على مكنون ضميره وأنه كان يشعر فى أعماقه بأن أباه سلبه حقه . وهو فى ديوانه يكثر من مديح أخيه العزيز ، ونحس صدقه فى هذا المديح وإخلاصه له ، ومع ذلك كان لا يسلم من الوشاة بينه وبين أخيه ، مما جعله يبعده مرة إلى عين شمس بجوار القاهرة ومرة ثانية إلى الرملة بفلسطين ، ويألم ألما شديدا لغربته وبعده عن ملاعب مجونه ، وسرعان ما يردّ العزيز إليه حريته . وهما فترتان صغيرتان فى حياته الهنيئة بالقاهرة حتى وفاته سنة ٣٧٤ .

وكان العزيز يغدق عليه إغداقًا عظيما ، فقد جعل القصور على بركة الحبش – بمصر القديمة الآن – خالصة له ، وكانت تطلُّ على النيل ومن حولها حدائق بديعة ، ووهب له بستانا عظيما يعرف باسم المعشوق ، غير ما كان يضفى عليه من الأموال الضخمة . وكل ذلك أتاح له أن يحيا حياة ترف ولهو فى قصوره وبساتينه ورياضه وفى الأديرة . وكان ينتهز فرصة الأعياد الكثيرة : الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية ، فيشارك الشعب فى مرحه وقصفه ، سواء فيما كان يقيم من

---

(١) سيرة جوذر (تحقيق د : كامل حسين) ص ١٢٠ .

(٢) ذكر ابن الأبار فى الحلة السيراء أن السبب فى صرف المعز لولاية العهد عن تميم أنه لم ينجب ولدا . غير أن صرفها عنه وهو لايزال فى نحو العشرين من عمره يؤكد السبب الذى ذكرناه فقد كان لايزال فى مطالع شبابه ، وقد عاد فصرفها عنه مرة ثانية بعد وفاة أخيه عبدالله . وربما كانت كناية تميم بأبى على قاطعة فى أنه أنجب فعلا .

مضارب وسرادقات وقباب ببركة الحبش أو فيما كان يتخذ من قوارب تضاء بالشموع ليلا فى النيل ، والمغنون والمغنيات يطربون الناس . وهو يمر بزوارقه على قواربهم ، ويستمع إلى من معهم ويُسْمعهم بعض قيانه . وفى ديوانه ما يصور كئوس اللهو والمجون التى كان يعبّ منها عبًّا ، ومرَّ بنا مديحه لأخيه العزيز وما أذاعه ونشره فيه من مبادئ الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وعقيدتها فى الإمام وارتفاعه عن البشر بجوهره الروحانى اللطيف وجسده النورانى الشفاف وعقله الكلى الفعال وإسباغ الصفات الربانية عليه . ويتمادى تميم فى ذلك ومثله حتى لكأنه داعية من دعاة الدولة ودعاة أخيه العزيز خاصة وحسبنا ما صورناه عنه فى حديثنا عن المديح . وهو فى الديوان يضيف إلى هذا المديح فخرا يمتزج أحيانا بعقيدته فى الأئمة ، وكأنه الإمام المنتظر ، إذ يقول :

أَنا الصبحُ أنا الشمسُ أنا البدرُ الذى يَسْرِى
أنا المرجوُّ فى العُسْرِ أنا المرجوُّ فى اليُسْرِ
أنا المُسْبِلُ للنُّعْمَى أنا الكاشفُ لِلضُّرِّ
أنا الراتقُ للفَتْقِ أنا القاصمُ للظَّهْرِ

وكأنما تجسدت فيه شخصية أحد الأئمة ، فهو نور الصبح ونور الشمس ونور القمر ونور الأنوار الذى يستمد منه كل نور ، وهو مدبِّر الكون ومقسِّم الرزق المرجو فى العسر واليسر والمسبغ للنعمى والكاشف للضر الراتق للفتق القاصم للظهر . ويستمر فيقول إنه هو الحاطم للعظم والجابر للكسر والعالم بالذكر ، يريد أنه العارف لبواطن الذكر الحكيم ، كما يزعم الإسماعيليون لأئمتهم .

ولا يبعد أن يكون مثل هذا الفخر هو الذى كان يتخذه الوشاة أداتهم للوقيعة بينه وبين أخيه العزيز ، مما جعله يبعده ، كما ذكرنا ، مرة إلى عين شمس ومرة إلى الرملة . وتتردد أصداء من هذه المعانى فى أشعاره فى صوت عال تارة ، وتارة ثانية فى صوت خفيض ، ومن قوله فى ذلك :

أبنى علىٍّ إن نكنْ نُنْمَى إلى حَسَبٍ أنافَ بنا وَجدٌ أَرْوَعَا[1]
فلقد علمتم أننى أغْشَى الوَغَى وأنوبُ فى الجُلَّى قَوُولا مُسْمِعا[2]
ولقد علمتم أننى رُضْتُ العلا يَفَعًا وحاولتُ المكارمَ مُرْضَعا[3]

---

(١) أناف : أشرف وارتفع .
(٢) الجُلَّى : الأمر العظيم . قوولا : صيغة مبالغة من القول يشير إلى بلاغته فى شعره .
(٣) اليفع : الفتى فى إبان شبابه .

فدعوا لِىَ الشرفَ الذى شَيَّدْتُه ... إذ هِضْتموه فانْكفَا وتَضَعْضَعَا[1]
لى فى المشارق والمغارب جَوْلَةٌ ... يَغْدو بها قلبُ الزمانِ مصدَّعا
فادفع بجدِّ السيف كلَّ ظُلامةٍ ... إن لم تجد يوما سواه مَدْفَعا
فبِذاك أوصانى الوَصِىُّ ورَهْطُه ... وعلىَّ فَرْضٌ أن أُطيع وأسمعا

وهو يخاطب أسرته العلوية ذات الحسب العالى والحظ العظيم واضعا بين يديها شجاعته ونفوذه فى الأمور العظيمة برأيه المحكم وشعره البليغ ، ويزعم أنه راض العلا وساسها فى مطلع شبابه وأنه حاول المكارم منذ كان فى المهد مرضعا . وإذن فليعطوه حقه والشرف الذى يمنعونه منه ، وكأنه ينذرهم ويهددهم ويتوعدهم إن لم يردوا عنه ظلمهم ويردوا إليه الحق المسلوب ، ويزعم أن تلك وصية جده أبى الأوصياء على بن أبى طالب وأبنائه من الأئمة وأنَّ فرضا عليه أن يسمع ويطيع . ولا ريب فى أن هذه المعزوفة التى كان يوقعها كثيرا على قيثارته كان يضيق بها العزيز ، غير أن غمتها سرعان ما كانت تنكشف عن صدره حين يستمع إلى مدائح تميم فيه وترديد قدسيته ووجوب طاعته .

ومعزوفة ثانية كان كثيرا ما يعزفها تميم ويلحنها على وتر الفخر فى قيثارته ، ونقصد ردوده العنيفة على فخر عبد الله بن المعتز العباسى بأسرته العباسية الهاشمية . وله إزاءه موقفان : موقف يختار فيه قصيدة من قصائد ابن المعتز فى فخره بأسرته وينقضها نقضا بما يصور من مفاخر أسرته الفاطمية . وموقف ثان لا يتقيد فيه بقصيدة معينة يردُّ عليها . وهو فى الموقف الثانى حر يختار أى وزن ينظم فيه وأى قافية ، أما فى الموقف الأول فيتقيد بوزن القصيدة التى يرد عليها وقافيتها على شاكلة ما كان يحدث بين جرير والفرزدق فى نقائضهما ، ومن قصائد الموقف الأول رائية لابن المعتز استهلها بقوله : « أىُّ رَبْعٍ لآل هندٍ ودارِ » عمد تميم إلى نقضها بقصيدة تماثلها فى الوزن والروىِّ ، وفيها يقول ، رادًّا على ابن المعتز والعباسيين جميعا :

ليس عَبَّاسُكم كمثل علىٍّ ... هل تقاسُ النجومُ بالأقمارِ
مَنْ له الصِّهْرُ والمؤاساةُ والنُّصْـ ... ـرةُ ، والحربُ ترتمى بالشَّرار
مَنْ دَعاهُ النَّبىُّ خِدْنًا وسمَّا ... هُ أخًا فى الخفاءِ والإظهارِ

---

(١) هضتموه : من هاض العظم إذا حطمه وكان على وشك أن ينجبر .

مَنْ له قال أنت منى كهارو نَ وموسَى أكرمْ به من نِجار(١)
ثم يوم الغَدِير ما قد علمتم خَصَّـه دون سائر الحُضَّار
مَنْ له قال : لا فتَى كعليٍّ لا ولا مُنْصُلٌ سوى ذى الفَقَار(٢)
مَنْ توطَّا الفِراش يَخْلُفُ فيه أحمدًا وهْوَ نحو يثربَ سارِ
ولنا حُرْمَةُ الوِلادة والأعْـ ـمام والسَّبْق والهدى والمنارِ
نحن أهلُ الكِساءِ سادسُنا الرُّو حُ أمينُ المهيمنِ الجبَّارِ
حُججٌ كلما تأمَّلها العا لِمُ بانتْ له بيانَ النهارِ

وتميم يوازن بين جده على بن أبى طالب وعمه العباس بن عبد المطلب ، ويفاخر بأنه صهر الرسول ﷺ وساعده الأيمن فى الحرب ، ويشير إلى حديث نبوى ترويه الشيعة : أن النبى عليه السلام قال : « على منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » . وهم يستدلون بهذا الحديث على أن عليا ليس أحق بالخلافة من العباس فحسب ، بل هو أيضًا – فى اعتقادهم – أحق من الشيخين : أبى بكر وعمر بالخلافة . ويذكر يوم غَديرِ خُمٍّ وهو موضع بين مكة والمدينة أثنى فيه الرسول ﷺ على ابن عمه علىّ ، وقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، وتذهب الشيعة إلى أن الرسول عليه السلام أوصى فى هذا اليوم بالخلافة لعلى . ومنذ أواسط القرن الرابع الهجرى يتخذ الشيعة هذا اليوم الموافق للثامن عشر من ذى الحجة عيدا لهم . ويشير تميم إلى ما يرويه الشيعة من أن الرسول قال : لافتى إلا على ولا سيف إلا ذو الفقار : سيفه . ويذكر أنه هو الذى اصطفاه الرسول لينام فى فراشه ليلة خرج مع أبى بكر مهاجرا إلى المدينة ، مخترقا حصارا مسلحا ضربته قريش حول بيته ، حتى لا تنتبه إلى خروجه ، وكانت قد بيَّتت القضاء عليه (يريدون أن يُطْفئوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره) . ويقول إنهم يشتركون مع العباسيين فى أنهم من سلالة أعمام رسول الله ويرتفعون فوقهم درجات بأنهم أبناء بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء . ويشير إلى ما تقصّ الشيعة من أن الرسول ألقى كِساءً عليه وعلى السيدة فاطمة وعلى زوجها وابنيهما الحسن والحسين وكان سادسهم –كما يقول تميم– جبريل وقال : نحن أهل البيت فى خبر يردونه . ويذكر جهاد على المبرور فى غزوات الرسول وخاصة فى بدر وأحد وخيبر وكيف أبلى فيها جميعا بلاء عظيما . ويقول هذه كلها براهين ساطعة كالشمس بأفضلية علىٍّ وارتفاع منزلته على عمه ، ويهدد العباسيين

(١) نجار : أصل وحسَب . (٢) منصل : سيف .

بحرب مبيدة تعصف بهم عصفا شديدا .

وتميم فى الموقف الثانى الذى لا ينقض فيه قصيدة بعينها لابن المعتز يلحّ على هذه المعانى نفسها فى رده على العباسيين وفخره عليهم فخرا مضطرما بشرر كثير ، يريد به أن يثبت أن العلويين أحق بالخلافة من أبناء عمومتهم سواء من جهة إرثهم لها عن طريق جدهم على وجدتهم فاطمة بنت الرسول عليه السلام أو عن طريق وصاية الرسول بها لعلى أو عن طريق خدماته الجُلّى للدين الحنيف ونَصْره . ويمد طرفا من هذا الجدل إلى بنى أمية وهو يقصد أصحاب الأندلس فى أيامه ، وكان أخوه العزيز كتب إلى صاحبها الأموى – ولعله المستنصر بن عبد الرحمن الناصر – كتابا يسبّه فيه ويهجوه ، فكتب إليه : « أما بعد فإنك قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام » فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب [1] . ولعل ذلك ما جعل تميما يتصدى للأمويين ويفخر عليهم بمثل قوله :

إن قُرَيْشًا بِعُلا هاشمٍ تفخر فى عَقْوة عِرِّيسِها [2]
إن يك من ياقوتها هاشمٌ فعبد شمسٍ من ضَغابيسها [3]
اسْمُ إلى الصفوة من هاشمٍ أهل معاليها وتَقْدِيسها
دَعْ عبدَ شمسٍ وأباطيلَها فقد بدا اللّٰهُ بِتَنْكيسِها
قبيلةٌ ما طهَّرَ اللهُ مَنْ شايعها من إثمِ تنجيسها

فهاشم جد الرسول والعلويين فخر قريش فى ساحة غِيلها الملتف ، وهو وبنوه ياقوت قريش ومعدنها النفيس أما بنو أمية فحجارة صلده ، وللهاشميين بفضل الرسول علاهم وقدسيتهم ، أما عبد شمس وبنوه فأصحاب أباطيل مزورة ، وقد هدم الله دولتهم فى المشرق ، وإنها لقبيلة آثمة إثما فظيعا ، وإنها لتصم كل من شايعها وصمة شنيعة . ويستمر فيذكر سفكهم لدم الحسين وسبيهم لمن كن معه من النساء ، مسجلا بذلك عارا عليهم لا يماثله عار .

---

(١) ابن خلكان ٣٧٢/٥

(٢) عقوة : ساحة . عريس : غيل الأسد .

(٣) الضغابيس : جمع ضغبوس : الضعيف اللئيم .

طلائع [1] بن رُزِّيك

أرمنى الأصل قَدم إلى زيارة مشهد الإمام على بن أبى طالب بالنجف ، وكان لايزال شابا واعتنق مذهب الشيعة الإمامية ، وتعرَّف فى أثناء زيارته له على شخص يسمى ابن معصوم يبدو أنه كان من دعاة الفاطميين ، فحبَّب إليه زيارة القاهرة والانتظام فى خدمة القوم ، ولقيتْ دعوة الرجل من نفسه قبولا حسنا ، فسار إلى مصر ، وترقى فى خدمة الفاطميين حتى ولَّوه حاكما لمنية الخصيب بالصعيد (المنيا الآن) وحدث أن تآمر عباس الصنهاجى وزير الخليفة الظافر مع ابنه نصر على قتل الخليفة سنة ٥٤٩ وتمت المؤامرة ، فاستغاث بيت الفاطميين بطلائع ضد عباس ، فأقبل يريد محاربته حتى إذا قَرب من القاهرة فر عباس بما نهب من أموال القصر الفاطمى إلى الشام ، وقتله الصليبيون فى الطريق . ودخل طلائع القاهرة فخُلعت عليه الخلع الخاصة بالوزارة ونُعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين . وكان قد ولى الخلافة الفاطمية ابن للظافر تلقب بالفائز (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وكان صبيا لا يعدو خمس سنوات ، فدبَّر الدولة طلائع وأحسن تدبيرها ، حتى إذا توفى الفائز بعد نحو ست سنوات اختار للخلافة بعده طفلا لم يبلغ الحلم من الأسرة هو عبد الله بن محمد الملقب بالعاضد ، وزوَّجه ابنته ، وأصبح صاحب الأمر كله فى الدولة . وأخطأ إذ قطع رواتب الخاصة ، فلم يدر عام فى خلافة العاضد حتى دُبِّرت له مؤامرة لقتله ، فقتل سنة ٥٥٦ ويقال إن العاضد نفسه هو الذى أعمل الحيلة فى قتله لاستبداده بالأمر من دونه ، وخاصة أنه كان شيعيًّا لا على مذهب الفاطميين الإسماعيلى ولكن على مذهب الإمامية . ويقول المقريزى : « كان رجل وقته فضلا وعقلا وسياسة وتدبيرا » . ولم يكن يستر عقيدته الإمامية بل كان يعلنها ويجادل فيها الفقهاء الإسماعيليين ، وصنف فى ذلك كتابا سماه « الاعتماد فى الرد على أهل العناد » ويقول المقريزى إنه جمع له الفقهاء وناظرهم عليه . وكان يجادل أيضًا بقوة عن مذهب المعتزلة فى القدر وأن الإنسان حر الإرادة لا مجبر كما يقول القدرية ، وله فى ذلك قصيدة سماها : « الجوهرية فى الرد على القدرية » ومن قوله فى الرد عليهم :

---

(١) انظر فى طلائع وترجمته وأشعاره الخريدة ١/١٧٣ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢١٧ وابن خلكان ٢/٥٢٦ والجزء الخامس من النجوم الزاهرة فى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وخطط المقريزى ٣/١٩٢ وبنَى عمارة اليمنى كتابه النكت العصرية عليه وعلى حياته وأمجاده ومدائحه ومدائح غيره فيه ، ونشر محمد هادى الأمينى ديوانه فى النجف ، وأودع فى مقدمته ثبتا مفصلا بمصادر ترجمته .

يا أمة سلكتْ ضلالا بَيِّنًا حتى استوى إقرارُها وجُحودُها
مِلْتُمْ إلى أنَّ المعاصى لم يكن إلا بتقدير الإله وُجُودها
لو صحَّ ذا كان الإله بزعمكم منعَ الشريعةَ أن تُقامَ حُدودُها

وقد فتح أبوابه للشعراء ، وكثير منهم كانوا يختلفون إلى مجلسه فى منزله وخاصة الجليس بن الحبَاب والمهذب بن الزبير وابن قادوس ، وأصبحت القاهرة لعهده كعبة للقصاد من شعراء البلاد العربية أمثال ابن الدهان الموصلى وعمارة اليمنى ، ولكل هؤلاء الشعراء فيه قصائد طنانة ، وفيه يقول العماد : « نفق فى زمانه النظم والنثر واسترقَّ بإحسانه الحمد والشكر وقرَّب الفضلاء ، واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الدانى والقاصى بالعطاء » . وقد أدار العماد كثيرا من تراجمه فى القسم المصرى من كتابه الخريدة عليه وعلى مدائحه . وألف فى أيامه الرشيد بن الزبير كتابهِ « جنان الجَنان ورياض الأذهان » فى معاصريه من الشعراء ومادحيه وافتتحه بترجمته ، كما ألف شاعره الجليس بن الحباب كتابا قصره على مدائح الشعراء فيه .

وقد حقق محمد هادى الأمينى ديوانه ونشره بالنجف فى نحو مائة وخمس وعشرين صحيفة ، ويقول ابن خلكان إنه رأى ديوانه وإنه كان يقع فى جزءين ، وكأن ديوانه المنشور إنما هو مقتطفات من ديوانه الأصلى ، واتهمه بعض معاصريه بأن كثيرا من أشعاره ليس له وإنما هو من صنع شاعريه : الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير ، ويبدو أنها تهمة غير صحيحة ، وأنه ربما كان يرجع إليهما لتصحيح بعض أشعاره إن صح ما قيل من أنهما كانا يصلحان له شعره . وأكثر الديوان المنشور فى مديح آل البيت ورثائهم ورثاء الحسين خاصة ، ولعل هذا هو سبب النغم الحزين الكثير فى شعره ، إذ الشيعة دائما محزونون منذ مقتل الحسين وقد اتخذوا يوما يندبونه فيه هو يوم عاشوراء ، وجعلوا شعارهم السواد ، وهو سواد يطبع كثيرا من أشعار طلائع بالتشاؤم والتفكير الكثير فى الموت ، حتى فى يومه البهيج يوم جلوسه فى الوزارة إذ نرى الدنيا تتحول بهجتها أمام عينيه حزنا وشؤما وموتا ، وإذا هو ينشد حين تربعه فى دَسْت الوزارة :

انظرْ إلى ذى الدارِ كم قد حلَّ ساحتَها وزيرُ
ولكم تبختَر آمنًا وَسْطَ الصفوفِ بها أمير
ذهبوا فلا والله ما بقىَ الصغيرُ ولا الكبيرُ
ولمثلِ ما صاروا إليه من الفناء غَدًا نصيرُ

وكان طلائع شجاعا بل مثالا عاليا من الشجاعة والبطولة ، فمضى يعدُّ الجيش المصرى لحرب الصليبيين ونازلهم مرارا برًّا وبحرا ، وظل ينازلهم ويقاتلهم طوال أيامه ، حتى لقبه معاصروه بأبى الغارات ، فقد كان جيشه لاينى آيبا ذاهبا إلى مواقعة الصليبيين وسحق جموعهم فى جنوبى فلسطين ودقّ أعناقهم وسفك دمائهم فى حزونها وسهولها وعلى سفوح جبالها ، وله فى تصوير ذلك قصائد كثيرة من مثل قوله :

تواليتْ علينا فى الكتائب والكتبِ ... بشائرُ من شرْق البلاد ومن غَرْبِ
جعلنا جبالَ القدْس فيها وقد جرتْ ... عليها عتاقُ الخيل كالتَّنْفُفِ السُّهْبِ[1]
وقد أصبحتْ أوعارُها وحُزونها ... سهولاً تُوَطَّا للفوارسِ والرَّكْب
ولما غدتْ لا ماءَ فى جَنَباتها ... صَبَبْنا عليها وابلاً من دمٍ سَكْبِ[2]

وهو فرح مبتهج بنصر جيشه على حمَلة الصليب وما أذاقهم من التقتيل ونثْر دمائهم على جنبات فلسطين حتى سالت هناك أنهارا . وكثيرا ما كان يرسل ببشائر انتصاراته على الصليبيين إلى صديقه أسامة بن منقذ الشَّيْزَرِىّ وكان قد زار مصر وأقام فيها مدة أيام عباس الصهاجى وانعقدت بينه وبين طلائع صداقة فكان يخبره بانتصاراته حتى يستثير نور الدين صاحب حلب لتضييق الخناق على حمَلة الصليب ، وكانت فرحته بالغة حين انتصر الجيش المصرى بقيادة ضرغام عليهم فى سنة ٥٥٣ نصرا عظيما ، وصور ذلك لأسامة فى ميمية استهلها بقوله :

ألا هكذا فى اللهِ تمضى العزائمُ ... وتمضى لدى الحرب السيوفُ الصَّوارمُ[3]
وتُغْزَى جيوشُ الكفر فى عُقْر دارِها ... ويُوطَا حِماها والأنوفُ رَوَاغِمُ[4]
خيولٌ إذا مافارقتْ مصرَ تبتغى ... عِدًا فلها النَّصْرُ المبينُ ملازم
يسير بها ضِرْغامُ فى كلِّ مأزقٍ ... وما يصحب الضِّرْغامَ إلا الضراغِمُ[5]
فقولوا لنور الدينِ لا فُلَّ حَدُّهُ ... ولا حكمتْ فيه الليالى الغَواشمُ[6]
تجهَّزْ إلى أرض العدوِّ ولا تَهِنْ ... وتُظهرْ فتورا أنْ مضتْ منك حازِمُ

(١) عتاق الخيل : كرامها . التنفف : الفلاة . السهب : المستوى .
(٢) وابلا : مطرا شديدا . السكب : الهاطل السائل .
(٣) الصوارم : جمع صارم وهو السيف القاطع .
(٤) عقر : وسط .
(٥) الضراغم : جمع ضرغام وهو الأسد .
(٦) الغواشم : الشديدة الظلم .

وهو يشيد بجيش مصر الباسل وانتصاره المدمر للصليبيين : انتصار أسده الهادرة ، ويدعو أسامة إلى إبلاغ نور الدين هذا الانتصار ، وكان حملة الصليب قد استولوا منه على حصن حارم تجاه أنطاكية وعقدوا معه هدنة ، ويدعوه إلى نقض ما أبرم معهم والاستعداد لحربهم حتى يضيِّق عليهم فى الأطراف الشمالية كما يضيق الجيش المصرى فى الأطراف الجنوبية .

وكان الأسطول المصرى لايزال يجوب سواحل الشام ويفتك بسفن الصليبيين وأغار على عكا وثغر بالقرب من حمص يسمى أَنْطَرطوس ونكَّل فى الثغرين بحملة الصليب وسفنهم فكتب طلائع إلى أسامة قصيدة يسأله فيها أن يبشر الملك العادل نور الدين بذلك ويستنهضه لفتح القدس يقول :

إن بعض الأسطول نال من الإفْـ ـرنْجِ مالا ينالـه التأميلُ
فحَوى من عكّا وأَنْطَرطوسٍ عِدَّةً لم يُحِطْ بها التحصيلُ
أَبْلِغَنْ قولنا إلى الملك العا دل فَهْو المرجوُّ والمأمول
قُلْ له كم تُماطل الدِّين فى الكفـ ـارِ فاحْذَرْ أن يغضبَ المطولُ
سِرْ إلى القُدْسِ واحتَسِبْ ذاك فى اللـ ـهِ فبالسَّيْر منك يُشْفَى الغليل

وواضح أن جيوش مصر وأساطيلها لعهد طلائع كانت ماتزال تغدو وتروح إلى حملة الصليب منزلة بهم الهزائم تلو الهزائم . ودائما يستحث طلائع فى حماسيّاته إلى أسامة صاحب نور الدين أن يزحف إلى حملة الصليب شمالا ، بينما يزحف هو إليهم جنوبا ، حتى يقعوا بين شقى الرحا فتدور عليهم الدوائر . ولعل فى ذلك ما يشير بوضوح إلى أن مصر لم تقصر فى واجبها إزاء حملة الصليب لعهد طلائع ، وكانت تُعَدُّ حتى أيامه مقصرة فى القيام بهذا الواجب ، قصَّرتْ أيام الأفضل بن بدر الجمالى ومن جاء فى إثره من الوزراء ، فلما ألقيت مقاليد الأمور إلى طلائع وضع نصب عينيه أن تنهض بواجبها ، فجهَّز الجيوش والأساطيل وأمدَّها بالرجال والعتاد . ودائما يهيب فى كثير من حماسياته بنور الدين أن يهجم عليهم شمالا بينما يهجم هو عليهم جنوبا ، حتى يمزِّقوا كل ممزَّق ، غير أن يدا آثمة امتدت إليه ، فحالت دون أمانيه فى الانتصار الحاسم على حملة الصليب إذ قضت عليه ، ورثاه عمارة وغيره من الشعراء مراثى حارة .

ابن (١) الذِّرْوىّ

هو الوجيه على بن يحيى الذِّرْوِىّ أصله أو أصل آبائه من ذروة بلدة باليمن ، وفى ترجماته ما يدل على أنه نشأ بمصر إن لم يكن ولد بها ، وهو من شعراء الدولتين الفاطمية والأيوبية ، ويقول ابن سعيد : إنه رأى ديوانه وقرأ فيه مدائح فى الخليفة العاضد فى صباه وأخرى فى صلاح الدين وأخيه العادل والقاضى الفاضل وابن شكر وزير العادل . ويذكر بعض المعاصرين أنه توفى سنة ٥٧٧ وقد ذكره العماد فى الخريدة التى ألفها فى أوائل العقد الثامن من القرن السادس ، فقال إنه شاب نشأ فى هذا الزمان ، وفى كلام ابن سعيد المار أنه مدح الخليفة الفاطمى العاضد فى صباه ، وذكر أنه مدح ابن شكر وزير العادل منذ سنة ٥٩٥ ولم يذكر السيوطى فى حسن المحاضرة تاريخ وفاته ، غير أنه ذكره بعد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ وكل ذلك يؤكد أنه لحق القرن السابع وعاش فيه فترة من الزمن .

وكان ابن الذروى شاعرا مجيدا نوَّه به معاصروه فى المديح ، وأنشد له ابن شاكر فى الفوات مقطعات غزلية بديعة ، ويبدو أن ابن سعيد لم يكن يعجب به ، إذ قال إنه اطلع على ديوانه فوجده دون ما كان يظن ، ومن غزلياته قوله :

يابانُ إن كان سُكَّان الحِمَى بانوا ... فَفَيْضُ شأْنِى له فى إثْرهم شانُ
مَنْ لى بأقمارِ أُنسٍ فى دُجَى طُرَرٍ ... أفلاكُها العِيسُ والأبراجُ أظعانُ (٢)
مِنْ كل قانية الخدَّين ناهدةٍ ... لو كان للضمِّ أو للَّثْم إمكانُ

وفى البيت الأول توريتان فكلمة بان الأولى نوع من الشجر طالما ذكره المحبون ، وبانوا بعدها بمعنى بعدوا ، ولفظ شأن الأول : واحد الشئون وهى مجارى الدمع و « شان » فى آخر البيت بمعنى خبر . والصورة فى البيت الثانى تامة وبديعة ، فهو يتمنى لو يلقى أقمارا مضيئة فى ليال شديدة من الطرر ، ويقول إنهن ركبن العيس فكأنما تحولت بهن أفلاكا وتحولت الأظعان أبراجا . ولعل

---

(١) انظر فى ابن الذروى وترجمته وأشعاره الخريدة ١/١٨٧ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٣٣٣ و ٣٤١ والفوات ٢/١٨٨ وحسن المحاضرة ١/٥٦٥ و ٢/٤١٦ والروضتين ٢/٢٧ وفى مواضع متفرقة والخزانة ص ١٢٣ وابن خلكان فى مواضع من تراجمه (انظر الفهرس) .

(٢) الطرر : جمع طرة وهى مقدمات شعر المرأة الذى تصففه على جبهتها . العيس : الإبل .

موهبته الشعرية لم تبرز فى فن كما برزت فى فن الهجاء ، وقد اشتهرت له قصيدة فيه نظمها فى شاعر معاصر له أحدب هو ابن أبى حُصَيْنة وفيها يقول :

لا تَظُنَّنَّ حَدْبَةَ الظَّهْرِ عَيْبًا فَهْىَ للحسن من صفات الهلالِ
وكذاك القِسِىُّ مُحْدَوْدِباتٌ وهْىَ أَنْكى من الظُّبا والعوالى[1]
وإذا ما علا السَّنامُ ففيهِ لقُروم الجِمال أىُّ جَمَالِ[2]
وأرى الإنْحناء فى مَنْسِرِ الكا سرِ يُلْفَى ومِخْلب الرِّئْبالِ[3]
قد تحلَّيتَ بانحناءٍ فأنت الـ ـرَّاكع المستمرُّ فى كل حالِ
وتَعجَّلْتَ حمْلَ وِزْرِك فى الظَّهْـ ـرِ فأمنًا فى موقفِ الأهوالِ
كوَّن اللهُ حَدْبَةً فيك إن شئـ ـتَ من الفضل أو من الإفضالِ
فأتَتْ ربوةً على طَوْدِ حِلْمٍ منك أو موجةً ببحر نوالِ
ما رأتْها النساءُ إلا تمنَّتْ لو غَدَتْ حِلْيَةً لكلِّ الرِّجال
وإذا لم يكنْ من الهجر بُدٌّ فعسَى أن تزورنى فى الخيالِ

وهو هجاء مؤلم أشد الإيلام ، إذ يعرض فيه حدبة ابن أبى حصينة على أنها ميسم جمال وصفة من صفات الحسن فى الهلال ، ويأخذ فى بيان حسنها وفضائلها ، فالقسى أشد فتكا من أسنة السيوف والرماح ، وهى مصدر جمال كالسنام لِلجمال ، وما كان الانحناء عيبا فى منقار النسور ومخلب الأسد الهصور . ويتصوره راكعا مدى حياته ، ويعود فينفى عنه تقواه وصلاته ، ويقول إن حدبته وزر كبير مجسَّد تعجل حمله فى دنياه . ويعود إلى السخرية والتهكم فيقول إنها ربوة تعلو طود حلمه أو موجة تعلو مياهه ، ويبلغ من السخرية به مبلغًا بعيدًا حين يزعم له أن النساء تعدها حلية وتتمنى لو تحلَّى بها كل الرجال . ويتمادى فى سخريته ، فيقول إنه مفتون برؤية جماله ، ولكنه هاجر له أبدا فيتمنى لو رآه . خيالا فى منامه وأحلامه . ويخز فقيها متأدبا وخز الإبر فيقول فيه :

هو فى الفقه ماهرٌ لا يُبَارَى وأديبٌ فى جُمْلة الشعراءِ
لا إلى هؤلاء — إن طلبوه — وجـــدوه ولا إلى هؤلاءِ

---

(١) الظبا : جمع ظبه وهى حد السيف . والعوالى : الرماح .

(٢) قروم الجمال : عظامها

(٣) منسر الكاسر : منقار الطير الجارح . الرئبال : الأسد .

فهو يدعى الفقه وإذا طلبه الناس بين الفقهاء لم يجدوه وهو يدعى الأدب وإن طلبه الناس بين الأدباء افتقدوه ، وهو يشير إلى الآية الكريمة فى سورة النساء : (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) . وكان يعاصره فى شبابه شاعر يسمى هبة الله بن وزير دخل معه حماما فقال ابن وزير :

لله يومٌ بحمَّامٍ نعمتُ بهِ ... والماءُ ما بيننا من حَوْضِه جارى
كأنه فوق شَفَّافِ الرُّخَام ضُحًى ... ماءٌ يسيل على أثواب قَصَّارِ

والقصَّار : مبيض الثياب وغاسلها ، وكأن الشاعر غفل ، فشبه الماء بالماء . وانتهز الصديق ابن الذروى الفرصة ، فقال على البديهة :

وشاعرٍ أوقد الطبعُ الذكاءَ له ... فكاد يَحْرقه من فَرْط إذكاءِ
أقام يُجْهِد أياما قريحَتَهُ ... وشبَّه الماءَ بعد الجُهْد بالماء

وشاع الشطر الأخير على ألسنة المصريين إلى اليوم لكل من يصيبه مثل هذا العى فى الكلام عمدا أو غفلة . وكأن أحدا لم يكن يسلم من لسان ابن الذروى حتّى الأصدقاء ، بل أيضا حتى الطبيعة ، إذ نجده يهجو النَّيْلوفر ، وهو ما يسمى فى الريف المصرى باسم البشنين وهو زهر متفاوت الزرقة والحمرة بديع المنظر ، ولم يشفع له حسنه عند ابن الذِّرْوى فعمد إلى هجائه بقوله :

ونَيْلَوْفرٍ أَبْدَى لنا باطنًا له ... مع الظاهر المخضرِّ حُمْرَةَ عَنْدَمِ(١)
فشبَّهْتُه لما قصدتُ هجاءَه ... بكاسات حجَّامٍ بها لَوْثَةُ الدَّم(٢)

وكأنه يريد أن يقول إنه يستطيع أن يقبِّح كل حسن مهما يكن حسنه حتى زهر النيلوفر الذى طالما تغنى به الشعراء المصريون من قبله ومن حوله ، وقد تغنوا به طويلا من بعده .

---

(١) العندم : خشب أحمر يتخذ للصباغة .

(٢) الحجام : محترف أخذ الدم بالمحجم .

أحمد[١] بن عبد الدائم

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشَّرْمْساحى نسبة إلى شَرِمْساح : بلدة قريبة من المنصورة فى شمالى الدلتا ، ولد فى أوائل زَمن المماليك سنة ٦٦٣ وأقبل مثل لداته على الدراسات الدينية واللغوية ، وأكبَّ على الشعر حتى مهر فيه غير أنه لم يتجه به إلى زهد وتصوف ولا إلى غزل ومديح ، وإنما اتجه به إلى الهجاء يسلق الناس بلسانه ويخافون شره فيبادرون إلى إعطائه بعض النوال . ولم يقف بهجائه عند أهل مصر فقد كان يرحل إلى دمشق ويتخذ هناك نفس الوسيلة ، ويقال إنه دخل على قاضيها شهاب الدين الخُوَيِّى وقدم إليه قصيدة هجو فردَّها إليه وقال له : كأنك ذاهل ، فقال له : لست بذاهل ، بل صنعت ذلك عمدا لأشتهر فإنك إذا أدبتنى قال الناس : ما هذا ؟ فيجيبهم المؤدبون : هذا غريم القاضى ، فأشتهر ، فوصله وعفا عنه . وكان لا يقف فى الهجاء عند حد ، إذ كان يستخدمه كما رأينا فى هجو القضاة كذبا وبهتانا ، وبالمثل كان يستخدمه فى هجو علماء الدين غير متورع ، من ذلك أن المظفر بيبرس الجاشنكير كان يقرِّب منه فى سلطنته بعد خلع الناصر بن قلاون لنفسه سنة ٧٠٨ كلا من الفقيه ابن عَدْلان وزميله الفقيه ابن المرحِّل الدمياطى ، حتى إذا دار العام عزل نفسه وعاد الناصر بن قلاوون ، ولم يُضع ابن عبد الدائم الفرصة ، فقد مدح الناصر بقصيدة يهنئه فيها بعودته إلى عرشه ويهجو المظفر بيبرس ويعرِّض بصحبته لشمس الدين محمد بن عدلان وصدر الدين محمد بن زين الدين الملقب بابن المرحِّل وبابن الوكيل ، ومن قوله فيها :

وَلَّى المظفَّرُ لما فاتَه الظَّفَرُ ... وناصرُ الحق وافَى وهْو مُنْتَصِرُ
فقُلْ لِبيبَرْسَ إن الدهر ألبسَهُ ... أثوابَ عاريةٍ فى طولها قِصَرُ
لما تولَّى تولَّى الخيرُ عن أممٍ ... لم يحمدوا أمرهم فيها ولا شكروا[٢]
وكيف تمشى بِه الأحوالُ فى زمنٍ ... لا النِّيلُ وافى ولا وافاهُمُ مطَرُ
ومَنْ يقوم ابنُ عَدْلانٍ بِنُصْرَتِهِ ... وابن المرحِّل قُلْ لى كيف ينتصر؟

---

(١) انظر فى أحمد بن عبد الدائم وترجمته وأشعاره الفوات ٨٦/١ والدرر الكامنة لابن حجر ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٩/٩ ، ٢٤٩ .

(٢) تولى الأولى بمعنى تقلد الحكم . وتولى الثانية بمعنى أدبر وأعرض .

وكان قد تصادف أن المطر لم يسقط فى سنة ٧٠٩ بأرض مصر وقصَّر النيل فى فيضانه أجدبت بعض البلاد وارتفع السعر . وعفا الناصر عن الشيخين فى انضمامهما ضده إلى بيبرس الجاشنكير ، وكان ابن عدلان يتولى نيابة الحكم فأعفاه منها ، ومرَّ به ابن عبد الدائم فأنشده :

والله ماسرَّنى عزلُ ابن عَدْلانِ

فقال له : جزيت خيرا . فأكملَ البيت قائلا :

من غير صَفْعٍ ولا والله أرضانى

وشاعت القصيدة . وكان آخر شيخ رماه بسهام هجائه قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة وكان يشرف على الأوقاف ، وكأنه أراد أن يبتزَّه ، وكانت فيه صرامة فازدراه فانتقم لنفسه بهجائه وهجاء ابنه سنة ٧١٣ وكان فقيها وَرِعًا مثل أبيه ، وتمضى القصيدة على هذا النمط .

متى يسمعُ السلطانُ شكوى المدارسِ وأوقافُها ما بين عافٍ ودارسِ[1]
يموت عديمُ القوتِ بالجوع حسرةً ويَشْبعُ بالأوقاف أهلُ الطَّيالسِ[2]

وأخذ يتهم القاضى وابنه بعظائم هما منها براء ، وكلها كذب وبهتان وافتراء ، وكاد القاضى ينزل به عقابا صارما لولا أن تدخل بعض الأمراء واستعفاه فعفا عنه . وازدراه الناس بعد هذه الحادثة ازدراء شديدًا ، وساءت حالته ، فإن لحوم العلماء مسمومة . وأخذ يتنقل فى البلاد لا يتحرى طريق الرشاد إلى أن عاجلته منيته حوالى سنة ٧٢٠ وكأنما كان غمة زالت عن صدور الناس والشيوخ فى زمنه .

حسن[3] البدرى الحجازى الأزهرى

يقول الجبرتى فى ترجمته : «كان عالما فصيحا مفوها متكلما منتقدا على أهل عصره وأبناء مصره» ويقول كان أبوه ملازما لقراءة كتاب الصحاح الستة : صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن ابن ماجة وسنن أبى داود وسنن النَّسائى وجامع الترمذى.وقد تفتحت موهبة الابن فى سن

---

(١) عاف ودارس : ممحو زائل .

(٢) الطيالس : جمع طيلسان وهو كساء كان خاصا بعلماء الدين تمييزا لهم .

(٣) انظر فى حسن البدرى الحجازى الأزهرى تاريخ الجبرتى ١/٧٥ وما بعدها .

مبكرة وعُنى بنظم كثير من المتون العلمية مثل رسالة الوضع للعلامة العضد ، والدرة السنيّة فى الأشكال المنطقية ورموز الجامع الصغير ، وكانت وفاته سنة ١١٣١ للهجرة . وكان قد أصبح شاعرًا كبيرًا ويصف الجبرتى شعره فيقول : له فى الشعر طريقة بديعة وسليقة منيعة ، على غيره رفيعة ، وقلما تجد فى نظمه حشوًا أو تكملة ، وله أرجوزة فى التصوف فى نحو ١٥٠٠ بيت على طريقة الصادح والباغم ضمنها أمثالا ونوادر وحكايات ، وديوانه على حروف المعجم سماه باسمين : « تنبيه الأفكار للنافع الضار وإجماع الإياس من الوثوق بالناس شرح فيه حقيقة شرار الخليقة من الناس ، المنحرفة طباعهم عن طريقة قويم القياس » . وواضح من تسميته لديوانه أن شعره أو جمهوره على الأقل لم يكن مديحا وهجاء وغزلا وعتابا وما إلى ذلك من موضوعات الشعر المعروفة إنما كان نقدا للمجتمع ، وهو نقد يشوبه كثير من الذم لسلوك الناس حتى ليدعو إلى اعتزالهم لما يتصفون به من الطمع والجشع والأنانية ، والعاقل من اجتنبهم وفرَّ منهم فرار السليم من الأجرب لا من الأباعد فحسب بل أيضا من الأقارب ، يقول :

أخى فَطِنًا كُنْ واحذر الناسَ جملةً ... ولا تَكُ مغرورَ الظنونِ الكواذبِ
ولا سيَّما نوعُ الأقارب إنهم ... عقابُك فى الدنيا وعُقْرُ العقارب[1]

ويستمر فى هجو الأقارب وأنهم يتمنون الموت لك ، إن كنت ثريا ليرثوك ، وإن كنت فقيرا كنت لديهم خسيسا أخس من الكلاب . وهو على هذا النحو سيئ الظن بالناس حتى بالأقرباء من ذوى الرحم ، وكاد لا يسلم من سياط ذمه وهجائه أحد حتى المتصوفة ، يقول فيهم من قصيدة طويلة :

احذَرْ أولى التَّسْبيح والسُّبْحَةِ ... والصُّوف والعُكَّاز والشَّمْلَةِ[2]
قد صار إبليس لَهم تابعًا ... يقول يا لَلْعَوْن والنَّجْدَةِ
مما حَوَيْتم علِّمونى فما ... لى عنكمُ فى المكر من غُنْيَةِ
لكم قيادى وانقيادى وما ... مثلكُمُ فى النادِ والنَّدْوَةَ[3]
وأنتمُ تاجى على هامتى ... ماهِمْت إلا كنتمُ هِمَّتى[4]

---

(١) عقر : بيت أو منزل .

(٢) الشملة : شال كالطيلسان يتلفع به على المنكبين والصدر .

(٣) الناد : النادى حذفت الياء لضرورة الشعر .

(٤) همت : من هام يهيم إذا خرج على وجهه لايدرى أين يتوجه .

وهو طبعا يقصد نفرا من المتصوفة حادوا عن طريق التصوف وانحرفوا عن واجباته ومسئولياته ، وتورطوا – كما يقول فى القصيدة – فى بعض الآثام ، وكان يؤذيه منهم من يدعون الجنون وتظنهم العامّة أقطابا وأولياء ، حتى إذا ماتوا شادوا لهم أضرحة وجعلوها مَزارا ، يقول :

ليتنا لم نَعِشْ إلى أن رأينا كلَّ ذى جِنَّةٍ لدى الناس قُطْبا
عَلَمًا هم به يلوذون بل قد تَخِذوه من دون ذى العَرْش رَبَّا
إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يُفْرِجُ كَرْبَا
وإذا مات يجعلوه مَزارا وله يُهْرَعون عُجْمًا وَعُرْبَا

وكأننا بإزاء داعٍ مصرى يدعو ضد الصوفية ومن كانت تسميهم العامة بالمجذوبين وتقيم لهم الأضرحة والمزارات وتطلب منهم الدعاء أحياء وتقدم لهم النذور أمواتا . ومع كثرة أشعاره فى هذا الجانب لم تترك وراءها فى مصر أثرًا . على أننا نجده يوجه ذمه وهجاءه – ظلما وعدوانا – لبعض رجال الدين كما وجهه إلى المتصوفة ، وهو فى ذلك كله يسرف فى هجائه وذمه ، فلا رجال الدين انصرفوا عن التقوى ولا المصريون اتخذوا أقطاب الصوفية أربابا .

٣

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

عاش شعراء مصر على ضفاف النيل وفى وديانه ورياضه ، ينعمون بمياهه المتدفقة العذبة وبما ينشئ من غروس وزروع وثمار وأزهار ، وهو يجرى نافثًا لُعابه من حوض إلى حوض ، باثًّا الحياة والجمال فى كل ما يمسه ، مما جعل العرب يلقبون مصر حين فتحوها بأنها فردوس الدنيا . وقد وصفها القرآن الكريم بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم . وفى كل مكان نعم الشعراء بهذه الجنات يسرِّحون الطرف فيها والخيال ، فتتكون لديهم حاسة الجمال ، ويتعمقهم الشعور بما خصّ الله ديارهم من هذا النعيم الذى يقصر أى وصف عن تصويره . وطبيعى أن يتردد ذكر النيل على ألسنة الشعراء وذكر مشاهد رياضه الفاتنة وقواربه وسفنه الشراعية . ويحدثنا ابن قيس الرقيات حين زار مصر لعهد واليها عبد العزيز بن مروان فى العصر الأموى عن رحلة نيلية له من الفسطاط إلى حلوان . وغُنى شعراء مصر بعده بوصف مثل هذه الرحلة ووصف النيل وزوارقه وسفنه ، غير أن الشعر المصرى فى عصر الولاة لم يبق منه القليل وإلا بقية تتصل بالأحداث والولاة والقضاة

احتفظ بها الكندى . وتبدو العناية بتدوين أشعار الشعراء منذ عهد الدولة الطولونية ، ونجد المريمى القاسم بن يحيى شاعر خمارويه يخص النيل بقصيدة بديعة يصور فيها مراكبه بمثل قوله[١]

ومَطايا لا يَغْتَدين ولا يَسْـ ـأَمْنَ كدَّ البُكور بعد الرَّواحِ[٢]
أصْلُها البرُّ وَهْىَ ساكنةٌ فى الـ ـبَحْر سُكْنى إقامةٍ لا براحِ
وإذا أُوقِرَتْ فذَاتُ وقارٍ وإذا أُخْلِيَتْ فذاتُ مِراحِ[٣]
جارياتٌ مع الرياح وطورًا كاسراتٌ بالجَرْى جِدَّ الرِّياح
سارياتٌ لايشتكين سُرَى اللَّيْـ ـل ولا يرتقبن ضوءَ الصباح
لايَخَفْنَ الغِمارَ يُقْذَفْنَ فيها ويَخَفْنَ المرورَ بالضَّحْضَاحِ[٤]

ويطنب فى تصوير المراكب ، فهى فى الماء وهى خالية تماما من الماء ، وهى ذات أجنحة بيضاء وإن لم يكن لها جناح حقيقى ، وهى من البيض ويطلى شطرها الأسفل بالقار ، فهى بيضاء سوداء من ذوات الألواح لا الأرواح ، وتقِرّ على الشاطئ فتسكن دون ذلة فى السكون ، وتسير على صفحة النيل وتجدّ فى سيرها دون اعتزام جماح ، وكأنها على الماء قصور متحركة ، وتنساب فى النيل خفيفة خفة الأفاعى ، وتتجمع أحيانا فتظنها كباشا سودا تقابلت للنطاح . ومع ضؤولة ملاَّحها يُحْسن تدبير جريها مع الرياح مكافحا فى ذلك أشد الكفاح ، وله مساعدون يكثرون من الصياح حتى كأن السفن تجرى خوفا من صياحهم . وهو تصوير بديع للسفن السابحة فى النيل من شاطئ إلى شاطئ ومن مكان إلى مكان . ويوجز تميم بن المعز القول فى وصف النيل وسفنه فيقول[٥] :

يومٌ لنا بالنيل مُخْتَصَرُ ولكل يومِ مسرَّةٍ قِصَرُ
والسُّفْنُ تَجْرى كالخيول بنا صُعُدًا وجَيْشُ الماء مُنْحَدِرُ
فكأنما أمواجُه عُكَنٌ وكأنما داراتُه سُرَرُ[٦]

---

(١) انظر مقالا عن المريمى لهلال ناجى بمجلة الكتاب العراقية فى العدد الثامن من السنة الثامنة

(٢) الرواح : الرجوع فى العشى .

(٣) أوقرت : حملت حملا ثقيلا . المراح : المرح والنشاط .

(٤) الغمار : جمع غمر وهو الماء الكثير العميق . الضحضاح : الماء القليل لاعمق فيه .

(٥) ديوان تميم ص ٢٤١ .

(٦) العكن : جمع عكنة وهى ماتثنى من ظاهر البطن وطياتها .

والصورة الأخيرة للنيل بديعة ، فكأن أمواجه عُكَن أو تثنِّيات أمامية لأجساد عارية وكأنما فَوَّاراته أو داراته فى فيضانه السُّرَر أو النقر الصغيرة أو النُّكت فى بطون من كن يهدين إلى النيل من عرائسه . ولتميم أشعار كثيرة فى وصف الحدائق والأزهار والثمار . ومن أوصافه الطريفة قوله فى الناعورة[1] :

تـئـنّ ولـيـستْ بمحـزونـةٍ ... أنينَ المحبِّ الكئيبِ الحزينِ
فتنطقُ بالصوتِ لا من فَمٍ ... وتقذف بالدمع لا من جُفونِ
كأن لها مَيّتًا فى الثَّرَى ... فأدمعُها هُمَّعٌ كلَّ حين[2]
إذا زمرتْ أطربتْ نفسها ... فغنَّت بمختلِفاتِ اللحونِ
غـنـاءٌ يـرقِّص كـيـزانَـهـا ... ويُظْهِر فيهن وثبَ المجونِ
فتهْوِى فوارغَ فى بِئْرِها ... وتَصْعَدُ منها مِلاءَ العيونِ

والناعورة تئن أنين المحب اليائس الحزين وتشكو لا بفم وتبكى لا من عين ، وتلحِّن مختلف اللحون وكيزانها ترقص هاوية فارغة وصاعدة ممتلئة ، لا تلتقى أبدا . ولظافر الحداد أشعار كثيرة فى الرياض والثمار والأزهار ، ومن قوله فى النخل وبُسْره أو بلحه[3] :

النَّخْلُ كالهِيف الحسان تَزَيَّنَتْ ... فلَبِسْنَ من أثمارهنَّ قلائدا

وكأنها فى خياله فاتنات تتزين حول جيدها بعقود البسر الزمردية والياقوتية ، ويشبه طلعها الأخضر وهو لا يزال مغلقا على سنابل البلح البيضاء فى أول تكونها بسلاسل من فضة يضمها حق من خشب الصندل طيب الرائحة . أما حين يتفتح الطلع ويظهر بلحه الأخضر المتصل بسنابله الصفراء فكاحل من زبرجد رءوسها مسَّها الذهب . وأما الخوص الأخضر وتحته البلح الأحمر فزبرجد يثمر عقيقا » وكأنما الطبيعة جميعها من حول الشاعر جواهر نفيسة .

ويتغنى ظافر ببركة الحبش فى مصر القديمة وكانت تشرف عليها قصور تميم ، كما يتغنى بجزيرة الروضة التى يفترق النيل عندها أمام القاهرة وسرعان ما يجتمع ، ويجعلها منه هى وأختًا لها بجوارها بمنزلة السراويل ، ويعجب ابن قلاقس بغروب الشمس وراء النيل فيقول[4] :

---

(١) الديوان ص ٤٢٤ .
(٢) همع : سوائل .
(٣) حسن المحاضرة ٢/٤٣٥ .
(٤) الديوان ص ٧٥ .

انظرْ إلى الشمس فوق النيلِ غاربةً واعجبْ لما بعدها من حُمْرَةِ الشَّفَقِ
غابتْ وأبدت شعاعًا فيه يخلفها كأنما احترقتْ بالماء فى الغَرقِ
وللهلال فهل وافى ليُنْقِذَها فى إثرها زورقٌ قد صِيغَ من وَرِقِ[1]

وهى صورة خيالية بديعة ، فقد غابت الشمس بل احترقت فى النيل وخلَّفت فيه شعاعا ، كما خلفت على صفحة الأفق حمرة الشفق ، ويتسع به الخيال فيتصور الهلال زورقا من فضة جاء لإنقاذها من الغرق . ويموج بصدر البهاء زهير الحنين إلى مصر وهو مع الملك الصالح فى الديار الشرقية نواحى الفرات ، فيتشوق إلى النيل ورحلاته النيلية فيه ، وينشد[2] :

حبذا النيلُ والمراكبُ فيهِ مُصْعداتٍ بنا ومنحدراتِ
ولياليَّ بالجزيرة والجـ ـيزةِ فيما اشتهيتُ من لذَّاتى
بين روضٍ حكى ظهورَ الطواويـ ـسِ وجوٍّ حكى بطونَ البُزَاةِ[3]
حيث مَجْرى الخليج كالحيَّة الرَّقْـ ـطاء بين الرياض والجنَّات
هاتِ زدْنى من الحديث عن النِّيـ ـلِ ودَعْنى من دِجْلَةٍ والفُراتِ

إنه يذكر ذكرى عطرة رحلاته النيلية وامواج النيل تصعد بقاربه وغيره من القوارب وتنحدر ، وماتنى صاعدة منحدرة ، كما يذكر ذكرى عطرة مجالس أنسه فى الجيزة وجزيرة الروضة والطبيعة متبرجة بأزهارها وورودها من حوله وهى مختلفة الألوان البهيجة كأنها ألوان الطواويس فى جو صاف صفاء بطون البزاة الطائرة ، والنيل يجرى فى خلجانه وبين رياضه كأنه حيات تسعى ، حيات لا تنفث السم بل تنفث الحياة فى الوديان والسهول الخضراء الجميلة ، ويخفق قلب البهاء مرارا بهذا الحنين فى أشعاره . وتُظِلُّ مصرَ أيامُ المماليك ويَظَلُّ الشعراء يتغنون بالطبيعة المصرية ومفاتنها الرائعة من النيل وقواربه ونزهاته وأشجاره وأزهاره ، ولابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ وَصْفٌ لشجرة سَرْو باسقة قصَد موضعها مع بعض رفاقه ، وَوَصَفَ معها القارب المطلى بالقار الذى ركبوه ، يقول[4]

مالتْ على النَّهْر إذ جاشَ الخَريرُ بهِ كـأنها أُذُنٌ مـالتْ لإصْغاءِ

---

(١) ورق : فضة .
(٢) البهاء زهير ص ٢ .
(٣) البزاة : جمع بازى وهى جنس من الصقور الصغيرة طويلة الساق والذنب .
(٤) خزانة الأدب للحموى ص ٤٢٤ .

كأن صَمْغتها الحمرا بقشرتها الـ ـدَّكناءِ قُرْصٌ على أعْكانِ سمراءِ
نَسْعَى إليها على جرداءَ جاريةٍ من آلةٍ كهلال الأفْق حَدْباءِ
سوداءَ تحكى على الماء المُصَنْدَلِ شا مةً على شَفَةٍ كالشَّهد لَعْساءِ

والتصوير فى الأبيات بديع ، فشجرة السرو المائلة على النيل كأنها أذن مالت لتصغى إلى خَريره ، ويتخيلها بلونها الأحمر الداكن وهى منحنية على أمواج النيل فى فيضانه كأنها قرص ملتصق بطيات بطن لسمراء عارية . ويقول ابن مكانس إنهم سعوا إليها فى سفينة حدباء كهلال الأفق سوداء ، ويتخيلها على ماء النيل الداكن المعطَّر عطر خشب الصندل شامةً مطبوعة لا على خَدٍّ ، وإنما على شفة ضاربة إلى السواد تقطر شَهْدا وعسلا مصفى .

وبجانب شعر الطبيعة المصرية ومفاتنها الجميلة نجد شعراء يتغنون بمجالس الأنس والشراب ، وقد زار مصر — كما مر بنا — أبو نواس أكبر من تغنوا بالخمر وكئوسها وسقاتها وندمائها ، ولكن يبدو أنه لم يخلف من مجونه أثرا أو آثارا واضحة ، لأن الشعب المصرى بطبيعته معتدل ولا يجترئ على ما حرَّمه الدين ، وفى رأيى أن المصريين إنما كانوا يحاكون شعراء العصر العباسى فى المديح وغير المديح ودفعتهم هذه المحاكاة أو قل دفعت نفرا منهم نلتقى به منذ أيام الطولونيين إلى التغنى بالخمر ، إما إدمانا عليها وإما محاكاة وتقليدًا لأبى نواس وأضرابه . وكان أول ما ساعد على ظهور هذا النفر أن أحمد بن طولون مع تمسكه بالدين كان لا يتحرج من معاقرة الخمر ومثله ابنه خمارويه ، ويقال إنه كان يشرب أربعين رطلا من النبيذ[(١)] . فحاكاهما بعض الشعراء فى احتساء الخمر ، وأخذوا يقصدون لها الأديرة ، واشتهرت منذ هذا الحين أربعة أديرة ذكرها الشابشتى فى كتابه الديارات ، وهى دير القُصَير على قمة الجبل الشرقى ويشرف على طرة والنيل ، وكان خمارويه كثيرا ما يزوره ، ودير مَرْحَنَّا بمصر القديمة على شاطئ بركة الحبش ، ودير نهيا بالجيزة ، ودير طمويه بجوار حلوان . ويلقانا فى أيام الإخشيديين غير شاعر يعكف على كئوس الخمر حتى الثمالة ، يتقدمهم أحمد بن محمد بن طباطبا نقيب الأشراف العلويين بمصر ، وفيها يقول :[(٢)]

أأترك الشُّرْبَ والأمطارُ دائمةٌ والطَّلُّ منها على الأشجار مَنْثُورُ
والغُصْنُ يَهْتَزُّ كالنَّشْوان من طربٍ والوردُ فى العود مطوىٌّ ومنشورُ

---

(١) النجوم الزاهرة ٦٣/٣ .
(٢) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٠٣ .

وإذا كان نقيب الأشراف يشربها حتى الثمالة فقد حاكاه غير شاعر من مثل سعيد المنبوز باسم قاضي البقر وصالح بن مؤنس ومحمد بن عاصم وابن أبي العصام ، وكان الأخيران يلمان بالأديرة ، وكان ثانيهما خاصة يتهتك فى شربها ويجترئ على الدين فى غير استحياء حتى ليقول فى وصف مجلس آثم من مجالسه[1] :

مجلسٌ لا يرى الإلٰهُ بهِ غَيْـ ـرَ مُصَلٍّ بلا وضوءٍ وطُهْرِ
سُجَّدٌ للكئوس من دون تَسْبِيـ ـحٍ سوى نَغْمَةٍ لعودٍ وزَمْرِ

فهو يعيش معيشة مزرية ماجنة أشد ما يكون المجون مستهترة أسوأ ما يكون الاستهتار .

ونلتقى بتميم بن المعز ، ومر بنا أن أباه حرمه من ولاية العهد لانحرافه وسوء سلوكه وما سمعه عن مجونه ، وله فى الخمر أشعار كثيرة ، وقد يسوق الحديث فيها منفردة ، وقد يجمع بينها وبين جمال الطبيعة أو بينها وبين بعض صواحبه ، ومن قوله فيها وفى الورد[2] :

ووردٍ أعارتْه الغوانى خُدودَها وأهدى إليه المسكُ أنفاسَ مَفْتوقهْ
كأن النَّدَى فيه مدامعُ عاشقٍ أُرِيقتْ غداةَ البَيْن فى خَدِّ معشوقه
أَدَرْنَا كئوسَ الرَّاحِ فى جَنَباتِه على حُسْن مرآه ورقَّةِ تَوْريقه

وواضح أنه يحسن التصوير ، فالورد خدود الغوانى وهو عبق بشذا المسك ، وكأن الندى فيه دموع عاشق تناثرت على خد معشوقه يوم الفراق ، وهو يشرب على حسنه ورقة أوراقه . ومن طريف ماله فى المزج بين الخمر وصاحبته قوله[3] :

ناولتُها مثل خَدَّيها مُشَعْشَعَةً صِرْفا كأن سَناها ضوءُ مِقْباسِ[4]
فقَبَّلَتْها وقالتْ وهْى ضاحكةٌ وكيف تسقى خدودَ الناسِ للناسِ
إذا تناولتُ خَدِّى كنتُ نائلةً نفسى وهذا لعمرى غيرُ منقاسِ

والفكرة بديعة ، فالخمر تشبه خديها بلونها ووهجها ، وتناولت كأسها منه وقبلته مازحة قائلة له : كيف تسقى خدود الناس للناس ؟ وكأنه قدَّم لها خدودها لتشربها ، بل كأنه قدم لها نفسها ،

---

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٧٣ .
(٢) الديوان ص ٢٩٨ .
(٣) الديوان ص ٢٤٩ .
(٤) المقباس : شعلة النار .

وهل من أحد يشرب نفسه ، وإنه لقياس غريب ، بل لا ينقاس . وقبس منه الفكرة ابن هانئ الصغير المتوفى لأواخر العهد الفاطمى ، إذ يقول فى خمرية له[١] :

ومهفهفٍ أبدى الشبابُ بخدّه صُدْغاً فرقْرَق وَرْدَه فى آسهِ[٢]
تتلهَّبُ الصَّهْباءُ فى وجناتِهِ فتسير من عَيْنيه فى جُلَّاسهِ
حتى إذا ملأ الزجاجةَ خَدُّهُ نورًا وفاحَ الخمرُ من أنفاسهِ
خالَ الزجاجةَ أُفْعِمَتْ بمدامةٍ فدَنا ليشرب نُورَه من كاسهِ

وهو يقول إن صدغ الشعر أو خصلته تمتزج بخده كما يمتزج الآس الأبيض بالورد ، ويتسع به الخيال فيقول إن الخمر تتلهب فى خده فتلهب السحر فى عينيه فيسير منهما إلى جلاسه ، حتى إذا ملأ خده الكأس نورا ظنها ملئت خمرا ، واستحال ظنه يقينا ودنا من الكأس يريد أن يحتسيها .

ولابن سناء الملك خمريات مرحة فى لغة سهلة سلسة من مثل قوله[٣] :

أين كئوسى وأين أكْوابى فَهْىَ وحَقِّ المجونِ أَوْلَى بِى
يبدو عليها الحَبابُ إن مُزِجتْ مثلَ عيونٍ بغيرِ أهدابِ
تأتى ويأتى السرورُ يتبعها كأنه واقفٌ على البابِ
أسجدُ شكرًا لها إذا طلعتْ كأن كأسى لدىَّ مِحرْابِى

وهو يصور فى خمرياته مرحًا وابتهاجا ، ومرَّ بنا أنه كان يعيش فى بُلَهْنِيَةٍ ونعيم ، وقلما كان يعترضه فى حياته شوك يؤذيه ، فهى ورد عطر ، وهى ترف ، وكل وسائل الترف مهيأة له ، لذلك لا نعجب إذا رأيناه مرحا فى خمرياته .

وكانت حياة ابن النبيه هنيئة لينة ناعمة مثله ، مما جعل خمرياته تطفح بالمرح والابتهاج والشعور بأن كل ما فى الكون والطبيعة رائق شائق ، ومن طريف خمرياته قوله[٤] :

باكرْ صَبُوحَكَ أَهْنا العيشِ باكرُهُ فقد ترنَّم فوقَ الأَيْكِ طائِرُهُ[٥]
واللَّيْلُ تجرى الدرارى فى مجرَّتهِ كالرَّوْض تطفو على نهرٍ أزاهِرُهُ[٦]

---

(١) الخريدة (قسم مصر) ١/٢٧٠ .
(٢) رقرق : مزج .
(٣) الديوان ص ٣٤
(٤) الديوان ص ٩١
(٥) الأيك : الشجر الملتف .
(٦) الدرارى : الكواكب المتلألئة . المجرة : مجموعة من النجوم تبدو كوشاح أبيض .

فانْهَضْ إلى ذوبِ ياقوتٍ لها حَبَبٌ ... تنوبُ عَنْ ثَغْرِ مَنْ تَهْوَى جواهرُه
حمراءَ فى وَجْنة الساقى لها شَبَهٌ ... فهل جَناها مع العنقود عاصرهُ
ساقٍ تكوَّن من صُبْحٍ ومن غَسَقٍ ... فابيضَّ خَدَّاه واسودَّتْ غَدائِرُهُ[1]
تعلَّمتْ بانةُ الوادى شمائلَهُ ... وزوَّرتْ سحْرَ عينيه جآذِرُهُ[2]
فلو رأتْ مُقْلَتا هاروتَ آيتَه الـ ... ـكُبْرى لآمن بعد الكفر ساحِرُهُ

والفرحة تسرى فى الخمرية ، وتلف كل شيء فيها ، فالطير يتغنى فرحا على الغصون ، والسماء منوَّرة بكواكبها الساطعة ، وحباب الكأس كأنه ثغر الحبيبة ، والخمر حمراء كخدها وكأنما الجانى اقتطف خمرته مع عنقودها وما أجمل بياض خديها المشرقين وسواد ضفائرها البهيجة ، وكأنما قبست بانة الوادى رشاقتها ، وزوَّرت جآذره سحر عينيها الخلابتين ، ولو رآه هاروت لآمن بربه وكفَّ عن سحره .

ويكثر من الخمريات شعراء اللهو والخمر فى أوائل عصر المماليك مثل الجزار والوراق وابن دانيال وستتحدث عنهم بين شعراء الفكاهة . ولعل مما يشهد بأن كثيرين ممن كانوا ينظمون الخمريات إنما كانوا ينظمونها محاكاة وتقليدًا ولم يكونوا يتعاطون الخمر ولا تورطوا فى إثمها أن نجد فقيها كبيرا من فقهاء زمن المماليك هو صدر الدين محمد بن عمر المشهور باسم ابن المرحِّل وابن الوكيل المتوفى سنة ٧١٦ ينظم فيها خمرية تداولها الرواة فى عصره وبعد عصره استهلها على هذا النمط[3] .

ليذهبوا فى ملامى أيَّةً ذهبوا ... فى الخمر لا فِضَّةٌ تَبْقَى ولا ذَهَبُ
لا تأسفنَّ على مالٍ تمزِّقه ... أيدى سُقاةِ الطِّلا والخُرَّدُ العُرُبُ[4]
فما كَسَوْا راحتى من راحِها حُلَلاً ... إلا وعَرَّوْا فؤادى الهمَّ واستلبوا

وقد مضى يحبِّب فيها ويغرى بها على عادة المجان ، مما جعل بعض الناس يتهمه بمعاقرتها ، وقُدِّم للقضاء وثبتت براءته من وزرها الآثم ، وعاد إلى دروسه وعاد إليه طلابه . وللشيخ برهان الدين القيراطى الذى مرت ترجمته بين شعراء الغزل خمريات بدوره ، وكان فقيها ومحدثا ، وكأنه

---

(١) الغسق : الظلام . الغدائر : الضفائر
(٢) الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية المعروفة بجمال عينيها .
(٣) الفوات ٢/٥٠٢ .
(٤) الطلا : الخمر . الخرد : جمع خريدة وهى البكر الحييَّة .

ينطق بلسان شاعر ما جن كبير ، إذ يقول[1] :

كم ليلةٍ نادمتُ بدرَ سمائها ... والشمسُ تُشْرِق فى أكفِّ سُقاتِها
والبدر يُستَّرُ بالغيوم ويَنْجَلى ... كتنفُّس الحسناءِ فى مرآتِها
خالفتُ فى الصَّهْباء كلَّ مقلِّدٍ ... وسعيتُ مجتهدًا إلى حاناتِها
أمحرِّكَ الأوتار إن نفوسنا ... سَكناتُها وَقْفٌ على حركاتها
ومليحةٍ أرغمتُ فيها عاذلى ... قامتْ إلى وصلى برغم وُشاتها
ياخَجْلةَ الأغصان من خَطَراتها ... وفضيحةَ الغزلانِ من لَفتاتها

والقيراطى إنما يستخدم مهارته الفنية التى صوَّرناها فى غير هذا الموضع ، ليدل على براعته فى محاكاة المجان لزمنه ، بل لعل أحدا من معاصريه لا يستطيع اللحاق به فى مثل هذه الأبيات ، وهو يجمع فيها بين جمال الطبيعة فى الليالى القمرية وبين الصهباء أو الخمر وصاحبته أو الغزل ، وهى طويلة ، وقد نوَّه بها الأسلاف طويلا لروعتها الموسيقية والتصويرية .

وأخذ يزاحم الخمر فى عصر المماليك تعاطى الحشيش ، وحين أمر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ . بإغلاق حانات الخمور وحَطْم دِنانها أمر بحرق الحشيش ، وأشار إلى ذلك ابن دانيال فى بعض شعره ويقول حين أُبطلت المنكرات فى أيام السلطان لاجين سنة ٦٩٦ وفى مقدمتها الخمر والحشيشة[2] :

احذرْ نديمى أن تذوق المُسْكرا ... أو أن تحاول قطُّ أمرا مُنْكَرا
ذى دولةُ المنصورِ لاجينَ الذى ... قهر الملوك وكان سلطان الورى
إياك تأكلُ أخضرًا فى عصره ... ياذا الفقيرُ يصير جِسْمُك أحمرا

والأخضر : الحشيش . ويشير إلى العقاب الشديد الذى سينزل بمتعاطيه ، ونهى ابن دانيال بالمثل عن تعاطى الخمر . وسرعان ما يذهب عصر لاجين كما ذهب عصر الظاهر بيبرس ، ويعود نفر من الناس إلى الحشيشة والخمر ، وممن تعلق بها ابن الصائغ ، وله فيها عدة[3] مقطوعات من مثل قوله :

---

(١) المنهل الصافى ٧٢/١

(٢) فوات الوفيات ٣٨٨/٢

(٣) انظر فى هذه المقطوعات كتاب دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين ص ١٠٧ وما بعدها .

قم عاطني خضراءَ كافوريَّةً قامتْ مقام سُلافةِ الصَّهْباءِ
يغدو الفقيرُ إذا تناول درهما منها له تيهٌ على الأمراءِ

ووصفَها بأنها كافورية لأنه كان يُزْرَعُ منها كثير ببستان كافور فى القاهرة ، ويلقانا كثيرون يفضلون عليها الخمر لمجالسها وكئوسها ودنانها وقيانها .

وتظل الحشيشة والخمر على ألسنة الشعراء فى الحقبة العثمانية ، ومما نقرأ لهم قول أبى المواهب[1] البكرى المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة :

وقهوةٍ تَنْضَحُ مِسْكاً ولا بِدْعَ ففى الفِنْجان شَكْلُ الغَزالْ[2]
تديرها هيفاءُ ممشوقةٌ خَوْد تَثَنتْ فى بُرود الدَّلالْ[3]
بِغُرَّةٍ أَوْطَرَّةٍ وزَّعتْ أفكارنا بين الهدى والضَّلال
تقول للشمس وقد أقبلتْ تلثَّمى ما أنتِ إلا خيالْ

وربما كان من أسباب شيوع الخمريات على ألسنة بعض الشيوخ أيام المماليك والعثمانيين أنها كانت قد شاعت على ألسنة الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عربى متخذين من نشوتها رمزًا لنشوة الحب الإلهى ، فلم يجد كثيرون حرجا فى نظمها ومحاولة التفنن فيه . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ، وكلهم من الشعراء أيام الفاطميين ، أما من جاءوا بعدهم فقد مزجوا بين المجون والفكاهة الشعبية وسنخصهم ببعض الحديث .

ابن[4] وكيع التنيِّسى

يسوق ابن خلكان لابن وكيع نسبا طويلا ، فيقول هو الحسن بن على بن أحمد بن محمد بن خلف الضبى ، ووكيع لقب جده محمد بن خلف، ويذكر أنه كان من أهل القرآن والفقه والنحو والسير وأيام الناس وأخبارهم ، وله مصنفات كثيرة ، ويقول إنه كان نائبا فى الحكم بالأهواز فى إيران لعبدان الجواليق وإنه توفى سنة ٣٠٦ ببغداد ، ويذكر عن الشاعر أنه بغدادى ومولده

---

(١) ريحانة الألبا ٢٢٦/٢
(٢) قهوة : خمر .
(٣) خود : الشابة الحسنة .
(٤) انظر فى ابن وكيع وترجمته وأشعاره اليتيمة ٣٥٦/١ وتتمة اليتيمة ٢٩/١ وحلبة الكميت فى مواضع مختلفة والعمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢١٦/٢ وابن خلكان ١٠٤/٢ .

بتنِّيس ، وهى مدينة كانت بقرب بورسعيد الحالية ، وتمتد فى بحيرة المنزلة ، واشتهر أهلها[١] بصناعة النسيج والتفوق فى صنع الثياب الشفافة والملونة ، و يذكر المؤرخون والجغرافيون أنها كانت تكتظ بالجنان والكروم والفواكه والأشجار والأزهار والطيور من كل لون ، وأكثر أغذية أهلها السمك ، وهم مياسير أصحاب ثراء ، وأكثرهم حاكة ، وهم يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة وأكثرهم يبيتون سكارى . ويبالغ الأسلاف فى وصف ماكان بهذه المدينة أو الجزيرة التى اندثرت من مشاهد طبيعية ومن جنات ورياض . وفيها وُلد ابن وكيع كما يقول ابن خلكان ولا نعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فمعروف تاريخها وهو سنة ٣٩٣ وكذلك مكانها وهو مسقط رأسه تنِّيس . ولا نعرف الأسباب التى دفعت أباه إلى اتخاذ تنيس دار مقام له ولأسرته ، وقد نشأ فيها الشاعر وتثقف . ويبدو أنه طلب المزيد من الثقافة والتعرف على أدباء القاهرة فرحل إليها ، وكانت شاعريته تفتحت فلفت إليه الأنظار ، ولا ندرى متى كان ذلك تماما ، غير أن من المؤكد وجوده فى القاهرة حين نزلها المتنبى سنة ٣٤٦ ويبدو أن صلة انعقدت بينه وبين ابن حِنْزابة وزير كافور ، وكانت العلاقات قد ساءت بينه وبين المتنبى ، حينئذ رأينا ابن وكيع يؤلف كتابا فى سرقات المتنبى سماه المنصف إرضاء للوزير ، ويقول ابن رشيق فى العمدة : « سماه كتاب المنصف ، مثل ما سُمِّىَ اللديغ سليما ، وما أبعده عن الإنصاف » . ولم يكن المتنبى من ذوق ابن وكيع ، وبون بعيد بين ذوقيهما ، فالمتنبى شاعر جاد منتهى الجد ، لا يعرف اللهو ولا الخمر ولا المجون ، وابن وكيع شاعر ماجن منتهى المجون ، فاندفع يريد أن يسقط المتنبى من عليائه وأنَّى له ذلك ؟ ! ويبدو أنه كان ثريا ، فأعانه ثراؤه على انغماسه فى المجون ، ويدل على هذا الثراء أننا لا نجد رواة شعره يذكرون له قصائد فى ابن حِنْزابة ولا فى الخلفاء الفاطميين وقد عاصر منهم المعز والعزيز والحاكم ، فحسبه دائما كأس وطاس ، حتى ليؤثرهما على تولى منصب الخلافة الرفيع يقول :

وإنْ أتوك فقالوا كُنْ خليفَتنا ... فقلْ لهم إننى عن ذاك مشغولُ
وارْضَ الخمولَ فلا يَحْظَى بلذَّتهِ ... إلا امرؤٌ خاملٌ فى الناس مجهول
واسفِكْ دمَ القهوةِ الصَّهْباء تُحْيِ بهِ ... روحى فإن دم الصَّهْباء مطلولُ[٢]

فهو يؤثر حياة الخمول والمجون على حياة العزة حتى لو كانت الخلافة ، ويبدو أنه تمثل كل

(١) انظر فيهم تقول المقريزى عنهم فى كتابه الخطط ٣٣١/١ وما بعدها .
(٢) مطلول : مهدر لا يُطْلب ثأره .

ما فى ديوان أبى نواس من مجون حتى الجانب السيىء عنده جانب الغلمان ، إذ نراه يداعب غلاما نصرانيا فى مربعة مزدوجة طويلة أشرنا إليها فى الفصل الماضى ، شكا له فيها من حبه وعذابه فيه ، ومضى يتوعده تظرفا إن لجَّ فى هجره أن يشكوه إلى القساوسة والرهبان والأسقف والمطران والبطرك ، ويقول له كيف تحل قتل الروح وهو ما لم يأت به المسيح ولا أخبر به يوحنا ومتى ولوقا ومرقص .

وكل ذلك على سبيل الدعابة ، ونظن ظنا أنه لم يكن متورطا فى هذا الإثم ، وكل ما فى الأمر أنه هو ومن نظموا فيه بعده على مر السنين . إنما كانوا يحاكون فيه مجان بغداد تظرفا ودعابة على نحو ما يتضح فى مربعة ابن وكيع المزدوجة . وربما كان من أسباب ذلك كثرة النصارى فى تنيس كما يقول المقريزى وكثرة حاناتهم فيها ومن بها من السقاة والغلمان . ومن المؤكد أنه كان لا يطيل مكثه فى القاهرة فهو دائم الرجوع إلى بلدته ناعما بثرائه فيها وبمشاهدها الطبيعية . وله بجانب هذه المزدوجة المربعة مزدوجة ثانية فى وصف فصول السنة يبدؤها بوصف فصل الصيف وحره وغباره وما يجلب لشارب الخمر من الصداع ، ويتلوه بفصل الخريف وأهويته واختلاف برده وحرِّه ، ويتبعه بفصل الشتاء وما فيه من برد وأمطار وزكام وحاجة مدمنى الخمر فيه إلى الدفء وإيقاد النار ثم يفيض فى بيان محاسن الربيع المنتشرة فى كل عناصر الطبيعة من شمس وقمر وطيور ورياض وأزهار وثمار ، مما ينعم به شارب الخمر ويجد فيه هناءه . ونقتطف الأبيات التالية من خمرية له جمع فيها بين وصف الخمر ووصف الطبيعة فى الربيع وصفَ مشغوف بها مفتون ، يقول :

أَبْدى لنا فصلُ الرَّبيع منظَرًا ... بمثله تُفْتَنُ ألبابُ البَشَرْ
فالأرض فى زىٍّ عروسٍ فوقها ... من أَدْمُعِ القطر نِثارٌ من دُرَرْ[1]
أما تَرَى الوَرْدَ كخَدَّىْ كاعبٍ ... راودها ، فامتنعت منه بَشَرْ
كأنما الخمر عليهِ نَفَضَتْ ... صِباغَها أو هى منه تُعْتَصَرْ[2]
أخْجَله النَّرْجِسُ إذ جَادلَهُ ... فاحمرَّ من فَرْط حياءٍ وخَفَرْ
وانظر إلى الأطيار فى أرجائهِ ... إذا دَعا الثاكلُ فيها وصَفَرْ[3]
كأنها — تَصْفِرُ فى رياضها — ... سِرْبُ قيانٍ فوق بُسْطٍ من حِبَرْ[4]

(١) النثار : ماينثر على العروس ليلة الزفاف من الدراهم الفضية

(٢) صباغها : لونها .

(٣) الثاكل : من فقدت ابنًا لها .

(٤) حبر : جمع حبرة ، وهى القطعة من نسيج الحرير .

والنُّسْكُ فى عصر الصِّبا كأنه من قبحه خَلْعُ عِذارٍ فى الكِبَرْ[١]
فاشربْ عُقارا لو أصابتْ حَجَرًا لطارَ من خفَّته ذاكَ الحَجرْ
كأنما الأوطارُ فيها جُمِّعَتْ فليس فى العيش لجافيها وَطَرْ[٢]

وإنما أطلنا فى اقتطاف هذه الأبيات لتدل على براعة ابن وكيع فى تصوير الطبيعة تصوير الصب المفتون بها ، فهى عروس جميلة موشاة بألوان زاهية ، ورأتها السماء فعشقتها وأخذت تبكى بأجفان المطر ، وما أروع الورد ، إنه كوجنتى فتاة راودها ولهان بها ، فانثنت حياء وتضرجت وجنتاها خفرا . ويعجب ابن وكيع أشد العجب هل الخمر نفضت لونها القانى على الورد أو هى معصورة منه ومستخرجة ، أو لعل النرجس جاد له فاحمرَّ لقوة حجته خجلا . وفى أرجاء هذا الروض البديع يغنى الطير غناء شجيا مؤثرا ، وكأنه أسراب قيان تغنى فوق بسط من سندس وحرير . ويدعو إلى اللهو واللذة فى زمن الصبا والشباب ، ويزعم أن النسك وهجران المتاع فى بواكير الحياة ذميم مثل خلع العذار والمجون فى الكبر . وكأنه نظم هذه الخمرية فى شبابه . ويزعم ما زعمه أبو نواس قبله من أن الخمر لو مست حجرا لمسَّه السرور ، وأنها مجمع الأوطار والمنى . ودائما يقول إنه عاكف على شرب الخمر وسط مباهج الطبيعة ، غير مُرْعَوٍ ولا مزدجر على شاكلة قوله :

جانبتُ بعدك عفَّتى ووَقارى وخلعتُ فى طرق المجون عِذارى
خوَّفْتنى بالنار جُهْدَك دائبًا ولججتَ فى الإرهاب والإنذار
خوفى كخوفك غيرَ أنى واثقٌ بجميل عَفْوِ الواحد القهارِ
انْظُرْ إلى زهر الربيع وما جَلَتْ فيه عليك طرائفُ الأنوار
ناحتْ لنا الأطيارُ فيه فأرْهَجَتْ عُرْسَ السرور ومأتمَ الأطيار[٣]
فاشربْ معتَّقَةً كأن نسيمها مسكٌ تضوِّعه يَدُ العطَّار[٤]
مع مُسْمِعٍ حَلَفَتْ له أوتارُه أن لا تنافرَ رنَّةَ المزمار
فطنٍ يحرِّك كلَّ عضوٍ ساكنٍ تحريكُهُ لسواكن الأوتار

وهو يعلن لصاحبه أنه انغمس فى المجون غير مصغ لتخويفه له من عذاب النار ، إذ يأمل فى

---

(١) خلع العذار : كناية عن التهتك والإغراق فى المجون .
(٢) الوطر : الأمنية .
(٣) أرهجت : أثارت .
(٤) تضوعه : تذكى رائحته وتنشرها .

عفو الله وغفرانه ، وهو يكرر هذه النغمة كثيرا فى خمرياته ؛ ويقول له : انظر إلى ما حولك من جمال الطبيعة الساحر وما فيها من بدائع النور والزهر وما ينتشر فيها من نواح الطير الذى يستثير حزنه كما يستثير فيه السرور والفرح . ويدعوه إلى شرب الخمر ذكية الرائحة وسط مباهج الطبيعة على ألحان مغن حاذق يجيد العزف حتى ليحرك فى السامع كل عضو ساكن منه تحريكه لسواكن أوتاره . وفى كتاب اليتيمة قطعة كبيرة من شعر ابن وكيع . وكان له ديوان رآه ابن خلكان سقط من يد الزمن ، ولو وصلنا لعرفنا بوضوح مدى تأثيره فى الشعراء المصريين بعده وفيما نظموه من شعر الخمر والطبيعة ، ومع ذلك فى رأينا أن هذه القطعة كافية فى بيان أثره فيمن خلفوه . وهذه هى أول مرة نلتقى فيها بشاعر فى إقليم عربى يعيش للخمر والطبيعة ولا يعنى أى عناية بالمديح .

الشريف[1] العقيليّ

هو على بن الحسين بن حَيْدرة ينتهى نسبه إلى عقيل بن أبى طالب ، وتاريخ مولده غير معروف وكذلك تاريخ وفاته ، غير أن الثعالبى ترجم له فى اليتيمة باسم أبى الحسن العقيلى وأردف الاسم بكلمة رحمه الله والثعالبى ترجم لشعراء أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، وقد يفهم من قوله رحمه الله ، أن العقيلى لابد أن يكون قد توفى قبل وفاته ومعروف أن الثعالبى توفّى سنة ٤٢٩ ، ويقول ابن سعيد فى المغرب : « سألت عن العقيلى جماعة من أهل مصر فلم أر فيهم من يتحقق أمره ، وقال لى أحد الشرفاء المعنيين بأنساب الشرف : كان فى المائة الرابعة » . وقد يشهد لذلك أننا نجد فى ديوانه أبياتا ينوه فيها بالحسين بن جوهر وزير الحاكم ، وكان من بين من قتلهم سنة ٤٠١ . ويبدو أن كلمة « رحمه الله » فى اليتيمة وضعها الثعالبى — إن كان هو الذى وضعها — خطأ أو سهوا فقد جاء فى خطط المقريزى ما يشير إلى أن العقيلى امتدت حياته حتى سنة ٤٤٨ إذ ذكر أنه أنشد المستنصر الفاطمى صبيحة يوم عرفة فى هذه السنة :

قُمْ فانْحَرِ الراحَ يوم النَّحْر بالماء ... ولا تُضَحِّ ضُحًى إلا بصَهْباءِ[2]
أدرِكْ حَجِيجَ النَّدامى قبل نَفْرِهمِ ... إلى مِنًى قَصْفِهِم مَعْ كلِّ هيفاءِ

---

(١) انظر فى الشريف العقيلى وترجمته وأشعاره اليتيمة ٤١٥/١ والمغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٠٥ وقد أنشد ابن سعيد قطعة كبيرة من شعره وراجع الفوات ٩٩/٢ والفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٨٣ ومقدمة ديوانه (طبع الحلبى) . بتحقيق د . زكى المحاسنى .

(٢) انحر : اذبح . يوم النحر : يوم الأضحى . تضحى : تذبح الأضحية . الصهباء : الخمر .

فخرج المستنصر فى ساعته بروايا الخمر تُزْجى بنغمات حُداة الملاهى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس (بجوار القاهرة) فى كبكبة من الفسّاق فأقام بها سوق الفسوق على ساق ، يقول : « وفى ذلك العام أخذه الله وأخذ أهل مصر بالسنين[١] » وكأن ذلك كان فى أول عام من أعوام المجاعة المشهورة لعهد المستنصر التى بدأت سنة ٤٤٢ وظلت سبع سنوات ، حتى هلك الحرث والنسل . والخبر يدل على أن الشريف العقيلى عاش على الأقل حتى هذه السنة ، ويستدرك صاحب المغرب على من ذكر له أنه كان فى المائة الرابعة قائلا : « وقفت فى الخريدة (للعماد الأصبهانى » على ترجمته فدلَّ على أنه متأخر العصر عن المائة الرابعة » . ولعل فى ذلك كله ما يشهد بأنه عاش مطالع شبابه فى القرن الرابع ، وامتدت به الحياة فعاش دهرًا فى القرن الخامس .

وهو من أهل الفسطاط ، وكان ثريا ثراء مفرطا حتى قال ابن سعيد : كان له بها متنزهات ، وهو فى ذلك مثل تميم بن المعز ، فهما جميعا من سكانها وأصحاب البساتين والقصور بها ، غير أن تميما شُغل فى ديوانه بمديح أبيه وأخيه العزيز ، أما العقيلى فكما يقول ابن سعيد « لم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا مدح أحد » ويشهد بذلك ديوانه فليس فيه مديح لخليفة من الخلفاء الفاطميين ، فيه فقط بعض إخوانيات قليلة ، وكذلك بعض فخر وهجاء ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه استغرقه شعر الطبيعة والخمر والحب وكأنه امتداد لابن وكيع التنيسى . . ينظم أشعاره لنفسه ويتغنى لها بالطبيعة ومفاتنها مازجًا بينها وبين الخمر فى نشوة وفرح ومسرة . ونشعر كأنما ينتفض أمامها انتفاضا يعم كيانه كله ، وهو يشاهد جداولها ومياهها ورياضها وأشجارها وأزهارها وبركها ، حتى لتتحول أمامه معبدًا مايزال يقدم إليه تراتيله مصحوبة ببخور الخمر وشذاها ، وكأن حياته وعبادته إنما تأتلف من الطبيعة والخمر وكئوسها المترعة ، وهو يدعو دائما إلى احتساء هذه الكئوس ، وكأنه يعبُّ من الطبيعة ما يعب من فتنها ، ثم يعب من الخمر ما يعب من دِنانها ، مع القدرة البارعة على التصوير والتحول بالمناظر الواسعة فى الطبيعة إلى مناظر مركزة ، كالكوَّة تتجمع فيها الأشعة فتتحول إلى ما يشبه قوس قزح رائع بديع ، يقول داعيا إلى المتاع بجمال الطبيعة وشرب الخمر العتيقة :

الـغَـيْـمُ ممدودُ السُّرادقْ ... والـزَّهْرُ مفروشُ النَّمارقْ[٢]
والقـاشُ قـد نُقِشَتْ لنا ... مـنـه المجالسُ والمرافق

---

(١) خطط المقريزى ٥٨٣/٢ . والسنين : الجدب .
(٢) النمارق : الوسائد .

أشـــجـــاره وثمارُهُ مــثــلُ الترائب والمخانقْ[1]
قـد غـنَّتِ الأطـيـارُ فى طـرقـاتـه كـلَّ الـطـرائق
فاعتِقْ فؤادك فيه من رِقِّ الهموم بشربِ عاتق[2]
فــالأقــحوانُ غصونُــه بــيضُ الــنَّواصى والمفـارِق
ومــراوِدُ الأمــطــار قــد كُحِلَتْ بها حَدَقُ الحدائق

والطبيعة من حوله قد تجمعت فى حفل بسرادق بهيج وسائده من الزهر الملون ، وكذلك مجالسه ومتكآته كأنما قد قُطِّعت وفُصِّلت من القاش أو من نسيج حريرى متعدد الأصباغ ، بينما تطلّ عليه من الأشجار والثمار الترائب والقلائد . والطير تشدو وتغنى ، منظر فاتن ومَغْنى ساحر ، جدير بالشراب المزيل للهموم ، والأقحوان يتمايل على أغصانه وكل ما فى الحدائق آخذ زينته وزخرفه ، حتى العيون لم تنس كحلها ، عيون الأزهار البديعة ، فقد ناولتها الأمطار مراود تتمم بها زينتها وحسنها الفاتن . ومن قوله فى مطلع الربيع .

قد بُيِّضَتْ قُبَّةُ السماء وزُوِّقَتْ قــاعــةُ الــفضــاء

فالسماء بسحبها البيضاء الممتدة على الأفق من كل جانب كأنها قُبَّة بُيِّضت ، والربيع بأزهاره وأنواره كأنه قاعة متألقة نُقِشَت ونُمِّقَتْ بمنمنمات الربيع وزخارفه البديعة . وعلى نحو ما تتجسد الطبيعة فى مناظر يتمثل فيها التجميع والحشد والتركيز يكثر عنده التشخيص وبث الحياة فى عناصر الطبيعة من مثل قوله :

قد حبا طِفْلُ الصباحِ بين دايــاتِ الــريــاحِ

وقوله :

السُّحْبُ تُرْضع من بنات الأرض ما جعلَ الربيعُ لها الغصونَ مهودا

وقوله :

أمهاتُ الثمارِ بين الرَّوابى تائهاتٌ بلُبْس خُضْر الثيابِ
وبناتُ الكروم تُجْلَى بما قد صاغَه الماءُ من عقود الحَبابِ

---

(١) المخانق : القلائد .
(٢) العاتق : الخمر .

فطفل الصباح يحبو بين دايات الرياح والسحب ترضع أزهار الأرض على مهود الغصون ، وأمهات الثمار من الأشجار يملؤها التيه والدلال بثيابها الخضراء ، والماء يجلو الخمور من بنات الكروم بما يصوغ لها من عقود الحباب . وعلى هذا النحو ما نزال نحس عند الشريف العقيلى باندماجه فى الطبيعة وتملِّى عينيه وقلبه بمشاهدها الساحرة ، فهو مسحور بها سحرًا لا حدود له ، سحرا كان يحس إزاءه بنشوة كنشوة الخمر ، وكان لا ينسى النشوتين جميعا حتى فى غزله كقوله :

قامتْ قيامةُ روحِها لرواحى إن النَّوَى لقيامةُ الأرواحِ
وبكتْ فصار الدمعُ فى وَجَناتها مثل الحَباب على كئوس الراحِ
وكأنَّ صفحةَ وجهها لما بكتْ روضٌ يرصِّع وَرْدُه بأقاحى

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصعه من أنوار وأزهار وهو القرار العام لشعره ، فهو شاعر الرياض ومباهجها ، وهى أنشودته أو أناشيده التى ظل يتغنَّى طوال حياته بها وبما كانت تُلْقى فى وهمه وخياله من رؤى وأحلام وأشباح لا تكاد تُحصى ، مما جعل الاستعارة المكنية القائمة على التشخيص تكثر فى أشعاره كثرة مفرطة ، مع التفوق فيها والبراعة ، ولاحظ ذلك الصفدى من قديم فقال : « ما رأيت أحدا من شعراء المتقدمين أجاد الاستعارة مثله ولا أكثر من استعاراته اللائقة الصحيحة التخيل » .

ابن[1] قادوس

هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل الدمياطى المشتهر باسم ابن قادوس ، من شعراء النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، ذكره أبو الصلت الشاعر الأندلسى نزيل مصر فى رسالته التى ألفها عن الشعراء المصريين حوالى سنة ٥١٠ مما يدل على أن نجمه أخذ يلمع ويتألق فى المحافل الأدبية بالقاهرة منذ هذا التاريخ . وله مدائح مختلفة فى الأفضل بن بدر الجمالى المقتول . كما مر بنا سنة ٥١٥ . ويبدو أن نجمه ظل يصعد فى الأدب حتى عمل فى الدواوين الفاطمية ، ومازال يترقَّى بها حتى أُسندت إليه – مع الموفق بن الخلال – رياسة ديوان الإنشاء ، واستمر يتقلدها حتى

---

(١) انظر فى ابن قادوس وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٢٦/١ والرسالة المصرية فى المجموعة الأولى من نوادر المخطوطات نشر عبدالسلام هرون وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٦٣/١ ومقالا لنا عنه فى مجلة الثقافة العدد ٦٨٩ .

نزل به القضاء سنة ٥٥١ للهجرة . ورياسته لهذا الديوان تجعلنا مهيَّئين لأن يكون شعره – مثل النثر المصرى الكتابى فى تلك الحقبة – مرصعا بالبديع ، كقوله فى الأفضل :

مليكٌ تذلُّ الحادثاتُ لعِزِّه ... يُعيد ويُبْدى والليالى رواغمُ
وكم كربةٍ يوم النزالِ تكشَّفَتْ ... بِحمْلاته وَهْىَ الغواشى الغواشمُ(١)
تَشيد بناءَ الحمدِ والمجدِ بِيضُه ... وهن لآساس الهوادى هوادم(٢)

وواضح أن فى البيت الأول طباقا بين « يعيد ويبدى » وأن فى البيتين الثانى والثالث جناسا ناقصا بين « الغواشي والغواشم » وكذلك بين « الهوادى وهوادم » . وكان بارعا فى صنع ما يسمى فى البديع بحسن التعليل ، إذ كان يعرف كيف ينفذ إلى تعليلات طريفة إن هو رضى عن شىء ، فإنه يلتمس له ما يحسِّنه كقوله الذى أنشكدناه بفواتح الفصل فى جارية سوداء :

يلومنى فى ظبيةٍ مخلوقةٍ من كُحُلِ
والحجَرُ الأسودُ لم يُخْلَقْ لغير القُبَلِ

فهو يرد عن السواد فى الجارية قبحه ، إذ يجعلها مخلوقة من كحل العيون الذى تتزين به النساء ، وقد مضى يقول – كما مربنا – إن السواد هو الذى يمنح العين السوداء بصرها ونورها ، وما يبلغ حجر كريم ما يبلغ الحجر الأسود من القدسية ، حتى لينهال عليه الحجَّاج بالقبل . وفى أشعاره توريات يصنعها تظرفا . وكل شىء يؤكد أنه كان شاعرا بارعا ، غير أن ديوانه سقط من يد الزمن ، وهو فى شعره يتغنى بالخمر وينفذ فى وصفه لها إلى تصاوير بديعة ، ويبدو أنه كثيرا ما كان يشربها مع صحبه فى الأديرة ، يقول :

قُمْ قبل تأذين النواقيسِ ... واجْلُ علينا بنتَ قِسِّيسِ
عروسَ دَنٍّ لم يَدَعْ عِتْقُها ... إلا شُعاعا غيرَ ملموسِ
تُجْلَى علينا باسمًا ثَغْرُها ... فلا تقابلْها بتَعْبِيسِ
مُذْهَبَةُ اللَّوْن إذا صُفِّقَتْ ... مُذْهِبَةٌ للهَمِّ والبوسِ

---

(١) الغواشى : النوازل : الغواشم : القاهرة .
(٢) البيض : السيوف .

نارٌ إلى النار دعا شُرْبُها وشَرَّدَتْ بالعقل والكِيسِ
فى روضةٍ كانت أزاهيرُها كـأنها رِيشُ الطواويسِ

وهو يحتسيها مع رفاقه فى بستان دير ، وهو يعبّ منها متمليا بجمال الطبيعة ، وهى تجلى عليهم عروسا رشيقة معتقة ، كأنما لم يبق منها عتقها إلا شعاعا يفرّج الهموم حين يمسّ الحلوق ، وإنها لذات ثغر باسم بما يطفو عليها من حَباب ، وابن قادوس يشربها وهو غير ناس أنها محرمة وأنه يتناولها من يد إبليس ، وكأنه آمل فى عفو ربه . وعلى نحو ما كان يمزج بين الخمر والطبيعة ، محتسيا كئوس النشوة منهما جميعها ، كذلك كان يمزج بينها وبين الغزل فى مثل قوله :

وليلةٍ كاغتماضِ الطَّرْفِ قَصَّرها وَصْلُ الحبيب ولم تَقْصُرْ عن الأملِ
بِتْنا نجاذب أهدابَ الظلام بها كفَّ الملام وذكرَ الصَّدِّ والمَلَلِ
وكلما رام نطقا فى معاتبتى سَدَدْتُ فاهُ بِطِيبِ اللَّثْم والقُبَلِ
وبات بدرُ تمام الحسن مُعْتَنِقى والشمسُ فى فَلَك الكاسات لم تَفِلِ[١]
فبتُّ منها أرى النار التى سجدتْ لها المجوسُ من الإبريقِ تَسْجُد لى
راحٌ إذا سفك النَّدْمان من دمها ظلَّت تُقَهْقِهُ فى الكاسات من جَذل[٢]
فقلْ لمن لام فيها إننى كلفٌ مُغْرًى بها مِثْلَ ما أُغْرِيتَ بالعَذَلِ[٣]

والخمرية بديعة يصوّر فيها ابن قادوس ليلة من أروع ليالى وصاله ، يعاتب فيها صاحبته مصرحا بما اقتطفا فيها من أزهار الوجد والوله والصبابة ، بينما شمس الخمر تتفلّت أشعتها من أفلاكها فى الكئوس مشرقة غير غاربة ، ويشعر كأنها نفس النار التى طالما سجد لها المجوس تسجد له حين تصب من إبريقها فى كأسه ، ويعجب أن يسفك دمها الشارب فتسيل من الدن إلى كأسه غير محزونة ، بل مستبشرة ، بل ضاحكة مقهقهة لشدة فرحها وسرورها . ويقول لعاذله فى شربها كفى عذلا ، فإننى مولع بها ولوعك باللوم والعذل . وحسبنا هذه الخمرية وسابقتها لتدل على تفوق ابن قادوس فى تصوير الشغف بالخمر إما حقيقة وإما محاكاة لشعراء بغداد من أمثال أبى نواس ومعاصريه .

(١) تفل : تغرب .
(٢) جذل : سرور .
(٣) العذل : اللوم .

عبد[١] الباقى الإسحاقى المنوفى

من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ولد بمنوف وبها نشأ ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم نزل القاهرة وأكبَّ على حلقات علمائها ينهل منها ، حتى أصبح من علمائها ، وعُنى بالتاريخ ، وكان شاعرا بارعا ، ويصفه المحبى بأنه تجاوز فى الرقة الحد وأنه يمتاز بحلاوة معانيه وعذوبة مبانيه ، ومازال ينظم الشعر حتى توفى بمسقط رأسه سنة ألف ونيف وستين ، وقد أنشد له طائفة من أشعاره ، استهلَّها بخمرية ممزوجة بالغزل على هذا النمط .

تمشَّتْ لنا تُخْجِلُ الكوكبا ... فناديتُها مَرْحَبًا مَرْحبًا
أدارتْ بحضرتِنا قهوةً ... وطافتْ بكأس الطِّلا مُذْهبا[٢]
رنَتْ ورمتْنى بألحاظها ... وقد أذكرتنىَ عَهْدَ الصِّبا
وغنَّتْ لنا فطربنا لها ... ويا حُسْنَ ذاك الذى أطربا

وهو يتغزل بساقية مغنية أسرت لبّه ، وقد دارت عليه بكئوس الخمر ، وهو ينتشى بها وبجمال المغنية كما يقول ، مصرِّحا بذلك مجاهرا فى غير مداراة . وفى قصيدة ثانية يذكر مجلسا للهو والغناء نعم به بين مشاهد الطبيعة فى عفاف لا يدانيه عفاف . ومن قوله فى خمرية راقصة :

رقص المجلسُ أُنْسَا ... فاجعَل الجرَّةَ كأسا
واسقِنى بالزِّقِّ والطَّا ... سِ فإنى طِبْتُ نفسا
وأقِمْ لِلَّهو واللَّـ ... ـذَّات فى حانىَ عُرْسا
كيف لا وهْىَ ترينى ... فى دُجَا الظلماء شمسا
وتقيم المَيْتَ حَيًّا ... بعد ما جاور رَمْسَا

وهو لغرامه بالخمر وشغفه بها يريد أن يحتسبها جرارا وزقا وطاسا لا كأسا فحسب ، وتصوَّر نفسه كأنما يعيش فى حان يخالها فيه شمسا ، ترد إلى الموتى الحياة ، تعبيرا بذلك عن شدة تعلقه بها ، ويقول :

---

(١) انظر فى عبد الباقى الإسحاقى وترجمته نفحة الريحانة للمحبى ٥٨٩/٤ وكذلك كتابه : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ٢٨٩/٢

(٢) الطِّلا : الخمر.

امْلَ لى الكاس تماما واسقنى جَامًا فجَاما[1]
اسْقِنِى بالكوب والكا سِ فُرادى وتُواما[2]
ثم بالجَرَّة فالجـ ـرَّة حتى أتَرامَى
اسْقِنِى حينئذٍ بالـ زِّقِّ حتى لا كلاما
ثم أزهى موضعٍ فى الـ رَّوْضِ فاختَرْه مقاما

وهو صَبٌّ بالخمر يريد أن يحتسيها حتى الثمالة ، بل يريد أن يشربها أرطالا جاما فجاما وكئوسا وأكوابا وَجِرَّات متوالية حتى يفقد الكلام ويغيب عن حسه ، وهو يشربها فى أزهى موضع بالروض قد عبقت فيه الأزهار بأريجها العطر . وكأنما يعيد الإسحاقى فى أيام العثمانيين ذكرى أبى نواس وأمثاله من الماجنين العباسيين .

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

مرّ بنا أن مصر عرفت الزهد والنسك الدينى من قديم ، ويكفى أنها هى التى أنشأت فى المسيحية نظام الرهبنة الذى شاع منها وانتشر فى العالم المسيحى . وقد أقبلت على الإسلام بمجرد اعتناقها له ونزول العرب المسلمين فيها تنهل منه ، ورأيناها تسهم منذ زمن الولاة فى نشر مذهبى مالك والشافعى ، كما أسهمت فى القراءات عن طريق مقرئها المشهور : ورش . وأكبت على الحديث النبوى وتفسير الذكر الحكيم وأخذت تدرسها كما تدرس القراءات والفقه ، وتكونت لها طبقات من علماء الدين ومن الوعاظ والقصاص ، وكان كل من شدا منهم شعرا نظم فى الزهد والوعظ أبياتا كان يتداولها الناس على نحو ما كانوا يتداولون أشعار الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ وظلوا يتداولون بعده أشعار منصور بن إسماعيل الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٣٠٦ من مثل قوله[3] :

كُنْ بما أوتيتَه مُغْتَبِطًا تَسْتدمْ عمرَ القَنوعِ المكتفى
إن فى نَيْل المنى وَشْكَ الرَّدَى وقياسُ القَصْد عند السَّرَفِ
كسراجٍ دُهْنُه قُوَّتُه فإذا غَرَّقْتَه فيه طُفِى

(١) الجام : إناء من فضة .
(٢) توام : توأم : من الاثنين إلى مازاد .
(٣) نكت العميان ص ٢٩٨

وهو يدعو إلى القناعة والاكتفاء بالقليل وعدم التطلع إلى مُنّى عريضة يكون فيها حتّف صاحبها ، ويقول لابد من القصد والاعتدال لتظل للإنسان مُنّته وقوته ، أما إذا لَغرط وتجاوز الاعتدال والقصد فإنه لاشك صائر إلى الهلاك . وإذا تركنا الفقهاء إلى الشعراء وجدناهم يرددون بعض أشعار زاهدة وبعض مواعظ ، واتخذوا – كما أسلفنا – من زوال الدولة الطولونية عبرة كبرى للدهر ونكباته ، وأخذت العظة وما يتصل بها من شعر الزهد تتكاثر على ألسنة الشعراء ، ولتميم بن المعز قصيدة فى القرافة ومقابرها وما تبعث فى النفس من خشية الله ، وفيها يتجه إلى ربه قائلا أو مناجيا[1] :

رجوتُك يارَبِّ لا أننى أطعتُك طوعَ أولى الانتهاءِ
ولـكـننى مؤمنٌ موقنٌ بأنك ربُّ الوَرَى والسَّماءِ
وأنك أهلٌ لحسنِ الظنونِ وأنك أهلٌ لحُسْنِ الرجاء

فهو يرجو الله ويعبده لا خشية عقابه ولا خوف ناره ، ولكنه يعبده لأنه أهل لعبادته ، فهو رب الكون ، رب الأرض والسماء ، وهو يرجوه للرجاء لا لشىء وراءه من مآرب الحياة أو مآرب الآخرة . فشىء من ذلك لا يعلق بنفسه ، وإنما يعلق بها اليقين والإيمان بأنه الرب الأعلى الخليق بكل عبادة وكل رجاء .

ومن يتصفح ديوان الشريف العقيلى شاعر الطبيعة والخمر يجده يختم كل قافية من قوافيه المرتبة على الحروف الهجائية بأبيات واعظة ، كأنما يكفر بها عما نظمه من مجون فى نفس القافية ، كقوله فى قافية الباء[2]

أيها التـائـه الـذى ضَـلَّ عما يَـراد بِـهْ
إنَّ لـلـعَـرْضِ وقْـفَـةً أمـرُهـا غـيـرُ مُشْـتـبـه
فانتبهْ قبل أن تُرَى مـذنـبًـا غير منـتـبـه

ووعظيات الشريف ليس فيها روح ، لسبب طبيعى وهو أنه لم يكن شاعر وعظ وزهد ، وإنما كان شاعر خمر وطبيعة ، ومع ذلك فأغلب الظن أنه هو الذى أوحى لشعراء الموشحات الأندلسية فى الحقب المتأخرة بفكرة الموشحات المكفرة لموشحاتهم الماجنة .

---

(١) ديوان تميم ص ٢٧

(٢) ديوان الشريف العقيلى ص ٧٩ .

ونلتقى بظافر الحداد بعد تميم ، وهو يذكِّر دائما بالموت كقوله[١] :

كُنْ من الدُّنيا على وَجَلِ وتوقَّـعْ سرعـةَ الأجَـلِ
تخدعُ الإنسـانَ لـذَّتُـهـا فَهْىَ مثلُ السُّمِّ فى العَسَلِ
أنت فى دنياك فى عملٍ والليالى فيك فى عملِ

فالسعيد فى رأى ظافر من وضع الموت نصب عينيه ، ولم يغتر بمتاع الحياة ولذتها فهى كالسم فى العسل ، لاتزال تسرى فى الجسم ، ولاتزال الأيام والليالى تعمل عملها فيه ، حتى يفنى فجأة وعلى غير أهبة أو انتظار. ولا بن النَّضْر يدعو دعوة حارة إلى الزهد والقناعة[٢] :

جهادُ النَّفْسِ مفترضٌ فخُذْها بـآدابِ الـقـنـاعـةِ والـزَّهَـادَهْ
فإن جنحتْ لذلك واستجابتْ وخالفت الهوى فهو الإراده
وإن جمحتْ بها الشهواتُ فاكبَحْ شَكيمتها بمِقْمَعةِ العباده
عساك تُحِلُّها دَرَج المعالى وتَرْفَعُها إلى رُتَب السعاده

وهو يحض على جهاد النفس وترويضها على الزهد فى طيبات الحياة ، فإن خالفت هواها وأصغت لك فهى الأمنية المبتغاة ، وإن استعبدتها الشهوات فاكبح جماحها بالنسك والعبادة ، فهى خير مؤدب ومروِّض مذلل لها حتى ترقى إلى درج المعالى وتصعد إلى رتب السعادة . ومن تبتلاته إلى ربه[٣] :

يامستجيبَ دعاءِ المستجير بهِ ويا مفرِّجَ ليلِ الكُرْبةِ الدَّاجى
قد أُرْتِجَتْ دوننا الأبوابُ وامتنعتْ وجَلَّ بابُك عن مَنْعٍ وإرتاجِ
نخاف عَدْلَك أن يجرى القضاءُ بهِ ونَرْتجيك فكُنْ للخائف الراجى

وهو تبتل وتضرع رقيق إلى الذات العلية ، إذ يدعو الله المفرج لظلمات الكربة ، الكاشف لليلها الداجى ، أن يفتح له الأبواب بعد أن أُغلِق دونه كل باب ، وإنه ليتعلق بالأمل فى رحمته

(١) الخريدة ٨/٢
(٢) الخريدة ٩٥/٢
(٣) الخريدة ٩٢/٢

رحمة تمنع العدل أن يجرى القضاء به متوسلا بخوفه ورجائه فى رحمة الله الواسعة ، ولابن سناء الملك[١] :

أقولُ دارى وجيرانى مغالطةً ... والقَبْرُ دارىَ والأمواتُ جيرانى
فى وَحْشة القبر والدودِ المقيم بهِ ... شُغْلٌ لنفسىَ عن دارى وبُسْتانى
سأوسع القبرَ بالأعمال أُصْلحها ... جهدى وألبسُ زهدى قبل أكفانى

فليست داره هى الدار الحقيقية له وليس جيرانه هم جيرانه الحقيقيون ، فداره الحقيقية القبر وجيرانه الأموات حول قبره ، وإنها لدار مفزعة ، دار وحشة وديدان تنتظره ، دار ضيقة وسيحاول أن يمد أطنابها بالأعمال الصالحة ، وسيسرع إلى ثياب الزهد فى الحياة الدنيا يلبسها قبل أن يلبس أكفانه وينزل رمسه وحفرته المظلمة .

ويكثر ابن مطروح من مناجياته لربه كقوله[٢] :

يامَنْ عَلا فى مُلْكِهِ فاقترَبْ ... ومَنْ بَدَا فى نوره فاحتجَبْ
ومَنْ هو القَصْدُ لأهل النُّهَى ... والمطلبُ الأسنى وكلُّ الأرَبْ
عوَّدْتنى الأُنسَ فلا تَنْسَنِى ... وهَبْنِىَ الرَّحْمَةَ فيما تَهَبْ

وهو يتضرع إلى ربه الذى علا فى ملكوته وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، والذى يملأ الدنيا نورا وضياء من حوله ، وهو محتجب لا يراه أحد ، والذى هو المقصد والمطلب الأسى وكل الأرب والأمل ، والذى عوده الأنس به ، أن لا ينساه وأن يهبه من خزائنه العلية ورحمته الواسعة .

ويظل شعر الزهد والتبتل إلى الله مزدهرًا زمن المماليك ، من ذلك قول عبد الملك الأرمنتى القوصى المتوفى سنة ٧٢٢ متعلقا بعفو ربه[٣] :

قالتْ لىَ النَّفْسُ وقد شاهدتْ ... حالىَ لا تصلحُ أو تستقيمْ
بأىِّ وَجْهٍ تَلْتقى ربَّنا ... والحاكمُ العَدْلُ هناك الغَرِيمْ
فقلتُ حسبى حُسْنُ ظنى بهِ ... يُنيلنى منه النعيمَ المقيمْ

(١) الديوان ص ٧٨٧ .
(٢) ديوان ابن مطروح مع ديوان العباس بن الأحنف ص ٢١٢
(٣) طبقات الشافعية للسبكى ٩٨/١٠

قالتْ وقد جاهرْتَ حتى لقد حَقَّ له يُصْليك نارَ الجحيم
قلت معاذَ الله أن يَبْتلي بنـارِه وهْو بحالى علـيم

والمراجعة بين عبد الملك ونفسه طريفة ، فهي تلومه على حاله المعوجة وسلوكه غير الصالح وتقول بأى وجه تلقى غريمك وهو ربك ، فيرد عليها بأنه حسن الظن بإلهه وعفوه ، وأنه سيدخله جنات النعيم ، فتسأله متعجبة أتجهر بذلك ولا تخفيه ، لقد حقت عليك النار . فيقول معاذ الله أن يصليه ربه الجحيم وهو العالم بحاله وصحة نيته فى إيمانه .

ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبو المعالى ابن القماح المتوفى سنة ٧٤١ للهجرة[١] :

اصْبِرْ على حُلْوِ القضاء ومُرِّهِ واعلم بأن الله بالغُ أمرِهِ
واثْبُتْ فكم أمرٍ أمضَّك عُسْرُهُ ليلا فبشَّرك الصباحُ بِيُسْرِهِ
واضْرَعْ إلى الله الكريم ولا تَسَلْ بَشَرًا فليس سواه كاشفَ ضُرِّهِ

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتى به القضاء من حلو ومر ، فتلك إرادة الله ولا راد لأمره ، وينصح بالثبات حتى تنكشف ظلمة الغمة وتسفر عن بشرى مضيئة ضوءَ الصباح وأن يلجأ الإنسان إلى ربه ويضرع إليه ، فهو وحده كاشف الغم ومفرِّج المحن .

ونلتقى بتبتلات وأدعية كثيرة عند الشيوخ ، من ذلك قول قاضي القضاة ابن التنسى المالكى المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة[٢] :

إِلَهَ الخلق قد عظمتْ ذنوبى فسامِحْ ما لعفوك من مشارِكْ
أَغِثْ ياسيدى عَبْدًا فقيرًا أناخ ببابك العالى .ودارِكْ

فهو يتضرع لربه أن يعفو عن ذنوبه ، ويستغيث به ، فهو عبد فقير من عباده ، ألقى عصاه ببابه ، آملا فى قبول تضرعه ، ويورِّى تورية واضحة فى قوله : « دارك » فمعناه القريب الدار الحقيقية بدلالة كلمة الباب قبلها ، والمعنى البعيد المقصود أن يدركه قبل أن ييأس من عفوه ورحمته .

ويلقانا زهد كثير فى الحقبة العثمانية من مثل قول محمد بن أحمد الحتادى فى الدعوة إلى القناعة

---

(١) السبكى ٩٣/٩

(٢) النجوم الزاهرة ٥٣٩/١٥

وأن لا يفكر الإنسان فى رزق الغد[1] :

تــأنَّ ولا تجزعْ لأمــرٍ تحاولُــهْ فخيرُ اختيارِ المرء ما اللّهُ فاعلُهْ
تَفيَّأْ بظلِّ الله من روضِ قولهِ ألستُ بكافٍ تَلْحَقَنْكَ فواضلُه[2]
وعِزَّ تُهِنْ دنياك واغْنَ بتركها ولا تَحْفلَنْ بالرزق فاللهُ كافلُهْ

فهو يدعو إلى الصبر فى طلب الرزق وأن لا ييأس الإنسان ، بل يدع شأنه لربه فإنه ضامن رزقه ولن ينساه ، وحرى بالإنسان أن يستظل بمثل قوله : (أليس الله بكاف عبده) مؤمنا بأنه يتكفل بعباده ولا يترك ظامئا إلا سقاه ولا عاريا إلا كساه ، وما العز الحقيق إلا رفض الدنيا وما الغنى الحقيق إلا تركها وعدم التعلق بها وأن لا يشغل الإنسان نفسه برزق الغد ، فالله كافله وضامنه .

وقد تحدثنا فى الفصل الأول عن نشأة التصوف بمصر وأنه أخذ طريقه فيها إلى الظهور منذ سنة ٢٠٠ للهجرة ولم يلبث ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ للهجرة أن رفع صرحه سامقا ، إذ يعد المؤسس الحقيق للتصوف الإسلامى وترتيب أحواله ومقاماته ، وقد ذكرنا أطرافا من آرائه الصوفية وبعض تلاميذه من أعلام الصوفية بعده فى الشام والعراق وإيران ، وكأن مصر التى يرجع إليها الفضل فى قيام نظام الرهبنة فى المسيحية يرجع الفضل إليها أيضا فى قيام التصوف فى أركان العالم الإسلامى ، أو قل بعبارة أدق يرجع الفضل فى قيامه إلى أحدأبنائها وهو ذو النون المصرى ، ومرَّ بنا تصوير ذلك من بعض الوجوه وكيف أنه كان أول من وضع تعريفا للوجد الصوفى وأول من ذكر كأس المحبة الربانية التى هى جوهر التصوف وقوامه ، ومن ضيائها استمد فى قوله مخاطبا ربه[3] :

لك من قلبىَ المكانُ المصونُ كلُّ لومٍ علىَّ فيك يَهُونُ
لك عزمٌ بأن أكونَ قتيلا فيك والصبرُ عنك ما لا يكون

وكأنه أول قتيل بل أول شهيد فى الحب الإلهى ، فقد سبح فى بحاره وغرق بين أمواجه ، غرق فى مياه عميقة ، مادًّا بصره إلى القاع وأعمق الأعماق ، يريد أن يرتوى وأن يحظى بأمانيه من الوصال ، محتملا فى ذلك جهودا مضنية ، وفى ذلك يقول[4] :

---

(١) سلافة العصر لابن معصوم (طبع القاهرة) ص٤١٨
(٢) تفيأ : استظل .
(٣) ابن خلكان ٣١٦/١
(٤) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٧ .

أموت وما ماتتْ إليك صَبابتى ولا قُضِيَتْ من صدق حُبِّك أوطارى
تحمَّل قلبى فيك مالا أبثُّه وإن طال سُقْمِى فيك أو طال إضرارى

فصباباته بالحب الإلهى لا تنقضى ، إنه لايزال يريد أن يكون حبه لربه لايدانيه حب ، ولا يزال يجد فيه نصبا وشقاء ، ولذته التى لا تحد إنما هى فى هذا الشقاء والنصب الذى لا يشبهه نصب . وتناول كأس هذه المحبة منه كثيرون فى العالم الإسلامى . ويدور الزمن بمصر دورات وندخل فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وسرعان ما تنشأ بمصر الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وكانت تعارض التصوف حتى لا يطغى على عقيدتها التى صورناها فى غير هذا الموضع وبَصرف المصريين عنها ، ومن هنا تراجعت موجته فى عهدها ، ومع ذلك فينبغى أن لا نظن أنه تلاشى ، فقد ظل حبله ممدودا بعد ذى النون . ومرَّ بنا من متصوفتها بعده أبو بكر الدقاق الكبير المتوفى سنة ٢٩٠ وبنان الحَّمال المتوفى سنة ٣١٦ وأبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ ويعد السيوطى بعض أسماء لمتصوفة ظهروا فى عهد الدولة الفاطمية[١] مثل ابن الترجمان المتوفى سنة ٤٤٨ ويقول عنه : كان شيخ الصوفية بديار مصر . ونلتقى بأخرة من أيام الفاطميين بصوفى كبير هو ابن الكيزانى وسنترجم له عما قليل . ومرَّ بنا أنه أخذ يتضح فى التصوف منذ قيام الدولة الأيوبية اتجاهان ، اتجاه فردى فلسفى واتجاه جماعى سنى ، ومثَّل الاتجاه الأول ابن الفارض وسنخصه بترجمة ، ومن تلاميذه ابن الخيمى محمد بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٨٥ ولم يتجه بتصوفه اتجاه ابن الفارض الفلسفى ، بل وقف به عند الوجد والحديث عن الشوق وأكثر من ذكر معاهد الحب على طريقة العذريين ، واشتهر بأنه تنازع مع محمد بن إسرائيل صوفى الشام فى قصيدة صوفية واحتكما إلى ابن الفارض ، فشهد لابن الخيمى أنها من نظمه ، وفى فوات الوفيات قطعة من شعره ، ومن قوله فى الذات الإلهية[٢] :

وحجَّبَ عنا حُسْنُه نورَ حسنهِ فمن ذلك الحسن الضلالةُ والهُدَى
فيا نارَ قلبى حبَّذا أنتِ مُصْطَلًى ويادَمْعَ عينى حبَّذا أنت مَوْرِدا

وشعره الصوفى يهبط عن شعر ابن الفارض كثيرا . وكان يعاصره كتاكت المصرى الواعظ

(١) حسن المحاضرة ١/٥١٥
(٢) الفوات ٢/٤٦٥

المقرئ المتوفى سنة ٦٨٤ ونحس عنده قبسا من ابن الفارض فى مثل قوله[١] :

حَضروا فمُذْ نظروا جمَالَك غابوا والكلُّ مذ سمعوا خطابَك طابوا
فكأنهم فى جَـنَّـةٍ وعليهمُ من خَمْر حُبِّك طافتِ الأكوابُ
أنت الذى ناولتنى كأس الهَوَى فإذا سكرتُ فما علىَّ عِتَابُ

ويقول ابن تغرى بردى إنها قصيدة مشهورة عند الفقراء يريد الصوفية ، وواضح أنه يصور فى هذه الأبيات الغَيْبة التى طالما صورها ابن الفارض والتى تعنى عنده السكر وفقدان الوعى ، فقد غاب عن وعيه حين أحس بمشاهدته للجمال الربانى وكأنما طافت أكواب الخمر الإلهية ، وتناول منها كوبا ، جعله يغيب عن الوجود شاعرا بوجد لا يشبهه وجد ، وجد بالجمال الإلهى المطلق الذى يسرى فى كل كائن جميل مستمدا منه حسنه وجماله ، يقول[٢] .

من أنت محبوبُه ماذا يغيِّرُهُ ومن صفوتَ له ماذا يُكَدِّرُهُ
هيهات عنك مِلاحُ الكون تشغلنى والكلُّ أعراضُ حسنٍ أنت جَوْهَرُهُ

وكأن الله يشاهَدُ فى كل جميل بالكون ، أو قل كأن كل جميل يستمد منه جماله ، أو يشاهد فيه جماله ، وفكرة الشهود سنعرض لها عند ابن الفارض عرضا أكثر سعة . وبدون ريب أثر ابن الفارض فى صوفية مصر وغير مصر بعده آثارا تضيق وتتسع حسب مواجد الصوفى .

ويلقانا صوفى من أتباع ابن عربى ، مر بنا ذكره فى الفصل الأول ، وهو عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى المتوفى سنة ٧٠٣ وفى شعره ما يدل على تلمذته لابن عربى إذ يقول[٣] :

وجدتُ بقائى عند فَقْدِ وجودى فلم يبق حدٌّ جامعٌ لحدودى
وألقيتُ سِرِّى عن ضميرى ملوِّحا برمز إشاراتى وفَكٍّ قُيُودِى
فأصبحتَ منى دانيا بمَعَارفى وقد كنتَ عنِّى نائيا بجمودى

ويقول ابن حجر معلقًا على الأبيات : « وهذا نَفَسُ الاتحادية لا شك فيه » . يريد أن الأبيات تصدر عن فكرة الاتحاد بالذات العلية التى كان يؤمن بها ابن عربى ، وكان له ديوان

(١) انظر ترجمة كتاكت فى الفوات ١٠٨/١ والنجوم الزاهرة ٣٦٤/٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣٦٥/٧

(٣) الدرر لابن حجر ٤٨٤/٢

كبير ، ويذكر له قصيدة نونية طويلة اسماها اليعسوب وهى ملكة النحل .

ومن المؤكد أن النزعة الفلسفية فى التصوف بمصر كادت تنحسر بعده إلا قليلا ، إذ مضت مصر تؤثر التصوف السنى وما أشاعه من الطرق الصوفية الكثيرة ، وقد أفضنا فى بيان ذلك بالفصل الأول ، وكان من أهم الطرق التى تأسست بها الطريقة الشاذلية ، ومن أهم أصحابها ابن عطاء الله السكَنْدرىّ الصوفى الواعظ تلميذ مؤسسيها أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى ، ومن شعره قصيدة يقولُ فيها[1] :

وياصاحِ إن الركب قد سار مسرعا ونحن قعودٌ ما الذى أنت صانعُ
أترضى بأن تبقى المخلَّف بعدهم صريعَ الأمانى والغرامُ ينازع
وهذا لسانُ الكونِ ينطق جهرةً بأنَّ جميعَ الكائناتِ قَوَاطِعُ

فهو يهتف بصاحبه أن يتبع ركب المحبوب ولا يتخلف ، حتى لا يفقد أمانيه ويضيع منه حبه ، بل إن الكون كله ليهتف به أن يرحل وراءه ويهاجر له ، فجميع الكائنات ماتزال مهاجرة تتبعه .

وكثير من شعر هؤلاء الصوفية كانوا ينظمونه ليردده المنشدون فى الذكر بين صفوف الذاكرين الله كثيرا ليملئوهم حماسة وإمعانا فى ذكر الله وتسبيحه ، من مثل قول عبد الغفار بن أحمد بن نوح القوصى الصوفى المتوفى سنة ٧٠٨ للهجرة :

أنا أُفْتِى أنَّ تركَ الحبِّ ذَنْبُ آثمٌ فى مذهبى مَنْ لم يُحبَّ
ذُقْ على أمرى مراراتِ الهَوَى فَهْوَ عَذْبٌ وعذاب الحبِّ عَذْب
كل قلبٍ ليس فيه ساكنٌ صَبْوةٌ عُذْرِيَّةٌ ماذاك قلبْ

ويكثر هؤلاء الشعراء من الصوفية فى أيام المماليك ، ومن أشهرهم برهان الدين بن زَقَّاعه ، المتوفى سنة ٨٥٩ عن سن عالية ، وكان يتبرك به السلطان برقوق وابنه السلطان فرج ، وله فى الحب الصوفى ومواجده أشعار كثيرة من مثل قوله[2] :

رأى عقلى ولُبِّى فيه حارا فأضرمَ فى صَميم القلب نارا
ألا يـــالائمى دَعْنِى فـــإنِى رأيت الموتَ حَـجًّـا واعتمارا
وأهلُ الحب قد سِكروا ولكنْ صحـا كـلٌّ وفرّقَتنا سُكارى

(١) النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨

(٢) المنهل الصافى ١٥٤/١ والنجوم الزاهرة ١٢٦/١٤ .

وهى نار كانت لا تزال مشتعلة فى قلوب الصوفية ، نار حبهم للذات العلية ، نار لا تنطفئ أبدا فى أثناء حبهم بل جهادهم الشاق العنيف فى هذا الحب ، الذى كانوا لايزالون يرحلون إليه رحلتهم الصوفية المجهدة حجًّا وعمرة ، ومايزالون راحلين هائمين مفضين إلى سكر لايدانيه سكر ، متجردين عن كل رغبة فى النفس ، حتى لكأنما تتعطل إرادتهم ويموت كل شئ إلا رغبتهم الجامحة فى الوجد الربانى .

ويلقانا شعراء صوفية كثيرون فى كل طريقة من طرق الصوفية بل إن كثيرين من أصحاب هذه الطرق التى كان يرثها الأبناء عن الآباء كانوا شعراء ويجرى الشعر على ألسنتهم على نحو ما نقرأ عند السادات الوفائية الشاذلية ، والسادة البكرية لا فى أيام المماليك فحسب ، بل أيضا فى أيام العثمانيين من مثل قول على وفا :

تغيبتَ عن عينى فَغَيْبُك شاهدى ... ووَجْهُك مشهودى وما عنك عائقُ
فإن غبتَ فالأشباحُ منى مغاربٌ ... وإن لُحْتَ فالأرواح منِّى مشارقُ

ويتلو الشهاب الخفاجى البيتين بطائفة من أشعار أبنائه ويقول لهم أنفس قدسية أُفِيضَتْ عليها العلوم اللدنية[١] .

ونشأ للصوفية وطرقهم من قديم مريدون كثيرون كانوا لا يزالون ينوِّهون بأصحاب طرقهم وأساتذتهم ، وقد يبالغون فى ذلك ، فيطلبون منهم الهداية إلى طريق التقوى والصلاح[٢] .

وكان المديح النبوى يقترن بشعر التصوف من قديم ، ومنذ حسان بن ثابت وكعب بن زهير والشعراء يمدحون الرسول ﷺ . وأخذت هذه المدائح تتكاثر منذ القرن الرابع الهجرى ، تكاثرت على ألسنة أهل السنة مجسدين فى الرسول المثل الكامل للمسلم فى نسكه وجهاده فى سبيل نشر دعوته ورسالته النبوية ، وكذلك على ألسنة الشيعة ذاهبين إلى أن نوره المحمدى يتجسَّد فى أئمتهم من بعده . وبالمثل على ألسنة المتصوفة وقد أخذوا منذ الحلاج يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول مبدأ الوجود الروحى للحياة الإنسانية ، بل مبدأ النور فى الكون ، منه يستمد ضياءه . وقد مضى كل هؤلاء المادحين ينوهون بصحابة الرسول وبمعجزاته المادية ومعجزته الكبرى القرآنية ، مع التوسل إليه بطلب الشفاعة يوم العَرْض وأن يكون دائما معينا لهم ونورا هاديا . ومازال الشعراء المصريون — مثلهم مثل شعراء العالم الإسلامى يتغنون بمديح الرسول ﷺ ، حتى إذا نشبت

(١) ريحانة الألبا ٢/٢٠٨ ومابعدها

(٢) تاريخ الجبرتى ٢/٢١٢

الحروب الصليبية ، وكانت حربا دينية ، أخذ حملة الصليب يهاجمون رسول الإسلام برسائل منكرة ، واندلعت الحروب بين المسلمين وبينهم فكان طبيعيا أن يزدهر المديح النبوى للرد على أعداء الإسلام من جهة ، ومن جهة ثانية لرفع سيرته العطرة وجهاده فى نشر رسالته شعارًا يتخذ منه الذائدون عن حمى الإسلام القدوة الحسنة دالعا فيهم الحماسة لدق أعناق الصليبيين وسحقهم سحقا ذريعا . وكاد لايخلو ديوان شاعر مصرى حينئذ من مدحة أو مدائح نبوية ، وخاصة منذ ظهور البوصيرى أنبه مادح مصرى للرسول ، بل أنبه مادح عربى له على الإطلاق ، وسنخصه بكلمة ، ولكثيرين من معاصريه مدائح نبوية طنانة ، ونكتفى بأن نشير من بينهم إلى شيخ الإسلام تقى الدين محمد بن على المشهور باسم ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وله أكثر من مدحة نبوية ، ومن قوله فى مديحه ﷺ [١] :

لم يبق لى أملٌ سواك فإنْ يَفُتْ ... ودَّعتُ أيام الحياة وَداعا
لا أستلذُّ لغيرِ وجهك منظرا ... وسوى حديثك لا أريد سماعا

وكان العَزازى معاصره المار ذكره بين الوشاحين يكثر من المديح النبوى ، ومن قوله فى بعض مديحه للرسول الكريم [٢] :

أَفْىَ النبيِّين برهانًا ومعجزةً ... وخيرُ مَنْ جاءهُ بالوحى جبريلُ
سلَّ الإلهُ به سيفًا لِملَّتِهِ ... وذلك السيف-حتى الحشر-مسلولُ
وَيْلٌ لمن جَحدوا برهانَه وَثَنَى ... عِنانَ رُشْدهم غَىٌّ وتضْليلُ

ولابن سيد الناس صاحب السيرة النبوية المتوفى سنة ٧٣٤ للهجرة ديوان خصَّه بمديح الرسول عليه السلام سماه « بشرى اللبيب بذكر الحبيب » مخطوط بدار الكتب المصرية . ولابن نباته وبرهان الدين القيراطى مدائح نبوية مختلفة ، ويظل الشعراء يمدحون الرسول الكريم مدائح كثيرة ويطرد ذلك فى الحقبة العثمانية عند الشهاب الخفاجى وغيره [٣] ، كما يطرد التوسل به وطلب الشفاعة ، ع نحو ما نجد عند عبد الله الإدكاوى من مثل قوله متوسلا [٤] :

---

(١) الفوات ٤٨٧/٢ .
(٢) المنهل الصافى ٣٤٣/١ .
(٣) وانظر نفحة الريحانة للمحبى (طبعة عيسى البابى الحلبى) ٤١٣/٤ وما بعدها ، وقد أنشد المحبى فى كتابه قطعا كثيرة من المدائح النبوية .
(٤) تاريخ الجبرتى ٢٥٣/١ .

ياربِّ بالهادى الشفيعِ محمدٍ مَنْ قد بدا هذا الوجودُ لأجلِهِ
كُنْ لى معينًا فى معادى واكْفِنِى همَّ المعاش وما أرى من ثِقْلِهِ
واستُرْ بفضلك زَلَّتى واغفرْ بِعَدْ لك سَيِّئتى واشْفِ الحشا من غِلِّهِ

وهو يضرع إلى الله متوسلا إليه بالرسول الشفيع يوم القيامة لأهل دينه أن يكون عونا له فى معاده ومعاشه ، وأن يغفر له ذنوبه ويستر عيوبه ، وحرى بنا أن نتوسع قليلا فى الحديث عن بعض شعراء التصوف والمديح النبوى :

ابن[1] الكيزانى

هو محمد بن إبراهيم الكنانى المقرئ الواعظ الشافعى ، مصرى الدار ، من شعراء الحب الإلهى وما يتصل به من الأحوال والمقامات ، اشتهر باسم ابن الكيزانى ، من شعراء مصر فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، إذ توفى سنة ٥٦٢ للهجرة ، وقد رأى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب الذى زار مصر فى العقد الخامس من القرن السابع الهجرى ديوانه يباع بكثرة فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، غير أنه لم يصلنا إذ سقط من يد الزمن ، وقد دوَّن منه العماد الأصبهانى فى كتابه « الخريدة » طائفة كبيرة من شعره ، تصور إلى حد بعيد مواجده الصوفية ، ونراه يقدم لها بأنه « فقيه واعظ مذكر حسن العبارة مليح الإشارة لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة .. وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله ، لما أودع فيه من المعنى الدقيق ، واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق . ودفن عند قبر الشافعى » ويقول عنه : عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكون الحديث إلا أنه ابتدع مقالة ضلَّ بها اعتقاده ، وزلَّ فى مزالقها سَداده ، إذ ادعى أن أفعال العباد قديمة والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة « وهم أشباه الكرامية بخراسان » فهو عالم

(١) انظر فى ترجمة ابن الكيزانى وأشعاره المغرب لابن سعيد (القسم الخاص بالفسطاط) ص ٢٦١ وما بعدها ، وتذكرة الحفاظ ١٣١٩/٤ والخريدة (قسم مصر) ١٨/٢ وابن خلكان ٤٦١/٤ وطبقات الشافعية للسبكى ٩٠/٦ والوافى بالوفيات للصفدى ٣٤٧/١ والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٥ ، ٣٧٦ . وراجع مقالين لنا عن ابن الكيزانى فى مجلة الثقافة ، العددين ٦٩٢ ، ٦٩٣ .

بالسنة والفقه والشريعة وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، غير أنه صاحب مقالة خاصة تشبة مقالة الكرامية فى خراسان . ويقول المقدسى الذى زار مصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى إنه كان لهم محلة بالفسطاط ، ومن الممكن أن تكون هذه المحلة ظلت حتى عصر ابن الكيزانى ، وهو بذلك كان كراميا صوفيا ، أو صوفيا على مذهب الكرامية القائلين بالتشبيه على الذات العلية للعباد ، وهو تشبيه كان يقترن بالتنزيه ، وتبدو الفكرة معقدة ولكن من الممكن تصورها ، فأنت إذ تشاهد كائنا جميلا ترى فيه خالقك ، مع تنزيهه عن أن يكون هونفس الكائن الجميل . وليست هذه الفكرة كل مايميز الكرامية ، فقد كانوا يعتقدون – كما اعتقد الكيزانية – فكرة القدم فى أفعال العباد لا فى أفعال الله وحدها ، وقد أنكر العماد ذلك على ابن الكيزانى . وهو والكرامية معه إنما يريدون قدمها فى العلم الإلهى ، ومادام العلم الإلهى قديما فهى قديمة مثله . ومر بنا آنفا أن العماد قال إنه كانت تتبعه بمصر لعهده فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى فرقة كانت تعتنق نحلته ، ويقول القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ : « لابن الكيزانى بمصر وسواحل الشام فرق تنتمى إليه فى المعتقد وأكثرهم بحوف مصر » ويقول ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ : « بمصر طائفة ينسبون إلى ابن الكيزانى ويعتقدون مقالته » . وفى ذلك مايدل على أن منزعه الصوفى ظل معروفا بمصر وظل له أتباع طوال القرن السابع الهجرى على الأقل . ويبدو أنه كان هناك من يعارضه فى حياته وبعد مماته ، فقد ذكروا أن الفقيه نجم الدين الخبوشانى نبش قبره فى عهد صلاح الدين وأخرج منه عظامه ، وقال : « لاتتفق مجاورة زنديق إلى صدِّيق » ويقصد بالصديق الشافعى . وقد نقله إلى سفح المقطم ، يقول ابن خلكان : « وقبره مشهور هناك يزار ، وزرته مرارا ، رحمه الله » ويقول ابن تغرى بردى : « لا يلتفت لقول الخبوشانى فيه لأنهما أهل عصر واحد ، وتهور الخبوشانى معروف » . وتجمع كتب التراجم على أنه كان ورعا زاهدا ، بل متصوفا متقشفا ، وقد أنشد له العماد أكثر من ثلاثمائة بيت فى الحب الالهى ، تسيل عذوبة ورشاقة وخفة من مثل قوله :

تلذُّ لى فى هوى ليلى معاتبتى ... لأنَّ فى ذكرها بَرْدا على كَبِدى
وأَشتَهِى سَقَمى أن لايفارقنى ... لأنها أودعتْه باطنَ الجسَدِ
وليس فى النوم لى ماعشتُ من أرَبٍ ... لأنها أوقفت جَفْنى على السُّهُدِ
ولو تمادتْ على الهجران راضيَةً ... بالهجر لم أَشْكُ ما ألقى إلى أحد
اللومُ أشبهُ بى منها وإن ظلمتْ ... أنا الذى سُقْتُ حَتْفى فى الهوى بِيَدِى

ولو أننا لم نعرف قائل هذا الشعر وأنه من الصوفية لظنناه شاعرا عذريا ، فهو يشكو الصد والهجر ويرمز عن الذات الإلهية بليلى ، ويتمادى فى العتاب ، معلنا سقمه وسهده ، بل لقد عرض نفسه للموت والهلاك . وابن الكيزانى مثله مثل شعراء الحب الإلهى جميعا فقد رفعوا كل الحواجز بينهم وبين أصحاب الغزل العذرى ، معبرين بما فى غزلهم من حسية واضحة عن رموز ومعان صوفية ، حتى لنرى ابن الكيزانى يقول :

أتزعم ليلى أننى لا أحبُّها وأنّى – لما ألقاه – غيرُ حَمولِ
فلا ووقوفى بين أَلْوية الهَوَى وعصيانِ قلبى للهوى وعذولى
لو انتظمتْنى أسهمُ الهجر كُلُّها لكنتُ على الأيام غيرَ ملولِ
ولست أبالى إذ تعلقتُ حبَّها أفاضتْ دموعى أم أضرَّ نُحولى
وماعَبْثى بالنوم إلا تعلُّلٌ عسى الطيفُ منها أن يكونَ رسولى

وهل من فارق بين هذه الأبيات وأبيات الحب العذرى ؟ إنه ليذكر وقوفه بمعاهد الهوى وعصيانه للعذول أو العواذل وصبره على الهجران الأليم ومايعانى فيه من البكاء والنحيب والسقم والنحول ، ويأمل فى طيف يزوره فى الحلم ليلا ، ولكن لنحذر هذا الفهم الظاهرى للأبيات فابن الكيزانى إنما يتخذ ذلك كله رموزا عن معانى حبه وهيامه بالذات العلية ، وهو هيام لا نهائى غير محدود بحس ولامايشبه الحس ، هيام كله لوعة ووجد ، وجد سماوى علوى يندلع شرره فى كل جسمه وجوارحه وحشاه وهو صابر لايتألم ولايشكو ، بل يجد لذة لا يبلغها وصف فى ألمه ، حتى ليبذل دمه فى سبيل حبه طائعا مختارا ، فهو النور الذى يضىء فى جنبات قلبه وفؤاده ، وهو الخمر الروحانية التى سرت فى شرايينه ، فلم يعد يملك إزاءها حولا ولا قوة ، يقول :

جُرْ كيف شئتَ فلستُ أولَ عاشقٍ كأسُ المحبَّة فى محبتهِ سُقِى

إنه لم يعد فى حال صحو بل أصبح فى حال سكر بالعشق الإلهى الذى لاحدود ولاضفاف له ، عشق ما إن يأمل فيه بلقاء محبوبه ، حتى يبتعد عنه ، تاركا له الحسرات والدموع ، لقد كان شهوده قاب قوسين أو أدنى ، وسرعان ماطار الحلم وولى الأمل ، وينادى ابن الكيزانى :

ياحادىَ العِيسِ اصْطَبِرْ ساعةً فمهجتى سارتْ مع الرَّكْبِ
لاتَحْدُ بالتفريق عن عاجلٍ رفقاً بقلبِ الهائمِ الصَّبِّ

وهو يعبر عن ضياع الأمل فى لقاء المحبوب بالرحلة ولوعاتها الممضة فى نفوس العشاق تعبيرا رمزيا عن آلامه وأوصابه وأوجاعه النفسية ، فلم يعد يستطيع اللحاق بمحبوبه فضلا عن مشاهدته . وعلى نحو ما يعبر عن ذلك تعبيرا حسيا بالرحلة كذلك يعبر عنه – كما عبر المحبون العذريون طويلا – ببكاء الديار والوقوف على الأطلال الدارسة أو العافية ، بمثل قوله :

بِـربِّكما عَـرِّجَا ساعـةً نَنوحُ على الطَّلل الدارسِ
ففيضُ الدموع على رَسْمِهِ يُتَرجم عن حُرَقِ البائس

ودائما يتعلق ابن الكيزانى بخيط من الأمل فى مشاهدة محبوبه ، ونوره يتألق له ولايراه ، ويبحث عنه بين الأطلال ، ويسأل عنه العِيسَ ، وهى ملحة فى المسير ، لتلتفت إليه ، وهو هائم على وجهه غارق فى دموعه ، ونار الحب تتقد فى أحشائه ، يقول :

يامَنْ يَتيهُ على الزمان بحسنهِ اعْطِفْ على الصَّبِّ المشُوق التائهِ
أضحى يخاف على احتراق فؤادهِ أسفًا لأنك منه فى سَوْدائه

ودائما تلقانا عند ابن الكيزانى هذه اللوعة ونارها التى توشك أن تحرق والتى مايزال يذوقها ويصطلى بها مالكة عليه قلبه مستأثرة منه بكل شىء ، إنه ليس حبا فقط ، بل هو حب ومحنة أو هو سعادة وعذاب ، وهو راض بذلك كل الرضا ، حتى لايطلب لحبِّه دواء ولاشفاء ، يقول :

اصْـرِفـوا عنى طـبيبى ودَعـونى وحَـبِـيـبِـى
عَـلِّـلوا قـلبى بـذكـرا هُ فقد زادَ لهيبى
طابَ هتْكى فى هواهُ بين واشٍ ورقـيبِ
لا أبالى بفوات النَّفْـ ـس مـادامَ نصـيبى
ليس من لامَ وإن أطْـ ـنَبَ فـيـه بمصيبِ
جَسدى راضٍ بِسُقْمى وجُـفـونى بـنَـحـيبى

إن الداء هو نفس الدواء وإن العلة هى نفس الشفاء ، وهو لايفكر فى برء من علة أو داء ، لأنهما سعادته الغامرة ، وحقًّا إنهما يثيران حريقا فى فؤاده ، غير أن مايشربه معها من رحيق المحبة الربانية المصفى ينسيه الحريق وناره المتلظية التى لاتنطفئ فى سويداء فؤاده أبدا .

ابن (١) الفارض

هو عمر بن كمال الدين على الفارض ، كان أبوه من حماة بسوريا ، هاجر منها فى مطالع شبابه إلى القاهرة ، وفيها رزقه الله ابنه عمر سنة ٥٧٦ للهجرة، فهو مصرى المولد والمنشأ والمربى والحياة . كان أبوه من علماء الفقه والشريعة ولُقِّب بالفارض لكتابته الفروض على النساء والرجال . ولِىَ نيابة الأحكام بالقاهرة والفسطاط ، ويقال إنه عُرضت عليه وظيفة قاضى القضاة فأباها ولزم قاعة الخطابة بالجامع الأزهر يتنسَّك ، وعُنِى بابنه فألحقه بدروس العلماء بالعلوم الشرعية واللسانية ، حتى إذا شبَّ دفعه إلى التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من المتصوفة فى الجبل الثانى من المقطم ، وهناك أخذ عمر يتجرد للعبادة والنسك . وأحسَّ برغبة شديدة للمقام بمكة مهبط الوحى على الرسول ﷺ فرحل إليها ، ومكث بها خمسة عشر عاما سائحا فى أوديتها عابدا الله ناسكا مؤملا فى أن تفيض عليه الفتوحات الإلهية ، مكثرًا من الصلاة والصيام ، حتى فُتحت له الأبواب المغلقة ، وشعر كأنه فى مقام الشهود للذات العلية . وعاد إلى وطنه ، غير أنه ظل يأسى لفراقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله :

ياسميرى رَوِّح بمكَّةَ روحى ... شاديًا إنْ رغبتَ فى إسْعادى
كان فيها أُنسِى ومِعْرَاجُ قُدْسِى ... ومُقامى المَقامُ والفَتْحُ بادى

ولزم مناسك العبادة وخاصة وادى المستضعفين بالمقطم والجامعَ الأزهر ، يذكر الله ويسبِّحه ويعبده حق عبادته ناسكا خاشعا متضرعا ، شاعرا من وقت إلى آخر أنه أصبح فى مقام الشهود لربه ، فيشخص بصره ويغيب عن كل ماحوله غيبة قد تطول أياما وهو لايسمع صوتا ولا يرى أحدا ولايشرب ولايطعم ولاينام ، فقد غاب عن كل حواسه وغمره نور شهوده للذات العلية ، ومضى يعكف على التقوى والنسك والصلاة ، وشاع أمره فى القاهرة فكان الناس يزدحمون عليه إذا سار فى الطرقات يلتمسون منه الدعاء ، وهو غائب عنهم ، مشغول بحبه لربه وبما ينظم فى هذا

---

(١) انظر فى ابن الفارض وترجمته وأشعاره النجوم الزاهرة ٢٨٨/٦ وابن خلكان ٤٥٤/٣ وميزان الاعتدال ٢١٤/٣ وعبر الذهبى ١٢٩/٥ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣ ولسان الميزان ٣١٧/٤ وشذرات الذهب ١٤٩/٥ وحسن المحاضرة ٥١٨/١ وكتاب ابن الفارض والحب الإلهى للدكتور محمد مصطفى حلمى وكتابنا فصول فى الشعر ونقده ص ١٩٧ وما بعدها . وديوانه طبع بمصر مرارا طبعات مستقلة ، وطبع مع شرح عبدالغنى النابلسى وهو شرح صوفى رمزى ، ومع شرح حسن البورينى على ظاهر اللفظ دون تأويل .

الحب من أشعار لعلها أروع مانظمه الصوفية فى حبهم الإلهى ، حتى لُقِّب بحق سلطان العاشقين للذات الربانية . وهى أشعار تموج بوجد ملتاع لاحدود له ، متخذا لذلك لغة العشاق العذريين ومايذكرونه من معاهد المحبوبة يريد معاهد مكة التى هبط عليه فيها النور الإلهى ، وأيضا مايذكرونه من نسيم الصبا المحمل بشذى المحبوبة ، وهو فى أثناء ذلك يئن وينوح آملا فى الوصال وأن يشرق عليه النور الربانى ، متجرعا غصص الهجر والصد والسهاد ، ويصيح فيمن تحدثه نفسه بسلوك هذا الطريق المحفوف بمالا يحصى من الأشواك والصعاب :

هو الحبُّ فاسْلَمْ بالحَشا ما الهَوى سَهْلُ ... فما اختاره مُضْنًى به وله عَقْلُ
وعِشْ خاليًا فالحبُّ راحتُهُ عَنًا ... وأَوَّلُه سُقْمٌ وآخِرُه قَتْلُ

وهو لايريد القتل الحقيق ، بل يتخذه رمزًا للحظات الفناء فى الذات العلية حين يتجرد الصوفى – مثل ابن الفارض – من حواسِّه ومن كل وجوده فلا يشعر بزمان ولابمكان ، وكأنما غاب عن حياته ، بل كأنما مات بسبب حبه شهيدا ، وهو موت لايتحقق تصوف بدونه ، حتى ينمحي المتصوف فى الذات الربانية ونورها الإلهى ، وحتى لايرى فى الوجود سوى ربه الماثل فى الكون وكائناته وكل شىء فيه ، يقول :

تراه – إن غابَ عنى – كلُّ جارحةٍ ... فى كلِّ معنى لطيفٍ رائقٍ بَهِجِ
فى نَغْمة العُود والنَّايِ الرَّخيم إذا ... تألَّفا بين ألحانٍ من الهَزَجِ (١)
وفى مَسَارح غِزْلان الخمائل فى ... بَرْدِ الأصائل والإصباح فى البَلَجِ (٢)
وفى مساقط أَنْداءِ الغمامِ على ... بساطِ نَوْرٍ من الأزهار مُنْتسِجِ
وفى مساحبِ أذيالِ النَّسيمِ إذا ... أهدى إلىَّ سُحَيْرًا ، أطيبَ الأرَجِ (٣)

فهو يرى الله وجلاله وجماله ماثلا فى جميع أركان الكون وعناصره : فى أنغام العود والناى المرافقة لألحان الهزج ، وفى مشهد غزلان الرياض وقد انتعشت قلوبها بأنفاس الأصيل والصباح ، وفى الأزهار والورود مساقط أنداء الغمام وهى متناثرة هنا وهناك على أبسطة الطبيعة البهيجة ، وفى النسيم يملأ الجو سحرًا بشذاه وأريجه العطر . وابن الفارض لايعبر بذلك ومثله فى أشعاره عن إيمانه

---

(١) الرخيم : اللين الناعم .
(٢) البلج : أول إسفار الصبح وانتشار الضوء .
(٣) الأرج : الشذى والرائحة العطرة .

بوحدة الوجود التى كان يؤمن بها غلاة الصوفية من أمثال ابن العربى معاصره ، فهو إنما يريد أن يقول إن نور الله منبثٌّ فى الكون بجميع كائناته وعناصره ، متجلٍّ فى كل مناظره ومشاهده ، وذلك هو سر وجده وهيامه وولهه بربه ، يريد أن يشرق عليه ضياء جماله . ويظل يحلم بشهوده حلما متصلا مجاهدا فى سبيل ذلك محتملا من العذابِ مايطاق وما لايطاق ، متغنيا بالجمال الربانى ومايَصْلَى فيه من هجر ، هاتفا من فؤاده :

تِهْ دَلَالاً فأنت أهلٌ لِذاكا ... وتحكَّمْ فالحسنُ قد أعطاكا
وتَلاَفى إن كان فيه ائتلافى ... بك عَجِّلْ به جُعلتُ فِداكا
فُقْتَ أهل الجمال حُسْنًا وحُسْنَى ... فبِهم فاقةٌ إلى مَعْناكا

وهو يضيف إلى الذات العلية التحكم والدلال على طريقة أصحاب الحب العذرى ، ولايلبث أريج الحب الصوفى أن يعبق فى البيت الثانى ، فهو يطلب أن يتلف فى حبه مادام فى تلفه ائتلافا بربه المحبوب ، وهو لايريد التلف الحقيقى إنما يريد الفناء المطلق فى ربه وجماله الذى يفوق كل جمال ، بل إن كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجلى فى الكون بنوره . وعلى نحو اتخاذ ابن الفارض للغزل العذرى رمزًا لحبه الصوفى نراه يتخذ الخمر ونشوتها رمزا لهذا الحب ، ولاخمر ولا كئوس ولادنان ولاسقاة ، وإنما هو جمال الذات الإلهية الذى شغف به حتى ليظن كأنما نهل من شراب قدسى مسكر ، فهو سكران دائما منتشٍ غائب عن وجوده . ومن قوله فى ذلك من قصيدة بديعة :

شَرِبْنَا على ذكرِ الحبيبِ مُدَامَةً ... سَكِرْنَا بها من قبل أن يُخْلَقَ الكَرْمُ
لهَا البَدْرُ كأْسٌ وَهْى شمسٌ يُديرها ... هلالٌ وكم يبدو - إذَا مُزِجَتْ - نَجْمُ
وإن خطرتْ يوما على خاطرِ امرئٍ ... أقامتْ به الأفراحُ وارتحل الهَمُّ
ولو نَضَحُوا منها ثَرَى قَبْرِ مَيِّتٍ ... لعادتْ إليه الروحُ وانتعشَ الجِسْمُ

وهو يقول إن سُكْره بتلك المدامة أو الخمر قديم أقدم من الوجود ، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية التى يذهب المتصوفة إلى أنها تسبق نشأة الكون ، وأن أضواء مازالت تفيض من تلك الحقيقة فى نفوس الأنبياء ونفس الرسول ﷺ ونفوس المتصوفة من بعده حتى تجلت فى ابن الفارض ، ومن هنا يقول إن سكره بها ونشوته يسبقان الخليقة . ويقول إنها تجلب الفرح وتطرد

الهم ، وتحيي الروح لامجازا بل حقيقة ، فلو صبوها على قبر ميت لعادت إليه الروح ودبت فيه الحياة . ويمضي فيقول : إنها صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هواء ، ونور ولانار ، وروح ولاجسم . خمرربانيةلاتشوبهاأىشائبةمادية ، خمريتنتشي بهاابن الفارض وأمثاله فيغيبون عن وجودهم غيبة كلها متاع وكلها نعيم لاحدود له . وديوانه كله من هذا الطراز انتشاء وسكر وحب ووجد وولـه والتياع ، وتطول إحدى قصائده حتى تبلغ سبعمائه وستين بيتا أو تزيد ، وهى تائية وتسمى التائية الكبرى لأن له بجانبها تائية صغرى ، وهو فيها يصور معراجه القدسي بمكة وفتوحه التى هبطت عليه هناك وإنمحاءه حينئذ فى الحقيقتين : الإلهية والمحمدية ، حتى ليتكلم فى بعض أجزاء القصيدة باسمها ، وهو يستهلها ببيان شربه من كأس المحبة الربانية ونشوته بها وما تجشمه فى معراجه من أهوال وخطوب ومحن ، وكلها كما يقول منح من ربه وعطايا اجتازها فى معراجه ، خالصا إلى الانمحاء والفناء فى الذات العلية حتى ليقول :

ولم تَهْوَنِى مالم تكن فيَّ فانيًا ولم تَفْنَ مالم تُجْتَلَبْ فيك صورتى
كلانا مُصَلٌّ واحدٌ ساجدٌ إلى حقيقتهِ بالجَمْع فى كلِّ سَجْدَةِ
وما كان لى صَلَّى سوايَ ولم تكن صلاتى لغيرى فى أَدَا كلِّ ركعةِ

وكأنه يشعر فى البيت الأول أنه لايزال دون الحب الإلهي لاتصاله بل لاتصافه بالصفات البشرية . ويقول فى البيت الثانى إنها ينبغي أن تُمْحى فيه حتى يفنى فى الذات الربانية وتتجلَّى فيه الصورة الإلهية ، وما يلبث أن يقول فى البيت الثالث إن حواسه تعطلت وتعطلت فيه كل إرادة وشعور ، حتى فنى فناء مطلقا فى ربه ، متخطيا مرتبة الصحو إلى مرتبة الشهود أو كما يسميها الجمع ، وكأنما يصلى لنفسه أو لربه متجليا فيه ، يقول :

وطاحَ وجودى فى شهودى وبِنْتُ عن وجودِ شهودى ماحيًا غيرَ مثبتِ
وفى الصَّحْو بعد المحْوِ لم أكُ غيرها وذاتى بذاتى إذ تجلَّتْ تجلَّتِ

فهو قد انمحى وفنى فناء كليا فى الذات العلية ، وبلغ من هذا الانمحاء والفناء أعلى مراتبه ، إذ لا يعتريه فى حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الربانى ، بل أيضا يعتريه فى حال الصحو ، فهو دائما ممحوٌّفانٍ فى الذات الإلهية . وهو دائما يعلن أنه متمسك أشد التمسك بالكتاب وأداء الفرائض

الدينية وبالسنة والحديث النبوى ، فمنهما يستمد فى كل موارده الروحية . وقد أشار مرارا إلى أن لب تصوفه ومايذهب إليه من عقيدة الفناء فى الذات الربانية إنما يصدر فيه عن الرسول ، يقول :

وجاء حديثٌ فى اتحادىَ ثابتٌ ... روايتهُ فى النَّقْل غيرُ ضعيفةِ
يشيرُ بحبِّ الحَقِّ بعد تقرُّبٍ ... إليه بنَفْلٍ أو أداء فريضةِ

وهو يشير إلى الحديث النبوى المشهور : « ماتقرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ من أداء ما افترضتُه عليه ، ولايزال عبدى يتقرَّبُ إلىّ بالنوافل حتى أحبته ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها .. وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه » . وفكرة الانمحاء والفناء واضحة فى الحديث ، ولعل فى ذلك مايشير بوضوح إلى تصوف ابن الفارض وأمثاله إنما كان تصوفا إسلاميا خالصا . ومازال يتنسك لربه حتى تو ٦٣٢ للهجرة .

البوصيرىّ(١)

هو أبوعبد الله محمد بن سعيد بن حماد ، كان أبوه من بوصير وأمه من دلاص ، فكوَّن لنفسه من اسم بلديها لقبًا هو الدلاصيرى ، غير أن اللقب الذى غلب عليه ، وبه اشتهر ، هو البوصيرىّ. واختلف م ترجموا له فى تاريخ مولده كما اختلفوا فى تاريخ وفاته ، والأرجح أنهُ ولد سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٩٨ وقى بل ولد سنة ٥٩٨ وتوفى قبل السنة السالفة فقيل سنة ٦٩٤ أو ٩٥ أو ٩٦ أو ٩٧ وقيل بل سنة ٦٨١ والصحيح مارجحناه . واختلف مثل لِداته إلى الكتاتيب حتى حفظ القرآن الكريم ، ثم انتظم فى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الشريعة واللغة ، ويبدو أن ميوله الأدبية اتضحت فيه مبكرة وتفتحت فى نفسه ملكاته الشعرية ، مما جعله ينتظم فيمن يعملون فى الكتابة الديوانية ، وعُيِّن فى دواوين بلبيس بالشرقية . ومرَّ بنا هجاؤه للموظفين هناك وتسجيله عليهم

---

(١) انظر فى البوصيرى وحياته وأشعاره الفوات ٤١٢/٢ والوافى بالوفيات للصفدى ١٠٥/٣ وحسن المحاضرة ٥٧٠/١ وشذرات الذهب ٤٢/٥ ومقدمة ابن حجر الهيثمى على شرح مدحته الهمزية النبوية ولطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى وطبقات الصوفية للشعرانى ١١/٢ وما بعدها ، والخطط الجديدة لعلى مبارك ٨/١٠ وكتابنا فصول فى الشعر ونقده ص ٢٢٩ — ٢٥٤ . وديوانه (طبعة الحلبى) بتحقيق محمد سيد كيلانى . وأورد بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى ٨١/٥ ترجمات بردته إلى اللغات الأجنبية وتخميساتها وتشطيراتها وشروحها المختلفة وكذلك الهمزية .

الخيانة للدولة وأكل أموال الناس بالباطل . ويبدو أنه زهد فى العمل معهم سريعا وعاد إلى القاهرة ، محترفا إقراء القرآن للصبية وبعض الفتية فى مسجد الشيخ عبد الظاهر ، وكان مسجدا مغمورا وتصادف أن أمر الملك الصالح فى أثناء توليه لمقاليد الأمور بمصر (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ) بتوزيع ألف دينار على طلبة العلم . ولم يصب منها مسجده المغمور وطلابه شيئا ، فنظم على لسان المسجد شكوى للملك الصالح استهلها بقوله :

ليت شعرى مامُقْتَضى حِرْمانى دون غيرى والألفُ للرَّحْمٰنِ
أترانى لا أستحقّ لكونى جامعًا شملَ قارئى القرآنِ

ونراه كثير الرحلة إلى البلدان المصرية والاتصال بمن فيها من الولاة ، وله فيهم بعض المدائح وكذلك فى بعض وزراء الدولتين الأيوبية والمملوكية وفى بعض الأمراء والسلاطين ، ويبدو أنه كان يضطر للمديح اضطرارا ، ليوفر لأولاده الكثيرين الطعام والثياب ، ويصرح بذلك مرارا فى مديحه بمثل قوله :

إليك نشكو حالنا إننا عائـلةٌ فى غاية الـكَثْرَهْ

وكما تلقانا فى أشعاره المبكرة أهاج مختلفة لموظفى الشرقية تلقانا عنده دعابات مختلفة تصور المزاج المصرى المعروف بالميل إلى الفكاهة والنادرة ، وربما أراد بشكواه فى مدائحه من فقره وبؤسه إلى الدعابة ، ويقول :

ولو أنِّى وحدى لكنتُ مريدًا فى رِباطٍ أوعابدًا فى مَغَارَهْ

وكأنه كان يشعر فى أعماقه بأنه خُلق لاليكون إنسانا يضطرب فى الحياة ومشاغلها اليومية ومكاسبها الضرورية له ولأسرته ، وإنما ليكون عابدا ناسكا فى رباط صوفى أو فى كهف يخلو فيه للنسك والعبادة . ويبدو أنه مَدَّ إحدى رحلاته إلى الاسكندرية وتعرف على أبى الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية المشهورة ، وانتظم فى سلك مريديه وطريقته الصوفية ، حتى إذا خلفه أبو العباس المرسى على الطريقة ظل يلزمه ، حتى عُدَّ ثانى اثنين من تلاميذه هو وابن عطاء الله السكندرى ، وفى ديوانه قصيدة دالية يمدحه بها ، ويعزيه فى شيخه أبى الحسن حين توفى سنة ٦٥٦ ويشيد به إشادة رائعة إذ كان من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، يقول :

اسْلُكْ طريقَ محمدِىٍّ شريعةٍ وحقيقةٍ ومحمَّدِىٍّ المَحْتِدِ
إن الإمامَ الشاذلىّ طريقهُ فى الفضل واضحةٌ لعين المهتدى
قطبُ الزمانِ وغَوْثُهُ وإمامُه عَيْنُ الوجود لسانُ سِرِّ الموجدِ

فهو قطب الزمان وإمامه ، وعين الوجود إذ كان يؤمن المتصوفة بأن القبس الإلهى المبثوث فى الأنبياء نُقل إليهم وإلى أئمتهم ، ويقول إنه من أهل الشريعة المحمدية والحقيقة الصوفية ويشير إلى أنه سليل الرسول ﷺ فهو محمدى نسبا وحقيقة صوفية وشريعة إسلامية .

ويبدو أن البوصيرى منذ صلته بالطريقة الشاذلية لم يتجه بأشعاره نحو المحبة الإلهية على نحو ما اتجه ابن الفارض ، بل اتجه إلى المديح النبوى ، وبلغ فيه ذروة لم يبلغها أحد قبله ولا فى زمنه ، فقد نظم فيه ديوانا رائعا . وكان الصليبيون ، شاهت وجوههم ، يكتبون رسائل ضد الدين الحنيف وصاحبه ، فرد عليهم طويلا فى مديحه النبوى ، وأفرد للرد عليهم وعلى اليهود قصيدة طويلة فى نحو مائتين وسبعين بيتا ، داحضا افتراءاتهم على الرسول الكريم ناقضا ما ادعاه النصارى من ألوهية المسيح وصَلْبه وما جاء فى التوراة المحرَّفة من ارتكاب الأنبياء للمعاصى ، وسمى قصيدته « المخرج والمردود على النصارى واليهود » ويتحدث فى حماسة فياضة عن صفات الرسول وسيرته ومعجزاته الباهرة وانتصاراته الساحقة على أعدائه وأعداء الله . ويكثر من المديح النبوى ومن التنويه بالخلفاء الراشدين وبالصحابة وآل البيت مصورا فى الرسول أزلية النور المحمدى المعنوى لُبِّ الوجود وروحه ، وكأن للرسول وجودين هذا الوجود المعنوى الذى يستمد منه الكون وجوده والذى تعاقب فى الأنبياء منذ آدم ، ووجود ثان حسى مادى هو وجوده حين وُلد ثم بُعث بشيرا ونذيرا ، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة المحمدية الأزلية وصورة الإنسان ، على نحو مانقرأ فى قوله :

محمدٌ حُجَّةُ اللهِ التى ظهَرتْ بسُنَّةٍ مالها فى الخلق تحويلُ
من كمَّل اللهُ معناهُ وصورتَهُ فلم يفُتْهُ على الحالين تكميلُ
من آدمٍ ولحين الوَضْعِ جوهرُه الـ ـمكنونُ فى أنْفَسِ الأصْدافِ محمول
فللـنـبوَّة إتمامٌ ومُـبْـتَـدَأٌ بهِ وللفخرِ تعجيلٌ وتأجيلُ

ودائما يعصف الحنين بقلبه إلى زيارة مكة والمدينة عصفَ الوجد الملتاع ، ودائما يردد معجزات

الرسول وجهاده فى غزواته ، ودائما يكرر حقيقته الأزلية ، حتى لكأنه مبدأ الوجود ومبدأ النبيين وأيضا خاتمهم ، يقول :

كان سِرًّا فى ضمير الغَيب منْ قبل أن يُخْلَقَ كونٌ أو يكونا
تشرق الأكوانُ من أنوارهِ كلما أودعها اللهُ جَبِينا
ختم اللهُ النبيين بــهِ قبل أن يَجْبُلَ من آدم طِينا
فَهْوَ فى آبائهم خَيْرُ أبٍ وهَوَ فى أبنائهم خيرُ البنينا

فهو السر الأول فى الكون أو هو العلة الأولى ، خُلقَ قبلَ الكون وخلق قبل أن يُجْبل أو يخلق آدم ، وكل نور فى الكون مستمد منه ، وهو مبدأُ الأنبياء ومنتهاهم ، وهو أبوهم المعنوى الأزلى ، فيه تبدأ الحياة وإليه تنتهى . ويكثر البوصيرى فى مدائحه النبوية من الضراعة للرسول أن يقبل توبته وأن يكون شافعه يوم القيامة حتى ينال رضوان ربه وغفرانه .

ويشتهر البوصيرى بمدحته النبوية المسماة بالهمزية وقد سماها « أم القرى فى مدح خير الورَى » وهى فى نحو أربعمائة وخمسين بيتا وعُنى كثيرون بشرحها ، وهو فيها يجمل سيرة الرسول حتى يوقد حمية الشباب المحاربين للصليبيين ، ويفتتحها بفكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول سر الوجود ونوره الذى يفيض على الكون وعلى الأنبياء من قديم ، يقول :

كيف تَرْقَى رقِيَّك الأنبياءُ ياسَماءً ما طاولتْها سماءُ
إنما مثَّلوا صفاتِك للنَّا سِ كما مثَّل النجومَ الماء
أنت مصباحُ كلِّ فضلٍ فما تَصـ ـدرُ إلا عن ضوئك الأضواءُ

فالرسول لاتبلغ منزلته ودرجته الرفيعة منزلةُ أى نبىٍ أو رسول ، إنه فى أعلى علِّيين ، وكل رسول إنما مثَّل جانبا من صفاته الربانية ، كما تمثِّل النجوم المترائية على صفحة الماء النجوم على صفحة السماء . وإن كل ضوء ونور فى الكون ليستمد من مصباحه ، فهو منبع كل نور ومصدره . ويتحدث عن مولده وما اقترن به من دلائل النبوة ، ويفيض فى الحديث عن سيرته حتى مبعثه ، ويعدد بعض معجزاته الباهرة وفى مقدمتها الإسراء ، ويصور جهاده الباسل فى نشر دينه ، ويرد على النصارى واليهود افتراءاتهم على الدين الحنيف ، ويعرض بعض معتقداتهم الفاسدة ، ويلم بعداء اليهود للإسلام وحربهم لرسوله . ويصور حِجَّته إلى مكة وأداء المسلمين

لمناسك الحج . وينوه بمواقف كبار الصحابة وبالصحابة جميعا وبأستاذيه الشاذلى وخليفته أبى العباس المرسى ، ويتضرع فى أثناء ذلك للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه فى محو ذنوبه .

وأروع من هذه المدحة النبوية مدحته الميمية المسماة بالبُرْدة وقد عارضها كثيرون ويقال إنه كان قد أصابه فالج ، فنظم هذه القصيدة وأتخذها شفيعا لدى الله كى يعافيه ، وظل يكرر إنشادها ويبكى ويدعو ويتوسل ، ونام فرأى النبى ﷺ يمسح على وجهه بيده المباركة ويلقى عليه بردة ، وانتبه فوجد نفسه معافى ، وشاعت القصة وسميت القصيدة البردة . وهو يفتتحها متغزلا بحجازية من ذى سَلَم أشعلت الحب فى قلبه ، وهو إنما يتخذها رمزا لوجده الملتاع بحب الرسول عليه السلام ، ويلم بأصل من أصول الطريقة الشاذلية . وهو كبح جماح النفس وردها عن شهواتها . ويتحدث عن فضائل الرسول مبتدئا بفضيلة الزهد وكيف أنه لولاه لم تخرج الدنيا من العدم ويسترسل فى تصوير الحقيقة المحمدية الأزلية قائلا :

فاقَ النبيين فى خَلْقٍ وفى خُلُقٍ ... ولم يدانوه فى عِلْمٍ ولا كَرَمِ
وكلُّهم من رسول الله ملتمسٌ ... غَرْفًا من البَحْر أورَشْفًا من الدِّيَمِ
فإنه شمسُ فضلٍ هم كواكبُها ... يُظهِرْن أنوارَها للناس فى الظُّلَمِ

فهو يفوق الأنبياء صورة وخلقا وعلما وكرمًا وكلهم يلتمس من علمه وحكمته ويستمد من نوره ، فنوره يتجلىَّ فى الأنبياء جميعا ومهما تعددوا فى الأزمنة فإنهم شخصية واحدة وحقيقة واحدة هى الحقيقة المحمدية . ويفيض البوصيرى فى بيان معجزات الرسول ، وخاصة القرآن معجزته الكبرى كما يفيض فى بيان جهاد الرسول وصحابته لأعداء الرسول ودينه الحنيف حتى استسلموا صاغرين . ويضرع للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه كما يضرع لله أن يلطف به فى دنياه وآخرته . ولاتزال هذه القصيدة وأختها الهمزية تنشد إلى اليوم فى حفلات الموالد وحلقات الذكر الصوفى وله بجانبهما فى المدائح النبوية أناشيد أخرى رائعة .

محمد بن أبى الحسن[1] البكرى الصِّدِّيق

من سلالة أبى بكر الصديق بمصر ، ولد بها سنة ٩٣٠ وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأقبل على حفظ المتون والتلقى على شيوخ عصره يأخذ ماعندهم ، وكان أستاذه الأول أباه ، وجلس مكانه فى الجامع الأزهر للتدريس بعد وفاته وعمره لايتجاوز إحدى وعشرين سنة ، وكان يدرس لطلابه فقه الشافعى ، وله شرح على متن أبى شجاع . وكان آية فى العلم والزهد واشتهر بتعمقه فى العلوم الشرعية واللغوية والصوفية ، وورث عن أبيه مشيخة السادة البكرية وله يناجى ربه :

رَبِّ إنى عبدٌ ذليلٌ ضعيفٌ فلِحالى باللطف منك تدارَكْ
كُلُّ قَطْرٍ أصابنى منك بَحْرٌ كيف والحالُ فىَّ تجرى بحارُكْ
كلُّ جزءٍ منى لسرِّك دارٌ عَمَّر الله ياحبيبى ديارَكْ
من رآنى رآك من غير شكٌ أىُّ شكٌ وقد جعلتُ مَزارَكْ

وتمثل فى الأبيات مثولا بينا فكرة الاتحاد بالذات الربانية المعروفة عند المتصوفة ومايتبعها من فكرة الفناء ، فناء الإنسان عن صفاته البشرية ، وهى فكرة رأيناها واضحة عند ابن الفارض : وله قصائد كثيرة يصف فيها حبه ومواجده الروحية من مثل قوله :

حَبِيبُك دانٍ رقيب قريبُ فماذا البكاءُ وماذا النَّحيبُ
نعم هو دانٍ ولكنَّنى بَعيدٌ فقيدٌ طريدٌ غريب
بُكائى علىَّ لأنى بُليتُ بداء الصُّدودِ وعزَّ الطبيبُ

وعلى هذا النحو دائما هو واله ملتاع يبغى الوصال ، ومحبوبه قريب منه ، بعيد لأنه لاينيله أمنيته من الوصول وهو لذلك دائم القلق ، ويئن والمحبوب منصرف عنه معرض . وهو يهتف

---

(١) انظر فى محمد بن أبى الحسن ريحانة الألبا للخفاجى ٢٢٠/٢ وأكمل الترجمة بعد ترجمته لابنه أبى المواهب ص ٢٢٣ وراجع شذرات الذهب ٤٣١/٨ والنور السافر للعيدروس (طبع بغداد) ص ٤١٤ وكتاب بيت الصديق للسيد محمد توفيق البكرى وماذكره من مراجع .

وينادى آملا راجيا ويردد ماردده ابن الفارض وغيره من الصوفية قبله . من الحديث عن مدامة الحب الإلهى ورحيقه المسكر للصوفية .

وللبكرى استغاثات كثيرة بالرسول ﷺ حبيب الله خير مبعوث قرَّبه الله إليه ، وسره الأعلى الذى لايخيب أمله ، والذى ينال سؤله اللائذ . ومن قوله فى إحدى استغاثاته :

يا أكرمَ الخلق على ربِّهِ   وخيرَ من فِيهم به يُسْأَلُ
قد مسَّنى الكربُ وكم مرةٍ   فرَّجتَ كَرْبًا بعضهُ يُذْهِلُ
وأنت بابُ الله أىُّ امرئٍ   أتاه من غيرِك لا يدخلُ

ويضيف فى استغاثاته بالرسول إلى تفريج الكرب عنه وإقالته من عثراته الشفاعةَ له من ذنبه يوم المحشر بما أوتى من محبة الله ورؤيته له فى عروجه إلى السموات .

٥

شعراء الفكاهة

من أهم مايميز مصر قديما وحديثا ميل أهلها إلى الفكاهة والتندير والدعابة ، وقد صورنا ذلك تصويرا جامعا فى كتابنا « الفكاهة فى مصر » مستعرضين هذه الخصلة فى مزاج المصريين من عصر الفراعنة حتى العصر الحديث . ونراها واضحة طوال هذا العصر . بل منذ أن وجدت مصر شخصيتها الأدبية زمن الدولة الطولونية على نحو مايتضح من نبز شاعر بلقب الجمل الأكبر ، وخلفه شاعر كان يلقَّب بالجمل الأصغر ، ويقول ابن سعيد . «كان ينحو فى الظرافة والتطايب منحى الجمل الأكبر[1] » . ولايلبث أن يقول فى سعيد القاص شاعر الإخشيد الملقب هو الآخر بقاضى البقر : « من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه لديه بما كان فيه من الحلاوة والتندير والهزل[2] » . وإذا مضينا إلى زمن الدولة الفاطمية وجدنا ظاهرة النبز بالألقاب دعابةً للشعراء

---

(١) المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠   (٢) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

تتسع ، إذ ينبز غير شاعر بلقب غريب كما يوضح ذلك كتاب الخريدة للعماد الأصبهانى إذ يلقانا فيه شاعر لُقِّب بشَلَعْلَع وثان بالوضيع وثالث بالكاسات ورابع بالجهجهان وخامس بالنسناس إلى غير ذلك من ألقاب .

ومن أوائل الشعراء فى هذا العصر ابن وكيع التنيسى ومرت فى الفصل الماضى مربعة مزدوجة له ، جعل موضوعها غزله بغلام مسيحى ، وقد مضى فيها يداعبه ، منذرا له ، إن ظل هاجرا ، أن يشكوه إلى القساوسة ويتسع فى ذلك محتجا بتعاليم المسيح ووصايا متى ولوقا ومرقص ويوحنا ، ويقول إنه سيشكوه إلى الأسقف فإن لم يقلع عن هجره شكاه إلى المطران ، فإن لم يكف شكاه إلى البطريرك . وكانت تقترن بهذه الفكاهة سخرية شديدة بالفاطميين ووزرائهم عرضنا لها فى حديثنا عن الهجاء . وأدى هذا الميل إلى السخرية والفكاهة والرغبة فى التندير بالمصريين إلى الاتساع فى القذف بسهام التورية ، وهى تكثر فى سماء أشعارهم طوال هذا العصر حتى لتشبه النيازك التى يكثر إلقاؤها إلى الفضاء فى الأعياد ، فلاتزال النيازك تلقى ليلة العيد ، ولايزال الشعراء المصريون يرمون بتورياتهم قدحا ومدحا وغزلا على كل لون من مثل قول الشريف العقيلى مثنيا على زامر ونايه أو ناياته [1] :

وزامرٍ يكذبُ فيه عائبُهْ تكثرُ فى صنعته عجائبُهْ
يحجب صبرَ المرءِ عنه حاجِبُهْ كأنما ناياتُه ذوائبه

والتورية واضحة فى حاجب وذوائب . وممن تعلقوا بصنع التورية فى الحقبة الفاطمية ابن قادوس – كما مر فى غير هذا الموضع – ومثله قمر الدولة جعفر بن دوَّاس ، وله يقول فى ابن أفلح أحد الكتاب الشعراء وكان شديد السواد[2] :

هذا ابنُ أفلحَ كاتبٌ متفرِّدٌ بصفاتِهِ
أقلامُه من غيرِهِ ودواتُه من ذاتِهِ

وتلقانا بجانب التورية دعابات كثيرة للشعراء فى زمن الفاطميين ، يداعبون بها زملاءهم من الشعراء وأصدقاءهم من الكتاب والعلماء والأطباء ، من ذلك دعابة مشهورة للقاضى الجليس

---

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/٦٣ .

(٢) الخريدة ٢/٢١٩

شاعر الفاطميين ووزيرهم طلائع ابن رزيك وجَّه بها إلى طبيب تعهَّده وكان محموما ، فلم يبر أعلى يديه وفيها يقول[1] :

وأَصْلُ بَلِيَّتِي مَنْ قد غَزَانِي ... من السُّقْمِ الملحِّ بعسكرَيْنِ
طبيبٌ طِبُّهُ كغُرابِ بَيْنٍ ... يفرِّقُ بين عافيتي وبيني
أتى الحُمَّى وقد شاختْ وباختْ ... فردَّ لها الشبابَ بِنُسْخَتَيْنِ
ودبَّرها بتدبيرٍ لطيفٍ ... حكاه عن سِنانٍ أو حُنَيْنِ[2]
وكانتْ نوبةً فى كلِّ يومٍ ... فصيَّرها بحذقٍ نَوْبَتَيْنِ

والجليس يداعب الطبيب فبدلاً من أن يصله بعافيته فرق بينهما ، ويقول إنه جاء فى أواخر الحمى وقد شاخت وباخت أو فترت فإذا هو يردُّ لها الشباب بورقتين من سَفوف الدواء أو كما يقول بنسختين ، وكأنما أحكم تدبيره فى ردّ قوة الحمى إليها فإذا هى لاتعاوده فى اليوم نوبة بل نوبتين . ولعل القارئ لم ينس ابن الذِّروى فى الحقبة الأيوبية ووصفه لحدبة ابن أبى حصينة وصفا ساخرا لاذعا . ومن طريف مانقرأ من دعابات فى هذه الحقب دعابة البهاء زهير مع أحد أصدقائه ، وقد جعل موضوعها بغلته ، يقول[3] :

لك ياصديقى بَغْلَةٌ ... ليستْ تساوى خَرْدَلَهْ
تمشى فتحسبُها العيو ... نُ على الطريق مُشَكَّلَهْ[4]
وتُخالُ مدبرةً إذا ... ما أقبلتْ مُسْتعجله
مقدارُ خُطْوتها الطو ... يلةِ حين تسرعُ أَنْمُلَهْ
تهتَزُّ وهْىَ مكانَها ... فكأنما هى زَلْزله

ويريد البهاء زهير بالخردلة أقل شىء فى الصغر ، ويقول إنها حين تمشى يُظَن أنها مقيدة لبطئها الشديد ، ويجعلها مدبرة حين تقبل ومقدار خطوتها الطويلة أنملة فما بالنا بخطوتها القصيرة ، وإنها لتهتز واقفة لاتسير ولاتتحرك كأنما هى زلزلة .

---

(١) الخريدة ١٩٢/١ .

(٢) سنان هو سنان بن ثابت بن قرة من أطباء القرن الثالث ومثله حنين بن إسحق .

(٣) كتاب البهاء زهير للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ٥٤ .

(٤) مشكلة : مقيدة .

وتكثر التورية فى شعر القاضى الفاضل وزير صلاح الدين كثرة مفرطة من مثل قوله متشوقا إلى مصر وإلى شَربة من ماء النيل[١] :

بالله قُلْ للنيل عنى إننى لم أشفِ من ماء الفُراتِ غَليلا
وسَلِ الفؤادَ فإنه لى شاهدٌ أن كان طَرْفى بالبكاء بخيلا
ياقلبُ كم خَلَّفْتَ ثَمَّ بُثَيْنَةً وأظن صبرك أن يكون جميلا

فقد غاب عن مصر مع صلاح الدين فى بعض رحلاته وحملاته إلى الموصل ، وهو يعلن أن ماء الفرات لن يشفى غليله ، ولن يكف بكاؤه شوقا إلى مصر ورياضها ونيلها . والتورية واضحة فى كلمة جميل بعد ذكره لبثينة صاحبة جميل الشاعر الغزل القديم .

ويتوقف ابن حجة الحموى بكتابه خزانة الأدب فى حديثه عن التورية ملاحظا أنه خلفت القاضى الفاضل شعبتان[٢] : شعبة مبكرة وشعبة لاحقة ، أما المبكرة فجميعها مصريون وجميع اللاحقة شاميون ، ويعدِّد المبكرة ومن قاموا عليها من المصريين فى القرنين السادس والسابع للهجرة مسميا لهم ، وهم ابن سناء الملك من مثل قوله فى بعض غزله[٣] :

ملكتَ الخافقين فتِهْتَ عُجْبًا وليس هُمَا سوى قلبى وقُرْطك

فهى لاتمتلك قرطها الخافق المهتز وحده بل تمتلك أيضا قلبه الخافق ، والتورية فى كلمة الخافقين وهما الشرق والغرب . ويذكر ابن حجة بعد ابن سناء الملك شعراء القرن السابع المصريين : الجزار والوراق وابن النقيب والحمَّامى وابن دانيال ومحيى الدين بن عبدالظاهر ، وسنلم ببعض توريات من سنترجم لهم منهم ، ومن توريات ابن النقيب قوله المشهور[٤] :

أقول وقد شنّوا إلى الحرب غارةً دعونى فإنى آكلُ الخبزَ بالجُبْنِ

والتورية فى الجبن واضحة . ومن توريات النصير الحمامى قوله فى بعض غزله[٥] :

ويظننى حَيًّا رَوِيتُ بريقهِ فإذا دعا قلبى يجاوبُه الصَّدَى

---

(١) خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص ٣٠٠

(٢) خزانة الأدب ص ٢٩٨ .

(٣) الديوان ص ٤٦٣ والخزانة ص ٣٠٠

(٤) خزانة الأدب ص ٣٠٨

(٥) نفس المصدر ص ٣٠٨

والمعنى القريب للصَّدَى المتصل بالدعاء والجواب رجع الصوت ، والمعنى البعيد المراد الذى ورَّى عنه النصير الحمامى هو العطش . ويتوقف ابن حجة طويلا عند توريات ابن نباتة ، وقد روى منها أكثر من مائة تورية ، غير مارواه مما أخذه عنه الصفدى وغيره ، ومن طريف تورياته قوله لمن أهدى إليه تمرًا رديئًا غالبه نَوى ، إذ كتب إليه[1] :

أرسلتَ تَمْرًا بل نَوًى فَقَبلْتُه بيد الودادِ فما عليك عِتابُ
وإذا تباعدت الجسوم فودُّنا باقٍ ونحن على النَّوى أحباب

والمعنى القريب المتبادر لكلمة النوى هو نَوَى التمر ، والمعنى البعيد الذى أراده ابن نباتة هو البعد والفراق .

ويترك ابن حجة توريات ابن نباتة إلى توريات من جاء بعده من المصريين أمثال ابن الصائغ الحنفى وفخر الدين بن مكانس وبدر الدين البَشْتكى وابن أبى الوفا وابن حجر العسقلانى المصرى . وتستمر التورية فى الحقبة العثمانية وكأنها والمزاج المصرى صنوان لايفترقان . ويلقانا فى أيام العثمانيين شاعر فكه كان يعيش للهزل هو عامر الأنبوطى وسنترجم له عما قليل بين شعراء الفكاهة فى العصر .

ابن[2] مِكْنَسة

هو إسماعيل بن محمد الإسكندرى عاش فى القرنين الخامس والسادس للهجرة إذ توفى سنة ٥١٠ وفيه يقول أبو الصلت فى الرسالة المصرية : « شاعر مكثر التصرف ، قليل التكلف ، يفتنُّ فى نَوعىْ جِدِّ التعريض وهزله ، وضاربٌ بسهم فى رقيقه وجزله » . وكان مع جودة شعره يتبذل فى مديحه وبلغ منه ذلك أنه انقطع إلى عامل مسيحى يسمى أبامليح فى عهد بدر الجمالى وزير المستنصر وكأنه لم يجد عند بدر ما يغنيه ، فلما تحوّلت الوزارة منه إلى ابنه الأفضل وتعرَّض لاستماحته لم يقبله ولم يُقبل عليه ، لقوله فى رثاء أبى مليح :

طُويتْ سماء المكـرمـا تِ وكُوِّرَتْ شمسُ المديحِ
ماذا أُرَجِّى فى حيا تى بعد موتِ أبى مليحِ

(١) خزانة الأدب ص ٣٦٢

(٢) انظر فى ابن مكنسة وترجمته وأشعاره الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت نشر عبد السلام هرون والخريدة ٢/٢٠٣ وفوات الوفيات ١/٣٦ ومعجم السلفى فى مواضع متفرقة .

ويبدو أن البيت الثانى هو الذى آذى نفس الأفضل ، فأعرض عنه وكفله عز الدولة بن فائق ويبدو أنه كان من كبار رجال الدولة الفاطمية ، وله فى المديح كثير من الأبيات الطريفة كقوله :

يلقاك مبتهجًا والغيثُ فى يدهِ يَهْمِى فيجمعُ بين الشمس والمطرِ

وقوله :

الطَّوْدُ حاسدُ حِلْمهِ وأناتهِ والسيفُ حاسدُ بأسهِ ومَضائهِ

وله أشعار غزلية كثيرة كان يعرف كيف يسوق فيها أفكارا وصورا مبتكرة ، وهو كالسابق إليها أوسابق فعلا من مثل قوله يصف خصلة من الشعر التوتْ على خد جميل فى شكل عقرب :

قلتُ إذ عقربَ الدَّلا لُ على خَدِّهِ الشَّعَرْ
مارُئى قطُّ قبلَ ذا عقربٌ حلَّتِ القَمَرْ

والحديث عن عقرب الشعر وقرنه ببرج العقرب قديم ، وربما كان أروع من هذه الصورة ، وهى بحق صورة مبتكرة له قوله :

لاتخدعنَّك وَجْنَةٌ محمرَّةٌ رَقَّتْ ففى الياقوتِ طَبْعُ الْجَلْمدِ

وعلى شاكلة هذه الصورة المبتكرة قوله :

الحسنُ فى وَجْنتهِ وطَرْفهِ يفتح وَرْدًا ويَغُضّ نَرْجِسا

وكانت له أشعار كثيرة فى المجون والخمر ومعاقرة الدنان ، وكثيرا ماينفذ منها إلى صور وخيالات بديعة من مثل قوله يصف الخمر وهى تُصَبّ من إبريق :

إبريقُنا عاكفٌ على قَدَحٍ كأنه الأمُّ ترضعُ الولدا
أوعابدٌ من بنى المجوس إذا توهَّم الكأسَ شُعْلَةً سَجَدَا

وكان فى ابن مكنسة ميل شديد إلى الفكاهة والدعابة ، وله فى ذلك نوادر وأشعار كثيرة ، كان فيها يتماجن على طريقة أبى الشمقمق الذى عرضنا له فى كتاب العصر العباسى الأول ، إذ كان دائم التصوير لبؤسه وفقره وخلو داره من الطعام وعبثِ الجرذان فيها وبنات وَرْدان أو الصراصير ، ويتابعه ابن مكنسة واصفا قبح داره وضيقها ، قائلا :

لِىَ بَيْتٌ كأنه بيتُ شعرٍ لابن حجاجَ من قصيدٍ سخيفِ
أين للعنكبوتِ بيتٌ ضعيفٌ مثلهُ وهو مثلُ عقلى الضعيف
بقعةٌ صَدٌّ مطلَعُ الشمس عنها فأنا – مذ سكنتُها – فى الكُسوفِ

وهو يذكر عبث بنات وردان فيه وضيقه الشديد وقبحه ، ويقول أنه يشبه بيت شعر سخيف من أشعار ابن حجاج المفحشة ، ويقول إنه – مذ سكنه – فى الكسوف ولايريد كسوف الشمس وهو المعنى القريب الملائم لما قبله ، وإنما يريد المعنى البعيد من الخجل والاستحياء الشديد . وهى تورية واضحة . ومن قوله الفكه يشكو شيخوخته ووهن عظمه وكلال بصره :

عشتُ خمسين بل تزيـ ـدُ رقيعًا كما تَرَى
أحسبُ المُقْلَ بُنْدُقًا وكذا المِلْحَ سُكَّرا
وأظن الطويلَ من كلٍّ شىءٍ مُدَوَّرا
قد كَبِرْ بِرْ بِيِرْ بِيِرْ تُ وعقلى إلى وَرَا
عجبًا كيف كلٌّ شـ ـيْىءٍ أراه تغيَّرَا
لا أرى البَيْضَ صارَ يُؤْ كَـلُ إلا مُـقَشَّـرَا
وإذا دُقَّ بالحجا رِ زجاجٌ تكسَّرَا

وهو يعلن فى مطلع الأبيات أنه عاش ماجنا رقيعا ، وكأنه لن يكفَّ عن رقاعته ومجونه ، ويصور شيخوخته وضعف نظره حتى لم يعد يفرق بين ثمر الدوم المسمى بالمقل والبندق ولابين الملح والسكر ولابين الطويل والمدور : ويجسِّم ارتعاشه فى شيخوخته بالبيت الرابع إذا لم يكد يلفظ بكلمة كبرت حتى ارتعش به فمه مكونا شطرا من بيت ، ويعجب أن كل شىء تغير ، ونقرأ ما تغير فنستغرق فى الضحك ، إذ تحولت الحقائق فى عقله الكليل إلى عجائب ، فالبيض يؤكل مقشرا ، والزجاج إذا دق بالحجارة تكسر . وما من ريب فى أن هذه الفكاهة فيه والدعابة هى التى جعلت المصريين لزمنه يلقبونه ابن مكنسة .

الجزّار (١)

هو يحيى بن عبدالعظيم ولد سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٦٧٩ فهو من شعراء الدولتين : الأيوبية والمملوكية ، نشأ بالفسطاط فى أسرة كانت تحترف الجزارة ، ويقول ابن سعيد صديقه فى ترجمته له بكتاب المغرب : دكاكين أسرته فى الفسطاط عاينتها وأبصرته معهم بها . وكان فى أول أمره قصَّابا وسال الشعر على لسانه وكانت ملكته خصبة فاحترفه ، وقصد به السلاطين والأمراء وعمال الدولة فى الاسكندرية والمحلة ودمياط . وروى ابن سعيد فى ترجمته قطعة كبيرة من شعره ومدائحه ، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ٦٢٧ ويقول صاحب مسالك الأبصار : « قال الشعر وهو صغير أول ما احتلم ، وطاف بأركان بيت له واستلم » . ويشيد ابن سعيد بكرمه وما أغدق عليه من بره ، ويذكر دعوته له مرارا للنزهة مع طائفة كبيرة من شعراء جيله أمثال ابن النقيب والسراج الوراق . وكانت للجزار مسامرات ولقاءات كثيرة مع البوصيرى والحمامى وابن دانيال ، وجعله كرمه يقترب ممن كانوا يفدون على مصر أمثال ابن العديم وابن خلكان وابن سعيد الذى يشيد بوصف مروءته وكرمه وحسن عشرته . ويخيل إلى الإنسان كأن لم يبق سلطان ولاوزير ولاقاض ولا كبير فى الدولة إلا أسبغ عليه مدائحه ، وهى مدائح وسطى ليست بالغة الجودة ، ومع ذلك يقول الصفدى : « لم يكن فى عصره من يقاربه فى جودة النظم غير السراج الوراق ، وهو كان فارس الحلبة ، ومنه أخذوا وعلى نمطه نسجوا ومن مادته استمدوا » ويقول ابن سعيد : « رُزق من حسن الاهتداء لغرائب المعانى وبدائع الالفاظ مايدل على غَوص فكره ، وطريقه من أسهل الطرق التى يميل إليها العامة ولا ينكرها الخاصة ، لقرب مأخذها وحسن منزعها » .

وابن سعيد دقيق كل الدقة فى وصف لغة الجزار بأنها سهلة تميل إليها العامة ، مع فصاحتها ، وهى ظاهرة ترجع إلى نشأته ، وأنه تربى بين طبقة العامة فى الفسطاط لزمنه ، فطبيعى أن لايجنح فى أشعاره إلى الألفاظ الغريبة إنما يجنح إلى الألفاظ الواسطة بين لغة العامة ولغة الخاصة بحيث يرضى الطرفين ويقع منهما موقعا حسنا . والجزار إحدى حلقات هذه السلسلة التى تصور صلة عامَّة

---

(١) انظر فى الجزار وترجمته وشعره المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٩٦ وحسن المحاضرة ٥٦٨/١ وفوات الوفيات ٦٣٠/٢ ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (مخطوطة دار الكتب المصرية) ١٢ الورقة ١٦٦ والنجوم الزاهرة ٣٤٥/٧ وشذرات ابن العماد ٣٦٤/٥ ومطالع البدور للغزولى ١٩١/٢ ومابعدها ، وبمكتبة جامعة القاهرة مصورة لمنتخبات من شعره بخط الصفدى فى ١٨٠ ورقة .

الشعب المصرى دائما بالشعر العربى صلة لاتنقطع ، إذ دائما نرى شعراء من طبقة العامة الكادحة يرقون فى الشعر إلى درجة عالية مثل ظافر الحداد فى الحقبة الفاطمية ، وكثير من معاصرى الجزار كانوا مثله من أبناء عامة الشعب نذكر منهم صديقه الوراق ، وكان ورَّاقا يبيع الكتب ، وكذلك صديقه الحمامى ، وكان له حَمَّام يقوم عليه ، ومثل مجاهد الخياط بالفسطاط ، وله فيه بيت مشهور لزمنهما دار على الألسنة إذ يقول :

وليس يرجوه غيرُ كلبٍ ... وليس يخشاه غَيْرُ تَيْسِ

وردَّ عليه الجزار غير غاضب بل كأنما يريد استمرارًا فى الدعابة :

يـرجِّينا بنو كلبٍ ... ويخشانا بنو عِجْلِ

ويبد أنه كان يعود فى بواكير حياته إلى القصابة والجزارة مما جعل صديقا له يسمى شرف الدين يعاتبه ويكثر من عتابه ولومه لتركه الأدب إلى حرفة الجزارة فقال :

كيف لاَ أشكرُ الجزارةَ ما عِشْـ ... ـتُ حِفاظًا وأرفضُ الآدابا
وبها أضحتِ الكلابُ تُرَجِّيـ ... ـنى وبالشعرِ كنتُ أرجو الكلابا

ولابد أن أزمة كرامةٍ مرت به ، فانسحب فترة إلى دكاكين أهله ، ولكن سرعان ماعاد إلى الأدب وإلى الكرام من ممدوحيه وأصدقائه وزملائه الكثيرين .

وربما كان أهم مايتصف به الجزار ميل متأصل فى نفسه إلى الفكاهة والدعابة ، مما جعله يُشبَّه بابن مكنسة وأبى الشمقمق العباسى فى الشكوى من بؤسه وفقره مداعبا متفكِّهًا بمثل قوله :

لى من الشمس خِلْعَةٌ صفراءُ ... لا أبالى إذا أتانى الشِّتاءُ
بيتىَ الأرضُ والفضاءُ به سو ... رٌ مُدَارٌ وسَقْف بيتى السماءُ
لو ترانى فى الشمس والبردُ قد أنْـ ... ـحَلَ جسمى لقلتَ إنى هَبَاءُ
كلما قلت فى غَدٍ أُدرِك السُّؤْ ... لَ أتانى غدٌ بما لا أشاءُ

فحتى الثياب لايجدها ، وبيته الأرض وسقفه السماء ، وقد أنحله البرد حتى صار شبحا لايكاد يُرى ، وكل يوم يأمل ويرجو ويخيب الأمل والرجاء ، إذ لاينال شيئا من دنياه سوى اليأس والشقاء ، ويعود إلى وصف داره قائلا :

ودارِ خرابٍ بها قد نزلتُ ولكن نزلتُ إلى السابعَهْ
فلا فرق ما بين أنى أكونُ بها أو أكونُ على القارعه
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانُها الراكعهْ
إذا ماقرأتُ : (إذا زُلْزِلَتْ) خشيتُ بأن تقرأ : (الواقعه)

إنها دار خربة هوت به إلى الأرض السابعة ولاسقف ولاحيطان فكأنه على القارعة أو على الطريق. وإنه ليخشى أن يقيم بها الصلاة فتنقضّ حيطانها . ويتندر قائلا إذا قرأت فى صلاتى سورة الزلزلة خشيت أن تقرأ هى سورة الواقعة ، والتورية واضحة ، ويعود إلى ثيابه ويصف جُبَّةً له هذا الوصف الفكه :

لِىَ نِصْفيَّةٌ تَعُدُّ من العُمْــــرِ سنينًا غَسَلْتها ألف غَسْلَه
كلَّ يومٍ يحوطها العَصْر والدَّقُّ مرارا وما تُقِرُّ بِعُمْلَهْ
أين عَيْشى بها القديم وذاك التِّــيهُ فيها وخَطْرتى والشَّمْله
حيث لا فى أجنابها رقعةٌ قــطٌّ ولا فى أكمامها قَطُّ وَصْلَه

فهى نصفية أو « جُبَّة » طالما لُبست وغُسلت وصُبغت ، وفى كلمة « العصر » تورية لأنها كانت شائعة الدلالة على عصر الخصيتين تأديبا للمجرمين وتقريرا لهم ، وترشحها فى البيت كلمة الإقرار بالعملة وهى بفتح العين الجناية وبالضم النقود . والشملة لاتزال تستعمل فى العامية المصرية على مايتلفع به الرجال من الصوف أو الحرير ، وهى فصيحة . والأبيات مختارة من قطعة طويلة مضحكة فى وصف هذه الجبة البالية . وصلى التراويح عند الوزير بهاء الدين بن حنَّا فقرأ الإمام فى ركعة من ركعات التراويح سورة الأنعام ، فقال تَوًّا :

مالى على الأَنعْام من قدرةٍ لاسيَّما فى ركعةٍ واحده
فلا تسومونى حضورا سوى فى ليلة الأَنفْال والمائده

ولكلمة الأنفال معنى قريب هو السورة الكريمة ومعنى بعيد هو الهبات ، وهو المراد ، وبالمثل لكلمة المائدة معنى قريب هو سورتها فى القرآن ومعنى بعيد هو مائدة الطعام وهو المراد . وله فى أطعمة رمضان : القطائف والكنافة وما إليها مداعبات كثيرة من مثل قوله :

سَقَى اللهُ أكنافَ الكنافة بالقَطْرِ وجادَ عليها سُكَّرٌ دائمُ الدَّرِّ

والقطر هنا السكر ، والدر : الهطلان والكثرة .

وتزوج أبوه امرأة متقدمة فى السن ، فمضى ينتقم منه ومنها بفكاهات واصفا فيها هرمها ، مصورا ضعف عقلها لكبر سنها وقبح وجهها كما يزعم بمثل قوله :

تزوَّج الشيخُ أبى شيخةً ليس لها عَقْلٌ ولا ذِهْنُ
لو برزتْ صورتُها فى الدُّجَى ماجسرتْ تبصرها الجِنُّ
كأنها فى فَرْشها رِمَّةٌ وشَعْرُها من حولها قُطْنُ
وقائلٍ قال فما سِنُّهَا فقلت ما فى فمها سِنٌّ

والبيت الثالث شديد الإقذاع لهذه المرأة المسنة ، واستخدام التورية فى البيت الأخير إذ سئل عن سنها أى عمرها ، فجعل السؤال عن أسنانها .

وينظم فى حمار له مقطعات كثيرة فكهة ، ومات فأكثر من رثائه محاكيا بشارًا فى رثائه لأتانه ، وجمع بعض معاصريه مراثيه لحماره فى مجلد ، وهى مراث تدور على الدعابة الخالصة . ومن قوله اللاذع فى أحد البخلاء لأيامه :

لايستطيع يرى رغيـ ـفًا عنده فى البيت يُكْسَرْ
فلو أنَّهُ صَلَّى – وحا شاه لقال الخبزُ أكبر

وفى الحق أنه كان جعبة فكاهة ودعابة ، وهو أحد من أكثروا لزمنه صنع التوريات ، وقد روى له ابن حجة طائفة كبيرة ، منها قوله :

قلتُ لسُقْمِ الجسم منى وقد أفرطَ بى فَرْطُ ضَنًا واكتئابْ
فعلتَ بى ياسُقْمُ مالم يكن تُلْبَسُ – والله – عليه الثياب

والشطر الأخير له معنيان : المعنى الظاهر الضنا والنحول حتى لاتكاد الثياب تلبس ، والمعنى البعيد المراد وهو : مالايصح ولايجوز أبدا .

السراج [١] الوراق

هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن رفيق الجزار وصديقه ، وُلد مثله بالفسطاط سنة ٦١٥ وتوفى سنة ٦٩٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : «كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرفا فى فنون البلاغة ، وهو شاعر مصر (الفسطاط) فى زمانه بلا مدافعة » ويقول صاحب فوات الوفيات : «كان حسن التخيل ، جيد المقاصد ، صحيح المعانى ، عذب التراكيب عارفا بالبديع وأنواعه » . ولم يكثر أحد من الشعر إكثاره إذ كان ديوانه سبعة أجزاء كبار ، وأكثره مقطوعات قصيرة . ويمتاز شعره – مثل الجزار – بالسهولة المفرطة ، لسبب طبيعى ، وهو أنه نشأ فى أسرة شعبية متواضعة ، ومازال الشعر يصعد به حتى عُيِّن كاتبا للدرج عند بعض الأمراء ، ويبدو أنه لم يظل فى ذلك طويلا وأنه احترف الوراقة ، وفى شعره مدائح لبعض السلاطين والأمراء كقوله فى الظاهر بيبرس أثناء الاحتفال بافتتاح مدرسته الظاهرية :

وشيَّدها للعلم مدرسةً غدا عراقٌ إليها شيِّقٌ وشآمُ
ولا تذكُرَنْ يوما نظاميَّةً لها فليس يضاهى ذا النظامَ نظامُ

وهو يجعلها فوق نظامية بغداد المشهورة التى بناها بها نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور ، وقد عرضنا لها فى حديثنا عن العراق بالجزء السابق من هذه السلسلة ومدى إنفاقه عليها وعلى العلماء والطلاب بها ، وما حبس عليها من أوقاف دارَّة ، وكان لها شأن بعيد فى النهضة العلمية ببغداد . ومر بنا حديث عن المدرسة الظاهرية فى فصل الثقافة . وللوراق مرثية بديعة فى المعز أيبك حين قتل ، يقول فيها :

نقيمُ عليه مأتما بعد مأتمٍ ونسفحُ دمعا دون سَفْحِ المقطَّمِ

وله شعر غزل كثير مثل الجزار ولا نحس عنده بحرقة ولا بلوعة ، مثله فى ذلك مثل صاحبه ، ومن قوله فى بعض غزله :

---

(١) انظر فى السراج الوراق وترجمته وأشعاره فوات الوفيات لابن شاكر ٢١٣/٢ والنجوم الزاهرة ٨٣/٨ وشذرات الذهب ٤٣١/٥ وخزانة الأدب للحموى ص ٣٠٠ ومابعدها ومطالع البدور ٩٠/١ وخطط المقريزى ٣٤١/٣ . ومن ديوانه مخطوطة بدار الكتب المصرية ومصورة بخط الصفدى فى مكتبة الجامعة فى ١٨٠ ورقة .

فى خَدِّها ضَلَّ علمُ الناس واختلفوا ... أللشقائق أم للورد نِسْبَتُهُ
فذاك بالخال يَقْضى للشقيق وذا ... دليلُه أن ماء الوردِ رِيقَتُهُ

وإذا غضضنا النظر عن حَشْره لعلم الناس واختلافهم فى خَدِّ صاحبته ، فإن الصورة تبدو بعد ذلك بديعة ومعروف أن الشقيق قاتم الحمرة ، وقد أبدع فعلا إذ جعل دليل نسبة الخد إلى الورد رى صاحبته الشبيه بمائه . ومن غزله أيضًا :

لا تَحْجُب الطيفَ إنى عنه محجوبُ ... لم يَبْق منى لفرط السُّقْم مطلوبُ
ولا تثقْ بأنينى إن موعده ... بأن أعيش لُقْيا الطَّيْف مكذوب
هذا وخدُّك مخضوبٌ يُشاكله ... دَمْعٌ يَفيض على خَدَّىَّ مخضوب
تأوَّد الغُصْنُ مهتزًّا فأنبأنا ... أن الذى فيك خُلْقٌ فيه مكسوبُ

وإنه ليتمنى رؤية خيال المحبوبة قبل موته وهيهات ، ويقول إنه يبكى دما قانيا كخد صاحبته فى حمرته . ويزعم أن ميلان الغصن واهتزازه إنما هو خلق فيه اكتسبه من تقليد صاحبته . وهو يستعير صورة الكسب فى البيت من رأى المعتزلة فى أن الإنسان يكسب عمله بفعله لا بقدر مقدور عليه .

وأهمية السراج الوراق فى تاريخ الشعر المصرى كأهمية الجزار ، إنما ترجع إلى جانب الفكاهة والدعابة عنده، وقد خطا بفن التورية خطوة أوسع من خطوة صديقه الجزار ، مستغلا فيها إلى أبعد حد لقبه : السراج الوراق كما استغل الجزار لقبه فى كثير من تورياته . ومن المؤكد أن السراج أربى عليه فى هذا الباب حتى قال له بعض معاصريه : « لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك » ومن تورياته فى لقبه السراج قوله مادحا :

كم قطع الجودُ من لسانٍ ... قَلَّد من نظمه النُّحورا
فها أنا شاعرٌ سِراجٌ ... فاقطَعْ لسانى أَزِدْكَ نورا

وهو يشير إلى السراج الحقيقى حين يقول « اقطع لسانى » وهو إنما يريد النوال الذى يقطع لسانه ويزيده مدحا وتنويها وإشادة . ومن تورياته فى لقبه الوراق :

واخَجْلتى وصحائفى قد سُوِّدَتْ ... وصحائفُ الأبرارِ فى إشراقِ

وفضيحتى لمعنِّفٍ لى قائلٍ   أكذا تكون صحائفُ الورَّاقِ

فهو خجل من لقاء ربه بصحائفه السود ، ويقول له لائمه : أكذا تكون صحائف الوراق سوداء ، بينما ينبغى أن تكون مشرقة بيضاء كصحائف زملائه من الوراقين . ومن تورياته فى غير لقبه « السراج » وصناعته « الوراق » :

أصونُ أديمَ وجَهِى عن أناسٍ   لقاءُ الموت عندهمُ الأديبُ
وربُّ الشِّعرِ عندهمُ بغيضٌ   ولو وافى به لَهُمُ حَبيب

ولكلمة حبيب معنيان : معنى قريب من الحب ، ومعنى بعيد هو أبو تمام إذ اسمه حبيب ، وهو المعنى المراد . ومن تورياته البديعة قوله :

دَعِ الهُوَيْنَى وانتصبْ واكتسبْ   واكْدَح فنفسُ المرءِ كدَّاحَهْ
وكُنْ عن الراحة فى عُزْلَةٍ   فالصُّفْعُ موجودٌ مع الرَّاحَه

ولكلمة الراحة معنيان : معنى أول هو الراحة من الاستراحة ، ومعنى ثان هو الكف أو اليد ، ومن تورياته فى بقلة معروفة فى مصر باسم « الرجلة » ، وقد أضافه بعض أصدقائه ، فداعبه قائلا :

وأحمقٍ أضافنا ببِقلَهْ   لنسبةٍ بينهما وَوُصْلَهْ
إذ مَدَّ فى وجه الضيوف رِجْلَه

وهو لايريد مد الرجل الحقيقية ، وإنما يريد مد طعام الرجلة على المائدة ، مما يدل بوضوح على حضور بديهة الوراق . ومن تورياته .

فسَّر لى عابرٌ منامًا   فَصَّلَ فى قوله وأجْمَلْ
وقال : لابد من طُلوعٍ   فكان ذاك الطلوعُ دُمَّل

والطلوع : الصعود والرقى ، واستغل الوراق تسمية العامة للدمل طلوعا ، وصنع هذه التورية البارعة . وفى كتاب خزانة الأدب للحموى توريات كثيرة للسراج الوراق اقتطفنا منها ما أنشدناه . ووراءها توريات لاتقل عنها لطفا وبراعة .

ابن [1] دانيال .

هو شمس الدين محمد بن دانيال ، ولد سنة ٦٤٦ للهجرة بالموصل وتركها فتىً إلى القاهرة ، ولا نعرف أسباب هجرته من بلدته ولا تاريخ هذه الهجرة ، ويقال إنه نزل القاهرة فى سن العشرين ، ويلقب بالكحَّال ، ويقولون : كان له دكان كحل داخل باب الفتوح ويلقبونه بالحكيم وليس معروفا بالضبط هل احترف طب العيون أو كان تاجر كحل وبائعه فقط . وأغلب الظن أنه كان يعالج العيون لقوله :

ياسائلى عن حرفتى فى الوَرَى ... واضَيْعتى فيهم وإفلاسى
ماحالُ مَنْ درهمُ إنفاقهِ ... يأخذه من أَعْيُنِ الناس

والتورية فى الشطر الأخير واضحة ، وهى عبارة تدور على ألسنة العامة ، يقولون يأخذ حقه من عينه أى رغم أنفه ، وهو لايريد ذلك إنما يريد الإشارة إلى صنعته وحرفته . وكانت تنعقد فى دكانه أغلب الليالى ندوة سمر يجتمع فيها كبار الفكهين لزمنه من أمثال الجزار وابن النقيب والوراق والحمامى ، ويروى أنهم جاءوه يوما فقالوا له : نحتاج إلى عُصَيَّات يومئون بذلك إلى أن من يداوى عيونه يُجْهز على بصره فيصبح ضريرًا محتاجا إلى عصا تقوده ، فقال لهم على الفور : ليس عندى إلا أن يكون فيكم من يقود لله تعالى . وكان يلازم الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون قبل تقلده الحكم فى عهد أبيه ، وأعطاه يوما فرسا ومرت أيام فإذا به يراه على حمار أعرج ، فقال له : ياحكيم أما أعطيناك فرسا تركبه ؟ فأجابه مسرعا : نعم بعته وزدت على ثمنه واشتريت هذا الحمار ، فضحك الأشرف وأعطاه فرسا آخر . ومن تورياته الطريفة قوله :

قد عقَلْنا والعَقْلُ أيُّ وثاقِ ... وصَبَرْنا والصَّبْرُ مرٌّ المذاقِ
كلُّ من كان فاضلا كان مثلى ... فاضلا عند قسمة الأرزاق

وكلمة « فاضلا » الثانية ليست من الفضيلة كسابقتها . وإنما من الفضل بمعنى الزائد عن

---

(١) انظر فى ابن دانيال وترجمته وأشعاره فوات الوفيات ٣٨٣/٢ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٨٢/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧/٦ والنجوم الزاهرة ٢١٥/٨ والبدر الطالع للشوكانى ١٧١/٢ وكتابنا الفكاهة فى مصر (طبع دار الهلال) ص ٥٣ ومابعدها .

الحاجة . وهذا الجانب الفكه فى ابن دانيال استطاع أن ينفذ منه إلى صنع ثلاث تمثيليات أو كما يسميها بابات لتمثَّل على مسرح خيال الظل فى أيامه ، وهو مسرح دُمًى متحركة متحاورة ، واسم أولاها « طيف الخيال » والثانية « عجيب وغريب » والثالثة « متيم » . وتصور الأولى الحياة الاجتماعية لعهد الظاهر بيبرس . والثانية تصور سوقا مصرية ومن فيها من أخلاط الناس والأمم وقد جمدت ألسنتهم عند لهجاتهم الوطنية فى بلدانهم وصور معينة من كلامهم تثير الضحك فى النظارة . وتصور الثالثة الحِيَل وخاصة حيل المحبين مع صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش والثيران .

وأبدع المسرحيات الثلاث وأطرفها « طيف الخيال » وهى مسرحية شعرية نثرية ونثرها مسجوع كنثر المقامات وليس فيها لفظ غريب ، وكأنما حاول ابن دانيال أن يجعلها قريبة قربًا شديدًا إلى عامية أهل القاهرة لزمنه ، وهو يفتتحها بتقديمه لطيف الخيال الأحدب الموصلى متغنيا بفضله وجِدِّه وهزله ، ويسلِّم سلام القادم ويرد عليه الريس السلام مادحا له ولحدبته بمثل قوله :

قسماً بحُسْنَ قَوامك الفتَّانِ ... يا أوحدَ الأمراء فى الحُدْبانِ
يامشبهَ الغُصْن الرطيبِ إذا انثَنى ... من حَدْبتيه يميسُ بالرمّانِ
ياخجلاً شكلَ الهلالِ بقدِّه ... حاشاك أن تُعْزَى إلى نُقْصان

ويستمر فى تحسين حدبته ، فهو صاحب رِدْفَيْن ، وهو جمل جليل السنَّام ، بل هو كالعود الأحدب المطرب . ويرد طيف الخيال عليه : لافضَّ الله فاك ، ولا أقال من سيف الحسبة قفاك . وكان الحاسب رجل شرطة وقانون . فهو يتمنى أن يظل سيفه مسلطًا على قفاه . ويغنى طيف الخيال بأبيات يستقبل بها النظارة من الحاضرين ، ويذكر أنه جاء مصر من الموصل زمن الظاهر بيبرس حين أمر فى سنة ٦٦٦ بتحريم المنكرات وإغلاق الحانات وإعدام أحد أصحابها المسمى ابن الكازرونى بعد تجريسه فى الطرقات وفى عنقه دِنّ نبيذ أو نباذية . وإلى ذلك يشير طيف الخيال ، إذ يقول ابن دانيال على لسانه :

لقد كان حَدُّ السُّكْر من قبل صَلْبِهِ ... خفيفَ الأذى إذ كان فى شَرْعنا جَلْدَا
فلما بدا المَصْلُوبُ قلتُ لصاحبى ... ألا تُبْ فإنَّ الحدَّ قد جاوزَ الحَدَّا

والتورية واضحة فى كلمة « جاوز الحد » إذ لايريد المعنى المتبادر من مجاوزة الشىء لحده

وإفراطه ، وإنما يريد مجاوزة الحد الشرعى فى العقوبة . ويتوقف طيف الخيال الأحدب ليرثى إبليس وغواياته ويندب تحطيمَ أوانى الخمر ودِنانه وندمانها وسقاتها بمثل قوله :

مات – ياقومُ – شَيخُنَا إبليسُ　　وخلا منهُ رَبْعُه المأنوسُ
والقَنانى به تكسَّرْنَ والخمـ　　ـارُ من بعد كسرها محبوسُ
وذَوُو القَصْف ذاهلون وقد كا　　دتْ على سَيْلِها تسيلُ النفوسُ
والحَرافيشُ حولها يتباكو　　ن بنارٍ تُراع منها المجوس
وقضيبٌ ونرجسٌ وسُعادٌ　　باكياتٌ ونُزْهَةٌ وعَروسُ

والمرثية طويلة ، واكتفينا منها بهذه الأبيات لندل على ماتموج به من هزل ودعابة . ويذكر طيف الخيال أنه جاء إلى مصر يبحث عن أخيه الأمير وصال ، وهو أمير مزيف ، ويظهر أخوه ، ويطلب الأمير كاتبه ، ويحدِّثه فى توقيعات وودائع ، ويأمره بكتابة تقليد بولاية ، تدليسا وافتراء . ويلقب الكاتب طيف الخيال بلقب صُرَّبَعْر انتقاما منه حين هزئ به ، فى مقابل لقب لشاعر بغدادى مشهور يسمى صُرَّدُرّ . ويذكر وصال لأخيه أنه قد عزم على ترك الخلاعة والمجون والتوبة إلى الله والعمل بعمل أهل السنة والجماعة ، بادئا بالزواج . وتبدأ مشاهد التمثيلية من حين هذا اللقاء بين وصال وأخيه وتدور حول مشكلة الخاطبة فى الحقب الماضية وما كان ينشأ عنها من أغلاط فى تبين حقائق العروسين ، فالزوج يدَّعى أنه من أمراء الموصل ومعه كاتبه وحاسبه المزيف ، وحقيقته أنه بائس فقير لايملك شَرْوَى نَقير كما يقول بلسانه فى التمثيلية ، حين طُلب منه المهر . وقد أُطْلق البخور ورُشَّ الطِّيب على الحضور ويُنْشد :

أمسيتُ أفقرَ مَنْ يروحُ ويَغْتَدى　　ما فى يدى من فاقتى إلا يدى
فى منزلٍ لم يَحْوِ غيرى قاعدًا　　فإذا رقدتُ رقدتُ غيرَ ممدَّدِ
وترى البعوضَ يطير وهْو بريشهِ　　فإذا تمكَّن فوق عِرْقٍ يَفْصِدِ
والفارُ يَرْكُضُ كالخيول تسابقتْ　　من كلِّ جَرْداء الأديم وأجْرد
وترى الخنافسَ كالزنوج تصفَّفتْ　　من كل سوداء الأديم وأسودِ
هذا ولى ثوبٌ تراه مرقَّعا　　من كل لونٍ مثل رِيش الهُدْهُدِ

ومع ذلك يُزَفّ الأمير وصال على عروسه ، وحين تكشف عن وجهها يصيبه الذهول لهرمها

وقبحها المتناهي ، وينادى على الخاطبة وتأتيه ويشكو منها . وينشد طيف الخيال على لسانه شكوى مرة من زوجته . ويصور مايتعاطاه من الحشيش وما يرسم له من الخيالات والأوهام ، حتى ليرى وجهه فى زير مملوء ماء فيظن به لصا إذ يراه يعبس ويضحك مثل عبسه وضحكه ، فيحطمه حطما . وتموت الخاطبة وينوح عليها زوجها بمثل قوله :

ساعدونى بالنَّوْح والتعديدِ   بعد فقْد العجوز أمِّ رشيدِ
هلكتْ آخرَ الليالى السودِ   ياليالى الوِصال بالله عُودى

والتمثيلية تزخر بالمواقف المتناقضة كما تزخر بهذه الروح الفكهة ، ويتخللها الغناء والرقص ويطَّرد فيها التسلسل ، وشخوصها فى غاية الوضوح . وهى تصور جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات الشعب بحكامه فى تلك الحقبة . ومازال ابن دانيال يمتع أهل القاهرة بتمثيلياته الهزلية وفكاهاته التى كانت تدور فى أفواه الناس حتى وفاته سنة ٧١٠ للهجرة .

عامر [١] الأنبوطى

يقول الجبرتى فى ترجمته : «شاعر مفلق هجاء» ويقول إنه كان يقيم فى بلده ويلم بالقاهرة من حين إلى حين فيزور العلماء والأعيان ، وكلما رأى قصيدة مشهورة سائرة قلبها وزنًا وقافية إلى الهزل والطبيخ ، فكان الشيوخ والشعراء يتحامونه ويكرمونه ويجزلون له فى العطاء ، وكان فيه ظرف يجعلهم يأنسون لكلامه ويهشون لشعره الفكه . من ذلك نظمه لألفية فى الطعام على غرار ألفية ابن مالك فى النحو ، استهلَّها بقوله :

يقول عامرٌ هو الأنبوطى   أحمد ربى لستُ بالقَنُّوطى [٢]
وأستعين الله فى ألفيَّه   مقاصدُ الأكلِ بها محويَّه
فيها صنوفُ الأكل والمطاعمِ   لذَّتْ لكل جائعٍ وهائمِ [٣]
طَعامُنَا الضَّانى لذيذٌ للنَّهِمْ   لحما وسَمْنًا ثم خُبْزا فالْتقم

---

(١) انظر فى ترجمة عامر الأنبوطى وشعره الجبرتى ٢٤٨/١ .

(٢) القنوطى : كلمة جلبتها القافية ولعله يريد بها اليائس

(٣) الهائم : شديد العطش .

فإنها نفيسةٌ والأكل عَمّْ مطاعمٌ إلى سَناها القلبُ أَمّْ (١)
والأصلُ فى الأخبازِ أن تُقَمرَّا وجوَّزوا التَّقْديد إذ لاضررًا (٢)

ولا ريب فى أن شيوخ الأزهر وطلابه حين كانوا يسمعون منه شيئا من أشعار هذه الألفية يغرقون فى الضحك إغراقا ، لأنه نقل أكثر صنيع ابن مالك فى ألفيته النحوية الجادة منتهى الجد إلى هذه الألفية الجديدة المضحكة غاية الضحك . ورأى أن لامية العجم للطغرائى تستولى على إعجاب الشعراء والناس منذ زمنه فى القرن السادس لما تحمل من حكم وخبرات تنفع الناس فى حياتهم وسلوكهم ، فنظم على وزنها وقافيتها لامية فى المطاعم من مثل قوله :

أناجرُ الضَّانِ تِرْياقٌ من العللِ وأَصْحُنُ الرزِّ فيها منتهى أملى (٣)
ولا خليلٌ بِدَفْعِ الجوع يرحمنى ولا كريمٌ بلَحْم الضَّان يسمح لى
طال التلهف للمطعوم واشتعلتْ حُشاشتى بحَام البَيْت حين قُلِى
أريد أكلاً نفيسًا أستعين بهِ على العبادات والمطلوبِ من عملى

وكانت لابن الوردى الشامى المتوفى سنة ٧٤٩ قصيدة لامية جعلها جميعا حكما وأمثالا ، طارت شهرتها بين معاصريه ومن خلفوهم فصاغ على وزنها لامية حكمية فى الطعام ، يقول فيها :

اجتنبْ مطعومَ عدسٍ وبَصَلْ فى عَشاءٍ فَهْو للعقل خَبَلْ
وعَنِ البِيصَارِ لاتُعْنَ به تُمسِ فى صحَّة جسْمٍ من عِلَلْ
واحتفلْ بالضان إن كنت فتى زاكىَ العقل وَدعْ عنك الكسَلْ
من كبابٍ وضلوعٍ قد زكَتْ أكلُها يَنْفِى عن القلب الوَجَلْ

وطعام العدس والبصل وكذلك البيصار من الأكلات الشعبية المصرية ، وهو ينهى عن أكلها ويدعو إلى أكل لحم الخرفان الضانى ومايتخذ منه من طعام الكباب واللحم المشوى .

وكان عامر بهذه الأشعار وما يماثلها يطرف معاصريه فى القاهرة ويسرِّى عن نفوسهم بهزله ويجعلهم يستغرقون فى الضحك ، بما يعرض عليهم فى أشعاره الفكهة من أصناف الأطعمة وألوان

(١) أمّ : قصد .
(٢) تقمر : كلمة عامية أى تعرض على النار
(٣) أناجر : جمع أنجر ويطلق فى العامية على أوانى الطعام وطهيه الكبيرة .

الحلوى ، مع إكثاره من دعاء ربه أن يُنيله «كبابا» ودواء من الحلوى والخشاف . ومازال ذلك دأبه فى أشعاره حتى توفى سنة ١١٧٣ للهجرة .

٦

شعراء شعبيون

ليس معنى هذا العنوان أن شعراء مصر لهذا العصر ينقسمون إلى شعبيين وغير شعبيين ، فشعراؤها جميعا كانوا شعبيين إذا أردنا من نشأوا فى بيئات شعبية ولم يكونوا من أبناء القصور أو من الطبقات الأرستقراطية . ونستطيع أن نستثنى فقط تميم بن المعز أول خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، فهو وحده الذى نستطيع أن نقول عنه إنه نشأ فى ترف ونعيم ، أما بعد ذلك فالشعراء كانوا من أبناء الشعب ، وكثيرون منهم كانوا من طبقته الدنيا التى تمتهن الحرف والصناعات ، بل هم أنفسهم كانوا يمتهنون تلك الصناعات والحرف على نحو مامر بنا فى حديثنا عن ظافر الحداد وأنه نشأ حدادا ، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه ، فترك عالم الحدادة إلى عالم الشعر والفن . ويلقانا كثيرون من هؤلاء الشعراء المحترفين حرفا متنوعة مثل الجزار والوراق ومجاهد الخياط والحمامى الذين عرضنا لهم فى حديثنا عن شعراء الفكاهة .

ومعنى ذلك أننا لانريد أن نتحدث عن شعبية شعراء العصر بهذا المعنى من نشأتهم فى الأوساط الشعبية ، فهى نشأة مشتركة تجعلهم جميعا شعراء شعبيين ، إنما نريد معنى أدق من ذلك معنى يتصل بلغة طائفة من شعراء مصر فى العصر رأوا أن ينظموا بلغة الحياة اليومية حتى يصلوا مباشرة إلى التأثير فى الناس باستخدام العامية لغتهم فى التخاطب اليومى . وكانت قد نشأت فى البلاد العربية فنون شعرية عامية ، هى الزجل أنشأته أو استحدثته الأندلس ، والمواليّا استحدثه أهل واسط بالعراق ، والكان وكان استحدثته بغداد ومثله القوما . وسرعان ماشاعت هذه الفنون فى العالم العربى وخاصة الزجل والمواليا .

والزجل أنواع منه مايسمى بالاسم الأصلى وهو الزجل ويختص بالغزل والنسيب والخمر والطبيعة ، ومنه ماسَمَّته مصر بُلَّيْقًا وجمعته على بلاليق ، وهو ما تضمن الغزل أو الخلاعة والأحماض ، ومنه ماسُمِّى قَرْقِيًّا وهو ماتضمن الهجاء أو الهزل ، ومنه ماسُمِّى مكفِّرًا وهو ماتضمن المواعظ والحكمة ، وكأنهم اشتقوه من تكفير الذنوب . ومرَّ بنا أن الشريف العقيلى فى القرن

الخامس كان يختم كل قافية من قوافى ديوانه بأبيات مكفِّرة لما قدم فى القافية من مجون .

وأخذت مصر منذ القرن السادس الهجرى تشترك فى صنع الزجل بأنواعه السابقة ، وأخذت تلطف أساليبه وأوزانه حتى بلغت فيه غاية لاتكاد تدرك ، وكما أقبلت على الزجل بالمعنى العام أقبلت على البُلَّيق وهو زجل هزلى ويقول ابن سعيد فى منتصف القرن السابع الهجرى : « كان بالفسطاط جماعة يصنفون البُلَّيق ، وهو على طريقة الزجل الأندلسى ، منهم ساكن البُلَّيقى ، ومن بُلَّيقاته :

بَسِّى من الدين الثانى   نرجع لدينى الحقانى
نرجع لدينى الأول   عن النِّسا لَسْ نتحوَّل
إن كنت فِ ذا تتقوَّل   اصْفَعْ وقطِّعْ آذانى

وهذا من الطراز العالى فى هذا الفن ، وهو عنوان كاف عن غيره[1] » . واشتهر فى القرن السابع ابن دقيق العيد ينظم البلاليق [2] وممن اشتهر فى القرن الثامن بصنع البلاليق زين الدين القوصى وقد روى له ابن حجر بُلَّيْقًا [3] ومثله سراج الدين عمر بن مولاهم ، وقد روى له ابن تغرى بردى بُلَّيقا[4] ، هزليا رقص به منشدوه بين يدى السلطان حسن ، وفيه يقول :

من قال أنا جندى خَلَقْ   فقد صدق
عندى قَبًا من عهد نوح   على الفتوح [5]
لو صادفوا شمس السطوح   كان احترق

وقد أشار بقوله : « أنا جندى خلق » أى هرم إلى يَلْبُغا مملوك السلطان وكان واقفا بين يديه ، وأغرق السلطان فى الضحك واستعاد البُلَّيق مرارا . وبجانب البلاليق تلقانا أزجال كثيرة فى هذا العصر ، من ذلك مطلع زجل رواه صفى الدين الحلِّى ، وكان قد نزل القاهرة فى العقد الثالث من القرن الثامن الهجرى ، وهو يجرى على هذا النمط[6] :

---

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٣٦٥
(٢) انظر بعض بُلَّيقات ابن دقيق فى الطالع السعيد ص ٣٢٧
(٣) الدرر الكامنة ١٤/٣
(٤) النجوم الزاهرة ٣١٧/١٠ - ٣١٨ .
(٥) القبا : ثوب يلبس فوق الثياب أو يتمنطق عليه .
(٦) العاطل الحالى لصفى الدين الحلى نشر وهلم هو نرباخ بألمانيا ص ٢٧ .

مَنْ تَعْشَقوا سيد الملاحْ في خَدُّو ما ونارْ طَرَّزوا من زانوا بالعِذارْ
عَرَضتُ لو بالالتماحْ صار وُرَدْو كالبَهارْ[١] وتبدَّلْ لُونْو بالصَّفارْ

وأنشد زجلا مصريا كاملا ، قال : سمعته للمصريين ، وهو يصور خفة روحهم ورقتهم ولطفهم وظرفهم ، ومما جاء فيه[٢] :

لَسْ غريبْ مَنْ فارَقْ أوطانو أو بِعِدْ عن ناظرو المحبوبْ
إلا مَنْ دارو قُبَلْ دَارُو والحبيبْ عن ناظرو محجوبْ
حِبِّى عنِّى حجَّبوه أهلو وأسرفوا فى جَمْع حُفَّاظو
والرَّقيبْ قد غيَّبوا عنى حتى عنى قيدَ ألفاظُو
كل يوم لأجلو يغيظ قلبو ربٍّ غيظْ قلب الذى غاظو
ماخطَرْ إلا وهُو خائفْ أوعَبَرْ إلا وهُو مَرعوبْ
لسْ نطيقْ نلفظ مَعُو لفظهْ لا ولا نِرْسِلْ إليه مكتوبْ
ريتْ حبيبى فى الرياض يمرحْ بين أقرانو وأتْرابُو
قَلتُ قد صحَّ المثل فينا من لِقِى أحْبابونسىِ آصْحابو
قالْلى قدضجَّتْ بنا اعْدانا ورَمُونا قلت ماصابوا

والزجل يسيل رقة ونعومة وعذوبة . وقد روى صاحب خزانة الأدب قطعة من زجل ابن القماح فى وصف النرجس[٣] . ولما توفى السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨ حزن الناس عليه حزنا عظيما ورثاه الشعراء بعدة قصائد ، كما رثاه الزجالون ومن قول أحدهم[٤] :

كوكب السعد غابْ مِن القلعهْ وهلالُو قد انطفَا بأمانْ
وزُحَلْ قد قارن المرِّيخْ لكسوفْ شمسِ الضُّحى شعبانْ

ومن أطرف الأزجال المصرية لعهد المماليك زجل نشرته قديما بمجلة الثقافة[٥] نظمه زجال مصرى فى رثاء الفيل مرزوق ، وهو فيل كان قد أهداه تيمور لنك فى أوائل القرن التاسع الهجرى إلى سلطان مصر ، وتصادف أن الغلمان الموكَّلين به ساروا معه نحو بولاق ورجعوا مجازفين به على

---

(١) البهار : زهر أصفر.
(٢) العاطل الحالى ص ١٠٩
(٣) خزانة الأدب ص ٢١٩
(٤) النجوم الزاهرة ٨٣/١١
(٥) مجلة الثقافة : العدد رقم ٣٧١ لسنة ١٩٤٦ .

قنطرة ضعيفة فوق ماء ، فانخسفت به ولم يقدر أحد على إنقاذه ومات ، وخرج الناس زمرا يتفرجون عليه ، وأنشأ فيه بعض الزجالة مرثية بديعة ، وفيها يقول على لسان زوجته باكية له نادبة :

سهم الفراق قد صابْ قلبى   يا مسلمينْ
ونا غريبَهْ هنديَّه   قلبى حزين
وعَيَّطتْ حتى أبكتْ   جيرانها[1]
من كُتْر ماناحتْ ناحوا   لأحزانها
من نارها صارت تلطم   بوْدانْها[2]
حتى الزرافة جاءتها   متحسَّره
تبكى على الفيل اللى مات   فى القنطرة

وكانت لدى هذا الزجال روح فكهة ولفتات ذهنية بديعة ، إذ جعل زوجة الفيل هندية كما جعلها تلطم « بودانها » أو آذانها ، واختار الزرافة لتساعدها فى حزنها لما يبدو عليها دائما من تأمل وحزن كأنما ضاع منها شيء . ويبدو أن الزجل ازدهر حينئذ بمصر . وفى دار الكتب مجلد نفيس لأحمال زجل مصرية مطبوع بباريس .

وتظل الأزجال حية فى الحقبة العثمانية ومثلها المواليا ، وهى الفن الشعبى العامى الثانى الذى استكثر منه المصريون ومعروف أنه يخرج من بحر البسيط ، ونجده فى ديوان ابن الفارض الصوفى ، واشتهر به فى عصر المماليك أبو بكر بن العجمى عين كتاب الإنشاء فى مطلع القرن التاسع الهجرى وكان إمام فن المواليا[3] لزمنه وضروبه المتشعبة ، ومن موالياته :

للحِبِّ قالوا معنَّاك الذى اذْبَلْتُو   جُدْلُو بقُبْله فقَلْبُو فيك خَبَّلْتو
فقال أقسمْ لو انَّ البُوس سَبِّلْتو   ومات ، للشَّرْق مادِرْتو وقبِّلْتو[4]

---

(١) عيطت : بكت .

(٢) ودانها بالعامية : آذانها .

(٣) خزانة الأدب ص ٤٣ .

(٤) درتو : كلمة عامية أى أدرته . وفى قبلتو تورية لأنها قد تكون من القبلة بضم القاف وهو المعنى المتبادر لسبقها بكلمة البوس ، وقد تكون من القبلة بكسر القاف أى ماأداره نحو القبلة بعد موته وهو المعنى المراد .

وتظل المواليا حية فى أيام المماليك وأيضا فى أيام العثمانيين . وكانت تتوزعها منذ القرن السابع الهجرى الأنواع التى مرت فى الزجل وهى : البُلّيق ، وموضوعه الغزل وقد تصحبه الخلاعة ، وأنشد الجبرتى من أمثلته الغزلية البارعة قول الشيخ الشمس الحفنى الشافعى الخَلْوتى :

خَطَر علىَّ غزالى مَرّ ما اتكلِّم　　فَوّق جفونه وقلبى والحشا اكَلِّمْ
إيشْ كانْ يضرّه إذا بالراسِ لى سَلِّمْ　　حتى أسَرْ مهجتى لُولا السلام سلِّم

والنوع الثانى القَرْقيا وينظم فى الهزل والفكاهة وما يتصل بهما ويسوق الجبرتى منه مثل قول حسن شَمَّه .

قَالوا تحب المدمِّسْ؟ قلت بالزيت حارّْ　　والعيش الابيض تحبّه قلت والكِشْكارْ
قالوا تحب المطَّبَقْ؟ قلت بالقنطار　　قالوا اشْ تقلْ فى الخضارى قلت عقلى طار

والفول المدمس طعام شعبى لأهل مصر ومثله الكشك ، والمطبق نوع من الرقاق محشو بالنقل والسكر ، أما الخضار فمن طيور البحيرات . والنوع الثالث من المواليا المكفِّر وينظم فى الحب الإلهى والمديح النبوى والمواعظ وفى ديوان ابن الفارض منه أمثلة متعددة . ويسوق منه الجبرتى قول الشيخ شمس الحفنى أو الحفناوى وهو مواليا يمكن قراءتها معربة على هذا النمط .

بالله ياقلبُ دَعْ عنك الهوى واسْلَمْ　　من كلِّ مَيْلٍ ووافى عهدهم أَسْلَمْ
والزمْ حمى سادةٍ من أمَّهُمْ يَسْلم　　واسْلُكْ سبيل التُّقَى يوم اللِّقا تَسْلَمْ

ويقول صفى الدين الحلى إن القوما خاصة بسحور رمضان من قول المغنين فى آخر كل بيت فيها « قوما قوما للسحور » . أما الكان وكان فالشطر الأول من البيت فيه غالبا يكون أطول من الشطر الثانى وهو خاص بالحكايات والخرافات والمراجعات فكأن قائله يحكى ما كان وكان . ويقول إن فن القوما وكذلك فن الكان وكان لايعرفها سوى أهل العراق[١] . ويحكى ابن تغرى بردى منه منظومة فى وقعة قوصون ساقى الناصر بن قلاوون وما كان من قتله ، وهى تستهل على هذا النمط[٢] :

من الكَرَكْ جانا الناصرْ وجَبْ معه أُسْد الغَابه

---

(١) العاطل الحالى ص ١٤٨ ، ١٧١ ، ١٧٢　　(٢) النجوم الزاهرة ٤٨/١٠ .

ووقعتك يا أمير قوصونْ ما كانتِ آلا كـدَّابَهْ

ويبدو أن المصريين حاكوا فن القوما العراقى أيضا ، إذ نرى الجبرتى فى الحقبة العثمانية يتوقف مرارا ليقول إن هذا الشاعر أو ذاك كان ينظم فى الزجل والقوما والكان وكان والمواليا والبُلَّيق [١] . ونقف قليلا عند بعض أصحاب هذا الشعر الشعبى العامى .

إبراهيم [٢] المعمار

هو جمال الدين إبراهيم بن على المعمار ، يقول فيه صاحب فوات الوفيات : « إبراهيم الحائك وقيل المعمار وقيل الحجار عامى مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة لاسيما فى الأزجال والبلاليق » ويقول الصفدى : « عامى مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة المطبوعة الجيدة ولاسيما فى الأزجال والبلاليق ، بحيث إنه فى ذلك غاية لاتدرك ، أما المقاطيع الشعرية فإنه يقعد به عنها مراعاة الإعراب وتصريف الأفعال » ويقول ابن تغرى بردى : « كان ذكى الفطرة قوى القريحة لطيف الطبع » ويقول ابن حجر : « كان يلزم القناعة ولايتردد إلى أحد من الأكابر إلى أن مات فى الطاعون سنة ٧٤٩ ومن قوله فيه قبل موته .

قُبِّح الطاعون داءً فُقِدتْ فيه الأحبَّهْ
بيعتِ الأنفسُ فيه كلُّ إنسانٍ بحبَّه

وفى كلمة « حبة » تورية واضحة لأن الطاعون يصحبه دمَّل كبير ، وله توريات كثيرة كما قال من ترجموا له ، من ذلك قوله :

ياقلبُ صبرًا على الفراق ولو رُميتَ ممن تحبُّ بالبَيْنِ
وأنت يادمعُ إن ظهرتَ بما يُخفيه قلبى سقطتَ من عينى

وفى كلمة « سقطت من عينى » تورية إذ لايريد معناها القريب وهو تحدر الدمع من عينه وإنما يريد معناها المعروف فى العامية إلى اليوم وهو أنه ضاع ولم تعد له مكانة . وكان الناصر بن قلاوون

---

(١) انظر الجبرتى ١/٢٩٠ .

(٢) انظر فى المعمار وترجمته وأشعاره فوات الوفيات ١/٥٥ والنجوم الزاهرة ١٠/٢١٢ والمنهل الصافى ١/١٧٤ والوافى ٦/١٧٣ والدرر الكامنة لابن حجر ١/٥٠ وتاريخ ابن إياس فى مواضع متفرقة وخزانة الأدب ص ٣٨٥ .

يألفه ويقربه منه لطرافة تورياته وله فى زوجته مداعبا :

لما جَلَوْا عِرْسى وعاينتُها وجدتُ فيها كلَّ عَيْبٍ يُقالْ
فقلت للدلاَّل ماذا ترى ؟ فقال : ما أضمنُ إلا الحلال

والدلال : جالب العروس ، ولكلمة الحلال معنيان : ضد الحرام والمباح . ومن تورياته مداعبا بعض من أمر بصفعه ، فحتى فى هذا الموقف يفزع إلى التورية قائلا :

ما كان صَفْعُ بالرِّضا لكنه من خَلْف أُذْنى
لولا يَدٌ سبقتْ له لأمرتهُ بالكفِّ عنى

وفى البيت الأول تورية فى كلمة « من خلف أذنى » إذ تحمل معنيين هما القفا موضع الصفع وعدم الاكتراث . وفى البيت الثانى تورية فى كلمة « يد » إذ لها معنيان هما النعمة والصفع باليد ، وبالمثل لكلمة « الكف » معنيان هما : الانصراف عن الشيء والصفع بالكف . ومن تورياته :

وخادمٍ يعلو على عشاقهِ برتبةٍ من الجمال نالها
وإسْمُه – وهْو العجيبُ – محسنٌ وكم دموعٍ فى الهوى أسا لها

وفى كلمة « أسالها » تورية إذ تحمل معنى قريبا هو إسالة الدمع ومعنى بعيدا من الأسى وهو الحزن كأنه يرق لمحبيه حين يرى دموعهم ويحزن لهم . ومن لطائف تورياته :

ما مصرُ إلا منزلٌ مستحسنٌ فاستوطنوه مَشْرِقًا أو مَغْربا
هذا وإن كنتم على سَفَرٍ بهِ فتيمَّموا منه صَعيدًا طيبًا

وقد اقتبس الشطر الأخير من الآية القرآنية : (فتيمموا صعيدًا طيبا) وهو لا يريد معنى الصعيد فى الآية وهو وجه الارض وإنما يريد صعيد مصر ووجهها القبلى ، وهى تورية بديعة ، ومن ذلك قوله :

حَزِنَ الخَزَّانُ لما أن رأى نِيلَنا قد عمَّ سهلا وجَبَلْ
ورأى الأرض لنا قد أخرجتْ سُنْبلاتٍ ذاتَ حَبٍّ فاختَبلْ
وبكى إذ رَمِدتْ أَعْيُنُه زادها اللهُ عروقا وسَبَلْ

والسبل : داء يصيب العين بغشاوة كأنها نسج العنكبوت بعروق حمر ، وهو لايريد هذا المعنى فهو لايريد الدعاء على الخزان وإنما يريد الدعاء لأرض مصر ونيلها وأن تزيد عروق قمح وسَبَل كما تقول العامة أو سنبلات . ومن تورياته :

شهرُ الصيام تولّى فراقُه . يومُ عيدى
فقيل شيِّعْ بستٌّ فقلت أيضا وسيدى

وكلمة « ست » لها معنيان معنى قريب هو الأيام الستة البيض التى تصام نفلا بعد رمضان ، ومعنى ثان هو السيدة ، وقد وجه العبارة إلى هذا المعنى كما يشهد بذلك الشطر التالى . ولم تُعْنَ كتب الأدب والتراجم برواية شىء من بلاليقه . ومن موالياته :

مَزَجْت يوما مع الحِبِّ الرشيق القَدّْ وقلت آهى على من قَبَّلكْ فى الخدّْ
فسَلَّ سيفو من اَجْفَانو لقتلى حَدّْ قلت انتهى الأمر ياحِبِّى لهذا الحدّْ

وفى كلمة « الحد » الأخيرة تورية إذ لها معنيان : العقوبة مثل كلمة الحد السابقة ، والنهاية المفرطة . ومن موالياته أيضا :

رمى ، أصاب صميمَ القلب زين الزِّينْ وأَصْبَحْت مُضْنِى قلقْ أخشى حلول الحَيْن
وكنت قبلُ خَلِىْ لم أشك وشْك البين سالمْ من العشق حتى صابنى بالعين

ولكلمة « صابنى بالعين » معنيان هما الحسد ، وإصابة المحب لمحبوبه بعينه وسهامها القاتلة . وله مواليات وأشعار مفحشة كثيرة كان يقولها تظرفا لأهل زمنه .

الغُبارى (١)

هو خلف بن محمد الغُبارى عاش فى القرن الثامن الهجرى ، وكان فقيها وعالما وأديبا وشاعرا ينظم الشعر الفصيح ولكنه اشتهر بنظم الزجل . ونرى السلاطين منذ الناصر بن قلاوون يقربونه منهم ، كما نراه ينظم أزجالا مختلفة فى أحداث مصر ، ولايعرف تاريخ وفاته ، ويقال إن مئذنة

---

(١) انظر فى الغبارى تاريخ ابن إياس فى مواضع متفرقة من القرن الثامن الهجرى ، وراجع زجلا له فى عقود اللآل للنواجى ص ٢٥٥ وكتاب « الزجل والزجالون » لأبى بثينة ص ٢١ .

المسجد بقلعة الجبل سقطت عليه فمات ودُفن تحت أنقاضها ، وهو يعد أستاذ فن الزجل لزمنه ، فعنه تلقاه كثير من المصريين ، ويبدو أنه نظمه فى موضوعات كثيرة : فى المديح والرثاء والأحداث السياسية ، ومن زجل له فى مديح السلطان شعبان (٧٦٤ – ٧٧٨هـ) وكان محبوبا من رعيته :

حُبّ قلبى شعبانْ موفَّق رشيدْ وجمالو أشرقْ ومالو حدودْ
وأبوه الحسن وعمه الحسينْ وارث الملك من جُدود لجدود
زَعَقِ السعد بين يَدِيك شاويشْ فِرح القلب بعد ما كان حزين
ونصَبْ لك كرسى على المملكه وظهَرْ لك نصره بفتحو المبين
والعصايب من حولك اشتالتْ – خفقت فى الركوب عليك – البنود
فاحكم احكم فى مصر ياسلطان فجميع الجنود لحسنك جنود

والشاويش : رتبة عسكرية ، ويريد الغبارى أن السعد مثل بين يدى السلطان شعبان مؤتمرا بأمره ، ويقول إن العصابات أو جماعات الفرسان والرجالة اشتالت أى رفَعَت البنود والأعلام كناية عن أنه أصبح فى مصر صاحب الأمر والنهى والسلطان . ونراه متصلا بابنه السلطان على (٧٧٨ – ٧٨٣هـ) ناظما الأزجال فى الأحداث الكبرى لأيامه ، من ذلك زجل طويل نظمه فى وقعة العربان بالبحيرة القريبة من الإسكندرية ، وفى مطالعه يقول :

جا الخَبَرْ يوم الأربعا بأنُّو فى ليلة الأحَدْ
جا دمنهور عرب خَدوا سوقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم هو الذى للجميع حشَدْ
فبرز أيتمش سريع بمماليك وجند نُوَبْ
وعُدد مالها عدد ويطلبوا لهم طلب
حضروا ما التقوا أحَدْ من جميع العرب حضَرْ

وله وراء ذلك أزجال كثيرة فى النصائح والوصايا والحكم ، ولعلها أروع مما أنشدناه ، إذ كانت تفصل من روحه ومن خبرته بالحياة ، وكأنما يريد بها إلى حسن التربية وإحكام السلوك والانتفاع بخبرة الآباء والأسلاف وتجاربهم فى الحياة ، من مثل قوله فى زجل طويل :

فى الناس رَأينا للخير معادنْ والدرّ يوجد فى كَنز مِثْلُهْ

وآنْ رُمْت جوهر فى الشخص مكنونْ　　فجوهر الشَخص حسن فِعْلَهْ
وآن كان تريد صحة المعانى　　وشرح ما فى البيان محرَّر
خُدْ فرع بإيدك من أصل حَنْظل　　وازرع جذوره فى أرض عَنْبر
واسقيه بماء بان وورد ممزوج　　وعقد جُلاّب وحَلّ سُكَّرْ[1]
وحينْ تشوفه عقد ثماره　　وآن أوانـه وحـلّ فصلُـهْ
ذُوقُهْ تراهِ مُرّْ والسبب فيه　　مايرجع الفرع إلا لأصله

ولغة هذا الزجل تختلف عن لغة الزجْلين السابقين ، فهى أكثر خفة وقربا من اللغة العامية المصرية ، وليس ذلك فحسب فهى تكتظ بالصور والاخيلة البديعة ، وكأننا بازاء شاعر بارع يحسن تأليف الصور وايرادها فى موضع البراهين الساطعة ، ومن طريف حكمه ووصاياه فى هذا الزجل نفسه قوله ناصحا صادقا :

لاتحتـــقـــر أىّ ابـن آدم　　فى طول حياتك ولا تذمُّه
كم حى خامل تقول عليه　　مايعرف اسم البهيم من اسمهْ
وآن جيتْ صاحبتُه فى يوم بيانْ لك　　تظهر معارفه وينجلى علمه
ويشبه الروض حين يبدو شوكه　　والورد مستور من تحت سِلَّهْ
والبحر تلقى الرِّمَمْ تعومْ به　　والدرّ غايص مخلوط برَمْلَهْ

وهى وصية نفيسة أن لايبادر الإنسان إلى الحكم حكما سريعا على شخص دون تبين حقيقته ومعرفة جوهره ، والسِّلُّ فى العامية : الشوك . وبمثل هذا الزجل كان الغبارى إمام فنه فى زمنه غير مدافع .

---

(١) البان : شجر مقدود الأغصان تشبه به الحسان.
والجلاب : ماء الورد والزهر.

ابن [١] سودون

هو على بن سودون أكبر شخصية شعبية فكهة فى القرن التاسع الهجرى عُنى فى بواكير حياته بحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم والمعارف حتى أصبح شيخا فقيها ، وعُيِّن إماما بأحد المساجد فى القاهرة ، وكان فيه ميل متأصل إلى الفكاهة والهزل وقدرة على نظم الأشعار الهازلة الفكهة. فشغف الناس به ، وتنافسوا فى رواية أشعاره ودعاباته . ولم يلبث أن عُنى بجمعها وأضاف إليها بعض حكايات فكهة مكونا من ذلك كتابه أو ديوانه : « نزهة النفوس ومضحك العبوس » وجعله فى خمسة أبواب : الباب الأول فى القصائد والتصاديق ، ويقصد بالتصاديق مقدماتها وهى قصائد نُظمت بالفصحى ، والباب الثانى فى الحكايات الملافيق وواضح من اسمه أنه أقاصيص قصيرة ، والباب الثالث فى الموشحات الهبالية كما يقول وهى بالعامية ومثل هذا الباب باب الزجل والمواليا التالى فهو أيضا عامى اللغة . أما الباب الخامس فجعله للطرف العجيبة والتحف الغريبة ، وكأن البابين الثالث والرابع هما الخاصان بالشعر الشعبى العامى وإن كانت العامية عنده تتسرب إلى الباب الأول: باب القصائد، ومن الطريف أن عاميته شعرا ونثرا تقترب جدا من عاميتنا الحديثة ، وقد يكون فى ذلك مايشير إلى أن مصر بلد محافظ . وبدون ريب يصور ابن سودون فى كتابه مزاج المصريين الفكه . وفكاهته تقوم على ضروب من المفارقة المنطقية . تجعلك تشعر بغير قليل من فقدان التوازن على شاكلة قوله فى وصف الربيع وجمال طبيعته :

إلى الربيع أرى الأهواء تَلْوينى ... لما بدا زَهْرُه فى حسن تلوينِ
قد عطَّر الأرضَ نَشْرُ الفول حين سرتْ ... نُسَيْمَةٌ سحرا منه تحيِّينى
كأن زهرته أمُّ الخُلول إذا ... فَلَّقتَها فوق نَعْناعٍ بصَحْنُونِ
وكاد يشبه تاجُ القمح بامية ... لولا شعورٌ كأعراف البَراذين [٢]
واعجبْ من الماء وَسْط البحر كيف غدا ... يمشى بلا قدمٍ سَحْبًا على الطِّينِ
مُسَلْسلا قد جَرى ياصاح منطلقا ... فاعجبْ لمن جمع الضِّدَّيْن فى حين

---

(١) انظر فى ابن سودون شذرات الذهب ٣٠٧/٧ ومقالين لنا فى تحليل ديوانه بمجلة الكاتب العددين رقم ١٠ ، ١٢ و راجع كتابنا الفكاهة فى مصر ص ٦٧ وديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس مطبوع فى القرن الماضى وطبع حديثا .

(٢) البراذين : جمع برذون وهو البغل .

ومن يراه يتحدث عن الربيع والزهر فى البيت الأول يظن أنه سيستمر فى الحديث عن الجمال الهاجع فى الطبيعة وأزهارها وورودها ورياحينها ، وإذا هو يسقط به إلى النشر الفائح من نبات الفول وإلى زهره الذى يشبه صَدَفة أم الخلول التى يَطْعمها المصريون واضعين على الخلول النعناع والبهارات . أما القمح فتشبه سنابله البامية : الخضار المعروف ، لولا مايتدلّى من سنابله من شعور كأعراف البغال والخيل . ويعجب عجبا لاحد له من جريان الماء على الطين ، ويسمى الماء مسلسلا إذا جرى منحدرا . ويستغل الكلمة ابن سودون إذ لها هذا المعنى ومعنى ثان من السلسلة بمعنى مقيدا بالسلاسل .

ونحن فى أثناء ذلك كله نضحك ، لما أصاب توازننا المنطقى من اختلال ، وكأنما الأشياء تهوى أمامنا من حالق . ومن ذلك قوله .

عجبٌ عجبٌ هذا عجبٌ بَقَرا تَمشى ولها ذنبُ
ولها فى بُزَيِّزها لَبَنٌ يبدو للناس إذا حلبوا
من أعجب ما فى مصر يُرَى الـ ـكَرْمُ يُرَى فيه العِنبُ
والنَّخْلُ يُرَى فيه بَلَحٌ أيضا ويُرَى فيه رُطَبُ
والمركبُ مَعْ ماقد وَسَقَتْ فى البحر بحبلٍ تنسحبُ
والناقةُ لا منقارَ لها والوزَّةُ ليس لها قَتَبُ

وحين نقرأ قوله عجب ، نظن أنه سيعرض علينا بعض العجائب فإذا هو يعرض بديهيات غاية فى البداهة ، فى صورة مغرقة من التباله . ونحس كأن عُدْوانا أصاب منطقنا أو وقع عليه ، فالبقرة تمشى ولها ذنب وضرع مملوء لبنا ، وشجر الكرم يحمل العنب ، وعلى النخل البلح بُسْرا ورطبا ، والملاحون يجرُّون بحبالهم المركب الموسوق ، والناقة لا منقار لها وكأنه كان يظنها بجسمها الضخم من الطير . ويظن الإوزة من الإبل تمشى على أربع ، ويتساءل عن قتبها أو رحلها . وكل هذه مفارقات تعتدى على منطقنا فنفقد توازننا ونستغرق فى الضحك لهذا الهزل الذى يُلْغَى فيه المنطق السديد إلغاءً .

ومن طريف هزل ابن سودون ومفارقاته المنطقية المتناهية فى الإضحاك . وصفه لحفل زواجه وقبح زوجته على هذا النمط :

حَلَّ السرورُ بهذا العَقْد مبتدرا ونجمُ طالعه بالسَّعْد قد ظهَرا

و« الفلُّ » كلَّل وجهَ الأرضِ فانعطفتْ أغصانهُ بالتهانى تنثرُ الزَّهرا
والطيرُ من فَرْحها فى دَوْحها صدحتْ بكل عودٍ عليه لاترى وترا
تقول فى صَدْحها : دام الهنا أبدًا على العرايس كى يَقْضوا به الوطَرا
هذا وعقلُ عروسى كان أصغر من عقلى ولكن حوتْ فى عمرها كِبرَا
فى السنِّ قد طَعَنَتْ ماضَرَّ لو طُعِنتْ بالسِّنِّ من رمحِ آوسيفٍ إذا بَترا
فى وجهها نَمَشٌ فى أذنها طَرَشٌ فى عينها عمَشٌ للجفن قد سترا
ياحُسْنَ قامتها العَوْجا إذا خطرتْ يومًا وقد سَبْسَبَتْ فى جِيدها شعرا
تظلُّ تهتف بى : حَسْنَا حَظِيتَ بها أوَّاهُ لو حاسَها موتٌ لها قَبَرا

وهو فى أوائل الأبيات يجعل السعد رفيقا له كما يجعل الطبيعة ترقص طربا لزفافه على عروسه ، فالأشجار تنثر أزهارها فرحا والطير تصدح على أعوادها داعية للعروسين بدوام الهنا أبدا . ونفاجأ بعد ذلك بمفارقة منطقية شديدة ، فالعروس عجوز شمطاء صَمَّاء فى وجهها نَمَشٌ وفى عينيها عمش وقد حَنَى قامتها الهرمُ . ومع كل هذا القبح تظل تهتف به أن يحمد الله على حظوته بها ، ويتمنى لوطُعنت بسيف أو حازها الموت ودفنت فى التراب إلى غير مآب .

وعلى نحو هزل ابن سودون فى تصويره لحفل قرانه نراه يهزل فى رثائه لأمه هزلا ، يبعث على الابتسام بل على الضحك والإغراق فيه ، يقول :

لموت أمىٍّ أرى الأحزان تَحْنينى فطالما لَحَسَتْنِى لَحْسَ تَحنينِ
وطالما دلَّعتْنى حال تربيتى خوفا على خاطرى كى لا تبكِّينى
أقول : « مَمْ مَمْ » تجى بالأكل تُطْعمنى أقول : « أمبو » تجى بالماء تَسْقِينى
إن صحتُ فى ليلةٍ « وَأْوَا » لأُسْهِرها تقول « هُوهُو » بهزٍّ كى تُنَنِّينى
كم كحَّلتْنى ولى فى جَبْهتى جعلتْ « صوصو بنيلَى » وكم كانتْ تحنِّينى
ومن فقيهىَ إن أهْربْ ورام أبى مَسْكى وبَعْثى له كانتْ تخبِّينى
وزَغْردَتْ فى طهورى فرحةً وغدتْ تنثُر الملح من فوق وتَرْقينى
وخلَّفَتْنى يتيما ابنُ أربعةٍ وأربعين سِنينًا فى حِسابينى

والمرثية طويلة اقتصرنا منها على هذه الأبيات وكلها على هذا النحو عدوان على ما نألف فى الرثاء عامة ، إذ بدلا من أن يحمل كل بيت صرخة ألم أو دمعة حزن تتحول المرثية كلها هزلا

ودعابة . وكأنما ينظمها فى عيد من أعياد أمه فهو يذكّرها بأيام طفولته وكيف كان يقول لها « مَمّ » فتأتى له بالطعام « وأمبو » فتأتى له بالماء ، وكيف كان يبكى على صدرها وهى تهزه فى حنان ، كما يذكِّرها بأيام صباه ، وكيف كانت تدلِّى من شعره تعويذة على جبهته ، وكيف كانت تخبئه حين يهرب من الكتَّاب . ويذكِّرها بيوم خِتانه وزغاريدها فيه وكيف كانت تنثر فوقه الملح بركة ، وتَرقيه من شر كل مايؤذيه . وكلّ هذه مفارقة شديدة للرثاء وموقف الموت الوقور الحزين ، فإذا ابن سودون يهزل فتضحك ونتمادى معه فى الضحك . وقد جاء فى المرثية ببعض كلمات الأطفال ، وهو يكثر من لغتهم فى هزله كقوله :

ولما أن كبرتُ بحمد رَبِّى وصار لِمُنْتَهى عقلى ابتداءُ
بقيتُ أقول : نُنُّو تُتُّو تاتَهْ ودَحُّو كخْ وأُمْبُو مَمَّ آءُ

والكلمات كلها من لغة الأطفال قبل نطقهم بالكلام ، ومعنى كلمة دح فى اللهجة المصرية العامية حسنا كلمة كخ قبيح ولاتفعل . والحق أن ابن سودون كان جَعْبَة هزل وفكاهة ، وقد بَنَى فكاهته على المفارقة المنطقية فنحس دائما بعدوانه على منطقنا ببلاهته ، ونشعر كأنما الأشياء من حولنا تَهْوِى من أبراج عالية ، هى أبراج المنطق والعقل الواعى ، فنضحك ونسترسل فى الضحك .

الفصل الخامس

النّثر وكُتّابه

١

الرسائل الديوانية

ظلت مصر فى عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين لا تعرف من الدواوين سوى ديوانى الخراج والبريد ، وكانت الكتابة فى الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرب فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يجلبهم الولاة معهم من العراق[١] ، وبحق يقول القلقشندى إنه « لم يصدر عنهم مايدوَّن فى الكتب وتتناقله الألسنة[٢] » . ومرجع ذلك – كما لاحظ – أن الولاة لم يهتموا حينئذ باتخاذ ديوان للإنشاء . يوظَّف فيه كتاب مجيدون وتصدر عنهم رسائل محبَّرة .

حتى إذا ولى مصر أحمد بن طولون وأسس بها دولته الطولونية وامتد سلطانه إلى الشام وعلا شأنه أقام ديوان الإنشاء ورفع مقداره كما يقول القلقشندى[٣] ، واتخذ فيه جماعة من مهرة الكتاب على رأسهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم ابن عبد كان . ويشهد اسمه بأنه فارسى الأصل ، إذ الكاف فى الفارسية القديمة تدل على التصغير والألف والنون على النسبة ، فعبدكان يقابلها فى العربية عبيدى . وقد ظل قائما على ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن طولون فى عهد ابنه خمارويه حتى توفى فخلفه على الديوان إسحق بن نُصَيْر الكاتب البغدادى .

وابن عبد كان يبتدئ بمصر سلسلة كتابها المشهورين ، ودوَّت شهرته منذ زمنه لا فى مصر وحدها بل أيضا فى العراق ، إذ نجده بعد نحو قرن من الزمان يُقْرَن إلى أبى إسحق الصابى كاتبها حينئذ . وإذا رجعنا إلى رسائله الديوانية وجدناه يُعْنَى فيها بالسجع، وقد يتخفف منه فيستخدم

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » (طبع دار المعارف) ص ٣٤٥ وما بعدها .
(٢) صبح الأعشى ٩٥/١
(٣) صبح الأعشى ٩٥/١ و٢٨/١١ .

الازدواج من حين إلى آخر ، وسجعه خفيف . ويمده بغير قليل من التصاوير[١] ، وتوقف القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ليذكر عنه كيف وضع رسوم الدعاء فى افتتاح الرسائل وكيف تبتدئ أجوبةُ الكتب[٢] . وكان أهل بغداد فى زمنه يغبطون عليه مصر ، ويقولون إن بها كاتبا – يقصدون ابن عبد كان – ليس لأمير المؤمنين بمدينة بغداد مثله[٣] . وكانت رسائله متداولة بين الكتاب حتى زمن ياقوت فى القرن السابع الهجرى[٤] .

ونمضى إلى زمن الدولة الإخشيدية وقد ترتب ديوان الإنشاء وكثر الكتاب فيه ، غير أن أحدا منهم لم يشتهر شهرة ابن عبد كان ، ومن كتاب الديوان حينئذ إبراهيم بن عبد الله النجيرمى ، واشتهر برسالة طويلة له ، ردَّ بها على رومانوس حاكم بيزنطة ، وكان قد أرسل إلى الإخشيد رسالة يفتخر فيها ويمنّ عليه بأنه كاتبه وعادته أن لايكاتب إلا خليفة ، فكال له النجيرمى الصاع صاعين ، ولإعجابه برسالته كتب منها نسخا وأرسلها إلى العراق مفاخرا بها مباهيا[٥] .

ويستولى الفاطميون على مقاليد الأمور بمصر منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ويعظم ديوان الإنشاء فى زمانهم لاتساع دولتهم من أقاصى المغرب إلى نهر الفرات وامتداد سلطانهم إلى الحجاز واليمن وأيضا لأنهم كانوا أصحاب نحلة شيعية غالية اتخذوا لها دعاة كثيرين فى العالم العربى ونظموا الدعوة لها تنظيما دقيقا ، فكان من الطبيعى أن يهتموا اهتماما واسعا بديوان الإنشاء القائم على كل شئون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية ، وفى ذلك يقول القلقشندى : « لما ولى الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتَّابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع فى الآفاق ذكره ، ووليه عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمى[٦] » . وكانت لصاحب هذا الديوان منزلة كبرى لدى الفاطميين ، فكان لايتولاه – كما يقول القلقشندى – إلا أجلُّ كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجلِّ ويلقب بكاتب الدَّسْت ، والدست صدر المجلس إشارة إلى أنه فى الصدر من مناصب الدولة « وكان أول أرباب الإقطاعات فى الكسوة والرسوم والملاطفات .. وله حاجب من الأمراء والشيوخ ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمخادّ والمسند والدواة العظيمة

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣٤٩ ومابعدها .
(٢) صبح الأعشى ٨/١٦٠ ومابعدها .
(٣) صبح الأعشى ٣/١٧
(٤) معجم الأدباء ٦/٨٥ .
(٥) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد : القسم الخاص بالفسطاط (طبع جامعة القاهرة) ص ١٦٧ وما بعدها .
(٦) صبح الأعشى ١/٩٦ .

الشأن ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة »[١] . وكانت تساعده طائفة من الكتاب البلغاء . وبلغ من اهتمام الفاطميين بهذا الديوان أن ألحقوا به دائما أكبر النحاة واللغويين فى أيامهم لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان ، وممن اختاروه لذلك ابن بابشاذ كبير نحاة مصر ولغوييها فى القرن الخامس الهجرى وخلفه فى مكانه ابن بركات من تلاميذه ، حتى إذا توفى خلفه ابن بَرِّى اللغوى المشهور ، إلى نهاية أيام الدولة الفاطمية[٢] . وكان يلتحق بالديوان بعض الشباب للتدريب فيه على تجويد الكتابة ، حتى إذا جوَّدها شاب وأتقنها أصبح من كتَّابه على نحو ماحدث[٣] للقاضى الفاضل بأخرة من زمن الفاطميين .

وتظل لديوان الإنشاء مكانته فى عهد الأيوبيين ، ويتولاه لصلاح الدين القاضى الفاضل مع قيامه على وزارته ، ويشرك معه العماد الأصبهانى فى الكتابة ، وكان صاحب الديوان حينئذ يسمى كاتب الدَّسْت وكاتب الدَّرْج وهو الورق الذى يكتب فيه . واتسع عمل هذا الديوان اتساعا كبيرا فى عهد المماليك ، مما جعل الظاهر بيبرس يعيِّن ثلاثة كانوا أصحاب الدَّسْت ، حتى إذا تحولت السلطة إلى قلاوون سمى صاحب الديوان كاتب السِّرِّ[٤] . ورفع منزلته فوق كتاب الدست . وجعلهم أعلى درجة من كتاب الدرج ، وكان فى كل ولاية كبيرة لمصر ديوان إنشاء : فى الإسكندرية وفى دمشق وغير دمشق . وظل هذا الديوان قائما إلى نهاية عصر المماليك ، حتى إذا تبعت مصر الدولة العثمانية ضاعت منزلته نهائيا وأصبح أثرا بعد عين .

وفى صبح الأعشى للقلقشندى ثبت بأسماء من تولوا رياسة هذا الديوان حتى زمنه[٥] سنة ٨٢١ وأضاف إليه ابن تغرى بردى من تولوه حتى أيامه[٦] سنة ٨٦٥ وأتمه السيوطى حتى نهاية القرن التاسع الهجرى[٧] ، ووراء هؤلاء الرؤساء كتاب كثيرًا مابذُّوا من كانوا يكتبون بين أيديهم وهم كثيرون . ومرَّ بنا أن ابن عبد كان الذى وضع رسوم الكتابة الإنشائية بمصر لزمن الطولونيين كان يعنى بالسجع فإن تركه فإلى صور من الازدواج ، وظل كتاب الدولة الفاطمية فى القرن الرابع الهجرى يترسَّمون طريقته ، فهم يسجعون ويزاوجون على نحو مايلاحَظ فى الكتب التى كانت تصدر عن المعز والعزيز ، ويبدو أن ابن سورين المسيحى كاتب العزيز والحاكم كان يعنى بالسجع

(١) صبح الأعشى ١/١٠٢
(٢) انظر كتابنا « المدارس النحوية » طبع دار المعارف ص ٣٣٨
(٣) ابن خلكان ٧/٢٢٠
(٤) السلوك للمقريزى ١/٦٦٦ وابن تغرى بردى ٧/٣٣٢
(٥) صبح الأعشى ١/٩١ ومابعدها
(٦) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٧/٣٣٤ وما بعدها
(٧) حسن المحاضرة ٢/٢٣٠

كثيرا[١] . وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجرى ، وجدنا كتابا يصدر على لسان الخليفة الظاهر سنة ٤١٤ مسجوعا كله ، وربما كان الذى كتبه أحمد بن على بن خيران الملقب بولى الدولة ، وكان يلى ديوان الإنشاء فى عهد الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) والمستنصر إلى وفاته سنة ٤٣١ ، وكان كاتبا شاعرا ، وكان يعتدُّ بشعره وكتابته مما جعله يرسل إلى الشريف المرتضى ببغداد جزء ين من شعره ورسائله ليعرضها على الأدباء هناك ، فإن استحسنوهما خلدهما له بمكتبة دار العلم ، وأعجب هلال بن المحسن الصابئ – فيما يبدو – برسائله[٢] . ويقول ابن سعيد فى المغرب : « وقفت على رسائله فى مجلدين . وأكثرها من طبقة المغسول »[٣] ويسوق له رسالة عن الظاهر مسجوعة ، ويبدو أن ابن سعيد بالغ فى الحكم عليه ، أو لعله وجد عنده السجع فقط ولم يجد سجعه يزدان بألوان البديع ، ولذلك قال إن رسائله مغسولة أى من زينة البديع ومحسناته ، ومع ذلك فقد روى له قوله فى فصل من إحدى رسائله : « وكان قلمك يَجِفُ[٤] ولا يجفّ ، وسيفك من ذوى العناد يَكِفُ[٥] ولايكفُّ ، ووزنك فى سَدِّ ثُلَم الفساد يَرجح ولايخفّ » . والجناس واضح بين يَجِفُ ويجفّ وبين يَكفُ ويكُفُّ وقد طابق بين يرجح ويخف مما يدل على أن ابن خيران لم يكن يخلى سجعه من محسنات البديع ، فهو ليس مغسولا دائما كما يقول ابن سعيد .

ولعل أهم كاتب خلف ابن خيران بديوان الإنشاء فى القرن الخامس الهجرى ابن أبى الشخباء ولم يكن من رؤساء الديوان بل كان من الكتاب فيه ، وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . واشتهر ابن الصيرفى فى إثره إذ تولى ديوان الإنشاء فى عهد الآمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وسنترجم له عما قليل . وكان يكتب معه ابن قادوس المار ذكره بين الشعراء ، ومازال يرقى فى الديوان حتى أسند إليه الديوان مع الموفق بن الخلّال إلى وفاته سنة ٥٥١ . وكان يعمل معه لزمن ابن الصيرفى الحسن بن زيد الأنصارى وهو حفيد ابن أبى الشخباء من قبل أمه ، وكان كاتبا بليغا واحتفظ العماد الأصبهانى بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية[٦] . وقام على ديوان الإنشاء حتى نهاية الدولة الفاطمية الموفق بن الخلّال وفى صبح الأعشى بعض رسائله[٧] ، وعلى يديه تخرّج القاضى الفاضل

---

(١) المغرب فى حلى المغرب (القسم الخاص بالقاهرة – طبع مطبعة دار الكتب) ص ٢٤٩

(٢) معجم الأدباء ٥/٩ وما بعدها

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٢٤٧ .

(٤) يجف : يسرع . وفى الأصل يوجف

(٥) يكف : يسيل .

(٦) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٧٣/٢ .

(٧) صبح الأعشى ٣١٠/١٠ و٣١٦ وانظر فى ترجمته الخريدة ٢٣٥/١ وابن خلكان ٢٢٠/٧ وشذرات الذهب ٢١٩/٤ .

فى صناعة الرسائل . وظل يرعى له حق التعليم والتخريج إلى أن توفى سنة ٥٦٦ للهجرة .

وكان القاضى الفاضل صاحب ديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين وابنه العزيز ومقاليد الأمور كلها بيده فأشرك معه العماد الأصبهانى كما أسلفنا ، وسنترجم لهما بعد قليل ، ومن كتاب الأيوبيين فى عهد الفاضل ابن مماتى وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ، وكتب من بعدهما للأيوبيين جماعة ، منهم البهاء زهير الشاعر الذى ترجمنا له ، ولم تؤثر له رسائل مدونة ، وأشرك معه إبراهيم بن لقمان لعهد الصالح نجم الدين أيوب . ولم يلبث الصالح أن أعفى البهاء ، وظل ابن لقمان حتى نهاية الدولة الايوبية ، وامتازت الكتابة الديوانية فى العهد الأيوبى بأنه تكوّنت فيها مدرسة جديدة قادها القاضى الفاضل ، والحق أنها ليست جديدة خالصة ، فهى الثمرة النهائية لرقى الكتابة زمن الفاطميين ، إذ نرى الفاضل يكثر من المحسنات البديعية ، وكانت قد بدأت مع ابن خيران كما مر بنا ، وأضاف الفاضل إليها الإكثار من التورية ، وهى أيضا قديمة فى الكتابات والأشعار الفاطمية منذ القرن الخامس على نحوما مر بنا فى حديثنا عن أشعار الشريف العقيلى . وأُلِّف فى العصر الأيوبى كتابان فى دواوين الخراج وشئونها المالية هما كتابا قوانين الدواوين لابن مماتى ، وسنعرض له فى ترجمته عما قليل ، وكتاب لمع القوانين المضيَّة فى دواوين الديار المصرية لعثمان بن إبراهيم النابلسى ، وكان كاتبا فى دواوين مصر لعهد السلطان نجم الدين الأيوبى (٦٣٧-٦٤٨هـ) .

ويلقانا إبراهيم[1] بن لقمان على ديوان الإنشاء أيام المماليك فى عهد أيبك وقطز وبيبرس ومدة قليلة فى عهد قلاوون ثم نقله إلى الوزارة ، وظل وزيرا لابنه خليل . ثم عاد كاتبا فى ديوان الإنشاء إلى أن توفى سنة ٦٩٣ . وكان يشاركه فى عهد الظاهر بيبرس محيى الدين بن عبد الظاهر ، وهو أهم كتاب المماليك ، وجعله قلاوون كاتب السر ، وظيفة أنشأها لأول مرة ، وسنترجم لابن عبد الظاهر ، وممن كان يكتب بين يديه فى الديوان ابنه فتح[2] الدين . وخلفه على كتابة السر لعهد السلطان خليل بن قلاوون ، وكتب بين يديه أيضا سِبْطُه شافع[3] بن على بن عباس ، وهو الذى كتب عن السلطان قلاوون رسالة طويلة إلى السلطان أحمد القان بن هولاكو جواب كتاب كان قد أرسله القان إلى قلاوون يذكر فيه إسلامه وأنه حَّرم على عساكره الغارات على البلاد[4] .

(١) انظر فى ابن لقمان صبح الأعشى ١١١/١٠ والنجوم الزاهرة ٥٠/٨

(٢) انظر فى فتح الدين حسن المحاضرة ٥٧٠/١ والنجوم الزاهرة ٣٥/٨ وصبح الأعشى ٣٣٩/١٣ وشذرات الذهب ٤١٩/٥ .

(٣) راجع ترجمته فى فوات الوفيات ٣٧٦/١ .

(٤) صبح الأعشى ٢٣٧/٧

ويلمع فى رياسة ديوان الإنشاء بمصر ودمشق منذ عهد السلطان خليل المتوفى سنة ٦٩٣ حتى نهاية القرن الثامن غير كاتب من أسرة فضل الله العمرى . وأول من ولى كتابة السر منها أو بعبارة أخرى رياسة الديوان عبد[١] الوهاب بن فضل الله العمرى ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى العقد الثانى من القرن الثامن إذ نقله الناصر بن قلاوون إلى دمشق ووليها بعده من الأسرة فى سنة ٧٢٩ أخوه[٢] محيى الدين يحيى ، وكان يَشْرَكه فى كتابة السر ابنه شهاب الدين أحمد ، وفى سنة ٧٣٢ نقلها الناصر فترة قليلة إلى دمشق ولم يلبث أن أعادهما فظلا على كتابة السر حتى سنة ٧٣٨ إذ تغير الناصر على شهاب الدين وأقام مقامه أخاه[٣] علاء الدين ،وظل فى الوظيفة حتى سنة ٧٦٩ وتولاها بعده ابنه بدر الدين[٤] إلى أن توفى سنة ٧٩٦ .

ومن الكتاب المهمين المعاصرين له ابن مكانس ، وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . ويلمع فى أوائل عهد المماليك البرجية اسم القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، ولم يتول كتابة السر ولكنه ألمع كاتب بالدواوين فى زمنه وسنترجم له بين كتَّاب المقامات . ويتولى رياسة ديوان الإنشاء غير كاتب مصرى وشامى ويتوقف النشاط فيه مع دخول العثمانيين مصر كما أسلفنا . ونعرض طائفة من أنبه كتابه .

ابن[٥] الصيرفى

هو على بن منجب بن سلمان ولد بالقاهرة سنة ٤٦٣ وكان أبوه صيرفيا ، بينما كان جده معدودا بين كتَّاب زمنه . ولعله هو الذى وجَّهه إلى اتخاذ الكتابة الديوانية حرفة له . ولا بد أنه جمع له من أسبابها وأدواتها الثقافية ماجعله يتقنها سريعا ، والتحق بديوان الجيش وعنى به صاحبه صاعد بن مفرج ، وعمل فى ديوان الخراج . وتنبه له وزير مصر لأيامه الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧-٥١٥هـ) فنقله إلى ديوان الإنشاء ، وأعجب به متوليه سناء الملك أبومحمد الحسنى

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٠/٩

(٢) انظر ترجمته فى فوات الوفيات ٤٦/٢

(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/١١

(٤) النجوم الزاهرة ١٤٠/١٢ .

(٥) انظر فى ابن الصيرفى وترجمته ورسائله معجم الأدباء ٧٩/١٥ وتاريخ مصر لابن ميسر فى مواضع مختلفة وحسن المحاضرة ٦٠٤/١ وصبح الأعشى ٩٧/١ ، ٢٣٧/٨- ٢٤١ ، ٣١٦ - ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ وخطط المقريزى ٢١٤/٢ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة- طبع دار الكتب المصرية) ص ٢٥٢ وراجع كتابيه قانون ديوان الرسائل (طبع مصر) والإشارة إلى من نال الوزارة (طبع المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) .

الزيدى ، فأسند إليه كتابة التقاليد والمراسيم والتوقيعات ، حتى إذا توفى الخليفة الفاطمى المستعلى سنة ٤٩٥ وولّى الأفضل الجمالى ابنه الآمر (٤٩٥–٥٢٤هـ) وهو فى الخامسة من عمره حينئذ نرى ابن الصيرفى هو الذى يكتب السجل بوفاة المستعلى وولاية الآمر. ويُقرأ سجله على رءوس كافة الأجناد والأمراء. ويضيف إلى ذلك كتابا عن الآمر عند استقراره فى الخلافة بعد أبيه بأنه فوّض إلى الأفضل الجمالى وزيره تدبير شئون الدولة والرعية. ويكتب كتابا ثانيا إلى ولاة الأطراف بعد كتابة السجل أو العهد وتفويض الأمور إلى الأفضل مهنئًا فيه بخلافة الآمر وتجديد ولايته. ويسجل القلقشندى فى صُبْحه طائفة أخرى من كتب ابن الصيرفى فى البشارة بسلامة الخليفة فى مواسم رمضان إذ كانت تكتب فى مواكب الجمعة الأولى والثانية والثالثة وكذلك فى عيد الفطر وعيد النحر، وحذف القلقشندى من تلك الكتب اسم الخليفة ، وقد ظل يعمل فى ديوان الإنشاء لعهد الآمر برياسة الشيخ ابن أسامة ، حتى إذا خلفه فيه ابنه أبو الرضا شركه فى رياسة الديوان ، ثم انفرد برياسته لعهد الحافظ (٥٢٤–٥٤٣هـ). ويبدو أنه ظل يعمل فيه حتى توفى سنة ٥٤٢. ويذكر ياقوت أنه توفى لأيام طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز بعد سنة ٥٥٠ ولعل التاريخ الأول لوفاته هو الصحيح.

وكان ابن الصيرفى كاتباً بليغاً بل يُعَدّ أبلغ الكتاب المصريين زمن الفاطميين ، وفيه يقول ياقوت : «أحد فضلاء المصريين وبلغائهم مسلَّم ذلك له غير منازع فيه . . وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات» ويشيد ابن سعيد فى المغرب ببلاغته قائلاً : «وقعت على ترسله فى مجلدات عدة ، فوجدت [القاضى] الفاضل البيسانى ينسج على منواله وينزع منزعه» وسنعرف عما قليل أن القاضى الفاضل أبرع كتاب مصر فى هذا العصر. وتتضح مهارة ابن الصيرفى البيانية فى أول كتاب احتفظ له القلقشندى به ، وهو السجل الذى كتبه على لسان الآمر بوفاة الخليفة المستعلى وولايته الخلافة بعده سنة ٤٩٥ وقد استهله بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين ، يقصد آباءه من الخلفاء الفاطميين ، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاه لهداية الناس ، ويصلِّى على جَدّه لأبيه على بن أبى طالب ، ويقول «إن الله أكرمه بالمنزلة العلية ، وانتخبه للإمامة رأفة بالبرية ، وخصَّه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مبرة التعظيم ومزية التفضيل» . وكل ذلك ترداد لما كان يبدىء الفاطميون فيه ويعيدون من تفضيل علىٍّ بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وغيرهما من جِلّة الصحابة ، وأن الله خصه بعلم فوق العلم الدينى المعروف للأمة ، به يعرف المعنى الحقيقى للقرآن أو المعنى الخفى الذى

يعلو على الفهم العادى ، ويشيد ابن الصيرفى على لسان الآمر بنشر أبيه المستعلى للعدل بين الرعية ، ويصور فداحة الرزء به والفجيعة فيه ثم يقول :

«وقد كان الإمام المستعلى بالله – قدَّس الله روحه – عند نقلته ، جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده ، وعهد إلىّ أن أخلفه فى العالم ، وأُجْرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه المتعالم ، وأطلعنى من العلوم على السر المكنون ، وأفضى إلىّ من الحكمة بالغامض المصون ، وأوصانى بالعطف على البرية ، والعمل فيهم بسيرته المرضيَّة ، بما جبلنى[1] الله عليه من الفضل ، وخصَّنى به من إيثار العدل ، وإننى – فيما استْرعيتُه – سالك منهاجه ، عامل بموجب الشرف الذى عَصَب الله لى تاجه» .

والسجل أو العهد كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة ، لا غرابة فى كلمة ولا نبو فى لفظ ، بل ينساب الكلام فى فيض من البراعة البيانية ، وفيه يقرر ابن الصيرفى على لسان الآمر أن الخلافة انتقلت إليه بالوراثة عن آبائه ، وأن أباه عَهِدَ إليه بها ، فهو يخلفه عن عَهْد أو وصية ، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة لعلى وأنها تنتقل بالوصية من الأب إلى الابن . ويقول ابن الصيرفى على لسان الآمر إن الله أطلعه من العلوم على السر المكنون ومن الحكمة على الغامض المصون ، مشيراً بذلك إلى عقيدة الفاطميين فى أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم باطنى يتوارثه إمام بعد إمام متنقلاً من جيل إلى جيل ، وهو عندهم علم لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب ، بل أيضاً يتّسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة ، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة لا تحدها حدود ، طاعة بدون قيد أو شرط .

وتتوالى كتب ابن الصيرفى فى الجزء الثامن من صبح الأعشى يكتبها فى وصف خطابة الآمر وصلاته فى جُمَع شهر رمضان وفى عيد الفطر وعيد النَّحْر أو الأضحى وفى وفاء النيل . ولا نراه يعود إلى مثل الإشارات السالفة للعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويبدو أنه لم يكن غالياً فى العقيدة أو لعل القلقشندى حذف مما دوَّنه من كتبه ورسائله غلوه . ولم يكن كاتباً بليغاً يكتب الرسائل الديوانية فحسب ، بل كان أيضا يكتب رسائل أدبية طريفة ، وقد أشار إليها ابن سعيد فى المغرب حين قال : «له تصانيف مشهورة صغار ظراف» ويبدو أنه كان قد صنَّفها للوزير الأفضل بن بدر الجمالى صاحب الأيادى السابغة عليه ، وله فيه إشادات مختلفة سجلها فى رسائله الديوانية التى

(١) جبلنى : خلقنى .

أشرنا إليها وردَّدها مرارا وتكرارا ، وقد ذكر ابن سعيد من تصانيفه كتاب « لُمَح المُلَح [١] » وأورد من نثره فيه قوله :

« جرت العادة فى الغِطاس ، إعمال الكاس والطاس ، وهذه الآلة – إذا فقدت الراح – بمنزلة أجسام عدمت الأرواح ، فداوِ بإحيائها قلبا لى قريحا ، وإذا كانت عازَر فكُنْ مسيحا » .

والغطاس عيد من أعياد القبط بمصر كان يحتفل بليلته النصارى والمسلمون فى الحادى عشر من شهر طوبة أشد أشهر الشتاء برودة ، وكانوا يكثرون فيه من الملاهى فى الزوارق بالنيل وعلى شاطئيه كما كانوا يكثرون من إيقاد المشاعل والفوانيس مع الاستماع إلى المغنين والمغنيات . وواضح أن ابن الصيرفى يشير إلى ما كان يتخذ فى هذا العيد من اللهو وشرب الخمر فى أوعيتها من الكاس والطاس ، ويقول إن هذه الأوعية إن لم تملأ بالخمر أو الراح كانت أجساما بدون أرواح . وكأنه يطلب خمرا من صديق ، فيقول له : داوِ بإحيائها قلبا لى جريحا ، يطلب منه أن يبث فى دنانه الحياة التى عدمتها بفقدانها الراح . ويقول إنها أصبحت مثل الميت المعروف باسم عازر الذى أحياه المسيح ، فأحيها وابعثها من جديد . ويذكر ابن سعيد من رسائل ابن الصيرفى الأدبية التى صنفها للأفضل الجمالى رسالة بعنوان « منائح القرائح » وينقل من صدرها قوله :

« أولى ماتُقُرِّبِ به إلى الله تعالى الإكثار من تحميده ، والإقرار بربوبيته وتوحيده ، والصلاة على نبيه محمد الذى عَضده بتأييده ، وخصَّه من الشرف بمالا سبيل إلى تحديده [٢] ، وعلى آله الممنوحين من الفضل مايعجز الواصف عن تعديده ، ثم التوسل إلى ملوك كل وقت بشكر نعمتهم ومواصلة خدمتهم ، وشَهْر خصائصهم التى امتازوا بها عن العباد ، وذكر مناقبهم التى سارت فى الأقطار ونَقَّبت [٣] فى البلاد ، والاجتهاد فيما نفقت [٤] بشريف مقاماتهم سوقه ، والاعتماد على ماظهر سُمُوقه [٥] فى البلاغة وبُسُوقه ، ولاخلاف أن سلطان هذا العصر ، والمخصوص من الفضائل بمالا يدخل تحت الحصر ، مالكُنا السيد الأجلّ الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام » يقول ابن سعيد : وأخذ فى الاطناب على الأفضل . ويذكر أنه قال من تتمة تقدمته لتلك الرسالة :

---

(١) فى المغرب (قسم القاهرة) : ملح الملح .
(٢) فى المغرب : تجديده
(٣) نقبت : ذهبت وشاعت .
(٤) نفق : راج .
(٥) سموقه وبسوقه : ارتفاعه

« فيجب على كل من صَفَتْ فكرته ، وصحَّت فِطْرته ، وأمكنه استنباط معنى غامض ، واستدلَّ على المحاسن بَبْرقها الوامض ، وعرف موضع الفضيلة فيما يضعه[1] من تصنيف ، وعلم موقع الوسيلة به إلى كل موقف شريف ، أن يُظهر كامن قُوَّته ، ويُعْمل مطايا رَوِيَّتِه ، فيما يخدم مجلسه[2] العالى به ، مما يُطْرب مورده ومسموعه ، ويعجب مؤلفه ومجموعه » .

وواضح أن ابن الصيرفى كان يحسن الكتابة إحسانا بعيدا ، دون أى غرابة فى لفظ ، بل مع السهولة واليسر ، فسجعه خفيف لا غلظ فيه ولا كزازة ، وكأنه يفيض من ينبوع غَدِق ، شرابا يمتع النفس . وكان يوشِّيه أحيانا بالألفاظ القرآنية مثل قوله عن المناقب إنها « نقَّبت فى البلاد » أى مضت وانتشرت أخذا من قوله تعالى : (فنقَّبوا فى البلاد هل من محيص) . واقتباسه للألفاظ والآيات القرآنية واضح فى رسائله . وكثيرا مايوشى سجعه بالمحسنات البديعية وخاصة الاستعارة والتشبيه والجناس والطباق . وأورد ابن سعيد لُغْزًا له فى السيف على هذا النحو : « يبالغ فى شكره إذا أقصد[3] وجرَّح ، وتقبل فى تزكيته شهادة المجرَّح » . وفى كلمتى التزكية والمجرَّح توريتان واضحتان فللتزكية معنيان . التعديل من قولهم زكى الشهود أى عدَّلهم ، وهو المعنى القريب للكلمة بدليل كلمة الشهادة . والمعنى الثانى بعيد ، وهو الإطراء وهو المراد ، وكذلك لكلمة المجرَّح معنى قريب بدليل كلمة الشهادة وهو الذى لاتقبل شهادته . ومعنى ثان بعيد وهو المجرَّح بالسيف فى الحرب ، وهو أيضا المراد . ولعل فى هاتين التوريتين مايدل على أن ابن الصيرفى كان يستظهر التورية فى نثره أحيانا ومرَّ بنا أن شعراء القرن الخامس وفى مقدمتهم الشريف العقيلى كانوا يستخدمونها كثيرا . وتبعهم فى ذلك الكتاب كما نرى الآن عند ابن الصيرفى . وبذلك يتبين خطأ ابن حجة الحموى حين زعم أن القاضى الفاضل هو الذى ذلل من التورية الصعاب وأنزل الشعراء بساحاتها ورحابها[4] فقد نزلها شعراء الدولة الفاطمية من قبله وكتَّابها ، وبهديهم اهتدى القاضى الفاضل ، وعن قوسهم رمى .

ولابن الصيرفى كتابان مطبوعان موجزان هما : قانون ديوان الرسائل ، وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة . والكتاب الأول فى نظام ديوان الرسائل وبيان ماينبغى أن يتحلى به رئيسه وموظفوه من ثقافات وصفات مميزة ، وبه مقتطفات من بعض رسائله وهو كتاب نفيس . والكتاب الثانى

---

(١) فى المغرب : يصنفه .

(٢) فى المغرب : محله .

(٣) فى المغرب : أفسد ، وأقصد السهم : أصاب

(٤) خزانة الأدب للحموى (طبعة بولاق) ص ٦٧

يؤرخ فى إجمال لوزراء الدولة الفاطمية ، وهو مع إجماله بالغ الأهمية التاريخية . وأنشد ياقوت لابن الصيرفى بعض أشعار ، وهى تدل على أن ملكته النثرية كانت أخصب من ملكته الشعرية .

القاضى (١) الفاضل

هو عبد الرحيم بن على بن حسن اللخمى أصلا ، العَسْقلانى مولدا ، البَيْسانى نسبة إذ كان أبوه يتولى قضاءَ بَيْسان بفلسطين للفاطميين فنُسب إليها . ويذكر بعض من ترجموا له أنه ولد سنة ٥٢٩ وأكبر الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ . كما سنرى بعد قليل . وكان طبيعيا أن يُعْنَى أبوه بتربيته ، وبدأ بإرساله إلى كتَّاب أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، وحفظه وحفظ كثيرا من الأشعار . ويبدو أن الأب أحسَّ بميل ابنه إلى الأدب ، فرأى أن يرسل به إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ليتدرب فيه على الكتابة ، وفرح الابن برغبة أبيه : أن يصبح من كتَّاب الدواوين الفاطمية ، فسافر إلى حاضرة الفاطميين لعهد الخليفة الفاطمى الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣هـ) ويقول الرواة إنه كان فى الخامسة عشرة من عمره ، ونظن ظنا ان سنه كانت أعلى من ذلك على الأقل سنتين أو أكثر حتى يتسنى له أن يهاجر من بيسان إلى القاهرة ، وقد اشتد عوده قليلا وخاصة أنه كان أحدب ضعيف البنية . ويقول الرواة إنه حين ألمَّ بديوان الإنشاء كان يرأسه الموفق بن الخلَّال أحد كتاب مصر المبدعين ، وكان يشركه فى رياسته ابن قادوس الذى ترجمنا له بين الشعراء ، وظلت لهما الرياسة حتى توفى ابن قادوس فانفرد بها الموفق بن الخلال حتى نهاية الدولة الفاطمية .

وعُنى به الكاتبان الكبيران ، وخاصة الموفق بن الخلال ، ويقول القاضى الفاضل إنه سأله فى أول لقاء له : ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فأجابه ليس عندى شىء سوى أنى أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة ، فقال له . فى هذا بلاغ ثم أمره بملازمته فمكث يتردد إليه ويتدرَّب بين يديه ، وأمره الموفق بحلِّ شعر ديوان الحماسة ، فحلَّه من أوله إلى آخره ، ولم يزل ابن

---

(١) انظر فى ترجمة القاضى الفاضل ورسائله وشعره عبر الذهبى ٢٩٣/٤ وابن خلكان ١٥٨/٣ وطبقات الشافعية للسبكى ١٦٦/٧ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٦٢/١ والخريدة للعماد الأصبهانى (قسم شعراء مصر) ٣٥/١ والنجوم الزاهرة ١٥٦/٦ وشذرات الذهب ٣٢٤/٤ ونهاية الأرب ١/٨-٥١ وصبح الأعشى (انظر الفهرس) وراجع الكتب التاريخية فى زمنه وخاصة كتاب الروضتين . ونشر له د . أحمد بدوى ديوانه ومختارات محيى الدين بن عبد الظاهر من نثره باسم الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم . وله فيه كتاب بعنوان : القاضى الفاضل : دراسة ونماذج ، وانظر كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ص ٣٦٨ .

الخلال يدربه حتى أتقن فن الكتابة . ويبدو أنه أحسَّ أن المكانة التى يريدها لنفسه فى ديوان الإنشاء بالقاهرة من الصعب تحقيقها سريعًا لكثرة منافسيه فيه ، فرحل إلى ابن حديد قاضى الإسكندرية ومتولى الأمر فيها لعله يحقق لنفسه مايريد من الشهرة ، ورحَّب به ابن حديد وعهد إليه بالكتابة عنه وظل عنده ثمانى سنوات ، وكانت كتبه تسترعى أنظار موظفى الديوان الفاطمى لفصاحته فيها وحسن بيانه . ويقول الرواة إنها لفتت نظر العادل بن رزيك حين تقلد الوزارة للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٥٦ فأرسل إلى ابن حديد فى طلبه ليعمل فى دواوينه ، وأرسله إليه ، ووظفه رئيسا لديوان الجيش وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير . ويبدو أنه انتقل من ديوان ابن حديد إلى دواوين الخلافة بالقاهرة فى وقت مبكر عن خلافة العاضد (٥٥٥ — ٥٦٧) إذ نرى فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهداً من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ولم يُذْكَر اسم الخليفة ، وآخر خليفة فاطمى تولى الخلافة بعد أبيه الفائزبن الظافر الذى تقلدها من سنة ٥٤٩ إلى سنة ٥٥٥ ووليها بعده عمه العاضد آخر خلفائهم . وواضح أن هذا العهد يؤكد أن القاضى الفاضل عمل فى دواوين القاهرة على الأقل فى عهد الفائز بل لابد أن يكون قد عمل فيها قبله فى عهد أبيه الظافر (٥٤٣ — ٥٤٩) حتى يمكن أن يكتب عنه هذا العهد . وقد استخلصه الموفق ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء لنفسه فكان يكتب بين يديه . ولا يلبثُ شاور أن يقتل العادل ويستولى على مقاليد الوزارة سنة ٥٥٨ . وينشب خلاف عنيف بين شاوَر وضرغام على نحو مامر بنا فى الفصل الأول من هذا القسم ، ويستنجد شاور والخليفة العاضد بنور الدين صاحب حلب ، ويَقْدَم عليه شاور ويرسل معه بعساكر يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وينصرانه. وسرعان ما يعض اليد التى نصرته . وتتطور الأمور ويستعين شاور بالصليبيين مرارا ، ويستصرخ العاضد نور الدين فيرسل إليه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين المرة تلو المرة ولكن « شاور » لا يثوب إلى رشده فُيْفَتَك به ويُقْتَل ، ويتقلد أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية للخليفة العاضد .

وفى هذه الأثناء كان القاضى الفاضل يكتب السجلات والتقاليد والمنشورات عن العاضد بين يدى الموفق بن الخلال ، وكان قد أخذ بصر الموفق يضعف جدا حتى أضرَّ ، فأصبح القاضى الفاضل هو المتصرف فى المكاتبات باسم العاضد وفى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهد من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ، ولم يذكر اسم الخليفة ، وأكبر الظن أنه العاضد ، وتكثر العهود والسجلات من إنشائه فى الجزء العاشر مما كتب به عن العاضد إلى القضاة

والولاة بتقلد أعمالهم ، ومن ذلك العهد الذى كتبه عن العاضد بتولى أسد الدين شيركوه الوزارة فى شهر ربيع سنة ٥٦٤ وتفويض كل شىء إليه ، وأيضا العهد الذى كتبه عن العاضد فى نفس السنة حين توفى أسد الدين فى جمادى الآخرة بتولى ابن اخيه صلاح الدين الوزارة بعده . وكان القاضى الفاضل قد وثّق الصلة به وبعمه ، وأنس به صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن كما يقول ابن خلكان ، فلم يكتف له برياسته لديوان الإنشاء ، بل اتخذه وزيرا ، قلما يبرم شيئا إلا بعد مشورته ، وكان إذا أناب عنه أحدا من أفراد أسرته بمصر فى اثناء غزواته للصليبيين أبقاه معه لإدارة دفة السياسة ، وكثيرا ما كان يصحبه معه فى مواقعه مع الصليبيين ، وخاصة منذ منازلته لهم فى حطين وفتح القُدْس .

وكان القاضى الفاضل اللسان المبين لصلاح الدين طوال حكمه يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة مسجلا أحداث زمنه ومبلغا عنه عهوده وسجلاته وتوقيعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه من الإسكندرية إلى الفرات وإلى النوبة وأقاصى الصعيد والحجاز واليمن . وبلغ من تقدير صلاح الدين له أن كان يقول لأصحابه ،لاتظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم ، إنما ملكتها بقلم القاضى الفاضل . وللفاضل كتب كثيرة وجَّه بها إليه ، تفيض بالحب والإجلال والإعزاز ، وكان حاضرا وفاته بدمشق سنة ٥٨٩ ، وبكاه بكاء مرا . وولى بعده على مصر ابنه العزيز فآزره ، وظل عنده فى نفس المكانة التى كانت له عند أبيه والرفعة ونفاذ الأمر ، وتوفى العزيز سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه المنصور وكان صبيا فظل على ولائه له وعونه ، حتى قدم الأفضل عمه من الشام . ولم يلبث السلطان العادل أخو صلاح الدين أن قدم إلى مصر بنية أخذها من المنصور وعمه الأفضل فى سنة ٥٩٦ وكانت بينه وبين القاضى الفاضل وحشة كما يقول ابن تغرى بردى ، فدعا الفاضل على نفسه بالموت — فيما يقولون — واستجاب الله دعوته فبينما كان العادل داخلا من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة .

وكان الفاضل شاعرًا وله ديوان شعر مطبوع ، كما كان كاتبا ، ودوت شهرته فى الكتابة ، وعُدَّ فيها رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون ، وفيه يقول العماد الأصبهانى فى كتاب الخريدة : « رَبّ القلم والبيان واللَّسن واللسان ، والقريحة الوقَّادة ، والبصيرة النقَّادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفضل الذى ماسُمع فى الأوائل بمن لو عاش فى زمانه لتعلق بغباره ، أو جرى فى مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ، ويفترع الأبكار ، ويطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار » . ويقول النويرى : « إلى القاضى

انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقَرَّتْ أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رَوِيَتْ ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقَرَّتْ به نَواها ، فهو كاتب الشرق والغرب فى زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل فى مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لامحالة ، والفاضل بغير إطالة » .

وفيما يلى قطعة من السجل أو العهد الذى كتبه بلسان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مسندا فيه الوزارة إلى صلاح الدين ، يقول بعد أن صوَّر ماقدمه هو وعمه أسد الدين شيركوه للعاضد من عون متحدثا بلسان الخليفة :

« ولو لم يكن لك هذا الإسناد فى هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث ، لأغنتْك غريزةٌ ، عزيزة ، وسَجِيّة ، سجِيَّة (١) ، وشيمة ، وسيمة (٢) ، وخلائق ، فيها ماتحب الخلائق ، ونحائز (٣) ، لم يحز مثلها حائز ، ومحاسن ، ماؤها غير آسن (٤) ، ومآثر جَدٌّ غير عاثر ، ومفاخر ، غفل عنها الأول ليستأثر بها الآخر ، وبراعةُ لسانٍ ينسجم قِطارها (٥) ، وشجاعة جَنان تضطرم نارها ، وخِلالٌ جِلالٌ (٦) عليك شواهد أنوارها تتوضح ، ومساعى لديك كمائم (٧) نَوْرها تتفتَّح .. وابْسُطْ يدك فقد فوَّض إليك أمير المؤمنين بسطا وقَبضا ، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ، واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودَحضا ، واعقد حُبَى (٨) العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عَقْدًا ونقضا . وانفُذْ فيما أهَّلك له فقد أدَّى بك نافلة من السياسة وفَرْضا ، وصَرِّف أمور المملكة فإليك الصَّرْف والتصريف ، وثَقِّفْ أودَ (٩) الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف » .

وإنما اخترت هذه القطعة من سجل أو عهد كتبه الفاضل سنة ٥٦٤ لأدل على أن خصائص فنه النثرى كانت قد استوت وتهيأت له مبكرة ، وقد استهل القطعة بذكر الإسناد والحديث كأنه يريد أن يحدث تورية ، فهو لايريد الحديث النبوى وإنما يريد ما سبق فى العهد من حديث عن عم صلاح الدين وجهوده التى بذلها للخليفة الفاطمى ، وجعل لصلاح الدين إسنادا فيه لا من السند وإنما من المساندة والمساعدة ، ومضى فى تورياته المتصلة بالحديث النبوى ، فجعل قديم فخر

(١) سجية : خليقة ، وسجية الثانية : دائمة .
(٢) وسيمة : جميلة
(٣) نحائز جمع نحيزة : طبيعة .
(٤) آسن : متغير الطعم .
(٥) قطارها : قطرها ومطرها .
(٦) جلال : عظام .
(٧) كمائم : جمع كميمة وهى غطاء النور والزهر .
(٨) حبى : جمع حبوة ، وهى الثوب يديره الجالس حول ساقيه وظهره للاستناد عليه
(٩) أود : اعوجاج .

صلاح الدين وحديثه مسندا جامعا ، وكتب المساند النبوية معروفة ومنها الجامع الصحيح للبخارى ، وقد جانس بين الحديث أى الكلام السابق وحديث بمعنى جديد والطباق واضح بين كلمتى قديم وحديث . وتتوالى سجعات قصيرة أقامها على الجناس الناقص وكان كلفا بجميع صوره . ويجانس بين خلائق بمعنى طباع والخلائق بمعنى الناس والتورية واضحة فى كلمة الخلائق . وتتوالى جناسات ناقصة وتداخلها بعض التصاوير ، فماء المحاسن غير آسن والجَدّ أو الحظ غير عاثر . ويحاول الإغراب والابداع فى سجعه فيأتى بسجعة هى كلمة مفاخر تليها سجعة طويلة يداخلها طباق بين الأول والآخر . ويوغل فى إغرابه وإبداعه ، فيأتى بسجعتين تداخلهما فى صدرهما سجعتان إذ يقول : « وبراعة لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جَنان يضطرم نارها » . ويعمد إلى التصوير البارع فى السجعتين التاليتين فشواهد أنوار الخلال أو الخصال تتوضح ، وكمائم نَوْر المساعى وزهرها تتفتح . ويفزع إلى الطباق فى السجعات الخمس التالية وقد تصنع أو تكلف فى استخدامه للطباق بذكره المصطلحين النحويين : رفعا وخفضا ، ولكنه تصنع مقبول ، فقد استظهرهما فى خفة وعذوبة .

ولعل فيما قدمنا مايصور بوضوح خصائص القاضى الفاضل فى كتابته الديوانية ، وهى كتابة فيها روح مصر التى نشأ فى دواوينها وصقل لسانه فى رسائل كتابها من أمثال ابن الصيرفى والموفق بن الخلال ، كتابة ليس فيها ثقل ولا تكلف بعيد ، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير . وتتردد فى الكتب التى ترجمت للقاضى الفاضل أو عرضت لبراعاته البلاغية عبارات مضيئة بحسنها البيانى كقوله عن صلاح الدين وأسرته :

« أنتم – يابنى أيوب – أيديكم آفةُ أنفس الأموال ، كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال ، ولو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أداهم [١] ، وقلَّدتم بيضَ أيامه صوارم [٢] ، وأفنيتم شموسه وأقماره فى الهبات دنانير ودراهم ، وأوقاتكم أعراس إلا على الأموال فهى مآتم ، والجود فى أيديكم خاتم ، ونَفسُ حاتم [٣] فى نقش ذلك الخاتم » .

والقطعة تمتلئ بالاستعارات والتشبيهات الرائعة ، مع مايحفُّ بها من الجناسات والطباقات ، ومع ماصيغت فيه من العبارات الناصعة التى تلذ الألسنة والأفئدة . ومن هذا النسيج البديع قوله من رسالة فى صفة قلعة شاهقة ، اسمها كوكب :

---

(١) أداهم جمع أدهم : يريد خيولا سودا معدة للحرب

(٢) صوارم : جمع صارم وهو السيف .

(٣) حاتم : جواد العرب المشهور

« وهذه القلعة عُقاب فى عِقاب [1] ، ونجم فى سحاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأُنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قُلامة » .

والجناس واضح بين عُقاب بضم العين وعقاب بكسرها ، وقد استمر فى تشبيهات وتصويرات بديعة ، وقال نقاده : إن قوله : «كان الهلال لها قلامة » أخذه من قول ابن المعتز فى الهلال :

ولاح ضَوْءُ هلالٍ كاد يفضحنا مثل القُلامة قد قُدَّتْ من الظُّفَرِ

غير أن القاضى أضاف إلى القلامة إضافة بديعة بذكره الأنملة إذا خَضبها الأصيل . ولعل فى ذلك مايشير إلى قدرته على مراعاة النظير فى صياغاته ، وذلك كثير فى كتاباته على نحو مانرى الآن حين ذكر القلامة ذكر معها الأنملة والخضاب . ومن أروع رسائله رسالته ، التى كتب بها إلى الخليفة الناصر يبشره فيها بانتصار صلاح الدين على حملة الصليب فى حِطّين وفتحه العظيم لبيت المقدس .

وللقاضى الفاضل كثير من الرسائل الشخصية ، وسنقف عندها قليلا فى غير هذا الموضع ، ومرَّ بنا أن مخطوطة فصوص الفصول المحفوظة بدار الكتب المصرية تحمل مراسلات كثيرة بينه وبين ابن سناء الملك ، وكان يتخذه ابنا روحيًّا له وذكرنا فى غير هذا الموضع أن بها ملاحظات ومراجعات نقدية كثيرة .

محيى الدين[2] بن عبد الظاهر

هو عبد الله بن عبد الظاهر المصرى من بيت علم وفقه وأدب ، ولد سنة ٦٢٠ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لِداته ثم اختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين وأصحاب التاريخ والسير ، وأحس بميل شديد إلى الأدب وجرى على لسانه الشعر ، وأنس فى نفسه قدرة أدبية ، فالتحق بالدواوين لعهد الأيوبيين ، ولم يلبث أن أظله عهد المماليك ونرى نجمه يتألق فى عهد الظاهر

---

(١) عقاب بضم العين طائر جارح وبكسرها جمع عقبة وهى المرقى الصعب فى الجبال .

(٢) انظر فى محيى الدين بن عبد الظاهر وترجمته ورسائله فوات الوفيات ٤٥١/١ وتاريخ ابن كثير ٣٣٤/١٣ وشذرات الذهب ٤٢١/٥ والنجوم الزاهرة ٣٨/٨ وحسن المحاضرة للسيوطى ٤٧٠/١ و٣٦٦/٢ ونهاية الأرب : الجزء الثامن فى مواضع مختلفة وصبح الأعشى (انظر الفهرس وخاصة ١٥٦/١ و ١٧٦/١ و٣٥٦/٧ ، ٣٦٦ ، ٣٠٠/٨ ، ١١٧/١٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦ و ١٣٩/١٤ وراجع كتابه تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور قلاوون (نشر وزارة الثقافة) .

بيبرس ، إذ يصبح رئيسا لكتاب الدَّسْت ، ثم رئيسا لديوان الإنشاء ، وتظل له هذه الوظيفة فى عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل حتى يلبى نداء ربه سنة ٦٩٢ . وعنه كانت تصدر العهود والسجلات والتقاليد والمنشورات والتوقيعات نحو أربعين عاما ، مما جعله يضع مصطلحات ديوان الإنشاء لزمنه وبقية زمن المماليك ، وكان ابنه فتح الدين على غراره مهارة بيانية ، ورقى إلى وظيفة كاتب السر لعهد قلاوون وابنه الأشرف خليل . وهى أكبر وظيفة فى الدولة حينئذ ، وسبق أباه إلى رضوان ربه بعام فحزن عليه حزنًا شديدًا .

وقد أشاد بمحيى الدين وبلاغته معاصروه إشادات رائعة ، من ذلك قول النويرى فى نهاية الارب : «كان محيى الدين أجلّ كتاب العصر ، وفضلاء المصر ، وأكابر أعيان الدُّوَل ، والذى افتخر بوجوده أبناء عصره على الأُوَل ، له من النظم الفائق ماراق صناعة وحسنا ، ومن النثر الرائق مافاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدى الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه فى البلاغة أسهل طريق وفى الفصاحة أوضح محجَّة» ويقول ابن شاكر فى كتابه الفوات عنه : «الكاتب الناظم الناثر شيخ أهل الترسل ومن سلك الطريقة الفاضلية فى إنشائه» . وجمع بعض رسائل القاضى الفاضل فى كتاب سماه : «الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم» .

وكان يستخدم فى كتاباته السجع ، وكثيرا مايطيل السجعة الثانية ليضمّنها مايريد من المحسنات البديعية ، وفى مقدمتها التصاوير والجناس والطباق ، وكذلك مايريد من الاقتباسات القرآنية ومن حَلٍّ بعض الأشعار ونثرها ، مع حسن الألفاظ وعذوبة الكلم . وكان يرافق الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل فى غزواتهم ، ويرسل بوصفها للملك اليمن وغيره من أصحاب السلطان وللوزراء فى مصر . ومن رسائله المهمة رسالته إلى الوزير بهاء الدين بن حنا ، يصف له حروب بيبرس مع التتار وبنى سلجوق واقتلاعه مدينة قَيْسارية من أيديهما مع ما أخذ فى طريقه إليها من الحصون والبلاد ، مصورا مسيرة الجيش المصرى فى جبال شامخة مذلِّلا فيها طريقه لايعوقه عن مقصده عائق . والرسالة طويلة فى نحو خمس عشرة صحيفة مدَّونة فى الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ، وهى وثيقة تاريخية بحروب بيبرس للتتار والسلجوقيين فى ذى القعدة من سنة ٦٧٢ وفيها يقول :

« سرنا لايستقر بنا فى شىء من المهالك قرار ، ولا يُقْتَدح من غير سنابك الخيل نار ، ولا نمُرّ

على مدينة إلا مرور الرياح على الخمائل فى الأصائل والأبكار . ولا نقيم إلا بمقدار مايتزيَّد الزائرين من الأهبة ، أو يتزوَّد الطائر من النُّغْبة (١) ، نسبق وَفْدَ الرِّيح من حيث نَنْتحى ، وتكاد مواطئ خيلنا بما تَسْحبه أذيال الصوافن (٢) تمّحى ، تحمل همَّنا الخيل العتاق ، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق ، وكلٌّ يقول لسلطاننا نصره الله :

أين أزمعتَ أيُّهذا الهمامُ نحن نبتُ الرُّبَى وأنت الغمامُ

وبتنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدَّتها ليلة الملسوع ، وتتمنَّى العين بها هجمة هجوعٍ . وأخذنا فى اختراق غابات أشجار تخفِى الرفيقَ عن رفيقه ، وَتَشْغله عن اقتفاء طريقه ، يَنْبرى منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه ، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه ، حولها مغائر أحجار كأنها قبور بُعْثرت ، أوجبالٌ تفطَّرت (٣) ، بينها مخائض لا بل مغائص ماخرجنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول وتعممت بالثلوج ، وعُمِّيت مسالكها فلا أحدٌ إلا هو قائل : فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج ، تضيق مناهجها بمشى الواحد ، وتلتفُّ شجراتها التفاف الأكمام على السواعد » .

وعلى هذه الشاكلة يتدفق ابن عبد الظاهر فى الرسالة دون أى عائق من لفظ غريب أو أسلوب ملتو ، بل سيولة وعذوبة مع السجع الرشيق ومع ما يشاء من الجناسات والاستعارات دون أن نشعر بالكلفة أو بشىء منها ، وفى صبح الأعشى رسائل وعهود له بديعة ، منها عهد الظاهر بيبرس لابنه الملك السعيد وعهد قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، وفيه ينوه ابن عبد الظاهر بالأشرف على لسان أبيه قلاوون قائلا :

هو الذى بقواعد السلطنة أدرى وبقوانينها الأعرف ، وعلى الرعايا الأعطف ، وبالرعايا الأرأف ، وهو الذى ما قيل لبناء ملك هذا عليُّه قد وهَىَ إلا وقيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف ، والذى مابرح النصر يتنسَّم من مهابِّ تأميله الفلاح ، ويتبَسَّم ثغره فتتوسم الثغور من مبسمه النجاح ، ويُقْسَم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرئبّ إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح .. والذى كم جَلا ببهىٍّ جبينه من بَهيم ، وكم غدا الملك بحسن رُوائه ويمن

---

(١) النغبة : الجرعة .

(٢) الصوافن : جمع الصافن وهو الفرس

(٣) تفطرت : تشققت .

آرائه يَهيم ، وكم أبرأ مورده العذب هِيمْ [١] ، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه أبْراهيم » .

والسجعات فى هذا العهد تتوالى فى مجاميع على حرف واحد أو روىٍّ واحد ، قد يكون الفاء أو الحاء أو الميم كما فى هذه القطعة ، وقد يكون حرفا آخر كالدال أو التاء أو النون إلى غير ذلك من حروف تتعاقب فيها السجعات فى خفة . وقد ورّى فى السجعات الفائية حين ذكر فيها لفظ « أشرف » موريًا به عن الأشرف خليل ، ولم يكتف بهذه التورية فى اسمه فقد أضاف إليها تورية أخرى فى لفظ أبراهيم بآخر القطعة ، وقدم لذلك بذكر الخليل كأنه يريد إبراهيم عليه السلام ، وهو لايريده إنما يريد بالكلمة أنه أبرأهيما أى عطاشا أشد العطش . ومن ذلك قوله فى رسالة إلى صاحب اليمن مبشرا بفتوح قلاوون لبعض حصون الصليبيين بالشام .

« تعطيه الملوك الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون ، ويصطفى كرامَ أموالهم وهم صابرون لا مصابرون ، وكم شكت منه حَماة تنبئ بشكْوها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته معرَّةُ وما من معرَّةٍ خاف ، ومازالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جَوْر جواره تلك الحصون والصَّياصى [٢] ، وتبكى بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصى » .

وواضح فى أول هذه القطعة اقتباس محيي الدين بن عبدالظاهر لآية سورة التوبة : (حتى يعطوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون) . ويكثر الاقتباس لآى الذكر الحكيم وألفاظه فى كتاباته كما يكثر حَلُّ الشعر والاستشهاد بنصوصه وأبياته . وقد ورَّى فى القطعة بذكره لفظ معَرّة الثانية من العار مقدما لها بذكر حماة والمعَرَّة وهما من مدن الشام . وورَّى أيضا فى قوله : « وناهيك بمدمع العاصى » وهو إنما يريد نهر حماة المعروف باسم العاصى . ودائما نحس عنده العذوبة والسلاسة وكأنه يستمد من نبع فياض لا يغيض أبدا ، على نحو ما نرى فى قوله من رسالة يصف بها فتح قلاوون لطرابلس :

« صرف مولانا السلطان إلى طرابلس العِنان ، وسبق جيشه إليها كل خبر وليس الخبر كالعِيان ، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسته عيونها والمخاوف كلها أمان .. وفى خدمته جنود لا تستبعد مفازة . وكم راحت وغدت وفى نفسها للأعداء حزازة ، فامتطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجانا لها صاغتها الثلوج ، ومعارج لا مرافق بها غيرُ الرِّياح الهوج ، وانحطت الجنود من تلك الجنادل انحطاط الأجادل [٣] ، واندفعوا فى تلك الأوعار اندفاع الأوعال [٤] ، ولم يحفل أحد

---

(١) هيم : جمع أهيم وهو العطشان عطشا شديدا .

(٢) الصياصى : الحصون .

(٣) الأجادل : الصقور .

(٤) الأوعال : جمع وعل وهو تيس الجبل

منهم بطريق لاصق ، ولاجبل شاهق ، فقال : هذا منخفض أوعال » .

والكلمات والسجعات تنزلق عن اللسان فى خفة إذ كانت ملكته الأدبية خصبة ، فهى ماتزال ترفده بما يريد من الألفاظ التى تروق فى السمع لا بسجعها فحسب ، بل أيضا بجرسها وحسن انتخابه لها ، وما يوفره لها من محاسن بديعة بقدر الحاجة دون تكثر يحيلها إلى تكلف شديد . وحقا كان يتصنع أحيانًا لبعض مصطلحات النحو ولكنه لايأتى بها إلا فى الحين بعد الحين ماعدا رسالة اقتُرحت عليه أن تكون توقيعا لمدرس نحو استهلها بقوله مداعبا : « حرس الله نعمة مولاى ، ولازال كلم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه يأتلف ، ومنادَى جوده لايرخَّم وأحمد عيشه لا ينصرف » ومضى فيها على هذه الشاكلة متصنعا لمصطلحات النحو ، ولكن من الحق أنه أرادبها إلى الدعابة ، وعلى نحو ما كان يبشر بالفتوح كان يبشر بوفاء النيل وله فى ذلك رسائل بارعة يقول فى إحداها :

« نِعَمُ الله وإن كانت متعددة ، ومِنَحه وإن غدت بالبركات متردِّدة ، ومِنّته وإن أصبحت إلى القلوب متوددة ، فإن أشملها وأكملها ، وأجملها وأفضلها ، وأجزلها وأنهلها ، وأتمهَّا وأعمَّها ، وأضمَّها وألمَّها ، نِعمة أجزأت المَنَّ والمَنْح ، وأنزلت فى بِرك سَفْح المقطَّم أغزر سَفْح ، وأتت بما يعجب الزرَّاع ، ويعجز البرق اللمَّاع ، ويُعِلّ [(١)] القِطاع . ويُغِلُّ [(٢)] الأقطاع ، ويأتى فى الغد بأكثر من اليوم وفى اليوم بأكثر من الأمس ، ويركب الطريق مجدًّا فإن ظهرت بوجهه حمرة فهى مايعرض للمسافر من حر الشمس .. وبينا يكون فى الباب إذا هو فى الطاق ، وبينا يكون فى الاحتراق [(٣)] ، إذا هو فى الاجتراء للإغراق ، وبينا يكون فى المجارى ، إذا هو فى السوارى [(٤)] » .

والتورية واضحة فى كلمة سفح الثانية ، إذ ليس معناها معنى سابقتها وهى سفح جبل المقطم إذ أراد الانصباب من قولهم سفح الماء إذا صبَّه . واقتبس من القرآن الكريم قوله عز شأنه فى سورة الفتح (يعجب الزرَّاع) واقتباسه من الذكر الحكيم كثير فى كتاباته كما أسلفنا . وتعليل مايخالط النيل من الطمى بأنه نفس الحمرة التى تعرض للمسافر من طول سفره وتعرضه للشمس تعليل حسن يدل على عمق تخيله وطرافته . وتصويره لفيضان النيل وأنه سرعان ما يملأ مجرى النهر وتعلو أمواجه ويطفح عُبابه ويتمادى طوفانه ، فبينا يدخل سُدَّة باب إذا هو فى الطاق وأعلى الشرفات ،

---

(١) يعل القطاع : يروى قطاع الأرض مرارا .

(٢) يغل الأقطاع : يجعل الضياع تعطى الغلَّة والثمار

(٣) الاحتراق : قلة الماء .

(٤) السوارى : يريد الأعالى .

وبينما تكون مصر قبل فيضانه فى زمن الاحتراق والتعطش للماء إذا هو يخترق الآفاق فيها لإغراقها بمياهه العذبة ، وبينا يكون فى أسافل الأرض ومجاريها إذا هو فى السوارى وأعلى الأعالى .

ولم يكن محيى الدين بن عبدالظاهر كاتبا ديوانيا فحسب ، فله رسائل شخصية سنلمُّ بإحداها ، وأيضا كان مؤرخا ، وعنه أخذ البرزالى وغيره من كبار المؤرخين لزمنه ، واهتم فى التاريخ بكتابة السير ، فكتب سيرة الظاهر بيبرس ، وهى أحد مصادر المقريزى فى خططه ، وكتب سيرة قلاوون بعنوان « تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور » ، وكتب أيضا سيرة الأشرف خليل بعنوان « الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » وله كتاب فى خطط القاهرة ينقل عنه كثيرا المقريزى وكذلك القلقشندى فى صبح الأعشى . ولعل فيما قدمنا من رسائله الديوانية مايدل بوضوح على قدرته البيانية والبلاغية .

ابن[1] فضل الله العمرى

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى ، من سلالة أسرة مصرية تنتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وَلِيَتْ أسرته ديوان الإنشاء بمصر ودمشق نحو قرن من الزمان هو القرن الثامن الهجرى ، وقد وُلد لأبيه كاتب السر بدمشق سنة ٧٠٠ للهجرة وبها نشا ، فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات علمائها من أمثال ابن تيمية الفقيه الحنبلى المشهور وقاضى قضاة دمشق الشافعى شهاب الدين محمد بن المجد وشيخ الشافعية بدمشق برهان الدين بن الفركاح الفزارى وأخذ علم الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهانى نزيل دمشق منذ سنة ٧٢٤ وبها ظل سبع سنوات وكان من أبرع علماء زمنه فى العقليات ، وأذن لابن فضل الله فى الإفتاء على مذهب الشافعى . وأخذ شهاب الدين العربية عن كمال الدين بن قاضى شُهْبة وابن الزَّمْلكانى ، أما الأدب فأخذه عن أبيه ورفيقيه فى ديوان الإنشاء الشهاب محمود وعلاء الدين

---

(١) انظر فى ترجمة ابن فضل الله فوات الوفيات ١٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٣٤/١٠ والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٥٢/١ وصبح الأعشى وخاصة الجزء الحادى عشر والرابع عشر (انظر الفهرس) وخطط المقريزى ٣٨٩/١ وحسن المحاضرة ٣٧١/١، ٣٩٤ ، ٢٣٤/٢ والشذرات ١٦٠/٦ والوافى ٢٥٢/٨ وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ٤١٠/١ . وطُبع له الجزء الأول من موسوعته مسالك الأبصار وانظر فيها ماتقدم فى حديثنا عن النشاط الجغرافى بمصر وطُبع له كتابه التعريف بالمصطلح الشريف .

الوداعى . ورحل إلى مصر فى أثناء الطلب ، وأخذ العربية عن شيوخها وعلمائها مثل ابن الصائغ الحنفى ونزيلها أبى حيان الأندلسى . وسمع الحديث على علمائها كما سمعه على حُفاظ الشام . ويبدو أنه نزع إلى العمل مع أبيه مبكرا فى ديوان الإنشاء بدمشق ، وتخرج فيه كاتبا بارعا . وكان إلى ذلك لايزال يأخذ عن العلماء فى زمنه بالشام ومصر ، وكان أبوه يعمل أحيانا بالديوان فى دمشق وأحيانا يعطل ، فكان إذا عمل لزمه ، حتى إذا استدعى الناصر محمد بن قلاوون أباه لكتابة السر بالقاهرة سنة ٧٢٩ تقلَّد معه هذه الوظيفة فكان هو الذى يقرأ كتب البريد ورسائله على الناصر ، ونقلهما إلى دمشقَ فى شعبان سنة ٧٣٢ ثم أعادهما ثانية إلى القاهرة مسندا إليهما كتابة السر ورياسة ديوان الإنشاء سنة ٧٣٣ ويبدو أنه كان حادَّ الطبع ، ولم يتحاش عن إظهار هذه الحدة فى مخاطبته للناصر ، فتغيَّر عليه وصرفه ، وولّى أخاه علاء الدين مكانه ، وكانت منزلة أبيه عند الناصر قد عظمت ، وطلب أن يرجع إلى دمشق فأجابه إلى طلبه ، على أن تستمر له رياسة ديوان الإنشاء فى جميع ديار السلطنة وأن يكون جميع الموظفين فى تلك الدواوين نوابه ، وسرعان مالبى نداء ربه . وعاد الناصر فى سنة ٧٤٠ فرضى عن شهاب الدين وولاه كتابة السر بدمشق ، ودخلها فى المحرم سنة ٧٤١ وظل يلى وظيفته بها حتى طُلب إلى القاهرة سنة ٧٤٣ لكثرة الشكايات منه وشفع فيه أخوه علاء الدين ، وقُبلت شفاعته وعاد إلى دمشق ، وبارحها فى سنة ٧٤٩ لقضاء فريضة الحج ، وتوفى بمكة ونُقل تابوته إلى دمشق ، ولم يكد يبلغ الخمسين من عمره .

وكان شاعرا كما كان كاتبا ، نظم كثيرا من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت ، غير أن شهرته الكتابية غطت على شهرته الشعرية ، وقد أشاد بكتابته معاصروه من ذلك قول صلاح الدين الصفدى : « هو الإمام الفاضل البليغ المفوَّه الحافظ حجة الكتَّاب ، إمام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعانى وتوصلا ، يتوقد ذكاء وفطنة ويتلهَّب ، وينحدر سيله مذاكرة وحفظا ويتصبّب ، ويتدفق بحره بالجواهر كلاما ، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المستعرة نظاما ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتَنْدَى عباراته انسجاما وصياغة ، وينظر إلى غرر المعانى من ستر رقيق ، ويغوص فى لجَّة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، يكتب من رأس قلمه بديها ، ما يعجز تروِّى القاضى الفَاضل أن يدانيه تشبيها .. صرَّف الزمان أمرا ونهيا ، ودبرَّ الممالك تنفيذا ورأيا » .

ولعل من الطريف ان ابن فضل الله جمع من كتاباته نماذج فى جميع صور المكاتبات الديوانية وضمنها كتابه النفيس : « التعريف بالمصطلح الشريف » وجعله فى سبعة أقسام أولها فى رتب

المكاتبات إلى الخليفة العباسى بالقاهرة وعنه مع رسوم الكتابة إلى أمراء البلدان وراء السلطنة المصرية من الهند إلى الأندلس ، وأيضا إلى نواب السلطنة والحكم خارج مصر . والقسم الثانى فى العهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والعهود إما من الخلفاء إلى السلاطين وإما من السلاطين إلى ولاة العهد . والتقاليد خاصة بكبار الموظفين والتواقيع لصغارهم والمراسيم لصغائر الأمور والشئون والمناشير خاصة بالأمراء والجند . والقسم الثالث خاص بنسخ الأيمان على العامة والولاة وكبار الموظفين وأهل الكتاب . والقسم الرابع فى الأمان والهُدَن مع الأعداء ونقض المعاهدات . والقسم الخامس فى حدود المدن والبلاد وهو جغرافى . والقسم السادس فى مراكز البريد ووسائله برا وبحرا . والقسم السابع فى الآلات وخاصة آلات الحرب من سيف وغير سيف وكذلك آلات السفر وآلات الصيد وآلات الطرب وأيضا الحيوان الأليف والوحشى والطير ، ويتسع هذا القسم للحديث عن المدن والحصون وأنواعها والأزمنة وفصولها والأنواء . وواضح أن الأقسام الأربعة الأولى هى التى دفعته لإعطاء النماذج الكتابية المتصلة بموضوعاتها . أما الأقسام الثلاثة التالية فقد رأى معرفتها ضرورية لكتّاب الديوان لأنها تتصل بأعمالهاتصالا قويا . واشتهر هذا الكتاب بعد ابن فضل الله واتخذه الكتَّاب إماما لهم وجعلوه نصب أعينهم فى كتاباتهم الديوانية يحاكون نماذجه وأمثلته ، واعتمد عليه القلقشندى فى بيان رسوم الكتابة الديوانية ، وما يصورها من أمثلة بليغة محكمة ، من ذلك قوله فى تقليد وزير ووصيته بما ينبغى عليه فى وزارته :

« عليه بالكُفاة الأمناء ، وتجنُّب الخونة وإن كانوا ذوى غَناء ، وإياه والعاجز ، ومن لو رأى المصلحة بين عينيه أَلْقَى بينه وبينها ألف حاجز ، وليطهِّرْ بابه ، ويسهِّل حجابه ، ويفكر فيما بَعُدَ أكثر مما قرب مقدما الأهَمّ فالأهَمَّ من المصالح ، وينظر إلى ماغاب عنه وحضر نظر المماسى والمصابح ، ولا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيانته ، ولا يدع من جميل نظره مَنْ صَحَّتْ لديه كفايته ، أو تحققت عنده أمانته . وليصرفْ اهتمامه إلى استخلاص مال الله الذى نحن أمناؤه ، وبه يشغل أوقاته وتمتلئ كالإناء آناؤه ، فلا يدع شيئا يجب لبيت المال المعمور من مستحقه ، ولا يتسَمَّح فى تخلية بشىء منه كما نوصيه أن لا يأخذ شيئا إلا بحقِّه » .

وواضح أن ابن فضل الله لا يتكلف فى كتابته ، وكأنه – كما قال الصفدى – بحر يتدفق ، وفى تضاعيف تدفقه ينثر جواهر المحسنات ، وهى تواتيه طبعة ، تارة يطابق وتارة يجانس فى يسر دون أن نحس عنده بتصنع أو ما يشبه التصنع . ومن طريف وصفه للسيف فى كتابه التعريف قوله :

« سَلَّ سيفا سال المَنون من لُعابه ، وسار الموت فى إهابه (١) ، وتناوم غِرارُه(٢) ملء جفنيه فما هجع ، وتناوب (٣) للوثوب للمهج فما رجع ، وتباكى على من قتل فجرت دموعه دماء ، وتحرَّق على من سلم فتوقَّدت ضلوعه نارا وترقرقت مآقيه ماء » .

وهى كلمات قصار ولكنها مليئة بالاستعارات والتشخيصات المتلاحقة ، وفيها الجناس والطباق وكأنهما غير ملحوظين ، لما تجريان فيه من سهولة اللفظ وعذوبته . وله فى وصف قدح أوكاس : « تكوَّن من جوهر مكنون ، وتجسَّد من هواء مظنون ، واتُّخذ خدْرًا لابنة العنب(٤) ، وطاف به الساق فأصبح منه فى راحة وهو فى تعب ، قَهْقَه عليه الإبريق فصدح ، وطار منه شرار المدام فقيل : قَدح » .

والقطعة مثل سابقتها زاخرة بالاستعارات والصور الطريفة . مع جناسات وطباقات بديعة ومع جمال الجرس والمهارة فى انتخاب اللفظ ، وقد ختمها بكلمة قدح والتورية واضحة . فهو لا يريد مايتبادر من أنه يريد القدح الذى يصفه ، إنما يريد الفعل الماضى قدح أى قدح الشرر وأذكاه من قولهم قدح النار من الزند .

ولابن فضل الله العمرى بجانب رسائله الديوانية رسائل شخصية قليلة وذكر له مترجموه نحو عشرة كتب ، منها التعريف بالمصطلح الشريف الذى وصفناه . ومنها فواصل السمر فى فضائل آل عمر ، ومنها صُبابة المشتاق فى مجلد فى مدح النبى ﷺ . وأهم كتبه دون ريب كتابه « مسالك الأبصار » وقد نشر الجزء الأول منه وهو خاص بالديارات ، وهو فى أكثر من عشرين مجلدا ، وهو مقسوم إلى قسمين كبيرين : قسم للأرض وأقاليمها وبحارها وطرقها أو مسالكها ، وقسم للممالك فى العالم الإسلامى وغيره وسكان المعمورة ، وبه فصول طويلة عن الكتاب والشعراء فى العالم العربى بمختلف أقطاره ، وعادة يضع مقدمة مسجوعة لكل كاتب وشاعر ثم يختار للكاتب نماذج من رسائله وللشاعر نماذج من شعره ، وبه مقتبسات من كتب سقطت من يد الزمن ، ومن خير ما احتفظ به تراجمه لشعراء صقلية ، وكذلك معلوماته الجغرافية والتاريخية عنها . وبالكتاب مفاخرة طريفة بين المشرق والمغرب تمس حضارتيهما ومن كان بهما من أفذاذ العلماء والأدباء .

---

(١) إهابه : جلده .

(٢) غرار السيف : حده .

(٣) تناوب الأمر : قام به مرة بعد مرة .

(٤) الخدر : البيت . ابنة العنب : الخمر .

٢

الرسائل الشخصية

تموج كتب الأدب والتراجم بكثير من رسائل الأدباء والكتاب المصريين الشخصية والإخوانية فى التهنئة والتهادى والشكر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية . وعادة معانيها محدودة ، ولكن أصحابها يحاولون إظهار براعتهم بإطالتها وتحبير عباراتها ونشر زخارف البديع ومحسناته عليها حتى تروق من تُرْسل إليهم وتبلغ من التأثير فيهم المبلغ المنشود . وممن برعوا فى تدبيجها وكتابتها فى أيام الفاطميين عبد المجيد بن أبى الشخباء العسقلانى الكاتب الديوانى لزمن الخليفة المستنصر ، وسنخصه بحديث مفرد ، وكان لايكاد يقل عنه إحسانا فى تلك الرسائل سبطه أو ابن ابنته الحسن [١] بن زيد الأنصارى الكاتب مثله فى الدواوين الفاطمية ، وكان جده لأبيه شاعرًا ، وهو على بن إسماعيل ، وكان أيضا فقيها ولى قضاء الأردن للفاطميين ، ويقول السلفى فى معجمه : لم يكن له نظير فى الأدب بقطره سوى ابن أبى الشخباء ، وقتلهما بدر الجمالى وزير المستنصر . والحسن بن زيد بذلك سليل قتيلين وكأنما كُتِبَ عليه أن يقتل مثلهما ، وتولى إثم ذلك الحسن بن الخليفة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٣) فى أوائل خلافة أبيه لأبيات فى هجائه دسَّها بعض معاصريه عليه ، وكأنما أراد القدر أن يثأر له وكان الحسن قد استبدَّ بتنفيذ الأمور دون أبيه فدس عليه السم فى طعامه فمات لسنة ٥٢٨ .

وواضح أن الحسن بن زيد — كما يقول ابن سعيد — « عريق النسب ، فى صناعة الأدب ، يمتُّ إليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأخوال وأعمام » ويقول العماد الأصبهانى : « وصفه القاضى الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه فى فنه لم يسمح الدهر بمثله » . واحتفظ العماد له فى خريدته بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية ، من ذلك قوله فى رسالة إلى صديق يهنئه بالبرء من مرضه .

« إذا قَدُمَ الوداد ، وصحَّ الاعتقاد ، وصَفت الضمائر ، وخَلصت السرائر ، حلَّ الإخاء المكتسب ، محَلَّ أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإيثار ، والمتحابَّان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسرَّ ، ومتشاركين فيما نفع وضرَّ ، وتلك حالى وحال حضرة مولاى فانى وإياها

---

(١) انظر فى ترجمة الحسن بن زيد الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/ ٦٧ وما بعدها والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٣٧ ومعجم السلفى ص ٤٤٨ .

كنفس قسِّمت على جسمين ، وروح فُرِّقَتْ بين شخصين ، فأما ألمها فقد مضى وأزعجنى ، وأما بُرْؤها فقد سرَّها وأبهجنى » .

ومهارته فى صياغة أسجاعه واضحة فعباراتها تتوازن وتتعادل تعادلا دقيقا ، وكأن كل كلمة فى السجعة الثانية تعانق أختها فى السجعة الأولى فى عذوبة ونصاعة وسلاسة وطلاقة . ومن كتاب له فى تعزية :

« الخَطْبُ الحادث ، فادحٌ كارث(١) ، كادت له القلوب أن تتبرَّأ من أضالعها ، والعيون أن تتعوَّض بدمائها من مدامعها ، والضحى أن يَدَّرِع (٢) جلباب الدُّجُنَّة ، والحوامل أن تُجْهَضَ بما فى بطونها من الأجنَّة . وإن المنية حَوْضٌ كل الناس وارده ، ومنهلٌ كل الخليقة قاصده ، لا يسلم منها ملك نافذ الأمر.. ولافقير خامل الذكر » .

وتحمل القطعة نفس الصياغة السالفة بكل ماتتسم به من اكتمال الإيقاع فى الألفاظ بين السجعات وحسن الانتخاب للألفاظ والكلمات .

وكان يعاصر الحسن بن زيد الشاعر ظافر الحداد الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، وكانت قد انعقدت صداقة بينه وبين أبى الصلت أمية بن عبدالعزيز نزيل الإسكندرية ، وكان قد بارحها إلى المهدية بتونس سنة ٥٠٦ ولم يصله من ظافر كتاب فأرسل إليه يعاتبه ، ومن قوله يجيبه عن كتابه (٣) :

« فضضت الكتاب عن رسالته التى يبهج قَشيبها(٤) ، ويضوع(٥) طيبها ، ولاَيَنْزَف قَليبها (٦) ، فخلتُ أنى أختال أىَّ اختيال فى حلل الشباب ، وأذكر الأحباب ، وأرشف الرُّضاب (٧) ، من الثنايا العذاب ، بعد الصدِّ والاجتناب :

ذكرتُ به عهدا كأن لم أَفُزْ بهِ
وعَيْشًا كأنى كنت أقطعه وَثْبَا

ثم نزهت ناظرى ، وجلوت خاطرى ، ببدائع ماتضمَّنه الكتاب ، من العتاب ، حتى وددت أنى أجدِّد كل يوم ذنبا ، يوجب منه عتبا ، كى أقطف منه مثل تلك الأزهار ، وأجنى مثل تلك

---

(١) كارث : محزن .
(٢) يدرع : يلبس . الدجنة : الظلمة .
(٣) انظر الرسالة فى ديوان ظافر
(٤) قشيب : جديد
(٥) يضوع : يفوح
(٦) قليبها : معينها
(٧) الرضاب : الريق

الأثمار ، فما أخصبها رياضا ، وأعذبها حِياضا ، وأشرفها أجساما وأعراضا » .

وظافر يعنى فى رسالته بسجعاته ، ويوفر لها كل مايستطيع من جمال اللفظ وحسن الجرس ، حتى تقع من نفس أمية الموقع الذى يريده من بلاغة القول وروعة البيان . وإذا مضينا إلى زمن الأيوبيين لقينا القاضى الفاضل أهم كتَّابهم يدبج كثيرًا من الرسائل الإخوانية أو الشخصية واقتطف منها محيى الدين بن عبدالظاهر باقات كثيرة فى مختاراته من رسائله التى سماها « الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم » ومن قوله فى إحداها يصف لأحد أصدقائه دمشق :

« إنى وصلت إلى دمشق المحروسة حين شرَّد بَرْدُها ، وورَّد وردُها ، واخضرَّ نباتها ، وحَسُنَ نَعْتها ، وصفا ماؤها ، وضَفا [1] رداؤها ، وتغنت أطيارها ، وتبسَّمت أزهارها ، وافترَّ [2] زهر أُقْحوانها فحكى ثغور غِزْلانها ، ومالتْ قُضُبُ بانها ، فانثنتْ تثنِّى ولدانها . فلما قربتُ من بساتينها ، ولاح لى فَسْحُ ميادينها ، وتوسطت جنَّة واديها ، ورأيت ماأودعه الله العظيم فيها ، سمعت عند ذلك حماما يغرِّد ، وهَزارًا [3] ينشد ويرِّدد ، وقُمْرِيًّا [4] ينوحُ ، وبلبلا بأشجانه يبوح » .

وأسلوب القاضى الفاضل واضح فى هذه القطعة لابأسجاعه فحسب ومايبلغ فيها من اكتمال الجرس والإيقاع بين أوائلها وتواليها ، بل أيضا بما يوشِّى به كلامه من الاستعارات البديعة وزخارف الجناسات ، وكان ما يزال يضيف إلى مثل ذلك طباقاته وتورياته الرشيقة وماعرف به من العناية بمراعاة النظير . وكثرت المراسلات بينه وبين ابن سناء الملك وأبيه القاضى الرشيد ، مما أتاح لابن سناء الملك أن يجمع منها كتابا يسميه « فصوص الفصول وعقود العقول » ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بمخطوطة منه ، وهو مقسوم قسمين : قسم لمراسلات القاضى الفاضل وابن سناء الملك وقسم لمراسلات القاضى الفاضل مع أبيه ، وفيه مراجعات كثيرة بين الفاضل وابن سناء الملك تتصل بنظرات له ونقد لبعض أبيات من قصائده . وحرىّ بنا أن نذكر كثرة استشهاد الفاضل فى رسائله الشخصية بالشعر حتى ليروى له القلقشندى فى الجزء الأول من صبحه [5] رسالة موزعة بين كلمات نثرية تليها أبيات شعرية ، ورسالة ثانية موزعة بين كلمات وشطور أبيات . ومن كتَّاب الديوان حينئذ البارعين فى تحبير الرسائل الشخصية الأسعد بن مماتى ، وسنترجم له عما قليل .

---

(١) ضفا : سبغ .

(٢) افتر : تفتح .

(٣) الهزار : العندليب .

(٤) القمرى : ضرب من الحمام المطوق حسن الصوت

(٥) صبح الأعشى ٢٧٦/١ .

ونمضى فى زمن المماليك فنجد الأدباء من كتاب وشعراء يتبادلون رسائل شخصية كثيرة ، من ذلك رسالة بعث بها محيى الدين بن عبدالظاهر سنة ٦٥٣ إلى الشاعر ابن النقيب الذى مرت ترجمته ، وقد بلغه أن شخصا عابه فى مجلسه وأزرى به وبقدرته الكتابية ، وكان لايزال شابا فى نحو الثلاثين من عمره ، ويبدو أنه عرف أن ابن النقيب ردَّ على عائبه ، فكتب إليه يهجو هذا العائب ويشكره على جميل رده عليه ، وهى رسالة طويلة [١] ، جعل عنوانها « التواضع » وقد مضى فيها يصور حملة هذا العائب عليه ثم أخذ يعنِّفه تعنيفا شديدًا ، وأنهاها بالدعاء لابن النقيب والدعاء على عائبه بالويل والثبور ، ونلم بأطراف منها ، يقول :

« إن فلانا غَضَّ منى .. وزعم أن إناء إبائى غير مُفْعَم [٢] ، وبناء مجدى غير محكم ، وأن جوارح إجادتى جريحة ، وقرائح ارتجالى قريحة [٣] ، وأن صدور المجالس تنكر إقدام أقدامى ، وبطون الطروس لاتُلْقَح بأقلامى ، وأنى لا أُعَدّ فى جملة الكُتّاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكريم لا أدخل معهم فى باب ، والذى أقوله له مخاطبا ، وأومى [٤] به إليه مجاوبا : ماكل الأفاعى تعبث بها الأنامل ، ولاكل المراعى تُنْصَبُ بها الحبائل ، ولاكل زَخّار [٥] يُخاضُ ، ولاكل جَناح يُهاض ، ولاكل جامح يُراض ، ولاكل سابغة تُفاضُ [٦] .. ولا يَضُرُّ الزنادَ الوارى [٧] قدحُ القادح ، كما أنه لايضير النجمَ السارىَ نبحُ النابح » .

والرسالة على هذه الشاكلة من السجع الموقَّع الملحن تلحينا حسنا ، مع توشيته بزخارف الاستعارات ومحاسن الجناسات ، وقد ورّى فى كلمة « قدح القادح » مع ذكر الزند الوارى فلم يرد بها قدح القادح للزند طلبا لإخراج النار منه ، وإنما أراد ذم الهاجى ، من قولهم : قدح فى عِرض أخيه إذا عابه وثلبه .

وتكثر فى الرسائل الشخصية حينئذ تقريظات الأدباء والشعراء ، ولعل شاعرا لم يكثر تقريظ شعره ومصنفاته كما قُرِّظ ابن نباتة . ومرَّ فى ترجمته أن له كتابا سماه « سجع المطوَّق » ترجم فيه لكل من قَرظوا كتابه « مجمع الفوائد » . ولتلميذه برهان الدين القيراطى الذى مرَّت ترجمته بين الشعراء تقريظ طريف لشعره ونثره ، ومن قوله فيه [٨] :

(١) انظرها فى نهاية « تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون » للصفدى

(٢) مفعم : ملىء

(٣) قريحه : جريحة .

(٤) أومى : أشير .

(٥) زخار : النهر الزخار : الملىء الطامى .

(٦) تفاض : تكون سابغة ضافية

(٧) الوارى : المتقد .

(٨) خزانة الأدب للحموى ص ٥٤٧ .

« لا غرو أن فضَح بديعَ [١] الزمان بلفظه البديع ، وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التى كل فصل منها ربيع ، وتبارك الذى جعل فى سماء دوحته لشمس بلاغته بروجًا ، وأعلى هممه التى لاتَرْضَى الشهبَ جيادًا والأهلَّة سُروجا .. وقد زهت أمداحه المؤيدية [٢] فأصبحت بيوته المرفوعة (ذاتَ العماد) وراقت محاسنه التى (لم يُخْلَقْ مثلها فى البلاد) .. وطالما سرَّح الناظر فى بستانها نظره ، ورام [٣] ابن سُكَّرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتى فوجدها مسكَّره [٤] ، وعلم المتنبى أن هذا خاتمَ الأدباء لامحاله ، والمترسل الذى نهض دونه بأعباء كل رساله » .

والتقريظ زاخر بالاقتباس لآى القرآن الكريم وألفاظه كقوله فى مديح أبيات ابن نباته إن بيوته المرفوعة أصبحت ذات العماد . وفى كلمة بيوت تورية إذ لايريد بيوت الشعر من الخيام التى ترفعها الأعمدة أخذًا من قوله تعالى فى سورة الفجر (ألم تركيف فعل ربك بعاد إرَمَ ذات العماد) أى أنهم كانوا أهل خيام وأعمدة ، وهو لايريد ذلك كله وإنما يريد بيوت شعر ابن نباتة أو أبياته . وأكمل فى العبارة التالية وصف القرآن فى السورة نفسها لعاد بقوله : (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) . وراعى النظير مراعاة دقيقة حين ذكر ابن سكرة فذكر معه القطر النباتى يريد شعر ابن نباتة الحلو. وحين ذكر المتنبى أشار إلى ماقيل من تنبؤه وأنه نهض عنه بأعباء كل رسالة ومعروف أنه لم يثبت تنبؤ المتنبى تاريخيا غير أن القيراطى رأى استغلال ذلك فى جلب مايخدم غرضه من مراعاة النظير والتورية بكلمة رسالة . وربما كان أكثر من رسائل التقريظات رسائل الاستدعاءات ، إذ كان الأدباء من الكتاب والشعراء يستدعى بعضهم بعضًا للمشاركة فى مجالسهم ومابها من أنس ومدام ومن رفاق وصحاب . ولبدر الدين بن الصاحب المتوفى سنة ٧٨٨ للهجرة رسالة [٥] طويلة أرسل بها إلى فخر الدين بن مكانس يدعوه لمجلس أنس وشراب ، واصفًا له ما سيتمتع به معه من خمر معتقة ، وكأنه كان من المدمنين عليها فى غير تحرج ، وله يقول :

« هل لك - بسط الله آمالك ، وضاعف نعيمك ودلالك - فى عذراء مَصُونة ، كالدرة المكنونة ، فتَّانة مفتونة ، كأن على خدها فوق ورده ياسمينة .. لها من ذاتها طرب يغنى عن المزامير ، بلقيسية الجمال لها (صَرْحٌ ممرَّد من قَوَارير) ليلها من حسنها نهار ، وضوء وجهها ليد لامسها سوار ، تلثمت بالصباح ، وتلطفت حتى مازجت الأرواح ، أديمها كلما تعتَّق يغلو ،

---

(١) بديع الزمان : صاحب المقامات والرسائل المشهور .

(٢) المؤيدية : يريد أمداحه فى المؤيد (انظر ترجمته) .

(٣) ابن سكرة : شاعر بغدادى ماجن معاصر للمتنبى .

(٤) مسكرة : مغلقة .

(٥) مطالع البدور للغزولى ١٥٢/١ والأدب فى العصر المملوكى للدكتور محمد زغلول سلام ص ١١ .

وورد‌ها كلما مرَّ يحلو ، أيامها أعياد ، وأوقاتها أقوات القلوب والأكباد . من « القاصرات الطَّرْف » فى كل قَصْر وهى على الإطلاق ذهبية العصر .. لاتنزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حمراء تخلع ثوبها على الندمان ، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان » .

وهو ينثر فى الرسالة كثيرا من التصاوير مع القدرة البديعة على صياغة السجع والاقتباس فيه أحيانا من لفظ الذكر الحكيم كقوله مورِّيًا عن دَنٍّ الخمر الزجاجية بما جاء فى سورة النمل من وصف الصرح فى قصر سليمان عليه السلام الذى شمرت بلقيس ملكة سبأ ثوبها حين دخلته إذ (حسبته لُجَّةً وكشفتْ عن ساقيها قال إنه صرح ممَّرد من قوارير) أى من زجاج شفَّاف لايحجب ماوراءه . ووصف بدر الدين بن الصاحب الخمر التى دعا ابن مكانس إليها بأنها من القاصرات الطرف اللائى لم يمسسهن أحد ، أخذًا للكلمة من الذكر الحكيم . ولم يلبث أن قال إنها ذهبية العصر . والتورية واضحة إذ لا يريد أن عصرها ذهبى كما يقال عصر هرون الرشيد الذهبى مثلا وإنما يريد أنها صفراء اللون حين تعصر من عنبها وكَرْمها . وفى السجعتين التاليتين بآخر القطعة توريتان واضحتان ، فهو لايريد بلفظة « راحتها » كفَّها كما تشهد لذلك كلمة صافح ، وإنما يريد الخمر نفسها إذ تسمى راحة . وبالمثل لايريد فى السجعة التالية بالإنسان إنسان العين وسوادها وإنما يريد الإنسان الحقيقى الذى يحتسيها .

وظلت الرسائل الشخصية تتداول بين الأدباء طوال الحقبة العثمانية ، ودخلها غير قليل من التكلف والتصنع . ونسوق قطعة حينئذ من رسالة محمد بن أبى الحسن البكرى الذى مرت ترجمته ، أرسل بها إلى النور العُسَيْلى ليتسلى بمجلسه فى منتزه نَضرٍ يلتقى فى شاطئه ماء النيل وقت فيضانه بخضرة الزروع الزاهية ، وفيها يقول [1] :

« سيدنا البَرّ الذى يجرى بحر الفضائل من بِرِّه ، ويعذب الوِرْد والصَّدَرُ بما يصدر من صدره ، ويفيض إحسانه نهرًا لراجيه وآمله ، وتبتدر الأنام لتلقى تيار أنامله ، وتتزاحم على سيف [2] زخَّار علومه ، تزاحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه .. ومدينة بولاق هى مجتمع البحور ، ومدار فُلْك السرور ، بِفَلَك الحبور ، طفحت بالنيل لا جُزِرَ عن الجزر مَدُّه المديد ، واستلَّت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد » .

والرسالة تجرى على هذه الصورة من التكلف الشديد كما يلاحظ فى السجعات الأخيرة ، وقد تصنع فيها لذكر مصطلحات الفلك والعروض والنحو . ولمحمد الطيلونى من كتاب القرن الحادى

---

(١) ريحانة الألبا للخفاجى (طبعة الحلبى) ٢٢٩/٢

(٢) سيف : شاطئ .

عشر الهجرى وشعرائه رسالة[1] هجا بها القاضى عمر المغربى هجاء أراد به إلى الفكاهة والضحك من مثل قوله :

« يامن ثوبة رَثّ ، وحديثه غَثّ ، ياكثير النُّباح ، ياخائبا فى الغدوّ والرواح ، ياتارك السُّنّة والفَرْض ، يامَنْ سعى بالفساد فى الأرض ، يامَهْبط الدواهى ، وتابع الغَىِّ والملاهى .. ياكثير الشكوى ، ياأثقل من رَضْوَى[2] ، ياموت الحبيب وطلعة الرقيب .. ياأثقل من المكتب على الصِّبيان ، ومن كِرَا[3] الدار على السكان » .

والرسالة طويلة اقتطف منها المحبى مقتطفات فى نحو سبع صفحات أتبعها بقصيدة هجاء على غرارها للشهاب الخفاجى مؤلف ريحانة الألبا . وتظل المحسنات البديعية بارزة فى الرسائل ، ولكنا نشعر فى العبارات بضعف الصياغة ، وقلما نشعر بعاطفة فياضة أو إحساس مرهف أو معنى دقيق . وحرى بنا أن نقف عند بعض النابهين من كتاب هذه الرسائل الشخصية على مدار العصر ومختلف أزمنته .

ابن[4] أبى الشخباء

وقيل ابن الشخباء ، هو الحسن بن محمد بن عبدالصمد العسقلانى ، ولانعرف متى انتقل هو أو أسرته العسقلانية إلى القاهرة ، ويبدو أنه التحق مبكرا بدواوين الدولة الفاطمية لعهد الخليفة المستنصر (٤٢٧–٤٨٧هـ) وتخرج فيها على من كان يعمل بها من كبار الكتاب ، ولمع اسمه فيها وتألق ، غير أننا لانمضى إلى سنة ٤٨٢ حتى نراه يُقْتَل بسجن مصر المسمى خزانة البنود ، وأكبر الظن أن بدرًا الجمالى وزير المستنصر هو الذى أمر بقتله كما أمر بقتل صهره القاضى إسماعيل بن على كامرَّ بنا آنفا فى الحديث عن حفيدهما الحسن بن زيد .

وكان ابن أبى الشخباء شاعرا بارعا كما كان كاتبًا بارعا ، ولذلك لُقِّب بالمجيد ذى الفضيلتين ، وفيه يقول العماد : « المجيد مجيد كنَعْته ، قادر على ابتداع الكلام ونَحْته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيعة » ، ويقول ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء والشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة قيل إن القاضى الفاضل عبدالرحيم البَيْسانى منها استمَّد ، وبها اعتدَّ .. كتب فى ديوان

---

(١) نفحة الريحانة للمحبى (تحقيق عبدالفتاح الحلو طبعة الحلبى) ٤/٦٠٥

(٢) رضوى : جبل بالمدينة

(٣) كرا : أجر

(٤) انظر فى ابن أبى الشخباء معجم الأدباء لياقوت ٩/١٥٢ والذخيرة لابن بسام (طبع الدار العربية للكتاب بتونس القسم الرابع – المجلد الثانى) ص ٦٢٧ وابن خلكان ٢/٨٩ .

الرسائل للمستنصر صاحب مصر .. إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء وأمراء زمانه » ويقول عنه ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة ، والرسائل المحبرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطُّولَى » . وبدون ريب كان أبرع كاتب قاهرى فى القرن الخامس الهجرى ، كما تشهد رسائله الديوانية والشخصية ، واحتفظ ياقوت وابن بسام فى الذخيرة بطائفة كبيرة منها ، وأكثرها رسائل شخصية بديعة ، من ذلك قوله فى رسالة استعطاف :

« المودَّات إذا كانت متينةَ العقود ، صادقة المشهود ، موضوعةً على أصل عريق ، وأساس وثيق ، لم تَخْتَرِمْها الشبهة المُرْمضة [١] ، ولم تزلزلها الأباطيل المعترضة ، وإن تناقلتْها ألسن مختلفة ، وعَلَتْها برود من اللفظ مفوَّفة [٢] ، ولما رأيت زيارة مولاى قد صارت مرقَّعة ، وجَنوب [٣] مودته قد عادت مروَّعة ، وصرتُ أرى قوله متناقضًا ، وماءَ البِشْر من وجهه غائضا ، من بعد ماعهدته :

تُنْبِى طلاقةُ وَجْهه عن وجههِ ... فتكاد تَلْقَى النُّجْحَ قبل لقائهِ
وضياء وجهٍ لو تأمَّله امرؤٌ ... صادى الجوانح [٤] لارتوى من مائه

لم أتجاسر على سؤاله عن العلة خوفا أن يعيب علىّ الارتياب بودِّه ، ويتطرَّقَ سوء الظن على عهده ، فسألتُ من يعلم دفائنه ، ويَخْبُر ظاهره وباطنه ، فأخبرنى أن بعض الناس — ولم يُسَمِّه — نقل إليه عنِّى فشَنَّ الغارة على وفائه ، وزلزل أواخيَّ [٥] وده وإخائه ، فقلت : عَتْبٌ ، والله ولاذنب ، وشكايةٌ ولانِكاية [٦] ، وأنا أحاكم مولاى إلى إنصافه ، لا إسعافه ، وعَدْلِهِ ، لافَضْله ، وما كان أجدره برفض قول الماحل [٧] ، وتغليب الحقِّ على الباطل .. والآن فقد أَوْضَعْتُ وأوجفت [٨] ، وتألفت مولاى واستعطفت ، فإن عادت ظلال وده مَديدة ، وحبالُ كرمه محصوفةً [٩] جديدة ، فحسنٌ بتلك الشمائل ، أن تجمع شمل الفضائل » .

والسجعات تتزلق عن الفم بخفة ورشاقة ، تشهد لابن أبى الشخباء بأنه كان كاتبا مجيدا حقا ، وأن الكلم كان يطاوعه ، ليحيله دررًا مختارة . وكان يزين سجعاته بمحسنات البديع من جناس

(١) المرمضة : الموجعة .
(٢) البرود المفوفة : الثياب الرقيقة المخطَّطة .
(٣) الجنوب : ريح لينة كالنسيم ، والاستعارة واضحة .
(٤) صادى الجوانح : عطشان .
(٥) أواخي : أواصر.
(٦) نكاية : غلبة وقهر.
(٧) الماحل : الساعى بالنميمة .
(٨) أوضع : سار سيرا سريعا ، ومثلها أوجف.
(٩) محصوفة : محكمة متينة .

وطباق . وتكثر عنده الاستعارات المبتكرة الطريفة ، وكان يعرف كيف يغوص عليها ويستخرج لآلئها النفيسة من أصدافها البراقة ، وطبيعى للقاضى الفاضل وللكتّاب من بعده أن يعنوا بحفظ كلامه ويستحضروه فيما يكتبون ويصوغون . وله من رسالة يعاتب فيها بعض القواد .

« رأيت فلانًا عند نظرته لى بالأمس قد قطَّب[1] حاجبه ، وزعزع مناكبه ، فقلت : ماله ؟ أأُنزل إليه وَحْى ، أم عُصب[2] به أمر ونَهْى ، أم قَلَّ عقله فعقَّ نفَسه وظلمها ، وجهل مقادير الأشياء وقيمها ، واعتقد أن الدنيا طوع حكمه ، والفِطَنَ صائبُ فهمه ، أم رأى الملائكة المقربين تَتشفَّع به ، والحور العِين[3] تشكو لاعج حبِّه ، وثمارَ الجنة تدلَّت إلى يده ، ونار جهنم تُقْتَبَسُ من زَنْده ، والكوثر يُمدّ من مَعينه ، والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه »

وهو عتاب مرير لهذا القائد الذى شمخ بأنفه عليه ، وتعالى واستكبر استكبارا ، فمضى يهزأ به ويسخر منه سخريات متعاقبة ، فهو ليس نبيا مرسلا . ولا آمرًا ناهيا ، بل هو جاهل مغرور ، لايعرف قيم الناس ولا أقدارها ، وكأنما ظن أنه الحاكم بأمره وأن عقله مجمع الفطن ، بل لكأنما توهم أنه نبى تتشفع به الملائكة ، وأن الحور العين تشكو تباريح حبه ، وأن ثمار الجنة مَدّ يده ، ونار جهنم تقتبس من زنده الوارى المضطرم ، ومن معينه يستمد نهر الجنة ، أو أحد أنهارها : الكوثر . بل لكأنما توهم نفسه رب الكون ، وخال السموات مطويَّاتُ بيمينه . وعلى هذا النحو تتوالى سخرياته ، يطعن بها هذا القائد فى الصميم ، وفى آخر القطعة اقتباس واضح لآية سورة الزمر : (والسموات مطويَّاتُ بيمينه) . ويكثر هذا الاقتباس لآيات القرآن الكريم وألفاظه فى رسائله ، كما يكثر الاستشهاد بالشعر وإنشاده فيها مازجًا له بكلامه . وكلُّ ذلك وما تقدم من استخدامه للمحسنات البديعية وضعه الكتاب المصريون بعده شِعارا لهم وسُنَنًا فى رسائلهم . وله من رسالة فى هجاء مضيف ومائدته .

« ولجتُ منزلا قد استعار من قلب العاشق حرًّا ورَهَجا[4] ومن أخلاق مالكه ضيقا وحرجا ، كأنما زفرت فيه النار ، ونُقِّط على جدرانه بالقار ، فجلست طويلا إلى أن حضر الإخوان ، وقُدِّم

---

(١) قطب : عبس وضم حاجبيه

(٢) عصب به : ضمّ إليه .

(٣) العين : جمع عيناء : واسعة العينين جميلتهما .

(٤) رهجا : غبارا

الخِوان (١) ، فرأيت أرغفة قد أُحكمت فى الصغر والإلطاف ، ولم تتعوَّذ (٢) قط من الأضياف .. وثلاثة صِحاف ، واسعة الأكناف ، بعيدة الأوساط من الأطراف ، قد جُعل فى قرارة كل منها مالايدفع السَّغَب (٣) ، ولاتجده اليد إلا بالتعب ، فجُلنا جولة وعينه تطرف علينا شمالا ويمينا ، وتتفقد منا حركة وسكونا ، وقمنا ولم نقارب الكفاف ، وقد ظُنَّ بنا الإسراف » .

والسجع يطرد دائما عنده على هذا النحو من صفاء اللفظ ورصانته والقدرة البارعة على الملاءمة بين السجعات فى الجرس ، مع الانطلاق والسهولة ، وكأنه يصدر عن النيل العذب وسلاسته . وهو بحق جدير بما أسبغ عليه الأسلاف من ثناء وإطراء .

ابن (٤) ممَّاتى

هو أسعد بن الخطير مهذب بن مينا بن أبى المليح زكريا بن مَمَّاتى ، سليل أسرة قبطية من أسيوط ، هاجرت منها إلى القاهرة فى القرن الخامس الهجرى ، وكان جده مَمَّاتى جوهريا واشتهر بأنه كان يصبغ البِلَّوْرَ صبغة الياقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر . ويقال إن الفَصَّ من عمله كان إذا نودى عليه فى سوق الصاغة تشوفت نحوه العيون لجودته وحسن منظره . واتصل ابنه أبو المليح بوزير المستنصر بدر الجمالى أمير الجيوش ، ووظفه بديوان الإقطاعات وشئون المال ، وكتب بعده لابنه الأفضل ، وظل هذا العمل الديوانى فى بيته ، يتولون ديوان الإقطاعات أو ديوان الجيش أو ديوان المال ، ولعلها جميعا كانت ديوانا واحدا متداخلا . وتولَّى هذا الديوان لآخر أيام الدولة الفاطمية الخطير مهذب ، حتى إذا أسندت الوزارة فى آخر أيام العاضد الفاطمى إلى أسد الدين شيركوه نراه يُسْلِم هو وأولاده على يده . وأقره أسد الدين على مابيده من ديوان الإقطاعات ، وقيل بل ديوان الجيش . وكانا متداخلين كما ذكرنا . ومعروف أن أسد الدين شيركوه ولى الوزارة المصرية

---

(١) الخوان : المائدة عليها الطعام

(٢) كناية عن أن الأضياف لم يلمسوها

(٣) السغب : الجوع الشديد

(٤) انظر فى ابن مماتى وترجمته ورسائله الخريدة (قسم مصر) ١٠٠/١ ومعجم الأدباء ١٠٠/٦ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٦٩ وابن خلكان ٢١٠/١ وإنباه الرواة للقفطى ٢٣١/١ وخطط المقريزى ٥٧٧/٢ والنجوم الزاهرة ١٧٨/٦ والبداية والنهاية لابن كثير ٥٢/١٣ وشذرات الذهب ٢٠/٥ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٤٣/٨ ولأبيه الخطير ترجمة بعده فى الخريدة وقبله فى المغرب .

سنة ٥٦٤ وكان أسعد فى العشرين من عمره فأسلم وحسن إسلامه وهو لايزال فى ريعان شبابه ، وكان ساعد أبيه وعونه طوال عمله الديوانى إلى وفاته سنة ٥٧٧ .

وكان القاضى الفاضل يعجب بابن مماتى ويسميه بلبل المجلس لظرفه ، مما جعله يعينه ناظر الدواوين بمصر مع إسناد ديوانى الجيش والمال إليه ، وظل له هذا العمل بقية مدة صلاح الدين وابنه العزيز والأفضل ، حتى إذا ولى السلطان العادل بن أيوب سنة ٥٩٦ واستوزر الصفى بن شكر أخذ الجو يكفهر بينه وبين الوزير ، بسبب ما كان يصدر منه فى حقه أيام عمله فى الديوان معه ، فلم تمض مدة طويلة حتى أخذ يدبر عليه المؤامرات ، وصودرت أمواله . واستتر فترة نحو عام ثم احتال فى الفرار إلى الشام ، وأبعد فى فراره حتى نزل حلب سنة ٦٠٤ على سلطانها الظاهر بن صلاح الدين فأحسن استقباله ، وجعل له راتبا معلوما وظل يسبغ عليه عطاياه حتى توفى هناك سنة ٦٠٦ .

وصنف ابن مماتى مصنفات كثيرة عدَّ له ياقوت فى معجمه منها أكثر من عشرين مصنفا ، منها مؤلفات ومنها مختارات شعرية من بعض الدواوين أو من كتب الموسوعات الشعرية مثل الذخيرة لابن بسام . ومن مصنفاته « الشىء بالشىء يذكر » ويقال إن القاضى الفاضل أعجب به حين عرضه عليه وسماه سلاسل الذهب . ومن أهم مؤلفاته كتاب قوانين الدواوين الذى نشره بمصر عزيز سوريال عطية فى جزء واحد ، ويبدو أنه مختصر للكتاب إذ يقول المقريزى فى خططه : « كتابه قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها ومايجرى فيها ، وهو أربعة أجزاء ضخمة ، والذى يقع فى أيدى الناس جزء واحد اختصره منها غير المصنف ، فإن ابن مماتى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانون ريِّها ومتحصَّلها من عَيْن (نقد) وغَلَّة » . ومن أهم مؤلفاته تهذيب أفعال ابن طريف فى اللغة ، ويقول القفطى فى إنباه الرواة : « أجاده ، وأتى فيه بالحسنى وزيادة » ومن أجله ترجم له بين اللغويين والنحاة . وله كتاب اختار العامية لغة له ، هو كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش ، وسنعرض له فى غير هذا الموضع . وكان له ديوان شعرى سقط من يد الزمن . ونظم سيرة صلاح الدين كما نظم كتاب كليلة ودمنة شعرا . وكان أبوه الخطير شاعرا كما تدل على ذلك ترجمته عند العماد وفى المغرب .

وكان ابن مماتى يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، وفيه يقول العماد : « أحد الكتاب فى الديوان الفاضلى ، ذو الفضل الجلىّ ، والشعر العلىّ ، والنظم السَّوِىّ ، والخاطر القوىّ ، والسحر

المانوى (١) ، والروىّ الروىّ (٢) ، والقافية القافية (٣) أثر الحسن ، والقريحة المقترحة صورة اليُمْن ، والفكرة المستقيمة على جَدَد (٤) البراعة ، والفطنة المستمدة من مَدد الصناعة » . وبعد أن أنشد العماد طائفة من أشعاره روى فصولا من رسائله الشخصية تدل على براعته الكتابية بجانب براعته الشعرية مستهلا لها بقوله : « ومن نَوْر (٥) نثره البديع ، ونور فجره الصَّديع (٦) وغرر درره النَّصيعة (٧) ودرر غرره الصَّنيعة (٨) ، ماتُحْذَى (٩) له بهائم التمائم . وتُحْدَى (١٠) به كرائم المكارم ، ويَرْتَعُ الحسن فى روضه ، وتكرع الحسناء من حوضه ، وتغتبط الآداب بدابه (١١) ، وترتبط الألباب ببابه » .

ومن طريف مادوَّنه له العماد فصل من رسالة شخصية يصور فيها فراقه لصديق فى إحدى الأمسيات قائلا :

« فصلت عنه فى أخريات النهار ، وقد ظهر فى أطراف الجدريان لَفَرق (١٢) فراق الشمس اصفرار ، فلما ذَهَب ذهبُ الأصيل بنار الشَّفَق ، ولبست المشارق السَّواد لما تمَّ فى المغارب على الشمس من الغرق ، وأقبلت مواكب الكواكب فى طلب الثار ، كدراهم النِّثار (١٣) وتشابهتْ زواهرها – وإن اختلفت فى الأسحار – بالأزهار فى الأشجار ، وتكلف القمر الموافقة فظهر على وجهه الكَلَف (١٤) ، ومرتْ به طوالع النجوم فلم يستخبرها حسدا فأعرب عن غدر الخلف بالسَّلف ، وظهر الوجوم ، فى وجوه النجوم ، وعيل صَبْر النَّسْرَيْن (١٥) فواحد طائر يحوم ، وآخر واقع لايقوم . ولم تزل متلاحقة متسابقة لتقفو الأثر وتسمع الخبر ، إلى أن بدا سَوْسَنُ الفجر ولاح ، وابتسم ثغر الصباح عن الأَقاح (١٦) ، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا ، وبرزت الغَزالة من أُسِّ الكِناس (١٧) طلقة المحيَّا » .

---

(١) المانوى نسبة إلى مانى مؤسس مذهب المانوية الفارسى قبل الإسلام

(٢) الروى الأولى : الحرف الذى تُبنى عليه القصيدة والروى الثانية من الماء أى شاف الغلة .

(٣) القافية الأولى : نهاية البيت فى القصيدة ، والقافية الثانية من قفا الشىء أى تبعه .

(٤) جدد : نهج مستو (٥) نور : زهر

(٦) الصديع : المنشق نورا (٧) النصيعة . الناصعة

(٨) الصنيعة : البديعة .

(٩) تحذى : تقطع . بهائم : مبهمات . التمائم : التعاويذ

(١٠) تحدى : تساق بالأراجيز والأشعار .

(١١) دابه : تسهيل دأبه أى نمطه (١٢) فرق : جزع

(١٣) النثار : ماينثر على العروس فى الزفة من الدراهم

(١٤) الكلف : مايعلو وجه القمر أحيانا من كدرة

(١٥) النسران : نجمان أحدهما يسمى النسر الطائر ويسمى الثانى النسر الواقع

(١٦) أقاح : جمع أقحوان وهو نبت زهره أبيض وورقه كأسنان المنشار وهو الأراولة ويشبه به الاسنان .

(١٧) الغزالة : الشمس . الكناس : بيت الغزال فى الشجر يستتر به . طلقة المحيا : بشة الوجه .

ويدل هذا الفصل على أن العماد الأصبهانى كان محقا كل الحق فى التنويه ببراعة ابن مماتى الكتابية ، وهى براعة تكاد تبدو فى كل سجعة من سجعات هذا الفصل ، فأضواء الشمس فى الأصيل تعكس بصفرتها على أطراف الجدران فرقا وفزعا لهول الفراق . وتَوارَى ذهب الأصيل وراء نار الشفق الملتاع ، ولبست المشارق السواد على الشمس الغريقة فى المغارب . وأقبلت مواكب الكواكب ، وجيوشها تطالب للشمس بالثأر ، متفرقة ومتجمعة وكأنها نِثار الدراهم فى الأعراس ، أو كأنها الأزهار على الأشجار فى الأسحار ، وتكلف القمر أن يظهر وحده لغياب الشمس أخته فظهر الكلف على وجهه ، ومرت به الكواكب وطوالعها فلم يسألها ما الخبر ، حسدًا وغدرًا كما يغدر الخلف بالسلف . وبدأ الوجوم فى وجوه النجوم ، وكاد النسران أن يفقدا صبرهما فواحد طائر يحوم وآخر واقع لايقوم . ولم تزل النجوم متلاحقة ، إلى أن بدا سَوْسن الفجر وزهره الأبيض المشرق ولاح ضياؤه ، وابتسم ثغر الصباح عن أضواء كالأقاح . وطالما شبَّه الشعراء مجموعة نجوم الثريا بالعنقود . ويستغل ذلك ابن مماتى ، كما يستغل تسمية الشعراء للشمس الغزالة فجعلها تستتر ليلا وراء الأفق فى كناس ككناس الغزال والظباء فى الشجر . ومراعاة النظير واضحة فى السجعات الأخيرة . ويشيع فى الفصل كله حسن التعليل ، كتعليل ابن مماتى الرائع لصفرة الأصيل على أطراف الجدران ، وتعليله لانتشار الظلام فى بواكير الليل على المشارق حزنًا على غرق الشمس ، وهو حزن تبعه لبس السواد ، ومن هذا اللون أيضا تعليله لكلف القمر لتكلفه الحزن على غرق الشمس . ويتمادى ابن مماتى مع مراعاة النظير ، فيجعل القمر لايسأل الكواكب عن مصير الشمس حسدا يستشعر فيه من تلقاء نفسه غدر الخلف المعروف بالسلف . ومن هذا اللون أيضا ماعلل به طيران أحد النسرين ووقوع صاحبه لما فقدا من صبرهما . وتتلاحق فى تضاعيف ذلك الاستعارات ، ومايوشى به سجعاته من الجناسات والطباقات . وله من صدر مكاتبة :

« لم يزل العبدُ لما عرضَ من إعراض المجلس .. ذا زفراتٍ سَوامٍ تتضرّم[1] ، وعبرات هوامٍ تتصرَّم[2] ، وعبارات عن بسط عذره تعثر بالكلام عِيًّا فيتذمَّمُ[3] ، بالصمت عن أن يتحرَّز ويتحرَّم[4] ، وأفكارٍ تتنزَّه عن إساءة الظن بمودته فما يتكدَّر حتى يتكرم ، فكم تناول القلب جَلَده ، فجَلَده بالقلق لما تجاوز حدَّه وحدَّه[5] ، وأجرى من سوابق دموعه عسكرا أجرى فشق

---

(١) سوام : لازمة لاتبرح . تتضرم : تشتعل
(٢) هوام : سائلة . تتصرم : تتقطع
(٣) يتذمم : يتوسل
(٤) يتحرم : يجده حراما
(٥) حده : ضربه بالسياط

خدَّه وخَدَّه[١] .. إلى أن بدت صحيفة وجه صَبْره مسودَّة، وتمنى لوكان الموت قبل إخلافه وعدَه . وإخلاقه وُدَّه[٢] وَدَّه[٣] ، حتى جَنَى وَردَ ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره ، ورفع ناظره بقدومه عليه على كافَّة أمثاله وأنظاره ، فعلم أن عَلَم المودة قد رُفع ، وموصول حبل الجفوة قد قُطع ، وكاد القلب يخرج لمصافحته لو استطاع نفاذا ، واجتمعت فيه أمانى النفس ، فاتخذته دون جميع الملاذِّ مَلاذًا[٤] . وتناوله بيد الإجلال ، وفضَّه بيد الإدلال ، فوجده منظوما على خطٍّ كالكئوس المرصَّعة لما لاح مداده مُداما ونَقْطه حَبَبًا . وألفاظ تتيح للخواطر طربا ، وتعريضاتٍ لو كان التصريح فضة لكانت ذهبا ، ومنَنِ مالاحت سحائبها حتى وَكَفَتْ[٥] وأيادٍ ما استكفت فواضلها حتى عمَّت وكَفَتْ » .

ووشى الجناسات والاستعارات واضح فى هذا الفصل ، فالزفرات تتضرَّم والعبرات تتصرَّم بينما يتذمم بالصمت ويتحرم . ولاتلبث أن تلقانا جناساته التامة . فالقلب يلوذ إزاء إعراض صاحبه عنه فى مجلسه بجلده فيضربه بأسواط القلق ، حين تجاوز حَدَّه ومنتهاه ، ويحدُّه كما يُحَدُّ الجناة ، وتجرى سوابق دموعه فتشق خده وتخدّه أى تشقه وتؤثر فيه ، وتَخْلق وتبْلى مودة صاحبه فيتمنّى لو كان الموت ودَّه وزاره . ويعود ابن مماتى إلى هذا الجناس التام بين « الملاذّ وملاذًا » كما يعود إليه فى نهاية الفصل حين وكفت السحب أى أمطرت وعمت فواضل صاحبه وكفت من الكفاية . وتلقانا فى الفصل مراعاة النظير والطباق ، وكأنما كان ذلك شعارا له فى نثره . ومن طريف ماأُثر عنه من تصويره لوفاء النيل قوله .

« وأما النيل المبارك فإنه عَمَّ اليَفاع[٦] ، وطَبَّق[٧] ، البِقاع ، وانتقل من الإصبع للذراع ، حتى لم يُلْف بمصر قاطع طريق سواه ، ولا موهوب مرهوبٌ إلا إياه » .

وهو يصور فى هذه الكلمات القليلة فيضان النيل بل طوفانه الذى لا يقاس بالإصبع وإنما بالذراع والذى علا موجه مرتفعات الوادى وجميع البقاع ، حتى قطع الطرق وأخذ بخناق الدور والسكان ، ورهبه الناس وطلبوا منه الأمان . ولعل فى كل ماقدمنا مايصور قدرة ابن مماتى البيانية

---

(١) خده : شقّه وأثر فيه

(٢) إخلاق الشيئ : جعله باليا

(٣) وده : زارَه

(٤) ملاذا : ملجأ

(٥) وكفت : أمطرت ، وكفت فى آخر الفصل من الكفاية

(٦) اليفاع هنا : مرتفعات وادى النيل

(٧) طبّق : عمَّ

وأنه كان جديرا بأن تعنى كتب الأدب والتراجم . بشعره ونثره ، وتحمل إلينا باقات كثيرة من رسائله .

فخر الدين [(١)] بن مكانس

هو أبوالفرج عبدالرحمن بن عبدالرزاق بن إبراهيم بن مكانس ، من سلالة أسرة قبطية ، ولد لأبيه سنة ٧٤٥ بالقاهرة . وكان الأب مسلما كما يتضح من اسمه ، وكان من الكتاب فى الدواوين ، فنشأ ابنه على غراره ، وكان ذكيا ذا ملكة خصبة ، فسال الشعر مبكرا على لسانه . وصحب برهان الدين القيراطى وبدر الدين البَشْتكى الشاعر أحد تلاميذ ابن نباتة ، وعنه روى شعره ونثره . وكان حنفى المذهب . واحتل سريعا مكانة أدبية بين أقرانه فى القاهرة ودواوينها السلطانية ، ورقى بها إلى منصب ناظر الدولة ، وغيره من المناصب الرفيعة . وغضب عليه السلطان برقوق (٧٨٣-٨٠١) ذات مرة فأمر بمصادرته وتأديبه على خشبة السِّرْياق منكَّسا على رأسه ، فقال :

وما تعـلَّقتُ بالسِّرياق منتكسًا ... لِجَرْمةٍ أوجبتْ تعذيبَ ناسوتى [(٢)]
لكننى مذ نفثتُ السِّحْرَ من أدبى ... عُلِّقْتُ تعليق هاروتٍ وماروتِ

ويدل البيتان على ظرفه . وعفا عنه السلطان برقوق وأعاده إلى العمل ، ثم عينه وزير دمشق ، فأقام بها مدة . وفى صحبة السلطان برقوق دخل حلب ، وطارح فضلاءها كما طارح فضلاء دمشق . وطلبه السلطان برقوق بعد عودته إلى القاهرة ليلى الوزارة بالديار المصرية ، غير أنه توفى قبل دخوله القاهرة ، ودفن بها سنة ٧٩٤ قبل أن يكمل ستته الخمسين . وخلف ديوان شعر كبير ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطتان منه إحداهما بخط ابنه مجد الدين وكان شاعرا بارعا على شاكلة أبيه ، وقد أنشدنا بعض شعره البديع فى غير هذا الموضع .

وأشاد بفخر الدين كل من ترجموا له ، فيقول ابن حجر فى الدر الكامنة : «كان قوى الذهن حسن الذوق حاد النادرة يتوقد ذكاء» ويقول صاحب النجوم الزاهرة : «كان أديبا فاضلا شاعرا

---

(١) انظر فى ابن مكانس وترجمته ونثره وشعره الدرر الكامنة ٤٣٨/٢ والنجوم الزاهرة ١٣١/١٢ وصبح الأعشى ٢٦٧/١٤ وخزانة الأدب للحموى ص ١٩ ، ٢٢٤ ، ٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٤١١ ، ٥٤٧

(٢) لجرمة : لجرم أى لذنب . ناسوتى : جسدى .

فصيحا بليغا .. وهو أحد فحولة الشعراء بالديار المصرية فى عصره ، وشعره فى غاية الحسن والرقة والانسجام ، وديوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدى الناس » وكان كثير التورية فيه على نحو مايتضح مما رواه له مترجموه وخاصة الحموى صاحب خزانة الأدب . وله رسائل شخصية تدل على روعته البيانية ، من ذلك رسالة احتفظ بها القلقشندى فى صبحه كتب بها إلى بدر الدين البَشْتَكى فى غيبته عن مصر بدمشق سنة ٧٨٤ وتصادف أن كان فيضان النيل عاليا وزاد زيادة مفرطة ، فرأى أن يصور له ذلك قائلا :

« ربَّنا اجعلنا فى هذا الطوفان من الآمنين ، وسلامٌ على نوح فى العالَمين . ما تأخيرُ مولانا بَحْرِ العلم وشَيخه عن رؤية هذا الماء ؟ .. فإنه قارب النيل أن يمتزج بنهر المجرَّة بل وصل وامتزج ، وأرانا من عجائبه ماحقق أنه المعنىّ بقول القائل : حَدِّثْ عن البحر ولا حرج .. وسَقَى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت أصعبَ كاس ، وسُئل ابن أبى الرَّدَّاد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ، امتلأ اليَباب[1] ، وهال العُباب ، كال فطفَّف ، وزار فما خفَّف ، جمع فى صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاَّح ، ودخل الناسُ إلى أسواق مصر وخصوصا سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح[2] ، وغَدَا التيَّار ينساب فى كل يَم كالأيْم[3] ، وأصبحت هضاب الموج فى سماء البحر وكأنما هى قطع الغَيْم ، واستحالت الأفلاك فكل بُرْجٍ مائىّ ، وتغيَّرت الألوان فكل مافى الأرض سمائى .. وتحالى إلى أن أقرف[4] الليمون الأخضر ، واحَمرَّت[5] عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر ، ولقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد ، وأصبح كل جدول منه جعفرا[6] ويزيد .. ولكم قال الهرم للسَّارين ، ياسارية الجبلَ ، وأنشد وقد شمرَّ ساقه للخوض : أنا الغريق فما خوفى من البلل ، وكم قال أبوالهول : لا هول إلاّ هولُ هذا البحر ، وقال المسافرون : مارأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء[7] النهر .. ولو رآه مولانا وقد هَجم على مصر فجاس خلال الديار ، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم يُر منه غيرُ الآثار ، لبكى بعينى عُرْوة[8] ، وأوى من الرَّصَد إلى رَبْوة .. وكل سفينة قد علت على وجه الماء ، وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء ، وقد قالت لها أترابها عند الفراق إلاّ ترجعى ،

---

(١) اليباب : القفر والخراب .

(٢) يريد السفن

(٣) اليم : البحر . الأيم : الحية الذكر

(٤) أقرف هنا : عطَّر ، من القرفة المعروفة طيبة الرائحة

(٥) احمرت عينه : كناية عن الحمرة فى طمى النيل

(٦) الجعفر : النهر الصغير .

(٧) ما وراء النهر : ماوراء خراسان فى شماليها الشرق

(٨) عروة هو عروة بن حزام العاشق المشهور فى صدر الإسلام

وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل : (ياسماءُ أقلعى[١]) .. ولقد طار النَّسْرُ مبلولَ الجناح ، ودنا نهر المجرة من السُّكارى بالشخاتيت[٢] إلى أن كاد يدفعه من قام بالرَّاح ، ونرجسُ البساتين وقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم .. والورد وقيل له مالك من آس ، وغُصْن البان وقد قيل له طوبى لمن عانقك ولا باس » .

ونكتفى بهذه المقتطفات من الرسالة فإنها طويلة ، وهى رسالة بديعة فى وصف فيضان النيل وسمو أمواجه وارتفاعها إلى أعلى الأعالى فى شواطىء النيل حتى كادت أن تمتزج بالمجرة فى السماء كما يقول ابن مكانس ، فإذا الحادى للإبل يلتقى بالملاح ، وإذا الناس يدخلون إلى أسواق مصر والفسطاط على سفن ذات ألواح . فقد انسابت غدرانه وأمواجه إلى الطرقات والشوارع وتعالت هضاب أمواجه إلى السماء حتى لكأنها قطع السحاب . ولم تعد هناك أرض وسماء ولا أفلاك ووهاد ، وحلا النيل وتظرف حتى عطَّر الليمون الأخضر ، واحمرت عينه إشارة إلى طميه الأحمر ، فأغرق الناس وأذاقهم الموت الزُّؤام . ويستمر ابن مكانس فى هذه الاستعارات ، فيخلط بين النيل وبين وزن المديد الصعب فى الشعر وبحره وكذلك بين جداوله والجعفر أى النهر الصغير . ويستعير الكلمة المأثورة عن عمر بن الخطاب وهو على المنبر حين هتف بقائده سارية وهو يحارب فى الشام فقال له ياسارية الجبل أى الزمه ويقال أن الريح حملت الكلمة إلى سارية . وما أروع تصويره لهرم الجيزة وقد شمر ساقه للفيضان حين علا إلى جدرانه فقال متمثلا بشطر من الشعر : أنا الغريق فما خوفى من البلل . وقد ورَّى بكلمة ماوراء النهر فهو لايريد ماوراء النيل من بلاد السودان وإنما يريد ماوراء خراسان فى أوزبكستان الحالية وكانت تسمى بلاد ماوراء النهر . والمعشوق بستان ورباط عظيمان كانا بظاهر القاهرة . وقد اقتبس من الحديث عن الطوفان فى القرآن الكريم : (وياسماءُ أقلعى) . وتلقانا فى الرسالة آيات أخرى وأشعار كثيرة منثورة . وما أسرع ماجاء باقتباس من سورة يوسف عن أبيه وقد أسف عليه : (وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم) . وورَّى فى كلمة آس فهى تحمل معنيين : الآس زهر وردى أو أبيض ، والآسى الطبيب المداوى . والاستعارات بديعة هى وما تتحلَّى به من زخارف البديع وحلاه ومحسناته من جناس وطباقات ومراعاة نظير وحسن تعليل .

ووشى شخص قيروانى ضرير إلى أبى بكر بن العجمى أحد الكتاب النابهين فى ديوان الإنشاء

---

(١) أقلعى : أمسكى عن الماء

(٢) الشخاتيت : لعلها القوارب .

بأن صديقه ابن مكانس يقول عنه إنه يستعين بكلام غيره ، فتأذى ابن العجمى من ذلك ، وتأذى ابن مكانس من كذب الناقل فكتب إليه من رسالة :

« (ليس على الأعمى حرج) بلغنى – ما بلغ سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب الشاعر الناظم الناثر المحقق الأمة الكاتب الحجة زين الدنيا والدين ، قرة عين الكرام الكاتبين ، لازال زينة يَحْلَى به العاطل ، ويُظلّ تحت جناح أدبه القائل[1] – من غيبة ذلك الضرير ، مالاخشى اللهَ فيه بظهر الغيب ، ونقل إلى المسامع الكريمة مالايحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الرَّيْب ، ولكن لاغناء لسيف ذهن المملوك الكليل من التنصل ،[2] ولابد من نهلة اعتذار على سبيل التعلل .. ولو اختلف الأدباء على إمام لأهل هذه الصناعة مطهَّرٍ من الأرجاس[3] ، لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس .. والمسئول من إحسانه أمران : أحدهما الجواب فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والآخر ردّ كل فاسق عن الباب العالى فإن أبا بكر أول من تصلَّب[4] فى الردة ، وبلغ المملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمية كهذه فأَصْمَى[5] ، وتردَّد إليه مرة أخرى فـ(عَبَسَ وتولَّى أن جاءه الأعمى) » ..

والسجعات خفيفة رشيقة مع مايزينها من الاستعارات والجناسات ، وفى كلمة « القائل » تورية واضحة ، إذ لا يريد أن ابن العجمى يُظل تحت جناح أدبه الأديب المتكلم القائل ، وإنما يريد القائل من القيلولة ووقتها الحار فى الظهيرة ، فهو غوث العائذين وملاذ المعوذين المحتاجين . واستغل اسمه أبا بكر فى التورية باسم أبى بكر الصديق متلطفا بذكر حادث صلاته بالمسلمين نزولا على أمر الرسول ﷺ له حين اشتد به المرض إذ قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » . وعاد ابن مكانس إلى التورية بأبى بكر الصديق حين طلب من ابن العجمى أن لايفتح بابه للواشى مقتديا فى ذلك بالصديق حين تشدد فى حروب الردة على نحو ماهو معروف . ولم يلبث أن اقتبس من الذكر الحكيم آية تصور ماينبغى على ابن العجمى من لقاء الواشى لقاء متجهما على نحو ماتصور ذلك الآية : (عَبسَ وتولَّى أن جاءه الأعمى) . ولعل فى كل ماقدمت مايصور خفة روح ابن مكانس وعذوبة سجعه ومايشيع فيه من سلاسة .

---

(١) القائل : المتعب من القيلولة وهى وسط النهار

(٢) التنصل : التبرء

(٣) الأرجاس : جمع رجس وهو الإثم

(٤) تصلب : تشدد .

(٥) أصمى السهم : أصاب إصابة نافذة

٣

المقامات

معروف أن المقامة حديث قصصي قصير يصور كيف يحتال أديب متسوّل على سامعيه بسجعه وأساليبه الرشيقة ، فيستخرج الدراهم والدنانير من جيوبهم ، وهو جَوَّاب آفاق يظهر فى بلدان كثيرة أديبا متسولا يخلب الجماهير ببيانه وبلاغته ، وبديع الزمان الهمذانى هو أول من ابتكر هذه الأحاديث القصصية ، على نحو ماهو معروف عن مقاماته ، ونسج على منواله الحريرى فى مقاماته المشهورة .

وأكبَّ الناس على مقاماتهما إكبابا شديدا مما دفع كثيرين من الأدباء فى الأقطار العربية المختلفة إلى محاكاتهما ف هذا الفن البديع ، تارة يبنونه على الشحاذة الأدبية مثلهما ، وتارة يستقلون عنهما مكتفين فيه بضرب من الحديث القصصي الفكه . وقد يتركون القصص جانبا ، ويبنون المقامة على الوعظ أو على عرض مسائل علمية ، أو على وصف الحيوانات ، أو وصف البساتين والحوار بين الأزهار ، وغير ذلك من موضوعات شتى . ولظافر الحداد الذى ترجمنا له بين الشعراء والذى توفِّى بعد الحريرى بنحو عشر سنوات مقامة [١] ، صوَّر فيها نفسه وقد أصبح ذات يوم تائقا إلى لقاء بعض الأدباء ، ومطرته الح ، لم يلبث أن جاءته منهم رفقة ، فتلقاهم بالبشر والسرور وأخذ فى الحديث معهم ، حتى دن وقت الغداء فأسرَّ إليه غلام أن ليس عندهم للإنفاق إلا الإملاق ، وبينما هو يفكر فى وسيلة لإنقاذ الموقف إذا الباب يقرع وإذا رسول شوَّاء كان قد خلصه من حبس الشرطة يرسل إليه بإناء كبير ملىءٍ بأرز ولحم وسكر . وبعد حوار مع غلامه هل يرجعه للشواء أو يقبله ، يقنعه بقبوله . ويشبع الضيفان ، ولا يجد عنده شيئا من فاخر الحلوى يقدمه لهم . ويقدم قصيدة يعتذر بها عن ضيق حاله ، ويستفزهم الضحك والطرب ، ويعودون إلى حديثهم العذب حتى غروب الشمس ، ويستهل ظافر مقامته على هذا النمط :

« أصبحت ذات يوم فى منزلى ، وقد كَلَّ جَنَانى وبَنانى ولسانى وإنسانى [٢] ، من الدَّأب فى الطلب ، والإكباب على الكتب ، ومتابعة المراجعة ، فى النسخ والمطالعة ، بين معنى أُحكمه ، أو

---

(١) انظر ديوان ظافر ص ٣٤٩

(٢) إنسانى : يريد إنسان عينه

خطٍّ أَرقه[١] ، فتاقت النفس إلى الإحماض بمفاكهة أديب ، والارتياض بمذاكرة لبيب ، وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقْرَع . فقلت له : ما الشان ؟ فقال جماعة من الإخوان ، منهم فلان ، فذكر لى كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، فقلت : ويحك عَجِّلْ بفتح الباب ، وَأْذَن للأحباب ، فهم نزهة النفس ، وثمرة الأنس » .

وتمضى المقامة بهذا السجع الخفيف ، الذى يكاد يطير عن الأفواه طيرانا بعذوبته وقصره ، وحسن الاختيار للفظه . ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية الرشيد [٢] بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٢ وهو أخو المهذب الذى ترجمنا له بين الشعراء وكان شاعرا مثله ، ويقول ابن خلكان له ديوان شعر ، وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة صنّف كتاب جِنان الجَنَان ورياض الأذهان فى شعراء عصره ، وكان تكملة لكتاب اليتيمة للثعالبى وسقط من يد الزمن ، وقال العماد الأصبهانى عنه : « أوحد عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعيات والآداب » ويقول ياقوت عنه : « كان كاتبا شاعرا ، فقيها نحويا لغويا عروضيا مؤرخا منطقيا . مهندسا ، عارفا بالطب والموسيقى والنجوم متفننا » . ومن كتبه كتاب مُنْية الألمعىّ وبُلْغة المدعى ، وهو موسوعة علمية . وصوَّر معارفه الكثيرة فى مقامة تسمى المقامة الحصيبية [٣] ، استعرض فيها جوانب من معارفه العلمية الواسعة ، وهو يدير فيها الحوار بينه وبين طائفة من العلماء بادئا بعالم نحوى موردا عليه من النحو ومسائله مايبهره . ويصنع نفس الصنيع بعالم بلاغى ، ويتوالى حواره أو حديثه مع علماء العروض والفقه وأصوله والتفسير والتأويل والفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والرياضة وعلم الفلك والهيئة والأجرام والكواكب العلوية وعلم الطب . حتى إذا أنهى المقامة تلاها بشرح لماجاء فيها من مسائل هذه العلوم ومصطلحاتها . والمقامة تموج بالسجع ، من ذلك قوله فى مطالع مقامته ناعيا على من لايعرفون سوى علم أو علمين ويعمدون إلى التزيِّى بزى الزهاد والصوفية احتيالا على الناس ليسبغوا عليهم من أموالهم ، وهم لايقدرون العلوم حق قدرها فضلا عن التغلغل إلى مسائلها ومشاكلها :

« أحسبتم يا أعلام الضلال أن كل من نظر فى علم أو علمين وحفظ مسألة أو مسألتين ثم قصَّر سِرْباله [٤] ، وقصَّ سِباله [٥] ، مظهرًا للنسك والزهادة ، متعرضا للاستفادة فى معرض

---

(١) أرقه : أكتبه

(٢) انظر فى الرشيد وترجمته الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٠٠/١ وابن خلكان ١٦٠/١ والشذرات ١٩٧/٤ ، ٢٠٣

(٣) من هذه المقامة مخطوطة بدار الكتب المصرية ومخطوطتان بمكتبة الإسكندرية

(٤) سرباله : ثوبه

(٥) سباله : شاربه

الإفادة ، يستوهب بذلك الطعام ، ويستجلب الحُطام [١] ، ويجلب الحرام ، ويسمى بالشيخ الإمام ، قد صَلُح لأن يفصل بين العلوم ، ويميز بين المحمود منها والمذموم » .

والمقامة كسابقتها ليس فيها أديب شحاذ يروى حيله وما يحسن من الأساليب الأدبية ، فقد تحولت من بعض الوجوه إلى مايشبه الرسائل إذ تتناول موضوعا يحلُّ صاحبها فيه محل أبي الفتح الإسكندرى عند بديع الزمان وأبي زيد السَّروجى عند الحريرى .

ويعرض الأدفوى فى الطالع السعيد طائفة من هذه المقامات أو الرسائل على ألسنة كتابها من أدباء الصعيد ، من ذلك مقامة [٢] أو رسالة لمحمد بن يوسف بن نحرير المتوفى بعد سنة ٦٦٥ يمدح فيها أميرًا ويصف خروجه إلى الصيد ، من ذلك قوله فيها :

« خرج يوما مامع أناس ، وصل بِرِّهم بإيناس ، كل منهم يهتزّ للأُكْرومة ، ويأوى إلى أشرف [٣] أُرومة ، على خيل مسوَّمة [٤] ، مثقفة مقوَّمة ، مابين جَوْن أدهم [٥] ، أذكى من فارسه وأفهم ، إذا زاغ عن سِنان ، أوانعطف لعنان ، وأشهبٍ كريم ، له سالفة رِيم [٦] ، كأنما خلق من عَقيق أو تردّى برداء شقيق ، إن أوردته الطِّراد ، أوردك المراد ، وهملاجٍ [٧] إن زجرته ألهب أديمه [٨] ، روضة بَهار [٩] ، ينظر فى ليل كالنهار ، ينساب انسياب الأَيْم [١٠] ، ويمر مرور الغَيْم ، لاينبه النائم إذا عُبر به ، ولايحرك الهواء فى سِرْبه ، أخف وَطأً من طَيْف ، وأوطأ من مهاد الصيف .. ولم يزل بنا المسير ، وكل منا فى طاعة صاحبه أسير ، إلى أن قصدنا واديا ، كان لعيوننا باديا ، فما قطعنا منه عرضا ، حتى أتينا أرضا ، كأنما فُرِشَ قرارها زبرجد ، وصيغت ألوانها من لُجَيْن وعَسْجد .. تُهدى للناشق ، أنفاس المعشوق للعاشق » .

والمقامة على هذا النحو قطع من الوصف المسجوع البارع للخيل ولكلاب الصيد .

---

(١) الحطام : متاع الحياة

(٢) الطالع السعيد للادفوى (طبع مطبعة الجمالية) ص ٣٦٧

(٣) الأرومة : الأصل ، الأكرومة : إكرام

(٤) مسوَّمة : معلمة لأصالتها

(٥) جون أدهم : أسود

(٦) ريم : ظبى أبيض . والفرس الأشهب : يخالط بياضه سواد أو حمرة

(٧) الهملاج : الفرس فى سيره بخترة .

(٨) أديمه : جلده .

(٩) بهار : زهر أبيض .

(١٠) الأيم : الحية الذكر .

وتكثر المقامات فى أيام المماليك ، وتأخذ طابع المناظرات والمفاخرات ، وكأنما نُسى أصلها عند الهمذانى والحريرى نهائيا ، فلا بطلٌ صاحب حِيَل .ولاقصصٌ ، وإنما حجاج وجدال وتوليد لايكاد ينتهى للأدلة والبراهين ، مع السفسطة والمغالطة وقلب المحاسن مساوئَ بغرض الإفحام وإظهار القدرة على القهر والغلبة ، ومع المبالغات والإفراط فيها بهدف الاستعلاء . ومن طريف هذه المقامات والمفاخرات المفاخرة بين السيف والقلم لابن نباتة [١] ، وفيها يستهل القلم مفاخرته بقوله تعالى : (ن والقلم ومايسطرون) وهى براعة استهلال واضحة ، وما يلبث أن يقول ابن نباتة عنه .

« إن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعَلْيا ، وزمام أمور الملك السائرة ، وقادمة [٢] أجنحته الطائرة ، ومطلق أرزاق عُفاته [٣] المتواترة ، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة ، به رُقم كتابُ الله الذى لايأتيه الباطل وسنةُ نبيه ﷺ التى تهذب الخواطر الخواطل [٤] .. إن نُظمتْ فرائد العلوم فإنما هو سلكها ، وإن علت أسرّة الكتب فإنما هو ملكها .. وإن وعد أوفى بجلب النَّفع ، وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من النَّقْع [٥] » .

ويستمر القلم فى هذه المفاخرة ، فهو الذى يأمر بالجهاد والسيف نائم فى قِرابه ، وهو الذى يأمر بالعدل والإحسان ، مع المحاماة عن الدين ومايتزل بالأعداء من الرعب . وكأن ابن نباتة يريد ان يُعْلى فضله على السيف حتى فى الحرب وجهاد الأعداء . ويستغفر القلم من الشرف وخُيَلائه والخيلاء وكبريائه . وينبرى السيف مدافعا عن حماه مستهلا كلامه بقوله تعالى : (وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديد ومنافعُ للناس وليعلم الله من ينصره ورُسلَه بالغيب إن الله قوى عزيز) ويحمد الله الذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف . ويفاخر القلم بعزمه الثاقب وفتوحه ، مما جعل الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . وينتفض القلم فى دواته ويضطرب على وجه القرطاس ، وينفجر قائلا للسيف فى حدة وعنف .

« أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضِّراب ، وانا للعمارة وأنت للخراب ، وأنا المعمر ، وأنت المدمر .. وأنا ذو اللفظ المكين وأنت

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ١٣٠ ، ٥٤٥

(٢) قادمة الأجنحة : ريشات أربع كبار فى مقدمة الجناح

(٣) عفاته : طلاب معروفه .

(٤) الخواطل : الحائدة عن الصواب

(٥ النقع : غبار الحرب . والوعد يكون فى الخير والإيعاد فى الشر

ممن دخل تحت قوله تعالى (أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فى الحِلْية وهو فى الخصام غير مبين) لقد تعدَّيت حدَّك ، وطلبت مالم تبلغ به جهدك ، هيهات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت فى الغمد طريح ، والمتعب فى تمهيدها وأنت غافل مستريح .. أين بطشك من حلمى ، وجهلك من علمى .. وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب » .

ويرد عليه السيف مَغيظًا محنقًا ، ويكيل له الكيل كيلين .. ويشعر القلم أخيرا بفضل السيف ، ويميلان إلى الصلح معترفين بأنهما للملك كاليدين وفى آفاقه كالقمرين . وهى مقامة أو قل مناظرة بديعة دُبِّجت بأسلوب يتدفق بالسلاسة وخفة السجع ولطف مآخذه ودقة معانيه . وابن نباتة فى نثره مثل شعره يمتاز بالصفاء مع الرصانة والرونق وجمال اللفظ وحسن اختياره . ولابن مكانس الذى ترجمنا له بين كتاب الرسائل الشخصية مقامة فى ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية بناها على الفكاهة والمجون إذ أدارها على الشراب . وقد جعلها حوارا بين عشرات من الأشخاص يمثلون ما كان بالقاهرة لزمنه من المهن والصناعات .

وتظل المقامات حية فى الحقبة العثمانية ، وينحو بعضها نحو الفكاهة والمجون والدعابة أو نحو الهجاء كما سترى عند الشهاب الخفاجى ، وسنخصه بكلمة ، وكثير منها يتخذ المديح موضوعا له ، من ذلك مقامتان [1] لمصطفى اللقيمى الدمياطى المتوفى سنة ١١٧١ مدح بهما الأمير العثمانى رضوان كتخدا ، وإحداهما طويلة وتكثر فيها مقطوعات الشعر ونقرأ بها قصيدتينَ ومزدوجة فى مديح الأمير . ولحسن شمَّه مقامة [2] فى مديح الشيخ محمد بن سالم الحفناوى الشافعى الخلوتى ضمَّنها سائر الفنون الشعرية من النسيب والموشح والدوبيت والزجل والكان وكان والقوما والمواليا مع العناية بالسجع فى نثرها وحَشْد محسنات البديع ، وجدير بنا أن نترجم لبعض أصحاب المقامات والمفاخرات .

ابن [3] أبى حَجَلة

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبى بكر بن عبدالواحد أبى حجلة التلمسانى الأصل . ولد بزاوية جَدِّه أبى حجلة بتلمسان سنة ٧٢٥ ورحل فى بواكير حياته إلى الحج ودخل دمشق ، ثم

(١) تاريخ الجبرتى ٢٢١/١ ومابعدها

(٢) تاريخ الجبرتى ٢٩٠/١

(٣) انظر فى ابن أبى حجلة الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب الحديثة) ٣٥٠/١ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٣١/١١ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٤٠/٦ وصبح الاعشى ٢٧٦/١٤ . والحجلة : طائر فى حجم الحمام أحمر الرجلين والمنقار .

استوطن مصر ، وأولع بالأدب حتى مهر فيه ، واعتنق المذهب الحنفى مع ميله إلى المذهب الحنبلى . ولم يلبث بمصر أن أصبح شاعرا بارعا فاضلا وكاتبا ناثرا ، وولى مشيخة الصوفية بخانقاه منجك اليوسفى بظاهر القاهرة . وكان يكثر الإزراء على أهل الوحدة من الصوفية ، كما كان يحمل على ابن الفارض وامتُحن بسببه . وعارض جميع قصائده بقصائد نبوية . ومازال يتولى خانقاه منجك حتى توفى سنة ٧٧٦ للهجرة . ويقول ابن تغرى بردى : له مصنفات كثيرة تبلغ ستين مصنفا ، وأكثرها كتب أدبية ومن أشهرها : « سكر دان السلطان » و« ديوان الصبابة » وهما مطبوعان .

ومعنى سكردان إناء السكر وقد أهداه بعد سنة ٧٥٥ إلى سلطان مصر المملوكى السلطان حسن بن محمد الناصر بن قلاوون ، وهو يدور فى معظمه حول العدد ٧ وأهميته فى تاريخ مصر وأحداثها . وقد جعله فى مقدمة وسبعة أبواب ، ويذكر فى الباب الأول خاصية العدد : ٧ . ويتحدث فى الباب الثانى عن السلطان حسن وأنه سابع السلاطين فى أسرته . ويعرض فى الباب الثالث لإقليم مصر وصلة العدد سبعة به . ويعود فى الباب الرابع إلى السلطان حسن مع أحاديث قصيرة عمن تقدمه من ملوك مصر . ويخص الباب الخامس بأسرة السلطان حسن وجده قلاوون ويمتد به الحديث عن الأسرة فى البابين السادس والسابع . ويُتْبع ابن أبى حجلة هذه الأبواب بأبواب سبعة أخرى ، يتناول فى أولها قصة يوسف وتفسير سورته . ويجعل الثانى لقصة موسى وفرعون ، والثالث لملوك مصر وبعض أخبارهم ، والرابع لسيرة الحاكم الفاطمى ، والخامس لبعض الأحداث بمصر ، والسادس لأحداث القاهرة. والسابع للزهرات السبع . ومما ذكره عن الحاكم الفاطمى ، أنه لبس الصوف سبع سنين وأمر بإيقاد الشمع ليلا ونهارا مدة سبع سنين ومنع النساء من الخروج سبع سنين وسبعة أشهر ، وكان يقرأ نسبه على المنبر كل جمعة أو كل سبعة أيام ، وقُتل وهو يلبس سبع جبَّات بعضها فوق بعض . ولاريب فى أنه بالغ فى ربط الأحداث التاريخية بالعدد ٧ ، ومع ذلك فالكتاب يشتمل على أخبار تاريخية كثيرة ، تجعل له من حيث التاريخ لا من حيث العدد ٧ غير قليل من الأهمية .

وكتاب ديوان الصبابة – كما يتضح من عنوانه – يتناول العشق وكل مايتصل به من الوصف المادى للمرأة ومن الزيارة والعتاب واللقاء والهجران والاستعطاف وإفشاء السر والكتمان والغيرة ومَنْ أحب من أول نظرة وأشهر العشاق ، وهو فى ثلاثين بابًا ويزخر بالمختارات الشعرية والنثرية فى الحب والصبابة . ووضع بين يدى أبوابه عن العشق أسبابه وعلاماته ، ويذكر طائفة من أحاديث

الأدباء والفلاسفة عنه . ويختمه بذكر من مات بسبب عشقه . والكتاب كسابقه طريف فى بابه .

وربما كان أهم من الكتابين السابقين لابن أبى حجلة مقاماته ، وكانت مشتهرة فى زمنه ، ويقول ابن حجر : « أنشأ مقامات أجاد فيها » . ويعرض القلقشندى لإحدى مقاماته وهى المقامة الزعفرانية الخاصة بفيضان النيل ووفائه ، ويقتبس منها نحو خمس صفحات كبيرة مقدما لها بقوله عنه ، « الأديب الذى كان حجة العرب ، والناثر الذى كان بنسبته إلى الطيور [1] محرِّك المناطق وإلى الشعر صنَّاجة الأدب » ويستمر فى الثناء عليه حتى يقول : من مقامته الزعفرانية عن أبى الرِّياش . وكأن ابن أبى حجلة سمَّى راويها أبا الرياش ، ومن قوله فيها :

«إن النيل تزايد دفعه فقد امتزج بالمعصِرات ثَجَّاجُه [2] ، وأَعْيَى طبيبَ الغيطان [3] علاجه :

وشَرَّق حتى ليس للشَّرْقِ مشرِقٌ وغَرَّب حتى ليس للغربِ مغربُ

قلت : فما فعل النُّغَيْر [4] ، بجزيرة الطَّيْر ؟ قال : لم يبق بها هاتف يبشِّر بالصباح ، ولا ساعٍ يَسْعى برِجْلٍ (ولا طائر يطير) بجَناح ، إلا اتخذ (نفقا فى الأرض أو سُلَّمًا فى السماء) أو آوى (إلى جبل يَعْصمه من الماء) فأذاق بها الحِمَام الحِمام [5] فى المروج ، وترك أرضها كسماء مالها من فروج ، وتلا على الحمام : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بُروج) وكم فى سماء مائها من نَسْرٍ واقع ، وبُومَةٍ تصفِّر على ديارها البلاقع [6] :

ومَنْهَلٍ فيه الغرابُ مَيْتُ سَقَيْتُ منه القومَ واستقيتُ

قلت : فمصر ؟ قال : زَحف عليها بعسكره الجرار ، ونفْط مائه الطيَّار ، قلت فالجيزة ؟ قال . طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجسَّر ، ووقع بها القصبُ من قامته حين علا عليه الماء وتكسَّر ، فأصبح بعد اخضرار بزَّته [7] شاحبَ الإهاب ، ناصل الخِضاب ، غارقا فى قعر بحر (يغشاه موجَ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب) وقطع طريق زاويتها على مَنْ بها من المنقطعين والفقراء ، وترك الطَّالح كالالح يمشى على الماء (فتنادَوا مُصْبِحين) : (أن لايدخلنَّها اليوم عليكم مسكين)

---

(١) يشير إلى كنية جده أبى حجلة كما يشير بتحريك المناطق إلى كتاب له سماه منطق الطير .

(٢) المعصرات : السحاب الممطر تعتصره الريح . ثجاجه : سيله أو سيوله المتدافعة . يبالغ فى عتوه حتى صافح السحب .

(٣) الغيطان : الحقول

(٤) النغير : طائر صغير كالعصفور

(٥) الحمام : الموت . والجناس بينه وبين الحمام واضح

(٦) البلاقع : الخالية

(٧) بزّته : شارته وثوبه .

وأدركهم الغرق فأيسوا [١] من الخلاص (فغَشِيَهُمْ من اليَمِّ ماغَشِيهم) (ولات حين مَناص [٢]) و (خَرَّ عليهم السَّقْفُ من فوقهم) فهُدَّت قواهم ، واستغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا وعملوا الصالحات (وقليلٌ ماهم) قلت : فالروضة ؟ قال : أحاط بها إحاطة الكِمام [٣] بزهره ، والكأس بِحَباب [٤] خمره :

فكأنها فيهِ بساطٌ أخضَرٌ ... وكأنه فيها طرازٌ مُذْهَبُ [٥]

فلم يكن لها بدفع أصابعه يدان ، وكم أنشد مَرْجها حين (مَرَج [٦] البحرين يلتقيان) :

أعينيَّ كُفَّا عن فؤادى فإنه ... من البَغْيِ سَعْيُ اثنين فى قَتْل واحدِ [٧]

قلت : فدار [٨] النُّحاس ؟ قال : أنْحَس حالها ، وأفسد ماعليها ومالها ، فدخل من حَمّامها الطُّهْر ، وقطع الطريق بالجامع الظُّهْرْ ، فألحق مجازَ بابه بالحقيقة ، ورَقِيَ منه على درجتين فى دقيقة .. قلت فجزيرة أَرْوَى ؟ قال : قد أفسد جُلَّ ثمارها ، وأتى على مغانيها [٩] فلم يَدَعْ شيئا من رَدِيِّها وخيارها ، أخلق ديباجة روضها الأُنُفِ [١٠] ، وترك قُلْقاسَها فى الجروف [١١] على شَفا جُرُف [١٢] :

بعينى رأيت الماء يوما وقد جَرَى ... على رأسه من شاهقٍ فتكسَّرا

طالما تضرَّع بأصابعه إلى ربِّه ، ولطم برءوسه الحيطان مما جَرَى من الماء على قلبه ، وتمَثَّل بقول الأول :

وإن سألوك عن قلبي وما قاسَى ... فقُلْ قاسى وُقلْ قاسى وقُلْ قاسى

لم يُفِده تحصُّنه من ورقه بالدَّرَق [١٣] والستائر ، ولاحَنَّ عليه حين تضرَّع بأصابعه فصحَّ أن

---

(١) أيسوا : يئسوا

(٢) مناص : ملجأ ومفرّ

(٣) الكمام : جمع كم بكسر الكاف : غلاف الزهرة قبل أن تتفتح

(٤) الحباب : الفقاقيع على وجه الكأس

(٥) جعل لون النيل مذهبا إشارة إلى ما كان يصحبه فى فيضانه من الطمى

(٦) مرج البحرين : أرسلها فى مجريهما متجاورين

(٧) يشير إلى أن البحرين يأخذان بخناق جزيرة الروضة حتى تكاد تلفظ أنفاسها

(٨) تسمى الآن دير النحاس وهى أمام النيل بمصر القديمة

(٩) مغانيها : منازلها .

(١٠) الأنف : الجديد

(١١) الجروف : شقوق المحراث ومجاريه

(١٢) شفاجرف : شفا : حرف : جرف : المكان يجرفه الماء

(١٣) الدرق : جمع درقة : الترس

الماء سلطان جائر » .

وهو وصف رائع لفيضان النيل وعلو أمواجه ، كأنما يريد أن يبلغ عنان السماء ، وحلَّقت الطير فى أعلى عليين فَرَقًا منه واعتصم الناس بالكثبان والجبال . ويصف ابن أبى حجلة زحفه على الفسطاط أو كما يسميها مصر وطغيانه على الجيزة حتى علا قناطرها وجرَّد القصب من بزَّته ، وطما عليه حتى غرق فى قاعه ، وقطع طريق الزاوية أو خانقاه الصوفية وأدركهم جميعا الغرق فى عُبابه ، وخرَّ عليهم السَّقْفُ من فوقهم ، ولاملجأ ولا مناص ، وأحاط بجزيرة الروضة إحاطة السوار بالمعصم ، ولم تستطع دفع أصابعه التى يقاس بها عادة طوفان فيضانه ، ولاردّ مَجْرييه أو كما يسميهما ابن أبى حجلة بحريه من حولها آخذين بخناقها ، كأنما يريدان أن تصبح خاوية على عروشها . ويصف دار النحاس وما أصابها وأصاب جامعها من مياهه المتدفقة ، ويصف ما أنزله بجزيرة أروى ومغانيها وكيف عمَّ مابها من الخضراوات مثل « القلقاس » وقد تكسر ، وهو يتضرع بأصابعه إلى ربه إذ أصبح عاليه سافله . وتنبت فوقه فروع ذات ورق عريض ، ويتصورها ابن أبى حجلة ستائر له ودرقا أو تروسا غير أنها لم تفده إزاء أمواج النيل وطوفانه .

ويمضى ابن أبى حَجلة فيصور ما أصاب بولاق وغير بولاق من النيل فى هذه اللغة العذبة التى عرف كيف يصب فيها وصفه للنيل وفيضانه . وهو يكسوها بألوان البديع من جناس وغير جناس ، ولانحس أى كلفة . وقدرته على بث التصاوير فى لغته واضحة ، وهى تصاوير رسمها مصور ماهر . ومن تتمة براعته الأدبية قدرته على اقتباس الأشعار فى موضعها الملائم ، وأهم من ذلك قدرته على اقتباس الآيات والكلم القرآنية ، فتزيد لغته عذوبة ونصاعة ، وهو تارة يأتى بالآيات تامة ، وتارة يأتى بكلم منها . ويكثر ذلك فى المقامة ، وقد وضعنا الآيات بين قوسين هلاليين تمييزًا لها . وقد تمثل فى القلقاس ببيت يحمل شطره الثانى جناسًا طريفًا مع اسمه . وفى المقامة روح الدعابة والفكاهة المصرية ، وكأنه تشربها فى استيطانه بمصر حتى الثمالة . والتورية عنده واضحة فى قوله عن النيل بدار النحاس : « قطع الطريق بالجامع الظهر فألحق مجاز بابه بالحقيقة » ولكلمة مجاز معنيان : معنى قريب وهو مايخالف الحقيقة بدليل اقترانها به ، ومعنى بعيد وهو المَعْبَرُ الى الجامع . وهو لايريد المعنى القريب للقلب أى قلب الإنسان مما قد يفهم مع ظاهر استعارته ، وإنما يريد ماحدث للقلقاس من القلب فأصبح أسفله أعلاه ، وهى تورية بديعة . ولعل فيما قدمت مايصور براعة ابن أبى حجلة الأدبية .

القلقشندى[(١)]

هو شهاب الدين أحمد بن على وُلد بقلقشندة بالقرب من قليوب سنة ٧٥٦ وإليها يُنْسَبُ ، وهو من أصل عربى صميم إذ ينتمى إلى عشائر فزارة التى استوطنت مصر عقب الفتح الإسلامى . ويبدو أنه نشأ فى القاهرة ، وأخذ فيها ينهل من حلقات علماء الشافعية وغيرهم فى زمنه ، وهو مع ذلك يعنى بالأدب والعلوم اللغوية . وفى نحو العشرين من عمره بارحها إلى الإسكندرية ونرى العالم الشافعى الكبير المعروف بابن الملقن يجيزه فيها سنة ٧٧٨ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى كما يجيزه برواية مؤلفاته فى الفقه والحديث وكل ما كان يرويه من الصِّحاح الستة ومسند الشافعى ومسند ابن حنبل . وسرعان ماتصدر للإفادة وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وأقبل عليه كثير من التلاميذ يأخذون عنه الفقه والأصول وعلوم العربية . وظل فى ذلك نحو ثلاثة عشر عاما ، ألف فى أثنائها شرحا فى الفقه الشافعى على كتاب جامع المختصرات ومختصرات الجوامع سمَّاه الغيوث الهوامع . كما ألف فى أنساب القبائل العربية كتابين هما : « نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب » و« قبائل الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان » . ونراه فى سنة ٧٩١ يترك مهنة التدريس للعمل بديوان الإنشاء ، وكان يرأسه بدر الدين بن علاء الدين بن يحيى بن فضل الله العمرى ، وهو آخر من وليه من هذا البيت كما مر فى ترجمة عمه ابن فضل الله العمرى . واعترافا بفضله أنشأ القلقشندى مقامة طويلة فى تقريظه صوَّر فيها صناعة الإنشاء وأصولها وعكف توًّا على تأليف كتابه « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » . وهو موسوعة ضخمة فى أربعة عشر مجلدا ظل يُعنى بتأليفها فى نحو ربع قرن من الزمان حتى سنة ٨١٤ وظل يراجعها ويزيد عليها حتى حين وفاته سنة ٨٢١ للهجرة .

ويبتدئ القلقشندى صبح الأعشى بمقدمة تتناول فضل الكتابة ومدلولها وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وصفات الكتّاب وآدابهم والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه ووظائفه ، ثم تتوالى عشر مقالات أو أقسام كبيرة ، والمقالة الأولى تتحدث عما يحتاج إليه كاتب

---

(١) انظر فى القلقشندى الضوء اللامع للسخاوى ٨/٢ وشذرات الذهب ١٤٩/٧ والمنهل الصافى لابن تغرى بردى ٣٣٠/١ ومقدمة الجزء الأول من صبح الأعشى وتاريخ الأدب الجغراف لكراتشكوفسكى ٤١٦/١ . وراجع فى مقامات القلقشندى ومفاخراته صبح الأعشى ١١٢/١٤ ، ٢٠٤ ، ٢٣١ . وصبح الأعشى مطبوع من قديم بدار الكتب المصرية فى ١٤ مجلدا .

الإنشاء من المعارف والأدوات المتعلقة بصناعته كالخط واللغة والنحو والبلاغة وغير ذلك من مختلف العلوم ، يشغل ذلك من الكتاب الجزء الأول بعد المقدمة والجزء الثانى وشطرًا غير قليل من الجزء الثالث . والمقالة الثانية تبدأ بالمسالك والممالك وبمعلومات تاريخية عن الخلافة الأموية والعباسية وبمعلومات جغرافية وتاريخية مهمة عن مصر من أول دخولها فى الإسلام إلى زمن القلقشندى ، ويترك مصر إلى الشام وجميع الدول التى كان لها أدنى صلة بمصر من أقصى الشرق إلى السودان وأقصى الغرب والبلدان الأوربية . ويمتد حديث القلقشندى فى ذلك إلى الشطر الأكبر من الجزء الخامس . والمقالة الثالثة فى أنواع المكاتبات وأسماء الكنى وألقاب أرباب السيوف والأقلام وأصحاب الوظائف من النصارى واليهود والخلفاء العباسيين والأمويين فى الأندلس والفاطميين والموحدين بالمغرب وألقاب الملوك الأقدمين فى اليمن وإيران ومصر والروم والحبشة وملوك فرغانة وأوروبا والحبشة مع التفصيل فى الألقاب الإسلامية . ويعود إلى الحديث عن الورق والكتابة ويشغل ذلك كله بقية الجزء الخامس والجزء السادس . ويتحدث القلقشندى فى المقالة الرابعة عن المكاتبات الصادرة عن ملوك مصر وغيرهم ومصطلحات الكتابة السلطانية والإخوانية ويمتد ذلك فى الكتاب إلى شطر من الجزء التاسع ، والمقالة الخامسة يوضح فيها القلقشندى الولايات ووظائف الدولة الكبرى ويقدم طائفة كبيرة من البيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتفاويض والتواقيع وخاصة مايتصل بزمن المماليك . وتحمل هذه المقالة كثيرا من الوثائق التاريخية والاجتماعية المهمة ، وهى تشغل بقية الجزء التاسع حتى نهاية الجزء الثانى عشر . والمقالة السادسة فى متنوعات من الوصايا الدينية والإطلاقات والمراسيم السلطانية والإقطاعات والأيمان وعقود الصلح والأمانات والهُدَن . وتشغل هذه الوثائق الجزء الثالث عشر من الكتاب وشطرا من الجزء الرابع عشر . وتَعْرض بقيةُ هذا الجزء طرائف من المقامات والرسائل والمفاخرات والإجازات والتقريظات والتقاليد ، وتلحق بالجزء خاتمة عن البريد وشئون المواصلات والاتصالات بين مصر وغيرها من البلدان الإسلامية .

ونعود إلى مقامته التى أشرنا إليها والتى وصف فيها صناعة الإنشاء وقرَّظ بها صاحب ديوانها بدر الدين العمرى وقد سماها : « الكواكب الدرِّية فى المناقب البدرية » وهى محكية أومروية على لسان الناثر بن نظام ويلقانا فى فواتحها قوله :

« لم أزل من قبل أن يبلغ بريدُ عمرى مركزَ التكليف ، ويتفرق جَمْعُ خاطرى بالكُلَف بعد التأليف ، أَنْصِبُ لاقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأنزِّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ..

أُونسُ من شوارد العقول وَحْشِيَّها ، وأُشرِّد عن روابض المنقول حُوشيَّها ، وألتقط ضالَّة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيِّد نادرة العلم حيث أصبتُها ، مقدِّما من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون ألطفها ، معتمدا من ذلك ماتألفه النَّفس ويقبله الطبع ، مقبلا منه على مايستجلى حُسْنَه النظر ويَسْتحلى ذكره السمع .. عارفا لكل عالم حقَّه ، وموَفِّيا لكل علم مستحَقَّه ، قد استغنيت بكتابى عن خِلِّى ورفيقى ، وآثرت بيت خَلْوتى على شَفيقى وشقيقى .. إلى أن أتيح لى منِ الفتح ما أفاضته النعمة وحصَلتُ من الغنيمة على ما اقتضته القِسْمة » .

وأكبر الظن أنْ قد اتضح لنا صوت القلقشندى ومايعمد إليه من حسن الجرس فى انتخاب ألفاظه وقوافى أسجاعه ، بحيث لانكاد نشعر بتكلف عنده ، والجناس يرصِّع كلامه على نحو مانرى فى التكليف والكلف ، وأشراك (حبالات) الصائد ، والإشراك ، وشوارد وأشرِّد ، والوحشى والحوشى ، ويستجلى ويستحلى ، وحقه ومستحقه ، ورفيقى وشفيقى وشقيقى ، وكل ذلك يمر على اللسان والسمع دون أى إحساس بنبو أو كلفة غير مستحبة ، وبالمثل يرصِّع كلامه بطباقات كثيرة من مثل التفرق والجمع والتوحيد والتعطيل وشوارد العقول وروابض المنقول . وفى أثناء ذلك يوشِّى كلامه بالتورية إذ يقول : « أنزِّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل » والتعطيل رفض التوحيد والشريعة ، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد ، وهو لا يريده ، وإنما يريد التعطل عن الاشتغال بالعلم والانصراف عنه . وبالمثل لا يريد بالإشراك الكفر الذى قد يفهم من اقترانه بالتعطيل إنما يريد الشركة أو المشاركة ، وأيضًا لايريد بالتوحيد توحيد الله لاقترانه بالتنزيه وإنما يريد الوحدة . والتعبير لذلك كله ملىء بتوريات متعاقبة . وبالمثل قوله فى نهاية كلامه : « الفتح » وقد تلاه بالغنيمة والقسمة موريا بذلك عن الفتوح العلمى لا كما يظن من السياق الفتح الحربى . وبالمثل كلمة القسمة فهو لايريد بها المعنى القريب الملائم للغنيمة وهو القسمة فى الحرب وإنما يريد بها المعنى البعيد وهو الحظ من قولهم قسمة ونصيب .

ولعل خصائص صوت القلقشندى ولغته قد اتضحت لنا تماما فهو كمعاصريه يستخدم السجع ويوشيه بمحسنات البديع وفى مقدمتها ، الجناس والطباق والتورية ، ونحس عنده بطواعية العبارات المسجوعة ومرانه على استخدام ألوان البديع دون أن نشعر بأى ثقل أو أى عبارة أو كلمة مستكرهة . وإذا مضينا فى قراءة المقامة وجدناه يذكر على لسان الناثربن نظام أنه لابد لكل إنسان من حرفة يكتسب بها معاشه وأن الكتابة هى خير الحرف ، وأفضل أنواعها الديوانية كتابة الإنشاء ، إذ لها الذروة المنيفة والرتبة الشريفة ، وأصحابها – كما يقول – أسُّ المُلْك وعماده ،

وأركان الملك وأطواده . ولسان المملكة الناطق ، وسهمها المفوَّق الراشق . ويحاور الناثر بن نظام فى كتابة الإنشاء والخراج أيهما أفضل ؟ ويجيبه أنَّى لكتَّاب الأموال التأثير فى فَلِّ الجيوش من غير قتال ، وفتح الحصون من غير نزال . وكأن القلم فى يد كاتب الإنشاء ينال من الأعادى مالا تناله السيوف والرماح . ويأخذ القلقشندى على لسان الناثر بن نظام فى بيان مايلزم كاتب الإنشاء من حفظ كتاب الله وأحاديث رسوله وجوامع كلمه والعلم بالأحكام السلطانية واستظهار أشعار العرب على مر الأزمنة وأمثالهم وأقوال فصحائهم وخطبهم ورسائلهم مع سعة الباع فى اللغة والنحو والتصريف وفى علوم المعانى والبيان والبديع ، ومع معرفة الخط وقوانينه وأصوله وقواعده ، ومع ماتتم به الصناعة من الوقوف على علم الكلام وأصول الفقه والأحكام الشرعية والمنطق والجدل وأحوال الفرق والنِّحَل وعلم العروض والقوافى والرياضيات والهندسة وعلم الطب والبيطرة وعلمى الأخلاق والسياسة وعلم تدبير المنزل والفراسة . وأيضا لابد من المعرفة بكل ماذكره القلقشندى بعد ذلك مفصلا فى صبحه من شئون الولايات وألوان المكاتبات والبيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتواقيع والمناشير والأيمان والهُدَن وطرق البلدان ومسالكها . ويتساءل القلقشندى عمن يضم هذه الرتبة الرئيسة والمنقبة الشريفة ؟ ويجيبه الناثر بن نظام إن ذلك قاصر على آل فضل الله العمرى ومنحصر فى سليلة البدر ، الذى تدور عليه ، فهو ابن بَجْدتها الذى ترجع فى علومها ورسومها وسائر أموزها إليه .

وللقلقشندى مقامة فى المفاضلة بين العلوم . وهى تنزع منزع المقامة الحصيبية للرشيد بن الزبير التى ألممنا بها فيما مر من حديثنا وفيها يعقد القلقشندى مفاخرة بين نحو سبعين علما ابتدأها بعلم اللغة واختتمها بفن التاريخ ذاكرًا فخر كل علم على ماسبقه ، محتجا عليه بفضائل موجودة فيه دون سابقه . استهلَّها ببيان منافع العلوم بعامة ، وذكر أنها اجتمعت يوما فتجادلت وتفاخرت ، وكل منها ينتصر لنفسه بالحجج والبراهين الدامغة . وقد تلا فخر علم اللغة بفخر علم الصرف ثم بفخر علم النحو عليه قائلا :

« هل أنت إلا بَضْعَة [1] منى ، تُسْنَدُ إلىّ وتُنْقَل عنى ، لم يزل علمك بابا من أبوابى ، وجملتك داخلة فى حسابى ، حتى ميَّزك المازنى فأفردك بالتصنيف ، وتلاه ابن جِنِّىّ فتبعه فى التأليف .. وأنت مع ذلك كله مطوىٌّ ضمن كتبى ، نِسْبَتُك متصلة بنسبتى ، وحَسَبُك لاحقٌ بحسبى . أنا مِلْحُ الكلام ، ومِسْكُ الختام ، لا يستغنى عنى متكلم ، ولايليق جهلى بعالم ولامتعلم ،

(١) بضعة : قطعة

بى تتبيَّن أحوال الألفاظ المركبة فى دلالتها على المقاصد ، ويرتفع اللَّبْسُ عن سامعها فيرجع من فهمها بالصلة والعائد » .

وهذه القطعة من مفاخرة علم النحو على علم الصرف فضلا عن تصويرها لبراعة القلقشندى البيانية ترينا جانبا من ثقافته بعلمى النحو والصرف ، وكانا مندمجين بعضهما ببعض فى كتاب سيبويه ، وظلا على ذلك بعده حتى أفرد أبوعثمان المازنى علم الصرف بالتأليف وتبعه فى ذلك ابن جنِّى . ومضى المؤلفون فى العلمين تارة يجمعون بينهما ، وتارة يفصلون ، مما جعل القلقشندى يصور ذلك مرارا على لسان علم النحو قائلاً إن علم الصرف باب من أبوابه يُنْقَلُ عنه ويُسْند إليه وأنه مطوىّ فى كتبه متصل بنسبه لاحق بحسبه . واستخدم فى آخر ما اقتبسناه من تلك المفاخرة مصطلحى الصلة والعائد المعروفين فى النحو وهما صلة الموصول وما تحمل من الضمير العائد فى عبارتها على الموصول ، معبرا بهما عن العطية ومايعود منها بالنفع . وللقلقشندى مفاخرة ثانية بين السيف والقلم ، ومن قول القلم فيها مفاخرا للسيف :

« مهلا أيها المساجل ، وعلى رِسْلِك أيها المغالب والمناضل ، لقد أسأت مقالا ، ونَمَّقت محالا .. وإنى – وإن صَغُر جِرْمى – فإنى لكبير الفِعال ، وإن نَحُفَ بدنى فإنى لشديد البأس عند النزال . وإن عَرِى جسمى فكم كسوت عاريا ، وإن جرى دمعى فكم أرويت ظاميا ، وإن ضاق ذرعى فإنى بسعة المجال مشهور ، وإن قَصُر باعى فكم أطلقت أسيرا وأنا فى سجن الدواة مأسور » . ويمضى القلقشندى بمثل هذه الصياغة الموشاة بالسجع ومحسنات البديع من تصوير وغير تصوير ، ودائما نشعر عنده بالطلاقة والسلاسة ونصاعة الكلم .

السيوطى [1]

هو جلال الدين عبدالرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد ، من سلالة شيخ صوفى أسيوطى هو همام الدين السيوطى ، وكان لأسرته وجاهة ورياسة فى أسيوط ، منهم مَنْ ولى الحكم فيها ،

---

(١) انظر فى السيوطى وترجمته حسن المحاضرة ٣٣٥/١ والضوء اللامع للسخاوى ج ٤ رقم ٢٠٣ والكواكب السائرة للغزى (نشر الجامعة الأمريكية ببيروت) ٢٢٦/١ وتاريخ ابن إياس فى مواضع متفرقة وذيل الطبقات الكبرى للشعرانى ص ٤ والبدر الطالع للشوكانى ٣٢٨/١ والنور السافر للعيدروسى ص ٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة الألمانية ١٤٣/٢) . وانظر فى مقاماته مجموعة خطية بعنوان مقامات السيوطى بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع وطبعت من مقاماته مجموعة بالآستانة . وانظر فى نشاط السيوطى النحوى تأليفا وآراء كتابنا المدارس النحوية ص ٣٦٢ .

ومنهم مَنْ ولى الحسبة ، ومنهم من كان تاجرا ثريا ، وأول من خدم العلم من أسرته أبوه ، وقد هاجر من بلدته إلى القاهرة ونبه شأنه بين فقهاء الشافعية وأفتى ودرَّس وناب فى الحكم بالقاهرة ، وفى سنة ٨٤٩ ولد له عبدالرحمن ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفى الأب ، ويبدو أنه ترك له ثروة أعانته على نشأة علمية طيبة ، وقد ترجم لنفسه فى كتابه : « حسن المحاضرة » ترجمة ضافية ، ذكر فيها طائفة من شيوخه فى مقدمتهم الشيخان : البُلْقينى والمناوى فى الفقه الشافعى وتقى الدين الشِّبلى فى الحديث والكافِيَجىّ فى التفسير والأصول والعربية وعلم المعانى وسيف الدين الحنفى فى الكشاف للزمخشرى وفى بعض المصنفات البلاغية للسكاكى والقزوينى . ويقول إنه شرع فى التصنيف سنة ٨٦٦ ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، كما يقول إنه أفتى فى سنة ٨٧١ وعُقد له مجلس لإملاء الحديث سنة ٨٧٢ . ويذكر أن زار بلادًا كثيرة : الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، كما يذكر أنه تبحَّر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع ، ويقول إنه يستثنى الفقه فأستاذه كان أعلم به منه . أما العلوم الستة الباقية فلم يكن أحد يجاريه فيها ، ودونها فى التعمق العلمى أصول الفقه والجدل والصرف ، ودونها هى الأخرى الإنشاء والترسل وعلم الميراث والقراءات ثم الطب . ويذكر أنَّ مشايخه فى الرواية سماعا وإجازة كثيرون إذ تبلغ عدَّتهم نحو مائة وخمسين .

ويمضى السيوطى فى ترجمته لنفسه ، فيذكر مؤلفاته فى العلوم والفنون المختلفة ، وقد بلغت أكثر من ثلاثمائة كتابٍ ورسالة ، منها فى الحديث النبوى نحو تسعين مصنفا وفى التفسير ومتعلقاته نحو عشرين وفى اللغة وعلوم العربية نحو خمسين وفى الأصول والبلاغة والتصوف نحو عشرين وفى الفقه نحو عشرين أيضا وفى التاريخ والأدب نحو خمسين . وعلى هذا النحو تلقانا لا مؤلفات بل سيول من المؤلفات فى كل علم وفن . ويحق يُعَدّ السيوطى أكثر علماء هذا العصر تأليفا وإحاطة بالعلوم العربية والشرعية الدينية . وله أكثر من كتاب طُبع فى العصر الحديث وطارت شهرته ، من ذلك فى الحديث النبوى كتابه « جمع الجوامع » وهو معجم واف للأحاديث النبوية ، ومن ذلك فى التفسير تفسير الجلالين ، ومرَّ حديث عنه فى الفصل الثانى ، وله لباب العقول فى أسباب النزول ، وأيضا الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، وهو مطبوع فى ستة مجلدات . وكتابه « الإتقان فى علوم القرآن » كتاب رائع . ومن مصنفاته فى التاريخ والتراجم تاريخ الخلفاء وهو مطبوع مرارا فى الغرب والشرق . وقد عرضنا لنشاطه فى هذا الجانب فى حديثنا بالفصل الثانى عن التاريخ والمؤرخين . وكان نشاطه اللغوى والنحوى خصبا إلى أبعد غاية ، وصورنا ذلك من بعض الوجوه

فى حديثنا عن اللغة واللغويين والنحاة والنحويين فى الفصل الثالث .

وهذا النشاط العلمى الواسع اقترن به نشاط أدبى ، فقد كان السيوطى شاعرا ، كما كان كاتبا ناثرا ، وعُنى عناية واسعة بفن المقامة على الطريقة المصرية التى وصفناها ، فالمقامة لاتدور على الصعلكة كما كانت عند الهمذانى والحريرى ، وإنما تدور على المنافرة والمفاخرة ، وأكثرَ من ذلك حتى لتبلغ مقاماته نحو الأربعين ، وربما كان أطرفها ما أداره منها حول مفاخرات الأزهار والفواكه والبقول والنقل والعطور ، وقد خص الأزهار بمقامته الوردية والفواكه بمقامته التفاحية والبقول الخضراء بمقامته الزمردية والنُّقْل بمقامته الفستقية والعطور بمقامته المسكية ، وخصَّ الأحجار الكريمة بمقامته الياقوتية . ونقف قليلا عند مقامته الوردية فعلى غرارها تلك المقامات جميعا ، وهى مفاخرة أو مناظرة بين الأزهار والرياحين ، استهلَّها الورد ببيان محاسنه وأنه ملك الرياحين منعش للأرواح ومتاع إلى حين ، وأنه ظاهر على أزهار البساتين منتصر منها بقوة الشوكة والصولة . وواضح ما فى كلمة الشوكة من تورية إذ لايريد البأس بشهادة كلمة الصولة ، وإنما يريد الشوكة الحقيقية للورد واحدة أشواكه ، ومايلبث الورد أن يُدلّ بفوائده الطبية ، ويرد عليه النرجس مفاخرا بمحاسنه محاولا أن يغض منه ، قائلا :

« لقد تجاوزت الحد ، ياورْد ، وزعمت أنك جمعٌ فى فَرْد ، إن اعتقدت أنه لك بحمرتك فخر ، فإنه منك فُجْر .. فاحفظ بالصمت حُرْمتك ، وإلا كسرت بقائم سيفى شَوْكتك . وإنى القائم لله فى الدياجى على ساق ، الساهر طول الليل فى عبادة ربى فلا تَطْرف أحداق .. وأنا فريد الزمان فى المحاسن والإحسان ، ولهذا قال فىَّ كسرى أنوشروان : النرجس ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر .. وأنا المشبَّه بى عيون الملاح ، والمقرون فى مهات الأدواء بالصلاح » .

وللسيوطى بجانب ذلك مقامات جعل محورها الذى تدور عليه مسائل علمية ، إذ يورد فيها أسئلة تحمل ألفاظا غريبة ملغزا بها ، ثم يذكر جوابها مفسرا لها . مزيلا عنها غرابتها ، محاكيا بذلك الحريرى فى مقامته الطيبيَّة نسبة إلى طيبة أى المدينة وقدضمَّنها مائة مسألة فقهية وأجوبتها كأن يقول فيها : « أيستباح ماء الضرير ؟ » ويجيب أبو زيد السروجى بطل المقامات الحريرية : نعم ويُجْتَنبُ ماء البصير » والضرير : حرف الوادى والبصير الكلب . ونرى السيوطى يستوحى هذه المقامة ، فيكتب على غرارها مقامته المكية ، ويستهلها على هذا النمط :

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : مازلت أقتحم المهامه [1] المخيفة ، وأدخل فى المسالك العنيفة

(١) المهامه : القفار والفلوات .

إلى أن نزلت بمكة الشريفة ، فحططتُ الرِّحال بعِتابها (١) ، وأرحت النفس من عنائها ، وظللت أجوب فى مشاهدها وأجول فى معاهدها .. وأتردد فى الغدو والرَّواح ، وأتزوَّد من تلك الآثار فى المساء والصباح ، وأتمنى أديبا يُسَلِّى بمسامرته الغُرْبة ، وأديبا يُنيل بمحاضرته الإِرْبة (٢) ، فبينا أنا ذات ليلة فى المطاف ، وقد تسمَّرتْ سحائب الألطاف ، إذا أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين ، وهم بين سلام وترحيب ، وبكاء ونحيب . وفى صدر الحلقة ، شاب نحيف الخلقة ، قد تدرع بثياب البهاء . قال هاشم بن القاسم : فتساميت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه ، لأستنور بباطنه على ظاهره ، وأستظهر من كامنه على باهره ، وأتخذه معاضدا ونصيرا ، ومحاضرا وسميرا ، فقلت : وَعَيْتُ مامنك رأيت ، وشِمْتُ (٣) ما عنك فهمت ، فائتِ على ما ادَّعيت ببرهان من الدلائل ، وأجب إلى ما أقترحه عليك من مسائل ، فقال : على الخبير سقطت ، ومن البحر لقطتَ ، فأوصحْ عن مسائلك ، وأفصح عن مقالك ، فقلت : ماتقول فيمن توضأ ولم يمسح أُمَّه ؟ فقال : لم يصحّ ياأمّة » .

والأم الأولى الرأس والوضوء بدون مسحها باطل ، وقد ألغز السيوطى بها ، كما هو واضح . وتوالت الأسئلة على هذا النحو مثل هل يجوز بيع الحر ؟ والجواب الجواز ، لان المراد بالحر الفرس الأصيل . ومثل هل تصح الصلاة على الفحل ؟ والجواب تصح لأن المراد بالفحل الحصير المتخذ من فَحْل النخل .

وللسيوطى مقامة ثانية سماها المقامة الأسيوطية بناها على ألغاز نحوية ، محاكاة لمقامة الحريرى المسماة بالمقامة القطعية وهى المقامة الرابعة والعشرون بين مقاماته . وللسيوطى مقامة فكهة سماها « رشفة الزلال من السحر الحلال كتبها على لسان عشرين عالما بينهم المقرئ والمفسر والأصولى والفقيه واللغوى والنحوى ، وجعل كلا منهم يصف ليلة زفافه على عروسه بلغة علمه ومصطلحاته . ومن مقاماته مقامة تسمى الجيزية جعل موضوعها لغزا شعريا . وكأنه كان يرى المقامة صالحة لأن تعرض أى موضوع حتى لنراه يتخذ نجاة أبوى الرسول ﷺ من النار موضوعا لإحدى مقاماته ، وقد سماها المقامة السندسية ، وهى مطبوعة ، ونجاة أبوى الرسول من النار لايشوبها أى شك . إذ هما الطاهران الطيبان الذكيان النيِّران . ولعل فيما قدمنا مايدل على الخصائص الأدبية لمقامات السيوطى وبدون ريب كانت ملكاته العلمية أخصب من ملكاته الأدبية .

---

(١) عتاب : جمع عتبة . (٢) الاربة : الأمنية . (٣) شام : نظر متطلعا أو مؤملا شيئا

الشهاب [١] الخفاجى

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجى المصرى ، ولد لفقيه شافعى بسرياقوس قرب القاهرة سنة ٩٧٧ ونشأ فى حجر أبيه يعلمه ، ثم اختلف إلى شيوخ الأزهر فى زمنه ، فأخذ النحو وعلوم العربية عن خاله أبى بكر الشعرانى والفقه الشافعى عن مفتى زمنه شمس الدين الرملى . ومضى ينهل من حلقات الشيوخ المختلفين الحديثَ والتفسير والأدب والمنطق وعلم الأصول ، ورحل مبكرًا مع أبيه إلى حج بيت الله وأخذ عن شيوخ الحرمين لأيامه . ولم يعد إلى مصر بعد الحج ، بل رحل إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية فأخذ عن شيوخها ، وفى طريقه إليها نهل من حلقات الشيوخ فى بيت المقدس ودمشق . وعُرف فضله فى القسطنطينية فعين قاضيا فى الروملى ثم فى سلانيك . وعينه السلطان مراد قاضيا للعسكر بمصر ، فظل بها مدة ، وزار القسطنطينية فلقيه مفتيها يحيى بن زكريا لقاء سيئا وأمر بعزله . وعاد إلى مصر وعين قاضيا فى القاهرة وأخذ يصنف ويحاضر طلابه وأتوه من كل بلد عربى ، ومن أهمهم عبدالقادر البغدادى صاحب الخزانه ، وظل على ذلك حتى وفاته سنة ١٠٦٩ للهجرة ، وكان ماحدث له فى لقاء المفتى سببا فى أن يكتب رسالة فى بيان فساد القضاء والحكم فى القسطنطينية وأتبعها بخمس مقامات يصور فيها تفاقم الأحوال بعاصمة الخلافة . وكان إلى ذلك عالما ومؤرخا كبيرا ، صنف حاشية على تفسير البيضاوى طبعت بمصر فى ثمانية مجلدات وحاشية على شفاء القاضى عياض طبعت فى أربع مجلدات وله شفاء الغليل بما فى كلام العرب من الدخيل وهو كتاب نفيس طُبع مرارا . وصنف فى تراجم الأدباء لزمنه فى جميع البلدان العربية كتابه « ريحانة الألبا » الذى نذكره كثيرا فى هوامش الفترة العثمانية ومثله خبايا الزوايا ولايزال مخطوطا . وكان شاعرا مجيدا ، وتحتفظ المكتبة التيمورية بديوانه مخطوطا ، وقد أنشد من شعره كثيرا فى الريحانه وبالمثل أنشد منه كثيرا المحبى فى ترجمته له ، وهى فى أكثر من مائة صفحة .

وقد دوَّن الشهاب الخفاجى مقاماته التى أشرنا إليها فى ترجمته التى عقدها لنفسه فى نهاية كتابه الريحانة وسمى أولاها المقامة الرومية وهو يستهلها بقوله : « أنبأنا النعمان بن ماء السماء عن شقيق وقد رحل من وادى العقيق فى الحجاز إلى القسطنطينية ، ويصفها بأن البحر قد مَدَّ لعناقها ساعديه

(١) انظر فى الشهاب الخفاجى ترجمته لنفسه فى نهاية ريحانة الألبا ٣٢٥/٢ وما بعدها ونفحة الريحانة ٣٩٥/٤ - ٤٧٧ وخلاصة الأثر ٣٣١/١ وسلافة العصر ص ٤٢٠

بينما تقبِّل الأمواج الأرض بين يديه ، ويصف من بها من الجوارى الحسان والفرسان الشجعان ، ثم يهاجم متصوفتها وعلماءها . ولايلبث أن يكوى المفتى دون ذكر اسمه بسياط من الهجاء المقذع من مثل قوله :

« لوقارنه السَّعْد الأكبر إلى أعلى عِلِّيين ، حملته بنات نَعْشٍ إلى أسفل سافلين ، أعمى البصيرة والبصر ، عارٌ على آدم أبى البشر ، إنما خلق اعتذارا لإبليس فى ترك السجود ، وأنَّى يقبل له عذر وهو كفور جحود .. وما أحسنه فى زوال النعم ، وأقبحه إذا قضى له الدهر بدولة وحكم » .

ويختم المقامة بمديح السلطان العثمانى حينذاك . ويذكر بعدها مقامة الغربة راويا لها عن الربيع ابن ريان عن شقيق بن النعمان ، وفيها يصور فساد الأمور فى القسطنطينية ، ويوجه إلى المفتى المذكور فيها قصيدة هجاء لاذعة . ويتلوها بالمقامة الساسانية ، وقد استعار اسمها من الحريرى فى مقامته التاسعة والأربعين ، وفيها صور الفقهاء والعلماء فى القسطنطينية كأنهم جميعا أهل كُدْية واستجداء يتقدمهم المفتى . ويقول قد فُقد العلم لولا بقايا شرح الله بهم صدر الدين . ويدعو للدولة العثمانية بالازدهار . ويعارض بالمقامة الرابعة رسالة لرشيد الدين الوطواط المترجم له فى قسم إيران كتبها فيمن كان يزاحمه فى أداته ودواته وعمله فى ديوان الدولة الخوارزمية وفيها يزرى بصاحبه ويحط منه حطا شديدا . ونسج الشهاب الخفاجى على منواله فى صنع هذه المقامة قاصدا بها المفتى خصيمه مسميا له باسم الوزير ، وفيها يضع منه ويهجوه هجاء مرا ، ويصور قصته معه وأنه سمع قول الوشاة ونفاه ويمثِّل به تمثيلا شديدا . والمقامة الخامسة سماها المقامة المغربية ، اقترض اسمها من لدن الحريرى وتسميته لمقامته السادسة عشرة بالمقامة المغربية ، والشهاب الخفاجى يكثر فى مقامته تلك من بعض الأمثال والأعلام والمقتطفات من الأشعار وبعض أقوال الحكماء والألفاظ الغريبة ، ولذلك أتبعها بشرح لما استظهره فى المقامة من ذلك كله .

٤

المواعظ والابتهالات

فَرضَ الإسلام الوعظ فى خطب صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وفى خطب صلاة العيدين ، وكان يتولاهما أئمة المساجد ، وأحيانا خلفاء الأمة ، واشتهر كثير من الوعاظ نسمع عنهم فى كل بلدة ، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجاميع من خطبهم إلا ما كان من خطب ابن نباتة خطيب

سيف الدولة الحمدانى . وطبيعى أن يشتهر بمصر غير واعظ ، ويلقانا فى مفتتح هذا العصر أبو الحسن [١] على بن محمد البغدادى المتوفى سنة ٣٣٨ وقد استوطن الفسطاط ، وكان له بها مجلس وعظ عظيم . ويستولى المعز لدين الله الفاطمى على مصر ، ويؤسس بها الدولة الفاطمية التى ظلت نحو مائتى عام ، وكان خطيبا مفوها ، وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر ، ولم تحتفظ كتب التاريخ بشىء من خطبه ومواعظه فى القاهرة ، وقد احتفظت بخطبة [٢] خطبها عقب وفاة أبيه المنصور فى بلدة المنصورة بالقرب من القيروان ، بدأها بأسجاع فى بيان عظمة الله وتحميده وتمجيده . وكان ابنه العزيز يخطب مثله فى الجامع الأزهر حتى إذا بنى الحاكم جامعه أخذ هو ومن جاءوا بعده يخطبون فيه [٣] . ويبدو أن الخطب والمواعظ كانت تُعَدُّ لهم – ولمن ينيبونه عنهم من الوزراء – فى ديوان الإنشاء . ويذكر الرواه لابن أبى الشخباء كاتب الدواوين فى زمن المستنصر مجموعة من المواعظ لعلها كانت خطبا أعدَّها للخليفة ووزيره بدر الجمالى ، وقد اشتهرت فى أيامه ببلاغتها ، إذ كان – كما مر بنا فى ترجمته – كاتبا بارعا ، ونقتطف قطعة من إحدى خطبه ، إذ يقول [٤] :

« أيها الناس فكّوا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة ، وخففوا ظهوركم من الآصار المستحقبة [٥] ، ولاتُسيموا [٦] أطماعكم فى رياض الأمانى المتشعِّبة ، ولا تُميلوا صَغْوَكم [٧] إلى زبارج [٨] الدنيا المحبَّبة .. أين الجبابرة الماضية المتغلِّبة ، والملوك المعظَّمة المُرَجَّبة [٩] أولو الحَفَدة [١٠] والحجبة ، والزخارف المعجبة ، والجيوش الجرَّارة اللَّجبة [١١] .. طرقت – والله – خيامَهم غِيَرٌ منتهبة ، وأصبحت أظفار المنية من مهجهم قانية [١٢] مختضبة ، وأكلت لحومهم هوامُّ الأرض السَّغِبة [١٣] ، ثم إنهم مجموعون ليوم لايُقْبَلُ فيه عُذْرٌ ولامَعْتبة ، وتجازَى كل نفسٍ

---

(١) انظر فيه حسن المحاضرة للسيوطى ٥٥١/١ والعبر ٢٤٧/٢

(٢) انظر سيرة الأستاذ جوذر (طبع دار الفكر العربى) ص ٧٦

(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/٤

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (طبع القاهرة سنة ١٩٢٩) ٥٤٥/١٠

(٥) الآصار : الذنوب . المستحقبة : المرتكبة

(٦) أسام الدابة فى المرعى : خلاها ترعى فيه كما تشاء والاستعارة واضحة

(٧) الصغو : الشق والجانب

(٨) زبارج : جمع زبرج : الحلية والزينة

(٩) المرجبة : الموقرة المعظمة

(١٠) الحفدة : الأعوان .

(١١) الجرارة : الكثيفة . اللجبة : ذات الجلبة والضوضاء

(١٢) قانية : حمراء . مختضبة : مصبوغة بالخضاب الأحمر

(١٣) السغبة : الجائعة

بما كانت مكتسبة ، فإما سعيدة مقرَّبة ، تجرى من تحتها الأنهار مثوَّبة [١] ، وإما شقيَّة معذَّبة ، فى النار مُكَبْكَبة [٢] » .

وقد التزم ابن أبى الشخباء فى موعظته الباء والهاء فى روى أسجاعه ، ليعطى للصوت فى أول السجعة وما وراءه من الكلمات والمقاطع الفرصة كى يعلو ، ثم ينخفض فجأة آخر السجعة ، وكأنما لم تعد فيه بقية من شدة التأثر . وخصائص ابن أبى الشخباء الفنية التى عرضنا لها فى حديثنا عنه واضحة أتم وضوح فى هذه القطعة من الخطبة ، فهو يعنى بالتصاوير عناية شديدة ، إذ يطلب إلى الناس أن يفكوا أنفسهم من سلاسل الآمال المرهقة ويحطوا عن ظهورهم ذنوبهم المقترفة ، ويصرفوا أطماعهم عن رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تغرنهم زينة الحياة الدنيا . ويدعو الناس إلى العظة بالأمم الخالية والملوك السالفة وما كانوا فيه من ترف ونعيم . كل ذلك زال إلى غير مآب ، وذاقوا كئوس الموت دِهاقا ، وأكلت هوامّ الأرض وحشراتها لحومهم . ويرفع أمام أعين الناس يوم القيامة ، يوم الجزاء الأكبر ، فإما إلى النعيم وإما إلى الجحيم .

ونمضى إلى زمن الأيوبيين ، فيلقانا إبراهيم بن منصور المتوفى سنة ٥٩٦ إمام جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وخطيبه ، وولى الخطابة بعده ابنه محمد يقول السبكى : « وله ديوان خطب مشهور [٣] » . وطبيعى أن الخطابة لزمن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام وبذل المهج والأرواح فى سبيل نصرة دينه الحنيف . ولم تكن خطب الجهاد تُلْقىَ فى أيام الجمع فحسب . بل كانت تلقى كلما أريد تجميع الشعب لحمل السيف والسلاح . ويروى المقريزى [٤] أنه حينما علم الفرنج بموت الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ تقدموا من دمياط تجاه المنصورة « فورد كتاب إلى القاهرة من العسكر أوله : (انْفِرُوا خفافًا وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) وكان فى الكتاب مواعظ بليغة فى الحث على الجهاد ، فقرئ على منبر جامع القاهرة ، وقد جُمع الناس لسماعه ، فارتجتَّ القاهرة والفسطاط وضواحيهما وخرج الناس للقاء الصليبيين من المدينتين الكبيرتين ومن سائر الأعمال ، فاجتمع عالم عظيم سحق الصليبيين سحقا ذريعا كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

---

(١) مثوبة : مكافأة

(٢) مكبكبة : مجمَّعة .

(٣) انظر ترجمة أبيه عند السبكى ٣٧/٧

(٤) الخطط ٤١٣/١

ونلتقى فى زمن المماليك بابن المنير [1] الإسكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ المتولى قضاء الإسكندرية وخطابتها مرتين ، ويقول صاحب فوات الوفيات : « له ديوان خطب » . وكان يعاصره أخطب الخطباء قاطبة أيام المماليك ابن دقيق [2] العيد المتوفى سنة ٧٠٢ علم الأعلام وشيخ الإسلام وقاضى القضاة فى جميع ديار مصر منذ سنة ٦٩٥ إلى وفاته . ويشيد مترجموه بورعه وتقواه ، ويقول السبكى : « له ديوان خطب مفرد معروف » . وكان شاعرًا ، ويطيل مترجموه فى ذكر أشعاره ، ولايعرضون شيئا من خطبه ومواعظه إلا موعظة ذكر السيوطى أنه كتب بها إلى قاضى إخميم بالصعيد ، وفيها يقول [3] :

« نحمد الله الذى (يعلم خائنةَ الأعين وما تُخْفِى الصدور) ، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور ، ونذكِّره بأيام الله (وإن يوما عند ربِّك كألف سنة مما تعُدون) ونحذره صفقة مَنْ باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار . وتأخذ هذه النصائح بحُجْزَته عن النار ، والمقتضى لإصدارها ما لحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم مما يجب للرب على المربوب ، .. ووالله إن الأمر عظيم ، والخطب جسيم ، ولا أرى .. إلا رجلا نبذ الآخرة وراه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصرهمَّه وهمته على حظِّ نفسه ودنياه ، فغاية مطلبه حب الجاه .. فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله غير مرحوم .. واجعل أكثر همومك الاستعداد ليوم المعاد ، والتأهب لجواب الملك الجواد فإنه يقول : (فوَربِّك لنسألنَّهم أجمعين عما كانوا يعملون) .

ولعل فى هذه القطعة مايصور وعظ ابن دقيق العيد فى خطبه وأنه كان يتدفق فيه كالنيل العذب . مما جعل معاصريه يشيدون طويلا برقائق وعظه وكلمه التى كان يخلب بها وبما يضمنها من آى الذكر الحكيم عقول مستمعيه ، فيملأ نفوسهم بالإنابة إلى الله . وكان دائما يرفع أمام أعينهم أهوال يوم المحشر يوم تجزى كل نفس بما كسبت وعملت وقدمت ، فاذا هم يرتجفون ويبكون بدموع غزار ، وقد خشعت قلوبهم وذابت نفوسهم وهلعوا إلى دعاء الله يستغفرونه ويتوبون إليه توبة نصوحًا .

(١) انظر فى ابن المنير فوات الوفيات ١٣٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٦١/٧ وحسن المحاضرة ٣١٦/١ وشذرات الذهب ٣٨١/٥

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن دقيق العيد ص ١٤٦ .

(٣) حسن المحاضرة ١٦٨/٢

ومايزال السيوطى فى حسن المحاضرة يسوق إلينا أسماء كبار الوعاظ وخاصة بين الصوفية ، ومرَّ بنا فى الفصل الأول حديث مفصل عن التصوف بمصر وكيف أخذ يزدهر بها منذ عنيت به الدولة فى عهد صلاح الدين ، وإنشائه لخانقاه سعيد السعداء . واتسع بناء الخانقاهات بعده فى أيام المماليك ، وكانت دورا كبيرة للنسك ودراسة العلوم الدينية على نحو ما يذكرون عن خانقاه سرياقوس التى أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، ومرَّ حديث مفصل عنها وعن غيرها من الخانقاهات المملوكية . وبنوا بجانبها للصوفية اثنى عشر رباطا . كل ذلك عمل على ازدهار التصوف بمصر منذ القرن السادس الهجرى . وكان كثير من الصوفية يتبعون الطريقتين العراقيتين : القادرية الجيلانية والرفاعية .

ولم تشع طريقة فى العالم الإسلامى إلا كان لها فروع وأتباع فى مصر ، وأخذت تؤسَّس بها طرق مشهورة فى مقدمتها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى مؤسسها أبى الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ وسنخصه بترجمة قصيرة . وتلتها سريعا الطريقة البرهامية نسبة إلى إبراهيم [١] الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٢ بدسوق بالقرب من رشيد ، وهو من ذرية على بن أبى طالب ، والطريقة الأحمدية نسبة إلى أحمد [٢] البدوى المتوفى سنة ٦٧٥ بطنطا وهو أيضا سليل على بن أبى طالب . وكان لكل طريقة ورد خاص تردده ، كله ابتهالات إلى الله ومناجيات وأدعية ، وكثرت على ألسنة المتصوفة هذه الأدعية والمناجيات والابتهالات والأوراد ، وسنعرض لهذا الجانب عند أبى الحسن الشاذلى فى ترجمته . ونسوق قطعة من ورد أو حزب إبراهيم الدسوقى ، يقول مناجيا ربه :

« بأسمائك يارب العالمين . بالسموات القائمات ، فهن بالقدرة واقفات ، بالسَّبع المتطابقات ، بالحجب المترادفات ، بمواقف الأملاك (الملائكة) فى مجارى الأفلاك . بالكرسى البسيط ، بالعرش المحيط .. اللهم احرسنى من كيد الفاسق ، ومن سطوة المارق ، ومن لَدْغة المنافق » .

وكان يعاصر الدسوقى والبدوى أبو العباس [٣] المرسى المتوفى سنة ٦٨٦ تلميذ أبى الحسن

---

(١) انظر الدسوقى فى الطبقات الكبرى للشعرانى (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ١٨٣/١ وخطط على مبارك ٧/١١

(٢) راجع ترجمة البدوى فى الشعرانى ٢٠٢/١ والنجوم الزاهرة ٢٥٣/٧ وحسن المحاضرة ٥٢١/١ وشذرات الذهب ٣٤٦/٥

(٣) انظر فى ترجمة أبى العباس كتاب لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن وراجع الشعرانى ١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧١/٧ وحسن المحاضرة ٥٢٣/١ والوافى ٢٦٤/٧ وشذرات الذهب ٢٧٣/٥ .

الشاذلى ، وهو أندلسى من مرسية ، ولد بها سنة ٦١٦ للهجرة ، وفى الرابعة والعشرين من سِنِّه خرج إلى الحج ، وفى طريقه توقف بتونس ، وفيها تعرف على الصوفى الكبير أبى الحسن الشاذلى ، وأصبح أقرب أتباعه ومريديه إليه ، حتى إذا رحل إلى الاسكندرية سنة ٦٤٢ رحل معه . وكان لايبرح مجلسه ، وزوَّجه ابنته ، وأعلن إلى أتباعه فى جامع العطارين بالإسكندرية أنه خليفته ، وكان يتقن العلوم الشرعية ، ويدرِّسها هى وبعض كتب الصوفية ، وأقبل على دروسه الطلاب . واستأذن شيخه فى السفر إلى القاهرة للتدريس بمساجدها ونشر طريقته بها ، فأذن له ، وكان يلقى دروسه فى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص وجامع المقس ويسمى الآن جامع أولاد عنان بالقرب من محطة باب الحديد . وكانت حلقته فى الجامعين تزدحم بالطلاب والعلماء . وتوفى أستاذه سنة ٦٥٦ فخلفه على الطريقة ، وكان أكثر مقامه بالإسكندرية ، ومن حين إلى حين ينزل القاهرة ، ناشرا هنا وهناك الطريقة الشاذلية ، ولتلميذه ابن عطاء الله كتاب قصره عليه وعلى أستاذه الشاذلى سماه « لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن » ويعد جامعه اليوم أكبر جوامع الإسكندرية ، ويورد ابن عطاء الله كثيرا من أقواله ، كما يورد له وردا أو حزبًا نقتطف من ابتهالاته وأدعيته قوله[1] :

« اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا منك ، والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك .. اللهم ياجامع الناس ليوم لاريب فيه اجمعْ بيننا وبين الصدق والنية والإخلاص والخشوع والهيبة والحياء والمراقبة ونور اليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم فى القرآن وخُصَّنا منك بالمحبة .. وآتنا العلم اللدنىَّ والعمل الصالح والرزق الهنىّ على بساط علم التوحيد والشرع .. وسخِّرْ لى الرزق واعصمنى من تعلق الهمة به ومن الذل للخلق بسببه .. وهَبْ لى لسانا لايفترعن ذكرك وقلبا يسمع بالحق منك .. وبَغِّضْ لنا الدنيا وحَبِّب لنا الآخرة .. اللهم لاتعذبنا بإراداتنا وحب شهواتنا فنشتغل أو نُحجب أو نفرح بوجود مرادنا أو نحزن أو نسخط .. وأنت أعلم بقلوبنا فارحمنا بالنعيم الأكبر والمزيد الأفضل والنور الأكمل » .

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله على هامش كتاب لطائف المنن والأخلاق للشعرانى (طبع المطبعة الميمنية بمصر) ٣٧/٢

والورد طويل ويتخلله كثير من الآيات القرآنية ، وهو مناجاة روحية صافية للذات العلية . ويتضح فيه كيف تجمع الطريقة الشاذلية بين علم الشريعة وعلم الحقيقة الصوفية ، ولعل ذلك ماجعلها تشدِّد على أتباعها فى أن لايلبسوا المرقَّعات وأن لايسألوا الناس شيئا مما فى أيديهم من مال أو غذاء مع الاعتماد على النفس فى كسب القوت عن طريق التجارة والزراعة وغيرهما . وبذلك وصلت بين أتباعها والحياة والشريعة ، وسنخص ابن عطاء الله تلميذ أبى العباس المرسى بترجمة قصيرة . ومن متصوفة مصر المعاصرين لأبى العباس عبدالعزيز[1] الدَّميرىُّ الدِّيرِينىُّ ، ولد بقرية دَميرة بالقرب من دمياط سنة ٦١٢ وتوفى بديرين فى الصعيد سنة ٦٩٤ وكان يتجول فى ريف مصر شمالا وجنوبا ، وكان فقيها شافعيا ، ونظم كتاب التنبيه لأبى إسحاق الشيرازى ، ونظم سيرة نبويَّة ، وكان له تفسير فى مجلدين . وكان متقشِّفا مخشوشنا ، وله فى التصوف كتاب « طهارة القلوب فى ذكر علام الغيوب » وهو يمتلئ بمناجيات إلهية بديعة من مثل قوله :

« إلٰهى ، عرَّفتنا بربوبيَّتك ، وغرَّقتنا فى بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قُدْسك ، ونعَّمتنا بذكرك وأنسك .

إلٰهى ، إن ظلمة ظُلْمِنا لأنفسنا قد عمَّت ، وبحارَ الغفلة على قلوبنا قد طمَّت ، فالعجز شامل ، والحصَرُ[2] حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم .

إلٰهى ، ماعصيناك جهلا بعقابك ، ولاتعرُّضا لعذابك ، ولكن سَوَّلتْ[3] لنا نفوسنا ، وأعانتْنا بِشِقْوتُنا ، وغرَّنا سَتْرك علينا ، وأطمعنا فى عفوك بِرُّك بنا ، فالآن من عذابك من يَسْتَنقذُنا ؟ وبِحَبْل مَنْ نَعْتصم إن قطعتَ حَبْلك عنا ؟ واخَجْلَتنا من الوقوف غدًا بين يديك ، وافضيحتنا إذا عُرِضَتْ أعمالنا القبيحةُ عليك .

اللهم اغفِرْ ما علمتَ ، ولاتهتك ماسترت .

إلٰهى ، إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا ربًّا يغفر الذنوب ولايُبالى » .

وهى مناجاة لله بديعة صافية كل الصفاء نقية كل النقاء ، مناجاة تنبئ عن قصور العبد وتعلقه

---

(١) انظره فى طبقات الشافعية للسبكى ١٩٩/٨ وحسن المحاضرة ٤٢١/١ والشعرانى ٢٢٤/١ ومناجاته المذكورة فى السبكى

(٢) الحصر : العى .

(٣) سوَّلت : أغرت . وتقال فى الشرور والسوء .

بربه وطمعه فى غفرانه وعفوه إذ يرى كل صلاته ونسكه وعبادته وكل ما قدم يقصر عن حق إلهه .
ويروى السبكى مناجاة لصوفى شاذلى من صوفية القرن الثامن هو شمس [١] الدين بن اللبان محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٩ وقد أخذ الطريقة الشاذلية عن ختنه (والد زوجته) ياقوت العَرْشى تلميذ أبى العباس المرسى ، ويقول السبكى إنه نقل مناجاته عن كتابه « المتشابه فى الربانيات » وهى تطرد على هذا النمط .

« الٰهى ! جَلَّتْ عظمتُك أن يَعْصيك عاصٍ ، أو ينساك ناسٍ ، ولكن أوحيتَ روح أوامرك فى أسرار الكائنات ، فذكرك الناسى بنسيانه ، وأطاعك العاصى بعصيانه ، وإنْ من شىء إلا يسبِّح بحمدك ، إن عَصَى داعى إيمانه فقد أطاع داعىَ سلطانك ، ولكن قامتْ عليه حُجَّتك ، ولله الحجَّة البالغة : (لايُسْأل عما يَفْعَل وهم يُسْأَلون) .

ويبدو أن كتاب المتشابه فى الربانيات كان شطحات كثيرة على نحو مانرى الآن من قوله : إن العاصى يطيع الله بعصيانه وإنه إن عصى داعى إيمانه فقد أطاع داعى سلطانه ، فكيف يُعَد العاصى لله مطيعا له ؟ وإذن لايكون فى الدنيا عاص ومطيع . ولذلك يقول السبكى إن هذه المناجاة مما أُخذ عليه . ويقول ابن حجر : ضُبطت عليه كلمات على طريق الاتحادية القائلين بالحلول ، كما يقول إن له كتابا على لسان الصوفية ، فيه من إشارات الصوفية القائلين بالوحدة ، وهو فى غاية الحلاوة لفظا وفى المعنى سم قاتل .

وكان يعاصره يوسف [٢] بن عبدالله العجمى الكردىّ المصرى الدار المتوفى سنة ٧٦٨ وقد دفن بزاويته بقرافة مصر . ويقول ابن حجر : « له زوايا فى عدة بلاد ». ويصفه ابن تغرى بردى بقوله : « الإمام العالم المسلِّك الصوفى العارف بالله تعالى المعتقد .. وقبره يقصد للزيارة ، كان شيخا حقيقةً ومُقْتَدًى طريقة ، كان إمام المسلِّكين (آخذى العهود على المريدين) فى عصره وله رسالة فى التصوف سماها « ريحان القلوب والتوصل إلى المحبوب » . ومن هذه الرسالة مخطوطتان بدار الكتب المصرية وقد ذكر فيها شرائط التوبة ولبس الخرقة أو المرقعة الصوفية وتلقين الذكر .. ويقول ابن تغرى بردى : انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء ، وكان

---

(١) انظر ابن اللبان فى الدرر الكامنة ٤٢٠/٣ والسبكى ٩٤/٩ وحسن المحاضرة ٤٢٨/١ والوافى بالوفيات للصفدى ١٦٨/٢ ومرآة الجنان ٣٣٣/٤ وشذرات الذهب ١٦٣/٦

(٢) انظر فى يوسف العجمى النجوم الزاهرة ٩٤/١١ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٨/٥ والشعرانى ٧١/٢ وحسن المحاضرة ٤٢٦/١

على قدم هائل ، كان غالب علماء عصره يقتدون به ، وكان له أوراد وأذكار هائلة » وهذه الأذكار والأوراد سقطت من يد الزمن . وهو وأوراده رمز لمن جاء بعده من المتصوفة فى أيام المماليك وما كان لهم من أوراد وأحزاب سقطت من يد الزمن .

ونمضى إلى أيام العثمانيين ونلتقى فى مطلعها بأبى السعود [١] الجارحى المتصوف المتوفى سنة ٩٣٠ ويشيد به الشعرانى ، وأهم منه الشعرانى [٢] نفسه المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألممنا به فى حديثنا عن الزهد والتصوف فى الفصل الأول ، وفى كتابه « لطائف المنن والأخلاق » بيان بالمؤلفات التى قرأها وبأساتذته ومراحل حياته الصوفية والأخلاق التى التزمها فى حياته . ومع أنه صوفى سنى نراه يدافع عن أستاذه الروحى : ابن عربى ، محاولا تأويل عباراته على نحو مايصور ذلك فى كتابه « الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر » . وتظل الطرق التى عرضنا لها فى غير هذا الموضع ناشطة بمصر . ويعلو شأن الطريقة الخلوتية المنسوبة الى الشيخ محمد الخلوتى منذ نزل القاهرة الشيخ مصطفى [٣] بن كمال الدين البكرى الناشئ ببيت المقدس ، وقد طوّف فى بلدان الشام والعراق وتركيا وحج مرارا وسكن بأخرة القاهرةَ وتوفى بها سنة ١١٦٢ ويعرِّف به الجبرتى قائلا : شيخ الطريقة والحقيقة ، قدوة السالكين ، ومربى المريدين الإمام المسلِّك ، تآليفه تقارب المائتين ، وأوراده أكثر من ستين وردا . وأجلها ورد السحر ، ونقتطف من مناجياته لربه فيه وابتهالاته قوله [٤] :

« إلهى ، أنت المدعوُّ بكل لسان ، والمقصود فى كل آن .

إلهى ، أنت قلت : (ادْعونى أستجبْ لكم) فها نحن متجهون إليك بكليتنا فلا تردَّنا ، واستجبْ لنا كما وعدتنا .

إلهى ، اين المفر منك وأنت المحيط بالأكوان ؟ وكيف البراح عنك وأنت الذى قيَّدتَنا بلطائف الإحسان .

---

(١) راجع فيه الطبقات الكبرى للشعرانى ١٤٣/٢

(٢) انظر فى ترجمة الشعرانى كتابه « لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، والكواكب السائرة ٢٥٩/٢ وطبقات المناوى الكبرى ٤٩٥/٢ والخطط التوفيقية ١٠٩/١٤ وكتاب الشعرانى والتصوف الإسلامى لطه عبدالباق سرور ، والشعرانى إمام التصوف فى عصره لتوفيق الطويل .

(٣) انظر فى ترجمة مصطفى البكرى الصديقى الخلوتى تاريخ الجبرتى ١٦٥/١ وسلك الدرر ١٩٠/٤ ودائرة المعارف الإسلامية فى البكرى .

(٤) انظر فى ورد السحر للبكرى مجموع الأوراد الكبير (طبع مكتبة النصر) ص٧٨ – ١١٨

إلهى ، بحق جمالك الذى فَتَنتَ به أكبادَ المحبين ، وبجلالك الذى تحيرت فى عظمته ألبابُ العارفين .

إلهى ، بالنور المحمدى الذى رفعت على كل رفيع مقامه ، وضربتَ فوق خزانة أسرار ألوهيَّتك أعلامه ، افتَحْ لنا فتحا صَمَدانيًا وعلمًا ربانيًّا ، وتجلِّيا رحمانيا ، وفَيْضًا إحسانيا » .

وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الخلوتية جمع من العلماء المصريين الأعلام فى مقدمتهم الشيخ الحفنى شيخ الجامع الأزهر وهو ملتقى أسانيد الطريقة بعده ، وممن أخذها عنه الشيخ أحمد الدردير . وسنخصه بترجمة قصيرة بعد أبى الحسن الشاذلى وابن عطاء الله السكندرى .

أبو الحسن (١) الشاذلى

هو على بن عبدالله بن عبدالجبار ، من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، ولد سنة ٥٩٣ للهجرة بقرية تسمى غمارة بالقرب من سبْتة فى المغرب الأقصى ، وعلى عادة لداته فى النشأة بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وأكبَّ على العلوم الاسلامية واللغوية حتى أتقنها . ولم يكد يبلغ نحو العشرين من عمره حتى أحسَّ برغبة شديدة للنهل من معين الصوفية ، فرحل إلى المشرق ليلقى العلماء النساك ، ونزل تونس ، ولقى فيها وفى المدن المغربية قبلها حَمَلة طريقة الصوفى المغربى أبى مدين . ولم يلبث أن عزم على أداء فريضة الحج فزار مصر ودخل الحجاز ، ثم زار فلسطين والشام والعراق ، وتعرف فى بغداد على صوفى رفاعى هو أبو الفتح الواسطى ، وكأنما كان باب سلوكه الصوفى . وعاد إلى المغرب ، فكان من محاسن الصدف أن تعرف فى فاس على صوفى هو عبدالسلام بن مشيش ، فلزمه ، واتخذه إماما وشيخًا ، وقد دفعه دفعًا إلى أن يعيش للتصوف ومحبة الله ، إذكان يكرر عليه قوله : « أَدْمِن على الشرب والمحبة وكأسها مع السكر والصحو ، كلما أفقت أو تيقظت شربت ، حتى يكون سكرك به ، وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشرب والشراب والكأس ، بمايبدو لك من نور جماله ، وقدس كما له وجلاله » . ولم يلبث شيخه أن أمره

(١) راجع ترجمة الشاذلى فى كتاب « لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن » وحسن المحاضرة ٥٢٠/١ ونكت الهميان ص ٣١٣ والشعرانى فى الطبقات ٤/٢ والنجوم الزاهرة ٦٩/٧ وراجع المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية لابن عباد وهو مطبوع ، وأبو الحسن الشاذلى للدكتور عبد الحليم محمود ، وأعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى للدكتور جمال الدين الشيال ص ١٦١ والأدب فى التراث الصوفى للدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى ص ١٥٠ .

بالهجرة إلى شاذلة بالقرب من تونس فى إفريقية الوسطى ، فهاجر إليها ، وهناك أخذ ينشر فى الناس الدعوة إلى التصوف ، ولصقت البلدة باسمه حتى اشتهر باسم الشاذلى وكان يتركها أحيانا إلى تونس وفيها تعرَّف بتلميذه أبى العباس المرسى وتوثقت الصلة بينهما فى الله ومحبته حتى قال له الشاذلى يوما : « ماصحبتك إلا لتكون أنت أنا »

وهاجر الشاذلى وتلميذه أبوالعباس وجمع من مريديه إلى الاسكندرية فى سنة ٦٤٢ وبها ألقى عصا تسياره ، وذاع صيته لا فى الإسكندرية وحدها ، بل أيضا فى القاهرة ، إذ كان يتردد عليها لنشر طريقته الصوفية ، وكان يحضر مجالسه فى مدرسة الحديث الكاملية شيوخ الإسلام حينئذ وأكابر العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين .. وكان يلقى دروسه ومواعظه فى الاسكندرية بجامع العطارين . وطار صيته فيها وفى القاهرة والمدن المصرية ، فانهال المصريون عليه ، يطلبون القرب من الله على يديه ، وفى هذه الأثناء أصاب عينيه رمد أفقده بصره . وكان يُعجب بأبى العباس المرسى منذ لقائه به فأعلن فى أتباعه – كما مر بنا – أنه خليفته على طريقته ، وهى تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب . والشعور الباطنى الصوفى .

وهاجم الشاذلى بقوة حياة الخانقاهات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرحَّل ، فعنده أن الصوفى الحقيقى لايكون سائلا ولا طفيليا يمد يده للغير ، بل لابد أن يعتمد على نفسه فى كسْب قوته ، فتصوُّفه أو طريقته الصوفية كانت طريقة سنية . وكان يدعو مريديه لحمل السلاح ضد أعداء الإسلام الصليبيين ، وكان يرحل معهم إلى ميادين الحرب كما حدث فى موقعة المنصورة المشهورة لعهد السلطان نجم الدين أيوب وابنه توران شاه حين اقتحم لويس التاسع ملك فرنسا دمياط وتقدم منها سنة ٦٤٧ بجيشه نحو المنصورة إذ نجده مع مريديه هناك ، ونجد معه شيوخ الدين وعلماءه الكبار من مثل العز بن عبدالسلام وابن دقيق العيد ومحيى الدين بن سراقة وغيرهم من جلَّة الشيوخ . وحدث أن تكلموا يوما واعظين ، وجاء الدور فى الكلام والخطابة على أبى الحسن ، فتكلم – كما يقول الرواة – بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، وانبهر الشيخ العز بن عبدالسلام ، فقام هاتفا منبهرا قائلا : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله » . وأنزل الجيش المصرى بالصليبيين هزيمة ساحقة ، واستسلم ملكهم لويس التاسع ذليلا كسيرا ، وارتحلوا عن دمياط خاسئين مدحورين إلى البحر المتوسط وماوراءه .

وعاد أبو الحسن الشاذلى إلى الاسكندرية والعلماء والناس يكبُّون عليه للاستزادة من علمه وطريقته وتعاليمه . حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ خرج إلى الحج عن طريق القُصير ومعه أبو العباس وبعض مريديه ، وفى صحراء عيذاب بين قنا والقصير أحسَّ بدنو أجله فأعلن إلى أتباعه استخلافه عليهم أبا العباس المرسى ، ولم يلبث أن أسلم روحه إلى بارئه . وتدل أقواله وأدعيته وابتهالاته ومناجياته لربه فى أوراده على أنه كان يملك ناصية العربية مصرِّفا أزمتها كيف شاء ، وله أوراد كثيرة ، وقد ساق ابن عطاء الله منها فى كتابه لطائف المنن أربعة أوراد له أو أحزاب ، لعل أهمها الحزب المسمى بالحزب الكبير وهو يستهله ويتخلَّله بآيات قرآنية كثيرة ، ويناجى ربه فيه بمثل قوله :

« اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعتَ كل شىء من جهالتى بعلمك فسَعْ ذلك برحْمتك كما وسعته بعلمك واغفرْلى إنك على كل شىء قدير .

يارزاق ياقوى ياعزيز ! لك مقاليدُ السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر فابسُطْ لنا من الرزق ما توصِّلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ماتحول به بيننا وبين نقمتك ، ومن حلمك مايسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التى ختمت بها لأوليائك ، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك ، وزحزحْنا عن حب الدنيا وعن نار الشهوة وأدخلنا بفضلك فى ميادين الرحمة ، واكسُنا من نورك جلابيبَ العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومهيمنا من أرواحنا ، ومسخرا من أنفسنا (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا) » .

اللهم إنا نسألك إيمانا دائما ، ونسألك قلبا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ، ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك دينا قيِّما ، ونسألك العافية من كل بليَّة ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس » .

والمناجاة طويلة ، وهو يلح فيها - كما نرى - بطلب المغفرة والرحمة من ربه وأن يكون خير أيامه وأسعدها يوم لقائه وأن ينفِّره من حب الدنيا ويعصمه من شهواتها وأن يجعل حياته نسكا وعبادة له . ومايزال فى الورد يتمنى أن يهبه الله رضاه وحبَّه وأن يدفع عنه كل ضر وأذى وأن يغنيه عن السؤال وأن ينعم عليه بعزِّ الدنيا من الإيمان والمعرفة وبعز الآخرة من اللقاء والمشاهدة . ولم يكن يطلب إلى أصحابه أن يشقوا على أنفسهم فى العبادة والنسك وأن يلبسوا الخرق والمرقَّعات بل كان يطلب إليهم الرفق بأنفسهم فى التقوى والعبادة ، وأن يشتركوا فى الحياة مع مجتمعهم تجارا وزراعا وأصحاب حرف ، فإن العمل نفسه يعد عبادة . وبذلك كان يدعو أتباعه أن لا يكونوا عالة على

المجتمع بل يعملوا ويجدوا مع صفاء النفس وسمو الروح ، ومع التقوى والعمل الصالح . وشاعت طريقته فى الديار المصرية وفى شمال أفريقيا وخاصة فى الشمال الغربى ، وتفرعت منها أكثر من عشرة طرق من أهمها الطريقة الوفائية .

ابن عطاء (١) الله السكندرى

هو تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى ، ولد بالإسكندرية فى أواخر العقد السادس من القرن السابع ، واستهل حياته بحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يعكف على دراسة العلوم الدينية واللغوية حتى برع فيها ، يقول السيوطى : «كان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه على مذهب مالك» . ويبدو أنه جمع إلى مذهب مالك دراسة مذهب الشافعى مما جعل السبكى يترجم له فى طبقات الشافعية ، وله فى مذهب مالك مختصر تهذيب المدونة للبرادعى . وكان فى أول أمره منصرفا عن التصوف والصوفية . بل كان ينكر عليهم طريقتهم ، حتى تصادف أن استمع إلى أبى العباس المرسى تلميذ أبى الحسن الشاذلى ، فأعجب به ، وأخذ يقتنع بطريقة القوم ، حتى أصبح أكبر مريد لأبى العباس وآثر تلاميذه عنده ، ولما توفى سنة ٦٨٥ خلفه على رياسة الطريقة الشاذلية . وله فضل كبير فى نشرها ، فقد كان فقيها كبيرا ، كما كان صوفيا شاذليا لَسِناً ، فجلس مجلس أستاذه يدرِّس للناس الفقه والتفسير ويعظهم ، فيبلغ كل مايريد من التأثير فيهم .

واستوطن ابن عطاء الله القاهرة ، واتخذ له حلقة فى الجامع الأزهر تارة وفى المدرسة المنصورية تارة أخرى يعظ الناس ويرشدهم ، وأكبَّ عليه الفقهاء وفى مقدمتهم تقى الدين السبكى ، وأكبَّت عليه العامة ، ودخل كثيرون فى طريقته لروعة وعظه وحسن بيانه ، وخاصة أنه كان يمزج مواعظه بالقرآن الكريم والحديث النبوى وأقوال السلف . فكثر أتباعه ، وأصبح لطريقته الشاذلية شأن عظيم ، وكان يكرر ويردد دائما مبدأها الأساسى وهو أن الصوفى الحقيق مَنْ يجمع بين علوم الشريعة وعلوم الصوفية ، وأنه لاتصوف بدون أداء الفرائض والنوافل ، وأن على المتصوف أن يكتسب قوته ومايقيم به أَوَده ، وأما من يسألون الناس ويتضرعون إليهم طالبين مايسدُّون به رمقهم

---

(١) انظر فى ابن عطاء الله النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨ وطبقات الشافعية ٢٣/٩ والدرر الكامنة ٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشعرانى ١٤/٢ والبدر الطالع ١٠٧/١ والديباج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة ١٣٥١ هـ.) ص ٧٠ والوافى ٥٧/٨ وشذرات الذهب ١٩/٦ وكتابا عنه للدكتور التفتازانى وأعلام الاسكندرية للدكتور الشيال ص ٢١٤ .

فليسوا من التصوف فى شىء . فالصوفى يعمل ويجنى ثمرة عمله ولايسأل سوى ربه راضيا برزقه ونصيبه من دنياه ، ويقول ابن حجر : «كان المتكلمَ على لسان الصوفية فى زمانه» وألّف فى مناقب شيخه أبى العباس المرسى وأبى الحسن الشاذلى كتابه «لطائف المنن» فأرسى به الطريقة وتعاليمها وكتب لها الذيوع . ويقول الذهبى : «كانت له جلالة عجيبة ووقع فى النفوس ومشاركة فى الفضائل» ويقول السبكى : «كان إماما عارفا صاحب إشارات وكرامات وقدم راسخ فى التصوف» ويقول صاحب النجوم الزاهرة فى التعريف به «الشيخ القدوة العارف بالله تعالى الصوفى الواعظ المذكِّر المسلِّك ، وكان يحضر حلقة وعظه خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير فى القلوب وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق» . وصنَّف ابن عطاء الله «لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن والتنوير فى إسقاط التدبير ، والمرقى إلى القدس الأبقى ، وتاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس ، ومفتاح[1] الفلاح ومصباح الأرواح» . وواضح من عنوانات هذه المصنفات أنها كتبٌ صوفية . وله أقوال وكلمات بليغة دوَّنها أصحابه فى كتاب باسم «حكم ابن عطاء الله السكندرى» وهى منشورة . وله أشعار على طريقة الصوفية . أنشدنا منها مقطوعة فى غير هذا الموضع . وتوفى بالمدرسة المنصورية كهلا سنة ٧٠٩ ودفن بجبانة [2] آل أبى الوفا شرقى جبانة الإمام الليث ، وكانت جنازته – كما يقول مترجموه – حَفِلة لكثرة أتباعه من الفقهاء والعلماء والعامة .

وكان ابن عطاء الله إذا وعظ استرسل فى وعظه ، وقد يذكر آية قرآنية أو حديثا نبويًّا فتتوالى سيول القول ، من ذلك ماجاء فى وصفه للرسول ﷺ فى كتابه «لطائف المنن» إذ يقول :

«مشرق الأنوار ومعدن الأسرار ، مَنْ له الفتح والختام ، والحائز للمقامات العلية بالتمام ، رسول رب العالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . فهو نور الأنوار وسر الأسرار ، إليه تنزل الأسرار الربانية ، وعنه تؤخذ المعارف الإلهٰية . أخذ أهل الظاهر عنه ظاهرهم ، وأخذ أهل الباطن (الصوفية) منه باطنهم ، وقال ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء ، وكل على قدر إرثه ، وإرثه على قدر نوره ، ونوره على قدر فتحه ، وفتحه على قدر صفاء قلبه ، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه ، ومعرفته بربه على حسب ماسبق له من حبه» .

---

(١) انظره مطبوعا مع لطائف المنن على هامش كتاب لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الاطلاق للشعرانى (طبع المطبعة الميمنية)

(٢) فى الإسكندرية مسجد منسوب إليه ، ولعله كان يلقى فيه أحيانا بعض مواعظه

وتكثر عنده مثل هذه التفريعات والتوليدات فى الكلام ، وكأنما يستمد من معين ذهنى وروحى لاينضب ، مع التنويع الدائم فى الأفكار وتشعيبها شعبا وفروعا لاتكاد تقف عند حد ، وكأنما يريد أن يشيد منها طبقات ، بعضها فوق بعض ، أو كأنما يريد أن يرفع منها صروحا شاهقة . وقد يستعين بالتكرار مع تلوين الأسلوب ألوانا مختلفة على شاكلة قوله واعظا :

«كيف يُتَصَوَّر أن يحجب الله شيء وهو الذى أظهر كل شيء ؟
كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر بكل شيء ؟
كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر فى كل شيء ؟
كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر لكل شئ ؟
كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شئ ؟
كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الواحد الذى ليس معه شئ ؟
كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شئ ؟

ياعجبا كيف يظهر الوجود فى العدم ، أم كيف يثبت الحادث مع مَنْ له وصف القدم ؟ »

والعظة تدور على أن لاحجاب بين العبد ومولاه إذ هو مُظْهر الكائنات جميعا وموجدها ، وجميعها تشهد بوجوده ، وإنه ليتجلى فيها جميعا . وقد ظهر لها وعرفته وسبَّحته ، وإن وجوده لأبدى أزلىّ ، وإنه لواجب الوجود وحده دون سواه ، وإنه لأقرب إلى الإنسان من كل شيء ، أقرب إليه من حَبْل الوَريد . وياعجبا كيف يحجبه الفانى الحادث ، وهو القديم الأزلى . وهو يُسْرٌ فى العرض وروعة بيان وبلاغة . ويروى أن السلطان لاجين طلبه ليعظه ، وسأله فى أثناء وعظه عن الشكر ، فأجابه توا :

« الشكر على ثلاثة أقسام : « شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجَنان . فشكر اللسان : التحدث بالنعمة ، قال تعالى : (وأما بنعمة ربِّك فحدِّثْ) . وشكر الأركان : العمل بطاعة الله قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرا) . وشكر الجَنان : الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم قال تعالى : « ومابكم من نعمة فمن الله) . وسأله لاجين : ما الذى يصير به الشاكر شاكرا ؟ فقال : إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالبذل والإيثار للعباد ، وإذا كان ذاجِاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد » . ويحق ماقاله الشعرانى من أن لكلامه حلاوة وجلالة .

أحمد [١] الدردير

هو أحمد بن محمد العدوى المالكى الأزهرى الشهير بالدردير ، ولد ببنى عدى سنة ١١٢٧ للهجرة وحفظ القرآن الكريم وجوَّده وشُغف بطلب العلم ، فورد القاهرة ، وأكبَّ على حلقات العلماء يأخذ كل ماعندهم من حديث وفقه وتفسير وعلم كلام ولغة ونحو وبلاغة . وشغف بدروس الشيخ الحفنى شيخ الجامع الأزهر حينذاك ، وكان قد انتظم فى سلك الخلوتية – كما مرَّ بنا – عن طريق الشيخ الخلوتى الكبير مصطفى بن كمال الدين البكرى ، فأخذ الدردير عنه الطريقة فيمن أخذوها عنه من العلماء والأجلاء وكان زاهدا عفيفا تقيا ورعاسليم الباطن مهذبا كريم الخلق ، فقربه منه الشيخ الحفنى وشيوخه بعامة . وسرعان ما أذنوا له بالإفتاء فى حضرتهم ، وأجازوا له التدريس ، فكان يدرس للطلاب المذهب المالكى ، وله فيه شرح « مختصر خليل » اقتصر فيه على الراجح من أقوال أئمة المذهب المالكى . ولما توفى شيخ المالكية : الشيخ الصعيدى شغل مكانه فى المشيخة والإفتاء ، وعُيِّن ناظرا على وقف الصعايدة وشيخا لطائفته الخلوتية الصوفية .

وعدَّد الجبرتى فى تاريخه مؤلفات الدردير فى الفقه المالكى وفى علم التوحيد وفى متشابهات القرآن وفى علوم البلاغة . وذكر له بجانب ذلك مؤلفات فى التصوف منها تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان ، وشرح على وِرْد الشيخ كريم الدين الخلوتى ، وشرح على صلوات السيد أحمد البدوى وهى صلوات نبوية . ومازال الدردير يتولى مشيخة المالكية بالجامع الأزهر ومشيخة الطائفة الخلوتية الصوفية حتى توفى سنة ١٢٠١ للهجرة ، وصُلِّىَ عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ، ودُفن بزاويته التى بناها بحى الكعكيين . وله ورد أو حزب مشهور باسم المسبعات [٢] والصلوات ، والمسبعات أدعية وابتهالات عشر ، وتليها صلوات عطرة على الرسول ﷺ ، وله معها منظومة لأسماء الله الحسنى ، تشتمل فى نهايتها على صلوات وتسليمات على الرسول ﷺ وأدعية له ولشيوخه فى الطريقة الخلوتية ، ومما يقول فى مسبعاته داعيا ربه متبتلا إليه .

« اللهم إنى أعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذل إلا لك ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا . وأعوذ بك من شماتة الأعداء ،

---

(١) انظر فى الدردير تاريخ الجبرتى ١٤٧/٢ الكبير (طبع مكتبة النصر) ص١٣

(٢) انظر فى هذه المسبعات والصلوات مجموع الأوراد

وعُضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة ، وفُجاءة النقمة .

اللهم إنى أعوذ بك من شر الخَلْق وهمِّ الرِّزْق ، وسوء الخُلق .

اللهم إنى أعوذ بك من الزَّيْغ والجزع ، وأعوذ بك من الطمع فى غير مطمع » .

ويظل يستعيذ من الهم والحزن ومن شر ما خلق الله ومن أن يَظلم أو يُظْلم أَو يبْغى على إنسان أو يَبْغى عليه ذو سلطان أو يَطْغى أو يُطْغَى عليه . ويستعيذ من الشرك الظاهر والخفى ، ويتوسل إلى الله أن يكون دائما فى حرز منيع من جميع خلقه ، وأن يظل معافًى فى بدنه ودينه ودنياه .

وننتقل معه إلى الصلوات على الرسول ، وتتضح فيها نظرية الحقيقة المحمدية التى مر بنا حديث عنها عند البوصيرى ، إذ يقول :

« اللهم اجعلْ أفضل صلواتك أبدًا ، وأَنْمى بركتك سَرْمَدًا ، وأزكى تحيَّاتك فضلا وعددا ، على أشرف الخلائق الإنسانية ، ومجمع الحقائق الإيمانية .. شاهد أسرار الأزل ، وترجمان لسان القدم .. وإنسان عين الوجود العلوى والسُّفْلى ، روح جسد الكونين ، وعين حياة الدارين .

اللهم صَلِّ على مَنْ مِنْه انشقَّت الأسرار ، وانفلقت الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، ونزلتْ علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه مناسابق ولا لاحق ، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة .

اللهم صَلِّ على الذات المحمدية ، اللطيفة الأحدية ، شمس سماء الأسرار ، ومظهر الأنوار ، ومركز مدار الجلال ، وقطب فلك الجمال » .

ونظرية الحقيقة المحمدية وما يطوى فيها من قدم الوجود المحمدى وأن وجود الكائنات مستعار منه واضحة فى قول الدردير عن الرسول عليه السلام إنه ترجمان لسان القدم ، وإنسان عين الوجود العلوى والسفلى وروح جسد الكونين وأن الأنوار منه انشقت ، فنوره هو المرئىّ فى كل نور ، ووجوده هو المشاهَدُ فى كل وجود . وكل ذلك يعنى أزلية النور المحمدى أو قل أزلية الحقيقة المحمدية . ويوزع الدردير صلواته على الحروف الهجائية فلكل حرف سجعاته الخاصة ، ومع الصلوات أدعية وابتهالات شتى من مثل قوله فى الصلوات على حرف الدال :

« اللهم صَلِّ وسَلِّم وباركْ على سيدنا محمد واسْلُكْ بنا طريقَ الرشاد .
وصَلِّ وسَلِّمْ وباركْ على سيدنا محمد واخلعْ علينا خِلَع الرِّضوان والوداد ،
وصَلِّ وسَلِّم وبارك على سيدنا محمد وَتوِّجنا بتاج القبول بين العباد .

وصَلِّ وسَلِّم وباركْ على سيدنا محمد وارأفْ بنا رأفة الحبيب بحبيبه يوم التَّناد [١] »

وتتوالى مثل هذه الأدعية مع الصلوات على الرسول ﷺ وكأن الدردير يستمد من معين لاينضب ، وهو معين يسيل دائما سلاسة وعذوبة .

٥

كتب النوادر والسير والقصص الشعبية

(ا) كتب النوادر

تطلق كلمة النوادر إطلاقين ، فهى تارة يراد بها الأقاصيص القصيرة التى تروِّح عن النفس أو التى يُقْصَدُ بها إلى غرض خلقى نبيل ، وتارة يراد بها أقاصيص فكهة قصيرة سخرية بحاكم أو معلم أو قاض أو بخيل . وكتب الأدب العربى تمتلئ بهذين النوعين من كتب النوادر ، وهى كثيرة فى مصر على مدار هذا العصر ، ونكتفى بالحديث عن كتاب من المجموعة الأولى وكتابين من المجموعة الثانية .

كتاب المكافأة

مؤلف هذا الكتاب أحمد [٢] بن يوسف المعروف باسم ابن الداية كانت أم أبيه يوسف بن إبراهيم داية لإبراهيم بن المهدى عم المأمون فنسب إليها . وظل يوسف فى خدمته حتى توفى ، ويبدو أنه كان مثقفا ثقافة متنوعة ، مما جعل بعض ولاة العباسيين بمصر يستكتبه فى ديوانها ، واستقر مقامه بها هو وأسرته منذ سنة ٢٢٦ للهجرة . ويروى أنه صنف كتابا فى أخبار أصحاب الطب ، مما يؤكد أنه كان على صلة بعلوم الأوائل . ورُزق بابنه أحمد ، وعُنى بتثقيفه ، مما أهله ليعمل كاتبا فى دواوين الدولة الطولونية وليكتب سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه وليس ذلك فحسب ، فإنه وصله بعلوم الأوائل وبرع فيها وخاصة فى الطب والرياضة والفلك وأيضا فى الفلسفة . ويسوق له مترجموه كتابا فى أخبار الأطباء وكتابا فى النسبة والتناسب وكتابًا فى الأقواس

---

(١) يوم التناد : يوم القيامة

(٢) انظر فى أحمد بن يوسف معجم الأدباء ١٥٤/٥ وتاريخ الحكماء للقفطى (مختصر الزوزنى) ص٧٨ واستوعب ابن سعيد فى كتابه المغرب (قسم الفسطاط) كتابه عن سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه . وكتابه المكافأة طبع مرارا .

المتماثلة ، كما يسوقون له كتاب مختصر المنطق وكتاب السياسة لأفلاطون ، وشرح كتاب الثمرة فى الفلك لبطليموس . وقد توفى سنة ٣٤٠ .

وتؤكد سيرة أحمد بن يوسف وسيرة أبيه أنهما كانا من أصحاب المروءات ، وكانا يحسنان تثمير أموالها فى التجارة والزراعة ، فأغدقا كثيرا على كل من رأياه تلم به كارثة أو ينزل به خطب من الخطوب . ولعل هذا الجانب فى أحمد بن يوسف هو الذى جعله يؤلف كتابه « المكافأة » . وهو فى ثلاثة أقسام : قسم يضم إحدى وثلاثين نادرة أو حكاية قصيرة تدور حول مكافأة الجميل بالجميل ليرغِّب فى عون المنكوب ومد يد المساعدة إليه ، وحتى يكافئ الإنسان جميلا بجميل يماثله . ويعرض ذلك فى النوادر عرضا جذابا بما يذكر من نوادر وقعت فى أيامه وغير أيامه فى مصر وغير مصر . ويتلو هذا القسم بقسم ثان يضم إحدى وعشرين نادرة أو حكاية قصيرة تصور كيف أن مكافأة القبيح تستتبع قبيحا مثله ، حتى يرتدع أهل الشر والسوء ، ويكفوا عن سوئهم وشرهم لما يجرَّان من أوخم العواقب . والقسم الثالث يضم تسع عشرة نادرة أو حكاية قصيرة وهى تصور حسن العُقْبى وكيف أن أناسًا تورطوا فى شر أو بلاء ونجوا منه . والكتاب بذلك دعوة حارة إلى عمل الخير بضرب أمثلة بديعة من النوادر والحكايات القصيرة . وهو مكتوب بفصحى جزلة ناصعة ، إذ كان أحمد بن يوسف من كتَّاب زمنه البارعين . ويبدو أنه قصد به إلى أن يشيع فى الشعب ، ولعل ذلك هو السبب فى أننا نراه يقترب من لغته اليومية ، إذ تدور فيه صيغ وتعابير لاتزال تجرى على ألسنتنا فى الحياة اليومية من مثل :

كاد والله يموت فرحا – كثَّر الله فى الناس مثله – حصَّلنى على الباب أى لحقنى – اعتذرت إليه من تقصيرى فى حقه – امرأة تُطْلق (أى أصابها المخاض) – ست (أى سيدة) – امرأة مقربة (أى قربت ولادتها). واستخدم قليلا مدَّ تاء المخاطبة بحيث تتولد من الكسرة ياء فقال على لسان تاجر يكافئ سيدة على جميل : « هذا جزاء ماقد متيه » كما نقول فى عاميتنا المصرية . واستخدم أيضا مطابقتنا فى العامية بين الفعل والفاعل فى الجمع فقال : « اشْتَهوا علىّ صبيانى حلواء فى العيد » والفصيح أن يقال « اشتهى علىَّ صبيانى » . ويكثر من الاستفهام فى الجمل دون ذكر أداة من أدوات الاستفهام كما نصنع أيضا فى عاميتنا . وكثير من نوادر الكتاب واسع الدلالة التاريخية على زمن المؤلف وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بجانب دلالته القيمة على الأسلوب الأدبى فى مصر حينئذ ، وما كان يستخدم فيه من عبارات لاتزال حية إلى اليوم .

أخبار سيبويه المصرى

ألف هذا الكتاب ابن [١] زولاق الحسن بن إبراهيم المولود سنة ٣٠٦ والمتوفى سنة ٣٨٧ وقد جمع فيه نوادر رفيق له فى الدراسة هو محمد [٢] بن موسى الكندى المعروف باسم سيبويه المصرى ، ولم يكن عالما بالنحو فحسب بل كان عالما أيضا بالقراءات والفقه وعلوم الحديث ورواية الشعر ، وكان عفيفا متنسكا اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والعبَّاد ، وبلغ فى ذلك – كما يقول ياقوت – مبلغا جالس به حكام مصر ، وكان ينقدهم نقدا يحمِّله كثيرا من السموم ، ولم يكن يخفيه بل كان يعلنه فى الأسواق وعلى رءوس الأشهاد ، وكان الناس يتبعونه يكتبون نقده ، ويروونه فى المجالس العامة والمساجد والمتنزهات . ومازال هذا دأبه حتى توفى سنة ٣٥٨ مع نهاية الدولة الإخشيدية . وكان ابن زولاق مؤرخا كبيرا ، ويقول ابن خلكان له كتاب فى خطط مصر استقصى فيه ، وله كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذيلا على كتاب الكندى : أخبار قضاة مصر ، وكان قد انتهى فيه إلى سنة ٢٤٦ ، فكمله ابن زولاق إلى سنة ٣٨٦ ، وله كتاب فى سيرة الإخشيد اعتمد عليه ابن سعيد فى قسم الفسطاط من كتابه « المغرب » .

ويسوق ابن زولاق فى كتابه أخبار سيبويه مشاهد مختلفة لنقد سيبويه للحكام وللناس فى عصره ممزوجا بشىء من التباله ، ولم يكن ينقد أو يذم بلفظ قبيح ، إنما كان يزجر وينهر بألفاظ غير قبيحة ولكنها تخز وخز الإبر ، من ذلك أن الإخشيد كان يركب فى موكب لصلاة الجمعة ، فتصدى له يوما فى أثناء ركوبه إلى الصلاة والناس محتشدون لرؤيته فقال بأعلى صوته : « ماهذه الأشباح الواقفة ، والتماثيل العاكفة ؟ سُلِّطتْ عليهم قاصفة (يوم تَرْجُفُ الرَّاجفة تتبعها الرَّادِفة) قلوبهم (يومئذ واجِفة) » فقال له رجل : « إنه الإخشيد يمر إلى الصلاة ، فلم يفزع ولم يسكت بل قال توا : « هذا الأصلع البطين » ، المسمَّن البدين ، قطع الله منه الوَتين [٣] ، ولاسلك به ذات اليمين ، أما كان يكفيه صاحب ولاصاحبان ، ولا حاجب ولاحاجبان ، ولاتابع ولا تابعان ؟ لاقَبِلَ الله له صلاة ولاقبل له زكاة ، وعمَر بجثته الفَلاة » .

---

(١) انظر فى ابن زولاق معجم الأدباء ٢٢٥/٧ وابن خلكان ٩١/٢ ولسان الميزان لابن حجر ١٩١/٢ حيث يقول إنه كان يتولى المظالم للفاطميين ويظهر التشيع لهم .

(٢) راجع فى سيبويه المصرى معجم الأدباء ٦١/١٩

(٣) الوتين : الشريان الرئيس الخارج من القلب .

وكان سيبويه المصرى يستخدم السجع دائما فى نقده أوقل فى هجائه للحكام ، ويوشِّيه بآية أو آيات قرآنية على نحو مامرَّ بنا آنفا أو بحديث نبوى . وكان يسوق مثل هذا الهجاء فى أثناء وعظه للناس ، إذ كان واعظا كبيرا . والناس يضحكون لتنفيسه عنهم ماكان يقع عليهم من ظلم الحكام لزمنه فيضحكون ويغرقون فى الضحك . وكان بعض الحكام والوزراء يقرِّبه ويجالسه أملا فى أن لايكويهم أمام الشعب بسياطه . ورأى أبا الفضل جعفر بن الفرات يسير فى موكب كبير وكان قد تولى الوزارة ، فقال : « ما بال أبى الفضل قد جمع كتَّابه ، ولفَّق أصحابه ، وحشد بين يديه حجَّابه ، وشمَّر أنفه ، وساق العساكر خلفه ؟ أبلغه أن الإسلام طُرِق فخرج ينصره ، او أن ركن الكعبة سُرِقَ فخرج لهذا الأمر ينكره » ؟ . ومع أن سيبويه كان يصوغ نوادره فى هذه الفصحى المسجوعة نجد عنده بعض ظواهر من عاميتنا أو لغتنا المتداولة ، من ذلك أنه كان يعيد الضمير لغير العاقل مع الفعل مجموعا فى مثل : « فجاءت فراريج فلقطوا ما بين يديه » والفصيح فلقطت مابين يديه . وكأن أسلافنا سبقونا إلى ذلك فى لغتهم اليومية منذ مئات السنين .

كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

ألف هذا الكتاب ابن مماتى الذى مرت ترجمته ، وقد قَصَّ فيه طائفة من النوادر نَسبها إلى قراقوش [1] التركى أحد قواد صلاح الدين الأيوبى . وكان قد أنابه عنه مدة بالديار المصرية وفوَّض أمورها إليه ، وهو الذى بنى السور الذى كان يحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل والقناطر فى طريق الأهرام . وكانت فيه شدة وقسوة ، كما كانت فيه غفلة وغير قليل من الحمق ، فانتهز ابن مماتى ذلك فيه ، وألصق به طائفة من النوادر فى أحكامه جمعها فى كتابه « الفاشوش [2] فى حكم قراقوش » . ويدافع عنه ابن خلكان قائلا : فى الكتاب أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة فإن صلاح الدين كان معتمدا فى أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته مافوَّضها إليه » .

ويبدو أن قراقوش قَسَا فى تسخير المصريين فى بناء السور والقلعة والقناطر المذكورة ، فانتقم لهم ابن مماتى منه بهذا الكتاب الذى وضعه عليه . وهو يستهلُّه بقوله : « إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش حُزمة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غُمَّة ، لايقتدى بعالم ،

(١) انظر فى قراقوش ابن خلكان ٩١/٤ والنجوم الزاهرة ١٧٦/٦ وعبر الذهبى ٢٩٨/٤ .

(٢) راجع فى تحليل هذا الكتاب مقالا لنا فى مجلة الكاتب المصرى عدد نوفمبر سنة ١٩٤٦ ص ٣٦١ .

ولايعرف المظلوم من الظالم والشكية عنده لمن سبق ، ولايهتدى لمن صدق ، ولايقدر أحد من عظم منزلته أن يردَّ كلمه ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ماأنزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين » . ويأخذ ابن مماتى فى سرد أحكام قراقوش المضحكة . من ذلك أن سيدة سوداء شكت لقراقوش جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء ، فردَّ شكواها مؤمنا بأنها ليست السيدة بل هى الجارية ، والجارية البيضاء هى السيدة ، وهمَّ بحبسها لولا أن شفعت فيها جاريتها فعفا عنها . ومن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلا أجرد كان يعبث بلحيتيهما ، ونظر قراقوش إلى الرجل فلم يجد له لحية حينئذ صرخ فى الرجلين قائلا : إنهما اللذان اعتديا عليه بنتف لحيته ، وصاح فى غلمانه أن يزجُّوا بالرجلين فى غياهب السجون حتى ينبت الشعر فى ذقن الرجل وتطول لحيته . ومن ذلك أن الشرطة جاءته بحدَّادٍ له قتل نفسا محرمة بغير حق ، فأمر بشنقه فقيل له إنه حدادك الذى يَنْعَلُ لك الفرس ، فنظر أمام بابه فرأى رجلا قفَّاصا فقال : « اشنقوا القفَّاص وسيِّبوا (اتركوا) الحداد . وعلى هذا النحو يصور ابن مماتى قراقوش متصرفا فى القضايا بحمق مابعده حمق ، ونضحك للتضاد بين المقدمات والنتائج ، تباينا يضيع فيه المنطق ، فسيدة تدخل شاكية لخادمتها ، فتخرج خادمة والخادمة تصبح سيدتها ، ورجل يدخل بدون لحية ، فيخرج وله لحية نُتفت ، أو قل يدخل جانيا ويخرج مجنيا عليه ، وقاتل يبرَّأ وبرىء يقتل .

وما نظن أحدا فى مصر قديما بلغ من التشهير بحاكم مابلغه ابن مماتى من التشهير بقراقوش وأحكامه بين الناس عن طريق هذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة لزمنه قاصدا بذلك أن تشيع بين العامة ، وهى فعلا شاعت أكبر شيوع وأوسعه فى مدن مصر وريفها ، فكلما اشتكوا من حاكم وظلمه قالوا : « حكم ولاحكم قراقوش » .

وأضافت الحقب التالية إلى شخصية قراقوش نوادر مضحكة بجانب مافى كتاب الفاشوش من نوادر كثيرة ، مما جعل السيوطى يؤلف كتابا يستعير له اسم كتاب ابن مماتى ، مضيفا فيه إلى قراقوش نوادر جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش فى الأزمنة التالية شخصية خيالية لكل حاكم أحمق يخلط حمقه بظلمه . وأكبر الظن أن كلمة قراقوز التى تطلق فى تركيا والشام على خيال الظل وتصويره للحكام الظالمين الحمقى ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش لا إلى مايقال من أنها مؤلفة من لفظتين تركيتين هما « قره » أى أسود و« قوز » أى عين وبذلك يكون معناها العين

السوداء لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة بتركيا كانوا من الغجر الجوالين ، غير أنا نرجح الرأى الأول . وقد دخلت الكلمة ثانية إلى مصر باسم « أراجوز » .

هز [١] القحوف

نمضى إلى زمن العثمانيين بمصر فنجد عالما واعظا يسمى يوسف الشربينى يصف حال سكان الريف المصرى ومانزل بهم لعهد العثمانيين من البؤس والفقر والضنك والجهل فى قصيدة يسميها « قصيدة أبى شادوف » وشرح لها يسميه « هز القحوف » وقد ملأ الشرح بنوادر فكاهية عما كان يعانيه أهل الريف حينئذ من الأمية والجهل وبطش الكاشف أو حاكم الإقليم وظلمه وما كان يصليهم من السخرة وما كانوا يرزحون فيه من المسغبة فإن طعموا لم يطعموا إلا العدس وطعاما يتّخذ من الفول يسمى البيسار والمِشّ العتيق ، ومعاذ الله أن يطعموا شيئا وراء ذلك من لحم وغير لحم . ويقول عن أبى شادوف الثرىّ الريفى صاحب القصيدة إنه لم يكن يملك سوى حمار أعرج وعنزتين وحصة فى ثور الساقية ونصف بقرة وعشر دجاجات وديك وأربع كيلات من نخال الشعير . ويفيض الكتاب بنوادر لاذعة تحمل فى أطوائها كثيرا من الطعنات لحكم العثمانيين الغاشم وسوآته .

(ب) كتب السير والقصص الشعبية

كثرت فى مصر منذ أيام الفاطميين كتب قصص الأنبياء مجموعة أو مفردة : قصة لموسى وقصة ليوسف عليهما السلام أو لغيرهما من الأنبياء وخاصة إبراهيم الخليل . ومرّ بنا فى الحديث عن كتابة التاريخ فى الفصل الثانى بيان لبعض ما كُتب فى السيرة النبوية ، ومنذ الحروب الصليبية كثرت الكتابة فى ميلاد الرسول ﷺ وما اقترن به من خوارق وحياته وما رافقها من معجزات ، وكان ذلك يكتب نثرا وتتخلله أشعار باسم « المولد النبوى » . وعادة كان هذا المولد يلقى فى الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول ، وكانت تلقى معه « قصة الإسراء والمعراج » الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى والعروج به إلى السماء . وقد أصبح من الثابت أن دانتى تأثر تأثرا واضحا بهذه القصة الأخيرة فى الكوميديا الإلهية [٢] وبجانب هذا القصص الدينى الذى لايزال كثير منه مخطوطا

---

(١) انظر فى تحليل كتاب هز القحوف مقالا لنا فى مجلة الكاتب المصرى عدد يناير سنة ١٩٤٧ ص ٧٢٩ .

(٢) راجع تاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٥٥١ — ٥٦٤ .

ومحفوظا برفوف دار الكتب المصرية قصص كثير محفوظ بتلك الرفوف عن العشاق العذريين . ونعرض الآن طائفة من السير والقصص الشعبية التى ألفت فى مصر – أو أخذت بها شكلها النهائى – وهى سيرة عنترة والسيرة الهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة .

سيرة [1] عنترة

أساس هذه السيرة أخبار عنترة فى الجاهلية وماجاء فيها من أنه كان ابن أمة ومن أنباء فروسيته وحبه لعبلة ابنة عمه . ويتحول عنترة فى السيرة بطلا عظيما لملحمة عربية تمتد فيها بطولاته من العصر الجاهلى حتى نهاية القرون الخمسة الأولى للإسلام . ويقال – طبقا لرواية فى أول كتاب منية النفس فى أشعار عنترة عبس – إن أول كتابة لهذه السيرة كانت فى أيام العزيز الخليفة الفاطمى (٣٦٥–٣٨٦هـ) إذ حدثت ريبة فى قصره جعلت أهل القاهرة يلهجون بالحديث عنها ، فأشار على شخص يسمى يوسف بن إسماعيل أن يشغل الناس بسيرة تلهيهم عن الكلام فيها ، فألّف لهم سيرة عنترة وشُغفوا بها . غير أن هذه الرواية –إن صحت – إنما تشير إلى أول ما كان من وضع السيرة . إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى أوائل القرن السادس الهجرى ، وحتى أصبحت فى اثنين وثلاثين جزءا ، وهى منشورة فى أربع مجلدات . ولا تمتد فيها سيرة عنترة فى الزمان فحسب ، بل تمتد أيضا فى المكان ، إذ تشمل ساحاتُ بطولات عنترة العالم القديم : الهند وفارس ومصر والشام وجنوب أوربا وشمال إفريقيا والحبشة والسودان . وهى موزعة بين نثر وأشعار ، مما أتاح لرواتها من قديم أن ينشدوها الناس على الربابة فى حفلات كانت تعقد لها . وقد كتبت بلغة تدنو دنوا شديدا من اللغة اليومية ، وصيغت صياغة قصصية جذابة بحيث يقتطع الكلام فى كل جزء من أجزائها عند حادث مهم . وبذلك يشغف القارئ والسامع بمعرفة الجزء الذى يليه . وهكذا حتى نهايتها . وتتسع السيرة فى عرض أخبار الجاهلية حتى نصل إلى زمن زهير ملك بنى عبس قبيلة البطل ، وتعرض السيرة مولد عنترة وبطولته فى صباه وشبابه وحبه لابنة عمه وحمايته لقبيلته ضد القبائل المنافسة لها وما فرضه عليه عمه لقاء زواجه بعبلة من أعمال شديدة الخطر جشّمته الرحلة إلى العراق وملازمة

---

(١) انظر فى سيرة عنترة وترجماتها وما وضع فيها المستشرقون من بحوث دائرة المعارف الإسلامية

ملوك الحيرة ووفوده على إيران وتعرفه بملوكها وفى مقدمتهم كسرى وما كان من طلبهم منه العون فى منازلة بطل إغريقى .

ويصبح عنترة حاكما للشام ويفد على القسطنطينية ويقود مع إمبراطورها حروبا ضد الفرنجة ويبلغ إسبانيا ويخترق شمال إفريقيا إلى مصر ويستعين به ملك روما ضد بوهمند ويقتله ، وهو أحد أمراء الحروب الصليبية الأولى وكان نورمانديًّا إيطاليا ، وكأن المؤلف الأخير للسيرة كان يعرف أصله وموطنه . ومعروف أن الحملة المذكورة نزلت آسية الصغرى سنة ٤٩٠ للهجرة ولذلك نقول إن ميادين السيرة وساحاتها البطولية تمتد حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وليس بوهمند فقط الوحيد من أمراء الحملة الصليبية الذى يلقانا فى السيرة ، إذ يلقانا فيها أيضا زواج عنترة من أميرة إفرنجية وإنجابه منها الجوفران وربما كان تحريفا لجودفرى صاحب بويون دوق اللورين الأدنى الذى استولى على بيت المقدس سنة ٤٩٢ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه بلدوين . وبطولات عنترة فى السيرة تتسع لا لتشمل ميادين الحروب الصليبية والبلاد الأوربية فحسب ، بل أيضا لتشمل الهند والسودان وبلاد النجاشى ، وعرف عنترة أنه جد أمه زبيبة . وكل من يقرأ السيرة يرى أن أجيال المؤلفين التى تداولتها كانت أجيالا بصيرة بتاريخ العرب فى الجاهلية وما اتصل بها من قصة إبراهيم الخليل وتاريخ العرب فى الإسلام وفتوحاتهم العظيمة وتاريخ الفرس وملوكهم وبلاطهم وآدابهم وتاريخ الحروب الصليبية وطقوس النصارى وشعائرهم وأعيادهم . والسيرة ملحمة رائعة للبطولة العربية التى مثَّلها عنترة أروع تمثيل فى أكثر من خمسمائة عام ومثَّل معها فضائلها النبيلة التى نقلها الصليبيون إلى ديارهم . وقد تخللت السيرة أحلام ورُؤًى وأساطير وخوارق عجيبة .

السيرة [1] الهلالية

قوام هذه السيرة حروب مستمرة بين بنى هلال ومن دخل معهم من قبائل زغبة وسُلَيم ورياح وعدى وربيعة والأثبج إلى إقليمى طرابلس وتونس وشمالى إفريقيا ومن كان بهذه الاقاليم من الصنهاجيين وزناتة وغيرهم من القبائل المغربية المستوطنة . وكانت القبائل العربية المذكورة قد

---

(١) انظر فى السيرة الهلالية الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ص ٦٢ وكذلك الجزء السابع ص ٤٣ وأواخر مقدمة ابن خلدون حيث روى بها أشعارًا للهلالية والزناتية ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية وكتابا فى السيرة الهلالية لعبد الحميد يونس .

حاربت مصر لعهد المعز أول الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٠ تحت لواء الأعصم القرمطى . وكان قد استولى على دمشق والرملة ودخل مصر والتقى بالجيش الفاطمى فى عين شمس بالقرب من القاهرة وكاد يُكْتَبُ له النصر لولا خروج بعض قواده عليه وانضمام القبائل سالفة الذكر إلى الجيش المصرى . وبذلك دارت عليه الدوائر فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين موطنه . وأسكن المعز تلك القبائل القيسية الصعيد ، لعله يمكن الانتفاع بها فى المستقبل . وحانت الفرصة لذلك فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧–٤٨٧هـ) إذ خرج عليه المعز بن باديس الصنهاجى صاحب تونس والقيروان سنة ٤٤٣ وأعلن العودة إلى المذهب المالكى السنى وتبعيته للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وانفصل بذلك الجناح الغربى للدولة الفاطمية ولم تقم للمذهب الشيعى الفاطمى قائمة فى تلك الأنحاء منذ هذا التاريخ . واستشاط المستنصر غضبا ، وأشار عليه وزيره اليازورى أن يسلط عليه القبائل القيسية النازلة بالصعيد منذ أيام جده المعز ، فاتصل بشيوخهم ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ماتحت يد المعز إقطاعا لهم وأيضا كل مايمتلكونه من بلاد المغرب وسرعان مالبَّته جموعهم ، وخرجت إلى المغرب : إلى تونس وإفريقية ، واستولت فى سنة ٤٤٣ على برقة بزعامة يحيى الرياحى وتملك بنوزغبة فى سنة ٤٤٦ طرابلس ، واتجهت هلال ورياح والأثبج وعدى إلى إفريقيا وأضرموها نارا بقيادة زعيمهم مؤنس بن يحيى الرياحى وحاول المعز بن باديس أن يقربه منه مجزلا له العطايا ولم يغن ذلك عنه شيئا . ونازل تلك الجموع ودحرته وأنزلت به هزائم متوالية ، مما اضطره أن يخلى لهم القيروان وأن يكتفى بالمهدية وبلدان صغيرة حولها . واكتفى بها من بعده ابنه تميم الذى حكم بعده إلى نهاية القرن الخامس . وأخذت تتضعضع الإمارة بينما تحول إقليم تونس والجزائر إلى إقطاعيات صغيرة يحكمها هلاليون أو زناتيون إلى أن أعادت دولة الموحدين إلى شطر كبير من المغرب وحدته .

ويبدو أنه حين ارتضت هذه القبائل القيسية هجرتها إلى المغرب أرسلت إلى عشائرها فى الجزيرة العربية أن تقدم عليها لتشاركها فى هذه الهجرة الكبيرة وأن عشائر فعلا لبَّت دعوتها ، يدل على ذلك أننا نجد القاصَّ للسيرة أو قصاصها استغلُّوا فيها قصة فتاة جميلة من بنى هلال هى الجازية بنت الحسن بن سرحان عشقها فتى من عشيرتها وأراد الزواج منها وتصادف أن أمير مكة شكر بن أبى الفتوح (٤٣٠–٤٥٣ هـ) رآها وأعجب بها ، وطلب يدها من أبيها فآثره على عشيقها ، وزوَّجها منه . ثم حدث أن أغضب شكرٌ عشيرتها ، ورأوا الانتقام منه فاحتالوا عليه لأخذ الجازية وحرمانه منها ، فادعوا أنهم يريدونها لزيارة أبويها فى نجد ، حتى إذا قدمت معهم

مضوا مع أبيها فى الرحلة إلى إفريقيا ، وهناك زوَّجوها من ابن عمها ولكن قلبها ظل معلقا بزوجها الأول حتى ماتت من شدة هيامها وحبها له . وهى قصة صحيحة فى أصلها المتصل بشكر أمير مكة وزوجته الجازية ، مما يدل على أن عشائر هلالية من الجزيرة قدمت على بنى هلال بالصعيد أو بعد تركهم له مباشرة وواصلت بدورها الهجرة إلى المغرب .

والأساس فى السيرة تاريخى صحيح وهو هجرة بنى هلال ومن معهم من القبائل القيسية إلى المغرب واستيلاؤهم على بعض مدنه ، غير أن الأحداث بعد ذلك تمضى وكأنها أضغاث أحلام لتلك الهجرة الكبيرة إذ سَمَّى القصاص بطلها أبازيد الهلالى وسموا خصمه فى قبيلة زناتة : الزناتى خليفة . وبذلك غابت عن السيرة قبيلة صنهاجة وأميرها المعز بن باديس الصنهاجى ، كما غاب زعيم القبائل يحيى الرياحى وابنه مؤنس . وقد يرجع ذلك إلى أن القاص أو القصاص الذين وضعوها كانوا بمصر بعيدين عن ساحة الأحداث أو ساحاتها فبدت وقائعها وكأنها أخلاط أحلام ، بما فى ذلك اسم بطليها العربيين الخياليين : أبى زيد الهلالى ودياب بن غانم الزغبى . وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنها تأخرت فى وضعها طويلا عن زمن أحداثها ولذلك كنا نظن أنها أُلفت فى القرن السابع الهجرى أو بعده فى القرن الثامن وهى مكتوبة باللغة اليومية : شعرا ونثرا ، وقد تعلق بها الشعب المصرى فى ريفه وحضره ، وعادة كان يلقيها على الناس منشد على ربابة فى المقاهى والحفلات ، يسمونه الشاعر . وللسيرة ثلاث مراحل : مرحلة الريادة إلى بلاد المغرب ، وفيها يرود الطريق بطلها الخيالى أبو زيد الهلالى وأبناء أخته يحيى ومرعى ويونس وفى تونس يُلْقَى بهم فى غياهب السجون ، ويستطيع أبو زيد الفرار من السجن ويستنفر القبيلة لتخليص أبنائها الثلاثة . والمرحلة الثانية تسمى التغريبة وفيها تهاجر القبيلة إلى تونس وتمكنها سعدى ابنة ملكها الزناتى خليفة من دخولها وتَفك القبيلة الأسرى الثلاثة . ويأخذ الحسن بن سرحان القيروان ودياب تونس وأبو زيد الأندلس ويستولون على قلاع كثيرة حتى يصلوا إلى أقصى المغرب . والمرحلة الثالثة خاصة بأبناء الأبطال ويسمون الأيتام ، وفيها يجمع زيدان بن أبى زيد الهلالى العرب من الشام والحجاز ويلتقى بهم فى صعيد مصر ويرحل معهم إلى تونس ويشدد الحصار عليها وعلى أميرها دياب بن غانم الزغبى وبوافيه الهلالية من الأندلس ويفتحون جميعا المدينة ويقتلون دياب بن غانم . ويتنازل الهلالية عنها لابن الزناتى خليفة ويتأمَّر على الهلالية ابن الحسن بن سرحان ، ويعود زيدان الهلالى إلى صعيد مصر ، كما يعود الهلالية الذين قدموا من الأندلس إليها . وبذلك تنتهى السيرة ، وهى تمتلئ بانطباعات مصرية كثيرة .

سيرة الظاهر بيبرس [١]

كان طبيعيا أن يضع المصريون سيرة شعبية طويلة للظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التى لم تقم بعدها للتتار قائمة . بل لقد ولوا الأدبار إلى الشمال فى الشام وبيبرس يلاحقهم حتى اتجهوا شرقا إلى شمالى العراق . وبمجرد استيلائه على الحكم فى مصر سنة ٦٥٨ أخذ يثبِّت حكمه باستقدامه أحد سلالة العباسيين ، وكان من أبناء الخليفة العباسى الظاهر ونجا من مذبحة المغول ببغداد ونزل دمشق ، فاستدعاه بيبرس إلى القاهرة ، وبايعه بالخلافة ، وبذلك أصبح بيبرس حاميا لها . وتبعه فى حمايته سلاطين المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم العثمانى فاتح مصر الخليفة العباسى معه إلى القسطنطينية . وكان بيبرس سيوساحازما وقائدا ماهرا فاتسع بدولته فى الجنوب ببلاد النوبة ودانت له القبائل فى ليبيا ، وهزم التتار على الفرات فى غير معركة وأوقع بالأرمن خسائر فادحة ، وكال للصليبيين ضربات قاصمة ، واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم ، ودان له الحشاشون الفدائيون داخل الشام بالطاعة . وَتُعَدُّ أيامه أزهى أيام مصر زمن المماليك وأعظمها ازدهارا ، لذلك كان من الطبيعى أن تؤلَّف عنه سيرة شعبية ، وهو فيها بطل عربى يسمى « محمود بيبرس » وقد مثلوا فيه الفروسية العربية ومظاهرها الباسلة وخاصة فى حروبه مع الصليبيين .

ولغة السيرة عامية والنثر يغلب فيها بالقياس إلى الشعر ، ولذلك لم تكن تُنْشد ، بل كانت تُرْوَى ، وتنسب إلى أربعة رواة أصليين هم ابن الدينارى وكاتم السر أى كاتب السر وناظر الجيش والصاحب والدويدارى (تحريف للدوادار) وهو الأمين الخاص للسلطان . وتتداخل فى السيرة قصص طويلة كقصة إبراهيم الحورانى ورحلته إلى روما . وتتحدث السيرة عن نشأة محمود بيبرس وعلاقته بالسلطان الأيوبى نجم الدين الملقب بالملك الصالح وماعهد إليه من الأعمال ، وصلته بشجرة الدر وأيبك وقطز . وتصف جلوسه على عرش مصر وامتداد حروبه وساحات بطولته إلى أوروبا ، وتعرض أعماله وإخضاعه الفدائيين الحشاشين المشهورين بكثرة اغتيالاتهم منذ زعيمهم الحسن الصبَّاح ، وتذكر من زعمائهم جمال الدين شيحه ، ولعله صاحب القبر المعروف باسمه فى دمياط . ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية النصرانية وقد أنجبت منه ابنا حاربه قبل أن

---

(١) انظر هذه السيرة تحت كلمة بيبرس فى دائرة المعارف الإسلامية .

يعرفه . ويبدو أن هذه السيرة لم تكتب فى عهد قريب من الظاهر ، لأن الأحداث التاريخية وأسماء الأبطال سوى الظاهر يشوبها كثير من الخيال وتحفل بأساطير وأعمال خارقة للعادة ، ونرجح كتابتها بعد القرن السابع وقد تكون كتابتها تأخرت إلى القرن التاسع الهجرى .

سيرة [١] سيف بن ذى يزن

قصة شعبية مصرية طويلة ، تعرض بطولة سيف بن ذى يزن سليل ملوك حمير ، وهى تصور الصراع بين العرب والأحباش فى أواخر العصر الجاهلى . وكيف طردهم سيف بن ذى يزن من الجزيرة العربية بعد أن كانوا قد سيطروا على اليمن . وهى فى ١٧ جزءا وتحمل كثيرا من الأساطير والعجائب ومغامرات سيف بن ذى يزن فى سبيل استقلال بلاده ، وبذلك تأخذ السيرة مكانة فى التاريخ القومى العربى ، إذ موضوعها حرب بين العرب وأمة الأحباش الأجنبية. وتجعل السيرة سيف بن ذى يزن حَنيفا يقتحم معاقل الشرك وهو يقول انما لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله ، ويغلب أن تكون قد أُلفتِ بمصر فى القرن الثامن أو التاسع للهجرة .

ألف [٢] ليلة وليلة

ذكر ابن النديم فى كتابه « الفهرست » : من كتب الأسمار والخرافات التى نُقلت عن الفرس كتاب هزار أفسانه أى ألف خرافة . والمعروف أنه يرجع إلى أصل هندى . ويغلب أن يكون قد نُقل إلى العربية فى القرن الثالث الهجرى ، ولا يعرف بالضبط متى أضيفت إلى اسمه وهو ألف ليلة كلمة ليلة الثانية ، ويغلب أن يكون قد أريد بها أن يحوى ليالى كثيرة تزيد عن الألف . وأخذت تضاف إلى الكتاب فى بغداد أقاصيص كثيرة ، وبالمثل أضافت إليه مصر بدورها أقاصيص متنوعة . ويمكن أن تميز الأقاصيص الهندية الأصل فيه بتداخلها كحكاية الصعاليك الثلاثة .

وتميَّز الحكايات الفارسية فيه بحكايات الظرفاء وبعض الحكايات المفردة . وبه حكايات عربية خالصة كحكاية حاتم الطائى وإبراهيم المهدى . ويشيع فى الحكايات البغدادية ذكر هرون الرشيد وتنكره وتدينه البالغ وحبه لمباهج الحياة وللرعية وحب الرعية له ووصف بلاطه وقصوره . وتكثر

---

(١) راجع فى هذه السيرة وما بها من تأثيرات مصرية مقال باريه عنها فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر فى ألف ليلة وليلة بحثا لأحمد حسن الزيات فى كتابه « أصول الأدب » ودائرة المعارف الإسلامية وما ذكرت من مراجع .

القصص المصرية فى الكتاب وحكايات الشطار بها وما تطبع به من المروءة والفكاهة كما فى حكايات علاء الدين أبى الشامات وأحمد الدنف ودليلة المحتالة وزينب النصابة ومعروف الإسكافى وعلى الزيبق ، ويشيع السحر فى هذه الحكايات كما تشيع عادات المصريين ، وتصوِّر حياتهم فى الأسواق والحمامات ومايغلب عليهم من الإيمان بالطلاسم والرقى والتعاويذ . ونلتقى بجوانب من هذا كله فى حكايات مصرية أخرى كحكاية أبى قير وحكاية أبى صير ومثلها حكاية المصباح العجيب وأيضا حكاية مريم الزنارية ، وحكاية الصعيدى وزوجته الإفرنجية وهما تعكسان الصراع بين المسلمين وحملة الصليب . وأهم من كل ماسبق لمصر فى الكتاب أنها هى التى أخرجته بلغتها العامية فى صورته المعروفة لنا ولأسلافنا منذ القرن الثامن الهجرى .

وقد انتشرت ألف ليلة وليلة بلغتها العامية المصرية فى جميع بلدان العالم العربى ، وبالمثل انتشرت فيها بتلك العامية القصص الشعبية : قصص عنترة والهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن . وكان لذلك أثر واسع فى تعرف تلك البلدان على العامية المصرية من قديم . وكثيرون يظنون أن تعرف تلك البلدان على عاميتنا أو لغتنا اليومية حديث وأن الإذاعة والسينما أتاحا لها هذا التعرُّف فى عصرنا ، وهو – كما قلنا – تعرُّف قديم .

القسم الثانى

الشَّامُ

الفصل الأول
السياسة والمجتمع

١

فتح العرب للشام والحقب[1] الأولى

(١) فتح العرب للشام

تقع الشام فى قلب الشرق الأوسط وَسَطَ العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط ، وهى سهل ساحلى يمتد من خليج إسكندرونة فى تركيا شمالا إلى طورسيناء جنوبا ، ومن البحر المتوسط غربا إلى بادية الشام شرقا ، والشام بذلك تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرقى الأردن . وتجرى فيها أنهار صغيرة أهمها العاصى المتجه إلى الشمال فى سوريا ، والليطانى المتجه إلى الجنوب ، وبَرَدى المتجه إلى الشرق مكونا بساتين دمشق المسماة بالغوطة ، ونهر الأردن الذى يصب فى البحر الميت ، وفى أطراف الأردن الشمالية بحيرة طَبرِيَّة . وبجنوبى دمشق هضبة حوران . وفى شمالى الهضبة الشرقى منطقة اللجأ وفى جنوبيها الشرقى جبل الدروز . وتنساب الشام شرقى حوران والأردن فى بادية الشام المتممة لصحراء العرب . ومن قديمٍ يُزْرعُ بها القمح والزيتون والتين والفواكه ، وبها فى الشمال أشجار النُّقْل المختلفة وهيأ ذلك أهلها لكى يعرفوا الاستقرار من أعتق الأزمنة ، كما هيأ البلاد لاندفاع بدو الجزيرة العربية إليها ، إذ تفيض عسلا ولبنا . وقد اندفعوا إليها فى شكل هجرات كبيرة ، لعل أقدمها هجرة الأموريين إلى شماليها حوالى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، وتلتها – وربما صحبتها – هجرة الكنعانيين أو الفينيقيين إلى السهل الساحلى . وقد استولى تحوتمس فرعون مصر حوالى سنة ١٤٤٠ ق . م على جزء كبير من الشام ، وظل الأموريون والفينيقيون خاضعين لمصر نحو قرن إلى أن شُغِلت عن ممتلكاتها فى الشام لعهد

---

(١) انظر فى تاريخ الشام القديم وزمن الدولة الأموية والولاة العباسيين كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى (الترجمة العربية نشر دار الثقافة ببيروت) وراجع فى فتوحها وتاريخها الإسلامى تاريخ الطبرى وابن الأثير ، ومروج الذهب للمسعودى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى والمغرب (قسم الفسطاط) لابن سعيد وتاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولة العربية وسقوطها لڤلهوزن وتاريخ العرب – مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين) .

إخناتون بسبب ثورته الدينية المعروفة . وتفد على الشام هجرة كبيرة من الجزيرة العربية هى هجرة الآراميين إلى الشام الأوسط ومنطقة دمشق وهجرة العبرانيين إلى فلسطين .

ولم يكوِّن الفينيقيون لأنفسهم دولة فى السهل الساحلى بل ظلوا جماعات صغيرة لكل جماعة أميرها فى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء وصور وعسقلان وغزة ، وكانوا شعبا بحريا تجاريا ، وازدهرت تجارتهم بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، وكوَّنوا لهم مستعمرات فى إسبانيا ومراكز تجارية فى كورسيكا وسردينيا وصقلية وكريت وساموس فى اليونان . وقضى على النشاط التجارى لهذا الشعب الفتح الأشورى فى القرن الثامن قبل الميلاد . وكون العبرانيون لأنفسهم مملكة أورشليم فى القرن العاشر ق . م . وفيه بلغت ذروتها لعهد داود وسليمان ، ثم أخذت فى الضعف حتى قضى عليها الأشوريون فى القرن الثامن ق . م . ودمر بختنصر أورشليم فى القرن السادس ق . م . وجلاهم عنها إلى بابل ، حتى إذا سقطت دولة بابل سنة ٥٣٩ ق م . أذن كورش لمن يريد منهم العودة إلى أورشليم أن يعود . وظل الشام منذ هذا التاريخ تابعا للدولة الفارسية إلى أن فتحه الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٤ ق . م . وتولَّت بعده شئونه دولة السلوقيين اليونانية حتى انتزعه منها الرومان فى القرن الأول ق . م . ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية كان الشام من نصيب الامبراطورية الشرقية وظل تابعا لبيزنطة حتى استخلصه العرب منها .

وقد استطاع العرب الشماليون أن يقيموا مملكتين أو إمارتين لهم فى أطراف الشام : إمارة النبط فى شرقى الأردن أقاموها منذ القرن الثالث ق . م وكان لها عاصمتان : بَطْرَا فى الجنوب بشرقى الأرْدُنّ وبُصْرَى فى الشمال بالقرب من دمشق ، وكانت تتكلم العربية فى أحاديثها اليومية بينما كانت تكتب نقوشها بالخط الآرامى ، وقضى الرومان على استقلالها سنة ١٠٦ للميلاد وضموها إلى دولتهم الرومانية . والمملكة الثانية مملكة تَدْمُر شمالى بادية الشام ، وبلغت أوجها فى القرنين الثانى والثالث للميلاد وخاصة فى عهد أميرها أُذَيْنة ، وقد نصبه الرومان ملكا على سوريا جميعها وعادوا فى عهد زوجته الزباء ، فقضوا عليها وعلى الإمارة فى سنة ٢٧٣ للميلاد . ولم تلبث قبيلة عربية أن شَقَّت طريقها إلى منطقة حوران جنوبى دمشق ، وهى قبيلة الغساسنة واستطاعت أن تقيم لها إمارة ، ولم تكن لها عاصمة مستقرة ، فقد كانت تنتقل من مكان إلى آخر ، فمرة تتخذ عاصمتها فى الجولان ومرة فى جِلِّق أو الجابية ، وكانت موالية لبيزنطة وتحارب فى صفوفها ضد إيران وعرب الحيرة . ومن أهم أمرائها الحارث بن جبلة وهزيمته للمنذر صاحب الحيرة يوم حَليمة بالقرب من قِنَّسْرين سنة ٥٥٤ مشهورة وفيها خرَّ المنذر صريعا . وما نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادى

حتى تتمزق وحدة هذه الإمارة ، ويتوزع أجزاءها غير أمير . ونستطيع أن نميز بينهم النعمان بن الحارث ممدوح النابغة وأخاه عمرو ممدوح حسان ، ولحق منهم الفتوح الإسلامية جبلة بن الأيهم وأسلم ، ثم تنصر ولحق بيبزنطه .

وحين دخلت الجزيرة العربية جميعها فى دين الله الحنيف وانضوت تحت لوائه أحست دولة بيزنطة فى الشام ودولة الفرس فى العراق بأنها قوة ينبغى أن يُدْرَأ خطرها . وهو ماجعل أبابكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لتجاهد فى سبيل الله ونشر دعوة الإسلام الدولتين الكبيرتين قبل أن تتآزرا على حرب الإسلام والمسلمين فى الجزيرة شرقا وشمالا . وكان الفساد قد استشرى فى حكم الدولتين واستشرى معه ظلم الرعية والبغى الأثيم . واستولى المسلمون من الفرس سريعا على جنوبى العراق ، وتوالت انتصاراتهم عليهم ، وبادر الصديق فسيَّر فى سنة اثنتى عشرة للهجرة جيشين لحرب البيزنطيين أو الروم فى الشام : جيشا بقيادة يزيد بن أبى سفيان إلى البلقاء فى شرقى الأردن ، وجيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرقى من فلسطين ، وكتب إلى خالد بن الوليد فى العراق أن يلحق بجيشى الشام ، فلحق بهما وتولى قيادتهما ، وفتح بُصْرى شمالى البلقاء . ونازل الروم فى أجنادين بفلسطين بين بلدتى الرملة وبيت جبرين الحاليتين ، وهى أول معركة كبرى بين العرب والروم ، وفيها سحقهم سحقا ذريعا ، وتقدم إلى الشمال حتى دمشق وظل محاصرا لها حتى استسلمت . وجمع الروم صفوفهم فى اليرموك أحد روافد نهر الأردن فدمرهم خالد وجنوده ولم تقم لهم بعد ذلك فى الشام قائمة وفتحت بلدانها جميعا أبوابها للعرب المنتصرين . وبذلك استولى العرب على الشام فى نحو سنتين .

وخرج عمر بن الخطاب فى سنة ١٦ إلى الجابية — جنوبى دمشق على مسيرة يوم منها — وهى إحدى عواصم الغساسنة كما مر آنفا ، وبها عقد مؤتمرا ضَمَّ ولاة الشام وقوادها لتنظيم الإدارة فى ديارها ، وفتحتْ له القدس أبوابها ، وأمَّن عمر النصارى بها ورهبانها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وحريتهم الدينية ، والتمسوا منه أن يُخْلى القدس من اليهود وأجاب ملتمسهم ، ولم يبق بها يهودى . وقسم الشام إلى أربعة أجناد : جند الأردن وجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص ، وزيد فيما بعد لعهد الأمويين جند قِنسّرين والعواصم والثغور . واشتهرت سنة ١٨ للهجرة باسم سنة طاعون عمواس ، وكانت بلدة بين نابلس والرَّملة الحاليتين ، وفيه توفى أبوعبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل ويزيد بن أبى سفيان والى دمشق ، وولاها عمر بن الخطاب بعده أخاه معاوية . وامتد لواء ولايته لها فى عهد عثمان حتى شمل الشام ، وعمل على الاستعانة ببدو الشام فى

شئون الإدارة مما جعلهم يلتفُّون حوله ، وظهر ذلك سريعا حين تولى الخلافة على بن أبى طالب ، وعزله ،. فإنه سرعان ماطالب بدم عثمان وناصره بدو الشام .

وتطورت الظروف سريعا إلى أن نشبت حرب صِفِّين بين معاوية وبين على بن أبى طالب كما هو معروف ، حتى إذا أيقن معاوية بالهزيمة أمر جنده – استجابة لمشورة عمرو بن العاص – أن يرفعوا المصاحف على أسنة رماحهم داعين إلى الاحتكام إلى كتاب الله . ورضى على وأُقيم حكمان للفصل بين الطرفين : أما جند على العراقيون ، فاختاروا أبا موسى الأشعرى ، واختار معاوية وجند الشام عمرو بن العاص ، ويروى الجاحظ أن معاوية قال له : « ياعمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضُمَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى فأجِدِ الحَزَّ وطَبِّق المَفْصِل ، ولاتلقه برأيك كله » . وصدق حَدْس معاوية فقد استطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بعزل على عن الخلافة لوقف الحرب وحقن دماء المسلمين . وأُعلن الحكم ، وانقسم جيش على : فرقة معه وفرقة سَمَّت أنفسها الخوارج ، وهو أول ظهورهم فى التاريخ الإسلامى وحاربهم ونكَّل بهم ، ولم يلبث أن اغتاله خارجى أثيم . وبذلك خلا الجو لمعاوية وخاصة حين أعلن الحسن بن على تنازله عن الخلافة له . وقد بايعه جنده وأمراؤه بالخلافة فى بيت المقدس واتخذ دمشق حاضرة لخلافته .

(ب) زمن الدولة الأموية

أسس معاوية فى الشام الدولة الأموية وتوزعها فرعان : فرع سفيانى نسبة إلى أبى سفيان ، معاويةُ على رأسه وابنه يزيد ، وفرع مروانى من البيت الأموى نسبة إلى مروان بن الحكم ومن خَلفه من أبنائه وأحفاده . وكان معاوية بعيد النظر سيوسا حازما ، وكان له بصر بالشخصيات من حوله ، فاستعان بطائفة من صفوة الحكام فى مقدمتهم عمرو بن العاص فى مصر ، والمغيرة بن شعبة الذى ولاه الكوفة ، وزياد بن أبيه الذى اختاره للبصرة وإيران حتى إذا توفى المغيرة ضم إليه الكوفة وقد استطاع زياد أن يقضى على معارضة على فى شرقىّ الدولة وأن ينشر فى ربوعه الأمن . ووجه معاوية حملات مختلفة إلى بيزنطة واستطاع حصار القسطنطينية مرتين ووجه حملة بحرية إلى قبرس ، وكانت دمشق قاعدة الخلافة فى زمنه وكان يستعين بأهل الشام فى شئون الحكم وعمها الرخاء . وشمل المسيحيين بتسامح واسع واتخذ لنفسه مستشارا ماليا منهم هو سرجيوس ، إذ وكل إليه فيما يقال الشئون المالية . ويبدو أنه كان حاكما لدمشق قبل فتحها . على كل حال استعان به

معاوية فى الشئون المالية لدمشق ، وظلت أسرته بعده فى خدمة الأمويين فكان ابنه يشرف على الخراج لعهد عبد الملك ، وبالمثل استعان الأمويون بحفيده ، وفى عهده توغل عقبة بن نافع – ابن خالة عمرو بن العاص – فى البلاد المغربية ، وأسس فى وسطها القيروان بتونس ، وواصل فتوحه فى عهد معاوية وابنه يزيد حتى أشرف على المحيط الأطلسى .

ولما خلف معاوية ابنه يزيد أَبَى البيعة له عبد الله بن الزبير ولاذ بالحرم المكى ، كما أباها الحسين ابن على واتجه إلى العراق ، فلقيته طلائع جيش لعبيد الله بن زياد والى العراق قبيل دخوله الكوفة فى «كَرْبلاء» غربى الفرات ولما أبى الاستسلام نازلوه واستشهد الحسين ومن كان معه من أهله وأنصاره مما كان له أكبر الأثر فى التطور السريع للشيعة ، ولايخلو ضريحه طوال العام من حُجَّاجهم إليه حتى اليوم . وكانت المدينة قد انضمت إلى ابن الزبير فأرسل يزيد إليها جيشا بقيادة مسلم بن عقبة فنكل . بها وفى طريقه إلى مكة لحرب ابن الزبير توفى وخلفه حصين بن نمير السَّكونى ، فمضى حتى حاصر ابن الزبير بمكة وجاءه نعى يزيد بن معاوية ، ففكَّ عنها الحصار وعاد بجنده إلى الشام . وخلف يزيد ابنه معاوية وتوفى بعد أربعين يوما من خلافته . واضطربت العراق ، واضطر واليها عبيد الله بن زياد إلى مبارحتها ، وانتهز الفرصة مروان بن الحكم واعتلى عرش الخلافة يؤيده بدو الشام من اليمنية وأبى بَدْوُها من القيسية مبايعته وهزمهم فى موقعة مَرْج راهط ، وتبعته مصر ، أما العراق فظل الاضطراب سائدًا فيها ، وبايع قسم منها ابن الزبير وقسم تحرك للطلب بدم الحسين وكان عبيد الله بن زياد فكر فى العودة إلى العراق على رأس جيش فقضى عليه هذا القسم ، وحاول المختار الثقفى والى الكوفة أن يجمعه تحت لوائه وقضى عليه مصعب بن الزبير والى أخيه عبد الله على البصرة .

وكان مروان بن الحكم قد توفى وخلفه ابنه عبد الملك وسر سرورا عظيما لما حاق بالمختار الثقفى وجنوده على يد مصعب ، وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه فى العراق وعلى أخيه عبد الله بن الزبير فى مكة والحجاز ، أما مصعب فذهب إليه عبد الملك فى سنة ٧١ للهجرة على رأس جيش ضخم ، وقضى عليه ، وبايعه العراقيون . وأما عبد الله بن الزبير فأرسل إليه الحجاج فى جيش كثيف ، ومازال به حتى تفرق عنه أصحابه ، وظل يستبسل فى قتال القوم حتى خرَّ صريعا . وقد عُنِى ببناء المسجد الأقصى وتعريب إدارة الدولة واستطاع أخوه عبد العزيز واليه على مصر أن يقضى نهائيا على المعارضة فى المغرب .

ويُعَدّ زمن الوليد بن عبد الملك أزهى أيام المروانيين لفتوحاته العظيمة شرقا وغربا ، أما فى

الشرق فاستطاع محمد بن القاسم فتح السند واستطاع قتيبة بن مسلم أن يمتد بانتصاراته إلى الإقليم المسمى الآن باسم أوزبكستان وعاصمته حينذاك سمرقند . وأما فى الغرب فقد استطاع موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد أن يقضيا على الدولة القوطية فى إسبانيا ، وأن يبلغا بفتوحها هناك أصى الشمال . وهذه الفتوح كانت تعود على الدولة بأموال عظيمة مم هيأ لرخاء واسع فى ديار الشام ، كما هيأ للوليد نفسه أن يهتم فى دمشق بالعمران وأن يقيم بها الجامع الأموى العظيم ويقال إنه عمل به من البيزنطيين وحدهم ألف ومائتا عامل سوى من عمل به من الفرس وأهل الشام وقد زُيِّنت جدرانه وسقوفه بالرخام المطعم والفُسَيْفساء التى كانت تمثل مدنا وأشجارا من كل نوع سوى ما كان فيه من أعمدة وتزاويق عجيبة .

وخلف الوليد أخوه سليمان واتخذ بلدة الرملة بفلسطين حاضرة له . وكان من سوء تدبيره أن نكَّل بقواد الوليد العظام ، فقُتل قتيبة ولم يعرف مصير موسى بن نصير ولا محمد بن القاسم ، وحَسنته الوحيدة انه استخلف بعده ابن عمه الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز ، وقد ألغى سبَّ على بن أبى طالب على المنابر وعمل على استمالة الشيعة والخوارج والنصارى وخفَّف من ضرائب الجزية المفروضة على الأخيرين فى قبرس وأيلة (العقبة) ونجران ومصر ، وسوَّى بين العرب والموالى فى الضرائب وأعفى منها المشتركين منهم فى حرب خراسان مع فرض أعطيات لهم ، غير أن حكمه كان قصيرا من سنة ٩٩ إلى ١٠١ . ولم يأخذ خلفاؤه بإصلاحاته ، وعجَّل ذلك باضمحلال الدولة . وأولهم بعده يزيد بن عبدالملك الذى لم يأخذ بسيرته وإصلاحاته وانغمس فى الملاهى ، وتلاه بعد نحو أربع سنوات أخوه هشام الذى اتخذ مقره فى الرُّصافة على الفرات ، وفى عهده ثار زيد بن على بن الحسين فى الكوفة سنة ١٢١ وقُتل وصُلب ، واستغلَّ ذلك دعاة العباسيين مما مهد السبيل لقيام خلافتهم بعد نحو عشر سنوات . ومُنى عرب الأندلس بهزيمتهم جنوبى فرنسا سنة ١١٤ للهجرة أمام شارل مارتل .

وتوفِّى هشام سنة ١٢٤ وخلفه عهد تضعضعت فيه الدولة الأموية وآذنت شمسها بالمغيب ، فقد خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد وكان شاعرا ماجنا فلقى مصرعه سريعا ، وجاء بعده يزيد بن الوليد وسرعان ماتوفى بعد خلافته بنحو خمسة أشهر وتلاه أخوه إبراهيم ولم يرضه الناس ولا الأسرة الأموية ، وتحولت مقاليد الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكأنه لم يعد فى أسرة عبدالملك من يصلح لها . وكان محاربا عالى الهمة ، وأخطأ بنقله عاصمة الخلافة إلى حرَّان ، فانفضَّ عنه بدو الشام ، ونشبت فتن كثيرة أضعفت قواه ، بعضها فى الشام وبعضها فى

العراق حيث الخوارج والشيعة . ولم تكد هذه الفتن تهدأ حتى تحرك العباسيون براياتهم السود من خراسان ، وأخذت المدن الإيرانية تسقط فى أيديهم ودخلوا العراق واستولوا على الكوفة ومضوا إلى شمالى العراق وهزموا مروان عند الزاب الأكبر ، فأخلى الجزيرة واتجه إلى الشام وتخلى عنه أهلها ، فالتجأ إلى مصر ، ولقى مصرعه بها فى بوصير . وكان السفاح قد أعلن الخلافة العباسية فى الكوفة وطورد الأمويون فى كل مكان وأُبيدوا بوحشية ، ونُبِشَتْ قبور خلفائهم – عدا معاوية وعمر بن عبدالعزيز – وأُذْريت عظامهم ورفاتهم فى الهواء ، ونجا من هذا البطش والنكال عبدالرحمن الداخل أحد حفدة هشام بن عبدالملك ، إذ فرَّ إلى الأندلس وأسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثة قرون .

(جـ) زمن الولاة العباسيين

فقدت الشام – بسقوط الدولة الأموية – السيادة المطلقة فى الإسلام وفقدها العرب معهم تدريجا . إذ أخذ الاعاجم يشغلون المناصب العليا فى الدولة العباسية ، وكان العباسيون يعرفون أن دولتهم إنما قامت على أسنة رماحهم ، فقربوهم منهم وفسحوا لهم فى الوزارة وغير الوزارة . وكان لذلك صداه السيىء فى نفوس أهل الشام ، مما هيَّأ بعد نحو عشرين عاما لثورة القيسية فى قِنِّسْرين بزعامة أموى هو أبو محمد السفيانى ، وسرعان ماقضى عليها العباسيون وفرَّ السفيانى إلى الحجاز ولقى حتفه هناك ، ولم يصدق أتباعه وفاته فظلوا يترقبون عودته ليجدد للشام مجده الغابر .

ونمضى إلى سنة ١٩٥ فى عهد الخليفة الأمين فيظهر فى دمشق سفيانى جديد هو على بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، ويطرد عامل الأمين عن دمشق ، ويبايعه الدمشقيون بالخلافة . وشُغل عنه الأمين بحرب أخيه المأمون مدة . ولم يلبث أن قضى على ثورته أعوان الأمين واختفى بالمِزَّة بالقرب من دمشق وأقام بها أياما ومات . وفى سنة ٢٢٧ لعهد المعتصم ثار بفلسطين المُبَرْقع أبو حرب اليمانى وزعم أنه السفيانى المنتظر ودعا أولا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى أن قويت شوكته فادَّعى النبوة ، وتبعه قوم من فلاحى القُرَى وقوى أمره وسار إليه أحد قواد المعتصم فى ألف فارس وأسره وحبسه ومات فى حبسه .

وكان أول من تولى الشام للسفاح عمه عبدالله بن على بعد قضائه على مروان بن محمد فى موقعة الزاب حتى إذا فرَّ مروان إلى الشام مضى يتبعه إلى دمشق ففتحها وهدم سورها وقتل من الأمويين ثمانين رجلا فى مذبحة مشهورة ببلدة الرَّمْلة . وولاه السفاح دمشق ، ولما ولى الخلافة بعده

أبو جعفر المنصور ، خرج عليه عبدالله ودعا لنفسه فهزمه أبومسلم الخراسانى ، وحبسه المنصور ومات فى حبسه . وتولى أمر الشام ودمشق بعد عبد الله كثير من الولاة وكان بعضهم من الأعاجم مؤيدى الدولة . واتبع العباسيون سياسة غير حكيمة أن لا يبقوا واليًا لهم فى بلد إلا مدة قصيرة . وكان هذا سببا فى أن لا يُعْنَى الولاة بالنهوض ببلدانهم من جهة ، كما كان سببا فى أن يحاولوا الإثراء سريعا قبل أن يُعْزَلوا من مناصبهم ، مما كان يدفعهم فى كثير من الأحيان إلى الزيادة فى الضرائب ، كما كان يدفع الناس إلى الثورة عليهم ، وسرعان ما كان يقضى على ثوراتهم كما حدث فى حلب سنة ١٦٢ وفى حمص سنة ١٩٤ .

ويبدو أن القبائل القيسية واليمنية لم تتعظ بما أصابها من فقدان موطنها لاستقلاله الذاتى ، فقد اندلعت بينهما نار العصبية القديمة وأخذوا يمدونها بحطب جَزْل طوال العقد الثامن من القرن الثانى ، واغتنمت السوقةبدمشق الفرصة فنهبت مااستطاعت أيديها نهبه ، وتطاحن الفريقان وسُفكت دماء المئات منهما . وأخيرًا أرسل اليهما هرون الرشيد وزيره جعفرًا البرمكى ، فأطفأ نار العصبية المحتدمة بين الطرفين بتجريدهما من السلاح وعاد إلى دمشق الهدوء والسلام . وفى سنة ٢٢٧ يولى المعتصم موسى بن إبراهيم الرافقى دمشق فتثور عليه القيسية ويقتل منها خمسة عشر نفسا ، فتشتد ثورتها وتحاصر دمشق ، ويتوفى المعتصم فيرسل الواثق خلفا له أحد قواده فيهزم القيسية ويقتل منها ألفا وخمسمائة ، وتهدأ الثورة ، ويعود الأمن إلى دمشق .

وكان الخلفاء العباسيون يرحلون إلى الشام أحيانا ، لزيارة بيت المقدس أو للحج منه ، وأكثر رحلاتهم إنما كانت لحرب البيزنطيين ، والسقوط عليهم من ثغوره . ومما يذكر لهم أنهم أقاموا فى حدوده الشمالية كثيرا من الثغور للاندفاع منها إلى آسيا الصغرى . وكانت جيوشهم ماتنى ذاهبة إلى شمالى الشام آيبة منه ، مما عاد عليه بكثير من الرخاء وانتعاش التجارة . واشتهر المهدى والرشيد بنضالهما لبيزنطة وما كان من فتح هرقلة وضرب البيزنطيين ضربات قاصمة . وأخذ المأمون منذ سنة ٢١٥ يقود حملات عنيفة لمدة ثلاث سنوات متوالية استولى فى أثنائها على لؤلؤة أقوى وأمنع الحصون البيزنطية بالقرب من طَرسوس ، مما اضطر تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى التماس الصلح . وفى سنة ٢٢٣ دق المعتصم وقواده أعناق البيزنطيين دَقًّا وأوطئوهم ذُلًّا وصَغارا إذ هدموا أنقرة وحرقوا عَمُّورية أمنع بلادهم فى آسيا الصغرى . وظل قواده من أمثال محمد بن يوسف الثغرى وابنه يوسف يَكيلون لهم ضربات ساحقة . ويظل غزو البيزنطيين صيفا فى أيام الخليفة المتوكل ، ويغيرون على بعض الثغور فى شمالى الشام . وينكل بهم على بن يحيى الأرمنى والفارس المغوار عمر

بن عبدالله الأقطع ، ويتم فتح صقلّية ، ويدمر أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول البيزنطيين . وزار المتوكل الشام فى آخر سنة ٢٤٣ ودخل دمشق وأعجبته ، وبنى له قصرًا بالغوطة وعزم على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها . ويفطن قواده من الترك إلى مأربه ، وأنه يريد التخلص منهم ، فطالبوا برواتبهم حتى يضطروه إلى العودة إلى سامَّراء عاصمته فى العراق . ونزل على إرادتهم ، وبارح دمشق سريعا . وربما كان من أهم ماخلفه عصر الولاة العباسيين بالشام كثرة العناصر الفارسية التى دخلته بين ولاة وقضاة وعلماء وفقهاء مختلفين .

(د) الطولونيون – القرامطة

١ – الطولونيون

رأينا فى حديثنا عن مصر كيف تنقلت الأحوال بأحمد بن طولون حتى وليها وأنشأ بها الدولة الطولونية محققا لها نوعا من الاستقلال الذاتى ، وكان قد ولى إمرة الثغور وجاهد فى سبيل الله . ويقول مؤرخوه إنه نشأ يُعْنَى بالفقه مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وكان يقول : ينبغى للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكا لايزول به عن قلوبهم ، وقد غم الرخاء مصر منذ وليها فى سنة ٢٥٤ ويقال إنه كان يتصدق فى كل يوم بمائة دينار غير ما كان يرسله إلى الشام والعراق والحجاز . ومنذ توليه مصر وضع نصب عينيه الاستيلاء على الشام ، ولم يكن ذلك غائبا عن فكر الموفق القائم على تدبير دولة أخيه المعتمد ، غير أنه كان مشغولا بثورة الزنج والقضاء عليها ، وانتهز ابن طولون الفرصة بعد موت والى دمشق سنة ٢٦٤ وأناب عنه بها مولاه لؤلؤًا ولم يلبث فى سنة ٢٦٨ أن أظهر الخلاف عليه وضرب نقودا باسمه وكاتب الموفق ليرسل إليه جيشًا يفتح به مصر . وخشى ابن طولون أن يهم الموفق بتلبيته ، فأرسل إلى الخليفة المعتمد وكان كالمحجور عليه يرغبه فى الرحيل إليه بمصر ، وتوجه إلى سوريا كى يكون فى استقباله . وعزم المعتمد على اللحاق به وتنبه الموفق ، فحال بينه وبين الرحيل عن العراق . ومضى ابن طولون يغاضب الموفق فقطع اسمه من الخطبة يوم الجمعة بمصر والشام إذ كان يُذْكر فيها وليا

---

(١) راجع فى هذه الدولة كتب التاريخ السالفة فى أول الفصل وسيرة أحمد بن طولون للبلوى .

للعهد ، ولم يردّ على ذلك الموفق إذ كان يميل معه إلى السلام ، ولذلك لم يرسل إلى لؤلؤ جيشًا لغزو مصر . وعادت الشام إلى ابن طولون سريعا .

وكان عهد ابن طولون فى الشام عهد رخاء وأمن ، ويقال إنه أول دخول له فى دمشق وقع بها حريق ، فأمر بأن يعطى لكل من احترق له شىء من المال مايعوّضه ، ثم أمر بمال عظيم ففرّق فى فقراء دمشق والغُوطة . وتوفى سنة ٢٧٠ فخلفه ابنه خُمارويه ، وثار عليه واليه على دمشق وولاة آخرون هناك . وأيدهم الموفق بجيش ، فمنى خمارويه بالهزيمة ، وتتابعت هزيمته فى سنتى ٢٧١ و٢٧٢ . وأخذ نجمه فى الصعود لسنة ٢٧٣ إذ كتب إلى الموفق فى الصلح فأجابه ، وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة . وسُرَّ خمارويه سرورا عظيما ، وأمر بإعادة الدعاء للموفق فى خطبة الجمعة ، وكان يتردد على الشام بجيشه الضخم كثيرا ، مما كان يعود على أهلها برواج واسع فى التجارة . وبدمشق قتله خادم له فى قصره سنة ٢٨٢ ويقال إن هذا الخادمَ كان أولع بجارية له فتهددها خمارويه بالقتل فاتفقت مع الخادم على قتله . وسرعان ما أخذت شمس الدولة الطولونية فى الغروب ، وولى بعده ابنه « أبو العساكر جيش » وعكف على الشرب واللهو فنفر القواد – ونفرت الناس – منه . وخلعه أخوه هرون بعد ولايته بتسعة أشهر ، وكان لايزال صبيا ضعيفا ، فأخذت الدولة فى التضعضع ، وعاث القرامطة فسادًا فى الشام ، ولم يستطع قواده وجنوده أن يردوهم عن دمشق وغيرها فاستغاث أهل الشام بجيوش الخليفة المكتفى وأغاثتهم . ووضح أنه لم يعد يوجد أى مسوغ للإبقاء على الأمير الطولونى المستضعف ، وخلفه عمه شيبان وكان لايقل عنه ضعفا ، ومنه تسلم مصر محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ .

٢ – القرامطة [١]

كان أول ظهور القرامطة فى العراق سنة ٢٧٧ ، وهى حركة سياسية دينية خطيرة تحدثنا عنها بالتفصيل فى كتابنا العصر العباسى الثانى ، وأوضحنا كيف أنها بدأت بإيحاء من عبدالله بن ميمون

---

(١) انظر فى القرامطة كتب التاريخ وخاصة الطبرى ، وكتب الملل والنحل وخاصة الفرق بين الفرق للبغدادى ، ودراسات فى العصور العباسية المتأخرة لعبدالعزيز الدورى ص ١٢٦ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٩ وكتابنا العصر العباسى الثانى ص ٣٣ ومابعدها .

القدّاح منظم الدعوة الإسماعيلية الشيعية مَن مركزه فى « سَلَمْية » بالقرب من اللاذقية . وكيف أنه أرسل دعاته إلى العراق وخاصة الكوفة وسوادها وعلى رأسهم الحسين الأهوازى ، وقد التقى فى لسواد بنبطى يلقب بَقْرمط ووجد فيه أمنيته من التحمس الشديد للدعوة . ولما دنا أجله عهد إليه بها فنظمها . وتبعه كثيرون مكونين فرقة القرامطة نسبة إليه ، وسرعان ما تحولت الفرقة إلى فرقة مارقة تُحلُّ أتباعها من الفرائض الدينية وتفرض عليهم نظاما اشتراكيا فى الأموال . وانضم إلى قَرْمط قليل من الطبقة الكادحة لا فى السواد والريف فقط بل أيضا فى المدن ، ومن أهم أتباعه الحسين بن بهرام الجنابى الفارسى الذى نشر الدعوة فى البحرين والأحساء . ويخلفه فى سنة ٢٨٩ زكرويه القرمطى وكان أكثر نشاطا من قرمط ، فرأى أن يعنى بنشر الدعوة بين البدو فى جنوبى العراق ولم يتبعه إلا القليل ، حينئذ أرسل أولاده يحيى والحسين ومحمدا إلى عشائر قبيلة كلب فى بادية الشام وزعموا لها أنهم من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبعهم كثيرون وخاصة بنى العُلَيْص . وكانوا قد جعلوا زعامتهم لأخيهم يحيى فبايعه البدو وكانت له عضد ناقصة فكشفها لهم وقال إن هذه آيته . وآية له ثانية هى ناقته ، وزعم أنهم إذا تبعوها فى لقاء عدو كُتب لهم النصر المبين . وساق جموعه فى الشام يعيثون ويفسدون ، وحاصر بهم دمشق فقُتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة له ، وأظهر لهم شامة فى وجهه الملثم وقال إنها آيته ، ولذلك لُقِّب صاحب الشامة . وخافه أهل دمشق فصالحوه على خراج يؤدونه إليه ، وتغلب على حمص وخُطب على منابرها بأنه المهدى المنتظر ، وهاجمت جموعه بعلبك وحماة والمعرة تقتل وتنهب . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية كما مر بنا ، وكانت تعانى ضعفا شديدا ، فلم تستطع أن تنقذ الشام من القرامطة وما أحدثوه بها من الفوضى والدمار ، مما جعل أهل الشام يستغيثون منهم بالخليفة المكتفى ، ولبى استغاثتهم فأرسل إليهم محمد بن سليمان على رأس جيش كثيف ، فواقع القرامطة بالقرب من حماة فى المحرم سنة ٢٩١ وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وفرَّ كثيرون منهم إلى البوادى . أما الحسين بن زكرويه فاتجه إلى الفرات ، وأُسر هناك وصُلب ببغداد مع عشرات من القرامطة . وكان أخوه محمد لايزال حيا بين بدو الشام ، فأخذ فى جمعهم حوله ، حتى إذا كانت سنة ٢٩٣ أغاربهم على دمشق وحارب أهلها ودخلها وأعمل فيها القتل والنهب ، ثم صار إلى طَبريَّة فانتصر على أهلها ودخلها وفتك بكثير من رجالها ونسائها وعاد إلى البادية . وفى نفس السنة أرسل زكرويه داعية له يسمى أبا غانم إلى بادية الشام ، وتبعه كثيرون ونهب بهم بُصْرى وأذرعات ، وتعقَّبته جنود الخلافة ولم يلبث أحد أتباعه أن قتله . وبذلك تنتهى حركة

زكرويه وأولاده ودعاته فى الشام ، وكانت قد أصبحت منذ انتصار محمد بن سليمان على صاحب الشامة تابعة لبغداد ، ترسل إليها ولاة مختلفين .

(هـ) الإخشيديون – الحمدانيون (سيف الدولة)

١ – الإخشيديون[1]

مرَّ بنا فى مصر حديث عن الإخشيد وتأسيسه فيها الدولة الإخشيدية منذ سنة ٣٢٣ وما تُقبل سنة ٣٢٨ للهجرة حتى تحدَّث محمد بن رائق صاحب دمشق نفسه بالاستيلاء على مصر ، ويلتقى به الإخشيد فى الفَرَمَا ، ويتم بينهما الصلح . وسرعان ماينقضه ابن رائق ويتهيأ الإخشيد لقتاله ، ويلتقيان ثانية فى العريش وتحدث بينهما وقعة عظيمة . ويصطلحان على أن تكون للإخشيد الرملة وجنوبيها فى فلسطين ، أما شماليها من بلاد الشام جميعا فتكون لابن رائق . وحدث فى سنة ٣٣٠ أن قتل الحمدانيون محمد بن رائق وانتهز الفرصة الإخشيد وجهز الجيوش إلى الشام واستولى عليها ، ودخل دمشَق وأصلح أمورها وأقام بها مدة ، ثم عاد منها إلى الفسطاط فى السنة التالية . ووقعت بينه وبين سيف الدولة الحمدانى أمير حلب وحشة امتدت من سنة ثلاث وثلاثين إلى أول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية وتظل بقية بلاد الشام للإخشيد . وسرعان ماتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ مستخلفا بعده على مصر والشام ابنه أنوجور وعاهدا إلى مولاه كافور الإخشيدى بتدبير أمور مملكته . وفى أوائل إمارة أنوجور لسنة ٣٣٥ استولى سيف الدولة الحمدانى على دمشق ، فحشد له أنوجور عسكرًا ضخما ولقيه فى مدينة الرملة ، ونشبت بينهما وقعة طاحنة انكسر فيها جند سيف الدولة وسار المصريون وراءهم إلى حلب . واستقر الأمر على الصلح وأن يظل لسيف الدولة مابيده من حلب وحمص وأنطاكية ، أما دمشق وبقية الشام فتظل لأنوجور . وينزل المتنبى مصر فى أيامه سنة ٣٤٦ ويتوفى أنوجور سنة ٣٤٩ قبل مبارحة المتنبى لها ويخلفه أخوه على ويظل كافور قائما بتدبير الدولة وتصريف شئونها . وفى سنة ٣٥٢ قدم قرامطة البحرين إلى الشام وعاثوا فيها فسادا ولم يستطع جند مصر دَفعهم عنها لاضطراب أعمال الديار المصرية بسبب عظم الغلاء وكثرة الفتن ، وفسد فى أثناء ذلك مابين على

---

(١) انظر فى الإخشيديين كتب التاريخ المذكورة فى أول الفصل وخاصة النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ، وانظر قسم مصر ص ١٩ .

ابن الإخشيد وكافور ولم يلبث على أن توفى سنة ٣٥٥ وتولى أمر الدولة فى مصر والشام بعده كافور الحبشى باتفاق من أعيان مصر وجندها . وكان الإخشيد اشتراه من بعض رؤساء مصر وأعتقه ورقَّاه حتّى جعله من كبار قواده لما رأى فيه من الحزم وحسن التدبير ، وكان شجاعا مقداما . وظلت ولايته على مصر والشام إلى وفاته فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ وتولّى بعده على بن أحمد بن الإخشيد ، وكان – كما مر بنا فى قسم مصر – صبيا ، واضطربت أحوال الشام فى عهده اضطرابًا شديدًا بسبب غارات القرامطة المتكررة وما كان يصحبها من الفوضى والنهب والسلب . وسرعان ماسقطت مصر فى يد الفاطميين لسنة ٣٥٨ وبذلك انقرضت دولة الإخشيديين .

٢ – الحمدانيون[١] (سيف الدولة)

منذ أواخر القرن الثالث الهجرى أخذ يتألق اسم أسرة تغلبية عربية هى الأسرة الحمدانية ، وقد استطاع مؤسسها حمدان فى سنة ٢٧٧ أن يستولى على قلعة ماردين فى الموصل ، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع فى أحداث الخلافة المضطربة ، ولمع من بنيه مبكرًا اسم أبى الهيجاء لاستيلائه على مدينة الموصل سنة ٢٩٣ وظلت فى يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبى تغلب المتوفى سنة ٣٦٩ . وقد استطاع ابنه على الملقب بسيف الدولة أن يستولى من الدولة الإخشيدية على حلب وحمص واللاذقية وأنطاكية وأسس فيها جميعا إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣ للهجرة متخذًا حلب عاصمة له . وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد – كما مر بنا – غير أن المصريين ردوه على أعقابه فاكتفى بإمارته . وندب نفسه لمهمة عظمى طالما هيأ نفسه لها منذ شبابه ، وهى النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين . وكان أول لقاء له معهم فى سنة ٣٣٦ إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا فلحق بهم وأذاقهم نكالا شديدًا ، وردَّ منهم كل ماسلبوه من أهل الشام . ويُكتَبُ له منذ السنة التالية مجد حربى عظيم ضد الروم ، ويسجله له لوحات شعرية ناطقة المتنبى الذى نزل بلاطه حينئذ ، ولزمه حتى سنة ٣٤٦ يسجل ويصور ملاحمه الحربية الساحقة للروم سحقًا ذريعا .

---

(١) انظر فى الأسرة الحمدانية وسيف الدولة كتب التاريخ السالفة والجزء الأول من زبدة الحلب فى تاريخ حلب لابن العديم (طبع المعهد الفرنسى بدمشق – تحقيق الدكتور محمد سامى الدهان) وراجع اليتيمة للثعالبى ١٥/١ ومابعدها ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع فى الحمدانيين وسيف الدولة

ومضى البطل الحمدانى يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصبُّ عليهم فيها سنويا كإعصار محرق مدمر ، وشاعره المتنبى من ورائه يتغنى بانتصاراته وبخوارقه البطولية حين تلم به كارثة ، إذ يتخلص منها فى شجاعة نادرة . ومن أعظم بطولاته أنه كان يبنى الحصون فى أثناء نزاله للروم على نحو ماصنع بحصن مَرْعش فى سنة ٣٤١ وهو يكيل لهم ضربات قاصمة . وقد أنزل بهم صواعق الموت التى لاتبقى ولاتذر فى سنة ٣٤٢ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه فى دخوله حلب مظفرًا منصورًا . وفى سنة ٣٤٣ جمع الروم له حشودا هائلة من الترك والروس والبلغار والخزر بقيادة الدمستق ، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقا ، وهرب الدمستق على وجهه لايلوى ، وأُسر صهره بينما كان البطارقة يقتلون ويؤسرون ، وأخذ سيف الدولة عسكرهم بكل مافيه . وسيف الدولة فى أثناء هذه المعركة ووطيسها المستعر يبنى حصن الحدث شمالى مرعش والمسلمون يكبِّرون ويهلِّلون . وفى سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة . وكان ماينى يمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة فى نزاله للروم شمالى الموصل وكثيرا مانازلهم هناك وفى شمالى الجزيرة . وما تقبل سنة ٣٤٦ حتى يكفهرّ الجو بين المتنبى وبين البطل العربى . ويرحل عنه وكأنما رحل معه مجده الحربى فقد واقع الروم فى السنوات ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ولم يُنْزل بهم ماتعوَّد من التنكيل الشديد .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه فى سنة ٣٥٢ فالج فى يده ورجله ورغم هذا الفالج النصفى نهض البطل من فراشه وصدَّ بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب . وفى سنة ٣٥٦ لَبَّى البطل نداء ربه ، وكان قد أوصى بأن يوضع خده فى لحده على لَبِنَةٍ بقدر الكف جمعها مما علق بثيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم . ونُفِّذت وصيته . وكان يرعى العلوم والآداب أعظم رعاية . ولمع فى بلاطه أكبر تلامذة أرسطو حتى زمنه : الفارابى المعلم الثانى . ولمع كثير من الشعراء والكتاب يتقدمهم المتنبى ، وعقد لهم الثعالبى فى كتابه «يتيمة الدهر» فصولا طويلة فى الجزء الأول منه ، وفيه وفى أسرته يقول : «كان بنو حمدان ملوكا وأمراء أَوْجُههم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرَّجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسط قلادتهم ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقِبْلة الآمال ، ومحط الرِّحال ، وموسم الأدباء ، وحلْبة الشعراء» . وخلفه ابنه سعد الدولة ، وكان ابن عمه أبوفراس الشاعر المشهور عامل أبيه على حمص قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه ، فقاتله وخرَّ أبوفراس فى ميدان الحرب صريعا . وفى نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه ، فأسل إليهم قَرْغُويه الحاجب وأُسر وأفلت منهم وانهزم أصحابه وخرَّب نقفور كثيرًا من بلدان الشام وأعمل النهب

والسلب . وعصى قرغويه سعد الدولة واستولى على حلب فى أول سنة ٣٥٨ ولم يلبث نقفور أن استولى على انطاكية ، وظلت فى أيدى الروم إلى أن فتحها السلاجقة سنة ٤٧٧ وأمضى معه قرغويه صلحا ذليلا ، واصطلح مع سعد الدولة الذى ظل أميرًا لحلب حتى توفى سنة ٣٨١ فخلفه ابنه سعيد الدولة ، وقد عقد مثل أبيه حلفا بينه وبين الروم ضد الفاطميين الخطر المشترك للطرفين ، وتوفِّى سنة ٣٩٢ . وخلفه ولدان له ، ولعب بهما لؤلؤ مولى جدهما واستولى على الأمور إلى أن توفى وقام مكانه ابنه منصور . وحاول ابن لسعد الدولة يسمى أبا الهيجاء أن يسترد إمارة آبائه ولم يلبث ان فرَّ الى بلاد الروم فى مطالع القرن الخامس الهجرى ، وبذلك انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمالى الشام ، ولم تكن إمارة لهم حقا إلا فى عهد سيف الدولة المجيد

٢

الفاطميون – بنو مرداس – السلاجقة – الصليبيون – آل زنكى (نور الدين)

(ا) الفاطميون[١]

مرَّ – فى قسم مصر – حديث مفصل عن الدولة الفاطمية وفتح جوهر للديار المصرية سنة ٣٥٨ ، ولم يلبث أن أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح على رأس جيش للاستيلاء عليها . ولم يلق مقاومة تذكر ، ودخل دمشق وخطب بها للمعز الخليفة الفاطمى فى المحرم سنة ٣٥٩ ، وفى السنة التالية أعلن المؤذنون فى الشام – بأمره – « حىَّ على خير العمل » شارة الأذان الشيعى . وأخذ القرامطة يغيرون على دمشق ومدن الشام وكان يردهم جعفر بن فلاح ، ولم يلبث كبيرهم فى البحرين الحسين بن أحمد – كما مر بنا فى الحديث عن الجزيرة العربية بعصر الدول والإمارات – أن قطع علاقته بالفاطميين فى مصر وأعلن خضوعه للخلافة العباسية ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسى على لسان عز الدولة البويهى أن يوليه مصر والشام ويعطيه مالا وسلاحا لحرب المعز لدين الله ، وأمده عز الدولة بالسلاح والمال فى سنة ٣٦٠ وقيل بل فى سنة ٣٦٢ فسار إلى الشام وملكها ولعن المعز الفاطمى وأباه على منبر دمشق ، وأقام الدعوة للعباسيين ، وسار إلى القاهرة بعساكره وحصلت – بالقرب منها – بينه وبين المعز مناوشات ، وتقهقر المعز ، وأغرى قواده بالمال فخرجوا

---

(١) انظر فى الفاطميين بالشام كتب التاريخ العامة وماذكرنا من المصادر فى قسم مصر وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى (طبع ليدن) فى السنوات ٣٦٣–٥٥٥ .

عليه وانضموا إلى المعز ، فعاد إلى الرملة بالشام ومنها إلى البحرين . وكان ذلك أول اضطراب شديد حدث فى الشام لعهد الفاطميين وانتشرت فى أثنائه وبعده الفوضى فى دمشق واشتعلت النار فى كثير من أحيائها .

وظل الفاطميون مسيطرين على الشام نحو قرن ، قلما وجدت فيه أمنا وسلاما بسبب كثرة الولاة الذين كانوا يولونهم عليها ، فكان هم الوالى أن يُثْرى بسرعة على حساب أهلها ومايفرض عليهم من الضرائب ، وقد وليها لهم نحو خمسين واليًا ، وكثيرًا ما كان يتولاها اثنان أو أكثر فى العام الواحد . وبسبب ظلم الولاة وكثرة الضرائب كانت تنشأ أحيانا ثورات محدودة لبعض العيَّارين بها كثورة قسَّام الحارثى سنة ٣٧٧ لعهد العزيز الفاطمى . وخلف العزيز ابنه الحاكم بهوسه وشذوذه النفسى ودعواه الألوهية مما صورناه فى قسم مصر ، وكان من أهم من أغراه بدعوى الألوهية رجل يعرف بالدرزى أمره الحاكم أن يخرج إلى الشام وينشر تلك الدعوة فى الجبال ، فنزل هناك وتبعه كثيرون من جبل حوران فى سوريا المعروف باسم جبل الدروز ، وانتشرت الدعوة بين سكان الإقليم الجبلى بلبنان ، ولاتزال فى المنطقتين إلى اليوم ، وسقطت منها أسراب إلى جبال فلسطين وإلى الجبال فى أعالى الشام على نهر العاصى وقرب أنطاكية . ومن المؤكد أن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية هى التى دفعت الحاكم ودعاته إلى ربوبيته إذ كانت تردِّد – كما مر بنا فى قسم مصر – أن الخلفاء تجسدٌ للذات العلية . وكان طبيعيا فى عهد هذا الخليفة الشاذ المخبول أن تضطرب شئون الحكم فى الشام . وكان أبوه وجده يستعينون ببدو الجزيرة العربية الشماليين من طيئ ورؤسائهم بنى الجراح ، ونرى حينئذ حسان بن المفرِّج بن دغفل لايكتفى بإقطاع الفاطميين لأبيه مدينة الرملة ، بل يستولى على أكثر الشام ، ويحاول أن يخلع الحاكم ، ويولى مكانه أبا الفتوح أمير مكة الحسنى ، ويَقْدُم عليه أبوالفتوح ، غير أن الحاكم يغرى ابن المفرج بالأموال فينفض يده من أبى الفتوح ويعود إلى إمارته .

(ب) بنو [1] مرداس

كانت حلب قد دخلت فى حكم الفاطميين منذ سنة ٤٠٦ ولاتمضى طويلا فى سنة ٤١٥ حتى يستقل بها صالح بن مرداس الكلابى ويضع فى سنة ٤٢٠ يده فى يد حسان بن المفرِّج الطائى ويجمعان الجموع ويستوليان على الأعمال فى الشام وينتهيان إلى غزة ، ويلتقى بهما جيش فاطمى ،

---

(١) انظر فى بنى مرداس كتب التاريخ العام وزبدة الحلب من تاريخ حلب : الجزءين : الأول والثانى .

فينهزم حسان ويقتل فى المعركة صالح وابنه الأصغر ، ويخلفه ابنه شبل الدولة نصر . وطمع صاحب أنطاكية فى حلب ، وجمع لها الجموع وأحاط بها وقاتل أهلها ، ولم يلبث نصر أن خرج إليه وفتك بمعظم جنوده وفر على وجهه وغنم منه نصر عسكره وأموالا عظيمة . وتوفى نصر سنة ٤٢٩ وخلفه أخوه ثمال وخضع للفاطميين وتوفى سنة ٤٥٤ . ونشب خلاف بعده على حكم البلدة بين أخيه عطية وبين محمود بن نصر واصطلحا . وتخلص حلب لمحمود منذ سنة ٤٥٧ ، ويواقع الروم ويهزمهم ويراسل ألْب أَرْسلان السجلوقى ويستقر بينهما الأمر على إعادة الدعوة العباسية والخضوع للسلاجقة . وفى أيامه قاد ألب أرسلان حملة مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، على نحو مامَّر بنا فى حديثنا عن السياسة بالعراق فى الجزء السابق من عصر الدول والإمارات . وظل محمود أميرًا لحلب حتى سنة ٤٦٧ وأعاد بها ذكرى الحركة الأدبية التى أحدثها بها سيف الدولة ، فالتف حوله كثير من الأدباء والشعراء ، وخلفه ابنه نصر وكان محبوبا من الحلبيين غير أن الموت اختطفه سريعًا بعد نحو عام من ولايته ، وجاء فى إثره أخوه سابق حتى نهاية سنة ٤٧٢ إذ سلم البلدة لمسلم بن قريش العقيلى صاحب الجزيرة فبقيت معه نحو خمسة أعوام وتسلمها منه السلاجقة .

(جـ) السلاجقة [1]

مر بنا فى حديثنا عن العراق بالجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى حديث مفصل عن السلاجقة واستيلائهم على دِفَّة الحكم فى خراسان وإيران والعراق ، وقد أنزل أَلْب أَرْسلان بإمبراطور بيزنطة هزيمة ساحقة كانت إرهاصا قويا لزوال الحكم البيزنطى من آسيا الصغرى كما حدث فعلا . وكان طبيعيًّا أن يفكر ألب أرسلان وابنه ملكشاه فى الاستيلاء على الشام ، وسرعان ماظهر فى سنة ٤٦٣ أُتسز بن أوق الخوارزمى فى فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس ، وفى سنة ٤٦٨ استولى على دمشق ، وبذلك أصبح أكثر الشام تابعا للسلاجقة . حتى إذا كانت سنة ٤٧٢ تسلم تُتُش بن ألب أرسلان من أتسز دمشق وأصبح نائبا فيها لأخيه ملكشاه ، وافتتح فى سنة ٤٧٤ أَنْطَرْطوس على ساحل البحر المتوسط ، وهى أول أعمال حمص ، ولم يلبث أن استولى على

---

(١) راجع فى سلاجقة الشام كتب التاريخ العام وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى وانظر فى أتسز تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣١/٢ وفى تتش ابن عساكر ٣٤٠/٣ وفيه وفيمن وليها بعده حتى استيلاء نور الدين عليها ابن خلكان ٢٩٥/١

حمص نفسها . وظل ساحل الشام جنوبى صور تابعا لمصر . واستقل جلال الملك بن عمار قاضى طرابلس بها سنة ٤٧٠ وكان قد أقرَّه عليها ملكشاه السلجوقى وظلت معه حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢ . وفى هذه الأثناء استولى على بن منقذ من الروم على حصن شَيْزَر شمالى الشام سنة ٤٧٤ وظلت فى يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها زلزلة شديدة سنة ٥٥٢ . وكان سليمان بن قُتُلْمش استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧ فحاربه تُتُش وخرَّ صريعا فى الحرب سنة ٤٧٩ . وبذلك صارت إلى تُتُش واستولى على حلب سنة ٤٨٧ ، وقُتل بالرى فى حرب مع ابن أخيه بَرْكياروق سنة ٤٨٨ . وخلفه على حلب ابنه رضوان ، ومن نوابه أخذ الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩٢ وخلفه على دمشق ابنه دُقاق .

وتوفى دقاق سنة ٤٩٧ فخلفة عليها أتابكه « طُغْتِكين » وأسس بها دولة البوريين وله فى جهاد الصليبيين يد بيضاء وكان شجاعا عادلا فى الرعية توفى سنة ٥٢٢ فخلفه ابنه بورى حتى وفاته سنة ٥٢٦ وكان قد قتل جماعة كثيرة من الإسماعيلية فسلَّطوا عليه رجلين ضرباه بالسكاكين وظلت جراحه تنتقض وتندمَل إلى وفاته . وخلفه ابنه إسماعيل ، وكان ظالما سيئ السيرة محبا لسفك الدماء توفى سنة ٥٢٩ وكان أسوأ منه أخوه محمود الذى ولى بعده فقتله أمراؤه سنة ٥٣٣ وخلفه عاما واحدًا أخوه محمد ، وتوفى فخلفه ابنه مجير الدين آبق . وكان باغيا ظالما ، وكان يضع يده فى يد الصليبيين ضد نور الدين صاحب حلب غير مراعٍ إلاًّ ولا عهدا . واستجار منه أهل دمشق مرارًا بنور الدين حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ اضطر إلى تسليمها إليه وخرج منها ذليلا صاغرا . وكان تُتُش ولَّى تركمانيا يسمى أرتق بيت المقدس فاستقلَّ به مؤسسا دولة الملوك الأرتقية ، وتوفى سنة ٤٨٤ فخلفه عليها ولداه سُكْمان وإيلغازى ، ومنهما أخذها الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩١ وتوجها إلى بلاد الجزيرة وملكا – كما يقول ابن خلكان – ديار بكر .

(د) الصليبيون [1]

كانت الدولة الفاطمية قد أخذت فى التدهور منذ عهد الحاكم بسبب ماغرق الخلفاء الفاطميون فيه من ترف وما أصاب الحياة الاقتصادية من سوء حتى لقد عظمت المجاعة فى عهد المستنصر مما عرضنا له فى حديثنا عن مصر ، وحاول بدر الجمالى أن يتلافى الأمور ، فعمل على

(١) انظر فى الصليبيين كتب التاريخ العام لابن الأثير وابن تغرى بردى وابن خلدون وماكتب عنهم حديثا فى العربية واللغات الأجنبية وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٤٥

إصلاحها ، ولكن الشام كانت قد أفلتت منه إلا ساحلها الجنوبى . وكان المظنون أن يرث السلاجقة تلك الدولة المنهارة ، غير أنهم اتبعوا فى حكمهم نظاما سرعان ماضعضع دولتهم إذ اتخذوا فيها نظام الأتابكة ، وهو أن يكون مع كل حاكم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدير أمرها ، ولم يلبث نفوذ هؤلاء الأتابكة أن ازداد وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين . وبذلك تفككت سريعا أوصال دولتهم الضخمة وتحولت إلى دويلات على نحو ما مر بنا آنفا من دولة البوريين فى دمشق والدولة الأرتقية فى بيت المقدس ، حتى إذا قدم الصليبيون فى العقد الأخير من القرن الخامس الهجرى لم يجدوا أمامهم قوة تدفعهم دفعا إلى البحر المتوسط وماوراءه فلا السلجوقيون محتفظون بقوتهم القديمة التى أزالوا بها بيزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوربا ولا الفاطميون محتفظون بشىء من القوة يستطيعون أن يدفعوا به عن بلدانهم الساحلية فى الشام هذا الوباء الصليبى الجارف .

ويظهر الجيش الصليبى أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ للهجرة ويظل محاصرا لها حتى يستولى عليها سنة ٤٩٢ مؤسسا بها إمارة ، بينما يتسلل بلدوين إلى الرُّها فى سنة ٤٩١ ويستولى عليها دون مقاومة تذكر ويؤسس بها إمارة هى الأخرى . واجتاز الصليبيون جبال النُّصَيْرية محاذين الساحل واستولوا سنة ٤٩٢ على بيت المقدس متخذين منه إمارة ثالثة جعلوا جودفرى رئيسا لها ، ولم يلبث أن رقى عرشها بعده بلدوين الأول وعهدوا إلى الكونت ريموندى تولوز حصار طرابلس والاستيلاء عليها وظلت تقاومه سنين عددا حتى سقطت سنة ٥٠٢ واتخذوا منها إمارة رابعة لهم . وأخذ بلدوين فى نفس السنة ينشط فى غزو مدن الساحل : عكا وقيسارية وصيداء وبيروت وقاومته مقاومة صلبة . وخلفه أخوه بلدوين الثانى الذى استولى على صور سنة ٥١٨ ولم يفلح فى الاستيلاء على دمشق وظلت أيدى الصليبيين أقصر من أن تصل إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب .

(هـ) آل[1] زنكى (نور الدين)

لم يلبث أن تنبه أتابك عظيم من أتابكة السلجوقيين هو زنكى عماد الدين التركمانى أمير حلب

---

(١) انظر فى آل زنكى ونور الدين التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية لابن الأثير وكذلك كتابه الكامل والجزء الخامس لابن خلدون والخامس والسادس من النجوم الزاهرة والعاشر من المنتظم والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والكواكب الدرية فى السيرة النورية لابن قاضى شهبة (طبع بيروت) وابن خلكان ٣٢٧/٢ ، ١٨٤/٥ .

إلى أن الداء إنما يكمن فى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لحملة الصليب شيعا ودولا ، فصمم أن يجمع قوتها وكلمتها تحت لوائه ، وكان قد ركز لواءه على الموصل أولا ، فضم إليه حلب ومدن شمالى الشام مثل حماة وحمص وبعلبك . ومضى ينازل الصليبيين واستولى منهم على معرَّة النعمان وكفر طاب . ولم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرُّها سنة ٥٣٩ للهجرة . وبذلك محا عار هذه الإمارة التى أقامها الصليبيون فى بلب الدولة السلجوقية . ولم تكد تمضى سنتان على ماحقق من هذا المجد البطولى حتى امتدت إلى جثمانه الطاهر أيد آثمة فى الظلام سفكت دمه الزكى .

وكان قد أوصى عماد الدين زنكى لابنه غازى بالموصل ولابنه نور الدين محمود بحلب ، واقتفى البطل الشاب نور الدين جهاد أبيه للصليبيين ، ونازلهم توًّا سنة ٥٤٢ وأخذ منهم حصن أرتاح من أعمال حلب ، وأبطل فى إمارته أذان الدولة الفاطمية بحىَّ على خير العمل . وفى سنة ٥٤٤ هزم حَملة الصليب هزيمة ساحقة إذ قتل منهم ألفًا وخمسمائة وفتح حصن فامِيَة ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ كما مر بنا . وفى سنة ٥٥٢ ملك حصن شَيْزر بعد أن نقضه زلزال شديد . وفى سنة ٥٦٠ فتح بانياس عنوة . وكان بعيد النظر بعدا جعله يرى أن المفتاح الحقيقى للنصر على حَملة الصليب هو مصر بإمكاناتها فى المال والرجال ولكن ماذا يصنع وبها دولة منهارة ، وأحسَّ أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة وخاف عليها منهم خوفا شديدا . ولم تلبث أن واتته فرصة عظيمة فإن وزيريها ضرغاما وشاوَر تحاربا ، ولجأ إليه شاور مستغيثا ، فأنجده بأميرين أيوبيين : شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويحدثهما بما فى نفسه من تخليص مصر من دولتها المريضة . وتتطور الظروف – كما مر فى حديثنا عن الدولة الفاطمية بقسم مصر – وتصبح مصر خالصة لصلاح الدين ويؤسس بها الدولة الأيوبية ومؤسسها الحقيقى ومنشئها إنما هو نور الدين . وكان ماينى ينازل حملة الصليب ، وفتَح حصون « مرعش وإعزاز وحارم » وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا . وكان ملكا عادلا عابدا زاهدا ورعا ، بنى كثيرا من المدارس فى بلدان الشام الكبار وكثيرا من الجوامع وبيمارستان دمشق وبها توفى سنة ٥٦٩ وخلفه ابنه وكان صبيا وبقى على حلب حتى توفى سنة ٥٧٧ ودخلت فى حوزة صلاح الدين وحكمه .

٣

الأيوبيون (صلاح الدين) – المماليك – العثمانيون

(١) الأيوبيون[1] (صلاح الدين)

مر بنا – فى قسم مصر – أن الأمور استقرت بيد صلاح الدين منذ سنة ٥٦٧ للهجرة ، فعاد بمصر إلى الخلافة العباسية ، وسار فى نفس السنة لحرب حملة الصليب فحاصر الشوبك ورفع الحصار عنها ، وعاد إليها فى السنة التالية ثم تركها إلى مصر . وتوفى نور الدين كما ذكرنا وأخذ يفكر جادا فى جمع كلمة البلدان المجاورة للصليبيين حتى يقضى عليهم قضاء مبرما . وخرج من مصر فى سنة ٥٧٠ فاستولى على حمص وحماة والمعرة وكفرطاب ، ويولِّى على حماة أخاه تقى الدين وعلى بعلبك ابن أخيه فرُّخشاه ويستولى على منبج وإعزاز ويواقع الصليبيين فى السنوات : ٥٧٣ و٥٧٤ و٥٧٥ وينصره الله عليهم نصرا عظيما . ويستولى على الموصل ، وتبلغه وفاة إسماعيل بن نور الدين . ويخرج إلى الشام سنة ٥٧٨ فى جيش جرار لجهاد حملة الصليب ، وهى آخر مرة يفارق فيها مصر لحربهم ويظل ينازلهم عشر سنوات طوالا ، وتتبعه حلب ويولى عليها ابنه الملك الظاهر . وفى سنة ٥٨٢ يقسم البلاد بين أبنائه وأهله فيعطى مصر ابنه العزيز عثمان وكان قد أعطى الظاهر حلب ، ويعطى للأفضل ابنه دمشق ويعطى حماة والمعرة ومنبج لابن أخيه تقى الدين عمر ، وسيتوالى هذا التوزيع . وهو من أكبر أغلاط صلاح الدين فإن بساطا قد يتسع لنوم عشرة من الرجال ولكن مملكة ضخمة لاتتسع لسلطان حاكمين ، ولذلك لم تكد تمضى سنة على وفاته حتى دب الخلاف بين أبنائه ثم بين أمراء أسرته . ويَغْفر له ذلك بلاؤه العظيم فى حرب حملة الصليب المعتدين .

ويقود صلاح الدين فى سنة ٥٨٣ جحافل جرَّارة ويتجه بها نحو طبرية ، وتتجمع له حشود الصليبيين بقيادة جاى لوزيجنان ملك بيت المقدس وتلتقى سريَّة له فى حيفا بجماعة من الداوِّية والإسْبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين فلا تبقى منهم باقية ، ويلتقى الجمعان فى سهل حطِّين إلى الغرب من بحيرة طبرية ، وتُدَقُّ أعناق حَملة الصليب دقا شديدا ويفرّ على وجهه ريموند

---

(١) انظر فى الأيوبيين وصلاح الدين كتب التاريخ العام ومفرج الكروب لابن واصل وذيل الروضتين لأبى شامة والفيح القسى فى الفتح القدسى والبرق الشامى للعماد الأصبهانى وسيرة صلاح الدين لابن شداد وابن خلكان فى تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة الأيوبية . وراجع ماذكرناه من مصادر أخرى فى قسم مصر ص ٢٧ .

صاحب طرابلس ويستولى المسلمون على الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويؤسر ملك بيت المقدس وغيره من زعمائهم أمثال مقدم الداوية وريجنالد صاحب الكرَك وكان قد أعدَّ أسطولا وحاول غزو مكة والمدينة فقتله صلاح الدين بنفسه وعفا عن الباقين. وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال أبو شامة – كما مر بنا فى قسم مصر – : « من شاهد القتلى قال : ماهناك أسير ، ومن شاهد الأسرى قال : ماهناك قتيل » ومما يدل على كثرة أسراهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير.

وحاصر صلاح الدين بيت المقدس بعد نحو ثلاثة أشهر ، واستسلم له من فيه من حملة الصليب وأُزيلت كل آثارهم من القدس ، وفتحت البلدان والقلاع فى فلسطين وجنوبى لبنان أبوابها للبطل العظيم ، فاستولى على نابلس وحيفا وعكا وبيروت وصيداء والرملة وبيت جبريل (بئر سبع) وعسقلان وغزة وصَفد والكرَك والشوبك واللاذقية. وأحيا سقوط القدس فى يد صلاح الدين فكرة الحرب الصليبية من جديد ، فحمل الصليبَ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وحاصر الأخيران عكا وسقطت فى أيديهما وعاد فيليب إلى فرنسا وظل ريتشارد يقود الجيوش الصليبية حتى سنة ٥٨٨ وعقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن تظل حملة الصليب المدن الساحلية من صور إلى يافا. وبعد نحو ستة أشهر توفِّى صلاح الدين بدمشق وبكاه المسلمون بدموع غزار فى كل مكان. وكان صلاح الدين عادلا ورعا عالما تقيا ، حطَّ عن ظهور أهل الشام ما كان يبهظهم من الضرائب وملأها بالمدارس والخانقاهات والبيمارستانات وكانت سماحته ونبله فى معاملة حَملة الصليب مضرب الأمثال ، وكان إلى ذلك بطلا مغوارا وغيثًا مدرارا.

وذكرنا آنفا أنه قسم البلاد بين أبنائه وأهل بيته ، فكانت دمشق للأفضل ومصر للعزيز وحلب للظاهر ، والديار الفراتية لأخيه العادل وبعلبك لبهرام شاه وحمص لشيركوه الثانى. وكان ذلك نذير شؤم فإن العادل أخذ يحرِّض أبناء صلاح الدين بعضهم على بعض واستطاع التخلص منهم ، وخلصت له البلاد من مصر إلى الفرات منذ سنة ٥٩٦ ماعدا حلب فإنها ظلت مع الظاهر وأبنائه حتى الغزو المغولى. وصنع صنيع أخيه فجعل مصر للسلطان الكامل ودمشق للسلطان المعظم والجزيرة الفراتية لثلاثة من أولاده على التعاقب هم الأوحد والفائز والأشرف موسى. ويغزو حملة الصليب مصر فى سنتى ٦٠٩ و٦١٥ وينكل بهم السلطان الكامل على نحو ماصورنا ذلك فى قسم مصر. ونمضى إلى سنة ٦٢٦ وإذا فردريك الثانى ملك صقلية يأتى على رأس حملة إلى فلسطين

وتصادف أن كان الكامل مشغولا بصراع مع داود ابن أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق فارتضى أن يتنازل لفردريك عن القدس فى مقابل عونه له ضد ابن أخيه وكان قد استعان بأخيه الملك الأشرف موسى ضده أيضا وحاصراه وتسلما منه دمشق وأعطاها الكامل لأخيه وعوض داود الشوبك بدلا منها .

وبمجرد أن تسلم فردريك القدس قامت قيامة الناس فلم يقم بها سوى ليلتين وعاد إلى يافا مذموما مدحورا . وتوفى الأشرف موسى صاحب دمشق سنة ٦٣٥ ولم يلبث أخوه الكامل أن توفى على أثره فى نفس السنة بدمشق ، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبا له على الشرق وإقليم ديار بكر ، وكان ابنه العادل الصغير نائبا له على مصر فرأى أمراؤه أن يضيفوا إليه ملك الشام ، ولم يُرْضِ ذلك الملك الصالح فنحَّى أخاه فى سنة ٦٣٧ عن ملك مصر وانتهز عمه إسماعيل صاحب بعلبك الفرصة واستولى فى نفس السنة على دمشق ونشب صراع بينه وبين الملك الصالح واستعان ضده بحملة الصليب وعقد بينه وبينهم تحالفا أثار سخط العالم الإسلامى ، وهزم الملك الصالح الحليفين فى غزة سنة ٦٤٣ ودخلت دمشق فى حوزته .

وبذلك أعاد الملك الصالح توحيد مملكة صلاح الدين من النيل إلى الفرات ، ولم ينعم بذلك طويلا إذ نزل به مرض شديد سنة ٦٤٧ وكان بدمشق وسمع بنزول لويس التاسع بدمياط ، فأسرع لمنازلته وهو مريض محمول على محفَّة لشدة مرضه ، واتجه توًّا للقاء العدو بالمنصورة شمالى الدلتا فى الطريق إلى دمياط ، وهناك لبَّى نداء ربه مجاهدا مدافعا عن الإسلام والمسلمين . وكتمت زوجته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة وأدار المعركة ضد لويس – كما مر بنا فى قسم مصر – وسحق جيشه سحقا ذريعا ، وكبله بالسلاسل والأغلال ، إلى أن فدا نفسه وخرج من مصر . وسوَّلت له شياطينه أن يذهب إلى حملة الصليب فى الساحل الشامى لعله يسترد كرامته التى أُهدرت بمصر وبقى بين حملة الصليب نحو أربع سنوات لم تسفر عن شىء ، فعاد إلى فرنسا كاسفا مقهورًا . أما توران شاه فجزاه مماليك أبيه جزاء سنمار إذ سفكوا دمه الطاهر . ورقيت إلى العرش شجرة الدر ثم تنازلت عنه للمعز أيبك مملوك أبيه فأسس دولة المماليك . أما دمشق فاستولى عليها الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب . وكان آخر من حكمها من الأيوبيين .

(ب) المماليك(١)

تأسست فى مصر بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ دولة المماليك ، وعدَّهم الحكام الأيوبيون فى الشام مغتصبيين للحكم من أصحابه الشرعيين ، وأعدوا بزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب جيشا لحربهم ، ولقيه المعز أيبك التركمانى فى غزة سنة ٦٤٨ وهزمه . وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين حتى أصلح الخليفة العباسى بينهما لسنة ٦٥١ على أن يكون للمماليك نهر الأردن ونابلس والقدس وغزة والساحل ، وللأيوبيين بقية الشام ، وقد دفعهما إلى هذا الصلح اشتداد خطر التتار . وحاول الناصر يوسف أن يسترضى قائد هذا الوباء هولاكو سنة ٦٥٥ فأرسل إليه بهدية ، ولم يلبث هولاكو أن اندفع بسيول التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦ فأجرى الدماء فيها أنهارا وخرَّبها وأحالها أنقاضا ، ودخل هولاكو فى السنة التالية ديار بكر وملَك حرَّان وبلاد الجزيرة ، وتحقق الناصر أنه سيقصد حلب فتركها إلى شمالى دمشق ، وفى شهر صفر سنة ٦٥٨ استولى التتار على حلب معملين فيها النهب والسلب ، وتقدموا فى ربيع الأول إلى دمشق واستولوا عليها ، وفرَّ الناصر يوسف وأسره التتار . وبقى معهم فى ذلّ وهوان مابعده هوان .

ومضى التتار يتقدمون فى ديار الشام حتى عين جالوت بين نابلس ونيسان ، وإذا الموت والتشريد ينتظرهم على يد المصريين والبطلين العظيمين المملوكين : قطز سلطان مصر والظاهر بيبرس قائده ، وقد أحدقوا بهم ونازلوهم حتى أفنوهم قتلا . وتبع بيبرس فلولهم إلى حلب وأطراف الشام . وأصبحت جميع الديار الشامية فى قبضة المماليك ماعدا حماة فإن أميرها الأيوبى الملك المنصور ناصر الدين محمد سليل عمر بن شاهنشاه كان قد وضع يده فى يد قطز وبيبرس فى حربهما للتتار وظل على حماة حتى سنة ٦٨٣ وولاها قلاوون ابنه تقى الدين واستولى عليها الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٨ ثم ردها إلى الملك الصالح المؤيد أبى الفدا إسماعيل سنة ٧١٠ وظلت معه حتى سنة ٧٣٢ ووليها بعده ابنه الأفضل ثم أصبحت للمماليك يولون عليها من يشاءون مثلها مثل بقية بلدان الشام .

وعُنى الظاهر بيبرس حين أصبحت مقاليد الأمور بيده منذ سنة ٦٥٩ بالإعداد لحرب من تبقى من حملة الصليب فى ساحل الشام وأخذ يغير عليهم وينازلهم ، حتى إذا دخلت سنة ٦٦٤ خرج

---

(١) انظر فى المماليك النجوم الزاهرة وغيره من كتب التاريخ العام والسلوك للمقريزى والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا صاحب حماة وراجع العصر المماليكى لسعيد عاشور .

إليهم على رأس جيش جرار واستولى على قَيْسارية ويافا وأرسوف وكان بها حامية من الإسْبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين. وفى العام التالى استولى على صَفد وتِبْنين والرملة فى فلسطين. وتوالى هجومه عليهم واستولى على الشّقيف وطبريَّة وبَغْراس والقُصَيْر وحصن الأكراد والقرين من حصون صفد وكان به حامية من الفرسان التيوتون. وأعظم أمجاده الحربية ضد حملة الصليب أخْذُه أنطاكية سنة ٦٦٧ ويقال إن أسراها بلغوا مائة ألف وأن الغلام من أهلها كان يباع باثنى عشر درهما والجارية بخمسة. والمهم أنه محا هذه الولاية التى أقامها حملة الصليب فى أول دخولهم للشام. وبدا فى الأفق من حينئذ أن خروج حملة الصليب نهائيا من الشام أصبح قاب قوسين أو أدنى، وقد استولى منهم قلاوون فى سنة ٦٨٦ على اللاذقية ولم يلبث ان استولى على طرابلس فى سنة ٦٨٨ وبذلك أزال آخر إمارة أو ولاية لحملة الصليب، وسرعان ماسلمت بيروت وجبلة. حتى إذا تولّى بعده ابنه السلطان خليل جهز جيشا ضخما للاستيلاء على عكا واستولى عليها سنة ٦٩٠ وتبعتها صوروصيداءوحيفا وأَنْطَرْطوس، وخرج من بقى من الصليبيين إلى البحر المتوسط وما وراءه يحملون الذل والضعة والهوان والصغار.

وقد قسم المماليك الشام إلى ست نيابات كبرى هى : دمشق وحلب وحماة فى سوريا وطرابلس فى لبنان وصفد فى فلسطين والكرك فى شرقىّ الأردن. وكانت دمشق أهم هذه النيابات، وكان حاكمها يعد نائب السلطان المملوكى فى الشام مما أتاح له مكانة خاصة. وجعل نفرا منهم غير قليل يطمح إلى أن يكون هو السلطان التالى للسلطان القائم بمصر، ولعل ذلك ماجعل سلاطين مصر يكثرون من عزلهم، حتى ليتولى دمشق فى زمنهم الذى امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا. وقد درسهم (فييت) وتبين له كما ذكر فى كتابه مساجد القاهرة ص ٥٦ : أن اثنين منهم هما لاجين (٦٩٦-٦٩٨) والمؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ) رقيا إلى السلطنة، وسبعة وعشرين منهم ثاروا على السلطان فرّ منهم خارج الحدود اثنان وسجن خمسة وأعدم خمسة وعُفى عن خمسة. وكان لنائب دمشق من الدواوين مثل مالسلطان مصر وكثيرا ما كان ينقل رئيس ديوان فى القاهرة إلى دمشق وبالعكس، وكثر ذلك فى كتَّاب السر والإنشاء. وبذلك كله كانت دمشق تعد المدينة الثانية فى دولة المماليك مما عاد عليها بغير قليل من الازدهار. وأمر الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٣ أن يتولى القضاء أربعة يمثلون مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وعمَّ ذلك فى دمشق والمدن الكبرى بمملكته فى مصر والشام. وظل هذا النظام قائما طوال زمن المماليك.

وظل التتار يئنُّون من عار الهزيمة الفاضحة فى عَيْن جالوت ، وظلوا يحاولون غسل هذا العار بغارات فاشلة على أطراف الشام ، وكَسَرتْهم جيوش الظاهر بيبرس مرارا ، من ذلك كَسْرتهم على حمص سنة ٦٥٩ ، وأغاروا على إلبيرة سنة ٦٦٤ وعلموا بتحرك بيبرس فولوا مدبرين . وفى سنة ٦٦٨ أغاروا على نهير الساجور بمنبج ، وسرعان ما انهزموا ، وعاودوا الهجوم على عِيْنتاب وحارم سنة ٦٧٠ وساعدهم حملة الصليب فحاقت بهم الهزيمة جميعا . وظلوا يعاودون المناوشة وهاجموا إلبيرة فى سنة ٦٧١ وأشرفوا على أخذها فعبر إليهم الظاهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وتغنى الشعراء طويلا بهذا النصر المبين ، ونكل بهم فى سنة ٦٧٥ تنكيلا شديدا . وظل التتار يعاودون هذه الغارات والمناوشات فى عهد قلاوون ويبوءون منها بالهزيمة ، وقد استولى منهم ابنه السلطان خليل على قلعة الروم غربى الفرات سنة ٦٩٢ . وتولى شئون التتار غازان وكان قد دخل فى الإسلام مع جنوده . ومع ذلك أعد فى سنة ٦٩٩ حملة لغزو الشام ولقيه محمد الناصر بن قلاوون بين حمص وحماة ودارت الدوائر على الناصر ، واستولى جيش غازان على دمشق وغيرها من مدن الشام وعاثوا فيها فسادا . وعاد الناصر إلى مصر وجهز جيشا جرارا التقى به مع التتار قرب دمشق سنة ٧٠٢ وسحقهم سحقا ذريعا ، بحيث لم يعودوا يفكرون فى غزو الشام وإن هم فكروا ارتدوا إلى صوابهم سريعا .

ونمضى إلى سنة ٨٠٣ فيقدم تيمورلنك بجموعه غازيًا الشام ، ويلقاه جيش المماليك ، فيهزمه ويقتحم حلب ويُعْمل فيها السيف والسلب والنهب ، ويتقدم إلى دمشق وينزل بالسلطان فرج فى طريقه إليها هزيمة نكراء . وترضى دمشق بالتسليم وينهبها جنوده التتار ويشعلون فيها النيران وتأتى على جامعها الأموى وعلى كثير من آثارها ، ويقتلون مالا يكاد يحصى من أهلها نساء ورجالا وأطفالا : كارثة لم يُصب دمشق مثيلٌ لها لا من قبل ولا من بعد . وضاعفها أن تيمور جمع رجال الفن والهندسة والمعمار وصناع الزجاج والصلب وأخذهم معه إلى عاصمته سمرقند .

وتتحدث كتب التاريخ عن ثورات وفتن حدثت فى الشام لعهد المماليك ، غير أن أكثرها إن لم تكن كلها ، إنما كانت صراعا على السلطة بين السلاطين ونوابهم فى الشام . ومن هذا الصراع ماحدث من تحول الملك من المماليك البحرية إلى المماليك البرجية الجراكسة على يد بَرْقوق سنة ٧٨٤ . وقد عانت الشام – كما عانت مصر – من النزاع المستمر بين أمراء المماليك ، حتى كانوا يقتتلون كل مع أنصاره فى شوارع دمشق والقاهرة . وكثر ذلك فى القرن الأخير من حكم

المماليك ، وأخذت دولتهم فى الضعف تدريجا حتى لفظت أنفاسها الأخيرة فى معاركها مع السلطان سليم العثمانى على أبواب الشام فى مَرْج دابق .

(جـ) العثمانيون[1]

مر بنا فى قسم مصر كيف قضى سليم الأول العثمانى على دولة المماليك فى الشام ومصر بعد هزيمته لقانصوه الغورى فى موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ للهجرة . وبعد أربعة أيام من الموقعة دخل حلب ولقيه أهلها بترحاب شديد وأوقدوا له الشموع وتعالت أصواتهم له بالدعاء ، وخطبوا له على منابرها . وفتحت له مدن الشام أبوابها ، فاستولى على دمشق وقصده فيها أمراء لبنان وخاصة من بنى معن الدروز النازلين بجبالها مما جعل سليما ومن خلفوه من سلاطين آل عثمان يعترفون لهم بالإمارة فى لبنان . ومضى سليم يستولى على بقية مدن الشام . وفتح مصر وظل بها ثمانية أشهر وعاد منها إلى دمشق ، ورأى بوضوح تدهور الأوضاع الاقتصادية فى تلك الديار بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والنفوذ منه إلى الهند ونقل توابلها وتجاراتها منه مما أضر إضرارا شديدا بطريق البضاعة الهندية القديم خلال حلب والشام . وكانت حروب الصليبيين والتتار التى حولت الشام إلى ساحة حرب كبيرة لمدة قرنين من الزمان قد أحالت أجزاء كثيرة من مدنها إلى خرائب وخاصة مدن الساحل . وكأنما توسم أهل الشام أن العثمانيين سيعيدون إلى طريق التجارة الهندية ازدهاره الماضى ، ولذلك رحبوا بسليم والعثمانيين ، وتلاشى هذا الحلم مع الأيام . وكان قد فر إلى سليم من المماليك مملوك خائن هو الغزالى الذى زين له فتح الشام ومصر فكافأه بتوليته على الشام ماعدا حلب إذ جعلها لبعض الباشوات العثمانيين ، وبمجرد أن توفى سليم الأول سنة ٩٢٦ أعلن الغزالى استقلاله بالشام ولقب نفسه بالملك الأشرف ، وسرعان ماهزمته الجيوش العثمانية وخرَّ صريعا عند أبواب دمشق . ورأى العثمانيون أن تتوزع الشام ثلاث نيابات على رأس كل نيابة باشا : أولاها نيابة حلب وتشمل سوريا الشمالية ، وثانيتها نيابة طرابلس وتشمل أربعة سناجق أو ألوية هى : حمص وحماة وسلمية وجبلة ، وثالثتها نيابة دمشق وتشمل عشرة سناجق أهمها بيروت وصيداء ونابلس وبيت المقدس وغزة . وفى سنة ١٠٧٣ خصوا صيداء بنيابة مستقلة تشمل ساحل الشام ماعدا نيابة طرابلس فى لبنان .

---

(١) انظر فى العثمانيين بالشام بدائع الزهور لابن إياس ، والبلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصرى ، ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبدالكريم غرايبة ، وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى .

وكان يساعد الوالى فى الإدارة ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار أو رئيس العسكر والدفتردار أو مدير الخزانه والروزنامجى أو حافظ السجلات وقاضى القضاة وأمير الحج ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير خاص بنائب الوالى ومعه دفتردار وروزنامجى .. وُمنح أصحاب السناجق أو الألوية لقب بك . وكثير من الولاة كانوا يختارون من الإنكشارية وهم شبّان أوربيون من أجناس مختلفة كانوا يُرَبَّوْنَ تربية إسلامية عسكرية ، وكان هم الوالى منهم أن يجمع لنفسه فى مدة ولايته القليلة مايستطيع من الأموال مما جعلهم يرهقون أهل المدن بالضرائب ، وقلما كان حكم الوالى يتجاوز المدينة وضواحيها . أما داخل البلاد فقد تُرِك للإقطاعيين من سكان الشام ومَنْ وراءهم من بدو الجزيرة ، وكان عددهم قد تزايد زيادة كبيرة منذ زمن المماليك ، وكان أكثرهم من الدروز مثل آل معن وآل أرسلان والشهابيين ومن التركمانيين مثل آل عساف ومن البدو مثل آل فضل . وفى كل مكان نجد هؤلاء الإقطاعيين مثل آل حرفوش ببعلبك وآل فريخ فى البقاع وآل جبار فى سلمية ، ولم يكونوا يؤدون للعثمانيين أو الباب العالى إلا ضرائب محدودة ، وخاصة أن الموارد كانت قد تضاءلت إذ تدهورت التجارة وتدهورت أيضا الزراعة . ويدل على فساد الحكم العثمانى واضطرابه فى الشام كثرة من كانوا يولّون ويعزلون من الولاة ، حتى ليولّى على دمشق فى مائة وثمانين عاما مائة وثلاثة وثلاثون باشا أو واليا ، مما جعل فخر الدين من آل معن الدروز (٩٩٠-١٠٢٣هـ) يسيطر على أكثر أرجاء الشام من أنطاكية إلى صفد لنحو نصف قرن ، وأذن لفلورنسا بإقامة قنصلية لها فى بلاده ولم ير بأسا من الإذن لفرنسا بفتح فندق فى صيداء وأذن للمبشرين المسيحيين بالتبشير بين المسلمين والدّروز . وتنبهت له أخيرا الدولة العثمانية فأرسلت إليه جيشا لتأديبه ففر من البلاد راكبا البحر إلى صديقه فرديناند أمير توسكانيا . ونمضى إلى سنة ١١٦٤ هـ/١٧٥٠ م فيبسط ضاهر العمر صاحب صَفد سلطانه على عكا ويعلن استقلاله وعصيانه للباب العالى بفضل معونة على بك الكبير المملوك المشهور أيضا بعصيانه للعثمانيين ومحاولته الاستقلال عنهم بمصر . ويحاصر العثمانيون ضاهر العمر وتدركه المنية سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م . ويليها بعده أحمد الجزار ويلعب دورا شبيها بدور ضاهر العمر ويحصّن عكا . وعبثا يستطيع نابليون فتحها ويضطر إلى رفع حصاره عنها بعد ثلاثة أشهر ، إذ باء حصاره لها بالإخفاق الذريع سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٩ م . وكانت الأحوال الاقتصادية فى الشام تتردّى من سيئ إلى أسوأ طوال الحكم العثمانى ، وظل كابوسه جاثما على صدر البلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادى بل طوال شطر كبير من العصر الحديث .

٤

المجتمع [1]

حين دخل العرب الشام وجدوا فيها أخلاطًا من أجناس شتى لموقعها على أبواب آسيا الغربية وفى قلب الشرق القديم ولكثرة من نزلوها من الكنعانيين الفينيقيين ومن الفلسطينيين الأوربيين القدماء وكثرة المهاجرين إليها من البابليين والكلدانيين والحيثيين والآشوريين والآراميين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين ومن العرب أنفسهم : الغساسنة وغير الغساسنة . وهذا الخليط من الاجناس فى الشام ربما هو الذى هيأها من قديم لأن تكثر فيها الدويلات والمدن المستقلة بعضها عن بعض .

وأخذ الإسلام سريعا يضم هذا الشتات الجنسى فى وحدة سياسية ، بل سرعان ما أصبح لواء الشام يضم العالم الإسلامى جميعه فى وحدة عربية منذ رقى إلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الدولة الأموية ، إذ اتخذ دمشق حاضرة لهذا العالم ، واتخذ من أهلها عونه فى الحكم وإدارة دَفَّة الأمور فى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبذلك كانت كنوز هذه الإمبراطورية تتدفق إلى دمشق والشام وعاش أهلها طوال العصر الأموى فى رخاء لم يبلغه هذا الاقليم فى أى عصر من عصوره .

ومر بنا وصف سريع لجغرافيتها وأنها كثيرة الأنهار والوديان والعيون والزروع ، ومن قديم تنتج العنب والفواكه وصنوف النُّقْل من فستق وغير فستق إلى ماتنتج من قمح وغير قمح . ومن قديم أيضا عُنِى أهلها بالصناعات : صناعات الخزف الملون والخشب المحفور أثاثا وغير أثاث والمعادن والأسلحة سيوفا وغير سيوف والزجاج الملون والقاشانى ونقش الفولاذ بالذهب والفضة ونسج الأقمشة والعمارة .

وحياة الشام بذلك كانت تقوم على إتقان كثير من الصناعات والزروع ، وأيضا على المهارة فى التجارة ، وكانت نافذة كبرى لتبادل تجارات آسيا وأوربا من قديم ، وظلت تجاراتها تكوِّن مصدرا أساسيًّا لثروتها فى عهد الفينيقيين وبعدهم حتى احتلال العثمانيين لديارها ، فقد كانت من أعتق

---

(١) انظر فى مجتمع الشام كتب التاريخ العام وفتوح البلدان للبلاذرى وأدب الكتاب للصولى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى والجبابة فى الشام لمحمد كرد على فى الجزء الأول من محاضرات المجمع العلمى العربى بدمشق .

الأزمنة إلى نهاية زمن المماليك الباب الكبير لمرور توابل الهند وعُروض آسيا إلى الغرب . ومهر أهلها فى التجارة ومعرفة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجارية ومعرفة متطلباتها من لُبان جنوبى الجزيرة العربية ونباتات العطور والعقاقير ، مما أتاح لكثير من تجارها على مر الأزمنة الثراء الطائل .

وتحفُّ الشامَ فى الشرق بوادى الجزيرة العربية ، وكان لذلك أثره البعيد فى تكوين سكانها فأكثرهم نزحوا إليها قديما من الجزيرة على نحو ماهو معروف عن الكنعانيين والآراميين والعبرانيين ، وقد ظلت أبوابها الشرقية مفتوحة على مصاريعها لبدو الجزيرة ، مما جعل الغساسنة يقيمون على الحدود بينها وبين الجزيرة دولتهم الغسانية . ولايقفون هم ومن كانوا وراءهم من البدو عند الحدود بل يتغلغلون إلى داخل الشام ، حتى ليمكن أن يقال إنه قد أخذ فى التعرب قبل الإسلام . وظل بدو الجزيرة طوال الأزمنة الإسلامية يكوِّنون شطرا مهما فى سكان الشام ، وكان الشطر الثانى ، وهو الأكبر ، متحضرًا ويقيم فى المدن . وبذلك كان سكان الشام ينقسمون طوال الحقب الإسلامية إلى بدو وحضر . وكان البدو يعتمدون على الأغنام والأنعام ، بينما كان الحضر يعتمدون على الزراعة والصناعة والتجارة . وكان حكام مصر والشام يقرِّبون زعماء البدو ، ولكى يدرءوا عن الشام شرهم كانوا أحيانا يُقْطعونهم بعض مدن فلسطين على نحو ما هو معروف من إقطاع الفاطميين للمفرِّج بن دغفل مدينة الرَّمْلة .

على كل حال كان اعتماد الشام فى حياتها الاقتصادية طوال الحقب الإسلامية على سكان الحضر ومايؤدونه للدولة من الخراج والعشور والجوالى أو الجزية ، وكانت ضريبة محدودة قلما زادت عن دينارين ، وكانت تؤخذ من أهل الكتاب : النصارى واليهود نظير عدم انتظامهم فى الجيش العربى . وهى بذلك كانت ضريبة دفاع ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين ، أما النساء والأطفال والشيوخ والقساوسة والرهبان فلاتؤخذ منهم البتَّة .

وحين عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الجابية سنة ١٦ للهجرة أوصى عماله أن يرفقوا بالرعية فيما تؤدى من ضرائب للدولة ، وبلغ خراج الشام على عهده – كما يقول الصولى – خمسمائة ألف دينار . وبمجرد أن أصبحت الخلافة خالصة لمعاوية جعل خراج كل من دمشق وقنسرين أربعمائة وخمسين ألف دينار ، وخراج كل من فلسطين والأردن مائة وثمانين ألفا . وأخذ يهب بعض أصفيائه إقطاعات واسعة ، وتارة يكون الإقطاع إقطاع تمليك ، وتارة يكون إقطاع استثمار ، وكان عثمان بن عفان أول من سنَّ هذه السنة فى الإسلام .

وجاءت معاوية كنوز الأرض فكان يكثر من توزيعها على الشخصيات المهمة فى قريش

والأنصار وعلى زعماء القبائل فى الجزيرة العربية والعراق ، وعُنى عناية واسعة بأبهته ونفقاته . وبنى لنفسه دارًا كبيرة فى دمشق سماها « الخضراء » ودورا أخرى فى مكة ، وسنَّ للخلفاء الأمويين من بعده البذخ . ويُرْوَى أنه كان يستقبل من عماله هدايا العيدين الفارسيين : عيد النَّيْروز وعيد المهرجان ، ولابد أن كانت تقدم له الهدايا فى أعياد النصارى لما انعقد بينه وبينهم من علاقة وثيقة ، ولما منحهم من الإشراف على الشئون الما للدولة ، وخاصة سرجيوس وأسرته ، وأيضا لابد أن كانت تقدم ل الهدايا فى الأعياد الإسلامية .

ويبدو أن الدولة ظلت تنعم برخاء واسع بعد معاوية ، مما دفع الوليد بن عبدالملك إلى تشييد الجامع الأموى بصورة هندسية بالغة الفخامة فى زخرفته وتصويره ، وقد استقدم — كما مرَّ بنا — لصنع الفُسَيْفساء فى جُدره وفصوصه اثنى عشر ألف عامل من بيزنطة ، غير من استقدمهم فى تشييده ونقشه من مصر وفارس ، وقد مُثِّلت فيه أشجار وفرِّعت أغصان منظومة بالفصوص المذهبة ، ويقال إنه أنفق فيه خراج الشام سنتين وكان خراجها على عهده مليون دينار ومائتى ألف ، وفى رواية أنه أنفق عليه أحد عشر مليونا من الدنانير ومائتى ألف . وعُدَّ الجامع عجيبة من عجائب الدنيا ، وبه حظيت دمشق بمجد وشهرة عظيمين . ويبدو أن الوليد زاد ، بسبب هذه النفقة الباهظة على جامعه ، الضرائب على أهل الشام ، أو لعل أخاه سليمان الذى خلفه هو الذى صنع ذلك . ويخلفه عمر بن عبدالعزيز فيأمر عماله أن يأخذوا أهل الكتاب من النصارى واليهود بالرفق وأن تُمْنَعَ السخرة منعا باتا كما يمنع أخذ الضرائب على الجسور والمعابر وأن يكتفى فى المعادن بالصدقة ولايؤخذ منها العشر . وأمر أمرا صارما أن تُرْفعَ الجزية عمن أسلموا من الموالى بحيث يسوَّى بينهم وبين المسلمين فى الخراج والعشور . ويتوفَّى عمر فيعود العمال إلى الضرائب الاستثنائية ظلما وعدوانا . ولابد أن نذكر للأمويين أن الشام كانت تحظى برخاء غير قليل فى أيامهم ، ويشهد بذلك ماشادوه فى دمشق والبوادى من قصور ، وقد أصبحت دمشق بفضلهم عاصمة ومدينة عربية كبرى .

وكان المجتمع الشامى فى دمشق وغير دمشق يتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، والطبقة الأولى تشمل الحكام وكبار الموظفين فى الدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين . وتشمل الطبقة الوسطى العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع ، أما الطبقة الدنيا فهى طبقة العامة من صغار الفلاحين والعمال . وكان يتبع هذه الطبقة الرقيق الذى يؤسر فى الحروب أو يبيعه النخاسون ، وكان أخلاطا من البيزنطيين والأوربيين والإفريقيين . وظلت هذه

الصورة لطبقات المجتمع الشامى متصلة طوال الحقب التالية ، مع ماحدث للشام من تحول الخلافة منها إلى بغداد ، ومن مشرفة على الدولة الإسلامية الكبرى إلى ولاية منذ أن استولى العباسيون على أداة الحكم . وكان من أهم أعمالهم فيها إنشاء المراكز العسكرية على حدودها مع الروم المعروفة باسم العواصم والثغور ، وكانت جيوشهم ماتنى تخرج منها لحربَ الروم . محدثة فيها غير قليل من الرواج التجارى .

وكان العباسيون فى القرن الأول من خلافتهم يأخذونها بغير قليل من الرفق واللين . ويروى أن بعض ولاة الخراج بها لعهد هرون الرشيد شدَّد فى استخراج الأموال من أهلها فسخط عليه الرشيد سخطا شديدا وأنزل به عقابا صارما ، قائلا له : وليت الشام وهى جنات وعيون وجعلتها أجردَ من الصخر وأوحش من القفر . وحين ضمها ابن طولون إلى دولته فى مصر أخذت تنتعش وخاصة فى عهد خمارويه لكثرة ما كان يُجْرى على الناس فى رعيته بمصر والشام من الأموال ولما كان ينفقه على جيشه بها من الارزاق ، وقد بنى لنفسه بالقرب من دمشق قصرًا فخما . وعُنى الإخشيد بالشام ، كما عنى بها كافور . وكانا يكثران من الخلع والهبات على أهلها ، وكانت حلب والثغور بيد الحمدانيين وفرضوا فيها ضرائب ثقيلة[1] .

وتتبع بقية الشام مصر أيام الفاطميين حقبا متصلة . وعلى الرغم من أن المقدسى يقول إن ضرائب العروض والسلع التجارية فيها هينة لزمنه فى أواخر القرن الرابع الهجرى فإن من المؤكد أن الضرائب زادت واضطربت تبعا لكثرة الولاة الفاطميين وعملِ كل منهم على جمع كل مايستطيع من الأموال لنفسه ، فكانت تدخل على الضرائب والجبايات زيادات ترهق الشعب الشامى إرهاقا شديدا . وبلغ هذا الارهاق غايته فى ولاية المعلى بن حيدرة الكتامى لها سنة ٤٦١ ، حتى هجر الفلاحون مزارعهم فى الغوطة بدمشق وغير الغوطة ، وعظم شغب العامة سخطًا على هذا الظلم الصارخ وشبت النار حينئذ فى الجامع الأموى العظيم ، وكادت أن تذهب ببهائه ورونقه لولا أن تداركه الناس . ولعل أحدًا لم يصور ما كان يقع على أهل الشام من ظلم فادح فى جمع الضرائب دون أن تُستَخدَمَ فى مصالح الرعية كما صوَّر ذلك أبو العلاء ساخطا بمثل قوله :

وأرى ملوكا لاتَحوطُ رعيَّةً ... فعلامَ تُؤْخَذُ جزيةٌ ومكوسُ

ومانصل إلى سنة ٤٦٨ حتى تتحول دمشق إلى السلاجقة ، وينحسر الحكم الفاطمى إلى

---

(١) اضطرت الحمدانيين إلى ذلك حروبهم مع بيزنطة . ويقول المقدسى إن الضرائب كانت ثقيلة حينئذ على العواصم والثغور وإنها كانت ثلاثمائة وستين ألف دينار .

الجنوب . ومانكاد نشرف على نهاية القرن الخامس حتى تأتى جحافل الصليبيين وتستولى على ساحل الشام منذ سنة ٤٩٢ . ويتدارك طُغْتِكين أتابك الدولة البورية نسخة من النسخ القرآنية التى وزعها عثمان فى الأمصار كانت بطبريَّة فينقلها إلى دمشق ، وكان ذلك عملا جليلا زاد دمشق مجدا وجلالا ، وخلص له الأمر بها . ومن أهم ماقام به بناء مارَستان وخانقاه وأول مدرسة أنشئت بها . وتصبح الشام ساحة حرب كبرى أيام الصليبيين ، ولايقرُّ لأهلها قرار .

وأخذ حكام الشام من الأرتقيين أصحاب دمشق وغيرهم يضيفون بعض ضرائب استثنائية لجهاد الصليبيين والإنفاق عليه . وكان طغتكين عادلا ، ولكن أبناءه أخذوا يرهقون الدمشقيين بالضرائب الاستثنائية وصنع صنيعهم حكام المدن الأخرى ، حتى إذا نهض عماد الدين زنكى واستولى على شمالى الشام ، وكان قد أصبح خرابًا من ظلم الولاة ومن حرب الصليبيين ، نشر فيه العدل وفتح الرُّها وامتلأت كل هذه البقاع أهلا وسكانا .

وخلف عماد الدين زنكى ابنه نور الدين محمود،وحين خضعت له دمشق وحماة وبعلبك وغيرها من المدن الشمالية أبطل كل ماكان بها من الضرائب الاستثنائية على الأسواق ومايباع فيها من الفواكه والبقول والحلوى والغنم والجبن واللبن . وسار نفس هذه السيرة بعده صلاح الدين فألغى جميع المكوس والمغارم من ديار الشام وسامح الناس فى أموال عظيمة . ووزع فى عماله منشورا جاء فيه : إن أشقى الأمراء من سمَّن كيسه ، وأهزلُ الخلق وأبعدهم من الله من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وعمَّ الرخاء فى عهده وعهد نور الدين ديار الشام لكثرة ماصبًّا فى حجور الناس من القناطير المقنطرة من أموال حملة الصليب المدحورين . وسار بعد صلاح الدين سيرته فى حط المغارم عن كواهل الناس أخوه السلطان العادل ويقال إن مجموع ماخص دمشق من ذلك لعهده بلغ مائة ألف دينار . وقد عاد بعض هذه المغارم والمكوس فى بعض بلدان الشام بأخرة من أيام الأيوبيين وخاصة فى بعلبك ودمشق حين أظلها حكم الصالح إسماعيل .

وقد يكون من المفارقات أن نعرف أنه على الرغم من الحروب التى كانت متصلة بين أهل الشام وحملة الصليب نشطت التجارة بينهما نشاطا واسعا ، فتجار المسلمين ينزلون بلادهم وحصونهم وبالمثل ينزل حملة الصليب بلاد المسلمين حاملين لسلعهم ومشترين سلعا جديدة . وكأن الحرب شىء والتجارة شىء آخر ، ويعرض علينا أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » صورًا لافتة من تواصل الحياة بين العرب المدنيين والصليبيين . ورأى ذلك ابن جبير رأى العيان ووصفه فى رحلته المشهورة متعجبا قائلا : من أعجب مايحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين : مسلمين

ونصارى ، وقد يلتقى الجمعان ويتقاتلون وتجارهم تختلف بينهم دون اعتراض ، وهكذا دائما أهل الحرب من الفئتين مشتغلون بحربهم ، والناس من ورائهم – كما يقول ابن جبير – فى عافية : يتعايشون ويتبادلون السلع وعُروض التجارة ، وكان حملة الصليب يرسلون ببعض هذه العروض فى سفن لهم كانت تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسى حتى السويد . وورثت الشام عنهم ذلك حين جلوا عنها فكانت تجاراتها تتغلغل فى البلاد الأوربية .

ولم نعرض حتى الآن لما كان فى المجتمع الشامى طوال هذه الحقب من فنون اللهو . وكان طبيعيًّا والشام دائما حاملة للسيف أن يشيع فيها مبكرا سباق الخيل واللعب بالصوالجة والتنافس فى إحسان الرماية . وكان أهلها يحارشون أحيانا بين الكباش والكلاب ، وكانوا يخرجون للصيد . وكانت أسواقهم تموج بالأقمشة الحريرية وبالطيب والعطور . وعُنى خلفاؤها الأمويون مبكرين بالغناء وبدأ ذلك منذ عبد الملك بن مروان الذى استقبل ابن مِسْجح مغنى مكة وغنّاه الغناء المتقن على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة واستقبل أيضا بُدَيْحًا واستمع إلى غنائه ، واستقبل ابنه الوليد بعده ابن سُرَيج مغنى مكة . وتحول يزيد بن عبد الملك بقصره إلى مسرح لمغنى الحجاز من أمثال معبد وابن عائشة ، واشترى جاريتين من جوارى المدينة المغنيات ، وهما حَبابة وسَلّامة القَسّ ، ووصفه أبو حمزة الخارجى ، فقال إنه يشرب الخمر ويلبس الحُلّة قُوِّمتْ بألف دينار .. حَبابة عن يمينه وسلامة عن يساره » . ونشأ ابنه الوليد فى هذا الجو المشبع بالترف والخمر والغناء ، وكان شاعرا بارعا ، وله خمريات تكتظ بها ترجمته فى كتاب الأغانى ، وحين استولى على مقاليد الخلافة بعد عمه هشام تحول بقصره إلى مقصف للخمر والعزف والغناء ، وندماؤه من حوله يشاركونه قصفة ولهوه وطربه ، وكاد أن لايترك مغنيا مشهورا فى المدينة أو مكة إلا استقدمه وعقد له فى قصره مجالس للطرب والسماع ، ويقول أبوالفرج فى ترجمته إنه « كان يضرب بالعود ويوقِّع بالطبل ويمشى بالدُّفِّ على مذهب أهل الحجاز » .

ولا ريب فى أن شيئا من ذلك كان ينعكس على أهل الشام فى دمشق وغير دمشق . إذ يوجد فى كل زمن منحرفون ينغمسون فى اللهو والخمر وشرب الدِّنان ، وكان يهيئ لهم ذلك فى الشام كثرة مايزرع فيها من كروم وكثرة ما كان بها من أديرة . وكانوا يشربون فى الطبيعة بين الأزهار وغناء الطير وفى قاعات الأديرة والبيوت ، وكانوا يفرشون القاعات بالورود والنرجس والأقحوان والأزهار المختلفة . وكان يكثر فى تلك المجالس سماع المغنين والمغنيات وهم يعزفون على آلات الطرب المختلفة . ويسوق ابنُ حِجّة الحموى فى كتابه ثمرات الأوراق خبرا طويلا عن جماعة من

كتاب القرن الرابع الهجرى كانوا قاصدين مصر . فنزلوا بدمشق فى طريقهم ، والتقوا فيها بشاب أضافهم . فقبلوا الضيافة وأمضوا فى منزله ليلة ماجنة أحضر لهم فيها نبيذًا على عَشائهم ، فشربوا ، وسرعان ماخرجت عليهم طائفة من الجوارى مابين عوَّادة وطنبورية وزامرة وصنَّاجة ورقَّاصة ودفَّافة وهن يلبسن فاخر الثياب والحلىّ وسألهم فى الصباح أتحبون الذهاب إلى بعض البساتين للتفرج أو الجلوس فى المنزل واللعب بالشطرنج والنَّرْد أو القراءة فى الكتب . والخبر تداخله مبالغات تجعله أشبه بأسطورة ، لكنه على كل حال يدل على ماكان بدمشق من فنون لهو .

ولا ريب فى أن حرب أهل الشام بعد ذلك مع حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجوارى الأوربيات المستَرقَّات . ويبدو أنهن كن من عوامل شيوع البِغاء ، إذ نقرأ فى تراجم نور الدين وصلاح الدين والعادل أنهم طهَّروا البلاد من الفواحش والخمور والقمار . وكانت هناك دور النخاسين تحمل الجوارى من كل جنس وكل بلد . ويدل على كثرة الجوارى فى الشام من بعض الوجوه أن نجد فقيها دمشقيا توفى سنة ٦٣٢ هو عبدالسلام بن المطهر بن أبى عصرون يروى عنه أنه كان ببيته نيف وعشرون جارية فما بالنا بأهل الثراء وبالحكام وكبار الموظفين ذوى الرواتب الضخمة .ولم يقف المنحرفون بالمجتمع فى لهوهم حينئذ عند شرب الخمر . فقد أخذ يشيع بينهم شرب الحشيس ، ولذلك أمر الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٥ بهدم دور الحشيش والخمر جميعا وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونهما . ومن حين إلى آخر نسمع عند بعض السلاطين بمثل هذا الأمر ، ولكن المجَّان كانوا يعودون إلى تعاطيهما ولا يزدجرون . وظل الغناء مزدهرًا طوال زمن المماليك ، ونجد مغنيا بدمشق يلزم واليها تنكز نائب الناصر محمد بن قلاوون ويختص به ويعلم جواريه الغناء ، وكان يعاصره شمس الدين الدمشقى محمد بن على وكان يجيد العزف واللعب بالقانون وينظم الشعر ويلِّحنه ويأخذه عنه الملحنون وأهل الملاهى .

وظلت الشام تعيش فى رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجرى إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة فى دمشق الفوضى بسبب ماكان يحدث فيها من نزاع بين الأمراء على السلطة كما حدث فى السنوات ٧٥٣و٧٦٢ و٧٩٠ و٧٩٦ و٨٠١ ولعل هذا كان أحد العوامل فى انتصار تيمور لنك السريع على المدافعين عن حلب وما وراءها من البلدان إلى دمشق ، وقد عاث جنوده فيها –كما مرَّ بنا– نهبا وسفكا للدماء . وعلى الرغم من أن دمشق استسلمت له بميثاق أو عهد أخذه على نفسه أن لايمس أهلها بأذى لم يكد يدخلها مع جنده حتى نكث عهده وميثاقه فسبى جنوده النساء وشدوا الرجال والأولاد فى حِبال وأشعلوا النار فى المنازل والدور والمساجد ثلاثة أيام فاحترَقَت المدينة ، وسقطت

سقوف الجامع الأموى وصارت دمشق أطلالا عافية أو بالية ، بعد أن كانت فردوسا من فراديس الجنان ، وهى طامة كبرى ظلت دمشق تعانى منها طويلا . وزاد تيمور لنك الطين بلّة بتجريد دمشق – كما مرَّبنا من صفوة صناعها ومهندسيها ، إذ أخذهم معه الى عاصمته سمرقند . وحاول سلاطين المماليك بعد خروجه من دمشق لحرب السلاجقة فى آسيا الصغرى أن يعيدوا لدمشق والشام شيئا من الرخاء بإلغاء المغارم والمكوس وكل ما كان يبهظهم من الضرائب الاستثنائية .

واستعادت دمشق مبانيها وعمارتها بعد تيمور ، ولابد أنها ظلت تعانى من خسائر الحريق وأنقاض عمائرها الباذخة فترة طويلة . وسرعان ما نسمع أنه أصبح بها مائة حمام . وشاد حكامها فيها قصورا فخمة على مر السنين ، واتسع ذلك فى بلدان الشام جميعا : من حلب شمالا إلى غزة جنوبا ، وبدأ ذلك منذ أوائل عهدها بالاسلام لزمن الأمويين ، فإن خلفاءهم وأمراءهم وبعض نسائهم شادوا فى دمشق لأنفسهم قصورا باذخة ، وامتد ذلك إلى حلب وغير حلب من مدن الشام وإلى البوادى . وظلت هذه العناية بتشييد القصور لحكام الشام على مر السنين ، ومر بنا أن خمارويه بنى لنفسه بجوار دمشق قصرًا ، وتتابع بناء حكام دمشق وبلدان الشام للقصور ، سوى ما كانوا يبنون من المساجد والخانقاهات والمارستانات والمدارس . وتحدث المؤرخون طويلا عن قصر أنيق بدمشق بناه الظاهر بيبرس . وعُنى الصليبيون ببناء الحصون كما عنى الأيوبيون والمماليك ببناء المساجد والمدارس والرباطات والمارستانات والقلاع والجسور وكان لكل ذلك أثر واسع فى نشاط الحياة بالشام ورواج الصناعة والتجارة .

وترزح الشام – كما رزحت مصر – تحت حكم العثمانيين ، ويظلون بها أربعة قرون ، ويتقوض كل أمل لأهل الشام فى تدارك الأمور ، وبدأ ذلك الغزالى نائب سليم بما أخذ يفرض على أهل الشام من ضرائب ثقيلة ، وزال حكمه ، كما مر بنا ، وظلت المكوس تزداد وظلت البلاد تتردى من سيىء إلى أسوأ إذ دأب العثمانيون على التغيير السريع لحكامهم فى البلاد ، ودأب الحكام على اعتصار خيراتها حتى آخر قطرة . وكانت الدولة العثمانية تدفع إلى استنزاف كل ما فى ديار الشام من أموال وظلموا الناس أشد ظلم ، بل نهبوهم أعسف نهب وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز . وهيأ ذلك لمظالم لا تطاق فى المدن بين الصناع والتجار وفى القرى بين الزراع ، مما جعل بعض الفلاحين يفرون من قراهم إلى الجبال أو ينزلون عن ممتلكاتهم فيها إلى بعض ذوى الجاه مفضلين أن يعيشوا فقراء على معيشة الحرية التعسة المنتهكة . وانتكست بذلك الزراعة ، ولم تعد هناك عناية بإنتاج القطن

والحرير ، فانتكست أيضا الصناعة والتجارة . وزاد فى انتكاس التجارة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستعمارهم للهند وحملهم عُروضها وتوابلها عن هذا الطريق مستغنين بذلك عن طريق الشام ومصر القديم . وبذلك فقدت الشام فى أيام العثمانيين موردا ماليا ضخما كان على رأس مواردها التى أتاحت لحكامها بناء منشآتهم المعمارية الكثيرة من الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد والمدارس . وعم الكساد الشام طوال الحقب العثمانية . بل عم البؤس والظلم والخراب ، كما عمت الفوضى الإدارية ، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثمانى ازدادت الشام انتكاسا وفسادًا وظل ذلك سائدًا طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم .

٥

التشيع : الإسماعلية والإمامية – النصيرية – الدروز – الإسماعيلية النزارية أو الفداوية أو الحشاشين .

(ا) الإسماعلية والإمامية

مرَّ بنا – فى كتاب العصر العباسى الثانى – أن عبدالله بن ميمون القداح اتخذ سَلَمْية قرب حماة بالشام حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى مركزا للدعوة الإسماعيلية التى كانت تجعل الإمامة بعد جعفر الصادق فى ابنه إسماعيل لا فى ابنه موسى الكاظم مخالفين بذلك فرقة الإمامية الاثنى عشرية الشيعية . وانتقلت بعد إسماعيل فى أئمة مستورين ، إلى أن فرَّ المهدى بالله من سلمية إلى تونس وأسس هناك الدولة الفاطمية وصار إليها حكم مصر والشام منذ أواسط القرن الرابع الهجرى . ونشط دعاتهم فى الديار الشامية يدعون إلى عقيدتهم التى تَقْصر إمامة المسلمين على أبناء علىّ بن أبى طالب من السيدة فاطمة الزهراء ، زاعمة لهم العصمة وحق تأويل الذكر الحكيم ومعرفة أسراره ، ولذلك سموا باسم الباطنية ، وزعموا أن الأئمة يتوالون فى أدوار كل دور يتألف من سبعة منهم ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى وإليه تنتقل قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية للأئمة الستة قبله ، وأطلقوا اسم الذات العلية وكل صفات الله على أئمتهم .

وعرفت الشام بجانب العقيدة الإسماعيلية العقيدة الإمامية أو الاثنا عشرية التى يتوالى فى الإمامة بها عندهم اثنا عشر إماما يختمون بالإمام أبى القاسم محمد الذى اختفى وهو فى الثامنة من

عمره حوالى سنة ٢٦٠ ويؤمنون بأنه لايزال حيا باقيا وأنه لابد من عودته يوما أو رجعته ليهدى الناس إلى طريق الرشاد ويعيد سنن الرسول ﷺ ويرد حق أسرته المسلوب ويملأ الدنيا حقا وعدلا ، ويسمونه فى أثناء غيبته الجسدية قائم الزمان وإمام الوقت . وهو بذلك كله المهدى المنتظر الذى ينقذ العالم من مفاسده وشروره . وعند الإمامية أن أئمتهم وحدهم يتميزون بمعرفة المعانى الباطنة أو المستترة وراء ظاهر النصوص القرآنية ، ولذلك يعد التأويل من أسس العقيدة الإمامية ، ويرون أئمتهم فوق الطبيعة البشرية ، ولذلك يعتقدون فيهم العصمة وأنهم مطهرون لايستهويهم أى ضرب من ضروب المعاصى والآثام .

وإذا كان مركز العقيدة الإسماعيلية منذ أوائل هذا العصر فى القرن الرابع مصر فإن مركز العقيدة الإمامية كان العراق وإيران . وكان قرب معتنقيها من الشام سببا فى أن يدخلها كثيرون منه منذ وقت مبكر وكانوا ينبثُّون فى حلب وأيضا بين بعلبك وصفد ، ويسمون باسم المتوالية الإمامية ومنهم أمراء حرفوش . ونقف لنتحدث عن فرق شيعية غالية هى فرق النصيرية والدروز والإسماعيلية النزارية المسمون بالفداوية والحشاشين .

(ب) النُّصَيْرِيَّة[1]

فرقة شيعية غالية غلوًّا مفرطًا ، ولم تكن تتبع الفرقة الإسماعيلية ، بل كانت تتبع الفرقة الإمامية الاثنى عشرية ، أو قل إنها تفرعت منها ، وكانت تسكن فى قرى بسفوح الجبال الممتدة من طرابلس إلى أنطاكية أنشأها فيها داعية يسمى محمد بن نصير النميرى زعم لهم أنه مبعوث الإمام الحادى عشر حسن العسكرى وأخذ ينشر فيهم عقيدته منفصلا بها عن العقيدة الإمامية إذ جعل مبدأها أو محورها الأساسى ألوهية على بن أبى طالب وأنه خالد فى طبيعته الإلهية ومسكنه السحاب ، والرعد إنما هو صوته الهائل ، والبرق إنما هو ضحكه العالى ، ولايلعنون ابن ملجم قاتله ، بل يقولون إنه خلَّص اللاهوت أو الجزء الإلهى من الناسوت أو الجسم المادى ، ويعظمون الخمر ويرونها من النور الإلهى ، ويحتفلون بالأعياد المسيحية ويزعمون أن سلمان الفارسى إنما كان رسولا لعلى بن أبى طالب ، ويحلفون بعلى قائلين : وحق على العلىّ الأعلى ، كما يحلفون بالنور

---

(١) انظر فى النصيرية فرق الشيعة للنوبختى والملل والنحل للشهرستانى وصبح الأعشى ٣٥/١٣ ، ٢٤٩ والتعريف لابن فضل الله العمرى ورحلة ابن بطوطة وحديثه فيها حين زار ديارهم بالشام عن عقيدتهم وكتاب العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسهير ص ٢٢٠ ومابعدها وتاريخ النصيرية ودياناتهم لدوسو طبع باريس .

قائلين وحق النور وما نشأ منه . وواضح أنه تختلط بعقيدتهم عناصر فارسية كعنصر النور وعناصر مسيحية كعنصر قداس الخمر والطعام وهو شبيه بالعشاء الربانى ، ويروون عن الرسول ﷺ أنه قال لعلى : « لولا أن يقول الناس فيك ماقالوا فى عيسى لقلت فيك مقالا » وهو حديث موضوع .

ويقول النوبختى فى فرق الشيعة وابن فضل الله فى التعريف إنهم يحلُّون المحارم ، ولهم كتاب مقدس يخفونه عن الناس كما يخفون عقيدتهم ولا يبيحون لأحد منهم أن يذيع شيئا من مبادئها وأسرارها المصونة عندهم . ويقول الشهرستانى إنهم يقولون بأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه . ولكل ماسبق قال جولد تسيهر : « تغلب على تلك الفرقة أفكار وعقائد وثنية » ويقول « إن إسلامها إسلام اسمى فحسب » . ونظن ظنا أن استيلاء الفاطميين على الشام ونشر دعاتهم لنحلتهم الغالية المفرطة فى الغلو هناك . ثم ما كان من انشغال الأيوبيين بحربهم لحملة الصليب ، كل ذلك كان سببا فى اتساع حركتهم حتى إذا كان عهد الناصر بن قلاوون رأيناه يكتب فى سنة ٧١٧ للهجرة إلى ولاته فى الشم أن يأخذوا على أيديهم ، ويأمروهم أن يعمروا فى كل قرية من قراهم مسجدا وأن يمحوا منها الخمور وكل مايتصل بالآثام ، وصدعت قراهم لأمره .

(جـ) الدروز (١)

الدروز فرقة شيعية تفرعت عن الفرقة الإسماعيلية الكبرى ، آمنت بأن التجسُّد الإلهى حلَّ فى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ – ٤١١هـ) أسسها أو أنشأها بالشام داع إسماعيلى أعجمى من دعاة الحاكم يسمى محمد بن إسماعيل الدرزى ، وكان من غلاة الدعاة الباطنية يؤمن بالتناسخ ، فأغوى الحاكم على ادعاء هذا التجسد ، وصَنَّف له كتابا ذكر فيه أن روح الله مازالت تنتقل من رسول إلى رسول ، وبعد النبى ﷺ انتقلت إلى على بن أبى طالب وتناسخت فى الأئمة من أبنائه حتى انتهت إلى الحاكم ، فهو ليس بشرا ، إنما هو لاهوت تجسد فى الناسوت . وعلمت الرعية فى مصر بمايوسوس لـه الـدرزى فصـممت على قتـلـه ، وأنـقـذه منها الحاكم وقال له اخرج إلى الشام وانشر دعوتك فى الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد ، فخرج إلى الشام ونزل فى قبيلة تنوخ بوادى التيم من

(١) راجع فى الدروز صبح الأعشى ٢٤٨/١٣ وكتاب طائفة الدروز : تاريخها وعقائدها للدكتور محمد كامل حسين وجولد تسيهر ص ٢١٦

وديان قرية بانياس غربى دمشق ، وأخذ ينشر دعوته فى منازل تلك القبيلة بجبل حوران وأيضا فى القسم الجبلى من لبنان . وتوفى فقام بالدعوة بعده حمزة بن أحمد الهادى وكثر أتباعها وعُرفوا بالدروز نسبة إلى مؤسس الدعوة . وانتشارُها على هذا النحو فى جبل لبنان وحوران بسوريا جعلها تذيع بين قبائل وعشائر عربية ، وسقطت إلى الجنوب حتى جبل كَرْمَل بالقرب من صَفَد فى فلسطين ، وصعدت إلى الشمال حتى الجبل الأعلى بين حلب وأنطاكية . وأتاح لها ذلك أن تشيع بين عرب ذوى بأس وأهل شجاعة ، ومنذ وطئت أقدام الصليبيين الشام وضعوا أيديهم فى أيدى الدولة البوريّة صاحبة دمشق ثم فى أيدى عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين ضد حملة الصليب . وظلوا يجاهدونهم فى زمن الأيوبين والمماليك متعاونين أوثق تعاون مع سلاطين الدولتين فى طردهم من الشام . وأبلوا بلاء حسنا فى حرب التتار . ولعل ذلك هو الذى دفع الدولتين إلى مسالمتهم والإبقاء عليهم مع إقرارهم على إقطاعاتهم ، حتى يظلوا غُصَّة فى حلوق أعداء الإسلام والعروبة .

ولديهم رسائل مقدسة لمؤسس دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرزى وخليفته حمزة بن أحمد وتلميذه بهاء الدين . ويردد حمزة أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لاتدركها الحواس ولا الأوهام ، ويقول إنه ليس له مكان وإن حل فى كل مكان . وحاول هو وأستاذه الدرزى وتلميذه بهاء الدين أن يقنعوا الناس من حولهم بأن الحاكم تجسُّدٌ إلهى وأنه يتشكل فى صورة بشرية هى الصورة الإنسية التى عاش بها مع الناس كأنه فرد مثلهم . وليس الحاكم أول صورة بشرية تشكل فيها الله بل هو آخر صورة تجسد فيها ، فقد تجسد قبله فى الأنبياء والأئمة مما يفسح عند الدروز لفكرة التناسخ . ويصور القلقشندى عقيدتهم قائلا : « إنهم يقولون بأن الألوهية انتهت إلى الحاكم وتديرت (سكنت) ناسوته كما يقولون برجعته وإنه يغيب ويظهر بهيئته ويقتل أعداءه قتل إبادة لامعاد بعده إذ ينكرون المعاد » . فلا معاد عندهم ولا بعث ولاقيامة ، إذ القيامة فى رأيهم يوم رجعة الحاكم وظهوره فى صورته اناسوتية ، وحينئذ يوقع العذاب والثواب على الناس ، أما الثواب فارتفاع بالدرجة فى العلوم الدينية ، وأما العذاب فهبوط بالدرجة إذ يستمر الشخص ينتقل من جسد إلى جسد أو قل تستمر روحه تنتقل فى أجساد تهبط به فى الدين درجة بعد درجة .

وتُسْقط شريعة الدروز الفروض الدينية وتوجب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذى

الحجة ، ويقول القلقشندى إنهم يذهبون مذهب الطبائعية فى قولهم إن الطبائع هى المولِّدة ، والموتَ بفناء الحرارة الغريزية كانطفاء السراج بفناء الزيت ، ويقول : إنهم زادوا فى البسملة أيام الحاكم : باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم ، ثم جعلوها باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم . ولهم أدعية خاصة يتجهون بها إلى ربهم ، من ذلك مانقله الدكتور محمد كامل حسين من رسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد لحمزة بن أحمد من مثل : « سبحان مولانا جلَّ ذكره عن إحاطة الأشياء به وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

على أنه ينبغى أن نعود فنذكر أن عقيدة الدروز أصابها بعض التعديل فى فروعها بمايتلاءم والإسلام ومن أهم من عملوا على ذلك عبدالله التنوخى الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ وقد حاول العودة بهم إلى مذهب الجماعة .

(د) الإسماعيلية[1] النزارية أو الفداوية أوالحشاشين

مرَّ بنا فى الحديث عن التشيع بإيران فى الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى أن داعية من دعاة الحركة الإسماعيلية الفاطمية بإيران هو الحسن بن الصبَّاح زار مصر لعهد المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧هـ) وسأله من الخليفة بعدك ؟ فقال له : ابنى نزار ، فعاد إلى إيران يدعو للمستنصر وابنه نزار ، واستطاع مع طائفة من أتباعه أن يستولى على قلعة « ألموت » الجبلية الشاهقة ، واتسعت دعوته حتى ضم إليه قلاعا وحصونًا كثيرة بإيران وبعض بلدانها فى قزوين وطبرستان . وكانت الأمور تتطور بالقاهرة فتوفى المستنصر ورأى الأفضل بن بدر الجمالى أن لا يولى نزارا بعده وإنما يولى أخاه المستعلى . وبذلك انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمين : قسما عربيا فى مصر والشام بيده مقاليد الحكم يدعو للمستعلى وقسما شرقيا فى إيران يمثله الحسن بن الصباح يدعو لنزار .

واستطاع الحسن بن الصبَّاح أن يحول فرقته أو طائفة كبيرة منها إلى فرقة إرهابية مهمتها اغتيال خصوم الدعوة من حكام الأقاليم والدول ووزرائهم ومن العلماء والفقهاء المناوئين لها ، وكان ممن اغتالوه الوزير السلجوقى العظيم نظام الملك سنة ٤٨٤ . ومن أجل ذلك أطلق على اسم هذه الفرقة

---

(١) انظر فى هذه الفرقة وقلاعها بالشام ونشأتها صبح الأعشى ١٢١/١ و١٤٦/٤ و١٧٩ ورحلتى ابن جبير وابن بطوطة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٨٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦٦ وكتاب طائفة الإسماعيلية : تاريخها . نظمها . عقائدها للدكتور محمد كامل حسين .

اسم الفدائيين أو الفداوية كما غلب اسم الحشاشين لأنهم – فيما يظهر – كانوا يتعاطون الحشيش المخدر . وعمل الحَسَن بن الصبَّاح على نشر الدعوة الإسماعيلية لا فى أقاليم إيران فحسب ، بل أيضا فى إقليم الشام ، فأرسل إليها دعاته ، وبادر بإرساله الحكيم المنجم أسعد إلى حلب فى أيام حاكمها رضوان بن تُتُش السلجوق (٤٨٨ – ٥٠٧ هـ) فنشر بها الدعوة وكثر أتباعه وأوعز إلى بعض الحشاشين معه باغتيال جناح الدولة صاحب حمص ، واغتيل سنة ٤٩٦ . ووفد على حلب داعية ثان للحسن بن الصباح هو أبوطاهر واستولى مع شيعته على حصن فامِيَة من الصليبيين ثم استردوه منه . وأخذ الفدائيون من فرقة ابن الصباح يفدون على الموصل والشام واغتالوا فى سنة ٥٢٠ صاحب الموصل آق سنقر . وفى نفس السنة وفد على دمشق نزارى من ألموت ، وتقرب من طُغْتِكين صاحبها ، وتنازل له عن قلعة بانْياس فأخذ يدير دعوته منها ، وكثر أتباعه ، وأدخل المردغانى وزير بورى (٥٢٢ – ٥٢٦) فى دعوته فعيَّن أحد رجاله ، وهو أبو الوفا قاضيا لقضاة دمشق . وبعث أبوالوفاء سرا لبلدوين الثانى صاحب بيت المقدس أنه على استعداد لتمكينه من الاستيلاء على دمشق فى نظير تنازله له عن صور ، وقدم حَمَلَةُ الصليب إلى دمشق سنة ٥٢٤ لتنفيذ المؤامرة وفطن بورى فقتل أبا الوفاء ووزيره المردغانى ، ورد الله حَملة الصليب عن دمشق مدحورين .

وأخذ الإسماعيليون النزاريون فى بانياس يمكنون لأنفسهم بالاستيلاء على طائفة من القلاع فى السفوح الشرقية لجبال النصيرية بالقرب من طرابلس إلى الشمال بينها وبين حماة ، حتى إذا خلص الأمر لرشيد الدين سنان منذ سنة ٥٥٨ أخذ ينظم هذه الجماعة الإرهابية الخطيرة جاعلا من قلاعها وهى مصياف والرصافة وقُدْموس والخوابى والكهف والمَيْنَقة والعُلَّيْقة ، مركزًا للدعوة . ويُعدّ دوره فى الدعوة بالشام كدور الحسن بن الصبَّاح فى إيران ، فقد ضاعف تحصينات قلاعها وزودها بالسلاح والعتاد ، وكان سنان مباينا لنور الدين ولم يحاول أن يساعده فى حربه لحملة الصليب ، وفكر نور الدين فى منازلته ولكنه توفى قبل تحقيق فكرته . وبالمثل كانت بين سنان وصلاح الدين مباينة ، وأرسل إليه بعض فدائييه أو حَشَّاشيه مرتين ليغتالوه ونجَّى الله صلاح الدين من خناجرهم ، وجرَّد لهم فى سنة ٥٧٢ جيشا جرارا حاصر به قلاعهم وضيق عليهم ، فسألوه الصفح عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ليتفرغ سريعا لحرب حملة الصليب مؤملا أن يمدوا له يد العون فى تلك الحرب ، وكانوا قد وعدوه أن يقفوا معه ضدهم ، فلم يتعرض صلاح الدين بعد ذلك لقلاعهم .

ونمضى معهم إلى أيام هجوم التتار على الشام فنجد داعيتهم أبا المعالى رضى الدين يرضخ لهم ويسلمهم بعض القلاع سنة ٦٥٨ بينما ظل الدروز يقاومون التتار – كما مرَّبنا – ولعل ذلك ماجعل الظاهر بيبرس بعد قضائه على التتار يفكر فى الاستيلاء على قلاعهم منذ سنة ٦٦٤ وسرعان ما أعلنوا له الطاعة وأنهم جزء من رعيته . وفى سنة ٦٦٩ عزل داعيتهم نجم الدين وولى مكانه داعية ثانيا يسمى صارم الدين ، غير أنه أعلن الثورة عليه ، وسرعان ما أخفقت ثورته . وأخذ الظاهر بيبرس يستولى على قلاعهم حتى سلمت له وخضعت جميعا ، ولم يعمد إلى إجلائهم عن قلاعهم كما صنع هولاكو حين استولى على قلعة ألموت وغيرها من قلاعهم بإيران ، بل أبقى عليهم ليفيد من سفاكيهم فى القضاء على خصومه . وظل سلاطين المماليك بعده يستخدمونهم لنفس الغاية .

ويسجل ذلك ابن بطوطة حين زار حصونهم لعهد الناصر بن قلاوون سنة ٧٢٧ إذ يقول : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولايدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته ، فإن سلم بعد تأدية مايراد منه فهى له ، وإن أصيب فهى لولده » . ويقول القلقشندى نقلا عن ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة : « ولصاحب مصر بمشايعة الفداوية مزية يخافه بها عدوه ، لأنه يرسل منهم من يقتله ولايبالى أن يُقْتل بعده ، ومن بعثه السلطان إلى عدو له فجبن عن قتْله قتَله أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه » . وبالقاهرة جامع منسوب إلى هذه الجماعة الإرهابية يسمى جامع الفداوية ، ويقال إن الفداوى الإرهابى الخطير الذى كان يعتمد عليه بيبرس هو « شيحة » المدفون بدمياط .

٦

الزهد (١) والتصوف

الشام – من قديم – بلد دين سماوى ، بل دينين سماويين هما اليهودية والمسيحية ، مما جعل لها تأثيرًا بعيدًا فى تاريخ العالم الروحى ، إذ عملت بقوة على نقله من دور الوثنية إلى دور الديانات السماوية ، وبدأ ذلك منذ أعتق الأزمنة ونقصد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام الذى آمن بوحدانية الله ، وحاول أن يحمل عليها قومه ، وتتابعت بعده الرسل تؤكد دعوته وتدعو إلى عبادة الله وإعلاء القيم الروحية ، حتى إذا كانت المسيحية وأدخلت فيها مصر نظام الرهبنة والمعيشة الخالصة لتعبد الله والنسك فى الأديرة والصوامع عَمَّت هذه الروح فى الشام واعتزل كثيرون منه – فى أيام الرومان الظالمة – الحياة اليومية العاملة إلى الرهبنة . وتعتنق كثرة السكان فى الشام الدين الحنيف ويقبلون على تعاليمه وعبادة الله الواحد الأحد حق عبادته وعلى ماتدفع إليه من النسك والتقوى ، مقتدين بمن نزل بينهم من جلَّة الصحابة وبخاصة من أهل الصُّفَّة الذين كانوا يلازمون المسجد النبوى مقبلين على عبادة الله زاهدين فى الدنيا ومتاعها الزائل من أمثال بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ وأبى عبيدة فاتح الشام مع خالد بن الوليد ، وكان على غرارهما زهدا فى الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبى عبيدة فى سنة ١٨ للهجرة بطاعون عمواس ، ويؤثر عنه أنه كان يقول حين نزل به القضاء : « مرحبا بالموت ، مرحبا بزائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، وإنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكَرْى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حلقات الذكر » .

---

(١) انظر فى الزهد والتصوف بالشام كتب تراجم الصحابة ، وبخاصة من سميناهم ، وراجع فى معاذ تهذيب النووى وفى أبى الدرداء البيان والتبين للجاحظ : الجزء الثالث (انظر الفهرس) وانظر فى الأسماء التالية طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى والطبقات الكبرى للشعرانى والرسالة القشيرية (طبعة عبدالحليم محمود) وكشف المحجوب للهجويرى (الترجمة العربية) وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر وأحسن التقاسيم للمقدسى والسلوك للمقريزى والدرر لابن حجر والأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الخاص بمدينة دمشق (تحقيق د. سامى الدهان) ووفيات الأعيان وفوات الوفيات فى تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغرى بردى والبدر الطالع للشوكانى وروض الرياحين لليافعى وخلاصة الأثر للمحبى وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الجبرتى وجولد تسيهر ودائرة المعارف الإسلامية والجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

وعلى شاكلة معاذ فى الورع والتقوى من صحابة رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الشام أبو الدرداء الأنصارى ، وهو أحد حفظة القرآن الكريم لعهد الرسول وأول من تقلد القضاء بدمشق إلى أن توفى سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، وهو من أهل الصُّفَّة الأتقياء ، ويروى الجاحظ عنه أنه كان يقول « نعم صومعة المؤمن منزل يكفُّ فيه نفسه وبصره ، وإياكم والجلوس فى الأسواق فإنها تلهى وتحمل على اللغو فى الكلام » ويروى عنه أيضا قوله : « أضحكنى ثلاث وأبكانى ثلاث : أضحكنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لايُغْفَلُ عنه ، وضاحك ملء فيه ولايدرى ساخطٌ ربه أم راض ، وأبكانى هول المطَّلع [1] ، وانقطاع العمل ، وموقفى بين يدى الله لايُدْرَى أيُؤْمر بى إلى الجنة أم إلى النار » . وأخذ يتكاثر بعد جيل الصحابة فى الشام العباد والأتقياء ونلتقى بهم فى كل طائفة : فى القضاة والفقهاء والمحدِّثين وقرَّاء الذكر الحكيم .

واتسع ذلك حتى شمل بعض الحكام على نحو ماهو معروف عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز وهو يمثل نموذج الحاكم المتقشف الزاهد الذى يخشى الله فى كل مايصدر عنه من قول أو فعل ، ومرَّ بنا أنه رفع المكوس وضرائب السدود والمعابر عن الناس وأنه سَوَّى بين المسلمين الجدد من الموالى والمسلمين من العرب فحطَّ عنهم – مثلهم الجزية – واكتفى بالزكاة . وكتب إليه أحد عماله : إن أهل الذمة قد أقبلوا على الإسلام حتى يتخلصوا من الجزية ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جابيا . ويفيض ابن سعد فى ترجمته له بطبقاته فى بيان زهده ورفضه لمتاع الحياة من رقيق يملكه ومن عطر يتطيب به . وعمل بكل جهده على نشر العدل فى دولته ورفع المظالم عن الناس . وكان يجهد نفسه فى النسك والتعبد حتى اصفرَّ لونه ونحل جسمه ، وأنكر منه بعض الزهاد ممن كانوا يلمون به ذلك فقال له : كيف بك لو رأيتنى فى قبرى وقد سالت الحدقتان – بعد ثلاث ليال – على وجنتى وتقلَّصت الشفتان لكنت إذن أشد نكرا . وطبيعى أن يكون عمر من أسباب اتساع موجة الزهد فى الشام . ونكتفى بذكر بعض من تموج بهم كتب القراء والفقهاء والتاريخ من هؤلاء الزهاد العباد . من ذلك مايقولونه عن شيبان الراعى المتوفى سنة ١٥٨ وكان من كبار الفقهاء الزهاد وكان من أكابر أهل دمشق وعكف على النسك ، وبلغ به ذلك أن ترك الدنيا واتخذ له صومعة فى جبل لبنان فانقطع بها يتعبد الله .

ونسمع كثيرا عن عباد انقطعوا بهذا الجبل مؤثرين الإقامة به للتعبد [2] ، ومنهم من كان يتعبد الله فى جبال أنطاكية والمصِّيصة ، ومنهم من يتخذ الصوامع ، وظل ذلك متبعا حتى زمن ابن

(١) الاستشراف للآخرة

(٢) راجع مقدمة أحسن التقاسيم للمقدسى .

جبير[1] . وكان منهم من لايبعد عن دمشق إلى الجبال النائية مثل فهر بن جابر الطائى المتوفى عام ٢٢٠ فإنه لما بلغ الخمسين من عمره اعتزل الناس بجوار دمشق ، وأخلص نفسه للتقوى والنسك ، وله فى الزهد كتاب سماه : « العروج فى دَرَج الكمال والخروج من درْك الضلال » . ونلتقى بمعاصره أبى سليمان الدارانى عبدالرحمن بن أحمد بن عطية المتوفى سنة ٢١٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان من واسط وتحول إلى الشام ونزل قرية دَارَيًّا غربى دمشق ، وكان إماما حافظا كبير الشأن فى علوم الحقائق والورع أثنى عليه الأئمة ، وكان له الرياضات والسياحات ، ويقول الهجويرى : « كان ريحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة » . وتسلكه كتب الصوفية ، فى تراجمهم . ولم يكن التصوف حتى زمنه استقل عن الزهد بأحواله ومقاماته ، فهو إلى أن يكون زاهدًا أقرب منه إلى أن يكون متصوفا . وحمل عنه نزعته النسكية تلميذان أو مريدان ، هما أحمد ابن عاصم الأنطاكى وابن أبى الحوارى الدمشقى ، أما ابن عاصم فتوفى بعد أستاذه بخمس سنوات ، ويسلكه المتصوفة بين أوائلهم ويقولون إنه كان يجمع بين الأصول والفروع فى الشريعة ، وكان يقول : « أنفع الفقر ماكنت به متجملا وعنه راضيا » ويذكر بروكلمان له كتابا فى الزهد سماه « دواء القلوب ومعرفة هم النفس وآدابها » ويقول إن الغزالى ينقل عن هذا الكتاب كثيرا . وتلميذ الدارانى الثانى أو مريده ابن أبى الحَوَارِىّ أحمد توفى سنة ٢٣٠ وكان من بيت زهد ، فأبوه من الورعين وكذلك ابنه عبدالله ، وذُكر عند الجنيد متصوف بغداد فقال : « ريحانة الشام » . وكان يعاصره الشيخ أبوعبيد وان عابدا تقيا صالحا توفى سنة ٢٣٨ وقد وهب نفسه للغزو وجهاد أعداء الله .

ونلتقى فى طَرَسُوس دار حرب الروم بالشيخ أبى الحارث الفيض بن الخضر الأولاسى المتوفى سنة ٢٩٧ وكان أحد الزهاد العباد وله إشارات ولسان حلو وأقوال عالية ، وهو منسوب إلى أولاس فى نواحى طرسوس ، وكان بها حصن يسمى حصن الزهاد ، وكأنما اتخذوه رباطا لحرب أعداء الإسلام . وهو شاهد على ماقلناه مرارا فى كتاباتنا من أن زهادنا ومتصوفتنا كانوا دائما يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يجاهدوا العدو ويرابطوا له فى الثغور ، حتى إذا كان نفير الحرب تقدموا الصفوف يقتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون . وكان يعاصر الأولاسى أحمد بن يحيى

---

(١) يقول ابن جبير فى كلامه عن دمشق سنة ٥٧٨ كان الخير ينثال على الغرباء من الخطباء والمعلمين لا فى دمشق وحدها بل أيضا فى القرى والضياع ، ومن سئم المقام فيها متى سئم المقام يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودى (شمالى الموصل) فيلقى بهما المريدين المتقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء .

المعروف باسم ابن الجلَّاء المتوفى سنة ٣٠٦ تلميذ ذى النون المصرى مؤسس التصوف الإسلامى كما مر بنا فى قسم مصر المتوفى سنة ٢٤٥ وتلمذته لذى النون تجعله أول متصوف شامى بالمعنى الحقيقى. وكان ذو النون يجمع بين الشريعة وفروضها وبين الحقيقة الصوفية الروحية ، فلا تعارض بين الشرع والتصوف ، بل هما متلاحمان ، وعنه أخذ ذلك ابن الجلاَّء كما أخذ بقية مبادئه الصوفية من التوكل والحب الإلهى . ويقول ابن تغرى بردى إنه أحد مشايخ الصوفية الكبار ، ويقول مريده وتلميذه الرَّقِّى محمد بن داود : « لقيت نيفا وثلاثمائة من المشايخ المشهورين ، فما لقيت أحدا بين يدى الله وهو يعلم أنه بين يديه أهيب من ابن الجلاء » . وعاش الرقى بعده فى الشام إذ توفى بعد سنة ٣٥٠ . ومن مريديه وتلامذته فى الشام أبوعمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يقول : « التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غض الطرف عن كل ناقص ليشاهَد مَنْ هو منزه عن كل نقص » يريد تعلق التصوف بالرؤية الإلهية التى يغض فيها المتصوف بصره عن كل مايشاهده فى الكون أملا فى أن يفنى فى الذات الربانية ، وذكر مترجموه أن له كتابا فى الرد على القائلين بقدم الأرواح .

ومن كبار المشايخ فى الشام أحمد بن عطاء الروذْبارى المتوفى سنة ٣٦٩ وهو ابن أخت أبى على الروذْبارىّ شيخ الصوفية فى الفسطاط ، أما هو فكان شيخ الشام فى وقته ، وكان ممن جمع بين الحقيقة وعلم الشريعة . ودخل الشام محمد بن خَفيف الشيرازى شيخ المشايخ المتوفى سنة ٣٧١ ويحكى أنه : « دخل مدينة صُور وهو جائع عطشان وفى وسطه خرقة المتصوفة ، يقول : فدخلت المسجد ، فإذا شابَّان مستقبلا القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى ، فقلت : ناشدتكما الله إلا رددتما علىَّ السلام ، فرفع أحدهما رأسه من مرقَّعته الصوفية فنظر إلىَّ وردَّ السلام وقال لى : يابن خفيف الدنيا قليل ومابقى من القليل إلا قليل ، فخُذْ من القليل الكثير ، فذهب جوعى وعطشى ونَصبى (تعبى) فلما كان وقت العصر قلت له : عِظْنى ، فقال : يابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا عظة . وربما كان أهم تلامذة أحمد بن عطاء الروذبارى ومريديه محمد بن إبراهيم السوسى شيخ الصوفية بدمشق المتوفى سنة ٣٨٦ وكان زاهدا عابدا ماعقد على درهم ولادينار . وظل كثيرون من العباد والنساك يؤثرون جبال الشام ويقيمون بين ربوعها ويذكر المقدسى الجغرافى المتوفى حوالى سنة ٣٧٥ أنه لقى فى جبل الجَوْلان شرقى الشام أباإسحق البلوطى فى أربعين رجلا يقتاتون البلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعير برِّىٍّ ويلبسون الصوف . وينبغى أن نذكر أن المتصوفة كانوا غالبا لايستقرون فى أوطانهم ، بل يرحلون سائحين للقاء مشايخ

الصوفية ، ومعنى ذلك أن الشام كانت تستقبل كثيرين منهم . وكان يحدث كثيرا أن يتخذوها دار مقام كما صنع الدارانى الواسطى وأحمد بن عطاء الروذبارى ، وغيرهما كثيرون مثل الختلى نزيل الشام المتوفى سنة ٤٥٣ وهو أستاذ الهجويرى الغزنوى الأفغانى ، وكانت أكثر إقامته بالديار الشامية . ومعنى ذلك أن الشام كانت دائما ساحة كبرى للنسك والتقوى والعبادة .

ومانصل إلى سنة ٤٨٨ حتى ينزل الإمام الغزالى الطوسى الصوامع النائية فى مساجد بيت المقدس ، وكانت قد انتابته أزمة روحية من الخلافات العنيفة بين الفرق والملل وحتى بين الفقهاء فى فروع الشريعة . وقد أوضحنا ذلك فى حديثنا عن الزهد والتصوف بإيران فى الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى وكيف أخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ، وحمل على فرقة الإسماعيلية الشيعية حملة عنيفة فى كتابه « فضائح الباطنية » . وكان قد رأى فى موطنه ضعف الوازع الدينى عند طوائف الصوفية ، وأن جماعات منهم كانت تُسْقط عن نفسها الفرائض الدينية ، بينما كان منهم من يؤمن بالحلول والاتحاد بالله والفناء فيه . وكل ذلك أشعل بينهم وبين الفقهاء حربا شعواء ، وأخذ الغزالى يفكر فى كل ذلك على هدى ماكتبه أبو نصر السراج والقشيرى فى رسالته ، ورأى أنه لابد من الوصل بين التصوف والشرع ، فلا تصوف بدون الفرائض والنوافل ولاصلاة بدون عمل القلب والإخلاص وصدق السريرة ، وأخذ يؤلف موسوعته الرائعة « إحياء علوم الدين » بقصد تنمية الجوانب الروحية فى الفرائض الشرعية وبيان الوسائل إلى ذلك بحيث تصل النفس إلى مبتغاها من محبة الله . وأتمَّ الكتاب فى دمشق . واستقبلته استقبالا عظيما لأن متصوفتها لم يكونوا قد انحرفوا بتصوفهم إلى مزالقه التى وصفناها فى إيران ، بل كانوا دائما يجمعون بين التصوف والشريعة ، إلا من دفعته السياحة إلى ديارهم من متصوفة إيران .

على كل حال كانت إقامة الغزالى بدمشق وبيت المقدس فاتحة التئام وثيق بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد هذا الالتئام توثقا نزول حملة الصليب بديار الشام ، ولعل ذلك ماجعل حكامها التابعين للدولة السلجوقية يأخذون فى العناية ببناء الخانقاهات للمتصوفة ، من ذلك بناء دقاق بن تتش لخانقاه الطواويس بدمشق . ودعم هذا التصوف السنى عناية نور الدين ثم صلاح الدين وسلاطين الحكم الأيوبى ونساؤهم وأمراؤهم ببناء الخانقاهات والرُّبُط فى ديار الشام ووَقْف الرواتب والأموال التى تنفق على متصوفتها عن سعة . وقد عدَّ ابن شداد فى الجزء المنشور من كتابه الأعلاق الخطيرة الخاص بدمشق خانقاهاتها وحدها فبلغت تسع عشرة وبالمثل عدرباطاتها فبلغت أيضا تسعة عشر رباطا . وكان لايزال يخرج منها صفوف وجنود لجهاد حملة الصليب . وفى هذه

الأثناء ظهرت ببغداد طريقة صوفية سنية هى الطريقة القادرية لمؤسسها الشيخ عبدالقادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ واعتنقها كثيرون لافى العراق وحدها بل أيضا فى الشام والبلدان العربية . وتبعها ظهور طريقة صوفية سنية ثانية هى الطريقة الرفاعية لمؤسسها الشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ وانتظم فيها كثيرون فى العراق والشام وشاعت سريعا فى العالم العربى .

ومعنى ذلك أن التصوف السنى الجامع بين علم الحقيقة أو علم التصوف وبين علم الشريعة أو علم الفقه وما يتصل به من السنة تداخلت عوامل كثيرة فى أن يكون هو التصوف الشائع فى الديار الشامية . وحاول التصوف الفلسفى القائم على أفكار الحلول والاتحاد بالله أن يتسرب إلى الشام عن طريق يحيى السهروردى الإيرانى ، وكانت له فلسفة صوفية إشراقية ألممنا بها فى حديثنا عنه فى الفصل الرابع من قسم إيران ، وذكرنا هناك بأنه كان يؤمن بأن النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفى من أمثاله أفضل من الأنبياء ، وكفرَّه فقهاء حلب وحملوا الملك الظاهر بن صلاح الدين على قتله ، فقتله سنة ٥٨٧ للهجرة .

وكان من أثر دخول الشعوذة على التصوف ، وخاصة فى إيران ، ظهور فرقة بدمشق سنة ٦١٩ تسمى القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، لا يتقشفون ولا يتنسَّكون ولا يصلون سوى الفرائض ، ويحلقون لحاهم وحواجبهم . وتسرَّب ثانية إلى الشام جدول صوفى فلسفى زاخر على لسان محيى الدين بن عربى المولود بمرسية فى الأندلس سنة ٥٦٠ وقد تلقى تعاليمه فى إشبيلية وفارقها فى الثلاثين من عمره إلى المشرق لحج بيت الله الحرام . وظل فى مكة فترة ثم بارحها مطوِّفا فى البلاد العربية ودخَل الأناضول « وألقى عصاه بدمشق وبها توفى سنة ٦٣٨ » . وكان إماما فى التصوف الفلسفى القائل بوحدة الوجود وصنَّف كثيرا من الكتب أهمها الفتوحات المكية والفصوص ، وله غير ديوان ، ومن أهم دواوينه ترجمان الأشواق ، وكان شاعرا مبدعا كما كان كاتبا بارعا . وعلى الرغم من اتجاهه الفلسفى فى التصوف استطاع أن ينجو من العامة والفقهاء ، فلم يحكموا عليه بالكفر أو الإلحاد كما حكموا على السهروردى ، بل لقد وجد بينهم مريدين كثيرين مما هيأ فيما بعد لكى يظل التصوف الفلسفى – على قلة – حيًّا بجانب التصوف السنى ، وكانت عباراته فى كتاباته تحتمل ظاهرا وباطنا ، ظاهرا مع السنة وباطنا مع التصوف الفلسفى ، وجعل ظاهرها كثيرين يبرئونه من تهمة الإلحاد على نحو ما مر بنا فى مصر عند الشعرانى .

وتُعْنَى دولة المماليك بالخانقاهات والرُّبُط وزوايا المتصوفة ، وترصد لها أموالا كثيرة ، مما كان سببا فى ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانب طريقتى القادرية والرفاعية السالفتين ، فشاعت فيه

كما مر بنا آنفا الطريقة القلندرية . ودخلته الطريقة المولوية ، ومؤسسها جلال الدين الرومى المتوفى سنة ٦٧٣ وتبع هذه الطريقة كثيرون . ونزل الشام عفيف الدين التلمسانى المتوفى سنة ٦٩٠ وكان صوفيا فلسفيا يؤمن بمذهب وحدة الوجود واحتمله فقهاء الشام فيما يبدو لحسن عشرته .

ولعل فقيها لم يحمل على الصوفية كما حمل ابن تيمية الحنبلى المتوفى سنة ٧٢٨ . وكان يحمل على أصحاب التصوف الفلسفى . وهذا طبيعى . وحمل أيضا على أصحاب التصوف السنى من أتباع الشيخ أحمد الرفاعى لما كانوا يأتون من أعمال شاذة كنفوذهم من النار المضطرمة ، وأكلهم الحيات وهى حية ، ولبسهم أطواق الحديد الثقيلة فى أيديهم ، ولفهم شعورهم وتلبيدها . وثار عليهم ثورة عنيفة بدمشق واجتمع الناس إليه ، فذهب بهم إلى نائب السلطان وعرَّفه ماتصنعه هذه الطائفة من بدع عجيبة ، فأمرهم بالكف عنها . أما أصحاب التصوف الفلسفى وما يتصل به من القول بالحلول ووحدة الوجود فقد أشعل ابن تيمية ضدهم نارا حامية ظل يُذْكيها بوقود جزل يزيدها لهبا واضطراما ، واصطلى النار الباجريقى محمد بن عبدالرحمن ، وكان قد تزهد وتصوف فصحبه جماعة من الأراذل ، فهوَّن لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية ، وكان يقول لهم : إن الرسل طوَّلتْ على الأمم الطريق إلى الله تعالى » وزعم أنه وصل فى سلوكه إلى السماء الرابعة ، وحُكم عليه بإراقة دمه فاختفى إلى أن مات سنة ٧٢٤ . ودعا إلى مقالاته بعده متصوف من متصوفة خانقاه السميساطية بدمشق يسمى عثمان بن عبد الله الدَّوْكالى ، وشاع أمره فقُبض عليه ، وكان ممن شهد عليه فقيهان كبيران هما المزِّىّ والذهبى ، فحُكم عليه بالقتل سنة ٧٤١ .

وشاعت فى الشام لأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجرى الطريقة النقشبندية ، ومؤسسها محمد النقشبندى المتوفى سنة ٧٩١ . وأخذت تشيع معها لأواخر زمن المماليك الطريقة البكتاشية التى تدين بالنظريات الحلولية ولاتقيم وزنا للسنن والفرائض الدينية وتقدس عليا والأئمة من بعده . ومنذ القرن الثامن الهجرى نحس بوضوح أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أى تعلق بالدنيا وكانوا يكتفون بما يجرى على خانقاهاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمدُّ يده للحاكم يأخذ منه مالا . وكانوا كثيرا مايحملون على الحكام إذا رأوهم انحرفوا عن الطريق السَّوِىّ . وتحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون فى العالم الإسلامى ، وكان لهم أثر غير قليل فى حِفاظ العامة على الروح الإسلامية .

ونمضى إلى زمن العثمانيين فتنشط الطرق الصوفية لاهتمامهم بها ورعايتهم لها ، وتشيع معها

الطريقة الخلوتية ، ويعظم أمر الدراويش ويكثرون فى العالم الإسلامى . ومما لا شك فيه أنه كانت تكثر الطرق الصوفية المخلصة التى تعنى بالنسك والعبادة ، وإن كان من الحق أنه أساء إلى هذه الطرق الدراويش المتسولون الذين كانوا يتكففون الناس . وهم دراويش رُحّل كانوا يعيشون معيشة مطلقة ، وقد يتحللون فيها من الفرائض الشرعية . وبدون ريب كان بينهم من يتخذ الدروشة خداعا للناس ووسيلة إلى البطالة . ومع ذلك لانعدم أن نجد من حين إلى حين صوفيا حقيقيا يحاول النفوذ إلى معرفة أسرار الكون وخفاياه والتخلص من عالم الحس المادى للفناء فى عالم الحقيقة والحب الإلهى ، على نحو مانجد عند عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة وقد تقلب بين الطرق الصوفية وعكف على دراسة أئمة التصوف الفلسفى وغير الفلسفى ، ولقى كثيرا من شيوخ الصوفية فى لبنان وفلسطين ومدن الشام والحجاز ومصر ، وكان شاعرا كما كان ناثرا .

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظهرت الشام على مسرح الحضارة العالمية منذ أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد ، وهيأها لذلك موقعها بين حضارتى وادى النيل ووادى دجلة والفرات ، مما جعلها تنتقل سريعا من عالم البداوة والرعى إلى عالم الزراعة والاستقرار ، وكان مما أسرع بها إلى هذه الغاية وقوعها فى مفترق طريق العالم على الحافة الشرقية للبحر المتوسط ، مما أتاح لها أن تكون دولة بحرية على الأقل فى شواطئها فتشارك فى الملاحة والتجارة على نحو ماهو معروف عن الفينيقيين وإتقانهم لفنى التجارة والملاحة ، وقد استطاعوا أن يشتقوا من حلل الحروف الهيروغليفية المصرية أبجدية لهم ، هى أم الأبجديتين اليونانية والرومانية اللاتينية . وقد أخذت الشام تعيش عصرا هيلينيا منذ دخلها الإسكندر المقدونى ، ومضت تتعمق الثقافة الهيلينية فى زمن خلفائه السلوقيين اليونانيين وزمن الرومان ، واستطاع كثيرون من أهلها أن يتقنوا اليونانية وأن يسهموا فى تراث اليونان الفكرى والأدبى ، وبخاصة سكان الثغور من غزة جنوبا إلى أنطاكية شمالا . ولمعت أسماء كثيرين من أبناء هذه الثغور فى مجال المشاركة الفلسفية وبخاصة فى صور وصيداء ، سماهم وتحدث عن نشاطهم الفكرى فيليب حتى وخاصة فى مجال الفلسفة الرواقية والأفلاطونية الحديثة ، إذ ذكر أنه كان فى بيروت مدرسة تعنى بدراسة القانون الرومانى منذ أوائل القرن الثالث الميلادى ، ويستظهر أن تكون اللاتينية لغة التعليم بتلك المدرسة ، وإن كانت قد عادت مع أوائل القرن الخامس وسيطرة القسطنطينية عليها إلى اللغة اليونانية . وبالمثل شارك أبناء الثغور الشامية فى الأدب اليونانى ولمع فى صيداء اسم غير شاعر كان ينظم باليونانية .

وكل ذلك كان يصل الشام فكريا وفلسفيا وأدبيا ولغويا بالثقافة اليونانية ، وإذا كانت قد اشتقت أبجديتها من الأبجدية الفرعونية ، فإن مصر أثرت فيها تأثيرا بعيدا فى عصرها المسيحى ، إذ

أخذت عنها الرهبنة التى أسسها أحد قساوستها فى أواسط القرن الرابع للميلاد ، وكانت أول بلدة شامية استجابت إليها غزّة لقربها من مصر ، ومنها انتقلت إلى كل بلدان الشام حتى أنطاكية ، وكانت طوال العصر الهيليني تُعدّ ثالثة المدن فى الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية والإسكندرية .

ومما يدل بوضوح على مدى تأثر الهيلينية فى الشام أن نراها تتعمق باديتها أيام الرومان إلى دولة تدمر النبطية حين بلغت الذروَة الطامحة إليها فى عهد أُذَيْنَة . وحين خلفته فى الحكم أرملته زنوبيا اتخذت لونجينوس الذى علمها اليونانية مستشارًا لها ، ويظن أنه كان حمصى الموطن ، وقد أعدمه الرومان بعد قضائهم على زنوبيا سنة **٢٧٣** م . وهو يوضع فى سلسلة النقاد المتأخرين من اليونان لما خلف من أفكار نقدية وبلاغية كثيرة .

وكل ذلك معناه أن الشام حين فتحها المسلمون كان بها تراث يونانى ومسيحى[1] يعدها للمشاركة سريعا فى نشاطها العلمى والأدبى بمجرد دخول الإسلام فى ربوعها الذى كان يدفع أتباعه دفعا إلى التزود بالعلم والمعرفة . وقد دخل أهل الشام فى دين الله أفواجا ، وكان من حولهم الصحابة الفاتحون لديارهم ، وُعنى كثيرون منهم بإقراء من أسلموا القرآن وعَرْض أحاديث الرسول عليهم ، حتى يفقهوا فقهها حسنا تعاليم دينهم الحنيف . وكانوا مايزالون يفتونهم فى المسائل حتى يتبينوا الحلال فيتبعوه والحرام فينبذوه . وكان من حسن حظ أهل دمشق خاصة أن نزل بين ظهرانيهم أبو الدرداء أحد حفظة القرآن لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما مر بنا ، وكان أول من تقلد القضاء بدمشق حتى توفى ، وحَبس وقت فراغه على إقراء الناس القرآن ، وقد بلغ مَنْ أقرأهم ألفا وستمائة ونيفا ، وكان يجعلهم عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريف مقرئ ، وكان يقف فى محراب الجامع يراقبهم ويرمقهم ببصره . وإذا غلط واحد من أى عشرة رجع إلى عريفه ، وإذا شك العريف فى شىء رجع إلى أبى الدرداء ، وأيضا يرجع إليه كل قارئ من العشرة إذا أحكم قراءة القرآن واستظهره جيدا[2] . وهذا العدد الضخم من حفظة القرآن فى دمشق لأول عهدها بالإسلام يوضح مدى إقبال أهلها على العلم بالإسلام ، وكان هناك كثيرون يفسرون لهم آيات منه كما كان هناك كثيرون يفتونهم ، ونهض بذلك من نزل ديارهم من الصحابة واتخذوها موطنا ، ثم

---

(١) انظر فى هذا التراث وكل ماذكرت آنفا كتاب « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » لفيليب حتى — الجزء الأول —الترجمة العربية .

(٢) انظر ترجمته فى كتاب « غاية النهاية فى طبقات القراء » لابن الجزرى (نشرة برجستراسر) ٦٠٦/١ .

من حملوا عنهم علمهم من التابعين . وأصبحت دمشق سريعا حاضرة الخلافة الإسلامية منذ وليها معاوية ، وطبيعى أن يعنى الأمويون بمن يفقِّه الناس فى شئون دينهم ، ومن يَرْوى لهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من كبار الحفاظ ، ومن يفسر لهم بعض آى الذكر الحكيم ، ومَنْ يعظهم ويبلغ تأثير وعظه شغاف قلوبهم . وكان هناك القضاة الذين يحكمون بين الناس بالحق ، ويفتونهم فيما يجدُّ من شئونهم .

ومعروف أمْرُ عمر بن عبد العزيز لواليه على المدينة أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ماكان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسنته أو نحو هذا فاكتبه لى ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، وكتب بمثل ذلك إلى الآفاق ، وتوفى سريعا قبل تمامه . وكان أول من صدر عن هذه الرغبة العظيمة ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وتدوينه للحديث أول تدوين عام له ، وأخذ تدوينه بعده يتسع فى الشام وغير الشام .

وسجلت الشام مبكرة سبقا فى قراءة القرآن وإتقانها ، فإن عريفا ممن كانوا يقومون على عشرة من حفظة القرآن بين يدى أبى الدرداء هو عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ للهجرة استطاع أن يبلغ من إحكام قراءة الذكر الحكيم أن يكون له قراءة مستقلة ، وأن يكون أحد القراء السبعة المشهورين فى الأمصار الإسلامية لزمنه وبعد زمنه . ومالبث بأخرة من العصر الأموى وأوائل زمن الولاة فى العصر أن نلتقى بفقيه مجتهد ، وبلغ من اجتهاده أن أصبح إماما فى الفقه وصاحب مذهب مستقل هو الأوزاعى أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو المتوفى سنة ١٥٧ ببيروت مسقط رأسه . ومعنى ذلك أن الحركة العلمية التى بعثها الأمويون فى الشام وقاموا عليها بما كانوا ينفقون على علماء الدين فى كل بلد شامى من أموال آتت ثمارها ، فإذا الشام يصبح لها إمام فقيه يتدارس الفقهاء فقهه وكتبه فى الأجيال التالية ، وكذلك يصبح لها قارئ من القراء السبعة يقرأ أهل الشام بقراءته حقبا متعاقبة .

ونشطت الدولة الأموية لترجمة علوم الأوائل اليونانية وبعض الرسائل الأدبية الفارسية ، وسنلمُّ بذلك فى غير هذا الموضع ، إنما نهتم الآن بمتابعة الحركة العلمية الدينية واللغوية ، ودائما توجد مع العناية بالقراءات عناية واسعة باللغة والنحو ويقوم عليهما مؤدبون ، يعلمون الناس العربية فى المساجد حتى لايخطئوا فى تلاوة الذكر الحكيم . ولم يقصِّر الخلفاء وأمراء البيت الأموى فى تأديب أبنائهم وإحضار المعلمين لهم ، وفى كتب الأدب لهم وصايا لمؤدبى أبنائهم وكيف يهذبونهم ويقوِّمون ألسنتهم . وكانوا ابتغاء دربتهم على العربية والنطق الفصيح يرسلون أحيانا بهم

إلى البادية ، حتى يتزودوا باللغة من ينابيعها الأصلية ، وكان الوليد بن عبد الملك يلحن أحيانا ، ولاحظ ذلك أبوه فقال : « أضرَّ بالوليد حبُّنا له فلم نوجِّهه إلى البادية »[١] .

وظل هذا النشاط فى تعلم اللغة بجانب النشاط فى تعلم الدراسات الدينية ، وأخذت تتوالى طبقات فى زمن الولاة العباسيين تجعل همها التعليم فى المدن وأيضا فى القرى ، والدولة لا تقصِّر ، بل دائما تُجْرى عليهم الرواتب ، مما دفع إلى ظهور علماء فى كل فرع من فروع الدراسات الدينية واللغوية .

ويُظِلُّ الشامَ عهدُ الطولونيين ثم عهد الإخشيديين وتزيد إدْرارات الرواتب على العلماء ويطَّرد النشاط العلمى فى الشام . واهتم معاوية أول خليفة أموى بأخبار الأمم القديمة ، واستقدم لذلك من اليمن عُبَيْد بن شَرِيَّة الجرهمى ، وجعلها عبيد موضوعا لسمره وأحاديث معه ، وجمَع كثيرًا من هذه الأحاديث فى كتاب له سماه «كتاب الملوك وأخبار الماضين» ، طُبع له فى حيدر آباد مع كتاب التيجان فى ملوك حمير ويلقانا منذ القرن الرابع للهجرة مؤرخون مختلفون فى الشام ، على نحو ماسيتضح ذلك فى نهاية الفصل ..

وجدير بنا أن نقف قليلا عند حركة علمية وأدبية باهرة دفع إليها سيف الدولة الحمدانى (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) حين أظلَّ لواءه حلب وإقليمها ومادان لحكمه من أنطاكية وحماة وغيرهما من بلاد الشام ، ومر بنا حديث عن بطولته الخارقة وكيف كان يقف درعا ، بل سَدًّا منيعا للبلاد العربية أمام البيزنطيين وكيف نكّل بهم وبجموعهم مرارا وتكرارا . وبجانب هذه البطولة الخارقة كان راعيا عظيما للعلوم والآداب والفنون فى زمنه ، مما جعل حلب عاصمته تصبح كعبة للقصاد من الفلاسفة أمثال الفارابى المعلم الثانى أكبر فلاسفة المسلمين حتى أيامه ، ومن اللغويين والنحاة أمثال أبى على الفارسى وابن جنى وابن خالويه . وسنراه عما قليل يرعى علماء الطب وأفذاذه ، كما يرعى بعض المنجمين . أما الشعراء فلم يجتمع بباب أحد من الأمراء - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه كما يقول الثعالبى ، وقد أفرد له ولشعرائه فصولا طويلة فى الجزء الأول من كتابه اليتيمة أمثال النامى والببغاء والوَأْواء الدمشقى والخالديين والسَّرِىّ الرَّفاء وكُشاجم وابن نباتة السعدى . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق شاعر فى الشام والعراق وإيران إلا قدم إليه مدائحه ، ويكفى أنه نزل عنده لمدة

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٠٥ .

تسع سنوات أعظم كوكب فى سماء الشعر العربى لزمنه : المتنبى الذى ملأ الدنيا بوصفه لبطولته وملاحمه مع الروم .

وتحكم الدولة الفاطمية الشام نحو قرن ، وفى أثنائه يتقلص حكمها عن حلب إذ لم تكد تستقر فى يدها لأوائل القرن الخامس الهجرى حتى استولى عليها بنومرداس كما مر بنا فى الفصل الماضى ، ولايبقى معها فى العقد السابع من هذا القرن سوى صور وجنوبيها على شاطئ البحر المتوسط حتى غزة . ومن يرجع إلى كتب التراجم فى تلك الفترة يجد هناك كثيرا من طبقات العلماء من محدثين وفقهاء وقراء ومفسرين ونحاة . وليس بين أيدينا نصوص توضح مدى الرواتب والأموال التى كان يبذلها الفاطميون ونوابهم وولاتهم لعلماء الشام . ولكن يكفى أن تكون الشام أنتجت فى هذه الحقب أبا العلاء أكبر مفكر متفلسف إسلامى . وأكبر من تحمل مؤلفاته وأشعاره كل فروع الثقافة لزمنه ، يكفى ذلك للدلالة على ما كانت تحظى به الحركة العلمية والفلسفية والشعرية من خصب وازدهار رائع . وقد استقل بنو مرداس بحلب ، ويصور ابن العديم فى كتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب رعايتهم للشعر والشعراء ، وكان الشعر فيها لايزال حيًّا ناشطا منذ سيف الدولة ، على الأقل من حيث استقبال الشعراء وبذل العطاء لهم . وكان جلال الملك ابن عمار قاضى طرابلس استقل بها لسنة ٤٧٠ وحاول أن يحدث بها حركة علمية شبيهة بما أحدث الفاطميون من دار العلم لعهد خليفتهم الحاكم ، فأنشأ بها دارًا سماها بنفس الاسم ، وجعلها على غرارها فى تنوع الدراسات بها وفى جَلْب الكتب الكثيرة إليها[1] ، وكان من الممكن أن تحدث هذه الدار نشاطا علميا واسعا فى الشام ، غير أن حملة الصليب سرعان ماقدموا واستولوا على طرابلس سنة ٥٠٢ وأقاموا فيها إحدى إمارتهم ، وبذلك وُئِدَتْ حركتها العلمية وهى لاتزال ناشئة فى المهد .

ويدخل أكثر الشام فى حكم السلاجقة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وكان وزيرهم نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥ رأى أن ينشئ مجموعة من المدارس فى المدن الكبيرة لدولتهم فى إيران والعراق لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر المذهب الشافعى والعقيدة الأشعرية الكلامية ، وعُرفت كل مدرسة من هذه المدارس باسم المدرسة النظامية . وكان السلاجقة كلما دان لهم بلد لم يلبثوا أن أسَّسوا فيه مدرسة ، وظلت المساجد بجانب مدارسهم ساحات كبيرة للعلم والمعرفة ، وهو ماجعل العلم العربى بجميع فروعه شعبيًّا ، فكل فرد من أفراد الشعب يحق له أن يجلس إلى أى حلقة من

---

(١) خطط الشام لمحمد كرد على ٦٧/٦ وما بعدها

حلقات الشيوخ ، أما إذا انتظم فى مدرسة فإنه كان يأخذ راتبا معينًا يكفل له الحياة . وكان السلاجقة يفسحون فى بناء المدارس لقوادهم ولذوى الثراء . وأول مدرسة بنيت فى دمشق المدرسة الصادرية[١] بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله لدراسة الفقه الحنفى سنة ٤٩١ . وفى سنة ٥١٤ بنى أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة أول مدرسة [٢] للشافعية ، ثم بُنيت للأحناف المدرسة الطرخانية سنة ٥٢٥ وبعدها بقليل بنيت لهم المدرسة البلخية . وبنيت فى هذه الأثناء أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ وهى المدرسة الزجاجية بناها حاكمها الأرتقى بدر الدولة أبو الربيع سليمان .

ويُظلُّ الشامَ لواء الزنكيِّين عماد الدين ونور الدين محمود وخليفته صلاح الدين ثم الأيوبيين ، وتتنفس الصعداء ، فبالرغم من أن هؤلاء الحكام كانوا فى شغل مستمر بحروب حَملة الصليب وهدم قلاعهم وحصونهم كانوا يبنون ويؤسسون المدارس لفقهاء المذاهب الأربعة ، ومضى على منوالهم المماليك بحيث تزدهر فى الشام نهضة علمية رائعة . وكان يوقف على كل مدرسة أوقاف دارَّة تكفل للمدرسين والمعيدين رواتب مجزية . وكان يلحق بالمدرسة مبان للطلاب ، يقدَّم لهم فيها الغذاء ، ويقيمون فيها للراحة والنوم . وكانت تلحق أيضًا بالمدرسة خزانة كتب يختلف إليها الطلاب للقراءة والبحث ، وكان يقدَّم إليهم الورق وأدوات الكتابة . ويذكر ابن جبير فى رحلته لسنة ٥٧٨ أنه رأى بدمشق عشرين مدرسة وبحلب خمس مدارس يقول : « ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين ، وبها قبره نوَّره الله ، وهى قصر من القصور الأنيقة » بناها سنة ٥٦٣ لأصحاب الفقة الحنفى . وقد أخذت المدارس تتكاثر كثرة مفرطة فى دمشق وحلب وغيرهما من بلدان الشام . ولم يقف تشييدها عند السلاطين الأيوبيين ، فقد اشترك معهم فيها نساؤهم وقوادهم والأمراء من بينهم خاصة حكام البلدان الشامية ، كما اشترك بعض ذوى اليسار . وقد عدَّ ابن الشحنة منها فى كتابه الدر المنتخب فى مدارس حلب نحو خمسين مدرسة فى بلدة شامية واحدة أسست بين سنتى ٥١٦ و ٥٦٥ وجاء بعده ابن شداد ، فعد لدمشق فى سنة ٦٨٠ وهى سنة تأليفه للأعلاق الخطيرة أربعة وثلاثين مدرسة حنفية وأربعين مدرسة شافعية وثلاثة مالكية وعشرة حنبلية . ويعكس هذا العدد حقيقة كبرى هى مدى شيوع هذه المذاهب فى الشام فأكثرها انتشارًا

---

(١) الأعلاق الخطيرة لابن شداد : تاريخ مدينة دمشق ص ١٩٩ والدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٤٢٩/١ .

(٢) سميت الأمينية نسبة إلى مؤسسها ، ويقال إنه بنيت قبلها مدرسة سميت الجاروخية وانظر فى حديثنا عن المدارس المصدرين السالفين .

فيه المذهب الشافعى ثم المذهب الحنفى ثم المذهب الحنبلى ثم المذهب المالكى . ولم يُبْنَ للمذهبين الأخيرين مدارس إلا فى عهد الأيوبيين منذ صلاح الدين . وكان بيت المقدس يكتظ هو الآخر بمدارس المذاهب الأربعة ، وعلى شاكلته كثير من مدن الشام الكبرى ، وفى ذلك يقول ابن خلكان عن نور الدين محمود إنه « بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج »[1] . وبجانب مدارس المذاهب الفقهية عنوا بتأسيس مدارس الحديث النبوى ، من ذلك دار الحديث النورية التى أسسها نور الدين محمود بدمشق ، وولّى مشيختها الحافظ المؤرخ الكبير ابن عساكر . وبنى الأشرف موسى الأيوبى صاحب دمشق دار حديث بها ثانية سنة ٦٣٠ وألحق بها خزانة كتب ومسكنًا لشيخها ، ووقف عليها أوقافًا كافية ، وأسند مشيختها إلى ابن الصلاح الحافظ المحدث المشهور ، وفيمابعد أسندت إلى الإمام الشافعى : النووى .

وبدون ريب بعثت هذه المدارس الكثيرة كثرة مفرطة بالشام نهضة علمية باهرة ، فكثر العلماء فى كل علم حتى ليروى العماد الكاتب فى كتابه « الفتح القدسى » أنه وُزِّع فى إحدى المناسبات على علماء دمشق ستمائة دينار فخصَّ كل عالم دينار واحد[2] ، أى أنه كان بها حينئذ ستمائة عالم غير من لم يشملهم التوزيع ومن لم يحضروه . ومابالنا إذن بما كان ينفقه نور الدين بل صلاح الدين بعده على العلماء والمدارس ، لابد أنه كان يبلغ مئات الألوف من الدنانير . وساعد على هذه النهضة نور الدين وصلاح الدين وسلاطين أسرته . ويروى ابن خلكان فى ترجمة نور الدين إنه كان لايزال يحتاج إلى الأموال الكثيرة فى حربه لحملة الصليب فقال له بعض أصحابه إن فى بلادك إدْرارات وصدقات وصلات كثيرة على قراء الذكر الحكيم والفقهاء والصوفية ، ولو استعنت بها لكانت أصلح ، فغضب من ذلك غضبا شديدًا وزجر صاحبه زجرًا عنيفا . وكان صلاح الدين على شاكلته فى العناية بالفقهاء والقراء والصوفية ، وكان يختلس من أوقاته مايعطيه الفرصة لحضور مجالس العلماء مهما بعدت الشقة كما حدث فى ذهابه إلى الإسكندرية للاختلاف إلى حلقة السِّلْفى الحافظ المشهور[3] واشتهر المعظم عيسى صاحب دمشق بتعمقه فى الفقه وأنه ألف فيه كتابا وأيضا

---

(١) ابن خلكان فى ترجمة نور الدين محمود ١٨٥/٥ .

(٢) الفتح القدسى ص ٤٨١ .

(٣) سمع ابنه العزيز صاحب مصر بعده الحديث على السلفى أيضا : انظر النجوم الزاهرة ١٢٧/٦ .

فإنه كان يتعمق فى دراسة النحو[١] . فسلاطين بنى أيوب كانوا مثقفين[٢] ، ولذلك حاولوا أن يدفعوا الحركة العلمية إلى الذروة .

ويَعُدُّ صاحب الأعلاق الخطيرة لدمشق نحو ثلاثمائة مسجد غير الزوايا والخانقاهات ، وكثير منها كانت تُلقَى فيه المحاضرات والدروس . وظل هذا الحشد الهائل من الخانقاهات والمساجد والمدارس فى زمن المماليك وأخذوا يضيفون كثيرًا من الخانقاهات ومدارس الفقهاء وغيرهم من علماء الدين والعربية . وحقا كانت كثرة المماليك غير مثقفين ، وهم من هذه الناحية يختلفون عن سلاطين بنى أيوب ، ومع ذلك عنوا عناية واسعة بالثقافة وبناء المدارس والمساجد والخانقاهات والإنفاق عليها عن سعة ، على أنه عُرِف بعض متأخريهم بمدارسة العلم ورعاية العلماء والأدباء مثل السلاطين : برقوق والمؤيد شيخ وقايتباى والغورى .

ومعنى ذلك أن الحركة العلمية ظلت مزدهرة طوال أيام المماليك ، غير أنه يلاحظ أن نفوذ الفقهاء ازداد فى هذا العصر وازداد معه نفوذ المتصوفة وشاع معه الاعتقاد فى كراماتهم والمبالغة فى ذلك ، وبدون ريب كان بينهم كثيرون أجلاء على معرفة وفقه بصير بالشرع ، ولكن كان بينهم دخلاء مشعوذون جعلوا العامة يتعلقون بالأولياء ، ومنحوهم علم الغيب والقدرة على إنفاذ مايريده المتوسلون بهم . ويقف المستشرقون عندما نزل بابن[٣] تَيميةَ من محن ، ويحاولون أن يتخذوا من ذلك دليلا على جمود الفكر الدينى حينئذ غير ملاحظين أن ابن تيمية نفسه كان إماما حنبليا يدين بمذهب ابن حنبل وهو أكثر المذاهب سلفية . ومع ذلك كان من أكثر فقهاء عصره تحررًا فكريًّا ، وقد حارب الصوفيةَ فى منازعهم الفلسفية وكل ماقالوا به فى الحلول ووحدة الوجود ، وحارب الشيعة الإسماعيلية ومايزعمون لأئمتهم من العصمة وتمثيل العقل الكلى ومايتصل به من تجسد الإله

---

(١) مختصر مرآة الزمان ٤٢٦ ومابعدها

(٢) مما يذكر عن هؤلاء السلاطين أنه كان لهم بعض مؤلفات ، فكما كان للمعظم عيسى كتاب فى الفقه الحنفى كان للمنصور محمد الأيوبى صاحب حماة كتاب فى تاريخها ومن زارها أو اتخذها مسكنا من الأعلام (مختصر مرآة الزمان ٤٢١) وكان الأمجد الأيوبى صاحب بعلبك يحضر دروس الحافظ اليونينى ، وكانوا يعدون حضور مجلس العلماء شرفا ما بعده شرف .

(٣) انظر فى ترجمة ابن تيمية فوات الوفيات ٦٢/١ والنجوم الزاهرة ٢٧١/٩ والمنهل الصافى ٣٣٦/١ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٢٢٨/٤ وتاريخ ابن الوردى ٢٨٤/٢ والدرر الكامنة ١٥٤/١ والقول الجلىّ فى ترجمة الشيخ تقى الدين بن تيمية الحنبلى لصفى الدين الحنفى والكواكب الدرية فى مناقب ابن تيمية لمرعى الكرمى وابن تيمية للشيخ محمد أبوزهرة وابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى وأسبوع الفقه الإسلامى ومهرجان ابن تيمية طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة ودائرة المعارف الإسلامية ومابها من مراجع .

فى الخليفة ، وخصهم بكتابه عن الباطنية . وجعله تحرره الفكرى يفتح باب الاجتهاد على مصاريعه ويفتى فتاوى حرة فى كثير من مسائل الشرع . وجلب عليه ذلك سخط فئات كثيرة وخاصة من الفقهاء وعلماء الكلام الأشعرية ، إذ شملتهم هجماته . وهى هجمات صريحة جريئة ألَّبت عليه كثيرين من الخصوم فى بيئات مختلفة ، وبدأ ذلك بوضوح منذ سنة ٦٩٨ إذ جاءه سؤال من حماة عما فى القرآن الكريم من آيات قد تفيد التشبيه على الذات العلية إذا فُهمت على ظاهرها مثل : (الرَّحْمن على العرش استوى) و (يَدُ الله فوق أيديهم) ومذهب المعتزلة والأشعرية تأويل مثل هذه الآيات ، وأن المراد فى الآية الاستيلاء على العرش ، ومعنى كلمة يد فى الآية الثانية القدرة . ومذهب الحنابلة ، وهو ماأجاب به ابن تيمية فى رسالة مستقلة : أن واجبًا أن نؤمن بما جاء فى القرآن من هذه الصفات دون كيفية ودون تشبيه بالمخلوقات وأيضًا دون تأويلها فوق طاقة الإنسان . وسرعان ماتهمه الفقهاء الأشاعرة بأنه يرى فى الذات العلية رأى المجسمة أو المشبهة ، ورفعوا أمره إلى قاضى القضاة بدمشق فبرَّأه من التهمة . ونجاه الله من هذه المحنة .

ثم كانت التهمة الثانية لابن تيمية فى سنة ٧٠٥ بسبب حملته على الطريقة الصوفية الرفاعية ومايموِّه به أصحابها على الناس من النفوذ من النار وغير ذلك من كرامات يدَّعونها ، وشكَوْه إلى نائب السلطنة بدمشق ، فأمرهم النائب أن يكفوا عن حيلهم وخداعهم للناس كما مر بنا . وفى نفس السنة طُلب إلى القاهرة لمناظرة علمائها واجتمعوا له – وخاصة فقهاء الشافعية الأشاعرة – وأخذوا يناقشونه فى إثبات الصفات على الله حسب ظاهرها القرآنى ، فالله استوى – كما يقول – حقيقة على العرش ونحو ذلك . وجادلهم ابن تيمية طويلا موضحًا رأيه فى الإيمان بهذه الصفات دون كيفية ودون إثبات تجسيد على الله ، غير أنهم حكموا عليه بالسجن وظل فيه عاما وبضعة أشهر . ولبث فى القاهرة يعلِّم ويعظ ، وسرعان ماأوقع به خصومه بدعوى حَمْلته على أصحاب المنزع الفلسفى فى التصوف القائلين بالحلول ووحدة الوجود . وسُجن بالإسكندرية ، حتى إذا رقى عرش مصر الناصر بن قلاوون سنة ٧٠٩ ردَّ إليه حريته وأكرمه إكراما عظيما . وفى سنة ٧١٢ عاد إلى دمشق وتفرغ للتأليف والإفتاء ، حتى إذا كانت سنة ٧١٨ وأفتى أن الحلف بالطلاق كالحلف بالله يكفَّر عنه وأن الطلاق بالثلاث يُعَدُّ طلقة واحدة . حينئذ ثارت ثائرة الفقهاء ، حتى أجبروا السلطان على منعه من الفتوى بذلك ، وصدع السلطان لمشيئتهم . غير أنه عاد إلى الإفتاء بما ذكرنا فى سنة ٧٢٠ وعُقد بدمشق مجلس لمحاكمته ، وسُجن ولبث فى السجن خمسة أشهر وأياما ثم رُدَّت إليه حريته . حتى إذا كانت سنة ٧٢٦ أفتى بأن الرحلة إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين

معصية من أشد المعاصى ، فاعتُقل بسبب هذه الفتوى وجُعل فى قاعة حسنة بقلعة دمشق وأقام بها مشغولا بالتصنيف والتأليف ، وبأخرة من أيام سجنه مُنع من الأوراق والدواة والقلم ، ولم يلبث أن توفى سنة ٧٢٨ .

وواضح أن محنة ابن تيمية وسجنه لم يكونا بسبب اجتهاده فى مسائل الشرع وإنما بسبب تعرضه لمسألة عقيدية تتصل بصفات الله وأخرى تتصل بزيارة قبور الأنبياء والأولياء . وكان فى الصفات يأخذ برأى السلف ويترك رأى الأشاعرة والمعتزلة أى أنه لم يكن اجتهادا منه ، أما مسألة الاجتهاد فى الشرع فقد تركها العلماء له . ولسنا بصدد إحصاء آرائه الفقهية الجديدة . إنما حسبنا أن نشير إليها وأن نتخذ منها دليلا – كما مر بنا آنفا – على أن باب الاجتهاد ظل مفتوحا على مصاريعه طوال زمن المماليك حتى بين الحنابلة . واشتهر فى كل مذهب فقهى مجتهدون جدد مثل النووى فى المذهب الشافعى . ونفس آراء ابن تيمية ظلت حية عاملة بعده إلى أن استمدت منها الحركة الوهابية بواعثها بعد أربعمائة من السنين . وإذا كان قد تورط بعض فقهاء الشافعية فى محاكمته بدمشق والقاهرة فإن ابن تغرى بردى يذكر أن كبيرهم فى دمشق ابن الزَّمْلكانى ونظيره فى مصر ابن دقيق العيد أثنيا عليه ثناء عطرا وينقل عن ابن الزملكانى قوله عنه : « العلامة الأوحد الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، وقدوة الأمة ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، آخر المجتهدين ، أوحد علماء الدين .. محيى السنَّة ومن عظمت به لله علينا المِنَّة » .

وعلى هذا النحو كانت الحياة العلمية نشطة مزدهرة فى زمن المماليك ، وكانوا يشجعون العلماء والأدباء ، وطالما اقترحوا على بعض المؤلفين تأليف هذا الكتاب أو ذاك ، وكانت البلاد دارَّة وقضاتها على المذاهب الأربعة يحكمون بين الناس بالعدل . فلما أظل لواء العثمانيين الشام أصابها ماأصاب مصر من انتكاس الحركتين العلمية والأدبية ، ومع ذلك ظلت جذوة منهما متقدة فى بعض المدارس والجوامع وبخاصة فى الجامع الأموى بدمشق ، إذ ظلت فيه حلقات التدريس . ومرَّ بنا أن الحكم العثمانى بالشام أخذ يسوء سوءًا شديدًا ، وأخذت المظالم فيه تزداد والضرائب تتضاعف ، وكان لذلك أثره فى تدهور الحركتين العلمية والأدبية . وألغى العثمانيون نظام قضاة المذاهب الأربعة الذى وضعه الظاهر بيبرس وظل قائما طوال أيام المماليك ، حتى إذا حكموا البلاد استعاضوا عن هؤلاء القضاة بقاضٍ عام واحد هو قاضى العسكر ، وألغوا استخدام العربية فى دواوين الولاية ، واستخدموا مكانها التركية ، وكان لذلك تأثيره على الكتابة والكتاب ، فلم تعد تكتب رسائل ديوانية ولامناشير وتقاليد بالعربية ، غير أن العربية كانت لغةَ الدين الحنيف ، فظلت

حية فى ديار الشام هى والعلوم الدينية ، وأيضا العلوم اللغوية ، حتى ليلقانا من حين إلى حين نابغون فى الدراسات الدينية وفى الشعر والنقد والتصوف والتاريخ .

٢

علوم الأوائل– علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مرَّ بنا – فى فاتحة الفصل – أن الشام شاركت فى التراث اليونانى منذ انتشرت فيها الثقافة الهيينية وبخاصة فى ثغورها : صور وصيداء وبيروت وأنطاكية . وظلت هذه المشاركة مستمرة حين اعتنقت المسيحية . فكان كثيرون من سكان الأديرة ورهبانها يعرفون ما لليونان من تراث فى الفكر الفلسفى والعلمى ، ومنهم من كان يحذق اليونانية ، وبذلك كانت الأديرة مراكز للثقافة الهيلينية قبل الفتح الإسلامى وبعده . وبالمثل ظلت أنطاكية وبعض الثغور الشامية تعنى بتلك الثقافة .

ويلقانا فى عهد معاوية طبيبان من الأطباء المتميزين فى دمشق حينئذ هما ابن أثال ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه كان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة[١] ، وأبو الحكم وكان عالما بأنواع العلاج والأدوية[٢] . وهما يرمزان إلى مانقوله من أن التراث العلمى اليونانى ، وبخاصة علم الطب ، ظل حيا فى ديار الشام ، مما أتاح لخالد بن يزيد بن معاوية أن يتعلق به ، وقال مترجموه إنه كان يشغف بكتب الكيمياء والطب والنجوم ، كما قالوا إنه أحضر من الإسكندرية بعض الفلاسفة الحاذقين لليونانية والعربية وأمرهم أن يترجموا له كتبا فى الكيمياء ، ويبدو أنه تعمقها حتى استطاع أن يؤلف فيها كتبا ورسائل ، يقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرارات وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته فى الصنعة (الكيمياء) »[٣] . ونمضى بعد خالد فنلتقى بالخليفة عمر بن عبد العزيز . ويقول ابن أبى أصيبعة إنه نقل تدريس علوم الأوائل من الإسكندرية إلى أنطاكية وحرَّان[٤] وناقش ماكس مايرهوف هذا القول وأثبت بطلانه[٥] ، إذ كانت أنطاكية وحران جميعا من المراكز التى عنيت قديما بدراسة التراث اليونانى . وربما دفع ابن أبى أصيبعة إلى هذا القول أنه رأى عمر يستقدم طبيبا من الإسكندرية هو عبد الملك بن

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ١٧١ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ١٧٥

(٣) الفهرست ص ٣٣٨ (٤) ابن أبى اصيبعة ١٧١

(٥) انظر مقالة ماكس مايرهوف : من الاسكندرية إلى بغداد فى كتاب التراث اليونانى للدكتور عبدالرحمن بدوى

أبجر ، ويتخذه طبيبا[١] له ، ويبدو أنه كان قد تعرف عليه فى أثناء ولاية أبيه على مصر ، فلما ولى الخلافة استقدمه وأسلم على يديه ، وظل يعتمد عليه فى صناعة الطب . وربما دفع ابن أبى أصيبعة إلى هذا القول أيضا أنه أمر بنقل كتاب القس أهرون الإسكندرى فى الطب إلى العربية ، ويبدو أنه كان قد نال شهرة فى علم الطب لزمنه ، ومع ذلك لم يترجمه أحد علماء أنطاكية لعمر ، وإنما ترجمه ماسرجويه[٢] البصرى . ولو أنه فكر حقا فى نقل التعليم – وخاصة تعليم الطب – إلى بلد بالشام لنقلَه إلى عاصمته دمشق كما صنع خالد بن يزيد بن معاوية .

على كل حال كان التراث اليونانى الفلسفى والعلمى معروفا – طوال زمن بنى أمية – فى أنطاكية وبعض مدن الشام وفى الأديرة ، وأخذت تؤلَّف بعض الكتب على ضوئه كما صنع خالد ابن يزيد بن معاوية ، كما أخذت تنقل منه إلى العربية بعض الرسائل والكتب . ويُرْوَى أن سالما رئيس ديوان الإنشاء لهشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل أرسطاليس إلى العربية[٣] . ويذكر بروكلمان أنه تُرْجِمَ – أيام الأمويين سنة ١٢٥ – كتاب مفتاح أسرار النجوم[٤] . وكل ذلك يؤكد أن جو الشام كان مشبعا بالتراث اليونانى العلمى والفلسفى . وظل المعنيون بعلوم الأوائل يتنفسون فى هذا الجو طوال زمن الولاة العباسيين . ويبدو أن دمشق ظلت تعنى بها وبخاصة الطب ، ومن أطبائها فى القرن الثانى الحكم[٥] بن أبى الحكم ، وكان أبوه طبيب معاوية وقد عُمِّر طويلا حتى لحق القرن الثالث ، وكان طبيبا مسيحيا عالما بأنواع العلاج والأدوية . وكان ابنه عيسى[٦] – على غراره – طبيبا ، واستقدمته أم ولد للرشيد لعلاجها ، وله فى الطب كناش كبير . ويبدو أنه أُسِّس فى دمشق مرصد كبير ، إذ نرى المأمون يطلب مراجعة جداول بطليموس الفلكية على أرصاد تمت فى بغداد ودمشق ، وقد طلب أن تقاس إحدى درجات خط الزوال[٧] ويعلق على ذلك بروكلمان بأن المسلمين استطاعوا ببحوثهم المستقلة أن يسبقوا معلميهم من الهنود والإغريق فى وقت قصير .

وظلت الشام تشارك فى حركة الترجمة للتراث اليونانى ، ومن كبار مترجميها عبد المسيح[٨]

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ١٧١

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٨٠ ، ٣٢٤

(٣) الفهرست ص ١٧١

(٤) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٤/٩٠

(٥) ابن أبى اصيبعة ص ١٧٦

(٦) ابن أبى أصيبعة ص ١٧٧

(٧) بروكلمان ٤/١٩٦ ويذكر القفطى ص ٢٨١ منجما خبيرا بالكواكب تولى الرصد للمأمون على جبل قاسيون بدمشق ، انظر القفطى ص ٣٥٧

(٨) انظر فى عبد المسيح بروكلمان ٤/٩٥ ودى بور ص ٢٢ وعلوم اليونان لأوليرى ص ٢٢٧

ابن عبد الله بن ناعمة الحمصى المتوفى لعهد المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطو وشرح يحيى النحوى على كتابه : السماع الطبيعى ، وترجم أيضا عن اليونانية كتابًا منسوبًا إلى أرسطو خطأ وهو المسمى أثولوجيا أو ربوبية ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلوطين الإسكندرى ، ولذلك تشيع فيه نزعة أفلاطونية محدثة .

ونمضى إلى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ويلمع اسم قُسْطا[١] بن لوقا المولود ببعلبك فى أوائل القرن ، وقد ترجم للخليفة المستعين (٢٤٨ — ٢٥١ هـ) كتابين : كتاب لثيودوسيوس وكتاب الحيل لهيرون . وذكر له ألدوميلى ترجمات أخرى . وترك مؤلفات كثيرة منها رسالة فى العمل بالكرة الفلكية ، والجامع فى الدخول إلى علم الطب ، ومقدمة إلى علم الرياضيات ، والمدخل إلى الهندسة ، والمدخل إلى علم المنطق ، إلى مؤلفات أخرى كثيرة تتناول فروع العلم والفلسفة ، توفى سنة ٣٠٠ للهجرة . وكان يعاصره مترجم كبير هو حُبَيْش[٢] بن الحسن الأعسم الدمشقى وهو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه ، وكان يترجم عن اليونانية والسريانية ، وساعد خاله فى كثير من تراجمه ، ومما ترجمه عهد بقراط وكتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكل كتب جالينوس ، وله كتاب فى الأدوية المفردة وآخر فى الأغذية . ومن كبار أطباء دمشق سعيد[٣] ابن يعقوب الدمشقى وقد ولاه على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر أمر مارَستان بغداد سنة ٣٠٢ وله ترجمات كثيرة ، ترجم إيساغوجى (لفوفوريوس) والمقالات السبع الأولى من كتاب الجدل لأرسطو ، وعُنى بترجمة الكتب الرياضية اليونانية وفى مقدمتها الجزء العاشر من أصول إقليدس وشرحه لبابوس ، ولايوجد من هذا الشرح سوى ترجمته العربية ، وترجم أيضا كتبا لجالينوس .

وهذه الأسماء التى ذكرناها إنما هى رمز لما ظل بديار الشام من نشاط لعلوم الأوائل والمتعلقين بها طوال القرون الثلاثة الأولى وحقبا من القرن الرابع ، وفيه يقود سيف الدولة — كما مر بنا — حركة أدبية وفلسفية علمية ناشطة فى عاصمته حلب ، مما جعل كثيرين من أعلام الفكر والعلم والأدب فى زمنه يلمُّون بحضرته ، وكثيرا ما كانوا يختارون الإقامة عنده ، وكان ممن اختار المقام ببلاطه فى حلب أكبر فيلسوف عربى فى زمنه الفارابى[٤] ، وقد ظل عنده حتى لبىَّ نداء ربه سنة

---

(١) انظر فى ترجمة قسطا القفطى ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ٣٢٩ وبروكلمان ٩٧/٤ وألدوميلى ص ١٦٥ ومابعدها

(٢) راجع فى حبيش القفطى ١٧٧ وابن أبى أصيبعة ٢٧٦ وبروكلمان ١١٧/٤ وألدوميلى ص ١٤٣

(٣) انظر فى سعيد ابن أبى أصيبعة ٢٨٢ وبروكلمان ١١٨/٤وألدوميلى ص ٢١١

(٤) راجع فى الفارابى وفلسفته ومراجعه كتابنا العصر العباسى الثانى ص ١٤٠ وما بعدها

٣٣٩ . وأحدث نزول الفارابي بحلب نشاطا فلسفيًّا وفكريًّا ظل سنوات مقامه بها وامتد بعد وفاته ، ومعروف أنه عُنى بمزج فلسفة أرسطو بالمذهب الأفلاطوني الجديد . ولعل مما يدل على اتساع النشاط الطبي والعلمي والفلسفي بالشام لتلك الأيام ماذكره القفطي عن سيف الدولة من أنه كان إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيبا ثم يقول : كان فيهم من يأخذ راتبين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة رواتب لتعاطيه ثلاثة علوم ، ويذكر أن طبيبه المسمى عيسى النفيسي كان يأخذ ثلاثة رواتب : راتبين بسبب إحسانه لعلمين وراتبا ثالثا جزاء ترجمته من السريانية إلى العربية [١] . وذكر القفطي بينهم فى موضع آخر من كتابه ابن كشكرايا [٢] وكان طبيبا مشهورا عيَّنه فيما بعد عضد الدولة البويهي بالبيمارستان المنسوب إليه ببغداد ، كما ذكر أيضا بين من كانوا يحضرون مجالس سيف الدولة أبا القاسم [٣] الرقي ، وكان من أصحاب التنجيم وعلم الهيئة والطب .

وهذا نشاط لعلماء الأوائل فى بيئة واحدة من بيئات الشام أثناء القرن الرابع ، ويبدو أنه بقيت بقايا من هذا النشاط زمن الفاطميين بدمشق وشاطئ الشام وعند المرداسيين بحلب والسلاجقة فى حلب ودمشق ، يدل على ذلك مايلقانا من أطباء مختلفين فى تلك الديار مثل اليبرودي [٤] فى القرن الخامس وظافر [٥] بن جابر السكري ومبشر [٦] بن فاتك فى نفس القرن ومثل ابن الصلاح [٧] وابن البذوخ [٨] فى القرن السادس . ومن المؤكد أن نزول حملة الصليب بديار الشام أصاب هذه الحركة بغير قليل من العطل ، ومع ذلك فقد تحولوا تلامذة لأطباء العرب يتعلمون على أيديهم فنونًا من الجراحة والطب ، ورأى بعض أطباء العرب – كما روى أسامة بن منقذ – أحد أطبائهم يعالج بعض مرضاه علاجا يدل على جهله بالطب ، فسخر منه سخرية شديدة ، وسجل على الصيليبيين عامة انحطاط الطب عندهم انحطاطا مزريا ، على نحو ماصور ذلك فى كتابه « الاعتبار » .

وندخل فى زمن الزنكيين ونور الدين محمود وصلاح الدين والأيوبيين ، ويعظم الاهتمام بالمرضى وبمن يعالجهم من الأطباء ، وتنشأ لهم بيمارَستانات ، ينزلونها وتقدم لهم فيها الأدوية

---

(١) القفطي ص ٢٥٠
(٢) القفطي ص ٤٠٣
(٣) القفطي ص ٤٢٩
(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٠
(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٤
(٦) القفطي ص ٢٦٩
(٧) القفطي ص ٤٢٨ وابن أبي أصيبعة ص ٦٣٨
(٨) ابن أبي أصيبعة ص ٦٢٨

والأغذية حتى يتم شفاؤهم . ويذكر ابن جبير فى رحلته بيمارستانين رآهما بدمشق سنة ٥٧٨ : أحدهما قديم والثانى حديث ، ويقول إن الحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته (نفقته) فى اليوم نحو خمسة عشر دينارًا ، وله قومة (موظفون) بأيديهم الأوراق المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يبكّرون إليه كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون بإعداد مايصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق لكل إنسان منهم . ويقول إن المارستان القديم على هذا الرسم ولكن الاحتفال فى الجديد أكثر ، ويذكر أن للمجانين المعتقلين ضربا من العلاج وهم فى سلاسل موثقون . ثم يقول : وهذان المارستانان مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام . ولم تكن المارستانات دور علاج فحسب ، بل أيضا كانت مدارس يمرَّن فيها شباب الأطباء ويتلقون فيها عن شيوخ الطب محاضرات متنوعة . وأخذت البيمارستانات تُبْنَى فى ديار الشام حتى لنلتقى بمارستانات فى صَرْخد بفلسطين . وجعل ذلك الطب يعود إلى نشاطه ، فيتكاثر الأطباء ويتكاثر المهتمون بعلوم الأوائل حتى ليعدون فى كتاب ابن أبى أصيبعة بالعشرات . ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعا إنما نقف عند مشهوريهم ، ونبدأ بشمس[١] الدين اللبودى المتوفى بدمشق سنة ٦٢١ وكان يَطُبُّ فى البيمارستان النورى الكبير بدمشق ، وكان له مجلس للاشتغال عليه بصناعة الطب وغيرها . وكان يعاصره الدِّخْوار[٢] مهذب الدين عبد الرحيم بن على الدمشقى مولدا ودارا رئيس بيمارستان دمشق الذى أسسه نور الدين محمود ، توفى سنة ٦٢٨ وأفرد ابن أبى أصيبعة له فى طبقاته فصلا طويلا تحدث فيه عن حياته ، وله مؤلفات كثيرة ، وكان يتخذ داره مدرسة لتعليم الطب ، وقفها على هذه الغاية فى حياته وبعد مماته . وكان أثره فى تعليم الطب بدمشق واسعا ، وثقفته على يديه جماعة كبيرة .

وكان مما ساعد على ازدهار الدراسة لعلوم الأوائل ماذكرناه فى الفصل الماضى من أن أمراء البيت الأيوبى توزعوا بلدان الشام فيما بينهم ، وتحول كل أمير منهم فى بلد إلى راع للعلوم والآداب بها ، ودفع ذلك إلى تنافس بينهم ، مما أكثر من العلماء فى كل فروع العلم ، ونلتقى بمنصور بن فضل المشهور باسم رشيد[٣] الدين الصورى المتوفى سنة ٦٣٩ وُلد بصور ، ولذلك نسب إليها واشتغل بالطب على أساتذته ، وأقام بالقدس سنتين يعالج الناس فى بيمارستانها ، ثم انتقل إلى

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٦٦٢

(٢) انظر فى الدخوار ابن أبى أصيبعة ص ٧٢٨ وفوات الوفيات ١/٥٦٣ والدوميلى ص ٣٢٠

(٣) راجع فى رشيد الدين ابن أبى أصيبعة ص ٦٩٩ والدوميلى ص ٣٢٠

دمشق وفُوِّضتْ إليه رياسة الطب والأطباء بها ، وكان بارعا فى معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها وتأثيراتها كما يقول ابن أبى أصيبعة ، وبذلك كان صيدليا كما كان طبيبا . وينوه ابن أبى أصيبعة بكتابه فى الأدوية المفردة وكيف كان يتعقبها ويسجلها إذ كان يصطحب معه مصورا ومعه الأصباغ واللِّيَقُ (جمع ليقة) على اختلافها وتنوعها وكان يتوجه إلى مواضع النبات فى الشام مثل جبل لبنان وغيره مما به نبات يختص به ، ويشاهد النبات ويحققه ، ويُريه للمصوِّر فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصوِّره . وسلك فى تصوير النبات مسلكا فريدا ، ذلك أنه كان يريه للمصوِّر فى إبان بزوغه فيصوره ، ثم يريه له فى وقت اكتمال نموه وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه له فى وقت يبسه وذبوله فيصوره . وبذلك ينظر قارئ كتابه إلى النبات فى أطوار نموه ، حتى تتحقق له معرفته بدقة . ولسوء الحظ سقط هذا الكتاب الرائع من يد الزمن .

ويتوفى نجم[١] الدين اللبودى سنة ٦٦٦ وكان يتعمق بحوث الفلسفة والفلك وعلم الطب وروى له ابن أبى أصيبعة مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا شرح له على كتاب القانون فى الطب لابن سينا ورسالة فى مسائل فسيولوجية . ورعاه فى الشطر الأول من حياته الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص . وتقلب فى البلاد ثم استقر بدمشق ، وأسس بها مدرسة طبية وأخرى هندسية ، إذ كان رياضيا بارعا كما كان طبيبا ، وكانت له كتب فى الحساب والجبر والمقابلة . وكان يعاصره ابن أبى أصيبعة[٢] الطبيب صاحب طبقات الأطباء الذى يتكرر ذكره فى الهوامش ، توفى سنة ٦٦٨ وقد ولد بدمشق وفى شبابه نزل القاهرة ، وشُغف بالطب وتلقاه على كبار الأطباء المصريين ، حتى برع فيه ، واشتغل فى البيمارستان الناصرى مدة ، ثم جذبه إليه أمير صَرْخد بفلسطين فى الزمن الذى ذكرناه . زمن رعاة العلوم والآداب المتعددين من الأيوبيين ، وأقام بها حتى وفاته ، وكتابه الطبقات يحمل معارف واسعة عن المشتغلين بعلوم الأوائل : طب وغير طب حتى زمنه .

ونمضى إلى زمن المماليك ، ويظل الاهتمام بعلوم الأوائل مطردا ويلقانا أبو الفرج يعقوب بن إسحق المشهور باسم ابن القف[٣] المتوفى بدمشق سنة ٦٨٥ وكان مسيحيا وهو تلميذ ابن

---

(١) انظر فى اللبودى ابن أبى أصيبعة ص٦٦٣ وخطط الشام لكرد على ٤٦/٤ ، ١٠٣/٦ والدوميلى ص٣٢١ ص٣٣٠

(٢) راجع فى ابن أبى أصيبعة النجوم الزاهرة ٢٢٩/٧ وابن كثير ٢٥٧/١٣ والشذرات ٣٢٧/٥ والدوميلى ص٣٢٢ ، ٣٢٦

(٣) انظر ابن أبى أصيبعة ص٧٦٧ والدوميلى

أبى أصيبعة ، وكان طبيبا حاذقا ، واشتهر له كتابان : جامع الغرض فى حفظ الصحة ودفع المرض ، والعمدة فى صناعة الجراحة . وكان يعاصره ابن [١] السويدى إبراهيم بن طرخان شيخ الأطباء والصيادلة بدمشق المتوفى سنة ٦٩٠ وهو تلميذ الدخوار ، أخذ الطب عنه وله فى الطب « التذكرة الهادية » وفى الصيدلة « الباهر فى الجواهر » ذكر فيه كثيرين من العلماء الموثوق بهم فى هذا الموضوع كالبيرونى والرازى وأبى حنيفة الدينورى . ولابد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء الذين ذكرناهم كان وراءهم عشرات فى بلدان الشام المختلفة ، ويفيض ابن أبى أصيبعة فى الحديث عنهم . وأيضا لابد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء كانوا دارسين للفلسفة اليونانية وفروع العلم المختلفة من رياضيات وفلك وتنجيم ، يصور ذلك أوضح تصوير مايذكره لهم ابن أبى أصيبعة من مؤلفات تتناول علوم الكيمياء والفيزيقا والرياضة والهيئة أو الفلك . وقد مضت الأجيال فى زمن المماليك تنهل من موارد هذه العلوم واضعة نصب عيونها ممارسة الطب فى البيمارستانات المنتشرة فى بلدان الشام .

وممن نبغوا فى الهندسة وعلم الفلك والرياضيات علاء الدين[٢] بن الشاطر الموقِّت فى الجامع الأموى بدمشق وله كتاب فى الزيج توفى سنة ٧٧٧ ومثله ابن [٣] الهائم الفرضى شهاب الدين المدرس بالقدس فى المدرسة الصلاحية ، وله كتب مختلفة فى الحساب والجبر ، توفى سنة ٨١٥ . وعُنى كثيرون بالتأليف فى علم المنطق . وألفت كتب كثيرة فى ميادين الحرب والحركات العسكرية نكتفى بأن نذكر منها كتاب بغية القاصدين فى العمل بالميادين لمحمد بن لاجين الطرابلسى الرماح المتوفى سنة ٧٨٠ ألفه لصاحب حلب .

ومع ماأصاب الحركة العلمية فى الشام من تدهور فى أيام العثمانيين ظل دائما بصيص من نورها يتراءى من حين إلى حين فى الاهتمام بعلوم الأوائل وخاصة بالطب بلسم المرضى الشافى وأيضا بالفلك وفروعه ، واشتهرت حينئذ تذكرة [٤] داود الأنطاكى المتوفى سنة ١٠٠٨ للهجرة ، وهى مهمة فى وصف الأدوية والعقاقير والأمراض مع أن مؤلفها كان ضريرا ، وله كتاب يسمى الكامل فى الطب طبع مرارا .

---

(١) انظر فى ابن السويدى فوات الوفيات ١/٥٤ والمنهل الصافى ١/١٢٤ والدوميلى ص ٣١٩

(٢) راجع فى علاء الدين الشذرات ٦/٢٥٢ والدوميلى ص ٥٥٣

(٣) انظر الضوء اللامع للسخاوى ج ٢ رقم ٤٤٩ والشذرات ٧/١٠٩ والدوميلى ص ٥٠٦ ، ٥١٣

(٤) راجع فى داود الأنطاكى البدر الطالع للشوكانى ١/٢٤٦ وخلاصة الأثر ٢/٦٤٠ والدوميلى ص ٤١٧ . ٥١٣

(ب) علم الجغرافيا

من أقدم المرويات الجغرافية عن أهل الشام رحلات تنسب إلى بعض الصحابة من أهلها أو من ولاتها ، من ذلك رحلة تنسب إلى تميم الدارى الفلسطينى الأصل المتوفى حوالى سنة ٤٠ للهجرة ، وهى رحلة بحرية قذفت به فيها عاصفة إلى جزيرة مهجورة فى البحر المتوسط . ومن ذلك أيضا رحلة تنسب إلى عبادة بن الصامت والى حمص المتوفى سنة ٣٤ للهجرة ، وهى رحلة برية إلى القسطنطينية . وذهب كراتشكو فسكى إلى أنهما قصتان ملفقتان بل منحولتان[١] . وتلقانا مرويات أخرى مشابهة ، وجميعها لاتدخل فى الجغرافيا بمعناها العلمى ، إذ يتأخر هذا المعنى إلى عصر الترجمة والاطلاع على مالدى الأمم الأجنبية من مصنفات جغرافية ، ونفس الكلمة التى سُمِّى بها العلم كلمة يونانية ، وأعجبهم من التراث اليونانى إلى أقصى حد كتاب المِجَسْطى لبطليموس ، وأخذت تنشأ على هديه مدرسة جغرافية عربية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . وإذا مضينا إلى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وجدنا القدس ينجب أهم جغرافى حتى زمنه ، ونقصد المقدسى[٢] محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء البشارى ، وجدُّه أبو بكر البناء هو الذى بنى سور عكا وأبوابها لأحمد بن طولون . وقد طاف بأرجاء العالم الإسلامى فيما عدا الهند وسجستان والأندلس ، ودوَّن معلوماته فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » سنة ٣٧٥ وأعاد كتابته فى سنة ٣٧٨ وعلى النسخة الأخيرة اعتمد ياقوت فى معجمه الجغرافى . ويذكر فى مقدمة كتابه أنه اعتمد على ثلاثة مصادر : المشاهدة أو المعاينة بنفسه ، وماسمعه من الثقات ، وما وجده فى الكتب المصنفة ، واتبع فى وصفه لكل قطر منهجا ثابتا ذا ثلاث شعب : الشعبة الأولى تتناول أقسام القطر ومدنه ومواضعه العامرة ، والشعبة الثانية تتناول المناخ والزرع والطوائف والفرق واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية للقطر والخراج ، والشعبة الثالثة تتناول ذكر المسافات وطرق المواصلات . وهو يقدم معلومات مهمة عن العادات والمعتقدات والتجارة . ويبدأ القسم الأول

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى (الترجمة العربية) ص ٥٣ ومابعدها

(٢) انظر فى المقدسى دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان ٢٥٣/٤ وما بها من مراجع ومقدمة كتابه حتى ص ٤٤ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورص ٨٢ والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لميتز ٤/٢ وألدوميلى ص ٢٢٧ وكراتشكوفسكى ٢٠٨/١ - ٢١٥

فى الكتاب بجزيرة العرب فالعراق فالجزيرة شماليِّه فالشام فمصر فالمغرب فبادية الشام . والقسم الثانى ، جعله للمشرق ، يبدأ ببلاد الهياطلة فخراسان فالديلم فأرمينيا ومعها أذربيجان فالجبال فخوزستان ففارس فكرمان فالسند فمفازة فارس . وأضاف إلى كتابه خريطة مثّل فيها الأقاليم وحدودها وخططها . ولم تصل إلينا خريطته ، ويقول إنه أوضح فيها الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخضرة ، والأنهار العذبة بالزرقة ، والجبال المشهورة بالغبرة . وكان يتحرى الثقات ويسألهم عن بلدانهم كما صنع بالأندلس ومثل سؤاله بساحل عدن لشيخ كان أعلم الناس بالبحر الصينى . والكتاب يعرض البلدان الإسلامية التى زارها بكل مشاهدها حتى لكأنما يبصرها قارؤه بكل سكانها ومعتقداتها وعاداتها ، وهو لا يبارَى فى عرضه لهذه المشاهد . ويتضح السجع أو النثر المقفى فى مقدمته الطويلة وفى مواضع مختلفة من الكتاب مما يدل على أنه كان يحاول أن يختار لكتابه لغة أدبية مصقولة . وكان يعاصره المطهر [١] بن طاهر المقدسى ، وهو مثله لاتعرف سنة وفاته ، وله كتاب بدء الخلق والتاريخ كتبه سنة ٣٥٥ للهجرة وهو جمع غير منسق لمعارف كثيرة تتصل بالأديان والعقائد والتاريخ المتصل بالأنبياء والملوك والخلفاء حتى زمنه ، وبه فصل جغرافى كتبه عن صفة الأرض ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق ، ويعرض للمساجد المشهورة . ونلتقى فى النصف الأول من القرن الخامس بأبى الحسن على [٢] بن محمد بن شجاع الربعى المالكى المتوفى سنة ٤٣٥ وله «كتاب الإعلام فى فضائل الشام ودمشق وذكر مافيها من الآثار والبقاع الشريفة» .

ويصبح موضوع فضائل بلدان الشام أساسيًّا منذ أواخر القرن الخامس الهجرى ، حين استولى حَملة الصليب على أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، إذهبَّ الشاميون - والعرب معهم فى كل مكان - يصرخون فى وجوه حَملة الصليب أن غادروا ترابنا الطاهر وأماكننا المقدسة . وأخذ الشعراء والعلماء يلوِّحون فى وجوههم ، الشعراء بما يستطيعون أن يصوبوه من سهام الشعر ، والعلماء بما يكتبون عن فريضة الجهاد لأعداء الإسلام . وانتظم الجغرافيون معهم يكتبون عن فضائل بيت المقدس والشام ، وأول من تصدَّى لذلك من الجغرافيين المشرَّف [٣] بن المرجَّى المقدسى الذى صنف بأخرة من القرن الخامس بعد استيلاء حملة الصليب على بيت المقدس سنة

(١) انظر فى المطهر بروكلمان ٦٢/٣ وكراتشكوفسكى ١/٥٠٨ .

(٢) راجع فى الربعى بروكلمان ٦٨/٦ وكراتشكوفسكى ١/٥٠٨ وما بعدها .

(٣) انظر فى المشرف بروكلمان ٧٣/٦ وكراتشكوفسكى ١/٢٢٤ .

كتابه : « فضائل البيت المقدّس والشام » ليستثير حماسة الناس من حوله حتى يضربوا حملة الصليب الضربة القاضية ويطهروا أرض الشام الزكية من رِجْسهم . وفى نفس هذه اللحظة التاريخية ألف أبو بكر[١] بن محمد بن أحمد الواسطى سنة ٥٠٠ للهجرة كتابا عن « فضائل بيت المقدس » . وأخذ يتوالى هذا النوع من الكتب حافزًا لسحق الصليبيين . وألف أبو القاسم على بن الحسن الشافعى المعروف بابن عساكر[٢] المتوفى سنة ٥٧١ تاريخ مدينة دمشق عرض فيه أسماء الأنبياء والعلماء والصالحين فى ثمانين مجلدا ، وممن ذكرهم من الأنبياء سليمان وشعيب . كل ذلك ليحيط مدينته بهالة قدسية كى يدافع عنها أبناؤها والعرب ضد حملة الصليب حتى الدماء الأخير . ويستولى صلاح الدين على بيت المقدس — كما مر بنا — سنة ٥٨٣ بعد أن حطم حَملة الصليب ودمرهم فى حِطِّين تدميرا لم يكد يبقى منهم ولايذر . وتكون لذلك فرحة مابعدها فرحة فى نفوس المسلمين . ولايكاد يمضى على ذلك ثلاثة عشر عاما حتى نجد ابن هذا الحافظ المؤرخ الكبير المسمى باسم القاسم[٣] ، وكان يشتغل بالوعظ فى دمشق ، يذهب بنفسه إلى بيت المقدس سنة ٥٩٦ ليقرأ على الناس هناك كتابه : « الجامع المستقصَى فى فضائل المسجد الأقصى » .

ويلقانا على[٤] الهروى السائح المتوفى بحلب سنة ٦١١ وكان قد أكثر من التجوال والترحال لزيارة أضرحة الأولياء فى الشام وغير الشام ، وكان قد ألقى عصاتسياره بحلب وألف كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وأصبح له نفوذ كبير عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، فشيد له مدرسة بظاهر حلب ، وهى صورة من صور رعاية أمراء البيت الأيوبى فى الشام لا لعلماء بلدهم فحسب ، بل أيضا بمن ينزل بها من جِلَّة العلماء ، حتى ليبنون لهم المدارس ليحاضروا فيها الطلاب . ونلتقى بعثمان[٥] النابلسى المتوفى حوالى سنة ٦٤٥ وله كتاب « لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية » وهو فيه يستمد من كتاب « قوانين الدواوين » لابن مماتى وُعيِّن حاكما لمحافظة الفيوم فكتب عنها كتابا تاريخيا جغرافيا سماه « إظهار صنعة الحى القيوم فى

---

(١) راجع كراتشكوفسكى ٦٩/١

(٢) انظر فى الجغرافى المؤرخ الحافظ ابن عساكر معجم الأدباء ٧٣/١٣ وخريدة القصر (قسم شعراء الشام) ٢٧٤/١ والمنتظم ٢٦١/١٠ ومرآة الزمان ٣٣٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٣٢٨/٤ وعبر الذهبى ٢١٢/٤ ومرآة الجنان ٣٩٣/٣ وطبقات الشافعية للسبكى ٢١٥/٧ وابن خلكان ٣٠٩/٣ وشذرات الذهب ٢٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٧٧/٦ والبداية والنهاية ٢٩٤/١٢

(٣) انظر فى القاسم بن عساكر طبقات الشافعية ٣٥٢/٨ والنجوم الزاهرة ١٨٦/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٦٧/٤ والعبر ٣١٤ وشذرات الذهب ٣٤٧/٤ وكراتشكوفسكى ٥٠٩/٢

(٤) راجع فى الهروى ابن خلكان ٣٤٦/٣ والشذرات ٤٩/٥ وكراتشكوفسكى ٣٢٠/١

(٥) انظر عثمان النابلسى فى كراتشكوفسكى ٣٤٩/١

ترتيب بلاد الفيوم » ويؤلف [١] ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ – هو غير بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين – كتابا بديعا سماه الأعلاق الخطيرة فى أمراء الشام والجزيرة نُشر منه جزآن عن دمشق وحلب ، وهو يعطى بيانات دقيقة عما فى البلدين من المساجد والخانقاهات والمزارات والحمامات ، وقد رجعنا إليه مرارا فى حديثنا عن الحركة العلمية .

وتأخذ الكتب الجغرافية المليئة بالعجائب والغرائب فى الظهور . ونقرأ منها كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر لشمس [٢] الدين محمد بن أبى طالب الدمشقى المتوفى سنة ٧٢٧ وكان إماما لمسجد الربوة بدمشق ، والكتاب يفيض بمعلومات كثيرة تدخل فى التاريخ الطبيعى ومايتصل به من نباتات البلدان شرقا وغربا وحيواناتها ومعادنها ، وللشام أو بعبارة أدق لسوريا وفلسطين نصيب جغرافى كبير ، وألحق به بعض الخرائط وفُقدت منه .

وكان حملة الصليب قد خرجوا نهائيا من الشام ، فكان من الطبيعى أن يعنى إبراهيم [٣] بن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٧ بتأليف كتابيه : « الإعلام بفضائل الشام » و « باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » . ويلقانا أبو الفدا الملك المؤيد[٤] إسماعيل الأيوبى صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ ويشتهر بكتابين فى التاريخ والجغرافيا ، ويهمنا الثانى وعنوانه « تقويم البلدان » وهو كتاب جغرافى للعالم فى زمنه ، وقد ظل أهم كتاب جغرافى عربى حتى العصر الحديث ، ودائما يذكر مصادره كأحدث الكتابات الجغرافية . ويؤلف شهاب[٥] الدين القدسى المتوفى سنة ٧٦٥ كتابه « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » ، ويلقانا عمر[٦] بن الوردى المتوفى سنة ٨٥٠ – وهو غير زين الدين بن الوردى المتوفى قبله بقرن – وله كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، وهو مع وصفه الجغرافى للبلاد والأرض والبحار يعنى بالقصص الغريبة ، وقد جلبنا منه قصصا طريفة فى كتابنا « عجائب وأساطير » . ويؤلف عبد[٧] الرحمن العليمى المتوفى لأوائل زمن العثمانيين سنة

---

(١) انظر فى عز الدين بن شداد تاريخ ابن الفرات (طبع بيروت) ٣٣/٨ والبداية والنهاية ٣٠٥/١٣ وشذرات الذهب ٣٨٨/٥ وكراتشكوفسكى ٣٦٩/١

(٢) راجع شمس الدين الدمشقى فى كراتشكوفسكى ٣٨٦/١

(٣) انظر ابن الفركاح فى الدرر ٣٥/١ والشذرات ٨٨/٦ وكراتشكوفسكى ٥١٠/٢

(٤) راجع الملك المؤيد فى فوات الوفيات ٢٨/١ والدرر ٣٩٦/١ وطبقات الشافعية ٤٠٣/٩ والبداية والنهاية ١٥٨/١٤ وتاريخ ابن الوردى ٢٩٧/٢ والنجوم الزاهرة ٢٩٢/٩ وكراتشكوفسكى ٣٨٩/١

(٥) انظر فى شهاب الدين الدرر ٢٥٧/١ وكراتشكوفسكى ٥١١/٢

(٦) راجع فى عمر بن الوردى ابن إياس ٦٠/٢ وكراتشكوفسكى ٥٠٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٧) انظر العليمى فى كراتشكوفسكى ٥١٥/٢

٩٢٨ كتابه « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » . وتكثر أيام العثمانيين كتب الرحلات والفضائل وتقل قلة شديدة الكتب الجغرافية بمعناها الدقيق . وربما كان أكثر أهل الشام حينئذ نشاطا فى الكتابة عن دمشق ومساجدها ومدارسها ومواضع أحيائها وضواحيها ومزاراتها ابن [١] طولون الصالحى المتوفى سنة ٩٥٣ وله فى ذلك رسائل متعددة ، وله أيضا وصف للطريق من الشام إلى مكة باسم « منازل الحج الشامى » . ويكثر وصف الرحلات إلى القسطنطينية ، وبدأها بدر[٢] الدين محمد الغزى المتوفى سنة ٩٨٤ بكتابه « المطالع البدرية فى المنازل الرومية » وتلاه محمد [٣] بن أحمد سكيكر المتوفى سنة ٩٨٧ للهجرة بوصف رحلته من حماة إلى القسطنطينية فى كتابه « زبدة الآثار فيما وقع لجامعه من الأسفار » . ونلتقى برحلات متعددة إلى مصر ، مثل « حاوى الأظعان النجدية إلى الديار المصرية » لأحمد[٤] بن داود الحموى المتوفى سنة ١٠١٦ ووصَفَ محمد[٥] بن أحمد بن حافظ الدين القدسى المتوفى سنة ١٠٥٥ زياراته لدمشق والقدس والقاهرة فى كتابة « إسفار الأسفار فى أبكار الأفكار » كتبه بلغة مسجوعة بها غير قليل من التكلف . ولعبد الغنى النابلسى الصوفى الذى سنترجم له فيما بعد المتوفى سنة ١١٤٣ أربع رحلات إلى طرابلس وبعلبك والقدس ومصر . وربما كان أهم من جاءوا بعد ذلك فى زمن العثمانيين أحمد[٦] المنينى الطرابلسى المتوفى سنة ١١٧٢ ، وكان مدرسا بالجامع الأموى ، وله كتاب « الإنعام (أو الإعلام) بفضائل الشام وهو شارح السيرة المشهورة التى ألفها العتبى للسلطان محمود الغزنوى .

٣

علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة

أخذت الشام تُعْنَى بتعلم العربية منذ وضع فيها العرب أقدامهم حتى تحسن النطق بالذكر الحكيم ، وبمجرد أن تحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية

---

(١) انظر فى ابن طولون ترجمة شخصية له طبعت بدمشق بعنوان : الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون وراجع الكواكب السائرة ٥٢/٢ وشذرات الذهب ٢٩٨/٨ وكراتشكوفسكى ٦٨١/٢ ومابعدها

(٢) انظر كراتشكوفسكى ٦٨٥/٢

(٣) راجع كراتشكوفسكى ٦٨٧/٢

(٤) انظر كراتشكوفسكى ٦٩٠/٢

(٥) راجع كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢

(٦) انظر فى المنينى سلك الدرر للمرادى ١٣٣/١ وكراتشكوفسكى ٧٥٧/٢

ازدادت الرغبة حتى عند المسيحيين فى معرفة العربية لغة الحاكم وإدارته الجديدة ، وحقا كانت الشام قد أخذت فى التعرب قبل الإسلام ، ولكن كان لايزال بها كثيرون لايعرفون العربية ، بل قل إن الكثرة كانت لاتعرفها ، وكان الذين اعتنقوا الإسلام شغوفين بالتزود منها ، ويمكن أن نتخذ مما ينسب إلى عبيد بن شَرِيَّة جليس معاوية ومحدثه بأخبار الأمم السالفة من أنه وضع للناس كتابا فى الأمثال [1] رمزا لتلبية هذا الشغف عند أهل الشام ، ولباه أيضا فى أيام يزيد بن معاوية أخبارى يسمى علاقة بن كريم الكلابى ، فوضع للناس كتابا ثانيا فى الأمثال [2] والحكم . وأخذ ينشأ حينئذ معلمون يعلمون الناس العربية ، كانوا يسمون باسم المؤدبين ، ولم تهتم الكتب بإعطاء بيانات عمن كانوا يعلمون العامة منهم ، ولاشك أن كثرتهم كانت من قُرَّاء الذكر الحكيم ، حتى يحسن القارئ تلاوته ، أما من كانوا يعلمون الخاصة من أبناء الخلفاء وأمراء البيت الأموى فزوَّدتنا المصادر ببعض أسمائهم ، ومنهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب [3] أولاد عتبة بن أبى سفيان ، وهو أيضا مؤدب [4] الوليد بن يزيد ، ويقال إنه هو الذى دفعه إلى المجون ، إذ كان زنديقًا ماجنا . وكان معبد الجهنى مؤدبا [5] لسعيد بن عبد الملك ، واتخذ هشام بن عبد الملك فى خلافته الزهرى المحدِّث مؤدبا [6] لأبنائه .

ومضت الشام طوال القرنين الثانى والثالث تُعْنَى بتعلم العربية وإتقان الناشئة لها وقيام أمثال من سميناهم على تعليمها من المؤدبين والمعلمين . ويبدو أنهم كانوا يعدون تلاميذهم إعدادا واسعا ، يدل على ذلك أن شاعرين ممن خرَّجوهما – تخرج أولها وهو أبو تمام فى الربع الأخير من القرن الثانى وتخرج الثانى فى أوائل القرن الثالث وهو البحترى – وضعا أُقيم مجموعتين من اختيارات الشعر حتى زمنهما ، وسمَّى كل منهما مجموعته باسم الحماسة على نحو ماهو معروف . وكانت بغداد – مركز الخلافة – تجذب إليها بعض هؤلاء المؤدبين ، وكان الخلفاء يتخذون منهم أحيانا مؤدبى أبنائهم ، مثل أحمد بن سعيد الدمشقى وكان مؤدبا لأبناء الخليفة المعتز واختص بتخريج عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور. ويبدو أن علماء اللغة فى الشام لم يستقلوا عن علماء النحو إلى حقب متطاولة،

---

(١) الفهرست ص ١٣٢

(٢) الفهرست ص ١٣٢ ونسب ابن النديم كتابا فى الأمثال لصحار العبدى معاصر معاوية .

(٣) البيان والتبيين ٢٥٢/١

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/٧ ولسان الميزان لابن حجر ٢١/٤

(٥) البيان والتبيين ٢٥١/١

(٦) بروكلمان (الطبعة العربية بدار المعارف) ٢٥٤/١ .

بمعنى أن عالم اللغة والنحو كان واحدا ، وكان يؤلف فى الميدانين معا ، وقد يكون شاميا أصيلا وقد يكون من نزلاء الشام .

وأول نحوى ولغوى كبير نلتقى به فى الشام الزجَّاجى[1] عبد الرحمن بن إسحق ، كان قد لزم الزجَّاج العالم النحوى ببغداد ، فنُسب إليه ، ونزل الشام فأقام بحلب مدة ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها يعلِّم كتابه الجُمَل ، وهو كتاب بارع فى تعليم الناشئة ، وظل يُدْرَسُ بعده فى مصر والمغرب والحجاز واليمن فضلا عن الشام مددًا متطاولة لوضوح عبارته ودقة تبويبه . وله أمال تزخر بالمعارف اللغوية وهى منشورة ، وله فى علل النحو كتاب نفيس سماه الإيضاح وهو أقدم كتاب تناول هذا الموضوع تناولا مفصلا دقيقا ، نشره الدكتور مازن مبارك مع مقدمة لى تحليلية . وقد ترجمت للزجاجى فى كتابى « المدارس النحوية » وأوضحت أنه من مؤسسى المدرسة البغدادية التى تعتمد على الآراء النحوية البصرية وتضم إليها بعض الآراء النحوية الكوفية مع النفوذ إلى آراء جديدة . وخرج فى سنة ٣٤٠ مع عامل الضياع الإخشيدية — إذ كانت الشام حينئذ تتبع الإخشيد — إلى طَبرِيَّة فتوفى بها .

وكانت حلب قد أخذت تنافس بغداد فى النهضة الفكرية ، إذ بعث فيها سيف الدولة — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — حياة أدبية وعلمية باهرة بما جمع فى بلاطه من الفلاسفة مثل الفارابى والمترجمين مثل عيسى النفيسى والأطباء مثل أبى القاسم الرقى . وكان للغة والنحو حظ وافر من العلماء ، إذ كان بحلب حينئذ أبو الطيب[2] عبد الواحد اللغوى ، وله كتاب مراتب النحويين وكتاب فى الأضداد ، غير كتب لغوية أخرى . ونزل حلب ابن خالويه[3] اللغوى النحوى واتخذه سيف الدولة مؤدبًا لأبنائه ، وله فى اللغة كتاب الاشتقاق وكتاب المقصور والممدود وكتاب المذكر والمؤنث وله فى النحو كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز وطبعته دار الكتب المصرية ، وله كتاب فى القراءات منشور ، وعنى بدراسة لغة العامة لأيامه ، ومن أجل ذلك أَلَّف كتابه « ليس » فى كلام العرب ، وعقب عليه الحافظ المصرى مغلطاى فى مواضع وسمى كتابه « الميْس على ليس » ويريد بالميس الاختيال . وكان ينزع فى آرائه منزع الكوفة وتوفى بحلب سنة ٣٧٠ .

---

(١) انظر فى الزجاجى إنباه الرواة ٢/١٦٠ وابن خلكان ٣/١٧٦ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٥٢ وبروكلمان ٢/١٧٣

(٢) راجع فى أبى الطيب مقدمة الناشر لكتابه مراتب النحويين وبغية الوعاة وبروكلمان ٢/٢٤٢

(٣) انظر فى ابن خالويه إنباه الرواة ١/٣٢٤ وابن خلكان ٢/١٧٨ ومعجم الادباء ٩/٢٠٠ ويتيمة الدهر ١/٨٨ وطبقات الشافعية للسبكى ٣/٢٦٩

وبجانب ابن خالويه وأبى الطيب اللغوى كانت هناك طائفة من نحاة أقل شهرة مثل أحمد بن البازيار وأحمد السميساطى وعلى بن محمد العدوى وعبد[1] الله بن عمرو الفياضى ، وكان معهم النامى الشاعر ، وكان سيف الدولة يعجب بشعره ، وبدأ حياته نحويا فى بلدته المِصِّيصة ، ثم تحول شاعرا ، وكانت له إملاءات لغوية ونحوية بحلب والتف حوله كثيرون من التلاميذ .

وكان كُشاجم على شاكلة النامى لغويا وشاعرًا وله كتاب المصايد والمطارد وهو منشور ، وكان له كتاب فى البيزرة وكتاب ثان فى أدب النديم . ومثله كان الخالديان : عثمان وأخوه أبو بكر محمد ، ولهما تصانيف فى الشعر والشعراء مثل كتاب الحماسة وأخبار أبى تمام وأخبار ابن الرومى . ولمع حينئذ فى سماء حلب كوكبان نحويان لغويان كبيران هما أبوعلى الفارسى وتلميذه ابن جنى . وقد تحدثنا عن نشاطهما اللغوى والنحوى فى كتابنا « المدارس النحوية » ويهمنا هنا أن نذكر أن ابن جنى لزم المتنبى فى بلاط سيف الدولة وبعد ذلك فى بغداد وإيران وروى عنه ديوانه وشرحه شرحين ، صغير مختصر وكبير مطول وعلى أساسهما بُنيت شروحه فيما بعد . وأهم مَنْ شَرحه بعده من أهل الشام أبو العلاء المعرى ، وله عليه شرحان : كبير ومتوسط وهما معجز أحمد واللامع العزيزى سماه بهذا الاسم لأنه قدمه إلى عزيز الدولة ثابت[2] بن ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٤ وربما كان يتولى المعرة حينذاك . وفى ذلك مايشير إلى ماقلناه مرارا من أن حكام الإمارات والمدن كانوا رعاة للعلم والأدب ، ولعل فيه مايشير أيضا إلى أن بنى مرداس الذين خلفوا الحمدانيين وظلوا حكاما على إمارة حلب من سنة ٤١٥ إلى سنة ٤٦٧ أعادوا لها ذكرى الحركة الفكرية التى بعثها فيها سيف الدولة الحمدانى وأسرته .

ولعل بلدًا عربيا لم يظفر بما ظفرت به الشام فى أبى العلاء الشاعر اللغوى العبقرى المولود سنة ٣٦٣ والمتوفى سنة ٤٤٩ للهجرة وقد استوعب كل تراث زمنه من العلوم اللغوية والشرعية وعلوم الأوائل واستظهر ذلك كله فى أشعاره وفى رسائله وكتاباته النثرية ، وكان للغة وغرائبها الحظ الأكبر ، وكأن ليس هناك شاذة ولا شاردة لغوية إلا سلكها فى أشعاره ورسائله . ولذلك كان يفرد دائما شروحا لغوية لأعماله ، وقد أفرد لديوانه سقط الزند شرحًا سماه ضوء السقط وهو منشور ، وأفرد للزوميات شرحا سقط من يد الزمن ، ويقال إنه كان فى مائة كراسة ، وأفرد للفصول والغايات وهى فى الزهد والعظات شرحًا ، أنشأه فى غريبها وسماه « السادن » كان فى

(١) انظر كتاب (أبو الطيب المتنبى) لبلاشير (ترجمة الدكتور الكيلانى) ص ٢٢٨

(٢) راجع إنباه الرواة ٦٥/١ وانظر معجم الأدباء ١٦٢/٣

عشرين كراسة . ولعل فى ذلك مايشير إلى أنه كان ينبغى فى نشر هذا الكتاب إفراد الشرح عن متنه ، وكان قد وضع فى غاياته شرحا سماه إقليد الغايات مقداره عشر كراريس كان ينبغى أيضا أن يُفْرَدَ عنه شرح غاية أو قافية كل فصل من فصوله . وهذا نفسه يلاحظ فى رسالته البديعة : رسالة الغفران ، فقد نشرت مع شرح يتخللها وينتظم فى تضاعيفها ، وكان ينبغى أن ينحَّى عنها ويوضع فى هوامشها بحيث يكون لها هوامش من إملاء أبى العلاء وهوامش أخرى خاصة بالتحقيق . ومثلها رسالة الصاهل والشاحج التى كتبها على لسان فرس وبغل : فقد أتبعها بشرح سماه « لسان الصاهل والشاحج » . وقد نشرتها هى ورسالة الغفران الدكتورة بنت الشاطئ ، ويقال إنه قدم رسالة الصاهل والشاحج لعزيز الدولة فاتك الذى كان واليًا للفاطميين على حلب[1] من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٣ وقدم رسالته السَّندية إلى والى حلب الذى خلف فاتكا : سند[2] الدولة بن عثمان الكُتامى . ولعل فى الرسالتين ما يشير إلى أن ولاة الفاطميين فى المدة القصيرة التى تبعت فيها حلب القاهرة من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ كانوا يرعون الأدباء والعلماء بها ، وبالمثل فى البلدان الشامية الأخرى التى كانت تتبع القاهرة قبل استيلاء السلاجقة عليها وقبل استيلاء حملة الصليب . وعملُ أبى العلاء اللغوى لم يقتصر على ما أنتج من شعر ونثر فقد مرَّ بنا أنه شرح ديوان المتنبى وبالمثل شرح ديوان أبى تمام حبيب بن أوس وسماه ذكرى حبيب وشرح ديوان البحترى وسماه عبث الوليد . وشرح من كتب اللغة فصيح ثعلب . وكان طلابه وتلاميذه الذين يتحلقون حوله يقرءون عليه كتبا لغوية مختلفة ويثبتون على نسخهم تعليقاته ، من ذلك كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت وكتاب غريب الحديث لأبى عبيد . ويروى أنه ألف فى النحو كتابا سماه النافع وكان فى خمسة كراريس ولعله صنفه للناشئة . وفى الحق أنه كان إماما كبيرا فى اللغة ، ويقول عنه تلميذه التبريزى : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعرى »[3] ويعدد الصفدى من رُزقوا السعادة فى أشياء لم يأت بعدهم من نالها ويذكر منهم أبا العلاء فى الاطلاع على اللغة . ويقول الذهبى : كان أبو العلاء عجبا فى الاطلاع الباهر على اللغة وشواهدها »[4] ويقول ابن فضل الله العمرى : «كان أبو العلاء مطلعا على العلوم لايخلو فى علم من الأخذ بطرف ، متبحرًا فى اللغة ، متسع النطاق فى العربية[5] » . وإذا عرفنا أن هذا الإمام اللغوى الكبير

---

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٣١
(٢) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٣٤
(٣) أبو العلاء وما إليه للراجكوتى ص ٥٣
(٤) تعريف القدماء ص ١٩٠
(٥) تعريف القدماء ص ٢٦٨

لم ينشأ فى مدن الشام الثلاث الكبرى : حلب أو دمشق أو بيت المقدس ، وإنما نشأ فى بلدة المعرَّة الصغيرة القريبة من حلب ، وأخذ العربية واللغة عن علماء منها كبنى كوثر[١] ومن يجرى مجراهم من تلامذة ابن خالويه وطبقته ، إذا عرفنا ذلك اتضح لنا النشاط اللغوى والنحوى الكبير الذى كان مبثوثا لافى مدن الشام الكبرى فحسب ، بل أيضا فى مدنها وبلدانها الصغرى .

وفى كتب التراجم نحاة مختلفون كانوا يدرسون اللغة والنحو ويعلمونهما للناشئة ومن تجاوزوا سن الناشئة نذكر منهم فى زمن أبى العلاء ، أحمد[٢] بن عبد الرحمن الطرابلسى ويذكر مترجموه أنه كان لايزال حيا يعلم ويدرس سنة ٤١٣ لطلابه بطرابلس إلى أن وافاه بها القدر . وكان يعاصره عالى[٣] بن أبى الفتح بن جنى المتوفى سنة ٤٥٢ وكان يعلم العربية ى صور وصيداء ونلتقى من شراح المتنبى بالوأواء[٤] الحلبى اللغوى المتوفى سنة ٥٥١ وهو غير الوأواء الدمشقى شاعر سيف الدولة ، كما نلتقى فى شَيْزر بمرهف بن أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٦١٣ وله شرح[٥] على ديوان المتنبى ، وتوفى معه فى نفس السنة أبو اليمن التاج الكندى زيد[٦] بن الحسن نحوىُّ دمشق المشهور . وتزدهر الدراسات اللغوية والنحوية فى الشام أثناء القرن السابع الهجرى ، ويلقانا أعلام ثلاثة كان لكل منهم شطر فى هذا الازدهار ، أولهم يعيش[٧] بن على بن يعيش الحلبى الدار والمولد ، ولد بحلب سنة ٥٥٦ للهجرة وأكب فى نشأته على تعلم العربية وأخذها عن نحاة موطنه ، ولم يكتف بذلك فقد رحل إلى بغداد ثم دمشق يأخذ عن شيوخها ، وعاد إلى حلب يعلم العربية حتى وفاته سنة ٦٤٣ وكان يقرأ على طلابه بعض كتب ابن جنى ويشرحها مثل اللمع والتصريف ، وأهم من شرحيه عليهما شرحه على كتاب المفصل للزمخشرى وهو منشور فى عشر مجلدات استقصى فيه آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ويكثر من انتصاره للبصريين ، وقلما يستحسن آراء الكوفيين ، وكثيرًا ما يؤثر آراء البغداديين من أمثال أبى على الفارسى ، وهو بذلك يُسْلَكُ فى المدرسة البغدادية التى كانت تجمع فى مصنفاتها بين آراء النحاة البصريين والكوفيين وتنفذ إلى آراء جديدة فى هذه المسألة أو تلك ، وفى كتابنا « المدارس النحوية » توضيح كاف لمنهج ابن يعيش فى النحو واختياره لآراء النحاة فيه من بصريين وكوفيين وبغداديين . .

---

(١) إنباه الرواة ٤٩/١

(٢) راجع ترجمة الطرابلسى فى إنباه الرواة ٨٦/١

(٣) انظر إنباه الرواة ٣٨٥/٢

(٤) انظر فى الوأواء الحلبى إنباه الرواة ١٨٦/٢

(٥) بروكلمان ٩٠/٢

(٦) ستذكر مصادر ترجمته بين القراء .

(٧) راجع فى ترجمة ابن يعيش ابن خلكان ٤٦/٧ وابن الوردى ١٧٦/٢ والشذرات ٢٢٨/٥ وبغية الوعاة ص ٤١٩

والعلم الثانى لم يكن شاميا بل كان مصريًّا ، ومنذ العصر الأيوبى كان علماء الشام ومصر يتبادلون التدريس والتعليم فى البلدتين ، وكثيرًا مادرَّس وعلَّم جِلَّة العلماء الحلبيين والدمشقيين والمقدسيين فى مدارس القاهرة ومساجدها مثل يحيى بن معطى المتوفى بمصر سنة ٦٢٨ وقد وضعناه بين نحاتها المصريين . وكثيرا مانزل ببيت المقدس ودمشق وحلب مصريون واستوطنوها وأمضوا حياتهم هناك يعلمون ويدرسون ويفيدون ، لا علماء النحو فحسب بل جميع العلماء من كل فرع من فروع العلم . وكان العلم المصرى النحوى الذى نزل الشام ابن الحاجب[1] عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ وهو مذكور بين النحاة فى القسم المصرى . ويهمنا هنا أن نعرف أنه حين أحسَّ نضجه العلمى رحل إلى دمشق وكان مالكيا ، فنزل بزاوية المالكية فى جامعها الأموى ، وأخذ يدرس لطلابه هناك كتابيه الرائعين فى النحو والتصريف : الكافية والشافية ، وأملى شرحين لهما . وتوالت بعده لنفاستهما الشروح عليهما بين عربية وفارسية حتى بلغت على الكافية – كما استقصاها بروكلمان – سبعة وستين شرحا ، وعلى الشافية – ستة وعشرين . وظل ابن الحاجب طويلا فى دمشق وطلاب العربية مكبُّون عليه حتى دخلت سنة ٦٣٩ وتحالف الملك الصالح إسماعيل مع حملة الصليب ضد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب وتنازل لهم عن صفد وقلعة شَقيف ، وجاء ابن الحاجب نبأ الكارثة ، وكان يخطب الجمعة فى المسجد الأموى ، وكان إسماعيل قد ملك دمشق برهة ، وغلا الدم فى عروقه فقطع اسم الملك إسماعيل من الخطبة معلنا بذلك احتجاجه على عمله المزرى ، وردَّ عليه إسماعيل بإبعاده إلى موطنه ، فعاد إلى القاهرة وتركها إلى الإسكندرية وبها توفى سنة ٦٤٣ .

والعَلَمُ الثالث لم يكن مصريا ولاشاميا ، بل كان أندلسيا ، وهو ابن[2] مالك محمد بن عبد الله ، ولد ونشأ وعكف على دراسة اللغة والنحو فى بلدته جيَّان ، حتى إذا شعر باكتمال تكوينه العلمى رحل سنة ٦٣٠ وهو فى الثلاثين من عمره إلى دمشق ، وظل مدة فى حلب يأخذ عن ابن يعيش . ثم عاد إلى دمشق واستوطنها متوليا بها مشيخة المدرسة العادلية ، ولم يلبث أن طار صيته فى آفاق الشام ، فقصده الطلاب من كل فَجٍّ ، وكان يحسن إلى أبعد حد نظم الشعر العلمى فنظم فى النحو ألفيته المشهورة ، وتوالت بعده شروحها حتى بلغت تسعة وأربعين شرحا ، غير ماعلى بعض شروحها من حواش . وألف فى النحو بجانبها كتابه التسهيل وله عشرة شروح ، وله فى

(١) انظر مصادر ابن الحاجب بين النحاة المصريين فى قسم مصر ص ١١٨ .

(٢) انظر فى ابن مالك ومصادره كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وبروكلمان ٥/٢٧٥ – ٢٩٦ .

الصرف لامية الأفعال ولها أيضا عشرة شروح ، وتحفة المودود فى المقصور والممدود ، وايجاد التعريف فى علم التصريف . وبلغت مصنفاته نحو ثلاثين مصنفا بين منظوم ومنثور ، وأوضحت فى كتاب المدارس النحوية منهجه فى النحو وأنه كان منهجا بغداديا مع ميله لاستخدام بعض الرخص الكوفية ، وسنعود إلى الترجمة له ترجمة أكثر تفصيلا فى السِّفْر الخاص بالأندلس والمغرب إذ عداده حقا إنما هو فى الأندلسيين .

وتظل دراسات اللغة والنحو فى الشام بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة مزدهرة ، ويظل التبادل فيها موصولا بين علماء الشام ومصر طوال أيام المماليك ونذكر من نحاة الشام ولغوييها الذين تكوَّنوا فى موطنهم ثم نزلوا القاهرة ودرَّسوا النحو واللغة فيها للطلاب بهاء[1] الدين بن النحاس الحلبى المولود سنة ٦٢٧ سمع مواطنه ابن يعيش وتلقى عنه العلم ثم بارح حلب إلى القاهرة والتفَّ الطلاب حوله وصار شيخ العربية بالديار المصرية حتى توفى سنة ٦٩٨ ويُنْسَبُ له شرح على ديوان امرئ القيس نشره الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم مع مجموع شروح الديوان بدار المعارف . ومن هؤلاء اللغويين والنحاة المستوطنين لمصر ابن الصائغ [2] محمد بن الحسن المولود بدمشق سنة ٦٤٥ نزل القاهرة وأقام بها يقرئ الناس العربية وكان شاعرا كما كان لغويا ، وله شرح على مقصورة ابن دريد وشرح على ملحة الحريرى ومختصر لصحاح الجوهرى جرَّده فيه من الشواهد ، توفى بالقاهرة سنة ٧٢٢ . ومن أهم هؤلاء النحاة المهاجرين من الشام إلى مصر وأشهرهم بهاء[3] الدين بن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن الحلبى الأصل والمولد ، وقد لزم شيوخ الفقه الشافعى والحديث والعربية بمصر يأخذ عنهم ، وخاصة النحوى الكبير أبا حيان ، وألف شرحه المشهور على الألفية ويمتاز بالوضوح ونصاعة العبارة ، ولذلك عُنى به الشراح فشرحوه مرارا وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، وظل يشتغل بالتدريس فى مدارس متعددة حتى توفى سنة ٧٦٩ . وإنما أردنا بذكر اللغويين والنحويين الشاميين النازلين بالقاهرة إلى أن ندلل من جهة على أن التبادل العلمى بين القاهرة والشام فى النحو ظل طوال زمن المماليك نشيطا ، وظلت دراساته حية قوية إلى أبعد حد ، وتتوالى أمامنا تراجم كثيرة طوال القرن التاسع الهجرى نقرأ فيها أن هذا الشيخ أو ذاك كان بارعا فى القراءات أو فى الفقه وأصوله وأيضا فى العربية ، ولم تكن توجد بلدة لا فى الشام فحسب بل أيضا

---

(١) راجع ابن النحاس فوات الوفيات ٣٥٠/٢ وبغية الوعاة ص ٦ والشذرات ٤٤٢/٥

(٢) انظر فى ابن الصائغ فوات الوفيات ٣٨٠/٢ والبداية والنهاية ٩٨/١٤ والنجوم الزاهرة ٢٤٨/٩

(٣) راجع فى مصادر ترجمة ابن عقيل قسم مصر ص ١١٩

فى كل العالم العربى الاوهى تعنى بدراسة اللغة والنحو . وظل كثيرون من شيوخ العربية يضعون الشروح لطلابهم على كثير من متون النحو ومختصراته .

ونمضى إلى زمن العثمانيين وتظل دراسات العربية بالشام نشيطة ، إذ لايستقيم لسان الناس وتلاوتهم للذكر الحكيم بدونها ، بل لقد ظلت جميع الدراسات العلمية وانبرى لها علماء فى كل الفروع يدرسونها للطلاب دراسة مرتبة مفصلة ، وأخذ النحو نصيبه من ذلك فظهر فيه علماء نابهون فى مقدمتهم الشيخ ياسين[١] بن زين الدين العليمى المتوفى سنة ١٠٦١ للهجرة ، وله حاشية على شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى المصرى ، وهو شرح على التوضيح أو أوضح المسالك لابن هشام . والحاشية تدل بوضوح على أن الشيخ ياسين لم يكد يترك كتابا من كتب النحو الكبرى التى تجمع آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين وأندلسيين ومصريين حتى زمنه من مثل همع الهوامع للسيوطى والمغنى لابن هشام وارتشاف الضَّرَب (عسل النحو) لأبى حيان . بل لَقد أمعن فى قراءة النحو عند ابن يعيش ، وتجاوزه إلى من سبقوه ، من أئمة المذاهب النحوية ، بحيث تحول بحاشيته إلى مايشبه موسوعة نحوية كبرى ، فإذا قلنا إن الدراسات النحوية واللغوية بالشام فى زمن العثمانيين كانت لاتزال نشيطة تَخْفُقُ بغير قليل من الحيوية لم نكن مبالغين .

وإذا تركنا النحو واللغة إلى مباحث البلاغة والنقد وجدنا شعراء الشام متصلين اتصالا وثيقا بالتطور الذى حدث فى الشعر لأول أيام بنى العباس وما اصطنعه فيه الشعراء من المحسنات المعنوية واللفظية مما سمى فيما بعد باسم البديع ، ويلاحظ ذلك الجاحظ على العتَّابى الشاعر الشامى لزمن الرشيد فيقول إنه كان يحتذى حذو بشار[٢] زعيم المجددين فى العصر العباسى الأول . ومايزال الشعراء العباسيون يعنون بتلك المحسنات حتى استطاع مسلم بن الوليد أن ينميها حتى ليتخذها كالمذهب له ، ومايلبث أبو تمام الشاعر الشامى أن يتناولها منه ويبلغ بها الغاية المنتظرة من تكوين هذا المذهبَ الجديد الذى كان يسميه مسلم باسم البديع وفيه يقول أبو الفرج الأصبهانى . (هو فيما زعموا أولُ من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقَّب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائى)[٣] . وآثرنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » أن نسميه مذهب

---

(١) انظر فى الشيخ ياسين خلاصة الأثر للمحبى ٤٩١/٤ وحاشيته طبعت بمصر مرارًا

(٢) البيان والتبيين ٥١/١

(٣) انظر ترجمة مسلم بن الوليد الملحقة بديوانه نشر الدكتور سامى الدهان

التصنيع أى التنميق حتى يشمل البديع وألوانه الحسية المعروفة كما يشمل الزخرف المعنوى على نحو ماصورنا ذلك عند أبى تمام[١] . على كل حال شاعر الشام أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة هو الذى تلقى بسرعة البرق هذا المذهب الجديد عن مسلم بن الوليد قبل اكتماله وأعطاه صورته النهائية[٢] . ومن ذلك نخلص إلى أن الشام إن كانت قد تأخرت فى صنع كتب البلاغة والنقد من الوجهة النظرية فإنها سبقت إلى الرقى ببلاغة الكلام نثرا وشعرا كما عند العتابى الكاتب والشاعر البليغ وأبى تمام حامل لواء الشعر فى زمنه غير منازَع .

ومانتقدم طويلا فى القرن الرابع الهجرى حتى نلتقى بأكبر حلقة نقدية أدبية طالما طمحت إليها أنظار الشعراء الشاميين ، ونقصد حلقة حلب التى تكونت حول سيف الدولة بطل القوى العربية المصارعة للبيزنطيين . وكان سيدا بالمعنى العربى الكامل شجاعا كريما نبيلا مثقفا شاعرا ، وهب نفسه لحرب البيزنطيين وسَحْقهم ، كما وهبها هى وماله لإحداث حركة أدبية تُنافس بها حلب بغداد إن لم تتفوق عليها ، وطارت شهرته فى إكرام العلماء والشعراء كل مطار ، وسرعان ماالتفَّ حوله وعاش فى كنفه من تحدثنا عنهم آنفا من الفلاسفة والأطباء وعلماء التنجيم واللغويين والنحاة وكثرة من الشعراء وكأنما لم يبق شاعر نابه فى إيران والعراق والموصل والشام إلا أقبل إلى هذه الندوة الفكرية التى عاش فيها المتنبى تسع سنوات طوالا ، وحوله من العلماء أمثال ابن جنى اللغوى والشعراء أمثال النامى والكتاب أمثال أبى بكر الخوارزمى ، وهم يدوِّنون شعره ويتدارسونه ويتناقشون معه حوله . ولزمه ابن جنى – كما مر بنا – وشرح ديوانه شرحين : كبيرا وصغيرًا ، وكان أبو على الفارسى يراه حجة فى اللغة لانظير له . وكان إذا سُئل عن لفظة فى شعره أو تعبيره ساق عليه الشواهد الكثيرة من أشعار العرب ، وتصادف أن أنشد سيف الدولة أولى قصائده[٣] :

وفاؤُكما كالرَّبْع أَشْجاهُ طاسِمُهْ ... بأن تُسْعِدَا والدمعُ أشفاه ساجِمُهْ

وكان ابن خالويه حاضرًا فقال له : ياأبا الطيب إنما يقال شجاه ، توهمه فعلا ماضيا وهو صيغة تفضيل فقال له أبو الطيب : اسكتْ فما وصل الأمر إليك[٤] . وكان ذلك سببا فى أن فسد

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة – نشر دار المعارف) ص ٢٣٩

(٢) الفن ومذاهبه ص ٢٤٧

(٣) يخاطب المتنبى بالبيت صاحبين له على عادة العرب . أشجاه : أحزنه . طاسمه : دارسه . بأن تسعدا : بالمساعدة فى البكاء . يقول لصاحبيه : اسكبا معى الدمع فإنه أشفى للغليل كما أن الربع أكثر شجا للمحب إذا درس .

(٤) نزهة الألباء بتحقيق الأستاذ محمد أبوالفضل إبراهيم (طبع ونشر دار نهضة مصر) ص ٢٩٨ .

مابينهما طوال مقام المتنبي عند سيف الدولة . وظل ابن خالويه يكنُّ له الضغينة ، واستطاع أن يؤلِّب عليه أبا فراس وبعض من كانوا حول سيف الدولة ، مما جعل المتنبي يغادر حلب إلى غير مآب . والمهم أنه كان ينعقد من حين لآخر غبار من النقد اللغوى حول شعر المتنبي فى حلقة سيف الدولة ، وصورٌ من هذا النقد كانت تنعقد بين شعراء الحلقة ، وكثيرا ماكانوا يتحاورون فى سرقاتهم ممن سبقوهم من الشعراء ، وهم أثناء ذلك يتناشدون أشعارهم أو أشعار سابقيهم مستحسنين تارة ومستهجنين أخرى . وجميعها صور من النقد الذى يصقل الملكة الأدبية ، وصوَّر ذلك أبو بكر الخوارزمى الكاتب المشهور وأحد من تزود بما كان فى الحلقة من نقد خصب ، فقال : « مافتق قلبي وشحذ فهمي وصقل ذهني وأرهف حَدَّ لساني وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء نفسي ، وغصنُ الشباب رَطيب ورداء الحداثة قَشيب »[1] .

ونلتقى بعد هذه الحلقة بأبى العلاء ، وقد تعددت وجوه نقده اللغوى ، فهو يضمنها شروحه لدواوين أبي تمام وسمَّاه ديوان حبيب وديوان المتنبي وسماه معجز أحمد – كما مر بنا – وراجع البحترى مرارًا ناقدًا له ولذلك سمى شرحه لديوانه – كما أسلفنا – عبث الوليد وهو اسمه والبحترى لقبه ، واختار الاسم للكتاب لما فيه من تورية واضحة . وهو يتكلم فى شروحه للشعراء الثلاثة عما فى أشعارهم من غريب ومآخذهم من غيرهم ومأُخذ عليهم ، وأحيانا ينتصر لهم وأحيانا ينتقدهم مع التوجيه – ما استطاع – لما يُظَنُّ أن أبا تمام والمتنبي أخطآ فيه . ولأبى العلاء فى رسالة الغفران نقد كثير أجراه فى القسم الأول على لسان صديقه ابن القارح حين أدخله الجنة وجعله يلقى الشعراء والرجاز ويعرض أثناء ذلك نقدا متنوعا لرواية الأشعار ولألفاظها العويصة وتراكيبها النحوية وبعض العيوب فى أوزانها وقوافيها . وسوَّى من هذا النقد فى الرسالة الدكتور أمجد الطرابلسى كتابا بعنوان : « النقد واللغة فى رسالة الغفران » ويظل النقد نشيطًا فى الشام حتى أيام العثمانيين إذ نجد يوسف البديعى[2] المتوفى سنة ١٠٧٣ يؤلف كتابين نفيسين فى النقد والتاريخ الأدبى ، هما « هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام » و« الصبح المنبي فى الكشف عن حيثية المتنبي » وهو يعرض فى الكتابين سيرة الشاعرين عرضًا تفصيليا كما يعرض آراء النقاد السابقين فيهما ، ولايكاد يترك خبرًا مهما يتصل

---

(١) اليتيمة للثعالبى (بتحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد) ١٤/١

(٢) انظر فى البديعى خلاصة الأثر ٥١٠/٤ .

بسيرتهما ولا رأيا نقديا يتصل بأشعارهما مما يحيل الكتابين إلى مبحثين تاريخيين نقديين بارعين للشاعرين .

واهتمت الشام بالدراسات البلاغية اهتماما واسعا ، وكان أول كتاب صدر لها فى هذه الدراسات كتاب [1] سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ وسنترجم له بين الشعراء . والكتاب – كما يتضح من عنوانه – يناقش قضية الفصاحة ويقدم لها بحديث عن أحكام الأصوات ومخارجها ، ثم يصور الفرق بينها وبين البلاغة ، فيجعلها خاصة بالألفاظ ويجعل البلاغة عامة تشمل الألفاظ والمعانى . ويتناول صفات الفصاحة فى الكلمة المفردة ثم فى الكلام ، ويخوض فى تحليلات دقيقة تتصل بفنون الفصاحة ومايرتبط بها من البلاغة والبديع ومحسناته . ونلتقى بأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وسنترجم له بين الشعراء ، وله كتاب سماه البديع فى نقد الشعر ، وهو فيه يعنى بالمحسنات البديعية ، وقد عرض منها فى الكتاب خمسة وتسعين محسنا . ويصنف الزَّمْلكانى » الدمشقى عبد[2] الواحد بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٥١ كتابا بعنوان « التبيان فى علم البيان » استضاء فيه كما قال فى مقدمته بكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، وقد عرض فيه مباحث كثيرة تتصل بعلوم المعانى والبيان والبديع مع إقحام بعض المباحث النحوية والمنطقية . ونلتقى سريعا ببدر[3] الدين بن محمد بن مالك الأندلسى العالم النحوى الذى تحدثنا عنه آنفا بين النحاة ، وله مثل أبيه مباحث نحوية ، وعُنى بتلخيص كتاب المفتاح للسكاكى فى كتابه « المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع » وقد أخلى ملخصه أو مختصره من تعقيدات كتاب المفتاح المنطقية والكلامية والفلسفية ، ولم يجعل البديع – مثل السكاكى – ذيلا لعلمى المعانى والبيان ، بل جعله علما مستقلا كما يتضح من عنوان كتابه . وقد أحصى من محسناته أربعة وخمسين محسنا .

ولم يلبث الخطيب[4] القزوينى الدمشقى المتوفى سنة ٧٣٩ أن ألف تلخيصا دقيقا واضحا

(١) انظر فى تحليل هذا الكتاب كتابنا « البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ .

(٢) انظر فى ترجمة الزملكانى السلوك للمقريزى ٣٨٩/١ والسبكى ٣١٦/٨ والشذرات ٢٥٤/٥ وبغية الوعاة ص ٣١٦ وراجع فى تحليل كتابه « البلاغة تطور وتاريخ » ص ٣١٤ .

(٣) راجع فى ترجمة بدر الدين السلوك ٧٣٨/١ والسبكى ٩٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢٧٣/٧ والشذرات ٣٩٨/٥ والبغية ص ٩٠٦ وانظر فى تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣١٥ .

(٤) انظر الخطيب فى الدرر الكامنة لابن حجر ١٢٠/٤ والنجوم الزاهرة ٣١٨/٩ والشذرات ١٢٣/٦ وراجع فى تحليل كتابيه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣٣٥ ومابعدها .

لكتاب المفتاح كُتب له أن يذيع بين علماء البلاغة وأن يكتبوا له كثيرا من الشروح بحيث أصبح محور الدراسة للبلاغة وفنونها شرقا وغربا منذ زمنه إلى اليوم . وعُنى ببسط قضايا علوم البلاغة : المعانى والبيان والبديع فى كتاب ثان له سماه الإيضاح ، وله نفس الشهرة التى حظى بها تلخيصه . ويصنِّف ابن قيم [1] الجوزية الدمشقى المتوفى سنة ٧٥١ كتابه « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان » وفيه يتحدث عن الفصاحة والبلاغة وفنون البيان والمعانى والبديع . وتنقص الكتاب دقة الترتيب والتبويب . وكان يعاصره الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنترجم له بين المؤرخين ، وعُنى بثلاثة فنون من فنون البديع : الجناس وله فيه كتاب جِنان الجناس وهو مطبوع ، والتورية والاستخدام وله فيهما كتاب فض الختام فى التورية والاستخدام وبدار الكتب المصرية مخطوطة منه . ونصبح فى زمن تأليف البديعيات وشروحها وهى قصائد فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع . وينظم ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ بديعية فى مائة واثنين وأربعين بيتا أحصى فيها محسنات البديع ، وقد بلغت عنده نحو مائة وأربعين محسنا وشرحها شرحا مفصلا سماه بحق خزانة الأدب ، إذ يشتمل على نظرات تحليلية نقدية وبلاغية كثيرة تتصل بالشعر والشعراء وخاصة فى زمن الأيوبيين والمماليك ، بحيث يصبح مصدرا مهما لمن يكتبون عن الأدبين المصرى والشامى فى تلك الحقب ، مع منتخبات بديعة للشعراء والكتَّاب تدل على ذوق أدبى مرهف ، وسنترجم له بين الكتَّاب . وظل نشاط البديعيات متصلا أيام العثمانيين ، ولعبد الغنى النابلسى الذى سنترجم له فى غير هذا الموضع بديعيتان [2] ومع كل بديعية شرح خاص بها .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذت الشام تُعْنَى بقراءة الذكر الحكيم منذ دخلها الإسلام مع الأفواج الأولى من الصحابة ، ومن أهم قرائها فى الصدر الأول أبو الدرداء قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان إذا صلَّى الغداة فى جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه . ومرَّ بنا ذكر ذلك وأنه كان

---

(١) راجع فى ابن القيم الدرر الكامنة لابن حجر ٢١/٤ والبدر الطالع ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٩/١٠ وطبقات الحنابلة للشطى ص ٦١ وكتابنا « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣١٩

(٢) انظر الحديث عنهما فى كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ ٣٦٤ وما بعدها

يجعل الناس عشرة عشرة ويجعل على كل عشرة عريفا ، وعدَّ يوما من يقرءون عنده فوجدهم ألفا وستمائة ونيفا ، ولعل فى ذلك مايوضح إقبال الناس فى الشام سريعا على قراءة الذكر الحكيم ، وظلوا يدوُّون به فى مساجدها . وخَلَفَ أبا الدرداء فى إقراء الناس بدمشق عبد[1] الله بن عامر اليحصبى العربى المتوفى سنة ١١٨ للهجرة وكان عريفا على عشرة عنده ممن يقرأون . ولم يكتف بأخذ القرآن وسماعه منه وعرضه عليه فقد أضاف إليه المغيرة بن أبى شهاب ، فقرأ عليه القرآن . وكان المغيرة قرأه على عثمان بن عفان . واستطاع أن يبلغ من إحكام قراءته ماجعل ابن مجاهد بعدُ يختاره بين القراء السبعة المقدَّمين ، إذكان بحق إمام أهل الشام فى القراءة ، ويقول ابن مجاهد فى أوائل القرن الرابع : على قراءته أهل الشام والجزيرة ثم يعود ، فيقول : « والغالب على أهل الشام قراءة ابن عامر » ويقول ابن الجزرى فى ترجمته : « لازال أهل الشام قاطبة على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقينا إلى قريب من سنة خمسمائة » .

وخلف ابن عامر على قراءته بدمشق يحيى[2] بن الحارث الذِّمارى الدمشقى إمام الجامع الأموى المتوفى سنة ١٤٥ وخلفه بالقيام على قراءة ابن عامر تلميذان بدمشق : أيوب [3] بن تميم الدمشقى المتوفى سنة ١٩٨ وعنه أخذها عبد [4] الله بن ذكوان إمام جامع دمشق وشيخ الاقراء بالشام المتوفى سنة ٢٤٢ والتلميذ الثانى عراك[5] بن خالد شيخ أهل دمشق فى زمنه المتوفى قبل المائتين ، وعنه وعن أيوب بن تميم أخذها هشام[6] بن عمار إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم المتوفى سنة ٢٤٥ . وبذلك أصبح لقراءة ابن عامر فى الشام طريقان : طريق ابن ذكوان وطريق هشام بن عمار ، وهما تتقابلان فى كتاب السبعة لابن مجاهد : الأولى أخذها عن أحمد بن يوسف التغلبى ، والثانية أخذها عن أحمد بن محمد بن بكر . ولابد أن نلاحظ أنه كان بالشام من اختار لنفسه قراءة غير قراءة ابن عامر حتى منذ القرن الثانى فقد نزل المدينة عتبة بن حماد الدمشقى ، فقرأ الموطأ على الإمام مالك وأخذ عن نافع أحد القراء المشهورين قراءته [7] ، وبالمثل أخذها عنه أبو مسهر[8] الغسانى عبد الأعلى بن مسهر المتوفى سنة ٢١٨ . ويغلب أن يكون هناك آخرون قرءوا بقراءة ابن كثير قارئ مكة أو غيره من القراء السبعة .

(١) راجع فى ابن عامر وقراءته وأسانيده كتاب السبعة لابن مجاهد بتحقيق نشر دار المعارف ص ٨٥ ، ١٠١ وكتاب طبقات القراء لابن الجزرى ٤٢٣/١

(٢) ابن الجزرى ٣٦٧/٢

(٣) ابن الجزرى ١٧٢/١

(٤) ابن الجزرى ٤٠٤/١

(٥) ابن الجزرى ٥١١/١

(٦) ابن الجزرى ٣٥٤/٢

(٧) ابن الجزرى ٤٩٩/١

(٨) ابن الجزرى ٣٥٥/١

ومرَّ بنا ذكر ابن خالويه فى بلاط سيف الدولة وكان قد تصدّر فى حلب لإفادة الطلاب عشرات السنين ، ونظن أنه عرض عليهم – فيما عرض القراءات السبع ، إذ كان قد حملها عن ابن مجاهد كما ذكر ابن الجزرى ، وأيضا فإن له فى توجيه تلك القراءات كتابا معروفا . ويشهد لما نقول أننا نجد بين تلاميذه الحلبيين قارئا كبيرا هو أبو الطيب عبد [1] المنعم بن غلبون الحلبى المتوفى سنة ٣٨٩ وله كتاب الإرشاد فى القراءات السبع ، ومن أهم تلاميذه ابنه طاهر [2] المتوفى سنة ٣٩٩ مؤلف التذكرة فى القراءات الثمان وهو أستاذ أبى عمرو الدانى صاحب كتاب التيسير المشهور فى القراءات . وذكرنا فى مقدمة الطبعة الأولى لكتاب السبعة أنه كان من بين مااعتمدنا عليه فى تحقيقه مخطوطة لكتاب الحجة فى علل القراءات السبع لأبى على الفارسى تلميذ ابن مجاهد تحتفظ بها مكتبة جامعة القاهرة ومجلداتها الأولى بخط طاهر بن عبد المنعم بن غلبون . وربما كان أبوه حمل هذا الكتاب عن أبى على الفارسى مباشرة حين مقامه بحلب ، كما مر بنا . ويصنف عبد [3] الجبار الطرسوسى المتوفى سنة ٤٢٠ كتاب المجتبى فى القراءات . ونلتقى بالحسن [4] بن على الأهوازى شيخ القراء بدمشق منذ سنة أربعمائة حتى وفاته سنة ٤٤٦ وكان قد استوطنها منذ سنة ٣٩١ وكان يكثر من الحملة على الأشعرى والأشعرية ، ومن أجله صنف ابن عساكر – فيما بعد – كتابه : تبيين كذب المفترى فيما نُسب إلى أبى الحسن الأشعرى ، وكانت له مؤلفات كثيرة فى القراءات والقرآن وعلومه .

ومايزال التأليف فى القراءات والقرآن وعلومه مستمرا فى الشام حتى نلتقى بابن [5] الطحان عبد العزيز بن سلمة نزيل حلب المتوفى حول سنة ٥٦٠ وله تصانيف مفيدة فى علوم القرآن منها كتاب الوقف والابتداء ، وكان على علم واسع بالقراءات . ونلتقى فى أيام الأيوبيين بأبى اليمن [6] الكندى زيد بن الحسن نزيل دمشق المتوفى سنة ٦١٣ وهو من المعمَّرين ويقال إنه قرأ القراءات العشر وهو

---

(١) انظر فى عبدالمنعم بن غلبون طبقات القراء ٤٧٠/١ وطبقات الشافعية للسبكى ٣٣٨/٣

(٢) راجع فى «طاهر» ابن الجزرى ٣٣٩/١

(٣) انظر فى عبدالجبار ابن الجزرى ٣٥٧/١

(٤) راجع فى الأهوازى ابن الجزرى ٢٢٠/١ والنجوم الزاهرة ٥٦/٥

(٥) انظر فى ابن الطحان ابن الجزرى ٣٩٥/١

(٦) راجع فى أبى اليمن ابن الجزرى ٢٩٧/١ ومعجم الأدباء ١٧١/١١ وخطط الشام ٤٧/٢ والبداية والنهاية ٧١/١٣ وإنباه الرواة ١٠/٢ وابن خلكان ٣٣٩/٢

ابن عشر سنين وظل يقرأ القراءات ثلاثا وثمانين سنة . ومن تلاميذه علم [1] الدين السخاوى على بن محمد شيخ مشايخ الإقراء بدمشق وقد ظل يقرئ الناس نيفا وأربعين سنة حتى توفى سنة ٦٤٣ وله مصنفات كثيرة فى القراءات والتفسير منها شرح الشاطبية وهو أجل شروحها ، ومنها جمال القراء وكمال الاقراء . ومن تلاميذه الذين تصدَّروا القراءة فى دمشق أبو الفتح [2] محمد بن على ولىَ مشيخة القراءة بتربة أم الصالح ، وأبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ تولّى مشيخة الحديث الكبرى بالأشرفية ، وسنذكر مصادر ترجمته بين المؤرخين ، والقاضى عبد السلام الزواوى المتوفى سنة ٦٨١ وسنذكر مصادر ترجمته بين فقهاء المالكية ، تولى مشيخة الإقراء الكبرى بالتربة الصالحية بعد وفاة شيخها أبى الفتح وإليه انتهت رياسة الإقراء بالشام . ومن كبار القراء بالشام فى القرن الثامن ابن [3] جبارة المقدسى ، درس القراءات بمصر وطاف بدمشق وحلب ثم استقر فى بيت المقدس موطنه مدرسا للقراءات وعلوم العربية حتى توفى سنة ٧٢٨ . وكان يعاصره برهان [4] الدين الجعبرى استوطن بلدة الخليل بجوار بيت المقدس حتى توفى سنة ٧٣٢ وكان يقرئ الناس بها وصَنَّف فى القراءات كتاب نزهة البررة فى القراءات العشرة . ونلتقى بابن البارزى قاضى حماة ومفتى الشام المتوفى سنة ٧٣٨ وله شرح على الشاطبية وكتاب الشرعة فى قراءات السبعة . ومانزال نقرأ عن مؤلفات شامية فى القراءات حتى نصل إلى ابن [5] الجزرى محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٣٣ وله كتاب النشر فى القراءات العشر وهو منشور وكتاب غاية النهاية فى طبقات القراء وهو مصدرنا الأساسى فى الحديث عنهم . ومن كبار القراء والحفاظ بعده شمس الدين الرملى الدمشقى أحمد بن أحمد بن محمد ، ولد بالرملة ورحل إلى دمشق للقاء علمائها وفيها أكب على القراءات والحديث والفقه ، وتولّى مشيخة الإقراء بالجامع الأموى حتى توفى سنة ٩٢٣ . وظلت القراءات بالشام نشيطة أيام العثمانيين حتى العصر الحديث ، يتجرَّد لها العلماء تارة ، وتارة ثانية يجمعون بينها وبين بعض العلوم كالتفسير أو الفقه أو علوم العربية .

وعلى نحو ماعُنيت الشام بالقراءات عنيت بتفسير القرآن الكريم ، حتى إذا أخرج الطبرى

---

(١) انظر فى مصادر علم الدين السخاوى قسم مصر ص١١٨

(٢) راجع ابن الجزرى ٢١١/٢

(٣) انظر فى ابن جباره ابن الجزرى ١٢٢/١ والدرر رقم ٦٦٧ والشذرات ٨٧/٦

(٤) راجع فى الجعبرى ابن الجزرى ٢١/١ والدرر رقم ١٣٠ والشذرات ٩٧/٦

(٥) ترجم ابن الجزرى لنفسه فى كتابه طبقات القراء ٢٤٧/٢ وألحقت بالترجمة زيادة عن سنة وفاته لبعض تلاميذه وانظر الفوائد البهية للكنوى ١٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية .

تفسيره أكبت عليه تدرسه ، ويلقانا بها مفسر مهم هو عبد [1] الله بن عطية الدمشقى المفسر المتوفى سنة ٣٨٣ كان يحفظ الآلاف من أبيات الشعر العربى واستخدمها فى تفسيره لمعانى الألفاظ القرآنية . ونلتقى بعده بسليم بن أيوب المتوفى سنة ٥٤٧ وله تفسير [2] للقرآن الكريم . ويلقانا فى أيام نور الدين محمد بن ظفر المكى الذى عرضنا له فى الحديث عن شعراء الزهد فى الجزيرة العربية المتوفى سنة ٥٦٥ استوطن حماة بأخرة من حياته وألف فيها تفسيره المسمى « ينبوع الحياة » [3] . واستوطن حلب تلميذ من تلامذة الزمخشرى هو عالى [4] بن إبراهيم الغزنوى وأقام بها يدرس ويصنف حتى وفاته سنة ٥٨٢ وفيها ألف تفسيرا كبيرا فى مجلدين سماه تفسير التفسير . واستوطن دمشق الصوفى الكبير ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ وله تفسير صوفى لم يتمه وهو مطبوع . وللعز بن عبد السلام الفقيه الشافعى الدمشقى نزيل مصر الذى عرضنا له فيها بين فقهاء الشافعية تفسير بلاغى ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطة منه .

ونلتقى فى أوائل القرن الثامن بمفسرين كبيرين هما هبة الله بن البارزى وابن تيمية ، أما هبة [5] الله فكان قاضيا لحماة وإليه انتهت مشيخة المذهب الشافعى بالشام وله شرح على الشاطبية فى القراءات ، وله روضات الجنان فى تفسير القرآن فى عشر مجلدات توفى سنة ٧٣٨ . أما ابن تيمية فقد مر بنا حديث مفصل عنه فى الحركة العلمية ، ونعرض هنا منهجه فى التفسير القرآنى وقد صوره فى رسالة عنوانها أصول التفسير ، ومن خلالها أجملناه فى مقدمة كتابنا : « سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة » موضحين أنه حمل على الإسرائيليات المدسوسة فى التفاسير وعلى المعتزلة والشيعة الباطنية الذين يؤولون ألفاظ القرآن وعباراته كما حمل على المتصوفة فى تفاسيرهم من مثل تفسير ابن عربى ، ورأى أن خير طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن فإن لم يف القرآن أحيانا رجع المفسر إلى الحديث النبوى وأقوال الصحابة والتابعين الذين عايشوهم وعرفوا منهم معانى القرآن الكريم . وبعد استيفاء ذلك كله ومايتصل به من إتقان العربية وتعمق علوم الشريعة والوقوف بدقة على دلالات القرآن وحسن تذوقه لخصائصه البلاغية يستطيع المفسر أن يجتهد فى التفسير ويستنبط استنباطات سديدة . وطبّق منهجه على سورة النور وسورتى المعوذتين القصيرتين

---

(١) انظر فى ابن عطية الدمشقى طبقات المفسرين للسيوطى رقم ٤٣ والنجوم الزاهرة ١٦٥/٤ وبروكلمان ١٥/٤

(٢) خطط الشام لكرد على ٤١/٤

(٣) تتمة المختصر لابن الوردى ٨٧/٢

(٤) راجعه فى تاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٤٩ والبداية والنهاية ١١٤/١٣

(٥) انظر فى ابن البارزى الدرر جـ٣ رقم ١١٠٣ وطبقات القراء ٣٥١/٢ والشذرات ١١٩/٦

وخصَّ سورة الإخلاص أو التوحيد بكتاب . ويتحول تفسيره للآية الكريمة إلى بحث فى مضمونها من خلال القرآن جميعه .

ونهج نهج ابن تيمية فى تفسير الذكر الحكيم تلميذه ابن قيم الجوزية على نحو مايتضح فى كتابه . « التبيان فى أقسام القرآن » وفى تفسيره للمعوِّذتين . وكان يعاصره السمين[١] الحلبى أحمد بن يوسف وكان نحويا مقرئا ونزل مصر وبها توفى سنة ٧٥٦ وله تفسير ضخم فى عشرين مجلدا ، وكتاب فى إعراب القرآن فى ثلاثة مجلدات باسم الدر المصون ، وكتاب فى أحكام القرآن ، وله شَرْح على الشاطبية فى القراءات ، وشرح ثان على التسهيل لابن مالك فى النحو . ونلتقى بابن[٢] كثير أكبر المفسرين الشاميين وأهمهم المتوفى بدمشق سنة ٧٧٤ نشرتْ تفسيره مطبعةُ المنار فى تسعة أجزاء ، وعداده فى التفسير بالمأثور من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والمفسرين السابقين ، وفيه يقول ابن حجر ناقدا : « لم يكن ابن كثير على طريق المحدثين فى تحصيل العوالى وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم وإنما هو من محدثى الفقهاء » ويقول الشوكانى مُثْنيا على تفسيره : « جمع فيه فأوعى ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه ، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها » ويصنف العليمى عبد الرحمن بن محمد الحنبلى المتوفى سنة ٩٢٧ للهجرة تفسيرًا للذكر الحكيم ، وتؤلف كتب تفسير أخرى ، ويظل تفسير ابن كثير التفسير المتداول بين علماء الشام إلى العصر الحديث .

وشُغلت الشام منذ دخلت فى الدين الحنيف بتلاوة الذكر الحكيم وتفسيره كما شغلت بالحديث النبوى مكمِّل الدين القيم ومبينه وموضح تعاليمه ، وكان أول المحدثين بها صحابة رسول الله ﷺ ، ثم حمله عنهم التابعون يحدثون به الناس من أمثال مكحول[٣] مفتى الشام ومحدثها المتوفى سنة ١١٨ . وكان يعاصره محمد[٤] بن شهاب الزهرى أول من دوَّن الحديث تدوينا عاما ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : عليكم بابن شهاب ، فإنكم لاتجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه ، وعاش بعد عمر ثلاثةً وعشرين عاما إذ توفى سنة ١٢٤ ويقال إنه روى عن عشرة من

---

(١) راجع فى السمين الحلبى طبقات القراء ١٥٢/١ والدرر الجزء الأول رقم ٨٤٦ والشذرات ١٧٩/٦

(٢) انظر فى ترجمة ابن كثير الدرر جـ١ رقم ٩٤٨ والشذرات ٢٣١/٦ والبدر الطالع ١٥٣/١

(٣) راجع فى مكحول حلية الأولياء ١٧٧/٥ وابن خلكان ٢٨٠/٥ وميزان الاعتدال ١٧٧/٤ وتهذيب التهذيب ٢٨٩/١٠ والشذرات ١٤٦/١

(٤) انظر فى الزهرى صفة الصفوة ٧٧/٢ وابن خلكان ١٧٧/٤ وميزان الاعتدال ٤٠/٤ وتهذيب التهذيب ٤٤٥/٩ وطبقات القراء ٢٦٢/٢

الصحابة لحقهم ، وقد أتاح للشام أن تكون أول جامعة وناشرة للحديث النبوى وكان موظفا لدى الأمويين وعمل قاضيا ليزيد بن عبد الملك ، وعنه حمل الحديث الأوزاعى فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ وعداده فى الفقهاء ، كما حمله الإمام مالك فقيه المدينة والليث بن سعد فقيه مصر وسفيان ابن عُيَيْنة وسفيان الثورى فقيها العراق . وعن تلاميذ الزهرى والأوزاعى فى الشام حمل الحديث هشام ابن عمار مقرئ دمشق ومفتيها الذى مرَّ بنا ذكره بين القراء . وممن حمل عنه الحديث القاضى عبد [1] الصمد بن عبد الله قاضى دمشق ، وعنه روى الحديث أبو زرعة الدمشقى شيخ الشام فى الحديث توفى سنة ٢٨٢ . ونلتقى بخيثمة [2] بن سليمان الطرابلسى أحد الحفَّاظ الثقات المشهورين المتوفى سنة ٣٤٣ . ولاتلبث بلدة طبريَّة بل الشام أن تقدِّم سليمان[3] بن أحمد الطبرانى المولود سنة ٢٦٠ والمتوفى سنة ٣٦٠ صاحب المعاجم الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير ، وقد جمع فى الكبير أحاديث جميع الصحابة ماعدا أبا هريرة إذ أفرد له كتابا خاصا . وكان يعاصره الحسين [4] بن محمد الماسَرْجِسِىّ الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ أخذ بدمشق عن أصحاب هشام بن عمار ، صنَّف المسند الكبير مهذَّبا معلَّلا فى ألف وثلاثمائة جزء ولم يصنَّف فى الإسلام أكبر من مسنده وجمع حديث ابن شهاب الزهرى جمعا لم يسبقه إليه أحد وكان يحفظه مثل الماء . ونلتقى بحافظ من صَيْداء هو أبو الحسين[5] محمد بن أحمد الغسانى المولود سنة ٣٠٥ والمتوفى سنة ٤٠٢ وله مسند على ترتيب أوائل أسماء الرواة . ويلقانا حافظ من صور هو محمد [6] بن على الصورى المتوفى سنة ٤٤٦ قدم بغداد وأخذ عنه حفاظها الثقات . ويلقانا حافظ بيت المقدس محمد[7] بن طاهر المقدسى المعروف باسم ابن القيسرانى المتوفى سنة ٥٠٧ وله مصنفات فى الحديث النبوى متعددة ، منها : « أطراف الكتب الستة » وهى صحيح البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة .

---

(١) راجعه فى النجوم الزاهرة ١٩٣/٣ وانظر فى أبى زرعة النجوم ٨٧/٣

(٢) انظر فى خيثمة تذكرة الحفاظ للذهبى (طبع حيدر آباد) ٧٥/٣ والشذرات ٣٣٤/٢

(٣) راجع فى الطبرانى تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٤٠/٦ وابن خلكان ٢٠٧/٢ والنجوم الزاهرة ٥٩/٤ وعبر الذهبى ٣١٥/٢

(٤) انظر فى الماسرجسى النجوم الزاهرة ١١١/٤

(٥) راجع الغسانى فى النجوم ٢٣١/٤ وبروكلمان ٢١٤/٣

(٦) انظر فى الصورى تاريخ بغداد ١٠٣/٣ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٣١١/٣ وبروكلمان ٢٣١/٣

(٧) راجع فى ابن القيسرانى المنتظم ١٧٧/٩ وابن خلكان ٢٨٧/٤ والوافى للصفدى ١٦٦/٣ وميزان الأعتدال ٥٨٧/٣ وعبر الذهبى ١٤/٤ والشذرات ١٨/٤

وينشط المحدثون أيام نور الدين والأيوبيين فى مقدمتهم أبو القاسم[١] بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ وبنى له نور الدين دار الحديث النورية بدمشق ، وله فى الحديث مصنفات كثيرة مفيدة ، منها « الأطراف » جمع فيه مااتفق عليه الأئمة الثقات فى الحديث ، وله وراء ذلك أمالٍ كثيرة . وجاء بعده عبد[٢] الغنى الجمَّاعيلى المتوفى سنة ٦٠٠ وله كتاب فى أحاديث الأحكام الشرعية سماه « عمدة الأحكام فى معالم الحلال والحرام عن خير الأنام » وكتبت له الأجيال التالية شروحا كثيرة ، وهو صاحب كتاب الكمال فى معرفة أسماء الرجال . وكتب له جمال الدين يوسف المزِّى الآتى ذكره تكملة بعنوان « تهذيب الكمال » وله مختصرات كثيرة . وأكمل التهذيب مُغَلْطاى بعنوان إكمال تهذيب الكمال ، ونلتقى بابن[٣] الصلاح عثمان بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٤٣ وهو حافظ كبير تولى مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق وله كتاب أقصى الأمل والشوق فى علوم حديث الرسول ، طُبع مرارا بعنوان مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث وله مختصرات كثيرة . ويلقانا محيى الدين النووى الفقيه الكبير المتوفى سنة ٦٧٦ وعداده بين فقهاء الشافعية ، وكان حافظا متقنا ، وله شرح على صحيح مسلم هو أهم شروحه ، وله رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين وكتاب الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار وله الأربعون النووية وكتاب التقريب فى مصطلح الحديث وكتاب تهذيب الأسماء واللغات ، ودرَّس بدار الحديث الأشرفية فى دمشق وغيرها .

وكان يعاصر النووى اليونينى على[٤] بن محمد بن أحمد شرف الدين المتوفى سنة ٧٠١ وله خدمة عظيمة أداها لصحيح البخارى ، اذ حاول أن يخرج من مخطوطاته نسخة فى أدق صورة ممكنة لمنفعة المسلمين فى العالم الإسلامى ، واختار أصلا لهذا الإخراج نسخة وثيقة كانت موقوفة بمدرسة أقبغا آص بالقاهرة وقابلها فى واحد وسبعين مجلسا على أصل مسموع للحافظ أبى ذر الهروى وأصل ثان مسموع للحافظ أبى محمد الأصيلى وأصل ثالث مسموع لأبى القاسم بن عساكر المذكور آنفا وأصل رابع مسموع على الشيخ أبى الوقت بقراءة السمعانى . وكان بجواره فى تلك المجالس الإمام النحوى ابن مالك للمراجعة والتصحيح مما جعله فما بعد يملى كتابا مستقلا

---

(١) مرت مصادر ترجمته فى ص ٥٦٣ .

(٢) راجع فى الجماعيلى تذكرة الحفاظ ٤/١٦٠ وطبقات الحفاظ للسيوطى ١٨ وكتابه حسن المحاضرة ١/٣٥٤ والعبر ٤/٣١٣

(٣) انظر فى ابن الصلاح ابن خلكان ٣/٢٤٣ وتذكرة الحفاظ ٤/١٤٣٠ والسبكى ٨/٣٢٦ والبداية والنهاية ١٣/١٦٨ والشذرات ٥/٢٢١

(٤) راجع اليونينى فى الدرر لابن حجر ٣/١٧١ والسلوك ١/٥٢٤ والنجوم الزاهرة ٨/١٩٨ والشذرات ٦/٣

بعنوان « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » وكان أمام اليونيني فى مجالسه المذكورة جمع من طلاب الحديث وعلمائه وفى أيديهم نسخ من صحيح البخارى للمقابلة . واتخذ اليونيني رموزا لرواة تلك النسخ ولرواة آخرين بحيث بلغت رموزه خمسة عشر رمزا . وقد طبعت مطبعة بولاق الكتاب من نسخة فرعية لتلك النسخة اليونينية ، وهى نسخة ابن مالك وعليها شهادة من اليونيني بسماعه النسخة عليه ، وشهادة من ابن مالك بسماعها منه . وهى ذروة فى التحقيق لم يبلغها أحد بعد اليونيني ، كما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا « البحث[1] الأدبى » .

ومن كبار المحدثين فى القرن الثامن الهجرى المِزِّى [2] يوسف بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٤٢ وإليه انتهت رياسة المحدثين بالشام ، ومن تصانيفه تحفة الإشراف بمعرفة الأطراف » طبع فى الهند ، وله « تهذيب الكمال » المجمع على أنه لم يصنف مثله . وكان يعاصره الذهبى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ حافظ الشام وهو مع المزى من مفاخر دمشق فى زمنهما وله فى الحديث تصانيف كثيرة مثل مختصر سنن البيهقى ومختصر الأطراف للمزى والمعجم الكبير والصغير ، وسنعود للحديث عنه بين المؤرخين . ومن محدثى القرن التاسع بدر [3] الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ صاحب كتاب « عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى » والخيضرى[4] الدمشقى محمد بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٨٩٤ وله تعليقات على شرح ابن حجر للبخارى المسمى بالفتح البارى . وظل هذا التراث الضخم بأعين المحدثين أيام العثمانيين ، وكان أكثر اهتمامهم بكتب الصحاح الستة وخاصة بشروح ابن حجر والقسطلانى على صحيح البخارى وشرح النووى على صحيح مسلم .

وطبيعى أن يكون الفقه نشيطا فى الشام مع الدراسات الدينية السابقة لحاجة أهل الشام إلى الفتوى فى القضايا الشرعية ومايعرض لهم منها فى حياتهم اليومية ، وفعلا تكوَّن للشام إمام أنشأ مذهبا فقهيا ظل فيها طويلا بجوار المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى

---

(١) البحث الأدبى (طبع دار المعارف) ص ١٨٦ وما بعدها

(٢) انظر المزى فى الدرر ٥/٢٣٣ والنجوم الزاهرة ١٠/٧٦ وشذرات الذهب ٦/١٣٦ والبداية والنهاية ١٤/١٩١ والسبكى ١٠/٣٩٥ وتاريخ ابن الوردى ٢/٣٣٢ وطبقات الحفاظ للسيوطى ٥١٧ والدارس فى أخبار المدارس ١/٣٥ وتذكرة الحفاظ ٤/١٤٩٨ والبدر الطالع ٢/٣٥٣

(٣) انظر فى العينى حسن المحاضرة ١/٤٧٣ والفوائد البهية ٢٠٧ والضوء اللامع جـ١٠ رقم ٥٤٥ والشذرات ٧/٢٨٦ والبدر الطالع ٢/٢٩٤

(٤) راجع فى الخيضرى الضوء اللامع ج ٩ رقم ٣٠٥

وابن حنبل ونقصد الإمام الأوزاعى [1] صاحب المذهب المنسوب إليه أصحابه من الأوزاعية ، وقد توفى سنة ١٥٧ للهجرة ، ومولده ببعلبك ومنشؤه ببيروت ، واتخذها موطنه إلى وفاته ، ويقول السبكى إنه : « لم يكن يلى القضاء بدمشق والخطابة والإمامة – قبل ظهور مذهب الشافعى فيها لأواخر القرن الثالث كما سيتضح عما قليل – إلا أوزاعىّ على مذهب الإمام الأوزاعى [2] . ويذكر المؤرخون أنه ولى القضاء بدمشق يحيى بن حمزة منذ سنة ١٥٤ إلى سنة ١٨٣ ثم وليه بعده ابنه محمد[3] إلى سنة ٢٣١ . وأكبر الظن أن كلام السبكى يشملها وأنهما كانا يقضيان بين الناس بمذهب الأوزاعى . ويبدو أنه ظل بعدهما من كان يقضى بهذا المذهب ، إذ يذكر ابن تغرى بردى أنه توفى لسنة ٣٤٧ قاضى دمشق أحمد[4] بن سليمان بن حَذْلَم الأوزاعى المذهب ، ويقول إنه كان له حلقة بالجامع الأموى وأكبر الظن أنه كان يدرس للناس فيها المذهب . ومعنى ذلك أن مذهب الأوزاعى كان لايزال حيًّا فى دمشق والشام إلى أواسط القرن الرابع الهجرى . ومعروف أن الأمويين فى أول تأسيس حكمهم بالأندلس كانوا على مذهب الأوزاعى مثل أهل الشام وظلوا عليه إلى أن انتقلوا عنه إلى مذهب مالك فى أواخر القرن الثانى للهجرة[5] ، وكأنهم كانوا أسبق من أهل الشام انفصالا عن مذهب الأوزاعى .

وتذكر كتب التراجم والتاريخ أن أبا يوسف تلميذ أبى حنيفة حين ولى قضاء القضاة لعهد الخليفة الرشيد وأصبح هو المسيطر على تولية القضاة فى الدولة الإسلامية كان لايولى قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال أفريقية إلا أصحابه والمنتمين إلى مذهبه الحنفى ، ونظن ظنا أنه كان يوجد فى دمشق أحيانا قاض حنفى بجانب القاضى الأوزاعى ، وربما كانا يتداولان الحكم . وممن تذكرهم كتب التاريخ من قضاة الأحناف قاضى دمشق على[6] بن محمد بن كاس المتوفى سنة ٣٢٥ للهجرة ، ونظن ظنا أن حلب كانت أسرع من دمشق فى الانصياع لمذهب أبى حنيفة

---

(١) انظر فى الأوزاعى الجزء السابع من طبقات ابن سعد والأنساب للسمعانى ٥٣ وابن خلكان ١٢٦/٣ وتاريخ بغداد ١٩٩/١٠ وتذكرة الحفاظ ٥٨/١ وشذرات الذهب ١٤١/١ والنجوم الزاهرة ٣٠/٢ ومحاسن المساعى فى مناقب الأوزاعى (طبع القاهرة) صنفه مؤلف مجهول سنة ٨٥٠ وضحى الإسلام ٩٨/٢

(٢) طبقات الشافعية للسبكى ٣٢٦/١

(٣) انظر فيه وفى أبيه النجوم الزاهرة ٢٢/٢ ، ١١٣ ، ٢٦٠

(٤) راجع فى ابن حذلم النجوم الزاهرة ٣٢٠/٣ وفى السبكى ١٩٦/٣ : ابن خديم

(٥) تاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٤١٣ ، ٤١٧

(٦) النجوم الزاهرة ٢٦٠/٣

بحكم قربها أكثر من العراق ، ومثلها فى ذلك أنطاكية ، ويلقانا فيها ابن أبى الفهم[١] التنوخى الأنطاكى المتوفى سنة ٣٤٢ وكان فقيها حنفيًّا بارعا . ونلتقى فى حلب بأحمد[٢] بن يحيى بن زهير الحلبى المتوفى سنة ٤٢٤ وله كتاب ذكر فيه الخلاف بين أبى حنيفة وأصحابه من مثل أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى تلميذيه ، وأخذ عن ابن زهير المذهب بحلب جد بنى أبى جرادة هبة الله بن أحمد ، وتولى القضاء بمدينته ، وكانت أسرته على ثراء غير قليل فأكبت على المذهب تدرسه وتتعمقه منذ هبة الله إلى حفيده عمر بن العديم فى القرن السابع كما سنذكر عما قليل .

ونخلص من ذلك إلى أنه كان من الأسباب المهمة فى دخول مذهب أبى حنيفة إلى الشام أن كثيرين من القضاة منذ أواخر القرن الثانى كانوا أحنافا ، فأخذ المذهب يشيع ، وتكاثر طلاب العلم الذين يبغون اعتناقه ، وأخذ يدرسه لهم غير عالم حنفى . ويلقانا المفضل[٣] بن محمد المعرى الحنفى المتوفى سنة ٤٤٤ تلميذ الإمام القدورى الحنفى البغدادى وَلِىَ القضاء ببعلبك وناب فى القضاء بدمشق ، ومن تصانيفه كتاب فى الرد على الإمام الشافعى . ويلقانا البلاساغونى[٤] محمد بن موسى المتوفى سنة ٥٠٦ مصنف « أصول الفقه » على مذهب أبى حنيفة ، ولِىَ قضاء بيت المقدس ودمشق مدة . وكان القضاة قبله فى الشام شافعية وكذلك كان أئمة الجامع الأموى ، فحاول أن يقيم فيه إماما حنفيًّا ، فأغلق أهل دمشق الجامع ولم يمكِّنوه وعُزل وعاد القضاء فى دمشق إلى الشافعية .

وكانت قد أخذت المدارس تنشأ بالشام وكانت قد أُسِّست فى دمشق – كما مر بنا – المدرسة الصادرية سنة ٤٩١ ويعدُّ ابن شداد من فقهائها حتى سنة ٦٥٨ أحد عشر فقيها حنفيًّا ، وذكر النعيمى بعده فقهاءها إلى نهاية أيام المماليك . وقد ذكر ابن شداد بجوارها فى دمشق وضواحيها حتى سنة ٦٧٠ أربعا وثلاثين مدرسة للأحناف ويذكر أسماء فقهائها حتى سنة ٦٧٠ ويتابع ذلك النعيمى . ويصنع ابن شداد نفس الصنيع بحلب وماأنشئ فيها من مدارس حنفية منذ أسست فيها المدرسة الزجاجية سنة ٥١٦ وكانت حلب قد أقبلت أكثر من دمشق – على المذهب الحنفى من قديم كما مرَّ بنا . واشتهرت فيها أسر بتوارث هذا المذهب مثل أسرة بنى العديم ، وعنى نور الدين

---

(١) النجوم الزاهرة ٣١٠/٣ وتاج التراجم رقم ١٣٥

(٢) انظر ابن زهير فى تاج التراجم رقم ٤١ وقابل بمعجم الأدباء ٥/١٦ ومابعدها .

(٣) راجع المفضل فى النجوم الزاهرة ٥٢/٥ وتاج التراجم رقم ٢٢٤

(٤) انظر فى البلاساغونى النجوم الزاهرة ٢٠٤/٥ والسبكى ٣٢٦/١

بالمذهب وكان حنفيا وأسس له مدرستين : مدرسة بحلب وأخرى بدمشق سميت كل منهما بالمدرسة النورية . ومضى الأيوبيون بعده يعنون بالمذهب ومدارسه ، وكانوا شافعية ، وانفرد من بينهم المعظم عيسى صاحب دمشق (٦١٥ - ٦٢٤ هـ) باعتناقه المذهب الحنفى وتعمقه فيه ، على هدى من أستاذه جمال الدين الحصيرى [١] الذى انتهت إليه رياسة المذهب بدمشق والمتوفى سنة ٦٣٦ وله شرحان على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى : شرح مفصل فى ثمان مجلدات سماه التحرير ، وشرح مختصر فى مجلدين سماه الوجيز ، ومع إيجازه زاد فيه ١٦٣٠ مسألة مع الإيضاح بالنظائر والشواهد . وشَرح أيضا للشيبانى كتاب السير الكبير وهو فى الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوات والحرب ، وله كتاب فى الخلاف بين الشافعية والحنفية ، ودفع المعظم للتعمق فى المذهب حتى ألف فيه كتابا [٢] . وليس ذلك فحسب ، فقد كلَّف الحصيرى وفقهاء المذهب بتأليف كتاب جامع فيه ، فألفوا كتابا فى عشر مجلدات سموه كتاب التذكرة .

وتُظلُّ الشامَ أيامُ المماليك ويقرر الظاهر بيبرس أن لا يُقْتَصَر فى مصر على قاض شافعى كما كان الشأن منذ عهد صلاح الدين ، بل يشترك معه فى القضاء قاض حنفى وقاض مالكى وقاض حنبلى وعمم ذلك فى دولته بدمشق وحلب وغيرهما من مدن الشام ، واطرد العمل بذلك إلى أيام العثمانيين ، فكان من الأسباب المهمة فى ازدهار المذهب الحنفى بديار الشام بجوار ما كان له من مدارس ، مما دفع إلى حركة علمية نشيطة فيه ، وكان أول من تولى القضاء بدمشق من فقهاء الأحناف حسب قرار بيبرس عبد [٣] الله بن محمد بن عطا الأذرعى المتوفى سنة ٦٧٣ ، وتوالى القضاة الأحناف فيها بعده ، منهم شمس الدين الأذرعى المتوفى سنة ٧٢٢ ولى قضاء دمشق عشرين سنة ودرَّس طويلا بمدارسها الحنفية . وتتكاثر أسماء القضاة والفقهاء الأحناف فى كتب التاريخ والتراجم ، وحسبنا أن نعرف أن نشاطًا وافرًا أداه فقهاء الأحناف فى ديار الشام بالحقب التالية . وظل هذا النشاط أيام العثمانيين ، ولبرهان [٤] الدين الحلبى المتوفى سنة ٩٥٦ كتاب مُلتَقَى

---

(١) راجع فى الحصيرى الفوائد البهية فى طبقات الحنفية ٨٤ والجواهر المضية لابن أبى الوفا ١٥٥/٢ وتاج التراجم رقم ٢٠٨ والبداية والنهاية ١٥٢/١٣ والنجوم الزاهرة ٢١٣/٦

(٢) انظر فى المعظم عيسى ونشاطه فى الفقه الحنفى مختصر مرآة الزمان ٤٢٦

(٣) انظر فى الأذرعى النجوم الزاهرة ٢٤٦/٧ والسلوك للمقريزى ٦١٩/١

(٤) راجع فى برهان الدين دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ٤٣٣/٢

الأبحر فى فروع الفقه الحنفى ، وقد ترجم قديما إلى التركية والفرنسية . وصنف شمس الدين التمرتاشى الغزى المتوفى سنة ١٠٠٤ للهجرة كتاب تنوير الأبصار وجامع البحار فى الفقه الحنفى ، ومنه ومن شروحه مخطوطات بدار الكتب المصرية .

وكان أقل المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى انتشارا وأتباعا فى الشام المذهب المالكى ، ويأخذ فى النشاط هناك متأخرا زمن الدولة الأيوبية ، منذ بنى صلاح الدين بدمشق للمالكية مدرسته الصلاحية بالقرب من البيمارستان النورى ، ويذكر ابن شداد من أساتذتها المهمين ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ وقد مرَّ بنا ذكره فى قسم مصر بين النحاة وله مختصران نفيسان فى الفقه المالكى وعلم الأصول ، ودرَّس الفقه المالكى أيضا فى زاوية المالكية الملاصقة لغربى الجامع الأموى ، بناها أيضا للمالكية صلاح الدين . وخلفه فى المدرسة الصلاحية عبد [1] السلام الزواوى المتوفى سنة ٦٨١ وإليه انتهت رياسة المالكية بالشام ومشيخة القرَّاء ، وكان معمرا ، توفى عن ٩٢ عاما . ولايذكر ابن شداد للمالكية وراء المدرسة الصلاحية سوى مدرسة واحدة هى مدرسة الشرابيشى فى حين ذكر للحنفية كما أسلفنا أربعة وثلاثين مدرسة . وكان قد انتعش المذهب المالكى كغيره من المذاهب حين قرر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ إسناد الحكم فى بلدان الشام الكبرى : دمشق وغيرها إلى أربعة قضاة بينهم قاض مالكى ، وكان أول من تولى القضاء المالكى بدمشق حينئذ عبد السلام الزواوى المذكور آنفا ، وتعاقب بعده القضاة ، كما تعاقب فقهاء المالكية يدرسون للناس المذهب ، ومن أهمهم عيسى [2] بن مسعود مدرس الفقه المالكى بالجامع الأموى المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح جيد على مختصر ابن الحاجب ، وشرح المدونة للفقه المالكى لمصنفها سحنون ناشر المذهب فى الديار المغربية ، وله شرح موسع على صحيح مسلم وكتاب فى مناقب مالك ، وإليه انتهت رياسة المالكية فى الشام . ويلقانا فى كتب التراجم كثيرون يتنقلون بين القاهرة ودمشق متولين لمنصب القضاء المالكى . ويأخذ نشاط المالكية أيام العثمانيين فى التضاؤل والشحوب .

وكان أولَ من أدخل مذهب الشافعى – فيما يبدو – إلى الشام أبو زرعة [3] بن عثمان الدمشقى ولى القضاء بالقاهرة ثمانى سنوات ، ثم ولىَ القضاء بدمشق سنة ٢٩٢ حتى توفى سنة ٣٠٢ ويقول

---

(١) راجع فى عبد السلام الزواوى النجوم الزاهرة ٣٥٦/٧ وطبقات القراء ٣٨٦/١ والبداية والنهاية ٣٠٠/١٣ والسلوك ٥٤٢/١

(٢) انظر فى ابن مسعود الدرر الكامنة لابن حجر ٢٩٠/٣

(٣) راجع أبا زرعة فى قضاة دمشق لابن طولون (طبع دمشق) ٢٢ والبداية والنهاية ١٢٢/١١ والشذرات ٢٣٩/٢. والسبكى ١٩٦/٣ وقابل على ٣٢٦/١

السبكى كما أشرنا إلى ذلك فى قسم مصر : لم يل القضاء بعده فى الشام إلاشافعى المذهب غير ابن حَذْلم قاضى الشام فإنه كان أوزاعى المذهب كما مرَّ بنا . ومرَّ بنا أيضا أنه ولى قضاء الشام حتى توفى سنة ٣٢٥ . ويغلب أن يكون هذا شذوذا وأن تكون عبارة السبكى صحيحة ، كما يتضح ذلك لمن يرجع إلى كتاب قضاة دمشق لابن طولون . ومنهم عبد [1] الله بن محمد القزوينى قاضى الرملة المتوفى سنة ٣١٥ والحسين [2] بن أبى زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٢٧ وكان قاضيا لدمشق فى زمن الإخشيد ، وأبو[3] يحيى البلخى زكريا بن أحمد المتوفى سنة ٣٣٠ وكان مثل سابقه قاضيا لدمشق . ومنهم أيضا أيام الفاطميين أبو بكر المَيَانَجِىّ قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٧٥ . ويبدو أنه تجرد فى القرن الرابع فقهاء شافعية لعرض المذهب الشافعى ودراسته فى مدن الشام الكبرى ، إذ نجد عبد المنعم بن غلبون الحلبى المتوفى سنة ٣٨٩ مقرئ حلب يسلكه السبكى بين فقهاء الشافعية ، ويقول إنه تلقن المذهب على الحصائرى[4] الحسن بن حبيب الدمشقى إمام مسجد باب الجابية بدمشق المتوفى سنة ٣٣٨ ، ويلقانا فى القرن الخامس فقيه شافعى هو أبو[5] الخير المروزى يستوطن المعرَّة سنة ٤١٨ ويدرس بها للطلاب حتى وفاته سنة ٤٤٧ وله كتاب فى فقه الشافعى يسمى الذخيرة حمله عنه طلابه . ونلتقى من قضاة دمشق بأبى المظفر عبد[6] الجليل بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٧٩ وكان يعاصره نصر[7] بن إبراهيم المقدسى المتوفى سنة ٤٩٠ تفقه على الفقيه سليم بصور ودرس فيها عشر سنوات ثم انتقل إلى دمشق يدرس ويفتى ويحدِّث . وكان قد نزل بصوامع بيت المقدس ودمشق الإمام الغزالى منذ سنة ٤٨٨ وله ثلاثة كتب فى الفقه الشافعى : البسيط والوسيط والوجيز ، وشُغف بها الشافعية منذ زمنه فى الشام وغير الشام .

ويدخل مذهب الشافعى فى مرحلة كبرى جديدة ينتشر فيها بالشام أوسع انتشار ، ونقصد مرحلة تأسيس مدارس الشافعية منذ تأسيس المدرسة الأمينية فى سنة ٥١٤ ويعدُّ ابن شداد فى

---

(١) انظر قضاة دمشق ٢٦ والبداية والنهاية ١٥٧/١١ والعبر ١٦٢/٢ والسبكى ٣٢٠/٣

(٢) راجع الحسين فى السبكى ٣ /٢٨١ وقضاة دمشق ٢٧

(٣) انظر البلخى فى قضاة دمشق ٢٨ والسبكى ٢٩٨/٣ والشذرات ٣٢٦/٢ والعبر ٢٢٢/٢

(٤) راجع فى الحصائرى السبكى ٢٥٥/٣ وقارن مع ابن غلبون فى السبكى ٣٣٨/٣

(٥) انظر أبا الخير فى السبكى ٢٩٩/٤

(٦) راجع فى أبى المظفر قضاة دمشق ٤٢ والسبكى ١٠٠/٥

(٧) انظر نصر بن إبراهيم فى تهذيب الأسماء واللغات ١٢٥/٢ والسبكى ٣٥١/٥ والعبر ٣٢٩/٣ ومرآة الجنان ١٥٢/٣ والنجوم الزاهرة ١٦٠/٥ والشذرات ٣٩٥/٣

كتابه « الأعلاق الخطيرة » من مدرسى هذه المدرسة حتى زمن تأليفه لكتابه حوالى سنة ٦٧٠ عشرةً من كبار فقهاء الشافعية ، ولاتتجاوز مدارس الشافعية بدمشق حتى عهد نور الدين عد أصابع اليد الواحدة ، حتى إذا خلص الأمر لصلاح الدين والأيوبيين – وكانوا شافعية إلا ماكان من اعتناق المعظم عيسى للمذهب الحنفى – ازدهر المذهب الشافعى منذ هذا التاريخ ، وقد جعل صلاح الدين قاضى القضاة بدمشق شافعيا ، وبلغت مدارس الشافعية – كما أحصاها ابن شداد – أربعين مدرسة حتى أيامه . وإذا تصورنا أن المدرسين النابهين لكل مدرسة من هذه المدارس بلغوا حتى زمنه فى المتوسط أربعة من المدرسين يكون معنى ذلك أن المذهب الشافعى حظى حتى أواخر القرن السابع الهجرى فى دمشق وحدها بما لايقل عن مائة وستين فقيها نابها ، واطرد العمل بذلك فى هذه المدارس بدمشق وفيما أحصاه بعدها النعيمى فى كتابه « الدارس » وأيضا فيما قابلها من مدارس للشافعية فى حلب وغيرها من بلدان الشام الكبرى .

ومن المؤكد أن قرار الظاهر بيبرس بأن يكون للمذاهب الكبرى بجانب مذهب الشافعى قاض لم يحدث أثرا عكسيا فى المذهب كما كان يُظنّ ، إذ كان زمام القضاء فى أيام الأيوبيين بيد الشافعية وحدهم ، بل ظل للمذهب ازدهاره ، وظل له الجمهور الأكبر من الناس والفقهاء فى الشام ، ونكتفى بالوقوف عند بعض مشهوريهم ، فمنهم ابن [١] أبى عصرون قاضى القضاة بدمشق لعهد صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٥ وبنى له قبل ذلك نور الدين المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك ، وبنى هو لنفسه مدرستين بحلب ودمشق ، ويقول السبكى عنه : ملأ البلاد تصانيف وتلامذة ، ويذكر من تصانيفه « صفوة المذهب » فى سبع مجلدات وكتاب الانتصار فى أربع مجلدات وكتاب المرشد فى مجلدين وكتاب الذريعة فى معرفة الشريعة ، إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . ومن كبار فقهاء الشام بعده العز بن عبد السلام ، ذكرناه بين فقهاء الشافعية بمصر ، إذ استوطنها حتى وفاته .

وفى رأينا أن أعظم فقيه شافعى أنجبته الشام هو محيى الدين النووى [٢] المتوفى سنة ٦٧٦ عن

---

(١) انظر فى ابن أبى عصرون خريدة القصر (قسم شعراء الشام) ٣٥١/٢ وابن خلكان ٥٣/٣ والسبكى ١٣٢/٥ ونكت الهميان ١٨٦ وطبقات القراء ٤٥٥/١ والعبر ٢٥٦/٤ والنجوم الزاهرة ١٠٩/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٥٧/٤ والبداية والنهاية ٣٣٣/١٢ والشذرات ٢٨٣/٤

(٢) راجع فى النووى السبكى ٣٩٥/٨ والبداية والنهاية ٢٧٨/١٣ وتذكرة الحفاظ ١٤٧٠/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٨/٧ والعبر ٣١٢/٥ وشذرات الذهب ٣٥٤/٥ والسلوك ٦٤٨/١ والدارس فى أخبار المدارس ٢٤/١

خمسة وأربعين عاما ، ومر بنا ذكره بين المحدثين ، وكان إماما مجتهدا واسمه يتردد فى كتب الفقه الشافعى بعده وكذلك آراؤه ، ومن أهم مصنفاته فى فقه الشافعية منهاج الطالبين لخص به كتاب المحرَّر للرافعى القزوينى ، واختصر المنهاج فيما بعد الشيخ زكريا الأنصارى ، وسمى مختصره المنهج ، وصنف النووى فى فتاويه الفقهية كتابين : كبير وصغير . ومن فقهاء الشافعية الكبار فى زمنه وبعد زمنه علاء[1] الدين الباجى المتوفى سنة ٧١٤ وكمال الدين محمد الزَّملكانى حفيد عبد الواحد الذى ذكرناه بين البلاغيين توفى سنة ٧٢٧ . وتفيض كتب التراجم والتاريخ بأسماء جلَّة من هؤلاء الفقهاء ، ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من فقهاء الشافعية الكبار بمصر كانوا ينزلون فى الشام مثل تقى الدين السبكى قاضى قضاة الشام وابنه تاج الدين عبد الوهاب خطيب الجامع الأموى مؤلف طبقات الشافعية ، ويظل المذهب الشافعى مزدهرا بالشام أيام المماليك والعثمانيين .

وكان المذهب الحنبلى فى الشام أقل أشياعا وأنصارًا من المذهب الشافعى والحنفى ، ومن أوائل من أدخلوه إلى دمشق والشام علم من أعلام المذهب الحنبلى هو أبو القاسم الخِرَقىّ عمر[2] بن الحسين المتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ وكان قد استوطنها بأخرة من عمره ودرس المذهب فيها ، وله كتاب دوَّت شهرته هو « المختصر » فى الفقه الحنبلى ، ظل طلاب المذهب يعتمدون عليه طويلا ، ويقال إن عدد مسائله بلغ ٢٣٠٠ مسألة . وظل المذهب لاينتعش فى ديار الشام حتى قُيِّض له فى القرن الخامس أبو الفرج[3] الشيرازى المقدسى الدمشقى المتوفى سنة ٤٨٦ وكان قد تفقه فى بغداد على أبى يَعْلَى صاحب طبقات الحنابلة ، وقدم الشام فسكن بيت المقدس ونشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل فيما حوله من بلدان فلسطين ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها وأخذ ينشر المذهب حتى أصبح له أتباع وتلامذة كثيرون لا فى دمشق فحسب بل أيضا فى بيت المقدس وغيرهما من بلدان الشام ، وله تصانيف عدة فى الفقه الحنبلى والأصول ، منها : المبهج والإيضاح ، ومختصر فى الحدود وفى أصول الفقه ، والتبصرة فى أصول الدين ، وله كتاب الجواهر فى التفسير ثلاثون

(١) انظر فى علاء الدين الباجى الدرر الكامنة ١٧٦/٣ وطبقات الشافعية للسبكى ٣٣٩/١٠ وفوات الوفيات ١٥٠/٢ وحسن المحاضرة ٥٤٤/١ والشذرات ٣٤/٦

(٢) انظر فى الخرقى تاريخ بغداد ٢٣٤/١١ وطبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعانى ١٩٥ وابن خلكان ٤٤١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٨٩/٣

(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة دمشق) ٨٥/١ وما بعدها

مجلدا . وكان يعاصره الفقيه الحنبلى عبد [١] الوهاب بن طالب التميمى نزيل دمشق وإمام مسجد الريحان .

وخلف أبا الفرج الشيرازى على المذهب ابنه عبد الوهاب المتوفى سنة ٥٣٦ وتخرج من بيته فقهاء حنابلة كثيرون ، ويعرفون فى دمشق والشام ببيت ابن الحنبلى ، ولعبد الوهاب مثل أبيه تصانيف فى الفقه الحنبلى والأصول ، منها المنتخب فى الفقه الحنبلى فى مجلدين والبرهان فى أصول الدين . ولعبد الوهاب على المذهب فى الشام يد سابغة ، فقد بنى له بدمشق مدرسة تعرف بالمدرسة الحنبيلة ، ويذكر ابن شداد أساتذتها من الحنابلة الفقهاء حتى أيام تأليف كتابه « الأعلاق الخطيرة » بعد سنة ٦٧٠ . ويذكر بدمشق معها تسعة مدارس أخرى للحنابلةُ بُنيت بعدها حتى زمن ابن شداد . ونشط بناء المدارس الحنبلية فى بيت المقدس وظل بعد ابن شداد على نحو مايصوره ذلك النعيمى فى كتابه « الدارس فى تاريخ المدارس » . وكان مما ضاعف نشاط هذا المذهب قرار الظاهر بيبرس أن يكون للحنابلة فى ديار الشام - كما فى ديار مصر - قاض فى كل بلد كبير بجانب قضاة الحنفية والمالكية والشافعية . ويتضح هذا النشاط وتتضح معه كثرة الفقهاء من الحنابلة منذ أيام الأيوبيين ، ومن كبارهم حينئذ موفق [٢] الدين بن قدامة الجمّاعيلى المقدسى عبد الله بن أحمد المتوفى بدمشق سنة ٦٢٠ وهو من أئمة المذهب ، وله كتب كثيرة فى الفقه الحنبلى وأصوله وأصول الدين ، منها المغنى شرح به مختصر الخرقى المار ذكره فى عشر مجلدات ، وهو مطبوع ، والكافى فى أربع مجلدات ، وله فى أصول الفقه كتاب روضة الناظر ، وفى أصول الدين كتاب الاعتقاد . ويلقانا بعده فقهاء كثيرون من بيته يتردد ذكرهم طوال القرنين السابع والثامن .

ومانكاد نبلغ نهاية القرن السابع أيام المماليك حتى يتألق فى المذهب اسم الإمام ابن [٣] تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ وقد صورنا جانبا من تحرره الفكرى واجتهاده فى غير هذا الموضع ، ومرَّ بنا حديثنا عن منهجه فى التفسير القرآنى ، وله عشرات الرسائل والكتب فى المسائل التشريعية والعقيدية ، ويقول الذهبى فى تذكرة الحفاظ إن مصنفاته التى سارت بها الركبان نحو ثلاثمائة مجلد ، ومن أهم كتبه الفقهية فتاويه وهى مطبوعة قديما فى خمسة مجلدات كبار . ومن أعلام الفقهاء الحنابلة بعده تلميذه ابن قيم الجوزية المذكور بين البلاغيين وهو حامل فقهه وعلمه وناشرهما فى الناس وأضاف

---

(١) ابن رجب ٩٦/١

(٢) راجع فى ابن قدامة ابن رجب ١٧٠/٢ والبداية والنهاية ٩٩/١٣ والشذرات ٨٨/٥ والنجوم الزاهرة ٢٥٦/٦

(٣) مرت مصادر ابن تيمية فى الحركة العلمية ص ٥٥١ .

إليهما كثيرا من روائع الكتب ، مع نزعة صوفية قوية فيه . وتصدى فى دمشق بعد أستاذه للإقراء والإفتاء وصنَّف كثيرا فى الفقه والتفسير والحديث والأصول والفروع ، ومن تصانيفه إعلام الموقعين وشرح منازل السائرين ، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، وطرق السعادتين ، ويقول ابن حجر فى الدرر : هو طويل النفس فى كتاباته يحاول الإيضاح جهده فيسهب جدا ، ويقول الشوكانى فى البدر الطالع : « له من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق مالا يقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان وتحبه القلوب » . ويزخر كتاب النجوم الزاهرة بأسماء فقهاء الحنابلة وقضاتهم بدمشق وغيرها حتى نهاية زمن تأليفه سنة ٨٧٢ . ويلقانا بأخره من أيام المماليك مجير الدين العليمى عبد الرحمن بن محمد قاضى بيت المقدس المتوفى سنة ٩٢٧ وله كتاب فى طبقات الحنابلة سماه « المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الإمام أحمد » . ويظل للفقهاء الحنابلة نشاطهم أيام العثمانيين مثلهم فى ذلك مثل بقية أصحاب المذاهب الثلاثة الأخرى .

ومنذ ظهرت المذاهب الفقهية والكلامية والجدل يحتدم بين أصحابها ، مما أتاح مبكرًا لنشأة علم الجدل وما تبعه من نشأة علم آداب البحث والمناظرة ، ويكثر التأليف فيهما لهذا العصر كما يكثر التأليف فى علم الأصول الذى وضعه الإمام الشافعى وفاق الأولين والآخرين فيه الآمدى الذى ألممنا به فى حديثنا عن علم الكلام بقسم مصر ، وكان قد نزل مصر ثم استوطن حماة حتى وفاته سنة ٦٣١ ، وكتابه «الإحكام فى أصول الأحكام» ربما كان أروع كتاب فى علم الأصول على مدى الأزمنة الماضية . والشام — مثل مصر — انصرفت عن الاعتزال وعن الفرق الكلامية الكثيرة التى نشأت فى بغداد ، حتى إذا ظهر الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ وانضم تحت لوائه شافعية خراسان انضم مثلهم شافعية الشام ومصر بحيث تعانق المذهبان . الشافعى والأشعرى فى كل مكان . ولم يلبث أن خاصمهما الحنابلة الآخذون بظاهر الكتاب والسنة ، واستمر هذا الخصام على مدار السنين فى أزمنة الأيوبيين والمماليك . ومن حين إلى آخر يتوقف السبكى فى طبقاته ليصور تعصب بعض الحنابلة ضد الأشاعرة وخاصة أستاذه الذهبى ، فقد كان يتعصب تعصبا شديدا ضدهم على نحو ما سنعرض ذلك فى غير هذا الموضع . وفى الوقت نفسه يشيد بفقهاء الشافعية الذين يردّون على خصوم الأشعرية ، على نحو ماأشاد بفخر الدين بن عساكر فى رده المفحم على الحسن بن على الأهوازى المار بين القراء فى كتابه « تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى » . ويشيد السبكى

بصفى [١] الدين بن الهندى المتوفى بدمشق سنة ٧١٥ لقيامه بنصرة المذهب الأشعرى ، ويقول : إنه كان من أعلم الناس بمذهبه وأدراهم بأسراره ، ويذكر من تصانيفه فى نصرة المذهب كتابه « زبدة الكلام » ويذكر له بجواره كتابا فى الأصول هو « نهاية الوصول فى دراية الأصول » .. وظلت نصرة الشافعية لمذهب الأشعرى على مدار السنين فى أيام المماليك والعثمانيين .

٥

التاريخ

نشطت دمشق والشام فى كتابة التاريخ بجميع صوره من السير المفردة وتاريخ المدن وتاريخ الدول أو دولة معينة والتراجم أو كتب الطبقات . ونبدأ حديثنا بالسير المفردة ، وأولها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الزكية ، وأول شامى ندب نفسه للكتابة فيها أبو[٢] زُرْعة عبد الرحمن بن عمرو شيخ الشام المتوفى سنة ٢٨٢ وله بجانبها كتاب عن تاريخ الخلفاء الراشدين ، سقط مثل السيرة النبوية من يد الزمن . وعنى بعض الشاميين بالكتابة فيها ولم تصلنا كتاباتهم ، مثل السيرة النبوية لابن أبى طى المتوفى سنة ٦٣٠ . ونلتقى فى أيام العثمانيين بشمس الدين الدمشقى محمد[٣] بن يوسف المتوفى سنة ٩٤٢ وله سيرة نبوية تسمى السيرة الشامية جمعها من نحو ٣٠٠ كتاب ، وتعنى مصر بإخراجها الآن . وصنَّف نور الدين الحلبى المولود بمصر السيرة الحلبية ، ومر ذكرها فى حديثنا عن التاريخ بقسم مصر ، وهى مطبوعة . ونلتقى بثلاث سير أو تراجم شخصية صور أصحابها فيها حياتهم ، وأول مايلقانا منها كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وهو يصور فيها حياة الشاميين وحملة الصليب لزمنه ، نشرها فيليب حتى وكان قد نشرها قبله ديرنبورج . ولأبى شامة المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ ترجمة شخصية بقلمه أودعها كتابه « ذيل الروضتين » وبالمثل لابن طولون الصالحى المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ ترجمة شخصية بعنوان « الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون » وهى مطبوعة بدمشق .

---

(١) راجع فى صفى الدين طبقات السبكى ١٦٢/٩ والوافى بالوفيات ٢٣٩/٣ والدرر لابن حجر ١٣٢/٤ ومرآة الجنان ٢٧٢/٤ والشذرات ٣٧/٦ والبدر الطالع ١٨٧/٢

(٢) انظر فى أبى زرعة النجوم الزاهرة ٨٧/٣ وقارن بالجزء ١٢٨/١ وتاريخ ابن عساكر ٢٧٤/٧ وابن حجر فى التهذيب ٥٥/٢ . وراجع بروكلمان ٢١/٣

(٣) انظر فى شمس الدين الشذرات ٢٤٩/٨

وشغل صلاح الدين بسيرته المؤرخين ، وأولهم العماد الأصبهانى وفيه ألف كتابه « البرق الشامى » ذكر فيه أخبار صلاح الدين وفتوحاته وأحداث الشام فى عهده ، وهو فى سبع مجلدات . ويتصل بهذه السيرة كتابه « الفيح القُسىّ فى الفتح القدسى » صوَّر فيه فتح صلاح الدين للقدس تصويرا أدبيا بديعا . وصنَّف بهاء[١] الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ سيرة لصلاح الدين بعنوان : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » اعتمد فيها على السيرة الصلاحية لابن أبى طى . ولابن عنين الشاعر المتوفى سنة ٦٣٠ سيرة[٢] للملك العزيز سماها التاريخ العزيزى . وكتب أحد أولاد الناصر داود بن عيسى بن الملك العادل سيرة له باسم « الفوائد[٣] الجلية فى الفرائد الناصرية» . وللنووى المذكور بين الفقهاء كتاب فى سيرة الإمام الشافعى ، ولابن عربشاه[٤] الدمشقى المتوفى سنة ٨٥٤ سيرة مفصلة لتيمورلنك تعقب فيها مولده ونشأته وملكه ودولته ومن خلفوه حتى سنة ٨٤٠ وسمى هذه السيرة « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » مصورًا إفساده فى الأرض وإهلاكه الحرث والنسل وماارتكب من الفظائع ، غير أنه كتبها بأسلوب مسجوع شديد التكلف ، ونزل مصر بأخرة من عمره فى عهد السلطان جَقْمق وكتب سيرته بعنوان « التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر » . ولبدر الدِين العينى المار ذكره كتاب السيف المهند فى سيرة السلطان المؤيد ، ولبدر الدين محمد[٥] بن أبى بكر الدمشقى المتوفى سنة ٨٧٤ سيرتان : سيرة لنور الدين ، والسيرة الثانية للسلطان قايتباى . وله سير كثيرة فى العصر . ولابن طولون الذى ذكرناه آنفا بين الجغرافيين سيرة لابن العربى المتصوف . وصنف شمس الدين الدمشقى المار ذكره سيرة لأبى حنيفة ، ومنها مخطوطة فى دار الكتب المصرية . ولمحمد بن يحيى الحنبلى سيرة صنفها عن عبد القادر الجيلانى المتصوف ، وهى مطبوعة ، ولمرعى[٦] بن يوسف الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ سيرة صنفها فى مناقب ابن تيمية .

هذا بعض ماصادفنا من كتب السير المفردة ، أما كتب تاريخ المدن فقد عرضنا طائفة منها فى

---

(١) راجع بهاء الدين فى ابن خلكان ٨٤/٧ والسبكى ٣٦٠/٨ وتاريخ ابن الوردى ١٦٠/٢ وتذكرة الحفاظ ١٤٥٩/٤ وطبقات القراء ٣٩٥/٢ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣ والمختصر لأبى الفدا ١٥٦/٣ والنجوم الزاهرة ٢٩٢/٦ والشذرات ١٥٨/٥

(٢) انظر كشف الظنون لحاجى خليفة (الطبعة الثانية) ٢٩٨

(٣) بروكلمان (الطبعة العربية) ١٨/٦

(٤) انظر مصادر ترجمة ابن عربشاه فى ص ٨٢٩

(٥) راجع ترجمته فى الضوء اللامع ١٥٦/٧

(٦) انظر فى مرعى الكرمى خلاصة الأثر ٣٥٨/٤

حديثنا عن علم الجغرافيا وخاصة ماتصل منها بفضائل دمشق والشام وبيت المقدس ، ونبسط الكلام فى كتابين ذكرناهما هناك ، أما أولهما فتاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ ابن عساكر على بن الحسن المتوفى سنة ٥٧١ ويقال إنه فى ثمانين مجلدا بدأه بالحديث عن فضائل الشام وفتوحها وخططها ومساجدها وكنائسها ودورها ثم ترجم لكل من دخل دمشق والشام منذ الجاهلية إلى زمنه من الأنبياء والخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب . وهذّبه بحذف الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران ، ونشر من تهذيبه سبعة « مجلدات » حتى ترجمة عبد الله بن سيار ، وقلما يذكر فى المراجع باسم تهذيب تاريخ ابن عساكر ، بل يقال مباشرة تاريخ ابن عساكر . والكتاب الثانى الذى سبق أن عرضنا له ونرى الوقوف عنده كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن شداد ، وهو يذكر خططها ثم يسهب فى ذكر الجامع الأموى وذكر مساجدها حتى زمنه ، ويتحدث عن مزاراتها فى باطنها وظاهرها وخوانقها ورُبُطها ومدارسها الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وكنائسها ودياراتها وحماماتها وماَمُدحت به نثرا وشعرًا ، وهو بذلك تاريخ اجتماعى ثقافى حضارى . وقد عُنى ابن شداد بحلب كما عنى بدمشق . ولعل أهم كتاب عُنى بها قبله كتاب « بغية الطلب فى تاريخ حلب » لابن العديم [1] عمر بن أحمد المتوفى سنة ٦٦٠ صنفه فى عشر مجلدات أرَّخ فيها لعلمائها وأدبائها على الترتيب الأبجدى وجعل له تاريخا لحلب على السنين فى كتابه : « زبدة الحلب من تاريخ حلب » وصل به إلى نهاية أيام نور الدين محمود سنة ٥٦٩ حققه ونشره الدكتور سامى الدهان بدمشق . ولابن خطيب [2] الناصرية على بن محمد المتوفى سنة ٨٤٣ تتمة لبغية الطلب فى مجلدات سماها « الدر المنتخب فى تكملة تاريخ حلب » وأكمله محمد بن محمد بن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠ وسمى تكملته « نزهة النواظر » . وعنى بكل ذلك أيام العثمانيين ابن [3] الحنبلى محمد بن إبراهيم الحلبى المتوفى سنة ٩٧١ وصنف كتابه « الزبد والضَّرَب (عسل النحل) فى تاريخ حلب » مع تكملته إلى سنة ٩٥١ . ولمجير الدين العليمى المتوفى سنة ٩٢٧ كتاب الأنيس الجليل فى تاريخ القدس والخليل مطبوع . ومن يرجع إلى كتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » سيجد بلدان الشام مع من كتبوا تاريخها تتعاقب ، تُذْكَرُ أولا حلب ثم حمص فالخليل فداريًّا ضاحية لدمشق فدمشق فصفد فصور فطرابلس فعسقلان ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لم تبق بلدة

---

(١) انظر فى ابن العديم معجم الأدباء ١٦/٥ وفوات الوفيات ٢/٢٠٠ والشذرات ٥/٣٠٣ وتاج التراجم ص ٤٨ ومقدمة الدكتور سامى الدهان لكتابه زبدة الحلب

(٢) راجع ابن خطيب الناصرية فى الضوء اللامع جـ٥ رقم ١٠١٦ والشذرات ٧/٢٤٧

(٣) انظر ابن الحنبلى فى الشذرات ٨/٦٦٥

فى الشام إلا تجرد عالم لكتابة تاريخها ومنها ماوصلنا ومنها مالم يصلنا وضاع مع الأيام .

ونترك تاريخ البلدان إلى التاريخ العام ، وأول مايلقانا فيه ابن القلانسى حمزة[١] بن أسد المتوفى سنة ٥٥٥ وله تاريخ للحوادث على السنين سماه تاريخ دمشق ذيَّل به على كتاب التاريخ لهلال الصابى ابتدأ به كما يقول ياقوت من سنة ٤٤١ إلى حين وفاته سنة ٥٥٥ . وكان يعاصره العظيمى[٢] الحلبى المتوفى بعد سنة ٥٥٦ ، ولمحمد بن عمر بن شاهنشاه كتاب عن حماة وتاريخها وله أيضا تاريخ على السنين. وجاء بعدهما ابن أبى الدم[٣] الحموى قاضى حماة المتوفى سنة ٦٤٢ وله التاريخ المظفرى وهو تاريخ عام فى ستة مجلدات حتى سنة ٦٢٧ ، وسبط ابن الجوزى الحنفى المولود ببغداد والمستوطن لدمشق منذ مطلع القرن السابع حتى وفاته سنة ٦٥٤ وله كتاب مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان بدأ به من أول الخليقة ورتبه منذ الهجرة النبوية على السنين حتى سنة وفاته ، وفيه يذكر الحوادث ثم الوفيات فى كل سنة ، وكان فى أربعين مجلدا ، ونُشر منه فى حيدر آباد قسمان من الجزء الثامن على نحو ماأوضحنا ذلك فى حديثنا عن المؤرخين بالعراق فى الجزء السالف . ولموسى[٤] بن محمد اليونينى البعلبكى المتوفى سنة ٧٢٦ مختصر للمرآة فى نحو النصف مع ذيل فى أربعة مجلدات يتناول أولها مصر وسوريا من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٤ . ويلقانا مؤرخ كبير هو أبو الفدا صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ وقد ذكرناه بين الجغرافيين وله كتاب المختصر فى أخبار البشر ، وزعه على قسمين : قسم عن الجاهلية والديانات والأنبياء وقسم عن الإسلام حتى سنة ٧٢٩ وهو تاريخ نفيس ترجمه المستشرقون قديما إلى اللاتينية . وصنف عمر بن المظفر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ تكملة له حتى أيامه سماها « تتمة المختصر » طبعت مثل أصلها مرارا .

ونلتقى بالذهبى[٥] محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ وله تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام فى ١٢ مجلدا رتبه على السنين جامعا فيه بين الأحداث والوفيات . ونقد السبكى تلميذه فى

---

(١) راجع فى ابن القلانسى تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٣٩/٤ ومعجم الأدباء ٢٧٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٣٢/٥ والشذرات ١٧٤/٤

(٢) انظر فى العظيمى بروكلمان (الترجمة العربية) ١٣١/٦

(٣) راجع فى ابن أبى الدم : السبكى ١١٥/٨ وتاريخ ابن الوردى ١٧٥/٢ والشذرات ٢١٣/٥ والمختصر لأبى الفدا ١٨٢/٣

(٤) راجع موسى فى الدرر ١٥٣/٥ والشذرات ٧٣/٦ والبداية والنهاية ١٢٦/١٤

(٥) انظر فى الذهبى الدرر ٤٢٦/٣ ونكت الهميان ٢٤١ وفوات الوفيات ٣٧٠/٢ والبداية والنهاية ٢٢٥/١٤ وتاريخ ابن الوردى ٣٤٩/٢ وطبقات القُرّاء ٧١/٢ ومرآة الجنان ٣٣١/٤ والسبكى ١٠٠/٩ والوافى بالوفيات ١٦٣/٢ والنجوم الزاهرة ١٨٢/١٠ والشذرات ١٥٣/٦ والبدر الطالع ١١٠/٢

طبقاته موقفه من الأشعرية ، وأنه لم يقف على الحياد فى عرضه لهم وللصوفية أيضا . وكان الحنابلة يخاصمون الطائفتين ولذلك يصبّ عليهم جميعا جامَ غضبه ، إذ كان حنبليا متعصبا لأصحاب مذهبه ، حتى ليقول السبكى أنه كان إذا ترجم واحدا من الحنابلة يطنب فى وصفه بجميع ماقيل فيه من المحاسن ، ويتغافل عن غلطاته ويتأول له ماأمكن ، وإذا ترجم أحدا من الأشعرية كإمام الحرمين الجوينى والغزالى وأمثالها لايبالغ فى وصفه ويكثر من قول مَنْ طعنَ فيه ، ويعيد ذلك ويبديه[1] . وكان ينبغى أن يكون منصفا فى تاريخه وتراجمه فيه بريئا من العصبية فى المذهب ، ويقول السبكى : « هذا وهو الحافظ المِدْره والإمام المبجَّل فما بالك بعوامّ المؤرخين » . وللذهبى تاريخ عام فى مجلدين ، وهو مختصر لتاريخه الكبير ، رتبه على السنوات وذكر فيه الأحداث والوفيات ، سماه « العبر فى خبر من غبر » وذكره يتردد فى الهوامش .

وكان يعاصر الذهبى أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادار صاحب صَرْخَد ، وله كنز الدرر وجامع الغُرر ، ألفه للناصر بن قلاوون وهو فى تسعة أجزاء أولها فى بدء الخلق وثانيها فى الأمم القديمة وثالثها فى السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، والرابع فى الدولة الأموية ، والخامس فى الدولة العباسية ، والسادس فى الدولة الفاطمية ، والسابع فى الدولة الأيوبية ، والثامن فى دولة المماليك البحرية ، والتاسع فى دولة الناصر بن قلاوون ، منه نسخة بدار الكتب المصرية وهو كتاب نفيس جدير بالنشر. ونلتقى بابن كثير الذى مر ذكره بين المفسرين المتوفى سنة ٧٧٤ وله البداية والنهاية ، وهو فى التاريخ العام ، عُنى فيه بالسيرة النبوية مميزا بين الوثيق والمتهم فى الأخبار ، ومضى فيه يجمع بين الأحداث والوفيات على مر السنين حتى سنة ٧٦٧ للهجرة . وجاء بعده زين الدين بن الشحنة [2] الحلبى المتوفى سنة ٨١٥ وله فى التاريخ العام « روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر » انتهى فيه إلى سنة ٨٠٧ وهو مجلد واحد طُبع قديما على هامش الكامل لابن الأثير. ونلتقى بعده ببدر الدين العينى الذى مر ذكره بين المحدثين المتوفى سنة ٨٥٥ نشأ بحلب وتفقه على أبيه وكان قاضيا حنفيا وعلى غيره من فقهاء حلب الأحناف ، واختلف إلى شيوخ دمشق وبيت المقدس والقاهرة ، وتقلد مناصب مختلفة فى القاهرة ودمشق منها الحسبة وقضاء الحنفية ، وله عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، وهو تاريخ عام من بدء الخليقة حتى سنة ٨٥٠ .

---

(١) انظر السبكى ١٣/٢ ومابعدها والشذرات ١١٣/٧ والبدر الطالع ٢٦٩/١

(٢) راجع فى ابن الشحنة الضوء اللامع ٣/١٠

وممن نلتقي بهم في أيام العثمانيين الجنابي مصطفى [١] بن حسن المتوفى سنة ٩٩٩ وله في أحوال الأوائل والأواخر تاريخ حافل يعرف بتاريخ الجنابي يؤرخ فيه لثلاث وعشرين دولة إسلامية في مجلدين حتى سنة ٩٩٧ قال صاحب كشف الظنون لم أر كتابا جامعا لدول العالم مثله . وكان يعاصره القرماني [٢] أحمد بن سنان الدمشقي المتوفى سنة ١٠١٩ وله أيضا تاريخ عام للدول الإسلامية سماه : « أخبار الدول وآثار الأول » طبع قديما ببغداد في ٥٠٠ صفحة .

وبجانب هذه الكتب التاريخية الكثيرة في التاريخ العام صنف مؤرخو الشام كتبًا فرعية خاصة ببعض الدول ، من ذلك : « نُصْرة الفِطْرة وعُصْرة القَطْرة » للعماد الأصبهاني ، وهو تاريخ للسلاجقة وأتابكتهم ووزرائهم ، اختصره الفتح البنداري سنة ٦٢٣ بكتابه « زبدة النصرة ونخبة العصرة » طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . ونلتقي بأبي شامة [٣] الحافظ المقرئ المؤرخ المقدسي الشافعي عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥ وله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : دولة نور الدين ودولة صلاح الدين في وصف معاركهما وانتصاراتهما الكثيرة على حَملة الصليب ، وعادة يسرد المعركة ، ثم يعرض لوحاتها الشعرية البديعة التي تصور مجد العرب الحربي تصويرا رائعا ، وكيف كان هذا البطلان : نور الدين وصلاح الدين يسحقان الصليبيين سحقا ذريعا لايكاد يبقى منهم ولايذر . وكتب للروضتين ذيلا من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٦٥ . وكتب البرزالي [٤] القاسم بن محمد المتوفى سنة ٧٣٩ صلة لتاريخ أبي شامة باسم « المقتفى لتاريخ أبي شامة انتهى به إلى سنة ٧٣٨ وذيَّله تلميذه الحافظ مدرس النورية تقي الدين محمد [٥] بن رافع المتوفى سنة ٧٧٤ في كتاب سماه الوفيات حتى سنة ٧٧٤ ومنه مخطوطه بدار الكتب المصرية . ونلتقي بابن [٦] واصل محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧ وله « مفرج الكروب في أخباربني أيوب » نشره

---

(١) انظر في الجنابي دائرة المعارف الإسلامية . وفي معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية مصورتان من كتابه

(٢) راجع في القرماني خلاصة الأثر ٢٠٩/١

(٣) انظر في أبي شامة ترجمة شخصية بقلمه في ذيل الروضتين ص ٣٧ والسبكي ١٦٥/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٦٠/٤ وفوات الوفيات ٥٢٧/١ والبداية والنهاية ٢٥٠/١٣ وذيل مرآة الزمان ٣٦٧/٢ وطبقات القراء ٣٦٦/١ والشذرات ٣١٨/٥

(٤) راجع في البرزالي السبكي ٣٨١/١٠ وتذكرة الحفاظ ١٥٠١/٤ والدرر ٣٢١/٣ وفوات الوفيات ٢٦٢/٢ والشذرات ١٢٢/٦ والنجوم الزاهرة ٣١٩/٩ والبدر الطالع ٥١/٢

(٥) انظر في ابن رافع الدرر ٥٩/٤ والشذرات ٢٣٤/٦

(٦) راجع في ابن واصل نكت الهميان للصفدي ص ٢٥٠ والشذرات ٤٣٨/٥ ومقدمة كتابه مفرج الكروب وخطط الشام لكرد علي ٤٤/٤ وله تجريد الأغاني لأبي الفرج جرده من أسانيده ، ونُشر في القاهرة

الدكتور جمال الدين الشيال فى ثلاثة أجزاء . وصنف ابن حبيب الحلبى بدر الدين الحسن بن عمر المتوفى سنة ٧٧٩ فى تاريخ المماليك حتى أيامه كتابه « درة الأسلاك فى دولة الأتراك » ابتدأ به من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٧٧ وأتمه ابنه طاهر إلى سنة ٨٠٢ . ولابن حبيب كتاب فى تاريخ أسرة قلاوون وأبنائه سلاطين مصر . ولمرعى الكرمى السابق ذكره أيام العثمانيين نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين .

ونلتقى بكثيرين من كتّاب التراجم والطبقات ، ومنهم كتاب عامُّون لم يخصوا قطرا عربيا بعينه ولا طائفة من الطوائف بعينها ، نذكر منهم الذهبى فى كتابه سير أعلام النبلاء ويقع فى نحو خمسة عشر مجلدا ، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بعض أجزائه . ومنهم ابن[1] شاكر الكتبى الحلبى المتوفى سنة ٧٦٤ وله كتاب فوات الوفيات يقصد كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وكأنه تكملة لما فاته ، وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة لعلماء من كل صنف ولكتّاب وشعراء وصوفية وحُكّام . وكان يعاصره الصفدى خليل بن أيبك المتوفى أيضا سنة ٧٦٤ وسنلم به فى حديثنا عن النثر ، وهو أهم من أنجبتهم الشام فى كتابة التراجم ، وله فيها كتابه الضخم الوافى بالوفيات ويدخل فى نحو ثلاثين مجلدا نُشرت منها طائفة. وله بجانبه «نَكْت الهِمْيان فى نُكَتِ العميان» فى تراجم من فقدوا بصرهم من مشاهير الأكفَّاء فى العالم العربى على توالى الحقب ، وأيضا « أعيان العصر وأعوان النصر » فى مشاهير معاصريه فى نحو تسعة مجلدات ، وهو حرى بالنشر . ويعنى نجم[2] الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ بتراجم القرن العاشر ويؤلف فيها كتابه الكواكب السائرة ، وعُنيت جامعة بيروت الأمريكية بنشره ، ويصنف المحبى[3] محمد أمين المتوفى سنة ١١١١ للهجرة كتابه : « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » كما يصنف المرادى[4] محمد خليل المتوفى سنة ١٢٠٦ كتابه : « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » .

ويؤلف العماد الاصبهانى كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » وهو كتاب تراجم لشعراء العالم العربى فى القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ وهم موزعون على أقطارهم من إيران إلى الأندلس ، نشرت منه أقسام مصر والشام والأندلس والمغرب ونشرت أكثر أجزاء العراق . وُصِّنفت بعد العماد فى الشام كتب عن الشعراء مثل طبقات الشعراء لمحمد[5] بن عمر بن شاهنشاه

(١) انظر فى ابن شاكر البداية والنهاية ٣٠٣/١٤ والدرر ٧١/٤ والشذرات ٢٠٣/٦

(٢) راجع فى الغزى خلاصة الأثر ١٣٥/١ ومقدمة الجزء الأول من الكواكب السائرة

(٣) انظر فى المحبى سلك الدرر ٨٦/٤

(٤) راجع فى المرادى تاريخ الجبرتى ٢٣٣/٢

(٥) انظر مختصر المرآة لسبط ابن الجوزى : ٤٠١

صاحب حماة المتوفى سنة ٦١٧ وكان فى عشر مجلدات ، سقط هو وغيره مما يماثله من أيدى الزمن . ومما وصلنا نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة للمحبى المذكور فى بيان محاسن الشعراء بدمشق وحلب والعراق واليمن والحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم ، طُبع فى مجلدين كبيرين .

واهتم الأطباء بصنع كتب تحمل تراجمهم ، وشاركت الشام فى هذا العمل عن طريق ابن أبى أصيبعة الذى مر ذكره بين الأطباء فألف كتابه « طبقات الأطباء » استقصاهم حتى زمن وفاته ، وهو أوسع كتب الأطباء تفصيلا لحياتهم وأعمالهم . وتُعْنَى الشام بكتب الرجال من رواة الحديث ، ويصنف عبد الغنى الجمَّاعيلى – كما مر بنا – كتاب « الكمال فى معرفة أسماء الرجال » عن رواة الحديث النبوى فى كتب الصحاح الستة . وأضاف إليه المزى المار ذكره بين المحدثين تكملات وتصحيحات بعنوان تهذيب الكمال فى اثنى عشر مجلدا ، وللنووى كتاب فى رجال صحيحى البخارى ومسلم باسم رياض الصالحين فى ذكر رجال الصحيحين وعُنى الذهبى باختصار هذا التهذيب وإحسان ترتيبه وإضافة زيادات إليه ، وسمى كتابه « تذهيب تهذيب الكمال » فى خمسة مجلدات . وللذهبى كتاب المشتبه فى الأسماء والأنساب خصه بتراجم الأسماء المتشابهة فى رواة الحديث وغيره . وللذهبى أيضا ميزان الاعتدال فى نقد الرجال أى رواة الحديث النبوى رتبه على حروف المعجم وهو مطبوع فى ثلاثة مجلدات ، .

وللذهبى كتابان فى حفاظ الحديث النبوى وعلمائه : كبير هو تذكرة الحفاظ فى أربعة مجلدات ومختصر منها هو طبقات الحفاظ . واختصر السيوطى الأخير مع تكملات وأبقى لصنيعه الاسم ، والكتب الثلاثة مطبوعة . وللذهبى كتاب فى طبقات القراء لم يكتب له الذيوع إنما كتب لغاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى المذكور بين القراء المتوفى سنة ٨٣٣ ، وكتابه يتردد فى الهوامش باسم طبقات القراء . ووضعت للقضاة كتب مختلفة من أهمها قضاة دمشق لابن طولون المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ وهو مطبوع . وللفقهاء كتب كثيرة فى رجالهم وطبقاتهم ، وقد صُنِّف كثير من الكتب عنهم على اختلاف مذاهبهم ، فللأحناف كتبهم وكذلك للشافعية والحنابلة ، أما المالكية فلم يصادفنى كتاب شامى عن فقهائهم ، ولعل فى هذا مايدل على أنهم ظلوا فى الشام قليلين . وكثر التأليف فى الحنفية بأخرة من العصر ، فلابن طولون السابق ذكره كتاب الغرف العلية فى متأخرى الحنفية » .

وللحنفية كتب فى طبقاتهم كانت متداولة ومشهورة مثل الجواهر المضيَّة فى طبقات الحنفية لعبد القادر بن أبى الوفا وتاج التراجم لابن قطلوبغا . وكان التأليف كثيرا فى طبقات الشافعية ،

ولابن الصلاح المار ذكره بين المحدثين كتاب كبير فيها اختصره النووى ورتبه على حروف المعجم وممن اشتهر كتابه فى تلك الطبقات السبكى وكتابه مذكور مرارا وتكرارا فى الهوامش. وكتاب ابن [1] قاضى شهبة الدمشقى المتوفى سنة ٨٥١ ترجم فيه لأعلام الشافعية حتى سنة ٨٤٠ وهو مطبوع. ونشط الحنابلة فى كتابة تراجم فقهائهم ولابن رجب [2] الدمشقى الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥ كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ وهو مطبوع فى مجلدين. ولمحمد [3] بن عبد القادر النابلسى المتوفى سنة ٧٩٧ مختصر للطبقات مطبوع، ونختم كلامنا فى هذا الفصل بالاشارة إلى كتاب الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى [4] المتوفى سنة ٩٢٧ وهو يصور الحركة بل النهضة العلمية التى ظلت أضواؤها تشع فى الشام، حتى مع ماغشيها من سحب العثمانيين.

---

(١) راجع فى ابن قاضى شهبة الضوء اللامع جـ١١ رقم ٦١ والشذرات ٢٦٩/٧ والبدر الطالع ١٦٤/١

(٢) انظر فى ابن رجب ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦٧ والدرر لابن حجر ٤٢٨/٢ وشذرات الذهب ٣٣٩/٦ ومقدمة الدكتور سامى الدهان لطبعة الذيل بدمشق

(٣) راجع محمد بن عبدالقادر فى الدرر لابن حجر ١٣٨/٤ وبروكلمان (الترجمة العربية) ٣٩/٦

(٤) انظر النعيمى عبدالقادر بن محمد فى الكواكب السائرة ٢٥٠/١ والشذرات ١٥٣/٨

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الشام

كان بالشام قبل الفتح الإسلامى العربى لغات متعددة وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها ساميون هم سلالة الشعوب التى نزلتها قديما من أموريين وكنعانيين وفينيقيين وعبرانيين وآراميين ، وكان بها عناصر من شعوب البحر المتوسط فى مقدمتهم الإغريق نزلاؤها منذ فتحها الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٣ قبل الميلاد وخلفته بها الدولة السلوقية الإغريقية لنحو قرنين ونصف . وكان بها سلالات رومية منذ احتلّ الرومان الشرط الأكبر منها فى أواسط القرن الأول قبل الميلاد ، وظلت اليونانية لعهدهم لغة الثقافة ، ودعم ذلك انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما وشرقية عاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتبعتها الشام ، وتألق فيها كما مر بنا غير شاعر ومتفلسف اتخذوا الإغريقية لسانهم وأداتهم فى التعبير الوجدانى والفكرى .

وهيأ كل ذلك لأن تتعدد اللغات فى الشام قبل الفتح العربى الإسلامى ، وكان من أكثرها شيوعا اللغتان اليونانية والآرامية ، ولم نذكر حتى الآن اللغة العربية . مع أن عوامل كثيرة جعلتها تتغلغل فى الشام من قديم ، لا لجواره للجزيرة العربية وموقعه شمالى الحجاز وغربى بادية السماوة فحسب ، بل لقيام ثلاث دول عربية على حدوده وحِفافه الشرقية والجنوبية طوال ثمانية قرون أو تزيد قبل الإسلام ، وهى دول الأنباط وتدمر والغساسنة . وسبق أن ألممنا بها فى فاتحة الفصل الأول ، ونبسط الحديث عنها الآن بعض البسط [1] . أما دولة الأنباط فقد ظهرت على صفحات

---

(١) انظر فى هذه الدول تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على فى مواضع مختلفة من أجزائه وتاريخ العرب مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وكذلك كتابه « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين» ٤١٦/١ ومابعدها ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) ص ١٣ وما بعدها وتاريخ العرب لصالح أحمد العلى الجزء الأول وكتابنا العصر الجاهلى ص ٣٣ وما بعدها .

التاريخ منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، متخذة بطرا عاصمة لها جنوبية . واستطاعت فى مطالع القرن الأول قبل الميلاد أن توسع حدودها شمالا حتى منطقة حوران وجبل الدروز ، متخذة بُصْرَى بالقرب من دمشق عاصمة لها شمالية . ويذكر المؤرخون أنه فى سنة ٨٥ قبل الميلاد احتل الملك الحارث الثانى النبطى دمشق وغوطتها الخصبة ، وبذلك بلغت هذه الدولة ذروة مجدها السياسى ، إذ كانت تضم شمالى الجزيرة العربية وشرقى الأردن وجنوبى فلسطين وسوريا الجنوبية ، ولم يلبث الرومان أن قضوا عليها فى مطالع القرن الثانى للميلاد . والأنباط عرب كانوا يتكلمون العربية فى حياتهم اليومية ، فهم عرب أصلاء ، ولاريب فى أن أنحاء من الشام وخاصة تلك التى سيطروا عليها أخذت تتعرب وتنطق بالعربية لعهدهم . وقد أخذوا عن الآراميين أبجديتهم وكتبوا بها نقوشهم وكلماتها العربية ، ومضى خطهم يتطور فى بيئتهم وشمالى الحجاز حتى بعد زوال دولتهم ، إلى أن نشأ عنه الخط العربى الذى كُتب به القرآن الكريم والذى يتداوله العرب إلى اليوم .

والدولة العربية الثانية تَدْمُر أقامتها القبائل العربية الشمالية بعد سقوط دولة الأنباط داخل بادية السماوة شمالى الجزيرة العربية بين الشام والعراق ، متخذين منها مركزًا كبيرا للتجارة مع بلدان البحر المتوسط وبلدان فارس والهند والصين . وبلغت هذه الإمارة أوج مجدها فى منتصف القرن الثالث الميلادى لعهد أذينة الذى بسط سلطانه على الشام ، مما أتاح للقبائل العربية فى دولته التغلغل فى ديارها ، وكان عاملا فى تعرب بعض سكانها حينئذ ، غير أن الرومان لم يلبثوا أن قضوا على تلك الدولة فى عهد الزباء زوجة أذينة . وبذلك انكمش ثانية التأثير اللغوى العربى فى ديار الشام .

على أنه سرعان ما استعاد هذا التأثير فاعليته فى عهد الدولة العربية الثالثة : دولة الغَساسنة ، وقد أخذت فى الظهور مع سقوط تدمر ، ويرجع النسابون بالغساسنة إلى اليمن وأن قبيلتهم فارقته بعد خراب سَدِّ مَأْرب ، واستقرت فى شرقى الأردن . وشقت – فيما بعد – طريقها شمالا إلى حوران ، واصطدمت فى تلك الأنحاء بقبيلة عربية تسمى الضجاعم تمت لها الغلبة عليها ، وكانت تتجول فى هذه المنطقة الواسعة مع إعلان ولائها للدولة البيزنطية . ويقول النسابون إن جدها الأعلى كان يسمى جَفْنة بن عمرو مُزَيْقياء ، ولذلك يسمى النسابون الغساسنة أحيانًا باسم آل جفنة . وقد اعتنقوا المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد ، مما يدل على عمق صلتهم وامتزاجهم بأهل الشام المسيحيين . وتاريخ ملوكهم غامض ، وأهمهم الحارث بن جبلة (٥٢٨ – ٥٦٩ م .) وقد منحته الدولة البيزنطية لقب فيلارك أى شيخ القبائل وأميرها ، كما منحته لقب البطريق وهو أعظم

الألقاب فى الدولة البيزنطية بعد لقب الإمبراطور . وأهم من ذلك أنه زار بيزنطة واستطاع أن يقنع إمبراطورها وحواشيه بتعيين يعقوب البرادعى أسقفا على الكنيسة المونوفيستية السورية ، وكانت تخالف العقيدة الرسمية للكنيسة البيزنطية . ويقال إن يعقوب رسم مائة ألف كاهن ونَصَّب تسعة وثمانين أسقفا فى البلاد . ومعنى ذلك أن الحارث بن جبلة كان يعد أقوى سيد فى سوريا والشام ، ولذلك دلالته البعيدة فى نفوذ القبيلة بالشام وفى مدى ماحدث حينئذ من تعرب بعض الشاميين وخاصة من رجال الكنيسة اليعقوبية . وكان الغساسنة كثيرى الحركة والتنقل من بقعة إلى أخرى ، وتتردد على ألسنة مادحى ملوكهم من الشعراء ذكر جِلِّق وكانت منازل بالقرب من دمشق على نهر بَرَدى المشتهر ببساتينه ، وأشهر من جِلِّق الجابية وكانت على مسافة يوم من دمشق إلى الجنوب الشرقى .

وإنما أطلنا فى بيان ذلك كله لندل على أن الشام كانت قد أخذت تستعرب منذ قرون عدة قبل الإسلام ، ولاريب فى أن الفتح الإسلامى العربى زاد هذا الاستعراب حدة وقوة ، وخاصة أن قبائل الغساسنة وقضاعة وغيرهما ممن كانوا اعتنقوا النصرانية نبذوا سريعا الدين المسيحى ودخلوا فى الدين الحنيف ، ودخله معهم كثيرون من أهل الشام لما رأوا فى شريعته السمحة من الإنصاف والمساواة بين الناس ومن العدل الذى لاتصلح حياة أمة بدونه . وكان حكامهم البيزنطيون قد أساءوا معاملتهم إلى أبعد حد وساموهم ضروبا من العذاب والخسف وأرهقوهم بالضرائب الفادحة إرهاقا لايطاق ، بينما رأوا حكامهم المسلمين الجدد يرفعون عنهم كل ظلم وكل ثقل فى الضرائب مسوِّين بين كل من يسلم منهم وبين الجند الفاتح فى جميع الحقوق ، غير مستأثرين لأنفسهم بشىء ، مهما يكن قليلا أو تافها . فلاعجب أن يدخلوا فى الدين الحنيف أفواجا .

وقد استوطن الشام كثيرٌ من الجند الفاتحين له ، وكانوا من قبائل مختلفة شمالية وجنوبية ، وظلت الجزيرة العربية ترفدهم بسيول طوال الحقب الأولى للحكم الأموى ، واستقرت منها عشائر وبطون فى بلدان الشام حتى بلدانه الداخلية مثل حمص وطرابلس وبيروت وقيسارية وغيرها من مدن سوريا ولبنان وفلسطين . وبذلك حدث مزج قوى بين العرب المهاجرين وبين أهل الشام لاعن طريق الإقامة والاستيطان فحسب بل أيضا عن طريق المصاهرة والاختلاط اليومى بين الأسر والناس ، مما دفع بقوة إلى استعراب الشام سريعا . وظل من أهم دوافعه دخول الأسر الشامية أو بعض أفرادها فى الإسلام ، إذ جزء لايتجزأ منه تلاوة القرآن ، ولن يستطيع أحد أن يتلوه تلاوة سديدة دون تعلم لغته ، أو بعبارة أخرى دون استعرابه . وربما كان مما يؤكد كثرة من

اعتنقوا الإسلام بعد الفتح مباشرة الخبر الذى مربنا فى الفصل الماضى عن أبى الدرداء قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة أن عدد من كان يشرف عليهم يوميا فى تلاوة القرآن بمسجد دمشق ألف وستمائة ونيف ، وكان وراءهم آلاف مستعربون لايحتاجون إلى من يعلمهم تلاوة القرآن الكريم .

ونظن ظنا أن الاستعراب فى الشام أصبح أمنية أهلها جميعا : من أسلم منهم ومن ظل على دينه المسيحى لسببين مهمين : أولا لتفوق العربية على الآرامية التى كانت شائعة على الألسنة ، إذ لم يكن لها تراث أدبى كالعربية ، ولا كان لها جمالها فى الجرس وحسن الإيقاع ، وثانيا لأن الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها واستعانت بكثير من أهلها المسيحيين فى الإدارة وشئون الخراج والمال ، فأكبّ كثير من المسيحيين على العربية يحاولون أن يتعلموها وأن يتقنوا الأداء بها حديثا وكتابة . وينبغى أن لاننسى ماكان قد حدث من استعراب هذه العناصر المسيحية قبل الإسلام وخاصة بين التجار ورجال الكنيسة اليعقوبية .

وربما كان من أكبر الأدلة على ماكان قد حدث من استعراب كثيرين من أهل الشام الأصليين قبل الإسلام أننا نجد أسرة مسيحية مستعربة تعمل مع معاوية وخلفائه الأمويين فى إدارة الشئون المالية ، ونقصد أسرة سرجيوس (وفى بعض المصادر سرجون) ويُظن أنه كان حاكما لدمشق قبل الفتح العربى الإسلامى واتخذه معاوية مستشارا له فى الشئون المالية مع بقائه معتنقا لدينه المسيحى ، وكان حفيده يوحنا الدمشقى يشرف على الشئون المالية بدوره لعهد عبد الملك بن مروان ، ومازالت هذه الأسرة المسيحية تعاون الخلفاء فى شئون المال والخراج حتى أمر الوليد بن عبد الملك بتعريب الدواوين كما هو معروف .

ومن أكبر الأدلة أيضا على استعراب العناصر المسيحية أننا نجد نفرا منهم يعنى بترجمته ترجمة مبكرة لبعض العلوم اليونانية ، على نحو ماذكر صاحب الفهرست عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه تُرْجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء [١] . ولاشك فى أن هؤلاء المترجمين كانوا مستعربين ، بل كانوا يحذقون العربية حتى استطاعوا أن ينقلوا منها لخالد بن يزيد مانقلوه من المعارف المتصلة بتلك العلوم . ويسمى ابن خلكان فى ترجمته لخالد أحد أولئك المترجمين وهو مريانوس الراهب الرومى الذى أخذ عنه خالد علم الكيمياء أوكما كانوا يسمونه علم الصنعة . ويقول ابن خلكان إن لخالد فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهن ماجرى له مع مريانوس الراهب المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التى أشار إليها [٢] .

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨

(٢) انظر ترجمة خالد فى ابن خلكان ٢/٢٢٤

ولم نتحدث عن اليونانية التى كانت معروفة فى الشام قبل الإسلام ، وأكبر الظن أنها انحازت إلى الأديرة ، وقد رأينا آنفا أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان فى علم الصنعة وماترجم إليه منه براهب رومى ، وأكبر الظن أن الرهبان فى دمشق ومدن الشام من أنطاكية إلى غزة كانوا قد أخذوا فى التعرب ليستطيعوا الحديث إلى مسيحيى الشام المستعربين . ولعل فى كل ما تقدم ما يوضح العوامل الكثيرة التى دفعت إلى تعرب الكتلة الكبرى من أهل الشام مسلمين ومسيحيين .

٢

كثرة الشعراء

يلاحظ أن عرب الشام قبل الإسلام لم يكن لهم نشاط يذكر فى تاريخ الشعر العربى لاعند الغساسنة ولاعند غيرهم من القبائل الشامية ، حتى إذا كانت الفتوح وهاجر كثيرون من القبائل القيسية مثل عامر وسليم إلى فلسطين وسوريا أخذ الشعر ينشط فى الشام وأخذ الشعراء يتكاثرون وخاصة مع الأحداث الكبرى على نحو مايلقانا فى المعارك التى نشبت بعد وفاة يزيد بن معاوية وتولِّى مروان بن الحكم للخلافة بين القبائل اليمنية وفى مقدمتها قبيلة كلب والقبائل القيسية منذ موقعة مرج راهط وغيرها من المواقع . ونلتقى عقب هذه المواقع بشاعرين كبيرين للشام هما عدى بن الرِّقاع العاملى اليمنى والطرماح الطائى اليمنى ، أما عدى بن الرقاع فشاعر عبد الملك بن مروان والخلفاء من بعده ، وله ترجمة فى كتابنا العصر الإسلامى بين شعراء بنى أمية ، وأما الطرماح فنشأ فى الشام ونزل الكوفة مع بعض جيوشها واستقر بها ، واعتنق فيها مذهب الصفرية من الخوارج ، وله ترجمة فى كتابنا المذكور بين شعراء الخوارج .

وكانت الشام طوال عصر بنى أمية تَغَصّ بشعراء الحجاز ونجد والعراق الوافدين على الخلفاء لمديحهم وأخذ نوالهم وعطائهم . ومانبغ شاعر واشتهر فى هذه البيئات إلا رحل إلى دمشق يمدح هذا الخليفة أوذاك ، والخلفاء يُغْدقون على الشعراء جوائزهم وصلاتهم على نحو ماهو معروف عن شعراء العراق : الفرزدق والأخطل وجرير وعبدالله بن الزَّبير وذى الرُّمَّة والعَجَّاج وابنه رُؤْبة . ومثلهم من شعراء الحجاز كثيِّر والأحوص وابن قيس الرقيات . ومدحهم من شعراء نجد كثيرون فى مقدمتهم الراعى النُّمَيْرى . وكان الأمويون يعدُّونهم ألسنتهم ودعاتهم فى بيئاتهم ، فأجزلوا لهم فى العطاء ، وكانوا مايزالون غادين عليهم رائحين بقصائد طنانة يرويها الرواة فى كل مكان بالشام وغير الشام .

وليس ماقدمناه كل ما كان بالشام من نشاط الشعر والشعراء لعهد بنى أمية ، فقد شارك غير خليفة فى هذا النشاط ، إذ كان بينهم شعراء بارعون هم يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، واشتهر الوليد بأنه يعيش للهو والقصف وجلب المغنين والمغنيات من الحجاز وإقامة الحفلات لهم فى قصره ، وشعره يستغرقه الغزل والتغنى بالخمر حتى بعد خلافته ، مما أعدَّ بسرعة لسقوط الدولة الأموية ، وله ترجمة فى كتابنا العصر الإسلامى .

وتنتقل الخلافة فى العصر العباسى إلى بغداد ، ويظل للشام نشاطها فى الشعر ، وهو نشاط لايقف عند مجرد نظمه على طريقة الإسلاميين والجاهليين ، إذ نرى شعراءها يصدرون فى شعرهم عن النزعات التجديدية التى نُظم الشعر العربى على أضوائها فى صدر الدولة العباسية . ومن كبار شعرائها الذين لمعت أسماؤهم فى القرن الثانى الهجرى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى معاصر الرشيد ، وكان من الفَلَجة « من أرض دمشق » ، وترجم له ابن المعتز فى كتابه « طبقات الشعراء » وأشاد بشعره إشادة رائعة . وممن كان يعاصره من الشعراء الشاميين العتَّابى وكان يحتذى – كما يقول الجاحظ – حَذْوَبشار بن برد فى البديع وله ترجمة فى كتابنا العصر العباسى الأول . وعلى غِراره تلميذه منصور النمرى الشامى ، وله أيضا ترجمة فى كتابنا العصر العباسى الأول . وبالمثل فى هذا الكتاب ترجمة لشاعر شامى مهم عاش فى القرنين الثانى والثالث هو ديك الجن. فالشام لم تنشط فى الشعر طوال العصر العباسى الأول فحسب ، بل قدمت إليه أعلام من الشعراء النابهين شاركوا فى نهضته وازدهاره . بل أكثر من ذلك لقد تطورت بصور البديع الحسية التحديدية وأضافت إليها صورا جديدة من بديع وزخرف معنويين رائعين ، وبذلك استحدثت للشعر العربى مذهبا جديدا هو مذهب التصنيع أو التنميق الحسى والفكرى ، على نحو ماهو معروف عن أبى تمام أستاذ هذا المذهب الذى أعطاه صيغته النهائية ، وقد أوضحنا ذلك إيضاحا تاما فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » . وتلاه تلميذه البحترى ، ولم يكن له ثقافته وتعمقه فى النفوذ إلى دقائق الأفكار ، ومع ذلك تمسك بالمذهب وبخاصة جوانب البديع الحسى مع تمسك شديد بمقومات الشعر العربى وتقاليده فى الصياغة ، وكان لايبارَى فى الضرب على قيثارة الشعر العربى واستخراج أروع النغم منها وأحلاه . وأكبَّت الأجيال التالية فى العالم العربى على دراسته ودراسة أستاذه متخذة منه نموذجا للتمسك بعمود الشعر العربى وصياغته ، كما اتخذت من أستاذه نموذجا للبديع الحسى والمعنوى الذى يرضى المتفلسفة والمتعمقين فى المعانى . وانقسم النقاد مع الشاعرين وفنهما إلى صفين متقابلين ، وكل ذلك حاولنا تصويره فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ولأبى تمام ترجمة

فى كتابنا « العصر العباسى الأول » وللبحترى ترجمة فى كتابنا « العصر العباسى الثانى » . ونشرف بعد البحترى على نهاية القرن الثالث ، ولاتزال للعصر العباسى الثانى بقية زمنية ، وفيها يسطع نجم شاعر الطبيعة الحلبى الصَّنَوْبرى وله ترجمة فى كتاب هذا العصر .

ونمضى فى عصر الدول والإمارات ، وقد عُنى بالحديث عن شعراء القرن الرابع الهجرى ومطالع القرن الخامس الثعالبى فى يتيمته ، متحدثا عن الشعراء النابهين فى أقاليمه من أواسط آسيا إلى الأندلس . ويلاحظ فى فواتح كتابه أن كِفَّة الشعر العراقى التى كانت تجعله يرجح على جميع الأقاليم العربية شاما وغير شام قد خفَّت وخلفتها كفة الشام ، إذ يستهل يتيمته بقوله : « الباب الأول من القسم الأول فى فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان وذكر السبب فى ذلك ثم يقول : « لم يزل شعراء عرب الشام ومايقاربها أشعر من شعراء عرب العراق ومايجاورها فى الجاهلية والإسلام .. والسبب فى تبريز القوم قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورتهم للفرس ونبط (فلاحى) العراق ومداخلتهم إياهم .. ورُزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان . . وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين أدوات السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ، ويثيب على الجيد منه فيُجذل ويفضل » . ولسنا نريد أن نناقش الثعالبى فى هذا الحكم ، فإنه – على مافيه من مبالغة – يدل على ماحدث بالشام مع مطالع عصر الدول والإمارات من نهضة شعرية حقيقية تنبىء عنها الأبواب التالية فى اليتيمة ، فقد جعل الثعالبى الباب الثانى لسيف الدولة الحمدانى أمير حلب وشمالىّ الشام وملح شعره وغزواته الحربية المظفرة على لسان شعرائه . وقصر الباب الثالث على أبى فراس الحمدانى الشاعر والفارس المشهور . وخص الباب الرابع بملح أشعار آل حمدان أمراء الشام وقضاتهم وكتابهم . وأفرد الباب الخامس للمتنبى شاعر سيف الدولة المبدع . وجعل الأبواب : السادس والسابع والثامن لبعض المادحين لسيف الدولة من شعراء الشام والعراق .

ومرَّ بنا كيف أن حلب فى زمن سيف الدولة (٣٣٣ – ٣٥٦ هـ) استحالت أكبر مركز علمى وفلسفى ولغوى ، إذ نزلها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين من أمثال الفارابى وأبى على الفارسى وابن جنى غير من كان بها من الأطباء وعلماء الفلك . ولايهمنا الآن بيان ذلك إنما يهمنا أنها أصبحت مركز الشعر والشعراء فى تلك الحقب ، إذ لم يبق شاعر كبير فى الشام أو فى العراق أو فى إيران إلاأمَّها وأسبغ عليه سيف الدولة من نواله ، حتى ليقول الثعالبى إنه لم يجتمع قط بباب أحد

من الملوك – بعد الخلفاء – ماجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر » منهم كُشاجم – ويقال إنه كان طبَّاخة – والخالديان – وكانا خازنى مكتبته – والسّلامى والسَّرى الرفّاء والوأواء الدمشقى والنامى المصيصى وابن نباتة السعدى والببَّغاء ، وكل هؤلاء كانو شعراء ، وترجم لهم الثعالبى ، ووراءهم كثيرون كانوا يفدون على سيف الدولة مادحين ثم يعودون بالعطاء إلى أوطانهم شاكرين مثنين .

ومضت الشام فى نهضتها الشعرية وظهر فيها أمثال عبد المحسن الصورى وأبى الرقعمق والواسانى وجميعهم ترجم لهم الثعالبى ، ويعنى الباخرزى فى دمية القصر بذكر طائفة من شعراء الشام خاصة من مدح منهم الوزير السلجوقى نظام الملك ، وترجم لأبى العلاء المعرى وابن سنان الخفاجى تلميذه ترجمة قصيرة . وبعض من ترجم له ألم به العماد الأصبهانى فى الخريدة . ولمْ يُعن أحد من أصحاب التراجم الشعرية بشعراء النصف الثانى من القرن الخامس ومطالع القرن السادس ، ومن أعلام الشعراء الشاميين فى تلك الحقبة ابن حَيُّوس وله ديوان ضخم فى مجلدين .

ويعرض العماد الأصبهانى فى خريدة القصر تراجم مستفيضة لنحو مائة وثلاثين شاعرا جمهورهم من شعراء القرن السادس حتى زمن كتابته أو تأليفه للخريدة فى أوائل العقد الثامن من القرن ، وهم يشغلون ثلاثة أجزاء ، أولها خاص بشعراء دمشق والشعراء الأمراء من بنى أيوب ، ونراه فى مطلع هذا الجزء يشيد بشعر الشاميين ويرفعه درجات على شعر أهلى العراق ، بالضبط كما صنع الثعالبى ، يقول : « شعر الشاميين أصح وزنًا ، وأسحُّ مُزنًا ، وأمتن صيغة ، وأحسن صبغة ، وأحكم صنعة ، وأسلم رقعة ، وأرفع نسجا ، وأنفع مزجا ، وأقوم معنى ، وأحكم مبنى » ويُشيد بطائفة من قدمائهم مثل البحترى وأبى تمام وطائفة من محدثيهم بعدهما مثل عبد المحسن الصورى وابن سنان الخفاجى وابن حيوس ، وكأنى به نسى أبا العلاء عامدا لشهرته الواسعة . ويترجم فى هذا الجزء لابن الخياط الدمشقى تلميذ ابن حيوس وديوانه مطبوع . وتلا العماد ذلك بجزء اشتمل على خمسة وأربعين شاعرا بينهم أهم من أنجبتهم الشام فى القرن السادس الهجرى من الشعراء أمثال الغزى وابن منير الطرابلسى والقيسرانى وعرقلة وديوانه مطبوع وفتيان الشاغورى وديوانه مثله مطبوع وابن قُسيم الحموى وأسامة بن منقذ وديوانه مطبوع . ويتبع ذلك جزء به نحو ثمانين شاعرا عرض فيه العماد بيوتا وشعراءها كبيت آل المعرى وبيت بنى الدويدة وبيت بنى الحُصَين ، ويذكر طائفة من شعراء حلب ربما كان أهمها حماد الخرَّاط . وكأن العماد لم يترك فى الشام لزمنه شاعرا كبيرا ولاصغيرا إلا ترجم له .

واهتمت كتب التاريخ والتراجم بشعر اء الشام بعد زمن العماد فى أيام الأيوبيين والمماليك والعثمانيين ، وفى مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى والوافى بالوفيات للصفدى ومطالع البدور للغزولى والدرر الكامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوى وريحانة الألبا للخفاجى ونفحة الريحانة للمحبى وسلك الدرر للمرادى . فكل هذه الكتب تحمل عشرات من شعراء الشام فى حقب وأزمنة مختلفة ، وكثير من نابهيهم فى تلك الأزمنة والحقب أيام الأيوبيين ومن بعدهم لهم دواوين مطبوعة مثل ديوان ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين الأنصارى وأيدمر المحيوى والشاب الظريف وأبيه عفيف الدين التلمسانى وابن الوردى وابن النقيب الدمشقى ، وتموج رفوف المكتبات فى العالمين العربى والغربى بدواوين كثيرة لشاميين لاتزال مخطوطة .

٣

شعر دورى – رباعيات – موشحات – بديعيات – تعقيدات

(١) الشعر الدورى

منذ ابتدع الشعراء فى العصر العباسى الأول الشعر المزدوج الذى يتكون من شطرين متقابلين ، وتتوالى فيه الشطور المتقابلة ، والشعراء يكثرون منه فى جميع الأقاليم الإسلامية ، وهيأ ذلك لظهور أنماط مختلفة من الشعر الدورى الذى تتكون فيه القصيدة من أدوار متعاقبة ، ويغلب أن يكون كل دور بيتين ، وتقل الأدوار وتكثر حسب رغبة الشاعر . وتفرّع عن هذا النمط من قديم عند أبى نواس وأضرابه نمط المسمطات وعادة يتكون الدور فيه من أربعة شطور يليها شطر خامس تتحد قافيته فى كل الأدوار ، بينما تتنوع القوافى فى الشطور الأربعة السابقة له من دور إلى دور ، وكأن الشطر الخامس بقافيته المكررة ياقوتة فى عقد تلتقى عندها أسلاكه المختلفة ، وتسمى هذه القافية المكررة عمود القصيدة . وكلما تقدمنا فى العصر كثرت هذه المسمطات ، وهى قد تكون رباعية بمعنى أن قافية الشطر الرابع هى المكررة ، وقد تكون خماسية كما ذكرنا ، وقد تكون سباعية أو تساعية ، وممن عنى بالنظم فيها أسامة بن منقذ ففى ديوانه منها أربعة مسمطات خماسية ، ومن قوله فى أحدها [١] :

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ (طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة) تحقيق الدكتور أحمد بدوى والدكتور حامد عبد المجيد ص ٤٠ .

كم رُضْتُ نفسىَ بالسلوان فامتنعتْ   وكم أضاعوا مواثيقَ الهَوَى ورَعَتْ
ومانقمتُ عليهم غدرةً فصغتْ[1]   ولا أضعتُ لهم عهدا ولا اطَّلعتْ
على ودائعهم فى صدرىَ التُّهَمُ

وقافية الشطر الأخير مكررة فى الشطر الخامس من كل دور ، وواضح أن المسمط خماسى الشطور ، وتلقانا أمثلة للمسمطات فى دواوين ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين الأنصارى وأيلمر المحبوى زمن الأيوبيين ، ومضى الشعراء فى الحقب التالية يكثرون منها وخاصة صلاح الدين الصفدى ، ونظل نلتقى بها فى الحقب المتأخرة .

(ب) الرباعيات

معروف أن الرباعية أربعة شطور تؤلِّف بيتين ، وتتحد الشطور : الأول والثانى والرابع فى القافية وقد يتحد مع تلك الشطور الشطر الثالث فى القافية وقد يختلف . وللرباعية وزنان هما : « فَعْلن فعلن مستفعلن مستفعلن » و « فعلن متفاعلن فعولن فعلن » وقد أخذت تشيع على ألسنة الشعراء فى هذا العصر وخاصة منذ القرن السادس ، نجدها عند ابن قُسَيم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ للهجرة وعند عرقلة المتوفى سنة ٥٦٧ وفى خاتمة ديوانه منها اثنتا عشرة رباعية ، منها قوله :

ويلاه على المهفهف المَيَّاسِ   ما أحسنه ولو بقلبٍ قاسِ
يهتزُّ كأنه قضيبُ الآسِ   سكرانَ ولم يَذُقْ حميًّا الكاسِ

وذكر ابن خلكان أنه كان للعماد الأصبهانى ديوان صغير جميعه دُوبَيْتات أو رباعيات ، وطائفة فيها كانت بلسان نور الدين فى الحث على جهاد حملة الصليب وتمزيق جموعهم ، من مثل قوله[2] :

لا راحةَ لى فى العيش إلا أغزو   سيفى طربًا إلى الطُّلَى يهتزّ[3]
فى ذلّ ذوى الكفر يكون العزُّ   والقدرةُ فى غير جهادٍ عَجْزُ

---

(١) صغت : مالت

(٢) الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة (طبع مطبعة وادى النيل) ١/٢٠٧ .

(٣) الطلى : جمع طلاة أو طلية : العنق أو صفحته .

وكان لفتيان الشاغورى المتوفى سنة ٦١٥ ديوان جميع مافيه دوبيتات ، رآه ابن خلكان وأنشد منه فى ترجمته قوله :

الوردُ بِوَجْنتيك زاهٍ زاهرْ والسِّحْرُ بمقلتيك وافٍ وافرْ
والعاشقُ فى هواك ساهٍ ساهرْ يرجو ويخاف فَهْوَ شاكٍ شاكرْ

ونظل نلتقى بالرباعيات فى دواوين الشعراء أيام المماليك بل أيضا أيام العثمانيين عند حسن البورينى وبهاء الدين العاملى وعبد الغنى النابلسى وغيرهم من الشعراء[1] وحين شاعت التورية بثها الشعراء فى رباعياتهم كقول على بن المظفر الوداعى الحلبى المتوفى سنة ٧١٦ متغزلا[2] :

لمّا حُجب الكَرَى عن الآماقِ وانقاد مع العِدَا على العُشَّاقِ
ناديتُ وقد تزايدتْ أشواقى ياغُصْنُ رضيتُ منك بالأوراقِ

والتورية واضحة فى كلمة الأوراق ، إذْ لها معنيان قريب وهو أوراق الغصن وبعيد وهو أوراق الرسائل المتبادلة بينه وبين صاحبته ، وهو المراد .

(جـ) الموشحات

الشائع المعروف أن الموشحات من اختراع الأندلسيين وأنهم سبقوا إليها المشارقة ، ومعروف أنها تتألف من شطور تسمى قفلا وشطور تليها تسمى أداورا أو أغصانا ، ومن خَرْجةٍ يسمَّى بها القفل الأخير فى الموشحة . ومن ينعم النظر فيها يؤمن بأنها تطورت من أشكال المسمطات ، واستقلت بهذه الصورة ، ويبالغ المستشرقون الإسبان – خاصة – قائلين إنها فن أندلسى خالص تطور عن أغان رومانسية كانت معروفة فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ولم يقدموا أغنية واحدة تشهد لذلك ، بينما يوجد لدينا شكل من أشكال المسمط نظمه ديك الجن الحمصى المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة نظن ظنا أنه الأب الحقيقى للموشحات الأندلسية إذ يجرى على هذا النمط[3] :

قولى لِطَيْفك يَنْثَنِى عن مصجعى عند المنامْ

---

(١) انظر مثلا ريحانة الألبا للخفاجى ٢١/١ ، ١٠٤/١

(٢) خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص ٣٤٤

(٣) خزانة الأدب للحموى ص ٩٧

عند الرُّقَادْ عند الهجوعْ عند الهجودْ عند الوَسَنْ
فعسى أنامُ فتنطفى نارٌ تأجَّجُ فى العظامْ
فى الفؤادْ فى الضلوعْ فى الكبودْ فى البَدَنْ

ويستمر المسمط الموشح على هذا النمط ، وواضح أنه نشأ من فكرة بسيطة هى تكرار قافية البيت بروىٍّ جديد . وكأنما وقع هذا المسمط الغريب أوقل هذا الموشح الفريد لمقدم بن معافى شاعر الأمير الأندلسى عبد الله بن محمد المروانى (٢٧٥ – ٣٠٠ هـ) فنظم على صورته بعض منظوماته وكُتب لهذه الصورة عنده أن تشيع بعده فى الأندلس باسم الموشحات على نحو ماأوضحنا ذلك مرارا فى كتاباتنا . وحملها إلى المشرق الأندلسيون المهاجرون إلى مصر والشام ووضع لها ابن سناء الملك قوانينها الموسيقية فى كتابه « دار الطراز » وبذلك فتح أبواب تلك الموشحات على مصاريعها للمشارقة كى ينظموا على غرارها منذ زمنه فى أواخر القرن السادس . وأيضا فإنه كان قد نزل الشام بعض الأندلسيين من ناظميها ، فكانوا من أسباب إشاعتها مثل عبد المنعم الجليانى الأندلسى الطبيب نزيل دمشق فى زمن صلاح الدين وظل بها إلى وفاته ، وله فيه مدحة سميت التحفة الجوهرية ، ويقول ابن أبى أصيبعة : له « ديوان غزل وتشبيب وموشحات ودُوبَيْتات » أو رباعيات . ونظل فى زمن الأيوبيين والمماليك نلتقى بوشاحين مختلفين . وللصلاح الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ كتاب فى الموشحات سماه : توشيع [١] التوشيح ذكر فيه إحدى وستين موشحة من عيون الموشحات الأندلسية والمصرية والعراقية والشامية ، وذكر موشحا طريفا لشمس الدين محمد بن على الدهان ، ويقول ابن شاكر إنه كان يحترف صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق وكان على علم بالموسيقى والألحان ، فكان ينظم الشعر ويلحنه ويغنى فيه المغنون [٢] ، ويسوق نفس الموشح الذى ذكره الصفدى ، ويستهله بقوله :

بأبى غُصْنُ بانةٍ حملا بَدْرَ دُجًى بالكمال قد كملا أَهْيَفْ
فريد حُسْنٍ ماماس أوسفرا
إلا أغار القضيبَ والقمرا
يُبْدى لنا بابتسامه دررا

(١) حقق هذا الكتاب ألبير مطلق ونشره بدار الثقافة ببيروت .

(٢) راجع ترجمته فى فوات الوفيات ٤٩٢/٢ والوافى ٢٠٩/٤ وانظر فهرس عقود اللواجى

والموشح وافر الموسيقى واللحن والنغم . وذكر الصفدى بجانب هذا الموشح موشحا لجمال الدين يوسف الصوفى الخطيب المعاصر له ، وهو يفيض بالعذوبة وجمال اللفظ والصور كقوله :

ساحرٌ بالدلالْ   ساخرٌ بالصَّبِّ   فائقٌ فى الكمالْ   لائقٌ بالحبِّ

بِشَـذَا المسك فـاحْ ثـغـرُ هـذا الـغزالْ
بـاسـمٌ عن أقـاحْ كـفـريـدِ اللآلْ
ردَّ نورَ الصبـاحْ كـظلام الـلـيـالْ

وأنشد الصفدى لنفسه فى كتابه سبعًا وثلاثين موشحة ، وكثير منها معارضات لموشحات مشهورة لأندلسيين وغير أندلسيين ، وقلما يحلِّق إلى أفق الموشحات التى يعارضها ، ويغلب التكلف على موشحاته ، وفى أحيان قليلة يَسْلس فى بعض الموشحات وبعض المقاطع كقوله فى معارضة موشحة لابن اللبَّانة الأندلسى :

بات بَدْرى وهْو معتنقى أحتسى فاهُ وأرتشفُ
وبـه أمسـيت مـتَّـحـدا
بـعـد مـاقـد كـنت مـنـفـردا
وغـدا بـدر السما كَـمِـدَا

وقد أنشد النواجى فى كتابه عقود اللآل ثمانى موشحات لابن حبيب الحلبى وموشحين لابن حجة الحموى[١] .

ويلقانا وشاحون مختلفون فى زمن العثمانيين على نحو مايذكر المحبى عن أبى بكر العمرى وأبى بكر العصفورى [٢] . ولابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١ موشح استلهم فيه موشحا مشهورًا للسان الدين ابن الخطيب استهله بقوله[٣] :

ياليالى السَّفْح من عهد الصِّبا   ياسَقَى مغناكِ صوبُ الدِّيَمِ
كم تسرَّقتُ بها بين الرُّبَى   خُلَسًا مرَّتْ كطيفِ الحلُمِ

(١) انظر فهرس عقود اللآل للنواجى
(٢) نفحة الريحانة للمحبى ٢٢/١ ، ٢٥٤
(٣) ديوان ابن النقيب نشر المجمع العلمى العربى بدمشق ص ٢٦٣

وتكثر الموشحات الصوفية عند عبد الغنى النابلسى كثرة مفرطة . ونقف قليلا عند وشّاحَيْن مهمين هما أيدمر المحيوى والمحّار الحلبى .

أيدمر المحْيَوىّ(١)

لانعرف شيئًا عن نشأة هذا الشاعر ومرباه ، وكل مابأيدينا عنه أنه عتيق محيى الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى وزير الجزيرة لسلاطينها من الأيوبيين ، وقد طبعت له دار الكتب المصرية مختارات من ديوانه ، وهو فيها يمدح الملك الكامل سلطان مصر مشيدًا بانتصاره على حملة الصليب فى موقعة دمياط سنة ٦١٨ . وكان يسكن دمشق ويزور مصر كثيرا وله مدائح فى الصالح نجم الدين أيوب حين كان يلى شئونها منذ سنة ٦٣٦ إلى سنة ٦٤٧ ويبدو أنه لم يعش بعد هذا التاريخ طويلا ، وله غزليات وأشعار طريفة فى الطبيعة ، وله – بجانب ذلك – موشحان فى المديح يستهلها بغزل بديع ، وقد عارض فى موشحه الأول ابن زهر فى موشح له مشهور ، ومن قوله فيه على نسَقه .

هزَّ عِطْفَ الغصن من قامتِهِ
مُطْلِعا للشمس من طلعتِهِ
ثم نادى البدرَ فى ليلته
أيها البدرُ تغيَّبْ وَيْحَكا ما احتياجُ الناس للبدر معى

وعذوبة موسيقاه واضحة فى هذا الموشح ، وكان يضيف إليه فى أحيان كثيرة محسنات البديع من طباق وجناس وتورية ، ولاتفارقه هذه العذوبة حتى حين يجنح إلى التكلف على نحو مانلقاه فى موشحه الثانى وفيه يقول :

بات وسُمَّاره النجوم ساهرْ فمن تُرَى علَّمكِ السُّهْدَ ياجفون
صبا إلى مذهب التصابى صابى لايعدل
فجَنْبه خافق الجنابِ نابى مُبَلْبل
والطَّرْف من دائم انسكاب كابى مخَبَّل

(١) انظر فى أيدمر فوات الوفيات ١٤٠/١ والانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق (طبع مطبعة بولاق) ١٠٩/٤ وخطط المقريزى (طبعة دار التحرير) ٧/٢ وديوانه طبعته دار الكتب المصرية .

وواضح أنه بدأ موشحه بالدور أو الغصن لابالقفل ، وتلا القفل بالدور فى ثلاثة أبيات ، وكل بيت مكوَّن من ثلاثة أجزاء ، الجزء الثانى مستخرج من آخر الجزء الأول ، فصابى مستخرج من التصابى وبالمثل نابى مستخرج من الجناب ، وكابى مستخرج من انسكاب . وهو تكلف واضح ولكنهم كانوا يعدونه فى الموشحات والأشعار آية براعة فائقة .

المحّار (١) الحلبى

هو سراج الدين عمر بن مسعود الحلبى الملقب بالمحار لأنه نشأ يَمْحر الكتان أى يغسله ويبيضه ثم اشتغل بالأدب والشعر ومهر فيهما ، ففارق موطنه حلب إلى حماة ورعاه صاحبها الملك المنصور (٥٨٧ – ٦١٧ هـ) إلى أن توفى بدمشق سنة ٧١١ . وربما كان أروع وشاح أنجبته الشام على مر الأزمنة والحقب ، ومن موشحاته المشهورة موشحة عارض بها أيدمر المحيوى فى موشحته المذكورة آنفا ويستهلها على هذا النمط :

ماناحت الوُرْقُ فى الغصونِ إلاَّ هاجتْ على تَغْريدها لوعةَ الحزين

هل مامضى لى مع الحبايبْ آيبْ بعد الصدودْ
أوهل لأيامنا الذواهب واهبْ بأنْ تعودْ
بكل مصقولة الترّائبْ كاعبْ هَيْفاء رُودْ

والموشح يموج على هذه الشاكلة بعذوبة الجرس وجمال الإيقاع والنغم رغم محاولة المحار فيه أن يستخرج الجزء الثانى فى الدور من آخر كلمة فى جزئه الأول ، فقد كان من القدرة على حسن التلحين لكلماته بحيث لايقف دونه أى عائق ، بل إن العائق نفسه يصبح إكمالا بديعا للتلحين والتنغيم على نحو مايتضح فى كلمات « آيب – واهب – كاعب » . . ولايقل عن هذه الموشحة عذوبة ورشاقة وحلاوة فى النغم موشحته التى عارض بها موشحة أحمد بن الحسن الموصلى المار ذكره فى العراق ، افتتحها بقوله :

مذشِمْتُ سَنا البروق من نعمانِ باتت حَدقى

(١) انظر فى المحار فوات الوفيات ٢١٩/٢ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ والنجوم الزاهرة ٢٢١/٩ والوافى ٢٨٠/٤ وانظر توشيع التوشيح للصفدى إذ توارد مع صاحب الفوات على أربعة من الموشحات وانظر عقود اللآل رقم ٥٢ ، ٧٦

تُذْكى بمسيل دمعها الهتَّانِ نارَ الحُرَق[١]

ما أومض بارقُ الحِمَى أو خَفَقَا

إلا وأجَدَّ لى الأسى والحُرَقا

هذا سببٌ لمحنتى قد خُلقا

وتصويره لمسيل الدموع المتدفق بأنه يضرم نار الحرق تصوير بديع . وموشحات المحّار على هذا النمط تمتع الأذن والقلب والخيال بصفاء موسيقاها ورقتها ومايُطْوَى فيها من جمال التصاوير .

(د) البديعيات

مرَّ بنا أن الشام – منذ أواخر القرن الثانى الهجرى – تطورت بصور البديع الحسية التجديدية من جناس وطباق وتصاوير إلى إشراك صور جديدة معها من زخرف الفكر ووشيه على نحو ماهو معروف عن أبى تمام ، نافذة بذلك إلى إرساء مذهب جديد فى فن الشعر سميته فى كتاب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » باسم مذهب التصنيع أى التنميق الناشئ عن استخدام محسنات البديع المعروفة وأيضا عن استخدام طرائف فكرية لاتكاد تُحصَى . وتبع البحترى – كما ذكرنا – أستاذه أبا تمام فى المذهب ولم تكن له ثقافته الفلسفية ولا بعد غوره فى الأفكار . وكان أبو تمام يكثر من الجناس فلم يتابعه البحترى فى هذا الإكثار وإن ظل يستخدمه كما يستخدم الطباق والتصاوير من تشبيهات واستعارات . ونجد الجناس بعده على كل لسان فكل شاعر شامى يحاول أن ينفذ فيه إلى أبيات بديعة كقول أبى فراس الحمدانى[٢] :

وما السلافُ دهتْنى بل سَوَالِفُهُ ولا الشَّمول دهتْنى بل شمائلهُ

ولعل شاعرًا شاميًّا لم يكثر من استخدام الجناس كما أكثر أبو العلاء ، وسنراه يدخل عليه ألوانًا من التعقيد سنعرض لها عما قليل ، وكان يعاصره ابن حَيُّوس المتوفى سنة ٤٧٣ وكان يتابع أبا تمام فى الإكثار من المحسنات البديعية جناسا وغير جناس . ونرى العماد الأصبهانى فى الخريدة يتوقف مرارًا ليثبت على هذا الشاعر أو ذاك كثرة استخدامه للجناس ، وسجَّل ذلك مرارًا على الشعراء

(١) تذكى : تضرم .

(٢) الديوان تحقيق . د . سامى الدهان (طبع المعهد الفرنسى بدمشق) ٢/٣٠٢

الثلاثة الذين افتتح بهم الجزء الأول من شعراء الشام وهم الغزى وابن منير والقيسرانى وفيه يقول : « صاحب التطبيق والتجنيس ، وناظم الدر النفيس » [(١)] . وعلى شاكلتهم شعراء الخريدة لافى استخدام الجناس وحده بل فى استخدام المحسنات البديعية جميعا ، وكذلك من تلاهم من الشعراء الشاميين .

وكانت قد تكونت بمصر منذ أواخر أيام الفاطميين مدرسة حملت لواء المحسنات البديعية وأشاعتها فى شعرها ونثرها مضيفة إليها لونا جديدا هو لون التورية الذى يصور مزاج المصريين وميلهم من قديم إلى النكتة ، وكان من السابقين إلى حمل هذا اللواء بأخرة من الدولة الفاطمية ابن قادوس وابن قلاقس ، وحمله بعدهما القاضى الفاضل وابن سناء الملك وغيرهما . وكانت ديار الشام جميعها توحدت مع مصر لعهد صلاح الدين ، وسرعان ماوجدنا ذوق هذه المدرسة المصرية يعم بلدان الشام ، كما لاحظ ذلك الصفدى ونقله عنه ابن حِجَّة الحموى فى خزانته إذ ذكر السابقين فى المدرسة من شعراء مصر ثم قال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم وتأزَّرَ نصرهم » وعدَّ منهم سيف الدين المشد المتوفى سنة ٦٥٦ والشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة المتوفى سنة ٦٦٢ وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ ومجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ والشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف المتوفى سنة ٦٨٨ ومحيى الدين بن قُرْناص الحموى المتوفى سنة ٧١٢ وتمثل ابن حجة فى خزانته بأشعارهم فى محسنات البديع المختلفة وفتح لكل منهم فصلا طريفا فى باب التورية ، واستطاعوا فى أحوال كثيرة أن يجعلوا لتورياتهم نفس خفة الروح التى تلقانا فى توريات المصريين مثل قول ابن لؤلؤ[(٢)] :

يمرُّ بى كلَّ حينٍ وكلما مرَّ يحلو

وهو لايريد « مر » من المرور وهو المعنى المتبادر لكلمة يمر فى أول البيت ، وإنما يريد مرًّ من المرارة عكس الحلاوة ، وهو المعنى البعيد ، ومثل قول مجير الدين بن تميم[(٣)] :

أياحُسْنَها من روضةٍ ضاعَ نَشْرُها فنادتْ عليه فى الرياضِ طيورُ

ولضاع معنيان : أولها من ضاع الزهر يضوع إذا فاحت رائحته ، وثانيهمامن ضاع الشيء

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٩٦/١

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٨

(٣) فوات الوفيات ٥٤٢/٢

يضيع إذا فُقد والأول المراد . ومثل قول الشاب الظريف وقد احتجب بعض أصحابه عنه [١] :

ولقد أتيتُ إلى جَنابك قاضيا باللَّثم للعتَبات بعضَ الواجبِ
وأتيت أقصد زورةً أحْظَى بها فُرِدِدْتُ - ياعيني - هناك بحاجبِ

وواضح أنه ليس المراد حاجب العين ، وإنما البوّاب المشرف على الزيارة . وتظل التورية شائعة على ألسنة الشاميين ، ويشيد الحموى فى خزانته باستخدام الوداعى على بن المظفر المتوفى سنة ٧١٦ لها وإكثاره منها كقوله [٢] :

قال لى العاذلُ المفنِّدُ فيها يومَ وافتْ فسلَّمتْ مُخْتالَهْ
قم بنا ندَّعى النبوَّةَ فى العشـ ـق فقد سلَّمتْ علينا الغَزاله

وللغزالة معنيان : معنى قريب وهو الشمس ومعنى بعيد وهو صاحبته الجميلة التى تشبه الغزالة وهو المراد .

ويتتبع ابن حجة ماأخذه ابن نباتة من موائد التورية عند الوداعى ، وبالمثل يتتبع ماأخذه الصفدى من ابن نباتة من توريانه البديعة ، وكان الصفدى يعنى عناية شديدة باصطناع المحسنات البديعية وخاصة التورية والجناس ، وله فيهما كتابان .

ومضى شعراء الشام - بعد الصفدى - كشعراء مصر يعنون بتلك المحسنات بقية زمن المماليك ، يشترك فى ذلك فتح الدين بن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ وعلى بن أيبك الدمشقى المتوفى سنة ٨٠١ وابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ وابن حِجَّة الحموى صاحب الخزانة المتوفى سنة ٨٣٧ . ويطرد اصطناع المحسنات البديعية فى أيام العثمانيين ، ومن أهم ألوانها الاقتباس من القرآن الكريم وتضمين شطور أو أبيات فى قصيدة الشاعر لشعراء سابقين ، وقد اقتبس الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى فواصل « سورة الشمس » فى قطعة غزلية له مستهلا لها بقوله [٣] .

قسمًا بِشَمْس جَبينهِ وضُحاها ونهارِ مَبْسِمهِ (إذا جَلاَّها)

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٣٤
(٢) الخزانة ص ٣٤٣
(٣) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصارى (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق - تحقيق د . عمر موسى) ص ٥١٥

وتوالت قوافيه : (يَغْشَاها – زَكَّاها – تَقْوَاها – أَشْقَاها).ومن طريف الاقتباس فى الغزل قول فتح الدين بن الشهيد [١] :

فى صدرها رُمَّانُ نَهْدٍ زانَهُ حَلْيٌ (يُوَسْوِسُ فى صدور الناسِ)

ويريد بوسوسة الحلى صوته الخفى ، واقتبس – كما هو واضح – آية سورة الناس ومافيها من الاستعاذة من الشيطان الوسواس بما لانفع فيه الذى (يوسوس فى صدور الناس) . وأكثر الشعراء من التضمين لأبيات المتنبى وغير المتنبى من كبار الشعراء ، كقول مجير الدين بن تميم مضمنا لبيت من أبيات المتنبى فى وصفه لزهر اللَّوز إذ يقول [٢] :

أزهرَ اللَّوْزِ أنت لكلِّ زهرٍ من الأزهار يأتينا إمامُ
« لقد حَسنتْ بك الأيام حتى كأنك فى فَمِ الدهرِ ابتسامُ »

وعُنى كثيرون باقتباس الشطور الثوانى من معلقة امرئ القيس وتضمينها فى قصائدهم . وسنلتقى بأمثلة كثيرة من ألوان هذه البديعيات فى ترجماتنا للشعراء .

(هـ) التعقيدات

إذا كانت الشام نفذت – على لسان أبى تمام – إلى ابتكار مذهب التصنيع والتنميق فى الشعر العربى ، فإنها هى أيضا التى نفذت إلى ابتكار مذهب التصنع والتعقيد فى الشعر أو قل هى التى أعطته صيغته النهائية ، فقد أخذ الشعراء – منذ أوائل هذا العصر – يتكلفون فى صورهم البيانية ومحسناتهم البديعية ألوانا شتى من التكلف عرضناها فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ومانصل إلى أبى العلاء المعرى حتى يبلغ هذا التصنع أقصاه فى ديوانه : « لزوم مالا يلزم » وهو فى مجلدين ضخمين . والقصائد فيه تنتظم حروف المعجم حرفًاحرفا ، وفى كل حرف يأتى بالروى ساكنا ومتحركا بالحركات الثلاث : الضمة والفتحة والكسرة ، والتزم مع كل روى حرفا معينا يسبقه كالباء والتاء وغيرهما . وبذلك أصبح لقصائد هذا الديوان الضخم رويَّان يلزمانها فى حتمية شديدة . وليس هذا كل مافى الديوان من تعقيد ، فقد يكون ذلك أخف مافيه من ألوانه ، إذ نراه يعنى فيه بعرض كلمات غريبة لاتكاد تحصى ، وشغف بالجناس وعقَّده بدوره إذ طلبه بين القافية

(١) الخزانة ص ٤٠٤ (٢) الخزانة ص ٤٧٣

وما يسبقها من كلمات البيت ، بل لعله ظن ذلك لايزال شيئا سهلا فطلب أن يكون بين أول كلمة فى البيت وبين القافية كقوله [١] :

أَشْراكَ ذَنْبُك والمهيمنُ غافرٌ ماكان من خطأٍ سوى الإشراكِ

ومعنى أشراك : أغراك وأوقعك فى الإثم . ويكثر هذا الجناس المعقد فى لزوم مالايلزم أو فى اللزوميات ، ولايكتفى أبو العلاء بِعُقَد الجناس واللفظ الغريب والروى المتعدد بل يطلب عُقَدًا أخرى من ألفاظ الثقافات ومايتصل بها من اصطلاحات الفلسفة والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل من فلك وغير فلك وعلوم العربية من عروض وغير عروض مثل [٢] :

بقائى الطويلُ وغَيِّىَ البسيطُ وأصبحتُ مضطربا كالرَّجَزْ

والطويل والبسيط والرجز من بحور الشعر وأوزانه كما هو معروف ، والرجز أكثرها اضطرابا لكثرة مايجرى فيه من زحافات وعلل .

ولعل فى ذلك مايوضح كيف أرسى أبو العلاء فى الشام مذهب التصنع والتعقيد الشديد وكيف رفعه على دعائم متينة لافى قصيدة واحدة أو فى قصيدتين ، بل فى ديوان كبير . وتبعه شعراء الشام لاينظمون دواوين مثله يلتزمون فيها مالا يلزم من اللوازم التى التزمها جميعا ، ولكنهم يستخدمونها فى الحين بعد الحين كقول ابن حَيّوس متغزلا [٣] :

أوصابُ جسمى من جِناية بُعْدكم والصبرُ صَبْرٌ بعدكم أو صابُ

فقد جانس بين أول كلمة فى البيت وبين القافية المكونة من حرف العطف « أو » وكلمة صاب مثل كلمة صبر أى مُرّ . وعلى هذه الشاكلة قول ابن عُنَيْن [٤] :

خبَّروها بأنه ما تَصَدَّى لسلوٍّ عنها ولو ماتَ صَدًّا

والجناس واضح بين آخر الشطر الأول والقافية ، وهو فيها مكون من كلمتين . ويكثر ذلك عند شعراء العصر حتى نهايته زمن العثمانيين . ويقول الحموى فى خزانته : «كان الشيخ صلاح

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف الطبعة العاشرة) ص ٤٠١

(٢) نفس المصدر ص ٤٠٣

(٣) الديوان ٥٨/١

(٤) الديوان (تحقيق خليل مردم طبع دار صادر) ص ٤٩

الدين الصفدى يستسمن ورمه ويظنه شحما فيشبع أفكاره منه ويملأ بطون دفاتره (شعرا ونثرا) ويأتى فيه بتراكيب تخفُّ عندها جلاميد الصخور » . ويسوق من هذه الجلاميد أمثلة لعل أخفها قول الصفدى[1] .

وكم شِمْتُ لما قِسْتُ مقدار وُدِّكم بوارقَ يأْسٍ فى بَوارِ قياسِ

والجناس فى الشطر الثانى ، وهو مركب من كلمتين يختلفان معنى وبناء كما هو واضح ، وفيه غير قليل من الثقل فما بالنا بما وراءه من أمثلة ساقها الحموى للصفدى . ولانعدم أن نجد بين الشعراء مَنْ يزرى على هذا التصنع الشديد لجناسات كأنها قطع الصخر كما يقول الحموى مما يجعلها تصك الآذان صكا عنيفا ، ولعله لذلك حمل زين الدين بن الوردى معاصر الصفدى المتوفى سنة ٧٤٩ على من يجعل الجناس له مذهبا فى نظمه ، يقول ناصحا شعراء عصره[2] :

إذا أحْببتَ نظمَ الشعرِ فاخترْ لنظمك كلَّ سهلٍ ذى امتناعِ
ولاتَقْصدْ مجانسةً ومكِّنْ قوافيَه وكِلْهُ إلى الطِّباعِ

وقليلون هم الذين استمعوا إلى نصحه إذ أصبح التصنع منذ زمن أبى العلاء فى القرنين الرابع والخامس ظاهرة عامة تشمل جمهور الشعراء إلا من ندر ، ولهم فى ذلك كثير من الأفانين . وينشد العماد الأصبهانى فى خريدته صورا كثيرة من هذه الأفانين ، وخاصة عند ابن قُسَيم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ وهو شاعر نور الدين وأبيه عماد الدين ، وبدأ العماد بصورة معقدة من تصنعه فى القوافى إذ نظم أبياتا على خمس قواف ، يقول فيها مادحا[3] :

قل للأمير أخى النَّدى والنائلِ الهطَّالِ للشعراء والقُصَّادِ
لازلتَ تنتهكُ العِدا بالذابلِ العَسالِ فى الاحشاءِ والأكبادِ
ووُقِيت من صَرْف الرَّدَى والنازلِ المغتالِ للأعداءِ والحسَّاد

وواضح أنه يمكن أن تُفْصَل الشطور الأولى من كل بيت وحدها وأن يضاف لكل منها الكلمة التالية أو الكلمتان أو الأربعة ، ومع كل صورة يتكون بيت مستقل ، وهى مهارة تصور قدرة على

---

(١) الخزانة ص ٢٦
(٢) الخزانة ص ٢٧
(٣) الخريدة (قسم الشام) ٤٤٤/١

التصنع والتعقيد . وينشد العماد لا بن قُسَيْم مقطوعة طويلة تتوالى الكلمات فيها بحيث لا تخلو أولاها من صاد وثانيتها من سين أو العكس [١] . ومما أنشده العماد فى خريدته من هذه الصور المتكلَّفة قصيدة لشاعر من شعراء المعرة التزم فى كل كلمة من كلماتها أن لاتخلو من حرف النون [٢] ، وأنشد لشاعر آخر من شعراء المعرة قطعة تُقرَأ على سبعة أوزان [٣] . ولابن عنين حين ألم فى رحلته الكبيرة إلى المشرق بالفخر الرازى فى « هراة » قصيدتان [٤] فى مديحه تشتمل كل كلمة فى أولاهما على حرف السين كقوله فيها .

حَسُنَتْ سريرتُه وقُدِّس سِنْخُهُ ... وسما بأسلافٍ سراةٍ شُوسِ [٥]

بينما تشتمل كل كلمة فى ثانيتهما على حرف الحاء . وتعلق كثير من الشعراء فى العصر بصنع الألغاز والإجابة عنها ، وأفرد كثيرون لها أبوابا فى دواوينهم على نحو مايلقانا فى ديوان ابن عنين وأيضا فى ديوان مامية الرومى الدمشقى فى زمن العثمانيين . وظل غير شاعر يتصنع لمالايلزم فى بعض مقطوعاته وقصائده وكان للصاحب عبد العزيز الأنصارى مجلد كبير فيه [٦] .

٤

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح فى الشام منذ القرن الثانى الهجرى ، وذكرنا أسماء نفر منهم فى غير هذا الموضع ، وقد أهدت الشام فى القرن الثالث إلى الشعر العربى أكبر شاعرين مدَّاحين فيه ، وهما أبو تمام والبحترى . ويتكاثر شعراء المديح كثرة مفرطة فى أول هذا العصر : عصر الدول والإمارات بحلب زمن بطلها سيف الدولة الحمدانى الذى تحول بها إلى أكبر مركز علمى وفلسفى وأدبى ، على نحو مامَّر بنا ، وغدت مقصد الأدباء وحلبة الشعراء ، وجاءوها من كل بلد فى العراق وإيران فضلا عن الشام ، وفى مقدمتهم المتنبى . وظل سيف الدولة نحو عشرين عاما يمزق جموع البيزنطيين ويستولى على كثير من الحصون والبلدان ، والشعراءُ من حوله ينثرون عليه قصائدهم

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٤٧/١
(٢) الخريدة ٤٥/٢
(٣) الخريدة ١٠٨/٢
(٤) الديوان ص ٩٦ ، ٩٨
(٥) السنخ : الأصل ، شوس جمع أشوس : الشجاع المقدام
(٦) فوات الوفيات ٥٩٨/١

ومدائحهم بالعشرات – إن لم يكن بالمئات – مسجلين للبطل العربى مجده الحربى العظيم ، وقد صورنا فى قسم العراق من هذا التاريخ للأدب العربى مدائح المتنبى فيه ، ولن نستطيع أن نعرض هنا مدائح غيره من شعراء العراق مثل ابن نباتة وأبى الفرج الببغاء ، فكتاب اليتيمة للثعالبى يحمل من مدائحها ومدائح غيرهما لسيف الدولة روائع بديعة . ويكفى أن نشير إلى من حفُّوا به من شعراء الشام أمثال كشاجم والوأواء الدمشقى وأبى العباس أحمد بن محمد المِصِّيصىّ المشهور باسم النامى ، وكان عند سيف الدولة يتلو أبا الطيب فى المنزلة والرتبة ، وكان شاعرا بارعا ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه [1] :

أميرَ العُلا إن العَوالى كواسبٌ علاءك فى الدُّنيا وفى جنَّة الخُلْدِ
يمرّ عليك الحَوْلُ ، سيفُك فى الطُّلاَ وطَرْفُك مابين الشَّكيمة واللِّبْد [2]
ويمضى عليك الدَّهْرُ ، فعلُك للعلا وقولك للتَّقْوَى وكفُّك للرِّفْدِ

فسيف الدولة دائما محارب يدق أعناق البيزنطيين بسيفه المسلول ، ودائما ساهر شاكى السلاح وبصره مصوَّب إلى فرسه الذى يعلك باستمرار شكيمته استعدادًا للنزال . وما الإنسان إلا فعل وقول وفعل سيف الدولة دائما للعلا ومنازله الرفيعة وقوله للتقوى ومخافة الله ، أما كفه فللعطاء والنوال السابغ .

وكان سيف الدولة – ومثله الحمدانيون عامة – من الشيعة الإمامية ، مما جعل كثيرين من أهل حلب يعتنقون هذه النحلة ، ومر بنا أن تفرعت عنها فرقة النُّصَيْرية الشديدة الغلو لما تزعمه – كما مرّ بنا – من ألوهية على بن أبى طالب . ومكَّن لانتشار التشيع فى الشام استيلاء الدولة الفاطمية على فلسطين ودمشق وكثير من بلدان سوريا منذ سنة ٣٥٩ ونرى نفرا من شعراء الشام ينزلون القاهرة معتنقين – على مايبدو – لتلك النحلة ويتغنون بمديح الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ) ووزيره يعقوب بن كلِّس وفى مقدمتهم أبو الرَّقعمق أحمد بن محمد الأنطاكى ، وله فى الخليفة ووزيره غير قصيدة ، ومن قوله فى ابن كلِّس بإحدى قصائده [3] :

لم يَدَعْ للعزيز فى سائر الأر ض عدوًّا إلا وأَخْمَدَ نارَهْ

---

(١) اليتيمة ٢٢٥/١

(٢) الطلا : جمع طلية أو طُلاة كما مر . وهى العنق أو صفحته . الشكيمة : الحديدة المعترضة فى فم الفرس من اللجام

(٣) اليتيمة ٣١٠/١

كلَّ يومٍ له على نُوَبِ الدَّهـ ـرِ وكَرِّ الخطوب بالبَذْل غارَةْ

ولأبى العلاء المعرى ديوان معروف يسمى « سَقْط الزَّنْد » أكثره مدائح نظمها على سبيل التمرين لا قصدًا لمديح شخص بعينه إلا ماندر ، فهو لم ينظم كثرتها طلبا للكسب ونيل العطاء ، وإنما على سبيل التدريب اتباعا لشعراء المديح المنتشرين بزمنه فى كل مكان ، ومن قوله على طريقتهم فى المديح بأولى قصائد سقط الزند :

مَكلِّفُ خَيْلِهِ قَنْصَ الأعادى وجاعلُ غابهِ الأسَلَ الطِّوالا
تكاد قِسِيُّه من غير رامٍ تُمكِّن من قلوبهم النِّبالا

فالخيل لكثرة ما جعلها الممدوح تمارس القتال تقتنص بنفسها الرجال . وإنه لأسد حقا غير أن عرينه ليس غابًا بل رماحًا طوالا تخطف الأرواح خطفا ، وإن قِسيَّه لتصيب أعداءه فى الصميم دون رام ينتزع عنها النبل والسهام ، وهى مبالغة مألوفة عند أصحاب المديح لأيامه .

ومرَّ بنا أن بنى مرداس خلفوا الحمدانيين فى حلب ، وعُنى منهم خاصة محمود بن نصر بجمع الشعراء حوله فاجتمع فى حاشيته كثيرون منهم عبد الواحد الحلبى الربعى وابن حَيّوس الدمشقى وابن النحاس الحلبى وابن سنان الخفاجى . وحدث أن قطبان أنطاكية أو بطريقها استولى فى شعبان سنة ٤٦١ على حصن « أسفونا » ونكّل تنكيلا شديدا بأهله ، فحاصره محمود بن نصر وفتك بجميع رجاله ، وكانوا نحو ألفين ، وردَّ محمود الحصن على أهله ، وهنَّأه ابن سنان الخفاجى بهذا النصر المبين قائلا فى إحدى قصائده[١] .

إنْ أظهرتْ لعُلاك أنطاكيَّةٌ حُزْنًا فقد ضحكتْ على قُطْبانها
لما أطلَّ له لواؤك خافقًا عُرِفتْ وجوهُ الذُّلِّ فى صُلْبانها

وحين زار حلب نظام الملك وزير أَلْب أَرْسلان السلجوقى قدَّم له كثيرون من شعرائها مدائحهم ، وكان وافر العقل بصيرا بتدبير الملك سَئوسًا بعيد النظر ، فساس الدولة السلجوقية خير سياسة ، وهو مؤسس المدارس أو الجامعات النظامية فى العراق وإيران ، وله يقول محمد بن أحمد الشطرنجى الحلبى من مدحة طويلة على أبواب حلب[٢] .

---

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ٢/١٤ وما بعدها والديوان طبعة بيروت ص ١١٣ .

(٢) دمية القصر ١/١٩٩

ياخيْرَ من خفقتْ عليهِ رايةٌ وأجلَّ معقودٍ عليه لواءُ
لك كلَّ يوم مِنَّةٌ سيَّارةٌ فى الخافقين وغارةٌ شعواءُ

وذكرنا – فيما أسلفنا – أن بنى عمار استطاعوا أن يكوِّنوا لهم فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى إمارة بطرابلس ، وكانوا يُقرِّبون منهم الشعراء ويجزلون لهم فى العطاء ، وذكر العماد الأصبهانى فى الخريدة نفرا من شعرائهم فى مقدمتهم ابن العَلاَّنى المعرى ، وله من مدحة فى عمار بن محمد بن عمار : آخر أمرائهم (١) :

يحتاطك التوفيقُ لايألوك فى تسهيلِهِ لك كلَّ صعبٍ أوْعَرِ
دامتْ لك النعماء موصولٌ بها توفيقُ منصورِ اللواء مظفَّرِ

وسقطت من يده طرابلس فى حجر الصليبيين ، وكانت لذلك مناحة كبيرة بين المسلمين . وكان ابن العلانى – فيما يبدو – شيعيا ، ولعله لذلك رحل إلى القاهرة وقدَّم مدائحه إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، وله يقول فى إحدى مدائحه (٢) :

ليَزْدَدْ عُلُوًّا ملكُ مصرَ فإنها بهِ حرمُ اللهِ العزيزِ المحرَّمُ
فمكةُ مصرُ ، والحجيجُ وفودُه ويمناه ركنُ البيت ، والنِّيل زمزمُ

ومن كبار الشعراء الذين نشأوا فى حجر بنى عمار واستظلوا بما أحدثوا فى طرابلس من حركة أدبية الشاعر الدمشقى ابن الخياط وسنخصه بترجمة مستقلة .

وأمراء حصن شيرز : بنو مقلّد بن مُنْقذ على شاكلة بنى عمار فى طرابلس يتردد مديحهم على ألسنة الشعراء منذ استخلص على بن مقلد بن منقذ « شَيْزَر » من أيدى الروم سنة ٤٧٤ وظلت أسرته تحكمها حتى أتى عليها زلزال شديد سنة ٥٥٢ هدمها من قواعدها وأهلك سكانها . وتغنى الشعراء طويلا باسم محررها فى القرن الخامس على بن منقذ وبخلفائه فى حكمها ، كما نجد عند ابن منير والقيسرانى .

ويلقانا فى أواخر القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس شاعر فلسطينى هو الغَزِّى إبراهيم بن يحيى المتوفى سنة ٥٢٤ وقد ترك غزة مسقط رأسه مبكرا إلى دمشق يختلف الى شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وظل بالمدرسة النظامية فترة طويلة مدح فيها ورثى كثيرين من علمائها ، ثم تركها

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢/٧٨

(٢) الخريدة ٢/٨٢

إلى كَرْمان وشيراز فى فارس وهراة فى أفغانستان وكلما ألم ببلد مدح أمراءها ووزراءها حتى وفاته فهو شاعر جوّال ، وله أشعار كثيرة رائعة فى المديح وغير المديح ، وله فى ابن مكرم وزير كَرْمان مدائح بديعة من مثل قوله[١] :

مادعوناه من بنى الدّهر إلا   أهَّلَ الدَّهْرُ نفسه للتّهانى
جُمِع الأُسْدُ والكواكب والأبـ   ـحُرُ والناسُ منه فى إنسانِ
واستجابتْ له مناقبُ شتَّى   لم تَجُلْ فى خواطر الإمكانِ

ويتنبه البطل المغوار أتابك الموصل عماد الدين زنكى منذ أوائل العقد الثالث من القرن السادس الهجرى إلى أن تخاذل المسلمين أمام حَملة الصليب مرجعه إلى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لهم وأنه لابد من جمع كلمتها تحت لواء واحد . ويستولى على حلب وبعض بلدان سوريا الشمالية ، وماتوافى سنة ٥٣٤ للهجرة حتى يسوق إلى الصليبيين جيشا جرارا بقيادته ، وينازلهم بالقرب من حماة ويعصف بجموعهم ، ويستولى على حِصْن بارين بين حماة وحلب . وكأنما استيقظ الشعر حينئذ من سُباته الطويل . ويتبارى الشعراء فى مديحه والإشادة بانتصاره ، وفى مقدمتهم ابن منير والقيسرانى . ولم يلبث فى سنة ٥٣٩ أن فتح مدينة الرُّها مزيلا منها جوسلين ودولته الصليبية إلى غير رجعة ، وهلل الشعراء فى كل مكان لهذا الفتح المبين ، وفيه يقول ابن منير[٢] :

فتحٌ أعادَ على الإسلام بهجتَهُ   فافترَّ مَبْسِمُه واهتزَّ عِطْفاهُ
أين الخلائفُ عن فتحٍ أُتيح له   مظلِّلٌ أُفُقَ الدنيا جَناحاه

ومضى ابن منير فى القصيدة يُعلى – بحق – هذا الفتح على فتح المعتصم لعمّورية أكبر مدن آسيا الصغرى فى زمنه ، فقد قضى زنكى على المملكة الرابعة لحملة الصليب ، وكانوا قد أسسوها شمالى العراق . وبدا حينئذ – فى الأفق – أمل كبير فى أن ممالكهم التى أسسوها فى أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس لابد أن تسقط فى أيدى المسلمين مهما طال الزمن .

وامتدت إلى عماد الدين سنة ٥٤١ يَدٌ آثمة فى الظلام ففتكت بالبطل الباسل ، وحمل الراية بعده ابنه نور الدين ومضى يجاهد الصليبيين ، وغرّت الأمانى جوسلين فعاد إلى الرُّها ، واستردها

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥١/١

(٢) الروضتين لأبى شامة ٣٩/١ وانظر مفرج الكروب لابن واصل تحقيق الدكتور الشيال ٩٣/١

سريعا نور الدين وفرَّ جوسلين ، وهنَّأه الشعراء بهذا الفتح المبين ، وفى مقدمتهم ابن قُسَيْم الحموى بمثل قوله[١] :

تبدو الشجاعةُ من طلاقةِ وجهه كالرمح دلَّ على القساوة لِينُهُ
والدينُ يشهد إنه لمعزُّهُ والشِّرْكُ يعلم إنه لمهينُهُ
فتح الرُّها بالأمس فانفتحتْ له أبوابُ ملكٍ لايُذَالُ مَصُونُه[٢]

وولَّى نور الدين وجهه نحو سوريا فاستولى من حملة الصليب على حصن أرتاح سنة ٥٤٤ . ونازل صاحب أنطاكية وجموعَه ، وخرَّ صريعا بيد أسد الدين شيركوه وفرَّتْ جموع الصليبيين مهزومة مدحورة . وعاد نور الدين إلى حلب ، والشعراء يهللون بمثل قول ابن منير فى مطلع قصيدة له[٣] .

أَقْوَى الضلالُ وأقفرتْ عَرَصاتُه وعلا الهُدَى وتبلَّجتْ قَسَماتُه

وظلت أيام نور الدين محمود أعيادَ نصر على حَملة الصليب ، وظل الشعراء يدبجون فيه مدائح رائعة ، وقد استولى من الصليبيين على أفامية سنة ٥٤٥ واستولى من بيت طغْتِكين على مدينة دمشق سنة ٥٤٩ ويهنئه عالمها وحافظها ابن عساكر قائلا[٤] .

لقد بلغتَ بحمد الله منزلةً عَلِيَّةً فاقصُدِ العالى من القُرَبِ
وطَهِّرِ المسجدَ الأقصى وحَوْزَتَهُ من النَّجاساتِ والإشراك والصُّلُبِ

وفى نفس السنة يهزم الصليبيين بدُلوك من ثغور حلب ، ويتنازل له حملة الصليب فى أنطاكية عن نصف أعمال حارم . واستولى على شَيْزر وبَعْلبك وصَرْخد ، وشُغل بإرسال نور الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٥٨ وتطورت الظروف وتملك صلاح الدين مصر . ونور الدين محمود يُعَدُّ بحق منشئ الدولة الأيوبية . ولم يلبث فى سنة ٥٥٩ أن استولى على مدينة حارم ، وأخذت حصون كثيرة تتساقط فى يده ، ويتغنى بانتصاراته الرائعة العماد الأصبهانى قائلا فى مطالع إحدى قصائده[٥] .

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٧٤/١ وما بعدها

(٢) يذال : يهان .

(٣) الروضتين ٥٨/١ ومفرج الكروب ١٢٢/١ أقوى : أقفر . عرصاته : ساحاته . تبلجت : أضاءت .

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٢٧٧/١

(٥) الخريدة (بداية قسم الشام) ص ٥٤

ياواحدا فى النَّصرِ غيرَ مشارَكٍ أقسمتُ مالك فى البسيطة ثانِ
كم وقعةٍ لك فى الفرَنْج حديثُها قد سار فى الآفاق والبُلدْانِ
وجعلتَ فى أعناقهم أغلالهم وسَحَبْتهم هُونًا على الأذقانِ

ويحمل الراية بعد نور الدين فى منازلة حملة الصليب البطل المظفر صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية ، وقد صورنا فتوحه العظيمة فى قسم مصر ، وماوافت سنة ٥٨٣ حتى تمت له هذه الفتوح بعد وقعة حطين المباركة التى استولى بعدها على بيت المقدس أهم مملكة كانت لحملة الصليب كما استولى على كثير من الحصون على الساحل الشامى ، ولم يبق فى الشام ولافى الموصل والعراق شاعر إلا وتغنى بفتوح هذا البطل الباسل ، تغنى بها سبط بن التعاويذى البغدادى وموفق الدين الإربلىّ والشاتانى الموصلى وابن الساعاتى الدمشقى وله مدائح كثيرة متناثرة فى كتاب الخريدة ، وللعماد فى هذه الفتوح قصيدة رائعة أنشدنا منها قطعة فى قسم مصر ، ولابن الشحنة الموصلى فيه مدحة طارت شهرتها لقوله فيها هذين البيتين السائرين (١) :

وإنى امرؤ أَحْبَبْتكم لمكارمٍ سمعتُ بها والأذْنُ كالعين تَعْشَقُ
وقالتْ لِىَ الآمالُ إن كنت لاحقًا بأبناء أيوبٍ فأنت الموَفَّقُ

ودار الزمن ودانت مصر والشام – بعد صلاح الدين – لأخيه العادل ، ولابن عُنَين الدمشقى فيه وفى ولديه المعظم عيسى والأشرف موسى مدائح مختلفة . وبينها رائية بديعة فى العادل يستعطفه بها فى العودة إلى دمشق وكان صلاح الدين نفاه منها لكثرة أهاجيه فى أهلها ، وأذن له العادل فى العودة ، وفيها يقول (٢) :

العادلُ الملك الذى أسماؤه فى كل ناحيةٍ تشرِّف مِنْبرا
نسختْ خلائقه الكريمةُ ماأتى فى الكُتْب عن كسرى الملوك وَقيْصرا
مَلِكٌ إذا خفَّتْ حلومُ ذوى النُّهَى فى الرَّوع زاد رزانةً وتوقُّرا

ومعروف أن آل أيوب توزعوا فيما بينهم بلدان الشام ، وكان لكل منهم شاعره الذى يتغنى بمناقبه وأعماله ، ونذكر من بينهم نور الدين مودود شِحْنة دمشق ابن أخى صلاح الدين لأمه ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٥٨/٦

(٢) ديوان ابن عنين (تحقيق خليل مردم – طبع دار صادر) ص ٦

وهو ممدوح فتيان الشاغورى دبَّج فيه مدائح كثيرة . وحرى بنا أن نذكر ملوك حماة الأيوبيين ، وكانوا ممدَّحين . وممن أسبغ عليهم مدائحه الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى ، وله فى صاحبها المظفر محمود (٦٢٦ — ٦٤٢ هـ) وابنه المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢ — ٦٨٣ هـ) مدائح كثيرة ، وكان للثانى موقف محمود حين أحس بأن التتار سيغزون الشام إذ التجأ بأسرته إلى مصر حتى إذا التحم القتال بين المصريين والتتار فى عين جالوت كان فى مقدمة المحاربين البسلاء ، ونوَّه الصاحب الأنصارى بهذا الموقف الشجاع طويلا بمثل قوله[1] :

بَعيْن جالوتَ خُضْتَ بَحْر وَغىً ... يُخال فُلْكا بالأسْد مَشْحونا
وكنت للجيش غُرَّةً شَدَخَتْ ... أنوفَهم فانثنوا مُوَلِّينا

وطوال أيام المماليك كان يرتفع صوت الشعر للتنويه بأعمالهم . وكان لانتصاراتهم على التتار أو المغول بعد موقعة عين جالوت حظ كبير من الشعر ، ومرَّ بنا فى قسم مصر أن الظاهر بيبرس كان دائما يتعقبهم فى الموصل وعلى شواطئ الفرات وسمع بحشود لهم على شاطئه الشرقى فخاض إليها لُجَجَه وخاضها جيشه معه ومزقهم شر مُمَزَّق ، وفى هذه الغزوة يقول الموفق عبد الله الأنصارى الدمشقى[2] .

الملكُ الظاهر سلطانُنا ... نَفْديه بالأموال والأهلِ
اقتحمَ الماءَ ليُطفى به ... حرارةَ القلب من المُغْل

ولم يستول الظاهر بيبرس ولا قلاوون ولا الأشرف خليل على حصن أو بلد من حملة الصليب إلا وجلجل الشعر ، حتى إذا أنهى الأشرف خليل الحروب الصليبية باستيلائه على عكا آخرِ حصونهم أخذ شعر المديح فى الشام يتحوَّل إلى شعر مناسبات لمديح الحكام حين يستولون على أزمة الأمور أو حين تمر بهم بعض الأعياد أو بعض الأحداث .

ويظل الشعراء أيام العثمانيين يقدمون مدائحهم للحكام ، وكان شعراء الشام حينئذ قريبين من إستامبول وكانوا لايزالون غادين عليها رائحين ، مما جعلهم يكثرون من مديح سلاطينهم ، على نحو

---

(١) الديوان (بتحقيق عمر موسى — نشر مجمع اللغة العربية بدمشق) ص ٤٧٥

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧

مايلقانا فى ديوان مامية الرومى المتوفى سنة ٩٨٧ ومديحه فيه للسلاطين سليمان وسليم الثانى ومراد الثانى . ويكثر حينئذ مدح العلماء وأعيان البلدان فضلا عن حكامها ، وأخذ الشعراء يكثرون مثل المصريين من التاريخ بالشعر يؤرخون قدوم حاكم أو مناسبة من المناسبات يجعلون ذلك فى آخر شطر بالمدحة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجُمَّل ، فيكون المجموع سنة الولاية للحاكم أو سنة المناسبة . وجدير بنا أن نعرض نفرًا من شعراء المديح النابهين .

ابن الخياط (١)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبى نسبة إلى قبيلة تغلب المولود بدمشق سنة ٤٥٠ لخياط اشتهر بنسبته إليه ، فهو من أبناء عامة الشعب الدمشقى . ودائما يلقانا فى كل البلدان العربية شعراء من أولاد العامة ، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت مناهلها مفتوحة الأبواب دائما ، إذ كان الشيوخ فى المساجد يعرضونها على الناس جميعا شبانا وشيبا ، وكانت المساجد أو الجوامع الكبرى تشتمل على مكتبات غاصة بالكتب فى كل علم وكل فن وكذلك بدواوين الشعراء ، مما أتاح للشباب فى كل بلد عربى أن يتزود بماشاء من الثقافة علمية وأدبية وأن ينبغ بينهم علماء وأدباء وشعراء لاحصر لهم .

وشهد ابن الخياط فى صباه دمشق ثائرة على حكم بدر الجمالى ، حتى لقد أشعل أهلها النار فى قصره سنة ٤٦٠ وسرت النار إلى الجامع فسقطت سقوفه وتناثرت فصوصه المذهبة ، ونُهبت الدور والدكاكين ، وظل هذا الاضطراب سائدا فى دمشق وأخذ السلاجقة يحاصرونها ابتغاء الاستيلاء عليها حتى تم لهم ذلك سنة ٤٦٨ وتملكها تُتُش أخو السلطان أَلْب أَرْسلان .

ومعنى ذلك أن الحياة كانت سيئة سوءًا شديدًا بدمشق منذ سنة ٤٦٠ حتى نزلها تتش مما جعل كثير من أهلها يهاجرون منها إلى بلدان الشام الأخرى . وكان ممن هاجر منها فى هذه الأثناء ابن الخياط وكان لايزال فى بواكير شبابه ، وولَّى وجهه نحو حَمَاة ، ووفد على أمير بها يسمى محمد بن مالك فقربه منه واتخذه كاتبا له ، فعُرف باسم ابن الخياط الكاتب ، وفيه يقول :

حَبانى جودُهُ عَيْشًا كأنِّى ظفرتُ به من الدَّهْر استراقا

(١) انظر فى ترجمة ابن الخياط وشعره تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦٧/٢ وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ٢٣٤ والخريدة (بداية قسم الشام) ص ١٤٢ والعبر ٣٩/٤ وابن خلكان ١٤٥/١ والشذرات ٥٤/٤ ومقدمة ديوانه بتحقيق خليل مردم (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق)

وكان شاعرُ بلدته ابنُ حَيُّوس حين اضطربت الأحوال فى دمشق سنة ٤٦٤ تركها إلى حلب وعاش بها فى كنف بنى مرداس ، فرأى أن يتبعه هناك ، ولقيه ابن حيوس لقاء حسنا ومنحه ثيابا ودنانير مع تنويهه بشعره . وأوصاه أن يفد على بنى عمار أصحاب طرابلس لرعايتهم الشعر والشعراء ، إذ سيجد عندهم مبتغاه . غير أنه عاد إلى حماة ، وكان كلما ألم بها أمير من أمراء بلدان الشام مدحه على نحو مايلاحَظ من مدحه للأمير الحلبى وثاب بن محمود بن صالح وله يقول :

لقد لبستْ بك الدُّنيا جمالاً فلو كانت يَدًا كنت السِّوارا

ويبدو أنه مرَّ بحماة على بن مقلَّد بن منقذ بعد استيلائه على حصن شَيْزر ، فاتصل به الشاعر ومدحه ومدح معه أسرته وماشتهروا به من بسالة وما أتاحوا لحصنهم الأشم من مناعة ، وفى ذلك يقول :

هُمُ غادروا بالعزِّ حَصْباءَ أرضهم أعزَّ منالا من نجومِ الغَياهبِ

ونرى ابن الخياط فى سنة ٤٧٦ يأخذ بنصيحة مواطنه الشاعر الكبير ابن حَيُّوس ، فينزل طرابلس قاصدا بنى عمار ويستقبلونه استقبالا حافلا ، وكان يحكمها حينئذ منهم جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار (٤٦٤ — ٤٩٤ هـ) وله فيه مدائح رائعة ، وربما كانت أولاها داليته ، وفيها نحسّ فرحته بلقائه من مثل قوله :

كفى بِنَدَى جلال المُلْك غَيْثًا إذا نزحتْ قَرارةُ كلِّ وادِ
فمن ذا مُبْلغ الأملاكِ عنا وسُوَّاسِ الحواضر والبوادى
بأنَّا قد سكنَّا ظلَّ مَلْكٍ مَخُوفِ البأسِ مرجوِّ الأيادى
فما نخشى محاربة الليالى ولا نرجو مسالمةَ الأعادى

وهنئ بمقامه فى ظل بنى عمار بطرابلس ، وصحب فيها طائفة من الأدباء كانوا يخرجون للمتنزهات وينعمون بمشاهدها الطبيعية البديعة . ومن حين إلى آخر كان يمدح جلال الملك فى المناسبات كمرور الأعياد . وله فى أخيه فخر الملك قصائد لاتقل روعة عن قصائده فيه ، ومن قوله فى إحداها :

أأرتجى غيرَ عمَّارٍ لنائبةٍ إذنْ فلا آمَنَتْنِى كفُّهُ النُّوَبا

المانعُ الجارَ لو شاء الزمانُ له مَنْعا لضاق به ذَرْعًا وإنْ رَحُبا
الباذلُ المالَ مسئولاً ومبتدئا والصَّائنُ المجدَ موروثًا ومكتسبا

وظل فى طرابلس حتى سنة ٤٨٦ وفيها احترفت داره واحترق كل ما كان بها من أثاث ، فحزن حزنًا شديدًا.

وعَبث بابن الخياط الحنينُ إلى دمشق مسقط رأسه وموطن خلاَّنه بها أيام الشباب ، فعاد إليها وكان ملكها حينئذ تتش السلجوقى وقربه منه وزيره هبة الله بن بديع الأصبهانى ، واصطحبه معه إلى « الريِّ » بفارس وهناك أنشده مدحة فيه ، ورحل إلى خراسان ، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق سنة ٤٨٧ وامتدح أمير قبيلة بنى كلب حسان بن مسمار بقصيدتين ، وفتح له أمير الجيش عضب الدولة آبق أبوابه فمدحه بقصيدة بائية ربما كانت أروع قصائده ، وتوالت مدائحه فيه حتى توفى سنة ٥٠٢ ومن قوله فى البائية :

وماآبَقٌ إلا حَيًا مُتَهلِّلٌ إذا جادَ لم تُقْلع مواطرُ سُحْبِهِ
أغرُّ غياثٌ للأنام وعصمةٌ يُعاش بنُعْماه ويُحمَى بِذَبِّهِ
ولم يُرَ يوما راجيًا غيرَ سَيْفهِ ولم يُرَ يوما خائفًا غيرَ ربِّه
حُبِيتَ حياءً فى سماحٍ كأنه ربيعٌ يَزين النَّوْرُ ناضرَ عُشْبه

والقصيدة رائعة حقا ، نوه بها القدماء طويلا كما نوهوا بغزلها وسننشد منه قطعة فى حديثنا عن شعراء الغزل .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ وأخذوا بعد ذلك عدة بلدان على الساحل الشامى فى السنوات التالية وكثرت الشكايات منهم ، وواقعهم طُغْتِكين صاحب دمشق على سواد طبريَّة سنة ٤٩٩ وفى السنة التالية حاصر بلدوين صاحب القدس صَيْداء ، وفى ديوان ابن الخياط قصيدة يحض فيها عصب الدولة أمير الجيش فى دمشق على منازلة الصليبيين ، وفيها يقول مستنفرًا الدمشقيين للجهاد :

لقد جاشَ من أرْض إفْرنْجَةٍ جيوشٌ كمثل جبالٍ تَرَدَّى
أنومًا على مثل هَدِّ الصَّفَاةِ وهزلا وقد أصبح الأمر جِدًّا
وكم من فتاةٍ بهم أصبحتْ تَدُقُّ من الخوف نَحْرًا وخَدًّا

فحاموا على دِينكم والحَريمِ محاماةَ مَنْ لايرى الموتَ فقدا
فقد أَيْنَعَتْ أَرْؤُسُ المشركين فلا تُغْفلوها قِطافًا وحَصْدا

وله وراء هذه القصيدة مرثية لبطل استشهد فى حرب حملة الصليب سننشد منها قطعة فى الحديث عن شعراء الرثاء والشكوى أنشدها كالقصيدة السالفة عضب الدولة المتوفى – كما مرَّ بنا – سنة ٥٠٢ . ولانجد له وراء هاتين القصيدتين شعرا حاسيًّا ضد حملة الصليب مع أنه عاش حتى سنة ٥١٧ مما يجعلنا نظن ظنا أن شعراء الشام فى الربع الأول من القرن السادس على الأقل قَصَّرُوا فى استثارة الأمة ضد حملة الصليب حينئذ . وله فى هذه الفترة التى عاشها بعد عضب الدولة مدائح فى بعض الرؤساء والوزراء ورجال الشرطة الدمشقيين وغيرهم من الأعيان والقواد ، وآخر قصيدة له نظمها فى مرضه الأخير يسترفد ابن القلانسى المؤرخ ، وفيها يثنى على أدبه وكتابته بمثل قوله .

له فِقَرٌ لو تجسَّدْنَ لم يُفَضَّلْن إلا بهنّ العُقودُ
فَيَظْلَمْنَ إن قيل نَوْرٌ نَضِيرٌ ويُبْخَسْنَ إن قيل دُرٌّ نَضِيدُ

ويبدو من شعره أنه كانت له مجالس مع بعض الأدباء يتنادمون فيها على الشراب ويسترسلون فى اللهو والطرب بسماع بعض المغنين ، كما كانت له نُزُهٌ كثيرة فى الغوطة وبساتينها ، ويبدو أنه كان يولع بلعب النَّرد مع بعض رفاقه ، وله فيه قصيدة بديعة بديوانه ، رواها العماد الأصبهانى فى خريدته . وواضح أن شاعرية ابن الخياط كانت شاعرية خصبة كما يتضح من طول قصائده ومن لغتها الجزلة الناصعة دون تكلف للغرابة أو مايشبه الغرابة ، ومع جمال الموسيقى والجرس الصوتى وأنغامه ، ومع تصاويره المبتكرة الفذة .

ابن [1] القَيْسَرانى

هو أبو عبد الله محمد بن نصر ، من سلالة خالد بن الوليد البطل العظيم ، ولد بعكا سنة ٤٧٨

(١) انظر فى ترجمة ابن القيسرانى وشعره الخريدة (قسم الشام) ١/٩٦ وابن القلانسى : ٣٢٢ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (طبع حيدر آباد) ٨/٢١٣ ومعجم الأدباء ١٩/٦٤ وعبر الذهبى ٥/١٣٣ وابن خلكان ٤/٤٥٨ والنجوم الزاهرة ٥/٢١٣ والروضتين ١/٥١ فى حروب عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود والشذرات ٤/١٥٠ وصدى الغزو الصيلبى فى شعر ابن القيسرانى للدكتور محمود إبراهيم وتوجد مخطوطة من ديوانه – وهى مختارات منه – بدار الكتب المصرية .

وانتقل به أبوه وهو فى صباه إلى قَيْسارِيَة[١] ، فنسب إليها وقيل ابن القيسرانى إذ نشأ بها ، ويبدو أنه هاجر منها مبكرا بعد استيلاء حَملة الصليب عليها سنة ٤٩٤ وأبعد فى هجرته إلى الشمال إذ نزل حلب ، وأقام فيها طويلا ربما نحو عقدين من السنين ، ثم نزل دمشق . والقدماء مختلفون منهم من يقول إنه نزل حلب أولا ثم نزل دمشق ، ومنهم من يقول بل نزل دمشق ثم نزل حلب ، ودفعنا إلى ترجيح الرأى الأول أننا سنجده عما قليل أهم شاعر شامى عُنى بتصوير البطولة العربية فى الفتك بحملة الصليب منذ سنة٥٢٣ للهجرة وقد تجاوز الأربعين من عمره . وكانت دمشق كثيرا ماتشتبك مع الصليبيين فى حروب وتردهم على أعقابهم خاسرين كما حدث فى عهد حاكمها طغتكين سنة ٥٠٢ ويعود طُغْتِكين مع مودود صاحب الموصل إلى كسرهم على طبريَّة سنة ٥٠٧ واستطاع أن يهزمهم فى البقاع سنة ٥١٠ وهزم صاحب أنطاكية سنة ٥١٣ .

وكل هذه الأحداث والانتصارات العظيمة لطغتكين لانجد لها أى ذكر أو صدى فى شعر ابن القيسرانى مما يدل على أنه كان غائبا عن دمشق طوال هذه المدة . على كل حال يدل غياب هذه الأحداث السالفة على أنه لم يكن بدمشق فى أثنائها وأنه نزل حلب أولا وأقام بها حتى نهاية العقد الثانى من القرن السادس ثم نزل دمشق بعد ذلك . ويدل دلالة قاطعة على أنه كان بها فى عهد بورى بن طغتكين (٥٢٢ – ٥٢٦ هـ) أننا نجده ينشده أولى قصائده فى الحروب الصليبية حين هزم حَملة الصليب على أبواب مدينته فى أواخر سنة ٥٢٣ وفيها يقول :

وافوا دمشقَ فظنوا أنها جِدَةٌ ... ففارقوها وفى أيديهم العدمُ
وغادروا أكثر القُرْبان وانجفلوا ... وخلَّفوا أكبر الصُّلْبان وانهزموا[٢]

وكان – كما قال مترجوه – يتولى فى أثناء مقامه بدمشق إدارة الساعات بها إلى أن تولى شمس الملوك بن بورى (٥٢٦ – ٥٢٩ هـ) حُكْمها ، فاصطدم به ابن القيسرانى ، مما جعله يهجوه ، وعلم بهجائه فضاقتْ عليه الأرض بما رحُبت ، وفر منه بعيدًا إلى العراق . وترك العراق سريعا إلى حلب حين سمع بانتصارات عماد الدين زنكى على حملة الصليب واستيلائه منهم على المعرة وبعَرْين ، وتتأكد صلته به منذ سنة ٥٣٤ إذ نجده يشيد بانتصاره على جموع الصليبيين واستيلائه منهم على حصن بارين غربى حلب فى الطريق إلى حماة ، ويشعر فى عمق ببطولة العرب وعماد الدين قائلا :

---

(١) كانت ثغرا كبيرا من ثغور فلسطين.

(٢) انجفلوا : تشردوا

حَذارِ منا وأنَّى ينفع الحذَرُ ... وَهْيَ الصوارم لاتُبْقى ولاتَذَرُ
وأين ينجو ملوك الشِّرْك من ملكٍ ... مِنْ خَيْله النصرُ بل من جُنْده القدَرُ

ثم يكون نصر عماد الدين العظيم باستيلائه على الرُّها من يدجوسلين ومحو عار هذه المملكة أو الدولة التى أقامها الصليبيون شمالى العراق آملين فى الانحدار منها إلى الجنوب ، وإذا عماد الدين يستولى عليها بجيوشه وبطولته الخارقة سنة ٥٣٩ وتكون لذلك رنة فرح عظيم فى نفس ابن القيسرانى ونفوس المسلمين وينشد :

سمتْ قِبْلة الإسلام فخرا بِطَوْلهِ ... ولم يَكُ يسمو الدين لولا عمادُهُ[١]
مصيبُ سهامِ الرأى لو أن عَزْمه ... رمى سدَّ ذى القَرْنين أَصْمَى سِدادَهُ[٢]
فقُلْ لملوك الكفر تُسلِمْ بعدها ... ممالكَها إن البلادَ بلادهُ

ونرى ابن القيسرانى - بعد هذا الفتح المبين - بنحو عام يزور أنطاكية ، ويقول العماد إنه زارها لحاجة عرضت له ، ولاندرى هل كانت حاجة سياسية لأمير أوكانت حاجة شخصية ، ويغلب على ظننا أنها كانت حاجة سياسية ، والمهم أنه شبَّب بإفْرنجيات وبراهبات وتمادى فى هذا التشبيب ، وسنذكر طرفا منه فى حديثنا عن شعراء الغزل . وعاد من رحلته إلى عماد الدين ووزيره جمال الدين بن أبى منصور ، وله فيه مدائح بديعة .

وتطورت الأمور سريعا فقُتل عماد الدين بيد آثمة ، كما أسلفنا وحمل لواء الجهاد بعده الملك العادل نور الدين ، وتغزُّجوسلين الأمانى ووقوف الأرمن معه ، فيعود إلى الرها ، ويخرجها منه نور الدين منكِّلا بالأرمن ، ويهنئ ابن القيسرانى الوزير ابن أبى منصور بهذا الانتصار قائلا :

لِيَهْنك ماأفرجَ النصرُ عنه ... ومانالـه الملكُ العادلُ
وإنْ يك فَتْحُ الرُّهَا لُجَّةً ... فساحلُها القُدْسُ والساحل

وحقا عظم الأمل فى نور الدين أن يسترد للمسلمين القدس والمسجد الأقصى بل الساحل الشامى جميعه . ويحشد حملة الصليب فى سنة ٥٤٣ جيشا كثيفا لهم فى بقعة تسمى « يَغْرَى » ويسحق نور الدين محمود الجيش سحقا ذريعا ، وينشد ابن القيسرانى :

---

(١) بطوله : بفضله

(٢) أصمى : أصاب

مظفَّرٌ فى دِرْعه ضَيْغَمٌ عليه تاج الملك معقودُ
وصارمُ الإسلام لايَنْثنِى إلا وشِلْوُ الكفرِ مَقْدودُ(١)

ويدور العام ويحشد صاحب أنطاكية وحملة الصليب حشودهم عند حصن « إِنَّب » ولقيهم نور الدين فمحقهم محقا . وقُتل فى المعركة صاحب أنطاكية البرنس العاتى ، ولم يفلت من القتل إلا من خبَّر أهل أنطاكية من قومه بالاندحار والدمار . وجلجل ابن القيسرانى بصوته منشدا نور الدين على جسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية قصيدة رائعة استهلها بقوله :

هذى العزائم لا ما تدَّعى القضُبُ وذى المكارمُ لاماقالت الكتبُ(٢)
أغرتْ سيوفك بالإفرنج راجفةٌ فؤادُ روميَّة الكبرى لها يَجِبُ(٣)
غضبتَ للدين حتى لم يَفُتْك رضًا وكان دين الهدى مرضاتهُ الغَضَبُ
من كان يغزو بلادَ الشِّرْك مكتسبا من الملوك فنورُ الدين مُحْتَسِبُ(٤)
فانْهَضْ إلى المسجد الأقصى بذى لَجَبٍ يوليك أقصى المنى فالقدسُ مرتَقَبُ(٥)

ولابن القيسرانى مدائح أخرى لنور الدين يردد فيها مجده وانتصاره الحربيين ضد حملة الصليب ومايأمله على يديه من رد بيت المقدس والساحل الشامى على أصحابها المسلمين . ودائما يحوطه بهالة إسلامية هو جدير بها ، فقد كان يحارب فى سبيل الله لايبتغى مغنما ، إنما يبتغى ماعند الله من الأجر والثواب ، حتى ليقول له ابن القيسرانى فى نفس هذه القصيدة السالفة .

إلا تكنْ أحدَ الأبدْال فى فَلَكِ الـ ـتَّقوى فلا نَتَمارى أنك القُطُبُ

وكأنه يعده قطب تقوى وإنقاذ للشام وأهل الشام . ولم يعش ابن القيسرانى حتى يمجد بقية انتصاراته المجيدة على الصليبيين ، إذ توفى قبله بنحو عشرين عاما سنة ٥٤٨ . وله مدائح فى بنى منقذ وفى مجير الدين آبق صاحب دمشق . ويقول العماد إنه كان له معرفة بالمنطق وعلوم الأوائل وإنه كان يتصنع للجناس أحيانا غير أن ذلك قليل فى شعره ، فقد كان يطلب فيه النصاعة والسلاسة على غرار أستاذه ابن الخياط فهو تلميذه وخريجه وراوى ديوانه .

---

(١) الشلو : العضو وبقية الشىء . مقدود : مشقوق
(٢) القضب جمع قضيب : السيف القاطع
(٣) راجفة : نفخة مميتة : يجب : يخفق
(٤) محتسب : يحتسب أجره على الله
(٥) ذولجب : الجيش . اللجب : الصياح والجلبة .

ابن [١] الساعاتى

هو بهاء الدين على بن محمد بن رستم الدمشقى خراسانى الأصل ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٥٥٣ وكان ماهرا فى صنع الساعات الفلكية ، وأنعم عليه نور الدين محمود إنعاما وافرا حين صنع الساعات التى وُضعت على باب الجامع الأموى ، وأتاح له ذلك ثراءً ، نعم به ابنه على إذ شُغف بالفروسية وببعض ضروب اللهو مثل النرد والشطرنج . ومثل لداته حفظ القرآن صبيًّا واختلف إلى دروس العلماء والمؤدبين فى الجامع الأموى ، ويبدو أن ابن سعيد خلط بينه وبين أخيه فخر الدين إذ قال إنه حين شبَّ أرسل به أبوه إلى البديع الأسْطُرْلابى بآمد ليتقن صناعة الآلات الفلكية ، وكأنه لم يلاحظ أن البديع توفى قبل ميلاده بنحو عشرين عاما . وربما أرسله إلى أحد أولاده . ونراه بعد فتح صلاح الدين لآمد يمثل بين يديه مادحا له بقصيدة لامية سنة ٥٧٩ يقول له فيها :

لولا مساعى صلاح الدين ماصلحتْ ... شمُّ الممالك بعد الزَّيْغ والميَلِ
فليعلمِ القدسُ أن الفتحَ منتظرٌ ... حلولَه وعلى الآفاق فَلْيَطُل [٢]

وتحققت سريعًا نبوءته بفتح القدس ، ونراه بين من حفُّوا بصلاح الدين فى موقعته الماحقة : موقعة حِطِّين على حافة طبريَّة ، وله يهنئه بهذا النصر العظيم وماأنزل بحملة الصليب من ضربة قاصمة لم يفيقوا بعدها أبدًا ، إذ كُبَّت الكثرة منهم على وجوهها ، ووقع ملوكهم وصناديدهم فى أسر البطل العربى ، وله يقول :

جَلَتْ عزماتُك الفتْحَ المبينا ... وقد قَرَّتْ عيونُ المؤمنينا
قضيتَ فريضةَ الإسلام منه ... وصدَّقْتَ الأمانى والظنونا
فألمْ بالسواحل فَهْى صورٌ ... إليك وألحق الهامَ المتُونا [٣]
وقلبُ القُدْس مسرورٌ ولولا ... سُطاك لكان مكتئبًا حزينا
أدرتَ على الفِرنْج وقد تلاقتْ ... جموعهُمُ عليك رَحًى طَحُونا

---

(١) انظر فى ابن الساعاتى وشعره وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٣٩٥ وعبر الذهبى ٥/١١ ومرآة الزمان : ٣٧٥ والغصون اليانعة لابن سعيد ص ١١٨ وشذرات الذهب ٥/١٣ وابن أبى أصيبعة ص ٦٦١ ومقدمة ديوانه بتحقيق أنيس المقدسى (طبع المطبعة الأمريكانية – ببيرت)

(٢) يطول : يفخر تيها

(٣) صور : مائلة وناظرة . الهام : الرءوس

ويذكر انتصارات صلاح الدين المتلاحقة على حَملة الصليب فى بَيْسان وغير بَيْسان ، وتتراءى له مدن الساحل الشامى ، وهى تنتظر مخلصها ومنقذها من الظلمة الأشرار ، وإن القدس ليكاد يطير فرحا فقد أصبح وشيك الخلاص ، وفعلا لم تمض شهور حتى فُتحت أبوابه لصلاح الدين وعاد ، وعاد معه المسجد الأقصى إلى الإسلام والمسلمين ، وإنه ليصيح مبتهجا فرحا :

لقد ساغ فَتْحُ القدسِ فى كلِّ منطقٍ وشاع إلى أن أسمع الأسَلُ الصُّمَّا[1]
فليت فتى الخطَّاب شاهدَ فَتْحَها فيشهد أن السهمَ من يوسفٍ أَصْمَى
حَبَا مكةَ الحُسْنَى وثنَّى بيثربٍ وأطرب ذَيَّاك الضريحَ وماضَمَّا
وأصبح ثَغْرُ الدينِ جذلانَ باسمًا وألسنةُ الأغماد تُوسعه لَثْمَا

لقد فُتح القدس عنوة ، وإن قعقعة السلاح لتكاد تسمع الصُّمَّ ، وقد عاد المسجد وعادت فيه الصلاة وتكبيرات المصلين وأذان المؤذنين . ويقرن فتح صلاح الدين للقدس فتحًا حربيًّا بفتح عمر بن الخطاب لها من قبل سلما . ويصور ابتهاج مواطن الوحى فى مكة ويثرب وابتهاج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح المبين ، وكيف عمت البهجة والفرحة القدس ثغر الدين ، وكأنما ألسنة الأغماد تعانقه وتقبله : تقبل كل ركن فيه . وله وراء هذه القصائد فى صلاح الدين ست عشرة قصيدة . ونراه بعد وفاته يلزم ابنه نور الدين صاحب دمشق فيمدحه بقصائد مختلفة ، غير أنه أخذ يتبرم بالشام وبمن حول نور الدين كما يتضح من قوله فى مدحة له :

أبكتْنىَ الأيامُ مذ ضحكتْ لى عن نيوب نوائبٍ عُصْلِ[2]
أفسدن خلانى فمالىَ فى الـ سَّرَّاءِ والضَّراءِ من خِلِّ

وكان هذا الشعور بأنه لم يعدله صديق وفىّ فى موطنه سببا فى أن يشدَّ رحاله إلى القاهرة فينزل بها ويتخذها دار مقام له حتى وفاته سنة ٦٠٤ وشعر فيها بأنه حياته أصبحت رغدة ناعمة وذكر ذلك مرارا فى شعره ، وكان قد وطد علاقاته بكثيرين من كبار رجال الدولة ، وفى مقدمتهم القاضى الفاضل وله فيه اثنتا عشرة قصيدة . وبمجرد أن وضع قدمه فى القاهرة أصبح من ندماء العزيز عثمان بن صلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٩٥ وله فيه أكثر من ثلاثين مدحة . وربما كانت أيام العزيز أسعد أيامه بمصر . وهو يصور فى مديحه منادمته له ومجالس أنسه . وله مدائح فى السلطان

---

(١) الأسل : الرماح والسيوف . (٢) عصل : معوجة كأنياب الأسد

العادل أخى صلاح الدين ، ولكن تنقصها الحرارة . وقد عاش بمصر يتملى بمشاهد الطبيعة وصوّر ذلك فى كثير من شعره ، وفى دار الكتب المصرية ديوان له خاص بمقطعات النيل يبدو أنه اختيارات من ديوانه ، وسنذكر بعضا من قصائده فى طبيعة دمشق وطبيعة مصر وأيضا بعضا من خمرياته .

الشهاب[1] محمود

هو محمود بن سليمان بن فهد الدمشقى الحنبلى ، ولد بدمشق سنة ٦٤٤ وعنى بتربيته أبوه وكان فقيها حنبليا ، فحفظ القرآن صبيا . وأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء الحنابلة والعلماء المختلفين مثل ابن مالك فى النحو وابن الظهير الإربلى فى الأدب وعليه تدرب فيه ، وكان يجلّه ويوده مودة مخلصة ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٧ بكاه بقصيدة يقول فيها :

بكتْه معاليهِ ولم يُرَ قبلهُ كريمٌ مضى والمكْرماتُ نَوادبُهْ

وبرع محمود فى الأدب حتى فاق أقرانه مما جعل القائمين على ديوان الإنشاء فى دمشق يعيّنونه فيه وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، وظل فيه حتى سنة ٦٩٢ إذ نقل إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة بعد وفاة محيى الدين بن عبد الظاهر ، ورأس هذا الديوان فى عهد السلطان بيبرس البند قدارى سنة ٧٠٨ حتى إذا توفى عبد الوهاب بن فضل الله العمرى صاحب ديوان الإنشاء بدمشق نُقل إلى وظيفته هناك وظل قائما عليها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ومعنى ذلك أنه كان أديبا كاتبا محسنا وظل يعمل بديوان الإنشاء فى دمشق والقاهرة نحو خمسين عاما . وله فى الكتابة الديوانية كتاب جيد يسمى « حسن التوسل » غير أننا رأينا أن نسلكه بين الشعراء لأنه كان شاعرا متفوقا كما كان كاتبا بارعا ، بل أهم من ذلك أنه الشاعر الشامى الوحيد الذى صور حروب الظاهر مع التتار وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع حملة الصليب تصويرا بديعا مما جعل ابن تغرى بردى يقتصر فى أغلب الأمر على وصفه لمعارك هؤلاء السلاطين .

وأول سلطان أشاد الشهاب محمود بانتصاراته الظاهر بيبرس وكان قد علم بحشود للتتار شرقى

---

(١) انظر فى الشهاب محمود وشعره فوات الوفيات لابن شاكر فى ترجمته ٥٦٤/٢ وترجمة الظاهر بيبرس ١٦٤/١ وترجمة الأشرف خليل ٣٠٥/١ والجزء السابع والثامن والتاسع من النجوم الزاهرة . انظر فهرس تلك الأجزاء والبداية والنهاية لابن كثير ١٢٠/١٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٩٢/٥ والدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٢٣٦/٢

الفرات فزحف إليهم من الشام بجيش جرار وخاض إليهم الفرات وفتك بجموعهم وكاد أن لايبق باقية منهم . وعاد الملك الظاهر إلى دمشق مؤزرا منصورا ، وأنشده الشهاب قصيدة طنانة يقول فيها :

سِرْ حيث شئتَ لك المهيمنُ جارُ ... واحكُمْ فطَوْعُ مرادِك الأقدارُ
خُضْت الفُراتَ بسابحٍ أقصى مُنًى ... هوجُ الصَّبا من نَعْله آثارُ
حملتْك أمواج الفُرات ومن رأى ... بحرًا سواك تُقلُّه الأنهارُ [1]
رَشَّت دماؤهمُ الصعيدَ فلم يَطِرْ ... منهم على الجيش السعيد غبارُ

ولم يلبث التتار أن حشدوا جموعا لهم سنة ٦٧٥ وأيدتهم جموع من عسكر الروم ، وتعاقدوا على منازلة بيبرس ، وعلم بتلك الجموع فباغتها محيطا بها من كل جانب ، وقاتلت قتال الموت ولم يغن ذلك عنها شيئا ، إذ كان يقتحم مع جنوده البواسل الأهوال كالأسد الضارية إلى أن انكسر التتار والروم وفروا معتصمين بجبال وراءهم ، وأحاطت بهم العساكر المصرية وقتلت منهم مقتلة عظيمة وفى ذلك يقول الشهاب محمود :

كذا فلتكنْ فى الله تَمضى العزائمُ ... وإلا فلا تجفو الجفونَ الصوارمُ [2]
بجيشٍ تظل الأرضُ منه كأنها ... على سعة الأرجاء فى الضيق خاتمُ
يحيط بمنصورِ اللواء مظفَّرٍ ... له النصر والتأييد عبدٌ وخادم
مليكٌ به للدين فى كل ساعةٍ ... بشائر للكفار منها مآتمُ
مليكٌ لأبكار الأقاليم نحوه ... حنينٌ كذا تَهْوَى الكرامَ المكارمُ

ومر بنا فى قسم مصر أن الظاهر بيبرس استولى على كثير من بلدان حملة الصليب وحصونهم مثل قَيْسارية وصَفد والرملة ويافا وأنطاكية مزيلا منها مملكتهم ، ولم يدوِّن ابن تغرى بردى شيئا من شعر الشهاب محمود فى هذه الفتوح الضخمة . ويسير السلطان قلاوون سيرة الظاهر فى منازلة الصليبيين ، ويستولى على طرابلس مملكتهم الثالثة التى أسسوها بعد مملكة بيت المقدس ، وبذلك تكون جميع ممالكهم التى شادوها سقطت من قواعدها ولم يبق فى أيديهم إلا عكا وصور وصيداء

---

(١) تقله : تحمله ... السيف القاطع

(٢) جفن السيف : غمده . الصوارم جمع صارم :

وبيروت وبعض حصون قليلة ، ولم يلبث قلاوون أن استولى منهم على حصن المرقب ، ومجَّد فتوحه الشهاب محمود قائلا .

اللهُ أكبرُ هذا النَّصرُ والظَّفَرُ ... هذا هو الفتح لاماتزعم السِّيَرُ
هذا الذى كانت الآمال إن طمحتْ ... إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانْهَضْ وسِرْ واملك الدنيا فقد نَحلَتْ ... شوقا منابرُها وارتاحتِ السُّرر[1]
إن لم يُوَفِّ الوَرى بالشكر مافتحتْ ... يداك فاللهُ والأملاك قد شكروا

وخلف قلاوون ابنه « السلطان الأشرف خليل » ، وكان بطلا شجاعا مقداما وكان مخوف السطوة قوى البطش ، وبمجرد أن استهلت سنة ٦٩٠ بعد جلوسه على عرش السلطنة بقليل تأهب لحصار عكا ، فجمع الصناع لعمل آلات الحصار وخرج بعساكره من الديار المصرية حتى أحاط بعكا فى شهر ربيع الآخر ، وكان المتطوعون أكثر من الجند ونصب عليها المجانيق ، ولم يلبث أن زحف عليها بجيشه الجرار ودخلها بعد قتال عنيف . وطلب حملة الصليب البحر المتوسط فتبعتهم الجنود الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل . وعَصَى الداويَّة والإسْبتاريَّة فى أول الأمر معتصمين بأبراج عالية ، غير أنهم اضطروا إلى التسليم ، ومن غريب الصدف أنَّ فتحها تم فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ بالساعة الثالثة من النهار فى نفس الموعد الذى كانت قد سقطت فيه بيد حملة الصليب سنة ٥٨٩ . وفى هذا الفتح المبين ينشد الشهاب محمود قصيدة بديعة مهنئا « الأشرف خليل » مفتتحها لها بقوله :

الحمد لله ذَلَّتْ دولةُ الصُّلُبِ ... وعزَّ بالترك دينُ المصطفى العربى
هذا الذى كانت الآمالُ لو طلبتْ ... رُؤياه فى النوم لاستحيتْ من الطلب
مابعد عَكَّا وقد هُدَّت قواعدُها ... فى البحر للشرك عند البرِّ من أَربِ[2]
لم يَبْقَ من بعدها للكفر مذ خَرِبَتْ ... فى البحر والبر ماينْجى سوى الهرب
يايومَ عكا لقد أنسيتَ ماسبقتْ ... به الفتوحُ وما قد خُطَّ فى الكتب
بُشْرَاك يا ملكَ الدنيا لقد شرفتْ ... بك الممالكُ واستعلتْ على الرُّتب

وتفتح أبوابها مدينة صور لجند السلطان ويسلمها إليهم حملة الصليب وتليها مدينة صيداء

---

(١) السرر : جمع سرير : العرش

(٢) أرب : مطلب وأمنية

وقلعة جُبَيْل وعثليث وأَنْطرطوس وبيروت . ويدور العام ويستولى الأشرف على بقية حصونهم ويمد فتوحه إلى الشرق ويستولى على قلعة الروم غربى الفرات ، ويهنئه الشهاب محمود بهذا النصر المتوالى قائلا من مدحة طويلة .

وفتحٌ بَدَا فى إثْر فتحٍ كأنما سماءٌ بدتْ تَتْرى كواكبُها الزُّهْرُ

وعلى هذا النحو سجَّل الشهاب محمود فتوحات السلاطين الثلاثة : الظاهر بيبرس وقلاوون وخليل تسجيلا رائعا . وله وراء هذه المدائح الحماسية مدائح نبوية جمعها فى ديوان سماه : « أهنا المنائح فى أسنى المدائح » وهو مفقود ، وسننشد له قطعا فى حديثنا عن شعراء التصوف والمديح النبوى .

منجك[1] بن محمد بن منجك

شركسى دمشقى نشأ فى بيت نعمة ، فكان أميرا ابن أمير . ولد سنة سبع بعد الألف للهجرة وتوفى سنة ١٠٨٠ ونشأ مثل لداته الدمشقيين يعنى بالعلم والتعليم ، فحفظ صغيرا القرآن الكريم ، حتى إذا شبَّ عن الطوق أخذ يختلف إلى علماء دمشق ، آخذا القراءات على الشيخ عبد الرحمن العمادى والحديث النبوى عن الشيخ الشهاب أحمد الوفائى ، وأبى العباس المقرى . أما الأدب الذى شُغف به منذ نشأته فقد أخذه عن أحمد بن شاهين . وكان كريما مسرفا مبالغا فى إسرافه ، فأنفق ماخلَّفه له أبوه ، حتى إذا تَرِبَتْ يداه وضاقت به دنياه ولَّى وجهه نحو إستانبول ، ولكنه لم يحقق فيها ماكان يأمله فعاد إلى دمشق ، ولم يلبث أن خالط أصدقاءه القدماء . وله ديوان شعر جمعه فضل الله المحبى والد صاحب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر بأمر من مفتى الدولة العثمانية : حسام زاده ، وله فيه مدائح كثيرة . وديوانه يحمل كثيرا من المدائح والغزليات والخمريات ، وأكثر مدائحه فى الفقها والعلماء من شيوخه وغير شيوخه ، وفى مقدمة من مدحهم شيخه فى القراءات عبد الرحمن مفتى دمشق وفيه يقول :

تَنْدَى أناملُه ويُشرقُ وَجهُهُ فيجودُ بالآلاءِ واللَّألاءِ
يقظٌ لأعقاب الأمور كأنما جُلِيَتْ عليه حقائقُ الأشياءِ

---

(١) انظر فى منجك ريحانة الألبا طبعة عيسى الحلبى ٢٣٢/١ وخلاصة الأثر ٤٠٩/٤ ونفحة الريحانة ، وقد طبعت المطبعة الحنفية بدمشق مختارات من ديوانه باسم ديوان منجك .

ومهابةٌ سادَ الولاة ولاؤها محفوفـــةٌ بجلالـــةٍ وبهاء
وشمائلٌ رقَّتْ كما خطرتْ على زَهْرِ الربيع بواكرُ الأنْداء

والصياغة رصينة جزلة ، والألفاظ مختارة منتخبة . والمعانى مكررة فى المديح التقليدى ، غير أن الشاعر يحاول أن يخرجها إخراجا طريفًا على نحو مايتضح فى البيت الأول الذى جمع فيه بين الكرم والبشر المترقرق فى وجه الممدوح ، وبذلك جعله يجود بالآلاء والنعم كما يجود بلألاء الوجه وإشراقه ومايجرى فيه من بشر بهيج . والجناس بين الآلاء واللألاء جناس بديع . وواضح كيف لاءم فى البيت الثانى بين معناه وبين الممدوح وكان مفتيا لدمشق ، فوصفه بالفطنة ودقة الحدس ، وبالمثل البيت الثالث وماجمع فيه بين المهابة والجلالة والبهاء مع حسن الصياغة . وقل ذلك نفسه فى البيت الرابع فشمائل المفتى رقيقة عطرة كزهر الربيع باكرته النسائم والأنداء .

وولىَ القضاء فى دمشق والشام حسام زاده قبل توليه منصب الإفتاء فى الدولة العثمانية وعم فضله وبرُّه أدباءَها ، وله ألف البديعى كتابيه : « هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام » و « الصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبى » ويقول منجك فى تهنئة له بالعيد :

آلَى الزمانُ عليه أن يُوَاليكا يُثْنِى عليك ولا يأْتِى بثانيكا
إذا سَطا فبأحكامٍ تنفِّذها وإن سَخَا فبِفَضْلٍ من مساعيكا
من ذا يُضاهيك فيما حُزْتَ من شرفٍ ومَنْ يُدانيك فى حِلْمٍ ويَحْكيكا
أعيادُنا كلُّها يومٌ نراك بهِ وليلةُ القَدْرِ وَقْتٌ من لياليكا

والملاءمة بين معانى الأبيات ومنصب المفتى — وكان حينئذ قاضيا بدمشق — واضحة ، والمبالغة واضحة فى البيت الأول ، ولكن الشاعر خففها بالجناس بين « يثنى وثانيكا » وعاد إليها بقوة فى البيت الأخير ، وكان يكفيه أن تكون أيام لقائه للقاضى أعيادا ، ولكنه أبى إلا المبالغة المسرفة إذ جعل ليلة القدر وقبول الدعاء بها ممن يحظون برؤيتها وقتٌ من ليالى الشيخ . ولاريب فى أن صياغته ناصعة ، وأنه يغلب على شعره السلاسة ، مع مايوشيه به من جناس وطباق كما فى البيت الثانى . ودائما محسنات البديع عنده مقبولة ، وقلما يمازجها الثقل والتكلف . وله مدحة فى أستاذه المقرى — وهو صاحب نفح الطيب — ويذكر أنه قرأ عليه كتاب « الشفا » وهو فى مدح المصطفى سيد المرسلين ، وتموج المدحة بإجلاله لعلمه وتقواه ، يقول :

يقضى النهارَ بآراءٍ مسدَّدةٍ ويَقْطع الليلَ تسبيحًا وقرآنا

وتلقانا وراء مدائحه فى الديوان وعند من ترجموا له ألغاز ، ومعروف أن الشعراء كانوا قد أخذوا يتلاعبون بها منذ القرن الخامس الهجرى ، وكثرت زمن المماليك والعثمانيين . وله غزليات وخمريات بديعة ، سنذكر منها بعض أبيات فى غير هذا الموضع .

٥

شعراء الفلسفة والحكمة

تشيع الحكمة فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى على نحو مانجد عند زهير ، فقد ضمن معلقته طائفة كبيرة من الحكم ، وكأنهم أرادوا أن يصوروا لمعاصريهم خبرتهم بالحياة وإدراكهم لتجاربها حتى ينتفعوا بذلك أكبر نفع فى فهم شئون الدنيا وشئون الناس وأحوالهم فى سلوكهم . ومضى الشعراء بعد العصر الجاهلى يحاكون الجاهليين فى تغذية أشعارهم بتلك الحكم ، حتى إذا كان العصر العباسى أخذ الشعراء يضيفون إلى تراثهم من الحكم عتادا جديدا من حكمة الفرس والهنود واليونان ، وأخذ النابهون منهم يعتمدون على عقولهم الخصبة فى استخلاص الحكم من خبراتهم بأحوال الدنيا والناس ، حتى ليبلغ بعضهم من ذلك أن تُحْصَى حكمه بالعشرات ، بل أحيانا بالمئات على نحو ماعرف عن أبى تمام الشاعر الدمشقى ، فقد أحصى بعض البلاغيين حكمه فوجدها ثلاثمائة وأربعة وخمسين بيتا سوى تسعين شطرا . وعاش المتنبى أكثر سنوات عمره فى الشام وبواديها وقد بلغ الذروة فى تضمين مدائحه حكما رائعة ، وأحصاها البلاغيون ، فوجدوها أربعمائة ، سوى مائة وثلاثة وسبعين شطرا . ولكثرة مايتناثر فى شعره من حكم أفردها بعض الأسلاف بالتأليف ، وحاول بعض النقاد الوصل بينها وبين حكم أرسطو ، وهى مبالغة مفرطة فى التصور إذ أكثر حكمه من ثمار خبراته بالحياة خبرة فذة . وظل شعراء الشام يستظهرون — بعد المتنبى وأبى تمام — الحكم فى جوانب من أشعارهم ، ولم تلبث الشام أن أهدت إلى الشعر العربى حكيما وفيلسوفا كبيرا ، هو أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ وسنترجم له عما قليل .

وكان الطُّغْرائى قد لمع اسمه بنظمه لامية العجم ، وقد صاغها جميعا حكما وأمثالا على طريقة مزدوجة أبى العتاهية التى سماها ذات الأمثال ، والتى ضمنها أربعة آلاف مَثَلٍ . ولامية الطغرائى لاتبلغ مبلغها فى حشد آلاف من الأمثال ، وليست من بحر الرجز وإنما هى من البسيط على شاكلة نونية البُسْتى المشهورة . وقد أصبح تقليدا عند كثير من شعراء الشام وغيرهم أن يخصوا بعض

قصائدهم بِرَصَفْ طائفة من الأمثال والحكم ، ولابن منير الطرابلسى قصيدة من هذا الطراز يقول فيها[١] :

وإذا الكريمُ رأى الخمولَ نزيلَهُ … فى منزلٍ فالحزمُ أن يترحلا
كالبدر لما أن تضاءلَ جَدَّ فى … طلب الكمال فحازه متنقِّلا
سَفَهًا لحلمك أنْ رضيتَ بمَشْرَبٍ … رَنْقٍ ورزقُ الله قد ملأَ المَلا
فارقْ تَرُقْ كالسيف سُلَّ فبان فى … مَتْنَيْه ماأخفى القِرابُ وأخملا
للقَفْر لا للفقر هَبْها إنما … مَغْناك ماأغناك أن تتوسَّلا

وهى أمثال وحكم يراد بها النصح لسلوك الشخص الكريم على نفسه فى الحياة . فلا يرضى بمنزل هون ، بل يرحل ويتنقل ، فكمال البدر وعز الشخص فى تنقله . ويزجر من يرضى المشرب الكدر ورزق الله قد طبق الملاأوالأرض وملأها بالطيبات ، وهل يقطع السيف إلا بعد أن يُسَلَّ من قرابه أو غمده ، وعار مابعده عار أن يتضرع الشخص ويتذلل لإنسان مثله ، ولأن يركب القفرَ المجدب الخرابَ خيرٌ من أن يقف بباب .

وداثما تلقانا هذه الحكم فى تضاعيف قصائد الشعراء ومقطوعاتهم ، وفى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة منها طائفة جرت على ألسنة أطباء الشام ، ويلقانا منها أيضا منثورات فى كتب التاريخ كقول الشيخ شمس الدين الحمصى[٢] :

الدهرُ كالطيف بُؤْساه وأَنْعمُهُ … عن غير قَصْدٍ فلا تَحْمد ولاتَلُمِ
لاتسألِ الدهرَ فى البأساء يَكْشفها … فلو سألتَ دوامَ البؤس لم يدم

فكل شيء حائل وزائل ولادوام لضر أو نفع ولالبؤس أونعيم ، ولادخل للدهر فى شيء من ذلك ، ولايأس مع رحمة الله فلا بؤس يدوم ولاضر يدوم . وربما كانت أروع قصيدة من قصائد هذه الامثال والحكم فى العصر المملوكى قصيدة عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وهى فى أكثر من سبعين بيتا . وفيها يقول[٣] :

---

(١) ابن خلكان ١٥٦/١

(٢) النجوم الزاهرة ٣٤٥/٧

(٣) الكشكول لبهاء الدين العاملى (طبعة عيسى البابى الحلبى) ٣٠٦/١

اعتزلْ ذكرَ الأغانى والغزلْ وقُلِ الفَصْلَ وجانبْ مَنْ هزَلْ
واتَّقِ اللهَ فتقْوى الله ما مازجتْ قلبَ امرئٍ إلا وَصَلْ
قاطعِ الدنيا فمن عاداتها تخفض العالى وتُعلى مَنْ سَفَلْ
لاتَقُلْ أصلى وفَصْلى أبدا إنما أصلُ الفتى ماقد حَصَلْ
مِلْ عن النمَّام واهْجُرْهُ فما بلَّغ المكروه إلا مَن نَقَلْ

والقصيدة جميعها على هذه الشاكلة حكم وأمثال ونصائح غالية وكأنها أعلام تهدى الإنسان فى سلوكه الطريق القويم . ويظل الشعراء بعد ابن الوردى ينظمون مثل هذه الحكم أيام المماليك وأيضا أيام العثمانيين ، إذ نقرأ لبعض الشعراء حكما وأمثالا منثورة فى أشعارهم وتراجمهم ، كقول حسين بن أحمد الجزرى الحلبى المتوفى سنة ١٠٣٤ للهجرة[١] :

حاذِرْ عِداكَ الأقربين من الوَرَى فأضرُّها القُرَباءُ والقُرَناءُ
وتوقَّ من كيْد الحقود ولينِ ما يُبْدى فقد يُصدى الحسامَ الماءُ

ويذكر ابن معصوم لشاعر يسمى نجيب الدين على بن محمد العاملى رحلة أودعها أشعارا على طريقة ديوان الصادح والباغم لابن الهبَّارية ومافيه من حكم ومعان خلقية تهذيبية ، ويسوق ابن معصوم طائفة من حكمه كقوله[٢] :

المرء لايسلم من حاسدٍ أوشامتٍ فى اليُسْر والعُسْرِ

وتكثر الحكم أيضا فى كتاب نفحة الريحانة للمحبى ، وهى من قديم كثيرة فى الشعر العربى كما أسلفنا . وحرى بنا أن نقف قليلا عند أبى العلاء أكبر شعراء الحكمة والفلسفة لافى الشام وحدها بل فى العالم العربى جميعه . ونتلوه بكلمة عن منصور بن مسلم .

(١) ريحانة الألبا ١/١٢٢
(٢) سلافة العصر لابن معصوم ص ٣١٠

أبو العلاء (١) المعرِّى

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التَّنوخى ، ولد فى ربيع الأول سنة ٣٦٣ للهجرة فى بلدة تسمى « مَعَرَّة النعمان » من أعمال حمص بين حلبْ وحماة ، وإليها ينسب ، واشتهر بكنيته « أبى العلاء » وفى ذلك يقول :

دُعيتُ أبا العلاء وذاك مَيْنٌ ولكنَّ الصحيحَ أبو النُّزُولِ

وأسرته تنحدر من قبيلة تَنوخ إحدى القبائل العربية الجنوبية ، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى اعتلَّ علة الجدرى وذهب فيها بصره ، وكان يقول : « لاأعرف من الألوان إلا اللون الأحمر لأنى أُلْبستُ فى الجُدرىّ ثوبا مصبوغا بالعُصْفُر ، لاأعقل غير ذلك » . وكان بيته بيت قضاء وعلم وشعر ، إذ ظل قضاء المعرة طويلا فيهم ، وألم بهم ياقوت فى ترجمته له بمعجم الأدباء وذكر لهم طرائف من أشعارهم . وطبيعى أن يقتدى بهم فيُكبُّ بعد حفظه القرآن على كتب الدين الحنيف واللغة . وأيضا فإن فقده لبصره مبكرا جعله يُعْنَى بطلب العلم . وتتلمذ على أبيه أولا ومَنْ فى بلدته من تلامذة ابن خالويه ، ولم يلبث حين أخذ ماعندهم جميعا أن رحل إلى حلب وحضر على علمائها وعاد منها وهو فى نحو العشرين من عمره سنة ٣٨٤ . وحين بلغ الثلاثين من عمره سأل ربه إنعاما ، ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر فى السنة والشهر إلا فى العيدين .

ورحل إلى بغداد فى أواخر سنة ٣٩٨ وبقى بها نحو سنة وسبعة أشهر ، وكان من أسباب عودته منها سريعا نشوب خصومة بينه وبين المرتضى العلوى أخى الشريف الرضى بسبب تعصبه للمتنبى ، وأيضا كان قد وصله خبر بمرض أمه ، فعاد عجلا ، ووجدها قد لبَّت نداء ربها . وأخذ نفسه منذ

---

(١) انظر فى ترجمة أبى العلاء وشعره معجم الادباء ١٠٨/٣ وتعريف القدماء بأبى العلاء (طبع دار الكتب المصرية) وفيه كل ما كتب عنه تقريبا فى المراجع القديمة ومن أهمه رسالة الإنصاف والتحرى فى دفع الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى لابن العديم الحلبى وهى دفاع قوى عنه ونفى لما قيل من إلحاده . وانظر فيه كتاب تجديد ذكرى أبى العلاء لطه حسين (طبع دار المعارف) وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف ٣٥/٥ وكتبنا : كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة) ص ٣٧٦ والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٦٥ وفصول فى الشعر ونقده ص ١٠٧ وترجمته فى دائرة المعارف الإسلامية ومطالعات لعباس محمود العقادص ٧٠ وأبو العلاء المعرى للدكتورة عائشة عبد الرحمن ومقدمتها لتحقيقها لرسالة الغفران . وطبع له سقط الزند بشروح مختلفة واللزوميات ورسالة الغفران والصاهل والشاحج ورسائله بتحقيق الدكتور عبد الكريم خليفة وكذلك بتحقيق الدكتور إحسان عباس . وانظر الحضارة الإسلامية لميتز ١١٠/٢ .

هذا التاريخ فى سنة ٤٠٠ بحياة زاهدة خشنة ملازما داره وبلدته لايبرحها ، وإلى ذلك يشير بقوله :

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسألْ عن الخبرِ النَّبيثِ[1]
لفقدى ناظرى ولزومِ بَيْتى وكَوْنِ النفسِ فى الجسمِ الخبيثِ

ثلاثة سجون أحاطت قضبانها به : سجن روحه فى جسده وسجن داره وسجن فقده لبصره ، وظل يفرغ نحو خمسين عاما لنظم زومياته ولتأليف كتبه الكبرى ، ومر بنا أن حلب تبعت مصر منذ سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ وكان أول ولاتها للحاكم بأمر الله الفاطمى عزيز الدولة فاتك الوحيدى وله ألف أبو العلاء كتاب الصاهل والشاحج متحدثا فيه على لسان فرس وبغل ، وقد حققته الدكتورة عائشة عبد الرحمن ونشرته دار المعارف ، ويقول ابن العديم إنه ألفه لفاتك بسبب حق على بعض أقربائه . وله أيضا صنع كتابه « القائف » وهو أمثال على طريقة كليلة ودمنة ، ولم يكد يتم الجزء الرابع منه حتّى توفى فاتك سنة ٤١٣ فعدل عن إتمامه . وولى حلب بعد فاتك سَنَد الدولة الكُتامى سنة ٤١٤ وقدَّم له أبو العلاء الرسالة السَّنَدية فى مجلد واحد .

واعتقل صالح بن مرداس أمير حلب فى سنة ٤١٨ سبعين رجلا من المعرَّة هم مشايخها وأماثلها ، واجتاز صالح بالمعرة ، فخرج إليه أبو العلاء شافعا فيهم فقال له صالح : « قد وهبتهم لك أيها الشيخ » . وعاد إلى داره وهو ينشد :

بُعثتُ شفيعا إلى صالحٍ وذاك من القوم رأىٌ فَسَدْ
فيسمع منِّىَ سَجْعَ الحمامِ وأسمع منه زئيرَ الأسَد

ومنذ حبس نفسه فى داره أصبح ملاذًا لطلاب العلم فى العالم العربى ، فهم يغدون عليه ويروحون يأخذون عنه كتبه وشروحها ، وبالمثل دواوينه وشروحها ، وكثيرا من كتب اللغة وفى مقدمتها كتاب غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام غير كتب لغوية أخرى كثيرة . ويقول ابن فضل الله العمرى : « أخذ عن أبى العلاء خلق لايعلمهم إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبحُّر وديانات .. وكان له أربعة من الكتَّاب المجوِّدين يكتبون عنه مايكتبه إلى الناس ومايمليه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه » . وعقد ابن العديم فى كتابه عنه المسمى « الإنصاف والتحرى » فصلا ذكر فيه مشاهير تلاميذه .

(١) النبيث : الخفى .

وكان أبو العلاء آية خارقة فى الذكاء وقوة الحافظة حتى قالوا إنه كان يلعب النرد والشطرنج ، وإذا سمع حديثا بلغة غير العربية حفظه بحذافيره ، وقد تحول يعبُّ وينهل من ثقافات عصره حتى استوعبها جميعا سواء المترجم عن اليونانية من فلسفة وغير فلسفة ، أو المترجم عن الفارسية والهندية فكل ذلك مضافا إلى الثقافتين : الإسلامية والعربية تمثّله أبو العلاء تمثلا حيًّا خصبا ، يرفعه إلى أعلى منزلة ، يتمثَّل صاحبها التراث الإنسانى جميعه .

ومنذ سنِّ الثلاثين اختار لنفسه صوم الدهر ماعدا أيام الأعياد كما أسلفنا ، واختار لنفسه معه حياة زاهدة ، وذكر ذلك فى شعره إذ قال إن طعامه العدس والتين أوكما يسميهما البلسن والبلس رافضًا ماوراءهما من طيبات الطعام ولذائذه ، إذ يقول :

يقنعنى بُلْسُنٌ يُمارَسُ لى فإن أتتنى حلاوةٌ فبَلَسْ

ويقول ناصر خسرو فى رحلته المسماة « سفرنامه » إنه زاره سنة ٤٣٨ فوجده فى سعة من العيش مما جعل بروكلمان يشك فى أنه عاش معيشة زاهدة . وهو قول مدفوع بإجماع من ترجموا له من القدماء : أنه كان يعيش معيشة زهد وتقشف ، حتى لنرى القفطى — وهو أحد من تحاملوا عليه ورموه بالإلحاد — يقول : لم يكن أبو العلاء من ذوى الأموال ، وإنما خُلِّف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن تحمل المِنَن ، فمشى حاله على قدر الموجود ، فاقتضى ذاك خشِن الملبوس والمأكل والزهدَ فى ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له فى السنة مقدار ثلاثين دينارا قدَّر منها لمن يخدمه النِّصف ، وأبقى النصف الآخر لمئونته ، فكان أكله العدس — إذا أكل — مطبوخا وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن وفرشه من لباد (صوف) فى الشتاء وحصيرة من البَرْدِىّ فى الصيف ، وتَركَ ما سوى ذلك » . وربما كان هذا الدخل القليل من أسباب تركه لأكل اللحم ومستخرجاته من البيض واللبن ، لا أخذًا بمذاهب الحكماء ولااتباعا لمذهب البراهمة الهندى ، كما قيل ، بل لضيق ذات يده وإشفاقا على الحيوان ، ولعله صنع ذلك مبالغة فى الزهد ورفض طيبات الحياة .

وكان أبو العلاء يحسّ بعمق آلام الإنسان فى دُنْياه ، ولعل ذلك ماجعله يعزف عن الزواج حتى لايرزق بولد يكابد من دنياه ماكابده وصرَّح بذلك قائلا :

هذا جناهُ أبى علـــــىَّ وما جنيتُ على أحَدْ

ويقال إنه أوصى بكتابة هذا البيت على قبره حين أوشك على مفارقة الدنيا فى سنة ٤٤٩ . وله

رسائل كثيرة جمع منها أخيرا الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردنى نحو أربعين رسالة ، ونشرها فى ثلاث مجموعات ، بدأها بالرسالة المنيحية التى أرسل بها إلى الوزير البغدادى أبى القاسم المغربى وتلاها بالرسالة الإغريضية المرسلة إلى الوزير نفسه . ويبدو أنه أرسل بالرسالتين إليه بعد فراره لعهد الحاكم بأمر الله من مصر ، وسنعرض لهذه الرسائل فى غير هذا الموضع . ولأبى العلاء أيضا رسالة الملائكة وهى فى مسائل التصريف ، طُبعت قديما بالقاهرة . ورسالة الغفران له مشهورة ، وسنلم بها وبكتابه الفصول والغايات فى حديثنا عن النثر . وله « ملقى السبيل » فى الوعظ والزهد ، وهو فيه يصوغ المعنى نثرا ثم يصوغه شعرا . وله ديوان صغير سماه الدِّرعيات وهو أشعار فى وصف الدروع ، وقد طُبع ملحقا بديوانه الكبير سَقْط الزَّنْد .

ونقف قليلا لنتحدث عن السقط ثم عن ديوانه الكبير الثانى اللزوميات ، والسَّقط أول مايخرج من نار الزند وشرَره ، سمى أبو العلاء ديوانه الأول بهذا الاسم إشارة إلى أنه أول مانظم وسمح به خاطره فشبهه بالسقْط . وهو يجمع شعر الصبا ومنه قصيدة نظمها فى رثاء أبيه وهو فى الرابعة عشرة من عمره وشعر الشباب وبعض شعر له فى الكهولة ومنه قصيدة نظمها فى رثاء أمه وأخرى أرسل بها شاكرا مثنيًا إلى خازن دار العلم ببغداد . وشرح أبو العلاء هذا الديوان وسمىّ شرحه « ضو السقط » وقد طُبع فى مصر قديما . وطَبعتْ دار الكتب المصرية الديوان ومعه ثلاثة شروح : شرح لتلميذه التبريزى وشرح لأبى محمد البطليوسى الأندلسى وشرح لأبى الفضل قاسم الخوارزمى ، وهو فى خمس مجلدات كبيرة . والديوان يكتظ بالمديح والرثاء والفخر والنسيب والوصف وأكثره فى المديح ، وجمهوره فى مديح أشخاص خياليين ، وذكر ذلك فى مقَدمته قائلا « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولامدحت طلبا للثواب وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السُّوس (الطبع) فالحمد لله الذى ستربغُفَّة (بُلْغَةٍ) من قوام العيش » . ونفس ممدوحيه القليلين لم يوجِّه إليهم مديحه – كما قال – طلبا للثواب أو النوال وإنما هم بعض أصدقائه كتبوا إليه فرأى أن يحييهم شعرا ، وربما مدحهم شاكرا صنيعا لهم على نحو ماذكرنا من ثنائه على خازن دار العلم ببغداد واصفا عونه الحميد له فى أثناء تردده على تلك الدار ومكتبتها الكبرى المشهورة . وطبيعى أن يخلو هذا الديوان من الهجاء والخمريات ووصف الصيد . وهو فى الديوان – بعامة – يحاكى المتنبى ، وكان يرفعه فوق جميع الشعراء ، وشرَح ديوانه وسمَّاه معجز أحمد بينما سَمَّى شرحه لديوان أبى تمام : « ذكرى حبيب » وشرحه لديوان البحترى « عبث الوليد » ويفجؤنا فى الديوان فخر عنيف على نحو مانقرأ فى قصيدته :

ألا في سبيل المجد ماأنا فاعل   عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُه   لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

وهذا الصوت القوى المفاخر المباهى بالمجد والعبقرية يكاد يختفى بعد ذلك من الديوان ، إذ يعود أبو العلاء إلى صوته الحقيق : صوت اليأس من الناس والحياة والمعرفة بالدهر وتصاريف أيامه ولياليه . وهو يذكر الليل وظلمته كثيرا ، ولعل ذلك بسبب فقده لبصره ، وأيضا بسبب تشاؤمه وماحمل من أثقال الدنيا دون أن يجد معينا . وقد شكا كثيرا من أنه لايجد فى الدنيا صديقا ولاأخا يُصْفيه الوداد ، مع كثرة بغضه للانفراد ، حتى ليقول :

ولو أنِّى حُبِيتُ الخُلْدَ فَرْدًا   لما أحببتُ بالخُلْد انفرادا
فلا هطلتْ عَلَىَّ ولا بأرضى   سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا

ويبالغ أبو العلاء فى سوء ظنه بالناس فى نفس هذه القصيدة الدالية ، فيقول إن الجوزاء منزل عُطارد المنسوب إليه السِّلْم لو خبرت الناسَ خبرته وبلاءه وجرَّبتْ من كيدهم ماجرَّب وعرفت من خُبْث سرائرهم ما عرف لما طلعت عليهم ليلا ولاتراءت لهم مخافة أن يصل إليها كيد من كيدهم ، يقول :

فظُنَّ بسائرِ الإخوان شرًّا   ولا تأمنْ على سِرٍّ فُؤادا
فلو خبرتْهم الجَوْزَاءُ خُبْرِى   لما طلعتْ مخافةَ أن تُكادا

ومضى يخفف حدة التشاؤم الأسود المعتم ببروق كثيرة من الفخر ، فكانه فى السؤدد فوق السموات السبع رفعة وعلاء ، وإنه ليفلُّ نوائب الأيام وكوارثها وحده بقوته ومَضائه .
وفى رأينا أن أروع قصائد أبى العلاء فى سقط الزند مراثيه لأنها تَفْصل من ذات نفسه ومن أهمها مرثيته لصديقه الفقيه .

غير مُجْدٍ فى مِلَّتى واعتقادى   نوحُ باكٍ ولاترنُّمُ شادى
وشبيهٌ صوتُ النَّعِيِّ إذا قِيـ   ـسَ بصوت البَشيرِ فى كل نادى

وواضح أنه يقول فى مطلعها إن البكاء الحزين كالغناء الفرح دلالتهما واحدة ، إذ سرعان ماتتحول البشارة بالمولود – مهما طالت حياته – صراخا عليه ، حتى لكأن الصوتين متشابهان أو مختلطان اختلاط شجو الحمامة فلا يدرى السامع أتبكى محزونة أم تغنى مبتهجة . ويمضى

أبو العلاء فى مثل هذه الأفكار العميقة طالبا من قارئه أن يخفف من وَطْءِ أقدامه على الأرض ، لأن ترابها من أديم آبائه وأجداده ، وكأن الأرض مقبرة كبرى ، وكم من لحدٍ فيها يضحك من تزاحم الأضداد فيه بين صالح وطالح . ولايلبث أن يقول إن الحياة كلها تعب وعناء وشقاء لاضفاف له ، وإن الحزن على الميت والفجيعة فيه لأضعاف السرور ساعة ميلاده . ولأبى العلاء مرثية ثانية يرثى بها صديقا من أبناء عمومته ، وهى تكتظ بالحكم من مثل قوله :

لو عرفَ الإنسانُ مقدارَهُ   لم يَفْخَرِ المولى على عَبْدِهِ
أَضْحَى الذى أُجِّلَ فى سِنِّهِ   مثلَ الذى عُوجل فى مَهْدِهِ
ولا يبالى المَيْتُ فى قبرِهِ   بِـذمِّه شُيِّع أم حَمْدِهِ
والواحدُ المُفْرَدُ فى حَتْفِهِ   كالحاشد المكثرِ فى حَشْدِهِ
ورُبَّ ظمـآنَ إلى مَوْرِدٍ   والموتُ لو يعلم فى وِرْدِهِ

وديوانه الثانى اللزوميات أو لزوم مالايلزم هو الأهم لأنه يحمل فلسفته أو تفكيره الفلسفى بجميع أسسه وشعبه ، وقد تكلف فيه – كما يقول فى مقدمته – ثلاث كلف : الأولى أنه ينتظم حروف المعجم جميعها ، والثانية أن رويَّه يجىء بالحركات الثلاث ثم بالسكون ، والثالثة أنه التزم مع كل روى فيه شيئا لايلزم من باء أوتاء أو غير ذلك من حروف . وقد أوضحنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى أنه أضاف إلى هذه الكلف الثلاث كلفاً كان يشغل بها الفراغ الطويل الذى نظم فيه اللزوميات إذ امتد الى نحو خمسين عاما . ومن هذه الكلف الدائمةُ ومنها العارضةُ أما الدائمةُ فاستخدامه للفظ الغريب وللجناس وقد التمس فيه ضروبا من التعقيد ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، إذ يجانس تارة بين القافية وكلمة فى البيت وتارة ثانية بينها وبين أول كلمة فيه وقد يضيف إليها حرفا أو أكثر من الكلمة التالية ليستتم نسق الجناس . وبجانب هاتين الكلفتين الدائمتين فى اللزوميات نجد كلفا عارضة من تصنعه الواسع لألفاظ الثقافات المختلفة ، بحيث يُعَدُّ أول من وسَّع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون فى أشعارهم .

ومع كل هذه الكلف والصعوبات التى ضيَّق بها الممرات إلى قوافى الديوان استطاع أن ينظم مجلدين ضخمين من الشعر ، ضمنهما فلسفته أو تفكيره الفلسفى المتشائم وهو تفكير شُغِل فيه بإنسان عصره والإنسان عامة وبالقضية التى طالما شغلت كبار المفكرين قضية الشر الذى يُصَب على الإنسان والحياة الإنسانية صَبًّا دون أن يعرف أسبابه ودون أن يستطيع له دفعا أو ردًّا . ويتسع به

التفكير فى شرور الحياة الإنسانية وآلامها ويستولى عليه تشاؤم لا أول له ولا آخر ، كما يستولى عليه يأس يثقل عليه ثقلا طويلا ويملأ نفسه شقاء وعناء . وإذا كانت الحياة على هذا النحو من الشر ففيم إذن تلقى الأبناء لها من آبائهم وفيم الزواج وهى شر متصل ، شر يؤذن دائما بالكوارث والخطوب وتلاحق الفواجع والنكبات ، ولا منقذ ولا مخلص :

وهل يأبقُ الإنسانُ من مُلْك رَبِّهِ ويخرجُ من أرضٍ له وسماء

إنه أسير شرور الحياة وهو لا يستطيع منها فكاكا ولا خلاصا ، وحريٌّ به أن لا يتخذ ولدا حتى لا يَرْمى به فى أتون هذه الشرور المهلكة . ولا تشغل أبا العلاء فى لزومياته الشرور الكبرى التى تقع دائما على عاتق الإنسان بل تشغله أيضا الشرور الصغرى التى تحيط بإنسان عصره ، وأى شرور ؟ شرور الحكم الفاسد لمصر والشام : حكم الفاطميين الذين أحاطهم دعاتهم بهالة قدسية ، حتى زعموا أن قدرة الله انتقلت إليهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ولجوا فى نعتهم بصفات الله حتى آمنت طائفة فى زمن أبى العلاء بتجسد الألوهية فى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى .

وهذا البهتان فى العقيدة كان يروِّج له دعاتهم وخطباؤهم فى المساجد ، وفى رأينا أنهم المقصودون بحملة أبى العلاء على علماء الدين فى أيامه بمثل قوله :

نادتْ على الدين فى الآفاق طائفةٌ ياقومُ من يشترى دينًا بدينارِ
جَنَوْا كبائرَ آثامٍ وقد زعموا أنَّ الصغائر تجْنى الخُلْدَ فى النار

وهو يتهمهم بأنهم باعوا باتباعهم المذهب الفاطمى دينهم بثمن بخس دراهم معدودة . وكما حمل على علماء الدين المروِّجين للعقيدة الفاطمية حمل على الصوفية لقولهم بالحلول ، وسخِر كثيرا من ذكرهم وتواجدهم فيه ، وسماه رقصا ومن قوله فيهم :

تزيَّوْا بالتصوف عن خداعٍ فهل رُزْتِ الرجالَ أو اعتميتِ (١)
وقاموا فى تواجدهم فداروا كأنهمُ ثمالٌ من كُمَيْتِ (٢)

وهاجم الحكّام عامة الذين يرهقون الشعب بضرائب فادحة ، دون أن يؤدوا بها أى نفع له أو أى مصلحة ، وفى ذلك يقول :

---

(١) راز : اختبر ، اعتمى : اختار

(٢) الكميت : الخمر ، ثمال : سكارى .

وأرى ملوكًا لاتحوطُ رعيَّةً فعلامَ تُؤْخَذُ جِزْيَةٌ ومكوسُ

ويقول فيهم :

ظلموا الرعيَّةَ واستجازوا كَيْدَها فعَدَوْا مصالحَهَا وهمْ أُجَرَاؤُها

فهم أجراء عند الشعب يأخذون رواتبهم من كدِّه ويعتصرونها من عرقه ، ومع ذلك يظلمونه ويبغون عليه ويكيدون له ويأتمرون به . ويتسع بحملته ، فيشمل بها الناس من حوله فلا أخ كما مر بنا ولا صديق ، وقد شاع الطمع والحقد والمكر والخديعة والخلق الزرىّ المشين . ولم ينس المرأة فى إعلان هذا السخط ، فقد وصفها بأنها لاتنصف فى الود ولاتفى للعهد ، ولم ينصح بتعلمها ، فحسبها فى رأيه – الغزل والنسيج والرَّدْن أو الحياكة :

علِّموهنَّ النَّسْجَ والغزل والرَّدْ نَ وخَلّوا كتابةً وقراءه

وإنما دفعه إلى ذلك –فى رأينا – فساد المجتمع فى بعض جوانبه . وقد دفعه شعوره بالرحمة على الفقراء لزمنه والرأفة بهم أن دعا إلى المساواة بين الناس فى السرَّاء والضرَّاء ، يقول :

كيف لايَشْرَكُ المُضِيقين فى النعـ ـمة قومٌ عليهمُ النَّعْماءُ

وكل هذه جوانب تمس إنسان عصره وماكان يريد له من حياة كريمة ، وليس هذا هو الشطر الأكبر فى اللزوميات ، فقد أودعها كما مرَّ بنا آنفا كل ما شعر به من آلام الإنسان وأصابه وأوجاعه فى دنياه إزاء مايُصَبُّ عليه من شرورها وهمومها وأفاعيها التى تلدغه صباح مساء .

ويُشيع أبو العلاء فى أشعاره حيرة تتراءى ظلالها فى اللزوميات مما جعل بعض القدماء والمعاصرين يقولون إنه كان يشك فى كل شىء ويتخذ الشك عقيدة له – كما اتخذه السوفسطائيون – ويسلطه على ماحوله حتى على الديانات ، واستدلوا على ذلك بمثل قوله :

هفَتِ الحنيفةُ والنصارى ماهتدتْ ويهودُ حارتْ والمجوسُ مُضَلَّلَهْ
اثنانِ أهلُ الأرض ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخرُ دَيِّنٌ لاعَقْلَ لَهْ

والبيتان فى هجاء أصحاب هذه الديانات لزمنه لا الديانات نفسها ، إذ توزعوا أيامه فرقا كثيرة ، وكل فرقة تكفِّر أختها فى داخل الدين الواحد ، وكان المذهب الإسماعيلى الفاطمى قائما فى مصر ويدعو له الحكام وعلماء الدين فى الشام . وطبيعى أن يعجب ممن يدعو لهذا المذهب المسرف

فى الغلو غلوًّا شديدًا ، بل المسرف فى الانحراف عن الإسلام انحرافا مفرطا . وقد استعرضنا فى مقالنا عن التفكير الفلسفى فى شعر أبى العلاء بكتابنا « فصول فى الشعر ونقده » الأشعار التى قالوا إنه هاجم بها الديانات ووصموه من أجلها بالإلحاد وأثبتنا أن بينها منحولا كثيرا انتحله عليه خصومه . ويبدو أن أيادى شريرة امتدت إلى اللزوميات قديما وأدخلت عليها فسادا غير قليل ، يدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نقرأ فيها :

قد ترامتْ إلى الفساد البَرَايا واستوتْ فى الضلالةِ الأديانُ

والبيت على هذا النحو يلصق تهمة الالحاد بأبى العلاء ، إذ ينسب الضلالة إلى جميع الأديان ، غير أننا إذا رجعنا إلى كتاب شرح المختار من لزوميات أبى العلاء لابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١ بعد أبى العلاء بسبعين عاما وجدناه ينشده على هذا النمط .

قد ترامتْ إلى الفساد البَرَايا ونهتْنا – لو نَنْتَهِى – الأديانُ

ورواية البطليوسى للبيت أوثق من رواية اللزوميات المطبوعة لأنها أقدم من مخطوطاتها التى اعتمدت عليها وأيضا من النسخ الخطية المحفوظة فى دار الكتب المصرية ، مما يدل بوضوح على أن تحريفات [1] مقصودة لبعض ذوى الأهواء الملحدين أدخلت على اللزميات من قديم . ومن المؤكد أنه أضيفت إليه بعض أشعار الزنادقة [2] مثل ابن الراوندى. وقرأ بعض المعاصرين عنده أبياتا ظنوا منها أنه يؤمن بقدم المادة والزمان والكواكب وخلودها مخالفا بذلك رأى المتكلمين المسلمين فى حدوثها جميعا وأنها ليست قديمة فلا قديم سوى الله ، وهى فى واقع الأمر أبيات شُبِّهت عليهم من مثل قوله :

أرى زَمَنًا تقادم غَيْرَ فانٍ فسبحانَ المهيمنِ ذى الكمالِ

وقوله :

ياشُهْبُ إنك فى السماءِ قديمةٌ وأشرتِ للحكماء كلَّ مُشارِ

---

(١) أشار د . حامد عبد المجيد محقق شرح البطليوسى فى مقدمته إلى أن المحارفيه من اللزوميات يصحح بعض ماحُرِّف من شعر أبى العلاء ووُضع عليه واستشهد على ذلك بالبيت المذكور .

(٢) انظر «أبو العلاء المعرى» للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٢٣٤ وراجع معاهد التنصيص (طبعة بولاق) ص ٧١ وقارن بإنباه الرواة للقفطى ٧٥/١ .

وهو فى البيت الأول جعل الله مسيطرا على الزمان مشيرًا بذلك إلى أنه محدث من صنعه ، وكل ماهناك أنه قال: إن الزمان تقادم أى تعمق فى القدم ، وجعل الشهب فى البيت الثانى قديمة وهو لايقصد بالقدم فى البيتين ما يناقض الحدوث إنما يقصد مايناقض الحداثة بشهادة قوله :

وليس اعتقادى خلودَ النجومِ ولا مذهبى قِدَمَ العالمِ

فهو لا يقول بخلود الأفلاك والكواكب والمادة ولابقدمها كما كان يقول فلاسفة اليونان . وإنما دخل الخطأ على بعض الباحثين من فهمهم القدم فى مثل البيتين السالفين — كما قلنا — بأنه يعنى نقيض الحدوث وهو إنما يعنى نقيض الحداثة ، وقد بسطنا ذلك فى مقالنا عن أبى العلاء بكتابنا المذكور آنفا ، وأوضحنا أنه فى أشعاره مؤمن إيمانا عميقا بالديانات السماوية والدين الحنيف ورسالته السامية ، كما أوضحنا أن هذا الايمان أصل أساسى من أصول تفكيره الفلسفى العلائى ، وأنشدنا له طائفة من الأشعار التى تصور بوضوح إيمانه بالتكاليف الشرعية وبالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل مايتصل به من بعث ونشور من مثل قوله :

أقيم خَمْسى وصومَ الدهر آلَفُهُ وأُدْمن الذكرَ أبْكارًا بآصالِ

فهو صائم الدهر ، فَرَض على نفسه الصوم حين بلغ الثلاثين من عمره كما مر بنا ، وهو دائما يتجه إلى ربه مصليا الصلوات الخمس دون أى انقطاع واصلا صلاته بالصيام والدعاء والذكر والتبتل والاستغفار . ويعترف مرارا بالبعث والحساب وأن ملكين يكتبان عن يمينه وشماله حسناته وسيئاته ، يقول :

قد راعنى للحساب ذكرٌ وغرَّنى أنه بَعيدُ
وعن يمينى وعن شمالى بصحبتى حافظٌ قَعِيدُ

وهو يستلهم فى البيتين قوله تعالى : (إذ يتلقَّى المتلقِّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رَقيبٌ عتيد) . ويعترف بحساب القبر وسؤال الملكين منكر ونكير فيه للناس ، يقول مخاطبًا الليالى :

خَلِّصينى من ضَنْكِ ما أنا فيهِ واطَّرِحِينى لمُنْكَرٍ ونَكيرِ

ويشعر فى عمق بأنه مقصِّر مهما قدم لربه من عبادة ، ويأمل دائما فى عفوه ومغفرته يوم النشور ، يقول ضارعًا :

ومـغـفـرةُ اللهِ مـرجوَّةٌ إذا أصبحتْ أعظمى فى الرِّمَمْ
وبـالـيـتـنى هـامـدٌ لا أقومُ إذا نهضوا يَنْفُضون اللِّمَمْ
ونادَى المنادى على غَفْلةٍ فلم يَبْقَ فى أذُنٍ من صَمَمْ
وجاءتْ صحائفُ قد ضُمِّنَتْ كبَائرَ آثامِهم واللَّمَمْ (١)
وليتَ الـعـقـوبـةَ تَحْرِيقةٌ فصاروا رمادا بها أو حُمَمْ (٢)

فهو آمل فى غفران الله . ومع حياته الزاهدة الناسكة يخاف لقاء ربه حتى ليتمنى أن لايبعث يوم القيامة (يوم يُنادِ المُنادِ من مكان قريب) كما جاء فى سورة ق ، فيهبُّ الناس من رقادهم . ويقول أبو العلاء إنهم يسمعون النداء أو الصيحة بآذانهم ، ويستلهم مثل قوله تعالى : (وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائرَه فى عُنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) . ومايلبث أن يقول ليت العقاب يوم القيامة كان تحريقا يصبح العصاة به رمادًا أو حمما فيستريحون ، ولكنه عذاب خالد ، وقد تكرر ذلك فى القرآن كثيرا مثل : (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

ولعل فى ذلك مايسقط كل ما قاله عنه بروكلمان فى ترجمته له من أنه كان لايعترف برسالة الإسلام وأيضا ماقاله بعض المعاصرين عنه من أنه كان منكرا للنبوات جاحدًا بالرسالة المحمدية ، وكيف يقال عنه إنه كان يجحدها ، وله قصيدة رائعة فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ختمها بقوله بعد إشادة رائعة به وبرسالته النبوية :

فصلَّى عليه اللهُ ماذرَّ شارقٌ وما فَتَّ مسكًا ذِكْرُه فى المحافلِ

واقترن ذلك عنده — كما مر بنا — بالزهد والتقشف وهو فيهما يصدر عن الإسلام وروحه ، وحقا كان متشائما تشاؤما عميقا يملأ حنايا نفسه ، ولكن كان لايزال يومض له بريق الأمل فى رحمة ربه وعفوه ، يقول :

وما أنا يائسٌ من عَفْوِ رَبِّى على ماكان من عَمْدٍ وسَهْوِ

وذهب بعض المعاصرين إلى أنه اتخذ العقل إمامًا له ، لايثق ولايستسلم ولايلقى مقاليده إلا إليه ، لمثل قوله :

كذَبَ الظنُّ لاإمامَ سوى العَقْـ ـلِ مشيرًا فى صُبْحِهِ والمساء

(١) اللمم : الذنوب الصغيرة (٢) الحمم : ما أحرق من خشب وغيره

وظنوا أن فى ذلك مايتصل من بعض الوجوه لإنكاره – فى رأيهم للنبوات ، وفاتهم أنه متابع فى تمجيده للعقل واعتزازه به للمعتزلة وقد مرت بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أبيات بشر بن المعتمر المعتزلى الرائعة فى تمجيد العقل ، ومازال المعتزلة يشيدون به حتى نفذ الجُبَّائى وابنه أبو هاشم إلى إثبات شريعة عقلية بجانب شريعة الوحى السماوى وهى لا تخالفها بل تشهد لها وتسندها . وأبو العلاء يتابع الجبائى وابنه ، وكان يخالفها الأشعرى ، ولذلك حمل عليه أبو العلاء فى رسالة الغفران . وكان – مثل المعتزلة – يفسح للظن ، إذ الظن أساس المعرفة وأساس مايصل إليه الإنسان من اليقين وفى ذلك يقول :

أما اليقينُ فلا يقينَ وإنما ... أقصى اجتهادى أن أظنَّ وأَحْدِسا

فمبلغ علمه الوصول إلى الظن ، وهو بذلك يتفق مع المعتزلة القائلين بأن كثيرا من التكاليف العقلية والشرعية مرجعه فى الاجتهاد إلى الظن .

ويذهب بعض دارسى أبى العلاء إلى أنه كان يؤمن بالجبر مكرِّرا أن الإنسان يدخل الدنيا كارها ويخرج منها كارها ، يقول :

خرجتُ إلى ذى الدار كَرْهًا ورحلتى ... إلى غَيْرِها بالرَّغْم واللّهُ شاهدُ

وأبو العلاء إنما كان يؤمن بالجبر فى حياته وموته ووجوده فكل ذلك يحدث بإرادة الله ولا دخل لإرادة الإنسان فيه ، إذ لا نخرج إلى الدنيا اختيارا ولانرحل عنها اختيارا ، وهو مالاينكره عليه أحد من القائلين بحرية الإرادة للإنسان إذ يريد بها المعتزلة – وهو معتزلى مثلهم – إرادة الأعمال والأفعال ، ويقدِّم على ذلك دليلا قاطعا حاسما قائلا :

إن كان مَنْ فعل الكبائر مُجْبَرًا ... فعقابُه ظلمٌ على مايفعلُ

وهو بذلك ينكر الجبر صراحة فيما يقترف الإنسان من كبائر ، ويرتب أبو العلاء عليه – عند القائلين به – نسبة الظلم إلى الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . وهو بذلك يصدر عن فكرة المعتزلة القائلة بوجوب العدل على الله كما يصدر عن فكرتهم أن الإنسان حر تام الحرية فى أفعاله وتصرفاته أما ما وراء ذلك من الأعمال الكونية فخاص بالله وارادته العليا ولذلك يقول :

لا تَعِشْ مُجْبَرًا ولاقَدَرِيًّا ... واجتهدْ فى توسُّطٍ بَيْنَ بَيْنا

فمذهبه فى حرية الإرادة مذهب المعتزلة ومذهبه فيما يخرج عن إرادة الإنسان من نظام الكون والوجود مذهب الجبر ولايخالفه معتزلى فى ذلك ، لأن أحدا لايستطيع أن يقول إنه يولد باختياره أو يموت باختياره ، وإنما الجدل بين الجبرية والقدرية فى إرادة الإنسان إزاء تصرفاته وهل هو حر مختار يتصرف فى أفعاله وأعماله بمشيئته أو هو كريشة فى مهب رياح القضاء والقدر تسيِّره كما تريد . واختار القدرية والمعتزلة الرأى الأول ، وهو مااختاره أبو العلاء بين ما اختاره من الأفكار الاعتزالية وقد صرَّح مرارا بما قاله المعتزلة من تنزيه الله عن التجسيد والشبه بالمخلوقات :

ولعل ماأسلفنا من الحديث يوضح فى إجمال كيف كان أبو العلاء فيلسوفا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكيف أن فلسفته كانت تقوم على تشاؤم حاد يُرَدُّ إلى فقده لبصره صبيا وإلى ما أطبق على المجتمع لزمنه من شرور ومن حكم فاسد ، كما تُردّ إلى إحساسه العميق بآلام الإنسانية التى ملأت قلبه لوعة ، مما جعله مفكرا إنسانيا عظيما . هذا جانب فى فلسفته ، وجانب ثان استمدَّه من الدين الحنيف ومافيه من دعوة إلى الزهد والتقشف والإيمان الصادق بالله وملائكته وكتبه وتكاليفه الشرعية واليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب ، مع الاعتقاد بحدوث الكون وكلٍّ مافيه من مادة وزمان وأفلاك وكواكب ، فالله خالق الكون ومبدعه قال له : كن فكان . وجانب ثالث فى فلسفته استمده من الاعتزال ومافيه من تمجيد العقل وتقديسه ، ومن وجوب العدل على الله وتنزيهه عن التجسيد ، ومن الإيمان بحرية الإرادة للإنسان وأنه حر كامل الحرية فى أفعاله الشريرة الآثمة والخيِّرة الطيبة .

منصور[1] بن المسلم

هو منصور بن المسلم التميمى الحلبى المعروف بالدُّمَيْك وبابن أبى الخُرْجَين ، ولد بحلب سنة ٤٥٧ وبها نشأ وحفظ القرآن كعادة لداته واختلف إلى شوخها ، وشُغف خاصة بالعربية وأساتذتها ، فتزود منها خير زاد ، وأنس من نفسه رغبة فى تعليمها وانتقل عن حلب وسكن دمشق ، وتحول بها مؤدبا يعلم الصبيان فى مسجد الرماحين وغيره ، وظل فى هذا العمل يشغل به حياته حتى توفى سنة نيف وعشرين وخمسمائة . وكان يتقن العربية ، مما جعله يصنف كتابا فى الرد على ابن جنى فى كتابه « إعراب الحماسة » ويقول مترجموه إنه دلّ فيه على تعمق فى العربية وجودة

---

(١) انظر فى منصور بن المسلم الخريدة (قسم الشام) ١٦٩/٢ ومعجم الأدباء لياقوت ١٩٤/١٩ وإنباه الرواة للقفطى ٣٢٦/٣

غَوْص . ويقول ياقوت كان له ديوان شعر وقفت عليه بخطه الرائق فوجدته مشحونا بالفوائد النحوية ، وقد شرح ألفاظه اللغوية واعتنى بإعرابه فدلَّ على تبحره فى علم العربية » . وروى العماد الأصبهانى فى الخريدة طائفة من شعره ، بينها غزل كثير يدل على رهافة حسه ودقة شعوره من مثل قوله :

أأحبابنا إن خَلَّف البَيْنُ بعدكم قلوبًا ففيها للتفرُّقِ نيرانُ
رحلتم على أن القلوبَ ديارُكم وأنكمُ فيها على النَّأْيِ سُكَّانُ

ونمضى معه فى هذا الغزل الملتاع وإذا هو يذكر غربته فى دمشق ، وينتقل من الغزل إلى سرد بعض خبرات له فى الحياة ، مما تعمق نفسَه فى غربته الطويلة عن ملاعب صباه وشبابه وعن مجالس إخوانه وخلاَّنه ، يقول :

وماباختيارِ المرء تَشْعَبُ نِيَّةٌ فَتَبْرَحُ أوطارٌ وتَنْزح أوطانُ (١)
عسى موردٌ من ماء جَوْشَنَ نَاقِعٌ فإنى إلى تلك الموارد ظمآنُ
وما كلُّ إنسان ينال مُرَادَه ويُسعدُهُ فيما يحاول إمكانُ
وعيشُ الفتى طعمان حُلْوٌ وعَلْقَمٌ كما حالُه قِسْمان : رزقٌ وحِرْمانُ

وهو يألم لغربته ونزوحه عن وطنه ، ويتمنى جَرْعة من ماء الآبار فى جبل جوشن المشرف على حلب ينقع بها لهيب ظمئه إلى موطنه ودياره . ويسوق ذلك فى عبارات عامة تحيل البيتين الأول والثانى حكمتين بديعتين ، وكأنه يريد أن يعزى نفسه فينظم الحكمتين التاليتين ، فليس كل إنسان تتحقق مناه ويعيش سعيدا ، بل كان إنسان يذوق الحلو والمر فى حياته كما يذوق الرضا والحرمان . ويستهل قصيدة أخرى بالغزل أيضا ومايلبث أن يفضى إلى الحكم قائلا :

رأيتُ الفتى يأتيه ما لا ينالهُ بِسَعْيٍ ولو أَنْضَى الرَّكائب والرَّكْبا (٢)
ومَنْ رام إدراك المُنَى بفضيلةٍ فقد رام أمرًا ليس يدركه صعبا
ويذهب بالودِّ المِراءُ ويَمْتَرى حَفائظَ لاتبقى على صاحب صَحْبا (٣)
توقَّ قليلَ الشرِّ خوفَ كثيرِهِ ولاتحقرنَّ النَّزْرَ رُبَّتَما أرْبَى
فإن صغيرَ الشىء يكبرُ أمرهُ وكم لفظةٍ جَرَّتْ إلى أهلها حَرْبَا

(١) تشعب : تبعد
(٢) أنضى : أتعب . الركائب : الابل
(٣) يمترى : يستثير : حفائظ جمع حفيظة وهى الغضب والحمية .

وهو يتكلم فى أول الأبيات عن الحظ ومايغدقه على الإنسان ، دون سعى ، من منى لو أضنى فيها الركائب والركب مانالها أبدا ، ومهما تذرع لها من فضيلة وخصال طيبة مادنت قطوفها منه بحال ، وينصح الأصدقاء أن لاينشب بينهم مراء ولاجدال مقيت لأنه يثير حفائظهم ومكامن الغيظ منهم ويقطع مابينهم من صلات . ويوصى الإنسان أن يتجنَّب قليل الشر حتى لايقع فى وهاده الكثيرة السيئة ، وأن لايظنه – مهما صغر وتضاءل – شيئا لايؤبه به ، فقد ينمو كما تنمو النار من بعض الشرر ، وكم من شر قليل حقير نما واستفحل واستعصى علاجه ، وكم من لفظة حمقاء أوقدت نار حرب مستطيرة . وينثر فى قصيدة ثالثة طائفة من الحكم كقوله :

وقد يُحْبِبُ الإنسانُ مافيه نَقصُهُ ... ويُبْغض مايَنْمِى به ويزيدُ
نريد من الأيام تَصْفو من الأذى ... وتَصْفو ولايَقْضى بذاك وجودُ [١]
وكيف نروم العيش خِلْوًا من القَذى ... وللماء من بعد الصَّفاء ركود
إذا كان يُعْطَى المرءُ مايستحقُّه ... تساوى شقىٌّ فى القَضَا وسعيد
ومن جَرَّب الدنيا على سوء فِعْلها ... يعيبُ ذميمَ العيش وهْو حميد

وقد ألهمه البيت الأول قوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌّ لكم) ويقول إننا نريد من الأيام صفاء من الشوائب وأن تكون ضافية سابغة رغدة ولاتقضى بذلك سنة الوجود ، حتى فى الطبيعة ، فالماء يركد بعد صفء وحركة دائبة . ولو أن كل شخص نال ماتمنى لخالف ذلك سنة الحياة وأن الناس منهم شقى وسعيد ، وجديربمن خَبر الدنيا أن يرضى بميسور عيشه وأن يصبح فى رأيه حميدا لاكريها مذموما . ومن طريف شعره .

النَّاسُ كالأرض ومنها هُمُ ... من خَشِنِ اللَّمْسِ ومن لَيِّنِ
مَرْوٌ توقَّى الرِّجْلُ منه الأذى ... وإثْمِدٌ يُجْعل فى العين [٢]

وهو تقسيم بديع للناس فهم كأمهم الأرض معادن مختلفة ، منهم الصَّلد الذى لايأتى بخير بل قد يؤذى ، ومنهم الكحل النافع الذى يبرئ العين ويزيدها حسنا وبهاءً وجمالاً . وللمنصور وراء ذلك أشعار يدعو فيها إلى الزهد فى الدنيا والتقوى والعمل الصالح .

---

(١) تصفو : تصبح رغدة هانئة

(٢) المرو : الحجر الصلد . الإثمد : الكحل

حسين[١] الجزرى

هوحسين بن أحمد الجزرى الحلبي ، ولد بحلب وبها نشأ لزمن العثمانيين فحفظ القرآن الكريم ثم اختلف إلى حلقات الشيوخ والأدباء وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقصد به الرؤساء والحكام فى دمشق والعراق ودخل القسطنطينية واصطفاه بنو سيفا أمراء طرابلس لأنفسهم ، فنظم فيهم كثيرا من مدائحه ، وفيه يقول ابن معصوم : « أحد صاغة القريض .. العالم بشِعار الأشعار والمقتنى لأبكار الأفكار .. راقت بدائع آدابه ورقَّت ، وملكت روائعه حرَّ الكلام واسترقَّت » ويقول الشهاب الخفاجى : « أديب له أوصاف حُسْنى ، ومثاقب هن الوشى بهجة وحسنا » توفى سنة ١٠٣٤ للهجرة . وله ديوان شعر نشر فى بيروت أولا ثم نشره الطباخ مع ديوانى مصطفى البابى والفتح بن النحاس فى مجموعته : العقود الدرية . وأشعاره موزعة بين المديح والغزل والفخر والشكوى ، وكان يشغف بالحكمة ينثرها فى الشعر قائلا :

الشعرُ ما شاقتْك منهُ حكمةٌ لامايشوِّقك الكثيبَ الأوْعَسا[٢]

فليس الشعر فى رأيه مايصور نزعة الحب الإنسانية وإنما الشعر مايفيد تجربة وخبرة وبصرًا بالحياة . وهو لذلك لايعد الشعر المشوق لديار الحبيبة ومعاهدها من كثبان وَعْساء وغير وعساء شعرا رفيع المنزلة فأرفع منه مايزيدك إدراكا بالحياة من حولك ، ويعرِّفك كنهها وحقيقتها ، يقول فى تضاعيف غزل له :

إن المحبَّـةَ محنةٌ لامـنحةٌ ومن الغرام بَرَى المحبَّ المغرما
وإذا مُنِعْتَ الماء أول مرَّةٍ ووردْتَهُ أخرى تذكَّرتَ الظَّما
فى كل يومٍ روعةٌ أو لوعةٌ والفذّ تُقْعده الحوادث توأما
ولقد ملئتُ تجارُبا وتجاربًا لن تلقنى إلا إناءً مُفْعَما

وهى أفكار يعطيها صفة التعميم مما يجعلها حكما وأمثالا ، فالحب محنة لامنحة يضنى صاحبه ، ومَنْ تصدّه صاحبته أول مرة كمن يُصَدّ عن الماء وهو شديد الظمأ إذ لايزال يذكر ذلك حتى لو

(١) انظر فى ابن الجزرى وشعره سلافة العصر ص ٣٩٣ وريحانة الألبا ١/١١٣ وخلاصة الأثر ٢/٨١ وانظر ديوانه فى مجموعة العقود الدرية

(٢) الكثيب : تل الرمل . الأوعس : الذى تغيب فيه الأرجل للينه

أتيح له الورود ، فظمؤه ولهفته القديمان لايبرحان ذاكرته ، وهل فى الحب إلا صَدٌّ وامتناع وعذاب ، والمحب يصلى الروعة بعد الروعة واللوعة بعد اللوعة ، ويقول إنه مُفْعم بالتجارب كما يُفْعَمُ الإناء بالماء ، وينشد :

أرى اليأسَ عِزًّا والرَّجا ذلَّةَ الفتى   وطولَ المنى عجزا وحبَّ الغنى فَقْرا
فلا تَضْجَرَنْ من حالةٍ مستحيلةٍ   كما نِلْتَها عُسْرًا ستتركها يُسْرا
وإن الفتى كالغُصْن مادام نابتا   فآونةً يُكْسَى وآونَةً يَعْرَى

وهو يرى اليأس من الناس وتحقيق الآمال لاإحدى الراحتين فحسب ، بل عزًّا مابعده عز ، كما يرى الرجاء وخاصة فى الناس ذلا مابعده ذل ، واتساعَ الأمانى عجزا لايشبهه عجز ، والتطلعَ إلى الغنى فقرًا لا يماثله فقر . فخير للانسان أن يقنع وأن يرضى من دنياه بالكفاف . ويوصيه أن لا يضجر من شدة تنزل به لانها لابد أن تستحيل وتتحول ، فكل عسر معه يسر ، وماأشبه الإنسان بغصن شجرة يَعْرَى من الأوراق ويُكسى بها كل عام . ويقول :

إن خَصَّنى بالبؤس دهرى دائما   دون الوَرَى فأنا بذلك أفضلُ
هذى عقاقيرُ العِطارةِ كلُّها   لم يحترق منهن إلا المَنْدَلُ

فهو يتقبل البؤس راضيا ويتعلل لبؤسه بأنه أشبه مايكون بالمندل أو العود الطيب الرائحة فإنه يحرق وحده دون ماعند العطار من صنوف عطارة كثيرة . ويتردد فى أشعاره ذكر الحرمان وأن الكريم لاتضره قلة المال بينما اللئيم لايُجْديه ولاينفعه الثراء ، ويحاول أن يجد له ولأمثاله من الأدباء والفضلاء تعلُّلات للتضييق على نفر منهم فى الرزق بمثل قوله :

لاتحسب الأرزاق تُقْسمُ باطلا   كلا لقد ساوى المهيمنُ بَيْنَها
فإذا رُزقتَ الجهلَ أدركتَ المُنَى   وإذا حُرِمتَ الجَدَّ أُعْطيتَ النُّهَى

وكأن أهل الأرض فى رأيه اثنان:جاهل ثرى له كل مايأمل ويتمنى وكأن الدنيا طوع أمره ، وعاقل (أديب أو عالم) فقير حُرِم الجَدَّ أو الحظ وحرم معه إكسير الحياة من المال والثراء والنعيم . ويقول :

غَيْرُ بِدْعٍ إذا ظُلمتَ بدهرٍ   رُزِق الغَمْرُ فيه حَظًّا عظيما
فالهواءُ الصحيح يُدْعَى عليلاً   واللَّديغُ المصَابُ يُدعَى سَليما

وهو يواسى من يحسُّون بأنهم مظلومون فى دنياهم لم ينالوا حظهم الطبيعى من الرزق والعيش الكريم ، بينما المغمورون يعيشون فى بحبوحة من الثراء والنعيم . ويقول إن النسيم المنعش الصحيح يدعى عليلا واللديغ يدعى سليما من تسمية الأضداد ، ولعل فى ذلك بعض المواساة للمظلومين المحرومين . ويقول :

رُوَيْدَك إن بعد الضِّيق مخرجْ   وصَبْرك عنده أبهى وأبهجْ
وكم من كُرْبةٍ عَظُمت وجَلَّتْ   وعند حلولها الرحمنُ فَرَّجْ

وهو يدعو إلى الصبر عند الشدة والضيق إذ لابد من رباطة الجأش دون أى تبرم ودون أى خور وضعف ودون أى يأس ، مع الاعتصام بالله والأمل الدائم فى رحمته ، وأنه لابد كاشف الكرب والأهوال مهما اشتدت وإن فرجه لقريب ، وإنه لدائما مع الصابرين الذين لاييأسون أبدا من عونه . ولابن الجزرى وراء هذه الحكم وما يماثلها فى أشعاره – كما قدمنا – مدائح كثيرة ، وله فيها أبيات بديعة من مثل قوله :

يُلبِّيك من قبل السؤالِ نَوالُه   ويأتيك دون الإنتظار نُضارُه

وله أبيات مختلفة فى الشكوى من الناس والأصدقاء ، وفى غزله أبيات كثيرة جيدة ، وقد كان شاعرا محسنا مجوِّدًا .

٦

شعراء التشيع

مرَّ بنا فى حديثنا عن التشيع أنه عُرف فى سَلَمْية بالشام مع حركة عبد الله بن ميمون القدَّاح حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى الداعى لمذهب الإسماعيلية المعروف ، وهذا إنما يصدق على تلك الحركة الشيعية . ويبدو أن أفرادًا من الشام كانوا يتشيعون قبل هذا التاريخ ، لا التشيع الغالى المفرط ولكن التشيع المعتدل المقتصد ، ويسلك فيهم بعض الباحثين أبا تمام لمثل قوله عن قصيدة له مخاطبا المأمون (١) :

ووسيلتى منها إليك طريفةٌ   شامٍ يدين بحبِّ آلِ محمدِ

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/٥٥

وقد ذهبنا فى كتابنا العصر العباسى الأول إلى أن أبا تمام لم يكن يصدر فى مثل ذلك للمأمون عن تشيع إنما كان يريد أن يتقرب للخليفة بذكره لآل البيت . ومعروف أن المأمون كتب إلى الآفاق بتفضيل علىّ على أبى بكر وعمر ، مما جعل الشاعر يشيد بعلى ومواقفه فى عهد الرسالة . ويلقانا بعده ديك الجن الحمصى المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة وتشيعه أوضح من تشيع أبى تمام إذ نجد عنده أشعارا فى أهل البيت ومراثى تندب الحسين وتبكى مصرعه من مثل قوله فى افتتاح إحدى مراثيه [١] :

يا عيْنُ لا للغَضَا ولا الكُثُبِ ... بُكا الرَّزايا سوى بُكا الطَّرَبِ [٢]
ياعَيْنُ فى كَرْبلا مقابِرُ قد ... تركْنَ قلبى مقابرَ الكُرَبِ
من البَهاليلِ آلِ فاطمةٍ ... أهلِ المعالى والسادة النُّجُبِ
كم شَرِقتْ منهم السيوف وكم ... رُوِّيتِ الأرضُ من دمٍ سَرِبِ [٣]

ويقول أبو الفرج عن هذه المرثية إنها مشهورة عند الخاص والعام ويناح بها ، كما يقول إنه كان يتشيع تشيعا حسنا [٤] ، فتشيعه كان تشيعًا معتدلا .

ولم تعرف الشام التشيع المفرط الغالى إلا منذ القدَّاح ودعوته الإسماعيلية التى اتخذ لها سَلَمْيَة بالقرب من حمص وحماة مركزا ، وأخذ القرامطةُ يشيعون هذه الدعوة بين بدو الشام ، غير أن دمشق ظلت بعيدة عن التشيع على الأقل حتى أوائل القرن الرابع إذ نجد النسائى صاحب كتاب السنن يلم بها سنة ٣٠٣ وكان يتشيع ، فسألوه عن معاوية وما رُوى من فضائله فأبى أن يفضله ، فمازالوا يدفعونه من المسجد ، ويقال : داسوه بالأقدام . وخرج من دمشق خائفا يترقب إلى الرملة فمات بها . ويبدو أن الدعوة الشيعية — لقيت لها آذانًا صاغية بحلب منذ مطالع القرن الرابع ، ويلقانا هناك الصنوبرى المتوفى سنة ٣٣٤ وكان يتشيع — فيما يبدو — تشيعا معتدلا . ونراه يذكر — مايؤمن به الشيعة من وصية الرسول عليه السلام لعلى بالإمامة بعده ، وله مراث فى الحسين تبكيه بكاء حارا من مثل قوله [٥] :

---

(١) الديوان (فى طبعاته المختلفة) وأدب الطف أو شعراء الحسين لجواد شبر ٢٨٤/١

(٢) شجر الغضا . من أشجار البادية . يقصد بذكره وذكر الكثبان شعر النسيب

(٣) شرقت : غصت . سرب : سائل .

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٥١/١٤

(٥) أعيان الشيعة ٣٥٦/٩ وانظر أدب الطف أو شعراء الحسين ١٩/٢

يومَ الحسين هَـرَقْتَ دَمْـ ـعَ الأرض بل دمعَ السماء
مَنْ ذا لمعـــقور الجوا دِ ممُالِ أعواد الـخِـبـاء
مَنْ للطريح الشِّلْو عُرْ يــانـا مخلَّي بـالـعَـراء
من لـلـمحـنّـط بالـثُّرَا ب ولـلـمغسَّـلِ بـالـدماء

ومن أهم شعراء الشيعة الإماميين بعده أبو فراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ ، ومعروف أن الحمدانيين كانوا شيعة إمامية ، ويشتهر أبو فراس بقصيدة ميمية تصور عقيدته الشيعية وفيها هاجم العباسيين هجوما عنيفا ودافع عن العلويين دفاعا حارا ، وتسمى الشافية افتتحها بقوله[١] :

الدينُ مُختَرَمٌ والحقُّ مُهتَضمُ وفَيْءُ آلِ رسولِ الله مُقْتَسَمُ

والفيئ : غنيمة الحرب ، وهو يشير إلى فَدك وكانت فيئا لرسول الله فى غزوته لخيبر والقرى حولها . وكانت السيدة فاطمة الزهراء فكرت فى إرثها عن أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكّرها أبو بكر الصديق بقوله : « نحن معاشرَ الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » فاستجابت توًّا الرأيه وكان ينبغى أن يستجيب له أيضا أبو فراس . والقصيدة فى واحد وستين بيتا . ويعلن فى ديوانه مرارا أنه شيعى إمامى ، ويذكر أئمتهم الاثنى عشر فى مثل قوله[٢] :

شافِعِى أحمدُ النَّبِىُّ ومولا يَ علىٌّ والبنتُ والسِّبطانِ
وعلىٌّ وباقرُ العلم والصا دقُ ثم الأمينُ ذو التِّبيانِ
وعـلىٌّ والمتَّقِى ابـنُ علىٍّ وعـلىٌّ والـعسكرىُّ الـدانى
والإمامُ المهدىُّ فى يوم لاينْـ ـفَعُ إلا غُفْرانُ ذى الغُفْرانِ

والأئمة الاثنا عشر فى الأبيات مرتبون ، وهم على بن أبى طالب وابناه سبطا الرسول ، الحسن والحسين وعلى زين العابدين بن الحسين وابنه محمد الباقر وابن الباقر جعفر الصادق وابنه الأمين موسى الكاظم ونجل الكاظم على الرضا وابنه محمد الملقب بالمتقى والجواد ثم ابنه على الهادى ونجله حسن العسكرى ثم ابنه محمد المهدى ويسميه القائم فى مقطوعة ثانية ذكر فيها الأئمة الاثنى عشر حتى انتهى إلى العسكرى بن الهادى قائلا[٣] :

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى (نشر وتحقيق د . سامى الدهان) ٣٤٨/٣
(٢) الديوان ٣٩٧/٣
(٣) راجع ٤٢٩/٣ وما بعدها .

وابنهُ العسكرىّ والقائمُ المظـ ـهرُ حَقىّ محمدُ بن علىٍّ

ويعتقد الإمامية وخاصة الغلاة أن محمدا المهدى لم يمت وأنه غاب وسيعود ويسمونه قائم الزمان . وسنعرض هذه الفكرة عرضا أكثر تفصيلا فى حديثنا عن بهاء الدين العاملى . ويلقانا فى القرن الخامس الهجرى ابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ وهو شيعى إمامى ، ومن آثار تشيعه فى شعره قوله(١) :

وقالوا قد تغيَّرتِ الليالى وضُيِّعَتِ المنازلُ والحقوقُ
وأقسمُ ما استجدَّ الدهرُ خُلْقًا ولاعدوانُه إلا عَتيقُ
أليس يُرَدَّ عن فدكٍ علىٌّ ويملك أكثر الدنيا عَتيق

وهو يأسى لعلى وزوجته فاطمة الزهراء أنها رُدَّتْ عن ميراث فدك وقد كانت فكرت كما ذكرنا ذلك آنفا فى أن ترثها ، وذكَّرها أبو بكر بحديث أبيها ﷺ واستجابتْ له راضية . وكبُرت كلمةً تخرج من فم ابن سنان أن يقول عن الصدِّيق الزاهد الذ أنفق أمواله فى دعوة الإسلام : إنه ملك أكثر الدنيا ، وهو لم يملك شيئا ، إن يقول إلا بهتانا وزورا .

وكان يعاصره كشاجم وكان أصغر منه سنا ، وكان يتشيع لمذهب الإمامية ، وسنخصُّه بترجمة عما قليل . وربما كان أهم شعراء الشيعة بالشام فى القرن الخامس الهجرى ابن حَيّوس الشاعر الدمشقى ، وسنفرد له الآخر ترجمة . ويلقانا بعده عند العماد الأصبهانى فى كتابه الخريدة شعراء شاميون شيعيون متعددون عاشوا فى القرن السادس الهجرى ، غير أنه – على عادته كما ذكرنا فى قسم مصر – لايُعْنَى بشعرهم الشيعى إلا بعض مقطوعات قلما توضح لهم مذهبا أو نحلة ، منهم ابن قُسَيْم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ وقد أنشد له العماد فى حب آل البيت قوله(٢) :

ويَدٍ بآل محمَّدٍ عَلِقَتْ منِّى فلستُ بغيرهم أَرْضَى
جعل الإلٰهُ علىَّ حُبَّهمُ وعلى جميع عبادِه فَرْضَا
فأثارَ ذلك من زنادقةٍ حَسَدًا فسمَّوا حبَّهم رَفْضا
وعجبتُ هل يرجو الشفاعةَ مَنْ يَنْوِى لآلِ محمدٍ بُغْضا

(١) ديوان ابن سنان (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص ٧٨

(٢) الخريدة (قسم الشام) ١/٤٥٣

وهو يعلن حبه لآل البيت حبا لا يماثله حب ، وهو حب يراه فرضا مكتوبا على كل مسلم مخلص لدينه . ويبدو أنه كان يغلو فى هذا الحب غلو الرافضة ، إذ يسمى أعداءهم زنادقة ، ويعجب أن يفكر فى شفاعتهم يوم القيامة مبغض لهم تأكل نار بغضهم قلبه . وكان يعاصره ابن منير المتوفى سنة ٥٤٨ ويقول عنه العماد : كان غاليًا متشيعا[١] ولم يرو شيئًا من شعره الشيعى الغالى . وكان طلائع بن رُزِّيك وزير الخليفتين الفاطميين : الفائز والعاضد شيعيا إماميا ، وكان من مقربيه ثقة الملك الحسن من بنى أبى جرادة الحلبيين المتوفى سنة ٥٥٥ ، وله فيه مدائح بها إشارات لبعض عقائد الشيعة[٢] ، ويبدو أن أسرته كانت تعتنق مذهب الشيعة الإمامية مثلها فى ذلك مثل أهل حلب موطنها . ومن شعراء الشام الشيعة فى الخريدة عرقلة الدمشقى حسان بن نُمَير المتوفى سنة ٥٦٧ وينشد العماد مقطوعة طويلة يذكر فيها تشيعه قائلا[٣] :

أنا من شيعة الإمام حُسَيْنٍ   لستُ من سُنَّةِ الإمام يزيدِ

وهو يريد يزيد بن معاوية الذى قتل الحسين أيام خلافته ، وسماه الإمام تهكما وسخرية . ونظل فى زمن الأيوبيين والمماليك نستمع إلى أشعار تبكى الحسين أو تمدح آل البيت على نحو ما نجد عند فتيان الشاغورى الدمشقى المتوفى سنة ٦١٥ للهجرة ، ويلقانا فى مطالع ديوانه باكيا الحسين ذارفًا عليه الدمع مدرارًا منشدا[٤] :

لِمَ لا أسُحُّ بيوم عاشوراءَ من   مقلتيَّ دَمًا يمازج ماءَ

يومًا بهِ قُتِلَ الحسينُ بكَرْبَلا   قَتْلا حَوَى كَرْبًا به وبلاءَ

ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، وفيه استشهد الحسين على نحو ما هو معروف . ولفتيان قصيدة طويلة فى حب آل البيت يقول إنه نظمها مؤملا عفو الله ورضاه ، وفيها يشيد بالرسول ورسالته المحمدية الكبرى ، ويسترسل فى التنويه بعلى بن أبى طالب وانتصاراته المجيدة على أعداء الإسلام وبنوه بعلمه وزهده وتقشفه ، ثم يفيض فى الحديث عن مصرع الحسين المفجع بمثل قوله[٥] :

أَلْهَفِى لِلْحُسَيْنِ غداةَ أَضْحَى   هناك « بِكَرْبلا » شِلْوًا قَتِيلا

---

(١) الخريدة ١/٧٦

(٢) الخريدة ٢/١٩٩

(٣) الخريدة ١/٢٠١

(٤) ديوان فتيان الشاغورى (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) ص٦

(٥) الديوان ص٥٨٠ والشلو : العضو من الإنسان والجمع أشلاء ، كناية عن الموت

يمزِّق جسْمَهُ دَوْسُ المَذاكى ... وقد أعلتْ وَلاياهُ العَوِيلا[١]
شَكَا ظمأً فما عطفوا عليهِ ... ولا ألْوَوْا ولاأرْوَوْا غَليلا
رسولُ اللهِ سمَّاه «حُسَيْنًا» ... وقَبَّل ثَغْرَهُ زمنًا طويلا

ويقسم فتيان مرارا وتكرارا بعلى والحسين وأصحاب العَباء أو الكساء إشارة إلى حديث ترويه الشيعة عن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : « دخل على وفاطمة ومعها الحسن والحسين فوضعها الرسول فى حجره فقبَّلهما واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، وجعل عليهم جميعا كساء أسود وقال : اللهم إليك لا إلى النار » . ولم يكن فتيان غاليًا فى تشيعه بل كان معتدلا ، يشهد لذلك قوله فى على والحسين وآلها[٢] :

لم أهْوَهُمْ أبدا بِبُغْضى غيرَهم ... كلاَّ وَمنْ فَرَضَ الصلاةَ ووقَّتا

فهو يقسم بربه فاض الصلاة أنه لم يحب آل البيت مبغضا لأبى بكر وعمر مثل غلاة الشيعة ، بل هو يحب الجميع وإن كان حبه لهم أزيد وأكثر ، كما تشهد بذلك قصيدته السالفة .

ونلتقى فى زمن المماليك بالوداعى المتوفى سنة ٧١٦ ويقول صاحب الفوات : كان شيعيا ، ومما يدل على ذلك قوله[٣] :

سمعتُ بأن الكحلَ للعين قوةً ... فكحَّلْتُ فى عاشورَ مُقْلَةَ ناظرى
لتقوى على سحِّ الدموعِ على الذى ... أذاقوه دونَ الماء حرَّ البَواتِر

فهو قد تكحل فى يوم عاشوراء يوم ذكرى مصرع الحسين ليسح الدموع ويذرفها على الحسين الذى قتلوه دون جرعة ماء يحتسيها بالسيوف القواطع ، وكان بعض معاصريه يتهمه بالرفض والغلو فى التشيع فكان ينكر ذلك منحيا على من يتهمه بالسبِّ واللعن ، وفى ذلك يقول[٤] :

قُلْ للذى بالرفض أتـ ... ـهمنى أضلَّ اللهُ قَصْدَهْ
أنا رافضىٌّ ألْعَنُ الـ ... ـشَّيْخَيْنِ أبَّاهُ وجَدَّه[٥]

وواضح أنه يقول إنه رافضى تهكما على خصومه . ونظل نلتقى بشعر شيعى على هذه الشاكلة

(١) المذاكى : الخيل ، ولاياه : نساء أسرته .
(٢) الديوان ص ٦٨
(٣) فوات الوفيات لابن شاكر ١٧٦/٢
(٤) الفوات ١٧٥/٢
(٥) أبَّاهُ مشددة الباء لصحة الوزن

لا فى أيام المماليك فحسب ، بل أيضا فى أيام العثمانيين ، وممن يُظَنُّ تشيعه حينئذ درويش[١] الطالوى المتوفى سنة ١٠١٤ وحسين[٢] بن عبد الصمد العاملى وهو أبو بهاء الدين العاملى أكبر شعراء الإمامية حينئذ ، وسنترجم له عما قليل .

كُشاجِم[٣]

هو أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السندى بن شاهك اشتهر بلقبه كشاجم ، وضبطه صاحب القاموس بضم الكاف ، وفى تاج العروس شرح القاموس وشرح درة الغواص للشهاب الخفاجى أنه بفتحها ، وقيل إن هذا اللقب مركب من أوائل كلمات تدل على صناعاته ، فالكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جميل والميم من منجم أو من مغن ، وفى ذيل زهر الآداب : « أنه كان مغنيا وله فى الغناء كتاب مليح » .

وكان جده السِّنْدى من حرس الرشيد ويقول ابن خلكان فى ترجمته لموسى الكاظم الإمام عند الشيعة الإمامية : « وكان الموكَّل به فى مدة حبسه السندى بن شاهك » وربما تلقَّن عنه حينئذ عقيدة الإمامية ، وبقيت العقيدة منذ هذا التاريخ فى بيته . وأصبح السندى بعد وفاة الرشيد من كبار حاشية الأمين ، ويقال إنه ولاه الشام ، وربما توفى بها ، وبقيت أسرته بعده فيها إذ يُسْلَك حفيده كُشاجم فى شعراء الشام ، وكان يسكن فى شبيبته بلدة الرَّمْلة بفلسطين . ونظن ظنا أنه وُلد لأبيه حوالى سنة ٢٩٠ للهجرة . ويبارح الرملة والشام جميعا فى سن مبكرة إلى الموصل حيث التحق بخدمة أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، وكان قد ولى الموصل مرارا بين عامى ٢٩٣ و ٣١٧ وبها انعقدت بين الشاعر وبين الشعراء هناك صلات مودة وخاصة بينه وبين الخالديين . وينزل عند سيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، ويقال إنه كان يُشرف على إعداد طعامه أو على مكتبته . ويبدو أنه لم يمكث عنده طويلا . ونزل مصر وأقام بها فترة ، وأرسل حينئذ إلى جعفر بن على أمير الزاب قصيدة فى مديحه أثابه عليها بألف دينار كما يقول ابن شرف

(١) ريحانة الألبا ٦٣/١ وما بعدها

(٢) أعيان الشيعة ٢٢٦/٢٦ وروضات الجنات ٢٥/٢

(٣) انظر فى كشاجم وشعره شذرات الذهب لابن العماد ٣٧/٣ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٦٠/١ والمنتخل للثعالبى ص ٣٥٢ وأعلام الكلام لابن شرف القيروانى وذيل زهر الآداب ص ١٠٧ وذكر له الشريشى فى شرحه لمقامات الحريرى طائفة كبيرة من شعره ، وديوانه مطبوع ببيروت ، وراجع فى السندى جده ترجمة موسى الكاظم فى ابن خلكان والحيوان للجاحظ ٣٩٣/٥ والتنبيه والإشراف للمسعودى (طبعة الصاوى) ص ٣٠٢ وطبعة أوربا ص ٣٤٩

القيروانى ، وترك مصر إلى الشام ثم عاد إليها وهو ينشد .

قد كان شوقى إلى مصرٍ يؤرِّقنى فالآن عدتُ وعادتْ مِصْرُ لى دارا

وتُرْوَى روايات مختلفة عن تاريخ وفاته ، فقيل توفى سنة ٣٥٠ وقيل بل سنة ٣٦٠ ولعل التاريخ الأخير هو الصحيح .

وهو يتناول فى شعره الأغراض المختلفة المعروفة من مديح ورثاء وشكوى وهجاء وخمريات ووصف للطبيعة والأطعمة وأدوات الحضارة . وله أشعار مختلفة فى الصيد والطرد وله كتاب فيهما سماه المصايد والمطارد ، وأيضا له كتاب فى أدب النديم وهما منشوران . وكان شيعيا إماميا إما – كما قلنا – مثل أهل بيته وإما استقلالا منه ودراسة للنحلة دفعته إلى اعتناقها ، ويشهد لذلك مارواه ابن شهر آشوب * إن صحَّ ماروواه – من قوله :

نبيِّى شفيعى والبَتُولُ وحَيْدرٌ وسِبْطاهُ والسجَّاد والباقرُ المجدِ

بجعْفَ بموسى بالرِّضا بمحمدٍ بنجْلِ الرِّضا والعسكريين والمهدِى

والبتول : السيدة فاطمة الزهراء ، وحيدر : الإمام على ، ويتوالى بعده أئمة الإمامية أو الاثنى عشرية وهم اثنا عشر إماما : على ، والحسن والحسين ابناه سبطا رسول الله ، والسجاد : على زين العابدين بن الحسين والباقر ابنه محمد ، ورخَّم جعفر فى قسمه ، والترخيم فى غير المنادى شاذ ، وموسى هو موسى الكاظم الإمام السابع ، والرضا هو على الرضا ابنه ، ومحمد هو محمد الجواد نجل الرضا ، ويليه على الهادى فالحسن العسكرى ، وقد سماهما العسكريين والمهدى هو محمد المهدى المنتظر الذى مات صبيا حوالى سنة ٢٦٠ للهجرة . وسماهم جميعا كشاجم – كما رأينا – فى بيتيه واتخذهم شفعاء له عند ربه ، مما يقطع – إن صَحَّ أنه ناظم البيتين – بتشيعه وإماميته أو اعتناقه نحلة الإمامية .

وفى ديوان كشاجم ثلاث قصائد طويلة ، يبكى فى أولاها الحسين ومن قُتلوا معه من آله فى كربلاء قائلا فى مطالعها :

يابُؤْس للدَّهرِ حينَ آلُ رسو لِ الله تَجْتاحُهم جَوَائِحهُ

أظلمَ فى كربلاءَ يومُهمُ ثم تَجلَّى وهم ذبائحُه

لابَرِحَ الغيثُ كلَّ شارقةٍ تَهْمِى غواديه أو روائحُهُ[1]

---

(١) الشارقة هنا اليوم وأصله الشمس . والغوادى والروائح : السحب الممطرة صباحا ومساء . تهمى : تصب وتسيل .

على ثَرًى حلَّه ابنُ بنت رسو لِ الله مجروحةٌ جَوارحُهُ
وسيق نِسْوانه طلائحَ أحـ ـزانٍ تهادى بهم طلائحُه

والقصيدة تفيض – على هذا النحو – أسًى ولوعة لمقتل الحسين وبعض آله معه ، ويسمى ذلك ذبحا ، فيبلغ كل مايريد من التأثر لسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعو له الغيث أن يظل يهمى كل شارقة أو كل يوم على الثرى الذى ضم هذا الجسد الطاهر الجريح . ويصور بشاعة العدوان الأثيم حين ساق مرتكبوه نساء آل البيت منهكات مُعْيِيات ، حتى لقد أصاب الإبل التى حملتهن ماأصابهن من الإعياء والإجهاد والكلال . ويمضى فى القصيدة فيتحدث عن على بن أبى طالب وشجاعته وبأسه وخدماته للإسلام ورسالته ، كما يتحدث عن علومه الزاخرة . ويستهل كشاجم القصيدة الثانية ، وهى همزية بإعلان حبه لأهل الكساء الخمسة الذين تحدثنا عنهم : الرسول والسيدة فاطمة وعلى بن أبى طالب وابناه : الحسن والحسين . ويذكر مايعتقده الشيعة من أن الرسول أوصى بالإمامة لعلى فى غديرخُمٍّ ، ويذكر أن له معجزات جمة وأنه بحر علوم سماوية ، ثم يأخذ فى بكاء الحسين وأن الأمويين ثأروا فيه لقتلاهم فى غزوة بدر يقول :

لئن وَتَر القومَ فى بَدْرهم لقد ثَأَرَ القومُ فى كَرْبَلاءِ
بها هُتِكتْ حُرَمُ المصطفى وحَلَّ بهنَّ عظيمُ البلاءِ
وساقوا رجالهمُ كالعبيدِ وحازوا نساءهمُ كالإماءِ
ولو كان جَدُّهمُ شاهدًا لشيَّع أَظْعام بالبكاء

والأبيات بالغة التأثير فى وصفها لهول يوم كربلاء وما كان فيه من هتك لحرمة نساء آل البيت ورجالهم ، أما الرجال فساقوهم سوق العبيد ، وساقوا النساء سوق الإماء ، فيا للفظاعة ، ولو شاهد الرسول هذه المأساة مااكتفى بالدموع كما يقول كشاجم ، بل لأعاد غزوة بدر ثانية ، دفاعا عن سبطه وآله .

ويُلمُّ كشاجم فى القصيدة الثالثة بالحسين وآل البيت وماأصابهم فى كربلاء إلماما سريعا ، وكأنما أراد أن يفردها لعلى سيد الأوصياء كما يقول ، الجواد البطل ، ويسترسل فى فضائله قائلا :

وكم شبهةٍ بهُداهُ جَلا وكم خُطَّةٍ بحِجاهُ فَصَلْ
وكم أطفأ اللهُ نارَ الضَّلالِ به وهْىَ تَرمى الهُدَى بالشُّعَلْ

وكم ردَّ خالقُنا شَمْسَهُ عليه وقد جَنحتْ للطَّفَلْ
وكم ضربَ الناسَ بالمُرْهفاتِ على الدِّين ضَرْبَ غِرابِ الإبلْ

وحقا كان عليٌّ ملهما فى معرفة الحكم الفاصل فى أى مشكلة تعرض له أو لغيره ، حتى قال فيه عمر : قضية ولا أبا حسن لها ، وكم أعز الله به الإسلام ، وكم ضرب بالسيوف المرهفة أعداء الإسلام ضرب العرب لغرائب الإبل . أما أن الشمس كانت تُرَدّ عليه حين تجنح للغروب فتلك مبالغةٌ ، عليٌّ فى غنى عنها ، بل هى بهتان ، ومثلها بهتانا مازعمه فى القصيدة من تفضيل عليّ درجات فوق أبى بكر الصديق وأنه كان أجدر بالخلافة منه لأن الرسول أوصى أن يكون خليفة بعده . وتمادى فى بهتانه على الصديق ، فقال إن الرسول نحّاه عن الصلاة بالناس حين اشتد به المرض ، وقد صلى بالناس سبع عشرة صلاة ، وصلى به الرسول مؤتما ركعة ثانية من صلاة الصبح ثم صلى الركعة الباقية وقال : « لم يُقبَضْ نبىّ حتى يؤمَّه رجل من قومه » . وكلُّ ذلك متواتر معروف غير أن غلاة الشيعة ينكرونه . ولايلبث أن ينحى باللائمة ، بل أن يهجو — غير خجل ولامستح — أبا بكر وعمر ، لأنهما منعا السيدة فاطمة حقها فى ميراث الرسول ومآل إليه فى غزوة خيبر ، وهما إنما صدعا فى ذلك عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لانورَث وماتركناه صدقه » ولعل فى ذلك كله مايدل على تشيع كشاجم وغلوه فى تشيعه .

ابن حَيُّوس [1]

هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الدمشقى ، كان جده حيوس على شىء غير قليل من الثراء مما جعله يشيِّد بدمشق دارًا فخمة توارثها بنوه من بعده إلى زمن الشاعر . وكانت أمه بنت قاضى غوطة دمشق ، فهو قد ورث الثراء عن آبائه ، والعلم عن جده لأمه وأخواله . ولد لأبيه بدمشق سنة ٣٩٤ وحفظ مثل لداته القرآن وأخذ يختلف إلى العلماء وفى مقدمتهم خاله ابن الجندى الغسانى ، وكانت دمشق حينئذ تابعة لمصر ، ويبدو أن أباه كان موظفا فى دواوينهم هناك إذ نجد أحد قواد الحاكم بأمر الله الفاطمى المسمى أنو شْتكين الدِّزْبِرىّ ينزل ضيفا على أبيه لسنة ٤٠٦ . ويعود فيما بعد حاكما لدمشق سنة ٤٢٠ حتى سنة ٤٣٣ . وكانت موهبة الشاعر تفتحت ،

---

(١) انظر فى ابن حيوس وشعره ابن خلكان ٤٣٨/٤ وزبدة الحلب (نشر د. سامى الدهان) ٤٠/٢ والوافى ١١٨/٣ وعبر الذهبى ٢٧٩/٣ وشذرات الذهب ٣٤٣/٣ ومقدمة ديوانه لخليل مردم وقد حققه ونشره فى مجلدين (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق)

فانعقدت صلة وثيقة بينهما وأخذ كل منهما يهدى صاحبه هدايا عظيمة ، الشاعر يهديه روائع من مديحه بلغت أربعين قصيدة ، والدِّزبرى يهديه أموالا جزيلة . ويتولى دمشق بعده ناصر الدولة الحسن بن الحسين الحمدانى حتى سنة ٤٤٠ وله فيه عشر مدائح ويخلفه على دمشق حيدرة بن الحسين بن مفلح ، ويتولى مرارا متقطعة حتى سنة ٤٥٥ وله فيه قصيدة واحدة . ويبدو أنه اتجه فى ولايته على مدينته إلى القاهرة ، فلزم الحسن بن على اليازورى وزير الخليفة الفاطمى المستنصر من سنة ٤٤٢ إلى سنة ٤٥٠ وقدم إليه إحدى عشرة قصيدة ، بعضها قدمها إليه فى القاهرة وبعضها أرسلها إليه من دمشق . وولى الوزارة بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى فمدحه بقصيدتين وعُزل سريعا فمدح الوزير بعده بمدحة واحدة .

وفى هذه السنوات التى تبلغ أكثر من ستين عددا كان ابن حيوس شاعر ولاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ووزرائها وكان يصدر عن عقيدتها فى مدائحهم ، وتضطرب الأمور فى القاهرة ودمشق ، ويصمت الشاعر إزاءها حتى إذا ازداد الاضطراب فى دمشق وخشى الشاعر على نفسه من استيلاء السلاجقة السنيين أعداء الفاطمين الإسماعيليين عليها رأيناه يهاجر منها لسنة ٤٦٤ إلى طرابلس وبنى عمار ولاتها ، ويتصادف لقاؤه فيها بعلى بن منقذ صاحب حصن شَيْزر فينصحه أن يصحبه إلى محمود بن نصر المرداسى صاحب حلب فإنه سيجد عنده الظل الظليل ، وكان يغلب على الناس هناك مذهب الشيعة الإمامية . فلم يجد الشاعر بأسًا من تلبيته النصيحة ، وقدم على الأمير محمود بن نصر ، فمدحه بقصيدة بديعة وأعطاه ألف دينار ، ومازال الشاعر يوالى مدائحه فيه إلى وفاته سنة ٤٦٧ حتى بلغت عشرا وهو يوالى عطاياه عليه . وخلفه ابنه نصر ، فمضى يجزل للشاعر فى العطاء حتى بلغت مدائحه فيه مدة إمارته ، وكانت عاما ، عشر قصائد ، وولى بعده أخوه سابق وظل يوالى عطاءه له حتى قضى مسلم بن قريش العقيلى لسنة ٤٧٣ على آل مرداس مستوليا منهم على حلب ، ومدحه ابن حَيّوس بقصيدة طنانة يقول له فيها :

أنت الذى نفَق الثّناءُ بِسُوقِهِ ... وجَرَى النَّدَى بعروقِهِ قبل الدَّمِ

وأجازه بألفى دينار ، وفى نفس السنة توفى ابن حيوس عن نحو ثمانين عاما . ولاريب فى أن ابن حيوس انصرف عن عقيدته الإسماعيلية حين ولَّى وجهه نحو بنى مرداس ، ونراه يجاهر بذلك قائلا :

وكلُّ نَوْءٍ بمصرٍ جادَنى زمنًا ... فِداءُ نَوْءٍ سقانى الرِّىَّ فى حَلَبِ

وشاء له القدر أن يهدر مسئوليته لآل مرداس فى الأيام الأخيرة من حياته بعد أن أثروه – كما يقول ابن خلكان – وأسبغوا عليه نعما ضخمة ، مما جعله يبنى دارا فخمة له بحلب ، وكان قد كتب على بابها :

دارٌ بَنَيْناها وعِشْنا بها فى نعمةٍ من آل مِرْداسِ
قُلْ لبنى الدنيا ألا هكذا فليصنَعِ الناسُ معَ الناس

ولم ينفعهم ماصنعوه فبمجرد أن أزال مسلم بن قريش العُقَيْلى دولتهم استأذنه فى إنشاد مديحه . ومن المؤكد أنه ظل إلى سن الستين يستلهم العقيدة الإسماعيلية الفاطمية فى مدائحه لولاة الفاطميين بدمشق ووزرائهم بالقاهرة إما عن اقتناع بهاوإما رياء لذوى السلطان وقد تحدثنا عن هذه النحلة فى كتابينا « العصر العباسى الثانى » و « عصر الدول والامارات » وأوضحنا مبادئها وكيف أن داعيتها القداح اتخذ سَلَمْية بالقرب من حَماة مركزًا لها ، وكانوا يزعمون أن تاريخ العالم ينقسم إلى حلقات وكل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة وسابعهم الإمام الناطق الذى ينسخ بشريعته الشرائع . وقالوا إن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، بل هو شبح يكن فيه اللاهوت النورانى ويبالغ بعض شعرائهم فيزعم أن الإمام صفو شفاف لاتشوبه الأكدار ، فهو نورانى خالص . وأضفوا أسماء الله الحسنى فى القرآن الكريم على أئمتهم وجعلوهم علة الوجود ومدبِّرى الكون إلى غير ذلك من مبادئ تصور غلوهم المفرط . ومن هذه المبادئ قَبَس ابن حَيُّوس فى مدحه للدِّزْبِرى سنة ٤٢٧ قوله فى مديح المستنصر حين ولى الخلافة بعد أبيه الظاهر لدين الله :

أَمَّتْ خلافتَه ريحُ النَّدَى يَسَرًا ... وظل نَشْرُ الدُّنا من نَشْرِها عَطِرا (١)
وخُصَّ بالشَّرَف المحْضِ الذى ارتفعتْ ... له النواظرُ والنورِ الذى بَهَرا
هُمُ الأُلى أخذ اللّهُ العهودَ لهم ... والناسُ ذَرٌّ على من بَرَّ أو فجرَا (٢)
لأجلهم خلقَ الدُّنْيا وأسكَنَها ... وذَنْبُ آدمَ لولاهمْ لما غُفِرَا
وإن آلاءهُ مالا يحيط بها ... وَصْفٌ على أنها تَسْتنطق الحجَرا
مناقبٌ عددَ الأنفاسِ ماتركتْ ... لفاخرٍ من جميع الناس مفتخَرا

---

(١) أمت : قصدت ، يسرا : سهلا ، النشر : الريح الطيبة والطيب ، الدنا : جمع دنيا .

(٢) الذر : مايرى فى شعاع الشمس الداخل من النافذة .

وواضح أنه فى البيت الثانى يشير إلى اللاهوت النورى المتنقل فى الأئمة – بزعم الإسماعيليين – حتى انتهى إلى المستنصر. ويزعم أن الله اتخذ على الناس عهدا بطاعتهم قبل خلق العالم وأنهم علة الوجود، ولولاهم لم يغفر ذنب أبيهم آدم. ويقول إن آلاء المستنصر ونعمه لا يحيط بها وصف وكأنها آلاء الله العىّ. ويكثر ابن حَيّوس من ذكر إمام العصر وغياث المسلمين وتنقل النور فى الأئمة وأن طاعتهم فرض، يقول للدزبرى فى إحدى قصائده :

يا سَيْفَ مَنْ عِصْيانُه وولاؤُهُ جَعلا شقيًّا فى الوَرَى وسعيدا

فالسعيد من أطاع الإمام الفاطمى والشقى حطبُ النار مَنْ عصاه. ونراه فى مديح الوزير اليازورى يحرضه مرارا على العراق وقد جعل موضوعا لقصيدة دالية له تدبير اليازورى المعروف لفتنة البساسيرى فى سنتى ٤٤٧ و٤٤٨ واستيلائه على بغداد والموصل ودعوته فيهما للخليفة الفاطمى، وفيها يقول للخليفة العباسى القائم بأمر الله :

عجبتُ لمدَّعى الآفاق مُلْكًا وغـايتُـه بـبـغـدادَ الرُّكُودُ
ومِنْ مُستَخْلَفٍ بالهون راضٍ يُذادُ عن الحِياض ولايذود

وهو يريد أن ملكه لايتجاوز بغداد، وأنه يرضى بالخزى والذل والصغار إذ ليس فى يده من الحكم والسلطان شىء مع الملك السلجوقى طُغْرُلْبك. ومايزال يدور فى الفلك الإسماعيلى الفاطمى حتى سن الستين إذ ينزل حلب عند محمود بن نصر المرداسى وكان قطع الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر وخطب للقائم بأمر الله فأنشده مدحة يقول فيها :

ولك الأدلَّةُ أُوضِحَتْ حتى رأى إثباتَ فَضْلك مَنْ رأى التعطيلا
غُرُّوا بأَنْ شرَّقتَ عنهم مذهبًا فى الرَّأْى ماعرفوا له تأويلا

وهو فى البيتين يعرِّض بالفاطميين وأنهم يدعون إلى تعطيل إرادة الله وإنفاذ إرادة الأئمة، كما يدعون دعوة واسعة إلى التأويل فى القرآن الكريم حسب عقيدتهم وأهوائهم، وكأنه يريد أن يعلن تبرُّؤه منهم وأنهم ضالون مضلون. وأشعار ابن حَيُّوس تمتاز بالقوة والصلابة والجزالة والنصاعة، ويستخدم فيها أحيانا المحسنات البديعية دون إسراف أو إفراط.

بهاء الدين[1] العاملى

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملى ، كان أبوه من فقهاء المذهب الإمامى الشيعى يتنقل فى بلدان الشام ولبنان ، ثم رحل إلى إيران فتنقل بين بلدانها وأوغل فيها حتى هراة فى أفغانستان . واستقر به المقام فى « البحرين » حيث توفى بها سنة ٩٨٤ وقد ولد له ابنه بهاء الدين فى بعلبك سنة ٩٥٣ وصحبه معه إلى إيران ، وحُبِّبت إليه الرحلة مثل أبيه ، فجاب البلاد الإيرانية والعربية . وزار مصر وبها ألف كتابه « الكشكول » المنشور فى مجلدين كبيرين ، وهو موسوعة أدبية عرض فيها بهاء الدين معارفه أو قل بعض معارفه فى الحديث النبوى والدراسات الدينية واللغوية والصوفية والاعتزالية والفلسفية والهندسية والفلكية سوى مافيه من أشعار كثيرة تدل على ذوق جيد . وعلى غراره كتابه « المخلاة » . وبعد ثلاثين سنة من رحلاته فى البلاد الايرانية والعربية ألقى عصا تسياره فى أصفهان ، وقرَّبه سلطانها شاه عباس وأكثر من إغداقه عليه ، وولاه مشيخة العلماء الإمامية فى أصفهان حتى وفاته سنة ١٠٣١ للهجرة . وفى أثناء إقامته بمصر انعقدت صداقة بينه وبين محمد بن الحسن البكرى وبالمثل انعقدت صداقة بينه وبين الحسن البورينى فى دمشق . وقد هيأته إمامية أبيه ونشأته فى إيران مركز المذهب الإمامى إلى أن يصبح فقيها إماميا كبيرا ، وإلى أن يؤلف كتبًا فى الحجاج للمذهب بالعربية والفارسية ، وله مؤلفات كثيرة فى التفسير وفى الأصول وفى الفقه وفى العربية وفى الفلك ، وكان شاعرا مبدعا .

ويقول الشهاب الخفاجى : « شعره باللسانين العربى والفارسى مهذب محرر ، وبالفارسية أحسن وأكثر » وأنشد له الخفاجى فى الريحانة وابن معصوم فى سلافة العصر والمحبى فى نفحة الريحانة وخلاصة الأثر أشعارا كثيرة تتناول أغراضا مختلفة : غزلا وخمرا ومديحا ورثاء ، وأنشد له مترجموه رباعيات متعددة . وهو فى شعره ليس إماميا فحسب ، بل هو إمامى غال . وكان الامامية يعتقدون أن إمامهم الثانى عشر محمدًا المهدى المنتظر لم يمت حوالى سنة ٢٦٨ وإنما اختفى وسيعود ، ويسمونه إمام[2] الوقت وقائم الزمان ، ويؤمنون أن بعض الصفوة من علمائهم على

---

(١) انظر فى بهاء الدين العاملى وشعره سلافة العصر لابن معصوم ص ٢٨٩ وريحانة لألبا للخفاجى ٢٠٧/١ ونفحة الريحانة ٢٩١/٢ وكتابه الكشكول (طبعة الحلبى) ١٧٦/١ ، ١٩٧ وفى مواضع متفرقة وخلاصة الأثر ٤٤٠/٣ وروضات الجنات ٥٣٢ والذريعة ٢٩/٢ ، ٢٤٠/٦

(٢) راجع فى إمام الوقت عند الإمامية الاثنى عشرية العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر (طبع القاهرة) ص ١٩٧ ، ٣٤٤ وما بعدها

اتصال شخصى به وأنهم يستوضحونه بعض المسائل الشرعية ، ويفصح لهم عن رغباته وأوامره ، بل إنهم يجعلونه خليفة الله المصرف لشئون الكون والعباد ، ولبهاء الدين قصيدة عن هذا الإمام صاحب الزمان أو قائمه يغلو فيها هذا الغلو المفرط أنشدها فى كتابه الكشكول وفيها يقول :

خليفةُ ربٍّ العالمين وظلُّهُ ... على ساكن الغَبْراء من كل دَيَّارِ[1]
هو العروةُ الوُثْقَى الذى مَنْ بذيلهِ ... تمسَّك لا يخشى عظائمَ أوزارِ
علومُ الوَرَى فى جَنْب أَبْحر علمهِ ... كغَرْفةٍ كفٍّ أو كغمسة مِنْقار
بِه العالمُ السفلىّ يسمو ويعتلى ... على العالم العلوىِّ من غير إنكارِ
همامٌ لو السبعُ الطِّباقُ تطابقتْ ... على نَقْض مايَقْضيه من حُكْمه الجارى
لنُكِّسَ من أبراجها كلُّ شامخٍ ... وسُكِّن من أفلاكها كلُّ دوَّار
أباحُجَّةَ اللهِ الذى ليس جاريًا ... بغير الذى يرضاه سابقُ أقدارِ
ويامَنْ مقاليدُ الزمانِ بكفِّهِ ... وناهيك من مجدٍ به خَصَّه البارى

وبهاء الدين يجعل محمدًا المهدى الغائب فى رأى الإمامية خليفة الله فى تنفيذ أحكامه على الناس وظله الذى يستظل به كل مظلوم ، ويجعله العروة الوثقى أخذا من الآية الكريمة : (وَمَنْ يُسْلِم وَجْهَه إلى الله وهو محسنٌ فقد استمسك بالعروة الوثقى) ويجعل من يتمسك به تغفر له ذنوبه ، ويبالغ فى سعة علمه اللدنِّى بالقياس إلى علم الناس الذى لا يُعَدّ شيئا مذكورا بجانب بحار علومه . ويزعم أن العالم السفلى وهو الأرض شَرُف به وفضُل على العالم السماوى ، ويزعم أن السموات السبع لو اتفقت على نقض مايبرمه لانقلبت أبراجها وخرجت من قواعدها وسكن منها كل دائر متحرك من أبراجها . ويصفه بأنه حجة الله على الخلق وأن الأقدار الإلهية طوع أمره لا تعصاه أبداو أن مفاتيح الزمان وخزائنه بيده . والقصيدة تمتلئ بهذا الغلو المفرط الذى يجعل هذا الإمام لايزال حيا يصرِّف أمور الكون ، ويدبر شئون العباد ، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ومقاليد الدنيا بكفه ، وكل شيء يجرى فيها بإرادته ، وكأن قائم الزمان فوق جميع الأنبياء والمرسلين . وهو غلو ما يماثله غلو .

وطبيعى وقد بلغ بهاء الدين من الغلو فى عقيدته كل هذا المبلغ أن يدعو إلى سَبٍّ من وقفوا —

---

(١) ديار : ساكن دار . الغبراء : الأرض .

فى رأى الشيعة – ضد على وحقه فى الخلافة وفى مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق على نحو مانلقاه فى مثل قوله :

يا أيها المدَّعى حبَّ الوصىِّ ولم يَسْمَح بسبٍّ أبى بكرٍ ولاعُمَرا
كذبتَ واللهِ فى دعوى محبَّتهِ تَبَّتْ يداك ستَصْلى فى غَدٍ سَقَرا
فإن تكن صادقا فيما نطقتَ بهِ فابْرأْ إلى الله ممن خان أوغدرا
وأنكرَ النصَّ فى خُمٍّ وَبيْعتهِ وقال إن رسول الله قد هجرا
أتيتَ تبغى قيامَ العذر فى فَدَكٍ أتحسبُ الأمرَ بالتمويهِ مستترا

وبهاء الدين يجعل سب أبى بكر وعمر فريضة مَنْ لم يؤدها صَلِىَ نار الجحيم وعذابها الأليم ، ويدعو صاحبه أن يبرأ من الشيخين الجليلين – كبرت كلمات خبيثة تخرج من فمه – ويعلل لما قاله بأنهما أنكرا نصَّ غدير خم ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعلى بالإمامة والخلافة ، وهو نص لم يثبت ، بل الثابت أن الرسول استخلف أبا بكر عنه فى الحج حتى إذا مرض استخلفه فى الصلاة كما هو معروف . وكل ذلك يؤذن بأن الرسول استخلف أبا بكر الصديق بعده واستخلف أبو بكر عمر ، وبهما انتشر الإسلام وفتح العالم القديمُ له أبوابه . ويتعلل بهاء الدين بأنهما منعا السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها من إرث فَدك فَيْئ رسول الله ، وإنما منعاها بوصية الرسول – كما ذكرنا مرارا – إذ قال : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » . ومامن ريب فى أن للشيخين الجليلين قدسية عظيمة فى نفوس المسلمين . ولعل فى كل ماقدمنا مايصور كيف أن بهاء الدين العاملى كان رافضيا غاليا فى الرفض ، سواء فى مهاجمته أبا بكر وعمر أو فى خلعه على الإمام القائم صفات الله وكأنه يشركه فى تدبير الكون وتسخير المقادير ، تعالى الله علوا كبيرا عن كل مالجَّ فيه من رفع إمامه الخفى عن المستوى البشرى حتى للأنبياء المصطفين الأخيار .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

يكثر شعر الحب فى الأدب العربى منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة ، وحتى فى إغراض الشعر الأخرى مديحا وغير مديح يقدم الشعراء لقصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسيب جذبا للأسماع ، ولذلك لا نغلو إذا قلنا إن النسيب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساسى للشعر العربى ، وهو أمر طبيعى لأنه يتناول عاطفة الحب الإنسانى الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المحب أو العاشق منذ تستهويه امرأة ، فيقع فريسة لحبها ، وتملأ قلبه وجدًا وشوقا إلى رؤيتها ، وقد تعرف منه هذا الحب فتلقاه أو تنظر إليه نظرة أو تومئ إليه إيماءة فيزداد ولعابها وغراما ، وقد تتدلل عليه وتمتنع وقد تنأى عنه وتهجره فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تخمد ، وعبثا يتذلل لها ويستعطف ويتضرَّع ، ومع ذلك لا يذوى الأمل فى نفسه بلقائها أبدا ، فهو دائما مؤمل فى اللقاء بعد الهجران وعلى الأقل فى الرؤية بعد الحرمان . وبلغ الحب ببعض الشعراء قديما حد الجنون ، واسم قيس مجنون ليلى يشيع على كل لسان ، فقد ظل يغنى باسمها وعيناه مصوَّبتان إلى خيالها ، فهو لا يرى فى ليله ولا فى نهاره سواها ، إذ تشغل من حوله كل وقت وكل مكان وهو يسبح فى البوادى معاشرًا آرامها ، إذ هجر حيَّها ، بل هجر عالم الإنسان ، إنه لا يعرف سوى عالمها ، فهو العالم الفسيح الذى لا يزال بصره فيه شاخصا إليها . أما عالم قومه أو بعبارة أخرى عالم الإنسان فما أضيق ساحاته ، وإنه ليفر منه منطويا على نفسه حالما بليلى وعالمها الساحر خالعا الوهم على الحقيقة ذاهلا عن كل ما حوله ذهول المجانين ، ولذلك سماه القدماء مجنون ليلى . وقلة فقط هم الذين بلغ بهم الحب هذا المبلغ المغرق فى الخيال ، ومع ذلك فكل محب يشعر كأن صاحبته فوق مستوى كل من حولها من الفتيات والنساء ، وكأنما تحيط بها

هالة سحرية ، وبذلك تستحيل فى خيال الشاعر المحب لها أو العاشق إلى كائن شعرى ساحر . وقد يفيق المحب من حبه وسحره ، وقد يظل رهينا به لا ينفك عنه أبدا ولا يفيق بتاتا .

ونستطيع أن نلاحظ ذلك على شاعر شامى من شعراء العصر العباسى الأول هو ديك الجن الحمصى ، فقد ظل يتغنى بمحبوبته « ورد » طوال حياته حتى بعد أن وسوس له شيطان الغيرة الحمقاء أن يحرقها ظلما وبهتانا ، فقد ظل يبكيها بكاء قلب مزقه الندم والألم . وظل البحترى مثله يتغزل بصاحبته « عَلْوة الحلبية » حتى شيخوخته على نحو ما صورنا ذلك فى كتابنا « العصر العباسى الثانى » . ومن المؤكد أن شعراء الغزل العربى – على مر الأزمنة – أتاحوا بحبهم وأشعارهم لغير امرأة أن تنال حظا من الشهرة قليلا أو كثيرا . ولولا ديك الجن ما اشتهرت « ورد » ولا عرفها أحد ولولا البحترى ما اشتهرت علوة ولا حفل بها أحد ، وقد ظلت دارها قائمة معروفة بحلب حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان فى القرن السابع الهجرى . على أن بين الشعراء من لم يقتصر فى غزله على واحدة بعينها فتغزل بكثيرات وقليل منهم من نشعر عنده بلوعة حقيقية . ومنذ الجاهلية يتنوع الغزل ، ففيه العفيف النقى الذى أضاف إليه الإسلام بمثاليته عفة على عفة وطهرا على طهر ، والشاعر المحب يصور فيه وجده وهيامه وكلفه بصاحبته كلفا شديدا وعذابه فى هذا الكلف عذابا متصلا . وفى الغزل بجانب ذلك الغزل الحسى الذى يصور جمال المرأة ومفاتنها تصويرا ماديا تطغى فيه الغرائز وتجمح العواطف . وظل هذان النوعان : الملائكى الطاهر والمادى الصريح يتقابلان فى الغزل العربى طوال الحقب الماضية . والحديث عن الغزل وشعر الحب عند شعرائنا يطول فلندع ذلك إلى أمثلة مختلفة من غزل هذا العصر بديار الشام ، وأول ما نسوق من ذلك قول كُشاجم فى صاحبة له[1] :

السِّحْرُ فى ألحاظها الفاتكه ... والرُّوحُ من إعراضها هالكهْ
والقهوةُ الصَّهْباء من رِيقها ... والمسكُ من أصداغها الحالكه
مَنْ لم ير الدرَّ وتأليفَهُ ... فى سِلْكه فليرها ضاحكه
قد كتب الحسنُ على خَدِّها ... طُلَّ دمٌ أنتِ له سافكه

والأبيات تخلو من العاطفة المشبوبة ، إذ ليس فيها حرارة ، إنما فيها تَشبيهات واستعارات

(١) ديوان كشاجم (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص ١٣٩ .

محفوظة ، فريق صاحبته خمر والشعر على أصداغها مسك وأسنانها درّ ، وربما كانت الصورة فى البيت الأخير بديعة ، إذ تخيل كأن حمرة خديها الساطعة دم سفكته ، وهى مبالغة فى الخيال والتصور . ولأبى فراس الحمدانى أبيات فيها غير قليل من نشوة الحب وحرارته ، إذ يقول[1] :

سكرتُ من لَحْظِهِ لا من مُدامتهِ ... ومال بالنَّوم عن عينى تمايُلُهُ
وما السلافُ دهتْنى بل سوالفُه ... ولا الشَّمول ازدهتْنى بل شمائلُهُ
ألْوَى بلُبِّىَ أصداغٌ لُوِينَ لَهُ ... وغال قلبىَ ما تحوى غلائلُه

وهو يقول إنه انتشى من لحظ صاحبته وعينيها الفاتنتين لا من الخمر الحقيقية ، ويقول ليست السلافة أو الخمر هى التى دهته بل صفحتا جيدها البديع ، وكذلك ليست الخمرُ أو الشَّمول هى التى استخفَّته بل خصالها الحلوة وما أروع أصداغ شعرها المنسدلة على خديها فقد ألوت وذهبت بلبه ، وما أجمل كل ما تشتمل عليه غلائلُها وثيابها مما سرق منه قلبه . وله مقطوعة وصف فيها ليلة من ليالى حبه على طريقة عمر بن أبى ربيعة[2] ، إذ يقول إنهما ظلا يقتطفان زهرات الحب إلى أن بدا ضوء الصباح فتفرَّقا . ولابن زمرك موشحات وأشعار على هذا الغرار ، يحاكى فيها أبا فراس وابن أبى ربيعة ، وظن بعض المستشرقين أنها من تجديداته ، وهى قديمة فى الشعر العربى . ولابن سنان الخفاجى[3] :

أتُرَى طيفكمُ لما سَرَى ... أخذ النومَ وأعطى السَّهَرا
أم ذُهِلْنا وتمادى ليلُنا ... فتوهمنا العِشاءَ السَّحَرا
يا عيونًا بالحمى راقدةً ... حرَّم الله عليكنَّ الكرَى
سَلْ فروعَ البان عن قلبى فقد ... وَهِمَ البارقُ فيما ذكرا

وليس فى الأبيات لهفة ولا لوعة ، ودعاؤه على صاحبته أو صواحبه — فى البيت الثالث — أن لا يذقن النوم دعاء ناب على ذوق المحبين . ولم يكن من أصحاب الحب . وإنما هى أبيات فى الغزل أو النسيب كان يقدم بها لقصائده حكاية واقتداء بالشعراء قبله . ولابن الخياط أشعار غزلية

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ٣٠٢/٢
(٢) ديوان أبى فراس ٣٩/٢ .
(٣) ديوان ابن سنان الخفاجى (طبع المطبعة الأنسية) ص٣٩

كثيرة يقدم بها لمدائحه نحس فيها لوعة الحب وحرقة فؤاده من مثل قوله[١] :

خُذَا من صَبَا نَجْدٍ أماناً لقلبهِ ... فقد كاد ريَّاها يطيرُ بلُبِّهِ
تذكُّر والذكرى تشوقُ وذو الهوى ... يتوقُ ومَنْ يَعْلَقْ به الحبُّ يُصْبه
غرامٌ على يأسِ الهوى ورجائهِ ... وشوقٌ على بُعْد المزار وقُرْبِهِ
إذا خطرتْ من جانب الرَّمْل نفحةٌ ... تضمَّن منها داءه دون صَحْبِهِ
أغارُ إذا آنستُ فى الحيِّ أَنَّةً ... حذارًا وخوفاً أن تكون لحبِّه

فحب صاحبته النجدية استأثر بقلبه حتى ليطلب له الأمان من صبا نجد مخافة عليه أن يطير شَعاعا ، وإنه ليذكرها ليل نهار وتُصْبيه ، وييأس لهجرانها ولأسنة أهلها وسيوفهم كما يقول فى القصيدة . ويظل يرجو لقاءها وإنه ليتنسَّم فى الصَّبا المقبلة من ديارها نفحة من عطرها تحمل له نفس الداء ، داء الحب وعذابه . ويبالغ فى وصف غيرته عليها ، حتى ليخشى أن تكون كل أَنَّة يسمعها فى الحى من محب لها محموم بحبها ودائه العضال . ولمعاصره الغَزِّى المتوفى سنة ٥٢٤ للهجرة[٢] :

إشارةٌ منكِ تغنينى وأحسنُ ما ... رُدَّ السلام غَدَاةَ البَيْن بالعَنَمِ[٣]
حتى إذا طاح عنها المِرْطُ من دَهَشٍ ... وانحلَّ بالضَّمِّ سلكُ العقد فى الظُّلَمِ[٤]
تبسَّمتْ فأضاء الليلُ فالتقطتْ ... حبَّاتِ مُنْتَثِرٍ فى ضوء مُنْتَظِمِ

وهو تكفيه الإيماءة من بعيد والإشارة بالبنان الجميل الأحمر حمرة زهر العنم ، ويقول إنه سقط عنها المرط أو الإزار وانحل سلك العقد الملتف حول جيدها ، وتبسمت فأضاء ظلام الليل وأخذت تلتقط حبات العقد المتناثرة فى ضوء اللؤلؤ المنتظم فى ثغرها البرَّاق الفاتن .

ودخل القيسرانى مدينة أنطاكية فى أثناء حكم الصليبيين لها سنة ٥٤٠ لحاجة عرضت له ، وكان فى الثانية والستين من عمره ، فنظم مقطَّعات يشبِّب فيها بإفرنجيات ، أشهرهن مغنية تسمى ماريَّا ، خلبت لبه ، وله فيها غزليات كثيرة ، ومن بديع غزله قوله[٥] :

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ١٧٠
(٢) ابن خلكان ٥٩/١
(٣) العنم : نبات أزهاره قرمزية
(٤) المرط : كساء من حرير أو صوف تتلفع به المرأة
(٥) الخريدة (قسم الشام) ١٢٤/١

عفائفُ إلا عن مُعَاقرة الهَوَى ضعائفُ إلا فى مغالبة الصَّبِّ
ولما دنا التوديع قلتُ لصاحبى حنانيك سِرْ بى عن ملاحظة السِّرْبِ
تقضَّى زمانى بَيْنَ بَيْنٍ وهِجْرةٍ فحتامَ لا يصحو فؤادىَ من حُبٍّ
وأهوى الذى يَهْوِى له البدرُ ساجدًا ألستَ ترى فى وجهه أثَرَ التُّرْبِ

والصورة فى البيت الأخير رائعة فقد جعل كلفة البدر من أثر الترب العالق بجبهته لتوالى سجوده لصاحبته ولجمالها الساحر . ويقول إن زمانه تقضَّى فى حرمان متلاحق من البعاد والهجرة المتصلة . وللعماد الخراط المتوفى سنة ٥٦٥ قوله[١] :

ألا هل لماضى العيشِ عندكِ مرجعُ وهل فيه بعد اليأس للصَّبِّ مَطْمَعُ
لقد أُولعتْ بالصَّدِّ عنى وإننى لفُرْقتها ، ما عشتُ ، بالوجد مولَعُ
أضاحكُ حُسَّادى فيغلبُنى البُكا وأكتمُ عُوَّادى وإنى لموجَعُ
إذا خطرتْ من ذكرها لِىَ خطرةٌ تكاد لها أنياطُ قلبى تقطَّع

وهو يائس من اللقاء ومع ذلك لايزال حبل الرجاء ممدودا ، مع ولوعها بالصد عنه والإعراض ومع تعلقه بها ووجْده وجدا ملتاعا . ويضاحك حساده تمويها ويغلبه البكاء ويكاتم زواره وهو موجع القلب والحشا ، حتى إذا ذكر اسمها عفوا أحسَّ كأن نياط فؤاده وعلائقه تتقطع تحسرا ولوعة . وقد أنشد له العماد غزلا كثيرا . ويشكو ابن النقار كاتب الإنشاء الدمشقى المتوفى سنة ٥٩٢ شكوى مرة من صاحبته قائلا[٢] :

مَنْ منصفى من ظالمٍ متعنِّتٍ يزداد ظلما كلما حكَّمتُهُ
ملَّكته روحى ليحفظ مُلكَه فأضاعنى وأضاع ما ملَّكته

وهى تظلمه ولا ترحمه ولا تعطف عليه أى ضعف ، وويل له لقد ملَّكها روحه لتحفظها وتصونها وتقوم بحقوقها فإذا هى تضيعها وتضيع صاحبها إذ أصبح خَواء بلا روح ، فما أشقاه . ويقول فتيان الشاغورى متغزلا[٣] .

ومهفهفٍ بلغَ المنى بصفاتهِ حركاتُ غُصْنِ البان من حركاتِهِ

---

(١) الخريدة ١٣٧/٢
(٢) الخريدة ٣١٥/١
(٣) الديوان ص ٦٤

والشمسُ تخجَلُ من ضياء جَبينهِ والجُلَّنارُ يَغارُ من وَجناتهِ
أضحى الجمالُ بأسره فى أسره فكأن يوسف حاز بعضَ صفاتهِ
لا تَطْمَعَنْ يا عاذلى فى سَلْوتى عنه فما أسلوه ، لا وحياته

وهو يصور صاحبته مهفهفة أو بعبارة أخرى ضامرة دقيقة الخصر بلغت كل ما تتمناه المرأة من حسن وجمال ، ويقول إن غصن البان الذى يميد ملاحة حركته مشتقة من حركاتها ، ويجعل الشمس تصفرّ خجلا من ضياء جبينها ، بينما يغار الجلنار أو بعبارة أخرى ورد الرمان وزهره الأحمر من وجناتها المشربة بالحمرة القانية ، ويجعلها تحوز الجمال بأسره ، حتى لكأن يوسف عليه السلام إنما حاز منه أطرافا ! ويتوجه إلى عاذله باللوم ، فلن يكفّ عن حبه ولن يسلو صاحبته أبدا .

ويقول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ للهجرة[1] :

وتنبَّهتْ ذاتُ الجناح بسحرةٍ بالواديين فنبَّهتْ أشواقى
وَرْقاءُ قد أخذتْ فنون الحزن عن يعقوبَ والألحانَ عن إسْحاق[2]
أنَّى تُبارينى جوًى وصبابةً وكآبةً وأسًى وفيضَ مآقى
وأنا الذى أُملى الجوى من خاطرى وهى التى تُملى من الأوراقِ

وهو يقارن بين جواه وحبه وأساه ودموعه وبين جوى الحمامة الورقاء وصبابتها لأليفها وحزنها الدفين ، ويقول إنه يملى من خاطره حُرقته ولوعته ، بينما هى تملى من أوراق الشجر وتروى عنه ذلك الوجد . ويقول المحَّار الحلبى المتوفى سنة ٧١١ للهجرة[3]

ما بثَّ شكواه لولا مسَّه الألمُ ولا تأوَّه لولا شفَّه السَّقَمُ
ولا توهَّم أن الدمعَ مُهْجته أذابها الشوقُ حتى سال وهْو دَمُ
يُبْدِى التجلُّدَ والأجفانُ تفضحهُ كالبرق تبكى الغَوادى وهْو يبتسم
يمسى ويصبح لا صَبْرٌ ولا جَلَدٌ ولا قرارٌ ولا طَيْفٌ ولا حُلُمُ

والمحار يقول إنه لم يَشْكُ إلا بعد أن برح به الألم ولا أنَّ إلا بعد أن شفه السقم وما كان ليتوهم

---

(١) الخزانة ص ٣٢٦

(٢) يعقوب هو النبى يعقوب وبكاؤه على ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن معروف.. وإسحاق هو إسحاق الموصلى أشهر المغنين الملحنين فى العصر العباسى .

(٣) فوات الوفيات ٢٢١/٢

أن نار الهوى أذبت مهجته حتى سال الدمع دمًا قانيا . ويمسى ويصبح وقد عزه الصبرّ والتجلد وتملكه قلق لا حدَّ له ، وضاع منه كل شىء حتى الطيف فى المنام ، وحتى الأحلام إذ لايزال مسهَّدًا لاينام .

ونمضى إلى زمن العثمانيين ونجد الغزل وشعر الحب على كل لسان من مثل قول فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ للهجرة(١) :

طرقتْ طروقَ الطيفِ وَهْنَا مَـيَّـالـةُ الأعـطـاف حُسْنا
مَصْـقُـولـةُ الـخَـدَّيـن مـثـل السَّـيـف ألحاظاً ومَتْنا
فى حُلَّةٍ من جِنْسِ ما يكسو الربيعُ الغُصْنَ دَكْنا
الـدَّلُّ يَـنْـبـت من مسا حبِ ذَيْلها والحُسْنُ يُجْنَى
لـو خـاطـبتْ وَثَـنـاً لحـنَّ مع الجمود لها وأنَّا

وليس فى القطعة لوعة ، بل هو يصف جمال صاحبته ودلَّها وحسنها ، ويقول : لو خاطبتْ وثنا من الأحجار لحنَّ لها وأنَّ أنينا لا ينقطع . ولم يكن فتح الله بن النحاس من شعراء الحب والوجد مثل محمد الحشرى المتوفى سنة ١٠٩٢ للهجرة القائل(٢) :

مَنْ عَذيرى فى حبِّ طفْلٍ لعوبٍ عوَّدوه سَفْكَ الدِّما فحَلاَ لَهْ
كلما صَدَّ عن سوایَ دَلالاً صَـدَّ عنى تبـرُّمًا وملالَـهْ
لست أنسى يوم الفراق وقد أدْ رك من شملنا النَّوى آمالَهْ
غَصَب البَيْنُ من يدى كلَّ قَدٍّ سرقَ الغُصْنُ لينه واعتدالَهْ
مَرَّ نَشْوانَ من جَوًى يتثنَّى ثقَّل الوردُ غُصْنَه فأمالَهْ

والقطعة تزخر بتصاوير بديعة ، تصور خصب الخيال عند الحشرى ، فقد عوَّدوا صاحبته الطِّفلة الناعمة الرقيقة سفك الدماء فحلالها أن تديم هذا السفك . ويزعم أن الغصن سرق لينه واعتداله من قد صاحبته وقوامها اللين الممشوق وينفذ إلى صورة طريفة ، فصاحبته تتثنى لثقل الورد المتوهج على خدودها الفائقة . وحرى بنا أن نترجم فى إجمال لبعض شعراء العصر الغزلين .

---

(١) نفحة الريحانة (طبعة الحلبى) ٢/٥٢٧ .

عبد[1] المحسن الصورى

هو عبد المحسن بن محمد الصورى ، أحد الشعراء المجيدين المبدعين ، وفيه يقول الثعالبى : « أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأدباء ، وشعره بديع الألفاظ حسن المعانى رائق الكلام ، مليح النظام ، من محاسن أهل الشام » ويقول ابن خلكان : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان . توفى سنة ٤١٩ وعمره ثمانون سنة أو أكثر » ، وكان ابن حَيُّوس الذى ترجمنا له بين شعراء الشيعة مُغْرًى بشعره ، وكان يفضله على أبى تمام والبحترى والمتنبى . ويُرْوَى أنه مرَّ فى طريقه إلى حلب بشاعر المعرَّة بل الشام بل العالم العربى لزمنه : أبى العلاء ، وجرى بينهما حديث فى الشعر والشعراء وعاب أبو العلاء عبد المحسن الصورى بقصر أشعاره وأنه لا ينظم فى الغالب إلا مقطَّعات فقال له ابن حيوس : هو أشعر من طويلك يقصد المتنبى ، فمدَّ إليه أبو العلاء يده وقبض على أعلى ثوبه قائلا : الأمراء لا يناظرون ، يعنى أنه لا يقارَن بالمتنبى . وكان أبو العلاء معجبا بالمتنبى إعجابًا شديدا حتى سمى شرحه لديوانه باسم معجز أحمد . على أن قصر أشعار عبد المحسن الصورى لا يدفع أنه مجيد فى قصاره إجادة رائعة . وهو فيها يقترب فى فنه من أبى تمام فى دقائق تصاويره وأخيلته .

ولعل ذلك ما جعل ابن خفاجة الأندلسى يعجب بأشعاره حتى ليقرنه فى مقدمة ديوانه بالشريف الرضى ومهيار قائلا : إنه تملَّكته فى شبابه محاسن أشعارهم الرائعة الرائقة ، وألفاظهم الشفافة الشائقة . ويتوقف مرارا فى ديوانه ليدلنا على أن عبد المحسن الصورى ألهمه هذه المقطوعة أو القصيدة أو تلك ، وهو فيها جميعا يتغزل غزلا رقيقا ممتزجا بالطبيعة وجمالها الماجع فى الكون ، وكأنه يضع أيدينا على خصائص عبد المحسن فى غزله ، فهو فيه يمزج بين المحبوب وعناصر الطبيعة مزجا فيه كثير من الطرافة فى التصوير كقوله :

بالذى ألهم تَعْذيـ ـبى ثناياكِ العِذابَا
والذى ألْبس خَدَّيْـ ـكِ من الورد نِقابا
والذى صيَّر حظِّى منكِ هَجْرا واجتنابا
يا غزالاً صاد باللَّحْـ ـظِ فؤادى فأصابا
ما الذى قالته عينا كِ لقلبى فأجابا

---

(١) انظر فى ترجمة عبدالمحسن الصورى وأشعاره اليتيمة ٢٩٦/١ وتتمة اليتيمة ص ٣٥ وابن خلكان ٢٣٢/٣ وعبر الذهبى ١٣١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٦٩/٤ ومرآة الجنان ٣٤/٣ والشذرات ٢١١/٣ وديوانه مفقود .

فهو يصل بين رُضاب الثنايا فى ثغر صاحبته وبين المياه العذبة الحلوة ، ويجعل الحمرة على وجنتيها وردا تنتقب به . وهو بعد فى التصوير . ويجعلها غزالا من نوع غريب ، فهى غزال لا يُصاد ، بل يصيد بشباك لحظه ، وإنه ليخلب القلوب فتلبيه طائعة مستجيبة .

وقد استلهم ابن خفاجة هذا الجانب فى غزل عبد المحسن الصورى واستضاء به ، كما استضاء واستلهم فى أشعار أخرى له جانبا ثانيا فى غزل عبد المحسن ، ونقصد جانب الرقة والدماثة والنعومة على نحو ما نجد فى قوله :

أتُرَى بثأرٍ أم بِدَيْنِ ... علقتْ محاسنُها بعَيْني
فى لحْظِها وقَوامِها ... ما فى المهنَّد والرُّدَيْني
وبوَجْهِها ماءُ الشبا ... بِ خليطُ نار الوَجْنتين
بكرتْ عليَّ وقالتِ اخْـ ... ـتَرْ خَصْلَةً من خَصْلتين
إما الصدودُ أو الفرا ... قُ فليس عندى غيرُ ذَيْنِ
فأجبتُها ومدامعى ... منهلَّةٌ كالمِرْزَمَيْنِ (١)
لا تفعلى إن حان صَـ ... ـدُّكِ أوفراقُك حان حَيْني
وكأنما قلتُ اذهبى ... فمَضَتْ مسارعةً لبَيْني

والأبيات تسيل رقة وعذوبة ، مما يجعلها تطير من الفم بخفة طيرانا لرشاقتها ونعومتها ، والألفاظ مختارة اختيارا دقيقا ، وبالمثل موسيقاها الخفيفة المقتطفة من وزن الكامل المجزوء . وكان يعرف كيف يختار موسيقاه ولحونها وأنغامها ، وكيف يختار لها الألفاظ التى تمكن لها بحلاوتها وعذوبتها فى الآذان ، بل فى القلوب والأفئدة . ويقول فى صُدْغ شعر مرسل بين أذن صاحبته ووجنتيها وقد توقف مائلا منحنيا :

جَنَى ما جَنَى وانْصَرَفْ ... وأنكَرَ ثم اعترَفْ
سلوا صُدْغه لِمْ جَرَى ... ولما جَرَى لِمْ وَقَفْ
وكان على أنَّه ... يجوز المَدى فانْعَطَفْ

وهو تصوير بديع لهذا الصدغ وانعطافه ذات اليمين أو ذات اليسار دون استرساله ، وكأنه لجماله وحسنه كان ينتظر أن لا ينعطف ، وقد بث فيه حركة طريفة فهو يجرى ثم يقف ، وهو يسترسل ثم

(١) المرزمان : نوءان شديدا المطر

ينعطف . وكان الشعراء يغارون على صواحبهم ، ويذكرون ذلك فى أشعارهم ، أما عبد المحسن فيقول :

تعلَّقتُه سكرانَ من خمرة الصِّبا ... به غفلةٌ عن لوعتى ولهيبى
وشاركنى فى حبِّه كلُّ أغيدٍ ... يشاركنى فى مهجتى بنصيب
فلا تُلْزِمونى غيرةً ما عرفتها ... فإن حَبيبى مَنْ أحبَّ حبيبى

وهو فى ذلك رقيق منتهى الرقة ، فهو لا يغار ممن يحب حبيبه ولا يكرهه أو يمقته ، بل أعجب العجب أنه يحبه ، وهى مبالغة مفرطة فى الرقة ورهافة الشعور .

ابن[١] منير

هو أحمد بن منير الطرابُلسِىّ ، ولد فى طرابلس سنة ٤٧٣ لأب كان ينشد الأشعار ويغنى فى أسواقها ، وأخذ ابنه فى نشأته بالتعليم فحفظ مثل لداته القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقدم دمشق وسكنها . ويقول العماد الأصبهانى كان شيعيا غاليا ، ويقول ابن خلكان : «كان رافضيا » . وكان هجاء خبيث اللسان ، وكثر هجاؤه فسجنه بورى بن طُغْتكين صاحب دمشق (٥٢٢ – ٥٢٥ هـ) وعزم على قطع لسانه ، وشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز ، فأطلقه بورى على أن يغادر دمشق ، ورجع إليها بعد وفاته . غير أن حكامها بعد بورى ظلوا ينفونه مرارا ، مما جعله ينزل فى بلدان شامية متعددة وخاصة حماة وشَيْزر ومدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شيزر ، وكان فى أثناء مقامه بتلك المدينة يتردد على حلب. وتغنى طويلا بانتصارات عماد الدين زنكى على الصليبيين فى بادين وغيرها من ساحات الحرب فى الشام . وجلجل بصوته حين فتح مدينة الرُّها وأزال منها إلى غير رجعة إحدى الممالك التى أسَّسها حملة الصليب . وأقام ابن منير حينئذ بحلب ، ونشأت بينه وبين ابن القيسرانى – بسبب المنافسة – معركة هجاء حامية الوطيس . وتوثقت العلاقة بينه وبين نور الدين بعد وفاة أبيه زنكى ، وأشاد ببطولته وانتصاراته على حملة الصليب ، وكان يصحبه فى غزواته ، واتخذه نور الدين سفيرا إلى حاكم دمشق فى بعض المهام ، ولم يلبث أن توفى بحلب سنة ٥٤٨ .

(١) انظر فى ابن منير وشعره الخريدة (قسم الشام) ٧٦/١ وابن خلكان ١٥٦/١ وابن القلانسى ٣٢٢ والنجوم الزاهرة ٢٩٩/٥ وشذرات الذهب ١٤٦/٤ .

وتناول ابن منير فى شعره أغراضا مختلفة فى مقدمتها المديح ، ومرَّ بنا – فى غير هذا الموضع – حديث عن مديحه لعماد الدين زنكى وابنه نور الدين فى انتصاراتهما الرائعة على حَملة الصليب ، ويُشيد العماد الأصبهانى بشعره وروعته . وكان يكنى أبا الحسن ويلقَّب المهذب وقال فى وصف شعره أحد معاصريه : شعره ككنيته حسنٌ ونظمه كلقبه مهذبٌ ، أرقُّ من الماء الزُّلال ، وأدق من السحر الحلال ، وأطيب من نَيْل الأمنية ، وأعذب من الأمان من المنية . وله هجاء كثير. وكان يجيد الغزل وشعر الحب إلى أبعد حد ، وفى رأينا أن مرجع ذلك إلى حزن تنطوى عليه نفوس الشيعة جميعا منذ مقتل الحسين ، وهو حزن صفَّى مشاعره ورقق أحاسيسه وملأه بوجد متقد لا تخمد ناره ، ومن رائع غزله قوله :

مَنْ ركَّبَ البَدْرَ فى صَدْرِ الرُّدَيْنِىِّ ... وموَّه السحرَ فى حَدِّ اليمانىِّ
وأنزل النَّيِّرَ الأعلى إلى فَلَكٍ ... مَدارهُ فى الكِساء الخُسْرُوانىِّ
طَرْفٌ رَنَا أم قِرابٌ سُلَّ صارمهُ ... وأغيدٌ ماسَ أم أعطافُ خَطِّىِّ
أذلَّنى بعد عزٍّ والهوى أبدًا ... يستعبد اللَّيْثَ للظَّبْىِ الكِناسىِّ[1]
أما وذائبِ مسكٍ من ذوائبهِ ... على أعالى القضيب الخَيْزُرانىِّ
وما يُجِنُّ عقيقىُّ الشِّفاه من الـ ... ـرِّيق الرَّحيقىِّ والثَّغْر الجُمانىِّ
أربَى علىَّ بشتى من محاسنه ... تـألَّـفتْ بين مسموعٍ ومَـرْئىِّ

والصور فى الأبيات طريفة غاية الطرافة ، فهو يتعجب من بدر يراه فى صدر رمح ردينى مهيَّىءٍ لإصابة المحب فى الصميم ، وإنه ليعجب أن يكون سحر العينين مموَّهًا فى حد السيف اليمانى وأن يرى القمر أمام عينيه يدور على الأرض فى كساء فارسى حريرى . ويعجب هل العين طرف يديم النظر أو غمد سُلَّ سيفه القاطع ، وهل هو بإزاء قَدٍّ شائق ناعم يتثنى أو بإزاء أعطاف رمح خَطِّىٍّ قاتل ، ويقول إن الهوى يستعبد الليث الفاتك للظبى الوادع الذى يعيش فى كناسه أو مأواه الآمن ، ويرى ذوائب الشعر على أعالى هذا الغصن الخيزرانى الأملس الناعم تقطر ذوب المسك ، أما الشفاه فوراءها الثغر الفضى من الأسنان والريق الرحيق السائغ . وهى صور تدل على خصب الخيال عند ابن منير وقدرته على عرض الصور الشعرية عرضا طريفا . ويقول :

أَتُرَى يَثْنيه عن قسوتهِ ... خَدُّه الذائب من رِقَّتهِ

(١) الكِناس : مأوى للظبى فى الشجر يستتر به

أفأستنجده وهْو الذى لوَّن الدمعَ على صِبْغتهِ
ولهذا قَوْسُــه مُوتَـرَةٌ تستمدُّ النَّبلَ من مُقْلتهِ
قمرٌ لا فخرَ للبَدْرِ سوى أنه صِيغَ على صورته
صُدْغُه كرمةُ خمرٍ قُسِّمتْ بين خَدَّيْه إلى نَكْهتهِ
أتخالُ الخالَ يعلو خدَّه نَقْطَ مسْكٍ ذاب من طُرَّته
ذاك قلبى سُلِبَتْ حَبَّته واستوتْ خالا على وَجْنَتِه

والقطعة تموج بالصور ، فخدُّ صاحبته يذوب رقة ، وقد لون دموعه بلونه الأحمر القانى ، وإن قوس حاجبها لمشدود والنبل فى مقلتها يستمده . وقد بلغت من الجمال وسحره مبلغا عظيما حتى ليفخر البدر بأنه صيغ على صورتها ، وكأن صدغيها أو خصلتى الشعر المرسلتين على خديها كَرْمَةُ خمرٍ قسمت بينهما واستحالت رضابا فى ثغرها يرشفه المحب . ويقول : لا تظن الخال على خدِّها نقطة مسك سقطت من طُرَّة شعرها ، بل هو حَبَّة فؤاده سلبتها من قلبه وأتاحتها لوجنتها الفاتنة . وتكثر مثل هذه الصور البديعة فى شعره وغزله ، من ذلك قوله :

وتَوقَّدَتْ فى الرَّوْضِ من وجَناتهِ نارُ الحياء يشبُّها ماءُ الصِّبا[(١)]

وقوله :

وكم له فى كبدى لَسْعَةٌ بُرُودها الدِّرْياقُ من فيهِ[(٢)]

وقوله :

سَلَّمتُ فازْورّ ، يَزْوِى قوسَ حاجبِهِ كأننى كأسُ خمرٍ وهْو مخمورُ

وقوله :

قمرٌ مـا طـلـعتْ طَـلْـعَـتُـهُ قطُّ إلا سجدَ البدرُ لها

وغزلياته تتردد بين الجزالة والنصاعة فى الألفاظ وبين الرشاقة والعذوبة ، وله قصيدة رائية من مجزوء الكامل فى مملوكه « تتر » أنشدها الحموى فى خزانته تدل على خفة روحه وميله إلى الدعابة ، وبحق كان شاعرا بارعا من شعراء زمنه .

---

(١) يشبها : يوقدها .
(٢) برودها : شرابها . الدِّرياق : الترياق الشافى

الشاب[1] الظريف

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني ، نشأ أبوه فى دمشق ، وخدم الدولة فى عدة جهات ، وعمل كاتبا وشيخا للصوفية وانتظم فى سلكهم ، ووفد على القاهرة ونزل بها فى خانقاه الصوفية الكبيرة المعروفة باسم « سعيد السعداء » ووُلد له حينئذ ابنه شمس الدين سنة ٦٦١ . وعنى بتربيته وبدأ بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ ، وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ ينظم مدائح وغير مدائح ، غير أن أباه رأى أن يعود إلى دمشق وعاد معه وظل يذكر صباه بمصر فى مثل قوله :

يا ساكنى مصرَ شَمْلُ الشوقِ مجتمعٌ   بعد الفراق وشملُ الشكر أجزاءُ

والتحق أبوه بالدواوين فى دمشق ، وولى هو عمالة الخزانة بها ، وعاش مكفوف الرزق ، وأفضى مع أنداده من شباب دمشق إلى حياة فيها غير قليل من اللهو يجتمعون فى دورهم أو فى المتنزهات ، غير أنه لم يعش طويلا ، إذ عاجلته المنية فى الثامنة والعشرين من عمره سنة ٦٨٨ .

وقد تناول الشاب الظريف فى شعره أغراضا مختلفة من المديح وغير المديح ، وأهم غرض أبدع فيه واشتهر به بين معاصريه ومن جاءوا بعدهم الغزل ، لسبب طبيعى وهو أنه طالما تردد على سمعه شعر أبيه الصوفى وغيره من أشعار ابن الفارض وابن عربى ، وكأنما تمثل ما فى أشعارهم جميعا من وجد قوى حار ، وبثَّ منه الكثير فى غزله ، مصورا ما يثير الحب فى القلوب من المشاعر والعواطف والأهواء ، عارضا ذلك فى لغة عذبة سهلة تلذ الألسنة والآذان والأفئدة . وفيه وفى شعره ورقته ينقل ابن شاكر عن ابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار قوله عنه وعن شعره :

« نسيم سَرَى ، ونعيم جرى ، وطيف لابل أخف موقعا منه فى الكرَى ، لم يأت إلا بما خف على القلوب ، وبرئ من العيوب ، رقَّ شعره فكاد أن يُشْرَب ، ودقَّ فلا غرو للقُضُب (الأغصان) أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان .. وأكثر شعره بل كله رشيق الألفاظ ، سهل على الحفَّاظ ، ل يخلو من الألفاظ العذبة ، وما تحلو به المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر » .

---

(١) انظر فى الشاب الظريف وأشعاره فوات الوفيات لابن شاكر ٤٢٢/٢ والنجوم الزاهرة ٣٨١/٧ وتاريخ ابن الفرات ٨٥/٨ والخزانه لابن حجة الحموى ص ٢٥١ وما بعدها وديوانه مطبوع بالمطبعة الأهلية ببيروت .

وهى شهادة قيمة لابن فضل الله فى الشاب الظريف وشعره غزلا وغير غزل ، إذ يموج شعره بالرقة وحسن الجرس وجمال التناسق ، مع خفة الروح ، وكأنما حمل فى صباه منها غير قليل من أهل القاهرة الذين عاشرهم فى نشأته ومطالع حياته ، ومن طريف غزله قوله :

لا تَخْفِ ما فعلتْ بك الأشواقُ   واشرَحْ هَواكَ فكلُّنا عُشَّاقُ
فعسى يُعينك من شكوتَ له الهَوَى   فى حَمْله فالعاشقون رفاقُ
لا تجزعنَّ فلستَ أولَ مُغْرَمٍ   فتكتْ به الوجناتُ والأحْداق
واصبرْ على هجرِ الحبيب فربما   عاد الوصالُ وللهوى أخلاق
يا ربَّ قد بَعُدَ الذين أحبُّهم   عنى وقد ألفَ الفراقَ فراقُ

والأبيات تسيل رقة وعذوبة ، وهى تلتصق بالنفس لا لما قاله ابن فضل الله العمرى من أن الشاب الظريف كان يستخدم الكلمات العامية ، فليس فيها من العامية شىء ، وربما كان أدق من ذلك أن نقول إنه كان يستخدم أساليب وألفاظا أشبه بألفاظ وأساليب اللغة اليومية المتداولة على ألسنة العامة مع أنها عربية فصيحة . مما يُشيع الاستواء فى عباراته وانسجامها انسجام الماء العذب فى تحدره ورقته وانطلاقه دون أى عائق لفظى ، بل مع العذوبة والحلاوة والرشاقة ، على شاكلة قوله :

أعـزَّ الله أنصار العيـونِ   وخلَّدَ ملكَ هاتيك الجُفونِ
وضاعفَ بالفتور لها اقتدارًا   وإن تك أضعفتْ عقلى ودينى
وأبقى دولةَ الأعطاف فينا   وإن جَارتْ على قلبى الطَّعين
وأسبغَ ظلَّ ذاك الشَّعْرِ منه   على قَدٍّ به هَيَفُ الغصون

وهو دعاء لصاحبته ملىء بالظرف والرِّقَّة والدماثة ، فهو يدعو لأمثاله من العشاق المفتونين بسحر العيون أن يعزهم الله وأن يخلد للعيون أو الجفون هذا الملك العريض من عالم الجمال والسحر ، ويدعو للعيون أن تزداد فتورا حتى يزداد سحرها وشرره تأثيرا فى القلوب . ويدعو لمثل قوامها وأعطافه أو جوانبه البديعة بالحياة السعيدة وإن أصابته فى الصميم : فى قلبه . ويستمر فى دعائه : أن يسبغ الله ظل ذاك الشعر على قدها الأهيف الضامر ضمور الغصون اللدنة المليئة بالنضرة ، ويقول :

لى من هواك بَعِيدُه وقريبُهُ ولك الجمالُ بديعُه وغريبُهُ
يا من أعيذُ جماله بجلالهِ حذرًا عليه من العيون تُصيبُهُ
إن لم تكن عينى فإنك نورُها أو لم تكن قلبى فأنت حَبيبُهُ
هل حرمةٌ أو رحمةٌ لمتيَّمٍ قد قَلَّ منك نصيرُه ونصيبُه
لم يبق لى سرٌّ أقول تذيعُه عنى ولا قلبٌ أقول تُذيبُهُ
والنَّجْمُ أقْرَبُ من لِقاك مَنالُه عندى وأبعدُ من رضاك مَغيبُه

والأبيات تسيل رقة ونعومة وهو فيها يحوط صاحبته بكل ما يستطيع من شباك التضرع والاستعطاف ، فهو عاشق واله ، وهى ليست جميلة فحسب بل هى أيضا جليلة ، وهو يعيذ جمالها بجلالها حذرا من عيون الحاسدين . وهى نور عينه وَحبَّة قلبه ، وهو يسألها متوسلا بالرحمة أوحرمة الحب لعلها تنيله شيئا من الود ، ويعترف بأن آلامه فى حبها ذاعت وشاعت ، وقلبه يصلى نار حبها حتى ذاب التياعا لطول يأسه من لقائها حتى ليظن أن النجم أقرب من لقائها منالا وأبعد من رضاها مغيبا . وهو فى غزله دائما ينصب شباك هذا التضرع الطريف كقوله :

بِتَثَنِّى قوامك المشوقِ وبأنوار وجهك المعشوقِ
جُدْ بوصلٍ أوزورةٍ أو بوعدٍ أوكلامٍ أو وقفةٍ فى الطريقِ
أو بإرسالك السلامَ مع الرِّ يح وإلا فبالخيالِ الطَّروقِ

وتدل تمنياته فى وضوح على خفة ظله ، وأنه رقيق رقة مفرطة مع الدماثة والظرف والتدله فى الحب واتقاد جذوته فى فؤاده . ولكل ذلك سماه معاصروه بحق « الشاب الظريف » . وله وراء ما ذكرنا من شعره موشحات ورباعيات بنفس الروح ونفس اللغة .

حسن[1] البورينىّ

هو حسن بن محمد البورينىّ ، ولد بالأردن فى قرية صَفُّورية لسنة ٩٦٣ للهجرة ، ونزل مع أبيه دمشق وهو غلام ، واختلف فيها إلى حلقات العلماء ، ولم يلبث أبوه أن بارحها إلى بيت

---

(١) انظر فى حسن البورينى وشعره ريحانة الألبا ٤٢/١ وخلاصة الأثر ٥١/٢

المقدس ، وفيه أتم تعلمه . وعاد إلى دمشق فاشتغل فيها بالتدريس فى مدارسها والوعظ فى مساجدها . وتولى منصب القضاء فى الحج الشامى سنة ١٠٢٠ . وكان عالما ثبتا حُفظة فصيح العبارة . وله شرح على ديوان ابن الفارض الصوفى بحسب المعنى الظاهر ، دون أى محاولة لإقحامه بين المتصوفة المتفلسفين أصحاب أفكار الحلول ووحدة الوجود . وكان سُنِّيًّا شافعيا . وله كتاب فى تراجم الأعيان لا يزال مخطوطًا بدار الكتب المصرية ، وأفاد منه المحبى فى كتابه خلاصة الأثر .

وكان البورينى شاعرًا مجيدًا ، وجمع ديوان شعره ، ومنه مخطوطة فى مكتبة كوبريلى بالآستانة ، ويقول فيه الشهاب الخفاجى : « ديباجة الدنيا ومكرمة الدهر ، ونكتة عطارد التى يفتخر بها الفخر » وروى له طائفة من غزله ، وهو فيه يستقى من نفس المعين الذى استقى منه الشاب الظريف ، ونقصد معين الشعر الصوفى وما فيه من وجد ملتاع ، ويكفى أنه قرأ ديوان ابن الفارض بل لقد شرحه ووقف عند كل معنى من معانيه وكل لفظ من ألفاظه ، فطبيعى أن يتأثر بحبه الإلهى الظامئ أبدا وما فيه من خوالج وخواطر لا تكاد تحصى ، تصور الحب الملتاع الذى يصحبه دائما الفراق والحرمان ، فما يكاد يهنأ بالحب لحظة حتى ينعَق له غراب البين ، ويظل فى نعيقه وهو يتلهف أشد التلهف على رؤية صاحبته بمثل قوله :

يقولون فى الصبح الدعاءُ مؤثِّرٌ فقلت نعم لوكان ليلى له صُبْحُ
ويا عجبًا منِّى أرومُ لقاءَهُ وفى جَفْنه سَيْفٌ ومن قَدِّه رُمْحُ
وإنسانُ عينى كيف ينجو وقد غدا يطول له فى لُجِّ مَدْمعه سَبْحُ
وليس عجيبا أنَّ دمعىَ أحمرٌ وفى مهجتى قَرْحٌ وفى مقلتى رَشْحُ

فهو يعيش بدون صاحبته فى ليل لا آخر له ، ويعجب كيف يريد لقاءها وهى مسلحة بجفنها الساحر وقوامها الممشوق ، إنه لم يعد له منها سوى الدموع التى يغرق فيها إنسان عينيه ، ومازالت عيناه تدمع حتى استحال دمعها دما ، ويشعر كأن فى مهجته جرحا لا يبرأ وفى مقلته رشحًا لا يرقأ . ويقول :

وكنّا كغُصْنَىْ بانةٍ قد تألَّفا على دَوْحَةٍ حتى استطالا وأَيْنَعا
يغنِّيهما صَدْحُ الحمامِ مُرَجَّعًا ويسقيهما كأسُ السحائب مُتْرَعا
سليمين من خَطْب الزمان إذا سَطَا خَلِيَّيْنِ من قول الحسودِ إذا سَعَى

ففارقنى من غير ذنبٍ جَنَيْتُهُ وأبقى بقلبى حُرْقَةً وتوجُّعا
عفا الله عنه ما جَناه فإننى حفظتُ له العهدَ القديمَ وضَيَّعَا

وهى قطعة طريفة ، إذ يتصور البوريني أنه هو وصاحبته كانا مثل غصنين لشجرة ضخمة من شجر البان وُلدا معا وعاشا معا صيفا وشتاء وتغذيا معًا وتناولا الحياة تناولا واحدا ، ينعمان بشدو الحمام وينهلان من كئوس السحاب منتشين هانئين ، لا عذول ولا حسود . وفجأة تهجره صاحبته من غير ذنب جناه . ويصطلى قلبه بنار الحب المحرقة وأوجاع الهجران المؤلمة ، ومع ذلك يدعو الله أن يغفر لصاحبته جنايتها ، إذ ضيعت العهد والميثاق القديم ، أما هو فلا يزال ذاكراً له بل حافظا أمينا . ويقول :

منازلُ هذا القلبِ كنَّ أواهلاً وها هى من بعد الفراق طُلولُ
ويا ظَبْىُ هل بعد النِّفار تأنُّسٌ ويا بدرُ هل بعد الأفول قفولُ
ويامنزلَ الأحباب أين ترحَّلوا وهم فى فؤادى – ما حييتُ – نزولُ
يميلون عنى للوشاة وإننى إليهم وإن طال الصدود أميل
علىَّ لهم حفظُ الوداد وإنْ جَنَوْا وليس إلى نَقْض العهود سبيلُ

وقد فارقته صاحبته وأصبحت منازل قلبه طلولا دارسة ، وإنه ليتساءل متحسرا هل بعد النفور تألف وهل بعد أفول البدر قفول ورجوع ، ويسأل منزل الحبيبة وقومها أين ترحلوا ، ويقول إنهم نزول فى قلبه لا يفارقونه أبدا ، وحتى إن هم سمعوا للوشاة وأطالوا له الصدود والهجران فسيظل متعلقا بهم حافظا لودادهم لا ينقض العهود ولا ينكثها ، بل سيزداد تعلقه وحبه واستمساكه . وما يلبث أن يخاطب فى نفس القصيدة قمريا أوكما يسميه ابن ورقاء أى حمامة رمادية اللون قائلا :

وماهاجنى إلا ابنُ ورقاءَ سُحْرَةً له فوقَ أفنان الرياضِ هَديِلُ
يُرَدِّدُ فى صُحُفِ الرياض قصائدا من الشوق يُمْلِيها لنا ويَميلُ
يخيِّلُ أن البَيْنَ آذَى فؤادَهُ وكيف ولما يَنْأَ عنه خليلُ
ولم تحتكم فيه الليالى ولم يَبِنْ عليه لبَيْنٍ رِقَّةٌ ونحولُ
أما والهوى لو ذقتَ ما ذقتُ فى الهَوَى لما ازدان بالأطواق منك تَليلُ

ألا إنه مافارقَ الإِلْفَ دَهْرَهُ ومالى إلى وَصْلِ الحبيب وصولُ

وهو يوازن بينه وبين قمرى يتغنى سحرا بأشواق ماينى يرددها فى صحف الرياض ويمليها مخيِّلا كأنه يشكو من آلام بينٍ مبرِّح ولا بين ولا فراق ، فحبيبته بجانبه لم تفارقه ليلة ، ولا أصابه لفراقها ضَنًى ونحول . ويقسم له بالهوى لو ذاق أو جاعه وتباريحه مالازدان تليله أوعنقه بطوق ، ويقول له إنه لم يفارق أليفتَه يوما بينما هو يتلظى بنار الفراق والهجران . وكان يعرف الفارسية وقد ترجم عنها قوله :

ورقُ الغصونِ دفاترٌ مشحونةٌ مملوءةً بـأدلَّة التـوحيـدِ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على روعة غزلياته ، وهو فيها دائما مشوق يتمنى الوصل وأن تذوب حُجب الهجران . ومازال يردد هذا المعنى وما يتصل به ، حتى لبى نداء ربه بدمشق لسنة ١٠٢٤ للهجرة .

٢

شعراء الفخر والهجاء

موضوعا الفخر والهجاء من موضوعات الشعر القديمة منذ الجاهلية ، ومعروف أن شعر الفخر والحماسة الحربية غلب عليها قديما ، حتى سمى أبو تمام مختاراته الشعرية الكبرى باسم الحماسة تغليبا لهذا الموضوع على موضوعات الشعر الأخرى عند العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، وكان يزحمه من قديم شعر الهجاء ، إذ كانوا يفخرون بانتصاراتهم الحربية ويهجون خصومهم بهزائمهم ، يستثيرون بذلك قبائلهم لتخوض معارك جديدة أشد فتكا فى الأعداء . وكانت معارك العرب — على مر السنين — بينهم وبين الأمم وقودًا مستمرًّا للفخر والهجاء ، فلم تخمد لها نار ، بل لقد اشتد أوارها كلما تقدمنا مع الزمن ، وكان شعراء الشام يشاركون فى تلك المعارك بسهام شعرهم النارية . ونكتفى بذكر شاعرين كبيرين قريبين من هذا العصر هما أبو تمام والبحترى ، وكانا أشبه بمكاتبين حربيين ، فهما يحضران المعارك مع ثوار إيران ومع الروم فى آسيا الصغرى ، ويصوران كيف احتدمت الحرب وبلاء الجيوش العباسية وقوادها فيها وما أنزلوا بالأعداء من مَحْق لا يكاد يبقى منهم باقية . وبجانب هذا الفخر والهجاء الحربى كان هناك الفخر والهجاء السلميان اللذان ينظمها الشعراء لبيان ما يشتملون عليه هم وأقوامهم ، أو هم أنفسهم ، من مثالية خلقية رفيعة وما يتصف به أعداؤهم

أو بعض خصومهم من أخلاق شائنة يزدريها المجتمع . وهذا الفخر والهجاء الجماعيان والفرديان نجدهما عند أبي تمام والبحترى وغيرهما من الشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم ، فنجد – بعامل المنافسة – شاعرا يفاخر زميلا له ويهاجيه .

وكل ذلك نراه شائعا فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت الحرب محتدمة فى أوائله بين سيف الدولة الحمدانى أمير حلب وبين الروم ، وكان يَكيل لهم ضربات قاصمة ، مما جعل كثيرين من الشعراء يمدحون بطولته وبطولة جيوشه العربية مفاخرين الروم وهاجين منذرين جموعهم بمعارك تدق أعناقهم دقا ولا تبقى ولا تذر . وبجانب ذلك نجد الفخر والهجاء الفرديين محتدمين بين بعض شعراء حاشيته على نحو ما حدث بين الخالديين والسَّرِىِّ الرَّفاء . وشاعر الفخر الشامى الذى لا يبارى فى القرن الرابع الهجرى أبو فراس الحمدانى ، وسنخصه بترجمة مفردة . وربما كانت أروع قصيدة فخر نظمها شعراء الشام فى القرن الخامس الهجرى قصيدة أبى العلاء المعرى التى أشرنا إليها فى ترجمته وفيها يقول[1] :

ألا فى سبيلِ المجدِ ما أنا فاعلُ عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
تُعَدُّ ذنوبى عند قومٍ كثيرةً ولا ذنب لى إلا العُلا والفضائل
وقد سار ذكرى فى البلاد فمَنْ لهم بإخفاء شمسٍ ضوءُها متكاملُ
وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل
ولى منطقٌ لم يرضَ لى كُنْهَ منزلى على أننى بين السِّماكين نازلُ
ولما رأيتُ الجهلَ فى الناس فاشياً تجاهلتُ حتى ظُنَّ أنىَ جاهلُ
وواعجبًا كم يَدَّعى الفضلَ ناقصٌ ووأسفًا كم يُظْهِر النَّقْصَ فاضلُ
ينافسُ يومى فىَّ أمسِى تشرُّفا وتحسُد أسحارى علىَّ الأصائلُ

والقصيدة تناقض شخصية أبى العلاء المتشائمة الزاهدة فى الحياة وكل ما فيها من مجد ، وإما نظمها تقليدا ومحاكاة لسابقيه فى فن الفخر ، وإما نظمها فى ساعة غضب ردا على بعض شانئيه وخصومه . ومع ذلك فهى تصور مكانته فى الأدب العربى ، وأنه فيه – بحق – السابق المجلِّى ، وهو يقول : من أين يلحقنى الذم وأنا أنهض بكل ما يكسبنى المجد والشرف من العفاف الطاهر

---

(١) ديوان سقط الزند (طبع دار الكتب المصرية) ٥١٩/٢ .

والإقدام الجرىء والحزم النافذ والنائل أو الجود السابغ ، ويقول إنه ليس فيه ذنوب ولا عيوب إلا إذا عُدَّت العلا والفضائل ذنوبا وعيوبا ، ولن تعد المحاسن كذلك أبدا . وإن ذكره ليعم البلاد كما يعمها ضوء الشمس الغامر الذى لا يستطيع أحد إخفاءه ، وإن كان زمانه قد تأخر فإنه أتى بما لم يستطعه الأوائل ، ومع أنه بين السماكين فى السموات العلا لا يزال منطقه أو عقله يطلب منزلة أعلى شأنا . ولما رأى الجهل فاشيا تجاهل حتى ظن الأغبياء أنه جاهل ، وتعجب من ادعاء الناقص الفضل وتحسَّر على تظاهر الفاضل بالنقص . ويقول إن كل وقت يتمنى أن يكون فيه دون غيره من الأوقات ، فأمسه يحسد عليه يومه وأصيل اليوم يحسد عليه سحره . ويمضى أبو العلاء فى القصيدة بهذا الصوت الضخم المجلجل كالرعد القاصف .

وكان يعاصر أبا العلاء ابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة ، وله يفتخر بقومه وبلائهم فى حرب الثغور ضد الروم(١) :

أهلُ الثغور إذا تلمّ مُلِمَّةٌ … بَسَطوا رِماحًا دونها وسَواعدا
وأولو التُّقَى فإذا مررت عليهمُ … لم تلق إلا مكْرِما ومجاهدا
إن حاربوا ملئوا البلاد مَصارعًا … أو سالموا عَمَرُوا الديار مساجدا
بيتٌ له النسبُ الجلىّ وغيره … دعوى تريد أَدِلَّةً وشواهدا

وهو يفخر ببأس قومه وتقواهم وأنهم فى الحرب يملئون ساحات المعارك بينهم وبين الروم صرعى مقتولين . وإذا أفضوا إلى السلم ملئوا الديار مساجد ، ويقول إن بيتهم عريق فى العرب لا يطاوله أى بيت . ومن شعراء الفخر فى زمن الفاطميين والأيوبيين أسامة بن منقذ وسنفرد له ترجمة — ولابن الساعاتى المار ذكره(٢) :

وإنى لآبى الضَّيْمَ من كل صاحبٍ … وأُكره قلبى أن يكون له خِدْنا
وإن بلدٌ لم أَغْدُ فيه مكرَّمًا … نهضتُ فأعملتُ الجُدَيْلِيَّةَ البُدْنا(٣)
وما شان فَضْلى بين أهلى خمولُه … وقد بلغتْ غاياتُه الإنْسَ والجِنّا
فإنى كعود الهنْد هِينَ بِدَوْحِهِ … وقد عَبِّقت أنفاسُه السَّهْلَ والحَزْنا

(١) ديوان ابن سنان الخفاجى ص ٢٣

(٢) ديوان ابن الساعاتى ٢/٢١٤

(٣) الجديلية البدن : النوق الضخمة

فهو يأبى الضيم شاعرا بالكرامة شعورا عميقا ، حتى لو أحسَّ أن بلدا ينبو به رحَل عنه إلى غير إياب ، ويبالغ فى بيان فضله قائلا إنه شاع بين الإنس والجن ، وإن اعتراه خمول بين أهله فثله مثل عود الهند لا يُعْرَفُ فضله فى دَوْحته ، بينما رائحته العطرة تملأ السهل والحزن من الأرض .

ونظل نستمع إلى هذا الصوت الأجش المعتز بنفسه وكرامته طوال أيام المماليك وبالمثل أيام العثمانيين كقول ابن الجزرى المار ذكره[1] :

يقدِّمنى عَزْمى وحَظِّى مؤخِّرِى ... ويوصلنى حَزْمى ودهرى يقطِّعُ
وهمِّى من الدنيا المعالى ونَيْلُها ... وما همٌّ قلبى الرَّقْمتان ولَعْلَعُ[2]
ولا رَشَأٌ أَحْوَى ولا صَوْتُ قَيْنَةٍ ... ولا قدَحٌ فيه الرَّحيق المُشَعْشَعُ[3]
ولكنما لَدْنٌ وأَجْرَدُ سابحٌ ... ومسرودةٌ زَغْفًا وأبيضُ يَسْطَعُ[4]

وهو صاحب عزم وحزم ونفاذ فى الأمور وإن لم يسعفه الحظ والدهر . وهمه طلب المعالى والظفر بها لا بمن يسكن روضتى الرقمتين وجبل لعلع من سمر الشفاه ، ولا بمن يتغنين غناء جميلا ، ولا بالأقداح من رحيق الخمر وشرابه . إنما همه رمح لين قاتل وفرس مسرع ودرع واسعة محكمة وسيف ساطع يضئ فى غبار الحرب حين يسله على رقاب الأعداء . إنه من أهل العزم والحزم والمعالى لا يشغف بحب ولا بغناء ولا بخمر ، إنما يشغف بالبأس فى الحرب وتقتيل الرجال وسفك دمائهم .

ويجانب هذا الفخر كان يدور هجاء كثير ، وخاصة لمن لا يجزون الشعراء الجزاء الوفر وكثيرا ما كانت تحتدم بينهم المنافسات ، فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه صباح مساء . وقد يصبح الهجاء سهاما سامة قاتلة ، وقد يصبح سخرية جارحة ، وقد يصبح دعابة وإن لم تخل من مرارة ، كقول عبد المحسن الصورى وقد نزل ضيفا على أخ له[5] :

وأخٍ مسَّه نزولى بِقَرْحٍ ... مثل ما مسَّنى من الجوع قَرْحُ
بِتُّ ضَيْفًا له كما حكم الدهـ ... ـرُ وفى حكمه على الحرِّ قُبْحُ

---

(١) ريحانة الالبا ١/١١٨

(٢) الرقمتان : قريتان فى شرق نجد أو روضتان ويذكرهما شعراء الغزل . لعلع : جبل فى نجد

(٣) الرشأ : ولد الظبية وتشبه به الفتيات ، والحوة : سمرة فى الشفة ، الرحيق المشعشع : العسل الممزوج

(٤) اللدن : الرمح . أجرد . فرس . مسرودة : درع . زغفا : سابغة . أبيض : سيف

(٥) اليتيمة ١/٣٠٠

قَال لى إذ نزلتُ وهْو من السَّكـ ـرة والهمُّ طافحٌ ليس يصحو
لم تغرَّبْتَ قلت قال رسول الـ ـلّهِ والقولُ منه نُصْحٌ ونُجْحُ
سافروا تَغْنَمُوا فقال وقد قا ل تمامُ الحديث صوموا تَصِحُّوا

وهى دعابة تلسع لَسْعَ الإبر ، فقد صور نزوله على مضيفه بقرح وهو ما يصيب الإنسان من عَضٍّ السلاح ونحوه ، كأنما نزوله عليه كان كارثة ، وقال إنه مسَّه من الجوع قَرْحٌ لا يزال يَنِزُّ ألما ، وكأنما يستلهم آية سورة آل عمران : (إن يَمْسَسْكم قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثله) أى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر . ويقول إن الدهر هو الذى حكم عليه هذا الحكم القبيح ، ولقد أصابته سكرة من الشح والهم ، فسأله سؤالا مزريا : لم تغربت ونزلت عندى ، فأجابه لقول رسول الله ﷺ : سافروا تغنموا ، فبادر إليه يقول : تمام الحديث : صوموا تصحّوا ، وكأنه يطلب إليه أن يظل جائعا بل أن يصوم ويظل صائما ما ظل عنده . ويقول الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ فى هجاء حاكم من حكام إيران يسمى شروانشاه[١] :

رأيتُ لؤما مصوَّرا جسَدًا شيمتُه الاحتيالُ والكذبُ
على سريرٍ كالنَّعْش لا رَهَبٌ يعلوه من هيبةٍ ولا رَغَبُ
يَجْبَهُ بالهُجْر مَنْ يخاطبهُ بين السَّعالى وبينه نَسَبُ[٢]
يَفْرَقُه الناسُ للسَّفاهة والـ ـعَقْربُ يُخْشَى وخدُّه تَرِبُ
للجَمْع والمنعِ قائمٌ أبدًا كالفيل لا تَنْثنى له رُكَبُ

وهو هجاء لاذع كوى به جلد هذا الحاكم ، بل لقد تحولت الأبيات فى يد الغزى إلى ما يشبه سياطا بل شُواظا من نار يصبه فوق رأسه صبا ، فهو تمثال للؤم والكذب ، يجلس لا على سرير بل على نعش لا يظله رهب منه ولا رغب فى ماله ، لما عُرف عنه من شحٍّ بغيض ، وأنه يصكُّ مخاطبه بكلام قبيح ، وكأنما هو ليس من البشر ، بل إن بينه وبين الغيلان نسبا ذميما . والناس يخشونه لسفاهته كما يخشون العقرب وخدها ملطخ بالتراب ، وكأنما خلق كالفيل قائما أبدا إذ لا ينام فعيناه مشدودتان دائما لجمع المال ومنعه عن مستحقيه شُحًّا بغيضا لا يدانيه شح . وكان العرقلة الكلبى المتوفى سنة ٥٦٧ كثير الهجاء حتى هجا نفسه ، وله من أبيات وقد أعطاه بعض من مدحهم لا مالا ، بل شعيرا فقال[٣] :

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٩/١
(٢) السعالى : الغيلان
(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨٢/١

يقولون لمْ أرخصتَ شِعْرَك فى الوَرَى ... فقلت لهم إذ ماتَ أهل المكارمِ
أُجازَى على الشعر الشعيرَ وإنَّه ... كثيرٌ إذا استخلصتهُ من بهائمِ

ومنذ زمن الغَزِّى يشكو الشعراء كثيرا من أنهم لا ينالون ما يستحقونه على أشعارهم من ممدوحيهم ، بل إن منهم من يعطيهم رُقَعًا مسطرة دون أن يفى بما فيها ، وكأنها كلام كاذب بكلام . ومن كبار الهجائين فى أيام الأيوبيين بدر الدين عبد الرحمن بن المسجَّف المتوفى سنة ٦٣٥ للهجرة ، وله يهجو جماعة من إخوانه أو عصابته كما يقول[1] :

يا ربِّ كيف بلوتنى بعصابةٍ ... ما فيهمُ فَضْلٌ ولا إفضالُ
متنافرى الأوصافِ يصدقُ فيهمُ الـ ... ـهاجى وتكذبُ فيهمُ الآمالُ
جُبُنًا إذا استنجدتهم للمُّةٍ ... لُؤَمَا إذا استرفدتهم بُخَّالُ
هم فى الرَّخاء إذا ظفرتَ بنعمةٍ ... آلٌ وهمْ عند الشدائد آلُ

وهو يخلى عصابته من كل فضل ويراها جديرة بكل مذمَّة فى مهجوٍّ إذ تكذب فيها دائما الآمال . ويصف أفرادها بأنهم جبناء عند الشدائد ، لؤماء بخلاء ، وهم فى الرخاء أهل أو آل كما يقول ، وفى الضراء سراب أو آل يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . وولَّى السلطان الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٤ قضاة أربعة يمثلون المذاهب الفقهية : المذهب المالكى والحنفى والشافعى والحنبلى ولقَّب ممثلى هذه المذاهب ما عدا المذهب المالكى بلقب شمس الدين ، فاتخذ الشعراء ذلك موضوعا للهجاء الفكه الساخر من مثل قول بعضهم[2] :

أهـــلُ الشــآم استرابوا من كـــثرة الحكَّــــامِ
إذ هم جميعـًا شموسٌ وحــالُـهــم فى ظــلامِ

وكان شرب الحشيش المخدِّر عُرِف بين أراذل الناس يدخنونه ويمضغونه وقد يبلعونه ، وشدَّد الظاهر بيبرس النكير على من يتعاطونه ، ونظم كثير من الشعراء فى ذمه كقول الشاب الظريف[3] :

---

(١) فوات الوفيات ١/٥٣٩

(٢) النجوم الزاهرة ٧/١٣٧ وانظر ذيل الروضتين لأبى شامة (الطبعة الأولى) ص ٢٣٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ٧/٣٨١

ما للحشيشةِ فضلٌ عند آكلهـا   لكنه غيرُ مصروفٍ إلى رَشَدِهْ
صفراءُ فى وجهه خضراءُ فى فمِهِ   حمراءُ فى عينِهِ سوداءُ فى كَبِدهْ

وهو يقبِّحها غاية التقبيح بآثارها فى ماضغها من صفرة تعترى وجهه وحمرة تشوب عينه وسواد لا يزول فى كبده . ويقول مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة فى هجاء كحّال[١] :

دَعُوا الشيخ من كحل العيون فكفُّه   يسوقُ إلى الطَّرْفِ الصحيحِ الدواهيا
فكم ذهبتْ من ناظرٍ بسوادهِ   وألقتْ بياضًا خلفها ومآقيا

فكحله يعمى الأبصار ويقضى قضاء مبرما على سوادها ونظرها ولا يبقى بها بَصيصا ولا غير بصيص . ولبعض شعراء دمشق فى هجاء القاضى شهاب الدين أحمد الباعونى الشافعى المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة[٢] :

قضـاءُ الشـام أنشـدنى بـديـنى لا تـبـيـعـونى
صُـفِعْتُ بـكـلٍّ مصْـفَـعةٍ وبـعـدَ الـكـلِّ بـاعـونى

وكأنه أدخله فيما نزل بهذا القضاء من صفعات متوالية . وفى كلمة « باعونى » تورية واضحة فهو لا يقصد « باعونى » من البيع وإنما يقصد القاضى الباعونى .

ويظل الهجاء على ألسنة الشعراء يرمون بسهامه مَنْ لا يروقهم من الحكام ومن لا يسبغ عليهم نواله حتى أيام العثمانيين ، على شاكلة قول يوسف بن عمران الحلبى المتوفى سنة ١٠٧٤ للهجرة فى بخيل[٣] :

بخيلٌ لو بيومٍ منه جادتْ   أنـامـلُـه لـغـالـتْـهُ الـنَّـدامَـهْ
ولو فى النار أُلْقِىَ ألفَ عامٍ   لما عُرِفتْ له يوما سلامَهْ
ولو صارتْ بِسُفْرته رغيفا   ذُكاءُ لما بدتْ حتى القيامه

فهو شحيح لو فاته شحُّه يوما لظل نادما أبدا . وما تُرْجى له سلامة من النار بل سيظل خالدا فيها ، وإن مائدته لتخلو دائما من كل طعام حتى من الخبز ورغفان العيش المستديرة كالشمس ،

---

(١) فوات الوفيات ١/٥٤٠
(٢) النجوم الزاهرة ١٤/١٢٤
(٣) ريحانة الألبا ١/١٠٨

ولو أنه ألقى رغيفا عليها ناسيا لا ستترت الشمس حتى القيامة كسوفا وخجلا أن يرى شبيهها على سفرته أو مائدته . وحرىٌّ بنا أن نترجم لنفر من شعراء الفخر والهجاء .

أبو فراس [١] الحمدانى

هو الحارث بن سعيد بن حَمْدان الحمدانى التغلبى ، كان أبوه واليا على الموصل للخليفة الراضى ، وكان مشهورا مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة ، واقترن بروميه أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ ولقبه أبا فراس وهى كنية الأسد رمزا لفروسيته المستقبلة وهو رمز حققته الأيام . ولم يلبث سعيد أن قُتل غدرا وابنه يخطو فى سنته الثالثة ، وعنيت به أمه ، وأحضرت له المعلمين فى صباه . ولم يلبث ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمدانى أن اشترك مع الأم فى العناية والرعاية ، حتى إذا اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل إليها ومعه أسرته سنة ٣٣٣ ومعه أبو فراس الذى كفله وقام على تربيته فارسًا وأديبا خير قيام ، إذ أعطاه لبعض المدربين يدرِّبونه على الفروسية ، ولبعض المعلمين والمؤدبين من مثل ابن خالويه . وسرعان ما ظهرت فروسيته ونجابته ، فمنحه ضيعة بمنبج بلدة بقرب حلب ، ولم يلبث أن ولاه عليها وهو شاب فى السادسة عشرة من عمره ، وكان يلزم ابن عمه فى حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيالق يقودها بنفسه ويعود إلى منبج ، مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض اللهو ، وفى ديوانه مزدوجة طردية . غير أن من الحق أنه لم يكن مشغوفا بصيد الحيوان إنما كان مشغوفا بصيد أعداء العروبة والإسلام من الروم . ومرَّ بنا فى حديثنا عن شعراء التشيع أنه كان شيعى الهوى ، وقد عرضنا لميميته الملقبة بالشافية التى دافع فيها عن العلويين ضد العباسيين دفاعا حارًّا ، وتشيُّع الحمدانيين عامة مشهور وكانوا شيعة إمامية .

وظل يركب فى مقدمة الصفوف مع ابن عمه وصهره لدقِّ أعناق الروم ، وحاول أن يستخلفه عنه بحلب فى إحدى غزواته ، فاستعطفه راجيا أن يصحبه فى حربه . وكان دائما يبلى بلاء حسنا فى تقتيلهم وتمزيقهم شر ممزق ، وفى يوم من أيام شوال سنة ٣٥١ كان عائدا إلى منبج من الصيد مع

---

(١) انظر فى أبى فراس وشعره اليتيمة ١/٣٥ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٣/٤٣٩ وزبدة الحلب ١/١٥٧ وابن خلكان ٢/٥٨ والشذرات ٣/٢٤ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/٩٢ ومقدمة د. سامى الدهان لتحقيقه لديوانه وقد قابله على ٤٠ مخطوطة محفوظة فى مكتبات العالمين العربى والغربى ووضع حواشيه ورتب فهارسه .

غلمانه وإذا بكتيبة من الروم بقيادة « تيودور » تباغته فيدافع إلى أن تثخنه الجراح ويصيبه سهم فى فخذه ويبقى نصله فيه ، ويؤسر البطل المغوار ، ويَقْدُم به تيودور إلى خَرْشنة ويظل بها فترة . ثم ينقل إلى القسطنطينية ، ويذوق ذل الإسار وألم الجراح ، غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تتكسر أبدا ، بل تزداد مع الأيام عتوًّا وصلابة . ويُكْبر الروم فى أبى فراس فروسيته وبطولته فينزلونه فى قصر على البحر ويخصصون له خادما يقوم بأمره ، ويأبى أن يخلع دروعه وسلاحه ، فيظل بهما فى أسره .

ويطول الأسر أربع سنوات ، فتكثر أشعار أبى فراس إلى أهله وسيف الدولة وإخوانه مؤملا فى الإسراع بفدائه ، وكان مما أخره أن سيف الدولة يريده فداء عاما له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهرا فى شِراك الروم . وفى سنة ٣٥٥ يتفق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين ، وفى شهر رجب ينزل أبوفراس مع ثلاثة آلاف أسير عربى بِخَرْشَنَةَ ، ويقْدُمُ سيف الدولة بأسرى الروم يفتدى بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب . ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب . وتأثر تأثرا شديدا لمرض سيف الدولة وما أصاب جنوده من انكسارات وانهزامات متلاحقة . ويتوفَّى سيف الدولة فى السنة التالية ، ويدور العام ، ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبى المعالى ويلقاه مولاه قُرْغُوَيْه فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ ويكون فى ذلك حَتْفُه ، ويقال إنه سقط جريحا فى ساحة الحرب وشعر بدنو أجله فأنشد أبياتا يخاطب بها ابنته معزيًا قائلا فى ختام أبياته بلسان حالها :

زَيْنُ الشباب أبو فِرا سٍ لم يمتَّع بالشباب

وطبيعى أن لا يكون المديح الموضوع الذى يستنفد شعر هذا الأمير الفارس ، إذ لم يكن فى حاجة إلى التكسب بشعره ، وأن يكون الفخر هو الموضوع الذى يستغرق شعره : فخره بقبيلته تغلب وأمجادها منذ الجاهلية ، وبأسرته الحمدانية ومناقبها وما قدمته للعباسيين من انتصارات على الخوارج والقرامطة ، وعلى الروم البيزنطيين ، وفخر بمثاليته الخلقية الكريمة وبطولته . وتُعَدُّ رومياته أو أشعاره فى أسر الروم القطعَ الأرجوانية فى ديوانه ، وفيها غزل ورثاء واستعطاف كثير لابن عمه سيف الدولة كى يرد إليه حريته ليعود معه لمنازلة الروم وقراعهم قراعا لا يبقى منهم ولا يذر ، وبين قصائدها بائية يرد بها ردا عنيفا على الدمستق حين طعن فى العرب وبسالتهم الحربية ، وفيها أخذ يذكره باندحاراتهم أمام سيف الدولة ومقتل أخيه فى مَرْعش وجرح أبيه بها فى

وجهه وأسر ابن أخته فى اللُّقان وما كان من فراره على وجهه لا يلوى . وهو فى رومياته يحنّ إلى ملاعب صباه وشبابه ويشتاق إلى زوجه وأبنائه ويرثى لأمه العليلة وهى تسأل عنه الرّكبان حين أُسر قائلا على لسانها :

يامَنْ رأى لى بحصن خَرْشَنَةٍ أُسْدَ شَرًى فى القيود أَرْجُلُها

ويرد عليها مسرعًا

يا أمَّتَا هذه مواردُنا نَعُلُّها تارة ونَنْهَلها(١)

فموارده الحرب ، يقتلون الأعداء وتقتلهم ويأسرون الأعداء وتأسرهم ولا تنال القيود الثقيلة من أقدامهم . ويقول فى قصيدة ثانية : لولا أمى العجوز ما خفت أسباب المنية ولا طلبت الفداء من ابن عمى أبدا . ويقول لها :

يا أمَّتَا لا تَيْأسى لله ألطافٌ خَفِيَّهْ
أوصيك بالصبر الجميـ ـل فإنه خَيْرُ الوصيَّهْ

فهو واثق فى الله ثقة تامة ، وهو لا ييأس أبدا من فضله ورعايته ، مع عزة نفس لا تماثلها عزة بل مع صلابة روح لا تشبهها صلابة ، وتبدو هذه الصلابة منذ أيامه الأولى فى الأسر ونزولهم به فى خَرْشنة ، إذ سرعان ما أنشد :

إن زرتُ خَرْشنةً أسيرا فلقد حللتُ بها مُغيرا
ولئن لقيتُ الحزنَ فيـ ـكِ فقد لقيتُ بك السرورا

ويقول إنهم طالما فتكوا بأهلها وسبوا نساءهم الحور الفاتنات ، وكم أشعلوا بها نيرانا التهمت المنازل والقصور وأتت عليها كأن لم تكن شيئاً مذكورا . ونشعر كأنما تجسدت فى روح أبى فراس كل معانى القوة العاتية التى تميز بها العرب وفتحوا بها العالم القديم من أواسط آسيا إلى شمالىّ إسبانيا ، على الرغم من أسره وما كان يعانيه من ألم وحزن ، وكأنما يحمل بين جنبيه روحا لا يمكن أن تقهر مهما نُزل بها من كوارث وخطوب .

وربما كان أروع قصائد أبى فراس حينئذ قصيدته الرائية التى نظمها حين قال الروم إن

(١) نعلُّها : نشربها تباعا . ننهلها : نشربها ابتداء .

أبا فراس وحده من بين الأسرى هو الذى لم نسلب منه سلاحه ، وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صواحبه .

أراك عَصِيَّ الدمع شِيمتُك الصَّبْرُ أما للهوى نَهْىٌ عليك ولا أمْرُ
بلى ! أنا مشتاقٌ وعندىَ لوعةٌ ولكنَّ مثلى لا يُذاع له سِرُّ
معلِّلتى بالوصل والموتُ دونه إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القَطْرُ
تسائلُنى مَنْ أنت ؟ وهْىَ عليمةٌ وهل بفتًى مثلى على حاله نُكْرُ
فقلتُ كما شاءتْ وشاء لها الهوى قتيلُكِ قالت أيُّهم فهمُ كُثْرُ
وقالتْ لقد أزْرَى بك الدهرُ بعدنا فقلتُ معاذَ الله بل أنتِ والدَّهْرُ

وهو حوار وغزل فيهما فتوة وقوة ، فهو لا يبكى ، بل هو صابر صبر الرجال الأشداء ، مع ما يستعر فى قلبه من لوعة إزاء معللته بوصل لا يناله ، وكأنما تغيَّر كل ما فيه فلم تعرفه وتسأله من أنت ؟ تجاهل العارف ، فيقول لها قتيلك ، فتسأله أيهم فهم كثيرون . وتقول له : لقد نال منك الدهر ، يكنى بذلك عن أسره ، فيقول لها معاذ الله : بل أنت والدهر . ويمضى فى حوارها قائلا لها : لا تنكرينى يا ابنة العم فإننى غير منكر فى معمعان المعارك وقيادة الكتائب المعوَّدة النصر واقتحام المخاوف والمخاطر المهلكة إلى الروم أسفك دماءهم وأسبى نساءهم دون أن أهتك لهم سترا أو أكشف لهم ثوبا ، وما يلبث أن يصيح بكل فتوته :

أُسِرْتُ وما صَحْبى بعُزْلٍ لدى الوَغَى ولا فرسى مُهْرٌ ولا رَبُّه غُمْرٌ(١)
ولكنْ إذا حُمَّ القضاءُ على امرئٍ فليس له بَرٌّ يَقيه ولا بَحْرٌ
يمنّونَ أنْ خَلَّوْا ثيابى وإنما علىّ ثيابٌ من دمائهمِ حُمْرٌ
سيذكرنى قومى إذا جَدَّ جِدُّهم وفى الليلة الظَّلْماءِ يُفْتَقَد البَدْرُ
ونحن أُناسٌ لا توسط بيننا لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القَبْرُ
تهونُ علينا فى المعالى نفوسُنا ومن خطب الحسناءَ لم يُغْلِه المَهْرُ
أعزُّ بنى الدنيا وأعلى ذوى العلا وأكرمُ مَنْ فوق الترابِ ولافَخْرُ

يقول : أُسِرت وورائى صحبى يشهرون السيوف فى الحرب ولا يغمدونها أبدا ، إنهم فرسان

(١) غمر : قليل التجربة . عزل : لا يحملون سلاحا

أبطال ، وما أُسرتُ جبنا ولا كان فرسى مهرا صغيرا بل كان مدربا على القتال ، وكان صاحبه فارسا شجاعا يحسن النزال والفتك بالأعداء ، وإنما هو القضاء الذى لا مَعْدَى عنه ولا مفر منه فى بر أو بحر . ويتجه إلى الروم غاضبا لقولهم إنهم مَنُّوا عليه بتركه لابسا لأمته وعدته الحربية ، وهو استشعار للفتوة والقوة ما بعده استشعار . ويقول إن دروعه ملطخة بدمائهم ، إذ طالما دقَّ نصال سيوفه فى أعناقهم وصدورهم . ويلتفت إلى قومه فيقول إنهم سيذكرونه حين تدق أجراس الحرب ، سيذكرون فروسيته وبطولته وبلاءه فى الأعداء . وكأنما يضع قوانين الشباب العربى والأمة العربية ، إنها ترمى بنفسها فى أتون الحرب فإما الصدر دون العالمين أو القبر ، وإن رجالها وأبطالها ليبذلون أرواحهم فى نيل المعالى ، ومن خطب الحسناء لم يغله المهر ولم يعده باهظا ، بل إنه يقدمه راضيا حتى لو كان روحه وقلبه . ويقول مَنْ مثلنا : نحن أعز الناس وأعلاهم وأكرمهم بذلا . والقصيدة تعويذة رائعة لفتوة العرب وصلابتهم ، وهى جديرة بأن يضمَّها كل شاب عربى إلى صدره وذاكرته يحفظها ويترنم بأبياتها البديعة . وحانت منه التفاته – وهو فى سجنه – إلى شجرة عالية فرأى على أحد غصونها حمامة وسمعها تنوح ، فأنشد :

أقولُ وقد ناحتْ بقربى حمامةٌ ... أيا جارَتا هل تَشْعُرين بحالى
معاذَ الهوى ما ذُقْتِ طارقةَ النَّوى ... ولا خَطَرتْ منك الهمومُ ببالِ[1]
أتحملُ محزونَ الفؤاد قوادمٌ ... على غُصُنٍ نائى المسافة عالى[2]
أياجارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا ... تعالَىْ أقاسِمْكِ الهمومَ تعالى
أيضحك مأسورٌ وتبكى طليقةٌ ... ويسكت محزونٌ ويندبُ سالى
لقد كنتُ أولى منك بالدمع مُقْلَةً ... ولكنَّ دمعى فى الحوادث غالى

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه ومسمع الشجونَ فى نفسه ، ويُعيذها من نوى وفراق كفراقه وغربة كغربته وهموم كهمومه . ويتساءل هل تحمل قوادم هذه الحمامة فؤادا محزونا ؟ ويقول إن الدهر لم ينصف بينهما ويتساءل كيف يضحك أسير فقد حريته وتبكى حرة طليقة ؟ بل كيف يسكت محزون ويخرس لسانه وتندب سالية ندبا متصلا ؟ ولا يلبث أن يقول لها : لقد كنت أولى منك بالبكاء بكاء لا تنقطع دموعه بل تظل منهمرة ، غير أن دمعى فى الحوادث والنكبات غال لا يسيل أبدا ، وإنه ليتجشَّم أثقالها ويتحملها فى قوة . وشعر أبى فراس وراء رومياته يكتظ بالفخر

---

(١) النوى : الفراق

(٢) القوادم : ريشات أربع كبار فى مقدم الجناح

والحماسة ، وله قصيدة رائية فى ٢٢٥ بيتا فخر فيها فخرا مضطرما بمناقب أسلافه الحمدانيين وأيامهم فى الإسلام وما شادوه من إماراتهم فى الموصل وحلب . وشعره – بحق – يُضْرِم الحميَّة فى النفس العربية .

عَرْقلة [1]

هو حسان بن نمير الكلبى الدمشقى ، ولد سنة ٤٨٦ وحفظ القرآن صغيرا ثم اختلف إلى حلقات العلماء ، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفتحت ، فغدا بشعره على أبواب حكام دمشق يمدحهم وينال جوائزهم . وكان لأسرة طُغْتِكين نصيب كبير من مديحه ، وخاصة آبق آخر حكامهم لدمشق قبل استيلاء نور الدين أمير حلب عليها . ويبدو أن الرحلة كانت محببة إليه ، إذ نراه يرحل إلى حلب ويفقد إحدى عينيه فى تلك الرحلة ، ولذلك لقبه معاصروه بعرقلة الأعور ، ورحل إلى الموصل وبغداد ونزل فى قلعة جعبر ومدينتى آمد وماردين . وزار مصر وبقى بها مدة وتوثقت الصلة فيها بينه وبين الوزير طلائع بن رزيك وكان شيعيا أماميا ، وله فيه طائفة من المدائح ، ويذكر له فى إحدى مدائحه أنه شيعى قائلا :

أنا من شيعة الإمام حُسَيْنٍ لستُ من سنَّة الإمام يَزِيدِ

فهو ليس سنيًّا ممن ارتضوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين إماما لهم ، بل هو شيعى من أنصار الحسين . وعاد إلى دمشق وكانت تابعة لنور الدين ، وكان أيوب بن شاذى وأخوه أسد الدين شيركوه وابنه صلاح الدين فى مقدمة حاشية نور الدين ورجاله ، وتولى بعضهم شئون دمشق وكان صلاح الدين على شرطتها فاتصل بهم يمدحهم وأسبغوا عليه عطاياهم ، وكان خفيف الروح فقربوه منهم واتخذوه نديما لهم فى مجالس لهوهم وسمرهم . وكان صلاح الدين من بينهم يوده ويصادقه ويُحْضره مجالس أنسه . ووصفه العماد الأصبهانى حينئذ فقال : « لقيته بدمشق شيخا خليعا رَبْعَةً مائلا إلى القصر أعور مطبوعا حلو المنادمة لطيف النادرة معاشرا للأمراء ، شاعرا مستطرَف الهجاء ، لم يزل خِصِّيصًا بالأمراء السادة بنى أيوب ينادمهم ويداعبهم ويطايبهم قبل أن يملكوا مصر ، والملك الناصر صلاح الدين يوسف أشغفهم بنكته ، وأكلفهم بسماع نتفه ، وله فيه

---

(١) انظر فى عرقلة الدمشقى وشعره الخريدة (قسم الشام) ١/١٧٨ وفوات الوفيات والنجوم الزاهرة ٦/٦٤ والشذرات ٤/٢٢٠ وقد طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ديوانه .

مدائح ، ولديه منه منائح » . وكان صلاح الدين وعده أنه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار ، وَوفَى له بوعده غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٥٦٧ .

ويبدو أن عرقلة كان فى أوائل حياته يقصد أوساط الناس ، ومدح شخصا مرة فأعطاه شعيرا . فغضب ، وأنشد ما مرَّ ذكره من قوله :

يقولون : لِمْ أرخصتَ شعرك فى الورَى فقلتُ لهم إذ ماتَ أهلُ المكارمِ
أجازَى على الشِّعْر الشَّعيرَ وإنَّهُ كثيرٌ إذا استخلصتَه من بهائمِ

واشتهر فى زمنه بأنه هجاء كبير ويقول العماد — كما أسلفنا — إنه كان مستطرف الهجاء ، إذ كان يحاول فيه التندير إضحاكا لسامعه وجلبا لسروره ، كقوله فى مغن ضارب على العود لم يعجبه صوته ولا ضَرْبه وتلحينه :

علىٌّ صَوْتُه سَوْطٌ علينا لا على الفَرسِ
وجملةُ ضربه ضربٌ لمدَّرِعٍ ومُتَّرسِ
يقول السامعون له رماه الله بالخَرسِ
وخُذْ يا ربٌّ مهجتَه إذا غنَّى : (خُذِى نَفَسى)

فهو لا يجعل صوته يصكُّ الأسماع فحسب ، بل يجعله يكويها كى السياط للخيل ، أما ضربه فكأنه ضرب حقيق يضرب به دروعا وتروسا لا ألحانًا تُشْجى السامعين وتطربهم ، مما يجعلهم يدعون عليه بالخرس بل بالموت حين يغنى ، وكان بالصدفة يغنى مقطوعة أولها : « خُذِى نفسى » . ويقول لبعض مهجويه :

لك وجهٌ كأنَّهُ الـ ـبَدْرُ لكنْ إذا كُسفْ
وقوامٌ كأنَّهُ الـ ـغُصْن لكنْ إذا انقصَفْ
وبنانٌ كأنه الـ ـبحر لكنْ إذا نَشِف
وأبٌ أكذبُ الأنا مِ ولكنْ إذا حَلَفْ

وهو فى الأبيات الثلاثة الأولى يبدأ بالمدح لكن لا يلبث أن يمحوه بل أن يرده عليه هجاء وإقذاعا شديدا ، فهو صاحب وجه كاسف وقوام قصير منقصف وبنان شحيح لا يقطر بأى خير ،

أما أبوه فكذاب أشر . وكان بدمشق فى زمنه طبيب يسمى أبا الحكم تصادف أن وقع ليلا فانشتر جَفْنُ إحدى عينيه ، وكان هذا الطبيب كثيرا ما يرثى من يموت فقال عرقلة متندرًا عليه :

لنا طبيبٌ شاعرٌ أَشْتَرٌ أراحنا من شخصه اللّهُ
ما عادَ فى صُبْحَةِ يومٍ فَتًى إلا وفى باقيه رثّاه

فهو يدعو عليه بالموت حتى يريح العباد منه ، إذ لا يعود ولا يزور أحدا صباحا حتى يكتب له قصيدة رثاء مساء . فهل وراء ذلك شؤم يتمنى الناس الخلاص منه . وكان يُقْذِع أحيانا فى هجائه ، حتى فى الموت . ويقول فى رثاء بعض خصومه :

لقد حَسُنَتْ به اليومَ المراثى كما حَسُنَتْ به أمس الأهاجى
ولكنْ لجَّ فى شَتْمِ البرايا وكان القتلُ عاقبةَ اللَّجاجِ

وهى شماتة تدل على أنه كان عدوانى المزاج ، وله رثاء لاذع لبعض المجان ، يقول فيه إن دنان الخمر وكئوسها وقيانها المغنيات يبكينه بكاء مرا .

أسامة[1] بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبى ، من أعلام بنى منقذ أصحاب قلعة شَيْزَر إلى الشمال من حَماة ومن علمائهم وفرسانهم . ولد لأبيه سنة ٤٨٨ وقد عنى بتعليمه وتدريبه على الفروسية وأتقنها سريعا ، ولقى - وهو شاب - فى صيده أسدا فصرعه . ويقال إن أباه كان رجلا صالحا فترك إمارة القلعة لأخيه سلطان ولم يكن له ولد ، فتبنّى أسامة وأخذ يعدُّه للإمارة بعده . وكان اسم عماد الدين زنكى قد أخذ فى التألق منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٤ فالتحق به أسامة وأبلى بلاء حسنا فى حروبه ضد حملة الصليب ، حتى إذا أغاروا على شَيْزَر سنة ٥٣٢ عاد إليها مسرعا ودافع عنها دفاعًا مستميتا حتى ارتدوا على أعقابهم خاسئين . وبمقدار فرحه

(١) انظر فى أسامة وشعره تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٠٠/٢ ومعجم الأدباء ١٨٨/٥ والخريدة (قسم الشام) ٤٩٩/١ والنجوم الزاهرة : الجزءين الخامس والسادس فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣١/١٢ والسلوك للمقريزى ١٢٥/١ والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء (الطبعة الأولى بالقاهرة) ٢٧/٣ ومرآة الجنان ٤٢٨/٦ وشذرات الذهب ٢٧٩/٤ وديوانه طبع بالقاهرة . وراجع كتابه الاعتبار (نشر جامعة برنستون) وفيه معلومات كثيرة عن سيرته وحياته . وطبع له فى القاهرة لباب الآداب وكتاب المنازل والديار .

بالنصر كان حزنه على أبيه إذ علم أنه توفى فى العام السابق لتلك المعركة . وصمم على المكث فى مسقط رأسه لحمايته غير أن عمَّه لم يتركه طويلا ، فقد أمره هو وإخوته بالرحيل عن القلعة ، فتفرقوا فى البلاد . ومضى أسامة إلى دمشق ولقيه حاكمها معين الدين أُنُر مدير دولة أولاد طُغْتِكين لقاء حسنا ، وظل الجو بينهما صافيا حتى سنة ٥٣٩ إذ اكفهرَّ الجو ولم يجد أسامة بُدًّا من مفارقة دمشق . فرحل إلى القاهرة ومعه أمه وزوجه وأبناؤه وأخوه محمد ، وكان الخليفة الفاطمى حينئذ الحافظ (٥٣٤ – ٥٤٤ هـ) فأكرمه وأمر له بإقطاع سنىٍّ عاش به حياة رَغْدة .

وخلف الحافظ ابنه الظافر (٥٤٤ – ٥٤٩ هـ) واتصل إكرامه وإكرام وزيره العادل بن سلاَّر لأسامة ، ويقول المؤرخون إنه لم يف للعادل ، فقد أوغر صدر عباس الصنهاجى ابن زوجته عليه فقتله وخلفه على الوزارة . ولم يلبث أن أوغر صدر عباس وابنه نصر على الخليفة الجديد الظافر فقتلاه . وتطورت الأمور فتولَّى الفائز بن الظافر الخلافة وهو صبى يحبو فى الخامسة من عمره ، وكاتَب أهل القصر طلائع بن رُزِّيك الوالى بالصعيد ، فقدم فى جيش إلى القاهرة ، وهرب عباس وابنه نصر وأسامة ، وولوا وجوههم إلى الشام . وأسرعت أخت الظافر ، فكتبت إلى حَملة الصليب بعسقلان – وكانوا قد استولوا عليها حديثا – تعدهم بأموال طائلة إن هم ردوا إلى القاهرة الوزير وابنه نصرا ، والتقوا بهم وواقعوهم ، فقُتل عباس ، ورُدَّ نصر إلى القاهرة ، وفرَّ أسامة فى نفر معه إلى دمشق . وحاول أسامة أن يوثق صلته بحاكمها الجديد نور الدين الذى استولى عليها فى سنة قدومه سنة ٥٤٩ ، ويبدو أنه كسب حينئذ رضاه ، وكاتب طلائع بن رزيك الوزير بمصر ليرسل إليه أسرته ، فأرسلها بحرا غير أن سفينتها أصابها عطب فى مياه عكا وكانت مع الصليبيين ، فنهبوا كل ما كان مع الأسرة من مال ومتاع ، وتجشمت الأسرة كثيرا من الصعاب حتى وصلت دمشق وكان لذلك أثر أليم فى نفس أسامة .

ونزلت بأسامة فى سنة ٥٥٢ فاجعة أشد هولا ، إذ دمرت الزلازل قلعة شَيْزَر وأتت عليها ونزح عنها أهله وتشتتوا فى البلاد ، وتملكها نور الدين خشية عليها من حَملة الصليب ، ويبدو أن أسامة كان يأمل أن يرد نور الدين الحصن عليه وعلى أسرته ، ولعل ذلك ما جعله يقول فيه :

سلطانُنا زاهدٌ والناس قد زَهِدوا ... له فكلٌّ على الخيرات منكمشُ
أيامُه مثلُ شهر الصومِ طاهرةٌ ... من المعاصى وفيها الجوعُ والعطش

أما أن أيام نور الدين البطل المغوار مدوِّخ الصليبيين طاهرة فهذا صحيح إلى أقصى حد ، وأما

أن فيها الجوع والعطش فغير صحيح إذ فيها غنائم لا تحصى أُخذت قهرًا من حملة الصليب ، وفيها غير بلد عربي رُدَّ منهم إلى أهله . وقد شارك هو نفسه نور الدين فى بعض انتصاراته عليهم ، وحضر معه حصاره لحصن حارم سنة ٥٥٩ للهجرة . وأدّته موجدته – فى رأينا – من نور الدين إلى أن يبرح دمشق إلى حصن كَيْفَا بالموصل ويتخذها دار مقام له ، وفيها يعكف على جمع ديوانه وتأليف كتبه ، حتى إذا استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠ استدعاه . ولبّاه مبتهجا ، فأعطاه دارا بدمشق وإقطاعا لمعاشه وفسح له فى مجالسه ، حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ للهجرة لبّى نداء ربه عن ستة وتسعين عاما .

ورتب أسامة ديوانه على الموضوعات ، فباب للغزل وباب للمديح وباب للشكوى وباب للفخر وباب للوصف إلى غير ذلك من أبواب ، ولم يفرد للجهاد بابا وكأنه ترفع عنه إباء واحتشاما وحياء . وأهم أبواب شعره باب الفخر ، إذ كان فارسا شجاعا ، وشارك فى حرب حَملة الصليب منذ شبابه دفاعا عن مسقط رأسه ، وجلّى فى معارك عماد الدين زنكى ضدهم ، وكأنه ظل طوال حياته شاهرا سيفه فى وجوههم حتى بلغ السبعين ، يقول :

لخمسَ عشرةَ نازلتُ الكُماة إلى ... أن شِبْتُ فيها وخيرُ الخيل ما قَرَحا[1]
أخوضها كشهاب القذْفِ مبتسما ... طَلْقَ المحيَّا ووَجْهُ الموت قد كَلَحا[2]
بصارمٍ من رآه فى قَتامٍ وَغًى ... أَقرى به الهامَ ظن البرقَ قد لمحا[3]
فسَلْ كُماة الوَغَى عنى لتعلم كم ... كربٍ كشفتُ وكم ضيقٍ بِىَ انْفَسحا

فهو قد نازل كماة الحرب أو شجعانها منذ سنه الخامسة عشرة ، وظل ينازلهم حتى اشتعل رأسه شيبا لا يهن ولا يضعف بل تشتد قواه كما تشتد قوى الخيل حين يعلو سنها وتصبح قارحة مستتمة سنوات فحولتها . وإنه ليخوض أهوال الحرب كشهاب ساطع باسمَ الثغر متهلل الوجه وقد كشر الموت عن أنيابه . وإن سَيْفَهُ ليلمع فى غبار الحرب – وهو يحطم به الرءوس حطما – كبرق يسطع ، وما من شجاع إلا وهو يعلم كثرة ما كشف من كرب وهموم فى الحرب وكثرة ما انفسح له فيها من مضايق ومآزق . ومن قوله فى تنكيله بحملة الصليب فى غير موقعة :

---

(١) الكماة : الشجعان . قرح الفرس : بلغ الخامسة من عمره

(٢) طلق المحيا : مستبشر الوجه . كلح : عبس

(٣) قتام وغًى : غبار حرب . أقرى الهام : أشق الرءوس

كم قد أبدتُ بسيفى كلَّ مفتخرٍ حامى الحقيقة يومَ الجَحْفل اللَّجِبِ[1]
وكم تركتُ بنى الإفرنج فى رُعُبٍ فصرتُ أُدْعى لديهم جالبَ الرُّعُب
وكم جررت إليهم جَحْفلا لجبًا بالسَّابِريَّة والماذِىِّ واليلَبِ[2]

وهو يقول إنه كثيرا ما قضى قضاء مبرما على كل شجاع يفخر بشجاعته حاميا حمى أهله يوم النزال الطاحن . ويقول إنه كثيرا ما أنزل الرعب فى قلوب حملة الصليب حتى سموه – جزعا – جالب الرعب ، وكم قاد إليهم جيوشا غفيرة شاكية السلاح تقتلهم وتسفك دماءهم . ويقول :

سَلْ بى كماةَ الوَغَى فى كلِّ معترَكٍ يضيقُ بالنفس فيه صَدْرُ ذى الباسِ
يُنَبِّئوك بأنى فى مضايقها ثبتٌ إذا الخوف هزَّ الشاهقَ الرَّاسى

فهو يجلِّى فى المعارك حامية الوطيس التى تبلغ فيها الروح الحُلقوم ويرى الكماة فيها الموت نصب أعينهم ، فإنه حينئذ يشق الجماجم ويدق الأعناق رابط الجأش ثابت الجنان حتى حين يهز الخوف والفزع الجبال الرواسى من الكماة العُتاة .

ولأسامة قصيده نظمها على لسان نور الدين مفاخرا معددا لانتصارات البطل على حملة الصليب وتمزيقه لصفوفهم وقد بلغت أكثر من تسعين بيتا وفيها يقول :

أبَى اللهُ إلا أن يكونَ لنا الأمرُ لتحيا بنا الدنيا ويفتخرَ العَصْرُ
جعلنا الجهادَ هَمَّنا واشتغالنا ولم يُلْهِنا عنه السماعُ ولا الخَمْرُ
بنا أُيِّدَ الإسلامُ وازداد عِزَّةً وذلَّ لنا من بعد عِزَّته الكُفْرُ
بنا استرجع اللّهُ البلادَ وأمَّن الـ ـعبادَ فلا خوفٌ عليهم ولا قَهْرُ

وحقا كان نور الدين مفخرة للعصر فى دكِّ قلاع الصليبيين وحصونهم ، وبه استُرْجع كثير من بلاد الشام وأَمِنَ فيها الناس ، ووُضع المكس أو الضرائب عن التجار وانتعشت الحياة وازداد الإسلام عزة . ونور الدين – بدون ريب – هو الذى هيأ لصلاح الدين حكم مصر وانتصاراته المدوية على الصليبيين واسترجاعه القدس الطاهر وتقليمه لأظافرهم . ويقول أسامة حين أقعدته سنواته السبعون عن الاشتراك فى نزال الصليبيين ووهنت منه رجلاه وقواه ، فلم يعد يستطيع

(١) حامى الحقيقة . حامى الحمى . الجحفل اللجب : الجيش الكثيف كثير الضجيج

(٢) السابرية : الدرع المحكمة النسج . الماذى : السلاح . اليلب . الترس .

ركوب الخيل ليكون له شرف النضال عن حمى وطنه :

رجلاىَ والسبعون قد أوهنتْ قُواى عن سعيى إلى الحَرْبِ
وكنت إن ثُوِّبَ داعى الوَغَى لَبَّيْتُه بالطَّعْن والضَّرب[1]
أشقُّ بالسيف دُجَى نَقْعِها شَقَّ الدياجى مُرْسَلُ الشُّهْبِ[2]
أنازلُ الأقْران يُرْدِيهُمُ من قبل ضربى هامَهم رُعْبِى[3]

فقد وهن عظمه وضعفت مُنَّته ، ولكن لاتزال روحه قوية ، وإنه ليذكر ماضى فروسيته المشرف وكيف أنه كان حين يدعو الداعى للحرب يبادر إليها يطعن ويضرب يمينا وشمالا يشق الرءوس فى مثار النقع وغبار الحرب شق الشهب لحجب الظلام فاتكا بالأقران ، بل إن رعبهم منه ليفتك بهم قبل سيفه فتكا ذريعا .

ابن[4] عُنَيْن

هو محمد بن نصر بن الحسين المشهور باسم ابن عُنَيْن ، يرجع بنسبه إلى الأنصار ، نزل أجداده الأولون الكوفة ، وتركتها أسرته إلى زَرْع فى حوران بالشام . وهاجر منها أحد أجداده الأقربين واستقر فى دمشق ، وفيها ولد لأبيه سنة ٥٤٩ للهجرة ، وكان منزله جنوبى الجامع الأموى ، فبعد أن حفظ القرآن أخذ يختلف إلى شيوخه وفى مقدمتهم الحافظ أبوالقاسم بن عساكر . وكان فطنا ذكيا وسرعان ما جرى الشعر على لسانه وهو فى السادسة عشرة من عمره . ولا نعرف الأسباب التى جعلته يتجه بشعره فى بواكير حياته إلى الهجاء ، ربما كان علوانيا بطبعه ، وربما رجع ذلك إلى أنه نشأ فى أسرة متواضعة ، وأن أباه لم ينشِّئه على حب الخير والشعور بالمروءة والكرامة والرغبة فى التسامى وطلب المعالى ، وقد صرَّح بذلك فى بعض شعره قائلا فيه :

وجنَّبنى أن أفعلَ الخيرَ والدٌ ضئيلٌ إذا ما عُدَّ أهلُ المناسبِ

---

(١) ثوب : دعا

(٢) النقع : غبار الحرب

(٣) يرديهم : يهلكهم

(٤) انظر فى ابن عنين وشعره ابن خلكان ١٤/٥ ومعجم الأدباء ٨١/١٩ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣٨/١٣ والنجوم الزاهرة ٢٩٣/٦ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى ٢٦٤/٨ ، ٣٩٨ ، ٤٦١ ومفرج الكروب لابن واصل ٢٨٦/٢ والشذرات ١٤٠/٥ ومقدمة ديوانه لمحققه خليل مردم (نشر دار صادر ببيروت) .

بعيدٌ عن الحسنى قريبٌ من الخَنا وضيعُ مساعى الخير جَمُّ المعايبِ
إذا رمتُ أن أسمو صعودًا إلى العلا غدا عِرْقُه نحو الدَّنِيَّة جاذبى

ويبدو أنه أراد بهجائه للناس الانتقامَ لضعة أسرته وأبيه ، ومن العجب أن صلاح الدين الأيوبى البطل المغوار الذى أذلَّ حملة الصليب ودفع جموعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه واستولى على بيت المقدس المعظم منهم وغيره . هذا البطل الذى احتل السويداء من أفئدة المسلمين حين استولى على دمشق وابن عنين فى العشرين من عمره لم يبادر إلى مدحه ، بل على العكس عمد إلى هجائه هجاء مقذعا هو ووزيره القاضى الفاضل وكاتبه عماد الدين الأصبهانى وغيرهما من كبار حاشيته ورجاله وفيه يقول :

سلطانُنا أعرجٌ وكاتبُهُ ذو عَمَشٍ والوزير مُنْحَدِبُ

وكان القاضى الفاضل أحدب وكان من خيرة الرجال وصفوة الكتاب الشعراء كما كان سيوسا حاذقا بتدبير الدول . وذاعت لابن عُنين فى دمشق قصيدة طويلة يقال إنها بلغت خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراض ، وضجَّ الناس من لسانه وبهتانه ، ورفعوا شكواهم منه إلى صلاح الدين ، فأمر بنفيه عن دمشق ، فمضى على وجهه يجوب البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأذربيجان وخوارزم وخراسان وما وراء النهر وغزنة ودخل الهند . ثم رحل إلى اليمن وحاكمها من قبل صلاح الدين أخوه طُغْتِكين (٥٧٧ — ٥٩٣ هـ .) فوفد عليه ، وقدم إليه مدائحه فلقيه لقاء كريماً وخفَّ على قلبه فاتخذه نديما ، وأخذ يكثر من مديحه وطغتكين يكثر من عطائه ، حتى أثرى ، وكثر فى يده المال ، فرأى أن يستثمره ، وتحول تاجرا يتردد بعروضه بين اليمن ومصر فى العقد التاسع من القرن السادس .

وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين ينوب عن أبيه بمصر حتى إذا توفِّى صلاح الدين سنة ٥٨٩ أصبح العزيز عثمان سلطانها ، ونرى ابن عنين يشكو منه لمطالبته بدفع ضريبة عن عروض التجارة التى يحملها إلى مصر ، ولا نعرف هل هذه الشكوى كانت فى أيام نيابته عن أبيه أو فى أيام سلطنته ، وهو فيها يهجوه بالشحِّ بينما يمدح عمَّه العزيز طغتكين بالكرم ، يقول :

ما كلُّ مَنْ يتسمَّى بالعزيز لَهُ فَضْلٌ ولا كلُّ بَرْقٍ سُحْبُهُ غَدِقَهْ[1]
بين العزيزين بَوْنٌ فى فعالهما هذاك يُعطى وهذا يأخذ الصَّدَقَهْ

(١) غدقة : غزيره المطر .

وهو هجاء لاذع للعزيز عثمان إذ يجعله – لشدة شحه – شحاذا يأخذ الصدقة . ويبدو أنه ظل بمصر بعد وفاة العزيز طغتكين سنة ٥٩٣ ومكث بها مدة انعقدت فيها صداقة بينه وبين شعرائها ، يقول ابن خلكان : « اتفق فى عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ، ودخل فى ذلك الوقت شرف الدين بن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش » . وتوفى العزيز عثمان سنة ٥٩٥ وتطورت الظروف – كما مر بنا فى قسم مصر – وتحول ملك صلاح الدين فى مصر والشام إلى أخيه الملك العادل ، فولّى على مصر ابنه الكامل وعلى دمشق ابنه المعظم عيسى . وحنَّ ابن عنين إلى العودة إلى دمشق فأخذ يستعطف العادل أن يعود إليها وأذن له فى العودة ولزم ابنه المعظم عيسى (٥٩٧ – ٦٢٤ هـ) يمدحه ، وقرَّبه منه واتخذه بأخرة من أيامه وزيرًا له ، حتى إذا توفى رثاه رثاء حارا . وأبقى له منزلته ابنُه داود (٦٢٤ – ٦٢٦) وخلفه الأشرف موسى فلزم بيته واصطلحت عليه الأمراض ، وتوفى سنة ٦٣٠ عن ٨١ عاما .

والديوان موزع على أبواب المديح والرثاء والحنين إلى دمشق والوقائع والمحاضرات مما يتصل بظروفه والأحداث اليومية ، ثم الدعابة والتهكم والسخرية والألغاز والهجاء . وألحق محقق الديوان بتلك الأبواب مستدركا بما عثر عليه من شعر ابن عنين فى كتب التاريخ والأدب . وهو فى مقدمة شعراء دمشق بزمنه إن لم يكن سابقهم المجلىِّ ، إذ كانت ملكته الشعرية خصبة ، غير أنه استغلها أكبر استغلال فى الهجاء مما جعل صلاح الدين ينفيه – كما مر بنا – عن دمشق ، وحتى من أكرموه كان يهجوهم غير مراع فيهم إلاًّ ولا ذمة ، إذ كان ما يلبث أن يعضَّ أيديهم التى امتدت لإكرامه ، من ذلك هجاؤه للسلطان العادل الذى فتح له أبواب دمشق ، إذ ما لبث أن قال فيه بعد دخولها :

إن سُلْطاننا الذى نرتجيهِ واسعُ المال ضيِّقُ الإنفاقِ
هو سيفٌ كما يقالُ ولكنْ قــاطـعٌ لـلـرسوم والأرزاقِ

وكان العادل يلقب سيف الدين ، وأنقذه من تشتته وضياعه فى البلاد وردَّه إلى دمشق حبيبة قلبه ومهوى فؤاده التى طالما تغنى بالحنين إليها ، ومع ذلك جزاه بالهجاء . وحقًّا له فيه مدائح رائعه ، ولكن كان ينبغى أن يرد شيطان هجائه عن الإلمام بساحته . وأكرمه المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إكراما إلى أقصى حد حتى جعله نديمه ومؤنسه ووزيره ومستشاره ، ومع

ذلك لم ينج من هجائه إذ يقول حين ولاه مع البها بن أبي اليسر التنوخى أمر الرعية :

أرى ابن عُنَيْنٍ والبَها مذ توليا على الناس ولّى الخَيْرُ عن كل مُسْلمِ
فوالله ياعيسى بمن شِئْتَ منهما لُعِنْتَ ولوكنت المسيحَ بن مَرْيَمِ

وحقًّا هجا نفسه معه ، ولكن هذا لا يعفيه من قَسمه له بأنه لُعن لتوليته هو وصاحبه . وهجا نفسه فى ديوانه غير مرة ، وكأنه يعيد لنا الحطيئة شاعر الهجاء القديم وهجاءه لنفسه ، وأيضا فإنه استعار منه – كما مرَّ بنا – هجاءه لأبيه . وأهداه طبيب عيون – أو كما كانوا يقولون كحال – خروفاً هزيلا جدا فكتب إليه أهجية طويلة يقول فيها :

أتانى خروفٌ ما شككتُ بأنّه حليفُ هوًى قد شَفَّه الهَجْرُ والعَذْلُ
إذا قام فى شمسِ الظهيرةِ خلتَهُ خيالا سرى فى ظلمةٍ ماله ظِلُّ
فناشدتُه ما تشتهى قال قَتَّةٌ وقاسمتُه ما شفَّه قال لى الأكْلُ
وظلَّ يراعيها بِعَيْنٍ ضعيفةٍ وُينشدها والدمع فى الخدِّ منهلُّ
أتتْ وحياضُ الموت بينى وبينها وجادتْ بوصلٍ حين لا ينفع الوصل

والبيت الأخير لأعرابى وضعه بدقة فى موضعه من القطعة ، وقد جعل الخروف الهزيل نِضْوَ عشقٍ شفه الهجر واللوم ، ويقول كأنه خيال فى ظلام ليس له ظل ، وهى صورة بديعة ويستحلفه ما يشتهى فيقول قتة أو عشب يابس وأحضرها له ، فظل يراعيها بعين ذابلة توشك أن تودع الحياة ودموعه منهلة على خدوده ، فقد أتته وهو يكاد يلفظ أنفاسه . وجادت عليه بوصل لم يعد ينفعه فروحه فى الحلقوم .

ويصور ابن عنين بخيلا شحيح النفس كان يدعو أصدقاءه مرة كل عام ضجرا متبرما ، متمنيا أن لا تتكرر هذه الدعوة أبدا ، ومُدَّت المائدة وأخذ الأصدقاء يتناولون الطعام ، ويصفه ابن عنين حينئذ قائلا :

عهدى به واليَدُ اليمنى يَكُفُّ بها غَرْبَ المدامعِ والأخرى على الكبدِ
يقول للخبز : لا يبعد مَداك ولا أَخْنَى عليك الذى أخنى على لُبَدِ

ولبد آخر نسور لقمان فى قصة مشهورة ، وهذا الشحيح يستر غرب دمعه بيد ويضع الأخرى

على كبده خشية تفتته داعيا لخبزه أن لا يأتى الدهر عليه كما أتى على لبد . وكان يهاجى رشيد الدين عبد الرحمن النابلسى ويزعم أنه صُفع وأنه معتاد الصفع دائما يقول :

تعجَّب قومٌ لصَفْعِ الرشيدِ وذلك مازال من دابِهِ
رحمتُ انكسارَ قلوبِ النِّعالِ وقد دنَّسوها بأثوابِهِ
فوالله ما صَفعوه بها ولكنهم صفعوها بهِ

وله أهاج كثيرة فى القاضى الفاضل وكبار رجال الدولة بدمشق وجهابذة قضاتها وشيوخها ، وهو فيها أو على الأقل فى بعضها يفحش إفحاشا شديدا ، مما دفعنا إلى إخلاء هذا الكتاب منها ، لا لفحشها فحسب : بل لأن ما يخلو منها من الفحش أيضا إنما هو افتراء وبهتان .

ابن[1] النحاس

هو فتح الله بن النحاس الحلبى المعروف باسم ابن النحاس اشتهر بطوافه فى البلدان الشامية والمصرية والحجازية ، كان جميل الصورة فى صباه ومطالع شبابه ، ثم أصيب بمرض بدَّل محاسنه وزهده فى الحياة . ونراه فى شعره يرثى تلك الأيام أسفا محزونًا ، ويقال إنه تزيَّى بزى الزهاد ورحل عن بلده ، ودخل دمشق فاستقبله أدباؤها وشعراؤها استقبالا كريما . وكان لهم مجالس يتطارحون فيها الشعر ، وكانوا يجتمعون فى نزه دمشق ، ويتحاورون ويتحدثون ويذكرون كثيرا من الدعابات والفكاهات . وانعقدت صلة متينة بينه وبين ابن منجك الذى تحدثنا عنه بين شعراء المديح ، وله فيه مدائح كثيرة . ورحل عن دمشق إلى القاهرة فوجد من أدبائها أهلا ومكانا طيبا ، وهاجر منها إلى مكة ، وألقى عصا تسياره بالمدينة ، إلى أن توفى سنة ١٠٥٢ للهجرة . ويقول فيه المحبى فى كتابه : نفحة الريحانة : « أنا لا أجد عبارة تفى فى حقه بالمدح ، فأرسلت اليراع وما يأتى به على الفتح ، وناهيك بشاعر لم يطنّ مثل شعره فى آذان الزمان ، وساحرٍ إذا أُشربتْ كلماته العقول استغنت عن الكئوس والندمان » .

وابن النحاس شاعر مجيد ، بالقياس إلى زمنه أيام العثمانيين ، وشعره استنفده فى المديح ، ويكثر فى مقدماته من الغزل ، وقد يفزع إلى الفخر بمثل قوله :

---

(١) انظر فى ابن النحاس وشعره سلافة العصر ص ٢٧٦ وخلاصة الأثر ٢٥٧/٣ ونفحة الريحانة ٥٠٧/٢ وديوان ابن النحاس مطبوع قديما فى بيروت بالمطبعة الأنسية .

ألا إن لى نفسَ الوَقورِ وعفَّةَ الـ ـقدير وقلبى فى المهمات قُلَّبُ
وما كلُّ مَعْسول اللَّمَى يستفزُّنى ولا كلُّ مطلوبٍ لدىَّ محبَّبُ[1]
وأحـتـملُ المكروه ممن يملُّنى ولم آلُو جِيدَ الودِّ عمن ينكّب
إذا أنا لم أدفع عن النفس ضَيْمَها فلا انجاب عنها من دُجَا الضَّيْم غَيْهَبُ
ولا وَطِئَتْ خدَّ الفيافى ركائبى ولا سالَ حَزْنٌ بالمطىِّ وسَبْسَبُ

وهو يقول عن نفسه إنه وقور عفيف قُلَّب يحتال فى قوة للأمور ، ولا يستثيره جمال المرأة ولا يطلب ما يطلبه الناس ، بل يطلب الأمانى الكبار ، ويحتمل الأذى ممن ينصرف عنه ، ولا ينصرف عمن يُعْرِض عنه من الأوِدَّاء الأصدقاء ، ويدعو على نفسه إن لم يدفع الضيم الساقط عليه أن لا ينجاب عنه دجاه المظلم ، وأن تهن قواه فلا تطأ الفيافى ركائبه ولا يسيل بها حَزْن من الأرض ولا مفازة . ويقول من قصيدة ثانية :

يـادهـرُ مـثلى لا يُـقَـلْـ ـقَلُ عن سَنام المجد جَنْبُهْ
أنا لا أبالى إن رُمِيـ ـتُ وسبَّ عِرْضى مَنْ أسبُّهْ
الـعـينُ يـدميها الـذُّبا بُ ويُعْجز الآسادَ ذَبُّه
والـتِّـبْـرُ يـعـلوه الـتُّرَا بُ وفضلُه باقٍ ولُبُّه
تكفى فَتَى العِرْفان خِـ ـلاَّنَا فضائـلُـه وكُـتْـبُـهْ
وارقبْ خُفُوقِى إن سكنْـ ـتُ فعاصفى يُرْجَى مَهَبُّه
والبدرُ يشرق فى المطا لع بعد ما أخفاه غَرْبُهْ
والروضُ يَذْبل ثم تُكْـ ـسَى النَّوْرَ والأوراقَ قُضْبُهْ

وهو يقول للدهر إن شيئا لا يستطيع أن يزعزعه عن مكانه من سنام المجد ، وإنه ليرمى ، ولا يهمه ما قد يلقى عليه من أذى السب والشتم ، مثله فى ذلك مثل العين يدميها الذباب وحتى الأسد لا تستطيع ذبه ولا دفعه ومثل التبر يعلوه التراب وتظل له قيمته ونفاسته . ويفتخر بفضائله ومعارفه ، ويقول لخصمه : ترقَّب حركتى ، فإنى كعاصف ساكن لا يلبث أن يثور ويندفع ، وما مثلى إلا كمثل البدر يخفيه مغربه ولا يلبث أن تعم أضواؤه الآفاق ، أوكمثل الروض تذبل

(١) اللمى : سمرة حسنة فى الشفة

أشجاره ، حتى إذا كان الربيع كسى غصونه الأوراق والأزهار الأرجة . ويقول :

لا أقبل الضيم كيف أقبلهُ ؟ والمجدُ يأباه فيَّ والحسَبُ
والشمسُ صَوْنًا لضوءِ طلعتها قبل لِحَاقِ الظلام تحتجبُ

يقول إنه لا يقبل الضيم وكيف يقبله ومجد آبائه وعشيرته يستدير من حوله هالةً منيرة تحول بينه وبين الرضا بالهوان . وإنه ليصون نفسه وخصالها الكريمة كما تصون الشمس ضوءها ، بل إنها لتحتجب قبل أن يلحقها الظلام ويرخى الليل سدوله على الآفاق .

٣

شعراء المراثى والشكوى

المراثى قديمة فى الشام منذ عصر بنى أمية فقلما كان يموت خليفة أموى إلا ويرثيه الشعراء من الشام والعراق والحجاز ، ويدخل عصر الولاة ومنذ أواخر القرن الثانى تشارك الشام بقوة فى الشعر العربى ، ولا يلبث أبو تمام الدمشقى أن يحمل راية الشعر وزعامته لا فى الشام وحدها بل أيضا فى العالم العربى جميعه ، وتحتل المراثى بابا كبيرا فى ديوانه ، ويخلفه تلميذه البحترى المنبجى الحلبى المتوفى سنة ٢٨٤ للهجرة وتشغل المراثى حيزا كبيرا فى شعره . ونلتقى فى أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات بكشاجم . وله رثاء فى أبيه وأمه ، وأروع من رثائه فيهما رثاء أبى فراس لأمه حين جاءه نعيها فى أسر الروم ، فأحس فى عمق بفجيعته فيها وهو غائب عنها لا يملك إلا أن يذرف الدموع الحارة . وله مرثية بديعة فى أخت له يقول فيها[1] :

أتزعم أنك خِدْنُ الوفاء وقد حَجبَ التُّرْبُ من قد حجبْ
فإن كنت تصدقُ فيما تقولُ فمُتْ قبل موتك مَعْ من تُحِبْ
وكنتُ أقيكِ إلى أنْ رمتْكِ يَدُ الدَّهر من حيث لا أحتسبْ
فلا سلمت مقلةٌ لم تَسُحَّ ولا بقيتْ لِمَّةٌ لم تَشِبْ
ولو رُدَّ بالرُّزءِ ما تستحقُّ لما كان لى فى حياتى أربْ

---

(١) الديوان ٢/٤١

وهو يتمنى لو غُيِّب الترابَ مع شقيقته وصِنْو روحه حبا لها ووفاء ، ويأسى لنفسه أنه لم يستطع أن يرد عنها سهام المنية التى أصابتها فى الصميم تحت بصره ، ولم يعد يملك لها إلا دموعا منهمرة ويتمنى أن لا يتوقف انهمارها ، لعلها تشفى غُلَّة نفسه وحُرْقة فؤاده ويقول لو أن الرزء فيها يرد إلى أخته الحياة لما كان له فى حياته أرب ولقدَّم روحه فداء لها .

ولأبى العلاء مرثية رائعة لأمه ، وكان قد بلغه نعيها وهو فى طريقه إليها من العراق ، ويقول فى مطلعها إنه سمع بداهية أصمَّت أذنه وصكَّت سمعه ، ويأسى أن تتقدمه إلى الموت ، ويُعْظم أن يرثيها بلفظ يمر بلسانه ويسلك مسالك الطعام ، ويقول إن ألفاظ رثائه تحطم نواجذ أضراسه فضلا عن مقادم أسنانه ، وينشد[1] :

ومَنْ لى أن أصوغ الشُّهْبَ شِعْرًا ... فَأُلْبِسَ قَبْرَها سِمْطَىْ نظامِ
مضتْ وقد اكتهلتُ وخلتُ أنى ... رضيعٌ ما بلغتُ مدى الفِطامِ
فياركبَ المَنُون أما رسولٌ ... يبلِّغ روحَها أرَجَ السَّلام
ذكيًّا يُصْحَبُ الكافورُ مِنْه ... بمثلِ المِسْك مفضوضَ الختام

وهو يكبرها عن أن يرثيها بألفاظ ، إذ هى جديرة بأن يصوغ لها النجوم الساطعة عقود رثاء تزين جَدَثها الطاهر ، ويحس فى عمق – وهو فى سن الكهولة – كأن السنوات الطويلة التى فصلته عن صدر أمه من القِصَر ليست إلا أياما قصيرة إذ لا يزال يشعر كأنه رضيع فقد أمه ، وهو فى حاجة شديدة إليها ، رضيع ضاع أى ضياع . ويتوسل إلى قوافل المنون التى تسرى فى ليل الأبدية أن تحمل منه إلى أمه سلاما ذكيا عطرا ينتشر أريجه من حولها ويسطع سطوعا . ويقول الماهر الدمشقى المتوفى سنة ٤٥٢ فى مرثية له[2] :

برغمى أن أعنِّف فيك دَهْرًا ... قليلا فكرُه بمعنِّفيهِ
وأن أرْعى النجومَ ولستَ فيها ... وأن أطأ التُّرابَ وأنت فيهِ

ويقول الباخرزى تعليقا على البيتين : « هذا أرقُّ ما يكون فى المراثى ، إذ يكاد يفجِّر عيون الأحجار ، فتسيل بمدود الأنهار ، بل بأمواج البحار » .

وتنشب الحروب الصليبية ، وفى بعض حملات آبق أمير دمشق على حملة الصليب سنة ٥٠١

---

(١) سقط الزند ٤/١٤٥٩

(٢) دمية القصر ١/١٥٨

يخون الحظ قائدا من قواده يسمى قُول بن عثمان ، فيقتله الصليبيون ، ويبكيه ابن الخياط شاعر دمشق بمثل قوله[١] :

يالَلرِّجالِ لنازلٍ لم يُحتَسَبْ ولحادثٍ ما كان بالمتوقَّعِ
تالله ما جارَ الزمان ولا اعتدى بأشدَّ من هذا المصابِ وأوجعِ
ياقُولُ قَوْلَةَ مُكْمَدٍ مُسْتَتِرٍ ماءَ الشئون له ونارَ الأضْلُعِ
أشكو إلى الأيام فيك رَزِيَّتى لو تسمع الأيامُ شكوى موجَعِ
صُلْ بَعْدَها يادهرُ أو فاكْفُفْ وخُذْ مَنْ شئتَ ياصَرْفَ المنية أودَعِ

وهى مرثية رائعة تمتلىء بأبيات تصور لوعات الدمشقيين فى هذا البطل وكارثتهم وفجيعتهم التى لا تماثلها فجيعة . وإن الشاعر ليستقلُّ الدموع الغزار فيه وما وراءها من نار موقدة فى الصدور كمدًا عليه ، ولِيُنْزِل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أو فليكفّ ، فلن يصيبهم مثلها فاجعة أو كارثة .

وتوفى نور الدين محمود سنة ٥٧٠ فاهتزت الشام لفقده هزة شدة ، وفى رثائه يقول العماد الأصبهانى فى إحدى مراثيه[٢] :

يامـلكًا أيّامُه لم تَزَلْ لـفضـلـهِ فـاضـلـةً فـاخـرَه
غاصتْ بحارُ الجود مذ غُيِّبَتْ أَنْـمُـلُكَ الـفـائضـةُ الزاخره
مـلـكتَ دنـيـاك وخـلَّفْتَها وسرتَ حتى تملك الآخرهْ

وتوفى بعده صلاح الدين بدمشق ، وكانت لوفاته أوائل سنة ٥٨٩ رنة حزن عميقة فى جميع القلوب والديار لكثرة فتوحاته ، وقد أزاح الصليبيين عن صدر الشام وافتتح بيت المقدس ولم يبق معهم إلا عكا وأنطاكية وبعض حصون وبلدان قليلة ، وبكاه الشعراء وفى مقدمتهم عماد الدين الأصبهانى ، وله فيه مرثية بديعة ختم بها كتابه البرق الشامى ، وفيها يقول[٣] :

أين الذى شَرُفَ الزمانُ بفضلهِ وسَمتْ على الفضلاء تشريفاتُه

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ٢١٣ والخريدة بداية شعراء الشام ص ٢٠٩ .

(٢) الروضتين لأبى شامة (طبع مطبعة وادى النيل بالقاهرة) ١/٢٢٨ .

(٣) انظر نهاية كتاب البرق الشامى للعماد والروضتين ٢/٢١٥ والنجوم الزاهرة ٦/٦٠

لا تحسبوهُ ماتَ شخصا واحدا ... قد عمَّ كلَّ العالمين مماتُه
لو كان فى عصر النبىِّ لأُنزلتْ ... فى ذِكْرِه من ذكره آياتُهُ
ياراعياً للدين حين تمكنتْ ... منه الذئابُ وأسلمتْه رُعاتُه
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائمًا ... رِضْوانُ رَبٍّ العرشِ بل صلواتُهُ

وحقا حامى صلاح الدين عن الإسلام حماية هائلة ، عرضنا لها فى حديثنا عن السياسة بالشام ومصر ، حماية جعلته فى الذروة من أبطال العرب الفاتحين ، مع ما عمَّره من المدارس والمساجد فى كل بلد بمصر والشام ، ومع كثرة ما وقفه عليهما من أموال ، ومع دولته الواسعة لم يخلِّف ملكا ولا دارا ولا بستانا ولا مزرعة ، إنما خلف بطولةً أَحْنَى لها حَملةُ الصليب رءوسهم .

ولا يكاد يتوفَّى حاكم طوال هذا العصر ولا وزير ولا عالم ولا قاض إلا ويرثيه الشعراء ، من ذلك قول الشهاب محمود فى ابن صَصْرَى قاضى دمشق لأكثر من عشرين عاما المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة[١] :

قاضى القضاة ومَنْ حَوَى رُتَبًا سَمَتْ ... عن أن تُسَام سَنًا وَبَزَّتْ مَنْ سَعَى
شيخُ الشيوخ العارفين ومَنْ رَقَى ... رُتَبَ السلوكِ تعبُّدا وتورُّعا
حاوى العلومِ بما تفرَّق فى الوَرَى ... إلا الذى منها إليه تجمَّعا

وطبيعى أن يصفه بالتقوى والورع والعلوم الشرعية والفقه بها فقها دقيقا . ويقولون إنه كان يجمع بين الحسنيين : المعرفة بالمنقول والبراعة فى المعقول أوما يحتاج إلى عقل وفهم وقياس وبصيرة . ويلقانا رثاء كثير أيام العثمانيين ، من ذلك قول أحمد بن محمد الحسنى الحلبى المتوفى سنة ١٠٥٦ فى رثاء أخيه[٢] :

رُزْءٌ ألـمَّ وحسرةٌ تَـتـوالى ... ومصيبةٌ قد جَذَّتِ الآمالا
وفِراقُ إلفٍ إن أردتُ تصَبُّرا ... عنه أردتُ من الزمان محالا
كنا كغُصْنَىْ دَوْحَةٍ قطع الرَّدَى ... منها الأغضَّ الأرْطَبَ الميَّالا
أو كاليدين لذاتِ شَخْصٍ واحدٍ ... كان اليمينَ لها وكنتُ شمالا

وكان وتر الشكوى من الدهر والممدوحين والناس مشدودا فى أحوال كثيرة إلى قيثارات الشعراء

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٩/٢٢

(٢) نفحة الريحانة للمحبى ٢/٥٣٩

يلحُّون عليه نوائب الدهر وتغافل الممدوحين وبؤس حظوظهم .فى دنياهم وما يتجرَّعون من صاب الدنيا وعلقمها المرير ، وما يبلون فى الناس من الطمع والحقد والأنانية مما يوهى العلاقات حتى بين الأقرباء ، ويملأ النفوس شقاء وعناء والقلوب حسرات ولوعات ، من ذلك قول أبى فراس [١] :

أرانى وقومى فرَّقتنا مذاهبُ   وإن جَمَعَتْنا فى الأصول المَناسِبُ
فأقصاهمُ أقصاهمُ من مَساءتى   وأقربُهم مما كرهتُ الأقاربُ
غريبٌ وأهلى حيثما كرَّ ناظرى   وحيدٌ وحولى من رجالى عصائبُ
وأعظمُ أعداءِ الرجالِ ثِقاتُها   وأهونُ من عاديته مَنْ تحاربُ

وهو يصور المحنة فى الناس حوله ، فهم جميعا قومه يرجعون إلى أصل واحد ونسب واحد ، وأقربهم منه لا يحبون له الخير ، ويحبه له البعداء ، مما يجعله يشعر فى عمق بالغربة بين أهله وذويه وعصاباته ، ويهوله ذلك ويقلقه ويفزعه . وإنه ليوغل فى فهم الناس فيشعر بغير قليل من قلق النفس وضيق الصدر ، فإن من يصادقك إنما يصادقك على الخداع ، وهو لذلك ليس صديقا ، بل هو أعظم أعدائك لأنك تأمنه وتجعله محل ثقتك ، وهو لا يريد لك خيرا بل يريد لك الشر والأذى ، وهو لذلك أعْدى أعدائك ، أما العدو الحقيقى فأنت تعالنه العداوة وتجاهره بالحرب والخصومة ، فلن يصيبك منه أذى لأنك محترس منه دائما متق شره وخيانته وغدره . ويخاطب أبو العلاء الدهر بقوله [٢] :

يادَهْرُ يامنجزَ إيعادِهِ   ومخلفَ المأمولِ من وَعْدِهِ
أىُّ جديدٍ لك لم تُبْلِهِ   وأىُّ أقرانك لم تُرْدِهِ
تستأثر العِقْبان فى جَوِّها   وتُنْزل الأعصمَ من فِنْدِهِ [٣]
إن زمانى برزاياه لى   صيَّرنى أمْرَحُ فى قِدِّهِ [٤]
أفضلُ ما فى النفس يَغْتالها   فنَسْتعيذ اللهَ من جُنْدِهِ
وربَّ ظمآنَ إلى موردٍ   والموتُ لو يعلم فى وِرْدِه

وهو يشكو من الدهر وأنه ينجز دائما الإيعاد والإنذار بالشرور والخطوب ، ويُخْلف دائما

---

(١) ديوان أبى فراس ٢/٢٠
(٢) سقط الزند ٢/١٠١٢
(٣) الأعصم : الوعل . الفند : قمة الجبل
(٤) القد : مايُقَدُّ من الجلد ويُشَدّ به الأسير

الوعد بالخيرات والطيبات ، وإنه ليأتى دائما على كل جديد وكل قِرْن يدَّعى أنه يماثله فى القوة أو الشجاعة ، فالكل أَسْراه : العِقْبان فى أجوائها العليا والعُصْم أو الوعول فى أعالى الجبال ، فلا أحد ينجو من صولته . ويقول إنه ألف رزاياه ونكباته حتى صارت قِدًّا أو قيدًا له ولحياته ، وصار من طول ألفته لها يستحبها ويمرح فيها . ويعجب أن يكون أفضل ما فى النفس من حواس البصر والسمع وغيرهما يغتاله أو يهلكه ما سُلِّط عليه من آفات الهوى ، ويجعلها كأنها جنود لله إذ تنتقم له من الإنسان بسوء سلوكه وأعماله . وهو لذلك يستعيذ من شرها ، ويقول رب ظامئٍ إلى مورد يريد أن ينهل منه ، فيكون فيه هلاكه . ويقول أسامة بن منقذ[(١)] :

حذَّرتْنى تجاربى صُحْبَةَ العا ... لَمِ حتى كرهتُ صحبةَ ظِلِّى
ليس فيهم خِلٌّ إذا ناب خَطْبٌ ... قلتُ مالى لدفعه غيرُ خِلِّى
كلُّهم يبذلُ الودادَ لدى اليُسْـ ... ـرِ ولكنهم عِدًى للمقلِّ
فاعتَزِلْهُمْ ففى انفرادِك منهم ... راحةُ اليأسِ من حِذارٍ وذُلِّ

وقد بلغ أسامة من ابتلائه للناس واختبارهم أن أصبح يمقتهم ويمقت كل ما فى العالم حتى ظله يكره أن يصحبه خوفا أن يكون فيه ما فى الناس من عدم الوفاء وخيانة الصحبة . ويقول إنه ليس فى الناس خل صادق العهد فى النعماء والبأساء ، بل إذا نابت ضراء لم يسعفك ولم يساعدك ، إنما يعرفك فى اليُسْر ، أما فى العسر فلا يودّك ولا يعرف لك طَوْلا ولا فضلا ولا يسدُّ لك ثلمة ولا يقدم لك عونا ، فاعتزل الناس وايْأَسْ من أن يردّوا لك معروفا أو جميلا تَعِشْ آمنا عزيزًا .

ويقول ابن عُنين فى التَشوق إلى دمشق بعد أن ظل منفيا عنها طويلا شاكيا محزونا لغربته وما لقى فيها من ضنك العيش بعد أن طوَّف فى العراق وإيران وخراسان والهند واليمن[(٢)] :

فسَقَى دمشقَ ووَادِيَيْها والحِمَى ... متواصلُ الإرعادِ مُنْفصمُ العُرَى
فارقْتُها لا عن رِضًى وهجرتُها ... لا عن قِلًى ورحلتُ لا متخيِّرا
أسْعَى لرزقٍ فى البلاد مشتَّتٍ ... ومن العجائب أن يكون مقتَّرا
لا عيشتى تَصْفُو ولا رَسْمُ الهوى ... يَعْفُو ولا جَفْنى يصافحُه الكرَى

فهو يدعو لدمشق – وكان يكثر من الحنين إليها – أن يسقيها سحاب متواصل الإرعاد

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/٥٢٥

(٢) ديوان ابن عنين ص ٤

أو الإمطار ، منفصم العُرَى واهيه يهطل مدرارا . ويقول إنه برغمه فارقها قسرا ، وهو إنما فارقها لهجوه أهلها وإفحاشه فى هجوه . ويقول إنه جاب البلاد يسعى لرزقه فكان لا يصيب منه إلا الكفاف وإلا ما يسدُّ رمقه ، فرزقه دائما مقتَّر أو قليل ، وعيشته دائما نكدة ، وهواه معلق دائما بدمشق ودائما مسهَّد لا يلم بجفونه الكرى أو النوم لما ملكتْ عليه من شغاف قلبه .

وكان شعراء الشام وأدباؤه كثيرا ما ينزلون القاهرة فى عهد الأيوبيين والمماليك ويحنّون إلى الشام وبلدانه ورياضها الفيحاء شاكين من الغربة وأن عيونهم لا تكتحل بمناظر وطنهم ومشاهده الجميلة ، فضلا عن رؤية الأهل والأصدقاء . ونزل القاهرة ابن حِجَّة الحموى صاحب خزانة الأدب المتوفى سنة ٨٣٧ وكان أحد ندماء السلطان المؤيد وولى عدة وظائف لعهده ، ويقول متشوقا إلى بلدته حَماة شاكيا غربته وطول فراقه لأهله[1] :

ياساكنى مَغْنَى حَماةَ وحقّكم … من بعدكم ماذقتُ عيشًا طيِّبا
أرضٌ رَضعتُ بها ثُدِىَّ شبيبتى … ومزجت لذَّاتى بكاسات الصِّبا
وقد التفتُّ إليك يادهرى بطو … ل تعتبى ويحقّ لى أن أَعْتبا
قَرَّرْتَ لى طولَ الشتات وظيفةً … وجعلتَ دمعى فى الخدود مرتَّبا

وهو يشكو من غربته عن ملاعب صباه وشبابه وديار أحبائه فى حماة مسقط رأسه ، ويعاتب الدهر الذى قضى عليه بفراقها وطول تشتته بعيدا عن قرة عينه ، وإنه ليبكيها بدموع غزار . ولذلك عاد إلى حماة بمجرد أن توفى السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة .

وتظل الشكوى من الزمان والناس طوال العصر ، ومرت بنا ترجمة لحسين بن الجزرى أيام العثمانيين ، وله يشكو شكوى مرة من الناس منشدا[2] :

قد صرتُ أَحْترز الأنامَ وغَدْرَهم … إن الطبيبَ يخاف مسَّ الدَّاءِ
وقطعتُ باليأس الرجاءَ لديهمُ … واليأسُ يَجْدَعُ أَنْفَ كلِّ رجاءِ
ولطالما أصفيت قبلك خُلَّتى … من لا أراه موافقا لإخائى
وبلوت منه ودَّه فرأيتُه … متلوِّنا كتلوُّن الحِرْباء

لقد جرب الناس طويلا فرآهم غادرين ماكرين لا يصونون عهدا ولا يحفظون ودا ، فيئس

(١) خزانة الأدب ص ٤٠
(٢) ريحانة الألبا ١/١٢٤

منهم يأسا لا يداخله أى رجاء ، يأسا لا أمل معه فى وفاء ولا ما يشبه الوفاء ، فقد طالت تجربته وطال اختباره ورجع دائما خائبا بل رجع شاعرا بمرارة ، لرؤيته الصديق وقد تلوّن ألوانا كألوان الحِرْباء ، إذ تتلون فى ساعات النهار ألوانا مختلفة . فاتخذ منها مثلا لتلونه . ونقف قليلا بإزاء نفر من شعراء الشكوى والرثاء .

ابن سنان (١) الخفاجى

هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى تلميذ أبى العلاء المعرى ، وكان يتشيع وأنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع شعرا شيعيا ، ولانعرف تاريخ ميلاده . ويبدو أنه أحب خوض معمعان السياسة إذ نراه فى حاشية محمود بن نصر بن صالح حين صار إليه أمر حلب سنة ٤٥٢ وقد بعث به رسولا إلى صاحب القسطنطينية ملك الروم يستنجد به على عمه عطية بن صالح ، وظل عندهم مدة وكتب إلى أهل حلب قصيدته المعروفة :

هذا كتابى عن كمال سلامةٍ ... عندى وحالٍ شَرْحُها فى الجملةِ
همٌّ وإقتارٌ وعمرٌ ذاهبٌ ... وفراقُ أوطانٍ وبُعْدُ أحِبَّةِ

وعاد إلى حلب فى عهد أميرها ثمال بن صالح سنة ٤٥٣ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه عطية واستولى عليها منه ابن أخيه محمود بن نصر سنة ٤٥٤ ورأى أن يولى فى كل قلعة من قلاع إمارته حلبيا بحيث تكون ذريته وأبناؤه تحت يده . وطلب من وزيره ابن أبى الثريا أن يختار له من يوليه « عَزاز » فقال : لا أجد لذلك إلا أبا محمد بن سنان الخفاجى وكان أبو نصر بن النحاس حاضرا فصوَّب الرأى فيه ، فأحضره محمود ، وولاه قلعةَ عزاز بعد أن امتنع ، وأخيرا أجاب . وبعد سنوات خشيه ابن سنان على نفسه واستوحش منه ، فاستدعاه محمود مرارا إلى حلب وابن سنان يتعلل عليه ولايحضر ، وكان أبو نصر بن النحاس صديقه فكان يكتب إليه يحذره . ومع ذلك اضطر – بأمر محمود – أن يحمل إليه طعاما مسموما وكان ذلك سبب موت ابن سنان سنة ٤٦٦ ويقال إنه لما أحسَّ بالموت أنشد .

خَفْ مَنْ أمنتَ ولاتركنْ إلى أحدٍ ... فما نصحتُك إلا بعدَ تجريبِ

---

(١) انظر فى ابن سنان الخفاجى وشعره زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ، الجزءين الأول والثانى (انظر الفهرس) وفوات الوفيات ٤٨٩/١ والنجوم الزاهرة ٩٦/٥ وكتابنا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ . وديوانه مطبوع بالمطبعة الأنسية ببيروت .

وكان مثقفا ثقافة أدبية وبلاغية علمية كما يتبين من وضعه لكتاب سر الفصاحة ، وهو كتاب نفيس . وديوانه مطبوع قديما ، ويكثر الرثاء فيه وهو يفتتحه بمرثية فى الكاتب على بن محمد بن عيسى العمرى ، وكان عطية بن صالح يضطغن عليه لوقوفه مع محمود بن نصر فى حصاره لحلب فقتله وصلبه ، وفى رثاء ابن سنان له يقول :

ومعذَّلٍ جارٍ على غُلَوائهِ ... يُرْوَى حديثُ نَداه عن أعدائهِ
عَجِلَتْ عليه يَدُ الحِمام وعودُه ... رَيَّانُ من خَمْرِ الشباب ومائه
عجبًا لحدِّ السيف كيف أصابه ... ومَضاؤه فى الرَّوْع دون مَضائه
ولمصعبٍ ملأ الزمانَ هديرُه ... قادوه بعد شِماسه وإبائهِ
إن يرفعوه فقد غنَوْا بعَلائه ... أو يَشْهَرُوه فقد كُفُوا بثنائهِ

وابن سنان يؤبِّن صديقه تأبينا حزينا قائلا : إنه كان بحرا فياضا فى الجود وطالما كان الناس يلومونه ويروون أحاديث كرمه الذى شهد به أعداؤه . ويقول إن الموت اختطفه شابا غضا نضرا ، ويعجب كيف أصابه السيف وعزمه فى الحرب وسفك الدماء أقوى من عزمه . وقد كان صعب القياد يهدر هدير الفحول ويزأر زئير الأسود . ويقول إن كانوا قد رفعوه فى الصلب ، فقد أغناهم علاؤه فى السماكين ، وإن كانوا قد شهَّروا به فقد امتلأت الدنيا بالثناء عليه .

وقال يرثى جماعة من أهله وأصدقائه :

أيُّها الظاعنون لازال للغيْـ ... ـثِ رواحُ عليكمُ وبكورُ
لستُ أرضى بالدمع فيكم فهل يَمْـ ... ـلك رِىَّ البحور إلا البحورُ
قد رأينا دياركم وعليها ... أثرٌ من عُفاتكم مهجورُ
عَرَصاتٌ كأنهن ليالٍ ... فارقتْها عند الكمال البدورُ
بانَ ذُلُّ الأسى عليها فلِلْغَيْـ ... ـثِ بكاءٌ وللنسيم زَفير
يانجومَ العُلا غَربْتم وما فى اللَّـ ... ـيل من بعدكم نجومٌ تَغُورُ

وهو يدعو لأجداثهم أن تظل تمطرها السحب فى البكور والرواح بل حرىٌّ أن تُروِى البحور مَنْ فيها من بحور الكرم . ويقول إنه مرَّ بالديار فرأى آثار العفاة أو طلاب النوال قد هُجرت منذ مات أصحابها ، وقد أظلمت عرصاتها وساحاتها بمغيب بدورها ، وبدا ذل الأسى والحزن عليها

والسحب تبكى بدمع مدرار ، وللرياح زفير وشهيق . ويقول لقد غربت نجومكم وما أظن بعدها فى الليل نجوم تغور فى سماء المجد والعلاء . وقال يرثى والدته حين توفيت بعد قدومها من حَجِّ بيت الله :

أبكيك لو نهضتْ بحقِّك أدمعُ ... وأقول لو أن النوائبَ تسمعُ
لا يُغْبَطَنَّ على البقاء مرزَّأٌ ... إن المودِّع إلْـفَـه لمودَّعُ
قُبْحًا ليومكِ فالنوائبُ بعده ... جَلَلٌ وكلُّ رزيَّةٍ لاتفْجَعُ[1]
لو كان ينفعنى السلوُّ نبذتُه ... أسفًا عليكِ فكيف إذ لاينفع
عجبًا لمن يُبْقِى ذخائرَ مالِهِ ... ويظلُّ يحفظهن وهْو مضيِّع
ولغافلٍ ويرى بكلِّ ثَنِيَّةٍ ... مُلْقًى له بَطْنَ الصفائحِ مضجعُ[2]
ياقبرُ فيك الصالحاتُ دفينةً ... أفما تضيقُ بهنَّ أو تتصدَّع

وهو يقول إن أى دموع له لاتنى بحقوق أمه عليه وأى أنين له لاتسمعه النوائب ، ويقول إن أحدا لايُغْبَطُ على بقائه ، فما تلبث رحى الموت أن تطحن الباقين المودعين . وما أقبح اليوم الذى سمع فيه رزء أمه . فالنوائب بعده صغيرة والرزايا لا تفجعه ، ولو ينفعه السلو لسلا ، ولكنه لاينفع أى نفع . ويعجب لمن يجمع المال وعما قليل يضيع ، وللغافل عن الموت وفى كل عطفة بطريق من طرقه مضجع معدٌّ له : حفرة وصفائحها من الحجارة . ويلتفت إلى قبر أمه ويعجب أنه لايتصدع وفيه هذه الأم الكريمة . وفى ديوان ابن سنان وراء ذلك مدائح وغزليات وفيه عظات بديعة .

الغَزِّىّ [3]

هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبى الغزىّ ، ولد بغزَّة فى فلسطين سنة ٤٤١ للهجرة وبها نشأ وتعلم ، وسال الشعر على لسانه ، حتى إذا بلغ من عمره أربعين عاما دخل دمشق وسمع من شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها فى المدرسة النظامية سنين كثيرة ، ومدح ورثى غير مدرس ، ثم مضى إلى إيران وخراسان وامتدح بهما جماعة من الحكام والرؤساء . ويقول العماد الأصبهانى فى الخريدة : جاب البلاد وتغرَّب ، وأكثر التنقل والحركة وتغلغل فى أقطار كرمان بفارس وأقطار

---

(١) جلل : يأتى بمعنى عظيم وبمعنى صغير حقير فاللفظة من ألفاظ الأضداد .

(٢) الثنية : الطريق والعطفة فيه . الصفائح جمع صفيحة وهى العريض من الحجارة والألواح .

(٣) انظر فى الغزى وشعره الخريدة (قسم الشام) ١/٣ وما بعدها وابن خلكان ١/٥٧ والنجوم الزاهرة ٥/٢٣٥

خراسان . ومن مداحه ناصر الدين مُكْرَم بن العلاء وزير كَرْمان ، وعماد الدين طاهر قاضى القضاة بشيراز . ثم أوغل شرقا متنقلا بين الحكام والقضاة والوزراء إلى أن توفى سنة ٥٢٤ بين مرو وبلخ بخراسان ، ونقل جثمانه إلى بلخ ودُفن بها عن ثلاثة وثمانين عاما .

وكان شاعرا بارعا وأكثر شعره فى المديح . وله غزل بديع أنشدنا منه قطعة فى حديثنا عن شعراء الغزل ، ويبثُّ فى أشعاره شكوى كثيرة ، إذ كان يحس دائما بغربته وأنه لا يأخذ من الدنيا ما يأمله . شاعرا بأن سوق الآداب كسدت وأن الاجواد المؤمَّلين قلوا فى البلاد ، وفى ذلك يقول :

قالوا هجرتَ الشعرَ؟ قلت ضرورةً   بابُ الدواعى والبواعثِ مُغْلَقُ
خَلَتِ الديارُ فلا كريمٌ يُرْتَجَى   منه النَّوالُ ولا مليحٌ يُعشَقُ
ومن العجائب أنه لايُشْتَرَى   ويُخانُ فيه - مع الكساد - ويُسْرَقُ

وهو لايشكو من كساد الشعر فحسب . بل يشكو أيضا من أنه يسرق ، وباب السرقات الشعرية فى النقد العربى باب واسع . ويقول العماد تعليقا على هذه الأبيات : « الغزى حسن المغزى ومايعزُّ من المعانى الغُرِّ معنى إلا إليه يُعْزَى ، يُعْنَى بالمعنى ويحكم منه المبنى ، ويودعه اللفظ إيداع الدرِّ الصدفَ ، والبدر السُّدَف » ويورد طائفة من روائع أبياته منها قوله :

إنى لأشكو خطوبًا لا أعيِّنها   ليبرأَ الناسُ من لومى ومن عَذَلى
كالشَّمع يبكى ولايُدْرَى أَعَبْرَتُهُ   من صحبة النار أم من فُرْقة العسَلِ

فخطو به كثيرة بحيث لا يستطيع أن يعين منها خطبا دون خطب ولا أن يعلل لخطب دون خطب ، فمثله كالشمع لايُعْرَف هل يبكى من فرقة الرَّحيق أو من صحبة الحريق . ويقول شاكيا ضجرا من الأيام :

حملنا من الأيام مالا نُطيقُهُ   كما حمل العظمُ الكسيرُ العصائبا
وليلٍ رجونا أن يَدِبَّ عِذارُه   فما اختطَّ حتى صار بالفجر شائبا
فلا تحمدِ الأيامَ فيما تُفيدُهُ   فما كان منها كاسيًا كان سالبا

والصور فى الأبيات بديعة ، فقد حمل من الأيام خطوبًا جعلته أشبه مايكون بعظم كسير شُدَّت عليه العصائب وهو يتضوَّر ألما ، ويصور قصر الليل فما اختطَّ عِذاره الأسود حتى أسرع إليه الشيب . ويقول لاتحمد الأيام فيما تحمله إليك من نفع فإنها تنفث فيه سموما ، وكل ماتظنه منها

كاسيا يسلبك الكساء المظنون ، فإذا بك تَعَرّى حرمانا وابتئاسا . ويقول :

الحظُّ من جَوْهَرِ الأشياءِ سَلْهُ ولا ... تسألْ من الله قَدًّا زَانَه الهَيَفُ
فالقَوْسُ فى قَبْضة الرامى لعزّتها ... والسهمُ من هُونه يُرْمَى به الهدفُ
لم يُبْق لى زمنى شيئا أُسَرُّ بهِ ... فالحمدُ لله لافوزٌ ولا أَسَفُ
عَرَّى أكابَره من ثوب مَحْمدةٍ ... فالقومُ فى السابغاتِ اللُّبَّسُ الكُشُفُ
لم يقنعوا بحجاب البُخْل فاحتجبوا ... كما غلا بعد سوء الكيلةِ الحشَفُ
وإن جَرَى غلطٌ منهم بمكرمةٍ ... فَبَيْضَةُ العُقْر لا يُرْجَى لها خَلَفُ
أعجبْ بهم قطُّ فى الآراء ما اتفقوا ... على صوابٍ وفى التقصير ما اختلفوا

فهو يشكو حظَّه التعس وأن الإنسان حرى أن يطلبه من ربه لا أن يسأل حبا وما يشبه الحب ، فالحظ مدار الحياة وقطبها ، يرفع الأدنى ويخفض الأعلى ، وماأشبه الغزِّى بقوس عزيز فى قبضة الرامى تصوَّب منه السهام الهينة فتصيب الهدف ، ألا ما أتعس الحياة ! . ويقول إن الزمن قضى على كل مايدخل على نفسه السرور ، فلم يعد هناك شيء ينتظر أن يظفر به أو يأسف على ضياعه . ويقول إن الزمن عرَّى أكابره من ثياب المحامد ، وهم إن بدوا كاسين فحقيقتهم عارون مجردون من كل محمدة ، وكأنما لم يكفهم حجاب البخل فاحتجبوا عن الناس جامعين بين سوءتين ، كما يجمع بائع التمر بين حَشفه أو أردئه وسوء كيله أو ميزانه . وإن غلط أحدهم وجاء بشيء كان ذلك بيضة العُقْر التى لاتبيض الدجاجة بعدها . ومن عجب أنهم لايتفقون فى الرأى على شيء سوى ما كان من بخلهم وشح نفوسهم . يقول :

وجفَّ الناسُ حتى لو بكينا ... تعذَّر ما تُبَلُّ به الجُفونُ
فما يَنْدَى لممدوحٍ بنانٌ ... ولايَنْدَى لمهجوٍّ جَبِينُ

فالناس قد جفوا بعد خصب وإيناع وورد وريحان حتى لو بكى الباكون ما وجدوا دموعا تبلّ جفونهم ، إذ لم يعد هناك ممدوح يندى بَنانه ، ويغدق على الناس نواله ، وأيضا لم يعد مهجو بخيل يندى جبينه خجلا وكسوفا . ويقول :

حبلُ المنى مثلُ حبلِ الشمس متصلا ... يُرَى وإن كان عند اللَّمْسِ مَبْتوتا

فلا تقُلْ ليت صَرْفَ الدهر ساعدنى   فإنَّ فى ليت أوْمًا يقطع اللِّيتا[١]

والصورة فى البيت الأول بديعة ، فحبل المنى كحبل الشمس مبتوت غير موصول ، فلا تقل أحداث الدهر ساعدتنى فإن فى ليت أوما أو عطشا شديدا دون ريه انبتات الليت أو صفحة العنق . فدع المنى والتمنى فإنهما يتعبان ولا يثمران شيئا . ووراء هذه الشكوى من الزمن والناس فى شعر الغزى مدائح وغزليات – كما قلنا – رائعة ، وهو ديوان كبير جمعه بنفسه فى نحو خمسة آلاف بيت ، ومنه نسخ كثيرة فى مكتبات العالم .

فتيان [٢] الشاغورى

هو فتيان بن على الأسدى الشاغورى وُلد فى أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ببانياس على ساحل حمص ، وانتقل به أبوه صبيا إلى دمشق ، وسكن الشاغور إحدى ضواحيها حينئذ وهى الآن من أحيائها ، وألحقه بكتاب حفظ فيه القرآن ، حتى إذا أتم حفظه أكبَّ – مثل لِداته – على دروس الشيوخ اللغوية والشرعية فى الجامع الأموى ، وحين أتقن العربية وعلومها فكر فى أن يصبح معلما لها ، يعلمها الناشئة ويدربهم عليها . واختار قرية الزَّبدانى بالقرب من دمشق مقاما له لجمال الطبيعة فيها ، فسكنها واتخذ لنفسه كتَّابا يعلم فيه الناشئة ، وله فى هذه القرية أشعار بديعة تصور مفاتن الطبيعة فيها . ومنذ أخذ صلاح الدين فى أواسط العقد الثامن من القرن يواقع الصليبيين ويسحقهم بجيشه المظفر نراه مثل غيره من شعراء الشام يشيد به وبانتصاراته فى مدائح كثيرة . وكان صلاح الدين قد أعطى ابنه الأفضل نور الدين دمشق منذ سنة ٥٨٢ وظل بها بعد وفاة أبيه حتى سنة ٥٩٢ عَلى نحو مامر بنا فى قسم مصر، واتخذ الأفضلُ مودودَ بن المبارك – وهو أخو عز الدين فرُّخشاه ابن عم الأفضل لأمه – شحنة دمشق أو بعبارة أخرى ضابطا لشئونها ومصرفًا لها . ويلتحق فتيان بخدمة مودود . ويقول مترجموه إنه اتخذ له حلقة لتعليم العربية بالجامع الأموى ، ونظن ظنا أنه ابتدأها فى أثناء تلك الخدمة أى منذ العقد التاسع من القرن السادس ، إن لم يكن بعد هذا التاريخ .

---

(١) أوما : عطشا شديدا . اللِّيت : صفحة العنق .

(٢) انظر فى فتيان الشاغورى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٢٤٧/١ وابن خلكان ٢٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٦ ومطالع البدور للغزولى ٢٨/١ والشذرات ٦٣/٣ . وديوانه طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق أحمد الجندى وتقديمه .

وكان فتيان يمدح بجانب صلاح الدين بعض قواده وكاتبه عماد الدين الأصبهانى والأفضل نور الدين وأخاه غازى صاحب حلب منذ أعطاها له أبوه سنة ٥٨٢ حتى وفاته سنة ٦١٣ . أما مودود بن المبارك فله فيه أكثر من عشرين قصيدة ، ويقول مترجموه إنه عهد إليه – فيما عهد – بتعليم أولاده الخط والعربية . ونراه حين أصبح العادل مالك زمام الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين يخصه ببعض مدائحه ويكثر من مديح وزيره المصرى صفى الدين بن شكر ، ويبدو أنه كان يرسل إليه بمدائحه ، لأنه لم يغادر الشام طوال حياته . وكان العادل قد جعل دمشق لابنه المعظم عيسى ، وله فيه عشر مدائح ، كما أعطى العادل ابنه الأشرف موسى الرها والجزيرة وله فيه نحو خمس عشرة مدحة . ومدح كثيرين من البيت الأيوبى فى مقدمتهم صاحب حَماة تقى الدين عمر (٥٧٤ – ٥٨٧هـ) أعطاها له عمه صلاح الدين ، ومدح صاحب بعلبك فَرُّوخشاه (٥٧٥ – ٥٧٨ هـ) وابنه بهرام شاه (٥٧٨ – ٦٢٧ هـ) . وعلى هذا النحو ظل يقدم مدائحه للأيوبيين حتى وفاته بدمشق سنة ٦١٥ . وقد أنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع أشعارا تدل بوضوح على تشيعه . وطبيعى – وهو شاعر مدح كبير – أن تكون له مراثٍ لمن لبى نداء ربه من ممدوحيه ، وخاصة من كان وثيق الصلة بهم ، وكذلك لكبار رجال زمنه وشيوخه وعلمائه الأعلام . ومن أروع مراثيه مرثيته لشيخه الحافظ المؤرخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ ، ويقول العماد الأصبهانى إنها مشتملة على حقيقة الشيخ وطريقته ووفاته ، وفيها يقول :

أيُّ ركنٍ وَهَى من العلماءِ أيُّ نجمٍ هَوَى من العلياءِ
إنَّ رُزْءَ الإسلامِ بالحافظ العَا لمِ أَمْسَى من أعظم الأرزاءِ
أقفرتْ بعده ربوعُ الأحاديـ ـثِ وأقوتْ معالمُ الأنباءِ
كان من أعلم الأنام بأسما ءِ رجال الحديثِ والعلماءِ
كـان علاَّمـةً ونسَّابـةً لم يَخْفَ عنه شىءٌ من الأشياءِ
أنت أعلى من أن تُحَدَّ بوصفٍ بـلـغـتـهْ بلاغةُ الـبـلـغــاءِ

وفتيان فى المرثية محزون الفؤاد مكبر لفجيعة دمشق فى محدِّثها الذى لايبارَى ومؤرخها الذى لايجارَى . وهو فى البيت الثانى يصور فى ألم إقفار المدرسة النورية من محدثها الأكبر وإقواء أو إقفار دمشق من مؤرخها العظيم صاحب تاريخها الذى يقال إنه كان يقع فى ثمانين مجلدا . وحقا كان من أعلم علماء عصره – إن لم يكن أعلمهم – بالحديث النبوى ورجاله وبتاريخ دمشق وأعلامها من

مختلف الأجيال ، مع الحلم ومع التقوى والورع ، ومع ما ألقى عليه من محبة أهل زمنه وإجلالهم .

ويتوفى بعده فى السنة التالية القاضى ابوالفضل كمال الدين محمد بن الشَّهْرزورى وكان قد ولى القضاء لعماد الدين زنكى فى الموصل ، وتوفِّى فالتحق بابنه نور الدين فولاَّه القضاء فى دمشق وارتقى عنده إلى درجة الوزارة ، وأقرَّه صلاح الدين بعد وفاة نور الدين على عمله ومنصبه ، ولم يلبث أن توفى . وفيه يقول فتيان من مرثية طويلة :

عدمَ الإسلامُ معدومَ المثالِ   وهوتْ من أوْجِها شمسُ المعالى
ولسانُ الشَّرْع قد أُلبسَ عِيًّا   بعد أن كان جريئًا فى المقال
وسماءُ الدين قد ران على   بدرها النُّقْصانُ من بعد الكمال
والقضايا قاضياتٌ نَحْبَها   إثْرَهُ حُزْنًا على تلك الخلالِ
ماتَ من كان لأهل العلم كَهْفًا   وثِمالاً مُحْسِنًا أىَّ ثمالِ(١)

وهو يبكى الإسلام والقضاء وعلوم الشريعة فيه ، إذ كان له القضاء والفتوى كما كان له الفقه والشريعة . وكانت له فضائل كثيرة بجانب علمه وفقهه ، إذ كان جوادا وغيثا مدرارا ، كما كان مرجعا للعلماء — كما يقول فتيان — وثمالا وسندا لهم وموئلا . وَيتوفَّى تقى الدين عمر صاحب حَماة فيؤبنه بمرثية يقول فيها :

أباحَ ثغورَ الكفرِ بالسيف عَنْوَةً   وسدَّ ثغور السِّلم بالطَّعْن فى الثُّغَرْ
وكيف يُلام المسلمون على الأسى   وقد عدم الإسلامُ ناصرَه عُمَرْ
لقد كانَ يلقَى المُرْهفاتِ بوجههِ   وسُمْرَ القنا بالصَّدْر فى الوِرْد والصَّدَرْ(٢)
وكان يردُّ الجَحْفَل المَجْرَ وحده   يَمسُّون بالأيدى الظهورَ من الخَوَرْ(٣)

وهو يشيد ببسالته فى حرب حَملة الصليب ويصور حزن المسلمين عليه ، إذ خسروا فيه بطلا من أبطالهم طالما دوَّخ الصليبيين ، وطالما نازلهم راميا بنفسه فى أتون الحرب مقبلا دائما معرِّضا وجهه للسيوف وصدره للرماح ، وكم ردّ من جحافلهم الكثيرة وولوا أدبارهم فزعين مروَّعين . ويتوفَّى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب ، فيؤبنه بمثل قوله :

لئن كان خَلْقُ الخلقِ من طينِ آدمٍ   فمن نورِ خَلْقِ الله خَلْقُك ياغازى

(١) الثمال : الملجأ والغياث

(٢) المرهفات : السيوف . القنا : الرماح

(٣) المجر : الكثيف

فمنْ لليتامى والأراملِ بعده يقومُ بإكرامٍ عليهم وإعزازِ
مَضَى مُلْكُهُ المحروسُ من عيب عائبٍ ومن عَبَثِ الزَّارى ومن عنَت الرَّازى

وكان الغازى مهيبا حازما راعيا لشعبه يكسو العارى ويطعم الجائع عالى الهمة حسن التدبير والسياسة ، محبا للعلماء ، مجزلا العطاء للشعراء ، فحمى ملكه - كما يقول فتيان - من عيب العائب وزراية المزرى وعنت الرازى أو الممتحن المختبر .

ولفتيان بجانب مراثيه شكوى مريرة من الدهر والناس والحظ المقسوم كقوله :

علام تحرُّكى والحظُّ ساكنْ ومانهنهتُ فى طلبٍ ولكنْ
أرى نَذْلاً تقدِّمُه المساوى على حُرٍّ تؤخِّرهُ المحاسِنْ

وهى شكوى قديمة عند الشعراء حين يقعد بهم الحظ ولا ينالون مايتمنون أو مايرون أنهم جديرون به . ويبلغ بهم ذلك أن يقولوا مايقوله فتيان من أن لافائدة فى الحركة وأن المساوى تقدم أصحابها بينما تتأخر المحاسن بأهلها وهو بعدٌ فى الشكوى وإغراق فى التشاؤم .

مصطفى [١] البابىّ

هو مصطفى بن عبدالملك -وقيل عثمان- البابى ، ولد بالباب إحدى قرى حلب فى القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ونشأ بحلب وتتلمذ على شيوخها وأدبائها ، وتركها إلى دمشق سنة ١٠٥١ للهجرة وأقام بها مدة يأخذ عن أدبائها وشيوخها ، ورحل إلى إستانبول وأفاد من علمائها وعيِّن قاضيا لطرابلس وتنقل قاضيا فى بلدان الدولة العثمانية بالعراق والحجاز فى المدينة المنورة ، وتوفى بمكة فى أثناء حجه سنة ١٠٩١ .

وكان البابى شاعرا مجيدا ، ويشغل المديح أكثر ديوانه على عادة الشعراء فى تلك الحقب ، ويتخلل المديحَ أسراب من الشكوى . وقد يفرد للشكوى بعض القصائد ، من ذلك قوله من قصيدة استهلها محزونا لتحول عهد مية ، ويقول إنه مازال يبكى الأطلال حتى بكته بدمعها إشفاقا عليه ، ويلتفت إلى الدهر شاكيا .

---

(١) انظر فى مصطفى البابى وشعره نفحة الريحانة ٤٣٣/٢ وخلاصة الأثر ٣٧٧/٤ . طبع ديوانه فى بيروت سنة ١٨٧٢ وطبع مع ديوان ابن الجزرى وفتح الله بن النحاس باسم العقود الدرية بتحقيق الطباخ .

أيُّ ذنبٍ نعاتب الدهرَ فيهِ وعتابُ الأيام داءٌ عُضالُ
أنا مابين فرقةٍ تجمع السُّقْـ ـمَ وبُعْدٍ تدنو به الآجالُ
وخطوبٍ ألِفتُها يستعيذُ الـ ـخوفُ منها وتُذْعَر الأهوال
وأمانٍ تجاذب الدهرَ ذَيْلَ الـ ـحظِّ والدهرُ جاذبٌ جدَّالُ
هِمَّةٌ أرَّقَتْ جفونَ الأماني بوعودٍ للدهر فيها مِطالُ
أتمنَّى من الزمان وفاءً ووفاءُ الزمان أمرٌ محالُ

يقول إن ذنوب الدهر عنده كثيرة فلا يدرى لكثرتها ، أى ذنب يعاتبها فيه هل يعاتبها فى فرقة الأحباب أو فيما ينزله به من خطوب يستعيذ الخوف من شرها وتفزع الأهوال . وتلك أمانيه ماتزال تجاذب الدهر ذيل الحظ تريد أن تجذبه إليها والدهر أشد جذبا ، بل إنه جدال يصرع من ينازعه ، وفى صدره همة تؤرق جفون الأمانى بما تعرضه عليها من وعود مايزال الدهر لايفى بها ، وكأن وفاءه أمر محال . ويقول من قصيدة يشكو فيها من الزمان :

صاحبىَّ ابْغِيا لنا خارجَ العا لَمِ دارًا فبئسَ دارُ الزِّحامِ
واصْدُقانى ألستما بين ليلٍ ونهارٍ مالى حليفُ ظلام
واستعيرا لمقلتى هجعةً عـ ـلَّ منامى يعود لو فى منام
من أمورٍ تَقْذِى العيونَ وأخرى تَصْدع السمعَ مثل وَخْز السِّهام
مشربٌ كلُّه قَذًى سَوَّغَتْه إلفُ هذى النفوس للأجسامِ
من أراد العيشَ الهنىَّ فلا يُعْـ ـمِلُ فكرا فالعَيْشُ عَيْشُ السَّوامِ

وقد بلغ به ذم العالم وكل ما فيه من أناسى وغير أناسى أنه يود لو خرج من هذا العالم جميعه ، ويتساءل أليس يوجد مع الليل نهار بل إنهما يتعاقبان فلماذا هو يعيش فى ليل مسهدا لا ينام ولا تغفل عينه ، فهل يجد هجعة أو لحظة من نوم حتى ولو فى الخيال والمنام ، وهيهات فإن الدنيا مليئة بما يقذى العيون ويصك الأسماع من آلام ، حتى لكأنها مورد من غسلين أو زقوم ، وكل ذلك بسبب الأجسام وما تطلب من متاع مادى . ويقول من أراد أن يعيش هنيئا فلا يفكر ، فالعيش عيش الجهال ومن يشبهون السوام الراعية من الإبل . وكل ذلك تشاؤم شديد ، والغريب أنه كانت فيه مع ذلك كله نزعة صوفية جعلته يمدح القطب الربانى عبد القادر الجيلانى صاحب الطريقة الجيلانيَّة فضلا عما فى ديوانه من مدائح نبوية وتوسلات ربَّانية .

٤

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

لشعراء الشام من قديم عناية بوصف طبيعة بيئتهم ومشاهدها الخلابة ، ومرت فى كتاب العصر العباسى الأول عناية أبى تمام بوصف الطبيعة فى مقدمات مديحه أو مستقلةً فى بعض أشعاره ، من ذلك وصفه للربيع ، وكذلك وصفة للطير وأحاسيسه ، على نحو ماعرضنا هناك من تصويره لُقْمرىٍّ وقمريَّةٍ يتساقيان رحيق الهوى ، بينما هو محزون شديد الحزن . ووقفنا فى كتابنا العصر العباسى الثانى عند براعة البحترى فى وصفه للطبيعة وكان يحسن تصوير مناظرها الساحرة . ونلتقى فى أوائل عصر الدول والإمارات بكشاجم وله كتاب فى الصيد سماه المصايد والمطارد وهو منشور ، وله قصائد مختلفة فى وصف كلاب الصيد وجوارح الطير وقصائد كثيرة فى وصف الرياض والسحب والأمطار من مثل قوله :

غيثٌ أتانا مؤذنٌ بِخَفْضِ ... متصلُ الوَبْلِ حَثيثُ الرَّكْضِ
يضحك فى بَرْقٍ خفىِّ الوَمْضِ ... كالكفِّ فى انبساطها والقَبْضِ
والأرضُ تُجْلَى بالنبات الغَضِّ ... فى حَلْيِها المحمرِّ والمبيضِّ
وأُقْحُوانٍ كاللُّجَيْن مَحْــضِ ... ونرجسٍ ذاكى النسيم بَضِّ
مثل العيون رَنَّقتْ للغُمْضِ ... ترنو ويغشاها الكرَى فتُغْضِى

وهو مطر متصل الوبل يؤذن - كما يقول - بخفض العيش واتساعه ويسره والبرق يلمع بين السحب ويتوارى كالكف تنبسط وسرعان ماتنقبض ، والأرض كأنها فى حفل عرس تجلى بأزهارها وورودها والأقحوان يتلألأ كالفضة الخالصة والنرجس العطر النضر مثل العيون تتكسر جفونها للنوم ، وهى تارة ترنو وتارة تستسلم للنوم فتغفى أو بعبارة أخرى تطبق جفونها الناعسة ، وتنسب إلى سيف الدولة الحمدانى الأبيات التالية فى قوس قزح[١] :

لقد نشرتْ أيدى الجَنوبِ مطارفًا ... على الجوِّ دُكْنًا والحواشى على الأرضِ
يطرِّزها قوسُ الغمام بأصفرٍ ... على أحمرٍ فى أخضرٍ تحت مُبْيَضِّ

---

(١) اليتيمة ٣١/١

كأذيال خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فى غلائلٍ مصبَّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بَعْضِ

يقول : رياح الجنوب نشرت على الجو ثيابا دكناء مغبرَّة ملأت الآفاق بالطول والعرض وحواشيها على الأرض ، وقوس قزح يطرِّزها بألوانه البهيجة الكهرمانية والياوتية والزمردية ، وكأنما شابة جميلة أقبلت فى غِلالات أو ثياب رقيقة صُبِغَتْ بألوان مختلفة بالطول والعرض وبعضها أقصر من بعض . وهى صورة بديعة . ويقول العرقلة من شعراء الخريدة[1] :

الشام شامةُ وَجْنةِ الدنيا كما إنسانُ مقلتها الغَضيضةِ جِلَّقُ
من آسِها لك جَنَّةٌ لاتنقضى ومن الشقيق جهنَّمٌ لا تَحْرِق
فعلام تصحو والحمامُ كأنها سَكْرَى تغنِّى تارة وتصفِّق
وتلوم فى حب الديار جهالةً هيهات يسلوها فؤادٌ شيِّقُ

وهو يجعل الشام خالا فى وجنة الدنيا ويجعل «جِلَّقَ» اسم دمشق القديم إنسان مقلتها الغضيضة التى ترمقها باستحياء ، لجمال أزهارها من آس وغير آس ، وكأنما تخدِّر بجمالها أحاسيس مُشاهدها ، فلا يصحو ، والحمام من حوله فرح بهيج يغنى ويصفق طربا . وإن الشام لخليقة بحب أهلها وفتنتهم بها لجمال مناظرها الطبيعية .

ويقول فتيان الشاغورى فى وصف قرية الزبدانى بشهر كانون شتاءً والثلوج تتراكم على أشجارها ونباتاتها فى شهر كانون زمن الشتاء مهيئة لازدهار أزهارها فى زمن الربيع [2] :

قد أجمدَ الخمرَ كانونٌ بكل قَدحْ وأخمد الجمرَ فى الكانون حين قَدحْ
ياجَنَّةَ الزَّبَدانى أنت مسفــرةٌ عن وَجْه حُسنٍ إذا وَجْهُ الزمان كَلَحْ
فالثلج قُطْنٌ عليكِ السُّحْبُ تَنْدِفُه والجو يَحْلجه والقَوْسُ قوسُ قُزَحْ

وقد صور فتيان كل ما يحمل ماء فى الزبدانى بأقداح تحمل خمرا ، وقد جمَّدها القرّ الشديد وأخمد الجمر فى الكانون أو الموقد حين اتَّقد . ويتصور قرية الزبدانى جنة من جنان الدنيا ، ومايلبث أن يصوِّر الثلج وهو يتساقط كالريش من السحب مثل قطن ، والسحب تندفه بقوس قزح . والجو يحلجه . صورة بديعة .

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢١٧/١

(٢) الديوان ص ٩٤ وابن خلكان ٢٥/٤

ويقول الوداعى على بن المظفر فى مناظر رأس العين ببعلبك[١] :

ياحادىَ الأظعان إن شارفتْ مِنْ بَعْلَبكٌّ سَفْحَ لُبْنانِهِ
فـاقْرَأْ تحياتى على نازلٍ فى مَحْجِرِ العين كإنسانه
والروضُ يُهْدى مَعْ نسيمِ الصَّبا نَشْر خُـزَامـاهُ وريـحْـانـهِ
وراسَـلَ الـقُـمْـرِىُّ ورقـاءَهُ شَدْوًا على أوتار عيدانهِ

وقد أشار الوداعى إشارة واضحة بمحجر العين إلى رأس العين منزل صاحبته ، وأبدع فى البيت الأخير إذ جعل القمرى المترنم على عيدان الأشجار يراسل صاحبته شدوا وغناء على أوتار تلك العيدان . وتكثر مثل هذه الطرائف التصويرية عند معاصريه فى زمن المماليك ، وبعدهم فى زمن العثمانيين كقول فتح الله بن النحاس فى وصف الربيع[٢] :

نثر الربيعُ ذخائرَ النُّـ ـوَّار من جَيْبِ الغَوادى
والـوَرْدُ مـخْضُوبُ البنا نِ مضرَّجُ الوَجَنات نادى
حَـرَسَتْهُ شوكةُ حُسْنهِ من أن تُمَدَّ له الأيـادى
والـعـنـدليبُ أمـامـه بفصيح نَغْمتهِ ينـادى
من رام يَعْبَثُ بالخـدو د فدونها خَرْطُ القَتادِ[٣]

والصور فى الأبيات جيدة فالربيع ينثر الأزهار من حبيب السحب الغوادى والورد أحمر البنان والوجنات تلمع عليه لألئ الندى ، والشوك يحرسه من قطف الأيادى والعندليب ينادى : دون هذه الوجنات خرط القتاد ، وهو مثل يضرب للشىء لاينال إلا بمشقة شديدة ، والقتاد : نبات صلب له شوك الإبر وخرطه : انتزاع إبره .

وبجانب وصف الطبيعة كان للهو مجالسه فى متنزهات الغوطة بدمشق وغير الغوطة بالشام ، إذ تمتلئ بالبساتين ، وكان له مجالس أخرى فى الأديرة ، مما أتاح لنظم خمريات كثيرة تارة تكون مستقلة وتارة تمتزج بوصف الطبيعة أو بالغزل ، وتمادى بعض الشعراء فى مجونه وأسرف فى هزله على نحو ما نقرأ من أشعار لأبى الرقعمق[٤] الأنطاكى شاعر المعز الفاطمى وأبنائه ووزرائهم ، وكان

(١) خزانه الأدب للحموى ص ٣٤٢
(٢) الديوان ص ٢٣ ونفحة الريحانه ٥١٢/٢
(٣) دونه خرط القتاد : مثل يضرب للشىء لاينال إلا بمشقة شديدة .
(٤) انظر مصادر ترجمته فى قسم مصر ص ١٨٧

لايستحى من التصريح بالفحش والمآثم على شاكلة أبى الحجاج ماجن العراق الذى تحدثنا عن مجونه وهزله فى الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ومن نظيف مجونه قوله[١] :

توهَّمتُ أُمرا فلم أنْبسِ بحرفٍ ونـاديتُ بـالأكؤس
حُمَيَّا كأن سَنَا نورها سنا بارقٍ لاح فى الحِنْدس[٢]
يُعاطيكها رَشأ طرْفُهُ سريعُ إلى تلفِ الأنْفُسِ
بخَدٍّ يروقك توريدُه وعينٍ تنوبُ عن النَّرجسِ

وهو يقول إن بعض الأوهام ساورته فلم ينبس ببنتِ شفة أو كلمة وانصرف إلى الخمر معشوقته التى تلعب حُمَيَّاها بخياله ، فيظن كأن ضوءها ضوء برق لمع فى دجى الليل ، وإن ساقية ساحرة الطَّرف لتقدمها إليك فتصيبك فى الصميم بخد مورَّدٍ وعين فاتنة .

ويقول الغزى الذى مرت ترجمته[٣] :

قُمْ نَفْتَرِعْها كأنها الذهبُ بِكرًا ، أبوها وأمُّها العِنَبُ
أرقّ مِنْ عَبْرة اليتيم ومن عبارةِ الصَّبِّ قلبه وَصِبُ
مدامةٌ تصقلُ القلوبَ إذا رانتْ عليها الهمومُ والرِّيَبُ
كئوسُها أنجمٌ نَضِلٌّ بها لايهتدى من تُضِلُّه الشُّهُبُ
لافَدْمَ فينا ولا فِدامَ لها عروسُ دَنٍّ عقودُها الحَبَبُ

وهو يقول لصاحبه قم نفترعها أو نفتضها ونشربها ، إنها فى رأيه -كعروس بكر- أبوها وأمها العنب ، رقيقة رقة عبرة اليتيم وعبارة الصب أو المحب الوصب الموجع قلبه . ويقول إنها تجلو القلوب وتكشف عنها الهموم والريب أو الشكوك ، ويعجب من كئوسها أن تكون أنجما ولاتهدى ، بل تضل صاحبها وأى ضلال بينما عادة النجوم أن تهدى ، ومن تضله لا يهتدى أبدا ، لأنه فقد هداه . ويذكر أن ليس فى رفاقه فدم أو أحمق وأنه لافدام لها أو مصفاة إذْهى شديدة الصفاء ، ويقول إنها عروس دَنٍّ عقود جيدها لآلئ الحَبَبِ التى تعلو كئوسها حين يمتزج بها الماء . ويدعو فتيان الشاغورى صديقا إلى نزهة قائلا[٤] :

---

(١) اليتيمة ٣١٢/١

(٢) حميا الخمر : سورتها وشدتها . سنا : ضوء . الحندس : دجى الليل الشديد السواد .

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨/١

(٤) الديوان ص ٢٦٨

بادرْ إلينا فإن الراحَ ممكنةٌ والكأسُ دائرةٌ والشَّمْلُ مجتمعُ
ويومُنا طيِّبٌ صافى الأديم وما فيه هواءٌ ولا فى رأسه قَزَعُ
والطيرُ ترقصُ فى الأغصان من طربٍ تكاد منه على هاماتِنا تقَعُ

وفتيان يصور لصاحبه مافيه من أنس مع رفاقه ، فالكأس دائرة بينهم واليوم من أيام الربيع لا فيه عواصف ولا فى سمائه قزع أو قطع من السحاب المنتشر المنذر بالمطر ، والطير ترقص على الأغصان طربا وفرحا بالربيع حتى تكاد لشدة فرحها وطربها تقع على هاماتهم أو رءوسهم .

وتكثر مقطعات الشعر فى مجالس اللهو سواء فى الخمر أو فى الطبيعة ويشتهر بنظمها أربعة يفرد لهم الحموى فى خزانته فصولا طويلة هم مجير الدين بن تميم ، وسنخصه بترجمة ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ والقاضى محيى الدين بن قرناص الحموى معاصره وعلى بن المظفر الوداعى المتوفى سنة ٧١٦ ، ومن طريف ما أنشده الحموى لابن لؤلؤ الذهبى قوله [١] :

باكِرْ إلى الروضة نَسْتجلها فثغرُها فى الصبح بَسَّامُ
والنرجسُ الغَضُّ اعتراه الحَيَا فغضَّ طرفا فيه أسقام
وبلبلُ الدَّوْحِ فصيحٌ على الأ يْكة والشَّحْرورُ تمتام
فعاطنى الصَّهباء مشمولةً عذراء فالواشون نُوَّام
واكْتمْ أحاديث الهوى بيننا ففى خلال الروض نَمَّام

وهو خفيف الروح مثل زملائه المذكورين وكانوا جميعا يعنون بالتورية التى أشاعتها مصر منذ العصر الفاطمى عناية واسعة ، وقد ورَّى فى البيت الثانى بكلمة الحيا وهو الخجل عن الحيا بمعنى المطر . وجعل للبلبل لجمال غنائه وشدوه الفصاحة وللشحرور وهو نوع من العصافير التمتمة . ضرب من المقابلة . وجعل الصهباء مشمولة أو باردة طيبة واستتم الصورة بأنها بكر أو عذراء والواشون نوام . وعاد إلى التورية فى البيت الأخير بكلمة نمَّام – وهو ضرب من السَّعتر مزهر – عن النَّمام الحقيقى من الأشخاص . ويقول محيى الدين بن قرناص [٢] :

روضةٌ من قَرْقَفٍ أنهارُها وغناءُ الوُرْق فيها بارتفاعْ
لا تَلُمْ أغصانها إن رقصتْ فَهْيَ ما بين شرابٍ وسماع

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٦

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٠

وقد ورَّى محيي الدين بكلمة قرقف وهو الماء البارد الصافى عن الخمر وهو اسم من أسمائها ، واستتم الصورة إذ جعل أنهار الروضة خمرا مسكرة بأن الحمام فيها أخذه السكر ، بل إن الأغصان نفسها التى رويت من تلك الأنهار سكرت فرقصت ، فلاعجب أن يشدو الحمام شدوا عاليا . وأنشد الحموى فى خزانته لابن قرناص مقطعات بديعة كثيرة فى الرياض ومثله الوداعى ، وهو يكثر من التورية كثرة مفرطة .

ويظل الغرضان : وصف الخمر ووصف الطبيعة حَيَّين طوال أيام المماليك وبالمثل أيام العثمانيين من مثل قول على بن محمد الحشرى الشامى المتوفى سنة ١٠٩٠ للهجرة (١) :

قُمْ هاتِها وضميرُ الليلِ منشرحُ   والبدرُ فى لُجَّة الظلماء مُسْتَبحُ
عجِّلْ بها وحجابُ الليل منسدلٌ   من قبل يبدو لنا فى وَكْره الصُّبُحُ
واستضحكِ الدهرَ قد طال العُبوس به   لايضحك الدهرُ حتى يضحك القدَحُ
ولا يطيب الهوى يوما لمغتبقٍ   حتّى يكون له فى اليوم مُصْطَبَحُ

وهو يخاطب ساقيا أن يناوله كأس الخمر والليلُ من حوله ، مبتهج وأضواء البدر تلمع فى جوانبه ويطلب إليه أن يسرع بها وحجاب الليل منسدل عليه قبل أن يرفرف الصبح بجناحيه فيملأ الدنيا أنوارا . ويقول إن الدهر لايقبل عليه ويضحك إلا إذا ضحك الكأس فى يده ، ويزعم أن الهوى لايطيب لمن يشرب الخمر غَبوقًا وهو شربها بالعشى حتى يكون له منها صَبوح وهو شربها فى الصباح . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة واللهو .

الوأواء (٢) الدمشقى

هو محمد بن أحمد الغسانى المشهور بالوأواء الدمشقى ، من أهل دمشق ، وُلد بها ونشأ ، وكان ابنا لشخص من عامة الشعب . يدل على ذلك مارواه الثعالبى فى اليتيمة من أنه لُقّبَ بالوأواء لأنه كان مناديا بسوق الفاكهة ، أو كما كانوا يسمونها دار البطيخ ، ينادى على الفواكه جلبا للمشترين . وقد ذكرنا مرارا فى حديثنا عن الشعراء أنهم – فى أغلب الأمر – كانوا من عامة الشعب وكانت لهم ملكات هيأتهم لنظمه بل للتفوق فيه . يلقانا ذلك فى بغداد وفى القاهرة وفى

---

(١) نفحة الريحانة ٣٥١/٢

(٢) انظر فى الوأواء وشعره اليتيمة ٢٧٢/١ والمحمدون من الشعراء للقفطى وفوات الوفيات ٣٠١/٢ وديوانه طبعه المجمع العلمى العربى بدمشق بتحقيق د. سامى الدهان وراجع مقدمته له .

جميع بلدان العالم العربى . ومكَّن لهم ذلك أن التعليم كان يعقد بالمساجد ، وكانت دائما هى وحلقات الشيوخ مفتوحة للناشئة ينهلون منها كما يريدون ، فكان من له استعداد حسن للتعلم من أبناء العامة مايزال يتردد عليها حتى يحسن مايريد من الفقه مثلا أو من رواية الشعر . ودائما كان يتخرج فى هذه الحلقات كثيرون شعراء وغير شعراء على نحوما تخرج الوأواء المنادى على الفاكهة فى حلقات الشيوخ بمساجد دمشق .

وليس بين أيدينا ولا فى ديوان الوأواء مايوضح متى وُلد . وأيضا ليس فى الديوان أخبار وأحداث تاريخية تصور حياته ، وكل مافيه أنه لزم شريفا من سادة دمشق ووجهائها يمدحه ، وأنه أعطاه فى أول مدحة له عشرين دينارا ، فأخذ يشتهر اسمه بين الشعراء . ومدحه بثلاث قصائد أخرى ، دل فيها على شاعرية جيدة ، ويذكرون أن اسم هذا الشريف العقيقى أحمد بن الحسين العلوى ، فهو من أشراف العلويين وربما كان نقيبهم بدمشق . ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان جوادا ممدَّحا ، وكان على صلة بسيف الدولة فى أول إمارته لحلب فى العقد الرابع من القرن الرابع الهجرى . وربما كان هو الذى قدَّم الوأواء إليه حين زار دمشق بين سنتى ٣٣٣ و٣٣٤ . وفى ديوانه ثلاث قصائد فى مديحه ، ولذلك عدَّ من شعرائه . ومن عطايا سيف الدولة والعقيقى أخذ الوأواء يعيش للشعر متكسبا به ، وكانت فيه نزعة قوية للمتاع بالحياة ، مما جعل أكثر شعره يدور حول محاور ثلاثة : الغزل والخمر ووصف الطبيعة ، وكثيرا مايمزج بينها جميعا مثل قوله فى القصيدة الأولى من ديوانه :

حاز الجمالَ بأسْرِهِ فكأنما ... قُسِمتْ عليه محاسنُ الأشياءِ
متبسِّمٌ عن لؤلؤٍ رَطْبٍ حكى ... بَرَدًا تساقطَ من عقودِ سماءِ
تُغْنى عن التفاح حمرةُ خَدِّه ... وتنوب رِيقتُهُ عن الصَّهْباءِ
فامزُجْ بمائك نارَ كأسِك واسقنى ... فلقد مزَجتُ مدامعى بدمائى
واشربْ على زَهر الرياض مُدامةً ... تنفى الهموم بعاجل السَّراءِ
لطفتْ فصارتْ من لطيف محلِّها ... تجرى مجارى الروح فى الأعضاءِ

والوأواء معروف بكثرة تصاويره فى أشعاره ، فساقيته الخمر تبتسم عن أسنان لؤلؤية كأنها حبات برد تساقطت من عقود فى السماء ، وحمرة خدها نضرة كحمرة التفاح ، وريقها كأنه الصهباء أو الخمر . ويطلب إليها أن تمزج الخمر الحمراء بالماء كما امتزجت مدامعه بالدماء . ويقول لصاحبه اشربْ على زهر الرياض الذكى الرائحة تلك الخمر التى تجلب السرور كما يقول ، ويزعم

أنها تجرى فى جسمه مجرى الروح فى الأعضاء . ومن قوله فى وصف الراح :

وبنتِ كَرْمٍ كأنها لَهَبُ تكاد منها الأكفُّ تَلْتهبُ
تلعب فى كأسها إذا مُزِجَتْ كأنما يستفزُّها طربُ
فى عَرْصَة الكأسِ حين تمزجها سماءُ تِبْرٍ نجومُها ذهبُ

وهو يتحدث عن الخمر باسم بنت الكَرْم ، ويقول إنها حارَّة كأنها لسان لهب ، وإن الأكف فى زعمه تكاد تلتهب لشدة حرارتها . ويزعم أنها تلعب فى كأسها حين يمازجها الماء فيطفو حَبابها وتضطرب بعض الاضطراب ويجعل للكأس عَرْصة أو ساحة ويقول إنها تشبه فيه — بزعمه سماء فضية من فتات التبر ، نجومها — أى حبابها — ذهب . ويقول من قصيدة :

اسقيانى ذبيحةَ الماء فى الكأ س وكُفًّا عن شُرْب ماتسقيانى
إننى قد أمنتُ بالأمس إذ مـ ـتُّ بها أن أموت موتا ثانى
اسْقِنى القهوةَ التى تنبتُ الوَرْ دَ — إذا شئتَ — فى خدود الغوانى
فى رياضٍ تريك فى الليل منها سُرُجًا من شقائق النُّعمانِ
كتبتْها أيدى السحاب بأقلا مٍ دموعٍ على طُروسِ المغَانى

وهو يتصور مزج الماء بالخمر إعدادًا لشربها ذبحا ، ويطلب إلى صاحبيه أن لايسقياه الماء وإنما يسقيانه دم الخمر المسفوح . ويزعم أنه لاخوف عليه فقد أماته بالأمس ولن يموت ثانيا ، ومثله من ملمنى الخمر يموتون مرارا . ويقول إن القهوة أى الخمر تضرِّج خدود الغوانى بالحمرة فتصبح كالورد ، ويقول إنه يحتسيها فى رياض تنير بها ليلا الورود المعروفة باسم شقائق النعمان . ويزعم أن أيدى السحاب كتبت تلك الشقائق بأقلام تستمد من محابر غريبة هى دموع العشاق التى استحالت دما قانيا وقد دُوِّنت على طروس ، هى صحف المغانى أو الرياض . ودائما يعنى الوأواء فى شعره بالتصاوير والأخيلة ، ومن أكبر الأدلة على ذلك بيته المشهور :

فأمطرتْ لؤلؤًا من نَرْجِسٍ وسَقَتْ وَرْدًا وعَضَّتْ على العُنَّابِ بالبَرَدِ

فقد استعار اللؤلؤ للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعُنَّاب للأصابع والبَرَد للإنسان ، وهى صور لا تحمل شعورًا ، فضلا عن وجد ، غير أن معاصريه كانوا يعجبون بها عنده ، وقد بنى الحريرى على هذا البيت نفسه مقامته الثانية . وذكر صاحب فوات الوفيات أنه بارح الدنيا فى عشر التسعين وثلاثمائة ، وأكد أن كلمة التسعين مصحفة عن كلمة السبعين .

ابن [(١)] قُسَيْم الحَمَوِىّ

هو مسلم بن الخَضِر بن قُسَيْم التَّنوخي الحموى ، ولد ونشأ بحماة ، ويقول العماد : «كان ثالث القيسرانى وابن منير بلغ إلى درجتهما .. وفاق شعرَهما شعرُه ، لكنه خانه عمره ، وفلَّ شَبا (حدَّ) شبابه ، وحل شَعوب (الموت) بشِعابه ، وذلك فى سنة نيف وأربعين وخمسمائة» . والعماد يقول إنه توفى شابا ويبدو أن ميلاده لايعدو العقد الأول من القرن السادس الهجرى كما يبدو أن موهبته الشعرية نضجت مبكرة ، وسرعان ماعمد إلى التكسب بشعره فمدح صاحب حماة ، وتطلع إلى الشهرة بين الشعراء وأحس من واجبه أن يسهم بشعره ضد حملة الصليب ، وكان عماد الدين زنكى قد أخذ فى منازلتهم . وحدث أن خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه جيش كثيف سنة ٥٣٢ لغزو الشام واستولى على بُزاعة وحاصر حصن شَيْزر بالقرب من حماة فاستغاث صاحبه سلطان ابن منقذ بزنكى فأسرع إليه فى عساكره ، واضطر ملك الروم إلى الانسحاب ، فغنم زنكى وعساكره من جيشه غنائم كثيرة سوى مجانيقه وآلات حصاره للحصن ، ومدحه الشعراء وفى مقدمتهم ابن قسيم بقصيدة رائعة استهلها بقوله :

بعزمك أيها الملكُ العظيمُ تذلُّ لك الصعابُ وتستقيمُ

وكان ابن قسيم حينئذ فى ريعان شبابه ، وطارت قصيدته كل مطار ، وفى عام ٥٣٤ حاصر زنكى دمشق ، وأعلن له أُنُرْ مدبر دولة أبناء طغتكين وقائد جيشهم دخول دمشق فى طاعته . وفى هذه الأثناء يفد ابن قسيم على دمشق ويمدح عماد الدين زنكى ويبدو أنه ظل بها مدة فإننا نراه يطارح شاعرها ابن منير مرارا ، وأيضا فانه يمدح أُنُرْ مدبر دولة آبق بن محمد بن بورى ، وكان زنكى قد ارتضى أن تظل بها أسرة طغتكين والقائم على دولتهم أنر . فاتصل به ابن قسيم ومدحه ، وأسبغ عليه الجوائز كما أسبغها عليه من قبله زنكى ، وله فيه مدحة أرخها العماد الأصبهانى بسنة ٥٤٢ . ولانرتاب فى أنه ظل متصلا بزنكى يمدحه وخاصة حين استولى على الرُّها سنة ٥٣٩ وبمجرد أن توفى زنكى سنة ٥٤١ رجع جوسلين صاحب الرُّها إليها بالاتفاق مع من بها من الأرمن ، وأسرع إليه نور الدين فى عسكره ، فهرب جوسلين . وافتتح نور الدين الرُّها ثانية ،

---

(١) انظر فى ابن قسيم وشعره الخريدة (قسم الشام) ٤٣٣/١ ومفرج الكروب لابن واصل ٨٢/١ والروضتين لأبى شامة ٣٢/١

وهنأه ابن قسيم بهذا الفتح المبين بقصيدة رائعة . وتوفىٌّ الشاعر سريعا فى نفس السنة ويقول العماد الأصبهانى : إنه مات شابا .

وقد استعرض العماد فى خريدته ديوان شعره واقتطف منه مختارات كثيرة ، وهى تدور حول الغزل ووصف الطبيعة والخمر ، ويبدو أنه كان يغرق فى اللهو والمجون ، وإنه ليدعو بعض صحبه لمشاركته فيما يقترف منها بمثل قوله :

خيْرُ ما أصبحتَ مخلوع العِذارِ   فانْفِ عنك الهمَّ بالكأس المُدارِ
قم بنا نَنْتهبِ اللذةَ فى   ظلِّ أيام الشباب المستعارِ
إنما العـارُ الذى تحذره   أن ترانى من لباس العار عارى
وسعيدٌ من تقضَّى عمْره   بين كاسات رُضابٍ وعُقارِ [1]
فى اصطباحٍ واغتباقٍ واقترا   بٍ واغترابٍ وانهتاكٍ واستتارِ

وهو يصرِّح – ولايخفى – بأنه يشرب الخمر المحرمة ، غير آبه لما يجرُّه عليه ذلك من عار بين أصحابه ، إذ يجد فيها هناءته وسعادته ، وهو لذلك يعكف عليها صباحا ومساء أو اصطباحا واغتباقا كما يقول ، ويعكف عليها قارًّا فى بلدته حماة ومغتربا فى دمشق وغير دمشق ، وهو يشربها متواريا ومجاهرا بعصيان ربه منتهكا لحرماته . ومن قوله فى خمرية ثانية .

باكرا شمسَ القنانى   تُـدْرِكا كـلَّ الأمـانى
وخذا فى لذَّةِ العيْـ   ـشِ على رَغْم الزمان
قـهوةً ألبسـها المـز   جُ قيصا من جُمان [2]
كخدود الورد من تَحـ   ـتِ ثُغور الأقحوان
إنما البُغْية أن أصـ   ـبحَ مخلوعَ العـنانِ

وهو يدعو إلى المتاع بالخمر ، ويصورها بصور جميلة ، إذا مزجت بالماء وكأنما لبست قيصا لؤلؤيًّا . ويصورها فى حمرتها والماء آخذ بتلابيبها بثغور من الأقحوان الأبيض تعلوها خدود وردية . ولايلبث أن يعلن فى أبيات تالية عصيانه لربه ، فكل مايبغيه أن يظل سادرا فى خلع عنانه – أوكما قال فى المقطوعة السابقة – فى خلع عِذاره متهتكا ساجدا فى قبلة الكأس لتسبيح مثانى العود

---

(١) الرضاب : الريق . العقار : الخمر.   (٢) الجمان : اللؤلؤ

وأوتاره. وكأنه بعيد لنا صورة أو صورا من خمريات أبي نواس المتهتكة الخليعة المارقة.

ولابن قسيم بجانب مجونه وغزلياته أشعار فى وصف الطبيعة وأشجارها وأزهارها وثمارها من ذلك قوله يصف رُمَّانة :

ومحمرَّةٍ من بنات الغُصو نِ يمنعها ثِقلُها أن تميدا
منكَّسةُ التاج فى دَسْتها تفوق الخدودَ وتحكى النُّهودا
تُفَضّ فتفترُّ عن مَبْسمٍ كأن به من عقيقٍ عقودا
كأن المقابلَ من حَبِّها ثغورٌ تقبِّلُ فيها خُدودا

وتصويره للرمانة بأنها منكَّسة التاج فى دستها أو صدرها تصوير بديع لأنها تتهدل وتتدلى فى غصنها وعلى صدرها بقية نُوَّارها. ويتصور حباتها عقودا من عقيق، وكأنها تحمل بتلك الحبات وما يحيط بها من خيوط بيضاء ثغورا تقبل خدودا. وكان ابن قسيم شاعرًا مجيدًا، ومرَّ بنا أنه كان يتشيع وأنشدنا له أبياتا من شعره الشيعى.

مجير[1] الدين بن تميم

هو مجير الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن تميم، ولد بدمشق ونشأبها، وسال الشعر على لسانه وانتقل الى مدينة حماة وعمل فى جيش صاحبها الملك المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢-٦٨٣هـ) جنديا، إحساسا منه بفتوته وشجاعته، ويصور إقدامه وبسالته فى شعره قائلا :

دَعْنى أخاطِرُ فى الحروب بمُهجتى إما أموت بها وإما أُرْزَقُ
فسوادُ عيشى لا أراهُ أبيضًا إلا إذا احمرَّ السِّنانُ الأزرقُ

وقرَّبه منه الملك المنصور وأصبح له اختصاص به. ويقول صاحب فوات الوفيات : «هو فى التضمين الذى عاناه فضلاء المتأخرين (من الشعراء) آية، وفى صحة المعانى والذوق اللطيف غاية، لأنه يأخذ المعنى الأول ويحلّ تركيبه وينقله بألفاظه إلى معنى ثان، حتى كأن الناظم

(١) انظر فى مجير الدين بن تميم وشعره فوات الوفيات ٥٣٨/٢ وخزانة الأدب للحموى ص ٣١٩ - ٣٢٥ والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٨ وفى مكتبة جامعة القاهرة مصورة لمختارات من ديوانه بخط الصفدى فى ٤٧ ورقة

الأول ، إنما اراد به المعنى الثانى وقد أكثر من ذلك حتى قال :

أطالع كل ديوانٍ أراهُ ولم أزجرْ عن التضمين طَيْرى
أضمِّنُ كلَّ بيت فيه مَعْنىً فشِعْرى نصِفُه من شِعْرِ غَيْرى

ويقول أيضا صاحب الفوات فيه «كان جنديا محتشما شجاعا مطبوعا كريم الأخلاق بديع النظم رقيقه لطيف التخيل» ويقول صاحب النجوم الزاهرة : «كان من الشعراء المعدودين» . ولانعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت سنة ٦٨٤ للهجرة .

ومجير الدين بن تميم من أصحاب المقطَّعات الطريفة فى الغزل والطبيعة والخمر ، ولايبارَى فى ابتكار الصور والأخيلة وحشد التوريات فى مقطعاته ، مع الظرف وخفة الروح والتعليلات الحسنة ، ونقتطف بعض أمثلة من أشعاره ، من ذلك قوله فى الساقية والطبيعة من حولها :

تأمَّلْ إلى الدولاب والنهرِ إذ جَرَى ودمعُها بين الرياض غزيرُ
كأن نسيمَ الروضِ قد ضاع منهما فأصبح ذا يبكى وذاك يدورُ

ولكلمة «ضاع» معنيان : معنى سطوع الرائحة الطيبة التى يحملها النسيم عن الأزهار ، ومعنى الفقد والهلاك ، وبذلك تمت لابن تميم التورية التى يريدها من استخدامه للكلمة ، وقد أراد المعنى الثانى . ويقول مفاخرا بين الأرض والسماء :

ياجاعلَ الأُفْقِ مثلَ الأرض حُجَّتُهُ بالشمس إذ بزغتْ والبدرِ حين وَضَحْ
كم من شموسٍ وأقمارٍ إذا سَرَحتْ فى الأرض طرتَ إليها خفَّةً وفَرح
ولا تَقُلْ : قُزَحٌ فى الجوِّ زَيَّنَهُ فى كل غُصْنٍ ترى فى الأرض قَوْسَ قُزَحْ

فهو يعارض من يعلى السماء على الأرض بحجة بزوغ الشمس والقمر فيها قائلا إن فى الأرض شموسا وأقمارا من النساء والفتيات أجمل وأكثر حسنا . ويقول لصاحب السماء : لا تحتج بجمال قوس قزح ، فأغصان الرياض فى الطبيعة تحمل مالا يحصى من أقواس قزح نضرةً أَرِجَة .
ويقول :

سبقتْ إليك من الحديقة وردةٌ وافتْك قبلَ أوانها تَطْفيلا
طمعتْ بلَثْمك إذ رأتْك فجمَّعتْ فَمَها إليك كطالبٍ تقبيلا

وهى وردة فى بدء تفتحها وهى لاتزال فى كمِّها ، مما جعله يعلل تجمعها قبل أن تتفتح هذا التعليل البديع الدالّ على لطف تخيله كما قال صاحب فوات الوفيات . ويقول فى وصف ناعورة أو ساقية :

ناعورةٌ مذ ضاع منها قَلْبُها ... ناحتْ عليه بأنَّةٍ وبكاءِ
وتعلَّلتْ بلقائه فلأجل ذا ... جعلتْ تُدير عيونَها فى الماءِ

فقواديسها لاتهوى فارغة طلبا للماء والصعود به ، وإنما تهوى بحثا عن قلبها الذى ضاع منها ، وجعل لحونها الحزينة أنينا وبكاء عليه . ويقول :

لمْ لا أميلُ إلى الرِّياض وزهْرِها ... وأقيم منها تحت ظلٍّ ضافى
والغُصْنُ يلقانى بثغرٍ باسمٍ ... والماءُ يلقانى بقلبٍ صافى

والثغر الباسم هو الأقحوان المتفتح والشعراء يشبهونه بالثغر كثيرا ، وفى البيتين رقة ودقة حس وخفة روح . وقد يخلط الطبيعة بالغزل كما فى قوله :

كيف السبيلُ لأن أقبِّل خَدَّ مَنْ ... أهْوَى وقد نامتْ عيونُ الحرَّسِ
وأصابعُ المنثور تُومِى نحونا ... حسدًا وتَغْمِزُها عيونُ النَّرْجِس

والمنثور زهر ذكى يزهو فى أعلى سيقانه ، شبهه ابن تميم بالأصابع ، وتشبيه الشعراء للنرجس بالعيون قديم . وقد استغلها جميعا فى هذا التعليل ، إذ لا يستطيع الاقتراب من صاحبته . ويقول فى الخمر مداعبا :

روحى الفداءُ لمن أدار بلحظهِ ... صَهْباءَ فى عقلى لها تأثيرُ
فاعجبْ له أنَّى يصونُ بلحظهِ ... مشمولةً وإناؤها مكسور

وكلمة « مكسور » إما من كسر الإناء بمعنى تهشمه وتحطمه ، وإما كسر مافيه من الخمر بالماء وهو كسر حميَّاها وثورته ، وهو المعنى المراد فى البيت . ويقول أيضا فى الخمر :

وليلةٍ بتُّ أُسْقَى فى غَياهبها ... راحًا تسُلُّ شبابى من يَد الهرَمِ
مازلت أشربها حتى نظرتُ إلى ... غَزَالةِ الصبح ترعى نَرْجِسَ الظُّلَمِ

ويريد بالغزالة الشمس وبنرجس الظلم النجوم . ولم يكن ماجنًا مثل ابن قسيم ، ولاندرى هل كان يشرب الخمر حقا أو كان ينظم فيها محاكاة لمدمنيها تظرفا . ومن طرائفه فى الرياض قوله

بعثَ النسيمُ رسالةً بقدومهِ للروض فهْوَ بقربه فَرْحانُ
ولطيبِ ما قرأ الهَزَارُ بشَدْوِهِ مضمونَها مالتْ له الأغصانُ

والهزار : طائر حسن الصوت يشتهر بلحونه الكثيرة . وواضح مافى ميل الأغصان لسماع شدو الهزار من عنصر المفاجأة ، وكل مقطوعات تميم تقوم على هذا العنصر ومايحدث فى النفس من هزة الارتياح والسرور لسماع مثل هذه المفاجآت الكثيرة عنده ، وقد أنشد منها صاحبا الفوات والخزانة بدائع كثيرة .

ابن [1] النقيب

هو عبدالرحمن بن محمد الحسينى الملقب بابن النقيب ، ولد فى دمشق سنة ١٠٤٨ للهجرة لأبيه النقيب الشريف ، وعُنى بتربيته ، فحفظ القرآن الكريم ، واختلف إلى شيوخ أيامه بالإضافة إلى أبيه وما كان يلقنه من اللغة والحديث . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، واتجه بها إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس والغزل مع الإلمام بالمديح ، ولم يكن فى حاجة إلى تكسب به ، ولذلك يمكن أن تعد مدائحه فى باب الإخوانيات ، وهى ليست الجوهر فى ديوانه المنشور ، إنما الجوهر فتنته بالطبيعة الدمشقية ومتنزهاتها وبجمال الدمشقيات ووصف الراح من خلال الطبيعة الفاتنة . ويقول المحبى « ما أذكره له تشبيه زُهْر (حسان) أوزَهر ، أو وصف روض مطلٌّ على نهر ، وهو ممن أُغرىَ بهذين النوعين ، وذلك أما لميل غريزى فى فطرته ، أو لأن دمشق متروِّح فكرته » . ولم يطل به الدهر بين هذه المفاتن التى كانت تخلب لبه . فقد توفى فى الثالثة والثلاثين من عمره سنة ١٠٨١ للهجرة . ومن قوله فى نهر وروض على حافتيه :

النَّهْرُ يَصْدَا بهاتيك الظلالِ كما يَصْدا من الغِمْد حَدُّ الصارم الذَّكَرِ
والزَّهْرُ يَفرِشُ فى شَطَّيه مارقتْ فيها السحائبُ من رَيْطٍ ومن حِبَرِ
رَبيعةُ الوَشْيِ لاينفكُّ زِبْرِجُها يجلو لنا من حِلاها أحسنَ الصُّوَرِ [2]

(١) انظر فى ابن النقيب وشعره خلاصة الأثر ٢/٣٩٠ ونفحة الريحانة ٢/٣٤ وديوانه (طبع المجمع العلمى العربى فى دمشق) وانظر مقدمتى أحمد الجندى وخليل مردم للديوان .

(٢) الزبرج : الحلية من الوشى أو الجوهر .

ويشبه الشعراء الأنهار الضيقة والجداول بالسيوف لشدة لمعانها . وقد جعل ابن النقيب النهر يصدأ كما تصدأ السيوف ، أما هي فتصدأ بأغمادها ، وهو يصدأ بظلال الأشجار من حوله ، والزهر يفرش فى شطيه مارقمت أو نقشت فيها السحائب من رَيْط وحِبَر أو ملاءات مخططة وحريرية ذات وشى ربيعى لايزال زبرجه ونقشه يجلو من حِلَى الطبيعة وجواهرها أجمل الصور .. ويذكر مجلسا من مجالس أنسه فى بعض متنزهات دمشق قائلا :

ومجلسٍ حفَّتِ الغصونُ بنا فيه ووجْهُ الرياض مبتهجُ
كأن أوراقها يرفُّ بها فوق النَّدامى نَسيمُها الأرِجُ
خُضْرٌ من الأُزْرِ لاتزال بها مناكبُ الراقصات تختلج

وهى صورة بديعة ، إذ يجعل أوراق الاغصان — حين يرفّ نسيمها فوق الندامى — كأنها أزر أو شيلان تُظِلُّ مناكب الراقصات المختلجة المتحركة فى أثناء رقصها ودورانها فيها . ويقول فى بدر يلوح ويحتجب من خلال أغصان :

كأنما الأغصانُ يَثْنيها الصَّبا والبدرُ من خَلَلٍ يلوح ويُحْجَبُ
حسناءُ قد عامتْ وأرْخَتْ شَعْرَها فى لُجَّةٍ والموجُ فيها يلعبُ

والصورة أيضا بديعة ، فالبدر وهو يظهر ويغيب من خلال الأشجار كحسناء فى لُجَّة مرخية ذوائبَ شعرها وموج أضوائها من حولها يلعب فى فضاء الطبيعة الساحرة . وكان مغرى بوصف زهرة القرنفل ، يصفها بيضاء وحمراء وبيضاء مشربة بحمرة كقوله :

وزهْرٍ قَرَنْفُل فى الروض يَحْكِىَ عَقيقَ دمٍ على صفحاتِ ماءِ
رأى وَجناتِ من أهوَى فأغْضَى فبان بوجهه أَثَرُ الحياءِ

فاحمرار القرنفل إنما هو حياء وخفر منه حين رأى وجنات صاحبته ، فأغضى عينيه وقارب بين جفونه استحياء . وله وراء شعر الطبيعة واللهو والمجون موشحات مختلفة منها ماعارض به لسان الدين بن الخطيب فى موشحته : « جادك الغيث إذا الغيث همى » . وله أيضا شعر دورى تتألف المنظومة منه بيتين بيتين . وبدون ريب كان شاعرا بارعا ، وحقا مايقوله المحبى من أنه كان يتخيل التخيلات البعيدة البديعة فى التشابيه العجيبة » .

٥

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

الشام من قديم دار عبادة ونسك وتقشف ، وبها كان مهبط ديانتين : الديانة اليهودية والمسيحية ، ومر بنا فى الفصل الأول استعراض لنسّاكها الأولين ورفضهم للمتاع الدنيوى وإقبالهم على ما عند الله من ثواب الآخره . وحين قام نظام الرهبنة فى المسيحية شاعت فيها الأديرة وشاع فيها النسك . وتعمها أضواء الإسلام ، وتشيع فيها تعاليمه الزاهدة وينزلها كثيرون من زهاد الصحابة وأتقيائهم النساك وتشيع فيها التقوى ، وتصبح ساحة كبرى من ساحات العبادة ، كما تصبح مباءة لكثيرين من صلحاء الأمة ، وتتطاير على ألسنتهم كلمات زاهدة تقية كثيرة ، عرضنا لأطراف منها فى غير هذا الموضع ، وطبيعى أن يجد ذلك صداه فى الشعر والشعراء الشاميين . ويلقانا فى ديوان أبى تمام باب للزهد ، ويظل الشعراء بعده ينظمون فيه كقول أبى فراس [1] :

أما يَرْدَعُ الموتُ أَهْلَ النُّهَى ... ويمنع عن غَيِّهِ مَنْ غَوَى
فيا لاهيًا آمنًا والحِمامُ ... إليه سريعٌ قريبُ المدى
إذا مامررتَ بأهلِ القُبورِ ... تيقَّنْتَ أنك منهم غدا
فلا أملٌ غيرُ عَفْوِ الإلهِ ... ولاعملٌ غيرُ ما قد مضى

وأبو فراس يقول : الموت خير واعظ للإنسان وإنه لجدير أن يردع الغَوِىَّ عن غيِّه ويرده إلى رشده ، ويعجب من لاهٍ آمنٍ على نفسه ولا يفكر فى هول ماينتظره من موت يوشك أن ينزل به ، وغدا يطير إلى رمسه ، ولا أمل له سوى عفو ربه فحرىٌّ به أن يكفّ عن كل موبقة ويأخذ من يوم حياته ليوم مماته ، وإنه لقريب . ويتعمق أبو العلاء التفكير فى الحياة والموت نهاية كل حى وينشد [2] :

هىِ النَّفْسُ تَهْوَى الرُّحْبَ فى كل موطنٍ ... فكيفَ بها إن ضاقَ فى الأرض قبرُها
وهل يَرْتَجِى خُضْرَ الملابس ظاعنٌ ... وقد مَزَّقَتْ فى باطن التُّرْبِ غُبْرُها
نوائبُ ألقتْ فى النفوس جرائحًا ... عَصَى كلَّ آسٍ فى البريَّة سَبْرُها
لِىَ القوتُ فَلْيَغْمُرْ سَرَنْدِيبَ حظُّها ... من الدُّرِّ أو يكثُرْ بغانةَ تِبْرُها

(١) الديوان ٢/٦

(٢) اللزوميات (طبع مطبعة المحروسة) ١/٣١٢

وأبو العلاء يضع أمام الإنسان مصيره وأنه لابد مفارق للدنيا الرحبة الواسعة إلى القبر الضيق المظلم . وربما كان يَكْنى عن كل متاع الحياة بخضر الثياب يلبسها ظاعن راحل عن دنياه إلى قبر موحش تغبرُّ فيه هذه الثياب وتمزَّق تمزيقًا . ويقول تلك نوائب تصيب النفوس فى الصميم وتحدث فيها جراحا عميقة يستعصى سَبْرها ومعرفة غورها على كل طبيب ، ويذكر أنه لايفكر فى طيبات الحياة ولاتمر بخاطره ، إذ هو قانع بقوته وما يسدُّ رمقه ، ولتمتلئ سرنديب – أوكما تسمى الآن سيلان – بمغاوص لآلئها من الدرر وليكثر بغانة فى غربىّ إفريقيا التبر كما يقولون ، فحسبى قوتى . ولمرَّ بنا أنه كان زاهدا فى الدنيا ونعيمها ، مكتفيا بالعدس والتين . ومر بنا أيضا أن ديوانه اللزوميات فى مجلدين ، وقد بناه على تمجيد الله والتحذير من الدنيا ومتاعها الزائل كما قال فى مقدمته . ويقول ابن سنان الخفاجى[1] :

استغفرِ اللّهَ القديمَ وعُذْ به ... من شرِّ غاوٍ فى الحُطام منافسِ
وافعَلْ جميلا لايضيعُ صَنيعهُ ... واسْمَحْ بقوتك للضعيف البائسِ
واقنَعْ فنى عيش القناعة نعمةٌ ... لاتتقى كفَّ الزمان الخالس
لاتفخرنَّ وإن فعلتَ فبالتُّقَى ... ناضلْ وفى بَذْل المكارم نافسِ

وهو يستغفر الله من شركل غاوٍ منافس فى حطام الدنيا ومتاعها الزائل ، ويوصى بفعل الجميل ومدِّ اليد بالقوت للبائس الفقير . ويوصى أيضا بالقناعة ويقول إنها نعمة لأن الإنسان معها لايخاف على شيء يختلسه منه الزمن ، ويوصيه أن لا يفتخر إلا بالتقى ولاينافس إلا فى المكارم والمحامد . ويقول الحسن بن طارق الحلبى من شعراء الخريدة[2] :

عمرتَ دارَ فناءٍ لابقاءَ لها ... ظنًّا بأنك عنها غيرُ منتقلِ
أتعبتَ نفسك لا الدنيا ظفرتَ بها ... وأنت لاشكَّ فى الأخرى على وجَلِ
دارُ الإقامة أولى بالعِمارة من ... دارٍ نعيمُك فيها غيرُ متصلِ
فاعمَلْ لنفسك ماترجو النجاةَ به ... فليس يُنْجيك إلا صالحُ العمل

وهو يزهِّد فى الدنيا والعمل على تحقيق المآرب فيها مع نسيان الآخرة دار الإقامة الحقيقية التى ينبغى أن يعمل لها الإنسان ، وهى حقا الأجدر بأن يقدم لها كل مايستطيع من تقوى وعمل صالح حتى يفوز برضوان ربه .

---

(١) الديوان ص ٥٧

(٢) الخريدة (قسم الشام) ١٥٨/٢

ويقول الإمام النووى الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٦٧٦ للهجرة[١] .

وجدتُ القناعةَ أصلَ الغِنَى فصرتُ بأذيالها مُـمْتَسِكْ
فلاذا يرانى على بابهِ ولاذا يرانى به منهمكْ
وعشتُ غنيًّا بلا درهمٍ أمرُّ على الناس شبْهَ المَلِكْ

وكان محيي الدين النووى إماما ورعا زاهدا مثابرًا على التقوى والقناعة ، فلا أحد من الحكام – كما يقول – يراه على بابه طالبا حاجة ، ولا أحد يراه مشغولا به منهمكا ، فانهماكه إنما هو فى العبادة والتهجد والنسك وفتوى الناس فى أمور دينهم وتدريس الفقه والحديث النبوى آخذا نفسه فى حياته بالتقشف الشديد . ويقول مصطفى البابى الذى مرت ترجمته : إن الأرض مقبرة كبرى تطؤها أقدامنا غير واعين ، بل إنه يبعد فى خياله قائلا .

قد غَنينا عن الدروس بما تُمْـ ـلى علينا صحائفُ الأيامِ
من عظَاتٍ تُتْلَى بغير لسانٍ وسطورٍ خُطَّتْ بلا أقلامِ
ولو أنَّ العيونَ زال غَشاها لرأتْ كلَّ أَخْمَصٍ فوق هام[٢]
بل وفى كل وردةٍ ألفُ خَدٍّ وقضيبٍ يميسُ ألفُ قوامِ

فالحياة قصيرة والمصير للجميع الموت ، وحرى بالإنسان أن يفكر فى هذا المصير المقدم عليه ، وكم ملايين بل مئات الملايين ماتوا وواراهم أهلهم التراب ، حتى لكأن أى مكان لايخلو منهم ، وحتى لكأننا نطؤهم بأقدامنا ، فهم منبثون فى كل بقعة وفى كل مكان . ويقول البابى لوزالت الغشاوة عن أعيننا لرأينا – وياهول مانرى – أقداما تطأ رءوسا ، ولهالنا أن الورد النابت من الأرض يستمد حمرته من ألف خد ، وبالمثل قضيب الأغصان الأهيف المائس المختال يستمد اختياله من ألف قَدّ . ويلاحظ المحبى أن المشهور فى هذا المعنى قول أبى العلاء .

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أظنُّ أديم الْـ أَرْضِ إلاّ من هذه الأجْسادِ

---

(١) الكشكول (طبعة عيسى الحلبى) ١/٣٠١

(٢) الأخمص : باطن القدم : الهام : الرأس .

وقول مهيار :

رُوَيْدًا بأخْفافِ المطيِّ فإنما تُداسُ جباهٌ فى الثَّرى وخدودُ

وكأن الباخرزى نظر إلى معنى البيتين جميعا ، ويضيف المحبى أن منزع هذا كله قول المتنبى :

ويَدْفِنُ بَعْضُنا بَعْضًا ويمشى أواخِرُنا على هامِ الأوالى

والأوالى : الأوائل . ولايكتفى المحبى بذلك ، بل يقول أن معنى بيتى الباخرزى دقيق ، وفى رُباعيات عمر الخيام بالفارسية من نوعه أشياء كثيرة ، ويذكر أنه ترجم له رباعية تحمل هذا المعنى على هذه الصورة :

فى الاعتبار بمن مضى من قبلنا عِبَرٌ وتلك هدايةُ المسترشدِ
فلكم طوتْ ترباؤنا أمما وهل مَيْتٌ بغير ثَرائها لم يُلْحَد
حتى كأن شَقِيقَها دمُ أسرةٍ سفكتْ دماءَهمُ عيونُ الخُرَّدِ
وبَنَفْسجُ الروضِ الندىِّ كأنه خِيلانُ وَجْناتِ الخدودِ الوُرَّد

فالشقيق الأحمر القانى يستمد مما سفكته عيون الجميلات من دماء العشاق ، والبنفسج الأحمر القاتم يستمد من خيلان وجناتهن . وكل ذلك بعد فى التصور والخيال .

وكان يرافق الزهد منذ القرن الثالث الهجرى نساك – كما مر بنا فى الفصل الأول – أقرب إلى المتصوفة منهم إلى الزهاد فى مقدمتهم ابن الجلاّء ، وكانت الشام ساحة كبرى للنساك يؤمونها . طوال هذا القرن والقرون التالية من العراق وإيران ومصر . واشتهرت جبال لبنان وأنطاكية بكثرة من كانوا يقيمون بها للنسك والعبادة ، وامتد ذلك إلى دمشق وجبالها وغيرها من بلاد الشام . وذكرنا فى الفصل الأول نزول الغزالى بها سنة ٤٨٨ وأنه أخذ يستضىء بقوة بما كتبه أبونصر السراج والقشيرى فى الوصل بين أهل الشريعة من الفقهاء وأهل الحقيقة من المتصوفة ، فلا شريعة بدون عمل القلب وصدق السريرة ولا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل . وبذلك سدَّ الثلمة التى كانت تفصل بين الجماعتين وأحكم الروابط الدينية بينهما . وزادها دعمًا نزول حملة الصليب بديار الشام مما جعل حكام دمشق التابعين للدولة السلجوقية يكثرون من بناء الخانقاهات والرباطات للمتصوفة . وتبعهم فى ذلك نور الدين حين أصبحت الشام فى قبضته ، بل لقد اتسع فى العناية بهم ورَصْد النفقات عليهم . وظلت هذه العناية متصلة فى عهد صلاح الدين وخلفائه

الأيوبيين والمماليك مما أتاح للتصوف ازدهارا عظيما .

وكان قد أخذ يظهر فى التصوف تياران كبيران : تيار سنى كانت تتبعه جماهير الشعب ، وفيه تأسست طرق صوفية متعددة ، من أهمها الطريقتان القادرية والرفاعية على نحو ماصورنا ذلك فى غير هذا الموضع . وكان بجانب هذا التيار تيار فلسفى يقوم على أفكار الحلول والاتحاد بالله ، ولم تكن له شعبية التيار الأول ، وقد مثّله فى القرن السادس الهجرى يحيى السهروردى الذى ترجمنا له فى إيران وأنشدنا بعض أشعاره . ومثّل هذا التيار فى القرن السابع محيى الدين بن عربى الذى نشأ فى الأندلس ، ثم رحل إلى البلاد العربية والأناضول وألقى عصاه فى دمشق ، وله كتب كثيرة من أهمها الفتوحات المكية . وله أيضا دواوين بديعة ، لأبياتها ظاهر وباطن ، ظاهر يتفق مع السنة وباطن يتفق مع تصوفه الفلسفى . وشُغف كثيرون من أهل الشام بأدبه وشعره منهم من يقف به عند ظاهره ومنهم من يتغلغل فى أعماقه . وأخذت أشعاره وتعاليمه الصوفية الفلسفية ، وبالمثل أشعار السهروردى وأيضا أشعار ابن الحلاج الصوفى المتفلسف القديم تؤثر هى وأشعار التيار الصوفى السنى فى كثيرين بحيث أصبح للشام تراث صوفى شعرى . وبدون ريب أكد هذه النزعة الصوفية فى الناس ظهور الطريقة القلندرية التى ظهرت فى القرن السابع الهجرى مع ماداخلها من انحرافات ذكرناها فى الفصل الأول ، وأيضا ظهور الطريقتين النقشبندية والبكتاشية لأواخر زمن المماليك . وسنترجم فيما بعد لثلاثة من شعراء الصوفية الذين تمثلوا التيار الصوفى الفلسفى ، وهم ابن سوار وعفيف الدين التلمسانى وعبدالغنى النابلسى ، أما ابن عربى فعداده فى الأندلسيين ، وقد نزل دمشق بأخرة من عمره .

وكان يقترن بنزعتى التصوف والزهد مديح نبوى كثير ، وهو قديم منذ عهد الرسول ﷺ ومديح حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له تنويها بخلقه الكريم ورسالته العظمى وجهاده فى سبيل الله وفتوحه . وحين نشطت الحركات الشيعية نشط معها مديحه ، إذ انبثّ كثير منه فى مدائحهم لأئمتهم العلويين وفى مراثيهم للحسين على نحو مانجد عند الصنوبرى الذى ترجمنا له فى كتاب العصر العباسى الثانى .. ولأبى العلاء فى اللزوميات قصيدة فى مديحه ، وفيها يشيد به وبرسالته النبوية الخالدة قائلا :

دعاكم إلى خير الأمور محمدٌ ... وليس العوالى فى القَنا كالسوافِلِ
حداكم على تعظيم من خلَق الضُّحى ... وشُهْبَ الدُّجَى من طالعاتٍ وآفلِ
فصلَّى عليه اللهُ ماذرَّ شارقٌ ... ومافَتَّ مِسْكا ذِكْرُه فى المحافِلِ

وعوالى القنا أو الرماح هى الماضية القاطعة ، ويذكر أنه دعا إلى توحيد الله الذى خلق الشمس وماتغمر به الكون من الضياء وخلق النجوم التى تبزغ تارة وتأفل تارة ثانية ، فهو مدبر الكون وملكوته . ويدعو الله أن يحفَّه ببركاته ماطلعت شمس وماعطر ذكره المحافل بمسك لايضاهيه مسك .

ويحتدم المديح النبوى مع الحروب الصليبية وحروب التتار ، إذ أحسَّ الشعراء – بحق – أنها حروب موجهة للإسلام ورسوله الكريم ، فأخذوا يشيدون به وينوهون بمعجزاته وسيرته الذكية من مثل قول ابن الساعاتى شاعر صلاح الدين فى مدحة نبوية [1] :

هو البشيرُ النذيرُ العدلُ شاهدُهُ ... وللشـــهادة تجريحٌ وتعديلُ
لولاه لم تك لاشمسٌ ولا قمرٌ ... ولا الفُراتُ وجاراه ولا النِّيلُ
مرتِّلُ الوَحْى يتلوهُ ويدرسه ... ولم يكن لكلام الله تَرْتيلُ
وسيِّد الرُّسْلِ حقا لاخفاء به ... وشافعٌ فى جميع الناس مقبولُ
بَثَّتْ نبوَّتَه الأخبارُ إذ نطقتْ ... فحدَّثَتْ عنه توراةٌ وإنجيلُ

ويقول ابن الساعاتى هو البشير النذير الذى أشاع العدل فى أمته ، ويستلهم القائلين بالحقيقة المحمدية وأن الرسول عليه السلام علة الكون ووجوده ، فلولاه لم تك شمس ولا قمر ولاحياة فى الأرض ولا أنهار ، ويقول إنه أول رسول رتَّل الكلام ، وإنه لسيد الخلق وشافع أمته يوم القيامة ، وبه تحدثت الأخبار فى التوراة والإنجيل مبشرة برسالته العظمى . ويقول فتيان الشاغورى من مدحة نبوية مؤملا شفاعته فى يوم الحشر متمنيا زيارته [2] :

أُؤَمِّلُ من خير الأنامِ شفاعةً ... بها فى نعيمٍ بالجنان أخلَّدُ
وَدِدْتُ بأنى زرتُ قَبْرك راجلا ... وقبَّلتُ تُرْبًا أنت فيها موسَّدُ
ومرَّغْتُ خَدِّى عند قبرك ضارعا ... بأرضٍ حَصاها لؤلُؤٌ وزَبَرْجَدُ
وذاك ضريحٌ يَحْسُدُ المِسْكُ تُرْبَهُ ... وكلٌّ شريفِ القدر لاشك يُحْسَدُ

وهو يؤمِّل فى شفاعة الرسول بالغفران ودخول الجنان ، يوم يطول وقوف الناس ف المحشر ، ويقول لو استطاع لزار القبر راجلا وقبَّله وعفَّر خدَّه بما حوله من التراب ضارعا متوسلا بأرض

(١) ديوان ابن الساعاتى ٤٨/١

(٢) ديوان فتيان ص ١٠٩

حصاها لؤلؤ وزبرجد وإن المسك ليحسد ترابه على مايحمل من طيب لا يماثله طيب . وللسخاوى على بن محمد شيخ القراء بدمشق المتوفى سنة ٦٤٣ قصائد سبع فى المديح النبوى . وفى مدحة نبوية يقول الشاب الظريف منوها بالبقعة مثوى الرسول الكريم[١] :

أرضَ الأحبَّة من سَفْحٍ ومن كُثُبِ ... سَقاكِ منهمرُ الأنواء من كَثَبِ[٢]
ياساكنى طيبةَ الفَيْحاءِ هل زمنٌ ... يُدْنى المحبَّ لنَيْل الحبِّ والأربِ
أَرضٌ مع الله عَيْنُ الشمس تحرسُها ... فإن تغِبْ حَرَسَتْها أعينُ الشُّهب

وهو يدعو لأرض الحبيب المصطفى أن تهطل عليها الأمطار سفوحا وكثبانا من كثب أو قرب لتظل تزهر بالشذى العطر ، ويتمنى زمنا يحقق أربه وأمنيته من زيارة الجدث الطاهر . ويقول إن عين الشمس تحرسه نهارا وتحرسه أعين النجوم الساطعة ليلا حراسة يرعاها الله جَلَّ علاه .

وللشهاب محمود ديوان فى مديح الرسول ﷺ سقط من يد الزمن واحتفظ كتاب المدائح النبهانية النبوية لإسماعيل النبهانى بطائفة من مدائحه ، وفى إحداها يصور الشهاب محمود ساعة وصول ركبه إلى المدينة المنورة حين بدا لهم العقيق فى غربيها ولم يلبثو أن زاروا القبر الزَّكيّ ، يقول [٢] :

وإذا شارفوا العَقيقَ تراءتْ ... من رُباه سَنا القِباب الزُّهْرِ
وتـلـقَّـاهُـمُ بَشـيـرُ التلاقى ... بِقَبولٍ تَسْرى قُبَيْلَ الفَجْرِ
وشَذا الروضةِ التى بين أزكى ... منبرٍ فى الدُّنا وأشرفِ قَبْرِ
حبذا ذاك من مقامٍ كريمٍ ... يُشْتَرَى يومهُ بكلِّ العُمْرِ

وهو يصور فرحة ركبه أو قافلته بقرب لقاء الرسول حين أشرفوا على العقيق ورأوا قباب مسجده قبيل الفجر . والقبول أو ريح الصبا العليل تبشرهم بالتلاقى وعطر الروضة النبوية يفوح ، وهو يشير إلى الحديث النبوى : « مابين قبرى والمنبر روضة من رياض الجنة » ويقول إن فرحة المثول أمام القبرالطاهر يُشْتَرَى يومها بالعمر كله . ولكمال الدين محمد بن على الزَّمْلكانى المتوفى سنة ٧٢٧ للهجرة مدحة نبوية رائعة يقول فيها[٣] :

---

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٤
(٢) المجموعة النبهانية ١٧٣/٢
(٣) فوات الوفيات ٤٩٧/٢

محمدٌ خيرُ خلقِ الله كلِّهمِ وفاتحُ الخير ماحى كلِّ إشراكِ
قد نال مرتبةً ما نالها أحدٌ من أنبياءٍ ذوى فَضْلٍ وأملاك
ياصاحبَ الجاه عند اللهِ خالقهِ ماردَّ جاهَك إلا كلُّ أفَّاك
ها قد قَصَدْتُك أشكُو بعض ما صنعتْ بِيَ الذنوبُ وهذا ملجأ الشاكى
عليك من ربِّك اللهِ الصلاةُ كما منا عليك السلامُ الطيِّبُ الزَّاكى

والزملكانى يقرر حقيقة كبرى ، فمحمد عليه السلام خير خلق الله وماحى الكفر والإشراك وقد نال مرتبة لم ينلها الأنبياء ولا الأملاك أو الملائكة . ويتوسل إليه أن يستغفر له ربه وأن يحط عنه أوزاره كما يتبين من أبيات تالية ، وقد زاره وحط رحاله فى حماه لنوال هذا الأمل المنشود . وتكثر مثل هذه الاستغاثة فى المدائح النبوية كما يكثر معها طلب الشفاعة . ويقول مصطفى البابى من مدحة نبوية بديعة[1] :

إليك رسولَ الله قد جاء ضارعًا أخو عَثْرةٍ يرجو الإقالةَ مذنبُ
فبابُك بابُ الله ما عنه مهربٌ وطالبُه من غير بابك يُحْجَبُ
أغثْنى تداركْنى أجِرْنى فإننى لَقًى. إن تراخى عنه لُطْفُكُ يَعْطَبُ
وأبعدُ شىءٍ أن تضيق بِرُحْبِها شفاعتُك العظمى بنا فَهْىَ أرحبُ

وهو يضرع إلى الرسول الكريم أن يستغفر له ربه ليقيله ويخلصه من ذنوبه ، ويستغيث به لائذًا أن يكون شفيعه يوم القيامة ، يوم يطول وقوف الناس فى المحشر ، والجميع يضرعون إلى الله أن يخلصهم وينجيهم من النار ، وسعيد من يشفع له الرسول فى هذا اليوم ، فيفوز برضوان ربه . وللبابى يتوسل[2] :

يـاحىُّ يـاقَيُّـوم قـد بهرَ العقولَ سَنَا بهائِكْ
إنى سـألتك بـالـذى جمعَ القلوبَ على ولائكْ
نورِ الوجود خلاصةِ الـ ـكونين صفوةِ أنبيائكْ
إلا نـظرتَ لمستغيـ ـثٍ عائذٍ بك من بلائكْ
فالطُفْ به فيما جَرى فى طَىِّ عِلْمك من قضَائكْ

---

(١) الديوان ص ٤ ونفحة الريحانة ٤٣٧/٢

(٢) الديوان ص ٥ ونفحة الريحانه ٤٣٤/٢

والبابى يجأر إلى ربه ضارعا متوسلا برسوله الذى جمع أمته على الولاء له ، ويقول إنه نور الوجود ، فنوره يشاهد فى كل نور : فى نور الشمس والقمر والكواكب والنجوم وهو خلاصة الكونين وصفوة الأنبياء والمرسلين ، ويتخذه وسيلة إلى ربه وشفيعه ، حتى يلطف به فى قضائه وماجرى فى طى علمه . وحرى أن نترجم لنفر من المتصوفة وأحد شعراء الزهد والمديح النبوى وهو أول من نقف عنده .

عبد [1] العزيز الأنصارى

هو شرف الدين الصاحب عبدالعزيز بن محمد بن يونس الأوسى الأنصارى ، كان أبوه من فقهاء دمشق ، وحين عهد بقضائها فى عهد صلاح الدين إلى ضياء الدين الشهرزورى سنة ٥٧٢ جعله من نوابه . ودار العام فاستعفى ضياء الدين من القيام على القضاء ، ولانعرف هل ترك والد الشاعر القضاء أو أنه ظل يعل فيه مع ابن أبى عصرون خليفة ضياء الدين . وأكبر الظن أنه بقى فى منصبه مدة ، أو لعله عمل فى منصب آخر . ويقولون إنه كان يشتغل بالتجارة فى سوق الخوّاصين ولاندرى هل كان يجمع بين عمله فى القضاء وبين التجارة أو كان يزاولها حين يعفى منه . وولد له ابنه عبدالعزيز سنة ٥٨٦ وطبيعى أن يُعْنَى القاضى بتربية ابنه ، فأخذ يرعاه حتى حفظ القرآن الكريم ورأى أن يتزود من حلقات الشيوخ بدمشق فدفعه إليها وأكبَّ عبدالعزيز على تلك الحلقات ينهل منها ، حتى إذا أحس أبوه أنه استوعب مافيها نزل به بغداد فاستمع بها إلى شيخ المدرسة النظامية ، وكان لايزال فى نحو العشرين من عمره . وسكن الأب حماة وتولى قضاءها لعهد صاحبها السلطان المنصور الأول (٥٨٧-٦١٧هـ) وسكنها معه ابنه عبدالعزيز ، ويقربه منه المنصور وينظم فيه بعض مدائحه وكذلك فى زوجته عصمة الدين ، ويتوفى المنصور ويغتصب إمارة حماة بعده السلطان قلج أرسلان (٦١٧-٦٢٦هـ) ويظل بها عبدالعزيز . وتولى الإمارة السلطان المظفر بن المنصور الأول (٦٢٦-٦٤٢) فابتسمت الدنيا له إذ اتخذه المظفر وزيره ومستشاره وشاعره ، ويتوفى ويخلفه ابنه السلطان المنصور (٦٤٢-٦٨٣هـ) وكان صبيا فى العاشرة

---

(١) انظر فى عبدالعزيز الأنصارى وشعره فوات الوفيات ١/٥٩٨ وذيل مرآة الزمان ٢/٢٣٩ والعبر ٥/٢٦٨ وتذكرة الحفاظ ٤/١٤٤٣ وطبقات الشافعية ٨/٢٥٨ والنجوم الزاهرة ٧/٢١٤ والخزانة للحموى ص ٢٤٩ ، ٣١٤ وديوانه (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) بتحقيق د . عمر موسى

من عمره وربما يكون سكن الشاعر لبعلبك ودمشق الذى ذكره مترجموه فى هذا التاريخ . وكان يلمّ بحلب ، ونجده سنة ٦٤٧ فى صحبة أميرها الناصر يوسف فى زيارته لمصر . ويعود إلى حماة وتنعقد صلة وثيقة بينه وبين سلطانها المنصور إلى توفى سنة ٦٦٢ للهجرة .

وكانت تُعْقَدُ فى هذه البلدان جميعا لعبد العزيز الأنصارى الحلقات لسماع الحديث عنه ، وممن سمعه منه الحافظ الدمياطى محدث مصر واليونينى محدث دمشق ، ويقول ابن تَغْرى بَرْدى عنه : «برع فى الفقه والحديث والأدب وأفتى ودرس وتقدم عند الملوك وترسَّل عَنهم غير مرة ، وكان شاعرا بارعا» وينقل صاحب الفوات عن الصفدى فى وصف شعره وشاعريته قوله : «لا أعرف فى شعراء الشام بعد سنة خمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا أسْرَى ولا أكثر ، وإن له فى لزوم مالا يلزم ديوانا كبيرا ، وما رأيت له شعرا إلا وعلقته ، لما فيه من النكت والتوريات الفائقة والقوافى المتمكنة والتركيب العذب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ» وهو يمتاز بجمال موسيقاه وعذوبة ألفاظه وحسن جرسها حسنا بديعا .

وطبيعى والأنصارى شيخ الشيوخ الفقيه المحدث أن يعنى فى شعره بالمديح النبوى والزهد والوعظ ، ومن قوله فى أول مدحة نظمها للرسول الكريم وقد أنشدها تجاه حجرته الشريفة :

ياخاتمَ الرُّسْل الكرام وفارجَ الـ ـكُرَب العِظام بفعلهِ والمِقْولِ
ها قد ورَدْنا من ضَرِيحك موردًا نُشْفَى به من كل داءٍ مُعْضِلِ
أدعوك للجُلَّى وتلك شفاعةٌ لم تَرْضَ لى أنى أخاف وأنت لى
ولقد أتيتك مادحا لتجيزنى فى الحشر كاساتِ الرَّحيقِ السَّلْسَلِ

وهو يستغيث بالرسول الكريم ﷺ خاتم الرسل ومفرِّج الكرب الذى ورد على جدثه الطاهر ومعينه العاطر الذى يشفى من كل داء عضال أن يكون شفيعا له يوم الحشر وأن يتيح له فيه — حين يشتد بالناس أوار العطش ولهيبه — كاسات من الرحيق الصافى . ويقول فى مدحة نبوية ثانية :

ويلاىَ من نومىَ المشَرَّدْ وآهِ من شَمْلِىَ المبدَّدْ
غُصْنُ نَقًا حَلَّ عَقْد صَبْرِى بلينِ خَصْرٍ يكاد يُعْقَدْ
فمن رأى ذلك الوشاحَ الـ ـصَّائمَ صلَّى على محمَّدْ

أشرفُ مَنْ فى النهار ناجَى ‏ وخيرُ مَنْ فى الدُّجى تَهجَّدْ
وغـيـرُ بِـدْعٍ لمستجيرٍ ‏ به إذا نال كلَّ مَقْصِدْ

وموسيق الأبيات بديعة . وقد تخلص تخلصًا رائعا من الغزل إلى مديح المصطفى بذكر وشاح صاحبته الصائم كناية عن نحول خصرها مع لينه ، فمن رآها – كما يقول – صلَّى على الرسول إعجابا بها واستحسانا لها ، ومضى يذكر مناجاة الرسول نهارا وتهجده ليلا وأن من يستجير به ينال كل مأمول ومطلب . وله مدحة عارض بها مدحة كعب بن زهير للرسول مقتبسا منها الشطور الثانية لقصيدته ، فإن لم يقتبس شطرا اقتبس قافية .

وزهديات الأنصارى كثيرة ، وكان يصدر فيها عن زهد حقيق فى متاع الحياة الدنيا . وفى إحداها يقول :

مُلْكُ القناعةِ عزٌّ يُذْهِبُ الذِّلَّهْ ‏ فمن حَوَى كَنْزه لم يُوتَ من قِلَّهْ
تبًّا لذى طمعٍ مستعبدٍ ومُنًى ‏ لاتستقرُّ على رِىٍّ بلا غُلَّهْ
يسومُ إبلاعَهُ من رِيقِهِ بَلَلاً ‏ وليس يَرْوَى ولو أبْلعتَهُ دِجْلَهْ
فانْقَعْ غَليلَك من نَهْلٍ بلا عَللٍ ‏ واقنع إذا أكلةٌ أغنتْك عن أكْلَهْ

فالقناعة – فى رأيه – عز مابعده عز ، ومن حوى كنزها الذى لايفنى لم يَشْكُ من قلة ، ويقول تبًّا لصاحب طمع يستعبده ومنى لاتروى أبدا فدائما صاحبها يعانى من غُلَّة العطش وحرارته ، ودائما يريد أن يبلَّ ريقه ، إذ لا يَرْوى أبدا ولو أبلعته نهر دجلة ، فاكتف بأن تنقع حرارة ظمئك من النهل أو الشَّربة الأولى من الماء ولاتطلب العلل أو الشربة الثانية منه . واقنع بكفاف العيش ، وطوبى لمن زهد وقنع وأعرض عن متاع الدنيا الزائل . يقول :

وابْغِ أخرى دائمٌ فيـ ‏ ـهـا نـعـيـمٌ وشـقـاءُ
وتَنصَّلْ من خَطيئـا ‏ تٍ لها النارُ جزاءُ
وإذا صحَّ لك القو ‏ تُ على الدنيا العَفاءُ
كلُّ ما فى هذه الدُّنْـ ‏ ـيا قُصاراهُ الفـنـاءُ
ولأهْلُ الخُلْدِ فى الخُلْـ ‏ ـدِ ولله الـبـقـاءُ

وهو ينصح الإنسان أن يسلو الدنيا ويطلب الأخرى دار النعيم للأتقياء والشقاء للعصاة ، وأن

يتوب إلى ربه مستغفرا من خطيئاته وذنوبه . ويقول له يكفيك من دنياك القوت الكفاف ، وإذا حصلت عليه لا تتعلق من الدنيا بشيء فكل مافيها هالك وفان ، والسعادة إنما هى لأهل الجنة ولله البقاء والدوام .

وفى الديوان أشعار كثيرة على طريقة لزوم مالايلزم . ومر بنا أن الصفدى قال إن له فيها ديوانا كبيرا . وقد عرض له الحموى فى خزانته طائفة من تورياته وطائفة أخرى من أشعاره وافرة النغم حسنة الجرس والاداء .

محمد [1] بن سوَّار

هو محمد بن سوَّار بن إسراءيل بن الخَضِر الشيبانى الدمشقى المولد والدار والوفاة ، ولد سنة ٦٠٣ للهجرة . وتوفى سنة ٦٧٧ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته من الناشئة ، واختلف إلى حلقات الشيوخ ، ويبدو أنه شُغف بالتصوف منذ أوائل حياته ، ونظن ظنا أنه لزم ابن عربى المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ غير أن مترجميه يقولون إنه لزم على بن الحسين الحريرى المتصوف المتوفى سنة ٦٤٥ ومما يشهد لقولهم مرثيته له ، وهو فيها يبكيه بكاء حارا بمثل قوله :

خَطْبٌ كما شاء الإلهُ جليلُ ذُهِلتْ لديه بصائرٌ وعقولُ

ويعمّ بالخطب كل قطر ويزعم أن الحقائق الصوفية أصبح عليها ذلة وخمول وأن السالكين إلى التصوف غَوِيَ نهجهم وضلوا السبيل وسُدِل الحجاب الإلهى دون أبصار المتصوفة وخُتمت دنان خمر الحب الربانى . وإذا رجعنا إلى الحريرى عند من ترجموا له وجدنا فقهاء دمشق يفتون بقتله — كما أفتى فقهاء حلب بقتل السهروردى — لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة ، مما يجعلنا نظن ظنا أنه يتأثر السهروردى المقتول . ويبدو أن ملازمة ابن سوار للحريرى لم تؤد به إلى انحرافات ، والسبب فى ذلك أنه كان متصوفا حقا ، إذ يقولون إنه تجرَّد ولبس المرقعات الصوفية ورحل فى البلاد على قدم الفقر والتصوف . ولقى — فيمن لقى — شهاب الدين السهروردى الصوفى السنى البغدادى وسمع عليه وأجلسه فى ثلاث خلوات . ولقى أيضا ابن الفارض متصوف

---

(١) انظر فى محمد بن سوار وشعره وأخباره فوات الوفيات ٤٣١/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٢/٧ وشذرات الذهب ٣٥٩/٥ والوافى ١٤٣/٣ وراجع ترجمة على بن الحسين الحريرى فى الفوات ٨٨/٢ وكذلك ترجمة محمد بن عبدالمنعم الخيمى فى الفوات ٤٥٨/٢ .

مصر المشهور ، ويذكر الرواه لذلك قصة هى أن ابن سوار حجّ ، فرأى ورقة ملقاة فيها قصيدة — وكانت لابن الخيمى المتصوف المصرى تلميذ ابن الفارض — فادعاها لنفسه ، فراجعه ابن الخيمى وعبثا حاول أن يقنعه ، فتحاكما إلى ابن الفارض فطلب إلى كل منهما أن ينظم قصيدة على نفس الوزن والروى ، وكانت القصيدة بائية ، فنظم كل منهما على غرارها قصيدة ، فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الخيمى .

ولم نصل بين ابن سَّوار والسهروردى البغدادى لأنه كان سنى التصوف وتصوف ابن سوار فلسفى ويتصل مباشرة بتصوف ابن عربى ومافيه من فكرة وحدة الوجود ، ولذلك وصلناه به ، كما يشهد بذلك شعره من مثل قوله :

إن أمَّ صحبى سَمُرًا أو أَراكْ فإنما مقصدهم أن أراكْ
وإن ترنَّمْتُ بذكر الحِمَى فإنما عَقْدُ ضميرى حِماكْ
وإن بكى صَبٌّ حبيبًا فما أحسب إلا أنه قد بكَاك
ملأتَ كلَّ الكون عشقا فما أعرف قلبا خاليا من هَواكْ

فصْحبه إن أمُّوا به شجر السَّمُرِ والأراك فقصدهم أن يرى ربه محبوبه الذى يحل فى كل مكان ، وهو حين يذكر فى غزله الحمى إنما يريد حماه ، بل إن كل من بكى حبيبًا إنما يبكيه لأنه يحلُّ فى جميع الأشخاص والأشياء ، فما يعشق الناس شخصا أو شيئا إلا ويعشقونه ، وكأن كل شىء مرآة له ، إذ يتراءى فى كل الوجود . ويقول من قصيدة ثانية :

يامَنْ يشير إليهم المتكلّمُ وإليهـمُ يـتـوجَّـهُ المتـظـلِّـمُ
وعليهمُ يحلو التأسُّفُ والأسى ويلذُّ لوعاتِ الغرام المُغْرَمُ
هذا الوجودُ وإن تعدَّد ظاهرا وحياتِكم مافيه إلا أنتمُ
وإذا نطقتُ ففى صفات جمالكم وإذا سألتُ الكائناتِ فعنكمُ
وإذا سَكِرْتُ فمن مُدامةِ حبِّكم وبذكركم فى سَكْرَتى أترنَّم
وإذا نظمتُ تغزلا فى صورةٍ فلأجل حُسْنِكمُ المحجَّبِ أنظمُ
أنتم حقيقةُ كلِّ موجودٍ بَدَا ووجودُ هذى الكائنات توهُّمُ

والأبيات صريحة فى أنه مؤمن بوحدة الوجود . فالله يحل فى الوجود جميعه ، وكل مافيه من

أشخاص وأشياء مظاهر له ، وهو لذلك إن تحدث عن جميل أوسأل كائنا من الكائنات إنما يسأل الله ويتحدث عن جماله المشاهد فى كل جميل . وهو إذا سكر فسكره من خمر الحب الإلهى الذى يترنَّم به ويشدو آناء الليل وأطراف النهار . وهو إذا تغزل فى صورة واستشعر وجدا إنما يستشعر الوجد الربانى . وإنه لينبثُّ فى كل موجود وحدة متصلة بين الله ومخلوقاته . وهى نفس الأفكار التى تلقانا عند ابن عربى ، ولذلك تكلم فيه أهل السنة ، ورموه بأنه يؤمن بالاتحاد بين الله والموجودات . وعلى هذه الشاكلة قوله :

خَلا منه طَرْفى وامْتلا منه خاطرى فطَرْفى له شاكٍ وقلبىَ شاكرُ
ولو أننى أنصفتُ لم تَشْكُ مُقْلتى بِعادا ودارات الوجود مظاهرُ

فالله يمتزج بروحه ولايراه ، لذلك طرفه يشكو وقلبه يشكر ، ويقول إنه كان جديرا بمقلته أن لا تشكو بعاد الحبيب لأن دارات الوجود جميعا من حوله مظاهره ، فكيف لاتبصره وهو متحد بكل الكائنات مشاهَدٌ فى كل الأشياء . وكان للمتصوفةلأيامه ليال يحيونها بالدفوف والذكر وإنشاد الشعر عليه إلى السَّحَر ، ويُرْوَى أنه حضر مع نجم الدين بن الحكم الحموى ليلة من تلك الليالى فغنى المغنى من شعره :

وما أنت غيرُ الكَوْنِ بل أنت عينهُ ويفهمُ هذا السرَّ مَنْ هو ذائقُ

فقال ابن الحكم : كفر ، فقال ابن سوار : لا ، ماكفر ، لكن أنت ماتفهم ، وتشَوَّش المجلس . وفى البيت وفى بقية الشعر مايدل على ابن سوار يريد أن يقول – على أساس مايزعمه من فكرة وحدة الوجود – إن الله هو الكون أو الوجود بجميع مافيه ، والفكرة بأساسها – كما يرفضها ابن الحكم – يرفضها – كما ذكرنا ذلك أيضا – أهل السنة وأصحاب التصوف السنى .

عفيف [1] الدين التلمسانى

هو سليمان بن على بن عبدالله الكوفى التلمسانى ، وتدل نسبته إلى تلمسان فى الجزائر على أنه مغربى الأصل ، كما تدل نسبته إلى الكوفة على أن بعض آبائه نزل الكوفة واستوطنها فيما يبدو ،

(١) انظر فى عفيف الدين وأشعاره وأخباره فوات الوفيات ٣٦٣/١ وراجع فيه ترجمة ابن الخيمى ٤٦٣/٢ وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١٣ والنجوم الزاهرة ٢٩/٨ والشذرات ٤١٢/٥ وديوان الحقائق ومجموع الرقائق لعبد الغنى النابلسى ص ٢٨٩ ، ٣٢٦ . وديوان عفيف الدين طبع قديما بالقاهرة وبيروت .

ولا نعرف شيئا عن نشأته ، ويبدو أنه نشأ بدمشق وأنه اختلف إلى حلقات علمائها يأخذ كل ماعندهم ، ولعل ذلك ماجعله يؤلف فى كل علم كما يقول صاحب الوفيات . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وعُرِف فضله وأدبه ، ويقول مترجموه إنه خدم بعدة جهات يقصدون عدة مناصب ، وأغلب الظن أنها جميعا كانت فى دمشق وفى دواوينها وخاصة فى بيت المال . وأخذ مبكرا يتصل بالمتصوفة ولزم صدر الدين القونوى أحد أتباع ابن عربى ، ويبدو أنه اعتنق مذهبه فى وحدة الوجود على يده . ونزل معه فى العقد السادس من القرن السابع خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، ومكثا بها مدة ، رُزِق فى أثنائها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل . ولقى فى القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوى ابن سبعين الأندلسى ، وكان على شاكلة القونوى وابن عربى يؤمن بوحدة الوجود ، فأكَّدها فى نفس عفيف الدين . وعاد إلى دمشق ، وتارة كان يعمل بها فى الدواوين ، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعيا إلى طريقة ابن عربى ، ومذهبه فى وحدة الوجود . وترك دمشق مدة إلى الأناضول ، أوكما كانت تسمى حَينئذ بلاد الروم ، وعمل فيها أربعين خلوة صوفية ، يخرج من واحدة ويدخل فى أخرى . ويقول مترجموه إنه كان حسن العشرة كريم الأخلاق له حرمة ووجاهة ، ولعله لذلك لم يتعقبه الفقهاء ، وظل موزعا بين عمله فى دواوين دمشق وعمله فى ميدان التصوف حتى توفى سنة ٦٩٠ للهجرة .

وكان تصوف عفيف الدين – كما ذكرنا آنفا – تصوفا فلسفيا على طريقة ابن عربى ، مما جعله يُعْنَى بشرح أعقد كتبه فى التصوف ونقصد كتابه : « فصوص الحكم » وفى مكتبة ولى الدين بإستانبول مخطوطة منه . وأشعاره الصوفية أشعار غزلية حسية على طريقة ابن عربى فى ديوانه « ترجمان الأشواق » من مثل قوله فى قصيدته التى نظمها على غرار قصيدة ابن الخيمى المذكورة آنفا فى ترجمة ابن سوار :

لولا الحِمَى وظباءٌ بالحِمَى عُرُبُ ... ماكان فى البارق النَّجْدِىِّ لى أَرَبُ
وفى رياض بيوت الحىِّ من إضَمٍ ... وَرْدٌ جَنِىٌّ ومن أكمامه النُّقُبُ
لاتقدر الحُجْبُ أن تُخْفِى محاسنَه ... وإنما فى سَناه الحجْبُ تنْحَجبُ
ياسالما فى الهوى مما أكابدُه ... رفقًا بأحشاءِ صَبٍّ شَفَّه الوَصَبُ
هل السلامةُ إلا أن أموتَ بهم ... وَجْدًا وإلا فبُقْياىَ هىَ العطَبُ

وعفيف الدين يستشعر وجد المحبين إزاء محبوبه الربانى ، ويتحدث عنه حديثا رمزيا ، فلولا

حياه ما كان له أمل وراء البارق النجدى ، ولا كان له ولوع بورد الخدود فى رياض بيوت الحى من إضم . ويتصور كأن الأقنعة أو الحجب التى تُسْدَلُ على تلك الخدود هى أكمام الورود ، ويقول إن الحجب لاتستطيع أن تخفى محاسنه إذ تذوب فى سناه وضيائه المشرق . ويذكر أن أحشاءه تستشعر أوجاع حبه وأن سلامته إنما هى فى أن يموت فى حب ربه وجدا وهيامًا ، وإلا فبقاؤه هلاكه ، ويقول إن السكارى يفيقون من سكرهم ، وهو لايفيق مما شرب من دَنِّ هذا الحب الإلهى :

لاتحسبوا أننى عن حُبِّكم سالى　　وحقِّكم لم يزل حالى بكم حالى
يا ساكنين فؤادى وهْو منزلكم　　لاعشتُ يوما أراه منكمُ خالى
أنتم بقلبىَ أَدْنَى من جَوَانِحه　　حقًّا على رغم حُسَّادى وعُذَّالى
أوضحتمُ لمحِبِّيكم طريقَكمُ　　حاشاكمُ تهجرونى بعد إيصالى

وفى البيت الأول تورية واضحة فى كلمة « حالى الثانية » إذ ليس المراد معناها الظاهر كما فى « حالى السابقة » وإنما المراد أن حاله لايزال بحبه لربه حاليا أومزدانا بحلى بديعة . ويقول إن محبوبه الإلهى حال بفؤاده وأنه أدنى لقلبه من جوانحه ومايحيط بها من صدره ، وكأنما يشير إشارة إلى فكرة الاتحاد بالذات الإلهية التى كان يؤمن بها ابن عربى . ويتضرع إلى محبوبه الربانى أن لايهجره بعد وصله . ويقول :

يا أُصَيْحابى بذى سَلَمٍ　　مَنْ أُصيْحابى وما السَّلَمُ
أنا عنى اليوم فى شُغُلٍ　　فاذكرونى إن نسيتكمُ
وأشيعوا فى الحِمَى خَبَرى　　وأذيعوا السرَّ واكْتَتِمُوا
لايرانى الحِبُّ مُنْثَنِيًا　　بعد مالاحتْ لىَ الخَيَمُ
كنتُ قبل اليوم فى حُلُمٍ　　وتقضَّى ذلك الحُلُمُ
فزمانى كلُّه طَرَبٌ　　دونه الأوتار والنَّغَمُ

إنه على وشك أن يتحقق أمله فى الوصول إلى محبوبه الإلهى . وهو لذلك يخاطب أصحابه بذى سلم أحد المواضع النجدية التى يذكرها أصحاب الغزل العذرى . ويرجع إلى نفسه وقد لاحت له خيام محبوبه ، كما يقول ، فيعلن أنه فى شغل عن أصحابه وعن السلم ، وأنه لن ينثنى عن طريقه إلى محبوبه الذى طالما حلم بوصله ولقائه ، وقد انقضى عهد الحلم . وهو لذلك فرح

مبتهج ، وزمانه من حوله كله طرب طربا يفوق طرب الأوتار والأنغام واللحون . ولما فى هذه القطعة وسابقتها من وجد صوفى مندلع خَمَّسها عبدالغنى النابلسى مع أبيات متصلة بهما لم ننشدها ، وهو وجد كان لايزال يملأ قلب عفيف الدين غبطة وابتهاجا .

عبدالغنى (١) النابلسى

هو عبدالغنى بن إسماعيل النابلسى الدمشقى الحنفى ، كان أبوه من فقهاء دمشق الأحناف ، وكانت له حلقة بجامعها الأموى . ودرس فيها بالمدرسة القيمرية وبجامع السلطان سليم ، ورحل إلى حلب والقسطنطينية والقاهرة واستقر بدمشق . وولد له فيها ابنه عبدالغنى سنة ١٠٥٠ للهجرة ، وعُنى بتعليمه بعد حفظه للقرآن الكريم ، فلقنه المذهب الحنفى ، ودفعه إلى حلقات العلماء فى دمشق يأخذ عنهم العربية والفقه والحديث النبوى والتفسير ، وأكبَّ على كتب الصوفية يقرؤها . وسرعان مانضج علميا وهو لايزال فى العشرين من عمره فأخذ يقرأ الدروس ويلقيها على طلابه ، مما جعله يكثر من التأليف والتصنيف حتى لتبلغ مصنفاته ٢٢٣ مصنفا ، وقد استغرقت فى كتاب سلك الدرر للمرادى سبع صفحات . واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ يعنى بالتصوف ، فانتظم فى الطريقة القادرية ثم فى الطريقة النقشبندية ، وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية عنوانها : مفتاح المعية فى الطريقة النقشبندية ، ثم جذبه إليه مذهب ابن عربى الصوفى الفلسفى ، وكأنما عاش به وفيه وله ، إذ يصدر عنه بوضوح فى ديوانه الصوفى . ديوان الحقائق ومجموعة الرقائق ، وهو فيه يجاهر بأنه يؤمن بوحدة الوجود التى آمن بها من قبله إمامه ابن عربى ، ويردِّد دائما : ليس فى الكون سواه ، فلا موجود إلا به ، وما الكائنات إلا صورة له ، يتجلّى فيها بأسمائه وصفاته ، يقول :

إنه اللهُ وجودُ واحدُ　　حكمةٌ فينا حرامُ وحلالْ
وهْوَ حقٌّ وسواهُ باطلُ　　قال فى القرآن والسبع الطِّوالْ
أينما أنتم تولُّوا ثَمَّ وَجْـ　　ـهُ الإلهِ الحقِّ محمودِ الفعالْ

---

(١) انظر فى عبدالغنى النابلسى وأشعاره وأخباره كتاب سلك الدرر ٣/٥٣٠ ونفحة الريحانة ٢/١٣٧ وتاريخ الجبرتى ١/١٥٤ وله ديوان الحقائق ومجموع الرقائق فى صريح المواجيد الإلهية والتجليات الربانية والفتوحات الأقدسية - طبع قديما بمصر بالمطبعة الأشرفية فى ٤٧١ صفحة من القطع المتوسط .

وهو يستدل على صحة القول بنظرية وحدة الوجود بقوله تعالى فى سورة البقرة : (ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تُوَلُّوا فثّم وجه الله) والآية إنما تشير إلى ان أى مكان من المشرق والمغرب يأمرهم الله باتخاذه قبلة تكون هناك جهته التى أمرهم بالاتجاه إليها لا أنه موجود فيها حالٌّ بها ومتحد معها كما يذهب النابلسى وابن عربى زاعمين أن ذاته هى ذات جميع الكائنات ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ويقول النابلسى متحدثا بلسان الذات العلية :

ألا إن ذاتى ذاتُ كلِّ الخلائقِ ... وسَلْ عنه ذا علمٍ كريمِ الخلائقِ
ولا صفةٌ إلا ومنِّى تعيَّنتْ ... لموصوفها إذ كنتُ أصلَ الدقائق
أنا الجوهرُ السَّارِى بغيرِ سِرايةٍ ... ألوحُ وأخفى فى جميع الحقائق
أنا النورُ نورُ العَيْن منى تكوَّنَتْ ... عيونُ البَرايا من مَشُوقٍ وشائق

فالله جوهر الوجود ، يلوح ويخفى ولاسواه ، إذ كل مافى الكون مظاهر له ، يصبغها بوجوده . ويحاول النابلسى جاهدا أن يفرِّق بين القول بالحلول وأن الله يحلُّ فى جميع الموجودات وبين مايزعمه هو وابن عربى من وحدة الوجود ، وإنها لتبلغ به أن يقول فى مخاطبة ربه ، « ها أنت أنا وليس فى الحضرة ثانى » أو كما يقول :

اثنان نحن وفى الحقيقة واحدٌ ... لكنْ أنا الأدنى وأنت الأكْبَرُ

فهو والله واحد بل جميع الكائنات والله –جل جلاله– واحد . وهى نفسها فكرة وحدةالوجود التى يحاول جاهدا الخلاص منها ولاخلاص فهو غارق فيها . وهو بذلك من أصحاب التصوف الفلسفى على طريقة ابن عربى . وله شرح على ديوان ابن الفارض حاول أن يحيله رموزا خالصة على نحو مانجد فى شرحه لأول بيت فى القصيدة اليائية بالديوان :

سائقَ الأظعانِ يَطْوى البِيدَ طَىّْ ... مُنْعِمًا عَرِّجْ على كُثْبان طَىّْ

يقول : « سائق الأظعان هو الله تعالى ، والأظعان : الناس وكثبان طىّ كناية عن المقامات المحمدية التى عددها كرمال الكثيب ، فكأنه يلتمس من الله تعالى أن يوصِّله –كما يوصِّل جميع المؤمنين– إليها » . وابن الفارض لم يقصد إلى شىء من هذا كله ، إنما خاطب سائق الأظعان المتجه إلى منازل طى على حافتى نجد والحجاز ليتمهَّل قليلا حتى يحيِّى من يمر بهم فى طريقه إلى الحجاز معبرا بذلك عن حنينه إليه . وطبيعى وهو قد قرأ ابن الفارض وابن عربى وتمثل كثيرا من

أشعار المتصوفة مخمسا لها ومشطرا كما يتضح فى ديوانه الصوفى أن نراه تارة يتغزل فى بثينة وعلوة وسلمى وزينب وسعاد ، وهى كلها رموز للذات الربانية ، وتارة ثانية يصف الخمر وساقيها وكأسها وشرابها وحَبابها وما تحدث فى روحه من نشوة وفى عقله من شطح . ونراه يهاجم علم الكلام والمتكلمين إذ يدعون إلى ضرورة العلم بالله عن طريق النظر العقلى الفلسفى لا كما يؤمن المتصوفة بأن العلم إنما يستمد من القلب ، وشتان بين علم العقل والفلسفة وعلم المحبة القلبية . وله قصيدة بديعة فى الاستغفار من ذنوبه وخطاياه امتدت إلى ٩٢ بيتا تلاها بالصلاة على الرسول الكريم وآله وأصحابه والتابعين وقصيدة ثانية توسل فيها بأسماء الله الحسنى أن يدفع عنه كل شر ويسبغ عليه كل خير ، وختمها أيضا بالصلاة على رسول الله وآله وأصحابه ، وله فى الرسول غير قصيدة نبوية وغير موشح وقد افتتح موشحا له بقوله :

نورُ طهَ المصطفى منه جميعُ الكائناتِ وبه كان الترقى فى جميع الدَّرجاتِ

ونحسُّ فى الموشح إيمانه بفكرة الحقيقة المحمدية السارية فى الكون بأسره التى تحفظ عليه كيانه وتصون وجوده ، فكل وجود مستعار من وجوده وكل نور مستمد من نوره . وفى الديوان موشحات ودوبيتات أو رباعيات كثيرة ، وتكثر مثلها المواليا العامية ، وفى الديوان أيضا منظومة صوفية من وزن « كان وكان » العامى .

٦

شعراء شعبيون

لا نقصد بشعبية الشعراء فى الشام أنهم نشأوا فى بيئاتها الشعبية من سلالة عامتها ، فدائما جمهور الشعراء فى كل بلد عربى انحدروا من أسر شعبية ولم ينحدروا من أسر أرستقراطية ، وإذا استثنينا أبا فراس وبعض أفراد أسرته الحمدانية ممن أنشد أشعارهم الثعالبى وأيضا بهرام شاه الأيوبى صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة ونفرًا من أفراد أسرته ممن ترجم لهم العماد فى خريدته بقسم الشام ومن جاء بعدهم مثل الملك الأشرف صاحب « حصن كيفا » حفيد الملك العادل أخى صلاح الدين المتوفى سنة ٦٣٦ إذا استثنينا هؤلاء الأمراء وهم قلة بجانب الكثرة الغامرة من الشعراء وجدنا مَنْ عداهم من أبناء الشعب . وكان بينهم غير شاعر يحترف عملا يكفل له عيشه ، مثل يحيى الخباز الحموى الذى أنشد له صاحب الخزانة طرائف كثيرة من تورياته ، وبالمثل صنع مع

شمس الدين محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٨١١ واشتهر باسم صنعته . شمس الدين المزين : لانريد إذن بشعبية الشعراء التالين نشأتهم فى أوساط شعبية ، وإنما نريد أنهم اتخذوا لغة الشعب العامية لسانا لهم فى أشعارهم .

وكانت قد أخذت تشيع فى الشعر لهذا العصر فنون شعرية عامية هى : الزجل والمواليا ، والقوما والكان وكان ، ومعروف أن الزجل نشأ فى الأندلس أولا عند ابن قزمان وصحبه فى القرن الخامس ثم شاع فى البلاد العربية . أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولا بالعراق ثم أخذت تشيع فى البلاد العربية منذ القرن السابع . وربما كان الزجل أكثرها شيوعا فى الشام يدلّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة فى كتابه : « العاطل الحالى » ينوِّه بشيوع الزجل لزمنة هناك ، ويقول إنه لقى من أعلامه بدمشق شهاب الدين أحمد الأمشاطى إمام هذا الفن الشعبى بها كما لقى بحلب راوية ثقة من أكبر رواته هو ابن الضرير الشيخ الصالح إمام الفردوس ، وكان قد جلب لنفسه نسخة وثيقة مقابلة على الأصل من ديوانى الزجالين الأندلسيين الكبيرين : ابن قزمان ومدغليس حُملت إليه من المدرسة الأشرفية بدمشق . ويذكر صفى الدين أنه كان قد حصل على الديوانين فى زيارته لمصر (٧٢٣ – ٧٢٦ هـ) غير أنهما كانا بخط مغربى تعسر قراءة بعضه ، فصحح الديوانين بمقابلة نسخة ابن الضرير ومراجعته ، وأجاز له بخطه مانقله عن نسخته . وعرَّفه بمشايخ الزجل فى حلب . ومن أعلامه البارعين حينئذ بحماة علاء الدين بن مقاتل ، وسنترجم له عما قليل . ولعلنا لانعجب بعد أن رأينا إقبال أهل الشام على قراءة ابن قزمان ورواية أزجاله أن تكون هى القطر الوحيد الذى احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان الوحيدة التى عثر عليها جنزبرج سنة ١٨٩٦ ونشرها بطريقة الزنكغراف . ولعل من الطريف أن نعرف أن .. فقيها محدثا كبيرا هو شمس الدين بن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة ألَّف شرحا على بردة البوصيرى باسم رقم البردة ، استشهد فيه بشعر أهل زمنه فيما عرض له من أنواع البديع وأيضا استشهد بطائفة من محاسن أزجالهم [1] ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطة من هذا الشرح . وهو اعتراف قوى بالزجل وصلاحيته ليكون مادة لتعليم البلاغة والتطبيق على محسناتها المختلفة .

وكانت المواليا شائعة أيضا . وإن لم يقصر بعض الشعراء نفسه على النظم فيها . وكأنما كان الشعراء يضيفونها إلى شعرهم الفصيح استطرافا . وقلما تُصَاغ صياغة فصيحة ، إذ تَطَّرد فيها

---

(١) انظر خزانة الأدب للحموى ص ٦ ، ١٧٦ .

العامية ، ومما يلقانا من طرائفها قول جوبان بن مسعود الدمشقى المتوفى فى حدود سنة ٦٨٠ للهجرة[1] :

أفارقُه وأول إنى قد اتْسلَّيتْ وريحْت قلبى وزال الهم واتخَلَّيتْ
واذكر مساويه فى حتى إذا وليِّتْ وإذا رجعْ نِسيتِ الكلّ واتخَلَّيت

والتورية واضحة فى كلمة « واتخلَّيت » المكررة قافيةً للبيتين ، والأولى من التخلِّى بمعنى أنه أصبح خاليا من الهم والغم ، والثانية كلمة عامية من الخلل ، تقول العامة أصابه خلل واختل عقله . ويريد أنه إذا لقى صاحبته أصابه ذهول ، فنسى كل ما كان فيه من فكر فيها وسلوى عنها وُبْعد عن الهم .

ونلتقى بمعاصره عز الدين بن السويدى المتوفى سنة ٦٩٠ وهو من سلالة سعد بن معاذ الأوسى سيد قومه الصحابى الجليل . وكان شيخ الأطباء بدمشق ، وكان – كما يقول بعض من ترجموا له – من أسرع الناس بديهة فى قول الشعر وأحسنهم إنشادا ، وله مواليا[2] :

البدر والسَّعد ذا شِبْهك وذا نَجْمك والقدّ واللَّحْظ ذا رمحك وذا سَهْمك
والبغض والحب ذا قِسمي وذا قِسْمك والمسك والحسن ذا خالكْ وذا عَمك

فصاحبته تشبه البدر ونجمها أو حظها السعد ، وقدها مستو ممشوق مثل الرمح ولحظها فاتك قاتل مثل السهم ، والبغض قسمها ونصيبها والحب قسمه ونصيبه ، والمسك خال الحسن على وجنتيها والحسن يعم كل أعضائها وفى كلمة « عمّكَ » تورية واضحة . وله مواليا أخرى فكهة :

ذى قايله لاختها والقصد تُسمعنا ما النحو؟ قالت لها : نِحْنا بأجمعنا
الرفع والنصب نا وانتى ومن معنا للجر ، والزوج حرف جاء للمعنى

والدعابة للنحو والنحاة واضحة ، وكلمة نحنا هى نحن بالفصحى . ونظَم أصحاب المواليا فى جميع أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وخمر وطبيعة ، واستغلَّها المتصوفة فنظموا مواليات كثيرة . ونلتقى فى ديوان عبدالغنى النابلسى بنحو ثمانين مواليا نكتفى منها بقوله[3] :

(١) فوات الوفيات ١/٢١٨ .
(٢) راجع فى هذه المواليا وتاليتها المنهل الصافى لابن تغرى بردى ١/١٢٧
(٣) ديوان الحقائق للنابلسى ص ٢٦٨ .

الباطن السابق الظاهر هو المسبوق والكل واحد فكن أعلى من العيّوق
واخرج عن الكل أنت الكل يامعتوق أما الجميع هو الخالق أو المخلوق

فليس فى الكون إلا وجود واحد هو وجود الله المتمثل فى جميع مخلوقاته ، أو بعبارة أخرى هى وحدة وجود تغمر الكون كله .

ومعروف أن القوما اخترعها المغنون والمنشدون ببغداد لإيقاظ الناس كى يتناولوا سحورهم استعدادا للصوم ، وكانوا يختتمون كل بيتين منها أو دور بكلمة « قوما للسحور » ومن هنا أخذت اسمها وشاعت فى البلدان العربية . أما الكان وكان فقد اخترع البغداديون وزنه لنظم الحكايات والخرافات وأحداث التاريخ ، ثم اتسعوا به فنظموا فيه المواعظ والزهديات والحكم كما مر بنا فى قسم مصر . ولابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ منظومة[١] منه صور فيها أحداث وباء الطاعون الذى امتُحنت به الشام ومصر سنة وفاته . وفى ديوان عبدالغنى النابلسى منظومة صوفية منه فى عشرين[٢] بيتا تصور عقيدته فى وحدة الوجود . وحرى بنا أن نتحدث بكلمة مجملة عن أبى العلاء بن مقاتل الزجال .

أبو[٣] العلاء بن مقاتل

هو على بن مقاتل الحموى ولد سنة ٦٧٤ بحماة ، ويقول ابن حجر إنه « تعانى الأدب فتعلم الشعر قليلا ، وغلب عليه نظم الأزجال فاشتهر بها ، وأزجاله فى ديوان مفرد فى مجلدين.. وكان هذا الفن قد انتهى إليه فى زمنه .. وكانت وفاته فى أوائل سنة ٧٦١ » ويذكر ابن حجر أن له زجلا مشهورا فى الملك المؤيد صاحب حماة (٧١٠-٧٣٢) أنشده إياه وعنده ابن نباتة والصفى الحلى . وكان الصفى قد نزل حماة ومدح المؤيد وابنه الأفضل فى أواخر العقد الثانى وأوائل الثالث من القرن الثامن . ويشيد به ابن حجة الحموى فى خزانته قائلا : « وكان الشيخ علاء الدين بن مقاتل إذا ذكر الزجل كان ابن بَجْدته وأبا عُذْرته ، وممن سُلِّمت إليه مقاليد هذا الفن.. وأورد الشيخ صلاح الدين الصفدى نبذة من غرر أزجاله فى تذكرته وتاريخه تغنى عن الإكثار فى ترجمته » . وينشد الحموى زجله المشهور آنف الذكر وهو يستهله على هذا النمط :

(١) تتمة المختصر فى أخبار البشر لابن الوردى ٣٠٢/٢ .

(٢) ديوان الحقائق للنابلسى ص ٣٥٦ .

(٣) انظر فى أبى العلاء بن مقاتل وأزجاله خزانة الأدب للحموى ص ٤٧ ، ٥٠ ، ١٧٦ والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢٠٨/٣ وأنشد النواجى له فى كتابة عقود اللآل ستة أزجال (انظر الفهرس)

قلبي يحب تيَّاه ليس يعشق إلا إياه فازمن وقف وحيَّاه يَرْصد على مُحَيَّاه
بَدْر السَّما لو يسطع من رام وصالُو يعْطُبْ
صغيّر يحيّر فى أمرو غزال قهر بِسُمْرُو ليث الهوى ونمرو فاعجبْ لصغر عمرو
ريم ابن عشرٍ وأربع أرْدَى الأُسود وأرْعب
أذكر نهار تبعتو وروحى كنت بعتو وخَيَّب مافيه طمعتو فقال وقد سمعتو
ارجع ولالى تتبع أخشى عليك لتتعب
كم قدامو وخلفو مشيت مطيع لحلفو ورُمْت لَثْم كَفُّو قال دَعْ مُناك وكُفُّو
فإنّ لثم إصْبَعْ من الثرَيَّا أصعب

وبمجرد أن نسمع هذا الصوت نعرف أن صاحبه زجال مبدع لقدرته على اختيار الألفاظ بحيث يعانق بعضها بعضا منذ الدور الأول « فتيَّاه » تجذب إياه و « حيَّاه » تجذب محياه ، وبالمثل « يطبع » فى القفل تجذب يعطب . وكأننا فى مرقص للألفاظ وبذلك يتسق النغم فى الزجل اتساقا بديعا . وكأنه عطر للآذان تستروحه مع روعة التصاوير وخفتها ورشاقتها ، فصاحبته بدر فى السماء لاتصل إليه الأيدى ، وهى غزال تقهر بعينيها الكحيلتين أو السمراوين .. مع صغرها الليوثَ والنمور . وتهلكها وترعبها رعبا . ونصحتْه أن لا يتبعها ، فأمله فيها سراب كاذب . ويحاول لثم كفها أو أنملا من أناملها فتقول له الثرياوأخواتها من نجوم السماء أقرب لك . وهى صنعة زجلية رائعة منتهى الروعة . وقد تلاعب بالجناس المقلوب فى الأفعال تلاعبا يدل على مبلغ مهارته ، فيطبع تقابلها يعطب ، وأربع تقابلها أرعب ، وتتبع تقابلها تتعب وإصبع تقابلها أصعب . وبذلك كله يتحول الزجل باللغة اليومية العادية التى لاتحتوى فنا إلى لغة زجلية شجية النغم كأنها تغريد عندليب مع مايحمِّل العندليب أنغامه من تلاوين الصور والأخيلة ، وبحق يقول صاحب الخزانة عن هذا الزجل : « سارت به الركبان » . وأنشد له صاحب الخزانة زجلين آخرين بديعين .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

عرفت الشام الرسائل الديوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بنى أمية ، لما كان من اتخاذه لديوان الرسائل ، واتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانيا للخاتم [١] أو ختم الرسائل التى تصدر عنه إلى الولاة ، ويهمنا خاصة الديوان الأول : ديوان الرسائل ، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه ، بحيث يكونون فى الذروة من البيان والبلاغة لزمنهم ، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب ، ويذكر الجهشيارى أثباتا طويلة بأسمائهم . أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالى فأصبح كتابه من العرب ، وسرعان ماعُنى الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأخذوا يشاركون فى ديوان الرسائل [٢] .

ومانصل إلى زمن الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٤ – ١٢٤ هـ) حتى يصبح زمام ديوان الرسائل فى دمشق بيد مولى لهشام هو سالم [٣] ، وكان يتقن اليونانية ونقل عنها بعض رسائل لأرسطاليس [٤] ، ومعنى ذلك أنه كان مثقفا ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية ، وعدَّه صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول فى تاريخ العرب وأدبهم ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة [٥] واحتفظ الطبرى برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسرى ، وهى تحمل عناية واضحة بالأسلوب ومايوفره له من الازدواج والترادف الصوتى . وتبعه فى النهوض بالرسائل

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ٢٤ .

(٢) انظر فى ذلك الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٠٣ .

(٣) الجهشيارى ص ٦٢ .

(٤) الفهرست ص ١٧١ .

(٥) انظر الفهرست ص ١٧١ ، ١٨٢ .

السياسية تلميذان : أحدهما من بيته هو ابنه عبد الله ، وثانيهما من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذى انتهت إليه رياسة ديوان الرسائل فى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وهو أبلغ كتاب الدواوين وأشهرهم حتى زمنه ، لبلاغته وقد ضُربت بها الأمثال ، فقيل : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد » [١] ويقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهَّل سبيل البلاغة فى الترسل [٢] » ويقول المسعودى إنه « أول من استخدم التحميدات فى الكتب [٣] » واشتهر برسالة وجَّه بها إلى الكتاب ، وهى تدل على نمو طائفتهم وأنهم أخذوا يشكِّلون فئة بارزة فى حياة الدولة والمجتمع ، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية [٤]. وكان يعرف الفارسية ، ويقول صاحب الصناعتين إنه استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى فحوَّلها إلى اللسان العربى [٥] » وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية . وتحتفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية ، ومنها رسالة [٦] طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجَّهه لمحاربة بعض الخوارج ، وهى أشبه بكتيِّب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتدبير شئونها من الوجهتين المادية والحربية . وبمجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هى والشام جميعه ولاية تابعة للعباسيين ، ولم يعد لديوان الإنشاء كبير أمر فى عصر الولاة والطولونيين والإخشيديين ، بل لقد تعطل تماما ، ولم نعد نسمع لدمشق أو للشام بكاتب كبير ، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد ، وأصبحنا طوال القرون : الثانى والثالث والرابع مشدودين إلى ديوان بغداد وكتَّابه العظام ، وأخذت الدولة الطولونية تعنى فى الفسطاط بهذا الديوان وظهر فيه ابن عبدكان وأضرابه ، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئا منه لم يسقط إلى الشام ، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة للطولونيين والإخشيديين جميعا ، وظل كثير من بلدانها تابعا لمصر فى زمن الدولة الفاطمية ، ولم ينشأ حينئذ فى دمشق أو غيرها ديوان إنشاء ينهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية ، حتى إذا أظلَّ دمشق حكم دولة الأتابكة البوريين (٤٩٧ — ٥٤٩ هـ) رأيناها تعنى

---

(١) اليتيمة للثعالبى (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ١٥٤/٣ .

(٢) الفهرست ص ١٧٠ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الرجاء) ١٧٨/٣

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وما بعدها

(٥) الصناعتين (طبعة الحلبى) ص ٦٩

(٦) صبح الأعشى للقلقشندى ١٩٥/١٠ وما بعدها .

بهذا الديوان ، ويشتهر ببلاغه الكتابة فيه كتاب مختلفون ، لعل أهمهم سنى الدولة[١] ابن أخى الشاعر ابن الخياط الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ، ويذكر له العماد قطعا مختلفة من منشوراته وتقاليده ، من ذلك قوله فى منشور بالوزارة :

« لما كان محله عندنا خطيرا ، ومكانه لدنيا مكينًا أثيرا ، لاقرين يجاريه ، ولانظير يماثله ويُباريه ، ولا متطاول يطمع فى إدراك معاليه ، شددنا بركنه أركانها ، وسددنا به مكانها ، وعوَّلنا عليه فيها ، واستنهضناه لتوليها ، ورأيناه كُفأها وكافيها » .

وكتاباته على هذا النحو دائما مسجوعة سجعا فيه غير قليل من الرشاقة والعذوبة . وكتب بعده لسلاطين دمشق البوريين عبد الله بن أحمد الحميدى المعروف باسم ابن النقاد[٢] الكاتب الدمشقى ، وظل يكتب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود ، وكتب له مدة يسيرة ، وتوفى سنة ثمان أوتسع وستين وخمسمائة ، ولم يذكر العماد شيئا من كتاباته .

ويُظِلُّ حلب ودمشق . وبلدان الشام الشمالية عهد نور الدين (٥٤١ — ٥٦٩ هـ) وكان وزيره ومستوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسرانى ، وهو ابن الشاعر المترجم له بين شعراء المديح ، ويقول العماد فيه : « كان نور الدين رفعه واصطنعه ، وبلغ منه مبلغا من الأمر كأنه أشركه فى الملك معه »[٣] ويذكر له ابن واصل توقيعا كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس والضرائب الباهظة عن كاهل رعيته فى البلدان التى أظلها حكمه جاء فيه[٤] .

« وقد علمتم — معاشر الرعايا وفقكم الله ورعاكم — ما كان مرتبا من المظالم المجحفة بأحوالكم والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيِّقة عليكم فى أرزاقكم ، والمؤن التى تساهمكم فى منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم إلى أن فوَّض الله — عزَّ وجَلَّ — لنا — تدبير أموالكم ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولا فأولا ، ولم نبتغ فى إقراره على وجوهه شُبْهة ولاتأولا » .

ويلى ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب . وكان من كتابه أبو اليسر[٥] شاكر بن عبد الله المعرى كاتب الإنشاء بدمشق ، واستعفاه من الخدمة سنة ٥٦٣

---

(١) انظر فى سنى الدولة الخريدة (بداية الشام) ص ٢٢٧ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣١٤/١ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٧٧/٧ والنجوم الزاهرة ٦٥/٦ .

(٣) الخريدة ١٢٥/١ .

(٤) انظر مفرج الكروب لابن واصل ٢٧٠/١ وما بعدها .

(٥) الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٢ وراجع فى أبى اليسر تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٠٤ .

فأقام العماد الأصبهانى مقامه ، وأضاف إليه – كما هو معروف – التدريس فى مدرسته المعروفة باسم المدرسة النورية الشافعية . ووصله القاضى الفاضل بصلاح الدين فرسم باستكتابه فى ديوانه بالشام ، وسنفرد له ترجمة مجملة ، وهو أكبر كتاب الدولة الأيوبية فى دمشق والشام غيرَ منازَع . وتتحول الشام إلى إقطاعات بعد زمن صلاح الدين ، حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبى ، ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل نابه ، وكان بينهم غير مصرى مثل ابن النبيه كاتب الأشرف موسى ، وقد ترجمنا له بين شعراء الغزل فى مصر ، ومثل عبد الرحيم بن على بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ صاحب ديوان الإنشاء للمعظم عيسى الأيوبى صاحب دمشق ، وله كتاب فى عمل الدواوين وتقاليد الكتابة الديوانية لزمن الدولة الأيوبية سماه « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » وهو مطبوع قديما ببيروت ، وهو أحد مصادر كتاب صبح الأعشى للقلقشندى . ويكثر منذ هذه الدولة ودولة المماليك أن يعهد برياسة ديوان الإنشاء بمصر إلى من يظهرون تفوقا فى إسناد هذا الديوان إليهم بدمشق ، ونذكر منهم تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبى المنشئ المتوفى سنة ٦٩١ للهجرة ، عمل فى ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة فى عهد الظاهر بيبرس وقلاوون ، وظل يترقى إلى أن ولى كتابة السر ، ويقول ابن تغرى بردى : « لكلامه رونق وطلاوة » ويذكر من إنشائه كتابا عن قلاوون إلى صاحب اليمن بفتحه لطرابلس واستيلائه عليها من أيدى الصليبيين نوَّه فيه باستعلاء قلاوون على غيره من الحكام القاعدين عن منازلة حملة الصليب الغارقين فى اللهو ، يقول[1] :

« وكانت الخلفاء والملوك مافيهم إلا مَنْ هو مشغول بنفسه ، مكبٌّ على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عَنَّ له وَصْف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة ، قد بلغ أمله من الرتبة وقنع من ملكه بالسِّكَّة والخطبة ، وأموال تُنْهب ، وممالك تذهب » .

ويريد بالسكة ضرب النقود ونقش أسمائهم عليها كما يريد بالخطبة دعاء خطباء المساجد لهم فى ختام خطابتهم يوم الجمعة . وتولى بعده كتابة السر فى القاهرة ابنه عماد الدين حتى توفى سنة ٦٩٩ وشغل مكانه أخوه علاء الدين على فى عهد محمد الناصر بن قلاوون .

وأكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة الشهاب محمود المتوفى سنة ٧٢٥ ، وقد مرت ترجمته بين شعراء المديح واحتفظ القلقشندى فى صبحه بنماذج كثيرة من رسائله

(١) النجوم الزاهرة ٣٢٣/٧ وراجع فى ترجمته ٣٤/٨

وتوقيعاته الديوانية ، وذكر هو نفسه منها طائفة فى كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وذكر ابن حجر عن الصفدى أن رسائله تدخل فى ثلاثين مجلدًا وأن بعض الفضلاء اختار منها مجلدين ، ومن قوله فى التهنئة بتقليد سيف(١) :

« وقلده مِنَّا : سيفا تلمع مخايل النصر من غِمْده ، وتشرق جواهر الفتح فى فِرِنْده ، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حَدِّه ، ومتى جرده على ملك من ملوك العدا وهتْ عزائمه ، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه ، وعُلِم أنه سيفنا الذى على عاتق الملك الأعز نِجاده وفى يد جبار السموات قائمه » .

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفى مصر فى دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخصه بكلمة ، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموى المعروف بابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حماه ثم كتابة سرها وصحب السلطان المؤيد شيخ أيام نيابته بدمشق ، وقدم معه إلى مصر حين تسلطن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السر بها إلى أن توفى ، وقد احتفظ القلقشندى له بعهد عن الإمام المستعين (الخليفة العباسى المقيم بمصر حينئذ) للسلطان المؤيد شيخ ، وفيه يقول (٢) :

« الحمد لله الذى جعل الدين بنصره مؤيدا ، وانتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه بادئة بائدة العِدا ، وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زُويتْ له عوارف العدل ومعارف الفضل ، فاستغنى ولله الحمد - بسعيد السعدا ، وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه ، فأصبحت مأمونة الرِّداء ، آمنة من الرَّدى ، وامتنَّ على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سَهْمُ تدبيره الشريف فيهم مسدَّدا » .

وقدرة ابن البارزى الإنشائية تتضح فى هذه السطور ، إذ يطيل سجعاته وقد جعل الدال قوافيها جميعا ، وهو إنما يطيل سجعاته ليضيف إليها الجناس كما فى « بادئة وبائدة » و « أحكام وإحكام » و « الرِّداء : الثوب (كناية عن الأحوال) والرَّدَى : الهلاك . ويفسح أيضا للسجع الداخلى فى السجعة مثل : « عوارف العدل ومعارف الفضل » .

---

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل طبع المطبعة الوهبية ص ١٠٠ . وفرند السيف : لمعان صفحته . والقوادم : ريشات الطائر الكبار فى جناحه . ونجاد السيف : حمائله

(٢) صبح الأعشى ١٠/١٢١ وانظر فى ترجمته النجوم الزاهرة ١٤/١٦١ .

وعيّن ابن البارزى فى ديوان الإنشاء أديبا مواطنا له هو ابن حجّة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وسنفرد له كلمة قصيرة ، وخلف ابن البارزى فى كتابة السر ابنه كمال الدين ، وكان تارة يُعْزَل وتارة يعود إلى كتابة السر حتى وفاته سنة ٨٥٦ .

ووراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم فى الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى القاهرة فى ديوانها الكبير كتّاب كثيرون كانوا يكتبون لحكام البلدان الشامية ، وأهمهم كتّاب ديوان دمشق إذ كان بها نائب السلطان ، وكان ديوانها لذلك أهم الدواوين الشامية ، ونذكر من كتّابها علاء الدين على بن محمد بن سليمان المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن نثره فى وصف قلعة [١] :

« لاترى العيونُ لبعد مرماها إلا شَزْرا ، ولاينظر سكانُها العدد الكثير إلا نَزْرا ، ولايظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بمالها من الأبراج ، ولها من الفرات خندق يحفّها كالبحر إلا أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » .

ونذكر من أهم كتّاب السر فى دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأثير المذكور آنفا ، وهو كمال الدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله ، تولّى كتابة السر بدمشق فترة وعُزل سنة ٧٦٤ وتولاها فتح [٢] الدين بن الشهيد حتى توفى سنة ٧٩٣ وكان بارعا فى الشعر وكتابة الرسائل ، ونظم السيرة لابن هشام فى رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت . ومنهم صدر الدين على بن محمد المعروف بابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ ولى نظر جيش دمشق ، ثم كتابة سرها ثم قاضى قضاتها ، ونقله معه المؤيد شيخ حين أصبح سلطانا لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة : «كان إما مابارعا أديبا فصيحا ذكيا[٣]» .

ومازالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفى غيرها من بلدان الشام . ونقف قليلا عند ثلاثة من كتابها النابهين .

---

(١) فوات الوفيات ١٥٩/٢ . النظر الشزر : المستهين . فرات : حلو . أجاج : شديد الملوحة .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٥/١٢

(٣) النجوم الزاهرة ١٢٢/١٤

العماد[1] الأصبهانى

هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصبهان سنة ٥١٩ وقدم به أبوه إلى بغداد واستقرَّبها . وانتظم هو فى سلك المدرسة النظامية مع لداته من الناشئة ، وتفقه بها ، وثقف علوم العربية ، وعاد مع أبيه إلى أصبهان سنة ٥٥٢ ، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط . وتوفى ابن هبيرة سنة ٥٦٠ وسُجن العماد فيمن سُجن من أتباعه ، ورُدَّت إليه حريته سريعا ، غير أنه لم يستطع أن يستردَّ مكانته ، ورأى أن يفارقها ، وولَّى وجهه نحو دمشق ، ونزلها سنة ٥٦٢ وكانت قد أصبحت تابعة لنور الدين محمود ، وقدَّمه قاضى دمشق كمال الدين بن الشهرزورى إلى أمير مهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب ، فاكتسب حظوته وحظوة ابنه صلاح الدين ، ثم قدمه القاضى إلى نور الدين فأعجب به واتخذه صاحب سره ، وبعث به رسولا إلى الخليفة المستنجد ببغداد ، ونجح فى مهمته . وعاد ففوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ التدريس فى مدرسته النورية التى أنشأها بدمشق لدراسة الفقة الشافعى ، وقد سماها من أجله تكريما له المدرسة العمادية . ولم يلبث أن أضاف إليه رياسة ديوان الإنشاء . ولما توفى نور الدين سنة ٥٦٩ عزلت حاشية ابنه اسماعيل العماد من وظائفه ، فترك دمشق قاصدا بغداد ، ومرض فى طريقه إليها بالموصل ، وعلم أن صلاح الدين قدم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها ، فعاد توًّا ، والتقى بصلاح الدين فى حمص ، وقدمه إليه وزيره القاضى الفاضل ، ورغَّبه فى إلحاقه معه بخدمته ، فاستكتبه صلاح الدين وظل يلزمه فى الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية . ولما توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق ، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استعفاه من عمله . وزار مصر حينئذ ، ثم عاد إلى دمشق ، فلزم داره يصنف ويؤلف حتى توفى سنة ٥٩٧ .

والعماد الأصبهانى أديب كبير : كاتب وشاعر ، وكان له ديوان كبير فى أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات ، وقد أنشدنا بعض شعره فى حديثنا عن شعراء المديح والرثاء ، وكان يجيد الفارسية

---

(١) انظر فى ترجمة العماد : معجم الأدباء ١١/١٨ وابن خلكان ١٤٧/٥ والروضتين فى مواضع مختلفة والجزء الثانى من مفرج الكروب لابن واصل وعبر الذهبى ٢٩٩/٤ والوافى بالوفيات ١٣٣/١ وطبقات الشافعية للسبكى ١٧٨/٦ والبداية والنهاية ٣٠/١٣ ومرآة الجنان ٤٩٢/٣ والشذرات ٣٣٢/٤ والجزء السادس من النجوم الزاهرة (انظر فهرسه) . وفى كتابيه : البرق الشامى والخريدة أخبار وأشعار كثيرة له .

لغة موطنه ، ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالى . ومرَّ بنا فى حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفاته التاريخية : كتاب البرق الشامى الذى وصف فيه أحداث حياته منذ انتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وفتوحاتهما وهو فى سبعة مجلدات ، وكتاب الفيح القسى فى الفتح القدسى فى وصف فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وكتاب نصرة الفطرة وعُصْرة القَطْرة فى تاريخ السلاجقة ووزرائهم . وذكرنا – فى غير هذا الموضع – أن الفتح البندارى اختصره باسم « زبدة النصرة ونخبة العصرة » وأنه طبع فى القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، وهو فى شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته فى أوائل العقد الثامن من القرن السالف . وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب العُتْبى والعُقْبى فى بيان الأحداث التى تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢ﻫ وكتاب نحلة للرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ، وكتاب خطفة البارق وعطفة الشارق فى ذكر أحداث من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته . وقد عمم العماد فى كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس ، مما يدل – رغم مافيها من تكلف – على مهارة أدبية رائعة .

وكانت له رسائل ديوانية كثيرة تشغل المجلدات الضخام ، وكان كلما فتح صلاح الدين فتحا دَحَر فيه حَملة الصليب ومزَّقهم تمزيقا كتب بذلك إلى الخليفة ببغداد وإلى القائمين على البلدان من الحكام ، يبشر بالنصر المبين فى سبيل الدين . ونقتطف قطعة من كتاب عن صلاح الدين إلى الخليفة يخبره فيه بضم الموصل – بعد موت صاحبها غازى بن مودود – إلى دولته ومملكته ، يقول فيه العماد :

« لاخفاء أن مصر إقليم عظيم وبلد كريم ، أنقذها الله من عَبيد بنى عُبَيْد الفاطميين وأطلقها بمطلقات أعنَّتنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأمونى السر إلى اليوم . وطوائف أقاليم الروم والفرنج بها مطيفة فمن حقها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل – والعياذ بالله – بها فتق لأعضل رَتْقه ، واتسع على الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصرى إليها ، وله خمس سنين فى بَيْكارها (حربها) منتقلا من كفارها متحملا لمشاقِّها على غلاء أسعارها » .

وقد جانس العماد فى أول القطعة بين « عَبيد وعُبَيْد » وبين « أطلقها وبمطلقات » . وتدل القطعة دلالة واضحة على أن جيش صلاح الدين المدمر لحملة الصليب كان مصريا على الأقل فى

جمهوره الأكبر . ويذكر صاحب الروضتين كثرة ما كان يكتبه العماد من البشارات فى كل انتصار لصلاح الدين على حملة الصليب ، وما كان أكثر انتصاراته ، ويذكر أنه حين فتح بيت المقدس كتب العماد سبعين بشارة ، وكانت البشارات رسائل طويلة يصف العماد فيها المواقع وصفا تفصيليا . ويسوق المؤرخون بشارته بهذا الفتح العظيم التى كتب بها إلى الخليفة ببغداد ، وفيها يقول ، بعد إطنابه فى تحميدها وشكر الله على سابغ نعمائه على الإسلام والمسلمين .

« هذا الفتحُ العظيم ، والتُّجْحُ الكريم ، قد انقرضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حَسْرةِ تَمنِّيه ، وحيرة ترجِّيه ، ووحشة اليأس من تسنِّيه (انفكاك عقدته) وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذى أعاد القدس (الشريعة) إلى المقدس ، وأعاذه من الرِّجْس ، وحقق من فتحة ما كان فى النفس ، وبدَّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عزَّ يومه ماحيًا ذُلَّ أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهاد والضلال من البطرك والقَسِّ ، وعبدة الصليب ومستقبلى الشمس .. وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد (يريد يوم الأحد) وقمع من كان يقول : إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد ، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذى هو فتح الفتوح » .

والطباق كثير فى القطعة ، والجناس يُنْثر فيها من حين لآخر . وقد يُكثر منه فى بعض رسائله كثرة مفرطة ، بل هو أهم محسن بديعى أكثر من استخدامه ، وعابه الصفدى بهذا الإكثار ، متمثلا بقوله فى جواب مكاتبة :

« وقف الخادم على الكتاب وأفاض فى شكر فضل فَيْضه المستفيض ، وتبلُّج (إشراق) وجه وجاهته وتأرُّج (انتشار) نبأ نباهته ماعرَّفه من عَوارفه (فواضله) البيض » .

يقول الصفدى معقبا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة : « انظر إلى قلق هذا التركيب وتعسُّفه فى هذا الترتيب » . ويقول السبكى معلقا على كلام الصفدى : « الأمر كما وصف ، ولقد مجّ سمعى فواتحُ أبواب كتاب خريدة القصر ، لما يكثر فيها من الجناس وردّ العجز على الصدر » . على أن الصفدى نفسه يلاحظ أنه « حين يخلو كلام العماد المسجوع فى رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب فى السمع وقعه ، ويتسع فى الإحسان صُقْعه (جانبه) ويرشف اللُّبُّ مُدامه ، ويكون عند مَن له ذوقٌ أطيبَ من تغريد حمامه » .

الصَّفدى (١)

هو صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفدى ، ولد بصَفد فى فلسطين سنة ٦٩٦ وعُنى فى أول حياته بصناعة الرسم ، ثم اتجه إلى علوم الشريعة والعربية ، وتنقل بين دمشق والقاهرة يأخذهما عن كبار العلماء ، وأولع بالأدب . وكان أول ماولى من الأعمال كتابة الدَّرج بموطنه صَفد ، يكتب مايوقِّع به كبار الكتاب فى دواوينها لجودة خطه ، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها ، ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها ، وتركها إلى دمشق ، وكان رئيس الديوان بها حينئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ وأعجب بالشاب الصفدى ، وعيَّنه فى كتابة الدَّسْت ، حتى يعاونه فى عمله ومايتصل به من إنشاء بعض الرسائل ، وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن نباتة ، وتخرج على يديه شاعرا ، كما تخرج على يدى الشهاب محمود كاتبا مجيدا . وتوفى الشهاب محمود سنة ٧٢٥ على نحو مامرَّ بنا فى ترجمته ، وظل الصفدى يعمل فى دواوين الشام ، وعُيِّن رئيسا لديوان الإنشاء بحلب وقتا ، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بها فى كتابة الدَّسْت مساعدًا لرئيس ديوان الإنشاء بها وخاصة فى كتابة التواقيع والمراسيم الخاصة بتعيين القضاة وكبار الموظفين . وأضيفت إليه حينئذ وكالة بيت المال ، واستمر فى الوظيفتين إلى أن توفى بدمشق سنة ٧٦٤ وكان قد تصدى قبيل وفاته فى الجامع الأموى للتدريس ، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبى وابن كثير .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان إماما بارعا كاتبا ناظما ناثرا شاعرا ، وديوان شعره مشهور بأيدى الناس وهو من المكثرين . ويقف الحموى فى خزانته مرارا ليذكر أن ابن نباتة لاحظ كثرة سرقاته لمعانى شعره وأنه ألف كتابا فى سرقاته منه سماه « خبز الشعير » يشير بذلك إلى أن عمله مذموم نفس مذمة خبز الشعير وأكله . وشعره فى جملته متوسط وهو يكثر فيه من التورية ، ومن طريف ماله قوله :

بسَـهْـم ألحاظِهِ رمانى فذُبْتُ من هَجْره وبَيْنِهْ

---

(١) انظر فى الصفدى وترجمته النجوم الزاهرة ١٩/١١ والدرر الكامنة لابن حجر ١٧٦/٢ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٠٣/١٤ وطبقات الشافعية للسبكى ٥/١٠ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٢٠٠/٦ والبدر الطالع ٢٤٣/١ وخزانة الأدب ص ١٧ وفى مواضع متفرقة من صبح الأعشى وخاصة ٨٦/١٢ ، ٣٥١ .

إن متُّ مالى سواه خَصْمٌ فإنه قاتلى بعينِهْ

ويعد من أكبر المصنفين فى التراجم والأدب والبديع والنقد ، وعلى رأس مصنفاته فى التراجم كتاب الوافى بالوفيات ، وهو فى نحو ثلاثين مجلدا ، ونشرت طائفة من أجزائه . واستخلص منه مع إضافات جديدة كتابه « أعوان النصر وأعيان العصر » من الأدباء والشعراء وهو فى ستة مجلدات ، وفى دار الكتب المصرية منه مجلدات متفرقة . وألف فى مشاهير المكفوفين كتابه : نكْت الهِميْان فى نكت العميان ، وهو منشور . وله التذكرة الصفدية وهى مختارات أدبية وكتاب تشنيف السمع فى انسكاب الدمع : دمع المحبين والعشاق ، وله فى المحسنات البديعية كتاب فض الختام عن التورية والاستخدام وكتاب جنان الجناس ، وله فى النقد نصرة الثائر (وهو ابن أبى الحديد) على المثل السائر لابن الأثير ، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، وهو شرح ملىء بالملاحظات النقدية ، وبه دفاع بديع عن ابن سناء الملك إزاء مااتهمه به خصومه من استخدام بعض الألفاظ العامية ، وشرَحَ رسالة ابن زيدون الجدية بشرح سماه « تمام المتون » . وله وراء ذلك كتب أخرى سقطت من يد الزمن ، كما أن له بعض مقامات ، ويقال إنه كتب وصنَّف مئين من المجلدات وخلَّف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم ألحان السواجع فى مجلدين سجل فيه الرسائل المتبادلة بينه وبين أدباء عصره .

وكانت رسائل الصفدى الديوانية تشغل مجلدات كثيرة ، ولم يحتفظ منها القلقشندى إلا برسائل قليلة ، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدبر شئون دمشق من أمن وضرائب وأوقاف وغير أوقاف ، وله يقول باسم صاحب الأمر :

« لما كانت دمشق فى الدنيا أنموذج الجنَّة التى وُعد بها المتقون ، ومثال النعيم للذين عند ربهم يُرْزَقون ، وهى زهرة ملكنا ودُرَّة سلكنا .. تعيَّن أن ننتدب لها من جرَّبناه بعدًا وقربا ، وهززناه مثقَّفًا[1] وسَلَلْناه عَضْبا[2] وخبَأْناه فى خزائن فكرنا فكان أشرف مايُدَّخر ، وأعزَّ مايُخبَأ ، كم نهى فى الأيام وأمر ، وكم شد أزرًا لما وزر ، وكم غنيتْ به أيامنا عن الشمس وليالينا عن القمر ، وكم علا ذُرَى رُتَب تعزّ على الكواكب الثابتة فضلا عمن يتنقَّل فى المباشرات[3] من البشر ، وكم كانت الأموال جُمادى[4] فأعادها ربيعا غرَّد به طائر الإقبال وصفر . فليتلقَّ هذه الولاية بالعزم الذى نعهده ، والحزم الذى شاهدناه ونشهده ، والتدبير الذى يعترف الصواب له

(١) مثقفا : سيفا مصقولا
(٢) عضبا : قاطعا .
(٣) المباشرات : الأعمال
(٤) جمادى : يريد قليلة

ولايجحده ، حتى يثمِّر الأموال فى أوراق الحُسَّاب ، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج فى البحار وتفوت القطر من السحاب » .

وواضح مافى السجعة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، ويلتمس الصفدى بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إسراف ، كما يلتمس بعض الاستعارات ، ويبدو فيها غير قليل من التكلف ، كما يبدو التكلف أحيانا فى اجتلاب السجعات . ومن توقيعاته توقيع كتب به لكاتب السر بدمشق : ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس فى المدرسة الناصرية الجوانية جاء فيه :

« إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد [1] بها تتبين فوارس الجلاد فى مضايق الجدال ، وتتجلى بدور الكلام فى مطالع الكمال ، وتبدو شموس الجمال فيما لها من فسيح المجال . والمدرسة الناصرية – أثاب الله تعالى واقفها – هى الواسطة فى عقودها . والدرة الثمينة بلا كُفْء لها بين قيَمٍ نقودها ، قد تدبَّج فيها البناء وتأرَّج عليها[2] الثناء ، وتخرَّج عنها الحسن فإن له بها مزيد اعتناء .. فلذلك رُسم بالأمر العالى أن يعاد إلى تدريسها لأن العود أمدح وأحمد ، والرجوع الى الحق أسعف وأسعد » .

وواقع مافى التوقيع على هذا النحو من التصنع للجناس المقلوب فى مثل « جلاد وجدال » و « كلام وكمال » و « جمال ومجال » و « أمدح وأحمد » و « أسعف وأسعد » كل ذلك ليقع من نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسنا . ولم يكن الصفدى يتكلف دائما مثل هذه الكلف فى جناساته ، بل هى تأتى عنده نادرة إذ كان حسبه أن يأتى بالجناسات الطبيعية دون هذه المشقة فى التكلف . وكثير من جوانب توقيعاته سلس سائغ . وكان محببا إلى أهل زمنه حسن المعاشرة جميل المودة .

---

(١) الطارف والتالد : الحادث والقديم .

(٢) تأرَّج عليها : عطَّرها :

ابن حِجَة[1] الحموى

هو تقى الدين أبو بكر بن على بن عبد الله المعروف بابن حِجَّة الحموى ، ولد بحماة سنة ٧٦٧ ونشأ بها ، ودرس على شيوخها وأساتذتها ، وأخذ عنهم فنونا من العلم والأدب ، وارتحل إلى دمشق والقاهرة يتزود من حلقات علمائها وأدبائها . وانعقدت صلات كثيرة بينه وبين بعض أدباء مصر من مثل ابن مكانس الذى مرت ترجمته ، وعاد إلى دمشق وأخذ يتردد بينها وبين القاهرة ، ويبدو أنه عمل فى دواوين حماة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزى مواطنه كتابة السر بهما ، وكانت قد توثقت علاقة ابن البارزى بالمؤيد شيخ حين أصبح نائبا لسلطان مصر بدمشق ، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة اصطحبه معه واتخذه كاتب سره كما مر بنا ، واصطحب ابن البارزى معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبى ، وظل قائما على هذا العمل طوال حياة ابن البارزى وحكم المؤيد شيخ (٨١٥ – ٨٢٤ هـ) وظل كاتبا للإنشاء بعده عاما وأشهرا وشهد حينذاك تحول السلطة من الملك المظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر طَطر فابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباى سنة ٨٢٥ وتوقف أمره ، فعاد سريعا إلى موطنه حماة ، وظل بها مكبًّا على التصنيف والتأليف حتى توفى سنة ٨٣٧ هـ .

واشتهر بقصيدته : البديعية فى المديح النبوى وما حمَّل أبياتها من محسنات البديع لزمنه ، وهى فى مائة واثنين وأربعين بيتا وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات . وشرحها شرحا مطولا ، متوسعا فى سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع مالا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية ، بحيث أصبح الشرح – كما سماه – خزانة أدب . وتعد مرجعا أساسيا للشعر والشعراء فى زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه . وله فى البديع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وله كتاب أدب طريف سماه « ثمرات الأوراق » طبع مرارا يعرض فيه مختارات نثرية وشعرية وكثيرا من المحاضرات والمساجلات ، مع الإلمام ببعض القواعد المهمة التى ينبغى ان تراعى فى الكتابة الديوانية ، ومع الإلمام أيضا ببعض رسائل القاضى الفاضل وابن نباته وأيضا ببعض رسائله . والكتاب فى مجموعة أشبه بكتب المحاضرات والنوادر . واختصر بعض

---

(١) انظر فى ابن حجة وترجمته وشعره ونثره كتابه خزانة الأدب فى مواضع كثيرة ، والبدر الطالع للشوكانى ١٦٤/١ والضوء اللامع للسخاوى ٢٧٧/٦ والروض العاطر للنعانى ٢٨٩/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢١٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١٥ .

الأعمال ، من ذلك اختصاره للصادح والباغم لابن الهبارية بإشارة من ابن البارزى سنة ٨١٣ كما ذكر فى الخزانة بباب إرسال المثل ، وسمى مختصره تغريد الصادح وصدّره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة . وله كتب متعددة مذكورة فى كتاب البدر الطالع سقطت من يد الزمن . وله مقامة سنعرض لها فى غير هذا الموضع ، وكان شاعرا ، كما كان كاتبا ، وأنشد فى الخزانة كثيرا من شعره ، ويقول الشوكانى : « قد يأتى فى نظمه بما هو حسن وبما هو فى غاية الركة والتكلف .. ونثره أحسن من نظمه » . وفى الخزانة رسائل كثيرة له ، وخاصة فى أبواب براعة الاستهلال والسجع وحسن الختام . وفى « ثمرات الأوراق » كما أسلفنا - بعض رسائله ، وجمع ماأنشأه أولا بالشام ثم ماأنشأه فى عهد المؤيد ثم فى عهد الملوك المظفر والظاهر ططر والصالح فى كتاب سماه « قهوة الإنشاء » فى مجلدين ، ومنه مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وفى الدار أيضا كتاب له محفوظ باسم تأهيل الغريب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدباء ، ونقتطف قطعة من بشارة له بوفاء النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المؤيد شيخ :

« ونُبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذى عاملنا الله فيه بالحُسنى وزيادة ، وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة .. دقَّ قفا السودان فالرايةُ البيضاء من كل قِلْع [1] عليه ، وقبَّل ثغور الإسلام وأَرْشَفها ريقَه الحلو فمالت غصونها إليه .. وحَضَنَ مشتهى الروضة فى صدره وحنَا عليها حنُو المرضعات على الفطيم :

وأرشفنا على ظمأٍ زُلالاً ألذَّ من المدامةِ للنديمِ

وراق مَديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النَّوى والحبّ ، فأرضع فى أحشاء الأرض جنين النبت وأحيا له أمهات العصف والأبّ .. ونسى الزهر بحلاوة لقائه مرارة النَّوى ، وهامت به مخدَّرات [2] الأشجار فأرختْ ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى .. ودارت دوائره على وجنات الدهر عاطفة ، وثَقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالخائفة » .

والسجع فيه عذوبة ودلالة واضحة على طواعيه قوافيه لابن حجة ، وأنه كان كاتبا مجيدا إن لم يكن بارعا ، وأطال السجعات ليحمِّلها مايريد من التوريات ، وهى كثيرة فى القطعة ، ومانمضى فيها حتى يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر ، يستغل ذلك فى التورية بكلمة

---

(١) يريد قلع السفن وشراعها

(٢) المخدَّرات : النساء يلزمن بيوتهن احتجابا عن الرجال . والاستعارة واضحة

الأبيات فلايريد أبيات الشعر إنما يريد الدور والمساكن . واختار أمهات العصف ، وهو ورق الشجر والزرع مما تأكله الأنعام ليجلب كلمة الأب مورِّيا بها فهو لا يريد الأبَّ الحقيقى كما يظن من ذكر الأمهات ، وإنما يريد الأب بمعنى العشب أخذا من قوله تعالى : (وفاكهةً وأبًّا متاعا لكم ولأنعامكم) واختار مع حلاوة اللقاء مرارة النوى ، وهو لايريد نوى التمر الحقيقى وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن وفاء النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام ، وبالمثل يمكن أن يكون فى كلمة الهوى تورية لأن لها معنيين : العشق والريح ، وأيضا فى كلمة الجوارى تورية إذ لايريد الجوارى الحقيقيات مع مايوشح لها من ذكر الخصور وإنما يريد السفن الجارية . وكان تعيين كبار موظفى الدولة من وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم فى شكل رسالة مطولة يكتبها منشئ الديوان ، ولابن حجة تقليد طويل كتبه لجلال الدين البلقينى الشافعى بقضاء القضاة وفيه يقول مصورا علمه :

« هو أبو العلماء الذى ولَّد من الأم أفراحهم ، وأبو المهات الذى شَهَر من العُدَّة الكاملة فى ميدان الفرسان سلاحهم ، وإليه انتهت الغاية فإنه مابرح يأتينا فى وجيز تقريبه بالعجاب ، ويغنينا عن موضح القشيرى فإنه يغذينا فى إبانته باللباب .. وقد وقع التمويه فى الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية ، وهو نهاية المطلب وعيون المسائل وتاج رءوسها والمذهب الذى تهذيبه فى أدب القاضى كفاية ، وهو البحر الذى مادخلنا بسيطه المبسوط إلا قالت التورية إنه فى البسيط كامل ، ولانظرنا إلى حليته الجلالية إلا غنينا عن المصباح بنوره الشامل » .

والقطعة مليئة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعى ، وقد بدأها فى السجعة الأولى بذكر كتاب الأم للإمام الشافعى ، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية فى اختصار النهاية للعز بن عبد السلام ، والنهاية هى نهاية المطلب فى دراسة المذهب لإمام الحرمين الجوينى ، وأشار معه فى نفس السجعة إلى وجيز الإمام الغزالى وتقريب القفَّال الشاشى ، ثم ذكر اللُّباب وهو لباب الألباب للآمدى فى علم الأصول ، وأضاف إليه الإبانة مشيرا إلى كتاب الإبانة فى فقه الشافعية للفورانى ، ولم يلبث أن أشار إلى التبصرة لأبى إسحاق الشيرازى ونهاية المطلب المذكورة آنفا والمذهب لأبى شامة المقدسى والتهذيب للبغوى وأدب القاضى للماوردى والبسيط للغزالى والشامل لإمام الحرمين الجوينى . وقد بلغ ابن حجة من دقة الصنعة أن من يقرأ الإشارة إلى هذه الكتب وغيرها مما جاء فى التقليد لايتنبه إليها إلا بعد رويَّة وتأمل فيما ابتغاه عنها من توريات .

٢

الرسائل الشخصية

مرَّ بنا أن الشام هي التي وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم أتخاذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الاسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس ، وتهيأ لها حينئذ من كبار الكتاب من لاتزال أسماؤهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بديعة[1] تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوبها الجزل الناصع مع السلاسة والعذوبة ومع ماعُرف به من إحكام الترادف حتى يروع الآذان كما يروع الأذهان . ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم فى القرن الثالث الهجرى وأوائل الثالث العتَّابى كلثوم بن عمرو ، وله بدوره – رسائل شخصية[2] تموج بالتصاوير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجمال الصياغة . وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع فى الرسائل الديوانية ، فشاع فى الرسائل الشخصية لسبب طبيعى هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين ، وقد أصبح السجع ديدنهم ولغتهم فى كتاباتهم فعمَّموه فى رسائلهم الشخصية . ولعل كاتبا فى بلاط سيف الدولة الحمدانى لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبو الفرج عبد [3] الواحد بن نصر المعروف بلقبه « البَبَّغاء » المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعرا مبدعا وكاتبا بارعا ، وفى كتاباته يقول الثعالبى « نثره مستوف أقسام العذوبة وشروط الحلاوة والسهولة » ويتضح ذلك فيما روى الثعالبى من رسائله كقوله مثنيًا ، مطريا .

« شهابُ ذكاء ، وطَوْد وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحُسام حق ، ولسان صدق ، فالليالى بأفعاله مشرقة ، والأقدار لخوفه مطرقة ، تحمده أولياؤه ، وتشهد له بالفضل أعداؤه » . وقوله : « من كان جميل رأى سيدنا عُدَّتَه ، أمن من الدهر شدته ، ومن فَزِعَ إلى إحسانه ، استظهر على زمانه ، ومن توجه برغبته إليه ، لم تقدم الأيام عليه » .

---

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت (طبع ونشر مكتبة مصطفى البابى الحلبى) ٤٣٤/٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٤٧٤/٣ وما بعدها .

(٣) انظر ترجمته ورسائله فى اليتيمة ٢٣٦/١ وما بعدها ، وراجع ترجمته فى تاريخ بغداد ١١/١١ والمنتظم ٢٤١/٧ وعبر الذهبى ٦٨/٣ وابن خلكان ١٩٩/٣ .

(١) رسائل أبي العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة ، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة ، عُنيت بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضى سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث فى أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات ، وحققها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعمان فى الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة . وأولاها رسالة المَنِيح وهو القِدْح الثامن من قِداح الميسر التى ليس لها نصيب فى القمار ، وكأنه كنى به عن نفسه فى تلك الرسالة التى وجَّه بها إلى أبى القاسم الحسين بن على المغربى ردًّا على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه . ونراه يستهل رسالته بقوله :

« إن كان للآداب – أطال الله بقاء سيدنا – نسيم يتضوَّع [١] ، وللذكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فَغَمنا [٢] على بُعْد الدار أَرَجُ[٣] أدبه ، ومحا الليل عنا ذكاؤه بتلهُّبه ، وخَوَّل [٤] الأسماع شُنوفا [٥] غير ذاهبة ، وأطلع فى سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة ، وذلك أنا – معشر أهل هذه البلدة – وُهب لنا شرف عَظيم ، وأُلقى إلينا كتاب كريم ، صدر عن حضرة السيد الحَبْر [٦] ، ومالك أعنة النظم والنثر ، قراءته نُسْك ، وختامه بل سائره مِسْك ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . جَلَّ [٧] عن التقبيل فظلاله المقبَّلة ، ونُزِّه أن يبتذل فنسخة المبتذلة ، وإنه عندنا لكتاب عزيز . ولولا الإلاحة[٨] ، على ماضمن من الملاحة ، والخشيةُ على دُجَى مداده من التوزُّع ، ونهار معانيه من التشتت والتقطع ، لعكفت عليه الأفواه باللَّثْم ، والمَوارن[٩] بالانتشاء[١٠] والشَّمِّ ، حتى تصير سطوره لمًى [١١] فى الشفاه ، وخيلانا على مواضع السجود من الجباه ، ولولا ماحظره الدين من القمار لضربنا عليه بالسبعة الفائزة ، والثلاثة التى ليست لحظٍّ

---

(١) يتضوع : يفوح .
(٢) فغمنا : ملأ أنوفنا .
(٣) أرج : شذى
(٤) خول : أعطى
(٥) شنوفا : أقراطا
(٦) الحبر : العالم
(٧) جل : تنزَّه
(٨) الإلاحة : الإشفاق
(٩) الموارن : الأنوف .
(١٠) الانتشاء : شم الطيب ونحوه .
(١١) اللمى : سمرة حسنة فى الشفة .

بالجائزة .. فيا شرفه من صَكٍّ بالفخر ، يَبْجَحُ به على النُّظَراء حِيرِيَّ[١] الدهر ، موشّحًا بكل شَذْرة أعذب من سُلاف العنقود ، وأحسن من الدينار المنقود ، فجاء كلوائح البروق ، أو يوحَ[٢] عند الشروق » .

وإذا مضينا بعد ذلك فى قراءة رسالة المنيح – وهى طويلة – أخذت أمواج الألفاظ الغريبة تتوالى ، حتى ليصعب على أى عالم لغوى أن يمضى فيها دون أن يعود إلى المعاجم يستبين منها مايقرأ لا من حين إلى آخر ، بل مع كل سجعة ، بل مع غير لفظ فى كل سجعة ، وكأنما كان يطلبه طلبا فى سجعاته ، أو كأنما كان يعده زينة ينبغى أن لاتخلو منه سجعة . وهو لذلك يملأ الرسالة بالألفاظ الغريبة المبعدة فى الإغراب مما قرأه فى الشعر القديم وفى كتب اللغة ، ولا يهمه أن تكون الكلمة مما دُوِّنَ فى المعاجم ، بل لعله كان يطلب ذلك استكمالا لغرابتها ، ومن هنا تصبح قراءته صعبة إلى أقصى حدود الصعوبة . ولم يكن يكتفى بذلك فى بعض رسائله ، فقد كان يضيف صعوبة ثانية هى حشد ألفاظ المصطلحات العلمية وخاصة مصطلحات العلوم اللغوية على نحو مانقرأ فى رسالته المعروفة برسالة الإغريض وهو ماينشق عنه الطلع من الحبيبات ، والرسالة موجهة أيضا إلى أبى القاسم المغربى وفيها يقول :

« حرس الله سيدنا حتى تُدْغم الطاء فى الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء .. وهما فى الجهر والهمس ، بمنزلة غَدٍ وأمس ، وجعل الله رتبته التى هى كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل فى أنها لاتنخفض أبدا ، فقد جعلنى إن حضرت عُرِف شانى ، وإن غبت لم يُجْهَل مكانى ، كيا فى النداء ، والمحذوف من الابتداء ، إذا قلت زيْدُ أقبلْ ، والإبلُ الإبل ، بعد ماكنت كهاء الوقف ، إن أُلقيتْ فبواجب ، وإن ذُكرت فغير لازب[٣] ، إنى وإن غدوتُ فى زمن كثير الدَّدِ[٤] كهاء العدد ، لزمت المذكر فأتتْ بالمنكر ، مع إلْفٍ يرانى فى الأصل كألف الوصل ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت[٥] الرصين ، فهى لاتثبت على طريقة ، ولاتُدْرَكُ لها صورة فى الحقيقة »

وهو يدعو لأبى القاسم أن تظل تحرسه عناية الله إلى أبد الآبدين أو كما يقول إلى أن تدغم الطاء

---

(١) يبجح : يفخر . حيرى الدهر : أبد الدهر .
(٢) يوح : اسم الشمس .
(٣) لازب : لازم .
(٤) الدد : اللهو واللعب .
(٥) الحروف المحققة مما سوى حروف اللين والمد .

فى الهاء وهى لاتدغم فيها أبدا ، إذ الطاء حرف مجهور الصوت – كما يقول – والهاء حرف مهموس لايكد صوته يبين ، فهما من طبيعتين مختلفتين ولذلك لايدَّغمان أبدا ولايتحدان كالأمس والغد . ويدعو أبو العلاء له أن تصبح رتبته أرفع الرتب فى الدولة ، كرتبة الفاعل والمبتدأ فى النحو ، إذهما بسبب رفعهما فى أعلى الرتب . ويدعو له أن لايلحقه خفض فى رتبته كالفعل لايلحقه خفض ولا جرٌّ أبدا . ويقول إن أبا القاسم جعله معروفا رفيع الشأن حضر أو غاب مثل ياء النداء فكانها محفوظ ذكرت مع المنادى أولم تذكر ، ومثلها المبتدأ ذكر أو حذف فكانه محفوظ ، فتقول : محمد أى يامحمد ، وتقول كتاب الأدب أى هذا كتاب الأدب . ويقول إنه كان قبل أن يضعه أبو القاسم فى منزلته الرفيعة كالهاء التى تلحق ببعض الكلمات فى الوقف ، مثل : لِمَ تقول فيها لمه ، فهى تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن فى الكلمة . ويقول إنه كان يشعر بنبو مكانه على نحو مايلاحظ فى هاء العدد أوتاته من ثلاثة إلى عشرة ، فإنها تلحق عددها مع المذكر وتطرح مع المؤنث ، وكان القياس فى العربية العكس . ولايكتفى بذلك فيقول إنه كان كألف الوصل مع أصحابه ، تذكر حين الابتداء بالساكن وتسقط فى درج الكلام . ويقول إن حاله كانت مثل الهمزة تبدل أحيانا عينا فى لغة تميم ، فيقولون فى أَن عَنْ ، وقد تنطق بين الهمزة المحققة وأختها المسهلة أوكما يقول « بين بين » وقد تسهَّل تماما فتصبح حرف لين مثل سال فى سأل ، وقد تحقق وخاصة فى أول الكلمات فلا تسهّل مثل أمر ، فهى كما يقول أبو العلاء لاتثبت فى العربية على طريقة .

وأبو العلاء بذلك يصعِّب نثره على قارئه ، بحيث لايستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوى لكثرة الألفاظ الغريبة فيه ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه القطعة فى الرسالة لايستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمى النحو والصرف ، وقد مضى فى الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلاحين الموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع معارف كثيرة عن الخيل والحيوان . وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبغل ، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطئ بدار المعارف . وتتكاثر فى الرسالة المعارف عن المرأة وحليها ولابأس من إيداعها شيئا من التاريخ . وكل ذلك يصعِّبها : سجع وأوابد لفظية وأوابد أو مصطلحات علمية ومعارف شتى . وكأنما استأثرت بالشطر الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريضية . وتقل المصطلحات العلمية فى بقية رسائله غير أنه لايزال يستظهرها فيها من حين إلى حين ، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برسائله إلى علماء فى عصره ، فكان يسوق إليهم هذه

المصطلحات تصويرًا لمهارته البيانية . وتحفل الرسائل بنقد خلقى واجتماعى وسياسى وأدبى ، وأكثرها فى الثناء على من يكتب إليهم ، وبينها رسائل شفاعة وتهنئة وتعزية وشوق ، وتكتظ بسجعات بديعة كقوله فى فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أبى طاهر المشرَّف بن سُبَيْكة الحلبى :

« شوقى إلى سيدى الشيخ شوقُ البلاد المُمْحلة ، إلى السحابة المُسْحلة[١] ، وانتفاعى بقربه انتفاع الأرض الأريضة ، بالأمواه الغريضة[٢] ، وتشوُّفى لأخباره تشوُّفَ راعى أنعام[٣] أجدب فى عام بعد عام ، لبارق[٤] يمان ، هَوْلُه مرتقب مُهان[٥] . وأسفى لفقده أسف وَحْشِيَّة[٦] ، رادت[٧] بالعشيَّة ، فخالفها السِّرحانُ إلى طَلاً[٨] راد فحار[٩] فهى تطوف حول أَمِيل[١٠] ، وترى صبرها ليس بجميل . وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم ثدْى الوالدة ، والمقسم بالملح لبنى خالدة وانتظارى لقدومه انتظار تاجر مكة وَفدَ[١١] الأعاجم ، وربِّ الماشية ظهورَ النَّبْت الناجم[١٢] » .

وبدون ريب تُعَدُّ رسائل أبى العلاء الشخصية فى الذروة من البلاغة ، وهو دائما يُعْنَى فيها بالسجع إلا قليلا ، وقد يلتزم فيه مالا يلزم كما فى هذه القطعة ، فإن السجعتين فيها تتفقان لافى الحرف الأخير فحسب المقابل للروى فى الشعر ، بل فى حرفين أو ثلاثة حروف ، ودائما نلتقى فى رسائله بالألفاظ الآبدة الممعنة فى الغرابة وإن لم تمعن فيها بهذه القطعة . وهو يستغل فى سجعاته معارفه الكثيرة التاريخية وغير التاريخية على نحو مايلقانا فى هذه القطعة من إشارته إلى أن العرب كانوا يتعاقدون ويتعاهدون على الملح ، وذكر عهدًا لهم أقسموا فيه بالملح لبنى خالدة وهى خالدة بنت أرقم أم كردم وكريدم ابنى شعبة الفزاريين . والجناس الناقص مثل : « الممحلة والمسحلة » واضح فى القطعة ، وكان يوشى سجعاته به وبغيره من محسنات البديع وخاصة الطباق والتصاوير .

---

(١) المسحلة : الممطرة
(٢) الأريضة : الطيبة . الغريضة : المبكرة
(٣) الأنعام : الابل .
(٤) البارق : السحاب يلمع فيه البرق ، وجعله يمنيا حتى لايخلف مطره
(٥) ممان : متطاول
(٦) يريد بقرة وحشيه
(٧) رادت : ذهبت تطلب الكلأ
(٨) الطلا : ولد البقر . السرحان : الذئب
(٩) حارهنا : تحير
(١٠) أميل : كثيب عال
(١١) يريد : قدوم وفود الحجيج الأجانب
(١٢) الناجم : الذى لاساق له

(ب) رسائل متنوعة

طبيعى أن تكثر الكتابات الشخصية على ألسنة الأدباء ، شاكرين صنيعا أو مهنئين على منصب كبير أو معاتبين أو مثنين مادحين أو معتذرين أو مستعطفين أو معزين عن خطب ألمَّ بأصدقائهم أو فى فقيد عزيز ، وتارة يؤبِّنون وتارة يبكون وقد خنقتهم العبرات . وكثيرا ما كانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطّغرائى الشاعر الكاتب والغَزِّى إبراهيم بن عثمان الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، ويقول العماد الأصبهانى : «كانت بينهما مكاتبات مفيدة وبينهما لنسب الفضل المودَّة الوكيدة » ويسوق العماد للغزى رسالة اعتذار كتب بها إلى صاحبه جاء فيها [1] :

لسان الحسود – أدام الله أيام المجلس السامى دام ساميا ، ولبَيْضة المجد حاميا – إذا علق بِعرْض الكرام كان كالنار فى المندلىِّ [2] ، يبوح بسرِّ طيِّه الخفىّ .. فإن وقع من السفهاء إفك فداعيته ما ظَهر لهم من انتمائه ، وانتساب مُزْنته إلى سمائه » .

وانتخاب الغزى لألفاظه واضح ، فهو يجيد الكتابة كما يجيد الشعر ، وهو يعنى فيها بالتصاوير ، وكان خصب الخيال ، ومرت بنا فى ترجمته روائع طريفة من أشعاره . وكان ابن منير الطرابلسى الذى ترجمنا له بين الشعراء نزح عن دمشق إلى قلعة شَيْزر فى الشمال خوفا من ابن الصوفى وزير حاكمها آبق ، وحاول صديق له هو زين الدين بن حليم أن يسترجعه إلى دمشق فكتب إليه يستدعيه ، وأجابه ابن منير برسالة طويلة معتذرا يقول فيها [3] :

« إن جراحى إلى الآن لم تذق حلاوةَ الاندمال ، وقُروحها تزداد قَرْحا مع الحلِّ والتِّرحال ، وبين جوانحى من الأين [4] ، لما لقيتُ بدمشق من الغَبْن ، مالايحلُّه إلا عَقْدُ الكفنَ ، ولايرفع حَدثه إلا التيممُ بصعيد [5] المدفن . ويلقاك فلان وفلان من كل ذى خَلْق دَميم [6] ، وخلقِ ذميم ، وأصل لئيم ، وفرع زَنيم [7] ، ووجه لَطيم ، وقفًا كليم [8] ، وهلم جرّا من عذاب أليم ، وصِراط فى الود غير مستقيم » .

ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة ، وكما كان شاعرا بارعا كان كاتبا بارعا ، تواتيه الكلمة وتنزل فى

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/٢٧
(٢) المندلىّ : عود الطيب
(٣) الخريدة (قسم الشام) ١/٩٢
(٤) الأين : العناء .
(٥) الصعيد : التراب
(٦) دميم : قبيح . ذميم : مذموم
(٧) زنيم : دعىّ
(٨) كليم : جريح

مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذى لاتطول عباراته ، فإذا الكلمات وكأنها تتلاقى وتتعانق لجمالها فى الجرس وحسن الأداء . ويورد العماد فى الخريدة مراسلة بين القاضى الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه وبين أسامة بن منقذ ، ويذكر أولا كتاب القاضى الفاضل ثم يذكر جواب أسامة ، وله يقول من رسالة طويلة مادحا مثنيا على بلاغته ، متحدثا عنه بضمير الغيبة(١) :

« ماعسى أن يقول مطريه ومادحُه والفضل نُغْبة من بحره الزاخر ، وقطرةٌ من سحابه الماطر ، تفرَّد به فما له فيه من نظير ، وسبق من تقدَّمه فى زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكمامًا تزينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأتى بآياتِ فصاحةٍ كادت أن تُتْلى فى المحاريب ، إذا استُنْطقتْ ازدحمتْ عليها العقول والأسماع ، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع . . هو سحر لكنه حلال ، ودُرٌّ إلا أن بحره حُلْوٌ سلسال » .

ونمضى إلى أيام المماليك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم فى دمشق والقاهرة وقد ترجمنا له بين شعراء المديح ، وله — كما أسلفنا — كتاب فى رسوم الكتابة الديوانية ، وبه كثير من رسائله الرسمية ، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية ، سماه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وله بجانبه كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه « زهر الربيع فى الترسل البديع » وعنه ينقل كثيرا القلقشندى فى الجزء التاسع من صبحه ، ومما نقله عنه رسالة فى التهنئة بعيد الأضحى جاء فيها(٢) :

« جعله الله أبركَ الأعياد وأسعدها وأيمنَ الأيام وأمجدَها ، وأجملَ الأوقات وألذَّها وأرْغَدها ولابرح مسرورا مستبشرا ، منصورًا على الأعداء مقتدرا ، مسعودا محمودا ، معانا بملائكة السماء معضودًا ، مهنًّأ بالسعود الجديدة والجدود السعيدة ، والقوة والناصر ، والعمر الطويل الوافر . . ألبسه الله من السعادة أجمل حُلَّة ، ومنحه من المكارم أحسن خَلَّة » .

وكان الشهاب محمود يعنى بتزيين سجعاته بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس ، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس المعكوس كما نرى فى قوله : « مهنًّأ بالسعود الجديدة والجدود السعيدة » .

ونلتقى بعمر بن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتبا ، وله تعزية بوفاة الفقيه الشافعى شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨ ، وفيها يقول(٣) :

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٤١/١

(٢) صبح الأعشى ٤٦/٩

(٣) انظر ديوان عمر بن الوردى ، طبع الجوائب فى مجموعة سنة ١٣٠٠هـ ص ١٦٣

« بلغنى انهدادُ الطود الشامخ ، وزوالُ الجبل الراسخ ، الذى بكته السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروهَ بالندب وذلك فرض ، فشَرِقَتْ[١] أجفان المملوك بالدموع ، وأُحْرِق قلبه بين الضلوع ، فالعلوم تبكيه ، والمحاسن تعزَّى فيه ، والأقلام تمشى على الرءوس لفقده ، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده . . ولاخاصٌ إلا حزن قلبه ، ولعامّ إلا طار لُبُّه » .

وكان يجنح فى نثره وشعره إلى استخدام المصطلحات العلمية ، وقد تصنع فى هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية : المكروه والندب والفرض ، وأيضا فإنه كان يعنى بجلب صور مختلفة من التوريات ، وواضح أنه ورَّى هنا بالمصطلح الفقهى : الندب عن معناه الحقيق وهو بكاء المتوفى وتعداد محاسنه . وجعل الأقلام تمشى على رءوسها حزنا وهى فعلا تمشى على رءوسها أو بعبارة أخرى تكتب برءوسها ، فاستغل ذلك فى تعزيته .

ولابن حجة الحموى رسالة يصف فيها سِكِّينا أهداها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله[٢] :

« المملوك يُنْهِى وصول السكِّين التى قطع بها أوصال الجَفا . وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البُرْءُ والشفا . وتالله ماغابت إلا وصلت الأقلام من تقشيرها إلى الحَفا .. ماشاهدها موسى إلا سجد فى محراب النِّصاب[٣] . وذلَّ بعد أن خضعت له الرءوس والرِّقاب .. أُنْمُلة صبح تقمَّعت بسواد الدجى ، فعوَّذتُها بـ (الضحى والليل إذا سَجَا) .. تَطْرِف بأشعتها الباهرة عين الشمس ، وبإقامتها الحدَّ حافظت الأقلام على مواظبة الخمس » .

والتكلف واضح فى القطعة ، فقد ذكر الجفا أى البعد ، وفكر فى سجعة معه فجاء بالشفا والحفا وأصله رقة الخف ويريد المبالغة فى تشذيب الأقلام ، وكل ذلك تكلف ، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والمحراب عن موسى الحلاَّق . وكان نصاب السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقتبس فاتحة سورة الضحى ، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين ، وورى أيضا بمواظبة الخمس إذ لايريد المعنى المتبادر من مواظبة الصلوات الخمس ، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأقلام .

ونمضى إلى أيام العثمانيين ونظل نقرأ رسائل شخصية متعددة فى تراجم الأدباء ، من ذلك قول مرعى الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة فى معاتبة[٤] :

(١) شرقت غصَّت .

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٢٥ ، ٥٢٧

(٣) نصاب السكين : مقبضها

(٤) نفحة الريحانة للمحبى ٢٤٧/١

« الصديقُ لفظ على الألسنة موجود ، ومعناه فى الحقيقة مفقود ، فهو كالكبريت الأحمر ، يُذكر ولا يُبْصَر ، أوكالعنقاء والغول ، لفظ يوجد بلا مدلول . وهذه شيم غالب أبناء الزمان ، من الأخلاء والإخوان ، فمثلهم . . كلمع السراب ، المستحيل فيه الشراب ، أوكالخيال الذى يبدو فى المنام ، وهو فى الحقيقة أضغاث أحلام » .

ويسوق المحبى فى نفحة الريحانة رسائل مختلفة لأبيه وجدِّه ، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها على لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية . وانعقدت صداقة وثيقة بين المحبى وبين عبد الغنى النابلسى الصوفى ، وله يقول متوددًا مثنيًا مشيدًا بنسكه وتصوفه وسلوكه الروحى [١] :

« مولاى الذى سار فى بروج الفضل مسير الشمس ، وقامت فضائله فى جسم العالم مقام الحواسِّ الخمس ، لازال فى السكون والحركة ، مرافق اليمن والبركة ، يفرح به كل قطر ينازله ، كأنه البدر والدنيا مَنازله ، ومن شايعه مسعودٌ يومه وغده ، وله من العيش أهناه وأرغده . . أنا شعبة من دَوْحتك [٢] ، وغصن من سَرْحتك [٣] ، بل نَبْتٌ سقتْه أياديك ، وزهر تفتح بما أفاضته غواديك » [٤] .

ويطبع نثر الرسائل الشخصية حينئذ بنفس الطوابع التى رأيناها فى أيام المماليك ، فهو يعتمد دائما على السجع ، ويوشى بالبديع ومحسناته .

٣

المقامات

كان لبديع الزمان الهمذانى فضل السبق الى استحداث فن المقامات فى العربية ، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لايزال يحتال على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كى يسبغوا عليه شيئا من عطائهم يعينه على سدِّ حاجاته فى الحياة . وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى . وتبعه الحريرى فأوفى بهذا الفن على الغاية ، سواء من حيث جمال القَصِّ فيه أو من حيث جمال الحوار بين الراوى والأديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته . وطبيعى أن لاتعرف الشام – مثل بقية البلدان العربية – المقامات قبل بديع

---

(١) نفحة الريحانة ٢/١٣٩

(٢) الدوحة : الشجرة الكبيرة المتشعبة

(٣) السرحة : الشجرة الطويلة العظيمة

(٤) الغوادى : السحب

الزمان ، بل أيضا قبل الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة ، ويبدو أنها ظلت طويلا لاتعرفها أو على الأقل لاتحاول محاكاة الحريرى وبديع الزمان فيها ، وكأنما اشتغالها بالحروب الصليبية ثم المغولية حتى منتصف القرن السابع الهجرى ألهاها عن هذا الفن ، حتى إذا أخذت الأحوال السياسية تستقر فيها لأيام المماليك وجدناها تعنى به ، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العناية منذ النصف الثانى من القرن السابع ، وهى نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريرى ، إذ لاتعتمد مثلها على أديب متسول وقصّ احتيالاته الأدبية قَصًّا حواريا ، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة بين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار ، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض المسائل فى العلوم المختلفة ، من ذلك مقامة فى المفاخرة بين التوت والمشمش لتاج الدين بن عبيد الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق المتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضا مقامة فى مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قُرْناص الحموى المتوفى حوالى سنة ٦٧٢ . وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين التلمسانى الذى ترجمنا له بين شعراء الغزل سماها مقامة أو مقامات العشاق ، وفيها يصور شغفه باللهو والتنزه فى الرياض ولقاءه فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارًا طريفًا ، وهو يفتتحها على هذا النمط[1] :

« لم أزل مذ بلغت سن التمييز ، أتولَّع بنظم الأراجيز ، ومذ شبَّ عمرى عن الطَّوْق ، مُغْرى بالغرام والتَّوْق ، وأهيم بالشَّمول[2] والشمائل ، وأشرب فى زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض .. وأتنزه فى كل ناد وواد .. فخرجت بعض الأيام إلى الغياض[3] ، ووَلجت[4] بين حياض ورياض » .

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذى مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة[5] العشاق ، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف . ولعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة . وسنخصه بترجمة قصيرة ، وللصفدى معاصره الذى مرت ترجمته مقامة سماها « رَشْف الرَّحيق فى وصف الحريق » وصف فيها حريق دمشق الذى أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعمائرها لسنة ٧٤٠ ومن قوله فى تلك المقامة الملتاعة[6] :

---

(١) انظر المقامة ملحقة بديوان التلعفرى (طبع المطبعة الأدبية ببيروت) .

(٢) الشمول : الخمر .

(٣) الغياض : أماكن الشجر الملتف

(٤) ولج : دخل

(٥) فوات الوفيات لابن شاكر ٢/٥٦٥

(٦) الجزء الأول من مسالك الأبصار (طبع دار الكتب المصرية) ١/٢٠١

« سألت عن الخبر ، ممن غبر ، فقال إن الحريق وقع قريبا من الجامع ، وأنظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عَقائقُ[١] اللهب اللامع ، فبادرت إلى صَحْنه والناس فيه قطعة لحم ، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم ، ورأيت النار وقد نشرتْ فى حداد الظلام مُعَصْفراتِ[٢] ذوائبها ، وصعدت إلى السماء عَذَباتُ ذوائبها . . وعلت فى الجو كأنها أعلام ملائكة النصر ، وكان الواقف فى الميدان يراها وهى (ترمى بشررٍ كالقصر) ، فكم زمر أضحت لذلك الدخان جاثية ، وكم نفس كانت فى النازعات وهى تتلو (هل أتاك حديث الغاشية) ولم تزل النار تأكل مايليها وتفنى مايَسْفلها ويعتليها » .

وواضح فى سجعاته طلبه للجناس . فهو يجانس بين الخبر وغبر ، والجامع واللامع ، واللحم والشحم ، ويمضى فى مثل هذه الجناسات الناقصة ، واشتهر لزمنه بالتصنع الشديد للجناس . وجعلته عنايته بالجناس يستخدم كلمة ذوائبها مرة من الذوبان جمعًا لذائب ومرة بمعنى مقدم الشعر فى الرأس جمع ذؤابة وجعله هذا المعنى يتصنع لذكر العذبات وهى أطراف العمائم التى تطرح عليها ، وتكلف أشد التكلف حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذى اِبتُليت به دمشق وأهلها بلاء عظيما . وإنما أغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (ترمى بشرر كالقصر) وهى فى وصف جهنم ومايتصاعد من شررها ووقودها كالقصر فى ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق . وقد مضى يتصنع لذكر طائفة من أسماء السو ، فذكر (الزمر) أى الجماعات و (الدخان) و (الجاثية) من الجثو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول ، كما ذكر (النازعات) والآية الأولى فى سورة (الغاشية) والغاشية القيامة .

وواضح أن المقامة أشبه برسالة اتخذت موضوعا لها وصف حريق دمشق ، وأكثر المقامات حينئذ كانت على هذه الشاكلة ينقصها القَصّ والحوار ، وكأنها تختص بموضوع أدبى تعالجه . وغلب عليها ذلك أيضا فى أيام العثمانيين ونلتق فى نفحة الريحانة للمحبى بمقامة سميت بالمقامة الربيعية لعبد الرحمن بن محمد الدمشقى من بنى النقيب ، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو [٣] .

« نَرْجِسٌ نَعْته الفتور ، وورد كأنما انتزع من أوجه الحُور .

---

(١) عقائق : جمع عقيق وهو حجر كريم أحمر شبه به الصفدى اللهب

(٢) معصفرات : مصبوغة بالعصفر ، وهو صبغ أصفر

(٣) نفحة الريحانة ٣٥/٢

وشَقيقٌ كأنه أقداح العقيق[١] ، قد رسب بقرارتها مِسْكٌ فَتيق
وآذَرْيون[٢] كأنه مداهن عَسْجدٍ ، على سواعد زبرجد
وسوسن كبياض السوالف ، أو جياد[٣] الوصائف
وقَرَنْفلٌ كأنما توقَّد بالجَمْر ، وانعقد من الخمر »

ويظل طويلا فى وصف الأزهار ، ويخرج منها إلى وصف الأطيار ، بمثل هذه الأسجاع المليئة بالتشبيهات والاستعارات .

وروى المحبى لعبد الغنى النابلسى الصوفى الذى مرت ترجمته مقامة وصف فيها نزهة مع صديق عثرا فيها على قصر عالى البنيان فدخلاه ، يقول[٤] :

« فصعدنا إلى قصر مَشيد[٥] ، مزخرف الجوانب بألوان الأطلية وأنواع الشِّيد[٦] ، فيه الغرف الرفيعة ذات التزيين ، والمقاصير المصنوعة لقاصرات[٧] الطَّرْف عِين . قد طلَّت شبابيكه على تلك الأرجاء الموفقة ، والجداول المتدفقة ، وأرضه مفروشة بأفخر الوشى والديباج ، وقد أُطلقت فيه مَباخرُ الطيب فزاد فى الابتهاج .. فجلست أنا وصاحبى على تلك الأرائك الممنوعة[٨] ، والفرش المرفوعة ، نتناشد الأشعار ، ونتشبَّث بأذيال الأفكار » .

ويلقاه هو وصاحبه رفيق ، فيسأله أين كنت ؟ ومن أين توجهت ؟ ومايلبث أن يقول له : « ما ذلك القصر الموصوف سوى جُبَّتى هذه وثوبى هذا الصوف ، والشبابيك جيوبه وأطواقه ، ولا عجب أن نَفَحْت فيه مباخر الطيب فإنها قراطيسه وأوراقه » . وكأن كل مافى المقامة رموز صوفية جلاها عبد الغنى النابلسى فى تصاوير الرياض والقصر وتهاويله . وحرى بنا أن نقف قليلا عند ابن الوردىّ أهم كتَّاب المقامة الشاميين .

---

(١) العقيق : حجر كريم أحمر . فتيق : فائح .
(٢) الآذريون : زهر شديد الصفرة . والعسجد : الذهب
(٣) جياد هنا : جمع جيد أى عنق .
(٤) نفحة الريحانة ١٥٢/٢ وما بعدها
(٥) مشيد : عال مرتفع .
(٦) الشيد : كلّ ماطُلى به البناء من جصٍّ وغيره
(٧) قاصرات الطرف : خجلات حييات . عين : جميلات واسعات الأعين .
(٨) الأرائك : مقاعد منجدة.الممنوعة : أى عن الناس

ابن [1] الورديّ

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى ، ولد فى المعرة بلدة أبى العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها ، ويقول ابن حجر فى الدرر : بل نشأ بحلب وهى حاضرة إقليم المعرة ، وخاصة على قاضيها وفقيهها ومفتيها الشافعى شرف الدين البارزى . وتنقل فى بلاد الشام يأخذ عن شيوخها . وعُرف فضله فى الفقه والفتوى ، فولاه ابن الزَّمْلكانى قاضى قضاة الشام قضاء حلب ، وكان شاعرا . وله فى ابن الزملكانى مدائح كثيرة ، اعترافا منه بصنيعه . ورأى ابن الزملكانى فيما بعد عزله عن حلب وتوليته قضاء منبج ، فامتعض ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب و يولَّى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها ، وعبثا حاول أن يسترضيه وأن يرده إلى حلب ، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفى سنة ٧٤٩ . وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا ، فقد نظم كتاب الحاوى فى الفقه الشافعى فى منظومة بلغت أكثر من خمسة آلاف بيت . وله مصنفات لغوية ونحوية ، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى . وهو معدود فى شعراء القرن الثامن النابهين ، ويقول ابن شاكر : «أجاد فى المنثور والمنظوم . فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية» . وديوانه كبير وهو مطبوع فى الآستانة من قديم . وله بعض رباعيات وبعض موشحات ، أنشد منها السبكى فى ترجمته ، وله خمس مقامات ، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه ، وفى رأينا أن نثره أروع من شعره ، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبدع ماله من كتابات أدبية ، ونقصد مقاماته .

وأولى المقامات فى الديوان المقامة الصوفية . ومنها يُجْرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المعرة سافر إلى بيت المقدس وبين عشرة من الصوفية فى مقدمتهم شيخ كبير ، وكانوا يتبادلون فيما بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية ، وأشركوا معهم فى الحديث هذا الوافد المعرى ، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتقصير ثيابهم وعاداتهم والشيخ يجيب . وأحيانا ينتقد صوفية زمنه وأنهم لايتبعون المنهج السديد لأسلافهم حتى ليقول : «إن المتصوفة اليوم أصحاب

---

(١) انظر فى ابن الوردى وترجمته طبقات الشافعية للسبكى ٣٧٣/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٢/٣ وفوات الوفيات ٢٢٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/١٠ والبدر الطالع ٥١٤/١ والشذرات ١٦١/٦ وديوانه ومعه مقاماته ورسائله مطبوع فى الآستانة سنة ١٣٠٠ للهجرة .

أكل وشرب ونوم ، يروون الأقوال ولايتبعون الأفعال ، وافقوا أسلافهم ملبسًا ، وخالفوهم أنفسا » . والمقامة طريفة فى عرضها لأحوال الصوفية فى تلك الأيام ، وحرى بنا أن نذكر فاتحتها لنقف على أسلوب ابن الوردى فى مقاماته ، يقول(١) :

« حكى إنسان ، من معرَّة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكر بعد التعريف ، فاجتزت فى الطريق بواد وقانا لفحة الرَّمضاء(٢) ، وقال : حكمتَ على الوادى الذى تروع حصاه حالية العَذارى فقلنا دائم الحكم والإمضاء ، وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر ، ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولافخر ، فروَّيت كبدَ صادٍ(٣) من تلك العين ، ولكن نُغِّص منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين » .

وقد تصنع ابن الوردى فى أول مقامته لمصطلح التعريف والتنكير فى النحو ، ولم يلبث أن اقتبس فى وصف الوادى ألفاظ بيتين مشهورين من الشعر فى وصف واد للمَنازى معاصر أبى العلاء إذ يقول

وقانا لفحةَ الرَّمضاءِ وادٍ سقاه مضاعَفُ الغيثِ العَميمِ
تروع حَصاه حاليةَ العَذارى فتلمسُ جانب العقد النظيمِ

واشتهرت الخنساء بكثرة بكائها على أخيها صخر فاستغلَّ ابن الوردى ذلك فى التورية عن هذه العين الحقيقية التى تجرى مياهها على الصخر ، ويقول إن منظرها الحسن ذكره بحادثة الحسين ومقتله فى كربلاء وطلبه الماء من أعدائه ومنعه عنه وروحه تصعد إلى بارئها . ولم نمض فى قراءة المقامة لنراه وهو يقتبس آى الذكر الحكيم ويتمثل بالأشعار والحكم والأمثال ، مما جعل الكتابة حينئذ تنوء بكلف كثيرة .

وسمى ابن الوردى مقامته الثانية المقامة الأنطاكية ، واتخذ فيها أيضا شخصا من المعرة يزورها ويصف محاسنها ومحاسن الطبيعة من حَوله ، ويحمد الله على أن ردها من حملة الصليب إلى العرب ، ويأسى لما فيها من تباغض بين العرب والروم .

والمقامة الثالثة سماها المقامة المنبجية ، ومنبج إحدى القرى الكبيرة فى حلب ، وفيها يحكى أيضا شخص من المعرة أنه دخلها فرثى لما أصاب مساجدها وأبنيتها من دثور . وكان حملة الصليب قد استولوا عليها قديما وعاثوا فيها . ويلم ابن الوردى بمدرستها النورية ، فإذا مدرسها

(١) الديوان (فى مجموعة طبعة الجوائب) ص ١٣٣
(٢) الرمضاء : شدة الحر
(٣) صاد : عطشان شديد العطش

القاضى حدث السن ، فظن أنه ليس بشىء ، فلما سأله عن حاجته قال : « نحن عشرة ذوو نسب وأولو علم وأدب ، وقد أنشد كل منا بيتى شعر ، سامها[١] فضل سعر ، وأقام وزنهما ، وقال إنهما وإنهما ، وأنا رسول أصحابى إليك لتنصف بيننا وقد دُللت عليك » فقال له : قل ماأردت أن تقول ، فأخذ يعرض عليه أبياتا فى الغزل وغير الغزل ، والقاضى يعلق تعليقات نقدية بديعة . وحينئذ رجع المعرى إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس ، وأطال شكره .

وسمى المقامة الرابعة المشهدية وفيها يلقى شخصٌ معرِّىٌّ أميرا يحدثه عن الاحتفالات والمواسم حول بعض الأضرحة ومايجرى فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصارى والمجوس ، وينهاه الأمير عن الاشتراك فى هذه البدع المحرمة ، وينوه بقاضى القضاة ابن الزَّمْلكانى الذى أمر بإبطالها وشدد فى النكير عليها ، ويدعو له قائلا :

« لازال نَداه[٢] مثل حرف النداء، كفيلا بضم الأقربين والبعداء، من وُصل به نال عُرْفا [٣] ، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفا ، حتى يكون علمه علما منصوبا ، وعواطفه للمعارف خبرا مبتدأ به منسوبا ، ولابرح مرفوعا بفعل الحسنى ، وسيوف بحوثه ماضية فهى على الفتح تُبْنَى » .

وواضح مدى ماتكلفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحو فى عبارات الثناء على ابن الزملكانى وسجعاته ، فلازال ابن الزملكانى مثل حرف النداء فى النحو ينادى به القريب والبعيد . والتابع مفرد التوابع ، وهى العطف والنعت والتوكيد والبدل ، ولذلك ذكر مع التابع العطف ، وجلب من النحو كلمة « منصوبًا » واراد بها ان العلم مرفوع ، وذكر المعارف والخبر والمبتدأ والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح . كل ذلك حشده فى هذه السجعات القليلة ، ولم يكن يصنع ذلك دائما ولكن من حين إلى حين تلقانا فى نثره هذه الرقع التى تدل على التكلف الشديد .

ومقامته الخامسة فى وصف حريق دمشق الذى وصفه معاصره الصفدى . ومرت بنا قطعة من وصفه ، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم « صفو الرحيق فى وصف الحريق » ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى فى الموضوع نفسه قوية ، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيرا منه حتى عنوان مقامته وهو « رشف الرحيق فى

(١) سامها فضل سعر . غالى بها فى السعر
(٢) نداه : كرمه
(٣) العرف : المعروف

وصف الحريق » . وله رسالة بديعة فى وصف وباء الطاعون الذى فتك بآسيا وامتد من الصين والهند إلى الشام ومصر لسنة ٧٤٩ ويسميها ابن حجر مقامة ، وتسميتها – كما جاء فى الديوان – باسم رسالة أولى لغياب الرواية والحوار فيها ، ومثلها رسالته التى كتب فيها مفاخرة بين السيف والقلم ، وهى رسالة طريفة .

٤

المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ فى خطب المساجد كل يوم جمعة وفى العيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة المختلفة كانت تموج بخطب الوعظ وإن لم تعن كتب الأدب بتسجيلها ، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء ، غير أنها بقيت منها شظايا ، وأول مايلقانا من ذلك فى الشام خطب الخلفاء منذ معاوية ، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظ الأوفر . وكان القُصَّاص منذ معاوية يعظون الناس ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين : مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعيَّن للقصاص مرتبات [1] خاصة . ويشتهر فى زمن عمر بن عبد العزيز غير واعظ مثل رجاء بن حَيْوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل غيلان الدمشقى وكانت له رسائل مليئة بالوعظ . وظلت الشام تمتلئ بالوعاظ طوال القرن الثانى وفى مقدمتهم الأوزاعى صاحب المذهب المشهور . وبالمثل ظل الوعظ حيًّا مزدهرا فى القرنين الثالث والرابع ، ويلقانا فى حلب لزمن سيف الدولة واعظ كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباتة ، وسنقف قليلا عند خطبه ، ولانلبث أن نلتقى بأبى العلاء ، والعظات وتمجيد الله والزهد فى متاع الدنيا يكثر فى أشعاره وكتبه ، ومانفتح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نجده يقول : « إن من هذه الأوراق ماهو تمجيد لله الذى شرف عن التمجيد .. وبعضها تذكير للناسين ، وتنبيه للرقدة الغافلين ، وتحذير من الدنيا » . وله بجانب اللزوميات ديوان ثان فى العظة والزهد والاستغفار سماه : « استغفر واستغفرى » سقط من يد الزمن ، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت . وكان له فى النثر دعاء

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (طبع دار المعارف – الطبعة التاسعة) ص ٧٥

يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة ، وكتاب يعرف بالسجعات العشر فى الوعظ ، وكتاب يعرف بسيف الخطب ، وفيه خطب الجمع والعيدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج ، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة مثل الهمزة والباء والتاء والدال واللام والميم والنون ، لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون لينا سهلا . وله كتاب تاج الحرة ، وهو فى عظات النساء خاصة . وكل هذه الكتب سقطت قديما من يد الزمن ، وبقى من عظاته قسم كبير من كتابه الفصول والغايات ، وسنخصه بحديث عما قليل .

ويحتدم الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية الدينية فى نفوس الناس ، حتى يجاهدوا فى سبيل الله ، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية . واشتهر كثيرون حينئذ بروعة وعظهم ، منهم بنو العديم فى حلب لعهد نور الدين ، ومنهم ابن نجا خطيب دمشق المولود بها سنة ٥٠٨ والمتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٩ ، ومنهم محيى الدين محمد بن الزكى قاضى دمشق وخطيبها ، وهو الذى خطب أول جمعة صُلِّيت بالقدس بعد فتحه ، وسلم بخطْبته .

ومن الوعاظ المشهورين حينئذ المهذب الدمشق الذى لقيه العماد الأصبهانى – كما يقول بخريدته – بدمشق سنة ٥٧١ وسلم برسالة أدبية له ذكرها العماد ويُعَدُّ سبط ابن الجوزى يوسف بن قزوغلى أكبر واعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجرى حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكنا ودار إقامة . وكان قد نشأ فى حجر جده ابن الجوزى واستمع إلى مواعظه الرائعة التى نوهنا بها فى حديثنا عن العراق ، وطارت شهرته فى الوعظ كما طارت شهرة جده ، وكان يحضر مجلسه القضاة والأشراف والأعيان « ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك ، لاسيما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمنزلة العظمى ، وكان له لسان حلو فى الوعظ والتذكار ولكلامه موقع فى القلوب [1] » ويصف أبو شامة مجلس وعظه فى كتابه « ذيل الروضتين » فيقول : « كانت مجالس وعظه من محاسن الدنيا ولذاتها . وكان يزدحم فى مجلسه مالا يحصى من الخلق رجالا ونساء ، والنساء بمعزل عن الرجال فى جامع دمشق ، وجامع الجبل ، حضرتُ مجالسه صغرى وكبرى فى الموضعين مرارا ، وكان لايفارق أحد مجلسه إذا انفضّ إلا وشوقه مستمر إلى عودته فى الأسبوع الآخر . وكان يجلس [للوعظ] كل سبت وتُبْسَطُ السجادات والحُصْر والبسط فى كل المواضع القريبة من المنبر ما بينه وبين القبة فى يوم الجمعة ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٣٩/٧

ويبيت الناس ليلة كل سبت حَلقا ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحا بمجلسه ومسابقة إلى الأماكن »[١] .

ومن كبار الوعاظ فى أوائل أيام المماليك ابن غانم المقدسى ، وله حوار طريف مع إبليس سماه « القول النفيس فى تفليس إبليس » وهى رسالة صغيرة ، أراد بها أن يُعلِّم شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى مايتخبطون فيه من الغى . وأطرف من هذه الرسالة رسالة له سماها « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » وسنتحدث عنها بين الرسائل الأدبية . ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ ولى خطابة الجامع الأموى فترة ، ويقول ابن حجة : « لما فوضت إليه خطابة الجامع الأموى لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر فى تلك الجمعة لأجل سماع خطبته ، وكانت براعتها (فاتحتها) : الحمد لله الذى أيد محمدا بهجرته ، ونقله من أحبِّ البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعته[٢] » . ولاريب أن الخطابة الدينية اطرد لها ازدهارها أيام العثمانيين ، وأن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويرا واضحا . ونقف عند طائفة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة .

(ا) خطب ابن[٣] نباتة الفارقى

ابن نباته الفارقى هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد ، وفيه يقول ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة . وقع الإجماع على أنه ماعُمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمدانى وكان كثير الغزوات ، ولهذا أكثر ابن نباتة من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة سيف الدولة . ولد سنة ٣٣٥ وتوفى سنة ٣٧٤ . وخلفه فى الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفيده أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠ . وطُبعت خطبهم جميعا مرارا ، وطبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمَع السنة ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذى الحجة ، ومن قوله فى الخطبة الثالثة لشهر صفر ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم :

« أيها الناس ! تنزهوا عن حب الدنيا فإن متاعها قليل ، وتزودوا بتقوا كم فإن السفر طويل ، ولا تطمعوا فى هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل ، كيف لا والمنادى ينادى كل يوم ياعباد الله

---

(١) ذيل الروضتين (طبعة سنة ١٩٤٧) ص ٤٩

(٢) خزانة الأدب ص ٢٠

(٣) انظر فى ابن نباتة الفارقى ابن خلكان ١٥٦/٣ وعبر الذهبى ٣٦٧/٢ والشذرات ٨٣/٣

الرحيل الرحيل ، هو الموت الذى مافيه فوتٌ ولاتعجيل ، ولايقبل الله فيه الفداء ولايرضاه من بديل ، كم ألحق عليلا بصحيح وصحيحا بعليل ، وكم أخذ قريبا من قريب وخليلا من خليل ، فكيف تطمعون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل ، فإلى متى هذه الغفلة والقساوة ولم يبق من العمر إلا القليل ، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى فى كماله عن الشبيه والمثيل » .

ولغة ابن نباتة فى خطابته عذبة سائغة ، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر ، فقد عم السجع حتى فى الكتابات التاريخية كما مربنا عند العماد الأصبهانى ، وسجعه يلذ الآذان حين تصغى إليه ، لسهولته وخفته وبراعته فى صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد ، ويقول فى الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان :

« عباد الله إن شهركم هذا شهر البركات والسرور ، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور ، والتجارة فيه لن تبور .. عباد الله ! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور ، وأنهاكم أن تُحْبطوا صيامكم بالغَيْبَة والنميمة وقول الزور .. يامفطرا بالحرام لأى شيء يكون الإفطار والسحور ، ياغافلا عن طاعة الله ماهذه الغفلة والفتور ، ياهائما فى تيه الهوى أما تخشى ظلمات القبور .. يامائلا إلى زهرة الدنيا ، وماالحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، ياعادلا عن طريق الهدى متى تهتدى ليوم النُّشور » .

وبهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتة يعظ الناس فى أيام الجمع ، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وأفئدتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه وخطب على بن أبى طالب فى نهج البلاغة ، وبدون ريب كان يتأثر فى خطابته ببيانه الرائع .

(ب) الفصول[1] والغايات

هذا كتاب جميعه وعظ لأبى العلاء المعرى قصد به إلى تمجيد الله العلىّ الأعلى ، بدأ تأليفه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه ، وقد أثار ضجة حوله منذ ظهوره ، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه معارضة[2] للقرآن الكريم ، ونجد تلميذه ابن سنان الخفاجى الذى مرت ترجمته ينفى عنه بشدة هذه التهمة[3] ، ولعل من أسبابها أنه سمى الكتاب :

---

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زنانى) وقد نشر القسم الأول منها وينتهى فى الغايات إلى حرف الخاء .

(٢) راجع سفر نامه لناصر خسرو (الترجمة العربية طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١١ ودمية القصر ١/١٣٠ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١

(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٤٢٦

« الفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات » وهو لايريد محاذاة القرآن فى أسلوبه وإنما يريد محاذاته فى تمجيد الله وتحميده والثناء عليه ، وهو نفسه يقول فى كتابه : « علم ربنا ماعلم ، أنى ألفت الكلم ، آمل رضاه المسلَّم ، وأتقى سخطه المؤلم ، فهَبْ لى ماأبلغ به رضاك من الكلم والمعانى الغراب » . والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك ، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلى حتى ليقول(١) :

« لو نقلتُ مياه اللُّجَج على منكبى فى قُداف(٢) ، وأفرغته على مناكب الجبال ، وجررت كُثْبان الأرض وصَرائمها(٣) فى جرٍّ أو مِشْآةٍ(٤) ، فألقيتها فى الخُضَر(٥) الدائمات ، حَفْدًا(٦) لله كنتُ أحدَ العجزة المقصِّرين ، ولو أُذن لى وأُيِّدْتُ فابتنيتُ مَراهص(٧) من الثَّرى الأسفل إلى الثُّرَيَّا ، ومن الوَتِد ، المتَّخَذَ من عود إلى وَتِد السُّعود(٨) ، لم أودِّ مايوجبه جلال الله ، فكيف وأنا أقصُر الصلاة ، وأدانى بين الركعات » .

وهو يقول : مهما تنسك ومهما أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى ، حتى لو نقل مياه اللجج الزاخرة على منكبه فى جرار تلو جرار مفرغا لها على مناكب الجبال ، وحتى لو جر كثبان الأرض كثيبا وراء كثيب فى زنابيل وألقاها فى لجج البحار تقربا إلى ربه ، وحتى لو ابتنى من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها عنان السماء إلى الثريا أو لو اتخذ من أوتاد العيدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل إلى وتد السعود ، لظل شاعرا بوهنه وقصوره أمام ماتوجبه تجلة الله وعظمته . وإنه ليصيح مبتهلا إلى ربه فى جزع لايدانيه جزع : « إن كان الدمع يطفئ غضبك فهَبْ لى عينين كأنهما غمامتا شَتِىٍّ(٩) تَبِلان(١٠) الصباح والمساء(١١) » إنه سيظل ماعاش باكيا ذارفا الدموع سائلا من ربه رضاه ورضوانه . ولهذه الصيحة أخوات كثيرة فى الكتاب ، فأبو العلاء فيه دائما يناجى ربه ضارعا بل وجلا خائفا .

---

(١) الفصول والغايات ٥٩/١

(٢) قداف : جرة

(٣) صرائم : جمع صريمة وهى القطعة من الرمل

(٤) جر ، مشآة : زبيل

(٥) الخضر : اللجج

(٦) حفدا : خدمة

(٧) مراهص : طبقات

(٨) وتد السعود : سعد الأخبية : نجوم معروفة

(٩) شتى : من الشتاء ويريد سحابا دائم المطر

(١٠) تبلان : تهطلان ، من الوبل وهو المطر الغزير

(١١) الفصول والغايات ٢٥٩/١

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلا بعدد حروف المعجم ، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر ، وكل فقرة تنتهى بالحرف الذى اختاره للفصل ويسمى غاية ، ويلتزم أبو العلاء قبل غاياته الألف دائما . وليس هذا كل ماصعَّبه على نفسه فى الكتاب ، فقد التزم فى كثير من الفقر أن تشترك سجعاتها فى حرفين أو أكثر على طريقة مانعرف فى لزومياته . والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيرا من الألفاظ الغريبة ، وإنها لتغلب على سجعاته غلبة شديدة ، حتى ليمكن أن نقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته . وعلى عادته فى أشعاره كثيرا مايضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجناس . وكما رأينا فى اللزوميات يكثر فى الفصول والغايات من ذكر المصطلحات العلمية يجلبها من جميع العلوم ، وكأنما يراها وشيا خليقا أن يضاف إلى فصوله وغاياته وفقره فيه ، من ذلك قوله مستظهرًا لبعض مصطلحات علم الصرف[1] .

« لاتجعلنى ربِّ معتلاً كواو يقوم ، ولامبدلا كواو موقن من الياء ، ولاأحب أن أكون زائدا مع الاستغناء ، كواو جدول وعجوز ، فأما واوعمرو فأعوذ بك ربِّ الأشياء ، إنما هى صورة لاجرس لها ولاغناء ، مشبهها لايحسب من النَّسمات » .

وعلماء الصرف يقولون إن واويقوم أصلها يقوم فاستثقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ماقبلها واعتلت ، وأن كلمة « موقن » أصلها مُيْقن ، فقلبت الياء واوًا لسكونها وانضمام ماقبلها ، وأن الواو فى جدول وعجوز زائدة لأنهما مشتقتان من الجدل والعجز . ومعروف أن واو عمرو تكتب ولاتنطق تمييزًا للكلمة من كلمة عمر . وكل ذلك يحشده أبو العلاء فى بعض وعظه بل إنه ليحشد كثيرا من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها . وحسبنا ماقدمناه لنأخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات ، وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » كلمة عنه أكثر بسطا وتفصيلا وتحليلا .

---

(١) الفصول والغايات ١٤٢/١

(جـ) خطبة القدس بعد فتحه لمحيي الدين بن الزكي

أما الخطيب فهو محيي[1] الدين محمد بن الزكي على من سلالة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كانوا قضاة فى دمشق ، وكانت ولادته سنة ٥٥٠ ، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية ، فلما صارت له حلب ولاه قضاءها ، حتى إذا فُتحت القدس ، وكان محيي الدين حاضرا فتحها تطاولت الأعناق إلى الخطابة بها فى أول يوم جمعة ، وأعدَّ من كانوا فى حضرته خطبا بليغة يخطبون بها فى هذا اليوم واختار صلاح محيي الدين ، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاتحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات فى أول سور الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر ، ثم شرع فى الخطبة . وقال [2] فيها .

« الحمد لله معزُّ الإسلام بنصره ، ومذلُّ الشرك بقهره ، ومصرِّف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدَّر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظلِّه ، وأظهر دينه على الدين كله .. أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ..

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالةّ[3] ، من الأمة الضالة ، وردِّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة [4] الشِّرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه .. ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصَّكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مُبار . وهذا هو الفتح الذى فُتحت له أبواب السماء ، وتبلَّجت[5] بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرَّ به عيْنا الانبياء المرسلون .. فاحفظوا — رحمكم الله — هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعُروتها نجا وعُصم ، واحذروا من اتباع الهوى ومواقعة الرَّدى ،

---

(١) انظر ترجمة محيي الدين فى طبقات السبكى ١٥٧/٦ وابن خلكان ٢٢٩/٤ وعبر الذهبى ٢٠١/٤ والبداية والنهاية ٣٢/١٣ والنجوم الزاهرة ١٨١/٦ والشذرات ٣٣٧/٤

(٢) انظر الخطبة كاملة فى ابن خلكان والروضتين ١١٠/٢

(٣) الضالة هنا : كل ما ضل وضاع ، وفى المثل : الحكمة ضالة المؤمن

(٤) إماطة : تنحية وإبعاد

(٥) تبلجت : أشرقت

ورجوع القهقرى .. الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر » .

والخطبة طويلة ، وقد اكتفينا منها بهذه الشظايا الرائعة التى تصور فرحة السلمين بهذا الفتح المبين والنصر العظيم ، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بَدْر وفتوح الشام ومصر والقادسية وهجمات خالد والصحابة الأولين ، وما النصر إلا من عند الله .

(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن [1] غانم عبد السلام بن أحمد المقدسى الواعظ المشهور لزمنه المتوفى سنة ٦٧٨ ، والكتاب فى ٣٠ صفحة ، ذكر فى مقدمته مايفصح عن موضوعه قائلا : « قد وضعت كتابى هذا مترجما عما استفدته من الحيوان برمزه ، والجماد بغمزه ، وماخاطبتنى به الأزاهير بلسان حالها ، والشحارير عن مقار ارتحالها . وسميته كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار ، وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكرة لذوى الأبصار والاستبصار » . ويقول إنه خرج يوما ليتأمل فى الطبيعة وأسرارها ، وانتهى إلى روضة رقَّ نسيمها وغنَّى عندليبها ، وكان وحيدا وأخذ كل ماحوله يخاطبه بلسان الحال دالا على القدرة الإلهية وحكمة الله فى خلقه وعظيم صنعته ، وسجل من ذلك عظات بليغة على ألسنة الأزهار ثم ألسنة الطير ثم ألسنة الحيوان . وبدأ بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه ، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه ، ثم تركه إلى الأشجار وأحد عشر نوعا من الأزهار استهلها بالورد قائلا على لسانه « أنا الضيف ، فاغتنموا وقتى فالوقت سيف ، أُعطيت نفسَ العاشق وكُسيت ملاحة المعشوق ، وأنا الزائر وأنا المزور ، ومن طمع فى بقائى فإن ذلك زور ، ثم من علامة الدهر المكدور ، والعيش المحرور ، أنى حيثما نبتُّ رأيت الأشواك تزاحمنى وتجاورنى ، فأنا بين الأدغال مطروح ، وبنبال شوكى مجروح . وهذا دمى على عَنْدمى يلوح ، وهذا حالى وأنا ألطف الأوراد ، وأشرف الورَّاد ، فمن صبر على نكد الدنيا بلغ المراد » .

و ختم ابن غانم الكلمة بالعظة التى يريدها ، وجعل الورد ضيفًا على الطبيعة ، لأن مدة بقائه فيها قصيرة ، واستغل ماينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مهما أذاقت الناس فيها من حلاوة العيش لابد أن تجمع إليهم شيئا من مرارته فليست الدنيا وردا خالصا ولا حياة لإنسان فيها دائما

---

(١) انظر فى ابن غانم وترجمته البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٩/١٣ ومرآة الجنان لليافعى ١٩٠/٤ والشذرات لابن العماد ٣٦٢/٥ .

مشرقة زاهية بل لابد من ظلمة تغشاها ، بل هي مزيج من خير وشر وأمل ويأس وسرور وحزن ، وحريٌّ بالإنسان فيها أن يصبر ويصابر حتى يبلغ مأموله . ويقول على لسان شجر البان الذى طالما ذكر المحبون فى لينه وتمايل أغصانه محبوباتهم .

« انظر إلى الورد وقد ورد ، وإلى البرد وقد شرد ، وإلى الزهر وقد اتَّقد ، وإلى الحَبِّ وقد انعقد ، وإلى الغصن اليابس قد اكتسى بعدما انجرد ، وإلى اختلاف المطاعم ومشربُها قد اتحد ، واعلم أن خالقها أحد ، وصانعها صَمَد ، وموجدها بالقدرة قد انفرد ، لايشاركه فى ملكه أحد ، ولايفتقر هو إلى أحد (لم يَلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد) » .

وهى عظه بليغة على لسان البان ، فالربيع أقبل ، وأقبل الورد معه ، وشرد الشتاء والبرد : وأضاء الزهر بألوانه واتقد ، وحب الثمار قد انعقد ، واكتست الغصون بعد العرى وسقوط الأوراق عنها ، ودبت فيها نضرة الحياة ، وماأعظم قدرة الله فالنباتات والأشجار تسقى بماء واحد وتختلف ثمارها وطعومها بين حلو وحامض ، وكل ذلك شاهد على قدرة الله التى لايشركه فيها أحد ، إنه واحد صمد ليس كمثله شيء وهو على كل شيء قدير .

وينتقل ابن غانم من الحكاية على لسان الأزهار إلى الحكاية على لسان الأطيار ، ويستهل كلامها بكلام الهزار وهو طائر حسن الصوت متعدد الألحان وعلى لسانه يقول :

« أنا العاشق الولْهان ، أنا الهائم اللَّهفان ، إذا رأيت فصل الربيع قد حان ، تجدنى فى الرياض فرحان ، وفى الغياض [1] أردد الألحان . وأرقص على الأغصان كأن الزهر والنهر لى عيدان [2] ، وانت تحسبنى فى ذلك عاتبا ، لا والله العظيم ولست فى يمينى حانثا ، أنا أنوح حزنا لاطربا ، وأبوح ترحا لافرحا ، لاأجد روضة إلا نُحْتُ على اضمحلالها ، ولاخضرة إلا تبلبلت على زوالها ، لأنى مارأيت قط صفوة إلا تكدرت ، ولاعيشة حلوة إلا تمررت ، فقرأت فى تمثال العرفان ، كلٌّ من عليها فان » .

والهزار فى أول العظة فرح بمقدم الربيع ، وسرعان مايفكر فى انتهائه ، فيندب وينوح ، إذ لا يجد روضة إلا وتضمحل بعد ازدهارها . ويتسع تفكيره حتى يشمل الحياة ، فإذا كل مافيها من صفاء لايلبث أن تغشاه كدرة قاتمة ، وكل مافيها من عيش حلو لايلبث أن ينقلب عيشا مرا ، بل إن كل مافيها هالك فان . وسَعِد من كُتبت له السعادة ، وشقى من كتب له الشقاء . وينتقل إلى

(١) الغياض : جمع غيضة وهى الشجر الملتف المعروفة

(٢) عيدان هنا : جمع عود ، وهو الآلة الموسيقية

الحيوانات ويختم حديثه عنها بكلام على لسان النملة إذ تقول :

« إذا رماك الدهر بمرمى فقم له ، وإذا رأيت من تهيأ للسير فَسِرْ قبله ، ولاتكن فى تدبير عيشك أبله ، تعَّلمْ منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد .. كُلِّفت جمع المئونة بتيسير المعونة ، وأُعْطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بُعد الفراسخ ، مالم يدركه ذو العلم الراسخ ، ثم أعْطيت بالتقدير ، حسن التدبير ، فأدبِّر ما أدَّخره من الحب لقوتى ، فى بيوتى » .

والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفع للإنسان يسير فى الطريق السديد ، واعيًا لحكمة الله فى خلقه ، متعظا بما تورده عليه الحيوانات والأطيار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال وأضواء تنير له دنياه ، وتعده إعدادا حسنا لأخراه . ولغة الكتاب سهلة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد ، وهو حقا مسجوع ، ولكن ليس فيه ألفاظ آبدة غريبة ، وتتخلله أبيات شعرية سائغة ، تدل على حسن ذوق المؤلف ودقة اختياره . وبجانب الأبيات المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم كان يحسن الشعر والنثر جميعا .

٥

أعمال أدبية : رسائل وغير رسائل :

خَلَّفت الشام فى هذا العصر أعمالا أدبية كثيرة ، ويلقانا فى مفتتحه كشاجم ، وله كتاب المصايد والمطارد عرض فيه الصيد وآلاته وماقيل فيه من الأشعار عرضا طريفا ، وله بجانبه كتاب فى البيزرة أو بعبارة أخرى فى جوارح الصيد ، وكتاب فى أدب النديم . ولأبى العلاء المعرى أعمال أدبية نثرية كثيرة ، لعل أهمها رسالة الغفران ، وسنلم بها عما قليل ، وفى خريدة القصر قسم الشام رسالة أدبية بديعة هى رسالة النسر والبلبل ، وسنفرد لها كلمة موجزة ، وفى الخريدة أيضا رسالة [1] طريفة ليعمر بن عيسى المتوفى شابا سنة ثمان أو تسع وستين وخمسمائة ، وموضوعها معاشرة الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غُصَّة فى دنيالا يدوم نعيمها ولاتندمل كلومها ، وعنده أن الفرصة هى الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقنص . ويفيض فى وصف الصيد وماركبوا فيه من خيل وماحملوا فيه معهم من فهود وكلاب وبُزاة وشواهين ، ويطيل فى بيان صيد

---

(١) انظر الرسالة فى الخريدة (قسم الشام) ٣٥٤/١-٣٨٩

له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة ، وهى رسالة أدبية بارعة كتبها أديب حاذق فى فنه وسجعاته وجرسها الموسيقى وفى تصاويره وتلاوينه .

وربما كان أهم من عنى فى القرن السادس الهجرى بكتابة أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، وله كتاب العصا جمع فيه مانظم من شعر ، وهو منشور ، وله كتاب لباب الآداب ، وهو زاخر بالأشعار والحكم والنوادر والآداب الفردية والاجتماعية ، جعله فى سبعة كتب : فى الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب والبلاغة والحكمة ، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلا : فى الأدب وكتمان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحذير من الظلم والإحسان والحض على فعل الخير . وعادة يورد فى كل كتاب مايتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار وماروى عن العرب والعجم من أقوال . ولأسامة كتاب ثالث هو المنازل والديار ألفه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٦٥٢ أتى على حصن شَيْزر موطنه وأحاله أنكاثا وأنقاضا ، ويقول فى مقدمته : « دعانى إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادى وأوطانى من الخراب ، فإن الزمان جَرَّ عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها[(١)] حَوْله وحَيْله[(٢)] ، فأصبحتْ (كأن لم تَغْنَ بالأمس) موحشة العَرَصات بعد الأنس ، قد دَثَر عمرانها ، وهلك سكانها ، فعادت مغانيها[(٣)] رسوما ، والمسرات بها حسرات وهموما » وهو كتاب ضخم فى نحو ٥٠٠ صفحة ، اختار فيه أطرف ماله ولسابقيه من أشعار بديعة ، وقد جعله فى ستة عشر فصلا : فى المنازل والديار والمغانى والأطلال والربع والدِّمن[(٤)] والرسم والآثار والمساكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت وبكاء الأهل والإخوان . وأطرف أعماله الأدبية جميعا كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخصه بكلمة . ونمضى إلى زمن المماليك ويلقانا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا ، وهو أشبه بمقالات أدبية فى الطبيعة والطير والحيوان والأخلاق وسنلمّ به عما قليل .

ونلتقى فى زمن المماليك بابن حجة الحموى وكتابه « ثمرات الأوراق » وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات ، فيه نثر ورسائل وشعر ونوادر وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والعلماء والحمقى والأطباء ، مع بعض الأحداث فى زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات .

---

(١) تعفيتها : دثورها وطمسها

(٢) الحيل : الحول والقوة

(٣) مغانيها : منازلها

(٤) الدمن : آثار الديار

وبأخرة من عصر المماليك نلتقى بابن عرب شاه وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » وسنفرد له كلمة .

ونتقدم إلى أيام العثمانيين ، ونلتقى ببهاء الدين العاملى الذى ترجمنا له بين شعراء الشيعة ، وله المخلاة ، وهى كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادر ، وأهم منها كتابه الكشكول ، وهو فى مجلدين ، وبه شذرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية ، ومن بحوث التاريخ والفلسفة والتصوف ، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمتصوفة ومتفلسفة ولشعراء الغزل والحماسة والحكمة ، وحرى بنا أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أعمال أدبية .

(١) رسالة[1] الغفران

رسالة طويلة فى نحو مائتى صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء ردا على رسالة لعلى بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح ، وهى تنقسم قسمين : قسما يتحدث فيه عن نهوض ابن القارح من قبره يوم البعث ويتصور له نزهة فى الجنة يلقى بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم : بِمَ غُفر لهم ، ويتردد السؤال فيما بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الغفران ويرد أبو العلاء بن القارح إلى يوم المحشر ليصور أهواله وأهوال الصراط مع الناس انتظارًا لمصيره وقد ظل فى المحشر واقفا حتى تعب من شدة الحر والظمأ ، وكان معه صك التوبة ففكر فى دخول الجنة عن طريق خداعه لسدنتها ونَظَم القصائد الطوال فى مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئا ، وتركه إلى سادن آخر ، فنبهه إلى أن يتشفع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه . ولقى حمزة بن عبد المطلب فتوسل به إلى الإمام على بن أبى طالب ، ورأى أبا على الفارسى يحاوره نفر من شعراء البادية فى تأويله لبعض كلامهم ، وطلب على بن أبى طالب منه شاهدًا على توبته فاستشهد بقاض من حلب ، وسقاه على من الحوض ، وقال له : لاسبيل إلى دخول الجنة قبل الحساب ، ورأى استخدام الحيلة فتعلق بركاب إبراهيم بن الرسول ﷺ : ويسأله رضوان هل معك من جواز ؟ ويجذبه إبراهيم معه ، فيدخلها ويلتقى ثانية بالشعراء ويحاورهم . ويقيم ابن القارح مأدبة يدعو إليها كل من فى الجنة من شعراء وعلماء وأدباء ، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غريبة ، ويطلع فيرى طائفة من الجن ، ممن آمنوا بالرسول ﷺ ، ويسأل شيخهم عن

(١) انظر فى رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) و(طبعة د . بنت الشاطئ) وهى طبعة محققة (نشر دار المعارف)

أشعارهم التى جمع منها المرزبانى قطعة صالحة فيقول الشيخ : إنما ذلك هذيان لامعتمد عليه ، ثم يُرْخى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقى بالحطيئة والخنساء وهى تنظر إلى أخيها صخر فى الجحيم ، وينظر مثل الخنساء ، فيجد إبليس وبشارا وامرأ القيس وعنترة واثنى عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأخطل التغلبى ويحاورهم جميعا . ويعود فيلتقى بآدم عليه السلام وببعض الحيَّات التى ظلمت فى الدنيا ، وكوفئت فى الآخرة بدخول الفردوس ونزولها فى روضة الحيات . ويمر بجنة الرُّجَّاز ، ويحاورهم فى أرجازهم حوارا طريفا . وتنتهى رحلة ابن القارح على الصراط وماشاهد من عذاب فى الجحيم ومن نعيم لايماثله نعيم فى الجنة ، ويفضى ابن القارح إلى المتاع بهذا النعيم .

وهذا هو القسم الأول فى الرسالة ، وقد كان له تأثير عميق فى الآداب العالمية ، إذ كتب دانتى الشاعر الإيطالى المتوفى سنة ١٣٢١ م على غراره الكوميديا الإلهية ، وشُغل بالبحث فى ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولايزالون مشغولين .

والقسم الثانى من الرسالة خاص بسؤال ابن القارح لأبى العلاء عن الزندقة والزنادقة ، وقد استهلها أبو العلاء بالثناء على ابن القارح لوفائه فى زمن يعز فيه الوفاء : وتحدث عن حرفة الأدب وهمومها ، ودفع عن المتنبى مايقال من زندقته أو إلحاده إذ كان متألها كما تشهد بذلك أشعاره ، وشك فى عقيدة دعبل . وذكر بعض الشعراء الزنادقة وفى مقدمتهم بشار وصالح بن عبد القدوس والوليد بن يزيد ، وتعرض لكثير من النحل المارقة فى زمنه ، وفى مقدمتها القرامطة وغلاة الشيعة كعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح رأس العقيدة الاسماعيلية والقائلين بالتناسخ كالهنود وبالحلول من الصوفية كالحلاج ، وأَصْلَى ابنَ الراوِنْدِىّ الزنديق[1] هو وكتبه : التاج والدامغ والقضيب والفريد والمرجان التى طعن فيها على الدين الحنيف نارًا حامية من الذم والتقريع ، ومن قوله فى التاج وهو أهم كتب ابن الراوندى الكافرة : لايصلح أن يكون نعلا ، وأُفٍّ وتُفٍّ ، وجورب وخُفّ وهما واديان بجهنم . ويعود إلى حديث ابن القارح ، ويعرض لتوبته وتمثيله جالسا للوعظ فى مسجد بحلب ، ويلم بأول سماعه عنه وبشيوخه وببعض علماء حلب وبتلبيات العرب فى الجاهلية وببعض مسائل فرعية .

---

(١) راجع فى ابن الراوندى وإلحاده والرد عليه كتاب «من تاريخ الإلحاد فى الإسلام» لعبدالرحمن بدوى

والرسالة نفيسة إلى أبعد حد لالأن أبا العلاء صوَّر فيها المحشر والجحيم والنعيم فحسب ، بل أيضا لأنه ساق فى حواره مع الشعراء نقدا لغويا وعروضيا ونحويا ، مع تعرضه لقضية الانتحال على القدماء ، ومع جودة استحسانه لما ساقه من أبيات الشعراء وماذكر من قصائدهم . وقد عرض فى القسم الثانى للنحل الكثيرة فى زمنه ومافيها من خروج على الدين وإلحاد ومروق ، وقد أنحى بذم عنيف على كل المارقين الملحدين ، ومع ذلك يقال إنه حمَّل الرسالة سخرية من الدين الحنيف ، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة .

ولم نعرض لأسلوبه فيها ، وهو نفس أسلوبه العام الذى ألفناه ، أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة فى الغرابة ، تعبيرا عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربية ، علما لعل أحدا من أدباء العرب على مر أزمنتهم وعصورهم لم يحظَ به ، وهو لايكتفى بالإغراب فى ألفاظ سجعه ، بل يضيف إليها كما قلنا فى غير هذا الموضع وشيا من المحسنات البديعية وخاصة الجناس . وقد ذكر فيها أبو العلاء شبل الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب (٤٢٠ – ٤٢٩ هـ) مما يؤكد أنه أملى رسالته لعهده فى العقد الثالث من القرن الرابع .

(ب) رسالة[١] النَّسر والبلبل

هى رسالة بديعة للمهذب أبى طالب محمد بن حسان الدمشقى ، ترجم له العماد الأصبهانى فى خريدته . وقال إنه زاره فى مدرسته العمادية التى كان يدرس بها لطلابه فى ربيع الأول سنة ٥٧١ وأنشد بعض أشعاره ، ثم قال : ونقلت له من رسالة وسمها « بالنَّسْر والبلبل » فاختصرتها وأولها .. » ثم ذكر – فيما يبدو فاتحتها ، وهى تصور نسرا شاهد روضا فاتنا خلب لبه ، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملأه غبطةوفتنة ، فسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا مع أنى ملك الطيور ليس لى شىء من سحره وجماله؟ وأجابه إن الصانع الحكيم لايهب الأصوات حسب الأجسام . والرسالة تبدأ بوصف النسر على هذا النمط :

طار طائر عن بعض الشجر ، وقد هبَّ نسيم السحر ، وانفلق عمود الفَلَق[٢] وانخرق قميص الغَسَق [٣] مشهور بالقَسْر[٤] ، موسوم بالنَّسر ، والليل قد شابت ذُؤَابته[٥] ، وابيضَّت قمته . .

---

(١) انظر الرسالة فى الخريدة (قسم الشام) ١/٣٤٠ وانظر معها ترجمة صاحبها محمد بن حسان وانظره فى كتاب المحمدون من الشعراء والوافى بالوفيات ٢/٣٣٠

(٢) الفلق : الصبح

(٣) الغسق : الليل .

(٤) القسر : القهر

(٥) الذؤابة : شعر مقدم الرأس ، والاستعارة واضحة

كأنما أجنحته رُكِّبت من العواصف ، واستُلبت من البروق الخواطف . . كأنه سهم رُشِق [١] عن قوس القضاء ، أو نجم أشرق فى أفق السماء .. يقبض أجنحته ويبسط ، ويصعد إلى السماء ويهبط يجرح بأسنة قوادمه [٢] أعطاف القَبول [٣] وأطراف الصَّبا ، وَيُقدُّ الشمال بخوالفَ [٤] كأنها غروب [٥] الظُّبا ، ويفتق بخوافيه [٦] جُيوبَ الجنوب [٧] ، ويخرق بصدره صدر الرياح فى الهبوب .. حتى أشرف .. على روض أريض [٨] . وظلٌّ عريض ، وأنهارٍ متدفِّقة ، وأشجار مونقة ، وطلٌّ منثور ، ووَرْد ومنثور [٩] ، ومكان بَهج ، وزهر أَرِج .. فمن وردٍ فضىٍّ الأوراق ، ذهبى الأحداق ، كافورى الصِّبغة ، مسْكى الصِّبغة ، مائىَّ الجسم ، هوائى الرسم ، حاكت [١٠] الصَّبا إهابه ، وخاطت الشمال أثوابه ، وفتَّحت الجَنوب أكمامه ، وحسرت [١١] الدَّبور عن وجه جماله لثامه ، فظهر فى أفق الشجر ، كأنه شهب السَّحَر ، أو خدود الحُور فى القصور ، ظهرت فى غلائل من الكافور ، ومن غصون تجتمع وتفترق ، وترنَّح وتعتنق ، والنسائم تَحلُّ عَقْد أزرار الزَّهَر ... والشمس تُسفر وتنتقب ، وحاجب الغزالة [١٢] يبدو ويحتجب .. فوقف [النسر] فى الهواء حين رآها وقال : هذه غاية النفس ومناها . . أين المذهب ، وقد حصل المطلب ، وأين الرواح وقد أسفر الصباح .. وبينا هو صافٌّ الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجب إليها ، إذ سمع صوتا من بلبل سحرىٍّ على وَكْر شجرىٍّ ، يناغى النسائم بنغمة مزماره ، ورنَّة أوتاره .. وألحان أعذب من نقرات المزاهر ، ينثر درًّا من عقود ألحانه ولؤلؤا من صَدَف افتتانه بين أفنانه [١٣] ، ويرجِّع قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه .. كأنها ماقيل عن مزامير آل داود وتسابيحهم فى الركوع والسجود .. أو أصوات رهبان الصوامع ، أو تلاوة من تَتجافى [١٤] جُنوبهم عن المضاجع . . ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافخ فى المزمار ، فرأى البلبل يرجِّع سجع ألحانه فى ربع أحزانه » .

---

(١) رشق : رمى

(٢) القوادم : الريش الطويل فى مقدم الجناح

(٣) القبول : ريح الصبا الشرقية

(٤) خوالف : جمع خالفة هى الريش فى مؤخر النسر

(٥) غروب : جمع غرب وهو طرف الحد — والظبا : جمع ظبة وهى الحد للرمح ونحوه

(٦) الخوافى : الريش القصير فى الجناح

(٧) الجنوب : ريح جنوبية

(٨) أريض : كثير النباتات حسن المنظر

(٩) المنثور : زهر له رائحة ذكية

(١٠) حاكت : نسجت

(١١) حسرت : كشفت . والدبور ريح تهب من الغرب

(١٢) الغزالة : الشمس .

(١٣) أفنانه : أغصانه .

(١٤) هم المسلمون الأتقياء تتجافى جنوبهم عن المضاجع ليلا للعبادة والصلاة .

وإذا كان العماد قد اختصر الرسالة ، واكتفى بمطالعها أو فواتحها ، فإننا زدناها اختصارا ، وأكبر الظن ، أنه قد اتضح جمال الأسلوب فى هذه الرسالة البديعة ، فسجعها يطير عن الأفواه بخفته لرشاقة ألفاظه وبدع تصاويره. ويَفْتن النسرَ صوتُ البلبل وجمال تلاحينه ، فيتجه إليه مسلما عليه ، ويظهر العجب لأنه صغير حقير فى منظره ، وله هذا اللحن المطرب ، والصوت المعجب ، ويصارحه بما فى نفسه ، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغماته ، فيقول له : « أما علمت أن الأرواح لطائف وهى أشرف من الأجسام ، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة الأفهام ، وإنسان العين صغير ويدرك الأكوان والألوان ، والإنسان عظيم والمعتبر منه الأصغران : القلب واللسان ، مايكون الدر بقدر الصدف ، وشتان مابينهما فى القيمة والشرف ، ولا الآدمى كالفيل ، وبينهما بَوْنٌ فى التفصيل .. وأما النغمة التى قرع سمعَك سوط لذَّتها .. فإننى رصَّعت شَذْرها[1] فى عقد ألحانى على نغم بعض الأغانى » .

ويذكر البلبل للنسر أنه كوَّن ألحانه من احتفال يعقد فى الروضة كل ليلة للملك يأتيها مع ندمائه ، إذا ولَّى النهار وصَبَغ الليل ثوب الكون بظلمته وتُشْعَلُ له الشموع وتصطفّ القيان وصفوف الحور والولدان وترجَّع الأنغام والألحان ، وينقضى ليلهم فى لهو وسماع وطرب ، ومنهم أخذ ألحانه وأنغامه . وعليه إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يحذو حذوه فى الاستماع إلى رنات الغناء فى هذا الحفل العجيب . ويدعو النسر إلى المبيت فى الروض غير أنه ينام ، ويضيع منه مراده ، ويعاتبه البلبل عتابا مرا قائلا : إن من استلذ المقام ، عدم المرام ، ووُجِّه إليه الملام . وأكثر البلبل على النسر العتاب ، فودَّعه وطار ، وقد عدم الأوطار . ويطيل المهذب فى العظة من هذه القصة وأن بلوغ المراد إنما يكون مع الاجتهاد ، وبصدق الطلب يُدْرك الأرب . ويقول العماد إن المهذب أتم الرسالة بفصل وعظى ليس من شرط كتابه ذكره ؛ وواضح أن وعظها دار حول الجد فى طلب المنى دون مهلة أو مايشبه المهلة فضلا عن الغفلة ومايشبه الغفلة .

(جـ) كتاب الاعتبار[2]

مذكرات طريفة لأسامة بن منقذ أحد أبطالنا فى الحروب الصليبية ، وقد مرت ترجمته بين الشعراء ، والمذكرات أشبه بترجمة شخصية لأسامة ، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى فى

---

(١) الشذر : قطع الذهب وصغار اللؤلؤ

(٢) نشر فيليب حتى هذا الكتاب فى برستون سنة ١٩٣١ وراجع ماكتبناه عنه فى كتابينا : الترجمة الشخصية والرحلات (طبع دار المعارف)

شَيْزر حصن آبائه وماوقع له فيها من أحداث ، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتنقل – كما مر فى ترجمته – بين دمشق والقاهرة والموصل .. ووصف ماشاهده واشترك فيه من المعارك الحربية بين المسلمين وحَملة الصليب ، وشارك – كما مر بنا – فى أحداث مصر قبيل نهاية الدولة الفاطمية ، وروى ما كان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء . ووصف وصفا حيا حربه تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين ، كما وصف وصفا حيا معيشة حَملة الصليب بديار الشام إذ كانت تتصل بينهم وبين المسلمين – حين تضع الحرب أوزارها – علاقات من حسن الجوار ، مما جعله ينزل بينهم فى بعض الأوقات . وقد وصفهم بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير » ويصورهم متأخرين حضاريا عن المسلمين . ويذكر فى صراحة أن المودة انعقدت بينه وبين بعض فرسانهم ، ويقول إنه لاتوجد عندهم غيرة على نسائهم ، ويصورهم متخلفين فى الطب تخلفا شديدا ، ويقص هذه النادرة :

« من عجيب طبِّهم أن صاحب المنيطرة (فى أعالى الشام) كتب إلى عمى أمير شَيْزر يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليهم طبيبا نصرانيا يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ماأسرع ماداويت المرضى ! قال : أحضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دُمَّلة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجى فقال لهم : هذا مايعرف شىء (فكيف) يداويهما ؟ . وقال للفارس : أيما أحب إليك ؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، فقال : أحضروا إلى فارسا قويا وفأسا قاطعا ، فحضر الناس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة (قطعة) خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، اقطعها ، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة فما انقطعت وضربه ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه المرأة فى رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من مأكلهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال ، الشيطان قد دخل فى رأسها ، فأخذ الموسى ، وشقَّ رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكَّه بالملح ، فقلت لهم : أبقى لكم إلىَّ حاجة ؟ قالوا : لا فجئت وقد تعلمت من طبهم مالم أعرفه » .

وثابت الطبيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم . ويتحدث أسامة طويلا عن

عاداتهم ومأأخذوه من العادات الإسلامية الشرقية فى المطعم والملبس ، مما يؤكد أنهم إذا كانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتها وحضارتها .

وليس فى هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولاأى نسق تأليفى ، بل الأخبار أو قل الذكريات يأخذ بعضها برقاب بعض ، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب وذكرى من الشيخوخة ، أو قل إنها ذكريات مبعثرة ، غير أنها كتبت بأسلوب قصصى ممتع لاتصنع فيه ولاتكلف ، فلا سجع يداخله ولامحسن من محسنات البديع ، بل يترك أسامة نفسه على سجيتها يصف ماشاهد وصفا نابضًا بالحياة فى لغة سهلة ، حتى لتقترب أحيانا من العامية . وتشهد بذلك القطعة المارة آنفا ، ففيها بعض الخطأ فى الإعراب وفى نسق الأسلوب ، غير أن ذلك لايتصل فى الذكريات اتصالا من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبى الفصيح ، وجعل هذا المنحَى أسامة يستخدم أحيانا كلمات إفرنجية وأخرى فارسية أو تركية ، وكأنما يريد أداء الواقع بكل مايتصل به من لغة الناس لزمنه . وفى الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من أحداث حربية وسياسية وأحوال اجتماعية وخاصة لحملة الصليب ، سجَّلها مشاهد لها رآها تحت بصره .

(د) نسيم[١] الصَّبا

مؤلف هذا الكتاب الذى يُعَدُّ طرفة أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقى المعروف باسم ابن حبيب أحد أجداده ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عُيِّن محتسبًا بحلب ، فنشأ بها بدر الدين ، ورحل فى طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن ابن نباتة ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام فى الاسكندرية مدة ، ثم تركها إلى القدس والخليل ومكة . وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحكم بدمشق فى عهد الأمير سيف الدين منجك ، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفى سنة ٧٧٩ . وله تاريخ فى سلاطين المماليك سماه درة الأسلاك فى دولة الأتراك وهو مسجوع ، وله تذكرة النبيه فى أيام المنصور (قلاوون) وبنيه ، وله فى السيرة النبوية كتابان : النجم الثاقب فى أشرف المناقب ، والمقتفى فى ذكر فضائل المصطفى .

---

(١) انظر فى نسيم الصبا ومؤلفه بدر الدين بن حبيب الدرر الكامنة لابن حجر ١١٢/٢ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١١ والشذرات ٢٦٧/٦ وتقاريظ الصفدى لنسيم الصبا بين يدى طبعته سنة ١٢٩٠ هـ .

وأهم أعمال ابن حبيب الأدبية « نسيم الصَّبا » وهو ثلاثون فصلا أو مقالة بتعبيرنا الحديث ، اتخذ موضوعها الطبيعة أحيانا ، إذ له فيها ثمانية فصول فى وصف السماء ، والشمس والقمر ، والمطر ، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر ، والأشجار والثمار والروض والأزهار ، وأحيانا اتخذ موضوعها الحيوان والطير ، إذ له فيه أربعة فصول فى الخيل والإبل والوحش ، والطيور ، ورمى البندق أو الصيد . وأحيانا أخرى اتخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية ، أو بعض علاقاته الإخوانية كالاستعطاف والشكر والثناء والتهنئة والرثاء ، أو بعض شئونه المدنية كالكتابة ، أو بعض شئونه الحربية كالسلاح والمعارك الحاطمة للاعداء ، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينهما من الفراق أو يضنيه من العشق ، وقد أدار الفصل الخاص به على مدحه وذمه ، يذكر فيه محاسنه ومساويه . وبعض الفصول - كما يتضح من موضوعها - مفاخرات أو مناظرات ، على نحو مايلقانا عن فصول السنة فى الفصل الخامس . ونشعر دائما بالقدرة على التعبير المسجوع والتصوير الرائع كقوله فى الفصل السادس يصف البحر وسفينة شقّ بها عُبابه :

« هزَّتنى رياح الأمل البسيط ، إلى امتطاء ثَبَج[1] البحر المحيط ، فأتيت سفينة يطيب للسَّفْر مثْواها ، وركبتُ فيها (بِسْمِ اللهِ مَجْراها ومُرْساها) .. يالها سفينةً ، على الأموال أمينة ، ذات دُسُرٍ[2] وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتطير بغير جَناح ، وتعتاض عن الحادى[3] بالملاَّح ، تخوض وتلعب ، وتَرِد[4] ولاتشرب ، لها قِلاع كالقلاع[5] ، وشراع يحجب الشُّعاع ، وسكينةٌ وسُكَّان[6] ومكانةٌ وإمكان ، وجُؤْجُؤٌ وفَقارٍ[7] ، وأضلاع محكمة بالقار[8] .. بعيدة مابين السَّحْر والنَّحْر[9] ، من أحسن الجوارى[10] المنشآت فى البحر ، معقودٌ بِنواصيها[11] الخير كالخَيْل ، لا تملُّ من سير النهار ولا من سُرَى الليل :

---

(١) ثبج : وسط .

(٢) دسر : حبال :

(٣) الحادى : سائق الإبل بالحداء وهو الغناء للإبل

(٤) ترد : من ورود الماء وبلوغه

(٥) قلاع الأولى : شراع السفينة جمع قلع . وقلاع الثانية : جمع قلعة وهى الحصن

(٦) سكينة : وقار . وسكان السفينة : دفّتها

(٧) الجؤجؤ : صدر السفينة . الفقار : جمع فقارة وهى الواحدة من عظام سلسلة الظهر

(٨) القار : القطران

(٩) السحر : الرئة ، النحر . أعلى الصدر

(١٠) الجوارى : السفن

(١١) نواصيها : مقدماتها . وفى الخيل : الشعر فى مقدمة الرأس

ما رأى الناسُ من قصورٍ على الما ء سواها تَسيرُ سَيْرَ القِداحِ (١)

كأنها وَعِلٌ (٢) ينحطُّ من شاهق ، أو عِرْباضٌ (٣) سابق يحثُّه سائق ، أو عقرب شائله (٤) ، أو عُقاب صائلة (٥) .. حاكمها (٦) عادل فى حكه ، عارف بنقض أمرها وبَرْمه (٧) ، يهتدى بالنجوم ، ويبتدئ باسم الحى القيُّوم .. وبينما نحن من البحر فى قاموسه (٨) ، كتب الجوُّ حروف الغيم فى طروسه ، وثارت ريح عاصف ، يتبعها رعد قاصف ، فمالت بنا الفلْك (٩) واضطربت ، ودنت شفتها من رَشْف الماء واقتربت ، واستمرت تعلو على الأوتاد (١٠) ، وتهيم فى كل واد . وتضرم فى الكبود نار ناجرٍ (١١) ، إلى أن (بلغت القلوب الحناجر (١٢)) .. ثم نظر إلينا من لا تخفى عليه السرائر ، وأمر الجارية (١٣) بِحَمْل عبيده إلى بعض الجزائر » .

ونزلوا الجزيرة وتنزهوا فى رياضها ورأوا فيها نهرا أرضه ذهب وحصباؤه درر . ويمضى ابن حبيب فى الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذى يمتع الآذان والأذهان بجرسه وما بين الألفاظ من ملاءمات تجعل السجع يلذ الألسنة حين تنطق به ، ويسر القلوب حين تستمع إليه . وبحق يقول ناصر الدين بن البارزى فى الكتاب مقرظًا له : « لقد أشبه الدر فى انتظامه ، والثغر فى ابتسامه ، وقَطْرَ الندى فى انسجامه ، وزهر الروض فى البُكَر إذا غنتْ على غصونه مطرباتُ حمامه .. فهو فى اللطافة كالماء فى إروائه ، وكالهواء المعتدل فى ملاءمة الأرواح بجوهر صفائه ، وكالسلك إذا انتُقى جوهره وأُجيد فى انتقائه » . وقد ختمه ابن حبيب بفصلين بديعين فى الحكم والمواعظ ، ودائما يوشِّى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره .

---

(١) القداح : السهام

(٢) الوعل : ماعز الجبل الوحشى

(٣) العرباض : البعير الضخم

(٤) شائلة : رافعة ذنبها

(٥) صائلة : واثبة جائلة

(٦) حاكمها : ربانها

(٧) برم الحبل ضد نقضه والاستعارة واضحة

(٨) القاموس : البحر ويريد هنا لجة العظيم

(٩) الفلك : السفينة

(١٠) الأوتاد : الجبال

(١١) ناجر : أشد أشهر الصيف حرارة

(١٢) أى نبت عن أماكنها فى الصدور فبلغت الحلاقم ، والآية كناية عن شدة ما أصاب القلوب من الفزع

(١٣) الجارية : السفينة

(هـ) فاكهة[١] الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عربشاه أحمد بن محمد الدمشقى الحنفى ، ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيا ، حتى كانت طامَّة تيمور ومحاصرته لدمشق ونهب جنوده التتار لها وإشعالهم النيران فيها ، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول ، ومنها رحلتْ إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور ، واستوطنها ابن عربشاه مدة . وحُبِّبت الرحلة ولقاء الشيوخ إليه ، فطاف بكثير من البلدان وأخذ عن علمائها وأدبّائها ، واستقر فى الأناضول أو آسيا الصغرى عند السلطان العثمانى محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاث التى كان يحسنها : العربية والفارسية والتركية ، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى الذى أتم تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة ، ويقال إن عدد حكاياته كان يزيد على ألفى حكاية . وعاد بعد وفاة هذا السلطان العثمانى إلى الشام وأقام بحلب ، وخلص حينئذ للدرس والتصنيف . وهاجر إلى القاهرة فى عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) ومر بنا فى الفصل الثانى أنه كتب له سيرة ، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة . ومر أيضا أنه كتب سيرة لتيمور سماها عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، وهى مسجوعة ، وطبعت مرارا . وكان يحسن النظم والنثر ويجيد الكتابة -كما أسلفنا- فى العربية والفارسية والتركية ، وصنف فى الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوفى سماه « مرزبان نامه » طُبع قديما ، وعنه نقل كتابه « فاكهة الخلفاء » نثرا مسجوعا . وتوفى بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة .

وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » يشتمل على حكايات كثيرة ، وهى موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبى المحاسن حسان يرويها عن الحكيم « حبيب » ، وهو الابن الصغير للملك ، ترك خمسة إخوة تملك أحدهم وأطاعه إخوته ، ثم دب الحسد فى نفوسهم ، فرأى أخوهم الصغير « حبيب » اعتزالهم ، فاستأذن أخاه الملك فى العزلة وذكر له أنه يعتزم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة ، فاستصوب رأيه غير أن وزيرا له شككه فى مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة ، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أوكذبه . فجمع الملك

(١) طبع هذا الكتاب فى مصر مرارا وانظر فى ابن عربشاه النجوم الزاهرة ٥٤٩/١٥ والضوء اللامع للسخاوى ١٢٦/٢ وكذلك كتابه التبر المسبوك ص ٣٢٥ وشذرات الذهب ٢٨٠/٧ والبدر الطالع ١٠٩/١ ومقدمة كتابه : « فاكهة الخلفاء »

أعيان الدولة وعلماءها وفضلاءها وأخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه فى أسلوب قصصى مسجوع بديع ، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة . والباب الأول فى ذكر ملك العرب ، ومعه أربع قصص : قصة الضحاك الملك الفارسى الأسطورى القديم ، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التى حكمت طبرستان وجرجان فى القرن الرابع الهجرى وقَتْل أعوانه له ، وقصة بهرام جور الملك الساسانى الذى كان مشهورا بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التى رآها وسرعان ماصادته – كما يقول ابن عرب شاه – بلحظها المكسور فأمسى قلبه وهو فى يدها مأسور وما كان من اقترانه بها ، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مأدبة لذئب فقدم الحمار مأدبة للكلاب . والباب الثانى فى وصايا ملك العجم وفيه قصص طريفة منها قصة تحكى ماجرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الخاتل . والباب الثالث فى قصة خاقان الأتراك مع ختنه أو صهره الزاهد شيخ النساك . والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعفاريت . وقصص هذه الأبواب جميعا تدور حول السيرة الحميدة للحكام وماينبغى أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق الذميمة ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان مايأمل ، ويأمن مايحذر .

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطير على طريقة كليلة ودمنة ، وقد أشار إلى ذلك المؤلف فى مقدمة كتابه قائلا إن الحكمة إذا قيلت على ألسنة الوحوش وماهو غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيار وسائر الهوام مالت إليها الأسماع ورغبت فى مطالعتها الطباع ، لأن المألوف منها اقتراف الشرور والافتراس ونقص المعرفة والفطنة فإذا أسندت إليها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ، وتلقتها الصدور بالانشراح ، ونفوس الناس بالارتياح . وتتخلل هذه الأبواب جميعا قصص بديعة ، وكثير منها فارسى الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه فى الماء والتقام بطة له وحزنه عليه ورجوعه إليه . وذكر فى الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذى رآه يغرس فى بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عنائه وتعبه فى زرع غرسه ونصَبه . وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكز خان الذى طمَّ العالم بالفساد ، وأهلك العباد والبلاد .

والكتاب زاخر بدقائق الحكمة والفطنة التى تهذب النفوس والتى تعود على الناس بالتهذيب فى معاملتهم والعدل فى حُكمهم والكسب فى معاشهم والعمل الصالح لمعادهم . ويلحُّ الكتاب على

أن المال الذى فى خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فينبغى أن يُنْفَق فى مصالحها وحوائجها ، وهو فى يد الحاكم أمانة ، وصرفه فى غير وجهه خيانة . ويرسم الكتاب دائما لقارئه الأخلاق الحميدة والشمائل الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه مع رفق ولين للمساكين ، ومع صلابة فى الدين . وفى كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المعينة على الرشاد فى الحياة ، مع الاستضاءة من حين إلى حين بالآيات القرآنية . والكتاب مسجوع ، غير أن لغته واضحة وقلما يكون فيها لفظ غريب . وقصصه رائعة ، وحرى أن تعرض على الناشئة مع إخلائها مما جاء فى بعضها من ألفاظ مفحشة أونابية . ولانشك فى أن ابن عرب شاه جلب فيها من الأقاصيص خير ماقرأه فى الفارسية والعربية من قصص الملوك والحكام وعِلْيَةِ الناس وصعاليكهم . ولابد أنه أضاف إلى ذلك بعض القصص من خياله ، وقد رأى أن يحاكى كليلة ودمنة بقصص كثيرة ، كما أسلفنا . والقصص جميعا تكتظ بالحكم على شاكلة ماقرأه فى كتاب سلوان المطاع فى عدوان الأتباع الذى ألممنا به فى حديثنا عن الجزيرة العربية ، وقد ذكر ذلك صراحة فى مقدمته للكتاب ، وحِكَمه كحكم هذا الكتاب تتردد بين الشعر والنثر .

وفى الحق أنه كتاب بالغ الروعة بما يعلِّم من شئون السياسة والحكم وبما يهدى إليه من البصر بالحياة ومافيها من فضائل تكتسب ، ورذائل تجتنب ، وما أروع الحكمه التى أجراها على لسان بعض الملوك فى قوله لأبنائه ناصحا : « يابنىَّ اكتسبوا العلم والفضل وادَّخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جمالا » .

خاتمة

١

تحدثنا عن مصر فى القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربى فيها وفى الشام فى عصر الدول والإمارات الذى يمتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث . وبدأنا حديثنا بعرض التاريخ السياسى لمصر منذ فتح العرب لها وبيان ماتعاقب عليها من حكم الولاة زمن الدولتين الأموية والعباسية ، وحكم الدولتين الطولونية والإخشيدية ثم الدول الفاطمية والأيوبية والمماليك مع بيان الدور الذى نهضت به مصر فى سحق الصليبيين والتتار ، ثم ما كان من محنتها بالحكم العثمانى . وكان يتوزع مجتمعها ، كغيره من مجتمعات البلدان الإسلامية – ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية هى طبقة الحكام وكبار الإقطاعيين والتجار . وطبقة وسطى وتشمل العلماء . وطبقة دنيا وتشمل الصناع والفلاحين وصغار التجار . وكان بجوار هاتين الطبقتين أهل الذمة وخاصة من القبط ورقيق كثير . وكانت مصر طوال العصر تنعم برخاء أعدَّها لانتعاش واسع فى الصناعة والتجارة وكثرة الأعياد فيها الإسلامية والقبطية . وقد حمل إليها الفاطميون المذهب الإسماعيلى الغالى فى عقيدته الشيعية ، وظلت مصر منصرفة عن هذا المذهب لاعتدال فى مزاجها وأنها تعْزف عن التطرف وظلت تقبل طوال العصر على الزهد والتصوف وازدهرا بها فى عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية وكثرت زوايا التصوف وخانقاهاته وطرقه وأعلامه وأتباعه .

وكانت تجرى فى مصر من قديم بجانب نهر النيل جداول كثيرة للثقافة والمعرفة التطبيقية فى الزراعة والهندسة والطب ، وظلت هذه الروح العلمية فى مصر ناشطة طوال عهد البطالمة والرومان . ولم تلبث جذوتها أن اتقدت فى الحقب الإسلامية الأولى ، فإذا المغرب يأخذ عنها قراءة ورش للذكر الحكيم وتظل منتشرة به إلى اليوم ، وإذا هى ترعى مذهبان فقهيان كبيران وتنشرهما فى أقطار العالم الإسلامى ، وهما مذهبا مالك والشافعى . ويضع مؤرخها ابن هشام السيرة النبوية العطرة . وينفذ متصوفها الكبير ذو النون المصرى إلى وضع أسس التصوف الإسلامى . ويؤسس الفاطميون دار العلم ، وكانت جامعة كبرى مزودة بمكتبة نفيسة . ويُكثر فيها صلاح الدين وأسرته الأيوبية من إنشاء المدارس العلمية : الفقهية وغير الفقهية ، ويصنع

صنيعهم المماليك ، وكانت المساجد والجوامع تشترك فى نشر الثقافة . وتصبح مصر موئلا لعلماء العالم الإسلامى شرقا وغربا وخاصة بعد غزو المغول لبغداد وخروج المسلمين من صقلية والأندلس ، وأيضا تصبح حامية للثقافة الإسلامية والعربية . وفى كل مجال يلقانا علماؤها فى الفلسفه وعلوم الاوائل من الرياضيات والطبيعيات والطب والجغرافيا . وتنهض فيها علوم اللغة والنحو منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، وتصبح لها مدرسة نحوية يلمع فيها غير نحوى كبير منذ الدولة الأيوبية ، وحتى فى زمن العثمانيين . ويكثر التأليف فى البلاغة والبديع والنقد منذ ابن وكيع التنيسى فى القرن الرابع الهجرى ، وتزدهر بها علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه فى مختلف مذاهبه الكبرى وعلم الكلام . ويتكاثر العلماء الأعلام فى كل هذه العلوم . وتنشط كتابة التاريخ نشاطا واسعا : السيرة النبوية الذكية والتاريخ العام وتاريخ مصر ودولها وتاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية وتاريخ الرجال والعلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء .

وتأخذ مصر فى التعرب منذ الفتح الإسلامى ، ويدخل كثير من أبنائها فى الإسلام ، وحتى القبط أو من بقى منهم على دينه المسيحى يأخذون فى التعرب ، ويتم تعربهم فى القرن الثالث الهجرى . ويتصل فى مصر نشاط للشعر ، ويظل هذا النشاط محدودا زمن بنى أمية ، ونزلها –وزارها– بعض الشعراء من نجد والحجاز والعراق ، ويتسع نشاط الشعر قليلا زمن ولاتها من العباسيين ، وينزلها أبو نواس وأبو تمام . ويطرد هذا النشاط فى النمو زمن الدولتين الطولونية والإخشيدية ، ويأخذ فى الازدهار زمن الدولة الفاطمية ، ويفرد الثعالبى فى اليتيمة وتتمتها والباخرزى فى دُمْيَة القَصْر قسما خاصا بشعرائها فى القرن الرابع وشطر من القرن الخامس . ويطَّرد لمصر هذا الازدهار بقية حكم الفاطميين وطوال حكم الدولتين الأيوبية والمملوكية ، ويسجل العماد الأصبهانى فى القسم الخاص بمصر فى خريدته شطرا كبيرا منه يصور مدى ما كان بها فى القرن السادس من نهضة شعرية ، وتكثر الدواوين المطبوعة فى عصرنا لشعرائها . ويتكاثر النظم فى الشعر الدورى والرباعيات والموشحات ويشتهر بالنظم فيها العزَازِىّ وابن الوكيل الدمياطى . كما يتكاثر استخدام الألوان البديعية . وفى كل زمن ومع كل دولة نلتقى بشعراء المديح ، وفى مقدمتهم المهذب بن الزبير وابن قلاقس وابن سناء الملك وابن نباتة وعبدالله الشبراوى ، ويصادفنا كثيرون من شعراء المراثى والشكوى من أمثال على بن النضر وعلى بن عرام وابن النقيب : الحسن بن شاور وعبدالله الإدكاوِى ، ونلتقى بشعراء الدعوة الإسماعيلية يتقدمهم ابن هانئ الأندلسى والمؤيد فى الدين الشيرازى وظافر الحداد الإسكندرى .

وتتكاثر طوائف الشعراء ، وأول من نلتقى بهم شعراء الغزل وقد بثوا فيه حنينا ووجدا ملتاعا وشغفا ظامئا ، مما أعدَّ لضرب من الشعر الوجدانى الملىء بلواعج الشوق والتضرع والاستعطاف واللهفة واللوعة على نحو مانقرأ عند ابن النبيه والبهاء زهير وابن مطروح وبرهان الدين القيراطى ونور الدين الغُسْلى . ويتغنى الشعراء بمفاخرهم وبأهاج فردية واجتماعية ، على نحو مانجد عند تميم ابن المعز وطلائع بن رُزّيك وابن الذّروى وأحمد بن عبد الدائم وحسن البدرى الحجازى . وتعمقهم الشعور بجمال الطبيعة المنبثة فى النيل وضفافه ووديانه ورياضه ، ونعموا بمجالس لهو ممتعة فى المتنزهات والأديرة ، مما نجده ماثلا عند ابن وكيع التنيسى والشريف العقيلى وابن قادوس وعبد الباقى الإسحاقى .

وتغنَّى شعراء الزهد والتصوف للشعب مشاعره الدينية مما يتصل بالتقشف والحب الإلهى والمديح النبوى على نحو مانجد عند ابن الكيزانى وابن الفارض والبوصيرى ومحمد بن أبى الحسن البكرى . ومحبة المصريين للفكاهة والنادرة مشهورة ، ممانراه ماثلا على ألسنة كثيرين من الشعراء مثل ابن مكنسة والجزار والسراج الوراق وابن دانيال ومسرحياته الفكهة وعامر الأنبوطى . وينزع نفر من الشعراء إلى التعبير فى أشعارهم بلغة الحياة اليومية ، مما أداهم إلى استخدام الأزجال والمواليا بكثرة على نحو مايلقانا عند إبراهيم المعمار وابن سودون .

وتنشط مصر فى الكتابة الديوانية منذ عهد ابن طولون ، ويتوالى عشرات من كتَّاب الدواوين منذ الدولة الفاطمية أمثال ابن الصيرفى والقاضى الفاضل ومحيى الدين بن عبد الظاهر ، وابن فضل الله العمرى . وتتكاثر الرسائل الشخصية بين الأدباء ويبرع فيها ابن أبى الشخباء وابن مماتى وفخر الدين بن مكانس . وتُعْنى طائفة من الكتاب بصنع مقامات تُبْنَىَ أحيانا على الشحاذة الأدبية مثل مقامات الحريرى ، وفى الأكثر تستقلّ عنها مفضية إلى قصص فكه أو وعظ أو بعض مسائل علمية ، وقد تكون حوارا بين بعض الحيوانات أو بين بعض الأزهار ، وقد يراد بها إلى الهجاء على نحو مانقرأ عند ابن أبى حجلة والقلقشندى والسيوطى والشهاب الخفاجى . وتلقانا مواعظ وابتهالات كثيرة ، ومن أروعها مانقرؤه عند أبى الحسن الشاذلى وابن عطاء الله السكندرى وأحمد الدردير . وكثرت كتب النوادر التى تعبر عن روح مصر القصيصة الفكهة مثل كتاب المكافأة وأخبار سيبويه المصرى والفاشوش فى حكم قراقوش . وبالمثل كثرت كتب السير والقصص الشعبية مثل سيرة عنتر والسيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة .

٢

وفى القسم الثانى من هذا الجزء تحدثنا عن الشام وتاريخها الأدبى فى هذا العصر وبدأنا حديثنا عنها بالكلام عن فتح العرب لها مع إلمامة موجزة بتاريخها القديم وبيان حياتها السياسية زمن الدولة الأموية وأيام الولاة العباسيين ، وفى عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية وأيام الحمدانيين ومن تداولها أو تداول أجزاء منها زمن الدولة الفاطمية ، وقد ظلت معها فلسطين ، وظلت دمشق أيضا معها حقبة من الزمن . واستولى بنو مرداس على حلب واستولى السلاجقة منهم عليها كما استولوا على دمشق . ونزل الصليبيون الشام وأسسوا بها ممالكهم واستخلص منهم عماد الدين زنكى الرُّها وخلفه ابنه نور الدين على حلب وأنزل بالصليبيين ضربات قاصمة وضم إليه دمشق . ولم تلبث الشام جميعها أن انضوت بعده تحت لواء صلاح الدين ، وحطم حَملة الصليب فى حطين وغير حطين واستنقذ منهم بيت المقدس وأكثر بلدان الشام . وظل يدفعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه خلفاؤه الأيوبيون ثم المماليك وسَحقهم للمغول فى عَين جالوت مشهور . وكانت مصر والشام فى أيام المماليك دولة واحدة إلى أن نزلتها جحافل العثمانيين وأصبحت ولاية عثمانية . وقد عرضنا المجتمع فى الشام وحياته الاقتصادية والاجتماعية وما كان ينعم به من الرخاء إلى أن حكمه العثمانيون حكما ظالما غاشما فانتكست فيه الزراعة والصناعة والتجارة . ومن قديم أخذت تتكاثر فى الشام فرق الشيعة من نصيرية ودروز وإمامية وإسماعيلية نزارية وهم المسمون بالفداوية والحشاشين . وقد مضت الشام تُعنَى بالزهد والتصوف وكثرت فيها — مثل مصر — الزوايا والخانقاهات والطرق الصوفية والدراويش .

وكان بالشام قبل الإسلام تراث يونانى علمى وفلسفى ، وقد نفذت بمجرد دخولها فى الإسلام إلى حركة علمية خصبة ، وتكثر فى بلدانها المدارس منذ أيام السلاجقة كثرة مفرطة ، وكان طبيعيا أن تشارك فى حركة الترجمة للتراث اليونانى وفى العناية بعلوم الأوائل من رياضيات وطبيعيات وطب وجغرافيا بالإضافة إلى ماعُنيت به من علوم اللغة والنحو والبلاغة النقد . ومنذ القرن الرابع الهجرى يتألق اسم كثيرين من نحاتها أمثال الزجاجى وابن خالويه وابن يعيش ونزيلها ابن مالك الأندلسى ، ولعل لغويا عربيا لم يبلغ من الشهرة مابلغه أبو العلاء المعرى ، ونلتقى بحلقة نقدية بحلب زمن سيف الدولة ، وتوالى فيها النقاد من أبى العلاء إلى يوسف البديعى أيام العثمانيين ،

وتنشط بها الدارسات البلاغية منذ ابن سنان الخفاجي إلى عبدالغني النابلسى فى بديعيتيه المشهورتين . وتُعنى الشام بالقراءات ويشتهر بها فى القرن الثانى الهجرى أحد القراء السبعة ، ويتصل فيها هذا النشاط من أيامه إلى أيام ابن الجزرى فى القرن التاسع الهجرى . وينشط بها التفسير وتؤلف فيه كتب نفيسة ، كما تنشط دراسة الحديث النبوى ويتكاثر حفاظه النابهون ، وبالمثل تنشط دراسة المذاهب الفقهية الكبرى ، ويشتهر فيها غير إمام مثل النووى الشافعي وابن تيمية الحنبلى ، وتكون الغلبة بين الكلاميين للمذهب الأشعرى . وتنشط الكتابة التاريخية بجميع صورها من سيرة مفردة إلى تاريخ الدول أو دولة معينة وتاريخ المدن وخاصة دمشق وحلب والتراجم أو كتب الرجال والطبقات فى مختلف العلوم والمذاهب والأدب والأدباء .

وكانت الشام قد أخذت فى التعرب قبل الإسلام لا على الحدود بينها وبين الجزيرة العربية حيث كان يقيم النبط والغساسنة بعدهم فحسب . بل أيضا فى داخل البلاد الشامية ، وفيها وعلى الحدود كان العرب يحيون حياة الروم البيزنطيين ، وكانوا يدينون بدينهم المسيحى . وكان ذلك سببا قويا فى أن يتم تعرب الشام سريعا بعد الفتح الإسلامى ، وأن تصبح العربية لسان سكانها جميعا مسلمين ومسيحيين . ولم يكن للشام نشاط يذكر قبل الإسلام فى الشعر ، حتى إذا هاجرت إليها القبائل القيسية النجدية المشتهرة بالشعر أخذ يكثر على ألسنة أهلها ، وطوال عصر بنى أمية كان يفد عليها شعراء الحجاز ونجد والعراق وشارك غير خليفة فى نظم الشعر مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويظلّ للشام نشاطها فى الشعر طوال عصر الولاة والدولتين الطولونية والإخشيدية إذ يلقانا للشام غير شاعر نابه مثل أبى تمام والبحترى . وينشط الشعر فى القرن الرابع وخاصة فى حلب وبلاط سيف الدولة ، على نحو مايصور ذلك الثعالبى فى اليتيمة .

ويظل نشاط الشعر مطردا ويخص العماد الأصبهانى شعراء الشام فى القرن السادس بثلاثة أجزاء من كتابه الخريدة . وتزخر كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام فى القرن السابع الهجرى ومابعده . ويكثر الشعر الدورى والرباعيات كما تكثر الموشحات ويشتهر بالنظم فيها أَيْدُمر المحيوى والمحّار الحلبى ، وبالمثل البديعيات والتعقيدات ، ويروج سوق المديح رواجا كبيرا على نحو ما نجد عند ابن الخياط وابن القيسرانى وابن الساعاتى والشهاب محمود ومنجك . وتدبَّج صفحات زاهية لشعراء الحكمة والفلسفة من مثل أبى العلاء المعرى ومنصور بن مسلم وابن الجزرى . ويكثر شعراء التشيع من مثل كشاجم وابن حيُّوس وبهاء الدين العاملى .

ونلتقى بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول طائفة تلقانا منهم شعراء الغزل وما يثير فى النفوس من

العواطف والخواطر والمشاعر على نحو مانقرأ عند عبدالمحسن الصورى وابن منير والشاب الظريف وحسن البوريني . وكان شعراء كثيرون يحاولون أن يملئوا الدنيا ضجيجا بمفاخرهم وبسالتهم فى سحق الأعداء وبفضائلهم أو بهجائهم ومايرسمون لبعض الشخصيات من صور ذميمة ، على نحو مانقرأ عند أبى فراس الحمدانى وأسامة بن منقذ وابن النحاس من جهة وعند عرقلة وابن عنين من جهة ثانية . ونلتقى بكثيرين من شعراء المراثى والشكوى مثل ابن سنان الخفاجى والغزى وفتيان الشاغورى ومصطفى البابى . وكثيرون من الشعراء كانوا يتغنون بجمال الطبيعة ويشغفون بمجالس اللهو فى المتنزهات والأديرة على نحو مانقرأ عند الوأواء الدمشقى وابن قُسَيْم الحمويّ ومجير الدين بن تميم وابن النقيب . وشعراء كثيرون كانوا يتغنون بمشاعر الشعب الدينية ومايتصل بها من الزهد والتصوف والمدائح النبوية مثل عبدالعزيز الأنصارى ومحمد بن سوَّار وعفيف الدين التلمسانى وعبدالغنى النابلسى . وبجانب ذلك كان هناك شعراء شعبيون قصروا شعرهم على الأزجال ولغتها اليومية مثل أبى العلاء بن مقاتل .

وتُعْنَى الشام بالرسائل الديوانية وخاصة فى عهد الدولتين : الأيوبية والمملوكية على نحو مانجد عند العماد الأصبهانى الناثر الشاعر والصفديّ وابن حجة الحموى وكانا أيضا ناثرين شاعرين ، وتكثر الرسائل الشخصية ، واشتهر أبو العلاء بكثرة ماأملى من رسائله . وتلقانا بعده رسائل شخصية كثيرة كان يكتبها الأدباء للشكر وللتهنئة أو للعتاب أو للاستعطاف أو للعزاء وكثيرا ماكانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرائى والغَزِّى ، ودائما تلقانا هذه الرسائل الشخصية حتى نهاية العصر وربما قصدوا بها إلى المهارة الأدبية أو إلى الهزل . وتكثر المقامات . ولاتعتمد على أديب متسول كما كانت عند الحريرى ، إذ تُعْنَى بالوصف أو بالوعظ أو المفاخرة بين بعض الأزهار ، وكأنما أصبحت تخوض فى موضوعات متنوعة على نحو ما نجد عند ابن الوردى . وتكثر المواعظ وفى مقدمتها خطب ابن نباته وكتاب الفصول والغايات لأبى العلاء وخطبة القدس بعد فتحه لمحيى الدين بن الزكى وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسى . وتتكاثر فى العصر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل مثل رسالة الغفران ورسالة النسر والبلبل وكتاب الاعتبار وكتاب نسيم الصَّبا وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة

القسم الثانى : الشام

صفحة

صفحة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

* سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة .
الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

* العصر الجاهلى
الطبعة العاشرة ٤٣٦ صفحة
* العصر الإسلامى
الطبعة التاسعة ٤٦١ صفحة
* العصر العباسى الأول
الطبعة الثامنة ٥٧٦ صفحة
* العصر العباسى الثانى
الطبعة الرابعة ٦٥٧ صفحة
* عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية – العراق – إيران
الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

* الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة
* الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة
* التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة
* دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة
* شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة الثامنة ٢٨٦ صفحة
* الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة السابعة ٣٠٨ صفحات
* البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الرابعة ٢٣٢ صفحة
* الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
* البحث الأدبى : طبيعته ، ومناهجه ، أصوله ، مصادره
الطبعة الخامسة ٢٧٨ صفحة
* الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الأولى ٢٥٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

* فى النقد الأدبى
الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة
* فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

* البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة
* المدارس النحوية
الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة
* تجديد النحو
الطبعة الأولى ٢٨٤ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

* ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

* الرثاء

الطبعة الثالثة ١٠٨ صفحات

* المقامة

الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

* النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

* الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

* الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

* المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثانى - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

* كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

* كتاب الردّ على النحاة لابن مضاء القرطبى

الطبعة الثانية ١٤٩ صفحة

* كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

فى سلسلة اقرأ

* العقاد

الطبعة الثالثة

* البطولة فى الشعر العربى

الطبعة الثانية

* الفكاهة فى مصر

الطبعة الثانية

* معى

الطبعة الثانية

رقم الإيداع		١٩٨٤ / ٣٩٠٦
الترقيم الدولى	٩٧٧–٠٢–٠٩٣١–٧	ISBN

١ / ٨٢ / ٦٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

Tārīkh Al-Adab Al-'Arabī

6

Dr. SHAWQĪ ḌAYF

'Aṣr
Al Dewal wa'l Imārāt



DAR AL-MAAREF